

شارل. أندري جوليان

(1)

تاريخ افريقيا الشمالية

تعريب:

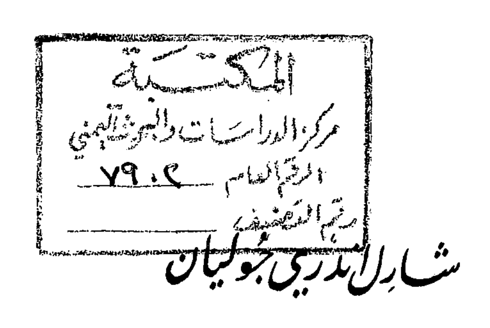
محمد مزالي

البشير بن سلامة

الدار التونسية للنشر







شارل أندري جوليان

تاريخ إفريقيا الشمالية

تونس ، الجزائر ، المغرب الأقصى
من البدء إلى الفتح الإسلامي 647 م.

تعريب

محمد مزالي — البشير بن سلامة

النشرة الرابعة

الدار التونسية للنشر

مقدمة الناشر

مهما قدمنا لقرائنا من أعمال تاريخية تتناول ماضينا المجيد ، فنحن لا نوفي حضارتنا حقها من الدراسة والتقييم ، ذلك ان عمليات التشويه والتحريف التي قام بها (هواة التاريخ) من المستعمرين والمبشرين ازاء امجادنا ما تزال آثارها الى اليوم • وقليله هي الاقلام التي أخلصت لعلمها ونظرت للتاريخ نظرة موضوعية تستكشف الحقائق وتستنطق الاحداث وتتحسس لنصرة القضايا التحريرية العادلة تستشف طموح الشعوب وتتحسس تحركاتها • من بين هذه الاقلام وفي طليعتها نضع المؤرخ الفرنسي شارل اندري جوليان الذي كرس جزءا كبيرا من حياته لابراز تاريخ المغرب العربي ومتابعة احداثه وتسجيل نضاله وتطوره، فقد عايش شعب المغرب العربي وكان شاهدا على سعي هذا المغرب نحو استقلاله ثم نحو تقدمه •

لكل هذه الاسباب ، تولى الاستاذان محمد مزالي والبشير بن سلامة منذ سنوات تعريب هذا الكتاب وسارعنا بنشره وها نحن نصدره للمرة الثالثة ، فقد قدم المعربان للقارئ العربي وثيقة شاملة وصادقة عن كفاح المغرب وماضيه ومكوناته الحضارية ، بل وعبقريته في شتى المجالات السياسية والفكرية • وكان هذا التعريب في مستوى النص الاصلي لما يحرك الرجلين من ايمان باصالة ماضيهما ورسالته الخالدة •

أملنا أن يلقي هذا العمل الاضواء على تاريخنا ويزيح عنه غشاوة الافكار المسبقة والاحكام الجاهزة وان يفتح الابواب في وجه الباحثين لمزيد الاستقصاء والدرس والتمحيص ، خاصة وان هذه الطبعة تصدر في نفس الوقت مع طبعة ثانية للجزء الثاني للكتاب حتى يكون عملنا متكاملا متتابعا خدمة للتاريخ والثقافة في هذه الربوع .

الدار التونسية للنشر

توطئة

إنّ الطبعة الأولى لكتاب تاريخ إفريقيا الشمالية الذي ظهر منذ عشرين سنة بالضبط كانت عرضا سياسيّا واقتصاديّا واجتماعيّا لتاريخ هذه البلاد منذ عصور ما قبل التاريخ بالاستناد إلى البحوث الحديثة ولكن كان يعوزه التوسّع في المعلومات . وكانت "البيبلوغرافيا" النقديّة تسمح للباحثين بتحقيق رغبتهم في المزيد من التقصّي . ومنذ بروز الكتاب تعدّدت الدراسات وأصبح من المتعذّر أن يعاد طبعه دون تجديد وزيادة . وما كان يمكن لي أن أواجه بمفردي مثل هذا العمل الذي أصبح أوسع من أن يحويه سفر واحد . إنّ الكتاب الجديد لتاريخ إفريقيا الشمالية سيحتوي على ثلاثة أجزاء ، كل جزء مستقل بذاته : يبتدىء الأوّل من فجر التاريخ إلى الفتح العربيّ (647 بعد المسيح) والثاني من الفتح العربيّ إلى احتلال الفرنسيّين لمدينة الجزائر (1830) والثالث من احتلال مدينة الجزائر إلى (1951). وسأضطلع بتحرير هذا الجزء الأخير بأكمله . أمّا الجزءان الاوّلان فقد أسندا إلى أستاذين من كلّية الجزائر قاما ببحوث قيّمة هما "كرستيان كورتوا" و"روجيه لوتورنو". (Christian Courtois et Roger Le Tourneau)

وقد نشر السيد "كورتوا" عدّة مقالات في تاريخ إفريقيا القديم أكّدت سعة معارفه وطرافة نظريّاته ، وهو بصدد إعداد دراسة عن إفريقيا في عصر الوندال ستكون مساهمة فعّالة في معرفة فترة لا يزال يكتنفها الغموض .

إنّ نظرته لتاريخ إفريقيا لا توافق نظرتي ، ومن باب أحرى أحكامه في هذا الصدد . ولذلك فإنّي أعترف له بالجميل لأنّه حافظ على نفس التأليف الأصليّ واتّجاهه العقلي بالرغم

من أنّه لم يكن موافقا للآراء المعبّر عنها فيه . غير أنّه عدّل من صيغتها كلّما ظهر له أنّها تجاوزت القدر الشرعيّ من الحرّيّة التي يخوّلها تأويل الأحداث في المرحلة الحاليّة من معلوماتنا . والاختلاف في الاتّجاه يتجلّى مثلا في أول صفحة (310) فالأسطر الستّة الأولى حول محق الكفّار بدافع القضاء قضاء أنجع على الكفر هي لي . أمّا الجملة التوفيقية والمعدلة فهي للسيد "كورتوا" (Courtois)

وعلاوة على التغييرات الجزئيّة فإنّ السيّد "كورتوا" أدخل تحويرا عميقا على الصفحات الخاصّة بالمدنيّة القرطاجيّة ، وكاد يعيد كتابة الباب الخاصّ بعصور ما قبل التاريخ . ثم أضاف على سبيل الخاتمة بابا جديدا في "بقاء رومة" وأخيرا فإنّه راجع مراجعة تامّة "البيبلوغرفيا" التي يقدّر الباحث صحّتها وغزارتها حقّ قدرهما . ومن سوء الحظّ أن كان تحرّيه البالغ لجانب الأمانة والدقة قد قام حائلا دون استغلاله نتائج بحوثه في الاحتلال الوندالي التى يروم عرضها على امتحان النقد قبل نشرها في كتاب علميّ . وقد تفضّل بعض أصدقائه بمراجعة بعض أبواب هذا السفر وإبداء ملاحظاتهم في مسائل هم عمدة فيها وهم "جان دي بوا وليونال بالو" (Lionel Balout et Jean Despois) الأستاذان بكليّة الآداب بالجزائر العاصمة فيما يخصّ الجغرافيا وعصور ما قبل التاريخ ، و"ب . سنتاس" (P. Cintas) متفقّد الآثار بالبلاد التونسيّة و"ه. ج. فلوم" (H. G. Pflaum) الأستاذ الباحث بالمركز القوميّ للبحث العلميّ فيما يخصّ قرطاج ورومة. ونحن نشكرهم شكرا جزيلا . وإذ حالت قساوة الظروف دون استبقاء صور الطبعة الأولى فإنّ الأسفار الجديدة تشمل على كلّ حال الخرائط والرسوم التي يتوقّف عليها فهم النصّ .

"شارل أندري جوليان"

الباب الأوّل

بلاد البربر

١ - الموطن . ٢ - المغرب الاقصى والجزائر وتونس
٣ - الاطار الجغرافي لتاريخ افريقيا الشمالية



I ـ الـوطـن

1 ـ ضبط لتسمية البلاد وسكّانها

إنّ **لإفريقيا الشماليّة** ، المشتملة على المغرب الأقصى والجزائر وتونس ، وحدة جغرافية اقتضتها مجموعة جبال الأطلس ، ووحدة جنسية لكونها آهلة بالبربر ولكن ليس لها تسمية مضبوطة .

فقد أطلق اليونان اسم **ليبيا** على القسم الشماليّ من إفريقيا الآهل بالبيض ، وقابلوا بينه وبين الصحراء بلاد الاحابش السود . وقبل أن يكون للفظة «إفريقية» (Africa) نفس المدلول الذي كان لكلمة ليبيا استعملتها رومة للدلالة على المقاطعة الموافقة لشمال شرقيّ البلاد التونسيّة . ثم أصبحت كلمتا **إفريقيا وليبيا** فيما بعد تعنيان القارة كلّها .

وسمّى العرب النازحون من الشرق كلّ البلاد الكائنة غربيّ مصر **جزيرة المغرب** وبصفة أدقّ سمّوا أقصى غربيي المغرب أو Far-West **المغرب الأقصى** .

وعرفت القرون الوسطى والعصور الحديثة **الدول البربريّة** أو بلاد البرابرة .

وفي القرن التاسع عشر وضع الجغرافيّون عبارة **إفريقيا الصغرى** ليدلّوا على وجود قارّة صغيرة واقعة ضمن قارة كبيرة وعبارة **بلاد الاطلس** لتأكيد أهمّيّة تشكّل الصخور Tectonique وكثيرا ما تجري على الألسن

لفظة **إفريقيا الشمالية الفرنسية** وذلك من الوجهة السياسية . وفي بعض الأحيان تستعمل لفظة **شمال إفريقي** ، وفي هذا مزج جديد لا طائل تحته بين **إفريقيا الشماليّة** و**الشمال الإفريقي** .

وأفضل تسمية هي : **بلاد البربر** إذ أنّ سكّانها يكاد يكون جميعهم من البربر دون سواهم ، وإن وجد بربر خارج حدودها .

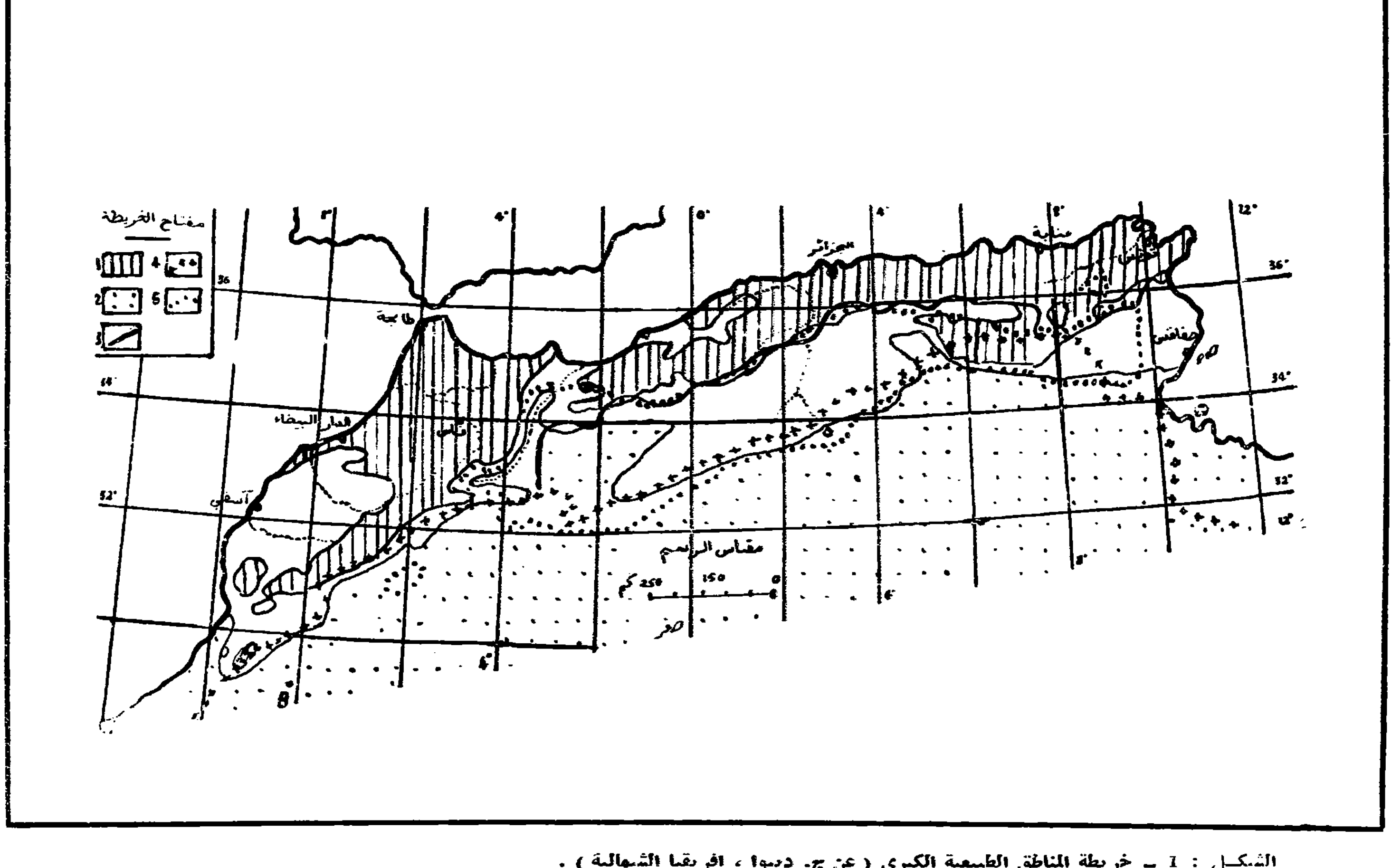
ولم يطلق البربر على أنفسهم هذا الاسم ، بل أخذوه من دون أن يروموا استعماله عن الرومان الذين كانوا يعتبرونهم أجانب عن حضارتهم وينعتونهم بالهمج (Barbari) ومنه استعمل العرب كلمة برابر وبرابرة (مفرده بربري) .

وأطلق اليونان على جميع أهالي إفريقيا الشماليّة أو **الليبيّين** اسم قوم كانوا يعيشون بين خليج سيرتا (Syrte) والنيل وهم **اللوبيون** (Les Lebou) واستعمل القرطاجيّون والعبرانيّون نفس التسمية . وكذلك الرومان فقد عمّموا اسم "**الموريّون**" على جميع سكّان بلاد البربر وكان في الأوّل خاصّا بسكان شمال المغرب الأقصى .

واليوم لا يعرف عامّة النّاس أنّ المغرب الأقصى والجزائر وتونس آهلة بالبربر ، ويعمدون إلى تسميتهم عربا . أمّا الأهالي فكثيرا ما كانوا يسمّون أنفسهم **أمازيغ** (مؤنثه تمازيغت، وجمعه أمازيغن) ، ومعناه "الرجال الأحرار" ، ثمّ "النبلاء" . وقد أطلق هذا الاسم على قبائل عديدة قبيل الاحتلال الروماني .

2 ــ كتلة من المرتفعات

إنّ "جزيرة المغرب" شكلها رباعيّ الأضلاع ممتدّ الأطراف مشتمل على مرتفعات تحوطها مياه المحيط أو البحر المتوسّط ورمال الصحراء . وإذا كان من المحتمل أن يكون أهلها أتيح لهم في مطلع عصور ما قبل التاريخ الاتّصال بأوروبا عن طريق الجسور التي كانت تربط إلى ذلك الوقت بين القارّتين ، كما أتيح لهم الاتّصال بإفريقيا الوسطى عبر الصحراء التي لم تكن يومئذ على وحشتها الحالية ، فإنّ



الشكل : 1 ـ خريطة المناطق الطبيعية الكبرى (عن ج. ديبوا ، افريقيا الشمالية) .
1) : مناطق يزيد مجموع المطر السنوى فيها عن 400 ممم . 2) : مناطق يقل مجموع المطر السنوى فيها عن 200 ممم .
3) : حد تقسيم المياه بين المناطق ذات التصريف البحرى والاخرى ذات التصريف الداخلى . 4) : الحد الشمالى للسفح الصحراوى . 5) : الحد الشمالى والجنوبى لسباسب الحلفاء .

انعزالهم في جزيرتهم طوال عصور التاريخ جعل تسرّب التأثيرات الخارجية إليهم أعسر ، وإن كان أشدّ عنفا ، ومكّن التقاليد المحليّة من الصمود في وجه طوارق الأزمان .

وأضلاع هذا الشكل الأربعة متفاوتة الأبعاد . فبين رأس سبارتيل (Spartel) والوطن القبلي «1550 كلم» تقريبا ، وبين رأس النون وقابس «2 200 كلم». وبين رأس سبارتيل ورأس النون أكثر من ألف كلم. وبين الوطن القبلي وقابس أقلّ من «400 كلم». وتبلغ المساحة الكاملة «930 000 كلم مربّع.» وإذا استثنينا غربيّ المغرب الأقصى وشرقيّ تونس ، فإنّ الأراضي المنخفضة قليلة، لكنّنا نجد بالخصوص سهولا مرتفعة ونجادا محاطة بكتل جبليّة مستديرة الشكل تندمج في مجموعة الأطلس . ويرجّح أنّ هذا الاسم بربريّ الأصل إلاّ أنّ شكله الحاليّ مستعار من جغرافيّة المغرب الأقصى القديمة وقد أطلقه المعاصرون على مجموع جبال إفريقيا الشماليّة

إنّ أكثر من نصف بلاد البربر يتجاور ارتفاعها «800 م.» وإذا كان معدّل الارتفاع في تونس لا يتجاوز «300 م.» تقريبا ، فإنّه يبلغ في المغرب الأقصى «800 م.»، وفي الجزائر «900» م. إلاّ أنّ تلك الأرقام «وهذا هو المهمّ» ليست ناتجة عن وجود جبال شاهقة إلاّ بنسبة ضئيلة — فإذا بلغ ارتفاع جبل "تبقال" بالمغرب الأقصى «4 165 م.» ، فإنّ أعلى قمّة في الجزائر وهي قمّة جبل شلية (أوراس) لا تبلغ إلاّ «2 328 م.» ، وأعلى قمّة في تونس وهي قمّة جبل الشعانبي لا تبلغ إلاّ «1 590 م.» فقط .ومعنى هذا أنّ بلاد البربر تختصّ بأن ارتفاع جبالها يتراوح بين «800» و «1 200 م.»

وفي بعض الأحيان يوجد تضارب عنيف بين هذه التضاريس وبين السهول . فجبال الأطلس في متيجة تشرف من علوّ «1 400 م.» على مدينة البليدة الصغيرة الواقعة في أسفلها ، ويزداد هذا التفاوت في المستويات بين قمم جرجرة ووادي الصومام الذي يحاذيها جنوبا ، وبين الأطلس وحوز مرّاكش وبين الريف والبحر . ولكنّ الجبل في أكثر الأحيان ليس إلاّ الدرجة العليا من جملة درجات متساوقة فيبدو متواضعا في الأفق الذي يسدّه .

وهكذا نجد في جبال عمور جبل سيدي عقبة (700 1 م.) يعلو سهل عفلو (426 1 م.) وكذلك الأمر بالنسبة للجبال التي تحاذي شمالا منخفض الهدنة (890 1 م.) (ارتفاع جبل بو طالب 890 1 م.) فهي تعلو نجاد سطيف (ارتفاع سطيف 074 1 م.) .

إنّ تضاريس بلاد البربر أثّرت بخاصيتّين جوهريّتين على مصير البلاد تأثيرا حاسما في أكثر الأحيان . فتجزّؤ البلاد إلى أقسام مستقلّة الواحد عن الآخر لم يكن خطرا على الوحدة السياسيّة خلال العصور فقط ، بل إنّه ساعد في بلاد القبائل أو الأوراس مثلا على تكوين مجموعات بشريّة لها خصائصها الذاتيّة . ولا تزال إلى اليوم صامدة أمام اكتساح التاريخ . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإنّ الاتّجاه العامّ للجبال حسب خطوط العرض جعل الاتّصال بين الشرق والغرب سهلا نسبيّا إلاّ أنّه عدّد من الحواجز ما بين الساحل وداخل البلاد . وإذا استثنينا ساحل المغرب الأقصى المواجه للمحيط الأطلسي وشرقيّ تونس فإنّ المغرب لا يكشف إلاّ عن وجه عدائي . وكان سالسطس (Salluste) لاحظ ذلك بقوله : بحر عارم اللجّ عديم المرافىء (حروب يوغرطه، الفصل 17) . mare saevum, importuosum. (Bell. Ing XVII) ولذلك يتّضح بسهولة لماذا دخل جميع الغازين بلاد البربر من أحد طرفيها . ولم يشذّ عن هذه القاعدة إلاّ الغزو الفرنسيّ . ولعلّ في ذلك تفسيرا لبعض ما لاقاه هذا الغزو من صعوبات .

3 ــ طور تكوين تضاريس القشرة الأرضية (orogénie)

إنّ هيئة الأرض المتّصفة في آن واحد بالتكتّل والتجزّؤ والتي أثّرت أيّما تأثير على تاريخ بلاد البربر يتّضح أمرها بالرجوع إلى أطوار تكوّن التضاريس . وبما أنّها بقيت طويلا مجرّد حاشية للقارّة الإفريقية فقد خضعت لما خضعت له هذه القارّة من تغييرات . ففي الحقبة الأوّلية (l'ère primaire) وحتى قبلها غيّرت سلسلة من الحركات والالتواءات عقبتها أطوار من الانجراف (érosion) ملامح هذه الأرض تدريجيّا وعندما انخفض "شبه سهل مابعد العهد الهرسيني(pénéplaine posthercynienne)

وغمرته الميـــاه ظهر موقع بلاد البربر طوال العصور الثانوية شبيهـا ببحر متوسّط تخلّلته جزر وأغوار عميقـة . وامتدّ من الغرب إلى الشرق على حاشية القارّة الإفريقية التي بقي معظمهـا خارج المياه .

ويمتدّ طور الترسّب الطويل الذي تلا ذلك إلى أوائل العصور الثلاثيّة وأثناءهـا برزت بلاد البربر بروزا ، وأصبحت تحت تبعية أوروبا الجيولوجيّة إن صحّ هذا القول : ذلك أنّه في الوقت الذي انبثقت فيه جبال "البيرينيه" (Pyrénées) ظهـرت مجموعة من الجبال كأنّهـا نوع من "ما قبل الأطلس" معقّـدة تراكبت فيهـا الرواسب (sédiments) الثانوية ، والثلاثية التي التوت في عنف متفاوت القـوة مع بقايا "شبه سهل ما بعد العهد الهرسيني" وقد ارتفعت هذه البقايا في نفس الوقت الذي ارتفعت فيه المجروفـــات .

وهذا الالتواء الأوّل نتج عنه تحوّل البحر الأبيض المتوسّط إلى الشمال . ولكنّ هذه المجموعة من الطبقات الأرضيّـة التي اعترتهـا التواءات أخرى لم تظهر في شكلها الحالي إلاّ في النصف الثاني من الحقبة الثلاثية ، في نفس الوقت الذي تكوّنت فيه جبال الألب (Alpes) ، وتغيّر من ملامحهـا ما تغيّر . ولم تنفصل إفريقيا عن صقليّـة إلاّ في الحقبة الرباعيّة حيث وقع خسوف في الأرض فصل بين الريف وسيرانيفادا(Sierra Névada) وتولّـد عنه مضيق جبل طارق . إلاّ أنّـه يجب أن نلاحظ أن تضاريس إفريقيا الشماليّة تطوّرت منذ أن تكوّنت بتأثير عاملين أساسيّين : أوّلا الانجراف الذي فتّتها بقوّة تتفاوت شدة وضعفا بسبب اختلاف مستويات البحر خاصّـة . وثانيا النّقـل (remblaiement) الذي غشّاهـا في الجهات المحرومة من مصبّ يصلها بالبحر ، وخاصّـة في السهول المرتفعة الممتدّة بين الأطلسين .

4 — المنـــاخ

إنّ سلطان المناخ على البشر أشدّ سطوة وأكثر تقلّبـا من مفعول التضاريس التي تتأثّـر به في شتّى مظاهرهـا . ذلك أنّ الصيف الذي كثيرا ما يكون باكرا وخاصة كلّمـا توغّلنا في الجنوب يتبع الشتاء والشتاء يتبع الصيف في طفرة ومن دون تدرّج . ومعدّل درجات الحرارة على

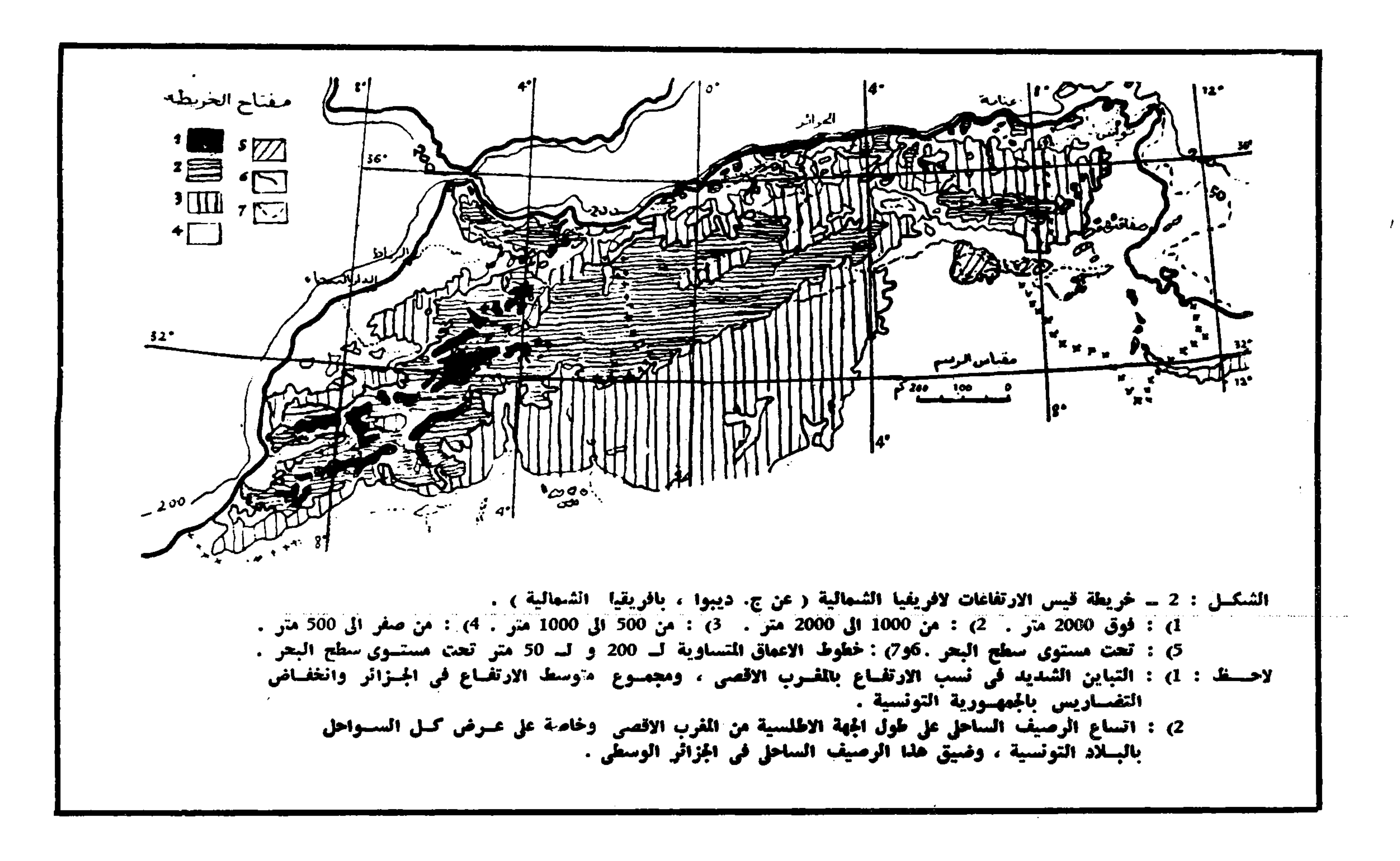
السواحل لا يفوق 25 درجة. لكنّ حرّ النهار يبقى منتشرا في الليل الثقيل . والهواء الرطب كثيرا ما يعترض الآفاق كأنّه بخار رماديّ . والشتاء معتدل ، نيرّ بصفة عامّة ، ولكنّه لا يزوّد البشر بما يحتاجون إليه من طاقة ونشاط كما هو الشأن في أوروبّا . والتضادّ يقوى إذا توغّلنا في داخل البلاد ، ففي الصيف يطول النهار ويجفّ الهواء وتعلو درجات الحرارة بسرعة وكثيرا ما يبلغ حدّها الأقصى 40 وحتّى 45 درجة .

غير أنّ كثرة الأمطار هي الظاهرة الرئيسيّة من الناحية البشريّة : فإذا انفتح المغرب الأقصى انفتاحا إلى التأثيرات الأطلسيّة فإنّ وضعيّة التضاريس سواء بالجزائر أم بتونس تمكّن رقعة ساحليّة ضيّقة من التمتّع بكميّة كافية من المطر . وبصفة عامّة فإنّ الخطّ الذي يجمع بين الأماكن التي يبلغ نزول المطر فيها 400 مليمتر مواز للساحل الشمالي بمسافة تتراوح بين 100 و 200 كلم ولا تتجاوز هذا الرقم إلاّ نادرا . وبعد هذا الخطّ تبدأ السباسب (Steppes) .

ولو أنّ ماء المطر كماء النيل يُعد هديّة تقدّمها باستمرار آلهة قارّة لهان الأمر ولكنّ كمّيّة الأمطار كثيرا ما تتحوّل بسهولة إلى ثلاثة أضعافها من سنة إلى أخرى وأحيانا بنسبة أكبر . ولقد سجّلت في "جلفة" كمّيّة الأمطار النازلة سنة 1913 فكانت 99 مليمترا مقابل 775 في سنة 1893 . ولا شكّ أنّ الأمطار تتوزّع تقريبا على أيّام الشتاء دون سواه . ولكنّها تتهاطل بغزارة أحيانا في بضع ساعات فسرعان ما تتضخّم الوديان بالمياه الممزوجة بالطين بعد الجفاف . فلا غرابة إذن أن يبلغ إنتاج الحبوب في المغرب الأقصى 38 مليون قنطار سنة 1941 وألاّ يتجاوز 4 ملايين ونصف قنطار في سنة 1945 . وحتى بركة الأولياء فكثيرا ما تبقى عاجزة أمام بخل السماء .

5 — الحيـــاة النباتيـــة

إنّ ما عليه الحياة النباتيّة اليوم في إفريقيا الشمالية نتيجة لظروف طبيعيّة ولعمل البشر كما هو الشأن في جميع البلدان العريقة في العمران . ويصعب في كثير من الأحيان أن نعرف بالضبط إلى أيّ حدّ أثّر أحد



الشكـل : 2 ـ خريطة قيس الارتفاعات لافريقيا الشمالية (عن ج. ديبوا ، بافريقيا الشمالية) .
1) : فوق 2000 متر . 2) : من 1000 الى 2000 متر . 3) : من 500 الى 1000 متر . 4) : من صفر الى 500 متر .
5) : تحت مستوى سطح البحر . 6و7) : خطوط الاعماق المتساوية لـ 200 و لـ 50 متر تحت مستـوى سطح البحر .

لاحـظ : 1) : التباين الشديد في نسب الارتفاع بالمغرب الاقصى ، ومجموع متوسط الارتفاع في الجزائر وانخفاض التضاريس بالجمهورية التونسية .
2) : اتساع الرصيف الساحلي على طول الجهة الاطلسية من المغرب الاقصى وخاصة على عرض كل السواحل بالبلاد التونسية ، وضيق هذا الرصيف الساحلي في الجزائر الوسطى .

هذه العوامل على الأخرى طوال آلاف السنين الأخيرة . إلاّ أنّه مهما بلغ بنا الخيال لا يمكن أن نتصوّر أنّ هذا العمل قدر على تغيير معطيات التضاريس والمناخ تغييرا جوهريّا .

والذي لا شكّ فيه على ما يظهر هو أنّ مساحة الغابات التي تبلغ اليوم 6 ملايين من الهكتارات تقريبا تناقصت خلال عصور التاريخ . فانتشار المزروعات وحاجة البشر إلى الوقود أو إلى موادّ البناء وما قضمته أسنان الحيوانات ، كلّ ذلك يعلّل تعليلا كافيا تناقصيا الغابات ولو بصورة نسبيّة . وفي كثير من الأحيان حلّت فعلا النباتات الشوكيّة والأراضي القاحلة محلّ الغابة . فلا مبالاة البدو الرحّل ولا عداؤهم قضيا على الأشجار وخاصّة الزياتين في جهات تشهد آثار المعاصر على وجودها فيها قديما . إلاّ أنّ إفريقيا الشمالية رغم ذلك لم تكن أبدا منطقة غابات فسيحة على الأقل في عصور التاريخ وباستثناء بعض الجبال . ومع ذلك فإنّه يجب ألاّ ننسى أنّ تزايدا في نموّ الغابات قد حصل هنا وهناك منذ عصور التاريخ القديمة .

والواقع أنّ السباسب التي قد يكون تفوّقها ازداد شيئا ما خلال آلاف السنين الأخيرة هي التي تلعب الدور الفعّال في التطوّر البشري لإفريقيا الشماليّة . فهي تفرض ظروفا حياتيّة تختلف بحسب تفاوت أهمّيّتها . فتارة تبعد البشر أو تكاد ، وطورا تضطرّهم إلى حياة غير مستقرّة تُوَقّعُها حركة الفصول ، وأخرى تتطلّب صبرا وقناعة عندما تتوالى السنوات العجاف . وهي تحتلّ على الأقل نصف مساحة إفريقيا الشماليّة بالرغم عن ارتفاع البلاد الذي من شأنه أن يعمل على التنقيص منها .

غير أنّه يجب أن نتحرّى عندما نشاهد اليوم مناظر البلاد فنظنّ أنّها على حالتها تلك منذ القدم . فسهل "متيجة" كان جزء منه منذ ما لا يزيد كثيرا عن القرن مغمورا بالمستنقعات ، ويجب أن نتخيّل أرضا جرداء عند الوقوف أمام زياتين صفاقس . وحتى بعض أنواع النبات فإنّها لم تكن موجودة في المناظر الطبيعيّة القديمة فشجرة الكلتوس (eucalyptus) الاستراليّة الأصل دخلت البلاد في القرن التاسع عشر وشجرة كسيروفيل (xérophile) الاميريكيّة أدخلها الإسبان منذ ثلاث أو أربعمائة سنة

ولكن حصل العكس في مواطن أخرى إذ لا شكّ أنّ بعض المدن الرومانيّة مثل «تيمقـاد» (Timgad) أو «جميلـة» (Djemila) لم تشيّد أبنيتها الحيّة في مثل هذا الأفق العاري القاحل حيث نشهد اليوم أطلالها شاخصـة .

6 ـ أقسام إفريقيا الشماليّة الكبرى

إنّ إفريقيا الشماليّـة ليست كتلـة منسجمـة بالرغم عن الظروف العامّة التي اقتضت تضامنها المادّي والبشري . ذلك أنّنـا نميّـز اليوم بين المغرب الأقصى والجزائر وتونس ، وهي أقطار لا تطابق حدودها مطابقـة تامة الحدود التي تفرضها الجغرافيا . وليس معنى ذلك أنّ هذا التمييز لا مبرّر له ، فقد برزت خلال آلاف السنين الثلاثة شخصيّة الجزأين المتطرّفين من شمال إفريقيا واندرجت بينهما الشخصيّـة السلبية «إن صحّ هذا التعبير» ، التي نسمّيها الجزائر . ولا شكّ أنّ خصائص هذه الأقطار تنمحي في بعض الأحيان ضمن ما تشيّده السياسة من صروح تندمج فيها هذه الخصائص وتشوّه ، إلاّ أنّ انبعاثها من جديد يقيم الدليل على ديمومتها التي تعلّلها الجغرافيا في مظاهرها الأساسيّة تعليلا مرضيا على سبيل الإجمال.

II ـ المغرب الأقصى والجزائر وتونس

1 ـ المغرب الاقصى

إنّ وجه الشبه بين تضاريس غربيّ المغرب الأقصى وإسبانيا كبير جدّا . فلو أمكن كما تخيّل ذلك "تيوبالـد فيشير" (Théobald Fischer) ضمّ تضاريس البلادين بعضها إلى بعض حول المفصّلة المتمثّلة في مضيق جبل طارق لطابق الريف سلسلة جبال البيتيس (Cordillère Bétique) ولقابلت مهاد تازة وسبو والغرب الأندلس ، ولطابق أيضا الأطلس المتوسّط الهضاب الإسبانيّة والأطلس الأعلى جبال "البيرينيه" . وعلى العكس من ذلك يبدو المغرب مولّيا ظهره للجزائر ، ويلتحم القطران في القسم الشرقيّ من المغرب الأقصى الذي لا يخضع لسلطة الجزائر الإداريّة ولكنّه تابع لها جغرافيا باعتباره امتدادا **لسهولها العليا** .

أمّا شمال المغرب الأقصى فهو منطقة جبليّة أقلّ ارتفاعا من الأطلس إلاّ أنّ قربها من البحر المتوسّط ووجود الأمهاد المحيطة بها أبرزا هذا الارتفاع . ومن هناك تبدو في وضوح سلسلة جبليّة مقوّسة طولها 300 كلم تجويفها متّجه نحو الشمال وتسمّى الريف . ثم إنّ بوغاز جبل طارق الذي هو مضيق قديم غمرته مياه البحر وآخر ممرّ لغربيّ الأطلس ، لا يفصل المجموعة الجبليّة الشمال إفريقيّة والسلسلة الجبليّة الأوروبيّة إلاّ بفاصل ضيّق لأنّ سلسلة "جبال البيتيس" امتداد للريف المغربيّ في الأندلس — وفي جنوب الريف تتتابع الجبال في شكل دائرات منتظمة ذات مركز واحد ، وفي جبل زرهون ينتصب ضريح مؤسّس الدولة الإدريسيّة .

وتمتدّ السهول والنّجاد بين المحيط الأطلسيّ وسفح الأطلس . فالنّجاد في الشمال بين طنجة وفاس في الجهة المسمّاة بالغرب أقل بروزا وكذلك الهضاب تحيط بالسهول المتكوّنة من المجروفات . والقسم الغربيّ من الطريق الرئيسيّة التي تشقّ البلاد عرضا والتي منها وصلت جيوش الغزاة الآتية من الشرق إلى الساحل الأطلسيّ يتكوّن من سهول نهر سبو وأحد روافده من اليمين وهو واد أناون (Innaouen)

وإذا كان لفاس ومكناس شأن كبير فالفضل يرجع إلى حدّ بعيد لكونهما واقعتين في مفترق طرق رئيسيّة . أمّا تازة فهي تشرف على الممرّ الواصل بين جبال الريف والأطلس المتوسّط .

وفي الجنوب تبدو في جلاء النّجاد المنضّدة بين المحيط الأطلسي والأطلس في ما يسمّى "بالميزتا" المغربية وهي هضبة ضخمة عتيقة مغطّاة برواسب الحقبة الثانوية أو الثلاثية المتراكمة تراكما أفقيّا .

ومن جهة المحيط يبدأ هذا النجد (horst) بسهل ساحلي يقل عرض رقعته حينا قرب الرباط و"مغادور" ويتّسع حينا آخر فيبلغ 80 كلم في "دوكالة" ثم يرتفع تدريجيّا إلى أن يصبح نجدا ممتدّ الأطراف خصبا يبلغ 700 م ويشقّه خوْر (Cañon) أم الربيع .

وتشتمل مجموعة الأطلس على سلسلة جبليّة يبلغ طولها 700 كلم تسمّى الأطلس الأصليّ ، متّجهة من الجنوب الغربيّ إلى الشمال الشرقيّ . ومنها يتفرّع الأطلس المتوسّط نحو الشمال الشرقيّ ، ونجاد الأطلس الجنوبيّ نحو الجنوب الغربيّ ، إلاّ أنّ العلاقات بين هذه الأجزاء الثلاثة لا تزال غير مضبوطة على ما يظهر . فجبال الأطلس الأعلى ذات الصخور البلّوريّة غربا حيث تشرف على سهل مرّاكش والسوس من ارتفاع 3 000 أو 4 000 م تتّخذ شرق القلاوة حيث تتضاءل أهمّيّة الصخور القديمة ، أشكالا ضخمة ذات مظهر "جوراسي" . والأطلس المتوسّط جبل مرتفع متكوّن من صخور جيرية جوراسيّة ويغيب شبه سهل المنطقة الجبليّة الوسطى ذو الصخور البلّوريّة في الشرق تحت نجدي : "بني مطير وبني مڤيلد" ، وأرضهما رغاب ذات أخاديد ، وقد تناثرت حُمَم البراكين الحديثة على هذه المنطقة الجبليّة الوسطى ، ممّا جعل المنظر الطبيعي شبيها بصفحة القمر متميّزا بذلك . ولا تبدو آثار الالتواء فعلا إلاّ على الحاشية الجنوبيّة والشرقيّة . أمّا جنوب الأطلس فهو أقرب إلى "الميزيتا" منه إلى سلسلة جبليّة . وتشرف آخر جبالها الدنيا في الجنوب الغربيّ على المحيط الأطلسيّ قرب رأس النون . ويصل بركان «سروا» الكبير جنوب الأطلس بالأطلس الأعلى وعند سفحه يتّحد سهل السوس . أمّا نجدا "الدراع" "تافلالت" فإنّهما امتداد له نحو الشرق .

ومن خصائص تضاريس المغرب الأقصى وجود مجموعتين من السهول تمتدّ الأولى من مصبّ "تنسيفت" إلى "الملوية" ، وتحتوي على سهل ما دون الأطلسيّ وسهول نهر سبو (الغرب) ومَعْبَر "تازة" وسهول الجهة السفلى من نهر الملوية الذي هو الطريق الكبرى الرابطة بين المحيط الأطلسي والجزائر رغم بعض العقبات . أمّا المجموعة الثانية فتتركّب من سهل حوز الذي يشقّه نهر "تنسيفت" ومن سهل "تادلا" الكبير ، والمواصلات ميسورة بين السهلين .

على أنّ المغرب الأقصى يدين أيضا بجانب من طرافته لمناخه ، وما تضفيه عليه هيئة التضاريس من شَبَه بمسرح مدرّج يسمح للمؤثّرات الأطلسية بالتوغّل داخل البلاد . ولا شكّ أنّ الجفاف يشتدّ كثيرا جنوب

أمّ الربيع، إلاّ أنّـه من النادر ألاّ تبلغ درجة الأمطار النازلة شمال الأطلس 200 مليمتـرا . ولم يفت الجغرافيين منذ العصور القديمة أن عبّـروا عن دهشتهم من ظاهرة مثيرة حقّـا للعجب في إفريقيا الشماليّة وهي وجود وديان تجري فيها المياه فقد لاحظ "بلين" (Pline) ذلك قائلا : "السبو هذا النهر الرّائع" .

2 ــ الجزائر

لقد تبيّن الجغرافيّون بالجزائر منذ أوائل الاحتلال ثلاث مناطق موازية تقريبا للساحل وهي : منطقة التلّ الأطلسي ومنطقة النّجاد العليا أو بعبارة أصحّ السهول العليا ، ومنطقة الأطلس الصحراويّ . ولم يلاحظوا إلاّ مؤخّـرا اتّصال الأطلسين في شرقيّ الجزائر .

ولهاتين السلسلتين الجبليّتين خصائص متباينة . ففي التلّ الأطلسيّ تبدو بالأرْض التواءات عنيفة وتقلّبات عظيمة . أمّا الأطلس الصحراويّ فالالتواءات به أبسط بكثير وفيها تدرّج رفيق نحو الصحراء . أمّا السهول العليا فليست منبسطة إلاّ نادرا على أنّ تضاريسها تختفي تحت كتلة مهولة من رواسب التلّ الأطلسي التي غمرتها .

وقد أكّد الجغرافيون أنّـه يمكن تقسيم الجزائر إلى جزائر غربيّة ، وجزائر شرقيّة وأعاروا هذا التقسيم أهمّيّة أبلغ .

فلا يظهر التقسيم المألوف من نجـاد عليا وأطْلَسَيْن يحيطان بها إلاّ في غربيّ الجزائر . وهناك مجموعتان من السهول : فمن جهة غور الشليف الساحليّ المتّصل غربا بسهل سيغ وسبخة وهران، ومن جهة أخرى غور أوسط فيه سهول بسكرة وسيدي بلعبّاس وتلمسان ، وقد أحاطت به جبال التلّ الأطلسيّ الصغيرة وهي : جبال ساحل وهران والظهرة شمالا وجنوبا ، وجبل تسالة وخاصّة جبل الورشنيس وهو أعظم جبل يحفّ بوادي شليف في غربيّ الجزائر .

أما الأحواض الموجودة في النّجاد العليا التي لم تنحدر مياهها لا إلى البحر ولا إلى الصحراء فهي منغلقة ذات تضاريس على نمط واحد تركد فيها الشطوط الكبيرة .

وتوجد بالجنوب جبال الأطلس الصحراوي القصيرة المتوالية وهي : جبال قصور وجبال عمور وجبال أولاد نايل التي تتتابع من المغرب الأقصى إلى الهدنة بصورة منتظمة ، والتي تفصل بينها ممرّات واسعة تسهل معها المواصلات وتشرف هذه الجبال من ارتفاع قدره ألف متر على الصحراء التي تختفي تحت كتلة من الرواسب المنجرفة من سفوحها .

وتفقد الجزائر في قسمها الشرقي هندستها العاديّة . ويبدو الساحل في غالب الأحيان رائعا ، ولكنّه لا يتيسّر فيه العمران . ولا توجد السهول الساحليّة إلاّ في طرفي هذه الجهة : ففي الغرب نجد سهل "متيجة" وراء هضاب ساحل مدينة الجزائر ، ونجد في الشرق السهل المعروف بسهل عنّابة الممتدّ على شكل هلال في جنوب جبل هدوق Edough . وكثيرا ما تنتصب الجبال على حافة البحر بالذات كجبل القبائل العظيم المتّصل جنوبا بأعالي جرجرة الناتئة الكلسية أو إذا اتّجهنا أكثر نحو الشرق جبال بابور والمجموعة المتقطّعة الممتدّة من رأس " بوقرعون" إلى رأس الحديد (Cap de fer)

وليست جبال التلّ وراء المنطقة الساحليّة من واد شلف إلاّ عناصر متوالية إلى الحدود التونسيّة فاقدة لكلّ المميّزات لا يتجاوز البتّة ارتفاع قممها 1 800 م تتخلّلها أحيانا سهول صغيرة وهي بقايا أحواض عتيقة جفّت مياهها (سهل الميلية وقالمة) وتضطرّ طرق المواصلات إلى المرور من معابر (Cluses) ضيّقة غائرة مثل مخانق بلسترو أو تلك التي يسمّيها الأهالي البيبان والتي شهّرتها حملة "دوق أورليان" سنة 1839 تحت اسم (أبواب الحديد) (Portes de fer) .

وتنتهي التلال العليا عند غور الهدنة والجبال الصغيرة للأطلسين المتّصلين بعضهما ببعض بالقرب من خطّ الزوال بعنابة تخفّف من حدّة التلال العليا القسنطينية وتكسبها شيئا من التنوّع .

أمّا الأطلس الصحراوي الذي تحافظ قممه الناتئة الحادّة على إتّجاهها من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي فلا يقلّ وعورة عن التلّ الأطلسي . ويمثّل جبل أوراس حزمة مرتفعة ، ذات أوضاع عادية حيث توجد أعلى

قمّة في الجزائر (جبل شلية 328 2 م) وتتخلّله أودية ضيّقة . وينفتح بين الأوراس من جهة ، و"بلازمة" وجبال زيبان من جهة أخرى ممرّ إلى الجنوب من وادي « واد قنطرة » الواصل بين التّلال العليا والصحراء .

3 — تونس

إنّ الحدود الحالية بين الجزائر وتونس لا تطابق الفاصل الطبيعي الذي يمكن تبيّنه إجمالا غربي هذه الحدود بالقرب من خطّ الزوال المارّ بعنابة حيث كانت حدود نوميديا الرومانية تقريبا .

والمنطقة الجبلية التي هي امتداد لجبال الأطلس الصحراويّ تشقّ البلاد متّجهة من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي ثم تنحدر شيئا فشيئا حتى هضاب شبه جزيرة الوطن القبلي وهي عبارة عن منتهى عظم الفارة (Epiphyse continentale) وهذه المنطقة التي تعرف بالسلسلة الظهرية تفصل في الواقع بين تونسين : تونس التلّ وتونس السباسب .

وفي التّل التونسي الذي هو امتداد طبيعي للتلّ الجزائري توجد جهتان جبليتان تحيطان شمالا وجنوبا بالسهول التي يشقّها واد مجردة وروافده. فنجد من جهة الجبال المشجّرة المتواضعة الارتفاع (يبلغ هذا الارتفاع 200 1 م فقط في القسم الغربي منها) ومنها جبال خمير ومقعد ، ومن جهة أخرى نجد جبالا متشابكة عارية ذات أشكال ضخمة ، وسهولا صغيرة تسمّى أحيانا التلّ العلوي . أمّا الجهات التي يشقّها واد مجردة فهي في واقع الأمر وحدات متمايزة . ويتّسع وادي مجردة شرقا قرب الخليج حيث استقرّت العاصمتان الكبريان للبلاد التونسية عبر التاريخ : أي قرطاج وتونس .

وتبدأ السباسب جنوب السلسلة الظهرية : فهناك السباسب العليا في الجهة الغربية من البلاد حيث تنتصب في الأفق الرتيب الجبال الكلسية العارية حتى جنوب قفصة ، ومنه تبدأ الصحراء . وهناك السباسب السفلى في الجهة الشرقية وهي سهول مترامية الأطراف تمتدّ من الجبال إلى البحر

على وتيرة واحدة ، ما عدا جهة سوسة (الساحل) حيث تذكّرك الهضاب بمنظر طبيعيّ شبيه بالتلّ .

وليس وجود هذه السهول أدعى إلى الملاحظة من وضعها . ذلك أنّها ، لسهولة المواصلات بينها ولموازاتها للبحر على غرار سهول المغرب الأقصى الجهة الوحيدة "المنفتحة" في إفريقيا الشمالية بالإضافة إلى السهول المغربية .

إلاّ أنّه بينما يتّجه المغرب **الأقصى** اتّجاها معاكسا لما ظلّ عليه تاريخ العالم حتى القرون الخمسة **الأخيرة** نرى تونس المتّصلة اتّصالا مباشرا بحوض البحر المتوسّط والبعيدة عن أوروبا بـ 140 كلم فحسب تتأثّر بمؤثّرات آتية من الشرق والغرب على التناوب وبنفس السهولة .

4 — ما وراء البلاد

ومهما ضبطنا الحدود الجغرافية لإفريقيا الشمالية فإنّ إطارها لم يفرض نفسه فرضا خلال التاريخ ومن يوم أن رسم الفيلان (Les Philènes) بتضحيتهم البطولية ، على ما ورد في الأسطورة ، الحدود الفاصلة بين قرطاج وقوريني (Cyrène) فإنّ إفريقيا تنتهي عند "سيرتا" العظمى ولا تتعدّاها . وقد تأكّدت تبعيّة بلاد طرابلس الشمالية للمناطق الموجودة غربا مرّات عديدة عبر العصور . وفعلا فإنّ سهول السباسب في الجنوب التونسي وراء مهاد الجريد هي نفسها التى تتواصل في منطقة لا يتجاوز عرضها 200 كلم مارّة بالجفارة على حافة البحر حتّى تنتهي مثلها إلى ساحل منبسط . أمّا في الجنوب فإنّ حاشية النّجاد الصحراوية هي نفسها التي تتكوّن منها جبال القصور والطنف الكلسي الذي يصلها بضواحي طرابلس والمعروف باسم **جبل** .

ومن جهة أخرى فإنّه يتعذّر عزل الصحراء عن إفريقيا الشمالية في بعض العهود على الأقلّ . وإذا اعتبر الأطلس الصحراوىّ حدّا جبليا تبدأ بعده نجاد **الحمادة** الصخرية العارية و مساحات «الرّق» الحجرية أو رمال «العرق» فإنّه لا يكون حدّا مناخيا وبالأحرى حدّا بشريّا . فأهل

الشمال هم الذين حقّقوا استعمار المزاب الرائع وبالعكس فإنّ قبيلة كـ(أولاد سعيد عتبة) النازحة من ورقلة إلى سرسو وهي التي تحيي مدّة أسابيع قليلة من كلّ سنة أرض زناتة القديمة . إلاّ أنّ ظاهرة تعايش حضر الواحات والرحّل التي تمتاز بهما الصحراء أيّ امتياز ليست أصالة بظاهرة صحراوية .

ذلك أنّ جانبا كبيرا من جنوب بلاد المغرب يعرف هذه الظاهرة . غير أنّ الخطّ الملتوي الصاعد أحيانا إلى التلّ والذي نرسم به على خرائطنا حدود البداوة لم تضبطه الطبيعة منذ الأزل على الأقلّ في تفاصيله وإنّها لمشكلة من أعوص مشاكل تاريخ المغرب أن نهتدي إلى تغيّرات هذا الخطّ .

III ـ الاطار الجغرافى لتاريخ افريقيا الشمالية

1 ـ بــلاد تابعة

إنّ ما عليه تضاريس بلاد البربر يسّر دائما للقادة العسكريين احتلال البلاد بسرعة عن طريق السهول المرتفعة المتسلسلة من سيرتا إلى المحيط الأطلسي ، ومن سوء الحظ فإنّ هذه الطريق الوحيدة طويلة وضيّقة أكثر ممّا يجب فهي تَغَصّ وتَنْسَدّ فتتعثّر حركة المرور فيها . وإذا بالغزو "وقد بدأ أحسن بدء" يبقى تخطيطا سريع الانهيار (أ. ف . ڤوتيه) (E. F. Gauthier) .

فالمغرب هذا البلد الذي يتكوّن القسم الآهل منه على حدّ تعبير أ. ف. ڤوتيه من "حاشية مديدة يبلغ طولها 3 000 كلم ولا يكاد يبلغ عرضها 150 كلم" مع "وضع من أدعى أوضاع العالم إلى السخرية" قد أعوزه طبعا مركز جغرافي تتجمّع حوله المقاطعات المختلفة . ومناطق الريف والسوس وخمير منعزلة عن الجهات المجاورة لها والأنهار التي قيل عنها في استعارة جريئته : إنّ الكثير منها "تجري ولا ماء" طيلة جزء من السنة هي طرق للمواصلات متواضعة في غالب الأحيان ليست

لها قيمة اقتصادية تذكر . ثم إن التجزّؤ الطبيعي ساعد على تكوين الخصائص الجهوية وأقرّ المتناقضات وحال دون اختلاط السكّان .

2 ـ المغرب الاقصى

ليس من الصعب أن نتبيّن إلى أي حدّ أثّرت جغرافية المغرب في تاريخه. وبالنسبة للمغرب الأقصى يكفي الركون الى ج. سليري(J. Célérier) الذي خصّ المسألة بدراسة شافية في "ذكرى هنري باسي" (Henri Basset)

ولئن لم يكن للحدود الطبيعية إلاّ قيمة نسبيّة فهناك مغرب أقصى متميّز بحدوده الجغرافية هو المغرب الأقصى الغربي الذي يكوّن "جهة طبيعية ذات شخصية واضحة المعالم أيّما وضوح" وبالرغم عمّا تصطدم به حركة المرور من عقبات بسبب المحيط الأطلسي والريف والأطلس والصحراء فإنّ المغرب الأقصى لم يبق في هذا الانعزال الموحش الذي يؤكّده الباحثون عادة : إنّ إرادة السلاطين خلال القرنين 18 و 19 هي التي أغلقت الحدود التي كانت مفتوحة تماما في عهدي الموحّدين وبني مرين . وقد تنازعت المغرب الأقصى في عصوره كلّها مؤثرات أوروبا وإفريقيا المتوسطيّة وإفريقيا المدارية .

إنّ المغرب الأقصى جزء لا يتجزّأ من الكتلة الإفريقية . لذلك فإنّ مؤثّرات الصحراء وحتى الغزوات المنطلقة منها طبعت تاريخه بالرغم عن العقبات الطبيعية . لكن المغرب الأقصى ليس عبدا للقارة الإفريقية . ففي إمكانه أن يتخلّص من هذه التبعية ، ويتّجه لا إلى المحيط الأطلسي ، بل على الأقل إلى البحر المتوسّط الذي يضيق على سواحله إلى حدّ يفرض معه جاذبية الأراضي الإسبانية التي تكتشفها الأنظار من هذه السواحل . وإذا شارك الساحل المغربي في العصور القديمة في نشاط البحر المتوسّط فإنّ تاريخه في القرون الوسطى بقي متّصلا وثيق الاتّصال بتاريخ إسبانيا ، ولم يدفع بالمغرب الأقصى من جديد إلى إفريقيا إلاّ بعد الغزو الإسباني (reconquista) فاضطرّ إلى الانطواء على نفسه ، خاصّة وأنّه كان عرضة لهجوم أعدائه في الدين من الضفّة

الأخرى . وهكذا لم يعد للمغرب الأقصى، وهو طريق الإسلام في غربيّ بلاد البربر، صلة بإسبانيا النصرانية . ولم يستفد حتى من الغزوات الشرقية التي كان يمكن أن يجني منها ثمارا، لقد كان المغرب الأقصى معبرا للفاتحين ، لا مستقرّا . فقد استوطن الدخلاء في المدن التي كانت لها حياة وحضارة مستقلّتان عن حياة القبائل وحضاراتها، ولم يكن للأرياف البربرية من معرفة بمجموعة المدن إلاّ ما كانت توفّره لها من نهب ثروات القصور والمنازل والأسواق .

إنّ التأثير المزدوج لإفريقيا والبحر المتوسّط يظهر في وضع المغرب الأقصى ومناخه اللّذين طبعا البشر فأثّرا في تاريخهم . والمنطقتان المتنافستان على مرّ الدهر أعني مملكتي فاس ومرّاكش ، تعبّران عمّا بين الشمال المتوسّطي والجنوب الإفريقي المستند إلى الواحات من تضارب . فقد قال «سلريي» : «يوجد بين الجبيلات والأطلس المتوسّط عتبة مرور ممتازة تزيد أهمّيتها لالتقاء نهرين غزيرين بأمّ الربيع وهما واد العبيد والتسوات ولقربها من مناطق تادلة والحوز والدير الخصبة وكثيرا ما شهدت مقاطع هذه الأنهار معارك دامية » .

وخلافا لما كان يجري في الجزائر فإنّ معالم دولة المغرب الأقصى لم تزل قائمة طيلة هذه المعارك المستمرّة . وقد صمد حضر شمال المغرب أو البدو الذين استقرّوا بالسهول ، أعنف صمود في وجه محاولات بدو الصحراء الذين كانت قد شلّت حركتهم عقبةُ الاطلس الكأداء. وتَمَكُّنُ الحضر من الاستقرار في السهول المنفتحة ساعدهم على بسط سلطانهم وسهّل عليهم فرض طاعتهم . لكنّ الجبال الوَعْرَة ــ بلاد الصبا ــ كانت خارجة عن سلطة "بلاد المخزن" . وقد وفّق البربر المعتصمون بالجبال في مقاومتهم لعزم سكّان السهول على تعريبهم منذ أن شرع في ذلك إدريس الأول في القرن الثامن وعاشوا دائما في حالة حصار ، ولم يمنعهم ذلك من أن ينزلوا من حين لآخر كُتَلا بشرية لا سبيل إلى صدّها يقودها مؤسّسو الإمبراطوريات . وإنّما تاريخ المغرب الأقصى في مختلف تقلّباته صراع لا يني بين الجبل والسهل .

وقد كانت للمغرب الأقصى غواصم سياسية أو ملكية تستجيب لحاجات معيّنة . فطنجة وهي ثغر إن لم نقل مستعمرة فينقيّة ، وأكبر مدينة في موريطانيا الغربية حتى ثورتها على الملك البربري "بوغود" كانت في العهد الروماني عاصمة موريطانيا الطنجيّة التي لم تشتمل إلاّ على جزء من شمال المغرب الأقصى . وسواء كانت تحت سلطان البرتغاليين أو الإسبان أو السلاطين أو خاضعة للنظام الدولي الذي لم تزل عليه إلى اليوم فإنّها استمدّت قيمتها من وضعها في مضيق جبل طارق في المكان الذي يتّسع فيه نحو المحيط الأطلسي . فلم تقم بدور عاصمة بقدر ما قامت بدور حارس الخطوط الأمامية بالنسبة للمغرب .

وكان لمدينتين أخريين : فاس ومرّاكش ، تاريخ أكثر إشعاعا . أمّا فاس التي أسّسها إدريس الأول وإدريس الثاني فقد ورثت الدور الذي كانت تقوم به وليلي (Volubilis) ولها فضل أكّده "أ. ف. ڤوتيه" : ففيها الماء الذي تحتاجه المدن الشرقية أيّما احتياج ، هذه المدن التي لايعرف أهلها كيف يجلبون الماء من بعيد ولا كيف يضمنون لمجموعة بشرية ما حاجتهم إلى الشراب . وهذا هو السبب الأصلي في ازدهارها . ولا يزال سكّان فاس إلى اليوم يحمون ثروتهم من أعمال الريّ التي يطالب بها معمّرو "السايس" . ثم إنّه يوجد فيها أيضا موادّ البناء .

وبالتالي ، فموقعها الوعر المساعد على حمايتها يستمدّ قيمته بالخصوص من كونه في مفترق الطرق التي تسيطر عليها وهي الموصلة إلى مرّاكش والرباط وطنجة وممرّ تازة . لذلك كان أسياد فاس هم دائما أسياد المغرب . ولم يتيسّر لأيّة مدينة مغربية أخرى أن تكون جماع الدولة المغربية كما تيسّر لمدينة فاس . لقد كانت في الواقع العاصمة السياسية والفكرية والدينية والاقتصادية . ويبدو مستقبلها التجاري اليوم لا حدّ له . وعلى بعد 60 كلم من فاس فقط في نفس هذه الجهة المحظوظة أسّس السلطان مولاي إسماعيل في أواخر القرن السابع عشر على أنقاض بلدة عتيقة مدينة مكناس مقرّا جديدا لملكه . وهذه المدينة المسيطرة على مفترق الطرق والغنيّة كجارتها بالعيون ومقاطع الحجارة قد تصبح في المستقبل "قطبَ الرّحى بالنسبة لقطارات المغرب الأقصى" على حدّ تعبير الماريشال ليوتي.

ولئن اتّخذ الشمال مدينة فاس عاصمة له ، فإنّ الجنوب جسّم طموحه وكبرياءه بإنشـــاء مرّاكش . وهذه المدينة التي أسّسها ابن تاشفين سنة 1 062 لتكون قاعدة تنطلق منها حملات المرابطين رجال الصحراء على البدع التي دخلت الإســـلام أصبحت عاصمة للدول التي بسطت نفوذها على أقصى الجنوب المغربي وظلّت ثغر الأطلس الأعلى المتحسّس أصداء الصحراء ، والمستودع الكبير للواحات والجبال . ولا شك أنّ دورها كمركز توزيع سيزداد أهمّية في المستقبل إلى حدّ أن أصبح تموينها اليوم بمثابة فريسة مغرية أخذت موانئ المحيط الأطلسي تتنازعها بعد. وستسيطر على شبكة من الطرق المؤدّية أولاها إلى أغادير مارّة بايمنتقوت وتزي نماشو وثانيتها نحو تارودانت مارّة بالغندافة وتيزنتست ، والثالثة نحو الذراع مارّة بالقلاوة وتزي نوتلوات" (ج سيليريي) وجعل الاحتلال الفرنسي من ميناء الدّار البيضاء ، وهو منفذ للشاوية ومركز تزوّد في طريق إفريقيــا الغربية ، العاصمة التجارية للمغرب الأقصى . كما جعل من الرباط التي أفَلَ نجمها بعد ازدهارها في عصر الموحّدين العاصمة الإداريّـــة ولكنّها بقيت رغم ذلك مدينة "المخزن" الوحيدة المتّصلة بالمحيط .

وقد كان للمغرب الأقصى عاصمتان كبيرتان متطرّفتان ولم تكن له أبدا عاصمة وسطى ، اللهم إلاّ مدينة أوداية الأسطوية والبلدة العظيمة الموجودة في تدلا والتي يروى أنّ المرابطين دمّروها . ولعلّه من الضروري كما بيّنه أ. ف. ڤوتيه (E. F. Gautier) أن تشاد بهذه البقاع في وادي أكبر نهر بالمغرب الأقصى وهو أمّ الربيع ، عاصمة المغرب الأقصى الحقيقيـــة .

3 ـ الجزائر وتونس

إذا أمكن أن نكتب تاريخا للمغرب الأقصى مستقلاّ بذاته فقد لا يمكن فصل الجزائر وتونس بعضهما عن بعض ، وهما قطران لا يوجد بينهما حواجز طبيعية ، وقد خضعا لنفس الضرورات .

وقد ألحّ أميل فليكس ڤوتيه (E.F. Gautier) تأكيدا بالغا منذ ما يزيد عن ربع القرن في خصوص التّضارب الظاهر من حيث الظروف التاريخية وأساليب العيش بين الجهتين اللتين يفصلهما ما سمّاه "سلسلة خطّ الدفاع" (Limes) أي القوس الجبلي العظيم الذي يكتنف الجزائر من الورشنيس إلى الأوراس . غير أنّه يتعذّر علينا «والحقّ يقال» أن نذهب مذهبه . ذلك أنّ بحثا أكثر دقّة حول "خطّ الدفاع" هذا أظهر أنّه لا يطابق الجبال إلاّ في ثلث المسافة على الأكثر . فلا يتصوّر بالأحرى كيف أنّ هذا الخطّ كان في أيّ عصر من عصور التاريخ حدودا قائمة .

ويجب الاستنجاد بأسباب أخرى لتعليل تضارب صارخ في بعض الأحيان ، فقد بيّن «ج ديبوا» (J. Despois) أنّه بفضل ما توفّره مياه التلّ المتّصل بلا انقطاع من «أومال» إلى القيروان من إمكانيات الري أمكن «لحاشية صحراوية طويلة» أن تفلت من سيطرة الصحراء . فهذه الحاشية التى ترسم في اتّجاه الجنوب حدود الحياة الحضرية التى لا نجدها فيما بعد إلاّ في الواحات المحظوظة وما تفرضه خطط الدفاع هو الذى يتحكّم آخر الأمر فى تنظيم خطّ الدّفاع المتحدّث عنه بينما لا يعرف البدوي من جهته حدّا يقف عنده في ترحاله إلاّ العقبة الطبيعية التي لا يتمكّن من تذليلها ، ويمكن القول بأنّ انتشار البداوة خلال عصور التاريخ واسعا كان أم محدودا ظاهرة سياسية .

إنّ بلاد البربر عرفت بدون شكّ حياة الحضر منذ العصور الحجرية القديمة . ولا شكّ أيضا في أنّ حياة البداوة ترجع إلى عصور ما قبل التاريخ،فحتى القرن الثاني بعد المسيح على الأقل لم يزل البربر تتنازعهم الحياة الفلاحية والحياة الرعوية . فلم تكن المدن طيلة دهور إلاّ فسائل فينيقية غرست في أرض إفريقيا ، ولم تتعدّد مراكز الأهالي مثل "سيرتة" (قسنطينة) إلاّ حينما أجبر ملوك نوميديا البدو على الاستقرار . لكنّ العواصم البربرية رغم أنّها تحمل عنوان ريجيا (Regiae) ليست إلاّ قرى متواضعة إذا هي قورنت بقرطاج التي أسّسها الفينيقيون في أواخر القرن التاسع قبل المسيح في موقع بحري خارق للعادة هيّن الاتّصال

بالساحل والسباسب . ومنذ أن كانت مُسْتَوْدَعا تجاريا إلى أن أصبحت عاصمة رومانية لم يزل إشعاعها متزايدا في ربوع المغرب . والتأثير البونيقي الذي استمرّ قرونا وقرونا لاح خاصّة في تبسة وقالمة وقسنطينة وجهة عنّابة . أمّا تأثير قرطاج الرومانية فإنّه عمّ شيئا فشيئا المغرب كلّه .

وقد أنشأ استعمار الأمبراطورية الرومانية عواصم أخرى إلى جانب قرطاج . ففي نوميديا حيث تحوّل البدو الرحّل والرعاة إلى فلاّحين بفضل سياسة مسينسّا الحازمة ورثت رومة عاصمته سيرتة وهي قلعة رائعة تحميها مَهَاوٍ وَعِرْة لكنّها مُتَّصلة اتّصالا يسيرا بمواني نوميديا ومدنها الكبرى . وأسّس هذا الاستعمار أيضا في أواخر القرن الأول بعد المسيح موطن سطيفيس (Sitifis) (سطيف) الذي أصبح بعد قرنين أهمّ مدينة لمقاطعة موريطانيا السطيفية . وقد شيّدت سطيف على سهل فسيح يفصله عن البحر جبل بابور في عصر كانت سطيفيس أوّلا وبالذّات سوقا ومدينة إدارية وفي عصر وضعتها السلم الرومانية في مأمن من الأخطار .

أمّا عاصمة موريطانية فهي عاصمة يوبا الثاني القديمة وتسمّى قيصارية (Caesarea) (شرشال) وكان الميناء المستند إلى جبل خاضع لسيطرة الأهالي متّصلا اتّصالا هيّنا بالمتيجة دون الجهات الغربية والجنوبية، بفضل الوثبة الفنيّة التي مكّنها منها يوبا والإدارة الرومانية . وقد تمتّعت هذه المدينة بهيبة عظيمة طيلةَ أربعة قرون .

ولم يشعر الوندال ولا البيزنطيون بضرورة تأسيس مدن أخرى . أمّا الغُزَاةُ العرب فقد أرادوا بالعكس بناء مُعَسْكَر يستعملُونه قاعدة لمواصلة غزوهم . فبنوا القيروان من لا شيء في قلب البلاد التونسية بالسباسب بين البحر والجبال . واندثرت قرطاج أثناء المحنة ، لكنّ الحضارة التي كانت تمثّلها بقيت . فبالقرب منها وعلى أنقاض مدينة تونس (Tunés) العتيقة ازدهرت مدينة تونس الجديدة، فعلا شأنها علوّا كبيرا في القرن الثامن بفضل موقعها في نهاية بحيرتها وفي مأمن من الهجومات البحرية.

وقد شاءت الدول التي قد يطـول عمـرها أو يقصـر والتي شغـل تساوقها تاريخ المغرب في القـرون الوسطـى أن تـؤسّس عـواصم خاصّـة بهـا تأكيدا لوجودهـا الذاتي فهي إمّا أحيت مدينـة كانت موجودة من قبـل أواختـارت مكانا بكرا حيث خطّطوا ما طاب لـهم أن يخطّطـوا . غير أنّ مصير هذه المـدن لم يكن دائمـا على قدر واحـد من الإشراق . فتلمسـان مدينـة بوماريا (Pomaria) العتيقــة التي جـدّدهـا الأدارسـة والمـرابطـون وعـاصمـة بني عبد الـواد وبني مريـن (من القـرن الثالث عشـر إلى الخامس عشـر) والتي ظلّت زمنـا طويـلا أكبر مدينـة في الجزائر الغربيـة تنازلات لفائـدة (Présîdio) زعامة وهـران القديمـة ولم تبـق من عاصمتي بني حمّـــاد : بجاية والقالة إلاّ مدينـة صغيـرة نيطت إلى منحدرات جميلـة الموقـع بالنسبـة للأولى (القرن الحادي عشر) وأطـلال متداعيـة مشرفـة على مهواهـا بالنسبـة للثانيـة وأصبحت تاهرت الرستمية أو الاشيـر الصنهاجيـة مجرّد ذكريات . ولـم تعـد المدن تستمدّ أسباب وجودها وبقائها حيث حـدود السباسب أو التلّ ، فالمركز التجـاري البونيقـي الـذي أصبـح فيـمـا بعـد ايكـوزيوم (Icosium) الرومانية ثم الجزائر العاصمـة التركيـة هو الآن الجـزائـر الفرنسية أي المدينـة الرئيسية لبـلاد الجـزائـر كلّهـا .

4 ـــ تاريخ قبائل

لم تعرف بـلاد البربـر قطّ عاصمـة قارّة نهائية . ولم يُتَـحْ لها البتّة أن تحـقّـق وحدتها حول عاصمـة ما . وقد علّل الباحثون ذلك بالتجزّؤ الجغرافي وصعوبة المـواصلات وانعدام الأودية الواصلـة بعضهـا إلى بعض وعدم صلاحية الأنهـار ، وعداء البحـر ، وقلّـة الأراضي النافعـة . كمـا علّـلـوه بانعدام مركـز طبيعـي يفرضـه وضعها الجغرافي . ولربّـمـا يجب أكثر من ذلك أن نذهب مذهب أ.ف. ڤوتيه الذى يلاحظ سرعة الغزوات وقلّة ثباتها في نفس الوقـت ، فنحمـل المسؤوليـة على الصراع الدائم بين البدو والحضـر الذى لم ينته بفـوز واحد على الآخـر فإنّ هذه "الثنائية التي تعذّر القضاء عليها" هي التي تعلّل في الظاهر كيف أنّ بـلاد البربـر كان لهـا دائمـا "أسياد أجانب" ، ولعلّـه من الواجب أيضا أن نأخذ بعين الاعتبار أكثـر ممّا اعتاده

الباحثون الخلافات التي تجدّ بين أهل الجبال وأهل السهول ، وهي خلافات يقوّيها بطبيعة الحال تجزّؤ البلاد .

والذي يدرس بلاد المغرب لا يجد ممالك تتّسع شيئا فشيئا إلى أن يعمّ سلطانها البلاد قاطبة ، بل قبائل يوحّدها زعيم جريء تؤسّس ملكا بفضل غزوة جبّارة ، ثمّ تنهار تحت ضربات كتلة أخرى من القبائل . فليست المدينة أو التراب بالمقوّمين للوحدة الأساسيّة إنّما المقوّم هو القبيلة منفردة كانت أو متّحدة مع جاراتها . ولا نعرف عن الحياة الداخلية لهذه القبائل شيئا يذكر ، وأحيانا نجهل حتى وجودها . لذلك ليس شيء أدعى إلى خيبة الظنّ من تاريخ المغرب هذا الخالي من التواريخ المضبوطة والمكتوب بضربات السيوف . ولا مهرب للباحث مهما حاول من الاكتفاء بتاريخ الوقائع الحربية بسبب فقدان الوثائق . وإذن فهو معذور على غرار الشيخ سيلان إذا هو ترك إلى حدّما العنان لحماره عندما اعترضته شوارع جديدة . ولم يتمخّض عن أحلاف القبائل شيء دائم بالرغم عن أنّ بعض الملوك الأصيلين كانوا مرموقين . والحال أنّ الأهالي كانوا يعلمون أنّهم شعب واحد بما أنّهم يطلقون على أنفسهم اسما واحدا ، وكاد البربر في مرتين اثنتين أن يحقّقوا بوسائلهم الخاصّة وحدة المغرب : الأولى في عهد العاهل (أغليد) مسينسّا في القرن الثاني قبل المسيح، والثانية في عهد الدولة الصنهاجية في القرن الحادي عشر بعد المسيح . وأخفقت هاتان التجربتان بمشيئة رومة الاستعمارية وبسبب زحف بني هلال . فاستنتج الباحثون من ذلك أنّ نجاح الوحدة مستحيل والحال أنّ البربريّ أبعد من أن يمثّل نموذجا بشريا منقوصا ، بل إنّه أكثر من ذلك برز في شخصيات ممتازة ولكنّ بعضهم أكّد أنّ هذا "الجنس المتمتّع بحيويّة لا تنضب ليست له شخصية إيجابية" وأنّه يكتفي حتى في أبسط الأشياء بدور "الظلّ الأبدي" وأنّ المشكلة التاريخية ترجع إلى معرفة كيف "أنّ الخيبة المطلقة كانت نتيجة لتسلسل خيبات محدودة" (أ.ف. ڤوتية)

لقد رأينا أنّ البربريّ لم يصب بنقص جنسي ، ولكنّ لعنة جغرافية نزلت عليه . لقد كتب أ.ف. ڤوتيه في قوّته المعهودة : «إنّ مدنية مستقلّة

بذاتها وفنّا وأدبا وحتى لغة وشعبا شاعرا بوجوده ودولة منظّمة هذه كلّها كماليات باهضة جدّا رأسمالية ، والمغرب لم يستطع قطّ التحصيل عليها بمفرده . فهذه البلاد الصغيرة لم يكن لها الجهاز الماديّ الضروري لتقيم البنيان الاجتماعي والسياسي الذي هو أساس كلّ مدنيّــة .»

ليكن ذلك . لكن هل يجب أن نستنتج من خيبة المحاولات حتمية الخيبة، وفي هذه الحالة ألا يؤول بنا الأمر إلى أن نُدين كلّ احتلال أجنبي مآله المنطقيّ كارثة على غرار كلّ احتلال قبله ؟ وما كانت تكون سياسة مسينسّا والملوك الذين تولّوا الحكم بعده لو أنّهم استطاعوا أن يحافظوا على علاقات سلمية مع عالم البحر المتوسّط ولم يصطدموا بالاستعمار الروماني ، واحتفظوا بكاملِ طاقتهم لتنظيم المغرب ؟ ولئن كانت بلاد البربر في حاجة إلى الاتّصال ببلدان أخرى فقد لا يكون من الضروري أن نستنتج أنّ خضوعها كان أمرا طبيعيا . ويظهر أنّ في تكرار ذلك أكثر من اللاّزم محاولة لتبرير وضعية تعود علينا بالفائدة تبريرا علميا ، فيجب أن نحذر مغبّة نظرة ميتافيزيقية إلى التاريخ قد تبدو منسجمة انسجاما سهلا جدّا مع الواقعية السياسية . فإنّ الكثير من الأحكام غير القابلة للتعقيب على فلاّحي روسيا أو الأتراك أو الصينيّين أو الهنود امتحنتها الأحداث أيّما امتحان . فعلى المؤرّخ إذن أن يجتنب الاستنتاجات النهائية، وأن يكتفي بتسجيل القليل الذي نعرفه عن ماضي بلاد البربر ، وذلك من غير أفكار قبلية ومع الحرص على طرح المشاكل على الأقل ، إذا تعذّر حلّها .

الباب الثاني

عصور ما قبل التاريخ

١ - مشاكل ومعطيات . ٢ - تطور عصور ما قبل التاريخ في بلاد البربر . ٣ - الصخور المنقوشة

I ـ مشــاكــل ومعطيــات

1 ـ مشاكل ما قبل تاريخ إفريقيا الشمالية

إنّ مؤرّخ عصور ما قبل التاريخ إذا رام دراسة إفريقيا الشمالية وجد نفسه أمام مشكلين أساسيين تتفرّع عنهما في آخر الأمر جميع المشاكل الأخرى . فعليه أوّلا أن ينسّق ويوفّق بين المعطيات المتنافرة التي يمدّه بها علم طبقات الأرض (جيولوجيا) وعلم الحفريات القديمة (بلنتلوجيا) وعلم وصف الإنسان (أنتروبولوجيا) وعلم الآثار . وعليه ثانيا أن يربط بين النتائج التي انتهى إليها وبين ما وصل إليه علم ما قبل التاريخ من معلومات بالنسبة لاوروبا وإفريقيا والشرق المتوسّطي . وبعبارة أخرى فإنّ عمله يقتضي ضبط تواريخ نسبية للمعالم التي خلّفها الإنسان الأوّل ومقارنتها بالتواريخ التي حدّد ج. دي موريتيي أصولها سنة 1869 بواسطة تصنيف النماذج الصناعية وقد عدّلت منه طبعا الاكتشافات التي تمّت بعد ذلك التاريخ تعديلات ملموسة .

والعناصر التي يستمدّها علم ما قبل التاريخ من العلوم التي يضطرّ إلى تسخيرها لحاجاته لا تؤلّف من سوء الحظّ مجموعة متماسكة من حقائق قارة غير مقدوح فيها.ومن شأن الاكتشافات الجديدة أن تنقض دائما النظريات السابقة لأوانها حتما والتي ينتهي إليها الباحث بطبيعة بحثه . ورغم ذلك فإنّ الاختصاصيين لا يتّفقون عادة على نسق واحد وإن كان

وقتيا . ومعنى هذا أنّ مؤرّخ عصور ما قبل التاريخ يقيم بناءه الضعيف على أرض لا استقرار لها ــ مَثَلُه كمَثَل منازل اليابان يهدّدها الزلزال دائما.

فإذا كانت هذه هي ظروف البحث بالنسبة لعلم ما قبل التاريخ ، فإنّه من اليسير أن نعرف أسباب التضارب الموجود في كثير من الأحيان بين شتّى الافتراضات التي ينتهي إليها هذا العلم . ويتعذّر اليوم كما تعذّر سنة 1930 أن نقرّر نتائج نهائية في هذا الباب . لذا سنكتفي ، كما فعلنا منذ عشرين سنة ، بضبط الحدّ الذي وصلت إليه المناقشات . إلاّ أنّ الحلول الحالية قد تكون أثبت من سابقاتها . وهذا ناتج أوّلا عن أنّنا واصلنا بحوثنا منذ عشرين سنة بإفريقيا الشمالية وخاصّة بالمغرب الأقصى ، وثانيا عن أنّنا اجتنبنا زيادة في التحرّي محاولة ربط عصر ما قبل تاريخ بلاد البربر ببقية العالم بصلات تبيّن ضعفها كم من مرّة . لذلك سيجد القارىء في هذا الكتاب مجموعة من المعلومات هي تحليلية أكثر منها تأليفية .

ويبدو أنّ المظهر الجغرافي للبلاد لم يتغيّر تغيُّرا محسوسا منذ أن دخلت بلاد البربر في التاريخ أي منذ أواخر الألف الثانية قبل المسيح تقريبا وقد استمرّ بطبيعة الحال التأثير اليومي للانجراف والترسّب معا ، في سرعة غير مشعور بها ، ولكنّه لم يغيّر إلاّ القليل من مظهر الأرض هنا وهناك ، كما وقع في مصبّ نهر السيبوز ومصبّ نهر مجردة . أمّا الحجج التي تزعم إثبات تغيُّرات مستوى البحر في عصور التاريخ فقد أقيم الدليل على أنّها مجرّد خيالات .

وفي الواقع لم يتغيّر المناخ هو أيضا وربّما كان أكثر رطوبة ممّا هو عليه اليوم بسبب تضاؤل النبات ــ نقول ربّما ، وفي الواقع لم تقم حجّة جديدة ضدّ نتائج بحوث ستيفان قزال St Gsell المؤيّدة لاستقرار مناخ إفريقيا الشمالية منذ 3 000 سنة على الأقل .

أمّا في عصور ما قبل التّاريخ ، فقد كانت بلاد البربر تختلف عمّا هي عليه اليوم اختلافا يقوى كلّما اقتربنا من أوائل تلك العصور . فالإنسان الأوّل الذي ظهر في إفريقيا الشمالية ، أي أقدم إنسان عثر على

أثر له إلى هذا اليوم ، عاش منذ ثلاثمائة أو أربعمائة ألف سنة تقريبا . والثلاثون أو الأربعون قرنا التي يذكرها إنسان هذا العصر بصورة تتفاوت وضوحا تبدو متواضعة للغاية بالنسبة إلى ماضي البشريات المتعاقبة المدهش . إلاّ أنّ نفس المنظر الطبيعي لم يزل يشاهد أطوارها المختلفة . أمّا في عصور ما قبل التاريخ فإنّ المدنيّات هي التي تبدو بالعكس قارّة بالنسبة للطبيعة المتبدّلة . والبشر الذين نجد آثارهم في الأحافير (fossiles) تأمّلوا مناظر طبيعية تختلف عمّا نراه اليوم . ومظاهر التضاريس وخاصّة السواحل لا تماثل ما نجده اليوم . والمناخ خاصّة وبالتابع المياه والنبات والحيوان المتأثّر بأحوال المناخ جميعها لم تكن على ما أصبحت عليه اليوم . فالذى ينتظره مؤرّخ ما قبل التاريخ من الاختصاصيّين الآخرين هو في آخر الأمر أن يمكّنوه من ربط مصير الأجناس المنقرضة بتقلّبات العوالم الميتة . فإلى أيّ حدّ يكون هذا ممكنا الآن ؟

2 — معطيات الجيولوجيا

إنّ علم طبقات الصخور الخاصّ بالحقبة الرباعية البحرية وهو المرجع الوحيد لمؤرّخ ما قبل التاريخ في دراسته لإفريقيا الشمالية يعتمد في خطوطه الكبرى على التصنيف الذي وضعه ش . دبيرى (Ch. Deperet) منذ ما يقرب من ثلاثين سنة . ويقوم هذا التصنيف على وجود شواطىء متحجّرة في مواضع مختلفة من البحر المتوسّط ، ويكتشف الباحث هذه الشواطىء في مستويات معيّنة أو يزعم أنّها معيّنة ويجد فيها بقايا حيوانات متماثلة . أمّا اختلاف هذه المستويات فيعزى إلى حركات استاتيكيّة (Eustatique) ناتجة عن ظواهر التجلّد والذوبان . وكاد الباحثون أن يجمعوا على التناسب الآتي :

1 — الصقلي (90 — 100 م) يناسب آخر عصور ما قبل الجليدي

2 — ميلازي (55 — 60 م) يناسب عصر ما بين الجليدي قونز (؟) مندال

3 — التيريني (28 — 30 م) يناسب عصر ما بين الجليدي مندال — ريس

4 — المنستيري أو قريملدي (15 — 20 م) يناسب عصر ما بين الجليدي ريس — ورم

5 ــ والعصر الحالي ما بعد الورميني أو ما بعد الفلاندري بحسب رجوعنا إلى التجلّد الأخير أو الفيضان البحري الذي تبعه .

لكنّ هذا التخطيط الذي يرتاح إليه الفكر أيّما ارتياح لم يلاق من سوء الحظّ إجماع علماء الجيولوجيا ، بل يمكن القول بأنّ أغلبهم يرفضونه اليوم . ففريق يأبَى أن يُقرّ الترابط المشار إليه آنفا بين مختلف المستويات المميِّزة للساحل المتوسّطي وبين عصور ما بين الجليديّ ، خاصّة وأنّ التجلّد الذي قرّره قونز مشكوك في صحّته عند الكثيرين ، وفريق آخر أشدّ احترازا من الأوّل لا يكتفي بمهاجمة نتائج بحوث ش. ديبري وأتباعه فحسب ، بل ينتقد الملاحظات التي تعتمد عليها هذه النتائج . وحتى الذين يقبلون التخطيط جملة فإنّهم يعترفون بأنّه يوجد فيه بعض المتناقضات التي كثيرا ما تنال من مدلوله العام . فكيف يمكن لعلم ما قبل التاريخ أن يقرّر ، على أسس مشكوك فيها إلى هذا الحدّ ، تواريخ نسبية لم يقدح أحد من قبل في صحّتها ؟ وبالإضافة إلى ذلك فمن الواجب أن نؤكّد أنّ علم الجيولوجيا تنتهي مهمّته المتواضعة أو تكاد حينما نصل إلى العصر الحجري القديم .

وتصنيف ش. دي بيري ــ وإن أصبح مجرّد افتراض للبحث بصورة وقتية على الأقل ــ فإنّه إطار مناسب يمكن أن نسجّل فيه المعطيات الخاصّة بالعصر الحجري القديم أو المعطيات الأثرية على أساس أنّها مجرّد إمكانيات . وترجع أقدم آثار للإنسان في المغرب الأقصى في الحدّ الذي بلغته معلوماتنا ، إلى عصر ما بعد الصقليّ وما قبل الميلازي حسب نظريّة أبداها أ. نوفيل وأ. رولمان وتبنّاها الأب ه. بروي . أمّا في الجزائر فإن بعض المعالم يجب إرجاعها حتّى إلى الفيلافرانشي حسب الاكتشافات الحديثة التي قام بها س. أرمبورغ في عين الحناش بجهة سطيف . إلاّ أنّ الإجماع لم يحصل حول هذه النقطة أيضا وبقي باب المناقشة مفتوحا بين أنصار التواريخ "المحدودة" أي الذين يجعلون أوائل العصر الحجري القديم في ما بين الجليدي ريس ــ ورم وأنصار التواريخ "الممتدّة" الذين يجعلونها في عصر ما بين الجليدي قونز ــ مندال.

وحتّى لو ذهبنا مذهب أ. رولمان في تناسب "الكلاكتو – أبيفلي" مع عصر ما بين الجليدي "قونز ميندال" و"الابيفيلي" (شيلي) مع عصر ما بين الجليدي "مندال – ريس" والآشولي وهو معاصر تقريبا للموستيري السفلي" ويناسب عصر ما بين الجليدي "ريس – ورم" فإنّ ذلك لا يعني أنّ هذا التناسب يصحّ على إفريقيا الشماليّة كلّها . فلم يتيسّر ضبط طبقات الصخور إلاّ بفضل ما اكتشف في مقطع سيدي عبد الرحمان بالقرب من الدار البيضاء – إلاّ أنّ أسس هذا الضبط نفسها مشكوك فيها كما سبق أن أسلفنا. والذي تمتاز به بلاد البربر هو "التفوّق المطلق" لمراكز السطح التي توجد فيها معالم ما قبل عصور التاريخ ...

3 – معطيات علم العصر الحجري القديم (باليونتولوجيا)

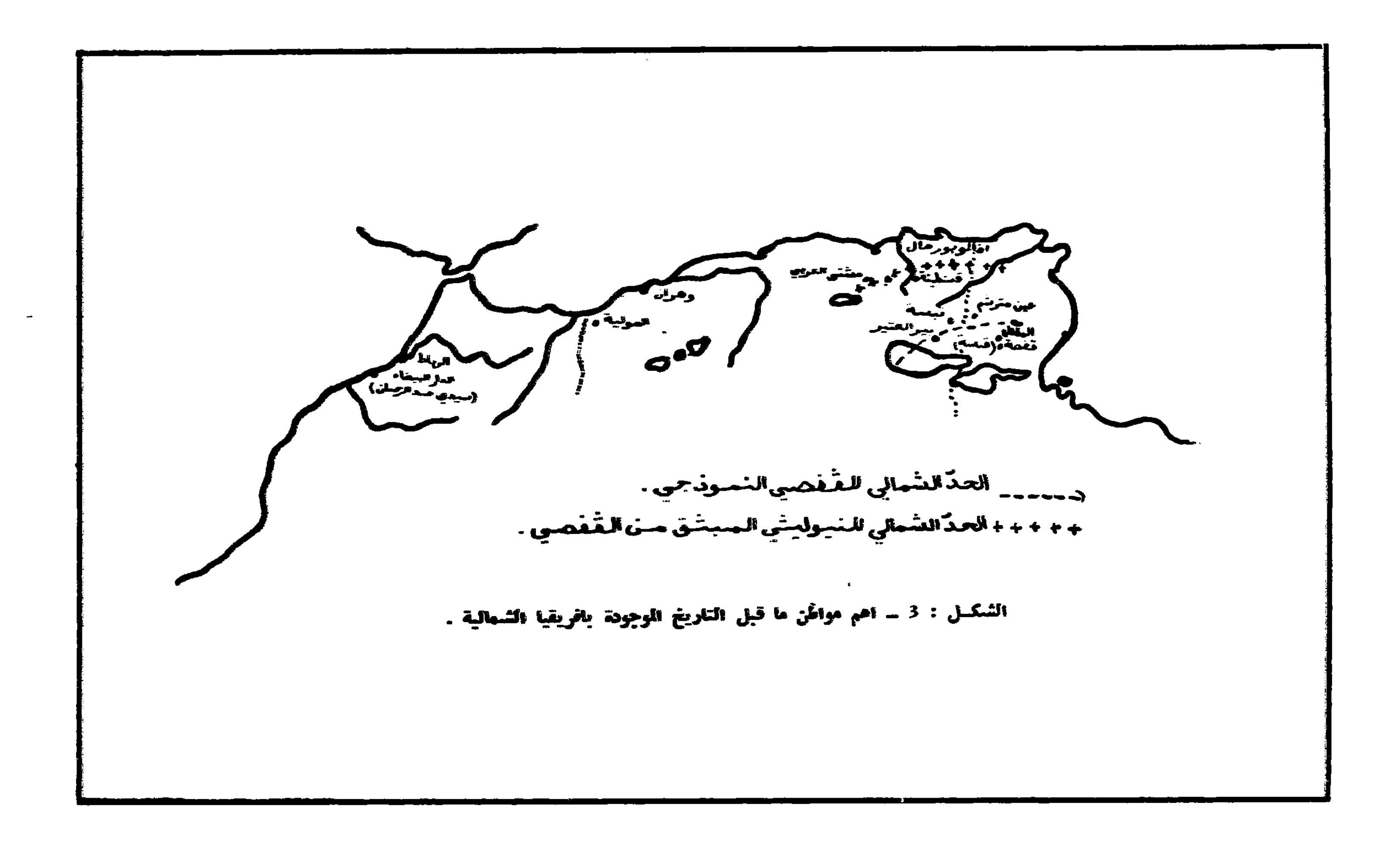
بالرّغم من أنّ معطيات البلينتولوجيا أقلّ فائدة فيما يتعلق بضبط التواريخ من معطيات الجيلوجيا فإنّها تمتاز بأنّها أصحّ . وهناك أمر رئيسي يبدو ثابتا هو استمرار نوع واحد من الحيوان في إفريقيا الشمالية طيلة غالب الحقبة الرباعية – وهو نوع من حيوان البلدان الحارّة الرطبة له خصائص النوع "التشادي – الزمبيزي" . والأجناس التي تدلّ على وجودها أحافيرها (fossiles) المخلوطة بآلات العصر الحجري القديم هي الفيل (Elephas atlanticus) وفرس البحر (hippopotamus amphibus) والكركدن (rhinocéros simus) والبقريات ، والزرافات والظباء والنعام ولم يعثر على الأيّلات والحيوانات اللبونة آكلة اللحوم إلاّ ابتداء من العصر الحجري المتوسّط (موستيري) وهي أجناس نزحت من الشمال وأعطت الحيوان في المغرب صفة الاختلاط فهو حيوان إفريقي أوروبي آسيوي في نفس الوقت ، ولكنّ دخول هذه الأجناس الأوربية التي دفعها إلى الجنوب تفاقم المناخ الناتج عن أحد التجلّدات (قد يكون تجلّد "ريس") لم يستمرّ بعد العصر الحجري المتوسّط بسبب انفصال إفريقيا عن أوروبا .

وهذا الانفصال مضافا إلى تناقص تبادل الحيوان مع جهات إفريقيا المدارية والاستوائية إلى حدّ التوقّف عند انتصاب الحاجز الصحراوي هو

الذي سيعطي حيوان إفريقيا الشمالية صفة الحيوان "المنعزل" "المتبقّي" . وإنّ هذه الميزة تظهر منذ العصر الحجري القديم وهذا النوع من الحيوان سيتطوّر شيئا فشيئا من نوع الحقبة الرباعية إلى النوع الحالي وذلك باضمحلال بعض الأجناس (س آرمبورغ) . وتنحصر أجناس الحيوان الجديد التي ظهرت فيما بعد في بعض الحيوانات الآهلة كالحصان في الألف الثانية ، والجمل قبيل حقبتنا على أغلب الظنّ . أمّا زوال بعض الأجناس فيظهر أنّه كان من عمل الإنسان وحده . فعمليات الصيد الكبرى في عصور ما قبل التاريخ وحاجات الجيوش القرطاجية ومتطلّبات الملاهي الرومانية خاصّة تبيّن بيانا كافيا لماذا لم يبق هذا الجنس أو ذاك إلى يومنا هذا . ومنذ القرون الأولى من حقبتنا أصبح الفيل مجرّد ذكرى . أمّا النعام فقد تبقّى حتّى القرن السابق في جهة "داياس" ولم ينقرض آخر أسد من أرض يوبا إلاّ في نفس العهد وقد قال هوراس:

« Léonum arida nutrix (Horace, ode I, 22, 15-16) »

وإنّ تشابه شكل الحيوان في الحقبة الرباعية من جهة، وخصائصه المكوّنة من جهة أخرى تسمح للباحث بأن يقرّر أنّ المناخ بقي حارّا رطبا حتى العصر الحجري القديم الأعلى على الأقل . وممّا لا شكّ فيه أنّ هذا المناخ لم يكن متشابها دائما . وقد تكون أغزر الفترات أمطارا قابلت مختلف فترات التجلّد . إلاّ أنّ تواضع ظواهر التجلّد في أطلس المغرب الأقصى — وهي الجهة الوحيدة من بلاد البربر التي لوحظ فيها هذا الأمر — يكفي لإقامة الدليل على أنّ المناخ في نفس هذه المدّة لم يكن شديد البرودة . ويجب من جهة أخرى ألاّ نتصوّر بلاد المغرب في عصور ما قبل التاريخ على نحو ما نرى الكنغو اليوم مثلا . وإذا كانت مياه وديان الحقبة الرباعية ، وخاصّة وديان الصحراء ، أغزر بكثير ممّا هي عليه الآن فإنّه من المستبعد جدّا أن خضعت هذه الوديان لظاهرة التناوب بين غزارة المياه وجفافها أو على الأقلّ قلّتها المفرطة . ولم يتطوّر المناخ نحو الجفاف إلاّ في عصر ما بعد المنستيرى أو إذا أردنا العصر العتيري . والدراسات التي تناولت فحوم أحافير الحقب الأولى في جهة تبسّة أظهرت أنّ العصر القفصي الأعلى تطوّر في كنف مناخ شبيه بمناخنا شبها كبيرا . وشأن النبات كشأن الحيوان فهو يتغيّر



-------- الحدّ الشمالي للقفصي النموذجي .

+ + + + + الحدّ الشمالي للنيوليتي المبتق من القفصي .

الشكل : 3 ـ اهم مواطن ما قبل التاريخ الموجودة بافريقيا الشمالية .

بعمل الإنسان لا بتأثير الطبيعة . فتعمّدُ قلع الأشجار وتوسيع مناطق الزراعة وكذلك نموّ الحياة الراعوية كلّها أسباب أساسية لانجراد بلاد المغرب .

4 ــ معطيات الانتروبولوجيا

يحسن أن نقف عند أحد أنواع الحيوان أعني الإنسان . ولا يوجد إلى اليوم أيَّة وثيقة أنتربولوجية يمكن معها رفعُ جهلنا للإنسان الأول الذي عاش على أديم إفريقيا الشمالية، وآلاته وحدها هي التي دلَّت على وجوده ، إلاّ أنّ بعض الاكتشافات الحديثة ألقت أضواء بالغة الأهمّية على البشرية التي كانت تعيش في المغرب الأقصى الحالي أثناء العصر الحجري المتوسّط . ولندرس أوّلا إنسان الرباط ، فبالرّغم عن أنّ الأجزاء المكتشفة سنة 1933 لا تتعدّى في الواقع قسما من الفك العلوي مع القسم الأمامي من الفك السفلي ، فإنّهما تسمح بأن نؤكّد أنّنا أمام شاب صغير (عمره 16 سنة تقريبا) له خصائص جنس عريق في البدائية . ويجب أن نضع إنسان الرباط بالنسبة إلى تطوّر الجنس البشري مع إنسان نياندرتال (Néanderthal) إن لم يكن أقدم منه باعتبار بعض الخصائص التشريحية التي تقرّبه من السينتروب (Sinanthrope) . ورغم أنّ علماء الجيولوجيا لم يتّفقوا على سنّ الحجارة الرملية التي وجدت فيها هذه الأجزاء فإنّه يبدو من الجائز أن نعتقد أنّ إنسان الرباط معاصر للموستيري وربّما كان أقدم منه ــ وأنّ نفس الخصائص النياندرتالية ونفس دلائل البدائية هي التي نجدها في البقايا البشرية المكتشفة منذ سنة 1939 بطنجة (في مغارة العالية على بعد 13 كم في الجنوب الغربي من هذه المدينة) . وأنّ الحفريات التي لا تزال متواصلة لا تسمح إلى حدّ الآن بأن نستنتج بوثوق الدور المضبوط الذي يجب إسناده إلى هذه الآثار في علم الطبقات بالنسبة إلى العصر الحجري المتوسّط . إلاّ أنّه يبدو أنّ سنّها لا يزيد كثيرا عن سنّ إنسان الرباط .

فوجود جنس النياندرتاليين أو جنس شبيه به على الأقلّ في إفريقيا الشمالية أصبح اليوم أمرا ثابتا ، لكن بالنسبة للجزء الغربي من البلاد

فقط لحدّ الآن . ويجب أن نلاحظ أيضا أنّنا لا نعرف شيئا عن أصل هذا الجنس ولا عن مصيره بعد العصر الحجري المتوسّط ، فالحلقة المفقودة من الوجهة الانتروبولوجية هي بين العصر الحجري المتوسّط والعصر الحجري الأعلى . ويطلق عامّة على إنسان العصر الحجري الأعلى اسم إنسان مشتى العربي ، وهو اسم "المحلزة" (Escargotière) القريبة من شاتودان دي رومل (قسنطينية) التي اكتشفها ج. مرسيي سنة 1907 . وقد تعدّدت الاكتشافات منذ هذا التاريخ خاصّة في مقاطعة قسنطينة ، وأهمها من دون شكّ تلك التي وفّق إليها س. أرمبورغ في مغارة "أفالوبو رمال" على بعد 30 كلم شرقي بجاية . والحفريات التي أنجزت بين سنة 1927 و 1930 كشفت معظمة بأتمّ معنى الكلمة ، ومكّنت الباحثين من أن يدرسوا ما يقرب من ثلاثين نموذجا عثر عليها في ظروف ينتفي معها الشكّ من حيث علم طبقات الصخور . وهي نماذج إنسان مديد القامة (معدل متر و72) مستطيل الرأس أو متوسّطه ، طويل الأعضاء ، خشن الوجه بهيمي السحنة وخاصيته الرئيسية أنّ جميع نماذجه المعروفة قد قلعت القواطع من أسنانها .

ويبدو أنّ هذا الجنس عاش في إفريقيا الشمالية كلّها ، لأنّ آثارا له قد اكتشفت في الواجهة الأطلسية من المغرب الأقصى (دار السلطان بالقرب من الرباط) . وخلافا لما كان يظنّ من قبل فإنّ هذا الجنس لا يرتبط فقط بإنسان نياندرتال ، بل بالإنسان العاقل (homo sapiens) . وبصورة أدقّ فإنّ إنسان مشتى العربي يذكّرنا بجنس "كرومانيون" (Cro-Magnon) . ونماذج هذا الإنسان ليست من جنس واحد ولكنّها تنحدر من فرع واحد أصله من القسم الشرقي من البحر المتوسّط (بول فالوا) وهذا النموذج البشري الذي انتشر في عصر المحلزات (Escargotières) دام إلى ما بعد العصر الحجري الأعلى وحتى إلى العصر الحجري الحديث المنتسب إلى القفصي إذا اعتبرنا أنّ الغونش القدماء سكّان جزر الكناري عاشوا في هذا العصر كما ذهب إلى ذلك ر. فيرنو . أمّا فيما يخصّ الآثار التي قد يكون خلّفها هذا النموذج البشري في السكان البربر فإنّ ما انتهت إليه البحوث الأنتروبولوجية في إفريقيا الشمالية لا يسمح بأيّ افتراض جدّي في شأنها . وكذلك لا نعرف شيئا كثيرا عن وجود

عناصر زنجيّة في عصور ما قبل التاريخ ببلاد البربر . وإذا سلّمنا كما يراه البعض بأنّ جنس قريمالدي (موستيري) أصله إفريقي فإنّنا نجهل هل هو انتقل إلى أوروبا من المغرب أم لا إذ لم يعثر إلى يومنا هذا على ما يشهد بوجوده في هذه البلاد . وأقصى ما يمكن أن نذهب إليه هو أن نتساءل : هل يمكن لإنسان "أسلار" الذي اكتشف هيكله سنة 1927 في وادي أحَدِ رَوَافد النيجر وهو التلمسي وله وجوه شبه كبيرة بإنسان قريمالدي وبالسكّان الحاليين لإفريقيا الجنوبية، أن يدفعنا إلى الاعتقاد بأنّ السود تجاوزوا «منذ العصر الحجري المتوسّط وربّما العصر الحجري الأعلى» الحدود الشمالية للغابات الكبيرة . غير أنّه يجب أن نلاحظ أنّ بعض الهياكل العظمية المكتشفة في بلاد البربر لها خصائص زنجية لا يمكن دحضها .

5 – معطيات علم الآثار

وإذا مكّنتنا الجيولوجيا والبلينتولوجيا من تصوّر الوسط الذي كان يعيش فيه إنسان ما قبل التاريخ ومكنتنا الانتروبولوجيا كذلك من تصوّر هذا الإنسان نفسه فإنّ الأدوات التي تركها وما يتبعها من أمتعة هي التي تلقي بعض الأضواء على مدنيّته . ومن سوء الحظّ فإنّ علم آثار ما قبل التاريخ يخضع لظاهرة بعيدة الأثر من حيث نتائج البحث وهي أنّ غالب مراكز التنقيب سطحية ومعنى ذلك أنّ معطيات علم الآثار لا ترتكز بصفة عامّة على علم طبقات الصخور . وهذا ما يعطي قيمة كبيرة للملاحظات التي يمكن تسجيلها في الحالات التي تسمح فيها التوبو غرافيا بتنضيد المستويات المتتابعة . ويدلّ على ضعف التواريخ التي لا تعتمد إلاّ على التشابه التيبولوجي . فإذا ذكرنا «الشيلي» و«الاشولي» و « الموستيري » في إفريقيا ، فلا يعني ذلك أكثر من أنّ وجوه شبه فنيّة تسمح بالمقاربة بين أدوات افريقيا الشمالية والأدوات الأوروبية المنسوبة إلى هذا الصنف . ولكن لا سبيل إلى استنتاج أيّ شيء يتعلّق بأصل هذه الصناعات أو بتواريخها ولم تسفر المجهودات التي بذلها ر. نوفي وأ. رهمان للمقابلة بين العصر الحجري القديم في المغرب الأقصى ،

والعصر الحجري القديم في أوروبا الغربية حسب تصنيف الأب بروي ، إلى أيّ نتيجة ثابتة .

وكذلك لا شيء يسمح إلى حدّ الآن باعتبار الصناعات المتماثلة أو المتشابهة المعثور عليها في تُراب إفريقيا الشمالية متعاصرة . فقد تكون بعض الصناعات قد ثبتت بعد ظهور صناعة أخرى تلتها . وهكذا تدلّ الحفريات الأمريكية في طنجة على أنّه يوجد في نفس المستوى عدد يكاد يكون متساويا من الشظايا الراجعة إلى العصر "اللفلوازي" ومن الأسنان الراجعة إلى العصر الموستيري . ويظهر أنّ مدنيّة العصر النيوليتي دامت في بعض جهات من بلاد البربر إلى أوج الحقبة التاريخية ، وحتى إلى العهد الروماني ، إذا اعتبرنا بعض الخصائص كبناء المصاطب مثلا ويذهب بعض مؤرّخي ما قبل التاريخ إلى الاعتقاد بأنّ الصناعات الموجودة في إفريقيا الشمالية يمكن أن يكون غالبها صناعات متأخرة .

وليس من الصعب ضبط تواريخ الأدوات ضبطا نسبيا فحسب ، بل كذلك معرفة تتابعها . فقد تكون الصناعات مجتمعة في جهة ومتفرّقة في جهة أخرى . وما نلاحظه من نقص أو شذوذ ليس إلاّ نتيجة لتسرّع في ضبط طبقات الصخور . وهكذا فقد تمكّن م. ريقاس من أن ينسب الأدوات المذنّبة (pédonculées) إلى العصر "العتيري" أي العصر الحجري المتوسّط ، بينما نسبها ب . بلاري إلى العصر النيوليتي (بربري) أي أنّه أمكنه أن يصل بين مستويين أثريين متتابعين . ويتّضح ممّا سبق لماذا اضطر مؤرّخو ما قبل التاريخ إلى استعمال ألفاظ مضطربة . والذي يجب اجتنابه هو أن يدلّ اسم واحد على مجموعة صناعات قد تكون متشابهة ، لكن لا تتجاوز علاقاتها مجرّد الشبه . ومن ذلك تعدّدت الوجوه تعدّدا غير موفّق في بعض الأحيان خاصّة أنّ بعض الأسماء قد تدلّ على نفس المسمّى فليس وهراني هـ .بروي ور. فوفري سوى الموريسكي — الإسباني المنسوب لب. بلاري ، ولو سمّى "موبي" لكان ذلك أفضل ."وقفصي ج. مورغان "حلّ محلّ "جيتولي ب. بلاري" وإن لم يختلف عنه قطّ . والذي يؤسف له هو وجود أسماء متولّدة عن

نظريات خيالية في بعض الأحيان ومن ذلك أنّ لفظة "موركي إسباني" كان يقصد منها تأكيد بعض العلاقات الأثرية بين غربي بلاد البربر وإسبانيا . ولكنّه ثبت منذ ذلك الوقت أنّ هذه العلاقات ضرب من الأوهام . وإذا عقّد هذا الاضطراب مهمّة الاختصاصيين فإنّه يجعل مُهمّة الذين يُمهّدون إلى دراسة ما قبل تاريخ إفريقيا الشمالية أشدّ دقّة . وكم نرجو أن يتمّ الاتّفاق بين الاختصاصيين لا على الأسماء نفسها . إذ نكون بذلك كلّفناهم أكثر ممّا يطيقون . بل في الأقل على المبادي التي تُعتمد في تسمية مختلف الصناعات .

II – تطور عصور ما قبل التاريخ فى بلاد البربر

1 – العصر الحجري الأدنى والمتوسّط

لقد ثبت أنّه يوجد في إفريقيا الشمالية أدوات تماثل في فنونها وأشكالها الصناعات التي تعرف في أوروبا بالأسماء المألوفة الآتية : الشيلي والأشولي (بالنسبة للعصر الحجري الأدنى) والموستيري (بالنسبة للعصر الحجري المتوسّط). وإذا استثنينا آثار ما قبل العصر الحجري القديم (éolithes) المنسوبة لشتمة (قرب بسكرة) وقفصة ، فإنّ أقدم آثار للعمل البشري هي في الوقت الحاضر ما اكتشفه س. أرمبورغ سنة 1948 بالقرب من سطيف ، أي ما يقرب من أربعين كرة حجريّة ذات جوانب منحوتة . ويلي ذلك الرحماني وهو اسم أطلقه ر. نوفيل وأ. روهمان على مجموعة الأدوات المكتشفة بمقطع سيدي عبد الرحمان بالقرب من الدار البيضاء . وهي أدوات توجد من حيث طبقات الصخور في أعلى الرواسب البحرية المنسوبة إلى العصر الصقلّي ، والمتشابهة خصائصها مع خصائص مجموعة الأدوات المنسوبة للعصر الكلكتوني أو الابفيلي أي الشيلي . وتعتبر مناجم المغرب الأقصى مواطن البحث عن العصر الحجري القديم الشمال الافريقي لأهمّيتها في علم طبقات الصخور، لكن من دون أن تنسينا المراكز المكتشفة قبلها وخاصّة مركز بحيرة القرار بشمال تلمسان الذي يستمد أهمّيته من وجود حيوان المناطق الحارّة

الفيــل الأطلسي (éléphas atlanticus) والكركدن الموريطــاني (rhinoceros mauritanius) وفرس البحر (hippopotamus amphibus) ومن صناعة منتسبة إلى العصر الاشولي في آن واحد .

لقد كان يظنّ بعض الباحثين مثل ج. مورغان وب. بالاري أنّ الشيلي والاشولي والموستيري تكوّن صناعات ثلاثا "لا تمحى روابطها" وفعلا فقد اكتشفت في جهة ڤفصة آلات منتسبة لهذه النماذج الثلاثة المختلط بعضها ببعض . وفي مقطع "مارتان" بالقرب من الدار البيضاء نجد الشيلي والآشولي مجتمعين كذلك . وبات من المسلّم به اليوم أنّ هذه الصناعات الثلاث ليست معاصرة بعضها لبعض ، ولكنّها تتابعت على النحو الذي توالت فيه بأوربا . فالاشولي يبدو مرحلة متطوّرة عقبت الشيلي . وفي كلتا الصناعتين نجد أنّ "الدبوس" هو الآلة الأكثر دلالة على ذلك العصر ، لكنّ أشكالها البدائية في أوّل الأمر كانت تحسّنت شيئا فشيئا من جهة ، وتنوّعت من جهة أخرى ، طيلة العصر الاشولي وحلّ ر. فوفري على ما يظهر المشكل المطروح من سنة 1887 بعد التنقيبات التي قام بها م. كلينيون في جهة ڤفصة فأثبت أنّ اهتزازا تكتونيا هو السبب في تضارب الموستيري والآشولي .

ويظهر أنّ "الموستيري" المتأخّر عن "الاشولي" بفترة قد تكون طويلة لم يتفرّع عن المصنوعات ذات الوجهين التي كان متوجّها لها بل تفرّع عن نموذج صناعي يختلف اختلافا كبيرا عن المصنوعات المسمّاة بذات الشظايا وقد أطلق عليها اسم الفلاّوزية : (Le valloisien) وأهمّ خصائص هذه الأدوات "الموستيرية" كالأدوات الحادّة والمكاشط تكمن أوّلا وبالذات في فنّ نحتها وفي مدى حرص أصحابها على فن التشذيب .

ويظهر أنّ النماذج الموستيرية تطوّرت إلى أشكال مذنّبة (pédonculées) هي من خصائص "عتيري م. ريقاس" (Reygasse) (وهو اسم أخذ من مركز بير العتير في بلاد النمامشة بالجنوب الغربي من مقاطعة قسنطينة) والظاهر أنّها هي نفسها تطوّرت في الصحراء

بدون واسطة إلى أن أصبحت مصنوعات للعصر النيولوتي . لكنّه يجدر أن نلاحظ أنّ الموستيري لم يتبع بصفة منتظمة الاشولي الذي يبدو أنّه تطوّر في ظروف غامضة جدّا إلى صناعة سمّاها م. ريقاس السبيخي (نسبة إلى برج السبيخة بجبل دراميں في الجنوب الشرقي من مقاطعة قسنطينة) وهذه المصنوعات المتجسّمة في أدوات حادّة على شكل أوراق الشجر والشبيهة بالأشكال السولوترية (solutréenne) قد تكون هي الحدّ الذي انتهت إليه المصنوعات ذات الوجهين بإفريقيا الشمالية .

وبدهي أنّنا لا ندّعي في هذه اللمحة تلخيص الآراء التي أجمع عليها مؤرّخو ما قبل التاريخ تلخيصا أمينا . إنّما حرصنا على تضمين ما اتّفقوا عليه أكثر من تضمين ما اختلفوا فيه . فعندما ننظر في المشكل الرئيسي ، وهو مدى هذا التطوّر في الزمان يتعذّر الظفر بأغلبيّة يمكن الاطمئنان إليها . فالهوّة سحيقة بين الذين يرون مع الأب ه. بروي (H. Breuil) أنّ هذه المدّة "مفرطة في البطء" وبين الذين يعتقدون مع م. بول (Boule) أنّها قصيرة ، وبعبارة أخرى بين الذين يعتبرون الشيلي معاصرا لتجلّد قونز (Günz) ، وبين الذين يرون أنّه معاصر للفترة الأخيرة من عصر ما بين الجليدي . وهكذا فالفرق يعدّ بمئات الآلاف من السنين . ومهما يكن الأمر فإنّه يجب التأكيد بأنّ مدّة العصر الحجري الأدنى سواء في إفريقيا الشمالية أو غيرها طويلة جدّا ، لا بالنسبة لعصور التاريخ فقط ، بل بالنسبة إلى العصر النيولوتي أيضا وحتى بالنسبة إلى العصر الحجري الأعلى (Paléolothique supérieur) .

وإذا اعتبرنا جملة ما تعاقب من آلاف السنين الغامضة ، وجدنا أنّ الإنسان قد مرّت به ظروف غريبة . فنحن نجهل كلّ الجهل ما يتّصل بالبشر الذين خلّفوا لنا الأدوات الشيلية والآشولية . ولم تزدد صورة الإنسان وضوحا بالنسبة إلينا إلاّ في العصر الموستيري أو قبله بقليل عند اكتشاف إنسان الرباط : وهو شخص قصير القامة ، عظيم الهامة ، طويل الوجه ، مفلطح الجمجمة ، محدود المدارك العقلية محروم على ما يظهر من كلّ "المشاغل الجمالية والأخلاقية" (بول فلوا Boule-Vallois) شأن أمثاله من نياندرتاليين (néanderthaliens) إذ كان

يجد ضرورات عيشه اليومي في طبيعة حارّة رطبة تزدحم فيها حيوانات مخيفة . ولا شكّ أنّه ليس من التهوّر أن نعتقد أنّه كان لا يخضع في آخر الأمر إلاّ إلى متطلّبات غريزة البقاء .

2 ـ العصر الحجري الأعلى

إنّ العصر الحجري الأعلى بإفريقيا الشمالية تمثّله مراكز يفوق عددها بكثير مراكز العصر الحجري الأدنى ، خاصة إذا نحن ، كما يشاء البعض ، (R. Vaufrey, A. Ruhlman) أدخلنا ضمنه العتيري الذي يقحمه آخرون في العصر الحجري المتوسّط (مثل ريقاس Reygasse) والذي تكثر مظاهره في البلاد جميعها . وليس معنى هذا أنّ كثرة الوثائق هي التي ساهمت في حصول الاتّفاق بين الاختصاصيين بل يمكن أن نذهب إلى عكس ذلك . غير أنّه يظهر أنّ أمرا وقع التسليم به : وهو وجود "مقاطعتين" أثريّتين تمثل الأولى القفصي والثانية الموبي الذي هو ليس سوى "مظهر جانبي" للأول . ومن غير شكّ لا يمكن إثبات المعاصرة المطلقة للصناعات التي يختصّ بها هذان الطوران غير أنّه من المرجّح على الأقل أنّهما تفاعلت إلى حدّ ما على مرّ الدّهور .

وكلمة القفصي مأخوذة من مراكز واقعة بجهة قفصة (باللاتينية كبسة Capsa) في الجنوب الغربي من البلاد التونسية حيث لاحظ ج. مرغون (J. de Morgan) وجود الطور القفصي لأول مرّة وأهمّ مركز يمثّله هو مركز المقطع . وهو معروف كذلك باسم آخر نَبَدّدَهُ اليَوْمَ الباحثون بصفة عامّة وهو الجاتولي (ب. بلاري P. Pallary) . ورقعة انتشاره هي الجنوب التونسي وخاصّة جهة قفصة بالذات ، وجنوب مقاطعة قسنطينة . غير أنّ اكتشافات حديثة بيّنت أنّ حدوده الجنوبيّة لا تتّفق مع الحدّ الشمالي للصحراء كما كان يظنّ . ويظهر أنّ منطقة الصناعات القفصية كان لها إشْعَاع منذ الطّور القفصي الأعلى في بلاد المغرب ، بحيث نجد أنفسنا أمام نوع من الاستغلال الذي يتوغّل في الجهات المتاخمة ويؤثر في الصحراء حتى قبيل العصر الحجري الحديث .

إنّ القفصي هو فترة "المحلزات" (Escargotières) أولا وبالذات . وأطلق هذا الاسم لاتابي (Latapie) على هضاب اصطناعية لا يتجاوز علوّها عشرة أمتار ويمكن أن تبلغ أبعادها المتفاوتة إلى أقصى حدود التفاوت الخمسين مترا عرضا والمائة والخمسين مترا طولا . وهذه الهضاب تكوّنت بتراكم الرماد والأدوات والهياكل العظميّة البشريّة والحيوانيّة ، وخاصّة أصداف الحلزون التي منها اشتقّ الاسم الذي أطلق على هذه الهضاب . غير أنّه يجدر أن نلاحظ أنّ مثل هذا التراكم المعقّد يوجد في بعض الخبايا تحت الصخور كخبيئة كلاريسون (l'Abri Clariond) قرب أم العرائس بالجنوب التونسي . وهذه الأجزاء المتنوّعة تمثّل ما تبقّى من المخيّمات والقرى القديمة . وتختصّ مجموعة الأدوات الموجودة في هذه الأمكنة بظهور الحجارة المنحوتة الدقيقة ذات الأشكال الهندسيّة والأزاميل الصغيرة التي تضخّم عددها أثناء تطوّر العصر القفصي . وكثافة هذه "المحلزات" في بعض الجهات كبيرة جدّا . فلقد اهتدى "لاتابي" إلى 42 "محلزة" في دائرة يقدّر نصف قطرها بـ 30 كلم حول تبسّة ودابروج (Debruge) على طريق "كرناي" بالجبل . كما اهتدى فورتاس (Fortas) إلى ستّ "محلزات" في مساحة قدرها 12 كلم . ويمكن أن نعدّ هذه "المحلزات" بالمئات بالنسبة إلى إفريقيا الشمالية كلّها إذا لم يقارب عددها الألف .

وبينما نجد تشابها في العصر الحجري الأدنى بين نماذج أدوات إفريقيا الشمالية وبين نماذج أدوات أوروبا الغربية فإنّه لم يلاحظ أنّ خصائص المصنوعات القفصية كانت توجد في مصنوعات السواحل الشمالية للبحر المتوسّط . ولذا فإنّه أصبح اليوم لا يعتدّ بالافتراض القائل بأنّ الاورينياسي (l'Aurignacien) هو من أصل قفصي . فالقفصي الأصيل ، بمعنى القفصي الأدنى ، لم يبلغ البتّة البحر ولم يقدر على الوصول إلى صقلّية وإيطاليا . أمّا أصوله فالأفضل أن يبحث عنها في مصر حسب ر. فوفري (R. Vaufrey) . غير أنّ المقارنات من حيث التواريخ التي أمكن ضبطها بين القفصي وبين "سبيلي" (Sébilien) — جهة أسوان — ليست من الصحّة بحيث تسمح بتجاوز الاحتمال إلى اليقين .

وإذا استثنينا جهة التلال المرتفعة في وهران والجزائر ، حيث ننتقل مباشرة من الموستيري أو العتيري إلى الحجري الحديث ، فإنّ الجزء من إفريقيا الشمالية الذي لا يسيطر عليه القفصي أي الواجهة الساحلية منه هو من مشمولات "الموبي" (Mouillen) وقد اكتشف هذا الأخير لأوّل مرّة سنة 1908 في مويه (Mouillah) قرب مرنية غربي مقاطعة وهران . غير أنّ لفظة موبي بقيت قليلة الاستعمال وقد فضّلت عليها قديما كلمة الإيبري موريزي (Ibéro - Maurusien) التي اقترحها ب . بلاري (P. Pallary) وعوّضت الآن بكلمة وهراني التي تخيّلها ه. بروي (H. Breuil) .

ولا بدّ أن تكون هذه الصناعة التي "لا يوجد أفقر منها" كما قال ر. فوفري شكلا متطوّرا من القفصي . وهي بالفعل قريبة جدّا من القفصي الأعلى ولا تختلف عنه إلاّ" بانعدام الأدوات الحادّة الكبيرة والمتوسّطة ذات الحدّ الساقط (à dos abattu) وبقلّة الحجارة المنحوتة الدّقيقة ذات الأشكال الهندسيّة" (ر. فوفري) وبالعكس فإنّ الشفرات الصغيرة ذات الحدّ المقوّس (à dos rabattu) هي أهمّ ما في هذه المجموعة من الأدوات . وهذا يدعونا إلى التفكير في أنّ هذه المدنيّة "القفصيّة" قد عمّت شيئا فشيئا وخطوة خطوة معظم البلاد البربرية أوْ كادتْ ، وإنّ فنّ الصناعة الذي تمثّله حلّ محلّ صناعات العصر الحجري المتوسّط الموجود تحت "الموبي" . ولقد أجمع الباحثون اليوم على رفض صحّة العلاقات الأثريّة بين هذه الصناعة وبين صناعات إسبانيا التي أريد من لفظة "ايبري موريزي" التعبير عنها .

ولا يمكن طبعا تحديد الفترة التي ولدت فيها وترعرعت المدنيات القفصية الموبية تحديدا مدقّقا . غير أنّه لابدّ أنّها تلت نهاية فترة التجلّد الأخيرة التي حصلت حسب جير (Geer) قبل المسيح بـ 14 000 سنة ، ولا بدّ أنّها سبقت من جهة أخرى النيوليتي الذي يظهر أنّه عاصر الفترة التي تقدّمت ما قبل عهد الأسرات بمصر ، وهي فترة انتهت حوالي سنة 3 500 قبل المسيح . ولذا فإنّه يستبعد أن نُخطىء إذا

قلنا : إنّ أكبر جزء من العصر الحجري الأعلى في افريقيا الشمالية يمتدّ من سنة 000 10 إلى 000 5 قبل المسيح .

وأثناء هذه الفترة الطويلة جفّ المناخ شيئا فشيئا حتّى وصل إلى درجة قريبة من الدرجة التي نعرفها الآن . ورغم ذلك فإنّ الفيل والبقر والغزال والكركدن والنعام بقيت تجوب الأرض المغربية . وبدون شكّ فإنّ جَنْيَ الثمار والصيد هما اللّذان كانا يأخذان القسط الأكبر من نشاط الإنسان . غير أنّ إنسان مشتى العربي كان ينتمي إلى فصيلة الإنسان العاقل (Homo sapiens) فهو يجهل الحيوانات الآهلة ، إلاّ أنّ المشاغل الجمالية لم تكن غريبة عنه إطلاقا ، كما تدلّ على ذلك الأشكال الهندسية التي اتّصفت بها آلاته ، وكما تدلّ على ذلك النقوش التي يخطّها على قشور بَيْضِ النّعام كنقش الحيوان المجترّ الموجود بواد منقوب قرب أولاد جلال في مقاطعة قسنطينة ، أو الأصداف المثقوبة التي كانوا يستعملونها للتجميل : وينزل هنا الإنسان في غالب الأحيان على مقربة من الوديان أو العيون ، وتوجد منازله التي يعيش فيها عيشة الحضر حتى في الجبال كما تدلّ على ذلك اكتشافات أ. روهمان في الأطلس المتوسّط .

3 — العصر الحجري الحديث

إنّ العصر النيوليتي في إفريقيا الشمالية نتيجة اتّصال التقاليد المحلّية بما ورد من الخارج ، ومعنى هذا أنّ بعض العناصر التي هي في الحقيقة من العصر النيوليتي كالأدوات المصقولة والآنية الخزفية قد اختلطت بأشكال القفصي والمويي المتطوّرة . ولقد اقترح ر. فوفري ، وله الفضل في اكتشاف هذا الاتّصال أن نميّز بين عصر نيوليتي ذي تقاليد قفصية هو بدوره منبثق عن القفصي المثالي بواسطة ما يسمّيه هو ما بين القفصي والنيوليتي ، وبين النيوليتي الموسوم بالطابع الوهراني المنبثق هو نفسه عن المويي .

ولا شكّ أنّ العهد النيوليتي الشمال إفريقي حديث العهد نسبيا . ويظهر أنّه لا يسبق بكثير الأربعة آلاف سنة قبل المسيح وأنّه امتدّ إلى قلب العصور التاريخية . فانعدام فترة انتقالية تالية للعصر النيوليتي

هي بالفعل من خصائص ما قبل التاريخ في افريقيا الشمالية ولهذا فإنّ الفينيقيين أسّسوا مراكزهم التجارية الأولى في عالم ذي مدنية نيوليتية ، والصحف التي خصّصها هيرودوت لإفريقيا تلقي هنا وهناك أضواء خاطفة على ذلك . غير أنّ ربط بلاد البربر بعالم المدنيات المتوسّطية لم يكن على ما يظهر نتيجة الانفصال التام عن العادات العريقة في القدم . فلا شكّ أنّه استعملت سهام من الحجر مدّة طويلة بعد ذلك . وكذلك لم تهجر الملاجىء النيولوتية فجأة واستمرّ السكّان إلى قلب العهد الروماني على ما يظهر يرصّفون صخرة على صخرة لبناء مساكنهم وهي المصاطب (dolmens) .

وأثناء العصور النيولوتية أخذت طبيعة إفريقيا الشمالية تقترب شيئا فشيئا ممّا هي عليه الآن فتفاقم جفاف المناخ وتغيّرت "الفونا" . فاختفى فرس البحر والفيل الأطلسي وأصبح وجود الكركدن نادرا جدّا وأصبحت الأيلات هي الأجناس المختصّة بهذا العصر . وأخيرا ظهرت الحيوانات الآهلة وخاصة الفرس والكلب . والسكّان هم إمّا من آخر أحفاد إنسان مشتى العربي أو الممثّلون الجدد للجنس المتوسّطي . فلم تحدث في ذلك الوقت أيّة ثورة جنسية غير أنّنا كثيرا ما نعاين من وقت لآخر تأثير عناصر زنجية بالجنوب التونسي في "الرديّف" مثلا . وتغيّرت الحياة الاجتماعيّة ، وظهرت الفلاحة ونمت ، وإن بقيت صناعة الحجارة هي الصناعة الأصلية فلم تعد هي الوحيدة ، وتحسّنت شيئا فشيئا . وحلّت أدوات الحجارة المصقولة ، وخاصّة الفأس ، محل أدوات الحجارة المنحوتة. وتكاثرت مع مرور الزمن الأمتعة المصنوعة من العظام ، وظهرت خاصّة آنية الفخّار بدائية بعيدة عن الجودة إلاّ أنّها تشهد باعتناء أصحابها بالناحية الجمالية . فلقد بقيت آثار الزّخرف على الأجزاء القليلة التي نعثر عليها كالخطوط والحواشي الحمراء أو الرسوم المقتضبة المخدومة بالأظافر والأشواك . ويظهر أنّ بلاد المغرب عرفت في هذا العصر حتى فنّ صنع التماثيل الشبيه بما نجده في الصحراء إذا نحن عددنا كما فعله م. ريقاس (M. Reygasse) أصنام "تابل بلات" ذات الرؤوس الآدمية في الصحراء الشرقية من العصر النيوليتي . وعلى كلّ فإنّ مساكن الحجارة الكثيرة في غربيّ البلاد التونسية وفي مقاطعة قسنطينة (يوجد أكثر من عشرة آلاف

مسكن حول "سيغوس" في الجنوب الشرقي من قسنطينة) والملاجيء المقامة على المشارف كالتي نجدها في أعلى منحدرات واد "باث" تشهد بأنّنا إزاء مرحلة أولى للفنّ المعمارى (أ. ب. روهمان) .

وليس هناك من شكّ في أنّ بلاد البربر تدين لمصر بأكبر قسط من هذه التغييرات . ويظهر أنّ المراكز الصحراوية مثل مركز عبد العظيم في الجنوب الغربي من العرق الكبير تدلّ على أنّ الصحراء كانت همزة وصل بين إفريقيا الشرقية وبلاد البربر وكذلك بالنسبة لوجود (spatha nilotica) في تيديكالت (Tidikelt) إلاّ أنّه يرجّح أنّ الصلات بأوروبا وخاصّة إسبانيا تمتّنت أيضا . والتشابه بين آنية "أشاكر" الخزفيّة (رأس سبرتال) وبين بعض الآنية الخزفيّة الإسبانية يصعب عدّه مجرّد صدفة .

III ـ الصخور المنقوشة

1 ـ صخور إفريقيا الشمالية المنقوشة

خلّف لنا الأفارقة الذين عاشوا في عصور ما قبل التاريخ زيادة على آلاتهم وبقايا مآكلهم صخورا منقوشة يسمّيها الأهالي "الحجرات المكتوبة"، وكانت هذه الحجارة الموجودة بكثرة في عدّة جهات من إفريقيا الشمالية مادّة للأبحاث التي قام بها ج. ب. فلامون (J. B. Flamand) مدّة أربعين سنة . إلاّ أنّ الاكتشافات والنشريات تعدّدت منذ سنة 1921 وهو تاريخ ظهور كتابه "الحجارة المكتوبة" (Les pierres écrites) الذي أصبح مرجعا مألوفا منذئذ . والمشاكل التي أثارها من حول هذه النقوش ومواضيعها وتواريخها كانت محلّ بحث أ. ف. قوتيه (E. F. Gautier) وه. بروي (H. Breuil) وم. ريقاس ، وته. مونود (Th. Monod) بالنسبة لجهات من الصحراء مختلفة وب. قرازيوزي (P, Graziosi) ول. فروبنيوس (L. Frobenius) بالنسبة لليبيا وم. سوليناك (M. Solignac) بالنسبة لبلاد البربر الشرقية ور. فوفري (R. Vaufrey) بالنسبة لجنوب وهران . وإذا كانت قائمة هذه الصخور المنقوشة لم

تكتمل بعد اكتمالا كليا فإنّنا نجد بين أيدينا جملة وثائق كافية لتمكيننا من بحث إجمالي .

ومنذ ظهور دراسات ج. ب. فلامان نتبيّن ثلاثة أنواع من النقوش : ففي الأولى — التي لا شكّ أنّها حفرت بالصوان — خطوط عريضة عميقة منتظمة . وكان النقّاشون يبدؤون برسم مواضيعهم ثم يحفرون بمنقاش نقطا متسلسلة بيّنة وأخيرا ينتهون إلى خطّ متّصل واضح بعد صقل متقن بحكّ آلة حجرية وفوق هذه النقوش توجد نقوش ثانية أصغر حجما منقوطة نقطا غير متقنة فيها إجمال كبير ومرفوقة بكتلات أو خطوط ليبية بربرية . وهذه النقوش تمثّل حيوانات تعيش إلى الآن في بلاد البربر ومن بينها ما دخل البلاد حديثا كالجمل مثلا ومن هذه النقوش نوع ثالث نمطه عصري خُطّ في رفق ورافقته كتابات عربية هي بالطبع رسمت بعد القرن السابع المسيحي .

2 — تصوير الحيوان والإنسان

إنّ النوع الأوّل وهو الأقدم ، هو الذي يدعو إلى المناقشة . فليس لنا عناصر تمكّننا من ضبط عمره مثل العناصر التي استعملها هـ. بروي مثلا وجعلته ينسب نقوش فرنسا وإسبانيا إلى الاورنياسي (l'Aurignacien) والمقدليني (Magdalenun) والسوليتري (Solutréen) معتمدا على كونها مدفونة في مساكن هذه العصور المختلفة بين حيوان وأدوات معيّنة من حيث التاريخ . ورسوم الحيوانات في بلاد البربر لا تسمح للباحث بالوصول إلى استنتاجات مدقّقة شأنها في فرنسا لأنّ "الفونا" المغربية لم تطرأ عليها نسبيا إلاّ تغييرات طفيفة . وأخيرا فإنّ مجموعة الآلات المكتشفة قرب الصخور المنقوشة لا تأتي بما يمكن الاعتماد عليه في البحث بصورة جدّية تسمح بالحكم حكما باتّا. إذ هي ترجع إلى عصور مختلفة وتظهر في غالب الأحيان لا علاقة لها بالنقوش .

غير أنّ هذه الصخور المنقوشة نجدها جنوب وهران متّصلة اتّصالا دائما بالعصر الحجري الحديث الموسوم بالطابع القفصي "ونستثني من ذلك كلّ المصنوعات الأخرى من صنف مصنوعات العصر الحجري

الأعلى والمتوسّط والحديث" (ر. فوفري) . ولو تعمّقنا في البحوث لأمكن الجزم بأنّ الأمر ليس شاذّا .

وأكثر الحيوانات الممثّلة بالصور هو الجاموس القديم(bubalus antiqus) وهو حيوان ذو قرنين طويلين جدّا كان يعيش في آخر عصر البالستوسان (pléistocène) ومن ذلك يستنتج ج. ب. فلامان الذي يعتقد أنّ انقراض هذا الحيوان صادف ظهور الصحراء وأنّ هذه الصخور المنقوشة من عصر نيوليتي . إلاّ أنّ حياة الجاموس تكون قد امتدّت إلى عصور أقرب إلينا كما هوالشأن بالنسبة للفيل.غير أنّنا لا نزال نتناقش لمعرفة أيّ النوعين عاش في إفريقيا من عصر البالستوسين إلى أن أتت عليه المدنيّة الرومانية ، فهل هو الفيل الأطلسي من الجنس القديم أم هو الفيل الإفريقي الحديث . ونجد أيضا أيّلات وأسودا وفهودا وزرافات ونعاما وكذلك حيوانات آهلة وخاصّة كباشا مغطّاة رؤوسها بغطاء مدوّر الشكل يذكّرنا في شيء من الغرابة بقرص كبش عمون . غير أنّ تأويل هذا الشعار الذي نجده على رؤوس صور الحيوانات المجترّة لا يخلو من صعوبات . ولسنا واثقين تمام الوثوق من أنّه رمز للشمس . أمّا فيما يخصّ أصول عبادة الكبش فإنّ المناقشة ما زالت مفتوحة : يتمسّك البعض بأنّه يوجد تقارب بين هذه العبادة وبين إله ثيبة . ويذكر "فوفري" في هذا الشأن عبارة "العبادة المتفرّعة" ، ويؤكّد آخرون أنّ الكبش الصحراوي المنقوش "لا يدين بشيء إلى الاله عمون الذي لم يخلق بعد " (ج. جرمان G. Germain) ويذهبون إلى أنّ مصر والمغرب كرعا من منبع ثقافي واحد .

وفي بعض الأحيان نجد أنّ هذه الحيوانات مصوّرة جماعات جماعات ومن بين المشاهد الغريبة مشهد صراع جواميس الريشة العتيقة (جنوبي عفلو) ومشهد تمزيق الأسود وبنات آوى لخنزير وحشي بكاف مسوار (بلديّة واد شرف المختلطة) .

وإنّ لبعض الصور الآدمية قيمة أثرية عظيمة . فالأشخاص كانوا يسترون عوراتهم ويلبسون ثيابا من جلد الحيوان . وبعضهم يطوّقون رؤوسهم بإكليل من الرّيش ، وهي علامة الثروة والجاه بلا منازع . والبعض الآخر

كان يتحلّى بقلائد وأسورة . وكانوا يدهنون أجسادهم بالمغرة وكانت أسلحتهم القوس والسهام والعصي القاذفة (boomerangs) والتروس .

ومن أهمّ الصور الآدمية من حيث قيمتها كوثائق طبعا صورة إنسان قصر الأحمر قرب "جريفيل" جنوبي مقاطعة وهران ، وهو يلوّح بآلة يبدو أنّها فأس من الحجر المصقول .

3 ـ ضبط تواريخ الصخور المنقوشة

إذا لم ينازع أحد في أنّ فن النّقش على الصخور ثبت طيلة قرون عديدة بعد المسيح ، فإنّنا لا نجد نفس الإجماع عندما نسعى في ضبط تاريخ بروز مظاهره الأولى ولو على سبيل التقريب . والحقّ أنّ الباحثين كثيرا ما عقدوا المشاكل عند ما سلّموا بنتائج على أنّها ثابتة بينما هي ليست إلاّ مجرّد افتراضات يقتضيها البحث . فنحن لم نعد نقبل اليوم النتائج التي يزعم ج. ب. فلامان أنّه استخلصها من اختلاف طرق الصناعة المستعملة من طرف الناقشّين على الصخور ولا التي استخلصها من كثافة الطبقة الكدرة المتفاوتة والمغشية للصخور . والتواريخ المرتكزة على المقارنات الأثريّة كان مصيرها مصير هذه الحقائق المزعومة والمرتبطة بهذه التواريخ. أمّا الحقائق الخاصّة بالحيوانات القديمة فكثيرا ما أعارها الباحثون قيمة خيالية . فلا شيء يدلّ على أنّ هذا النقش أو ذاك يمثّل آخر جاموس أو أوّل جمل . وفيما يخصّ الجمل بالذات الذي يكتنف تاريخه غموض كبير فإنّنا نتردّد في الاعتقاد بأنّ للصور قيمة تاريخية حاسمة . وما اقترحه ت. مونود بالنسبة لنقوش "ادرار أحنات" من تمييز بين الطور الذي ظهر فيه الجمل والطور الذي سبقه لم يفز برضا الجميع . ووجود الفرس الآهل هو وحده الذي يمكّننا من دليل يقيني لضبط تاريخه : وهو النصف الثاني من الألف الثانية لا قبله .

وفي إيجاز فالمشكل يرجع إلى معرفة هل أنّ أعرق الصخور المنقوشة في القدم هي سابقة للعصر النيوليتي أم لا . وبصفة عامّة فإنّ الطبيعيين كم. بول (Boule) ومولينياك ول. جولو (L. Joleaud) وبعض مؤرّخي ما قبل التاريخ كه. كوهين (H. Kühn) أجابوا بنعم ، ونسبوا النقوش

القديمـة إلى العصر الحجرى الأعلى (القفصي) بينمـا دقّـق الأب بروي (H. Breuil) الأمر فاستعمـل عبارة المضاف إلى العصر الحجرى القديم (épipaléolothique) ومـن دون أن نـذهب إلى مـا ذهب إليه ستيفان قزال (St. Gsell) عندما قـدّر تاريخ هذه النقوش بـ 3 000 سنة قبل المسيح ، فإنّ أغلب مؤرّخي ما قبل التاريخ كـ ج. ب. فلامان أو برماير (H. Obermaïer) وبصفـة أبلغ ر. فوفري يرون أنّ فنّ النقش على الصخـور معاصر للعصور النيوليتيـة ولقد أوردوا حججـا تتفاوت قيمـة لتدعيم كلتا النظريّتين . ويظهر أنّـهم لم يصلوا إلى نتيجة بعيدة عن الخدش ، لـكن يمـكن أن نلاحظ أنّ الريـح تهب اليوم صوب النيوليتـي .

أمّا المقارنات التي لم يتمالك بعضهم عن تسجيلهـا بين هذه النقوش ونقـوش إسبانيـا وخاصّـة إفريقيا الجنوبيـة ورسومهـا ووجوه الشبـه التي لوحظت بين هذه النقـوش وبين بعض مظاهـر الفنّ الايجي أو المصرى فليس لها من قيمـة إلاّ بالقـدر الذى نعدل فيه عن الادّعاء بأنّـه يمكن بواسطـة المقارنات حلّ مشاكل لا تزال وربّـمـا ستبقى دائمـا غامضـة .

وإنّ ما قبل تاريخ بلاد المغرب ينبىء بتاريخـه . ذلك أنّه لا مفرّ في كليهمـا من الاكتفاء في غالب الأحيان بتواريخ تقريبية . وإذا أفلتت شعوب ما قبل التاريخ من سلطـان التدقيـق فإنّـه ليس من الهيّن ضبط شعب التاريخ ، أي البربري الذى يمثّـل من الوجهـة الاجتمـاعية إن لم نقـل من الوجهـة الجنسية حقيقـة حيّـة قارّة .

الباب الثالث

البربر

١ ـ مشكل الجنس. ٢ ـ أوائل التاريخ

٣ ـ مدنية البربر

I ـ مشكـل الجنـس

1 ـ البربـر

مهما رجعنا إلى أوائل تاريخ إفريقيا الشمالية لاحظنا أنّ الأمور تجري كما لو أنّه كتب على هذه البلاد أن تبقى قاصرة قصورا وراثيا عن التمتّع باستقلالها . فلقد بقيت دائما خاضعة لمدنيات واردة من الخارج ، وفي بعض الأحيان اقترن مصيرها بمصير هذه المدنيات . فكان يجب أن نجد مبدئيا شعبا متعدّد المقوّمات متغيّر الثمرات . ولكنّ الحقيقة غير ذلك . فسلطان الطبيعة هنا عظيم . والعبارة العربية "جزيرة المغرب" ليست من قبيل الاستعارة فحسب ، بل هي تمثل هذا الميل إلى الدّوام الذي تختصّ به الجزر . فالمدنيات المتتابعة التي طرأت من الخارج لم تكن بالنسبة إلى البربري إلاّ ثيابا متنوّعة تستر جسدا وروحا لا يتغيّران. زد على ذلك الجبال التي نمّت في بلاد المغرب هذا الميل إلى المحافظة .

ومدلول المدنية البربرية عندنا هي هذه المجموعة من التقاليد والعادات والأخلاق والنظم التي وجدت خالصة أو مشوبة في كلّ العصور بقطع النّظر عن صروف التاريخ . فهي مظاهر قارّة لعقلية ثبتت أمام مشاكل سياسية أو دينية ، وهي بعبارة أخرى محصول بحث سوسيولوجي لم يكتمل من سوء الحظ ، وستصبح عن قريب مواصلته مستحيلة .

فهذا الحدّ السوسيولوجي للبربري ، مهما أعوزه الوضوح والدقّة ، هو الحدّ المرضيّ الوحيد ، وهو وحده الذي يعبّر عن الخصائص المشتركة للسكّان الموجودين في شمال القارّة الإفريقية من طرابلس إلى المحيط الأطلسي . ورغم اختلاف طرق العيش اختلافا واضحا جدّا في الحاضر والماضي فإنّنا نلمس في كلّ هذه القطعة من أوروبا المشدودة إلى إفريقيا العناصر الطريفة لوحدة بشرية عظيمة .

ولا شكّ أنّ هذه الوحدة قد ظهرت قديما في ميدان اللغة ، وقد لا يكون ذلك باستعمال لغة واحدة في بلاد البربر كلّها ، بل في أغلب الظنّ باستعمال لهجات متقاربة تكون مجموعتها المسمّاة اصطلاحيا الليبية فرعا من فروع أسرة حام ، وهي مصدر اللهجات البربرية الحالية . غير أنّ هذه المجموعة التي هدّدتها لغات مدنيات أخرى تصدّعت وتفرّقت كتلا مختلفة . فالعربية غزت سكّان المدن والسهول ويذهب "وليام مارسي" إلى أنّ نسبة الناطقين بالبربرية هي اليوم 23 بالمائة في ليبيا ، وواحد بالمائة في تونس ، و 27 بالمائة في مقاطعة قسنطينة ، و 34 بالمائة في مقاطعة الجزائر العاصمة ، وواحد بالمائة في مقاطعة وهران . وقد تجاوزت هذه النسبة 40 بالمائة في المغرب الأقصى . لكنّ الأمر لا يعدو الفروق اللغوية . فليس هناك خطأ أعظم من الاعتقاد — كما فعله البعض في كثير من الأحيان — في أنّ التقسيم بين الناطقين بالعربية والناطقين بالبربرية يعكس تقابلا بين جنس عربي وجنس بربري . إنّ الأمر لا يدلّ إلاّ على أنّ اللهجات البربرية استقرّت في جهات جبلية أصعب منالا على الغزاة بينما استسلمت في جهات أخرى إلى لغة أكثر مسايرة للضرورات الاجتماعيّة .

2 — شبكة من الأجناس

ينبغي ألاّ نستخلص من هذه الوحدة المتأصّلة للحضارة البربرية أو من المعطيات اللغوية التي نبّهنا إليها سابقا وجود أساس جنسي يفسرها .

ولا شكّ أنّه منذ أوائل عصور التاريخ استقرّت ببلاد المغرب شعوب مختلفة شديدّ الاختلاف . وإذا نحن استثنينا الشعوب التي لم تمتزج بصفة عامّة بالسكّان الأصيليين أو المندمجين ، مثل الأوروبيّين الذين استقرّوا منذ ما يقرب من قرن ، أو اليهود الذين أتوا في دفعات متتابعة منذ العصور القديمة ، فإنّنا نلاحظ استيطان الساميّين (الفينيقيّين والعرب) والهنديّين الأوربيين (اللاطين والوندال واليونان) والاتراك والزنوج . غير أنّ هذه العناصر المختلفة ، وإن هي امتزجت بالسكّان المستقرّين ، فقد أتت في عدد ضئيل جدّا بحيث تعذّر عليها تغيير المقوّمات الجنسية بإفريقيا الشمالية ؛ فالوندال كانوا ثمانين ألفا وكذلك العرب المستوطنون فعددهم لم يكن كبيرا جدّا . فالجيوش المرسلة من الشرق إلى افريقيا في القرنين : السابع والثامن بلغ مجموعها 150 000 رجل تقريبا . وكما قال "وليام مارسي" : يجب أن نعتبر الخسائر في الأرواح بساحات القتال مدّة الغزو الطويلة والثورات البربرية . غير أنّه من الواجب أن نزيد على هذه المجموعة النساء والأطفال والموظّفين والتّجّار والمبشّرين الذين كلّفوا بنشر تعاليم الإسلام بين البربر ، ومجموع هؤلاء جميعا لا يتجاوز مائتي ألف أو ثلاثمائة من الدخلاء على أكثر تقدير . أمّا فيما يخصّ العناصر الأخرى المستوطنة فليس لدينا أرقام ولو تقريبية . ولكن ليس هناك ما يدعو إلى الاعتقاد بأنّها كانت كبيرة العدد، وفي الجملة لا نرى أنّ واحدا منها أمكن أن يكون له مفعول قوي فيما يخصّ واقع البلاد الجنسي ، خاصّة إذا نحن لم ننس أنّ المستوطنين كانوا يتعاقبون في الزمان ، وينتشرون في المكان .

فهذه الملاحظات تدعونا إلى التفكير في أنّ السكّان الذين يعمرون بلاد البربر اليوم — مع اعتبار بعض عمليات التوليد — هم أنفسهم الذين كانوا يعمرونها في أوائل عصور التاريخ ، ولكن يكفي أن نقارن بين الميزابيّين ذوي الرؤوس البيضية والقامات القصيرة واللون الأسمر والوجوه المفلطحة وبين سكّان جبال القبائل ذوي الرؤوس المستطيلة والقامات القصيرة والنظرة الصافية والشعر الأشقر أو الأصهب غالبا — لندرك إلى حدّ اليقين أنّ البربر لا يكوّنون جنسا منسجما من حيث الانتروبولوجية . ولا شكّ أنّه حدث خلال عصور ما قبل التاريخ اختلاط كبير بين مختلف

عناصر السكّان انبثقت منه النّماذج الجسديّة الحالية ، وأنّه من السابق لأوانه — وأبحاثنا الانتروبولوجية في إفريقيا الشمالية على الحالة التي عليها الآن — أن ندّعي توضيح خفايا الامتزاجات الواقعة في العصر النيوليتي وما قبله توضيحا كاملا . غير أنّ أبحاثا حديثة تسمح لنا بالاعتقاد أنّ البربري يستمدّ أصوله من عنصرين أساسيين : إنسان مشتى العربي وإنسان ما قبل المتوسّطي (préméditerranéen) . ومهما يكن الأمر فإنّ ملاحظات أغلبها قديمة ومستمدّة من البربر الحاليين تبيّن تنوّعهم الانتروبولوجي .

3 — تصنيف برتولون (Bertholon) وشانتر (Chantre)

بعد أن قام برتولون وشانتر بـ 532 1 ملاحظة في قيس الأوادم انتهيا سنة 1913 إلى تقسيم سكّان بلاد البربر الشرقية إلى ثلاثة أصناف :

صنف 1 : وهو قصير القامة مستطيل الرأس ، متوسّط الأنف ، أسود الشعر ، بشرته فيها صُدْأة وصبْغُها أحمر يضرب إلى السُّمْرة وهو صنف الاس (Ellez) ضبطه كولينيون (Collignon) .

صنف 2 : وهو قصير القامة بيضي الرأس ، دقيق الأنف طويله ، أسود الشعر في عينيه دُكنة ، وفي بَشَرته صُدْأة صبْغُها ضارب إلى الصّفرة . وهو صنف جربة ضبطه كولينيون .

صنف 3 : وهو طويل القامة ، مستطيل الرأس ، دقيق الأنف طويله ، له ، إذا كان أصيلا ، شعر أشقر وعينان زرقاوان وبشرة بيضاء ورديّة اللون . لكنّ هذا الصنف قد داخله التوليد وتفرّع عنه نوعان آخران .

صنف 3 — أ — : له خصائص صنف 3 ولكنّه بَيْضِيّ الرأس

صنف 3 — ب — : مولّد من أصل زنجيّ ، أنفه منتشر وبشرته أكثر دُكنة ، وهو صنف الواحات . ضبطه كولينيون .

والصنف ذو الرأس المستطيل والقامة القصيرة له صلات بالجنس المتوسّطي ، والصنف ذو الرأس البيضي له علاقة بأصناف آسيا الصغرى

الشبيهة به (أكراد) ، وخاصّة فرنسا (دردونيا) . والصنف ذو الرأس المستطيل والقامة الطويلة له صلات بالجنس الاوربي المعبَّر عنه بالشمالي .

وفضّل الدكتور "لوبلان" (Leblanc) ، على البحث الذي أجراه "برتولون" و"شانتر" حول مجموع السكّان ، القيام ببحث مسبّق منتظم للصنف أو الأصناف الغالبة التي يعتمد عليها علم قيس الأوادم . ولا يرى مانعا من الانتفاع بالدراسة التي تعتمد على التشريح الخارجي ، والتي لم يهتمّ بها من سبقه .

وهو يطعن في قائمة الأسماء التي ضبطاها ، ويطعن في تعديدهما لأصناف شتّى لا تعطي أيّ تدقيق فيما يخصّ إمكانية وجود البربرى : فصنف 1 هو توليد من أصل زنجيّ قديم وصنف 2 يضمّ الميزابيّين الذين ينكر عليهم نسبتهم إلى البربر وصنف 3 — أ — نتيجة توليد يرتكز ولا شكّ على الصنف العربي وصنف 3 — ب — مولّد من أصل زنجيّ .

4 — البحث عن الأصناف الغالبة

إنّ أحسن طريقة للدرس قد تكون تلك التي تدعو ، كما أوصى بذلك "توبينار" (Topinard) إلى البحث عن الأصناف الغالبة في جهة ما . ولذا — يحسن — كما اقترح الدكتور "لوبلان" — الاقتصار على بعض الأصناف في جهة ما لمقارنتها بأصناف اختيرت بنفس الطريقة في جهة أخرى . ففي المجموعة الأولى المضبوطة على هذا النحو ندرس من جديد شكلها الظاهرى الغالب لنقارنه بدوره بشكل ظاهري معيّن بنفس الطريقة في مجموعات أبعد جغرافيا . فهذه هي طريقة تعتمد على ضبط الأصناف من الناحية التشريحية قبل قيس نماذجها خلافا للطريقة الأخرى التي تبدأ بالقيس قبل ضبط الأصناف .

وبهذه الطريقة أمكن للدكتور "لوبلان" عزل صنف طرفي في الحجار (Hoggar) محدّد تمام التحديد بخصائص شتّى ومقابل لنسبة كبيرة لمجموعة من السكّان محدودة العدد . وهو يظنّ أنّه يوجد في بلاد القبائل نوع من الأجساد واضح المعالم ولو أنّه أقلّ دقّة ممّا نجد عليه الطوارق .

غير أنّه وإن تشابه الصنفان في طول القامة واستطالة الرأس ودقّة الأنف وطوله ، فإنّهما يختلفان في كلّ الخصائص الأخرى . ويظهر أنّ الأمر بالمثل بالنسبة للشاوية وسكّان الريف وبني خمير . وما نعرفه عن بربر المغرب الأقصى يمكّننا من ضبط صنفين : صنف الشمال الشبيه بالقبائلي ، وصنف الوسط والجنوب القريب من "الطوارق" .

وهذا البحث في الأصناف الغالبة ما زال في بدايته وسيكون ثمرة المستقبل ، إذ أنّ مقارنة هذه الأصناف من حيث الشكل الظاهري هي وحدها التي ستسمح بإقامة تصنيف علمي . وفي الوقت الحاضر يكون من الصلف أن نقوم بعمل آخر غير تضمين النتائج الحاصلة التي تدلّ على تجزّؤ بلاد البربر من حيث أجناسها . إلاّ أنّه – ما إن يتيسّر لنا معرفة البربري الذي يمكن تسميته بحق : المغربي – حتّى يبدو صنفا اجتماعيا له خصائصه الواضحة . وبقدر حرصنا على طرافة البربري نتمكّن من إبراز ضرب من الوحدة لتاريخ بلاد البربر .

II – أوائل التاريخ

1 – الأساطير

منذ العهد النيوليتي الذي فيه استكملت النماذج الانتروبولوجية الحالية استقرارها إلى عهد توغّل الرومان في البلاد لم يصطبغ التاريخ بالبربر إلاّ عرضا وذلك عند اتّصالهم بالشعوب الأخرى .

وشهرة ما رواه أفلاطون في كتابه الطيماوس (Le Timée) معروفة . فمملكة جزيرة الاطلنطيس " Atlantis " تكون حسب هذه الرواية بسطت نفوذها على ليبيا وحاولت غزو مصر وبلاد اليونان ، ولكنّ المياه غمرتها في آخر الأمر . وهل نحن في حاجة إلى ذكر هذه القصّة الفلسفية التي أثارت الكثير من التعاليق الغريبة بالرغم عن أنّها أشدّ اتّصالا بميدان علم الأمراض العقلية كما قال أ – البرتني (E. Albertini) .

وتوغّل الفرس والميديّين (Les Mèdes) والأرمن في إفريقيا بعد موت هرقليـــس ليس إلاّ أسطورة رواها سالوسطس (Salluste) لا نصيب لها من الصحّة .

أمّا ما رواه "بروكوب" (Procope) عن غزو العبرانيين لليبيا — ممّا نجد له صدى في مؤلّفات العرب — فيبدو أنّه صادر عن بيئة يهوديّة متأثّرة باليونان وليس له أيّة قيمة تاريخيّة .

2 — دخول الليبيين لمصر

وخلافا لما سبق ذكره فإنّه من اليقيني أنّ وادي النيل كان مسرحا لهجومات اللّيبيين في الفترات المضطربة وابتداء من أسرة الملوك التينيين الأولى (حوالي 300 3 سنة قبل المسيح) سجّلت الوثائق كلوحة "نارمير" انتصارات فرعون على اللّيبيين فهم الذين تسمّيهم النصوص التهينو (Tehenou) وهم الذين تظهـــرهم الصور المشخّصة متسلّحين بالسهام والعصيّ القـــاذفة (boomerang) والآلهة نايـــت (Neit) تسمّى "اللّيبية" في الأنشودتين الرابعة والخامسة ويستحقّ فرعون الثناء عندما يأخذ التاج الأبيض العظيم من أيدي هؤلاء الأجانب العظام الذين يحكمون الليبيين بهذا قد تكون وجدت مملكة مصرية — ليبية في المغرب .

وتحمل الآثار صورا تمثّـل المعارك التي شنّها على اللّيبيين ملوك الأسرة الخامسة بمَنْف للقضاء على الاضطرابات التي سبقت تولّيهم الحكم . وذلك حوالي سنة 600 2 . وقد كانت هذه المعارك حاسمة إذ يبدو أنّ اللّيبيين لم يهدّدوا مصر حتى آخر الإمبراطورية الوسطى . وبعد ما صدّ رمسيس الثاني أحد هجوماتهم جنّدهم لمجابهة خطر الحتيين (أوائل القرن الثالث عشر) ووجدهم ابنه منوفتاح (Ménephtah) ضمن اتّحاد شعوب البحر العظيم وهو ردّ فعل ضدّ التوسّع الهندي الاوروبي — وقد تحالف اللوبيون أو الليبيون مع قراصنة الشمال الليسيين وسردان سارده أهل سغلوس (Sagalos) وترسين أهل لمنوس والأخائيّين فكانوا أغلبية الجيش الذي هاجم الدلتا بدون نتيجة (1227) . وقد يكون أصل هؤلاء اللوبيين من الاطلس . فقد لوحظ أنّ أسماءهم وأسماء قوادهم تذكر

بالضبط أسماء النوميديين الوارد ذكرهم في التاريخ المألوف (A. Moret). ومهما يكن من أمر فهم الذين أطلق اسمهم على ليبيا ولعبوا في تاريخ مصر ، فيما بعد ، دورا رئيسيا مترعمين كتلة غير منسجمة من التهانو (Tehenou) والهنديين الاوروبيين . وفي آخر الأمر اضطر رمسيس الثالث حوالي سنة 1189 قم رغم انتصاره عليهم غرب "منف" أن ينزلهم في "عشرات الآلاف" بالدلتا حيث سخروا من مراقبته .

واستغل أحد القواد الليبيين المرتزقة الفوضى التي تبعت ذلك فبسط نفوذه على هرقلة (Hierakléopolis) في مصر الوسطى (Moyenne Egypte). وغزا خليفته السابع شيشونق الأوّل (Sheshonq 1er) الدلتا وقسم الأرض بين الليبيين. وأسّس الأسرة الثانية والعشرين (950) قم. ويصوّر لنا الفنّ الشعبي لأوّل مرّة مجتمعا شغوفا بالمعارك مخالفا تمام المخالفة للمجتمع المصري . وخلافا لما اعتقد المؤرّخون طويلا فإنّ أحفاد رسل الاله أمون القدامى ليسوا هم الذين أسّسوا مملكة نباطه(Napata) التي اتّسعت رقعتها في أواخر القرن الثامن من الشلاّل الأوّل إلى الحبشة . وأثبتت حفريات رينار (Reisner) أنّ اللّيبيين هم الذين بسطوا نفوذهم على أرض "الكوش" كما فعل ليبيو الشمال بالنسبة للدلتا . لقد كانوا فرسانا متحمّسين لجيادهم لا سائقي عربات كالفراعنة . ولم يوجد أطوع لتعاليم أمون وكهنته من هؤلاء الأجانب المستوطنين بمصر . ولا شكّ أنّ المدنية المصرية أشعّت بواسطتهم على الليبيين الغربيين وربّما بلغت أنوارها المترامية أقصى غرب إفريقيا .

3 ـ العلاقات مع العالم الايجي والفينيقي واليوناني

إنّ معلوماتنا حول علاقات الليبيين مع العالم الإيجي أقلّ من معلوماتنا حول علاقات الليبيين مع مصر ، ويعتبر أ. ايفانس (A. Evans) أنّ اتّصال الليبيين بالعالم الإيجي غير مستبعد . وتروي إحدى الأساطير أنّ كوروبيوس الإقريطي قذفت به العاصفة إلى ساحل ليبيا فرجع إلى جزيرته ربانًا . وكان أسطول مينوس (Minos) يتزوّد في ليبيا من بلاد القريني (Cyrénaïque) بلا شكّ بنبات السلفيون (Silphion)

الذي كان يجنى لطيب رائحتـه ومنافعه الطبيّـة . ولا بدّ أنّ امبراطورية البحّار الإقريطية أدّت إلى تأسيس مراكـز تجارية على الساحل الإفريقي منها تكون مدنية مينوس (minoenne) قد أشعّت؛ودليل ذلك قد نجده في الرسم الذي ازدان به أحد جوانب قبر محفور في صخرة قائمة (حانوت جمع حوانيت) في جهة مقنة (بين باجة وطبرقة بالشمال التونسي) . ويستدلّ سولينياك على وجود علاقات بين الشمال الشرقي لبلاد البربر و"ايجه" قبل مجيء الفينيقيين بمشهد بحري غرضه الأساسي مركب عديم الارتفاع على سطح الماء (bas sur l'eau) له صار مركزي وشراع شكله شبه منحرف كما يستدلّ أيضا بأشخاص هذا المشهد ، ولعلّ هذه العلاقات هي التي تلقي الأضواء على تأسيس مدينة مشالة (Meschela) التي ينسبها ديودرس الصقلّي إلى اليونان عند عودتهم من طروادة وعلى كيفية حفر الحوانيت . إلاّ أنّ "أ. بوتيا" يبدي تحفّظات إزاء هذه النظرية ، ويكتفي "كلوتز" بالاعتراف بأنّ الصوّر المرسومة على جدران الحوانيت تشبه صورا أخرى اكتشفت في دلف (Delphes) كما يكتفي "قزيل" (St. Gsell) في حذره المعتاد بأنّ يؤكّد أنّها ليست فينيقيّة ولا رومانيّة .

أمّا المؤثّرات الإيجية التي قد تشهد بها الآنية الخزفيّة البربريّة الحالية ، فإنّها لا تزال مجرّد احتمالات بالنسبة للمستوى الحالي لمعارفنا.

وقد ظهر التّأثير الفينيقي منذ القرن الثاني عشر وأصبحت له خطورته في قرطاج التي سيطرت طيلة ألف سنة على تاريخ بلاد المغرب . ودراسة هذا التأثير تتّصل بتاريخ العاصمة البونيقيّة .

وتروي نصوص عديدة ،لا نطمئنّ تماما إلى صحّتها ، قدوم أبطال اليونانيين الذين خاضوا حرب طروادة إلى ليبيا . ويجب أن لا نعير رحلاتهم قيمة أكثر من رحلات برسي (Persée) وهرقل والارغنوط . فالاستعمار اليوناني لم يتّصل أبدا مباشرة ببلاد البربر . ولم يستقرّ الدوريطانيون على نجد بلاد القريني (Cyrénaïque) إلاّ حوالي سنة 631 . وكانت لهم مع اللّيبيين معارك عنيفة متكرّرة . ولكنّهم اختلطوا بهم اختلاطا وثيقا وتبنّوا تقاليدهم الجنائزيّة وعقائدهم وسعوا إلى التزّوج بالجميلات من نسائهم . ولئن هم أسّسوا مدينة برقة في أواخر القرن السادس ، فقد اصطدموا

بقرطاج عندما كرّروا محاولاتهم التوسُّعيَّة . ولم يسمح البونيقيون كذلك باستقرار دوريوس أصيل سبرتا بين سيرتا الصغرى وسيرتا الكبرى . وفرضوا في آخر القرن السادس بعد ذلك على اليونان أن لا يتجاوزوا معابد " الفيلان " حتّى لا يتوغّلوا في سيرتا الكبرى (مختار) (Mouktar) . ولا شكّ أنّهم حجّروا عليهم في القرن السادس كما حجّروا على الرومان كلّ تجارة مباشرة مع بلاد البربر — وإذَنْ فإنّ البربر لم يعرفوا الفنّ المعْماري والصناعة والعبادات اليونانية إلاّ بواسطة الفينيقيين . ولم يتيسَّر للممالك البَربرية أن تتاجر مع اليونان بحرية إلاّ بعد سقوط قرطاج ، وعند ذلك أمكن لبعضهم أن يعيشوا في العواصم البربرية ، وأن ينشروا مدنيّتهم في بلاطات الأمراء .

III — مدنية البربر

1) طريقة المقارنة

وعندما ندرس أحوال البربر معتمدين على المراجع القليلة الموجودة نباغت باستمرار عاداتهم خلال العصور . فالكثير من مظاهر حياتهم الاجتماعية الحالية خصوصا الدينية منها تمتدّ جذورها إلى ماض سحيق ربّما يرجع إلى ما قبل التاريخ . ولذلك نسمح لأنفسنا بالاعتماد على ملاحظات حديثة لتعويض الحلقات المفردة من الوثائق أو ربط أحداث واقعة خلال مختلف العصور تظلّ غامضة من دون ذلك . إنّها طريقة دقيقة تشكو داء ليس له دواء ، ألا وهو انعدام التواريخ . ولذلك يحتاج كلّ من اعتمد عليها إلى الحذر الشديد وإلى إحاطة بالمعارف لا يتسرّب إليها الشكّ . ورغم ذلك فإنّ النتائج بصفة عامّة لا تتجاوز الحقائق التقريبية والفرضيات . وبما أنّه لا يمكن استعمال طريقة أحسن منها فإنّها إذا استعملت بمهارة تعطي نتائج مدهشة في بعض الأحيان . فالمقارنة التي قام بها "أ. ف. ڤوتيه" بين الكاهنة وأحد قواد بني زيان أثناء الحروب الأخيرة بالمغرب الأقصى — إذ يأمر كلاهما ابنه بالاستسلام للعدوّ الذي كان عربيا بالأمس وفرنسيا اليوم — تلقي الأضواء على جانب من جوانب العقلية القبلية . وقد اعتمد عليها "ستيفان قزال" اعتمادا كلّيا ، فألّف كتابين في نظام البربر

الاجتماعي والسياسي والاقتصادي ، وفي حياتهم الماديّة والفكرية والأخلاقية ، وفيهما من غزارة المعلومات والطرافة ما يدعو إلى الأخذ منهما بلا احتراز.

2 ـ صيّادون ومُربّو مواش

لم تتغيّر عادات البربر طيلة العصور تغييرا محسوسا . لقد كانوا في أول أمرهم صيّادين تُقـِض مضاجعهم الوحوش الضارية . واستمرّوا بعد ذلك يبحثون عن هذه الحيوانات توفيرا لأمنهم وسدّا لحاجات ملاهيهم . ولمّا عرفوا الفلاحة ظلّوا ـ رغم ذلك ـ يربّون البقر والجياد والغنم والضأن ، إمّا مقيمين في أماكن قارّة بجهات آمنة أو منتقلين من مراعي السهول شتاء إلى مراعي جبال التل صيْفا أو منتجعين السباسب إلى أن يضطرّهم الجفاف إلى اقتحام مروج التلّ ولو بالقوة . وسنرى أنّ الفلاحة لم تسجّل تقدّما محسوسا إلاّ في القرن الثاني قبل المسيح بفضل مسينسا العاهل البربري العظيم .

ولقد حافظت قبائل الرعاة على ملكية الأرض الجماعية . ولا بدّ أن وجدت شيوعية في الميدان الفلاحي تتمثّل إمّا في قسمة ثمرة عمل الجميع بين أفراد المجموعة أو في توزيع الارض بين العائلات بصفة وقتية . ولا نعرف بالضبط الظروف التي تكوّنت فيها الملكيّة الخاصّة التي يلاحظ وجودها في عهد ملوك البربر .

ولم تضمحلّ سكنى الكهوف مع اضمحلال عصور ما قبل التاريخ بل بقيت في بعض الجهات إلى أيامنا هذه . غير أنّ الكهوف (افري) ، بحكم استقرارها ، لا تلائم مربّي الحيوانات الذين كانوا ينتقلون من مكان إلى آخر بمواشيهم . ولهذا فهم يقبلون على المنازل المتنقّلة وهي نوع من الأجهزة يمكن فكّها جزءا جزءا تغطّى بالحصر . ونجد شبيهها لها في بعض جهات الصحراء . وهي تشترك بدون شكّ مع بعض المنازل البسيطة الأخرى في اسم مبـاليا (Mapalia) أمّا الحضر فإنّهم يسكنون إمّا في أخصاص من فروع الشجر تميل إلى الطول ، أو في أكواخ مربّعة من حجر أو طين جافّ .

ولقد أنشأ البربر لحماية ثرواتهم من النهب ملاجيء ، وهي نوع من القصور أو القلاع يحرسها رجال مسلّحون ، أو هي في بعض الأحيان أبراج فيها يقيم سيّدهم منزله بمكان وعر ويودع كنوزه ويشيد أهراءه . وكانوا يتجمّعون في قرى تتكوّن من تكاثف الأكواخ في أماكن لائقة صالحة أعدّها القوم . وهذه القرى والأحياء التي اعترضت طريق الرومان والتي يعدّونها بالمئات سميت عندهم كستلا (Castella) . ولم توجد المدن إلاّ من وقت استعمار الفينيقيين ، ولقد سمّيت باللاتينية أوبيدا (Oppida) .

3 – طعامهم ولباسهم وأسلحتهم

اشتهر البربر في كلّ العصور بقوّة بنيتهم وطول أعمارهم . والواقع أنّ الذين لا يزالون إلى اليوم يثبتون إزاء هذا التبذير المريع للأنفس البشرية هم من طينة ممتازة . إنّهم كانوا قنوعين ونباتيّين في غالب الأحيان . وقد كان الفلاّحون يأكلون الكسكسي منذ ذلك العهد ومربّو المواشي قليلا ما كانوا يذبحون حيواناتهم بل يكتفون بلبن المعز . وكانوا يؤثرون الصيد والحلزون ، والعسل ولا يشربون إلاّ الماء .

وكان البربر القدماء يسيرون حاسري الرؤوس قد أسبلوا شعورهم على آذانهم ونضّدوها لتولّبيّة الشكل متوازية أو أبقوا خصلة منها زاهية في أمّهات رؤوسهم المحلوقة ، وكانت لهم دائما اللّحى المُلَسّنة .

وبعد أن كانوا يكتفون بستر عوراتهم أو يتّزرون بإزار – إذا هم لم يعيشوا عُرّاة تماما – اتّخذوا لأنفسهم جلود الحيوانات وقاية من البرد ثم استعملوا عبّاءات من الصوف شبيهة "بالكدرون" ومعطفا شبيها بالبرنس . وظلّوا دهرا طويلا يضعون على رؤوسهم إكليلا من الريش يظهر اليوم في الصخور المنقوشة .

وبعد حجرات ما قبل التاريخ التي بقيت مستعملة طويلا أصبح الدبوس سلاحهم المفضّل وربّما العصا القاذفة (boomerang) . ثم بعد ذلك استعاضوا عن السيف بالقوس وخاصّة الحربة اللّذين كانوا يقاتلون بهما ،

وقد شدّوا إلى أيديهم سكّينا لذبح أعدائهم وإذا هم اضْطرّوا إلى سلاح دفاعي احتموا بترس خفيف من جلد الفيل يصير غير صالح للاستعمال إن بلّله المطر .

4 — الحلي والفن

كان إنسان ما قبل التاريخ يعطي لحجارته المنحوتة اللوزية (amandes) وأدواته المُذَنَّبَة وفُؤُوسه المصقولة أشكالا متناسبة منسجمة . فكان يصوّر بأظافره ، ثم بآلات حادّة من الصوّان والعظام نقطا متتابعة وخطوطا منكسرة وخطوطا منحرفة عديدة . وكان يزخرف بَيض النعام ويصنع الدرر والأقراط ويُزَرْكِشُ الصخور بنقوش عديدة كما رأيناه سابقا .

وكان البربر يتزيّنون بالحليّ نساء ورجالا . فالرجال يضعون أقراطا في آذانهم والنساء خلاخل في أرجلهن ، وكان جميعُهم يحملون أسورة وقلائد .

ولم يعرفوا رغد العيش في البيت إذ كانوا ينامون على الأرض أو على المصاطب المبنيّة ، ولم يكن لهم من المتاع إلاّ آنية من الفخّار زينتها الهندسية موجودة إلى يومنا هذا في آنية الخزف ببلاد القبائل .

والبربر شأنهم شأن الأمم البدائية كانوا يعتبرون الفنّ ظاهرة اعتيادية للحياة لا متعة للنخبة . وكانوا لا يزخرفون إلاّ الأثاث المستعمل عادة اللّهم إلاّ الحليّ المتّصل أصلها القديم بالسحر . والمرأة فنّانة أكثر من الرجل في غالب الأحيان فهي التي تزخرف آنية الخزف أو تنسج الزرابي.

ولا يستمدّ الفن البربري نماذجه من الطبيعة ، بل هو يتعلّق بالزينة ذات الأشكال الهندسيّة ولا يستعمل الخطوط المنحنية إلاّ نادرا وبدون براعة إلاّ أنّه غير عاجز عن التقليد ، إذ هو يصنع دمى للسحر صورها بشرية خالصة . وهذا الفن الهندسي الرتيب في الظاهر والذي ربّما يحمل في طيّاته ما يعبّر عن مختلف مراحل تطوّر مّا يرجع إلى عصور قديمة جدّا . ويتّصف بحيوية ممتازة إذ هو صمد في وجه مظاهر الفن الأخرى

وخاصّة عند اتّصاله بالفن الإسباني الموريسكي . وبقيت الفنون كالأدوات هي هي لم تتغيّر ، ولعلّ النّساء هنّ اللاّتي حافظن على تقاليد الفنّ المنزلي العريقة التي لم تأت عليها الاضطرابات والغزوات .

5 ـ اللغة اللّيبية

كان البربر يتكلّمون لهجات ليبيّة من المحتمل أن يكون أصلها البعيد هو أصل اللغات السامية . واللغة كانت ولا تزال عندهم أداة مشافهة وقد قال باسي "ولا نعلم البتّة أنّ البربر أقاموا مدنيّة تعتمد على الكتابة أداتها لغتهم" . غير أنّهم كانوا يحذقون كتابة بقي أصلها مجهولا وربّما كانت فينيقية احتفظ علم الخطوط بآثارها (واكتشفت حتى الآن 1125 كتابة وتؤكّد حروف شبيهة بحروف خطّ الطوارق الحالي (التفيناغ) قرابة بين حروف اللغتين . غير أنّه تعذّر إلى حدّ الآن قراءة الخطوط اللّيبية بالرغم من أنّه يوجد لدينا ما يماثل عشرين منها في البونيقية واللاطينية . والكتابة الوحيدة المؤرّخة جاءت في لغتين وتوجد في توقة (دقّة في العهد الروماني) وتوافق السنة العاشرة من حكم ميسبسا (139 قبل المسيح) ولا يمكن الجزم بأنّه توجد شواهد أقدم للكتابة البربريّة .

6 ـ الدين

كان الأفارقة يعبدون الجماد والحيوان ، ولكنّه من الصعب في غالب الأحيان أن نميّز بين ما ابتكروه من الطقوس وبين ما ورد عليهم من الخارج ، وخاصّة من مصر أثناء العصور النيوليتية بالخصوص . إنّ الجنّ الذي كان معشّشا في العقلية المغربية أولد آلهة محلّية لم يزل البربر يعبدونها حتى العهد الروماني . ثم استعاروا فيما بعد آلهة مصر وقرطاج وروما أو استعاضوا بها عن آلهتهم . وكان لهم في القرن الأوّل قبل المسيح آلهة تحميهم تسمّى "أفريكا" رأسها مغطّى بجلد فيل . وكانوا يتعبّدون بالخصوص في المغارات أو في الأماكن العالية أو بالقرب من العيون والأشجار المقدّسة بدون أن يحتاجوا إلى تماثيل أو معابد أو كَهَنَة . وعلاوة على المواكب القديمة التي يتَعَاطَوْنَ فيها السحر

فإنّهم عمَدُوا إلى التضحيــة والعرافــة المعتمدة على النــوم فوق القبـور (l'incubation) وإلى تنبّؤات النساء .

7 — دفن الأمــوات

ترك الأفارقة الكهوف الطبيعية المستعملة في عصور ما قبل التاريخ ، وحفروا في الصخور قبورا مربّعة مدخلها عمودي شبيهة بالمساكن ، وتسمّى الحوانيت ، محدودة المساحة عادة ، وفيها يضعون موتاهم . ويعتقد سولينياك كما رأينا أنّ كيفية تنظيم الحوانيت خاضعة إلى التأثير الإيجي . ويرجع أمر هذه الحوانيت إلى العصور البعيدة ، وربّما سبقت الألف الأولى قبل المسيح كما يرى ذلك ستيفان قزال .

وبعد أن كانوا في عصور ما قبل التاريخ يُودعُون موتاهم الخيامَ في الهواء الطلق أصبحوا يدفنونهم بعيدا عن الأماكن المسكونة تحت رِجَامٍ مخروطة الشكل من حجارة كلّها ، أو نصفها من حجارة ونصفها من تراب ، وتسمّى **بازينة** ، وهي رموس بربرية صرف يبلغ حجم بعضها 150 م. ، وفيها تخبّأ العظام عادة في صندوق مكوّن من صفائح . ويدفنونها تحت مصاطب أغطيتها مكوّنة من صفيحة واحدة . وغالبا ما تغطّى كُلُّها أو قسم منها برِجام مخروطة الشكل . ويُودِعُونهم أيضا "شوشات" وهي قبور اسطوانية الشكل متفرّعة عن المصاطب . وهذه القبور المبنيّة من مدر ، وخاصة المصاطب ، لابدّ أنّها تنتسب إلى نماذج قديمة جدّا لا شكّ أنّها من عصر نيوليتي . غير أنّ هذه الشعائر نفسها تواصلت قرونا عديدة وخضعت إلى تطوّر محتوم كما تدلّ على ذلك المقارنة بين المقابر التي اكتشفها الدكتور روفو (Roffo) في واد وِرك (جنوب مقاطعة الجزائر) ، وفي عين حمارة (جنوب واد جلال) . ويغلب على الظنّ أنّ مقابر واد ورك سبقت ميلاد المسيح ، أمّا الأخرى فقد تكون معاصرة للقرن الثالث أو الرابع بعد المسيح .

وكانوا في غالب الأحيان يدفنون أمواتا كثيرين في القبر الواحد بعد أن يَطْـوُوهم أو يجرّدوهم من لحومهم ويخلّطوا عظامهم.ورغم المؤثّرات

الخارجية فإنّهم لم يكونوا يدفنون الميّت ممدّدا إلاّ نادرا ، ولكنّهم قلّدوا القرطاجيين واليونان فحرقوا في بعض الحالات الاستثنائية بعض موتاهم ابتداء من القرن الثالث قبل المسيح .

وعادة تلوين الميّت بالمغرة امتدّت من عصور ما قبل التاريخ إلى القرن الثاني ، وكانوا يضعون بجانب الميّت أثاثا متواضعا وحليّا ، وآنية بلّورية وخاصّة خزفية إن أمكن ذلك .

واتّجاه القبور صوب الشرق والصحون المملوءة زادا والمتروكة على ذمّة الجثث وكذلك أحواض الاغتسال التابعة للمصاطب (rigoles à libations des dolmens) فإنها تشير كلّها إلى إيمانهم باليوم الآخر أمّا طيّ الأجسام وخلط العظام فربّما يترجم عن فزعهم من رجوع الموتى .

8 ـ العائلة الأغنية (La famille agnatique)

إنّ كثرة الأدوات والأسلحة وأصداف الحلزون في مراكز عصور ما ماقبل التاريخ تدلّ على أنّه كان للأفارقة حياة اجتماعية منذ أقدم العصور. والخلية الأصلية في المجتمع البربرى هي العائلة "الاغنية" وهي العائلة التي تقوم على ذكور من سلالة واحدة .

وتعدّد الزوجات هو الذي يعلّل كثرة الولادات الخارقة للعادة . وما قيل من أنّ النّساء كنّ مشاعات بينهم إنما هو أسطورة ربّما استمدّت وجودها ممّا كان يتمتّع به مالك لقبيلة شرقية الموطن من حق افتراع الأبكار ليلة عرسهن ، ومن عادة البغاء المقدّس . وقد أطنب "فرازر" في إقامة الدليل على أنّ مثل هذه العادات لا يمكن اعتبارها مجونا بل ضربا من السّحر المحبّب إلى النفوس . ذلك أن البدائيين يعتقدون أنّ قران الأزواج جسديا يجب أن يتم حسب طقوس مضبوطة لضمان خصوبة الأرض والبشر والحيوان .

ولكبير القوم سلطة مطلقة على كافّة أفراد العائلة "الاغنية" . ولكل أب نفوذه على أفراد عائلته هو ، فيخص نساءه بالأشغال الحقيرة ، ويبيع بناته إلى من يقدّم له أغلى الأثمان ، ويزوّج أبناءه بمن يشاء ويبقيهم تحت نفوذه . فإذا مات الشيخ لا يرث النفوذ أكبر أبنائه سنّا بل يرثه أكبر

أفراد العائلة كلّها . وهـذا النظام يسمّى اليوم تانستري (من الارلاندية تانيز بمعنى الثاني) ونجده متّبعا عند ملوك الونـدال والبايات في تونس .

9 ـ جمهوريات القرى والقبائل

إنّ ضرورات الحياة الراعوية والفلاحية حتّمت نشوء مجموعات أوسع وأقوى من العائلة "الاغنية" ، فأهل النجعة يتّحدون للحفاظ على الأراضي التي يمرّون منها . وأهل الحضر المتعاطون للفلاحة يشيّدون القرى لصدّ هجومات أعدائهم الألدّاء وهم البدو . وقد أصبحت هذه القرى جمهوريات صغيرة خاضعة لسلطة مجلس الشيوخ (assemblée gérontocratique) وهو نموذج الجماعة في بلاد القبائل يدير الشؤون المشتركة ويعاقب المتمرّدين حسب قوانين عرفية (القانون في بلاد القبائل ، والأزرف في المغرب الأقصى).

ومن فوق العائلات "الاغنية" ومجموعات العائلات الراعوية وجمهوريات القرى توجد القبائل التي هي عبارة عن دول صغيرة وحّدت صفوفها للدفاع والهجوم (ستفان قزال) . وتحتفظ مجموعات العائلات "الاغنية" باستقلالها حتى ضمن القبيلة وتوفد نُوابا عنها لمجلس مشترك . ولكن عندما تضطرم نار الحرب تختار القبيلة قائدا يسعى إذا هو نجح في مهمّته إلى الانفراد بالحكم وجعله وراثيا .

والقبائل تنهار أو تنتصر وتنتشر أو تنكمش كما تشاء صدف الحرب. وكثيرا ما تأكل أجزاء القبيلة بعضها بعضا نتيجة لقيام شيع وأحزاب متنازعة داخلها، وهي الصفوف (المفرد الصفّ، وهو اللفّ بالمغرب الأقصى) وتتّحد أحزاب بعض القبائل مع أحزاب قبائل أخرى قد تكون اتّحدت هي بدورها مع أحزاب قبائل أخرى . ولذا فإنّ القبائل جماعات لا تعرف الاستقرار . ولا نزال نجهل كلّ شيء تقريبا عن توزّع القبائل جغرافيا قبل الاحتلال الروماني.

10 ـ اتّحاد القبائل والاغليد

قد يجمع بعض القواد قبائل عديدة تحت سلطانه بماله من هيبة أو عن طريق القسر والغلبة أو يصبح اغليدا لها أو كما يقال ملكا عليها. والغالب على الظنّ أنّ الممالك البربرية تكوّنت على هذا النحو قبل الدول التي يرتبط تاريخها بتاريخ قرطاج ورومة. واتّحادات القبائل أقلّ استقرارا من القبيلة نفسها . فالملك

يفرض من دون شك سلطته على بلاد المخزن، التي تشتمل على سكّان المدن والحضر المقيمين في السهول وتمتدّ أو تضيق بحسب سلطانه . أمّا بلاد الصبا المشتملة على سكّان الجبال وقسم من البدو فكثيرا ما تُفلِتُ من قبضته. وفي غالب الأحيان تتخلّى عنه بعض القبائل وحتى القبيلة التي ينتسب إليها بعد أن أنهكتها الحروب التي تحمّلت العبء الأكبر منها أو أضنتها اللذّات التي أتاحتها لها ثرواتها فتدفع بموته ثمن انتصارها .

إنّ سلطان الملك على قدر هيبته ، فهو يستعين في ممارسة الحكم لا بموظّفين رسميين بل بأقاربه أو خدمه ، ويستشير وجوبا رؤساء القبائل الذين يقام لآرائهم وزن يتناسب مع عدد رعاياهم . فإذا ما غضبت عليه القبائل شقّت عصا الطاعة في وجهه وقتلته . ولذا فإنّ سياسته كانت ترمي دائما إلى تفريق صفوف المعارضين .

إنّ الملك هو قبل كلّ شيء قائد تنضوي تحت لوائه بصفة مستمرّة جيوش تمدّه بها قبيلته وخاصّة الفرسان،وفي الأوقات العصيبة يجنّد عدد من "القوم" من القبائل الأخرى ، وهم جنود من الطراز الأوّل ، ولكنّ سلاحهم ناقص ، وخضوعهم للنظام مرتبط بتقديرهم الشخصي للمنافع التي تنجرّ عن المعركة التي زجّ بهم فيها ملكهم .

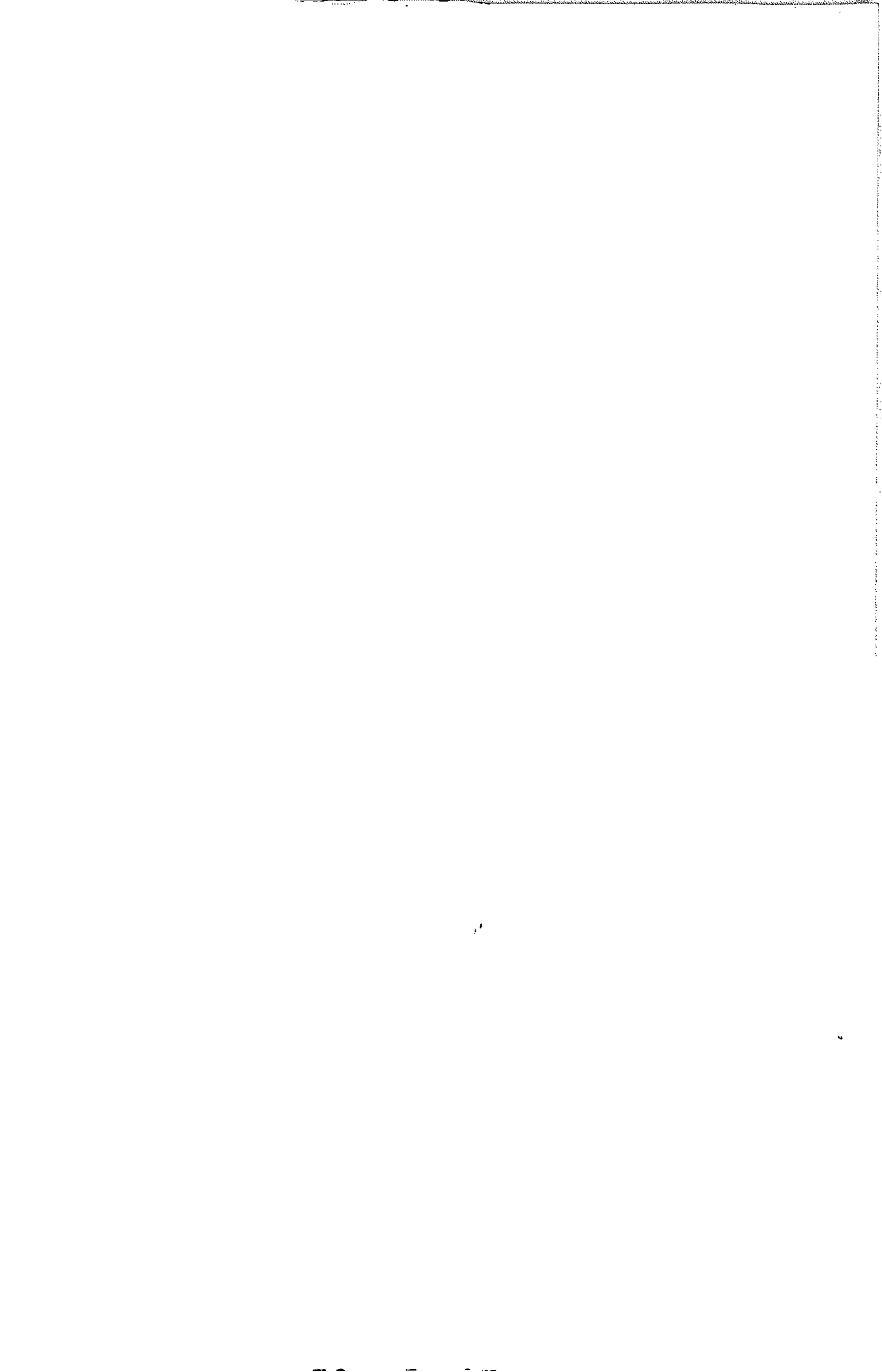
والمشكلة المالية هي أكثر المشاكل استعصاء عن الحلّ ، فالسلط المحليّة تستخلص لا محالة الأداءات على المحصول الفلاحي وعلى الماشية عرْضا في القبائل والقرى، وعيْنا في المدن،ولكنّ الملك كثيرا ما كان يكتفي بالهدايا التي تقدّمها عن طواعية القبائل المنيعة ، أو يجبي الضرائب بواسطة "الحركة" التي تعْمدُ في نفس الوقت إلى نهب الجهات المتمرّدة . ولا توجد أيّة مساواة في توزيع الضرائب .

إنّ الكثير من المؤسّسات والعادات الافريقية كان يوجد ما يماثلها في بلدان أخرى من البحر المتوسّط ، ولكنّ بعض البلدان مثل "غوليا" سرعان ما غيّرتها بإضافة عناصر خارجيّة إلى تراثها الذّاتي . أمّا بلاد المغرب فقد بقيت هي هي غيورة على شخصيتها. وخضعت إلى السيطرة الماديّة لشعوب أجنبية من دون أن تتأثّر بروحها . ورغم ذلك فإنّ تأثير قرطاج التي اتّصل بها بعض البرابرة في أوّل الأمر فقط طبع مظاهر تفكيرهم وعاداتهم بطابع لم يُمْحَ حتى بعد سقوطها .

الباب الرابع

قرطاج

1 - التوسع القرطاجي. 2 - الحروب البونيقية
3 - المدنية القرطاجية



I ــ التوسع القرطاجي

1 ــ الفينيقيون في بلاد البربر

إنّ الاستعمار الفينيقي الذي دخلت بلاد البربر بفضله في التاريخ لا نعرف من طوره الأوّل إلاّ ما تفيدنا به روايات مشكوك في صحّتها . وإذا اعتمدنا بعضها فإنّ أهل صور (Tyriens) يكونون قدأسّسوا مراكز تجارية على السواحل الافريقية منذ القرن الثاني عشرقبل المسيح نذكر منها أوتيكة على الساحل الغربي من خليج تونس وذلك سنة 1101 كما نذكر لوكسيس (Lixus) الشبيهة بقادس في نفس الفترة وعلى الساحل الاطلسي للمغرب الأقصى . ويقال : إنّها تأسّست سنة 1110 . إلاّ أنّ ما يثير الاستغراب على ما يبدو ، هو أن يؤسّس الفينيقيون هذه المراكز البعيدة قبل أن يضمنوا الأساكل التي تسيطر على مدى نشاط ملاحتهم كلّ ثلاثين كلم تقريبا . ولعلّ المصادر القديمة المتعلّقة بتاريخ الاستعمار الفينيقي لم تميّز دائما ــ كما يعتقد ذلك ب. سانتاس ــ بين طور التعرّف والاكتشاف الذي يفسح المجال لتجارة غير منتظمة وبسيطة نسبيا ، وبين طور الاستعمار الحقيقي الذي تؤسّس فيه المراكز التجارية القارّة .

وإذا بلغ البحّارة الفينيقيون ــ كما هو محتمل جدّا ــ سواحل المحيط الأطلسي منذ القرون الأخيرة من الألف الثانية قبل المسيح ، بحثا عن

ذهب السودان من جهة ، وعن فضّة اسبانيا وقصدير جزر الكسّيتيريد (جهة فان) (Vannetais) التي تصل طرقها إلى " ترشيش " قرب مصبّ الواد الكبير من جهة أخرى ، فإنّ الاستعمار الفينيقي – على ما يبدو – لم تتوطّد أركانه إلاّ شيئا فشيئا من الشرق إلى الغرب . ولقد استقرّ الفينيقيون في أوّل الأمر على سواحل "سرتـا" ثم أقاموا في قرطـاج من دون شك قبل أن يؤسّسوا مستعمرات حقيقية . وهذا ما تؤيّده الرواية التي نقلها ديودورس الصقلّي (٧ – 20) وما نستنتجه أيضا من أنّه لا يوجد قبر واحد من القبور البونيقية المكتشفة إلى هذا اليوم على السواحل الجزائرية المغربية أقدم من القرن الخامس أوالقرن السادس على أكبر تقدير (في تيبازة Tipasa) على بعد سبعين كلم غربي الجزائر) .

أوائل قرطاج

إنّ قرطاج لعبت دورا عظيما في تاريخ افريقيا الشمالية . إلاّ أنّها قبل أن تبز المراكز الفينيقية الأخرى وتصبح عاصمة بعد ما كان من تقلّبات صور وخرابها سنة 332 ، لم تكن في أوّل أمرها سوى إسكلة متواضعة بين سائر مراكز التموين الأخرى . وقد كشفت الحفريات التي تواصلت من سنة 1944 إلى سنة 1947 بصلامبو في منطقة قرطاج القديمة على معبد يرجع عهده إلى ما قبل الطور القرطاجي . وما وجد فيه من أشياء لا يترك مجالا للشكّ في وجود بحّارين شرقيين في هذه الجهة منذ آخر الألف الثانية أو أول الألف الأولى قبل المسيح . إنّ بعض المستعمرين القادمين من "صور" وقبرص الذين تعتبرهم الأسطورة – خطأ على ما يبدو – لاجئين هم الذين أسّسوا حوالي سنة 814 في عهد الملك بغماليون "قرط حدشت" أي مدينة حديثة ، في الخليج الذي تنصبّ فيه مياه واد مجردة وواد مليان ملتقى جانبي البحر الأبيض المتوسّط . ويقال : إنّ أخت "بغماليون" عليسة (أو ديدون) ملكة "صور" هي زعيمتهم ، إلاّ أنّ وجودها وإن كان ممكنا فهو مشكوك فيه .

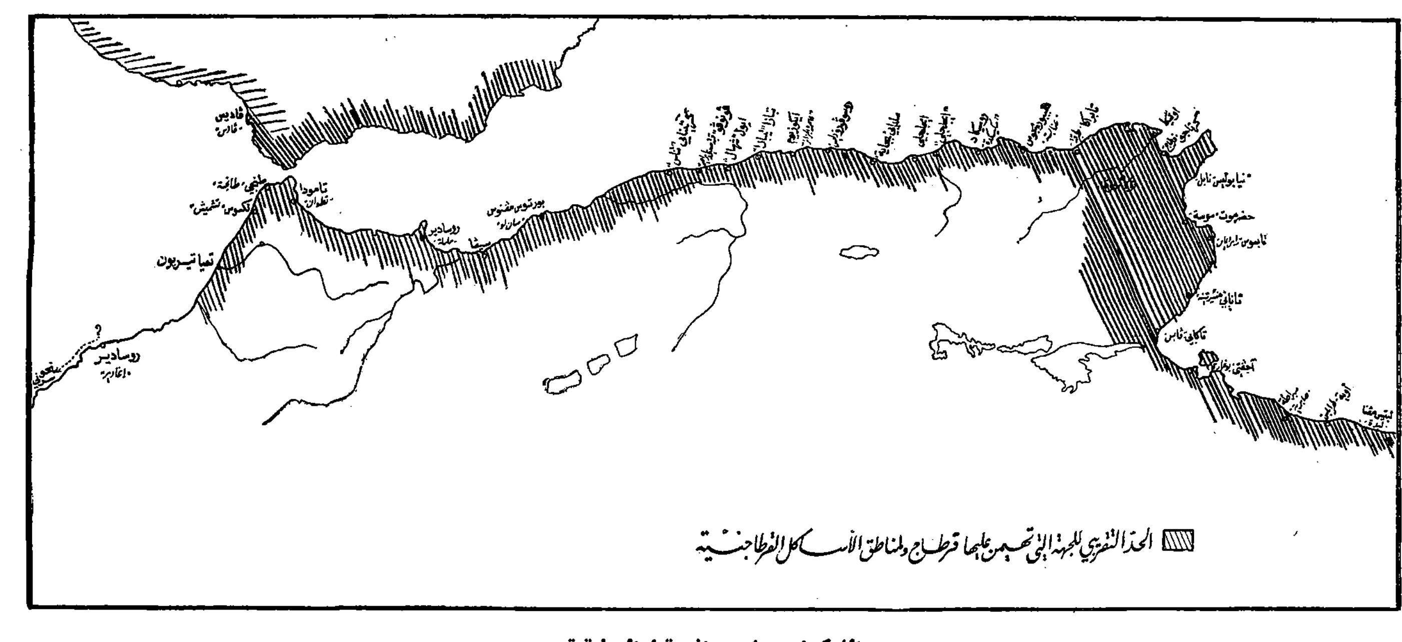
إنّ وضع قرطاج الجغرافي كان يساعد على التوسّع الافريقي والتبادل مع العالم الشرقي أو الغربي . وكذلك كان لوضعها العسكري مزايا هامّة لأنّها أقيمت ، كغالب المدن الفينيقية ، في رقعة من الأرض متوغّلة في البحر لا يربطها بالبلاد إلاّ قطعة مستطيلة تفصل بين بحيرة تونس التي كانت صالحة للملاحة وسبخة أريانة وبذلك كانت تتحدّى حصار الأعداء مثل "صور" .

لقد كانت قرطاج متواضعة في أوّل تاريخها ، تدفع الخراج وتقدّم الهدايا لمعبد هرقليس "الصوري" (ملقرط) ممّا جعل بعض المؤرّخين يرون هذا العمل الذي قد لا يكون سوى مظهر للتقوى دليلا على خضوعها لصور . وواصلت قرطاج دفع الضرائب السنويّة لليبيين طيلة ثلاثة قرون ونصف من غير انقطاع يذكر .

إلاّ أنّ هذه المدينة بفضل هيبة طبقتها الارستقراطية ومهارتها ، وخاصّة بفضل ما اتّصفت به عائلة "ماغون" القوية من روح المبادرة ، استغلّت انحطاط "صور" وفرضت شيئا فشيئا حمايتها على المدن الفينيقية ثمّ ما لبثتْ أن سيطرتْ عليها . وينبىء الأثاث الذي عثر عليه في قبور القرن السابع على اتّساع مجالها التّجاري وتضخّم ثرواتها حتى أنّها تمكّنت سنة 654 من إرسال معمّرين في جزيرة **"بتيوز"** (Pityuse) (إبيسا) .

ولعلّ تناقص الذهب والتحف الفنّيّة في قبور القرن السادس يدلّ على تضاؤل ازدهار قرطاج ، ذلك أنّ اليونان كانوا يبسطون نفوذهم في ذلك الوقت على غربي البحر الأبيض المتوسّط . وقد أصبح الفرس يسيطرون على "صور" ومصر وقريني . لكن قرطاج ردّت الفعل بشدّة ، ووجدت من الزعماء البارزين من أعانها على بسط استعمارها الناشىء ، مثل "مالكوس" الذي حارب في صقلّية وسردانيا و"حقّق أشياء عظيمة ضدّ الافريقيين" على حدّ تعبير يوسطينوس ثم ختم نشاطه بافتكاك الحكم حوالي سنة 550.

وتمكّنت قرطاج من طرد "الفوسيين" من جزيرة كرسيكا بإعانة "الاتروريين" بعد انتصارها البحري بألاليا (أليريا في الساحل الشرقي



الشكل : 4 ـ افريقيا البونيقية .

حوالي 535) . واستعانت بالليبيين في آخر القرن السادس لطرد "دوريوس" وهوابن أحد ملوك سبارتا أقام إمارة في ليبيا طيلة سنتين ، بين سيرتا الصغرى وسيرتا الكبرى واضطرّ إلى الالتجاء إلى صقلّية حيث انهزم تحت ضربات القرطاجيين والسجستيين .

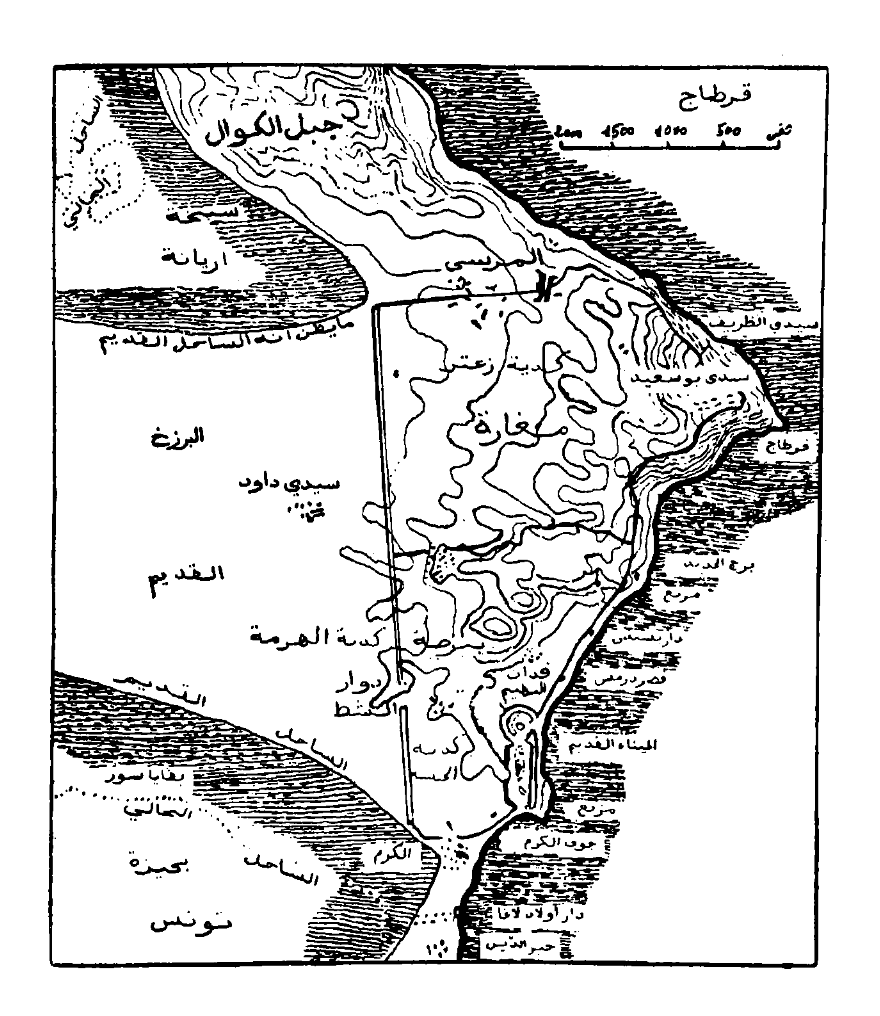
2 – محاولات التوسّع في صقلّية – هيمير (Himère)

لم تكن قرطاج من القوة بحيث تستطيع أن تمنع استعمار اليونان لصقلّية . واقتصرت على الانتصاب في القسم الغربي من الجزيرة بما فيه مدينة "بالرمو" (بانورم) و"سولنت" كستلودي سولانتو شرقي بالرمووموتيه (في جزيرة سان سنتليو بالقرب من سواحل ليليبى) ولكنّها ما كان يمكنها أن تبقى مكتوفة الأيدي أمام زحف منافسيها الناشطين . وكان الطاغية "جيلون" ، الذي استولى على "سرقوسة" (سنة 485) وجعل منها أغنى مدينة في العالم الهيليني ، يعتمد على تحالفه مع مدينة "أقريجنتي" (Agrigente) التي أخضع طاغيتها "تيرون" البلدان الواقعة بين بحر ليبيا وبحر التيرهني وبذلك تكوّنت جبهة يونانية شديدة الخطر على الفينيقيين سياسيا وخاصّة اقتصاديا .

ويظهر أنّ الأزمة اشتدّت شيئا فشيئا في طيّ الخفاء طيلة سنوات عديدة قبل أن تؤول إلى الغزوة القرطاجية العظمى سنة 480 . فقد نزل الجيش "ببانورما" ومنها إلى هيمير حيث محقته قوى الطاغيتين المتّحدة . فدفعت قرطاج 2 000 وزنة أوبيّة (talents) غرامة ثم رجعت من حيث أتت هي وحلفاؤها من "ريجيون" و"سيلنونت" . ويقال : إنّ معركة هيمير التي تحطّمت فيها المطامح الفينيقية جرت في نفس اليوم الذي وقعت فيه معركة "سلامين" التي وضعت حدّا لزحف الفرس . وتسرّع المؤرّخون فافترضوا أنّ القرطاجيين والفرس كانوا متّحدين ضدّ اليونان . وأقرب الظنّ أنّ ذلك كان محض صدفة .

3 – أوائل التوغّل الافريقي

يظهر أنّ ما اكتشف من آثار القبور بعد هذه النكبة يدلّ على أنّ قرطاج اضطرّت إلى وضع حدّ لهيمنتها البحرية والانطواء على نفسها .



الشكـل : 5 ـ رسم لقرطاج وضواحيها .

وفعلا كانت مرسيليا حائلا دون موانئ بلاد "غوليا" "واسبانيا" ، وكانت كورسيكا تابعة لحلفائها الاتروريين . أمّا صقليّة فقد كان معظمها خارجا عن نفوذها . فلعلّها وجّهت جهودها نحو الأرض الافريقية ، ذلك أنّها أخذت في النصف الثاني من القرن الخامس تغزو على حساب الليبيين جهات اقتطعت فيها طبقتها الأرستقراطية أراضي فلاحية ، كما أخذت تُجنّد المرتزقة . إلاّ أنّ توسّعها العنيف أثار ردود فعل شديدة فقد والى البربر في القرن التالي ثوراتهم وعبّروا إزاء البونيقيين عن تعلّقهم بالاستقلال الذي اصطدم به جميع الغزاة .

وكان توسّع قرطاج منذ أواسط القرن السادس من عمل الماغونيين بالخصوص وتوصّلت الطبقة الأرستقراطية — التي تهتمّ بما توفّره التجارة من أرباح أكثر من اهتمامها بالانتصارات الحربية — إلى التخلّص منهم بعد أن خضعت لنفوذهم طيلة قرن كامل (حوالي 450) . إلاّ أنّها مكّنتهم سنة 409 من الرجوع إلى سياستهم التوسّعية في صقليّة . ولكن لم يكن لقوادهم الجرأة الكافية ولم يكونوا جادّين في الغزو ، فلم يستغلّوا انتصاراتهم الكبرى ورضوا بمعاهدات صلح توطّد استعمارهم .

4 — انتصار دونيس صاحب سرقوسة

واستغلّ حفيد المهزوم سنة 480 خصومات المدن اليونانية فاستباح سيلينونت وهيمير (409) ثم أقريجنتي (406) . فثارت سرقوسة على أرستقراطيتها العاجزة واتّخذت زعيما أوحد من أصل متواضع وهو دونيس الذي سعى إلى تطعيم القوى الهيلنيّة الواهية بما لأهل سيكول ورعاع الايطاليين من طاقات جديدة . ولم يقهر البونيقيين تماما إلاّ بعد أربعة حروب . فقد انهزم أوّل الأمر في وقائع كثيرة واضطرّ أمام عنف هجومات البونيقيين الشديدة إلى التخلّي عن مدينتي جيلة وكمارين ، وإلى منح ليونتيني ومسينا استقلالهما (سنة 409) ثم حصن سرقوسة وأعاد الكرة سنة 408 وانتقم من مدينة "موتية" أفظع انتقام .

فحوّلت قرطاج عاصمة ممتلكاتها الصقليّة إلى ليليبي (مرسالة) وشنّت بجيوشها الجرّارة حربا انتقامية . فاستولت على مسينا وكادت تفتح سرقوسة ،

ولكنّ الطاعون نال من جيوشها . وكلّل أحد هجومات دونيس المعاكسة بالنجاح فاضطرّت إلى دفع 300 وزنة أوبيّة غرامة وإلى التخلّي عن سيلينونت وهيمير وتسليم مرتزقتها الليبيين أو الإسبانيين للفتك أو الاستعباد (سنة 396). ولكنّ الحرب ما لبثت أن اشتعلت نيرانها من جديد فاستمرت حتى موت الطاغية تتخلّلها فترات هدنة متفاوتة الطول .

5 — أغاثوكل وحرب افريقية

اغتنمت قرطاج ما تبع موت دونيس (367) من خصومات لأجل الحكم ومن تصدّع أمبراطورية سرقوسة لاسترجاع "أقريجنتي" و"جيله" إلاّ أنّها تقهقرت من جديد إلى ما وراء حاليقوس (Halycos) (340 — 345) عندما هاجمها تموليون الكورينتي الذي استعان بعناصر جديدة من بين المستوطنين اليونانيين وأحجمت عن الهجوم على صقلّية من جديد بعدما رأت ما رأت من سقوط صور على يد الاسكندر (332) الذي أصبحت تخشى هجومه على افريقية ولكنّ أحد قوادها لم يتمالك عن التدخّل في خصومات الأحزاب التي كانت تتنازع سرقوسة فدفع بابن أحد العمّال إلى الحكم وكان جاهلا ولكنّه ذو حزم وعزم اسمه أغاثوكل (سنة 317).

ولم ترض الارستقراطية القرطاجية عن الإعانة التي منحت إلى هذا القائد المنحدر من الشعب والذي بادر منذ توليه الحكم بإعدام الأقلّية الحاكمة وفسخ جميع الديون وتوزيع الأراضي (سنة 314) فهاجمته بأساطيلها وجيوشها فانتصرت عليه وحاصرت سرقوسة . ولكن أغاثوكل لم يكن بالرجل الذي تفتّ في عزيمته الهزيمة . فلمّا انهزم في صقلّية حاول خداع أعدائه وتجرّأ على محاربتهم في ديارهم .

فقد تخلّص من الحصار وتمكّن من النزول في جنوب الوطن القبلي على رأس 14 000 من رجاله (سنة 310) ثم صرف أسطوله واستولى على 200 بلدة منها حضرموت (سوسة) حسبما يروى . ولكنّ قرطاج لم تتأثّر بما قام به من غزوات طيلة عام كامل ، إذ كانت بأسوارها وبتزوّدها عن طريق البحر في مأمن من خطر الحصار . وعندئذ أغرى أغاثوكل أوفيلاس المقدوني الذي أسّس في قريني إمارة مستقلّة عن ملك مصر

ووعده بأن يمكّنه من أن يكون على رأس امبراطورية افريقية فأرسل إليه المرتزقة من اليونان . وسرعان ما تخلّص أغاثوكل منه وأفسد عليه جنوده . وتمكّن من مضاعفة عدد جنوده ومن الاستيلاء على أوتيكة وهيبوديباريتوس (بنزرت) واحتلال كامل التراب القرطاجي . وأسّس دور صناعة ليربط الصلة بصقلّية (308 — 309) .

ثم إنّه أدرك أن لا مخرج له من هذا الغزو فعدل عن إرهاب قرطاج والتحق بصقلّية ثم اضطرّ بعد سنة إلى العودة وحاول بدون جدوى تفادى الكوارث التي عقبت رحيله . ثم آل به الأمر إلى التخلّي عن جنوده والهروب بمفرده كما فعل بعده بونبارت في مصر . ففتك جيشه بأبنائه وباع لقرطاج الأراضي المحتلّة .

إنّ فعلته الجريئة التي يبدو أنّها ختمت بالانهيار لم تَخْلُ من عواقب . إنّه لم يحرص على الاستيلاء على قرطاج بل أراد أن تكون له اليد الطولى في صقلّية . فقد رضي البونيقيون بإبرام معاهدة صلح معه ودفعوا له غرامة قدرها 150 وزنة أوبية و100 000 هكتوليتر من القمح وملّكوه على القسم الشرقي من الجزيرة كما أعادوا له حدود حاليقوس (سنة 306) ومات أغاثوكل قبل أن يحقّق ما كان يعتزمه من احتلال لافريقية (سنة 289) غير أنّه فتح الطّريق لأعداء قرطاج وسوف لا ينسى ريقولوس (Regulus) ولا شيبيون الافريقي هذه السابقة .

6 — بيروس وهيرون صاحب سرقوسة

واغتنم البونيقيون فرصة الحروب المدنية التي تبعت موت أغاثوكل للتدخّل من جديد في صقلّية فحرّروا المدن المحتلّة وأرجعوا سرقوسة إلى حدودها الأصلية . أمّا المامرتانيون أي المرتزقة الايطاليون فلم يرجعوا إلى "كمبانيا" بعد أن اضطرّوا إلى الجلاء عن سرقوسة وتمكّنوا من الاستيلاء على مسينا ، ومنها قاموا بهجوماتهم حتى صقلّية الغربية .

لقد كانت قرطاج تؤمّل فتح جزيرة صقلّية كلّها . فبينما كان المغـامر الجريء إيبيروس ملك إيبير (Epire) يحارب في ايطاليا أمضت اتّفاقية

مع رومة تعترف لها فيها بسيطرتهـا على صقلّيـة . وبينما كانت تحاصر سرقوسة استنجد القواد المحـاصرون ببيروس (Pyrlhos) فتخلّى ملك "ابيير" عن عدد من الممتلكات البونيقية في ليليبي وفكّر في نقل الحرب إلى افريقية نفسهـا ولكنّـهُ مني بهزيمة عسكرية، واصطدم بثورات الصقلّيين ، فخاب ظنّـه ورجع إلى ايطاليا (ربيع 275) . فما لبثت قرطاج أن بسطت نفوذها من جديد على غربي الجزيرة واستغلّت قلاقل سرقوسة الدّاخلية والأزمات الواقعة بين أهل سرقوسة والمامرتيين ، فأقامت ثغورا على طول سواحل صور واحتلّت جزر ليباري (Lipari) والجزر الإيولية (Eoliennes) ثم تقدّمت إلى ميلس ومسينا وقضمت من تراب سرقوسة . وكـان الغزو التجاري ملازما للغزو العسكري أو ربّمـا كان يسبقـه . وكـان ضـمّ قرطاج أصقلّية يبدو واقعا قريب المنال .

وفي هذه المرة أيضا أنجبت سرقوسة قائـدا اسمـه هيرون (Hiéron) (سنة 270) أنقذها بوضع حدّ للفوضى الدّاخلية ، ومحق جيش المامرتيين (Les Mamertins) . وكان في إمكانه ولا شكّ التوغّل حتى مسينا إلاّ أنّ قائد الاسطول البونيقي سبقه بوضع حامية فيها (268 — 269) ولقد تمكّن هيرون من كسب صداقة الشعب الروماني على الأقل .

7 — قرطاج وروما وجها لوجـه

عندما استولت قرطاج على مسينا وجدت نفسها وجها لوجـه مـع روما التي لم يمض وقت طويل حينئذ على استرجاع سلطتها على "ريجيون" في الضفّة الأخرى من المضيق . وكانت العلاقات بين المدينتين إلى ذلك الوقت أقرب إلى الودّ منها إلى أيّ شيء آخر . فقد ضبطت معاهدات كثيرة منذ قرون حقـوق كلّ منهمـا على الأخرى . ويعتقـد بعض العلماء على غـــرار بوليب (Polype) أنّ أقدم معاهدة ترجع إلى السنة الأولى من انتصاب الجمهورية الرومانية (سنة 509) في الوقت الذي كانت الثورة تحدّ فيه من مدى التوسّع الروماني معتمـدين في ذلك على سمعـة "ستيفان قزال" الكبيـرة . غير أنّه منذ ظهور دراسات "مومـسن" (Mommssen) رأى علمـاء آخرون أمثال هـ. نيسان (H. Nissen) وأ. ملتزر (O. Meltzer)

وأ. بايس (E. Païs) وأ. بيقـانيول (A. Piganiol) أنـّه يمكن أن توجد معاهدة قبل سنة 348 بل يذهبون إلى أنـّه يجب تطبيق النص الثاني لبوليب على المعاهدة الأولى . ومهما يكن الأمر فإنّ الاتـّفاق ينصّ على أنـّه في إمكان روما أن تتاجر مع صقلـّية القرطاجية بكامل الحريـة وحتى في ميناء قرطاج نفسه . لكنـّها تؤكـّد أنـّه لا يمكنها تجاوز البحار الواقعـــة وراء رأس سيدي المكّي شمال قرطاج ، ووراء "ما ستياطرسيون" (قرب رأس بالوس قريبا من المكان الذي ستشيّد فيه قرطاج) وأنـّه لا يمكن لمراكبها إذا ما هبّت العواصف أن ترسي في موانى افريقية وسردانية أكثر من خمسة أيـّام ، وإذا صدقنا المؤرّخ اليوناني فيلينوس الاقْرجنيتي فإنّ المعاهدة الثالثة (سنة 306) التي لم يتوصّل بوليب إلى معرفة نصّها تمنع على قرطـاج أن تتدخّل في ايطاليا كما تمنع على رومة التدخـّل في صقلـّية . وتقرّ الاتـّفاقية الأخيرة (سنة 278) التي أبرمت أثناء حرب بيروس حقـوق قرطاج في التجارة مع الغرب إلاّ أنـّهـا تنصّ بالخصوص على بنود عسكريـّـة لا تزال غامضـة .

لا شكّ أنّ رومة التزمت منذ سنة 306 بعدم التدخـّل في صقلـّية ولكنّ قرطاج أقامت الدّليل منذ أن استولى بيروس على تارنـت (Tarente) أنـّهـا لا تقيم وزنا لما التزمت به من حياد في ايطاليا . ولم تكن سوء نية رومة تقلّ عن سوء نية قرطاج . وكانت مطامعهما في الاستيلاء على مضيق مسينا تكيـّف موقفهما قبل أيّ شيء آخر .

وعندما أطرد المامرتانيون من مسينا استنجدوا برومة إثر ضغط المجالس المئوية (Comices centuriates) عـلى مجلس الشيوخ وتصويتـهم لمبدإ التدخـّل . ولعلـّهم كانوا تحت تأثير العائلات الكبرى التي أصلها "كمباني" وسمنى فاجتاز أبيوس كلوديوس (Appius Claudius) المضيق وأقام حاميته في مسينا (سنة 264) .

II ـ الحـروب البـونيقيـة

1 ـ الحروب البونيقية الأولى ـ ميلاي

لم تشهر رومة الحرب لكن قد أصبح لا مفرّ منها بسبب سلوكها . وبدعوى أنّ قرطاج تعدّ العدّة للهجوم على ايطاليا بادرت لأول مرة بشن حرب وِقائيِّة هي مظهر من مظاهر نفاق استعمارها الاقتصادي والعسكري.

لم تكن قرطاج في الواقع ميّالة للدخول في صراع مع رومة فلم تردّ الفعل بشدّة ، وكانت واثقة من سيطرتها على البحار كما كانت رومة مطمئنّة إلى تفوّق جيوشها البرّيّة . فلا هي قدرت على احتلال مسينا عنوة ولا حافظت على حلفها مع هيرون صاحب سرقوسة الذي استنجد بها عندما هاجمه ابيوس كلوديوس بَغْتَة .

وفتح الرومان صقلّيّة فاستولَوا على أقريجنتي (262 ـ 261) وباعوا 25 000 عبد . ولكنّهم سُرعان ما تعطّل زحفهم بسبب مناعة الحصون الساحلية وانتهى الهجوم البرّي إلى مأزق ، وبات من الضروري القيام بهجوم بحري وهذا ما كان لهم الفضل في إدراكه . فهيّأوا جميع الأسباب لإنجاح الخطّة ، ويقال : إنّهم أعدّوا أسطولا يحتوي على 100 سفينة خماسية و20 سفينة ثلاثية ، وقد اقتبسوا صنعها من سفينة خماسية بونيقية ارتطمت بسواحلهم . ودرّبوا ملاّحيهم على اليابسة قبل أن يبحروا ، ولكنّهم لم يعوزهم الحلفاء البحريون المدرّبون على الملاحة ، وكانوا رغم ذلك في حاجة إلى قدر عظيم من الجرأة ليتجاسروا على مهاجمة أوسع الأساطيل شهرة . وقد أفادتهم هذه الجرأة فانتصر القنصل دويليوس في مياه ميلاي (ميلازو 260) بفضل المراسي المتحرّكة بواسطة البكرات ممّا أتاح للجنود اقتحام بواخر العدوّ ، ثم حاصر أسطول رومة "ألاريا" (في كورسيكا) و"أُلبيا" (ترانوفابرزانيا في سردينيا) ونهب رجالها سواحل جزر "ليباري" وربّما سواحل مالطة (259 ـ 258) .

2 — ريغولـوس في افريقيـّة

ورغم ذلك فإنّ نجاح السياسة البحرية لم يأت بالنتائج المرجوّة ، فقد فشل القناصل في محاولاتهم فتح "طرابنة" (طراباني) و"بانـورم" (باليرمـو) بمهاجمتهمـا عن طريق البرّ ، وعندما انتصر الأسطـول مـرة ثانية في "ليبـاري" بادر مجلس الشيوخ بشنّ هجوم على الأرض الافريقية والنزول على سواحلهـا وكأنّه مدفـوع بذكرى أغاثوكل .

فهاجمت 330 مركبا تحمـل 40 000 جندي أسطول العدوّ فهزمته وأرست عـلى سواحل منتهى الوطن القبلي بقليبية (Clupéa) سـنة 236 . ونهب الجنود منازل الشيوخ الريفية وسطوا على الماشية واستعبدوا 20 000 من أعدائهم . ولمّا لاحظ مجلس الشيوخ السهولة التي انتصرت بها جيوشه على قرطاج استقدم قنصلا وقسمـا من الجنود وحاول ريغواوس الذي بقي وحيدا في منصب القيادة على رأس 15 000 من رجاله ، أن يتفاوض في عقد الصلح مع قرطـاج حتى لا يترك لخلفـه الفضل في إبرام معاهدة السلم ، ولـكنّ القرطاجيين ضاقوا ذرعا بما عرضه عليهم من شروط فأعاد " زنتيبوس " وهو ضابط أصله من سبارتا ، تنظيم الجيش القرطاجي وهاجم بفرسانه النوميديين وفيلتـه جيوش ريغولـوس فشتّـت شملـهم وأذاقهم طعم الهزيمة وعندئذ قدمت مراكب النّجدة من ايطاليا لترحيل ما تبقّى مـن الجيش الروماني أي ألفي رجل ، ولـكنّ عاصفة شديدة هبّت عليها فغرق ثمانون مركبا من بين 460 . والمؤرّخون المحبّون لتاريخ رومة يمجّـدون بطولة ريغولوس الذي أبى في زعمهم إلاّ أن يعـود إلى قرطاج مضحّيا بنفـسه رغم تضرّعات زوجته وأبنائه والشيوخ . لـكن من الواجب أن نحترز وألاّ نثق ثقـة عمياء في هذا الدرس المـؤثّر في الوطنية . وعادت لقرطاج سيطرتهـا على البحار بفضل ضعف هذا القنصل وما تـكبّده الأسطـول الروماني من هزائم فاضطرّت رومـة إلى أن تحصر جهودها في صقلّيـة .

3 — نهـاية الحـرب

لم يتمكّن أحد الطرفين المتحاربين من الانتصار على الآخر انتصارا حاسمـا فلم تتمكّن رومة من الاستيلاء على "ليلبي" (مرساله) ولا على

"طرابنـة" (طرابـاني) اللذين أصبحـا معقل المقاومة القرطاجيّة ، ومنيت بهزيمتين بحريتين (249) اضطرّت معهمـا إلى تحديـد أسطولهـا بستين مركبا ، كما أنّ القـواد البونيقيين لم تـكن لـهم القوة الكافية لشنّ هجوم معاكس حاسم أو أنّهم أعوزتهم الجرأة الـكافية للقيام بهذا العمـل . إلاّ أنّ خطّة "عبد ملقرط البرقي" الماهرة أقضّت مضاجع الرومان ، فقد اعتصم جنوده بقمم جبل "رقطة" قرب "باليرمو" (وهو جبل كستلاسيو أمام جزيرة دلافمينا من دون شكّ) وجبل "إيريكس" (جبل جوليانو المشرف على طرابنـة) وعطّلوا مواصلات جيوش العدو ونقل المعدّات الحربيـة إليه .

لقد كانت رومة وقرطاج في حاجة إلى المال في ذلك الوقـت ، وكانـت رومة تسمّي العدد الكبير من القواد بحسب المكايد السياسية . أمّا قرطاج فقد كانت واثقـة من عبقريّة عبد ملقرط البرقي وحده وطالت العمليات الحربية من غير أن تتراءى النتيجـة . إلاّ أنّ استعمـار الرومان العسكري كان أثبت وأطول نفسا من استعمـار قرطاج التّجاري فسعـت رومـة إلى بلوغ هدفها بواسطة البحر ، وطلبت من طبقة النبلاء تجهيز 200 سفينـة خماسية هجمت بها على "طرابنـة" وحطّمت أو حجزت مجموعة من مراكب التموين البونيقيـة قرب جزر "أغادى" (10 مارس 241) . ولم يكن لقرطاج مال كثير أو جيوش كافية فقبلت التصالح ، ورضيت بالجـلاء عن صقلّيّة والجزر التي بين صقلّيـة وايطاليا (ليبارى من دون شكّ) وبدفع غرامة حربية تقدّر بـ 200 3 وزنة أوبية أقساطا مدّة عشر سنين .

4 – تسريح جنود قرطاج ، وثورة المرتزقة

خسرت قرطاج من جرّاء هذه الحرب 500 سفينـة ، وحُرمـت من موارد‌ها القمرقية . فلمّا توافد عليها العشرون ألفا من المرتزقة الذين كانوا في صقلّية لم تستطع أن تدفع لهم ثمن القمح الذي استهلكوه ، وإلى هؤلاء الذين نغلت قلوبهم عليها انضمّ الليبيون وقد أضنتهم الحرب من بدايتها . ثم إنّه وقع حجز نصف الصابة وزجّ في السجن بجميع من عجزوا عن الدفع وصُلب 000 3 من إخوانهم الذين فرّوا من الجنديّة لأنّهم أبوا أن يخدموا قضية ليس لهم فيها ناقة ولا جمل. فنشأت أزمة عن هـذا

الحقد المشترك على الظالم طبعت طيلة ثلاث سنين وأربعة أشهر بطابع الحرب الطّبَقيَّة ، وقد ضحّت النّساء البربريات بحليهنّ في سبيل الحرية وظهر القادة من صفوف الثوار ولم تعرف الحرب هوادة .

"وماتوس" الليبي هو الذي أشعل نار الثورة ، فاستجاب لندائه الحضر والبدو وسرعان ما التفّ حوله سبعون ألفا من الرجال يحدوهم نفس الحماس ، وعيّنت قرطاج "حنّون" لمقاومتهم وكأنّها أرادت أن تتحدّاهم لأنّ الأفارقة كانوا لا يكرهون رجلا كما كانوا يكرهونه ، ولم يقدر حنّون على منعهم من احتلال البرزخ الفاصل بين قرطاج وتونس (سنة 240) ومحاصرة أوتيكة وبنزرت .

فاضطرّت قرطاج إلى الاستنجاد بعبد ملقرط البرقي رغم أنّها كانت تشكّ في إخلاصه . ففكّ الحصار عن أوتيكة ، وأجبر العدوّ على الفرار . ولكنّ الذي أنقذ قرطاج هو في الحقيقة منافسات الأهالي التي عطّلت دائما ما كانوا يبذلونه من مجهود للتحرّر . وقد أمدّه الأمير "نارافاس" بعون الفرسان النوميديين ، ومكّنه بذلك من الانتصار على المرتزقة وحاول عبد ملقرط البرقي حينئذ تفريق صفوف الأعداء بالإكثار من الوعود ، فردّ المرتزقة الفعل بإبادة أعيان قرطاج وبذلك بدأت "الحرب الضروس" .

ولعبت رومة على حبلين ، فبعد أن زوّد تجارها الثوار طالبت قرطاج بتسليم كرسيكا وسردينيا ودفع غرامة أخرى تقدّر بـ 200 1 وزنة أوبية بعد أن هدّدتها بحرب جديدة (سنة 241) . ثم هي بعد أن نجحت في مساومتها رخّصت للبونيقيين في تجنيد المرتزقة بايطاليا وسهّلت عليهم التموين بينما حجّرته على المرتزقة والليبيين وزوّد "هيرون" من جهته قرطاج ، بحيث تألّب حماة النظام القائم جميعهم على الثوار (حوالي 239) .

وعندما تخلّصت قرطاج من جميع مشاغلها الخارجية وكسبت حتى إعانة أعدائها بالأمس أتيح لها أن تضرب ضربتها الحاسمة فطوّق عبد ملقرط البرقي المرتزقة في فجّ المنشار (بين الحمّامات وزغوان) ، وانهزم الليبيون في لمطة (Leptis Minor) رغم أنّهم كانوا أشدّ مقاومة من

المرتزقة ، وصلب ماتوس ثم سلّمت مدينتا "أوتيكة" و"بنزرت" أمرهما إلى الغالب (سنة 237) .

5 – الاستعمار القرطاجي في اسبانيا : عبد ملقرط عزر بعل

خرجت قرطاج من هذه الحرب المدنية منهوكة القوى ، فسعت إلى الإصلاح من حالتها المالية وسلّطت عبد ملقرط البرقي على اسبانيا ومناجمها الفضّية وتخلّصت في نفس الوقت من المرتزقة الذين أبطرتهم الراحة وأنهكهم الضجر. وانطلق هذا القائد من "قادس" فاحتلّ الأندلس وخاض معارك بلغ إثْرها البحر المتوسّط . فشقّ بذلك بين البحرين طريقا تجارية ممتازة أصبحت تهدّد مصالح "مرسيليا" التي كانت حينذاك سيّدة "روطة" و"امبورياس" شمال "الايبرو" . وكأنّه أراد أن يسجّل احتلاله للساحل الشرقي فأسّس مدينة "أكرالانكي" (أليكانت) وكانت اسبانيا في ذلك الوقت ازدهرت فيها حضارة وفنّ يعبّران عن امتزاج عناصر يونانية وبونيقية واسبانية ، ولمّا مات عبد ملقرط وهو يحاصر "هليكا" (الش) ترك لقرطاج مناجم لا تنفد فضربت نقودا فضّية كبيرة .

وواصل صهره عزربعل سياسة آل برقة الشخصية فأحدث في قلب المنطقة الغنية بالفضّة مركزا بحريا وتجاريا ذا موقع ممتاز ، وأسماه قرطاج الجديدة (قرطاجنة) . وتضايقت رومة من اطّراد نجاحه وخشيت أن يتمّ التحالف بين البونيقيين والغوليين وخاصّة الاستيلاء على المراكز التجارية التابعة لمرسيليا . وتوصّلت إلى أن يلتزم عزربعل ، بعد ضغط حليفتها عليه ولا شكّ ، بعدم تجاوز "الايبرو" في فتوحاته (حوالي 226) .

6 – خطوات حنّبعل الأولى

أحدث اغتيال عزربعل اضطرابات في قرطاج ، واتّهم "آل برقة" بأنّهم يستغلّون ثروتهم الاستعمارية لتمويل أتباعهم وإغراء خصومهم بالمال. ولكنّ الجيش في اسبانيا لم يكن ليقيم وزنا لتقلّبات الرأى العام واختار حنّبعل ، ابن عبد ملقرط البرقي ، قائدا له ، وهو شابّ في الخامسة والعشرين من عمره ، كشفت الأيّام عن قدرته النادرة على القيادة والتنظيم.

لا شكّ أنّ عبد ملقرط البرقي أضمـر حربا أخرى للأخذ بالثّأر ، فقد طالب ابنه ولمّا يزل في التاسعة من عمره ، أن يقسم في معبد قادس بأن يحقد على الرومان حقدا أبديا . وقبل أن يشرع حنّبعل في تحقيق مشاريع أبيه بدأ بتوسيع رقعة العمليات في اسبانيا فتوغّل حتّى بلغ الالغادا (قرب منابع وادي آنة) و"الفاكيين" (على ضفّة الدورو) الذين افتكّ منهم "سلامنتكا" (Salamanque) ثم هزم جيش "الكرابطة" الجرّار (قشتالة الجديدة) على ضفّة "التاج" .

ولمّا استولى على الجهات الكائنة شرقي "الايبرو" استعدّ لمهاجمة "ساغونته" (مورفيدرو) ، بدعوى أنّهم في خصومة مع حلفائه الإسبان . وفتحها عنوة سنة 219 بعد حصار دام ثمانية أشهر . فلم تَحتَجّ روما في ذلك الوقت إذ كانت "ساغونته" فعلا في جنوب "الايبرو" ، ولم تكن متيقّنة من محالفة ساغونته (Sagonte) لها ، إلاّ أنّ مصالح مرسيليا التجارية كانت بلا شك من الأهميّة بحيث أثّرت على سياسة روما . كما أنّ رجال المال الايطاليين تحيّروا من الاستيلاء على مناجم الفضّة . وعندما رفض الشيوخ البونيقيون الضرب على أيدي حنّبعل رغم الإلحاح لم يجد سفراء رومة بدّا من إشهار الحرب (218) .

7) الحرب البونيقية الثانية : معركة ايطاليا

إنّ رومة لم تقرأ حسابا لعبقرية حنّبعل الذي كان ينتظر هذه القطيعة لينفّذ خطّة الهجوم . فاجتاز "البرقي" نهر الايبرو ثم البيرينه على رأس 50 000 من المُشَاة و 9 000 من الفرسان و 37 فيلا (جوان 218) ، وتمكّن من عبور نهر "الرون" حوالي منتصف شهر أوت . وحاذاه في اتّجاه منبعه إلى حيث يلتقي هذا النهر بنهر الايزير ، واختار الطريق التي لم يشدّد الرومان حراستهم فيها لاجتياز جبال "الالب" . ولا تزال المناقشات مستمرّة لمعرفة هل أنّه مرّ بالقرب من فجّ سان برنار الأصغر أو وادي "الارك" فجبل الاقنيس أو الإيزير الأسفل فجبل "جونيفر" . وكان مروره عبر هذه الأنهار والجبال عسيرا جدّا ، خصوصا بالنسبة للفرسان وحاملات

العدّة . وبعد مسير خمسة أشهر من بينها خمسة عشر يوما في الجبال بلغ الجيش القرطاجي "الطوريين" في وادي "بو" (آخر سبتمبر) ولم يبق منه إلاّ 12 000 افريقي . و8 000 اسباني و 6 000 فارس و 21 فيلا . وقد كلّف حنّبعل جنوده فوق وسعهم ، آملا أن يجد في شمال ايطاليا حلفاء ، وأن يكوّن جبهة ضدّ روما التي كان "البوبون" قد ثاروا عليها عندما أسّست مستعمرتي "بليزانس" و"كريمون" .

وحينئذ لم يعد القناصل يسيطرون على الموقف . فبعد أن اضطرّ ب. كورنيليوس شيبيون" الذي كان أرسل جيوشه من مرسيلية إلى اسبانيا، إلى العدول عن ملاحقة القرطاجيين في وادي "الرون" تسلّم قيادة الجيش المعسكر قبالة الألب (Cisalpine) واجتاز نهر "البو" . ولكنّ الفرسان النوميديين دحروه شرقي تيسينو (Tessin) فتقهقر إلى ضواحي بليزانس (Plaisance) وراء تريبية . وقد نالت هذه المعركة التي دارت بين طلائع الجيشين من هيبة الرومان فانضمّ الجنود "الغوليون" إلى العدوّ وتحالف شعب "أنسيبر" مع البونيقيين .

وسجّل حنّبعل بفضل عبقريته انتصارات عسكرية تدعو إلى الإعجاب فهزم جيوش "سيروتيوس" و"ب. شيبيون" ، وبرد الشتاء في أوجه ، على ضفاف نهر تريبية ، وقتل أو أغرق ثلاثة أرباع أعدائه . وقد غذّى هذا الانتصار الذي تبعته دعاية واسعة ثورة "الغوليين" ثم اجتاز حنّبعل بصعوبة جبال "الآبنان" سالكا طرقا محفّرة حتى "صدفة لوك" ثم اخترق وادي أرنو (Arno) وتوجّه نحو "بيروزا" تاركا على يساره "أريتيوم" حيث كان يعسكر جيش القنصل "أفلامينوس" . ولم يبق له إلاّ فيل واحد . فحصر أفلامينوس نفسه في مضيق كائن بين بحيرة "طرازيمان" وهضاب الشمال كأنّه أوقع بنفسه في فخّ وذلك من غير أن ينتظر زميله "سرفيليوس" الذي كان في أريمنيوم" . فهلك مع 15 000 من رجاله وأسّر 15 000 آخرون . واحتفظ حنّبعل بالرومان وخلّى سبيل الحلفاء وبذلك وقف في مهارة موقف المدافع عن الحريات الايطالية .

واحتلّ الجيش البونيقي عبر الابينان الامبرى ، البيسينوم التي لم تخضع لسلطة رومة إلاّ منذ نصف قرن فقط . فوجد فيها الزاد والحليف ، والراجح

أنّـه اتّـصل بـ "المارسيين ، والماروسيين والبيلينيين القاطنين في الابنـان الأوسط وحرّضهم على العصيان . ولكنّ رومة عيّنت "كانتوس فابيوس مكسيموس" خصم أفلامينوس القديم دكتاتورا وهو من أنصار الحرب التي تنهك قوى العدوّ بطول المقاومة بدون الاصطدام به وجها لوجه . ولمّا اقترب من عدوّه انتقل حنّبعل إلى سهل "دوني" ثم إلى "كامباني" وتزوّد من خيرات تلك الجهة . فلحقه "فابيوس" وكاد أن يقبض عليه إلاّ أنّ الرومان ملّوا هذه الخطّة البطيئة الليّنة التي كان يسير عليها هذا الدكتاتور "المتأنّي" واعتقد الشعب أنّ الرعاع المتنبّلين اتّحدوا مع الارستقراطيين لمواصلة الحرب دون جدوى فعيّن شخصية جديدة معروفة ببلاغتها المتحمّسة هي"تارتيوس فارو"لتشارك القنصل إيمليوس بولوس في الحكم.

ووصل حنّبعل إلى سهول "أبولي" واستحوذ على المخازن الحربية "بكانة" وعسكر الجيش الروماني الذي كان يضمّ ما يقرب من 80 000 بالقرب منه . وبدأ "فارون" المعركة بالرغم عن ايميليوس على الضفّة اليمنى من "الاوفيد" (أوت 216) ونجح حنّبعل الذي كان عدد جنوده لايتجاوز نصف عدد جنود الرومان في تطويق العدوّ من كلّ جانب ، وقتل "ايمليوس" و 45 000 روماني وأسّر 20 000 . ولاذت فلول الجيش الروماني بالفرار والتحقت بكانوزيوم تحت جنح الظلام ، وفرّ "فاورون" كذلك ، فرأى مجلس الشيوخ من الدهاء أن يقتبله معزّزا مكرّما .

ويتساءل المؤرّخون لماذا لم يستغلّ حنّبعل انتصاره . ولا شكّ أنّه كان يرى من المستحيل محاصرة رومة ، ولعلّه كان يأمل أن يجنح مجلس الشّيوخ إلى التفاوض ، ولكنّ شيئا من ذلك لم يحدث . وقد جلب انتصاره في "كانة" بعض الحلفاء ، وخاصّة مدينة "كابو" في جنوب ايطاليا كما أنّه مكّن قرطاج بعد موت هيرون من مضاعفة بسط نفوذها في صقلّيّة ، ولكنّ ايطاليا الوسطى لم تحرّك ساكنا ولم تتكوّن أيّةُ جبهة في البحر المتوسّط من شأنها أن تهدّد مستقبل رومة .

ومنذئذ استحالت الملحمة مغامرة ، وانهارت قوّة حنّبعل شيئا فشيئا ابتداء من سنة 213 . فقد أطرد الرومان في مدّة سنتين البونيقيين بدون رجعة وسقطت كابو في يد الرومان ونالها عذاب عسير كما فتح "كرنوليوس

شيبيون" الأندلس وفقدت قرطاج من جرّاء ذلك زمام الحرب (208 — 207) وتمّت مشيئة القدر وعندما حاول عزربعل فيما بعد نجدة أخيه انهزم وقتل قرب "الميتور" (جوان ، جويلية 207) وآل الأمر بحنّبعل إلى أن ظلّ معسكرا بالبرونيوم حيث لم يتجاسر أحد على اقتحام مكانه.

8) شيبيون الافريقي

لما عاد شيبيون من اسبانيا (206) (وهوب . كورنوليوس شيبيون الذي لقّب الافريقي بعد انتصاره) اقترح مواصلة الحرب في أرض افريقية نفسها . ولم يتحمّس الشيوخ لمشروعه ، ولكنّ الشّعب قبله . فأعدّ العدّة للهجوم معتمدا على ما أمدّته به مقاطعة صقلّية من موارد ، وعلى الجنود الذين خلبهم بسمعته . وقد كان أجرى محادثات إيجابية مع الإغليد سيفاكس ، أمير مازيسولة أونوميدي الغرب ومع "الإغليد" مسينسا أبن ملك ماسولة أو نوميدي الشرق الذي اضطرّه سيفاكس إلى أن يكون من الأنصار ومستعدّا دائما لقيادة القبائل الثائرة . غير أنّ سيفاكس تزوّج من سوفونيسب الجميلة ابنة عزربعل جسكون التي كان لها الأثر البالغ عليه فحملته على التحالف مع قرطاج ورُدّ مسينسا إلى أقصى سيرتا الصغيرى . فلم يبق لشيبيون بعد هذه الخيبة المزدوجة إلاّ الاعتماد على قواه الخاصّة .

9) معركـة افريقيـة

وما إن حمل ضغط الطبقة الشعبية مجلس الشيوخ على السماح لشيبيون بالتوجّه إلى افريقية (204) حتّى نزل على رأس كتيبتين بالقرب من أوتيكة وعسكر قرب المدينة (كستراكورنيليا) وجاب وادي مجردة من دون أن يعترض طريقه شيء . وقد كانت قرطاج المحتمية بأسوارها لا تخشى الهجوم ، ولكن لم يكن لها جيش يذكر وكانت تؤمّل تدخّل أمراء البربر . ولكنّ مسينسا الذي استمالته قرطاج بوعودها الكثيرة انضمّ إلى العدوّ والمعركة على أشدّها . واكتفى سيفاكس بمفاوضة الرومان حول مشروع للسلم . واغتنم شيبيون هذه المحادثات ليفاجيء العدوّ ويضرم النار في معسكري عزربعل وسيفاكس . وبذلك قضى على جيشين فأهلك

000 40 جندي وأسر 000 5 آخرين (ربيع 203) . فكانت هذه الفعلة حسب ما روى بوليب أجمل وأعظم ما قام به هذا القائد الشاب من الأعمال الجريئة .

وأخذ عزربعل وسيفاكس يعدان العدة بمعونة السلتيين والاسبانيين للهجوم على العدو ، ولكنهما خابا شر خيبة . وواصل شيبيون تقدمه محاذيا وادي مجردة ، وانتصر على العدو في الدخلة ، ثم عسكر بتونس وأخذ يهدد قرطاج (جوان 203) وتعقب مسينسا سيفاكس إلى أن ألقى عليه القبض ودخل سيرته . وهنا نجد أسطورة تعلق هذا البربري بسوفونسبة ابنة عزربعل وانتحارها . وقد تسلى مسينسا على كل حال بتسلم شعار الملوكية .

رضي شيبيون أن يوقف العمليات الحربية ليمكن قرطاج من التفاوض من أجل الصلح وأيدته في ذلك مجالس الانتخاب (شتاء 203 — 202) . ولكن مجموعة من المراكب الرومانية مثقلة بالمؤن ارتطمت بسواحل قرطاج فنهبها القرطاجيون وقد أخذ منهم الجوع مأخذه . ولما قدم السفراء الرومان للاحتجاج كاد الجمهور أن ينال منهم ضربا . فاضطر شيبيون إلى أن يضع حدا لوقف القتال . وكان سكان المدينة يعتمدون على حنبعل الذي طلب منه العودة من ايطاليا فاجتاز "البرقي" البحر من دون أن تعترض طريقه أية عقبة ونزل بلمطة في صيف 203 (Leptis Minor) ومنها وصل إلى حضرموت . فماذا فعل طيلة السنة التي سبقت الاصطدام الكبير ؟ لا شك أنه جمع حوله قبائل بربرية . وبينما كان في طريقه إلى الجيوش الأهلية التي أتى بها إليه أحد أبناء سيفاكس ، "فرمينا" إذا به يلتقي بجيش شيبيون في جهة الكاف . وتمت بينهما مقابلة لم تأت بنتيجة تذكر إذ رفض القائد الروماني الاقتراحات التي قبلتها قرطاج لإبرام الصلح : وهي التخلص عن اسبانيا والجزر، وتخريب الأسطول البونيقي ما عدا عشرين مركبا ، وذلك مقابل الاعتراف لقرطاج بالسيطرة على افريقية . وحينئذ جرت المعركة الحاسمة بالقرب من جامه (Zama) ولا يزال مكانها المضبوط محل الأخذ والرد .

لقد أعوزت حنبعل النجدة التي كان يترقبها من "فرمينا" ، بينما وصلت جيوش مسينسا لتعزيز صفوف شيبيون في الوقت المناسب .

وكان جنود حنّبعل تنقصهم الدربة وقد أخذ منهم التعب مأخذا عظيما ، فانهزم القائد القرطاجي وفرّ إلى حضرموت تاركا 20 000 قتيل في ساحة الوغى بينما وقع في أيدي العدوّ 20 000 آخرون . وقد اعترف شيبيون بأنّ البرقي بذل في معركة جامه كلّ ما كان يمكن أن يبذله بشر للانتصار (أكتوبر 202) .

10) خضوع قرطاج

طلب القرطاجيون الصلح فقرّر شيبيون أن تحتفظ قرطاج بترابها الافريقي على شرط ألاّ تشهر الحرب إلاّ بإذن من رومة ، وأن تتنازل لمسينسا عن مقاليد السيادة على البلاد النوميديّة . واضطرت قرطاج كذلك إلى التفريط في فيلَتِهَا وأسطولها ما عدا عشر سفن ثلاثية ، وإلى العدول عن تجنيد المرتزقة من بلاد غوليا وليغوريا وتسليم كلّ ما لديها من غنيمة ، ودفع غرامة حربية قدرها 10 000 وزنة أوبية منها 1 000 تدفع في الحال وقبل إيقاف القتال ، وأخيرا أجبرت على إرسال الرهائن إلى رومة .

ولم تجد قرطاج بدّا من قبول هذه الشروط القاسية التي جعلتها عرضة لمطامح مسينسا (ربيع 201) ويقال : إنّ حنّبعل رمى من أعلى المنصة بقرطاجي كان يطالب بمواصلة الحرب إلى النهاية معتقدا أنّ التشفّي لا يجدي ، بل من الواجب تحطيم ارستقراطية المال التي تتحمّل قسطا وافرا من مسؤولية هذه الكوارث ووجّه البرقي ضرباته الأولى ضدّ مجلس الشيوخ ، ثم ظلّ يسعى إلى تحسين الوضع المالي والفلاحي بقرطاج إلى أن تعاظم حقد أعدائه عليه وازدادت مخاوف رومة منه فتقرّر نفيه .

إنّ قرطاج خرجت منهوكة القُوى من هذا الصراع بين البونيقيين والرومان الذي دام أكثر من ستين سنة . وقد أصبح من المألوف أن يرى المؤرّخون في الحروب البونيقية مظهرا من الصراع القائم بين الشرق والغرب ، وبين مدنيتين ولنقل نحن : بين صورتين للاستعمار .

وسوف لا نتعرّض للمدنية اللاطينية في هذا الكتاب إلاّ بالقدر الذي أثرت به على سياسة رومة الافريقية . أمّا المدنية البونيقية فهي بالعكس تهمّ بلاد المغرب مباشرة ، لا لأنّ قرطاج كانت عاصمة فحسب ، بل لأنّها أثّرت كذلك تأثيرا بالغا في بلاد البربر .

III ـ المدنية القرطاجية

1 ـ قرطاج : المدينة والميناء

إنّنا لا نعرف عن قرطاج إلاّ ما كتبه عنها اليونانيون واللاطينيون ، وكانوا معنيّين أولا وبالذات بحروبها مع سرقوسة أو رومة . وليست لدينا مؤلّفات تاريخيّة متواصلة الحلقات خطّها أبناء قرطاج أنفسهم ، وذلك ما يعلّل الأسطورة التي ظلّت أحقابا كثيرة تقابل بين حسن نيّة رومة والنّفاق البونيقي . أمّا عن المدنيّة فإنّ النصوص لا تكاد تفيدنا شيئا كما لا يفيدنا الأثاث الجنائزي فائدة تذكر .

ولا يعنينا أن نأمل إحياء العاصمة البونيقية (إن لم نقل "المستعمرة القيصرية" التي تمكّن ش. سوماني من ضبط موقعها الأصلي) إلاّ أنّه لا يستبعد أن تمدّنا الأبحاث المنظّمة بصورة أقلّ وحشة من الصورة التي تسيطر على عقولنا اليوم .

إنّ مكان القبور والمعبد "ما قبل القرطاجي" الذي حفر عليه "ب. سنتان" في رمال صلامبو يشهدان بأنّ أقدم جهة لمدينة قرطاج كانت على ساحل البحر في سفح الهضبة المسمّاة "بيرصة" أو "سان لوي" ثم انتشرت على ضفّة البحر والمنجدرات . ولئن لم يبلغ عدد سكّانها 700 000 كما يدّعي سترابن فإنّها كانت على كلّ حال مدينة عظيمة بالنسبة لذلك العهد . وقد كشفت حفريات حديثة عن بعض الدّيار ، وربّما عن بقايا من سورها في الجهة الشرقية خاصّة .

وكانت قرطاج أثناء الحرب البونيقية الثالثة في حصن حصين تحوطها أسوار بلغ طولها 34 كلم وارتفاعها 13 مترا وسمكها 9 أمتار ويوجد عليها

برج للدفاع كل 59 مترا . وتقع الساحة العمومية أو "الاغورة" (Agora) بين المواني وبيرصة ، ومنها تتفرّع ثلاثة شوارع صاعدة إلى معبد أشمون ازدحمت على جوانبها بيوت ذات ستّ طوابق . وتحتلّ المقابر شمالا هضبة "الاوديون" بالقرب من درمش ودويمس وسانت مونيك (السعيدة). وبعدها تبدأ ضاحية مغارة محتلّة مساحات شاسعة في جهة سيدي أبي سعيد.

إنّ الميناء المزدوج الذي كان القلب النابض للحركة التّجارية بقرطاج حيّر علماء الآثار . وإذا نحن نظرنا شمالا وتأمّلنا الغديرين المتلالئة مياههما تحت أشعّة الشمس بين صلامبو ودرمش تعذّر علينا أن نتصوّر الحوض الكبير المستطيل الخاصّ بالتجارة الذي وصفه "آبيان" والمتصل بالبحر ، وكذلك الحوض المستدير المحاط بسورين الذي يرسي فيه الأسطول الحربي حول جزيرة القيادة ، إلاّ أنّ "بيلي" ذهب إلى الاعتقاد رغم ذلك في منتصف القرن الماضي بأنّ الجزء المهمّ من رسم الميناءين المحفورين (القطون Kothon) يوجد في هذا المكان .

ومن يومئذ ، أخذ علماء الآثار يفتّشون عن موقعهما في قلب البحر بجون الكرم على سفح هضبة البرج الجديد أو في خليج تونس . وهل أدعى إلى السخرية من أن يرجع "ستفن ڤزال" من جديد « وهو أحد كبار الباحثين وأعلمهم » إلى الفرضية التي تقدّم بها "بولي Beulé" وذلك بعد نصف قرن من الحفريات والمناقشات العلمية .

2 ـ الأسكلة القرطاجية

إنّ موقع هذا الميناء الممتاز المتّصل بحوضي البحر المتوسّط هيّأ قرطاج لأن تلعب دورا في التجارة العالمية ، وقد استغلّت جميع مزايا هذا الموقع استغلالا منظّما . وربّما ورثت كلّ شيء من الاستعمار البونيقي في الغرب . فقد ورثت مراكزه التّجارية وعرفت كيف تنمي هذا الإرث ، فلم تحاول قطّ بسط نفوذها السّياسي في داخل البلدان المحتلّة ، واكتفت في افريقية نفسها بمساحة من الأرض متواضعة نسبيا . ولكنّها ضمنت لنفسها مراقبة سواحل بلاد البربر المتوسّطية والأطلسية ، وكذلك

سواحل اسبانيا الجنوبية ومراكز التموين الضرورية ، في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسّط : مالطة والجزر المجاورة وغربي صقلّية وجنوبي سردانية وجزائر البلجار — وإذا هي لم تتمكّن من إقصاء اليونان عن صقلّية والسواحل الايطالية والغولية والاسبانية واضطرّت، كما يفيدنا بذلك أرسطاطاليس إلى أن تحسب حسابا للاتروريين وإلى التفاوض مع الرومان في فترة معيّنة ، فإنّها حقّقت على كلّ حال مجموعة من نقط "الارتكاز" يكون مجموعها امبراطورية حقيقيّة .

وهكذا كان لها أسكلة وزّعت توزيعا ماهرا لتكون أسواقا ومراكز تموين : فنجد في افريقية أسواق سيرتا الصغرى والكبرى مثل لبدة (Leptis Magna) وقابس (Tacapae ou Tacapas) وموانى البلاد الليبية الفينيقية : رأس الديماس (تابسوس) ولمطة (لبتيس مينور) وسوسة (حضرموت) وأوتيكة ، وبنزرت (Hyppo Diarrytus) ، وفي شرقي رأس بوقرعون : عنابة (Hyppo Regius) سكيكدة (Rusicade) بجاية (Saldae) دلس (Rusccum) ماتيفو (Rusguniae) الجزائر العاصمة (Icosium) شرشال (Iol) قبّة سيدي إبراهيم (Guniga) تناس (Cartennae) وعلى ضفّة البحر الأطلسي العرايش وتشميش (Luxus) ومستعمرات حنون وفي اسبانيا قادس (Gades) مالقة (Malaga) حدرة (Abdère) سكسي (Sexi) ، وفي سردانية : تري دي سان جيوفاني (Thanos) سانت أنتيوكو (Sulcis) سانت افيوزو (Nora) كاغلياري (Caralis) ترانوفا (Olbia) ، وفي صقلّية ، مدن الغرب : بالرمو (Panormus) مرسلا (Lilybacum) .

وإذا احتفظت بعض المستعمرات كلمطة وأوتيكة أو قادس بنوع من الاستقلال فقد سيطرت قرطاج على بقية المستعمرات بشدّة ، ولم تتردّد عند الحاجة في إجلاء السكّان عن مناطق شاسعة أو فرض الضّرائب المرهقة وخصّت أصحاب السفن التابعين لها بتعاطي التّجارة وحدهم وبذلك حالت دون أيّ تقدّم اقتصادي في الموانى الأخرى .

3 ـ رحلات خيملكن وحنـون

أظهرت قرطاج في بحثها عن الأسواق جرأة نادرة وامتدّت مطامحها إلى ما وراء أعمدة هرقليس . وقد أسند لاثنين من الماغُونيين في أواسط القرن الخامس القيام بمهامّ في بلاد بعيدة . فحاذى "خيملكن" سواحل اسبانيا وبلاد غوليا إلى أن وصل على ما يبدو إلى انقلترا ، وحتى إلى ارلندا نفسها ، ولا شكّ أنّه كان يعتزم تحويل تجارة القصدير والرصاص التي كانت، تسعى مرسيليا في احتكارها إلى قادس . أمّا حنون "الملك" فقد اتّجه نحو الجنوب مصحوبا بستين سفينة مشحونة بالمهاجرين ، وعندما رجع أذن بنقش رواية مآثره التي نجد اليوم صدى لها في ترجمة أو تلخيص باليونانية . إلاّ أنّ تأويل هذا النصّ لا يخلو لسوء الحظّ من صعوبات كثيرة أدّت بالمعلّقين إلى أن يستنتجوا استنتاجات مختلفة ومتنوّعة.

فأمّا "س. قزال" فإنّه يزعم أنّ حنون انطلق من قادس فأسّس سبعة مراكز أقصاها جنوبا مركز "قرنة" الذي يوجد على سبيل التقريب في مستوى الجزر الخالدات (Les Canaries) ثم واصل سفره عرض السواحل الافريقية إلى أن أشرف علي خطّ الاستواء . وإلى عهد غير بعيد لم يقدح أحد في هذا التأويل الذي أصبح كالمرجع اللهم إلاّ في بعض الجزئيات.ومنذ بضع سنوات فقط انتقده كاركوبينو انتقادا لا هوادة فيه . وهو لم يناقش نقطة انطلاق حنون ولا خاتمة مطافه ولكنّه عارض من سبقه في نقط ثلاث . فهو أوّلا لا يعتقد أنّ حنون اتّبع خطّا واحدا ، بل يرى أنّه قام بسلسلة من الرحلات ينظّم كلّ واحدة منها في مركز جديد أبعد من المركز السابق ، وهو ثانيا يجعل جزيرة قرنة في نقطة أكثر توغّلا في الجنوب قرب جزيرة "هرنة" الموجودة عرض "فيلاسز نيروس" (ريودورو) . وهو ثالثا وبالخصوص يعتبر أنّ غاية هذه السفرة هي إحلال قرطاج محلّ "لكسوس" المركز الفينيقي العتيق في استغلال تجارة الذهب المستخرج من السودان والذي كانت القوافل تحمله إلى جزيرة قرنة . وبالرغم عن أنّ هذه النظرية أثارت بعض التحفّظات ، وربّما شيئا من المناوأة الصريحة أحيانا ، فإنّه لا مناص من الاعتراف بأنّها ألقت الأضواء الكاشفة على هذه الرحلة التي كان الجميع يعتبرون الدّافع

الأصلي إليها حبّ الاطّلاع العلمي . وما نعرفه عن البونيقيين يحملنا على الاعتقاد بأنّهم كانوا بصفة عامّة مهتمّين بالتجارة لا بالجغرافيا . وقد ذهب أخيرا بعض المؤرّخين إلى أنّ حنون لم يتجاوز قطّ واد الذّراع جنوبا .

4 ـ القرطاجيون جوّابو بحار

إنّ حياة قرطاج واتّجاهاتها السياسية تدلّ فعلا على أنّها كانت مدفوعة دائما بضرورة البيع والشراء ، وأنّ دورها الاقتصادي الرئيسي يتمثّل على ما يبدو في جمع الموادّ الأوّلية ثم توزيعها على نحو ما فعله الهولانديون من بعد تقريبا ، وكانت الموادّ المصنوعة تمثل عنصر المبادلة.

وأوضاع الامبراطوريّة القرطاجية نفسها تؤكّد أنّ الأساكل لم تكن لها أهمّيّة من حيث الملاحة وحدها ، بل من حيث إنّها نقط الانطلاق والوصول بالنسبة للبعثات والقوافل . كانت منتوجات افريقيا الوسطى كالذهب والعاج والجلود والعبيد تصل إلى سيرتا الصغرى وسيرتا الكبرى أو إلى المستعمرات الأطلسية . وكانت اسبانيا تزوّدها بفضّة مناجمها وبالمعادن والعنبر المجلوبة من الشمال عن طريق البحر . وكان زيت صقلّية وخمرها وحبوب سردانية ونحاسها وفضّتها تصل كلّها إلى قرطاج أيضا .

ويظهر أنّ هذه التجارة اعتمدت طويلا على مبدإ المقايضة البسيط. ولم تضرب قرطاج نقودها البرنزية الأولى إلاّ في النصف الثاني من القرن الرابع ، وفي القرن الثالث ظهرت النقود الفضّية . والذي دفعها إلى ضرب سكّتها هي ضرورة عسكرية أكثر منها تجارية . فالشعوب المتفاوتة بدائيةً التي كانت لها روابط اقتصادية بقرطاج كانت قبل أن تتأثّر بما ترمز إليه قطعة النقود المعدنية ترغب في اقتناء المنتوجات المصنوعة لترويجها عندها كالأقمشة وآنية الخزف والبلّور والأسلحة ، والمصنوعات الخشبية والعطورات وبصفة عامّة البضاعة البونيقية الرديئة .

5 ـ الصناعة

لم تتميّز صناعة قرطاج لا بالنشاط الفائق ولا الابتكار المبدع . وممّا لا شكّ فيه أنّ البونيقيين تخصّصوا بحكم الضرورة في صنع السفن

وآلات الموانى التي ربما كانت من اختصاصات الدّولة . إنّهم صنعوا الحديد والنّحاس والبرنز والمعادن الثمينة والأسلحة والمتاع المطليّ أو البلّوريّ وأدوات التجميل العاجية ، والخرز ، وخصوصا الجعلان المستعملة خواتم ، والآنية الخزفية الصالحة للاستعمال ، المزخرفة أو البسيطة ، الموجودة بكثرة في القبور والتي تمتاز بتنوّع الأشكال ، وكذلك الأقنعة المكشّرة أو الضّاحكة المودعة في القبور أيضا ، وبعض أواني الفخّار المتقنة الصنع . ونجحوا أيضا في الصباغة والحياكة والدباغة . واشتهرت أيضا بصناعة الخشب البونيقية كما تشهد بذلك الصناديق الموجودة في "سميرات" و"جيغتي" بالخصوص . أمّا المنتوجات الممتازة والأنيقة فكانت تجلب من أماكن أخرى .

6 ــ الفلاحــة

لم يتيسّر للفلاحة أن يكون لها إنتاج ذو بال لأنّها كانت مقتصرة على الأراضي الليبية التي فتحتها قرطاج وضواحي مستعمراتها ، إلاّ أنّ شهرتها كانت رغم ذلك عظيمة فمنذ أواخر القرن الرابع وقف أغاثوكل مدهوشا أمام ثروة الزياتين والكروم والماشية . وينسب الرومان إلى البونيقيين اكتشاف الأدوات الفلاحية . وأذنوا بترجمة كتاب الفلاحة الذى ألّفه البونيقي ماغون في 28 جزءا . ولم يقتصر المؤلّف على إسداء النصائح حول الزراعة وتربية الماشية بل ضبط كذلك ضبطا مدقّقا قواعد إدارة الأملاك الريفية .

ويتعذّر علينا أن نضبط وضعية الأملاك في المناطق الافريقية الخاضعة لقرطاج . فالذى لا شكّ فيه أنّ الطبقة الارستقراطية كانت تملك دُورا ريفية فخْمة في الغالب وسط أراض شاسعة ، إن لم نقل ممتلكات فسيحة ، كما سيكون الشأن فيما بعد بالنسبة للرومان الأغنياء . وليس من المستبعد أن نعتقد أنّ الدولة لم تستغلّ أملاكها بنفسها ، وأنّ النبلاء كانوا يستغلّونها مكانها . وكان الليبيون الذين انتزعت منهم أراضيهم هم الذين يخدمون الأرض بطبيعة الحال بصفتهم عُمّالا مُسخّرين أو رقيقا . ولربّما شغلوا أجراء يوميين للقيام ببعض الأعمال .

والطبقة النبيلة الساهرة على إحياء الأراضي كانت تتعاطى زراعة الأشجار من زيتون وتين ولوز ورمّان وكروم . وكانت تتعاطى تربية الخيل والبغال والبقر والغنم والمعز ، وكانت هذه المواشي كثيرة جدّا حتى أنّ بوليب جزم بأنّ قرطاج لا تضاهي في هذا الميدان . إنّها لم تستمدّ من أرضها أرباحا طائلة بدون شكّ أو هي على الأقل لم تستمدّ كلّ أرباحها من الأرض . وقد كان الأهالي يزرعون الحبوب . وكانوا يستعملون محراثا حديدته مثلّثة الشكل وآلات الدراس المتنوّعة .

وكان القرطاجيون يربّون كذلك الدواجن ونحلا شمعه مشهور. كما كانوا ينتجون الزيت بأساليب لا يمكن الاهتداء إليها اليوم وخمرا كثيرة ربّما عالجوها بالجبس . ولا شكّ أنّهم كانوا صيّادين في البرّ كما كانوا يتوغّلون في البحر بحثا عن السمك فيملّحون "التنّ" في المراكب نفسها .

وفي الجملة يظهر أنّ الاقتصاد الفلاحي المعتمد على علم فلاحي قائم بذاته ربّما سمح بضمان الاستهلاك المحلّي ، ولكنّه لم يوفّر مادّة كافية للتصدير .

7 ـ حكومة تجّار

إنّ قرطاج مدينة تجارية فكانت حكومتها حكومة تجّار تخدم مصالحها . ولا نعرف في العصور القديمة بلدا أخضعت فيه الرأسمالية السياسة ، واستغلّت الأهالى المغلوبين على أمرهم كما فعلت الرأسمالية في قرطاج . لقد كانت أرستقراطيتها المتكوّنة من رجال الأعمال مستبدّة قاسية شديدة الحذر تشبه شبها كبيرا أرستقراطية البندقية إذا استثنينا الثقافة والذوق .

وما ورد في كتاب أرسطو "السياسي" من معلومات (حوالي 335) لا يسمح لنا أن نتصوّر بدقّة نظام الدستور البونيقي الذي يشبهه بدستور سبرتا . وربّما كانت قرطاج في أوّل أمرها خاضعة لعائلة مالكة خلفها في الحكم « شافطان» كما خلف القناصل الملوك في رومة . وكان هذان

الشافطان ينتخبان من طرف الشعب كلّ سنة فيتنافس المترشّحون في استعمال الرشوة . ويساعد الشافطين مجلس الشيوخ المتركّب على ما يظهر من ثلاثمائة عضو يتمّ اختيارهم مدى الحياة من الطبقة الارستقراطية . وهكذا أتيح لطبقة النبلاء المتوارثة أبا عن جدّ أن تفرض إرادتها طيلة قرنين . ولم يحدّ من سلطانها سوى المنافسات التي تنشأ من وقت لآخر بين أعضائها . وكان يدير الشؤون العامّة مجلس يتركّب من ثلاثين شيخا.

وكانت أهمّ السلط بيد هيئة أو ربّما هيئات كثيرة تتألّف من خمسة أعضاء (الهيئات الخماسية) يعيّنون أنفسهم بأنفسهم ، ويختارون محكمة المائة والأربعة صاحبة السلطة الكبيرة . وقد تمّ تأسيسها في القرن الخامس للحيلولة دون محاولة إقامة النظم الاستبدادية . وعندما تنتهي مأمورية المائة والأربعة يسند إليهم لقب «حاكم» لحمايتهم من الانتقام وتمتيعهم بالحصانة .

إلاّ أنّ هذا التخطيط الذي رسمناه لا يوافق إلاّ الحقبة الكلاسيكية ، إنْ صح التعبير ، من تاريخ قرطاج ، فبوليب عندما يحدّثنا عن مؤسّسات هذه المدينة قبيل انهيارها يلمّح إلى وجود مجلس شيوخ أقلّ نفوذا من ذي قبل ومجلس للشعب قد اتّسعت مشمولاته وهو بذلك يشير إلى دولة أكثر ديموقراطيــة .

8 ـ شعب قرطاج ودوره السياسي

إنّنا لا نعرف شعب قرطاج معرفة كاملة ، فنحن لا نجهل حياته ومطامحه فحسب ، بل حتى تركيبه لا يزال غامضا أيضا . ولا شكّ أنّ المواطنين كانوا العنصر الأساسي فيه ، ولكنّنا نجهل عددهم وبالخصوص نسبة هذا العدد من مجموع السكّان ، فإلى جانب المواطنين كان يوجد الموالي والعبيد وكان عددهم كبيرا من دون ريب ، والأجانب وخاصّة أهالي افريقية الذين أغراهم ما كان ولا يزال يوجد من موارد في كلّ ميناء كبير .

إنّه لم يكن لمجلس الشعب الذي لا نعرف دوره بالضبط إلاّ سلطة متفاوتة في الزمان ، فهو الذي ينتخب القواد وكذلك « الشافطين» من دون

شكّ» ولم يكن له بعد ذلك غير دور الحكم إزاء ما كان يحدث من خلافات بين الشافطين ومجلس الشيوخ . وابتداء من القرن الثاني فقط أصبح يرجع إليه ويطلب رأيه أكثر من ذي قبل . ولا نعرف كذلك شيئا يذكر عن « الجمعيات » (Hétairies) التي كان أعضاؤها يتناولون أحيانا الطّعام معا . وقد أراد بعضهم اعتبارها نوعا من النوادي ، ورأى البعض الآخر أنّها نوع من النقابات المهنية ، ونظّرها آخرون بالعشائر (Curies) الرومانية . ولا يوجد التباس من حيث الاتّجاه في محاولات الإصلاح ، وأهمّها تلك المحاولة التي قام بها حنّبعل غداة موقعة "جامة" ولكن لا يمكن ضبط مداها من الناحية العملية ، وفي الجملة فإنّه يبدو أنّ الدور الذي كان يلعبه من النّاحية القانونية شعب قرطاج ظلّ دائما متواضعا .

إلاّ أنّ تطوّر المؤسّسات في اتّجاه ديمقراطي يسمح بالاعتقاد بأنّ الشعب أو على الأقل بعض عناصره كان حريصا على تغيير وجهها من الخارج . ويظهر أنّ الفتن كانت كثيرة نسبيّا ، ولكنّها لم تسفر مع ذلك عن ثورات . فلم تلق محاولات الاستبداد بالحكم — كتلك التي قام بها حنون الأكبر في أواسط القرن الرابع — التأييد الشعبي الذي كان من شأنه أن يضمن لها النجاح . وإذا أمكن — إذن — الحديث عن "تزايد نفوذ الشعب" فإنّه يجب أن نلاحظ أيضا أنّ هذا التزايد لم يبلغ من القوة بحيث يقضي على رسوخ نظام حكم الأقليّة في المدينة .

9 — جيش من المرتزقة

إنّ أيّة دولة ، ولو كان أفرادها تُجّارا ، لا يمكنها الاستغناء عن قوة مسلّحة ، إمّا لمعاضدة توسّعها الاستعماري أو لقمع الثورات . ولكنّها تحذر من القوّاد الذين يضيقون ذرعا بإشراف رجال الأعمال عليهم ، ويميلون إلى قلب نظام الحكم . فقد أثار قواد قرطاج في القرن الرابع خاصّة مخاوف الحكومة . فضربت مرات عديدة على أيدي قوّاد عسكريين استرابت بعض أعمالهم الجريئة ، أو صلبت من اتّهمتهم بالسعي إلى الاستبداد بالحكم .

وكانت الحصون التي تحوط المدينة تضعها في مأمن من الغارات . كما أنّ أسطولها الحربي يضمن لها السيطرة على البحار والتزوّد بانتظام . وكان معظم الجدّافين المشهورين بمهارتهم في العمل من بين المواطنين . وكان لها في أوّل الأمر جيش وطني . ثم بعد ذلك دخل بعض الأغنياء البونيقيين في الخيّالة ولكنّها انتدبت المرتزقة منذ القرن الرابع . فقد حارب إلى جانبها في معركة هيمير (480) ليبيون واسبانيون وليغوريون وسردانيون وكرسيكيون . ثم أضافت إلى جيوشها شيئا فشيئا رجالا مسلّحين بالمقاليع جنّدتهم من جزر البلجار والسلتيين والاتروريين والسمنيين والبروتيين . واستمدّت في القرن الثالث معظم جنودها من افريقية فجنّدت بالقوة العبيد الليبيين العاملين في أراضيها ، وأسندت إلى الأمراء الأهليين قيادة الخيّالة النوميدية التي سجّلت لها أبهر انتصاراتها بفضل حملاتها الفجائية وكمائنها وبراعتها في الاهتداء إلى معاقل العدو . ولم يكن الجيش المتكوّن من المرتزقة منقادا دائما . وهيبة حنّبعل هي وحدها التي وضعت حدّا لهروبهم ، وكثيرا ما كانت تحدث الثورات في صفوف هذا الجيش ، أو يعتمد عليه من يشقّ عصا الطاعة من بين القــواد .

واصطادت قرطاج في جبال الأطلس الفيلة المتوحّشة التي كان يروّضها للحرب فيّالة هنود . ولقد وصف لنا "بلين" طرق صيدها ولاحظ "سترابن" أنّه وقع بناء اصطبلات لها قريبا من أسوار المدينة . وقد كانت الفيلة الليبية ابتداء من أواخر القرن الرابع بمثابة الدبّابات ؛ وهي أصغر قامة وأقل إقداما من الفيلة الهندية . وكانت تدخل الرعب في قلوب الرومان حتى أنّ شيبيون الأميلي بالغ في موقعة جامة في وسائل الاحتياط من هجماتها غير أنّها لم تكن سهلة الانقياد فهي تغدر بأصحابها في بعض الأحيان فيضطرّ هؤلاء إلى قتلها .

10 – نظــام جبائي صارم

كانت الدولة القرطاجية تعتمد لمواجهة المصاريف العامّة على حاصل المعاليم القمرقية وأتاوى الليبيين والضرائب الموظّفة على المدن . وفي القرنين الثالث والثاني لم تنافس قرطاج في الثروة إلاّ الإسكندرية وحدها .

إلاّ أنّ هذا الازدهار المالي المتأتّي عن التجارة خاصّة لم يقدر على الصمود أمام الأزمات التي كانت تعرقله . فاضطرّ القوم بعد الحرب البونيقية الأولى التي تعذّر معها جمع الموارد القمرقية إلى حجز نصف محصول المزارعين وإلى مضاعفة الأداءات المضروبة على المدن . ولم يخل ذلك من عُنْف بطبيعة الحال .

11 – مدنية تجار

لقد كان البونيقيون رجال أعمال همّهم الوحيد الأرباح المادّية . وقد كانوا يحسنون لغات كثيرة بحكم الضرورة من غير أن يتظاهروا بذلك في بعض الأحيان ، ولم يتركوا أثرا يذكر في الأدب والتاريخ والعلم . واقتصروا في ميدان الفنّ على تقليد النماذج المصرية والإغريقية إن لم يجلبوا فنّانين أجانب . فبوييتوس القرطاجي (Boéthos le Carthaginois) النحّات الذي أنجز تمثال "ايفيز" إغريقي النسب ، قرطاجي المولد على أغلب الظنّ ، وذلك على الرغم من أنّ البونيقيين كانوا أذكياء . ويعلّل "قوتيه" ذلك في إطناب فيقول : إنّ عقليتهم الشرقية تخالف اختلافا جذريا عقلية الغربيين .

12 – عادات شرقية

كان القرطاجيون يتكلّمون لغة فينيقية محرّفة إلى حدّ ما . ولسنا نعرف عنها إلاّ بعض النقوش وخاصّة الجمل الموجودة في كتاب بونيلوس لبلوط (Plaute) . وكانت لهم موازين ومقاييس ورزنامة وأقبية للموتى شبيهة بالآبار الفينيقية الأصل . وكان لباسهم شرقيا بحتا فكانوا يرتدون الجبّة الطويلة ذات الأكمام الواسعة عامّة ، وكانوا يضعون على رؤوسهم القلنسوة ويلبسون معْطَفَ السفر . وقد وجد قوتيه شبها بينها وبين "الكدرون" والطربوش والبرنس التي يلبسها المغاربة في عصورنا هذه . وكانت عاداتهم شرقية أيضا ، وكانت نساؤهم يكثرن من التزيّن بالحُلِيّ واستعمال ألوان التجميل ويبالغن في التعطّر . وظلّ الرجال والنساء مدّة طويلة يضعون خُرْصَانا في أنوفهم . ويظهر أنّ الفينيقيين عدلوا عن الختان في الأرض

الافريقية . وتشهد الاكتشافات الأثرية أنّهم لم يُعدّدوا زوجاتهم واستمرّوا بالعكس يسجدون أمام العظماء ويُحْجِمُون عن أكل لحم الخنزير. أمّا فيما يتعلّق بوحشيتهم وخداعهم فإنّ الغربيين ، وخاصّة الرومان ، لم يتركوا لهم مجالا للتفوّق عليهم .

13 — دين شرقي

إنّ تأثير الشرق تجلّى بالخصوص في الدين الذي جاء به المعمّرون الفينيقيون . فقد أخذت قرطاج عن صور آلهتها ، وكانت تخشاها أكثر ممّا تحبّها . إلاّ أنّه يجب ألاّ ننسى — كما يفعل البعض أحيانا — أنّ غايات العقيدة ومظاهرها تخضع لمؤثّرات المكان والزمان معا . فعندما انتقلت الديانة الفينيقية إلى افريقية طرأت عليها تغييرات حتمية ولم تبق الديانة القرطاجية، منذ أن اكتملت، هي هي حتى انهيار قرطاج ومن ذلك أنّ معنى الثلاثية الذي يكشف عنه "قَسَم حنّبعل المشهور" في صيغته التي وصلتنا (بوليب 7 ، 9 ، 3 ، 2)ليس إلاّ كسبا حديثا للهيكل البونيقي على ما يظهر .

لقد كان القرطاجيون يعبدون آلهة متعدّدة كما كان الشأن بالنسبة لمجموع الأمم القديمة . فملقرط "ملك المدينة" الذي شُبّه بهرقليس كانت له مكانته في قرطاج، وكذلك في بقية المراكز التي أسّستها صور ، وأشمون أو أدونيس الذى شُبّه بأسكلبيوس شيّد له معبد على هضبة المدينة كما هو الشأن بالنسبة لملقرط إله التجديد . وتفيدنا النقوش أنّ "عشتروت" و"بعل حداد" و"رشف" وآلهة أخرى كانت لها من يعبدها أيضا .

ولكنّ الإله الكبير لقرطاج كان بعل حمون بلا منازع وقد شبّه بـ"كرونوس" أو "زوس"(Zens) وقال"ر. دوسو" عنه: "إنّه يمثّل اندماج الإله الفينيقي" أل "بإله أهلي . وقد شبّه بعضهم اسمه باسم الإله المصرى آمون عن خطإ فيما يظهر . بل يحسن أن نؤوّل معنى الكلمة على أنّه "سيد الأنصاب" (حماميم) . وإذا كان هو المشخص على نصب بسوسة فإنّه يبدو ملتحيا مرتديا جبّة طويلة ، على رأسه تاج أسطواني ، وبيده رمح

وهو جالس على عرش يمثّل كـلاّ جانبيه أبا الهول . وما من شكّ في أنّه كان على غِـرَارِ "أل" ذاته ، الإله الأعظم ، مالك القُوَى السماوية الأقدر .

وفي كثير من الأحيان لا جميعها نجـد على الحَجَرَات النّذرية إلى جانب بعل حمون إلاهة مساعدة تسمّى تانيت بينيبعل (أي وجه بعل) لا تزال شخصيتها غامضة . وقد يكون مثل بعل حمون نفسه مزيجا من إلاه بربريّ وإلاه فينيقي . وتقابل في الأصل اللاّت التي عرفت هي نفسها "بعشترت" (Ashérat) وقامت مقامها في العهد الروماني يونيو (Junon) وسيلستيس (Caelelestis) اللّتان كانتا مندمجتين غالبا . وكان القرطاجيون يُضْفُـونَ على آلهتهم الصورة البشرية ، وتشهد بذلك على الأقلّ الأنصاب المكتشفة في سوسة شهادة قطعية . ولكنّهم ظلّوا متأثّرين بصورة مشوّهة منذ غابر التاريخ ، حيث كانت تعتبر الحجارة مأوى الآلهة إن لم تعتبر هي نفسها الآلهة . وبَقُوا يعبدون الأوثان حسب الطقوس المألوفة وكانوا يدهنونها بالزيت . ونجد في غالب الأحيان كما بيّن ذلك "سينتاس" الآلهة منقوشة في هذا الشكل على الأنصاب مشوّهة ، مقتضبة ، إلاّ أنّه يمكن للناظر أن يتعرّف إلى مظهر الآلهة العتيق سواء كانت على العرش أم لا . وما يسمّى خطأ بعلامة تانيت هو أحد الرموز الإلهية الكثيرة مثل القرص والهلال والرمّانة وغيرها . وهو عبارة عن مثّلث أو شبه منحرف قد علاه خطّ أفقي معقّف الطرفين في بعض الأحيان وأسطوانة منحرفة الشكل أحيانا . وقد تقدّم الباحثون بتعليلات عديدة يدلّ تباينها دلالة واضحة على تهافتها . وقيمتها الرمزية هي وحدها التي لا توضع موضع الشكّ .

وقد ألقت الحفريات الحديثة بعض الأضواء على المعابد القرطاجية . ونعرف اليوم معرفة تامّة على الأقل معبدين : أحدهما في قرطاج والثاني في سوسة . ويوجد معبد قرطاج على شاطىء صلامبو . وكان في أوّل الأمر بناية متواضعة مسيّجة تذكّرك بمثالها المعقّد وجدرانها القصيرة ، ببعض المعابد الموجودة في راس شمرا (Shamra) . وعند تأسيس قرطاج حافظ هذا المكان على قداسته ، وتكدّست فوقه طبقات متتالية

من الأنصاب وآلاف من الآنية المحتوية على عظام الأطفال المقدّمين قرابين للآلهـة . أمّا معبد سوسة الذى نجهل شكله الأوّل فإنّنا نجد فيه نفس الطبقات المتتالية من الأنصاب والأجاجين . وأقدمها عثر عليه في مصاطب صغيرة يرجع تاريخها إلى القرن السادس أو السابع ويرجع تاريخ أحدثها إلى القرن الأوّل أو الثاني بعد المسيح إلاّ أنّه يحسن أن نلاحظ أنّ هذين المعبدين لا يعطيان صورة قيّمة لجميع المعابد القرطاجية . فقد كان بعضهـا موجودا في أماكن مرتفعة لا على شاطىء البحر كما هو الشأن بالنسبة للمعبدين المذكورين . وليست جميع المعابد أيضا وبالخصوص متكوّنة من ساحة مسيّجة ذات هندسة تتفاوت بساطة . والنصوص تدلّ على أنّ معبد أشمون أو معبد تانيت كانا هيكلين عظيمين فسيحي الأرجاء في بعض الأحيان ، وأكبر الظنّ أنّهما ينتسبان إلى أصل هيليني .

وكان الكهنوت منظّمـا تنظيمـا محكمـا ومتمتّعـا بهيبة كبيرة . وكان واجب الكهنة الأول هو إقامة الطقوس الدينية برعاية حكّام ينوبون عن الدولة . ولعلّهم كانوا يُشرفون يوميا على مراسم دينية لابسين زيّا كَهَنُوتيـا خاصّا بهم ، ويستعينون بعدّة أعوان يقومون على المعابد . وكان القرطاجيون على غرار شعوب كثيرة يحتفلون بالبغاء المقدّس الذي من شأنه أن يضمن في اعتقادهم خصب الأرض والماشية والبشر .

إنّنا لا نعرف بالضبط كيف كانت تجرى الحفلات الدينية . وجداول القرابين التي عثر عليها في مرسيليا وقرطاج تؤلّف قانونا كَهَنُوتيا لا يخلو من شَبَه كبير بسفر الأحبار اللاويين . ففي كليهما تجد أنواعا ثلاثة من القرابين : فمنها ما يُحْرَقُ ومنها ما يكون مجرّد هدية ، ومنها ما يكون كفّارة . ونجد تعدادا للضحايا من البقر والغنم والطيور ، وتعدادا لهدايا من الزهور والخبز . أمّا جلد الضحية فكان يهدى إلى القسّ . ولا شكّ أنّ الطقوس اليهودية والقرطاجية ترجع إلى أصل واحد هو الأصل الكنعاني .

وكان القرطاجيون يقدّمون الضحايا البشرية . فقد ذبح أحد القوّاد المنتصرين في صقلية ثلاثة آلاف من أعدائه قربانا في المكان الذى قتل فيه جدّه . وكانوا يقدّمون كلّ سنة على الأقل طفلين ذكرين قربانا ،

وذلك تحت إشراف الدولة . إلاّ أنّ عدد الضحايا كان يبلغ المئات في حالات الفزع ، كما كان الأمر عندما أغار عليهم أغاثوكل . إنّه كان في وسع العائلات بدون شك أن تقدّم جزءا من عجل عوض أطفالها . وغالبا ما كانت تفعل ذلك . ولكن يروى أنّ المؤمنين الأتقياء كانوا لا يتردّدون في تقديم أبنائهم على مذبح الآلهة . أمّا الأغنياء ذوو العقلية الواقعية فقد كانوا يقدّمون للآلهة صغار الرقيق أو كانوا يشترون أبناء الفقراء يستعيضون بهم عن أبنائهم . وإذا صحّ هذا كما رواه بلوتارك (Plutarque) فإنّه يلقي أضواء قاتمة على النفسية البونيقية .

وبعل حمون هو الذي كان يبتلع الأطفال في جوفه المتّقد نارا . ونحن نعلم كيف استغلّ الكاتب "فلوبار" هذه الحفلة الدموية وقد عبّر عن ذلك بقوله: "وكانت حركة اليدين القلّزيتين في تزايد. وأصبح لا سبيل إلى توقّفهما، فما تكاد تصل الضحايا على حافة الفتحة حتى تزول كما تتبخّر قطرة الماء من على صفيحة محمرّة نارا فيتصاعد دخّـان أبيض في الحُمرة القانية" .

ورغم ذلك فإنّ شاهية الإله لا تسكن . إنّه يطلب دائما المزيد . فكان القوم يكدّسون على يديه الضحايا ويربطونها بسلسلة تشدّها حرصا منهم على تزويده بأكثر ممّا يجب" .

إنّ روعة هذا الوصف قد تكون أضرّت بالحقيقة التاريخية . فبالرغم عن الشهادات القديمة استنكف العلماء من التسليم بهذه المراسم المريعة .

ولا سبيل اليوم إلى شك في صحّتها . فقد اكتشفت حديثا في صلامبو وسوسة "طفايات"أو توفات(Taphet)أي مواضع إحراق الضحايا . وبات من اليقين أنّ الأجاجين تحتوي على عظام بشرية محروقة . وتفضي دراسة النقوش إلى نتائج مماثلة لا تقلّ وضوحا عن الأخرى . ولكنّها تمكّننا من أن نسجّل أيضا أنّ رغبات بعل حمون أصبحت في الفترات الأخيرة من تاريخ قرطاج دون ما كانت عليه قسوة . فقد حلّ محلّ التضحية الفعلية بالطفل البكر غالبا التضحية المعروفة بـ "ملكومور" أي أنّ الحيوان ويكون

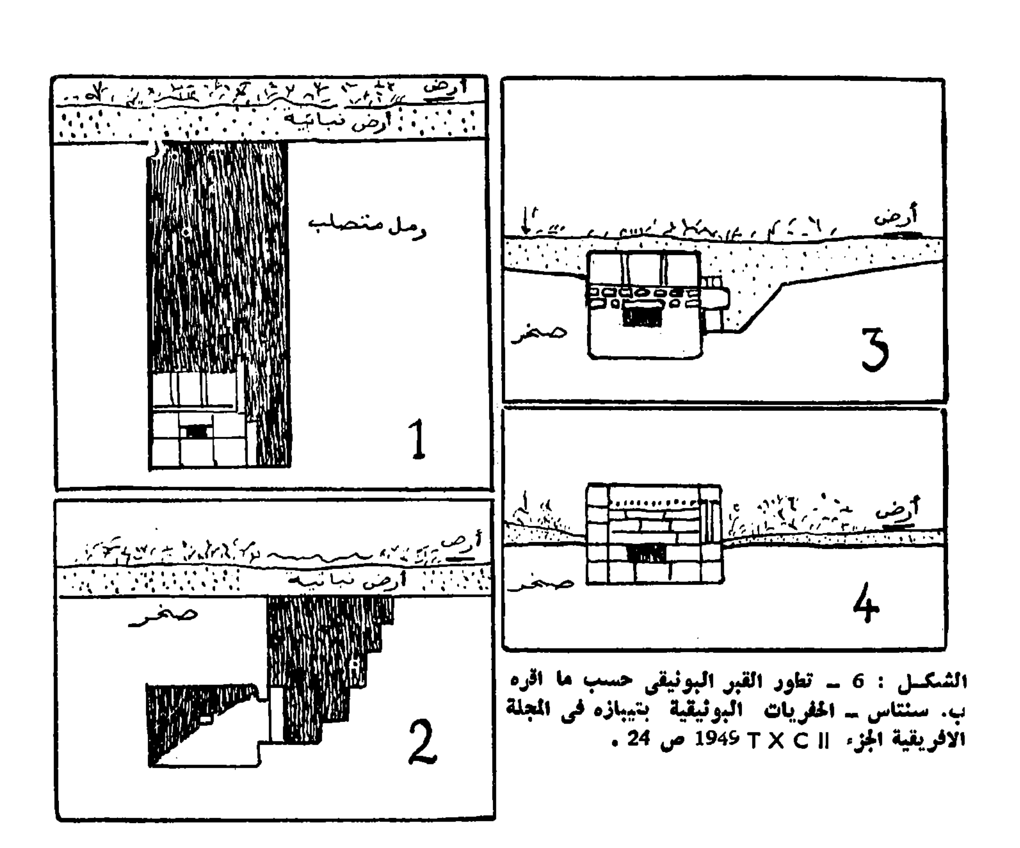
غالبا خروفا يقدم عوض الضحية البشرية . وقبِل بعل هذه المعاوضة حسب العبارة المنقوشة في الأنصاب الرومانية بـ "نقاوس" (N'gaous) روح بروح ودم بدم وحياة بحياة .

14 ـ الطقوس الجنائزية

تدلّ الحفريات على أنّ الطقوس الجنائزية كانت مختلفة بحسب العصور وبحسب الطبقات الاجتماعية . لقد ظلّ الدفن معمولا به مدّة طويلة ، ولكنّ عادة إحراق الموتى التي لم تكن مجهولة من القرطاجيين انتشرت في القرن الرابع تحت تأثير اليونان ثم فرضت نفسها في آخر الأمر . وكانت أقدم القبور عبارة عن غرف فسيحة الأرجاء سدّ مدْخلها بصفيحة من الحجارة وبنيت أو نقرت في الصخر في عمق يبلغ أمتارا كثيرة . وكانت الموتى توضع في توابيت من حجر أو تمدّد على الأرض مباشرة . ثم ظهرت بعد ذلك القبور الشبيهة "بالآبار" ، أي أنّ غرفة أو عدّة غرف منضّدة كانت تفتح على آبار يتجاوز عمقها أحيانا عشرين مترا تسدّ بعد كلّ دفن . ولم تكن في الأوّل لتسع أكثر من جثّة أو جثّتين ثم انتشرت عادة الدفن الجماعي ، وأصبحت معمولا بها على الإطلاق عندما فرضت عادة الإحراق نفسها . وفي ذات الوقت نقصت أبعاد غرف الموتى ، وأصبحت تبنى في حفر أقلّ عُمقا . وفي آخر العصور البونيقية أصبحت الأقبية في نهاية الأمر شبيهة بالأضرحة التي ليس لها تحت الأرض سوى جزء واحد .

وكان يوجد مع الجثث المدفونة أثاث متركّب خاصّة من آنية خزَفيّة ، وأدوات عادية لتيسير حياتها المادّية ، وتمائم ذات مفعول سحري . ولا شك أنّ القرطاجيين كانوا يؤمنون مثل بقية الفينيقيين بمقام مشترك للأموات ربّما يشبه في كآبته "الشـــول" العبري غير أنّ علم الآثار لا يسمح بتدقيق ما يعتقده القوم في مصير الموتى .

ولا شكّ أنّ "أوزيرس" و"ديميتر" و"فوريا" لقّنتهم الأمل في حياة أخرى أبديّة سعيدة . ولا يوجد أيّ أثر لتقديس الموتى ، ولا شك أنّهم يخشونهم أكثر ممّا يحترمونهم . فقد كانت ضرورات الحياة اليومية لا تترك للقرطاجيين المجال للتأمّل مليّا في شأن الموتى .



الشكـل : 6 ـ تطور القبر البونيقى حسب ما اقره ب. سنتاس ـ الحفريات البونيقية بتيبازه فى المجلة الافريقية الجزء T X C II 1949 ص 24 .

15 - المؤثّرات الدينيـة الخارجيـة

لقد خضعت الدّيانة البونيقية إلى موثّرات خارجية ، فقبور قرطاج احتوت على تمائم مصريّة الأصل إن لم تكن مستوردة وذلك حتى القرن الرابع على الأقلّ ، فالآلهة "ايزيس" و"هاتور" و"أوزيريس" و"انوبيس" وغيرها كانت لها تماثيل بلّورية يبلغ طولها سنتميترا واحدا أو سنتيمترين اثنين وتنضّد في قلائد كالجواهر . ومن جهة أخرى فإنّ تفاوت عدد هذا النوع من التمائم أو ذاك في القبور يدلّ على أنّ قوتها الوقائية لم تكن في معزل عن تأثيرات العادات الشائعة .

وسعى القرطاجيون في التكفير عن البلايا الناتجة ، في اعتقادهم ، عن نهب معبد ديميتر وكوري برسفونا بسرقوسة سنة 396 ، فأدخلوا في مدينتهم عبادة هاتين الآلهتين (سيريراس) وبقيت هذه العبادة قائمة حتى في العهد الروماني وعبدوا في صقلّية "افروديت اريسين" التي كانت تغادر كلّ سنة جبل "اريكس" وتلتحق صحبة حمام المعبد بافريقية حيث تقيم تسعة أيّام .

على كل فلا يجوز أن نقصر تأثير الشرق اليوناني في قرطاج ابتداء من القرن الرابع على الميدان الديني . ويوجد من الدّلائل الأثرية ما يسمح لنا بأن نؤكّد أنّ المدنية البونيقية تغيّرت تغيّرا عميقا عند اتّصالها بالمدنية الاغريقية .

ولكنّ المؤثّرات الليبية كانت أبعد مدى من دون شكّ ممّا نلاحظه في الطقوس الجنائزية من طيّ الجثث وصبغها باللون الأحمر وخلط العظام بعد تجريدها من اللحم وقد اندمجت الآلهة الفينيقية مع الآلهة الافريقية . ويذهب البعض إلى القول بأنّ لفظ "تانيت" افريقي . وقد عثر في معبد "صياغة" (في بئر بورقبة قرب خليج الحمّامات) على آلهة لها رأس لبؤة جالسة على أسد كما عثر على أبي هول ذي ضروع . وحاول الباحثون توضيح دور هذه الآلهة بتأثير العبادات الليبية في أواخر قرطاج .

16 ـ إشعـــاع قـرطـاج

إلى أيّ حدّ طبعت المدنية القرطاجية بطابعها المدن والبلدان التي فتحتها . إنّها لم تترك في اسبانيا وجزر غربي البحر الأبيض المتوسّط أثرا يذكر ، كما أفسحت المجال في صقلّية للمدنية الاغريقية ابتداء من القرن الخامس . لكنّها تأصّلت في جزر مالطة وغوزو وبانتالاريا ولمبادوزا وخاصّة سردانية . فما هو مدى تأثيرها في افريقيا الشمالية ؟

يجب قبل كلّ شيء أن نؤكّد أنّ قرطاج لم تحتلّ بلاد المغرب بأكمله ، وأنّ نفوذها عندما بلغت أوْجَهَا لم يتجاوز حدود البلاد التونسية الحالية باستثناء المدن الموجودة على السواحل الجزائرية والمغربية . إلاّ أنّ عملها لم ينحصر في حدود البلدان التابعة لنفوذها السياسي وحدها . فالليبيون المنخرطون في الجيوش القرطاجية كانوا يحملون معهم عند الرجوع إلى أوطانهم شيئا من المدنية القرطاجية التي عاشوا في ظلّها . ولم يحمل التجّار البونيقيون معهم البضاعة التي اشتروها فقط ، بل حملوا كذلك جملة من العادات والصناعات والأفكار والمعتقدات استساغها الأهالي شيئا فشيئا وأثْرَوا بها مدنيّاتهم البدائية .

وقد كان تأثير المدنيّة البونيقية أقوى بطبيعة الحال في بلاد البربر الشرقية . فقد بَهَرَتْ الأمراء النوميديين الذين أقام العدد الكبير منهم في قرطاج ، وتزوّجوا بنات طبقتها النبيلة وسمّوا أبناءهم بأسماء قرطاجية ، ومنحوا مدنهم دساتير منسوخة عن دساتير المستعمرات الساحلية ، وعبدوا الآلهة السامية وحرّضوا رعاياهم على العمل بأساليب ماغون الفلاحية .

واستعان الملوك وكبار القوم بفنّيين من قرطاج . وقد شيّد أحد هؤلاء حوالي منتصف القرن الثاني قبل المسيح ضريح دقّة حيث توجد في نفس الوقت نماذج شرقية واغريقية عتيقة هي من خصائص الفنّ البونيقي . ويحتوي هذا الضريح المبنيّ بالحجارة المنحوتة على ثلاثة طوابق مقامة على مدارج وهو جميل الزّخْرُف . إلاّ أنّ تماثيله متوسّطة القيمة . وتمكّن "ل. بوانسو" سنة 1910 من وضع الحجارة المنهارة في مواضعها الأصلية باستثناء حجارتين تحملان نصّا واحدا مكتوبا باللغة الليبية والبونيقية أخذهما القنصل "ريد"

(Reed) معه إلى انقلترا في سنة 1842 ولا يزال موضعهما من الهيكل مجهولا .
وفي هذه الكتابات حجّة على أنّ الارستقراطية البربرية كانت تستعمل اللغة البونيقية في النقوش الحجرية ، وأحيانا تنافس بها اللغة اللّيبية . وتذكر هذه الكتابات أسماء لبناة وعلى رأسهم المسمّى "عبريش" الذي كان قرطاجيا من دون شك كما تذكر أسماء أعوانهم (؟) وأسماء النجّارين والحدّادين .

وبَدَهيّ أنّ تأثير قرطاج لم يزُلْ بزوالها . فالمدنية الرومانية لم تتوطّد أركانها من أوّل وهلة لا في الممتلكات البونيقية القديمة ولا في الممالك البربرية . ولا نعرف من سوء الحظّ شيئا يستحقّ الذكر عن أطوار المنافسات التي تواصلت بين المدنيّتين .

والذي لا شكّ فيه هو أنّ قرطاج تركت آثارا عميقة في افريقية من حيث الدين . فالآلهة البونيقية اضطرّت إلى ارتداء الحلّة الرومانية على غرار عبّادها . ولكنّها رغم أسمائها الرومانية وشكل العبادات الروماني استبقت روحها الأصيلة . فليس في تضحية "ملكومور" شيء من اللاطيين ، وبقي بعل الذي سمّي "ستورنوس" "متعاليا على البشر علوّا كبيرا" . وليس من المستبعد كما لاحظ ذلك "س. قزال" أن يكون اعتقاد القوم في علوّ هذا الإله على بقيّة الآلهة هيّأ العقول إلى التوحيد الذي سيأتي به دين المسيح الى افريقية .

وبقيت نقودُ بعض المدن الافريقية تحمل كتابات بونيقية إلى عهد تيبريوس . وما انفكّ زمام الحكم في بعض تلك المدن بيد الشافطين حتى عهد أنطونيوس (Antonins) التقي . ولكن يبدو أنّ اللغة البونيقية لم تبق مستعملة حتى العصر البيزنطي كما يعتقد أكثر النّاس اعتمادا على نصوص القدّيس أغسطينوس و"بروكوب" التي أسيء تأويلها .
ولا سند متينا لرأي أ. رينان الذي تبنّاه "قزال" القائل بأنّ بقاء اللغة البونيقية مهّد إلى انتشار اللغة العربية — فقد انتهى استعمال اللغة البونيقية في تواريخ اختلفت طبعا باختلاف الجهات ، ولكنّها لا تتجاوز في أغلب الظنّ آخر القرن الثاني وأول القرن الثالث بعد المسيح .

إنّ آثار المدنية البونيقية — وإن هي لم تدم طويلا كما تصوّره البعض — فقد بقيت جذورها عميقة . واندمجت بلاد البربر بواسطة قرطاج في عالم البحر المتوسّط وتعرّفت بفضلها إلى مدنيّة شرقية سرعان ما راضتها الحضارة اليونانية . وسوف لا تكون هذه هي المرة الأخيرة التي تصبح فيها افريقيا الشمالية تابعة للشرق إلاّ أنّ انتصار رومة عليها سوف ينتزعها من نفوذ الشرق طيلة قرون عديدة .

الباب الخامس

الممالك البربرية

١ - مسنيسا «اغيلد» عظيم. ٢ - الحرب البونيقية الثالثة ونهاية قرطاج. ٣ - الاحتلال الروماني

I ـ مسنيسا « اغليد » عظيم

1 ـ الممالك البربرية الثلاث في القرن الثالث

لم يهتمّ قدماء الكتّاب بتاريخ شؤون الممالك البربرية الدّاخلية إلاّ عندما ظهر لهم أنّ له مساسا بروما أو قرطاج ، فلم يبق أثر للتقاليد البربرية . لذا فإنّه يخشى أن نبقى على جهلنا بما تعاقب من الفتن ومن انتصارات القبائل وانقراضها وانبعاث الدّول المتّحدة برابطة الحلف وانهيارها إلى أن أفضت الأحداث إلى تأسيس الممالك البربرية الثلاث التي اقتسمت بلاد المغرب في عصر الحروب البونيقية .

فلقد تأسّست شمال المغرب الأقصى قبل القرن الرّابع جامعة عتيدة من القبائل هي مملكة الموريين أو مملكة موريطانيا ، تحدّها جنوبا بلاد جدالة التي تُتَاخمُهُمَا جنوبا مملكتا ماسولة ومازيسولة والأراضي البونيقية ، ويحدّها شرقا نهر الملوشة (الملوية) السُّفلي . ولقد اتّسعت رقعة هذه المملكة في أواخر القرن الثالث وأثناء القرن الأوّل إلى أن بلغت مصبّ نهر المسّاقة (الواد الكبير في الشمال الغربي من قسنطينة) . ونقود القرن الأوّل قبل المسيح شاهدة بأنّ الموريين كانوا يزرعون القمح .

وكانت مملكتا ماسولة ومازيسولة تقتسمان في القرن الثالث بين الملوية والأرض البونيقية البلاد الآهلة بالبربر الذين كان يسمّيهم الرومان والاغريق النوميديين وهي لفظة قد تكون مأخوذة عن لهجة البلاد نفسها .

ومن الممكن أن تكون قبائل مازيسولة التي هي بمثابة الخليّة الأمّ للجامعة منحدرة من المغرب الأقصى وقبيلة ماسولة من الأوراس حيث أقام ملك مجهول بالقرب منها "المدراسن" وهو ضريح ضخم يرجع تاريخ بنائه إلى القرن الثالث على سبيل التقريب .

2 ـ مملكة مازيسولة ـ سيفاكس

كانت دولة مازيسولة يحدّها شرقا إمّا رأس تريتون (رأس بوقرعون شمال قسنطينة) أو بالأحرى المساقة . وكانت سيرتة (قسنطينة) قسما من هذه المملكة ، على الأقلّ في عهد سيفاكس . وكانت مع صاغة التي تقع على بعد 90 كلم من الملوية شرقا تعدّ إحدى العاصمتين الملكيتين وكان لها ميزات ستراتيجية نادرة الوجـود .

وهذه المدينة الجاثمة على نجد صخري والمحاطة بمنحدرات وعرة ، يتجاوز علوّها 100 متر ويجري من تحتها نهر المساقة (الرمل) في خور جوانبه وعرة أيضا . وكانت لا تدرك إلاّ عن طريق برزخ الجنوب الغربي ، وتبقى بالفعل منيعة لا تنال، ما غذت الأمطار الفساقي المحفورة في الصخور.

وكان القسم المجاور لموريطانيا صالحا لزراعة الحبوب . وقد ذهب "سترابن" إلى الجزم بأنّها أخصب من نوميديا الشرقية ، وأنّ سوق سنابل القمح البالغ حجمها حجم الخنصر يتجاوز طولها مترين ، وأنّ أهلها كانوا يتحصّلون على صابتين من دون أن يبذلوا جهدا يذكر في العناية بالأرض ويظفرون بإنتاج يقدّر بـ 240 مقابل واحد . ويخشى أن تكون معلومات هذا الجغرافي غير صحيحة تمام الصحّة .

وقد قام سيفاكس ، وهو اعظم اغليد في مازيسولة ، بدور عظيم . فمدّت إليه قرطاج يدها تطلبه المعونة وزوّجته فتاة من أعلى طبقة أرستقراطية ، وفي الوقت الذي ظهر فيه خصمه مسينسا على أبواب الهلاك عمّت سلطته بلاد الجزائر كلّها وكان يقلّد في حياته ملوك اليونان وتوهّم أنّ مصير بلاد البربر سيكون بيده .

لكنّ سلطانه انهار دفعة واحدة سنة 203 ولسنا نعرف هل أنّ ابنه "فرمينا" الذي كان يشارك أباه في الحكم أمكن له أن يظفَر بفُتات من هذه المملكة جهة الغرب . وعلى كلٍّ فإنّ مسنيسا لم يلبث أن ضمّ إليه مازيسولة كلّهـا .

3 ــ مملكة ماسولة ومسينسا

وكانت مملكة ماسولة وهي أقلّ مساحة تشمل القسم الشرقي من مقاطعة قسنطينة . ولقد تقلّصت حدودها الشرقية أمامَ التّوسُّع القرطاجي.

وكان لها أيام الحرب البونيقية الثانية اغليد اسمه "غايا" ولسنا نعرف هل أنّ "نارافاس" القائد النوميدي العظيم كان من الأسرة المالكة أم لا ، وهو الذي اشترى عبد ملقرط البرقي ذمّته ووعده بتزويجه ابنته مقابل تدخُّله الحاسم ضدّ المرتزقة .

وتطبيقا لقوانين الوراثة "الاغنية" لم ترجع مملكة "غايا" إلى ابنه الأكبر مسنيسا بل ورثها أخوه ثم ابن أخيه . وعندما غزا سيفاكس بلاد ماسولة لم يسع مسنيسـا إلاّ أن يحيا حياة المنفي . غير أنّه كان رجلا من طينة خارقة للعادة . فلقد ربط مصيره بشيبيون وبقضيّة رومة فشاركهما في انتصارهما . وكان من أثر دخوله كالصاعقة لسيرتة (سنة 203) أن وضع حدّا لمملكة مازيسولة وكان ذلك بدءا لسلطانه . وسرعان ما أصبح سيدا على جميع البلدان الواقعة بين موريطانيا والمقاطعة البونيقية من الملوية إلى توسكة (قرب طبرقة) .

كان اغليدا عظيما صهر شعبه بيديه القويّتين وحاول أن يجعل من بلاد البربر دولة موحّدة مستقلّة . ولم يتح لبلاد المغرب قطّ ما أتيح لها في عهده من توفيق في طريق قيام أمّة حرّة ماسكة بزمام حضارتها الذّاتية اللّهم إلا إذا استثنينا فترة انتصار صنهاجة . ولئن حال الاستعمار الروماني دون أن يبلغ القائد البربري هدفه الذي ظنّ أنّه لا محالة بالغه فإنّ محاولته أظهرت على الأقلّ أنّه عاهل ذو صفات ممتـازة .

4 ــ استقرار النوميديين وتمدينهم

كثيرا ما يورد الباحثون قول "سترابن" من أنّ مسنيسا صيّر البربر فلاّحين ومدّنهم . تلك هي نفس النتائج المترابطة لسياسة معيّنة . فلقد أراد الاغليد أن يكون عاهلا لا سيّدَ قبيلة .

وكان لا بدّ له من ميزانية تغذّيها موارد قارّة للاحتفاظ بوفاء حلفائه ، والحدّ من سورة أعدائه ، ولتجهيز جيوشه وتكوين أساطيله ، ولبناء دولة نوميديّة بالديبلوماسية وبحدّ السلاح تكون جديرة بهذا الاسم قادرة على أن تقوم بدورها في حوض البحر المتوسّط .

وإذا كان من الممكن استخلاص الضرائب من جماعات البدو المتفاوتة العدد سواء بالمباغتة أو بالقوة فإنّه ما كان لأيّ اغليد أن يتنبّأ ولو على سبيل التّقريب بما سيجلبه له حماس "الحركة" من موارد . فالبدويّ من حيث دفع الأداءات من أسوإ الرعايا . أمّا الحضريّ فهو على العكس من ذلك خير من يحلم به حاكم . فإذا زرع أمّلَ حصاد ما يسمّيه الأخلاقيون ثمرة عرق جبينه في طمأنينة ، ولذا فهو يطلب الحماية ويدفع ثمنها غاليا . وإذا بالغ أسياده في استغلاله رضي بمواصلة عمله أو شقّ عصا الطاعة أحيانا . ومنتهى عبقرية الحاكم تتجلّى في الاهتداء إلى الحلّ الوسط الذي يمكن معه استخلاص أقصى ما يمكن من الضرائب من دون التعرّض إلى خسارة الكلّ .

والغاية القصوى قد تتمثّل في القدرة على إحياء البدويّ وهو مادّة جبائية ميّتة وذلك بجعله حضريا وليس ذلك بالعمل الهيّن . ولم يكن ليتصدّى له مسنيسا ولينجز جانبا منه لو لم يتمتّع في نفس الوقت بهيبة كبيرة وعزيمة فولاذية .

وكان تعاطي الفلاحة قبل ذلك محدودا . قال بوليب : "هذا أعظم وأعجب ما قام به مسنيسا . كانت نوميديا قبله لا فائدة ترجى منها وكانت تعتبر بحكم طبيعتها قاحلة لا تنتج شيئا . فهو الأول والوحيد الذي أبان بالكاشف أنّه بإمكانها أن تدرّ بجميع الخيرات مثل أيّة مقاطعة أخرىّ لأنّه

أحيا أراضي شاسعة فأخصبت إخصابا » (نقل ستيفان قزال) . وإنّها لشهادة بليغة تقيم الدّليل – إذا أضفنا إليها شهادة "ستراب" – على أنّه هو المسؤول الأوّل عن الانقلاب الاقتصادي الواقع بالمغرب الأوسط . وكان من الواجب من دون شك إقرار القبائل بتمليكهم الأراضي وحمايتهم من غزوات البدو . ولا ريب أنّ أكثريتها اضطرّت إلى أن تحيا حياة الرّعاة وحياة الفلاّحين في آن واحد لأنّ إحياء هذه الأراضي كان يتطلّب وقتا طويلا وجهدا كبيرا . وقد كان النوميديون يزرعون القمح والشّعير مثل البونيقيين .

إنّ مسنيسا شجّع إحياء الأراضي ممّا هيّأ بصورة غامضة – كما قال ستيفان قزال – ازدهار افريقية الرومانية . ولعلّه جعل من الأراضي التي افتكّها من البونيقيين ملكا خاصّا به استغلّه لنفسه . فلم يستنكف من أن يكون مثلا يُحتَذَى . قال ديودرس الصقلّي : "لقد برع في الأشغال الفلاحية حتى أنّه ترك لكلّ واحد من أبنائه 10 000 (Plèthre) (874 هكتارا) مجهّزة بكلّ الآلات اللاّزمة للاستغلال" . ويكون لهذا المدح قيمته الخاصّة إذا نحن ذكرنا أنّه كان له 44 ولدا وربّما 54 .

ولم يتوزّع الفلاّحون الجدد على الضّيعات اجتنابا للمفاجآت بل تجمّعوا في قُرى محصّنة . وبذلك ساهم مسنيسا في "تمدين" البربر "فأصبح النوميديون مدنيّين" كما لاحظه سترابن . واستوحى من دساتير المدن الساحلية ما مكّنه من منح المدن الجديدة نظاما بونيقيا يعتمد على حُكّام سُمّوا الأسْبَاط أو الأشفاط (suffètes) .

ولم يكن استقرار النوميديين وتمدينهم ليُعطيا شكلا جديدا للعداء القائم طيلة تاريخ بلاد البربر كلّه بين البدو والحضر ، كما بيّن ذلك أ – م – قوتييه – إلاّ أنّهما غذّياه على أقلّ تقدير . وفي عهد مسنيسا وخلفائه ظلّت قبائل جدالة التي كانت تنتجع على طول سباسب السهول العليا بالمرصاد لهذه الفريسة الجاثمة التي تتمثّل في الفلاّحين النوميديين . وسوف يضطرّ "الاغاليد" وهم أسياد المدن ورؤساء دول بأتمّ معنى الكلمة إلى حماية ما شيّدوه من غائلة القبائل المتنقّلة التي إن انتصرت أرجعت رعايا هؤلاء الاغاليد إلى الفوضى .

5 ـ أعياد آلهة الحبوب (Cerères)

كلّ مدنيّة تعبّر عن مطامحها بواسطة الدين . فلا بدّ أن يكون للفلاّحين آلهة فلاحية . وكان مسنيسا هو الذي تولّى أيضا حمل النوميديين على عبادة آلهة يونانية : سيريرس (Cerères) وقورية وديميتير . فبعد أن أصلح "كركوبينو" في جرأة نصّا من نصوص "سالوسطس" وعوّض عبارة " اليوم الثالث " (in diem tertium) "بعبارة ليوم سيريرس" (in diem cererum) بيّن ـ وله الفضل في الإصداع بهذا الافتراض ـ كيف أنّ دين الطّبيعيّين الذي كانت له أطوار بدائية ولكنّها رمزيّة ، والمتأثّر بالمراسم التي كانت تقام في سرقوسة على شرف الآلهة سيريس أو ديميتير كان يمارسه في عصر يوغرطة بافريقية كلّها (Per Omnem Africain) النوميديون الحضر . وهكذا يظهر أنّ مسنيسا أضفى على معتقدات البربر مسحة أسمى وأقرب إلى المدنية كما قد يقول "سترابن" وذلك من دون أن يصادم ميولهم .

6 ـ مسنيسا اغليد وإله

سعى مسنيسا في أن يكون عاهلا بأتمّ معنى الكلمة وربّما في أن يظهر في مظهر إلاه . وعلى كلٍّ فإن عبادة الاه الملك ظهرت وتركّزت في عهده . فبعد مرور عشر سنوات من وفاته أقيم له معبد في توقه (دقّة) وكان ضرب قبل ذلك نقودا تصوّره وعلى رأسه تاج وإكليل من الغار. وكان له جيش وأسْطُول . ولذلك لم تستنكف رومة من الاستعانة في الشرق بالنوميديين وفيلَتهِم . وكَانَ قد جمّل عاصمته "سيرتة" وبنى فيها قصرا يقتبل فيه الأجانب وخاصّة الموسيقيين الاغريق وهذا "الدالى" الذي كان يعتبر نفسه صديقه وأقام له تمْثالا في جزيرته مسقط رأسه . وحرص مسنيسا على أن يتلقّى أبناؤه تربية يونانية فغنم أحدهم وهو مستنبغل غُنما كبيرا وتوّج آخر في العيد الذي يقيمه الإغريق للآلهة "أتينـا" .

وسعى مسنيسا في أن يكون الملك في ولده فعوّض القاعدة "الاغنية" بقانون يضمن الخلافة لأكبر الأبناء مثلما هو الشأن بالنسبة للممالك اليونانية .

وقد أخفق في ذلك لأنّ الاستعمار الروماني – وكان يمثّله حينذاك "شيبيون الايميلي" – عمد إلى تجزئة تلك المملكة وقد ظهرت في حكم الاغليد العظيم في مظهر الجلال والهيبة .

وأكّد "تيت ليف" أنّه كان يصرّح فيما يتعلّق بالأجانب سواء كانوا فينيقيين أو رومانيين أنّ افريقية يجب أن تكون للافريقيين . وهي نظرية كان من شأنها أن تسحر رعاياه البربر الميّالين بطبعهم إلى كره الأجانب. وكان لا بدّ لتجسيم هذه النظرية من الاستيلاء على الأراضي البونيقية وخاصّة قرطاج عاصمة بلاد البربر . وكان من الممكن أن يكون ذلك تتويجا للصرح الشامخ الذي بناه حجرةً حجرة . وبما أنّه كان سيّد البلاد الواقعة بين الملوية وسيرتة الصغرى والكبرى كان يستطيع أن يخضع بسهولة موريطانيا وأن يدفع بلاد البربر كلّها إلى طريق الوحدة القومية . وإنّه لجدير بالاغليد الذي أظهر مقدرة فائقة في مهمّة شاقّة كحمل البربر على الاستقرار أن تظهر كذلك مقدرته بدون شكّ في القيام بأعمال جليلة لو أنّه كان على رأس امبراطورية .

وحتّى في الحدود التي أرغم على ألاّ يتخطّاها فإنّ الحماس الذي بثّه في جهاز الحكم الملكي لم ينطفِ بعده . ويعترف "ستيفان قزال" بأنّه يمكن القول : "إنّ نوميديا خطتْ تحت سلطة ملوكها من القرن الثاني إلى منتصف القرن الأول خُطُوَات شاسعة لم تَخطُها وهي مقاطعة خاضعة للجمهورية". ولم تُحطّم رومة آمال مسنيسا العِراض إلاّ لأنّها كانت تخشى أن تتكوّن دولة بربرية جبّارة ، ولمّا مات مسنيسا سنة 148 وقد أثقلت كاهله السنون لم يجد المغرب "اغليدا" وُهِبَ مواهبَه النّادرة . وكتب "ستيفان قزال" في إيجاز عجيب : "كانَ مسنيسا من بين ملوك البربر أعظم العظماء فقد بزّ يوسف بن تاشفين المرابط وعبد المؤمن الموحدي والشريف المغربي مولاي إسماعيل الذين يوجد بينه وبينهم وجوه شبه كبيرة . فلقد بسط سلطانه من موريطانيا إلى بلاد القريني وجلب أموالا ضخمة وأنفق على جنود عديدين أشدّاء وعمّم الفلاحة وشجّع العمران . ولقد رأى فيه الاغريق والرومان الملك الحق . ونسي

الكثير من رعاياه وربّما أغلبهم حقدهم الغريزي للملوكيّة وساهم الودّ والخوف معا في تعلّق النّاس به وتواصلت عبادته على مرّ العصور" .

وينتصب على بعد بضع كيلومترات من قسنطينة ضريح من الحجارة المنحوتة مستوحى بتصرّف من الأسلوب الاغريقي يُدْعى "صمعة خروب" وقد رمّمه بدون تحرّ رجال يدّعون أنّهم ينتسبون إلى الفنّ ، وفي سنتي 1915 — 1916 اكْتُشِفَ أثناء أشغال الترميم قبر فيه ، إلى جانب متاع كثير (سلاح ، وآنية طعام وغيرها) ، حوض من فضّة مملوء رمادا . هي حفنات من الرماد فقط ولكنّها قد تكون ما تبقّى من مسنيسا إذا نحن اعتبرنا العصر والموقع والفنّ المعماري وعادة إحراق الموتى في ذلك العصر . ولربّما انبعثت من ضريح العاهل الكبير البربري المشرف على عاصمته أسوة وذكر للأجيال من بعده .

II — الحرب البونيقية الثالثة ونهاية قرطاج

1 — مصرع حنّبعل

فرض شيبيون الافريقي بعد معركة جامة معاهدة تقرّ انقراض دولتها . وقد لاحظ "ب. ڤوكلير" (Gauckler) عند إحصائه متاع القبور أنّ الحليّ الذّهبية مفقودة أو هي مزيّفة وقد فقدت الحجارة الصُّلبة المحفورة ودُمى العاج والميناء المنقوشة نقشا بارعا والأواني الثمينة ، وحلّت محلّها نقود قديمة متأكلة ومصابيح لم يعد القوم يحفلون بإسراجها قرب الموتى وآنية من الفخّار عادية كثيرا ما تكون مثلومة .

ولئن خرجت الدولة مفلسة فإنّ الارستقراطية بقيت غنيّة . ولقد تحامل الرأي العام على كبار التُّجّار والملاّكين الذين ما انفكّوا يختلسون ثروات المدينة ويؤثرون بأنانيتهم في مصيرها أيّما تأثير ومُهد لحنّبعل السبيل إلى الحكم . وعندما عيّن سنة 195 شافطا أراد تحطيم طبقة الأقليّة الحاكمة بجعل القضاة حكّاما يعيّنون كلّ سنة كما أراد الضرب على أيدي المرتشين . فكان في ذلك الحكم عليه بالإعدام .

وندّد الارستقراطيون الذين كانوا يضعون مصالحهم فوق مصالح قرطاج في رومة بأعمال حنّبعل الثورية واستعدّوا لتسليمه إليها . فتمكّن من الفرار في الوقت المناسب والالتحاق بسوريا حيث حاول أن يستفزّ الملك "أنتيوخوش" لشنّ حرب عامّة على رومة . غير أنّه عندما نقلت رومة الحرب إلى الشرق وهزمت "أنتيوخوش" طالبت في بنود الهدنة (أوائل سنة 189) بتسليم حنّبعل ولكنّ البرقي أفلت مرّة أخرى من قبضة المنتصر وسار إلى "الكريت" (جزيرة اقريطش) والتحق بأرمينية فهدى الوالي الفارسيّ إلى موقع يبني فيه عاصمته ثم توجّه إلى "بوتينا" حيث انتصر الملك "بروزياس" على جيوش "برغام" بفضل إعانة حنّبعل . فكانت آخر مرحلة من حياة الترحال . ذلك أنّه تجرّع السمّ في الوقت الذي عزم فيه "بروزياس" على تسليمه إلى رومة بأمر منها (سنة 184) وفي هذه السنوات العشر التي قضّاها في المنفى لم تنفكّ وشايات قرطاج تلاحقه حيثما حلّ .

2 ـ نهوض قرطاج

قد كان لقرطاج بالرغم عن إضاعتها لحنّبعل من الموارد ما يكفيها لكي لا تبقى منخذلة طويلا . فانطلق التُّجّار يخوضون البحر من جديد ويبحثون عن أسواق جديدة خاصّة في الشرق وأصبح القرطاجي مرّة أخرى شخصا مألوفا في مواني البحر المتوسّط حتى أنّ "بلوت" جعل منه بطلا لإحدى مسرحياته .

ويظهر أنّ البونيقيين وجّهوا جنودهم إلى إحياء الأراضي الافريقية خاصّة . فلقد فتح حنّبعل الطّريق لذلك في مدّة حكمه القصيرة . فلمّا أتى "قاطون" إلى افريقية حوالي سنة 153 اندهش لخصوبة الأرض ، ومن ذلك الوقت تزعّم قاطون ، ذلك الإقطاعيّ المحدود المدارك العنيد مع ذلك ، طبقة المزارعين الذين كانوا يُسيطرون على مجلس الشيوخ للمطالبة بهدم قرطاج (Delenda Carthago يجب تهديم قرطاج) التي ربّما زادت منافستها في حدّة الأزمة المتمكّنة من الفلاحة الرومانية في أوائل القرن الثاني.

ورجع إلى قرطاج ازدهارها بسرعة جعلتها تعرض على رومة قبيل حربها لـ "أنتيوخوش" أن تدفع حالا الغرامة الموزّعة على أربعين سنة وتعرض

عليها أيضا إعانتها بأسطول تصنعه لهذا الغرض . ولكنّ مجلس الشيوخ رفض عروضا كان من شأنها أن تجعل منه صنيعة الحكومة القرطاجية فتعسر عليه بذلك مراقبتهـا .

3 ـ هجوم مسنيسا

كانت تجد رومة في مسنيسا حليفا تشجّعه على التوغّل في أرض قرطاج للحيلولة دون ازدهار الميناء الافريقي خاصّة وأنّ معاهدة 201 تحجّر على قرطاج الذود عن حياضها بدون إذن من رومة .

وكان ملك النوميديين أمهر من أن يهمل استغلال هذه الفرصة . وبما أنّه يمكن له المطالبة بما قد ملكه من قبل أباؤه وأجداده من تراب قرطاج فقد كانت ذاكرته تكتشف حقوقا قد جهلها والده "غايا" وذلك تبريرا لطلباته المتكرّرة . لذا شرع منذ سنة 193 في قطع لحم قرطاج إرْبا إرْبا ولم يكن الرومان ليعيروا أذنا صاغية لنداءات الضحيّة ولكنّهم كانوا ، عند أوّل بادرة تدلّ على المقاومة يثورون صيانة لجلالة المعاهدات المنتهكة . وكان رجال القانون المتصلّبون يحقدون حقد التاجر الذي يرى أنّ جميع الطّرق صالحة ليجرّ بغريمه إلى الإفلاس .

وفي مواقف الجدال كان مسنيسا لا يكترث بتبرير ما يقوم به من أعمال ولكنّه ينحي باللوم على قرطاج بدعوى خرقها لبنود معاهدة كان يواصل التشهير بها أمام مجلس الشيوخ خشية التورّط ، لذلك فقد كشف النقاب قبيل حرب مقدونيا الثالثة عن محادثات سرّية بين الملك"Persée" " برسيه" وقرطاج ، واستغلّ ذلك ليفتكّ سبعين مدينة أو قصرا بونيقيا . فاحتجّت قرطاج بشدّة وطالبت بضمانات تجعل حدودها قارّة ، ولو أدّى بها ذلك إلى التضحية من جديد . وكان مجلس الشيوخ يخشى حلفا بين قرطاج وملك مقدونيا فأقسم إنّه لا يسمح لأيّ كان بأن يجرّد قرطاج من أملاكها ولكنّه ترك النوميدي حرّا لمواصلة أعماله .

وفي سنة 162 احتلّ مسنيسا الأراضي الخصبة (مراكز التجارة) (Emporia) أي جهة سيرتا الصغرى وسيرتا الكبرى . فحاول السفراء الرومان بكلّ ما وسعهم من حيلة أثناء القيام ببحثهم أن يبرّروا شرعية هذا التّعدّي كما أقرّ بذلك "تيت ليف" نفسه .

وبعد ذلك بتسع سنوات أتى دور الدخلة (Campi magni) التي كانت خيراتها تُغري منذ زمن بعيد الاغليد . وفي هذه المرّة كان الأمر من الصعب تبريره . فأتى "قاطون" ومن معه في بطء شديد ليعاينوا أنّه قد قضي الأمر ولم يعد في الإمكان منع الاحتلال (سنة 153) غير أنّهم أدركوا أنّ الإفراط في ضرب الحيوان يحمله على الغضب ويدفعه إلى التكشير عن أنيابه .

4 ـ الصمود في وجه مسنيسا

كوّن مسنيسا أنصارا في قرطاج نفسها . ولكنّ الشعب تعاظم شعوره بالحرية أمام الخطر واشتدّت غريزة المقاومة فيه عنيفة . فحمل قائديه "عبد ملقرط السمني" و"كارتالو" على الإذن بطرد المشكوك في أمرهم، وابتداء من سنة 154 أعدّت المدينة العدّة للقتال . ولقد ظنّ سفراء سنة 153 أنّ قرطاج تقوم باستعدادات سرّيّة فطالب "قاطون" بمحق قرطاج كمرد فعل . غير أنّ حزب "شيبيون نازيكا" أقنع مجلس الشيوخ بأن يتوقّف ذلك على قبول لجنة مراقبة . وساد أعضاء هذا المجلس الشعور بأنّه يجب اعتبار خرق المعاهدة مَدْعَاة لشنّ الحرب .

أمّا في بلاد البربر فإنّ الأحداث كانت تسير سيرها المحتوم . فكانت الديبلوماسية البونيقية تسعى إلى إثارة المصاعب في وجه مسنيسا على حدود موريطانيا ، وكان "كارتالو" يجوب نوميديا طولا وعرضا محرّضا الليبيين على الثورة . فانضم قائدان بربريان إلى العدوّ وتمكّنت قرطاج في آخر الأمر من تجهيز جيش يعد 50 000 رجل . وتقدّم الاغليد النوميديين في ساحة الوغى راكبا فرسه وقد ناهز 88 حولا وقادهم إلى النصر (سنة 150) وكانت بعثة رومانية تستعدّ للتدخّل فيما إذا انتصرت قرطاج

ويقال : إنّ شيبيون الايميلي كان يبحث قبل ذلك عن الفيلة وشاهد المعركة من أعلى هضبة بدون أن يحرّك ساكنا .

فاضطرّت قرطاج إلى التّخلّي عن الدخلة (Campi magni) وتعهّدت بأن تدفع غرامة قدرها خمسة آلاف وزنة أوبية أقساطا موزّعة على خمسين سنة. وبذلك فهي لم تفلس في محاولتها فحسب بل فقدت كلّ أمل في أن تنهض اقتصاديا أو سياسيا . وعند ذلك ضربتها رومة ضربتها القاضية .

5 – الحكم بالإعدام على قرطاج

كان مسنيسا يأمل أن يضمّ التراب القرطاجي لمملكته جزاء وفائه المتواصل لرومة . لكنّ مجلس الشيوخ كان يخشى أن يبرز إلى الوجود في يوم من الأيّام حنّبعل ثان من سلالة ماسولة . فيجد في قرطاج قاعدة يشنّ منها حربا جديدة على رومة . ولئن تركت قرطاج وشأنها فإنّها واقعة لا محالة في قبضة الاغاليد . فكان من الواجب أن تكون نوميدية أولا تكون . فقرّر مجلس الشيوخ إزالتها تماما . ولكنّه أراد تغطية نواياه بتعلاّت قانونية (شارل سوماني Ch. Saumagne) من شأنها أن تبرّر هذه الفعلة في اعتقاده .

لكنّ قرطاج أحسّت بالخطر . فحكمت بالإعدام على مثيري الحرب وسألت رومة أن تطلب ما تريد.فلم يجب مجلس الشيوخ إلاّ أنه أمر القناصل بتجهيز أربع كتائب تضمّ 4 000 فارس و 50 سفينة خماسية ، وبالالتحاق بميناء أوتيكة . وسقط الميناء في أيدي الرومان بدون ضجّة . وأدركت قرطاج من كثرة الجنود مدى الخطر فأعلنت بأنّها مستعدّة لقبول كلّ الشروط وقدّمت 300من الشبّان النبلاء كرهائن أملا في إيقاف الغزو ، ورغم ذلك فإنّ الجيش الروماني نزل بأوتيكة واحتلّ(Castra Cornélia)"كسترا كرنيليا"

وتسلّم القناصل قبل أن يصرّحوا بشروط رومة 200 000 من الدروع و2 000 منجنيق ، وأخذوا المراكب فأحرقوها . ولمّا تيقّنوا من أنّ كلّ خطر قد زال أعلنوا عن حكم مجلس الشيوخ . (وهو يفرض على القرطاجيين أن يتخلّوا عن مدينتهم وأن يبنوها من جديد على بعد خمسة عشر كيلو مترا

من البحر . وتبقى لهم حرية اختيار الموقع كما يضمن لهم احترام معابدهم وقبورهم . وإنّ في هذا الحكم المسلّط على هذا الشعب من البحارة نفاقا زاد في فظاعة قساوته .

6 ـ الكفاح من أجل البقاء

أسقط في أيدي السفراء البونيقيين وعبّروا عن تخوّفهم من أن يثور الشعب . وكان الذي وقع أعظم من ذلك . فلمّا رأت المدينة أنّه حكم عليها بالإعدام عزمت على أن تقاوم إلى آخر رمق من حياتها . ولقد صَمَدَتْ مدّة ثلاثِ سنوات كما تصمد الفريسة في وجه صيّاديها في شدّة لم يقرأ مجلس الشيوخ لها حسابا . ولمّا وصل الجيش أمام قرطاج وجد الأبواب مغلقة وأعالي الأسوار مليئة بالقذائف . ولم ير القناصل في ذلك إلاّ سَوْرَة غضب بينما كانوا إزاء انتفاضة كاسرة . فعرضوا هدنة تدوم ثلاثين يوما من شأنها أن تهدّىء الأعصاب .

فعمّت حينئذ المدينة موجةٌ عارمة من البطولة وروح التضحية . ذلك أنّ القوم لم يعودوا يقاومون لأجل مصالحهم فحسب بل في سبيل مثَلٍ أعلى . فاستغلّوا جميع الإمكانيات. ويقال : إنّ النّساء أنفسهنّ تبرّعن بشعورهن لفتل حبال المجانيق . وفي كلّ يوم كان يصنع 140 ترسا و300 سيف و500 رمح و1 000 قذيفة . وفي هذه المرّة كان الشعب مناهضا للشيوخ متقمّصا فكرةَ الدّفاع عن الوطن .

وتفطّن القنصلان إلى أنّ الأحداث لا تجري على أحسن ما يرام فاستنجدا بمسنيسا ، ولكنّه لم يحرّك ساكنا فقرّرا الاعتماد على النفس فحاول أحدهما بدون جدوى ردم خنادق البرزخ وخاب الآخر في هجوماته على الأسوار المشرفة على بحيرة تونس . إلاّ أنّهما تحصّلا على مناصرة "حضرموت" (سوسة) و"تابسوس" (رأس ديماس شمال المهدية)و"ليبتيس مينور" (لمطة) و" أشولة" (بطرية) ولكنّ بنزرت (Hyppo Diarrhytus) قليبية (Clupéa) ونابل (Néapolis) انتصرت لقرطاج .

غير أنّ صدربعل القائد الذي هزمه مسنيسا سنة 150 احتلّ هضبة نفريس (على بعد 30 كلم من الجنوب الشرقي من قرطاج) وهي هضبة تسيطر على الطريق الموصلة إلى سيرتا الصغرى بينما كانت كتائب فرسان "فامياس" (Phaméas) تناوش الجيش الروماني . فأرسل القنصلان النائب الشعبي شيبيون الايميلي ليحرّض مسنيسا من جديد على التدخّل . فلم يجد إلاّ جثّة هامدة (سنة 148) ولكنّه علم أنّ الاغليد خلّف له وصيّة بتعيين خلف له فعمل شيبيون بالوصية حسب مصالح رومة . ووزّع سلطان مسنيسا بين ثلاثة أشخاص بعد أن جعلته شخصية الملك النوميدي محطّا للهيبة . ولعلّ رومة كانت مدينة له بتخلّي فامياس عن مناوأته لها وقد كانت بينهما علاقة شخصية ، وعلى كلّ فإنّ الشّاب النائب الشعبي أظهر تفوّقا على القواد الآخرين .

وكذلك فإنّ قنصلي سنة 149 و 148 لم يكونا قادرين على القيام بمهمّتهما . فأخفقا في هجومهما على المدن المتحالفة مع قرطاج ولم يتمكّنا من منع صدربعل من الدخول إليها وإقرار نفوذه فيها . وكانت الديبلوماسية البونيقية تبحث عن حلفاء من بين الموريين والنوميديين . فقرّرت رومة عند ذاك إسناد القيادة إلى الرجل الوحيد الذي أظهر أنّه كفء لها وهو شيبيون الايميلي فسمّي قنصلا رغم أنّ عمره لم يتجاوز 38 سنة وأنّه كان من الواجب أن يترقّب خمس سنوات ليبلغ السنّ القانونية . فسلّم له الشعب افريقية بدون اقتراع ومدّه بكلّ ما طلبه من جيوش ونقود .

7 — شيبيون الايميلي

هو "شيبيون الايميلي" ابن "بول اميل" المهزوم في كانه تبنّاه شيبيون الافريقي . كرَعَ من الثقافة اليونانية وشُغف بمخالطة الأدباء ودَرَسَ فنّ الحرب ، وهو الذي أوحى إلى القناصل بقراراتهم بالرغم عن أنّه كان يحتلّ منصبا ثانويا .

وكان أوّل عمل قام به في ربيع سنة 147 هو التخلّي عن ضاحية "مغارة" (قرب سيدي بو سعيد) حيث كان حاول القنصل لقاء العدوّ لقاء

فيه مجازفة . وأراد شيبيون بدوره اقتحام السُّور الشّمالِي فتمكّن من الدّخول على رأس 000 4 رجل ولكنّه لم يتسنّ له استغلال نجاحه .

وتوصّل شيبيون بعد عشرين يوما بلياليها إلى سدّ البرزخ بإقامة سور يمتدّ من خليج تونس إلى سبخة أريانة ويعلوه برج ذو أربعة طوابق ، لكنّ قرطاج بقيت تأخذ ميرَتَهَا عن طريق البحر . فسدّ شيبيون مدخل الميناء وردّ القرطاجيون الفعل ففتحوا فرجة أخرى أخرجوا منها كتيبة سرعان ما اضطرّت إلى التّقهقر (صيف سنة 147) فاحتلّ شيبيون مرتفعا أقامه البونيقيون ومنه منعت مِدْفَعِيَتُهُ كلّ توغّل في الميناء فشلّت بذلك حركة التموين . وبعد أشهر هزم الجيش البرّي ودخل "نفاريس" بعد حصار شديد . وانهزمت أيضا النجدات المرسلة إلى المحاصرين من موريطانيا. وحينئذ عَهِد شيبيون إلى صاحبيه "بوليب" المؤرّخ و"بانياتوس" الفيلسوف اليوناني بقيادة حملة بحرية أوصلتهما إلى ما وراء أعمدة هرقليس على سواحل المغرب الأقصى .

8 – احتضار قرطاج والقضاء عليها

خابت المفاوضات التي قام بها أحد أبناء مسنيسا لإقرار السلم . ذلك أنّ صدربعل ما كان ليقنع بالنجاة بنفسه فضاعف شيبيون الايميلي عندئذ نشاطه لينتصر قبل أن تتمّ مدّة تكليفه بمهامّ القنصلية . ففي ربيع سنة 146 أمر جنوده بالزحف . فافتكّ جيشه الميناء الحربي واحتلّ المدينة السفلى منزلا منزلا وعسكر في الساحة العمومية (Agora) في سفح هضبة "بيرصة" وفي الصّباح أشعل الجيش النار في الشّوارع وتواصل حصار القلعة طيلة ستة أيام بلياليها قبل القضاء عليها . وفي اليوم السابع سلم 000 55 ساكن أنفسهم إلى المنتصرين . أمّا صدربعل فقد التجأ إلى معبد "اشمون" ثم استسلم إلى شيبيون وكانت زوجته قد خرجت في ثياب الزينة على مرأى منه ورمت بنفسها صحبة ابنيها في النّار التي أضرمها الجنود الرومان الذين كانوا فرّوا من صفوف جيوشهم ففقدوا الأمل في العفو .

لقد كان مجلس الشيوخ قاسيا إذ كان نصيب الأسرى إمّا العبوديّة أو السجن المؤبّد ودفعت بنزرت الثمن غاليا جزاءَ وفائها لقرطاج .

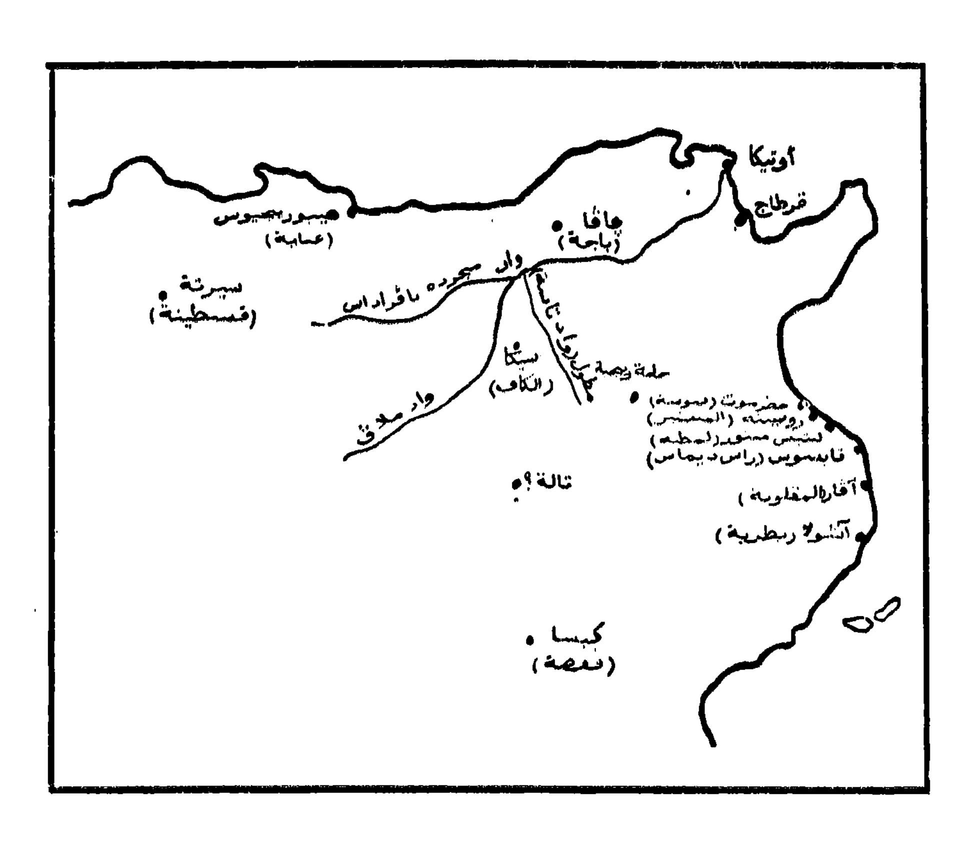
فمحقت محقا ولعنت أرض قرطاج ونذرت إلى الآلهة ومنعت على كلّ من أراد البناء على أديمها . وكان مصير المدينة المحق التّام وكان شيبيون المتشبّع بالثقافة اليونانية هو الذى أشرف على تنفيذ هذا الحكم كما فعل بعد اثنتي عشرة سنة بالنسبة "لنومانس" . فقام ببرودة تامّة بدور الجلاّد . وقيل : إنّه شعر عند مشاهدة انهيار الجدران بأنّ الامبراطوريات ليست خالدة وفكّر في مصير رومة واستشهد على الأقل ببيتين قالهما "هوميروس" في مصائب طروادة .

III ـ الاحتلال الروماني

1 ـ افريقية الرومانية Africa Romana

كان سقوط قرطاج معلنا ببدء الاحتلال الروماني في افريقية . وكانت هيمنة مجلس الشيوخ لا تقتصر على محق أعدائه فقط بل تتعدّاه إلى اعتبار ترابهم أرضا رومانية ، ولذلك فقد قرّرت هيئة متركّبة من عشرة شيوخ ومكلّفة بتقرير مصير ما كان لقرطاج من ممالك قبل الحرب تحويلَ هذه الممتلكات إلى مقاطعة رومانية (ربيع سنة 146) فكانت المقاطعة الافريقية (Provincia Africa) أو إفريقية (Africa) .

ولم تكن هذه المقاطعة ممتدّة الأطراف . فمساحة الأرض التي يحدّها الخندق الذى حفره شيبيون (Fossa Régia) لا تبلغ 25 000 كلم مربّع ولا تمثّل إلاّ ثلث الجنوب الشرقي من البلاد التونسية حاليا . ويبدأ هذا الخندق (Fossa) من مصبّ الواد الكبير (La Tusca) قرب ميناء طبرقة (Thabraca) ويتّجه إلى الجنوب الشرقي تاركا في التراب النوميدى باجة (Vaga) وتبرسق (Thubursicu Bure) ودقّة (Thugga) ثمّ يميل إلى الشرق ليصل إلى جبل فكيرين (في الجنوب الغربي من جبل زغوان) وكان يظنّ أنّ هذا الخندق ينطلق من تلك النقطة في خطّ مستقيم إلى أن يصل إلى هنشير طينة (Thaenae) (على بعد 12 كلم من الجنوب الشرقي من صفاقس) مارّا بسبخة سيدى الهاني وسبخة القرة . غير أنّ شارل سوماني أقام الدليل في السنوات الأخيرة على أنّ هذا الخندق



الشكل : 7 ـ حروب افريقية في القرنين الاولين .

أكثر قربا من الحدود الغربية لأنّ المدن الحرّة كانت توجد جنوب البلاد وشرقيّها، ويوجد على التخوم الجنوبية لنوميديا و"إفريقية" أرض كانت تسكنها منذ زمن قديم قبائل من جدالة . وربّما كان هذا الخندق موجودا بالقرب من سلاسل الجبال العالية التي توازي الساحل من جبل خشم إلى جبل فكيرين . وتنتهي هذه المقاطعة في سيرتا الصغرى (خليج قابس) وتبعد قليلا عن جنوب طينة . وهذه الحدود الأولية التي تضبط منتهى مطامح رومة والتي لن تفكّر في تجاوزها قد رُميزَ إليها في عهد الامبراطورية بأكوام من التراب .

وكانت رومة كلّما احتلّت مقاطعة ضبطت مساحتها . ولعلّها – كعادتها – شرعت حالما احتلّت البلاد في تقسيمها إلى قطع مربّعة مساحتها خمسون هكتارا تقريبا وهذا هو المقياس الذي استعمله فلاكوس (Flaccus) وقراكوس (Gracchus) سنة 122 ليوزّعا قطع الأرض على المعمّرين إن لم يكونا هما اللّذان اخترعاه .

وهذا النوع من التقسيم المنسوب إلى قراكوس جرى به العمل إلى بــرو قنصلية فيبيوس مرسيوس (Vibius Marsus) (سنة 30/29 بعد المسيح) وصادف أن وجد شارل سوماني في الصور التي التقطتها شركة الملاحة الجوّية الفرنسية لفائدة جمعية الأوقاف التونسية ما مكّنه من تعرّف إحدى هذه العمليات الكبرى التي تناولت 15 000 هكتار تقريبا بين لجم (Thysdrus) وآثار الرقعة غربا والبحر شرقا . ولم تكشف الصور عن الحدود المتمثّلة في خطوط طويلة من الحجارة البيضاء والقطع ذات الخمسين هكتارا ، بل كشفت عن آثار الأشجار التي كانت مزروعة ، وهي خطوط من العسير أن يتبيّنها المرء وهو على وجه الأرض .

وعهدت رومة حكم "إفريقية" إمّا إلى قاضٍ في رتبة معين للقنصل (Curule) ويسمّى بريطور (Préteur) أو إلى بريطـور قـديم يقوم مقامه ويسمّى بروبريطور (Propraetor) ويعيّن لمدّة سنة . ومنذ أن نظّمت إدارة مقاطعة اسبانيا أصبح لرومة مسؤولون برتبة بريطور. وابتداء من عهد سيلا (Sylla) الذي جعل عددهم ثمانية وأجبرهم على

ممارسة الحكم في رومة (سنة 81) لقّب نائب الحاكم (Promagistrat) المكلّف بافريقية بلقب بروقنصل (Proconsul) على غرار بقيّة الوُلاة . إنّه لم يكن للمقاطعة من الأهمّيّة حينذاك ما من شأنه أن يغري قدماء القناصل. ولا شكّ أنّ مجلس الشيوخ الجمهوري لم يكلّف بإدارتها سوى حكّام في رتبة بريطور .

أمّا في الساعات الحرجة فقد قاد القناصل بأنفسهم العمليات في المنطقة التي عيّنوا فيها من نوميديا كما عهد "بومبيوس" أثناء محاربته للقراصنة (سنة 67) بأمر الدّفاع عن افريقية إلى أحد مساعديه البريطوريين الاثني عشر (Légats prétoriens) ، وكان حينئذ صاحب النفوذ المطلق على كامل المنطقة التي كانت تتوغّل خمسين ميلا داخل البلاد . وقد احتفظت "إفريقية" رغم الحروب الأهلية بنفس النظام إلى عهد قيصر (سنة 46) .

وكان الوالي المقيم في "أوتيكة" مع مساعديه (Légati) وأعوانه (Amici) (Comites contubernale) الذين يختارهم هو بنفسه يدير عمليّا مقاطعته بدون مراقبة ويساعده في ذلك وكيل مالي (Quartor) يعيّنه مجلس الشيوخ ومهمّته السهر على خزينة الدّولة ونيابة الوالي إذا تغيّب (Quartor propraetor) ، وكان الوالي مكلّفا بالدفاع عن الحدود من هجومات النوميديين أو القراصنة ، والمحافظة على الأمن الدّاخلي بواسطة جيوش يعيّن مجلس الشيوخ كلّ سنة عدد جنودها . ولكنّه كثيراً ما يضطرّ زمن الحرب إلى الاستعانة بالاغاليد الحلفاء ، وفي المقاطعة نفسها فإنّ القوات لا تكفي للمحافظة على النظام .

وقد تحصّلت سبع مدن إفريقية على حرّيتها جزاء إعلانها القطيعة بينها وبين قرطاج ، وهي موانئ أوتيكة وحضرموت ولمطة ورأس ديماس وأشولة وأوسلة ، وكذلك مدينة تقع وراء خليج بنزرت وهي تودالوس . وفي سنة 111 أصبحت لبدة الكبرى (Leptis magna) صديقة الشعب الروماني . وكانت هذه المدن تدير شؤونها بحرّية وتتحصّل على بعض الأراضي التابعة لأملاك رومة ، ولكنّها كانت خاضعة ولا شكّ إلى التزامات عسكريّة ومالية .

2 ـ نظام الأراضي واستعمارها

حوّلت رومة الممتلكات القرطاجية والبربرية إلى أملاك عمومية ، وكان على الرعايا الذين بقيت أملاكهم في حوزتهم بصفة وقتية أن يدفعوا ضريبة قارّة تعرف بضريبة المهزوميين تستخلصها شركات ملتزمة وكانت المهامّ موزّعة في الأول بين الدوائر الثلاث (Pagi) ثم بين الجباة المرتزقة (Stipendiari) في كلّ دائرة . ولم تهتمّ الجمهورية بمصير الأهالي الذين بقوا على التقاليد البونيقية ، والذين لم تؤثّر فيهم المدنية اللاطينيّة وتجاهلت ، على الأقل رسميا ، هيئاتهم البلدية . وكان الوالي مهتمّا في المقام الأول بتنمية مصالح مستخلصي الضرائب ورجال الأعمال (Publicains) والتجّار الكبار . ولعلّ الرومانيين العائشين في افريقية كانوا يقيمون خاصّة في أوتيكة إلى سنة 123 ولم يهتمّوا إلاّ بشؤون التّجارة والحكم ، وكان الثلاثمائة تاجر ومموّل يقومون بالدور الرّئيسي .

3 ـ كايوس قراكوس

قام بالمحاولة الأولى لتعمير البلاد ثاني القراك (كايوس سمبرونيوس قراكوس) لكنّ الطبقة الارستقراطية (Optimates) اتّخذتها ذريعة للهجوم على المصلحين فكان انقلاب سنة 121 الذي قضى على حياة كايوس وأنصاره ، كما وضع حدّا لما شُرع فيه من عمل ، ويجدر الاطّلاع على قصّة كركوبينو المؤثّرة البليغة والتي لا معقب لها في كتابه " حول القراك " (Autour des Gracques) ولا أعلم وصفا أوضح ولا أبلغ من وصفه لشراسة طبقة تستعمل أخسّ الوسائل للقضاء على مصلح اجتماعي .

ففي سنة 133 أمكن لـ تي سمبرونيوس قراكوس(Ti. Sempronius Gracchus) وكان أكبر سنّا من كايّوس أن يحمل مجلس الشيوخ على المصادقة على قانون يعرف بقانون سمبرينيوس يحدّد أقصى ما يمكن أن تملكه عائلة بـ 250 هكتارا . ويقضي بتوزيع الأراضي المنتزعة على المواطنين الفقراء قطعا لا تتجاوز الواحدة منها سبعة هكتارات ونصفا ، كما أحدث بمقتضى

نفس القانون لجانا ثلاثية مكلّفة (Triumvir) بتوزيع الأراضي والإشراف على توزيع القطع (Triumviri Agris iudicandis Adsignandis) وحسم الخلافات .

وكان يظنّ المؤرّخون أنّ أعضاء هذه اللجان الثلاثة المنتخبين لمدّة سنة والذين كان يمكن تجديد انتخابهم ، يعمل بعضهم مع بعض . إلاّ أنّ كركوبينو أقام الدّليل على أنّهم كانوا يعيّنون مدى الحياة ويقومون بعملهم بالتناوب . واستنتج من هذا الاكتشاف نتائج هامّة جدّا وخاصّة فيما يتعلّق باستعمار قرطاج .

وابتداءً من سنة 133 سمّي الشاب "كايوس" ولم يمض على تعيينه سنتان حتى مارس نفوذه الفعلي فانتزع قدرا كبيرا من الأراضي التي احتكرتها طبقة النبلاء (Optimates) ووزّعها (Assignation) وقد ضمّت اللجنة الفلاحية ابتداء من سنة 129 ثلاثة أصدقاء لهم نفس الاندفاع وهم : كايوس وفلبيوس فلاكوس وس. بابيروس كاربو (Caïus, M. Fulvius Flacus,C. Papirius Carbo) غير أنّ مجلس الشيوخ تمكّن من شلّ نشاطها بتجريدها من مشمولاتها القضائية .

ولمّا رجع كايوس من سردانيا سنة 125 للاضطلاع من جديد بمهامّه في اللّجنة الثلاثية سعى في أن ينتخبه القوم نائبا للطبقة الشعبية (Tribuns) وبادر بحملهم على إجراء استفتاء قضى بإرجاع مشمولات اللّجنة الفلاحية فتمكّن من وسائل العمل التي حرم منها منذ ستّ سنوات فعاود طبقة النبلاء من جديد شبحُ الإصلاح الفلاحي .

وقد زاد في تفاقم الخطر أنّ الفقراء كانوا على وشك التمرّد وتصدّت الأقليّة الحاكمة في مجلس الشيوخ لهذا الخطر ولجأت إلى نفس الطريقة التي لجأ إليها البرجوازيون الفرنسيون في الجمعية الوطنية أيام جوان 1848 أي إرسال المعوزين العاطلين والمهدّدين للأمن إلى افريقية كلّفهم ذلك ما كلّفهم ، وخلافا لما يُظنّ عامّة فإنّ كايوس لم يتّخذ هذا القرار الذي من شأنه أن يحوّله عن رسالته بل النائب الشعبي "روبريوس"

(Rubrius) هو الذي فعل ذلك وقد استجاب الرعاع في حماس إلى نداء الهجرة إلى وطن ثان حيث يكونون أسعد حظا شأنهم شأن العاطلين الذين كانوا يعملون في المعامل الوطنية سنة 1488 وصادقت القبائل على تعيين (déductio) عدّة آلاف من المعمّرين وتوجيههم إلى افريقية ، وزكّى مجلس الشيوخ قانون "روبريوس" بارتياح يضاعفه إقصاء أعضاء اللّجنة الثلاثية من ايطاليا ، وكانوا هم الذين كلّفوا بتنفيذ هذا القانون (سنة 123) .

واتّفق لفلاكوس أن قاد ، حسب قاعدة التناوب ، المعمّرين إلى افريقية ولم يكن عند تنصيبه لهم يجهل أنّ أرض قرطاج أرض ملعونة ، ولذلك فقد عيّن مكان هذه المستعمرة الجديدة خارج المنطقة التي استنزلت عليها اللعنة وقسّمها إلى قطع مساحة كلّ منها 50 هكتارا . وقد عثر شارل سوماني على آثارها على وجه الأرض ثمّ وسّع فلاكوس نطاق هذا التقسيم إلى ما وراءها من أراض خصبة عمومية ، ووزّع بالاقتراع ما يقرب من 150 000 هكتار ، ورفع عدد المعمّرين إلى 6 000 ، وكان من بينهم حتى الايطاليون الذين نبذهم القانون ، ثمّ وضع مستعمرة قرطاج في حماية جونون (Junon) (Colonia iunonia Carthago) الذي ورث مشمولات تانيت بينبعل (Tanit Pene Bâal) .

وأثناء غياب فلاكوس شنّت الأقلّية الحاكمة في رومة حملة واسعة النطاق على السياسة الفلاحية للّجنة الثلاثية . واقترح النائب الشعبي م. ليفيوس دروسوس (M. Livius Drusus) إحداث اثنتي عشرة مستعمرة جديدة ذات 3 000 رجل ولم يكن ذلك لاستدراج الرعاع بل وبالخصوص ليثقل كاهل "كايوس" بعبء مسؤولية لا مناص له من الاضطلاع بها ليجعل التوزيع الاستعماري الذي ليس من شأنه أن يضرّ بمصالح الملاّكين الكبار يحلّ محلّ استرجاع الأراضي التي كانت تطبّقها اللجنة الفلاحيّة (سنة 122)

وكان "كايوس" يشعر أنّ وجوده في رومة ضروري لمقاومة الخطر الذي يهدّد ما قام به من أعمال . ولذا فإنّه عندما ذهب إلى قرطاج لتعويض "فلاكوس" رتّب أموره ليبقى سبعين يوما فقط غير أنّ خصومه رموه عند رجوعه بخزي الاستعمار الافريقي الذي لم يكن له فيه أدنى

مسؤولية ، ولم تتردّد الأقليّة الحاكمة في افتراء أشنع الأكاذيب لنشر البلبلة في صفوف أنصاره فاتّهمته بأنّه أثار غضب الآلهة عندما سمح للمعمّرين الجدد بالاستقرار في أرض أُنزلت عليها اللّعنة ونجحت في الحيلولة دون أن ينتخب من جديد نائبا شعبيا وعرفت أيضا كيف تكسب ثالث الثلاثة واسمه "كاربو" فلمّا حان دوره ليقيم بقرطاج تواردت إلى رومة أخبار مريعة من الصعب أن يُشكّ في صحّتها لما بين "كايوس" و"كاربو" من صداقة متينة ، فقد قلعت الرّيح العلامة التي كانوا يريدون إقامتها ، وعصفت العاصفة فجرفت أمعاء الضحايا خارج المنطقة الملعونة ، وحملت الذئاب معها الصُّوى وما كان لمخطىء أن يخطىء في فهم الصبغة الالهية لهذه الخارقة . كما أدرك ذلك "البرتيني" حقّ الإدراك فغمر "فلاكوس" و"كايوس" خضمّ هذه الأكاذيب التي كانت تبعث الرعب في قلوب الجماهير ، وسرعان ما استغلّ الخصوم ما حطّم سمعة هذين الكافرين وذهب بمشاريعهما كلّها ، وقامت محكمة تطالب بإلغاء أعمالهما في افريقية ونسخ القوانين القاضية بتأسيس مستعمرات في "تارنت وكابو".

ولم يبق "لكايوس وفلاكوس" ليحميا عملهما ممّا سمّاه "ج. كاركوبينو" عن جدارة «الخيانة الشنعاء» إلاّ الالتجاء إلى الثورة . ولكنّهما أخفقا وهلكا كلاهما : "كايوس" منتحرا و"فلاكوس" تحت سهام الرّماة الاقريطيين بإمرة القنصل أوبيميوس Opimius وكان قد عيّن بمقتضى قرار من مجلس الشيوخ لإنقاذ الجمهورية أو بالأحرى أراضي الارستقراطية المهدّدة . وعيّن "كاربو" جزاء خيانته قنصلا لدى المجالس المنتخبة التي كان يرأسها "أوبيميوس" وحقّ للخائن وللسفّاح أن يفرحا وأن يسعدا بانتصار النظام القائم نصرا مبينا وصيانة الملكية الفردية . ونسخ قانون "مينوسيوس" أحكام "روبريوس" وألغى مستعمرة "جونون" (سنة 121) وبعد عشر سنوات ضبط "قانون طوريا" مصير الأراضي المستعمرة المنحلّة فلم يطرد المعمّرون ولكنّ قطع الأرض التي أتيح لهم أن يبيعوها تحوّل معظمها إلى الرّأسماليين ، وكوّنوا أملاكا شاسعة يزرعها الأهالي تحت إشراف ناظر وكان مجلس الشيوخ المحافظ يشجّع كعادته المحتكرين بعد أن أحبط محاولات التعمير في قرطاج غير أنّه تقرّر أن تقدّم تعويضات

إلى كلّ مواطن روماني أو بربري قد تضطرّ الدولة إلى انتزاع أرضه بعد المزايدة العمومية .

4 ــ الأملاك العامّة

وعلاوة على الأراضي التي تركتها رومة للمعمّرين وإلى الجباة المرتزقة (Stipendiari) فإنّها أبقت لنفسها أملاكا عمومية فسيحة جدّا فأحالت قسما من هذه الأراضي إلى معمّرين جدد خاصّة إلى قدماء جنود "ماريوس" (قانون أبوليا سنة 103) وإلى المدن الحرّة ، وكذلك إلى الفارّين من جيش العدوّ وإلى أبناء مسنيسا وباعت أيضا قطعا عديدة إلى مواطنين رومانيين مع استبقاء حقّها في الملكية المتمثّل في دفع أداء ولو بصفة نظرية . أمّا الأراضي التي لم تفرّط فيها فقد آجرتها ــ ولا شكّ ــ لمربّي المواشي والمزارعين مقابل معلوم تستخلصه شركة مستلزمة . وفي الجملة فإنّ الدّولة لم تبق في نهاية الأمر إلاّ قسما ضئيلا من ممتلكاتها .

وكانت المقاطعة الرومانية تنتج خاصّة القمح الذي تشتري شركة مستلزمة قسما منه لفائدة الدّولة الرومانية وفي عهد القراك تفاقمت المركزية الرأسمالية . ففي افريقية وغيرها من البلدان كان الأشخاص مسؤولين في آن واحد عن استخلاص الضرائب وطحن الحبوب وتجهيز البواخر ، وبذلك كانوا يراقبون النشاط الاقتصادي بأجمعه ، فلم تنم التجارة وكان الازدهار ضئيلا فكان المزارعون ومربّو المواشي يعيشون عيشا ضنكا وتسنّى لرجال الأعمال وحدهم أن يملؤوا بطونهم وأغلب الظنّ ــ إذا اعتبرنا سلوكهم في آسيا ــ أنّهم لم يتخلّفوا عن ذلك .

5 ــ نوميديا وميسبسا

قسم "شيبيون الاميلي" إثر موت مسنيسا الملك بين أبنائه الثلاثة الشرعيين فأمّا الابن الأكبر "ميسبسا" فقد تولّى الإدارة وجعل على رأس العاصمة وهي سيرته . وأمّا "غلوسة" فقد أخذ قيادة الجيش . وأمّا "مستنبعل" فقد اضطلع بمسؤولية القضاء . وبقي "غلوسة" الذي جلبه

شيبيون إلى حصار قرطاج على وفاته له . ولم يظهر "ميسبسا" و"مستنبعل" سوى محاولات محتشمة للاستقلال . ولمّا انفرد "ميسبسا" بالحكم عند وفاة أخويه لم يشأ تعكير صفو شيخوخته بمناهضة رومة فزوّدها بالقموح والجنود والفيلة .

وسار في الداخل سيرة أبيه طيلة ثلاثين سنة (148 – 118) فقد زاد في تجميل سيرتة التي جزم "سترابن" أنّها كانت بفضله «مجهّزة بكلّ شيء» وعاش "ميسبسا" في مدينته بين الأدباء والفنّانين الإغريق ويقال إنّه كان يمضي أوقات فراغه في البحث وخاصّة دراسة الفلسفة .

وضرب نقودا بها صورة والده ، واهتم بتنمية المدن وتنظيمها ، ففي عهده صارت باجة(vaga) – وعلى رأسها مجلس شيوخ و"بلّة ريجيا" (قرب سوق الإربعاء) في الدخلة – مدينتين ويستبعد أن يكون استعمل ولاة ملوكيين لمراقبة الإدارة في المدن والأرياف ، وفي عهده أيضا أمكن للتجّار أن يتعاطوا نشاطهم بكامل الحرية في نوميديا .

ولم يبلغ "ميسبسا" عظمة "مسنيسا" ولكنّه يبدو في نظر الرومانيين قويا . وقد ذهب المؤرّخون حتى إلى التساؤل فيما إذا كانت محاولة تعمير افريقية بالايطاليين التي قام بها "قراكوس" عملية موجّهة ضدّه .

وكان "ميسبسا" يودّ لو يقسّم ملكه بين ابنيه الشرعيّين "آذربعل" و" يَمْبسّال الأول" (Hiempsal) غير أنّه كان في العائلة ثلاثة أبناء من إخوته فالأول هو "ماسيبا" ابن غلوسة وكان إذ ذاك طفلا صغيرا. وأمّا الآخران فهما ابنا "مستنبعل" "غودة" و"يوغرطة" فغودة وهو الابن الشرعي كان ضعيف العقل ، أمّا "يوغرطة" وهو من أم ولد فقد كان – كما سيبيّن لنا ذلك التاريخ – شخصية ممتازة .

6 – يوغرطة

كان "يوغرطة" جميلا ذكيا يتّقد حيوية ماهرا في استغلال ضعف خصومه ، ولكنّه كانت تتوالى عليه حالتان : نشاط زاخر وانكسار كبير .

وكان سحر فتيان رومة النبلاء (سنة 134) أثناء حصار «نومانس» حيث كان في أركان حرب "شيبيون الايميلي" واضطرّ "ميسبسا" أن يقرأ حسابا لشعبيته بين النوميديين ، وللضغط الذي سلّطه الإيميلي لفائدته فألحقه بنسبه وتبنّاه وعهد إلى ولديه وإلى ابن أخيه بالملك كاملاً . غير أنّ أبناء العمّ الثلاثة لم يتّفقوا على توزيع السلطة بينهم واستغلّ مندوب رومة هذا الخلاف لتجزئة المملكة النوميدية وإضعافها ، وكادت سياسة مجلس الشيوخ تدرك غرضها ، فعوض أن تجد رومة نفسها إزاء مملكة نوميدية متّحدة لن تجد إلاّ ثلاث ممالك متناحرة .

وما كان "يوغرطة" ليرضى بالتقسيم . فأوعز باغتيال "يمبسال" وهزم في ساحة القتال آذربعل الذي التجأ إلى رومة وبذلك ضمن لنفسه امتلاك نوميديا كلّها (سنة 116) .

وتردّد مجلس الشيوخ في الموقف الذي يجب عليه أن يقفه . فكانت الأقليّة بزعامة "م. اميليوس سكوريوس" تنوي بفضل الحرب أن تسلّم افريقية لقمة سائغة لتجارة طبقة الفرسان ولكنّها لم تتمكّن من حمل أعضاء مجلس الشيوخ (Patres) على التصويت لأنّهم أثّرت فيهم عداوة الشعب أو رشاهم "يوغرطة" . وكُلّف عشرة نواب يقودهم "أوبنيموس" العدوّ الألد للملك النوميدي وهو محافظ متطرّف بفضّ المشكل على العين . وكان "يوغرطة" يعرف معرفة جيّدة طبقة النبلاء الرومان التي أفسدتها الرشوة وحبّ المال فتيسّر لرسله تطمين المبعوثين الرومان الذين وافقوا على تسليم القسم الغربي من المملكة أي من غربي سيرتة إلى نهر الملوية .

وثمّة ترصّد "يوغرطة" الفرصة السانحة طيلة أربع سنوات بينما استرجعت الطبقة الارستقراطية الحكم بفضل قضية الفسطال (Vestales) التي خرجت طبقة الفرسان منها مخزية . وفجأة زحف "يوغرطة" على مملكة "آذربعل" وطارده حتى بلغ سيرتة ولم يحل بينه وبين الدخول إلى هذه المدينة سوى تدخّل التّجّار الايطاليين المسلّح (سنة 113) وتردّدت رومة التي كانت مهدّدة بهجوم التيتون (Les Teutons) في خوض المغامرة بغزوة في افريقية واستقدم وفد من مجلس الشيوخ كان "سكورس" أحد

أعضائه الملك إلى "أوتيكة" واكتفي بمعسول القول . واضطرّ "آذربعل" إلى التخلّي عن سيرتة تحت ضغط الايطاليين الذين أخذوا بسلاحهم وقتلوا عن آخرهم كما قتل الملك (صيف سنة 112) فلم يكن لرومة عند ذلك بدّ من أن تردّ الفعل .

حرب النبلاء

اتّفقت جميع الأحزاب على تحطيم البربري غير أنّ حربا طويلة مشكوكا في نتيجتها لا يعزّزها ولا يقودها أمير بربري كان يخشى أن تؤول إلى خيبات ذات انعكاسات سياسية خطيرة . ولمغالطة الرعاع تظاهر مجلس الشيوخ باستئناف عمل «القراك» وإعطائه الصبغة الشرعية بسنّ "قانون ثوريا" سنة 111 وانطلت الحيلة ، ويقول ج . كاركوبينو : إنّ الشعب رحّب كما لو كان هو المنتصر بالمصادقة على ذلك القانون الفلاحي الذي كان يفعل بلبّه مفعول الطلسم وإن لم يكن من أثر له سوى انتزاع أراض جديدة من حيّز الأملاك العامة، ولامن غاية سوى توتير الأعصاب بغية التمهيد للحرب الافريقية ».

وقام رجلان من الطبقة الارستقراطية : القنصل "كلبرنيوس بستيا" "خائن القراك" وأمير مجلس الشيوخ "سكوريوس" وهجما على مملكة يوغرطة ثم قبلا التّفاوض معه بطلب منه وسالماه مقابل مقدار بخس من المال والماشية وأكّد "سالوسطس" أنّ يوغرطة اشترى ذمّتهما وليس هذا بغريب وربّما يجب أن نتبيّن مع "كاركوبينو" من تسرّعهما إلى المصالحة اعتبارات انتخابية بالنسبة "لبستيا" ورغبة "سكوريوس" في أن يسلّم فورا إلى الرأسمالية الرومانية سوق "لبتيس مقنى" (لبدة) التي لم يمض على خروجها من التّبعية النوميديّة زمن طويل .

وفضح الحزب الشعبي في ضجّة ارتشاء النبلاء وطالب بحضور يوغرطة كشاهد فتجاسر يوغرطة وقدم إلى رومة وليس من المستبعد أن يكون بستيا وسكوريوس قد أحاطاه علما بما يجري فقام أحد نواب الطبقة الشعبية وأمر يوغرطة بتوضيح موقفه لكنّ نائبا آخر منعه من الكلام . ويظهر أنّه من الصعب أن نعْزو ــ كما ظنّه ستيفان قزال ــ هذه المقاطعة

إلى رغبة القوم في تجنُّب نقاش يَمَسّ بكرامة المجلس . فرومة عَرَفَتْ الكثير من هذه المناقشات خاصة وأنّ بسطة النائب الأول كشفت جميع الفضائح ولم يكن من عمل الثاني الموافق للمجلس إلاّ منع إثبات ذلك. وأسرع القوم في حضّ الاغليد على السفر وقد كان "لبقشيشه" مفعول ساحر ووصلت به الجرأة إلى أن أوعز بقتل أمير بربري مناوىء له في رومة نفسها . وقيل : إنّه عندما كان على أهبة السفر ألمع إلى الموقف في جملة مقتضبة جزئية وقال : "مدينة للبيع مصيرها الهلاك إن وجدت من يشتريها" .

ونجا يوغرطة لأنّ في إدانته إدانة "بستيا" القوي وشركائه . ولكن كان من الصعب أن تقف الأمور إلى هذا الحدّ : فقد سلّمت مقاليد المملكة النوميدية إلى القنصل بوستيميوس البينوس الذي كان ينتظر دوره في قيادة الحرب . وجرّ الاغليد خصمه في مفاوضات لا نهاية لها . فاضطرّ إلى التخلّي عن قيادته لمعالجة وضعه السياسي في رومة . وعوّضه في القيادة أخوه أولوس (Aulus) وأسند إليه لقب مساعد (Légat) ولأوّل مرّة يمنح لقب نائب للقائد (Legatus propraetor) فانهزم في زحفه على ستول (وليست هي قالمة بل مدينة قريبة منها) واضطرّ إلى الخروج من البلاد في أجل لا يتجاوز عشرة أيّام (شتاء سنتي 110 و 109) .

وهكذا لم تكشف طبقة النبلاء عن ارتشائها فقط بل عن عجزها أيضا . فأمرت مجالس الانتخاب بفتح بحث عن فضائح افريقية . وكانت تقصد بالخصوص سكوروس التي كانت أعماله محطّا للكثير من الريب . غير أنّ أمير المجلس كان أقوى من أن يتنازل لتبرير موقفه . فقطع الداهية المناور صلته بطبقة النبلاء واتّجه نحو الفُرسان والشعب وتوصّل إلى أن يعيّنوه على رأس لجنة البحث وتخلّص هذا المدافع بحق عن الفضائل الجمهورية من متطرّفي اليمين . فلم يبق لأونيموس زعيم الرجعية السفّاح وألبينوس وبستيا إلاّ طريق الهجرة . ورُمي إلى السوقة بفريسة تتلهّى بها وهو قانون فلاحي جديد (lex mamilia agraria) (سنة 109) أكثر مهارة من قانون ثوريا لأنّ غرضه هو تحويل الأراضي العمومية تحويلا جماعيا إلى الرأسماليين والمتوسّطين المقيمين بإيطاليا من غير أن ينتفع فقراء المدينة بالحركة التي غذّتها ثورة "القراك" باسمهم (ج. كركوبينو) غير أنّ الشيوخ

المنتصرين الذين اتّحدوا مع الفرسان ونواب الطبقة الشعبية ليخدعوا الشعب سيلقون من بعد مع ماريوس (Marius) جزاء ما قدّمت أيديهم .

8 — ميتيلوس

وأول نتيجة لهذا الاتّحاد كانت انتخاب ميتيلوس أحد المتوطئين مع سكوريوس قنصلا(وهو كيسليوس ميتيلوس وقد لقّب فيما بعد نوميدوكوس) وكان هذا الارستقراطي الذي تولّى قيادة الحرب بافريقية نسيجَ وحده (Rara avis) أمانة وثقة . وحرّض مع مساعديه ريتيلوس روفوس (P. Rutilius Rufus) النبيل المتصلّب وماريوس — الرجل الجديد — على إرجاع الطاعة في صفوف الجيش بعد أن اضطرب حبلها بسبب عجز القوّاد وتواطئهم (ربيع سنة 109) وعندما عرف يوغرطة أنّه لا يمكن له اشتراء ذمّة هذا الرجل ولا التلاعب به عرض عليه مرتين اثنتين أن يوكّل أمره إلى رحمة الشعب . وأعار القنصل أذنا صاغية لهذه العروض ولكنّه اكتفى بحمل الرسل على اغتيال ملكهم .

توغّل الجيش في الأرض النوميدية من دون أن تعترضه أيّة عقبة مخترقا وادي مجردة واحتلّ باجة مستودع القموح بالنسبة للسهول الكبيرة، وقرب "مطول" (وهو واد ملاق حسب ستيفان قزال وواد تسه حسب شارل سوماني) اصطدم بجيوش العدوّ وشتّتها شرّ مشتّت وانتصر عليها انتصارا دفع ثمنه غاليا (أوت سنة 109) عند ذلك عاث ميتيلوس في البلاد ودخل الكاف (Sicca) التي فتحت أبوابها ولكنّه لم يتجاوزها إلى التراب الجزائري وحاول أخذا بألباب الناس أن يشنّ هجوما على جامة (بين الكاف ومكثر) ولكنّه أخفق واضطرّ إلى الرجوع على أعقابه (أكتوبر سنة 109) وعند انتهاء مدّته أقرّه مجلس الشيوخ قائدا ولقّبه بلقب قنصل مساعد .

وفي شتاء سنتي 109 و 108 اغتنم أهالي باجة الاحتفال بالإلهتين "سريراس" (Cérères) للفتك بالرومان كلّهم باستثناء قائدهم . فأسرع متيلوس إلى المدينة وعاث فيها فسادا ولم يكن ذلك إلاّ حادثا طارئا

إذ أنّ خيبة جميع المؤامرات ضدّ يوغرطة اضطرّته إلى مواصلة الحرب فسارت الكتائب مخترقة السباسب حتى وصلت تالة التي لا يزال موقعها محلّ نقاش وفيها اعتصم الاغليد . وبعد أربعين يوما دخلت الكتائب المدينة ولكنّ يوغرطة كان قد لاذ بالفرار ومعه كنوزه ثم استطاعت أن تقتحم سيرته حيث أقامت بها مدّة الشتاء (108) وبذلك سيطرت على وسط نوميديا وشرقها .

وسعى يوغرطة حينئذ في إثارة عداوات جديدة ضدّ الرومان فجيّش الجيوش من جدالة وأخذ يهيّء الجوّ لدى صهره ملك موريطانيا بوخوس الأوّل لحمله على التدخّل فسار النوميديون والموريون معا في اتّجاه سيرته . وعلم ميتيلوس في ذلك الوقت أنّ مساعده ماريوس عُيّن قنصلا وعُهد إليه بمواصلة الحرب في نوميديا . فكلّف ريتيلوس بتسليم مقاليد السلطة . ذلك أنّ المجالس المنتخبة تركته ينتظر طويلا الإذن بالدخول إلى رومة حتى ينتصر على "النوميديين والملك يوغرطة" وليس من شك في أنّ فرسان افريقية كان لهم ضلع في أفول نجم رجل ما كانت أمانته لتسهّل عليهم تجارتهم .

9 — ماريوس C. Marius

كان ماريوس من طبقة الفرسان وكان جنديا صُعْلُوكا جلْفا محدود الذكاء ولكنّه شجاع قد برّع في فنّه . وكان يقول فيه شيشرون "هو دجل عديم الثقافة من فرسان أربينوم ولكنّه رجل بحقّ" .

وكان هيّأ نفسه منذ زمان ليخلف حاميه "ميتيلوس" الذي كثيرا ما جرح شعوره بكبريائه وعَجْرَفَته . ولقد قام بحملته الانتخابية ضدّ النُّبلاء وكوّن أنصارا من بين تجّار أوتيكة وحمى "غودة" الضعيف ضدّ أخيه وتباهى بأنّه رجل جديد حديث النعمة غايته الانتقام من الأغنياء . ولأوّل مرّة تألّب على النبلاء الفرسان — وهم أعداء ميتيلوس — والرعاع وكانوا يعانون مرارة الخيبة . ثمّ فرضوا مرشّحهم . فضمّ ماريوس المُعْدمين إلى كتائبه وكانت متركّبة من المزارعين وحدهم ومهّد بذلك

الطّريق إلى هؤلاء الجنود المحترفين الذين لا يهمّهم من أمر رومة شيء إذ ربطوا مصيرهم بمصير قائدهم وأصبحوا يُولُونَ وَيَعْزِلُونَ الملوك وقد جيّش على هذا الأساس جيوشا كثيرة .

وفي نوميديا عوّد جنوده الجدد بشنّ هجومات خاطفة على القرى والمدن ثم أراد أن يأخذ بألباب القوم فدفع في أواخر الصيف بجيشه نحو مدينة السباسب : قفصة (Capsa) بعد أن أجهده إجهادا ودخلها غرّة . فأحرقها وأباد كلّ من كان في سنّ حمل السلاح من بين سكّانها ولم يفقد ولو جنديا واحدا (سنة 107) .

ولا نعرف في أيّ مكان قضى فصل الشتاء . وفي الربيع استأنف حملته وظلّ أشهرا عدّة يجوب نوميديا الغربيّة إلى أن بلغ – حسب سالوسطس – الملوشة (الملوية) (سنة 106) وبالقرب من هذا النهر اغتصب الحصن المقام على تل وعر (ولعلّه حسب ج. كركوبينوتل توريرت) وكان كنز الملك مودعا فيه . غير أنّ هذا الانتصار دفع القبائل المورية إلى التمرّد على الرومان . وأفلت ماريوس أثناء رجوعه ، بأعجوبة ، من هجوم يوغرطة وبوخوس ولكنّه أخذ بثأره ودخل سيرته منتصرا وقد احتلّها النوميديون في غيابه (أكتوبر سنة 106) وهكذا خرج موفورَ الكرامة من معركة أخطأ فيها أفدح الأخطاء وأشرف أثناءها على الخيبة لولا وكيل المال سيلا (Cornelius Sylla) الذي أبلى فيها البلاء الحسن .

وفي السنة الموالية لم يبق ليوغرطة سوى عدد قليل من الجنود ولم يعد يعتمد إلاّ على بوخوس وأصبح مستشارو ملك موريطانيا الذين اشتراهم الرومان بواسطة عملاء سرّيين يدافعون عن رومة أثناء المفاوضات التي أجراها سيلا بكامل المهارة . فكاد بوخوس لملك نوميديا مكيدة وسلّمه إلى وكيل المال الروماني .

ولم يغفر ماريوس لسيلا هذا الانتصار (صيف سنة 105) كما أنّ "بيجو" لم يغتفر للاموريسيار حصوله على استسلام عبد القادر . وأحسّ ماريوس كما أحسّ "بيجو" بعده بأنّه أضاع شيئا من مجده في نظر الرأي

العام لأنّ الانتصار لم يكن انتصاره إذ أنّ ديبلوماسية سيلا هي التي وضعت حدّا لحرب دامت ثلاث سنوات .

وعلى كل فإنّ انتصاره كان باهرا (أوّل جانفي سنة 104) وبقي يوغرطة طيلة ستة أيّام يقاسي آلام الجوع في "تلانيوم" حتى أراحه حبل المشنقة من كلّ ذلك . ولكنّ ذكرى الاغليد الذي قاد النوميديين في كفاحهم ضدّ الاستعمار الروماني بقيت عالقة في أذهانهم .

ونال الخائن بوخوس شرف لقب حليف الشعب الروماني وصديقه وأسند إليه بعنوان الحثّ على الخير الثلث الغربي من نوميديا . أمّا القسم الشرقي فقد كان من نصيب غودة . وليس من شك في أنّه وجد بين هاتين المملكتين دولة بربرية تفصل بينهما ممتدّة الاطراف يسميها شيشرون " مملكة المستانزوسوس " (Mastanesosus) ولم تشأ رومة توسيع مقاطعة افريقية إذ أنّها لم تكن لتخشى ملكا ضعيفا وملكا آخر عميلا ما كان يمكن لهما أن يمانعا في إفساح المجال للفرسان كي يتاجروا كما طاب لهم في بلادهما .

10 — بلاد البربر في أوائل القرن الأول قبل المسيح

لا نعرف شيئا يذكر عن بلاد البربر أثناء السنوات الخمسين التي تلت هذه الأحداث . ففي موريطانيا بقي بوخوس الأوّل أو القديم مخلصا لالتزاماته نحو رومة وخاصّة لصديقه القديم سيلا وظلّ يزوّد ملاهي رومة بالوحوش الضارية .

وكان القائد الديمقراطي سرتوريوس الوالي القديم لإسبانيا الجنوبية الثائر على السيليين تخلّى عمّا كان يعتزمه من نزول بجزائر مادير (Madère) ودخل موريطانيا حيث زجّ بنفسه في الخلافات القائمة بين الأمراء المحلّيين ونجح في الاستيلاء على طنجة (Tingi) وارتاح الأهالي لإدارته وتبعه مئات منهم إلى اسبانيا التي دعاه إليها " اللوزيتانيون " (Lusitaniens) (81 — 80) بعد أشهر قليلة .

ولا نعرف في أيّ تاريخ انقسمت موريطانيا إلى مملكة غربية يملكها بوغود ومملكة شرقية يملكها بوخوس الثّاني أو بوخوس الشّاب. إلاّ أنّ هذا التقسيم كان موجودا سنة 49 منذ بداية الخلاف بين قيصر وبومبيوس، ويظهر أنّه تمّ عند وفاة بوخوس الأول حوالي سنة 70. وربّما استولى على نوميديا الغربية مسينسا جديد. وفي المملكة الشرقية مات غودة سنة 88 وخلفه ابنه يمبسال الثّاني. وفي السنة نفسها عندما زحف سيلا على رومة فرّ ماريوس إلى افريقية وأطلق العنان لتأمّلاته بعد أن جلس "لاجئا على أطلال قرطاج" والتجأ ابنه إلى يمبسال ولم يتمكّن من الفرار إلاّ بفضل مساعدة امرأة.

وفي سنة 84 تنازع الديمقراطيون والسيلانيون مقاطعة افريقية. وفي سنة 82 أحرق المواطنون الرّومان واليا من شيعة ماريوس في قصره بأوتيكا لاستغلاله رعاياه استغلالا فاحشا سنة 82.

واغتنم حرباص أحد الأمراء النوميديين هذه القلاقل وأزاح عن العرش مسينسا ويمبسال ونصب نفسه اغليدا على نوميديا كلّها وناصر جماعة ماريوس الّذين كانوا ينظّمون صفوفهم في الوطن القبلي بقيادة دوميتيوس أحنوبربوس (n. Domitius Ahenobarbus). وبعد رجوع سيلا من الشرق كلّف "بومبوس" (Cn Pompeius) وهو فارس شاب في السّابعة والعشرين من عمره بالدخول إلى افريقية حيث كتب له النّصر فقتل دوميتيوس وخلع "حرباص" وأعاد يمبسال ومسينسا إلى عرشيهما فاعتبر سيلا أنّ نجاح هذا الشّاب أسرع من المعقول فاضطرّه إلى التخلّي عن جيوشه وإرسالها إلى رومة ولكنّ بومبيوس رفض ونال لقب "مانيوس الأكبر" (Magnius) ولقب المنتصر «خارج افريقية» (ex Africa) من غير أن يمارس القضاء 12 مارس سنة 80.

وبعد رجوع هذين الملكين إلى ملكهما لا نعرف بالضبط مصير الممالك النوميدية. فنحن فيما يخصّ المملكة الغربية لا نتعدّى الفرضيات. أمّا فيما يخصّ المملكة الشرقية فإنّ يمبسال الملك الأديب حكم

في أمن وطمأنينة أكثر من عشرين سنة . أمّا ابنه "يوبا الأول" فإنّه عند مناوأته قيصر لم يكن قد تحصّل على لقب صديق الشّعب الرّوماني الذي مُنحه فيما بعد وفي سنة 50 ذهب نائب الشعب "كوريون" (Curion) إلى أن اقترح تجريده من مملكته .

11 – أنصار قيصر وأنصار بومبيوس

كانت افريقية أحد الميادين الكبرى التي دارت فيها رحى المعركة بين أنصار "بومبيوس" وقيصر . ولمّا أجبر قيصر على خوض الحرب الأهلية بسبب التعنُّت السخيف الذي أظهره "بومبيوس" عندما رفض كلّ حلّ وسط وعبر الروبيكون (11 جانفي سنة 49) غادر أنصار "بومبيوس" حينئذ ايطاليا لينظّموا صفوفهم في البلقان وافريقية واسبانيا فقاد قيصر بنفسه الهجوم في اسبانيا وكلّف "كوريون" بطرد "قاطون" حفيد "قاطون الأكبر" من صقلّية ثم الدّخول إلى إفريقية حيث تمكّن الوالي آتيوس فاروس "التابع "لبومبيوس" (P. Attius Varus) من محالفة "يوبا" وأصبح ماسكا بزمام "أوتيكة" و"حضرموت" .

نزل "كوريون" على رأس كتيبتين بشواطىء الوطن القبلي وبعد أن سجّل جيشه بعض الانتصارات استدرجه النوميديون وكادوا أن يُبيدوه عن آخره في الشمال الشرقي من «الجديدة» وأمر "يوبا" بأن يأتي له برأس الرجل الذي أراد الإطاحة بملكه . أمّا الجنود الذين بقُوا في كسترا كورنيليا (Castra cornélia) فإنّ أغلبهم هلكوا عندما أرادوا الالتحاق بصقلّيّة،وأمّا الذين سلّموا أنفسهم فقد أبادهم "يوبا" رغم وعود "فاروس" (سنة 49).

والذي زاد في فداحة هذه الكارثة أنّها وقعت في نفس الوقت الذي انهزم فيه أنصار قيصر في دلماسيا (Dalmatie) وثورة الكتائب في بليزنسا (Plaisance) وأضفى مجلس الشيوخ الموالي "لبومبيوس" في مقدونيا على ملك نوميديا لقبَ صديق الشعب الروماني أمّا مجلس الشيوخ الموالي لقيصر فإنّه قرّر أنّ "بومبيوس" عدوّ ألدّ ومنعت ثورة جنود بيتيك "كاسيوس لونجيوس" (Cassius longinus) من الالتحاق

بموريطانيا لمهاجمة النوميديين من الجهة الغربية وبقي أنصار بومبيوس يسيطرون على افريقية، أمّا قيصر فإنّ مَهَامّ أوْكَدَ كانت تنتظره في مكان آخــر .

وعندما هزم قيصر في فرسال (بيتساليا) جيوش "بومبيوس" (9 أوت سنة 48) انقسم أنصار "بومبيوس" فمنهم من تبع قائده إلى مصر حيث قتل بأمر من مقرّبي الملك، ومنهم من التحق بافريقية مع "شيبيون" وهو زميل قديم لـ "بومبيوس" في القنصلية ورجل جلف محدود المدارك، ومع ضابطين قديمين كانا تابعين لقيصر من "بيسونيوم" ثم تخلّيا عنه عندما هاجم معقل "بومبيوس" وهما "أفرانيوس" الذي عفا عنه قيصر بعد استسلامه في اسبانيا و"لابنوس" أحسن مساعد لغازي بلاد غوليا .

وسرعان ما التحق بهم "قاطون" وهو رواقي متصلّب كان يتصوّر الجمهورية تصوّرا خاطئا أخنى عليه الدّهر وكان تقشّفه ينسجم مع الدّفاع عن "بومبيوس" ممثّل رجال الأعمال ولا يتعارض أيضا مع تدبير الزيجات الرابحة حسب ما ذهب إليه قيصر. فأقنع "قاطون" "فاروس" بأن ينسحب "شيبيون" وأشعر "يوبا" بأنّه شريك له لا سيّده . غير أنّه لم يُبْدِ أيّ اعتراض في فرض الضرائب على الأفارقة لتكوين ميزانية للحرب . فجنّد أنصار "بومبيوس" ما يقارب 000 40 من المُشاة و500 1 من الفُرسان وجمعوهم في ضواحي أوتيكة خاصّة ثم بالقرب من "حضرموت" وكان "يوبا" على رأس جيوش جرّارة وكان كلّ شيء يدلّ على أنّ حملة افريقية تبشّر بالخير حتى أنّ "شيبيون" — وكان لا يترك فرصة تمرّ دون الوقوع في الخطأ — قال : «لم نعرف حملة أحكمَ ولا أكملَ عُدّةً من هذه الحملة».

12 — رأس ديماس Thapsus

وكان قيصر في هذه الأثناء يواصل القيام بمهمّته الشاقّة، فبعد أن أطال المكث مدّة تسعة أشهر في مصر لدى "كليوبطرة" وأخمد بمشقّة نارَ الفتنة المندلعة بين اكتوبر سنة 48 — وجوان سنة 47 وخاض معركة حاسمة لوضع حدّ للاضطرابات في الشرق (2 أوت 47) وقع استدعاؤه إلى رومة ليُهدّيء من حدّة التّوتّر الاجتماعي ومن هيجان الكتائب .

فأقام ردحا من الزمن بها ثمّ قررّ الانتقال إلى افريقية على رأس عشر كتائب أي بما يعادل جيوش "شيبيون" . وكان يعتمد في مقاومته "ليوبا" على مساعدة "بوغود" و"بوخوس الأصغر" ملكي موريطانيا وأعانه إعانة حاسمة من حيث لا يحتسب "ستيوس" (P. Sittius) وهو رئيس عصابة إيطالي رأى من الأسلم له بعد الإفلاس والفضيحة أن يلتجىء إلى موريطانيا حيث خاض الحرب الأهلية مناصرا لقضية قيصر .

وكان قيصر مهيمنا على البحر فشقّه بكلّ حرية مصحوبا بنصف جيوشه ولكنّ العاصفة لم تسمح له إلاّ بإنزال 3 000 من المشاة و 150 من الفرسان قرب "حضرموت" (28 ديسمبر) فلم يتمكّن من محاولة فتح المدينة عنوة بمثل هذا العدد الضئيل من الجنود وآثر الالتحاق بلمطة ثم روسبينا (وهي بلا شك هنشير تنير (لاتبعد كثيرا عن المنستير) ، وعسكر بها. وكان لا مناص من أن تدور رحى المعركة على الأرض وكانت الدّلائل تنبىء بأنّ الصفقة لن تكون في صالح قيصر الذي كان يأتيه المدد بصورة غير منتظمة .

وكان الخصم شديد البأس فقد كان لأنصار "بومبيوس" خيّالة عتيدة يقودها "لابينوس" أحسن ضابط، ولما التقى الجمعان لأوّل مرّة حاصرت خيّالة "بومبيوس" جيش قيصر فلم يفكّ عنه الحصار إلاّ بمناورة جريئة . وعند ذلك زحف شيبيون بكتائبه الثمانية وكان "يوبا" قد تحرّك هو بدوره ولكنّ "بوخوس وستيوس" قاما بهجوم فجائي وفتحا سيرتة فاضطرّ إلى الرّجوع على أعقابه وحاصر أنصار "بومبيوس" قيصر في روسبينا وكانت الميرة تأتيه بمشقّة وأخيرا أسعفه أسطوله بالمدد وأصبح عدد جنده 33 000 رجل ، وعند ذاك فكّر في الهجوم فبادر بالرّحيل وعسكر على حافة نجد يشرف من الشرق على سهول أوزتة (Uzitta) وفرّ على بعد ثمانية كيلو مترات من الجنوب الغربي من رسبينا . وكان "شيبيون" أنزل فيها جيوشه التي عزّزها "يوبا" بثلاث كتائب . وظنّ قيصر أنّه في إمكانه "أن يتوغّل في اتّجاه المقلوبة (Aggar) (ربّما تكون قرب قصور الساف على بعد 10 كلم من الجنوب الغربي من المهدية و 34 كلم من الجنوب الشرقي من معسكر قيصر) ثم حاول الهجوم مرّات عديدة ناوشته فيها خيالة "لابينوس" . وهكذا لم يتمكّن بعد أن مرّت أربعة أشهر على

نزوله من أن يستدرج "شيبيون" ويحمله على الدخول في المعركة وجها لوجه .

فرحل فَجْأة مرة أخرى وعسكر برأس ديماس قرب تابسوس (ليلة 4 أفريل من سنة 47) وكان الموقع خطيرا يزيد في خطورتـه أنّ أنصار "بومبيوس" كان في قدرتهم سدّ البرزخين اللّذين يتّصلان «بالدخلة» غير أنّ "قيصر" كان يؤمّل التخلُّص من هذا الوضع بشنّ معركة نظامية .

وفي 6 أفريل قام بهجومين وهزم أعداءه، فأمّا الهجوم الأوّل فقد وقع تلقائيا ومن دون سابق قصد واستهدف جيش "شيبيون" فأرغمه على الفرار بسرعة . وأمّا الهجوم الثاني فقاده قيصر بنفسه نحو الشمال واستهدف معسكرات "افرانيوس" و"يوبا" في الجنوب واستولى عليها من دون قتال وراح جنوده بالرغم من ممانعته يقتلون أعداءهم قتلا ذريعا فبلغت خسائر أنصار "بومبيوس" 10 000 رجل ولم يخسر أنصار قيصر إلاّ خمسين فقط وفي نفس الوقت تقريبا أباد "ستيوس" الجيش الذي يحمي نوميديا تحت إمرة مساعد "يوبا" .

13 ــ خضوع بلاد البربر ونظامها

اتّجه قيصر بعد انتصاره إلى أوتيكة وكان "قاطون" قد أغمد سيفه في بطنه إبَاءَ أن يستسلم لطاغية كان يمكن أن يعفو عنه مثلما عفا عن ابنه وقد احتاط قبل ذلك في رَبَاطَـة جأش عظيمة فنظّم فرار أصدقائه. وما نصب البرونز الذي عثر عليه حديثا في وليلى إلاّ دليل على أنّ ذكراه لم تُمْحَ حتى من افريقية .

وكان رجال المال وتجّار هذه المدينة ينتظرون أن ينتقم منهم قيصر شرّ انتقام ولكنّه اقتصر على مطالبتهم بدفع غرامة باهضة وأحرق جميع أوراق "شيبيون" المورّطة كما فعل من قبل بأوراق "بومبيوس" أمّا "شيبيون" و"يوبا" فقد انتحرا، ونقل أنصار آخرون "لبومبيوس" الحرب إلى اسبانيا وفتحت جامه أبوابها لقيصر بعد أن أغلقتها في وجه ملكها

القار فأحسن قيصر مكافأتها على ذلك . واستسلمت له جميع المدن إذ وضعت معركة رأس ديماس وانتصار "ستيوس" حدّا لكلّ محاولة للمقاومة.

وغيّر قيصر نظام افريقية تغييرا عميقا فأزال مملكتي "يوبا" و"مسينسا" اللّتين ناصرتا "بومبيوس" وجعل من القسم الشرقي من نوميديا مقاطعة نوميدية جديدة سمّاها افريقية الجديدة التي ضمّت بعد عشرين سنة إلى القديمة التي سمّيت افريقية العتيقة .

وكان يَحُدّ إفريقيا الجديدة من الشرق خندق "شيبيون الايميلي" ومن الغرب الخطّ الذي يمرّ غربي عنّابة (Hippo regius) وغربي قالمة (Calama) وجنوب غربيّها . ويصعب البتّ في ما إذا ألحقت سيرته إليها أو إلى افريقية العتيقة وتيسّر لبوخوس الأصغر أن يوسّع ممتلكاته نحو الشرق ولا شك أنّها وصلت إلى المساقة (الواد الكبير) . وربّما كان هو الذي أقام قرب شرشال الضريح الفخم الأسطواني الشكل (قطره 64 م. وارتفاعه 40 م تقريبا) . وهو نسخة من المدّراسن الذي سمّاه أهل البلاد "ضريح النصرانية" وأنشأ قيصر لفائدة ستيوس دولة فسيحة الأرجاء تفصل بين موريطانيا التي خرجت معزّزة من الحرب وبين إفريقية الجديدة وتشتمل هذه الدولة على القسم الشرقي من مملكة مسينسا والقسم الغربي من مملكة "يوبا" أمّا مستعمرات سيرتة التي استقرّ بها الستيون وهي مدينة سيرتة (قسنطينة) وسكيكدة (Rusicade) والقالة (Chullu) والميله (Milev) فقد ألحقت من دون شك بعد موت الدكتاتور (سنة 44) "بإفرييقة الجديدة" ، ولكنّه بقي لها من استقلالها القديم الحقّ في أن تتّحد في ظلّ نظام إداري خاص .

14 ـ افريقية الرومانية في عهد قيصر

لم تعرف افريقيّة الجديدة المدنية الرومانية من أوّل وهلة بوجهها المشرق . فقد قام الحاكم الروماني الأول وهو المؤرّخ سالوسطس بأعمال فظيعة بشهادة معاصريه أنفسهم وقد تجاوزت فظاعتها ما كان مألوفا . وقد أضيفت الأراضي الملوكية إلى الأملاك العامة (Ager publicus) ويظهر أنّها عادت بالفائدة لنفس الأشخاص .

ويستبعد أن يكون قيصر وجد الوقت الكافي لإنشاء مستعمرات في نوميديا إلاّ أنّه أقرّ في إفريقية العتيقة جماعات من أبناء الشعب المعوزين وقدماء الجند وكان في حسبانه أن يؤسّس مستعمرة في قرطاج (Colonia Julia Carthago) على غرار قراكوس الذي اتّخذه قيصر مثالا له . وقد تمّ ذلك خارج المنطقة الملعونة حسب برنامجه وربّما في نفس السنة التي اغتيل فيها أو عام أو عامين بعد ذلك على أقرب الظنّ . وقد استقرّ معمّرون آخرون سنة 39 وأحيوا عبادة سيرس (Ceres) وأغلب الظنّ أنّ قيصر هو الذي أسّس مستعمرات قربة (Curubus) وقليبية (Clupèa) وهنشير مرايسة (Carpis) وبنزرت (Hippo Diarrhytus) والجم (Thysdrus) وكلّها كانت بالقرب من مدن قديمة .

وكانت افريقية مسرحا للاضطرابات بعد موت قيصر .وتنازع أنصار قيصر والديمقراطيون حكم إفريقة القديمة وإفريقة الجديدة فاستبدّ به أوكتافيوس وأنطونيو وليبيديوس (Lépide) بحسب ما تعاقب من الأزمات أو الاتّفاقات .

وأسندت إدارة إفريقة العتيقة في هذه الأثناء إلى كورنيفيسيوس (Q. Cornificius) وهو جندي ديمقراطي صديق لشيشرون كان مجلس الشيوخ الحريص على تزويد رومة بالقمح يشجعه على الصمود في وجه مطامح أنصار قيصر . أمّا إفريقية الجديدة فقد كانت مقاليدها في يد والٍ سمّاه قيصر يدعى ت. سكستيوس (T. Sextius) وسرعان ما جرّده مجلس الشيوخ من كتائبه فكان لامناص من نشوب الخلاف بين أنصار سياستين متعارضتين. وقد ثارت بالفعل تلك الخصومة غداة تكوين الهيئة الثلاثية من أكتافيوس قريب قيصر ومارك أنطونيو القنصل المنتخب سنة44وليبيديوس والي اسبانيا السيتيرية والنربونيّة الذي لم يمرّ على تعيينه وقت طويل (27 نوفمبر 43) وعندما وزّعت الولايات كانت افريقية من نصيب أكتافيوس وكذلك صقلّية وسردانية . وسرعان ما انضمّ سكستيوس إلى الهيئة الثلاثية فجيّش الجيوش في مقاطعته واحتلّ البلاد التي كانت تحت سلطة كورنيفيسيوس الذي لم يعترف إلاّ بسلطة مجلس الشيوخ . وبعد أن شنّ هجوما جريئا بلغ به إلى حضرموت رجع مدحورا إلى نوميديا . ثم أمكنه بإعانة الجيوش البربرية التي أسعفه بها ابن

مسينسا أربيون أن يقوم بهجوم معاكس عنيف وأن ينتصر على كورنيفيسيوس فقتله وأصبح سيد "إفريقية" الجديدة والقديمة .

وكانت نتيجة توزيع المقاطعات من جديد (سنة 42) أن أسندت إفريقية القديمة إلى انطونيو والجديدة إلى أكتافيوس بينما وُعدتا لليبيديوس وأدت القطيعة بين عضوى الثالوث إلى نشوب الحرب بين واليهما وانتهى الأمر لصالح انطونيو ولكنّه اضطرّ إلى تسليم المقاطعتين إلى ليبيديوس الذي لم يسخّر جيوشه الجرّارة للفتوح واقتصر على تصريف شؤون الحكم طيلة أربع سنوات بدون أن يسجّل أيّ عمل يدعو إلى الفخر (سنتي 40 و 36) وابتداءً من سنة 36 صار أكتافيوس سيّدا أوحد على إفريقية الجديدة والقديمة وممالك ستيوس التي سرعان ما كوّنت مقاطعة واحدة خاضعة لنظام البروقنصلية ومجلس الشيوخ (سنة 27) .

وقد أقرّ سنة 29 معمّرين جُدُدا في قرطاج لا خارج المنطقة الملعونة بل في قلب المكان الذي كانت العاصمة البونيقية مشيّدة فيه قبل ذلك بـ 117 سنة . ذلك أنّه كان يشعر بأنّ له من القوة ما يستطيع معه أن يتحدّى العواطف الدينية التي لم يتجاسر فلاكوس وقراكوس على تجاوزها. وبقي على فيرجيل (Virgile) أن يضفي على الواقعيّة الجريئة التي أظهرها "سيّد العالم المنشّط للنحل العامل تحت أشعّة شمس الصيف" ثوبا من الشاعرية فخْما .

وإذا كان من العسير معرفة ما كانت عليه قرطاج البونيقية فإنّ المستعمرة القيصرية تكشف إلى اليوم عن الخطوط العامّة لهندستها . وقد أمكن لشارل سوماني بفضل دراسة آثار "الخنادق" حسب مبادىء Gromatici Veteres أن يثبت موقع الحارات الموزّعة توزيعا منتظما والمجموعة في أربعة (Centuriae strigatae) وأن يضبط مكان (Decumarns maximus) و(Cardo maximus) وتوصّل المهندس "دافان" حديثا إلى ضبط الاتّجاه العام لعمليّة مسح الأرض وإلى معرفة عرض الأنهج ووضع بعض "الجزر" (insulae) وذلك بالاعتماد على آثار الخنادق التي كانت غالبا مبنيّة

في محور الشوارع وبالاعتماد أيضا على نظام المباني المرتبطة وثيق الارتباط بتخطيط الطرق العامّة .

ولم يقصر "اكتافيوس" جهوده على قرطاج بل بدأ يسلك سياسة التعمير والتمدين ثم توسّع فيها بعد أن دشّن "إمارته" بحمل لقب أغسطس فأسّس بلديات أهلية مستقلّة ومستعمرات في الكاف (Sicca veneria) وهنشير قصبات (Thurbubo maïus) ووذنه (Uthina) من غير شك .

15 – موريطانيا في عهد أوكتافيوس

وبعد مقتل الطاغية استرجع أربيون ابن مسينسا الذي صحب أنصار بومبيوس إلى أسبانيا ملك أبيه على حساب ستيوس الذي تخلّص منه وبوخوس. ولكنّ الوالي الروماني سكستيوس اغتاله لأنّه انتصر بفضل إعانته فكان يخشاه واسترجع بوخوس الثاني ممتلكاته وتمكّن من توسيعها بإضافة ممالك بوغود الذي كان انتصر لانطونيو على أوكتافيوس ومنذ ذلك الوقت امتدّت موريطانيا من البحر الأطلس إلى المساقة (الرمل) .

وعندما مات بوخوس لم يبق خلفا له فحكم أكتافيوس موريطانيا من دون أن يلحقها بممالكه بصورة رسمية ولعلّه فعل ذلك بواسطة واليين واغتنم الفرصة فأسّس في موريطانيا التي كانت تابعة لبوخوس ستّ مستعمرات بالقرب من موان قديمة وهي : جيجلي (Igigili) وبجاية (Saldae) وعزفون أو ميناء قيدون (Port Gueydon) على سواحل بلاد القبائل الكبرى ورأس متيفو قرب عاصمة الجزائر (Rusguniae) وقبّة سيدي ابراهيم قرب غراية على بعد 28 كلم من غربي شرشال (Gunugu) وتنس (Cartennae) وثلاث مستعمرات في داخل البلاد : تيكلات على بعد 92 كلم من الجنوب الغربي من عنابة (Tubusuptu) وحمام ريغة (Aquae Calidae) ومليانة (Zuchabar) وأسّس في مملكة بوغود مستعمرات زوليل (أو زيليس ؟) وهي أرزيلة بين طنجة والاعراش وبابا

كمبستريس (Babba Campestris) (وهي بلدة مجهولة قرب وزان) وسيدي علي بوجنون على واد سبو بين بورليوتي والقصر الكبير (Valentia Banasa)

16 — يوبا الثاني

إنّ تأسيس هذه المستعمرات في مواقع طبيعية أُحسن اختيارها لتكون مراكز إشعاع للنفوذ الروماني كان ينبىء على ما يظهر بإلحاق البلاد بالحكم الروماني . ولكنّ شيئا من ذلك لم يقع . ففي سنة 25 جعل أغسطس موريطانيا التي اتّسعت حدود مملكتها تحت إمرة يوبا الثاني ابن يوبا الأوّل.

إنّ هذا الملك الشاب لنموذج بربري غريب . وقد ربّته في رومة أخت أوكتافيوس في ظلّ أسْرٍ عمّه الرخاء وزوّجه حماته بكيلوبطرة سيلني ابنة كيلوبطرة الكبرى وأنطونيو . وإذا تُصُدّق على ابني عاهلين مخلوعين بمملكة فلأنّ في تربيتهما وتأثير رومة ضمانا لإخلاصهما للرابطة التي تربطهما برومة . وبهذا الثمن سمح أغسطس لنفسه بإرجاع الملك لأصحابه من دون أن يخشى شيئا .

ولم ينشط العاهل الجديد نشاط آبائه . ولمّا لم تترك له الحماية الرومانية إلاّ المظاهر فقد تسلّى بالاعتناء بالمجموعات الفنّيّة والأدب الرخيص .

لقد بني عاصمة في شرشال (Iol) وسمّاها قيصارية (Caesaria) لإرضاء سيّد العالم وكان يأمر رعاياه بأن يقدّسوا قيصر بصورة رسمية ثم جمّل عاصمته بإقامة مبانٍ ذات نمط كلاسيكي ويمكن لمن تأمّل بعض آثارها اليوم أن يتصور مجموعة ضخمة من البنايات بما فيها المعبد والقصر والمسرح . وكان يوزّع في كلّ مكان عددا من التماثيل ممّا هو الآن ثروة متحف عاصمة الجزائر وخاصّة متحف شرشال . فتجد صورة ضخْمة "لابولون" وهي ربّما تكون نسخة من عمل قام به "فيدياس" (Phidias) في شبابه ونجد الاهتين لابستين الفستان الدوريسي وصورة لإلاهة أتينا من المدرسة نفسها ونصبا "لدينيزوس" من مدرسة براكسيتال ونصبا آخر لافروديت نسخة من أصل وجد في القرن

الثالث أو الثاني وكذلك صورة "لاغسطس" وهو لابس درعه وقد أصبح اليوم بلا رأس . ولا شكّ أنّه يجب أن ينسب إلى "يوبا" مجموعة البرونز الموجودة في متحف وليلى إذا كانت هذه المدينة كما ظنّ "كاركوبينو" عاصمة ثانية "ليوبا الثاني" .

وكان هذا الملك يحسن اليونانية واللاتينية والبونيقية وكان في تآليفه آخذا من كلّ شيء بطرف فلم يبق علم واحد غريبا عنه، وكان في إمكانه أن يكتب في كلّ موضوع بفضل مكتبته الثرية ونُسّاخه الذين لا يعرفون التعب غير أنّ تآليفه لم تبق بعده ولعلّه من المؤسف أن يكون كتاب "لبكا" Libyca قد ضاع إذربّما وجدنافي كتاباته عرضا لبعض المعلومات عن التقاليد المحلّية .

ولقد أثارت قبائل جدالة العراقيل في طريق هذا العاهل الذي لم يحجب لقب الملوكيّة المُضْفَى عليه تبعيته الحقيقية وقال "ديون كاسيوس" : «كانت حنقة على "يوبا" متمرّدة على رومة فثارت على الملك وعاثت فسادا في الأرض المجاورة وقتلت عددا كبيرا من الرومان ممّن قد حاربوها قبل ذلك (نقل ستيفان قزال) ومن الطبيعي أن كان القائد الذي كلّف بالتهدئة رومانيا وأن كانت هذه التهدئة من العنف بحيث استحق شرف الدخول في موكب الظفر بعاصمة رومة ولقب "قيتوليكوس" على حدّ تعبير "ديون" . ونال "يوبا" الملك البربري نفس الشرف لأنّه ساهم في انهزام البربر .

وسعيا في تلافي هذه الأخطاء اتّخذ أغسطس عدّة تدابير إدارية وعسكرية — غير أنّها لم تمنع شقاًّ من الموريين من الانضمام إلى ثورة النوميدي "تكفاريناس Tacfarinas "(سنة 17 بعد المسيح) . وفي هذه المرة أيضا أعان ملك موريطانيا رومة على قمع رعاياه "المتمرّدين" .

17 — بطليموس

توفي "يوبا الثاني" في أواخر سنة 23 وسنة 24 بعد المسيح وخلفه ابنه بطليموس فاقتصر طيلة أيامه ملكه السبعة عشر على التباهي ببذخه مُوكلا

السلطة إلى المُعْتَقِين من عبيده و ذلك ممَّا دفع — حسب تاسيت — عددا كبيرا من الموريين إلى مناصرة قضية "تاكفارناس" الذى لم تقدر عليه كتائب رومة حينذاك . وساهم "بطليموس" في مقاومة المتمرّدين وكان دائما مخلصا في وفائه إلى الامبراطورية وجوزي على ذلك أكرمجزاء فقد أوعز الامبراطور "قاليقولا" باغتياله في ليون ثم استولى على أمواله ومملكته (سنة 40) وكانت هذه السنة نقطة انطلاق بالنسبة للعهد الموريطاني .

وقد تسبّبت هذه الجريمة في حدوث فتنة في موريطانيا امتدّت إلى الأطلس تحت قيادة معتَق من معتقي "بطليموس" وهو «آدمون» واضطرّ الامبراطور "كلوديوس" حالما خلف "قاليقولا" إلى إرسال قوّاد كثيرين يظهر أنّ مهمّتهم كانت شاقّة لأنّ العمليات الحربية دامت عامين بعد موت الملك .

واقتفى القائد الروماني الجديد "بولينوس" آثار الموريين حتى جبال الأطلس حيث وصل بعد عشرة أيام من السير ثم شقّها إلى أن وصل واد جار (ربّما يكون واد قير) ولاقت الجيوش الأمرّين من جرّاء العطش والحرّ والشتاء على أشدّه . ولم تَستَهْوِ البلاد الرومان لرملها الأسود وصخورها التي تبدو محترقة . ويظهر جليّا من حملة "بولينوس" وحملة خلفه "جاتا" أنّ الرومان سرعان ما أدركوا مدى الخطر الكامن في رجل الصحراء.

وكان "قاليقولا" قد عدل عن إخفاء الهيمنة الرومانية تحت ستار الحماية فألحق بمملكته موريطانيا التي قسمها "كلوديوس" إلى مقاطعتين امبراطوريتين : موريطانيا الطنجية وموريطانيا القيصرية (سنة 42) وكانتا قبل ذلك بيدي "بوغود" و"بوخوس" .

وبذلك بسطت رومة نفوذها على بلاد البربر كلّها وسوف يبقى الأمر كذلك طيلة 4 قرون كاملة إلى زحفة الوندال (من سنة 42 إلى سنة 429) .

الباب السادس

أفريقية الرومانية من عهد أغسطس إلى غرديانوس الثالث: احتلالها وتنظيمها

1 - الاحتلال. 2 - جيش أفريقية. 3 - تنظيم المقاطعات والبلديات. 4 - النمو الاقتصادي والاستعمار



I ـ الاحتـــلال

1 ـ تمرّد المزالمة وجدالة في حكم اغسطس

تواصلت الهيمنة الرومانية على افريقية إلى سنة 238 من دون أن تهدّدها أخطار كبيرة ولكن كلّما حاول الرومان قطع مرحلة جديدة في بسط نفوذهم اصطدموا بثورات أهليّة بالغة الخطورة أحيانا فاضطرّوا إلى شنّ حملاتهم بلا انقطاع للقيام بما سُمِّيَ مجازا في عرف الاستعمار "تهدئة البلاد" . وفي عهد أغسطس تجاوز تمرّد جدالة على يوبا حدود موريطانيا الجنوبية . واضطرّوا إلى مقاومة قبيلة "المزالمة" الكبيرة المستقرّة بالجزائر وتونس جنوبي مجردة وبالخصوص على ضفاف واد ملاق أو واد تاسة (مطول muthul) كما قاوموا جدالة « جوار سيرتا الصغرى والكبرى » الذين كانوا مستقرّين على طول السباسب جنوب البلاد التونسية . ولا يمكننا لقلّة المعلومات ضبط خصائص هذه الحركة التمرّدية . إلاّ أنّ انتشارها والصعوبات التي لاقاها القائد كوسوس كرنليوس لنتولوس (Cossus Cornélius Lentulus) للقضاء عليها تحملنا على الاعتقاد بأنّ غَلَيَانَ القبائل الجنوبية وهجوماتها على التراب الروماني لم تنقطع طيلة أكثر من ثلاثين سنة . ولم يذكر المؤرّخون أيّة ثورة في السنوات الثمانية الأخيرة من إمارة اغسطس إلاّ أنّ الظروف أرغمت الامبراطور على التخلّي بعض مشيء عن خطّته السياسية التي رسمها سنة 27 قبل المسيح والمقتصرة على مجرّد الدّفاع .

2 — تكفاريناس

إنّ ما نعرفه عن ثورة البربري تكفاريناس (Tacfarinas) الذي قهر في عهد تيبريوس (Tibère) الجيوش الرومانية مدّة سبع سنوات مُسْتَمَدّ من بعض أسطر كتبها تاسيت (Tacite) . فقد جاء في الحَوْليات ج 2 ص 52 ما يلي : "اندلعت الحرب في افريقية في نفس هذه السنة (17) وكان على رأس الثوار قائد نوميدي يسمّى تكفاريناس كان انتظم بصفة مساعد في الجيوش الرومانية ثم فرّ منها . وفي أوّل أمره جمع حوله بعض العصابات من قطّاع الطريق والمشرّدين وقادهم إلى النهب . ثم جعل منهم مُشاة ففرسانا نظاميين وسرعان ما تحوّل من رأس عصابة لصوص إلى قائد حربي للمزالمة وكانوا قوما شُجْعَانًا يجوبون الفلوات المُتَاخِمَة لافريقية .

وحمل المزالمة السلاح وجرّوا معهم الموريين جيرانهم الذين كان يقودهم "مازيبا" . واقتسم القائدان الجيش فاستَبْقَى تكفاريناس خيرَةَ الجند أي جميع من كانوا مسلّحين على غِرار الرومان ليدرّبهم على النّظام ويُعوّدهم الامتثال . أمّا "مازيبا" "فكان عليه أن يُعمل السيف ويُشعل النار ويَنْشُر الذّعر بواسطة العِصابات" .

وكان شأن تكفاريناس شأن الكثير ممّن تزعّمُوا الثورات من يوغرطة إلى عبد القادر . فقد حذق فنّ الحرب وغذّى حقده على الأجنبي وهو يعمل في صفوف المُغيرين . وكان في أوّل أمره رئيس عصابة أي أنّه وجد نفسه ولا شكّ أمام ثورات تلقائية تتجلّى في عمليات سطو . ثم كان عليه فيما بعد أن يحمل أتباعه على الانقياد والنظام وأن يجعل من خليط القبائل الفوضوية جيشا نظاميا . ولئن نجح في سعيه كما أكّد ذلك " تاسيت " (Tacite) فمعناه أنّه لم يكن مجرّد مغامر بل قائدا من طِراز ممتاز .

وامتدّت الحركة التمرّدية إلى موريطانيا غربا وسيرتا الصغرى شرقا . وكانت ثورة عامة شنّتها قبائل الجنوب وشبّت نيرانُها في الأراضي التي

كانت تحتلّها رومة . وبعد معركة نظامية هزم البروقنصل (M. Furius Caurillus) تكفاريناس وكان على رأس كتيبة أغسطس الثالثة وعدد من الاحتياطيين . فخوّل من أجل ذلك شرف الانتصار (سنة 17) إلاّ أنّ الثورة البربرية لا تفتر إثر المعركة الأولى فحالما شعر النوميديون بأنّهم غُلِبُوا على أمرهم تفرّقوا حسب خطّتهم الأبديّة ليجمعوا شَتَاتَهُمْ في الصحراء . ومنها وجّه تكفاريناس هجومات فُجَائيَّة على القرى والأرياف المُتَاخِمة بل إنّه نجح في تشتيت سَرِيَّة رومانية واغتصاب قلعة (سنة 20).

واضطرّ البروقنصل أبرونيوس (L. Apronius) إلى الهجوم بفضل النجدات الآتية من بَنُّونِيَا لتخليص مركز محاصر . ولم يكن النوميديون بارعين في فنّ محاصرة المدن . فكان من سداد رأي تكفاريناس أن عدل عن ذلك واكتفى من جديد بالهجومات الخاطفة . فعجز الرومان عن إلقاء القبض على عدوّهم الذي كان يوجّه ضرباته في أماكن غير مُنتظَرة ويختفي بغنائمه قبل أن يتمكّنوا من ردّ الفعل . إلاّ أنّ ابن البروقنصل (L. Apronius Caesanius) باغته مرّة وأرغمه على الالتجاء إلى الصحراء . وكان هذا الانتصار وقتيا فلم يمنع النوميدي من الظهور ثانية وتوجيهه رسلا إلى تيبيريوس لمطالبته بتسليمه هو وجيشه الأراضي عن طيب خاطر وتهديده إذا هو امتنع "بشنّ حرب لا هوادة فيها" .

واعتبر تاسيت هذا الإنذار جُرأة نادرة . غير أنّه إن دلّ على شيء فعلى حاجة النوميديين الحيوية إلى التزوّد من السهول الخصبة التي كان الاحتلال الروماني حائلا دونها . ورفض تيبيريوس المفاوضة . يقول "تاسيت" : "يروى أنّ تيبيريوس ما تأثّر قطّ بسبّة موجّهة إلى الامبراطور والشعب الروماني تأثّره من هارب قاطع طريق انتصب قوة معادية" . وما كان له أن يرضى "بأن تتخلّص الامبراطورية وهي في أوج سلطانها من لصوصية تكفاريناس بالتصالح والتنازل عن الأراضي" .

وقام بروقنصل جديد يسمّى ق. يونيوس بليزوس (junius Blaesus) بعمل مزدوج للقضاء على النوميديين . فأحدث شقاقا بينهم بفضل مهارته في قطع الوعود وكذلك بالتنازل عن بعض الأراضي من غير

شك ثم دبّر خطّته وفقا للضرورات الافريقية على غرار ما فعل فيما بعد "بيجو" في محاربته لعبد القادر . فجهّز فرقا سريعة التنقّل لمناوشة العدوّ . وعَسْكَرَ بجيوشه في مراكز مُحَصّنَة على طُول الحدود وتمكّن بذلك من مواصلة هجومه حتى عند اشتداد برد الشتاء إلاّ أنّه لم يُوفّق إلى إلقاء القبض على تكفاريناس كما كان أمره بذلك الامبراطور ويقال : إنّه لم يمنح شرف النصر إلاّ لأنّه كان عمّ قائد الحرس البريطوري القدير المسمّى سيجان (Sejan)

ورجعت الحالة إلى ما كانت عليه من خطورة بعد رحيل بليزوس (Blaesus) . ولمّا ولي بطليموس الأمر في موريطانيا ثار الموريون من جديد وجمع تكفاريناس أنصارا جُدُدا . وكان يعلم أنّ كتيبة وقع سحبُها من الجيوش الرومانية فعمّت الثورة البلاد من موريطانيا إلى سيرتا الكبرى . وتبنّى البروقنصل "دولابلا" (P. Cornelius Dolabella) خطّة بليزوس وانتهى به الأمر إلى الظفر بتكفاريناس بالقرب من "قصر متداع يسمّى "أوزية" كان أحرقه النوميديون يقع وسط غابات كثيفة وكان تكفاريناس وصحبه يعتقدون أنّهم في مأمَن من كلّ خطر" وأكّد بعض المؤرّخين دون استناد إلى حجج قاطعة أنّ هذا الحصن كان موقعه في سور الغزلان وإن كان الأرجح أن يكون أقرب من حيث الموقع إلى الشرق . فذبح الجنود الرومان «في سورة نقمتهم وبطشهم» ما طاب لهم أن يذبحوا من النوميديين . وقد بُوغتوا ولم يكونوا على استعداد للمقاومة فرمى تكفاريناس بنفسه مُواجِها العدوّ وتخلّص من أسره بميتة دفع أعداؤه ثمنها باهضا . وانتهت الحربُ بقتل القائد .

3 ـ الزحف نحو الجنوب في عهد تيبيريوس

اتّسعت رقعة الاحتلال الروماني عند انتهاء الحرب. وتشهد صُوًى اكتشفت جنوب تونس بالقرب من شطّ الفجاج وضعها جنود مكلّفون بمسح الأراضي بأنّه وقع التوسّع في عمليّة تقسيم الأراضي الجديدة فأصبح لها خطوط رئيسية (Decumanius maximus et Cardo maximus) تتركب من خطّ يمتدّ عرضا من الشمال الغربي ابتداء من مكان يقع بين سكيكدة وعنّابة

لينتهي في الجنوب الشرقي قرب قابس ، ومن خطّ ينزل طولا من الوطن القبلي ويكون مع الخطّ الأول زاوية قائمة في حيدرة (على بعد 32 كلم من الشمال الشرقي من تبسّة) .

وفي هذا المسح الجديد للأراضي الذي كان يتوسّع بحسب تقدّم الجيوش الرومانية دليل على أنّ الرومان عدلوا شيئا فشيئا عن الخطّة الدفاعية وقرّروا ضمّ الجهات المجاورة للشّطوط التونسية . وهكذا فإنّ افريقية التي كانت شملت في عهد أغسطس بلاد سيرتا الصغرى والكبرى المقتطعة من بلاد القريني استحوذت على جانب من أراضي الجنوب في عصر تيبيريوس .

ولم يذكر المؤرّخون القُدامى عند الحديث عن افريقية في عهد تيبريوس (Tibère) وقاليقولا (Calligula) إلاّ ثورة واحدة اندلعت في موريطانيا بعد مقتل بطليموس . ولكنّهم يؤكّدون ، وحقّ لهم ذلك ، أهميّة القرار الذي اتّخذه قاليقولا عندما نزع قيادة الجيوش من البروقنصل وأسندها إلى المساعد الذي كان يقود جيوش نوميديا سنة 37 . وفي إمارة كلوديوس (41 و 54) امتدّت ثورة المورييين إلى جنوب نوميديا فتجرّع البروقنصل قالبه (Ser. Sulpicius Galba) الأمرّين في سبيل إخمادها وقد أسندت إليه هذه المهمّة بصورة استثنائية وهو الذي أصبح فيما بعد امبراطورا .

4 – الاضطرابات في عهد الفلافيين والانطونيين والسيفريين

وفي أثناء الاضطرابات التي تبعت موت نيرون (78) حمل كلوديوس ماسر (L. Clodius Macer) المساعد الذي كان على رأس الكتيبة كلاًّ من لوسيوس ألبينوس (Lucceius Albinus) وكيل الامبراطور (Procurateur) والبروقنصل كالبرنيوس بيزو (L. Calpurnius Piso) لواءَ الثورة الواحد بعد الآخر . وشتّت (Valerius Festus) فاليريوس فستوس قائد نوميديا المساعد الذي أوعز بقتل البروقنصل بيزو غرامانت فزان الذين استجابوا إلى دعوة سكّان (Œa) طرابلس وحاصروا مدينة لبدة واكتشف طريقا جديدة تربط بين طرابلس ومرزوق عَبْرَ صحاري

الحمادة الحمراء الخالية وبفضلها يمكن اقتصاد عشرة أيّام بالنسبة للطريق المألوفة المارّة بالسكني وجبل الاعتر إلاّ أنّها أشقّ لقلّة عيون الماء فيها .

ولم يجد الامبراطور الأوّل للأسرة الفلافية فسبازيان (Vespasien) (79 — 69) صعوبات كبيرة على ما يظهر. أمّا دوميتيانوس (81 — 96) فقد اضطرّ إلى مواجهة ثورات عديدة وخاصّة في موريطانيا وعلى ساحل سيرتا الكبرى حيث انتقم النازمون (Nasamons) ممّا كانوا يقاسونه من صُنوف الاغتصاب فقتلوا جامعي الضرائب (85 — 86) . ولربّما وجه بالاتّفاق مع ملك الغرامانت بحملة بلغت السودان. وقضى الامبراطور تراجانوس (98 — 117) وهو أوّل من تولّى الحكم من أسرة الانطونيين بعد نيابة نارفا (Nerva) المحدودة في الزمن حياته مقاوما "الداس" و"البارثيين" دون أن يضطرّ إلى التدخّل في افريقية بالرغم من احتمال حصول بعض الاضطرابات بموريطانيا الطنجية.

وتداخل هادريانوس (117 — 138) وخلفاؤه في الغرب خاصة. ونشبت ثورة عند تولّيه الحكم في موريطانيا (118) وتواصلت طيلة سنوات كثيرة رغم نشاط القوى المحلّية وتدخّل الأمير بنفسه . وبلغت من الشدّة في عهد انطونان الورع (138 — 161) ما جعل القوم يطلبون النجدة من سوريا واسبانيا وبنونيا لتخليص المنطقة الشمالية حتى الأطلس (144 إلى 152) وبلغت الثورة منطقة أوراس حيث دخلت الجيوش الرومانية لأوّل مرّة على ما يظهر وبلغت أيضا (Les mauritanies) موريطانيا الشرقية والغربية .

ونشبت الثورة من جديد في عهد مرقس أوريليوس (Marc-Aurèle) (161 — 180) وعهد كومودبوس (180 — 192) وزاد في خطورتها تسرّبات الموريين إلى بلاد البيتيس وكان على كومودبوس أن يقوم أيضا بنشاط كبير جنوب الاوراس ولاقى سيبتيموس سواريوس (193 — 211 (Septime Sévère) وسواريوس الاسكندر (222 — 235) بدورهما صعوبات لمواجهة الحالة في هذه المنطقة التي لا تلين قناتها . واضطرّ الامبراطور حسب العبارة نفسها التي وردت في "حياة سواريوس (vita severi) إلى صدّ "الشعوب السبّاقة إلى الحرب" التي تهدّد الحدود وخاصّة موريطانيا على ما يظهر .

5 ـ أسرة الغرديين الأباطـرة الافريقيين

كسب ماكسمان (Maximin) (235 ــ 238) وهو الامبراطور الذي بايعه جيش الرين بعد مقتل سواريوس الإسكندر ثقة الجنود بأن أغدق عليهم أموالا طائلة كان يجمعها بفضل نظام جبائي مرهق . وتمرّد البرابرة وكانوا مفطورين على قلّة الولاء ومناهضين لتبذير الامبراطور في الميدان العسكري ممّا ساهم في خلع ماكسمان بعد أشهرٍ قليلة .

وأسفرت الاضطرابات الأولى التي شارك فيها سكّان المدن وسكّان الأرياف عن قتل وكيل الامبراطور في مدينة لجم (Thysdrus) وكان قد أرهق البلاد بتصرّفاته المشطّة . ولم يعد الأمر مجرّد حادث من حوادث الحدود ، وإنّما هو تمرّد المدنيين على طغيان الجند المشاغب . واختار المتمرّدون امبراطورا عليهم البرو قنصل الشيخ أنطونيوس غرديانوس (غرديانوس الأوّل) الذي أشرك ابنه في الحكم وكان يحمل نفس اللّقب (غرديانوس الثاني) .

وقد صادف الإعلان عن تسمية هذا النبيل العريق النسب رضا مجلس الشيوخ والشعب الروماني وكانا يضمران نفس الحقد على الجند ولكنّه أثار خفيظة الجيش . لذلك لم تتردّد أرستقراطية الشيوخ في الاعتراف بامبراطور سكّان المدن التابعة للبروقنصلية بينما أسرعت جيوش نوميديا تحت إمرة القائد المساعد كبالينيوس (Capallionus) بالزحف على غرديانيوس وابنه . ولم يجد جند الكتائب مشقّة في الانتصار على جيوش غرديانوس المرتجلة . وبعد مضي ثلاثة أسابيع من الحكم هلك الابن محاربا وأبى والده البقاء حيّا بعد الهزيمة (ماي 238) . وأظهر الجند المشاغب بأسه بنهب المدن والمعابد وبالإمعان في تقتيل المدنيين وفي رومة بايع الحكّام حفيد الشيخ غرديانوس امبراطورا أثناء الحوادث التي كانت الامبراطورية مسرحا لها . غير أنّ غرديانوس الثالث هلك قبل مضي ستّ سنوات .

وكان تولّي أسرة غرديانوس فاتحة عهد من القلاقل دام إلى مجيء الوندال ومعنى ذلك أنّ القرنين الأوّلين من الاحتلال الروماني (40 ــ 244)

هما اللّذان يمثّلان أكثر الأطوار التي مرّت بافريقية ازدهارا حيث توطّدت أركان الاستعمار بكلّ حرية في نطـــاق الأنظمة الامبراطورية .

6 — الليمس Le limes

كان الباحثون يميلون حتى السنوات الأخيرة إلى اعتبار "الليمس" خطّا محصّنا كان القوم يتقدّمون به كلّما امتدّ النفوذ الروماني . وقد بيّنت أعمال براديز (Cl. G. Baradez) المعتمدة على فحص مدقّق شامل للصور الجوية أنّ الأمر أكثر تعقيدا من ذلك . وإذا أرجعنا الليمس إلى معطياته الأصلية وجدناه يتركّب من عناصر رئيسيّة ثلاثة — أولا : الخندق (fossatum) تتخلّله أسوار وأبراج وحصون ومراكز محصّنة مبنيّة بالحجارة أو بالطوب بحسب الجهات . ثانيا : أجهزة محصّنة منفردة تقع أمام الخندق ووراءه . ثالثا : شبكة من الطرقات مسطّرة بالاعتماد على الضرورات الستراتيجية . ومعنى ذلك أنّ الليمس ليس مجرّد خطّ دفاعي فقط إنّما هو جهاز معقّد . وعلى أساس هذه النظرية التي أصبحت مسلّما بها فإنّ تحصين منطقة ما،كان بصفة عامة خلقا متواصلا ولو أنّ المخطّط العام وضع مسبّقا . والحفريات المتعدّدة هي وحدها التي تسمح بضبط صيغ إقامة هذا الجهاز المحصّن أو ذاك . لكن يظهر أنّه لم يعد من الممكن التسليم بأنّ ضبط تاريخ جهاز دفاعي ليس من شأنه أن يسمح بالتعرّف إلى أيّ هيكل ينتسب . وإذن فإنّ معظم الآراء المسلّم بها سابقا أصبحت موضع شك . ومن جهة أخرى فإنّه يجب ملاحظة أنّ "ليمس" نوميديا وامتداداته القريبة هي وحدها التي وقع درسها دراسة متفاوتة ولذلك فلا نزال نجهل هل أنّ جميع أجزاء "ليمس" افريقية على نفس التعقيد . والجواب بالنفي على ما يظهر .

فالليمس كما رأينا هو فعلا الحدّ الأقصى للجهاز الستراتيجي يُحكم وضعه ثم يُشرع في عمليّة الاستعمار . وتشهد كتابة منقوشة عثر عليها في قلالية (جنوب شطّ الهدنة) أنّ عمليات توزيع الأراضي تبعت الاحتلال العسكري . ويبدو في آخر الأمر أنّ رومة كانت تريد ضمّ افريقية " الصالحة" وأنّ الجهاز الدفاعي كان نهائيا أو وقتيا بحسب بلوغ الهدف أو عدمه

وعندما بلغ الاحتلال الروماني منتهاه في أواسط القرن الثالث طابقت الحدود المرغوب فيها الحدود الحقيقية بالنسبة لليبيا وتونس والجزائر الشرقية . أمّا في غرب الجزائر فيبدو أنّ الليمس لم يكن سوى "منطقة محروسة". وقال : (ل. ليشي L. Leschi) "وضعت الحواجز بصورة لا تتعطّل معها التنقّلات الدّورية" . أمّا في المغرب فإنّ الضرورة الستراتيجية في ذلك الوقت هي التي فرضت خطّ الحدود التي لم تعتمد على قواعد جغرافية ظاهرة .

7 ـ الحدود في القرن الأول والليمس

اقتصر الرومان في القرن الأوّل على احتلال المواني وحاشية ساحلية ضيّقة في ليبيا الحالية . ففي غربي قابس يقف الاحتلال عند شطّ الفجاج ، ثم تمرّ الحدود متّجهة نحو الشمال بقفصة (Capsa) وفريانة (Thelepte) وتبسة (Theveste) وتدور حول جبل أوراس شمالاً ، وتتّجه بالنسبة للشمال الغربي إلى سهول سطيف ومجانة . وربّما بلغت سور الغزلان (auzia - aumale) ثم تنزل غربا حتى تلتحق ببرواغية (Berroughia) , وتساير وادي شلف عبر دي بري (oppidum novum) ومدينة الأصنام (Castellum - Tingitanum) ، وتجتاز الميناء بالقرب من ريليزان (Relizane) والهبرة ببريقو (Castra - nova) والصيغ في سان دني (Tassaccora) ، ثم بعد ذلك تقترب من الساحل فتشقّ نهر الملوية في مكان قريب جدّا من مصبّه ، وتصل إلى البحر في المليلة (Rusadohi) وتبدأ المنطقة الخاضعة للرومان من جديد في طنجة (Tinji) وراء الريف الذي لم يخضع للنفوذ الامبراطوري وتمتدّ حتى سلا (Sala) .

وهكذا فإنّ افريقية الرومانية كانت منحصرة شرقا في منطقة المواني الليبية الضيّقة ، ثم اتّسعت أبعادها في البلاد التونسية ثم ضاقت غربا حتى المليلة لتظهر من جديد بعد انقطاع وراء مضيق جبل طارق في حاشية الساحل الأطلسي . وقد بقِي قسم من التلّ الجزائري ومعظم البلاد الليبية والمغرب الأقصى خارجة عنها .

وقد شرع في رسم الحدود منذ أوائل عهد تيبريوس . وقد بادر القوم ببناء الطريق المحصّنة الرابطة بين قابس (Tacapae) وحيدرة (Ammaedara) حيث عسكرت الكتيبة الثالثة أوغسطة . وكانت هذه الطريق تشقّ الأراضي التي ينتجع فيها المزالمة . ولا شكّ أنّ ذلك كان سببا من أسباب ثوراتهم ثم شرع في بناء طريق أخرى تنطلق من قابس متّجهة نحو لبدة . وقد نقل مُعَسْكَرُ الكتيبة إلى تبسّة في عهد فسبازيان (Vespasien) وربطت طريق ستراتيجية هذه المدينة بعنابة (Hippo Régius) . ورغم أنّ مراكز منفردة كانت تحمي في أغلب الظنّ هذه الشبكة من الطرقات من الهجومات الواردة من الجنوب فإنّ ليمس القرن الأول لم يُحْكَمْ تنظيمه في الواقع إحكاما عميقا ، وربّما حفر جبل تباغة (Tepaga) ابتداء من ذلك الوقت وليس ذلك إلاّ مجرّد افتراض.

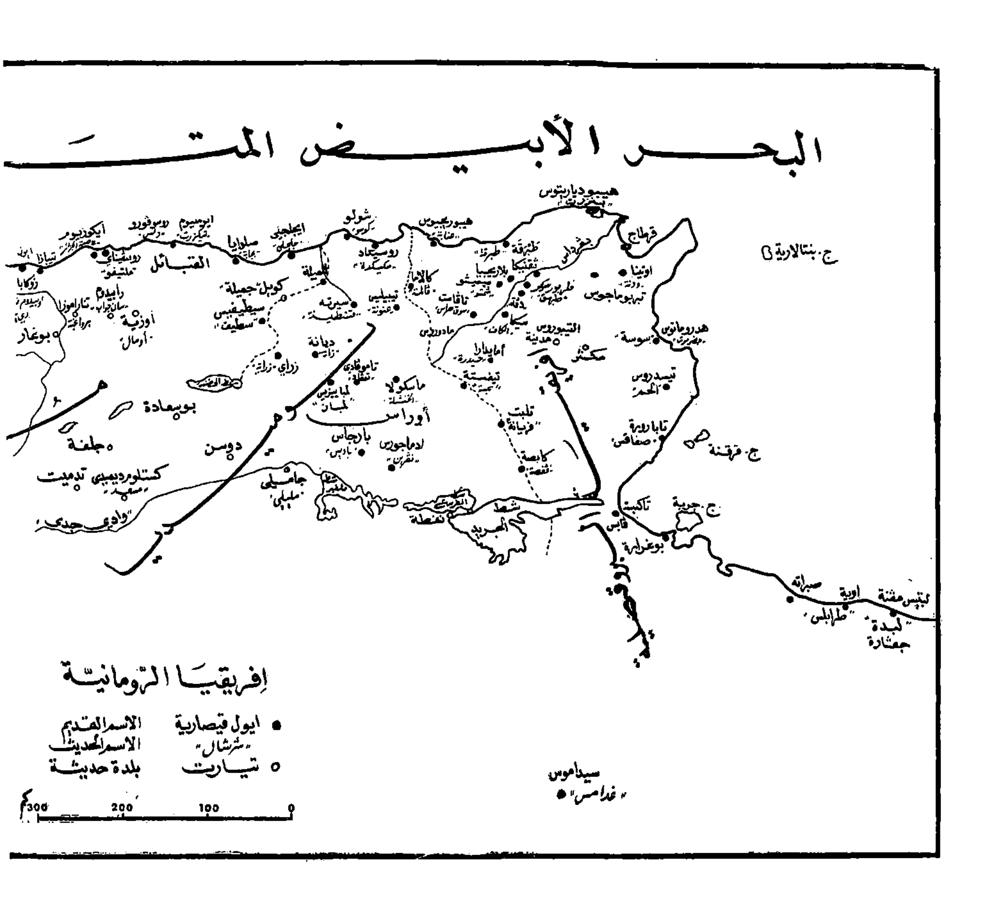
8 – امتداد افريقية الرومانية وليمس القرن الثالث

تواصل توسّع الرومان في افريقية إلى وسط القرن الثالث . فنقل معسكر الكتيبة في عهد تراجانوس (؟) من تبسّة إلى لَمْبَازْ (Lambaesis) الكائنة على بعد 170 كلم من غربي تبسّة . ويدلّ ذلك بطبيعة الحال على حرص شديد في مراقبة قبائل الأوراس غير المنقادة كما يدلّ عليه تأسيس قلعة ادماجورس (هنشير بسرياني) سنة 105 . ومن يومئذ أصبح جبل أوراس مُحاطا بشبكة ستراتيجية اكتملت بتحصينات أقلّ أهمّيّة .

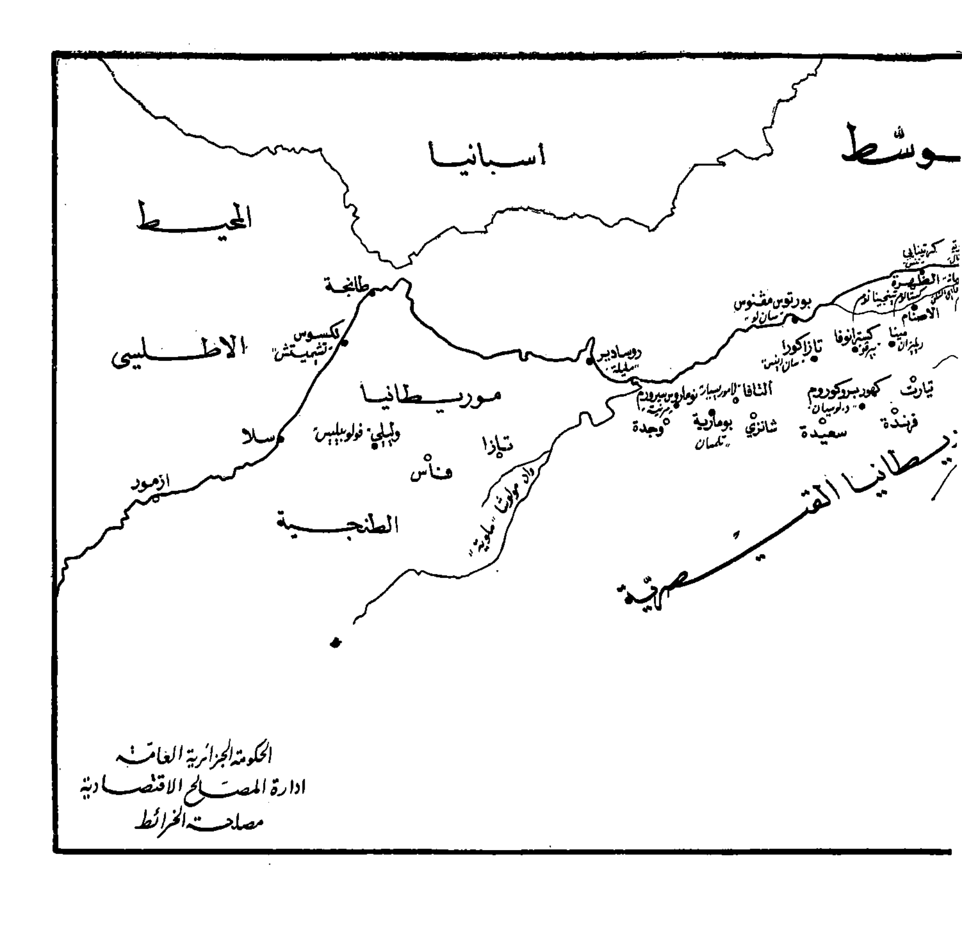
ويظهر أنّ حكم هادريانوس وخليفتيه وافق فترة توطّد فيها الحضور الروماني ، خاصّة وأنّ الثورات البربرية كانت تتعاقب الواحدة بعد الأخرى. وعند إنشاء معسكر جمالة (Gemallae) سنة 126 بلغ الليمس جنوب واد جدي بينما أظهر بناء معسكر رابدوم (Rapidum) (سور جواب) عزم الرومان على مراقبة التخوم المورية مراقبة فعّالة . وأخيرا فإنّه ليس

من المستحيل أن يرجع تاريخ أجزاء كثيرة من الخندق إلى هذه الفترة . لكنّها مجرّد فرضية إذ يمكن كذلك نسبتها إلى عهد غرديانوس الثالث أو حكم الأربعة (Tètrarchie) .

وقد استأنف الرومان زحفهم في عهد كومديوس وخاصّة السفيريين وواصلوه في عهد الغرديانيين . وقد شرع في بناء الليمس الذي يحمي جهة سيرتا الصغرى والكبرى منذ تولّي كومديوس الحكم واستكمل أجزاءه الرئيسية في عهد سبتيموس سواريوس (Septime sévère) ويظهر أنّ هدف الرومان في نوميديا كان احتلال المناطق الموجودة بين شطّ الهدنة شمالا وواد جدي جنوبا إلاّ أنّهم لم يبلغوا نهاية أربهم . وكان الليمس الرابط بين دوسن وسدوري الذي وقع تحصينُه في عهد غرديانوس الثالث على أقصى تقدير وربّما قبل هذا التاريخ ثم الطريق الواصلة بين سدوري والقهرة هي الحدود التقريبية التي كانت تتواصل بعد ذلك نحو بوسعادة في الشمال الغربي . وفي موريطانيا القيصرية بنيت الطريق الفاصلة حوالي سنة 201 (أ. البرتني) ويظهر أنّ الجيوش الرومانية ضاعفت العمليات الاستطلاعية . وأبقى لنا نقش القنب (على بعد خمسين كلم من الجنوب الشرقي من شطّ الشرقي) ذكرى السرية التي قامت بعمليات على بعد 400 كلم من قواعدها (سنة 174) . وقد وقع احتلال مراكز تتفاوت في البعد منها بونجم وسي عون وغدامس (Cydamus) في ليبيا وكانت تراقب المفاوز وأشهرها اليوم مركز مسعد (Castellum Dimmidi) (على بعد 80 كلم من جلفة) كشفه بيكار (G. Ch. Picard) وقد وقع احتلاله من 198 إلى 238 تقريبا .



وإذن فإنّ الحدود كانت تنطلق في أواسط القرن الثالث من معابد الفيلان (Autels des Phillenes) في أقصى بلاد القريني وتحاذي في أوّل الأمر السواحل ثم تبتعد عنها ابتداء من لبدة (Leptis Magna) لتستند إلى المرتفعات الوعرة التي توازي في الجنوب السهول الساحلية جنوبا وهي بذلك تشمل منطقة لا يتجاوز أقصى عرضها 170 كلم . ثم تجاذب جبال مطماطة وجبل تباغة (Tepaga) حتى الضفّة الشرقية من شطّ الجريد (Lactritonis) وبعد نفطة تميل نحو الشمال الغربي ثم تسير غربا في خطّ مُوَازٍ للأطلس الصحراوي لا يبعد عنه أكثر من ثلاثين كلم .



وبعد ساقية بنت الأخرس تميل ثانية نحو الشمال الغربي متّجهة إلى سيدي عيسى ضامّة بذلك سهول الهدنة . ثم تساير موازية للساحل الجانب الجنوبي للأطلس التلال فتنحصر بذلك منطقة الاحتلال في رقعة من الأرض يتفاوت عرضها من 120 كلم إلى 130 وتتناقص كلّما اقتربت من الملوية . وقد بقيت السهول العليا الجزائرية المغربية خارجة عن الأملاك الرومانية . وسمحت بعض المراكز كمركز مجدل المبنيّ سنة 148 و 149 على بعد خمسين كلم غربي بو سعادة أو جلفة بمراقبة حركات البدو . وعلى كلّ فقد بقيت بعض مناطق جبليّة في قلب البلاد الخاضعة للنفوذ الروماني متمتّعة عمليا باستقلالها.

9 ـ مشكلة المغرب الأقصى الروماني

إذا أمكن ضبط رسم الحدود الرومانية ولو بصفة تقريبية حتى التخوم الشرقية للمغرب الأقصى فإنّ الأمر متعذّر بالنسبة لما وراء هذه التخوم. وعلى بعد بضع كيلومترات من جنوب "سلا" حفر ابتداء من الساحل خندق وكان اتّجاهه من الغرب إلى الشرق . وقد أمكن تتبّعه في مسافة طولها عشرون كيلومتر . ولا شكّ أنّه أطول من ذلك وأنّه يمرّ من مكان لا يبعد كثيرا عن جنوب مكناس وفاس إلاّ أنّ الآثار الرومانية مفقودة تماما بين بو حلو (على بعد 15 كلم من غربي تازة) ولله مغنية (Numerus Syrorum) أي في منطقة عرضها 200 كلم تقريبا تقابل منطقة الملوية الأمر الذي حمل بعض المؤرّخين أمثال فابريسيوس دي لاشابال وتيراس (Fabricius (H. Terrasse F. de la chapelle, على الشكّ في وجود وحدة ترابية على الأقل بصفة مستمرّة بين موريطانيا الشرقية والغربية . وقد دافع ج. كركوبينو عن النظريّة المعاكسة وأدلى بحجج قويّة جدّا لتدعيم رأيه ومن بين هذه الحجج بالخصوص أنّ المقاطعتين خضعتا مرّات كثيرة إلى سلطة واحدة (إحدى عشرة مرة في الفترة الواقعة بين حكم كلوديوس وديوقليسيانوس). إلاّ أنّه يجب الاعتراف بأنّ الحجّة في معناها المضبوط ما تزال مفقودة ومهما يكن من أمر فإن المواصلات الرومانية سواء تمّت عبر تراب خاضع للنفوذ الروماني أم لا كانت دائما مهدّدة ولم يفت الباكات والبافار الذين كانوا ينتجعون في السهول العليا الجزائريّة المغربية أن ينالوا من الأمن فلم يجد الرومان بدّا من أن يبرموا مرات كثيرة معاهدات كشفت عنها نقوش وليلى .

II ـ جيش افريقية

1 ـ جيش الاحتلال

لم يكن لروما من قوّة تحمي البلاد المحتلّة سوى جيش قليل العدد يحتوي بالنسبة لبلاد البروقنصل (Proconsulaire) ونوميديا على كتيبة تعدّ 5 500 رجل وعددا أكثر بقليل من الإضافيين المشاة والفرسان خاصّة أي 13 000 رجل في الجملة تقريبا . وكان 15 000 إضافيّ مكلّفين بحماية موريطانيا الشرقية والغربية وكان على القبائل أن تجنّد عند الحاجة عددا كبيرا من القوم .

وكان يشترط على من يريد الانخراط في الكتائب أن يكون مواطنا كما هو الأمر في بقية الامبراطورية إلاّ أنّ الامبراطور كان يسند هذا اللّقب إلى من يتطوّع حال دخوله في الحياة العسكرية . فكان جنود الكتيبة الثالثة منحدرين في أوّل الأمر من مقاطعات غرب البلاد اللاطينية وخاصّة بلاد غوليا وفي أواخر القرن الأوّل كانوا يجنّدون من الشرق اليوناني والبعض منهم من افريقية نفسها . ومنذئذ لم ينفكّ التجنيد المحلّي في ازدياد مستمر . ومنذ تولّي هادريانوس الحكم أصبح عدد الجنود الأفارقة يفوق جنود الشرق . وقد ضبطت بعد موته بثلاث سنوات قائمة في جند الكتائب لم تحتو إلاّ على عناصر من أصل افريقي ونوميدي لتسهيل عملية الانخراط وعمدت رومة كما كان شأنها في سائر افريقية إلى تجنيد أبناء الجند الذين شبّوا على الطاعة والنظام في المعسكرات . وهكذا ابتداء من أواخر القرن الثاني أصبح أبناء جند كتيبة لمباز بانخراطهم في الجنديّة وتسويتهم لوضعيتهم القانونية الملتبسة يزوّدون الجيش الروماني بعدد متزايد من العناصر الجديدة .

وأصبحت الفيالق المساعدة تجنّد أيضا من خارج افريقية فتشير نقوش نوميديا إلى وجود جنود اسبان ولوزيتانيين وكلكدونيين (Chalcidéniens) وكمّاجيين (Commagéniens) أمّا في موريطانيا فنجد جند اسبانيا وكورسيكا وساردينيا وغاليا وسيكمبريا (Sicambres) ودلماسيا وبنونيا وبروكيا وبريطانيا وبرتيا. لكنّ

السرايا والأجنحة التي أقامت طويلا في افريقية وإن هي حافظت على أسمائها الأصلية فإنّها ما لبثت أن أحجمت عن جلب الجنود من بلاد ما وراء البحار . فقد أصبح في أواسط القرن الثاني التقييد المحلّي في الجندية قاعدة يخضع لها الإضافيون وجند الكتائب على حدّ سواء . فأنشئت بذلك بعض الفيالق مشتملة فقط على عناصر افريقية بحتة مثل (Ala Numidica و cohors maurorum) في نوميديا و(سرية المزالمة) Cohors. Musulamiorum في موريطانيا . وحوالي سنة 150 رأت رومة أنّ سلطتها قد تدعّمت بحيث أمكنها الاعتماد على الجند البربر وحدهم في توطيد الأمن . غير أنّ الظروف الخاصّة التي فرضتها محاربة بدو الصحراء في القرن الثاني حملت الأباطرة على أن يعهدوا بحماية جبهة واد جدي الجديدة إلى إضافيين شاميين ، من تدمر خاصّة (Palmyre) وكانوا قد مرّنوا حسب الخطّة التي تقتضيها التخوم الصحراوية .

2 ـ الكتيبة الثالثة : أغسطس

لا شك أنّ الكتيبة الثالثة التي ربّما أنشأها قيصر ناصرت قضية أُكْتَافيوسْ فأضفي عليها اسم Augusta عندما نسّق الجيش النظامي وذلك بعد تأسيس إمارته . ولعلّه أقرّها بافريقية مباشرة واضطرّت إلى إقامة معسكرها بحيدرة (في الشمال الشرقي من تبسّة) (Ammaedara) في قلب بلاد المزالمة وذلك ليحمي جهة سيرته (Cirta) وبلاد البروقنصلية . ويجب تعيين موقع معسكر الشتاء (Castra hiberna) في حيدرة لا في تبسّة وكذلك بالنسبة إلى النقطة التي تلتقي فيها الطريقان الرئيسيتان ثمرة عمليّة المسح الكبرى التي أذن بها أغسطس وهذا المعسكر كان وصله جند الكتائب سنة 14 بعد المسيح بقابس (Tacapae) بواسطة طريق يبلغ طولها 270 كلم . ونظرا لانعدام الآثار فإنّ نقوش قبور جند الكتائب العديدة والكتابات التي تشهد بإقامة قوّاد الجيش هناك طويلا تجعل استقرار الكتيبة محتملا في ذلك المكان بعينه . ولكنّها اضطرّت إلى النزوح عنه في أواخر أيّام فسباسيان (Vespasien) لتنزل بتبسّة (Theveste) حيث كان في إمكانها كذلك أن تمتد سطوتها حتى البحر شرقا وحتى حدود موريطانيا

غربا ولسنا نعرف بالضبط في أيّ تاريخ انتقلت إلى لمباز ممعنة نحو الغرب في مكان توفّرت فيه العيون الغزيرة على مقربة من ممرّ عامر بين الصحراء الكبرى والتلّ والاوراس ومنه تمكّنت من مراقبة سكّان الجبال وإذا أخذنا بما افترضه شارل سوماني فإنّها تكون قد أقامت بتمغاد (Thamugadi) قبل ذلك بقليل.ويرجح أنّ تراجانوس هو الذي رَحَّلها عن تبسة حيث أنشأ مستعمرة كما فعل بالضبط "فاسباسيان" في حيدرة في ظروف مماثلة .

ولم يلبث هادريانوس بعد استقرارها بقليلأن قادهترحاله المتواصل إلى افريقية فتفقّدها . وقد عثر على جانب من الخطاب الذي توجّه به إليها بعد المناورات وقد ضمّنه عبارات امتنانه .

ولم ترسل الكتيبة الثالثة أغسطس فرقا خارج افريقية إلاّ بصورة استثنائية . ويرجّح أنّها استحقّت لقب (Pia Vindesc) ابتداء من سنة 198 لإعانتها للافريقي سبتيموس سواريوس (Septime sévère) على منافسه في الامبراطورية . وعلى العكس فإنّها وقفت موقفا مناهضا لغرديانوس الأول فحلّها غرديانوس الثالث عقابا لها على خذلانها وشتّت عناصرها ولا شكّ أنّه وزّعهم على حاميات الرين والدانوب ذات الأعباء المرهقة (سنة 238) ولم ترجع هذه الكتيبة إلى سالف عهدها إلاّ في حكم فالريانوس (Valérien) بعد ذلك بخمسة عشر عاما (سنة 253) .

ووضعت فِرَقُ الاحتلال في أوّل الأمر تحت سلطة البروقنصل الذي كان يحكم باسم مجلس الشيوخ المقاطعة الجديدة لافريقية والبروقنصلية (سنة 27 قبل المسيح) فكان هذا البروقنصل هو الوحيد الذي قاد قوّات جرّارة وهو لا يخضع لسلطة الامبراطور مباشرة . فوضع قاليقولاً حدّا لهذا الأمر بسحب القيادة عن البروقنصل وإسنادها إلى قائد مساعد يسمّيه هو مباشرة (سنة 37) وبقي هذا القائد المساعد يأتمر ظاهريا بأوامر البروقنصل ولكنّه كان في الحقيقة يسيطر لا على الجيش فقط بل على جهة نوميديا العسكرية في استقلال تام .

3 ـ معسكر لمبـاز

كانت الكتيبة الثالثة : أغسطس في عهد هادريانوس ترسل إلى قرطاج كلّ سنة إحدى سراياها التي كانت تعدّ 600 رجل لحراسة البروقنصل . أمّا بقية الجند فإنّه يبقى في نوميديا . واستقرّ المعسكر المركزي والقيادة العليا للقائد المساعد في لمباز (Lambaesis) والآثار الباقية لهذا المعسكر هي من أهمّ ما تبقّى دالاّ على العالم الروماني . فهي تمكّننا من إحياء معالم مُعَسْكَر في الفترة التي سمح فيها سبتيموس سواريوس لجند الكتائب بأن يجتمعوا في جمعيات عسكرية . وطول هذا المُعَسْكَر 500 م وعرضه 400 م . وله حسب المألوف أربعة أبواب تعزّزها تحصينات في منتهى الطريقين : الطريق الرئيسية (Via principalis) الواصلة بين الأبواب الرئيسية والطريق الخلفية (Decumanus) أو الطريق البريطورية التي تصل الباب البريطوري المواجه للبريطوريوم بالباب الخلفي (Porta Decumana) ولا تمثّل (Praetentura) أي القسم الأمامي الواقع بين الباب البريطوري إلاّ ربع مساحة المعسكر كلّه وكانت بيوت الضبّاط مبنيّة على طول الطّريق الرئيسية بحسب العرض . (Per. Scamna) أمّا الثكنات والفساقي والإصطبلات والمخازن فقد كانت على العكس مجموعة في مستطيلات موازية لضلعي المُعَسْكَر الطويلين في اتّجاه الباب البريطوري (Per. Strigas) وعلى حافتي البريطوريوم توجد الثكنات على نسق واحد . وفي القسم الخلفي من المُعَسْكَر امتدّت حمّامات كبيرة ويعتبر بناؤها في ذلك الوقت عملا طريفا وتحتلّ ثكنات أخرى شبيهة بثكنات الـ Praetentura حاشية المعسكر الأخيرة المتّصلة بالباب الخلفي (Porto Documano) وكانت التحصينات ذات الطنوف المشرفة على داخل المُعَسْكَر المتراوح عددها من أربعة بالنسبة لعرض المُعَسْكَر إلى خمسة بالنسبة لطوله كانت تستعمل قواعد للآلات الحربية ومدارج تفضي إلى مسارب الحراسة.

ورغم أنّ البريطوريوم أعيد بناء قسم منه كما هو الشأن بالنسبة لأسوار المُعَسْكَر بعد زلزال سنة 267 الكبير ورغم أنّ القوم اضطرّوا إلى تغيير وضعه عند إنشاء الهيئات العسكرية فإنّه بقي محتفظا بخطوطه العامّة

وبهيئته عند بنائه سنة 128 . وكان القائد الأعلى مستقرّا هناك ومعه مصالحه . وكان يحتوي أوّلا على مدخل تشقّه الطريق الرئيسية (Via principalis) التي كانت تظهر في مظهر قوس نصر عظيم ذي أربع واجهات وفرجات عديدة، وثانيا على بطحاء معبّدة تنتصب على حافتها ساحة مسقّفة فيها مخادع جانبية تحتوي على النسر والشعارات كما يوجد في هذه البطحاء مكاتب الهيئات العسكرية ونواديها .

4 ـــ الجنود المُحْتَرِفُون

أصبحت الخدمة العسكرية منذ تولّي أغسطس طويلة الأمد بالنسبة لجند الكتائب الذين أصبحوا طيلة عشرين سنة لا يعرفون إلاّ حياة المُعَسْكرَات وليس لهم من طموح إلاّ نيل رتبة قائد وحدة التي تجعل منهم ضبّاطا صغارا . وأصبح من الضروري في بعض الأحيان تطبيق قواعد قانونية خاصّة على هذه المجموعات الصغيرة التي تكوّن الكتائب إذ ليس من الممكن منع الجنود من التسرّي والإيلاد وكانت هذه الزيجات مخالفة للقانون العام لكن بما أنّها أمر واقع وَجَبَ إكساؤها الصبغة الشرعية مع تحجير السكنى المشتركة . واضطرّ سبتيموس سواريوس في آخر الأمر إلى السماح لجند الكتائب بمساكنة زوجاتهم والقدوم إلى المُعَسْكَر للتموين فقط . وهكذا نمت البلدة المجاورة للمباز وكانت تربط بينهما طريق واسعة معبّدة جمّلها الجنود بالمباني الفخْمة في أوقات راحتهم . وكانت تسوّى حالة أطفالهم بأن تتزوّج الإناث جنودا وأن ينخرط الذكور في سلك الكتائب . وهكذا تكوّن في لمباز جيش ترابي منتدب من افريقية وخاصّة من بين أبناء المُعَسْكَرَات (Ex. castris) وكان الضبّاط وحدهم أو على الأقل غالبهم ليسوا من أبناء البلاد .

5 ـــ قدماء الجنود

كان جند الكتائب بما فيهم القادمون من بلاد ما وراء البحار لا يفكّرون قطّ في مغادرة البلاد عند إحالتهم على المعاش وبالأحرى الأفارقة . وكان

الكثير منهم يستقرّون في القرى المجاورة للمُعَسْكَر فتصبح شيئا فشيئا مراكز هامّة أحيانا كما هو الأمر في لمباز طبعا وفي مركونة (Vereconda) حيث كان عددهم كبيرا وفي قصور الجمعية والمدر (Casae) وفي باستور (Lamig giggaoui) وفي زانة (Diana veteronorum) حيث كانوا الأغلبية الساحقة . وفي شمال الجزائر عمّر الجنود القدماء ديبري (Oppidum Norum) ومداوروش (Mdaouros) وسطيف (Sitifis) وجميلة (Cuicul) . وبصفة عامّة لم تكن المدن الجديدة ملاصقة المُعَسْكَر . فقد كانت لمباز تبعد عنه بميل إلاّ أنّ البلدة المدنيّة كانت تستند إلى خنادق المُعَسْكر (Valum) . ففي سور جواب (قرب مسكرة على بعد 35 كلم من غربي سور الغزلان) (Rapidum) كانت مجموعات من الأكواخ متراصّة على أسوار المُعَسْكَر . وكان سكّانها من بربر وقدماء الجنود ومواطنين رومان يعيشون تحت النظام العسكري مع الاحتفاظ بنظامهم التعاضدي الخاصّ الذي تطوّر إلى مرتبة (Pagi) في النصف الثاني من القرن الثاني .

وكان على قدماء الجنود المستقرّين على الحدود أن يسعفوا عند الحاجة رفقاءهم العاملين تحت لواء الجنديّة . وخطا الامبراطور سواريوس الاسكندر (Sévère Alexandre) إلى أبعد من ذلك في هذا الصّدد فوزّع الأراضي المحتلّة بماشيتها على الجنود الذين كان في إمكانهم أن يُحلّوا محلّهم أبناءهم والذين أقرّهم في مراكز سهول سطيف المحصّنة (Castella) ليمنعوا هجمات البدو.وواصل غرديانوس الثالث هذه السياسة الاستعمارية العسكرية وتوسّع فيها . وتولّى مرة أخرى قدماء الجند الدّفاع عن التخوم الصحراوية جنوب نوميديا بالاشتراك مع جند الكتائب ثم حمَوها وحدهم عندما وقع سحب الحاميات . وهكذا فإنّ الجند الفلاّحين قاموا في تخوم الصحراء ابتداء من القرن الثالث بالدور الذي حدّده هو نوريوس (Honorius) في دستور سنة 409 فيما يخصّ سكّان الحدود (Limitanei) المكلّفين بصيانة "الليمس" وصدّ كلّ هجوم على الخندق الافريقي .

6 ـ أعمال الكتيبة

لم تقصر الكتيبة عملها على الدّفاع عن البلاد فقط بل ساهمت في تحسينها مساهمة فعّالة وكان ذلك مبدأ من مبادىء القيادة التي لا توصي بتمرين الجندي تمرينا متواصلا فقط بل بتعويده على القيام بشتّى المهمّات الأخرى . فجند الكتائب هم الذين أقاموا المباني المنتشرة في النجد الذي شيّدت فيه لمباز وهم الذين بَنَوْا الطرقات ومدّوا الجسور وأحيوا الأراضي القاحلة . وهم الذين جعلوا في عهد تراجانوس (100) من مركز تيمقاد العسكري الصغير المستعمل في القرن الأول لمراقبة منافذ جبال الاوراس مركزا رومانيا وكانت المباني التي أقاموها بمثابة نواة للمدينة التي خُطّت على شاكلة رقعة الشطرنج والتي امتدّت منتشرة في النجد حالما هدّمت الأسوار وقد ضاقت بها .

7 ـ أسطول شرشال

تضاءلت أهمّية الأسطول الروماني في عهد الامبراطورية واقتصر على مراقبة القراصنة . وهكذا فإنّ مجموعة من السفن الإفريقية متركّبة من طوّافات سريعة مستعارة من أساطيل الإسكندرية والشّام طاردت طوّافات الريف وموريطانيا الطنجية. وقد وضعت هذه المجموعة من السفن تحت قيادة والي موريطانيا القيصرية تدعيما لحماية الساحل الغربي المعرّض وحده للأخطار وكان مقرّها شرشال حيث كان يوجد إلى جانب الميناء التجاري ميناء حربي صغير لكنّه في مأمن من الأخطار ويصلهما برزخ ضيّق .

III ــ تنظيم المقاطعات والبلديات

1 ــ المقاطعات الأربع

لم تتكوّن هذه البلاد المعتمد في حمايتها على الليمس والكتيبة الثالثة أو الجند الإضافي من مقاطعة واحدة بعاصمتها وواليها العام وقد نظّمت رومة هذه البلاد تنظيما واقعيا من دون فكرة قبلية على أساس أربع وحدات إدارية وحسب طرق ثلاث للحكم : افريقية البروقنصلية أو افريقية بأتمّ معنى الكلمة ونوميديا وموريطانيا القيصرية وموريطانيا الطنجية .

وتنقسم البلاد من الوجهة الترابية إلى مناطق Tractus إدارية عامّة "تناسب كلّ منطقة منها دائرة " (شارل سوماني) وتنقسم كلّ منطقة Tractus بدورها إلى جهات (Regiones) .

2 ــ البروقنصلية

بعد أن انتصر "أكتافيوس" على أعدائه ولعب دور المتخلّي عن الحكم في مهارة منحه مجلس الشيوخ والشعب لقب أغسطس وأسند إليه سلطة البروقنصل وحقّ تأسيس الملوكية وحينئذ جعل عند توزيع المقاطعات افريقية من حظّ مجلس الشيوخ سنة 27 وكانت افريقية في ذلك الوقت تنقسم إلى افريقية القديمة وافريقية الجديدة (ولربّما اضمّت إليها مملكة ستيوس ابتداء من سنة 44) وقد اندمجتا فيما بعد في مقاطعة واحدة في تاريخ لم يحدّد بعد .

ومنذ أن اقتطع قاليقولا نوميديا من افريقية انحصرت هذه في طرابلس والبلاد التونسية وجانب من الأرض الجزائرية . وتبتدىء الحدود الغربية وهي عسيرة التحديد من عنابة (Hippo Regius) على البحر الأبيض المتوسّط وتنتهي في ملتقى واد شرف وواد بو حمدان ويختلط هذان النهران فيكونان واد سيبوز قرب مجاز الأحمر (على بعد 12 كلم من الجنوب الغربي من (قالمة) . وكانت عنونة (Thibilis) الكائنة

غربي واد شرف وعلى بعد 18 كلم من الجنوب الغربي من ڤالمة ضمن نوميديا ولكنّ ڤالمة (Calama) وعين نجمة (على بعد 4 كلم ونصف من الجنوب الغربي من ڤالمة) كانتا تابعتين للبروقنصلية . وإذا تجاوزنا مجاز الأحمر فإنّ الحدود تواكب واد شرف حتى الجنوب الغربي من صدراته (على بعد 53 كلم من الجنوب الغربي من سوق اهراس) أمّا خميسة (Thubursucu Numidarum) وتورة (Thagura) على بعد 21 كلم من الجنوب الشرقي من سوق اهراس) فإنّهما كانتا تابعتين لافريقية . وكانت مداوروش (Madauros) في أوّل الأمر تحت نفوذ قائد نوميديا المساعد ثم ألحقت بالبروقنصلية وهي مستعمرة لقدماء الجند أسّست في نهاية القرن الأول على التخوم الشمالية لبلاد المزالمة وكذلك الأمر بالنسبة لتبسّة (Theveste) التي كانت تحتلّ نفس الموقع في الجنوب ولرُبّما اقتسمت المقاطعتان أرضَ هذه القبيلة العظيمة .

وكانت افريقية تضمّ البلدان الأكثر تطوّرا وقد حذقت قبل مجيء رومة بأمد طويل أساليب البونيقيين في التجارة والفلاحة وعجّت بالمدن الحيّة الناشطة التي توفّرت لها أسباب السلم من يوم أن جرّد المزالمة من السلاح وضيّق عليهم الخناق وذلك في أواخر القرن الأوّل . وهكذا فإنّه كان في إمكان أغسطس أن يعهد من دون خشية بمقاطعة على قسط وافر من الاستقرار إلى بروقنصل وهو عضو في مجلس الشيوخ برتبة قنصل خاصّة وأنّ أعوان الامبراطور الذين يتّصلون به مباشرة كانوا يحدّون سنة بعد سنة من نفوذ الوالي .

3 — نوميديا

كانت نوميديا توجد في غرب افريقية وكان أغسطس قد افتكّها من يوبا الثاني بعيد تقسيم المقاطعات ليضمّها إلى البروقنصلية (سنة 25) وخلافا لما جرت به العادة فإنّ البروقنصل كان يتصرّف في فرقة كبيرة من جند الاحتلال فوضع قاليڤولا حدّا لهذا الشذوذ بأن عهد إلى مندوب مفوّض Legat بقيادة الكتيبة الثالثة وإدارة تراب نوميديا العسكري (سنة 37)

وليس من شك في أنّ هذا المندوب كان يخضع قانونيا إلى البروقنصل ولكنّ مسؤولية الأمن كانت تدعوهُ إلى اتّخاذ قرارات هامّة في عين المكان فكان يتصرّف في الأمر بكلّ حريّة وهو القائد العام الذي كانت تخضع له حاميات طرابلس والجنوب التونسي ونوميديا ويسمّيه الامبراطور مباشرة. ولم يتجاوز سبتيموس سواريوس عندما جعل نوميديا مقاطعة مستقلّة أن كسا الأمر الواقع الصبغة القانونيــة.

وكانت الحدود الغربية لنوميديا تنطلق من مصبّ المساقة (الواد الكبير) وتواكب الضفّة اليمنى لهذا النهر ثم تميل في رفق نحو الجنوب الغربي وتشقّ مجموعة من الأودية في اتّجاه الجنوب بحيث تكون جميلة (Cuicul) في نوميديا وسَطيف (Setifis) في موريطانيا القيصرية ثم تمرّ هذه الحدود بسراية (Zraia) فتخترق سهول الهدنة التي يتبع الجنوب الشرقي منها والجنوب نوميديا وتجتاز الظهر الشرقي وأخيراً تنزل نحو الجنوب في اتّجاه الاغواط.

وكانت تعدّ هذه المقاطعة نقطة انطلاق للعمليات العسكرية إلاّ في الشمال حيث تكون سيرتة والمدن الثلاث : القل (Chullu) وسكيكدة (Rusicade) والميلة (Milev) جامعة تحتوي على بلاد واسعة فيها قرى عديدة ومناطق فلاحية (Pagi) متمتّعة باستقلال كبير. وكانت هذه المدن قد سلّمت فيما مضى إلى القائد ستيوس وجنده القدماء.

4 — موريطانيا القيصرية وموريطانيا الطنجية

كانت موريطانيا تحتوي من عهد كلوديوس على مقاطعتين يفصلهما نهر الملوية وهما: موريطانيا القيصرية وموريطانيا الطنجية وكان يحكمهما وكلاء الامبراطور (Procurateur) من مرتبة الفرسان ويرجعان بالنظر إلى الامبراطور مباشرة (سنة 46).

وكان وكيل الامبراطور في موريطانيا القيصرية إحدى الشخصيات الكبيرة الساهرة على النظام إذ كان لا بدّ من موظّف سامٍ يتمتّع بسلطة واسعة للمحافظة على الأمن في مقاطعة على جانب كبير من الاضطراب

ولذلك وضع تحت تصرّفه قوّات كبيرة من الجند الإضافي فكان لا يحدّ من نفوذه أحد إلاّ إرادة الامبراطور . فهو الذي يوظّف الضرائب ويشرف على الأشغال العامّة ويحكم بين النّاس ويراقب البلديات ويدير شؤون الأهالي وكان يقيم بقيصارية (شرشال) (Caesarea) التي أصبحت مدينة الموظّفين والجند والتجّار بعد أن كانت مستعمرة من عهد كلوديوس فازدهرت بمزيد السرعة .

واسم موريطانيا الطنجية نفسه هو الذي جرّ القوم بالطبع إلى جعل طنجة (Tingi) عاصمة المقاطعة غير أنّه يظهر كما بيّنه ج. كركوبينو أن وليلى (Volubilis) كانت مقرّ إقامة وكيل الامبراطور الاعتيادية . وكان الجند الإضافي المجعول تحت تصرّف هذا الحاكم لحماية المقاطعة أقلّ من جند والي المقاطعة القيصرية وكان عليه أن يستنجد بجيوش المقاطعات الأخرى إذا داهمه الخطر .

أمّا بالنسبة لمناطق الحدود فلم تكن رومة لتهمل شأن القبائل البربرية التي شكّلت كم من مرّة خطرا داهما عليها . لذا فقد كانت تزكّي قوّاد البربر بخلع المعْطَفِ عليهم وتكسب ولاءهم بمنحهم جِرَايَاتٍ قارّة .

وبقي نظام المقاطعات المنبثق عن ظروف الاحتلال معمولا به في بلاد البربر إلى عهد دقليانوس (Dioclètien).

5 – البلديات وأنواعها المختلفة

كانت بلديات المقاطعات الأربع ذات أصناف شتى وكان يخضع سُكّانها إلى أنظمة متنوّعة فتأتي المستعمرات الرومانية (Coloniae) في المرتبة الأولى وكان أسّسها المواطنون الرومان أو نالت هذه التسمية بقرار امبراطوري من دون أن يسكنها معمرون وكان أهلها يتمتّعون بنفس الحقوق تقريبا كما لو كانوا يسكنون رومة بالذات ، أمّا البلديات الرومانية (Municipia) فقد كانت مدنا تتشبّه بالمدينة الأمّ مقلّدة لأنظمتها . فكان لها مجلس بلدي (Ordo-Decurionum) يقوم مقام مجلس

الشيوخ وحاكمان بلديان يقومان مقام القناصل (Duumvirs ou Duumviri ou Duoviri) ينتخبان لمدّة عام ويجلسان على كرسيّ من العاج ويلبسان حلّة بيضاء ذات حاشية من أرجوان يخفرهما جنديان يحملان حزمة من الأعواد بدون فأس . وكان يسهر على الخزينة البلدية وكيلان ماليان وكان عضوان بلديان يسهران على الطرقات والأسواق وتوزيع الحنطة والألعاب ويمكن إلحاقهما بالحاكمين البلديين صاحبي السلطة الحقيقية وبهذه الصورة ينقص نفوذهما . وكان السكّان يعتبرون جميعهم مواطنين رومانيين ، لكن كانت تُوَظّفُ على أملاكهم العقارية ضرائب لا توظّف على أهل المستعمرات.

وكانت رومة تطبّق بالنسبة لسكّان البلديات اللاطينية قانونا وسطا بين ما يجري على المواطنين وبين ما يجري على الأجانب وقد فرضته سنة 338 قبل المسيح على أعضاء الجامعة اللاطينية التي قرّرت حلّها . غير أنّها منحت اللاطينين الذين سبق أن باشروا خطّة حاكم إلى جانب خطّة أخرى حقّ المواطنة كاملا ثم حصرت ذلك ابتداء من عهد هادريانوس في شيخ الجماعة (Decurion) وبما أنّ لقب المواطن الروماني وراثيّ فإنّ عدد اللاطينيين أخذ في النقصان ضمن البلديّة فتغيّرت بذلك خصائصها .

وكانت البلديات الأجنبية آهلة بالأجانب وهم رعايا يكاد يكون غالبهم بربرا بدوا كانوا أو حضرا . ولم يخضعوا كلّهم لنظام واحد . فكانت رومة تقتصر تارة على تزكية قواد البربر الوراثيين بخلع الحلّة الحمراء عليهم وتسليمهم عصا العاج وتعيينهم ولاة أو أمراء (Praefecti, principer) وربّما اتّخذوا في بعض الأحيان لأنفسهم لقب الملك (reguli) وتحتفظ طورا ببعض النظم القرطاجية وعلى الأقل بلقب الشافط* وطورا آخر تُكَوّن مجلسا أهليا يكون نواة لمجلس بلدي لاطيني أو روماني .

6 ـ منزلة الأفراد وتنوّعها

كانت منزلة الأفراد متنوّعة تنوّع البلديات . فأصحاب الأراضي هم وحدهم المعترف لهم بحقوقهم في المدينة سواء كانوا من قدماء الجند أو

* هي كلمة معربة عن البونيقية « شفط » (suffète) وفي معناها القاضي

من النازحين أو من البربر . أمّا التجّار الصغار والصنّاع والعمّال فإنّهم كانوا يعتبرون أجانب مستوطنين (incolae) . وكان المزارعون المنتشرون في الأرياف أحطّ درجة من الأجانب المستوطنين (incolae intramuri) فالنظام الذي كان يخضع له الفرد لا يرتبط بنظام البلدية التي كان يقطن بها إلاّ مبدئيا . وكان يمكن للامبراطور أن يرفع من شأن الأجنبي أو الحاكم. وهكذا فقد كان للحكومة وسيلة للتشجيع شبيهة بالأوسمة في وقتنا هذا وبواسطتها تعرف كيف تُذْكِي المنافسة وتجلب الأنصار . وكانت بإغداقها وتعميمها للترقيات الفردية التي كانت تجرّ النفع لكافّة أعضاء العائلات المعنيّة بالأمر تقويّ جيلا بعد جيل الرصيد البربري ممّا كان من أثره أن جدّد طبقة الموظّفين التي تحتاج إليها لتنمية التأثير الروماني في المغرب.

ولم تدع الامبراطورية فقط إدارة الأهالي مباشرة فلقد تركت للأنظمة البلدية التي بقيت إطاراتها بربرية كلّها مجالاً واسعا لروح المبادرة حتى في الميدان المالي والقانوني "فكان لكلّ مدينة كيانها الذّاتي بإشراف حكّام منتخبين . وكان الأباطرة يضيّقون على جميع مظاهر الحياة العامّة في رومة بينما هم يشجّعونها في المقاطعات التي كان هذا النشاط من شأنه أن يعجّل بإدماجها في الحضيرة الرومانية" . فتكوّنت في المدن طبقة بورجوازية تسوارثت شؤون الحكم وتضامنت مصالحها مع مصالح الرومان ممّا ضمن ولاءها لرومة . وما القانون الذي سنّه زعماء سلّا " Sala " لفائدة سولبيسيوس فيليكس (M. Sulpicius Félix) في عهد انطونان الورع (سنة 144) إلاّ دليل على مدى حذْق الموظّفين الرومان في بعث محكوميهم على الولاء دون أن يجلب نجاحهم اعتراف أصحاب السلطة لهم بذلك . وكثيرا ما كانت تنتخب من بين بورجوازية البلديات رجالاتها المرموقين . فكانت عنون (Thibilis) موطن عظيمين من عائلة آنتستي (Antisti) قام أحدهما بدور عظيم في عهد مرقس أوريليوس ولا شك أنّ الثاني صاهر الامبراطور.وفي نفس الفترة تقلّد أحد سكّان الكاف (Sicca veneria) مهامّ وزارة المال (procurator arationibus) وقد توّجت حياة شخصين من عائلة آتيي (Attié) أحدهما من هنشير قصبات (Thuburbo Maius) والآخر

من هنشير الداموس (Uchi Maius) بأن عيّنا والبين يجمعان بين إمارة جيوش ايطاليا ورئاسة مجلس التعقيب . وأول افريقي فاز برتبة قنصل على ما نعلم هو كليمانس (Q. Aurelius Pactumlis Clemens) معاصر فسباسيان أصيل سيرتة. وأخيرا فإنّ سبتيموس سواريوس الإفريقي المنحدر من لبدة قد اعتلى سنة 193 عرش الامبراطورية . والذي من شأنه أن يحمل على الاعتقاد في انسجام الغالب مع المغلوب ووجود مراقبة المحكوم للحاكم هو ما كان عليه نظام عبادة الامبراطور، وكذلك اجتماعات نواب المدن الدورية في مجالس يبسطون فيها رغائبهم في مهارة .

وفي الواقع فإنّ رومة قد اعتمدت على ارستقراطية البلديات لتوطيد استعمارها لبلاد البربر من دون أن تكترث بالجماهير البربريّة .

IV ـ النمــو الاقتصــادى والاستعمــار

1 ـ بلاد البربر مستعمرة للاستغــلال

كانت بلاد البربر بالنسبة لرومة مستعمرة للاستغلال لا للعمران فلم يكن الباعث على التوسّع الايطالي في عهد الامبراطورية كما هو الشأن في أيامنا هذه الضرورة الديموغرافية فقدكانت ايطاليا في آواخر العهد الجمهورى تعدّ ما يقرب من 14 مليونا من السكّان من بينهم أربعة ملايين من العبيد وتضاءلت الهجرة بسبب تناقص العمران الذي حاول أغسطس الحدّ منه بدون جدوى،وتوافد الفلاّحين على المدينة التي كانت تستهويهم . وهكذا فإنّ عدد الأجانب في بلاد المغرب لم يكن عظيما . فإذا استثنينا الموظّفين السامين والملاّكين الكبار المقيمين على غير عاداتهم بأراضيهم وتجّار الموانى أو المراكز الكبيرة وسلالة قدماء الجند فإنّ بقية السكّان تكاد تكون محصورة في البربر . فإذا تحدّثنا عن الاستعمار الروماني يجب أن يفهم من ذلك أنّ رومة قامت بتهدئة بلاد البربر وتنظيمها ولكنّ الأهالي هم الذين نهضوا بالعمل الحقيقيي.لقد أصبح ازدهار بلاد المغرب في عهود الامبراطورية الأولى مضربا للأمثال ولا تزال عبارة "مطمورة رومة" إحدى العبارات المبتذلة السهلة يستنجد بها الخطباء الرسميون والدّعائيون . والحقيقة أنّ البلدان التي استعمرها الرومان لم تكن خصبة كلّ الخصب فقلّة الأراضي الطيّبة ووجود طبقة من الكلس المستعصية على المحراث والجفاف كلّها عوامل حالت بالأمس كما تحول اليوم دون وفرة الإنتاج إلاّ نادرا . غير أنّ اتّساع الريّ الفلاحي إلى جهة الليمس أتاح ولا شك استغلال أراض هي اليوم قاحلة . ولكنّ الأرض ظلّت مصدر الثروة الوحيدة في هذه المقاطعات المحرومة من كلّ نشاط صناعي .

2 ـ الزراعة في القرن الأول . القمح

إنّ الرومان لم يلقّنوا البربر أساليب الفلاحة التى نمت على عهد

قرطاج والملوك النوميديين . ففي طرابلس وتونس كان القوم قبل مجيء الرومان يغرسون الزياتين والكروم ويزرعون القمح والشعير وكانوا في بقية البلاد يقتصرون على ممارسة زراعة الحبوب، وساعد على ازدهار الزراعة الأباطرة بتوطيدهم الأمن وتعديد وسائل الإنتاج وإحياء أراضي الانتجاع وتنظيم الأسواق . وهكذا ظهرت افريقية في مظهر الضيعة المستغلّة استغلالا حكيما شاملا .

وفرضت الحكومة أثناء القرن الأوّل زراعة القمح الصلب لأغراض سياسية بالخصوص إذ كان مائتا ألف من المواطنين الرومان يستهلكون منذ عهد أغسطس مليون مدّ مجّانا كلّ شهر ، وهو قدر كانت ايطاليا عاجزة عن إنتاجه لتناقص عمرانها وطغيان المستنقعات والأرض الموات عليها وكانت تحدث المجاعات والاضطرابات في كامل أنحاء الامبراطورية بسبب فقدان القمح وهو ما لم يكن ممكنا تعويضه بوفرة إنتاج الخمر والزيت وقد حاولت رومة تلافي أزمة القمح فقرّرت توسيع رقعة مزارع الحبوب على حساب مناطق الكروم والزياتين وذهب دوميتيانوس (Domitien) حتى إلى محاولة منع غراسة الكرم ونفّذت الإجراءات التي اتّخذها لهذا الغرض في افريقية خاصّة التي رجعت إلى ممارسة نوع واحد من الزراعة وقد نجحت هذه التجربة،وساعد على ذلك وجود أراض بكر غنية بالفسفاط كان إنتاجها مرضيا في الدخلة وفي غربي سوسة وفي ضواحي سوق أهراس وڤالمة وقسنطينة وفي مرتفعات سطيف وسهول مجانة ونجاد تيارات وسرسو وسهول سيدي بلعبّاس. وتحدّث بلين عن البذور التي تنتج 150 مقابل واحد وكيف أنّ الحبّة الواحدة تنبت 400 قصبة وليس إنتاج 100 أو أكثر مقابل واحد "من غرائب علم النبات" على حدّ قول ج. ديبوا . إلاّ أنّ مثل هذه النتائج خارقة للعادة ولا تأتي إلاّ في بعض السنوات المواتية جدّا وفي مناطق محدودة .

ورقم 10 مقابل واحد الذى ذكره القدّيس أغسطينوس بالنسبة لبلاد جدالة يعبّر عن واقع مألوف . أمّا ما يؤكّده استرابن من أنّ بلاد البربر تنتج مرتين في السنة فلا يثبت قط عند البحث لأنّ زراعة القمح بافريقية تعاقبت عليها نفس الأطوار التي مرّت عليها بفرنسا ولأنّ القوم كانوا

يجهلون حينذاك أنواع القمح التي تنمو بسرعة وسرّ نجاح القمح الافريقي في صلابته وجودته بالخصوص . وكان القوم على حدّ قول بلين يستعملون المحراث البدائي "يسندون إليه من جهة حمارا حرونا ومن الجهة الأخرى امرأة" وكانوا يحرثون في موسم الأمطار وبعد البذر لا يعزقون الأرض ولا يستأصلون منها الكلأ فلا يعودون إليها إلاّ ليحصدوا بواسطة المنجل،وكانت الحيوانات تدوس السنابل،ويحفظون الحبوب في المخازن وكانوا يزرعون الأرض سنة ويتركونها بُورا في السنة الموالية كما هو الشأن اليوم . وكان البربر يزرعون الشعير للاستهلاك الخاص حتى في الوقت الذي انصرفت فيه افريقية إلى زراعة القمح .

وإلى جانب القمح كان القوم يحصدون العلس والبيقة . وكان يوجد أشجار مثمرة كشجر التين والرّمّان واللوز والإجّاص والسفرجل والليمون والجوز،ونباتات غذائية كالحمّص والسلجم والفول والخرشوف والبطّيخ والهليون البرّي ، والثوم والبصل والكمء الافريقي والكمّون،وكانت تزرع الخضر خاصّة في ضواحي قرطاج . وكان أغنياء الرومان يتذوّقون الغلال الغريبة عنهم،من ذلك أنّ التين الافريقي كان موجودا على مائدة تريمليسون (Trimalsion) الحديث النعمة .. في المأدُبة التي وصفها "بيترون" (Pétrone) .

وكانوا يربّون كما هو الشأن اليوم الخيل البربرية وهي ثقيلة المظهر ولكنّها سلسة القيادة سبّاقة صبورة،ويربّون البغال المستحسنة من نتاج الحمار المغربي والفرس البربرية،وكذلك بقرا صغيرا من الجنس المعروف بجنس ڨالمة،والضأن ذا الألية أو الذنب الرقيق،والأحمرة الموريطانية القنوعة الخفيفة،والخنازير التي توجد لحومها ضمن طعام الجندي الروماني ويربّون أيضا الدّجاج والإوز والبطّ والحمام والغرغر والحجل الداجن بلاشك والنّحل . وكانت افريقية مستودعا للوحوش الضارية وخاصة الأسود والفهود والدّببة . تتزوّد منه الملاهي وقد قتل في عهد أغسطس 3 500 وحش في المسارح في مدّة قدرها 26 يوما بمناسبة الأفراح والأعياد ولذا شاعت تسميتها "بالحيوانات الليبية" أو "الحيوانات الإفريقية" أو بعبارة أوجز "الافريقية" وكانوا يصطادون الفيلة حتى أبادوها وذلك لسدّ حاجات الملاهي

ولتهيئة طعام الشرهين الذين كانوا يستسيغون – كما ذكر ذلك بلين – غضاريف الخرطوم وخاصّة من أجل العاج (Dentius causa) .

3 – التجارة والصناعة في القرن الأول

لم تكن افريقية تصدر إلاّ الموادّ الأولية الثمينة كخشب السندروس الأصهب العسليِ ذي النواتىء الملتفّة الجميلة الصالحة لصنع الموائد الممتازة وكالحجارة الكريمة والعقاقير . وكان الرومان لا يستغلّون مقاطع كرّار (Carrare) إلاّ قليلا فكانوا يجلبون المرمر بأثمان باهضة من نوميديا (مقاطع فلفله على بعد 23 كلم من شرقي سكيكدة) أو من مقاطع شمتو (Simitthu) وأبوا أن ينتفعوا في افريقية من مخابىء المعادن التي كانت عديدة ولكنّها فقيرة لأنّه كان في إمكانهم أن يتزوّدوا من بلدان أخرى في أوروبا نفسها، وإن استعملت المناجم في المغرب فإنّما كان ذلك للاستهلاك المحلّي . ويظهر أنّ هذه المناجم تزايدت قيمتها عند تدهور الصناعة الاوربية في القرون الوسطى وانقطاع العلاقات بين النصارى والمسلمين.

4 – الفلاحة ابتداء من القرن الثاني – الزياتين

تبدّل الوضع الاقتصادي في بلاد البربر عندما أفسحت الامبراطورية في القرن الثاني المجال لتطوّر المقاطعات تطوّرا حرّا ، فلقد انتشرت بسرعة غراسة الزياتين والكروم إلى جانب زراعة القمح ولاشك أنّ أسرة القياصرة الانطونيين لم تشجّع كثيرا زراعة الكروم فقانون تراجانوس لم يسمح إلاّ بتعويض الكروم العتيقة ونصّ قانون آخر في عهد هادريانوس على تمكين زارعي الزياتين والأشجار المثمرة من امتيازات لم تشمل أصحاب الكروم . ورغم ذلك فإنّ إنتاج الخمور تزايد مثل إنتاج الزيوت

وكان الأباطرة يشجّعون انتشار الزياتين في دلماسيا واسبانيا وخاصّة افريقية حتى عندما كانوا يَخْشَوْنَ انتشار الكروم . فقد نجحت غراسة الأشجار في طرابلس والبلاد التونسية وأودية القبائل ووادي شلف وجهات السباسب المتاخمة للصحراء . وعندما شاهد بول بورد أطلال المعاصر

القديمة فكّر في إحياء غابات الزيتون في البلاد التونسية، ولا يذهب بك الظنّ إلى أنّ زيت افريقية كان مستطابا عند الأكل، لقد كانوا يقصرون استعماله على شؤون التجميل والإنارة بل أنصتْ إلى جوفينال (Juvénal) يقول مقابلا تذوّق السيّد عند استهلاكه زيت سمنيوم (Samnium) الجيّد بذلّة العامي الذي يضطرّ إلى استهلاك زيت بلاد البربر : "أيّها المسكين هذا الكرنب الباهت اللون المقدّم إليك يقطر زيت استصباح. ذلك أنّ الزيت الذي يوضع في صحونكم من صنف الزيوت التي جلبها أحفاد مسبسا في مراكب من قصب من ذوات الجؤجؤ الحادّ. وبما أنّ بوكار (Boccar) يستعمل هذا الزيت فلا أحد في رومة يرضى بالاستحمام معه، وهذا الزيت يدفع حتى سموم الثعابين السّود" (نقل أ. ارنو (E. Ernout) وظلّت غابات الزيتون مزدهرة حتى الفتح العربي ويقال : إنّ سكّان جنوب افريقية قدّموا إلى عربي نواة زيتونة على أنّه رمز الثروة .

5 — تربية الحيوان

تمادى القوم في زراعة الحبوب فكانوا يزرعون القمح في نجاد سطيف وموريطانيا، وكانوا يزرعون الشعير علفا للخيل التي سجّلت أساليب تربيتها ابتداء من القرن الثاني تقدّما محسوسا خاصّة في اصطبلات الملاّكين الكبار. قال الشاعر القرطاجي "نميزيان" (Némisien) : "اختَرْ حصانا أصلُه من أرض موريطانيا ، ولْيَكُنْ جوادا أصيلا تربّى في السهول الخالية وتعوّد الصبر على تحمّل المشاقّ . إنّ رأسه قبيح المنظر وبطنه غريب الشكل ، لا يعرف كَبْحا لجِماحه يضرب بناصيته كتفيه فلا تخش من ذلك شيئا إذ هو سلس القياد : إن مسّت العصا الليّنة رقبته الحسّاسة امْتَثَلَ . فضربة واحدة تجعله يركض ركضا وأخرى توقفه . إنّه ينطلق مخترقا فسحة السهول الواسعة المتفتّحة أمامه . فتزداد قواه في انطلاقته الخاطفة ويغلي دمُه في عروقه . ولا يلبث حتى يترك وراءه منافسيه في حسدهم . إنّه لا يثق بنفسه لقطعه المسافات الطويلة إلاّ بمرّ السنين غير أنّ طفرة الشباب تبقى ملازمة له إلى سنّ متقدّمة ولا يفقد نشاطه إلاّ عندما يأبى جسمه البالي مطاوعته" (نقل ستيفان قزال St. Gsell) وورد في نقش قديم ذكر

مآثر فارس موري انتصر مرّات عديدة في رومة كما تشيد فسيفساء بالمجد الذي ناله سائق عربة ايروس (Eros) وجياده الأربعة . وإلى جانب الخيل كانت الماشية بأنواعها كثيرة في نوميديا. وقد انتشرت تربية الجمل في افريقية بفضل أسرة "سواريوس" (Les Sévères) .

6 ـ التجارة في القرن الثاني والثالث

بالرغم من أنّ استغلال افريقية أصبح ابتداء من القرن الثاني أحكم تنظيما فإنّ توازنها التجاري لم يطرأ عليه أيّ تغيير ، "أ. البرتني" (Albertini) فقد بقيت بلادا تصدر الموادّ الأوّليّة خاصّة الصوف والخشب والقمح والزيت . وأقصى ما كانت تصنعه الجرّارُ التي كانت توضع فيها هذه المواد لنقلها والتي توجد في العالم الروماني بأكمله . ومن الراجح أيضا أنّ التجارة عبر الصحراء كان لها بعض الشأن منذ ذلك العهد،ويشهد بذلك على الأقل ضريح "تين حينان" في الحجار إذ يكشف عن متاع أصله روماني يرجع إلى القرنين الثالث والرابع ممّا يكفي دلالة على توغّل النفوذ الروماني في الجنوب .

أمّا التجارة في داخل البلاد فنحن لا نعرف عنها كثيرا من سوء الحظّ غير أنّ نقشا اكتشف في سراية (Zaraï) بتاريخ 202 (VIII, C I L 4 508) يثبت لنا الموادّ التي كانت تخضع لضريبة المرور (Portorium) وبذلك يلقي أضواء على المبادلات التي كانت تقع في الأسواق المحلّيّة وكانت تشمل الرقيق والماشية والثياب والجلود والاسفنج والخمر والأسماك المصبّرة (Garum) والثمار كالتمر والتين الخ .

7 ـ أشغال الرّي

من الصعب تقدير أهمّية الأشغال التي قامت بها رومة في افريقية . إذ أنّ القرطاجيين والبربر أنفسهم لم يهملوا أمرها من دون شك . غير أنّ رومة كان لها الفضل في العناية بما وجدته والإمعان في مضاعفته فبنت خاصّة الحنايا لتزويد المدن بالماء والصهاريج لتزويد الضيعات .

وحفرت مئات الآبار خاصّة في شمال الاوراس وفجّرت الآبار الارتوازية في الواحات . وتشهد الصور الجوّية بأنّ رومة عرفت كيف تقاوم آفات الانجراف وكيف ترسم سياسة للرىّ .

وكان الرومان يُنْشئُون مراكز الاستعمار قرب العيون التي كانوا يعتنون بها اعتناء خاصّا . وكان لِلَمْبَازَ معبد لآلهة المياه (Nymphée) عَفَتْ آثاره، أمّا مستودع المياه في تيبازة الذي كانت تنتهي إليه الحنايا فإنّه بني على شكل نصف دائرة طولها 24 م . وكانت العين عند انبعاثها من مركز المياه تمرّ أحيانا تحت قوس نصر كما هو الشأن في حمام الدرّاجي (Bulla Regia) وهنشير سيدى خليفة بالنفيضة (Pheradi Maius) .

ولم تكن العيون المحلّية ولا الآبار الواسعة كافية لتزويد المراكز المتضخّمة يوما بعد يوم . فكان من اللاّزم جلب المياه من الأماكن المجاورة وحتى من الرّبى البعيدة، وممّا يزيد المسألة إشكالا أنّ المهندسين الرومان لم يستعملوا التعقيف إلاّ بالنسبة لأنابيب الرصاص الصغيرة وكانوا مضطرّين إلى جعل القنوات في انحدار مستمر . فوجب عليهم إذن الإكثار من الأشغال الفنّية لشقّ الجبال واجتياز الأودية .

وكان الرومان يحذقون بناء السدود حِذْقا كبيرا . فالسدّ الذي يعبُر واد درب ويشقّ القصرين (Cillium) (بين سبيطلة وتلابت) يكون قد مرّ في شكل خطّ مُنْحَنٍ اتّجه انحناؤه نحو مصبّ النهر وكان ارتفاعه عشرة أمتار وطوله يتراوح بين المائة والمائة والخمسين مترا، ويوجد في أعلاه طريق عرضها أربعة أمتار وتسعون وفي أسفله لا توجد إلاّ فرجة عرضها متران تمرّ منها المياه . وهكذا تتجمّع كمّيّة كبيرة من المياه في حوض ترسب فيه أوساخها قبل أن تصرف في الحنايا .

وكانت أهمّ الحنايا تلك التي كانت تزوّد قرطاج وكانت تتزوّد من عين كائنة بسفح جبل زغوان على بعد 132 كلم من العاصمة (Mons Zeugitanus)، ووراء الحوض البيضي الشكل كان ينتصب معبد لآلهة المياه في شكل نصف دائرة عرضه 30 مترا مشيّد على قاعدة منبسطة مستند إلى سور من كلس، وتمرّ هذه الحنايا بأرض وَعْرة عبر مسافة

قدرها 90 كلم وكان يمكن لقناتها المبنيَّة من الحصى الهشّ والمغطّاة بقبو فيه كُوى صالحة لتجديد الهواء والتنظيف أن تدرّ 400 ليترة في اللحظة و 32 مليونا من الليترات في اليوم . وتنتهي القناة إلى حوض كبير في حي مابالا بقرطاج يزوّد بدوره الأحواض العمومية والحنفيات والحمّامات. وفي بعض المدن مثل الجم (Thysdrus) كان الماء يوزّع على المنازل.

وأعظم الحنايا في البلاد الجزائرية هي حنايا شرشال وطولها 40 كلم تخترق واديا عن طريق جسر فسيح ذي ثلاثة عقود متراصفة يبلغ ارتفاعها جميعا 35 مترا . وكان قسمها الأعلى من حصى هشّ وأقواسها من الآجر وقاعدتها من حجر غير منحوت. وكانت تتدفّق مياهها من أعلى المدينة بمعية قنوات أخرى ثانوية في حوض كبير بيضي الشكل طوله عشرون مترا وعرضه 15 مترا ومنه تبدأ دهاليز توصل المياه إلى معبد عرائس الأنهار .

وبصفة عامّة لم تكن العيون تزوّد المدن بما يكفيها ولذا كانوا يجمعون بكلّ عناية ماء المطر إمّا في بالوعات يصل بواسطتها إلى صهاريج عمومية أو في قنوات صغيرة تنتهي به إلى صهاريج منزلية . وكانت الصهاريج العامّة والخاصة سقوفها معقودة محفورة في الأرض . وكانت صهاريج عنابة البلدية (Hippone) تسع 12.000 متر مكعّب وصهاريج سيرتة 30 000 متر مكعّب . أمّا في الجهات القاحلة فقد كانوا يجتهدون في استعمال الأراضي الكتيمة الواقعة حول المدن . ففي الجم (Thysdrus) وفي معظم مدن المزاق (Byzacène) كان الماء الذي يتسرّب إلى الطبقات الطفليّة يغذّي آبار المدينة بعد أن تُصَفّيه الرّمال .

8 — الـرّي

لقد اعتنى الرومان بالخصوص بتنظيم الرّي في ضواحي المدن . فكانوا يجلبون المياه التي تتجمّع في الوهاد إلى أحواض مبنيّة بالجصّ حافاتها منبسطة، ومنها يوجّهونها عن طريق مصبّ أحكمت عليه الأبواب إلى أقرب واد أو خزّان للمياه، وتلافيا لسيلان المياه على المنحدرات الوعرة استنبطوا مدارج تحدّ من اندفاع الماء وتمسك الأرض الطيّبة فتتكوّن في آخر

الأمر سطوح صالحة للزراعة ولا تزال آثارها باقية إلى اليوم في الجبال المحيطة بسهول زغوان والنفيضة بالبلاد التونسية . وقد أمكن توضيح ما كان يبدو متشعبا من أمرها في نوميديا الجنوبية بفضل الصور الجوّية (ج باراديز (Baradez) .

وكانوا يراقبون بكلّ عناية المياه التجارية وينتفعون بها كما كانوا يجمعون حتى أصغر الجداول المنسابة وراء السدود المقامة في الأودية . وكان النهر في الوادي الرئيسي وقد حدّ من اندفاعه بواسطة القنوات والخزّانات وبدّل مجراه في حواجز وسدود صغيرة لا يكتسح السهول بفيضاناته ويحتفظ في خزّاناته بالمياه المتجمّعة في فصل الأمطار وتنصب المياه عند ما تفتح الأبواب في وقت الجفاف ويوجد حول النهر أيضا جهاز كامل من قنوات الرّي والسواقي والمجاري كان يسمح بتوزيع المياه على الملاّكين حسب قواعد قارّة منقوشة على صفائح من الحجر موضوعة في الساحة العمومية . وقد اكتشف في لامسبة (Lamasba) قرب "باتنة" نقش شهير يحدّد شروط توزيع المياه على الحدائق والبساتين القريبة من المدينة ويضبط أقساط جميع الملاّكين . واجتنابا لركود المياه الباقية وضع جهاز آخر معاكس للأول يسمح بجمع كلّ المياه غير الصالحة في قناة تنصبّ بواسطتها في النهر . ونعرف من خلال ما جاء في مؤلّفات "بليـن" أنّه كان يوجد بقابس (Tacapae) نظام للري مماثل .

وقد وصف "بروكوب" في العهد البيزنطي سير نوع من (نقابة الرّي) إذ يقول : « ينحدر نهر الابيغاس (Abigas) من جبال الاوراس وعند وصوله إلى السهول يسقي الأرض كما يشتهون إذ هم يحوّلون مجراه على النحو الذي يعتقدون أنّه الأجدى : فقد حفروا عددا كبيرا من القنوات مرّت منها مياه الابيغاس . إنّها تجري تحت الأرض ثم تظهر من جديد فتتجمّع . وبذلك يكون هذا النهر في متناول سكّان معظم السهول فكانوا يسدّون القنوات بحواجز ويفتحونها بعد ذلك بحيث ينتفعون بالمياه كما شاؤوا. » (نقل ستيفان قزال) .

لم تكن الدولة قائمة مباشرة بهذه الأشغال ذات المصلحة بل كانت تترك أمرها إلى البلديات أو الجمعيات الخاصّة . وكانت الكتيبة تضع

أحيانا مهندسيها تحت تصرّف هذه المؤسّسات ولقد حفر أحدهم قناة تحت الأرض جلبت المياه إلى بجاية (Saldae) .

9 — الطرقـات

لقد كان انتشار شبكة الطرقات التي لا تزال بعض أجزائها موجودة إلى اليوم أحد عوامل التّطوّر الاقتصادي لافريقية في العهد الروماني . فقد عبّد الجند طرقات كثيرة وخاصّة الطريق الواصلة بين حيدرة وقابس (سنة 14 مسيحي) والطريق الرابطة بين تبسّة وعنابة (في عهد الفلافيين) وبين تبسّة وتيمقاد(في عهد تراجانوس)وبين لمباز وجمالة(في عهد تراجانوس)وبين قرطاج وتبسّة ولمباز(في عهد هادريانوس)وبين سطيف وسور الغزلان ومراكز واد شلف(وقد شرع فيها في عهد هادريانوس)وكذلك الطريق الرابطة بين (سانت ايمي) Cadum Castra و(سان دني) Tasaccora وعين تمشانت وقد عبّدت حالما تمّ فتح موريطانيا (سنة 46) وبين كوهوربروكوروم (قرب تغرامات)ولله مغنية(في عهد سبتيموس سواريوس)وبين طنجة وسلا وبين طنجة ووليلي وبين عقبة العربي (على بعد 23 كلم من مكناس)وربما النواصر (على بعد 50 كلم في جنوب فاس) وكانت شبكة الطرقات كثيفة جدّا في البروقنصلية وكانت قرطاج محورها الرئيسي . فمنها تتفرّع طريقان نحو عنابة (Hippo Régius) فتحاذي الأولى ساحل البحر مارّة من بنزرت وطبرقة والقالة وتشقّ الثانية ضفّة واد مجردة الشمالية عبر طبربة وحمام الدراجي وشمتو وكانت الطريق الرابطة بين قرطاج وتبسّة البالغ طولها 275 كلم أعظم الطرقات وأشملها بالعناية وكانت تمرّ بمجاز الباب وتستور وعين تونقة وتبرسق والكريب ومديانة وحيدرة . وتتّجه طريق ساحليّة أخرى نحو الجنوب إلى لبدة عبر سوق الأبيض وسوسة وطرابلس وقد تجاوز طولها 800 كلم . وكانت طريق أخرى تنتهي إلى قابس بعد أن تمرّ بجنوب الشطوط .

وكانت الطرقات الكبرى مكوّنة من طبقات كثيرة متراكمة ، فالطريق الرّابطة بين قرطاج وتبسّة كانت تشتمل على أربع طبقات : الأولى من الصفا الكبيرة والثانية من الملاط والثالثة من الحصى وتشتمل الرابعة على حجارة

متفاوتة الحجم يتكوّن منها ظاهر الطريق . ولا توضع الصفائح إلاّ بالقرب من المدن . وكانت طريق الأوراس الشمالي تتركّب من طبقات خمس: فالأولى طبقة الرمل الغليظ. والثانية طبقة الحجارة الصلبة الملتحمة بواسطة الملاط. والثالثة طبقة الحصى. والرابعة طبقة الاسمنت المخلوط بالرمل الغليظ والحصباء وهي محور الطريق، وأخيرا طبقة اسمنت طبيعي ممزوج بحجارة صلبة .

والعرض الأدنى لهذه الطرقات كان ولا شكّ مترين و 37 سنتيمترا وكان عرض الطريق الرابطة بين قرطاج وتبسّة يتراوح بين ستّة أمتار و 75 سنتيمترا وسبعة أمتار . أمّا الطريق الرابطة بين قسنطينة وسكيكدة فقد بلغ عرضها سبعة أمتار وعشرين سنتيمترا .

وكانوا كثيرا ما يلجؤون إلى القيام بأشغال فنيّة كبرى لاجتياز الوهاد وقد اكتشف في الطّريق الواصلة بين قرطاج وتبسّة جدار ارتكاز مبنيّ من حجارة غير منحوتة تغطّي كتلة كبيرة من الحصى الهشّ يبلغ طوله 37 مترا وعلوه ستة أمتار . وكانت الجسور كثيرة فجسر القنطرة يبلغ ارتفاعه عشرة أمتار وله قبو ذو ثلاثة عقود وقد نقشت فيه ورود ورأس حصان وكان جسر باجة يبلغ طوله سبعين مترا وعرضه سبعة أمتار وثلاثين سنتيمترا . وكان يجتاز واد مجردة وله ثلاث حنايا ولا يبلغ جسر شمتو الملقى على نفس النّهر إلاّ خمسين مترا ولكنّه كان يحتوي على خمس حنايا، وكان للجسر الملقى على واد جلف قرب فم العفريت بالبلاد التونسية عشر حنايا وكان لجسر عنابة إحدى عشرة حنية .

وكانوا يقيمون أنصابا ميلية لتبْيَان المسافات ويكتبون عليها معلومات كثيرة عن الأباطرة والحكّام والكتائب والبلَديات والمسافات . وكانوا أحيانا يذكرون الصعوبات التي تغلّب عليها بُنَاةُ تلك الجسور .

10 – أوائل الاستعمار في عهد الامبراطورية

لقد ازدهرت بلاد البربر ازدهارا حقيقيا في عهد الامبراطورية وازداد عدد سكّانها وذلك بفضل استقرار النظام وتطوّر الجهاز الاقتصادي، وكان لا بدّ لإقرار المعمّرين وإرضاء رغائب المحتكرين من التوسّع في احتلال

أراضي أهل البلاد ممّا أثار مشاكل سياسية واقتصادية كان لحلولها تأثير على مصير الهيمنة الرومانية .

وطّد اغسطس استعمار افريقية توطيدا وكان مدفوعا فيما أنشأه إمّا بضرورة مراقبة البربر كما هو الشأن في موريطانيا حيث كانت المستعمرات العسكريّة في تنس (Cartennae) وقرب قرايه (Gungu) وبجاية (Saldae) و" تكلات " (Tubusuptu) و" أزفون " (Rusazus) بالمرصاد لمملكة يوبا التي لم تزل مستقلّة حينذاك، وإمّا بمسّ الحاجة إلى إقرار قدماء الجند أو المعمّرين الإيطاليين الذين انتزع أغسطس ممتلكاتهم .

ولقد أسّس أغسطس ثلاثة أنواع من المستعمرات . فالأولى كانت مستعمرات يعيش فيها جنبا لجنب النازحون من ايطاليا وعدد عظيم من الأهالي الذين احتفظوا بالنظام الذي كانت عليه مدينتهم فيما قبل كهنشير قصبات (Tuburbo Maius) .

أمّا الثانية فهي عبارة عن منطقة ريفيّة بأراضيها وبنظامها الخاصّ متعايشة مع المدينة البربريّة . مثل دقة (Thugga) وهنشير قرقور (Masculula) وعين تونقة (Thignica) وشواش (Sua) وعين العسكر (Suturnuca) وهنشير سيدي ناصر برقو (Medeli) .

أمّا الثالثة فهي مستعمرات ذات أهمّية أكبر لها أحيانا مناطق فسيحة جدّا . فكانت منطقة سيرتة تبلغ في الشمال واد ويدر قرب الساحل، وفي الشرق عنونة (Thibilis) وتتجاوز في اتّجاه الجنوب الشرقي عين البرج (Tigisis) وتصل غربا إلى الميلة (Milev) ولا شكّ أنّ مصب واد المساقة (Ampsaga) الكائن بالشمال الغربي كان بمثابة الحدّ بالنسبة إلى منطقة سيرتة . ولا نعرف بالضبط في أيّ فترة سبقت حكم تراجانوس أنشئت مستعمرات القالة (Minervia Choller) وسكيكدة (Veneria Rusicca) والميلة (Sarnia Milev) التي كوّنت بالإضافة إلى سيرتة جامعة المستعمرات الأربع (Res PublicaIIIIcoloniarum Cirtensium) أمّا المستعمرة التي كانت الكاف (Sicca) وهي السوق

البربرية القديمة مركزا لها فقد أصبحت تدعى سيرتة الجديدة وتحتوي كذلك على أحياء عديدة .

ووزّع أغسطس وتيباريوس أراضي كثيرة لإقرار النازحين من ايطاليا الذين أفلسوا من جرّاء الأزمة الفلاحية وعلى الأخص لإرضاء رغبات الرأسماليين الرومان المتكالبين على إنفاق أموالهم في إنتاج القمح الذي كانت سوقه رائجة وأرباحه مضمونة . فلم يستنكف ترملسيون (Trimalcion) الذي اتّسعت أملاكه اتّساعا عظيما من أن يطمع في افريقية . فهذا التكالب على أراضي البربر هو الذي أدّى إلى ضمّ نوميديا ثم موريطانيا وهو أمر لا تبرّره أيّة ضرورة عسكريّة . ولقد صرّح بلين ملاحظا هذا التكالب أنّ ستّة ملاّكين فقط كانوا يقتسمون نصف افريقية .

11 ـ تراجانوس وسياسة الحشد

عندما أراد تراجانوس توسيع رقعة الاستعمار اصطدم بعقبة الملكية القبلية، ولكنّه توصّل إلى حشد الأهالي وترحيلهم . فأقرّ المزالمة في أفقر جهة ووزّع الأراضي التي انتزعها منهم على ملاّكين آخرين . ونقل جانبا من قبيلة نوميديا العظيمة الكائنة أرضها قرب مداواروش وحيدرة (Ammaedara) لينزلهم أراضي جديدة يُحْيُونَهَا غير أنّ معظم القبيلة بقي مجتمعا حول الخميسة (Tubursucu Vunidaum) على بعد أربعين كلم من الجنوب الغربي من سوق أهراس وكانت سنة مائة مدينة بنظامها البلدي وقوّادها (Principes gentiris Numidarum) وقد جعل منها تراجانوس بعد ذلك بقليل بلدية .

انتزع الامبراطور لفائدة قابس وقفصة أراضي قبيلة نبجنّي الكائنة بالجنوب التونسي ولم يترك لها إلاّ أراضي هزيلة بالقرب من شطّ الفجاج. أمّا قبيلة سبربرة النازلة قرب العلمة (سان أرنو) فإنّها اضطرّت إلى تعويض أراضي الانتجاع بمساحة ضيّقة من الأرض قرب شطّ البيضاء .

ولقد انتهي الأمر بالسياسة الامبراطورية الاستعماريّة إلى تقسيم أملاك الأهالي العقاريّةفي افريقية كما وقع في الجزيرة العربية وسوريا إلى قسمين :

قسم وهو الأصغر ترك في حوزة ملاّكيه القدماء الذين اضطرّ جانب عظيم منهم إلى أن يشتغل كعامل فلاحيّ في الأراضي الشاسعة ، وقسم جزّىء إلى أراضٍ فسيحة سلمت لعائلة الإمبراطور أو طبقة الشيوخ الارستقراطية وأسند جانب منه إلى المدن التي كان يسكنها قدماء الجند والطبقة الارستقراطية البربرية .

12 — تقدّم الحيـاة في المـدن

نمت الحياة في المدن مع تغلغل الاستعمار ، فالمدن التي كان يسكنها قدماء الجند والملاّكون أو المراكز التي أقرّت حولها القبائل وسكّان قرى الأملاك الشاسعة ما انفكت كلّها تتزايد عددا ومكانة . وكان الأباطرة يشجّعون هذه الحركة التي كانت تساعد على توطيد النفوذ الروماني وتضدن التجنيد . ولهذا الغرض كانوا يكثرون من الجمعيات الرياضية المكوّنة من شبّان يقومون في أوقات الشدّة مقام الحرّاس ويظهرون دائما في أعين الجماهير البربريّة مظهر الجماعات المتشبّعة بثقافة الرومان ومعتقداتهم وعاداتهم، ولقد شجّع تراجانوس وهادريانوس على إنماء المدن أكثر ممّا فعله كلوديوس وأسرة فلافيان، وبعد هؤلاء رفع الأباطرة بصورة تكاد تكون آلية مرتبة كلّ المدن المزدهرة فأصبحت مستعمرات أو بلديات .

ولم يكن التخلّي عن الحياة القروية هو العامل على ازدهار المدن . فكانت المدن الافريقية باستثناء قرطاج تظهر في ذلك الوقت عظيمة غير أنّ أغلبها يفوق في الأهمّية دائرة من دوائرنا (معدل خمسة آلاف ساكن أو ستّة آلاف) ولا شكّ أنّ الكثير منها لم يبلغ هذا الرقم، ولقد كان جانب من نشاط السكّان منصرفا إلى الشؤون الريفية غير أنّ المدينة كانت رغم ذلك الخليّة الاجتماعية الحقيقية . وفي الجملة فإنّ الامبراطورية كانت جامعة مدن تعترف للعظيمة من بينها بالزعامة .

13 — أسرة سواريوس وانتزاع أراضي القبائل

نشطت الحياة البلدية في عهد أسرة سواريوس نشاطا كبيرا ولم ينس سبتيموس سواريوس — وقد أصبح سيد العالم — أنّه افريقي ، فأضفى نعمه على مدن بلاد

المغرب وخاصّة على مدن طرابلس موطنه . فلم يقم بتجميل لبدة (Leptis magna) فقط بل منحها القانون الايطالي . لذا نقشت هذه المدينة ما يسجّل اعترافها "بالفضل الإلهي النادر" الذى حَظِيَتْ به. ولقد ترتّبت عن سياسة الامبراطور الاستعمارية وتشتيته للبربر البدو صوب الصحراء وتكاثر الجمال نتائج أبان ستيفان قزال وأ ـ ف ـ قوتيه (Gautier) خطورتها البالغة .

وضاعف سبتيموس سواريوس وأبناؤه مقاومة البدو الذين نظّمت ترحالهم أسرة الانطونان . ومن أجل تعميم غراسة الزياتين تضاعف الإقبال على أراضي الإنتاج التي كانت ـ حتى ذلك الوقت ـ محتقرة وكان ترتيليانوس الافريقي يعبّر حينذاك في إطنابه المعهود عن المعتقد السائد في ذلك الوقت القائل بضيق مجال النشاط البشري "يزداد استغلال العالم وتعظم ثروته يوما بعد يوم ففي كلّ مكان ديار ، وفي كلّ مكان سكّان ، وفي كلّ مكان بلديات ،وفي كلّ مكان حياة . أى أبلغ دليل على تزايد الجنس البشري . إنّنا عالة على الدنيا . فالعناصر الطبيعية لا تكاد تسدّ حاجاتنا وأصبحت الضرورات أشدّ تأكّدا وأصبحت لا تسمع من الحناجر إلاّ صيحة واحدة : "إنّ الطبيعة سوف تضيق بنا" .

وكان من الضروري طرد البدو من الأراضي التي مازالوا يملكونها لتوسيع نطاق الاستعمار الروماني . فلم يقتصر الرومان على حشدهم بل طاردوهم حيثما أمكن استغلال أراضيهم،وكان تقدّم "الليمس" في طرابلس ونوميديا وموريطانيا مظهرا عسكريا لهذه السياسة الرامية إلى انتزاع الأراضي بالعنف،ولقد كان حاجزا منيعا دون هَجَمَات البربر الذين أبَوا الرضا ببؤس الحياة الحضرية والرمي بهم في الصحراء فكانوا "بؤساء تتّقد صدورهم غيظا على أهبة إضرام نار الثورة" على حدّ قول ستيفان قزال .

14 ـ غزو البربر الجمّالة للصحراء

كانت الصحراء الواقعة جنوب افريقية الصغرى آهلة كلّها إلى ذلك الوقت بالاثيوبيين، وكان بعضهم غير صريح النسب ممّن "قد لفحت الشمس وجوههم"

وكانوا ماهرين في نحت الصّوان يعيشون من إنتاج الواحات ولهم علاقات تجارية مع بلاد البربر ولقد أفقدهم استقلالهم حادثان متّحدان في الزمن متلازمان: وهما استخدام الجمل باستمرار وهجرة البربر وقد أثخنهم الاستعمار الروماني بضرباته .

وترتّب عن انتشار الجمل في بلاد البربر عواقب سياسية لا تحصى ولا تعدّ،وكان إلى ذلك الوقت قليل الاستعمال على الأقل لأنّ النصوص سكتت عن ذلك على ما يظهر . واتّفق أن كان انتشار الجمل موافقا في الزمن طرد البربر . وهكذا دخل الصحراء الجمل والبربري يحمل الأول الثاني. وانتصر البدو البيضُ على السُّود الحَضَر إمّا عقب هجمة واحدة أو بعد هَجَمَات متتابعة، بل ربّما بلغ بعض هؤلاء الذين يجوبون الصحاري بلاد السودان فأسّسوا امبراطورية غانة ومملكة كوكية على ضفّة النيجر .

لم يبق من يومئذ لبلاد المغرب أجوارها الاثيوبيون المسالمون الذين لم يهدّدوا قطّ "الليمس" بصورة جدّية وأصبح أجوارها من البربر المشاغبين المتمرّدين جبلة . ولم يشكّ الرومان في أوّل الأمر هذا التغيُّر . فقد كانوا يفضّلون الاتّصال بالبيض فيتّخذونهم أدلاّء لقوافلهم . وكانوا يعتدّون بقوّتهم فلا يَخْشَوْنَ هجمات القبائل المتنقّلة خاصّة وأنّهم كانوا يسمّون رؤساءها (focderai, pacati) يخضعونهم لسلطتهم ولكنّهم بذلك هيّؤوا من حيث لا يشعرون انهيار امبراطوريّتهم الافريقية . ذلك أنّهم أحلّوا البدو الجمّالة الأشدّاء المنضوين تحت لواء قبائل منيعة لا تنام لها عين محلّ بدو السباسب الرحّل .

15 — مرسوم قراقالا

بلغ العمل الذي قامت به الامبراطورية لتوطيد النفوذ الروماني في المقاطعات أوجه في عَهْد قراقالا (Caracalla)ابن سبتيموس سواريوس. وكان تكالب "الآفاقيين" على نيل حقّ الاستيطان أحدث أمرا واقعا أقرّه المقنّنون بدستور (أو مرسوم) قراقالا الصادر سنة 212،ولم تبق إلاّ أقلّيّة في تناقص مستمرّ لم تحظ بهذا الحق،وبهذا المرسوم أصبح جميع أحرار

الامبراطورية مواطنين . ومنذ أن اكتشف في جيسن (Giessen) رقّ مشوّه ربّما كان النصّ الاغريقي نسخة منه ــ بدأت المناقشة لمعرفة ما إذا كان هذا المرسوم ينصّ على بعض الاستثناءات، والرّاجح أنّه استثنى الفلاّحين الذين يسكنون الأرياف والسباسب من دون أن يخضعوا إلى نظام والذين لم يكن من الميسور عليهم أن يقيموا الدّليل على أنّهم أحرار . ومن ذلك الوقت بطل المشجّع الذي كان يتمثّل في الامتيازات البلديّة والفرديّة. فلقد افتقد الاستيطان بانتشاره جانبا كبيرا من هيبته ومفعوله، فقد كان هذا المرسوم الذي أولدته الظروف مجرّد إعلان عن مرحلة أخرى في تاريخ الامبراطورية ولم يخلق شيئا جديدا .

16 ــ بوادر الانهيار

كان حكم أسرة سواريوس أوج الاستعمار في افريقية غير أنّ بوادر الانهيار ما لبثت أن ظهرت.ففي عهد سواريوس الاسكندر ثار أهالي جهة سطيف وطردوا المعمّرين . واضطرّ الامبراطور ــ للحدّ من إفلات الأراضي من حوزته ــ إلى إعادة بناء القلاع أو توسيعها، وإلى التخفيف من الضرائب كما فعل ذلك قراقالا سنة 216 من قبل حسبما كشف عنه نقش وجد في بنازا (Banasa) وتشهد الأسوار العظيمة المبنيّة حول المدن والتحصينات الجديدة ومواصلة هذا العمل في عهد غرديانوس الثالث على أنّ الأمن كان معدوما مثلما كان في عهد سبتيموس سواريوس. فلم يعد في مقدور الامبراطورية حماية المعمّرين الذين كانت أقرّتهم، وسرعان ما اضطرّ المعمّرون الذين استوطنوا جنوب الاطلس إلى حفظ أمنهم بوسائلهم الخاصّة وراء الخندق ومراكز الليمس المحصّنة في الصحراء .

17 ــ نظام الأراضي

إنّه من المفيد التعرّف إلى النظام الذى كانت تخضع له الأراضي مصدر كلّ الثروات في عهود ازدهار افريقية ، فالأراضي التي انتزعت من الشيوخ في فترة الجمهوريّة والتي اقتطعت من تراب القبائل العديدة كانت تكوّن أملاك الامبراطور الفسيحة (saltus) ورغم اغتصاب نيرون لبعض الأملاك

الخاصّة فإن فريقا من الشيوخ بقيت في حوزته أملاك هامّة. وكذلك كان للمدن أراض فسيحة، وكانت القبائل تحتفظ بالأراضي التي حدّدتها الدولة أو في بعض الأحيان تتمتّع بحقّ الانتجاع من دون تحديد كما هو الشأن في موريطانيا حيث كان الاستعمار أقلّ وطأة . وأخيرا فإنّ الأباطرة والجمعيات وحتى رجال الأعمال استحوذوا على مناطق المناجم والغابات .

18 — نظام أملاك الامبراطور

إنّ النقوش الأربعة الكبيرة المكتشفة ابتداء من سنة 1880 في هنشير متيش (116 — 117) وعين جمالة (117 — 138) وسوق الخميس (180 — 193) وعين واصل (198 — 212) وبعض النقوش الأخرى التي تقلّ أهمّية عنها تساعدنا على فهم نظام الأملاك الامبراطورية . كما تساعدنا كذلك، بالرغم عن أنّها لا تتضمّن من سوء الحظّ تدقيقات ذات بال، على معرفة قانون مانسيانوس الذي لا نعرف هل كان يشمل الامبراطورية كلّها (ج. كركوبينو) أو كان خاصّا بافريقية وحدها (م. رستفتزاف Rostovzeff شارل سوماني) ومعرفة قانون هادريانوس الذي بقي مدى مفعوله محلّ مناقشة كذلك . وعلى كلّ فإنّ هذين القانونين كانا يضبطان الأوضاع القانونية بالنسبة لهذه الأراضي وبالنسبة لفلاّحيها وإذا استثنينا بعض العادات كما هو الأمر في جهة سطيف مثلا فإنّ الامبراطور لا يستغلّ أملاكه مباشرة بل يكاريها للخواصّ سواء كانوا فرادى أو مجتمعين في شركات تجاريّة تستغلّ المزارعين الصغار باقتسامها الغلّة . (Coloni) وهؤلاء المعمّرون المستقرّون أبا عن جدّ — وغالبهم بربر — كانوا يعيشون في قرى إمّا في الأرض نفسها حول المباني الرئيسية أو قريبا منها . وكانوا يكوّنون جمعيات مستقلّة ذات طابع ديني تنتخب حكّاما (magistri) وتنظّم الحفلات الريفيّة (nundinae) وفي كثير من الأحيان تكون لهذه القرى (vici) شخصيّة قانونيّة وترتقي إلى مرتبة مدينة . وكان فيها مثل كلّ مدينة طبقتان من السكّان: طبقة القرويين (vicani) وطبقة الأجانب المستوطنين (incolae) ولا تدفع ضرائبهم لمصلحة الجبايات بل إلى مستلزمين (conductores) اشتروا لمدّة خمس سنوات حق زراعة الأراضي غير الموزّعة وقبض منابهم من محصول قطع الأراضي الموزّعة .

وكان على موظّفي الامبراطور (procuratores augusti) حماية المعمّرين ومساعدة المستلزمين على جباية الضرائب بالخصوص .

وكان للمستلزمين وزن كبير فقد كان لهم بفضل أموالهم الطائلة تأثير كبير وكانوا بتألّبهم يقضُون على النزعة الاستقلالية التي كانت تبدو من موظّفي الامبراطور .

ويأتِي في أدنى درجات السلّم الإداري موظّف الأملاك الامبراطورية وهو مُعْتَق بسيط تقتصر مهمّته على التنفيذ وكان يحمل المعمّرين على الطاعة بالسوط والعصا أو السجن . ثم يأتي في مرتبة أعلى موظّف الجهة وكثيرا ما يكون فارسا تتلخّص مهمّته الافلاطونية في الحفاظ على حرّية المزايدات في وجه المستلزمين المتألّبين المتضامنين وفي ضبط قوانين إدارة الجبايات . وفي أعلى قمّة من السلّم يأتي موظّف الدائرة الإداريّة ومقرّه قرطاج وهو فارس يتقاضى جراية مرتفعة يمثل الامبراطور ويوحي إليه في الغالب بالسياسة الواجب توخّيها كما يُدير شؤون الموظّفين ويُراقبهم ولديه القوة المسلّحة . غير أنّ كلّ موظّف في أيّ سلّم كان له مساعد يُعينه ويراقبه .

إنّ قسوة موظّف الأملاك الامبراطورية لا تكفي دائما لقمع ثورات المعمرين الخاضعين لاستغلال المستلزمين فيضطرّ موظّف الدّائرة الإدارية إلى استعمال القوة المسلّحة لقمع ثورة المعمّرين كما وقع ذلك في أملاك بورينتانوس (Burunitanus) قرب بوسالم .

إنّ الإدارة الرومانية لا ترفض ما تطلبه شركات رجال الأعمال القوية وكان لبعض الأملاك الخاصّة الفسيحة (saltus privati) نظام مماثل لنظام الأملاك الامبراطورية .

كما كانت أملاك أخرى يستأجرها المزارعون أو يسيّرها ناظر .

إنّ أراضي المدن ملك من أملاك أحفاد النازحين الرومان والطبقة الارستقراطية البربرية، ومنهم كانت تتكوّن الطبقة البرجوازية البلدية . وكانوا

لا يستغلّون بأنفسهم أملاكهم الفسيحة في غالب الأحيان ويؤجرونها للأهالي أو يتّخذون لها عملة فلاحيين . وكانت توجد أملاك صغيرة ولكنّها قليلة العدد مآلها الاندماج في الأملاك الفسيحة .

19 – مُزارع حديث النعمة

إنّه من باب إقرار الأمر الواقع القول بأنّ جميع الثروات الأهلية الكبرى تفرّعت كلّها عن نواة متواضعة بل كان يحدث أحيانا أن يتوصّل مزارعون بسطاء ولكنّهم مَهَرَة (تصفهم النقوش بعبارتي (agricolo bonus, diligers agricolo) إلى التحصيل على قطعة من الأرض أو توسيع نطاقها، وبهذا تصبح لهم مكانة كبيرة في المدينة، وهذا بالضبط ما كان من أمر أحد حصّادي مكثر أصبح ذكره في هذا المقام مألوفا وقد روى قصّة حياته بنفسه (CIL, VIII, 11814) فقال: "ولدت في عائلة فقيرة ولم يكن لأبي موارد ولا دار يملكها . فانكببْتُ من يوم وُلِدْتُ على العمل في ضيعتي فلم أعرف راحة وكذلك أرضي . وإذا أتت فترة نُضْجِ سنابل القمح كنت أولَ من يقلع الكلأ ، وإذا ظهرت في الأرياف جماعات من الحصّادين يبحثون عمّن يؤجرهم في ضواحي سيرتة عاصمةالنوميديين أو في السهول التي يشرف عليها جبل جوبيتير كنتُ أوّل من يحصد قمحه . ثمّ إنّي غبت عن وطني اثنتي عشرة سنة كنت أحصد أثناءها لغيري تحت شمس من نار ولقد سهرت طيلة إحدى عشرة سنة على جماعة من الحَصَدَة وكنت أقطع سنابل القمح في ضَيعات النوميديين ولم أزَلْ أكدّ قانعا باليسير حتى أصبحت أملك دارا وأرضا، فأنا اليوم أعيش في رفاهية بل إنّي نلت شرفا كبيرا إذ عُيِّنت في مجلس الشيوخ ببلدتي وأصبحت مُراقبا بعد أن كنت فلاّحا صغيرا . لقد رأيت بعيني أولادي وأحفادي يُولَدون حولي . لقد كانت حياتي وديعة محفوفة بتقدير الجميع" .

هذا مزارع واحد نجح بعد حرمان طويل في التحصيل على المال الذى به تسنّى له اشتراء ضيعة مكّنته من أن يحسب له حساب في المجتمع، لكنْ كم من مزارع مات بائسا بعد أن أضاع حياته بين فرق الحَصَدَة (turmae messorum) "تحت شمس من نار". ليُثْرِيَ الملاّكين الكبار .

20 – حياة أهل القصور حسب الفسيفساء

لا شيء يطلعنا على أهمّيّة إدارة الأملاك الخاصّة أكثر من الفسيفساء التي كانت تزخرف منازل الأشراف البربر بالمدن أو الأرياف . وهذه الفسيفساء يمتدّ تاريخها من القرن الثاني إلى العهد البيزنطي غير أنّ الصور الدّقيقة التي تُتْحفنا بها يمكن الاستناد إليها لفهم النظام القارّ الذي كانت تخضع له الحياة الفلاحية في افريقية إذ هي تعكس مظاهر الحياة المألوفة طيلة الاحتلال الروماني كلّه .

فبقرب طبرقة (Thabraca) تصوّر فسيفساء القرن الثالث والرابع مباني مختلفة لإحدى الضيعات . ففسيفساء الوسط تصوّر مسكن السيد المبنيّ على غرار برج في منتهى ساحة وعلى جانبيه برجان صغيران مربّعان سطحهما حاد يصلهما رواق . وحول المبنى تمتدّ حديقة للنزهة وروضة مزهرة تطير فوقها العصافير والدّيكَةُ البرّية بينما الإوزّ والبطّ يمخُر ماء الغدير، وعلى جانبي الفسيفساء الأولى منظران آخران يمثّلان مباني الضيعة : فمن جهة نجد بين الزياتين والكروم اصطبلا فسيحا مُطِلاّ من ربوة وقع عليها الحجل وظهر في المقدّمة حصان يكدف وراعية تغزل الصوف تحت شجرة سرو وهي تحرس شياهها . ومن جهة أخرى نجد بناية كبيرة متركّبة – ولا شكّ – من مخازن الزيتون والخمر وأمامها دسكرة وبركة فيها سمك. وبديهي أنّنا أمام ضيعة كبيرة هيّئت لإنتاج الخمر والزيت وتربية الخيل والماشية والدواجن .

ونرى في فسيفساء وذنة الواقعة في أسفل وادي واد مليان جنوب قرطاج (أوائل القرن الثاني) مشاهد متنوّعة : فهذا راعٍ انتصب على عتبة منزل معمّر أو مستودع للحبوب واتّكأ على هراوته يحرس قطيعا من الضأن والماعز والبقر ولا يبعد كثيرا عن فلاّح يدفع محراثا يجرّه ثوران وهذا في الوسط حصان يشرب من حوض ملأه رجل من بئر قريبة، وهذا حمار يسير تحت تهديد العصا وحول هذه المناظر نرى مشاهد صيد : فهؤلاء ثلاثة من الفرسان الأغنياء يقتلون أسدا ، وهذا رجل قد تستّر تحت جلد عنز يتصيّد الحجل وهؤلاء آخرون هجموا على خنزير وحشي بالحِراب .

أما فسيفساء السيد يوليوس المكتشفة في قرطاج سنة 1920 وما تنم عليه من مهارة فهي توفّر لنا معلومات قيّمة حول ما كان عليه نظام الضّيعات الكبيرة في القرن الرابع ولا شك وما كان يقوم به أهلها، وفي وسطها نجد منزلا يحميه برجان يصلهما رواق وقد كاد أن يكون محصّنا كالقلاع ليصمد أمام الهجمات، وقد أحاطت به غابة من السرو أو النخيل وحدائق وبساتين، وحوله الزياتين وحقول القمح بالخصوص، ولا تنس الكروم والماشية وقد أشرف السيّد على استغلال ضَيعاته من عَل. ويصرف أهمّ نشاطه في الصيد مع أتباعه وكلابه والساهرين عليها . أمّا زوجته الغارقة في الحلي الثمينة فهي تُؤثر الجلوس على كرسيّ الحديقة يلاطفها النسيم العليل فتقضي هناك ساعات طويلة بيدها مِرْوَحَة، تأكل الثمار الباردة وتتمتّع برؤية نشاط الدسكرة وتلتذّ بما يقدّم لها من باكورة الزهور والثمار والماشية . فصاحب القصر وزوجته يعيشان عيشة النُّبلاء في ضيعتهما بينما يكدح جمع غفير من الخَدَم والفلاّحين من أجل إرضاء شهواتهما، وهم يكدّون كامل يومهم ويسكُنُون أكواخا حقيرة . أمّا فارسا الجم فيروق لهما كالسيّد يوليوس صيدُ الأرانب بواسطة الكلاب السلوقية، وينطلق فارسان آخران من قرطاج إلى الصيد على متن بغل محمَّل بالمؤونة يصحبهما مطارد يحمل هراوة . إنّه لهو الأمراء يعتمدون على الناظر لتصريف شؤون أملاكهم .

إنّ هذه الفسيفساء كلّها وجدت في البلاد التونسية . إلاّ أنّه عثر على غيرها في المقاطعات الأخرى . فمن بين تلك التي اكتشفت قرب زليطن في طرابلس واحدة تمثّل مشهد دراس سنابل القمح في البيدر على مرأى من الناظر وصاحبة القصر . أمّا الفسيفساء التي عنوانها "أشغال الحقل" المكتشفة في مغنى من مغاني قيصارية (caesarea) (شرشال) فإنّها تصوير حيّ ماهر ملوّن لطريقة استغلال ضيعة من ضيعات موريطانيا القيصرية، وفي أعلى المشهد فلاّح ماسك بمحراث تجرّه ثيران يضربها آخر لتنشيطها وقد انكبّ الاثنان على عملهما في اندفاع كبير ، وفي الوسط يمرّ المحراث وراء زارع الحبوب لتغطيتها ، وفي أسفل الصورة ينقّي عامل حقل الكروم يرقبه الناظر .

21 – سُوقَةُ الأريـاف والإقطاعيون

إنّ هذه الفسيفساء تصوّر خدمة الأرض الشاقّة فلم يكن الإقطاعيون النّبلاء هم الذين استخرجوا خيرات الأرض الافريقية وأتاحوا إبراز ثروتها الاسطورية، بل هم الفلاّحون سواء كانوا ملاّكين لقطع صغيرة من الأرض أو معمّرين أو عملة فلاحيين في الضيعات الكبيرة التي تملكها الطبقة الارستقراطية الرومانية أو البربرية . فهذه السّوقة العظيمة العدد البائسة التي لَفَظَتْهَا المدينة لم تجن من محاسن السلم الرومانية إلاّ نظاما أكثر إحكاما. وإذن فإنّه كان يوجد في افريقية بعض الإقطاعيين النّبلاء وفي مقدّمتهم الامبراطور كانوا لا يعيشون في أراضيهم ، وطبقة ارستقراطية رومانية أو بربرية تعيش في المدن وتكلّف عنها الوكلاء بمراقبة أملاكهم ، وفلاّحون صغار كانت الضيعات الكبيرة تهدّد أملاكهم بالابتلاع، ويوجد أخيرا خلق عظيم من الرقيق والعملة الفلاحيين يدفعون الضرائب إلى المستلزمين أو الموظّفين .

22 – الحصّة السنوية

كانت المَنْتُوجَاتُ الفلاحية تستهلك في افريقية نفسها، أو يسلّمها إلى الدولة المطالبون بدفع الضرائب أو شركات رجال الأعمال، أو يصدرها التجّار .

وكانت افريقية بالرغم عن وفرة سكّانها تنتج ما كان يجعلها في مأمن من المَجَاعَات التي أنهكت مقاطعات أخرى، وكانت الامبراطورية المسؤولة عن تزويد رومة تستخلص ضرائب الأفراد والشركات المستلزمة (annona) مقايضة لا نقدا وكانت هذه المنتوجات توضع أولا في مخازن منها يأخذ الجند والموظّفون حصّتهم ثم يصدر ما تبقى إلى ايطاليا أو إلى المقاطعات الأخرى ، فكان ديوان "الحصّة السنوية" المحرّك الرئيسي لتجارة البحر المتوسّط . وكانت الدولة تستعين في نقل المنتوجات بطوائف قوية من مجهّزي المراكب (naviculaici) ثم في آخر الأمر سيطرت عليهم وخضعوا لمراقبتها . وكان مجهّزو المراكب في افريقية مجتمعين

في دائرة واحدة . وكانوا يقومون بدور عظيم . فالكثير من القلال المستعملة في أوستيا(Ostie) أوبوزول (Pouzzoles) كانت تحمل أسماء افريقية . ففي أوستيا وهو الميناء الذي كان يستقبل "الحصّة السنوية" كان لمجهّزي المراكب البربر وكالات تفتح على ساحة عظيمة قريبة من المسرح . ومن بين النقوش السبعة المكتشفة ترجع ستة منها إلى قرطاج وبنزرت وصبراتة (طرابلس) وكان مجهّزو المراكب يتّخذون سفنا مختلفة الشكل . وفسيفساء المداينة (Althiburos) تصوّر نماذج متغايرة لمراكب البحر والنهر ويحمل الكثير منها اسما لاطينيا أو لاطينيا ويونانيا معا مرفوقا في بعض الأحيان بشواهد مرويّة عن شعراء لاطينيين . وهكذا فقد غنم الملاّكون الكبار والتجّار ومجهّزو المراكب من افريقية أرباحا طائلة بقي القسط الأوفر منها في هذه البلاد .

الباب السابع

أفريقية الرومانية من عهد أغسطس إلى غرديانوس الثالث: تغلغل التأثير الروماني

1 - المدن الرومانية. 2 - الثقافة الرومانية. 3 - الديانة الرومانية: عبادات الأهالي وأوائل المسيحية

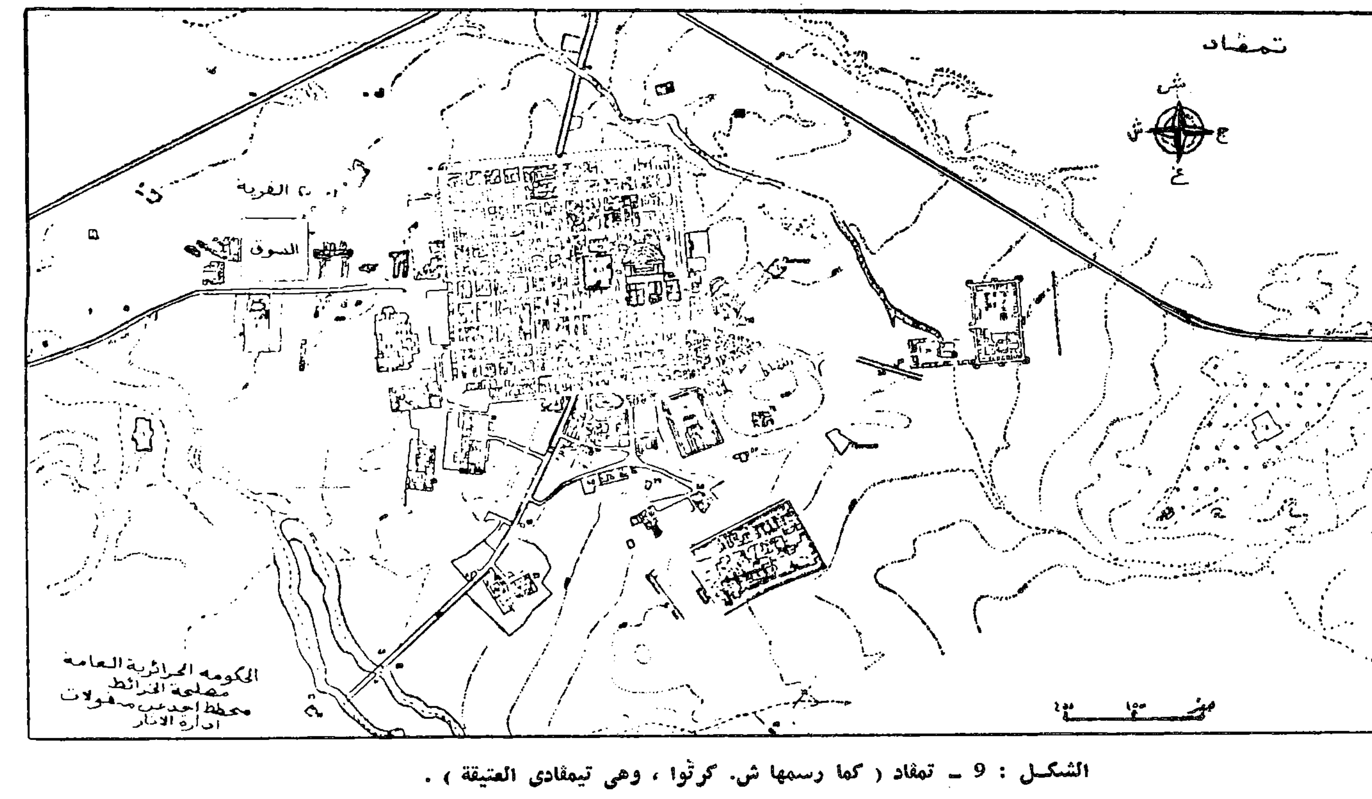


I ـ المدن الرومانية

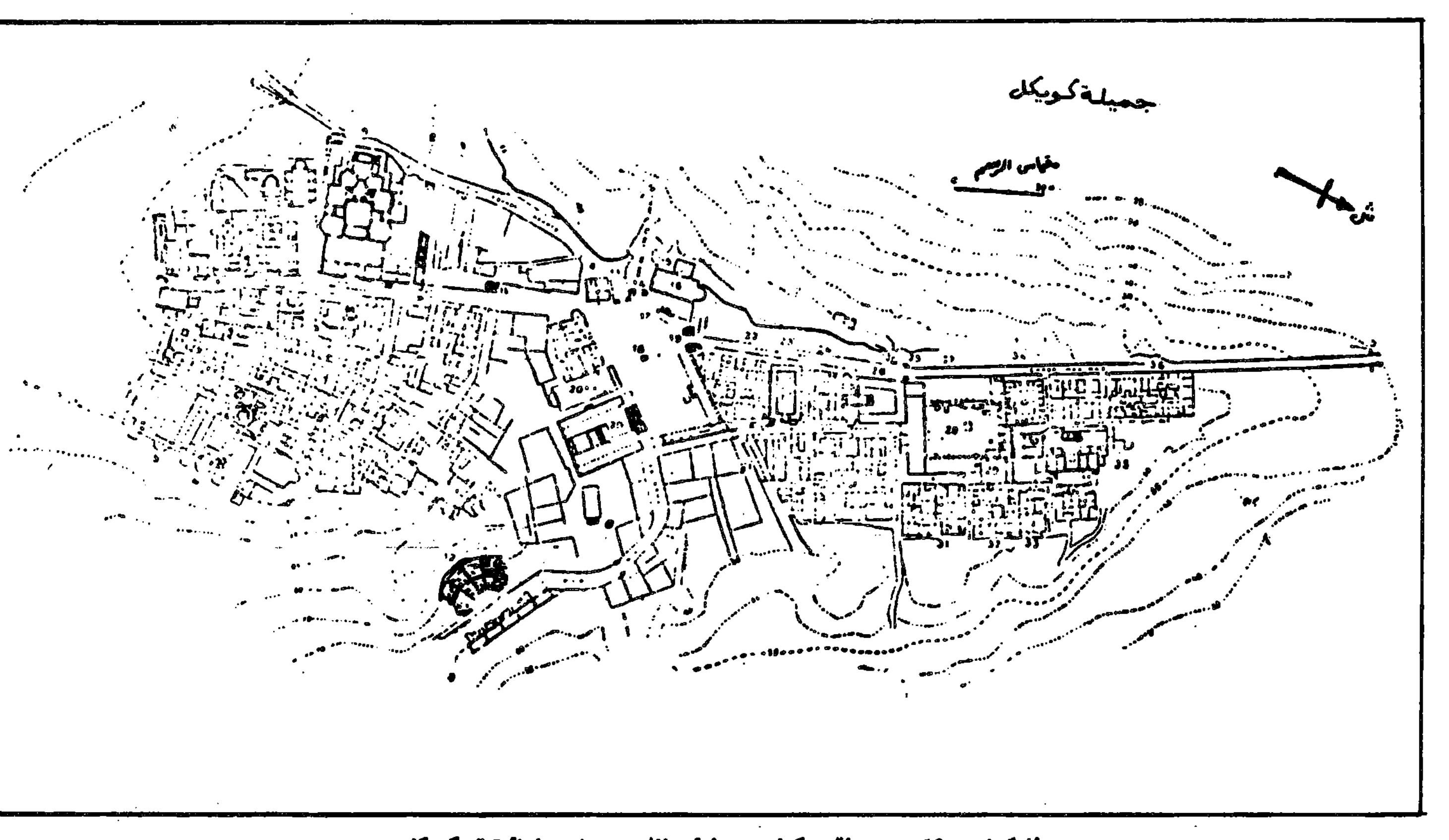
خصّص أغنياء الأفارقة جانبا من ثروتهم لتحسين منازلهم ومدنهم . ولا شكّ أنّ المنازل الريفية التي تصوّرها الفسيفساء كانت ملكا للموظّفين والمستلزمين أو لكبار الملاّكين الذين كانوا يقضون بعض الوقت في أراضيهم لقضاء شؤونهم أو للصيد ــ وكانت الارستقراطية الرومانية والأهلية تسكن المدن حيث كانت تسعى إلى تقليد مباني رومة وهندستها لتوفير أسباب الرخاء.

1 ــ مدن طرابلس

كانت توجد في طرابلس على ساحل سيرتا الكبرى والصغرى ثلاث مدن بلغت أوجها في عهد سبتيموس وهي طرابلس (OEA) في الوسط وصبراتة (Sabratha Vulpia) غربا ولبدة (Leptis Magna) (وعلى بعد 3 كلم من حمص) شرقا . وأعظم أثر بقي في مدينة طرابلس التي نالت منها الحضارات ومعارك الشوارع على مرّ العصور هو قوس نصر ذو أربع واجهات تمّ إبرازه وترميمه ولكنّه لا تزال توجد حوله أطلال المنازل،ولقد أثبت علماء الآثار الايطاليون في صبراتة على بعد سبعين كلم غربي طرابلس وجود معبد (الكابيتول) وكنيستين مسيحيتين ومعبد ومسرح وربّما قاعة اجتماع المجلس البلدي . ولكنّ لبدة وطن الامبراطور هي التي تزخر بأعظم الثروات الأثرية . فقد تمّ بعد الكشف عن أرصفة الميناء وقوس نصر ذي أربع واجهات على جانب كبير من الروعة وحمّامات رفيعة الزخرف تزوّد بمياه المطر



الشكل : 9 ـ تمقاد (كما رسمها ش. كرتوا ، وهي تيمقادي العتيقة) .



الشكـل : 10 ـ جميلة (كما رسمها ل. لاشي ، واسمها العتيق كويكل) .

والآبار ومياه واد لبدة . وتوجد فيها آثار منتشرة عثر فيها على ساحة الامبراطور العمومية وقاعة للعدالة ذات أروقة ثلاثة . وعثر أيضا على مسرح وملعب . ولم يبق من قابس (Tacapae) ميناء سيرتا الصغرى إلاّ آثار قليلة . إلاّ أنّه كانت توجد بالقرب من بوغرارة مدينة جيغتي (Gighti) التي تمكّن علماء الآثار من إبراز ساحتها العمومية المحاطة من ثلاثة جوانب بأرتجة ذات أعمدة كُورَنْتية، والتي لا تزال ماثلة فيها آثار الكابتول وقاعة اجتماع المجلس البلدي، وبالقرب منها آثار الحمّامات والسوق(169 — 168)

2 — مدن البروقُنْصُلية

كانت البروقنصلية بلادا زاخرة بالمدن . ويوجد على ساحلها أو بالقرب منها : المهدية (Gummi) ثم رأس الديماس (Thapsus) فلمطة (Leptis Minor) فالمنستير (Ruspina) وصفاقس (Taparura) وقد استعملت آثارها لتشييد القصبة والمساجد وسوسة (Hadrumetum) وقد جعل منها تراجانوس مستعمرة ولقّبها بـ (Frugifera) إشارة إلى خصب أريافها وكان لمينائها ثلاثة أحواض أحدها داخلي . كما توجد قرطاج التي سرعان ما أصبحت عاصمة من جديد، وأوتيكة التي تضاءلت أهميّتها عندما طغت على ثغرها الرمال والتي كانت بها مدينة عليا ومدينة سفلى ، فبنزرت (Hippo Diarrhytus) التي كانت تستغلّ منذ ذلك العهد مزايا خليجها الجميل وعنّابة (Hippo Regius) (وتوجد على بعد كيلومترين من عنّابة الحالية) وكانت في أوّل أمرها بلدية في عهد أغسطس ثم أصبحت فيما بعد مستعمرة وكان ميناؤها في مأمن من رياح الغرب لا الشرق وقد اكتشف فيها علماء الآثار حمّامات ومسرحا وساحة عمومية . والمؤمّل تسجيل اكتشافات جديدة في الأراضي التي اشترتها الدولة .

وفي الجهة الوعرة المتاخمة لمنطقة سوسة كانت توجد المراكز الكبرى التالية : تلابت (Thelepte) (المدينة القديمة) وتوجد على بعد 500 متر من تلابت الحالية . وفيها آثار مسرح وحمّامات ومبانٍ مسيحيّة ، والقصرين (Cillium) حيث عثر على مسرح وسبيطلة (Sufetula)

الواقعة في مفترق طرق رئيسية وكانت بلدية في أوّل أمرها ثم أصبحت مستعمرة في آخر القرن الثاني من غير شك، ولا يزال يوجد فيها ثلاثة معابد عظيمة شيّد الواحد إلى جانب الآخر في منتهى ساحة مستطيلة الشكل كما توجد فيها حمّامات وآثار مسرح وكنائس مسيحية .

وكان وادي مجردة ووادي مليان زاخرين بالمدن : منها حيدرة (Ammaedara) والكاف (Sicca Veneria) التي كانت تسيطر على المواصلات الرابطة بين نوميديا والبروقنصلية وتحتلّ موقعا ستراتيجيا هامًّا ، وهنشير المدينة (Althiburos) وكانت بلدية في عهد هادريانوس. وتمتدّ الآثار العظيمة التي بقيت من ساحتها العمومية والكابتول ومسرحها وطرقها المعبّدة على ضفّتي النهر والروابي المجاورة ومكثر (Mactaris) وكانت مدينة في أوّل أمرها ثم مستعمرة في عهد مرقس أورليوس وبقي فيها إلى اليوم قوس النصر الذي بناه تراجانوس ، والساحة العمومية وميدان الرياضة ومبانٍ مسيحيّة وهنشير القصبات (Thuburbo Maius) وهي مستعمرة أسّسها أغسطس وبلغت أوْجها في عهد الانطونان ولا يزال قائما منها إلى اليوم الكابيتول ومعابد كثيرة وسوق وحمّامات ومجموعة من الأعمدة الرائعة .

وكان الناس يتهافتون على السكنى في أحواز دقّة بالخصوص (Thugga) وهي مدينة رفعها سبتيموس سواريوس إلى مرتبة بلدية وتعتبر إحدى مدن بلاد البربر العتيقة التي أحسن التنقيب عن آثارها . فهي زاخرة بالمعالم كالمسرح الذي لا يزال قائما محتفظا بروعته، والكابيتول الذي بقيت أعمدة رتاجه ماثلة، وكذلك باب قاعته وجزؤها الأخير، ويوجد أيضا في دقّة الساحة العمومية ومعبد كيلستيس (Caelestis) المشيّد في عهد سواريوس الاسكندر ولم تبق إلاّ قواعده (Soubassement) وبعض الأعمدة وقوس نصر هذا الامبراطور . وعلى مَقْرُبَةٍ من دقّة شيّدت مدينتا تبرسق (Thnbursicu Bure) وعين تونغة (Thigulca) أمّا غربي دقّة فالمدن قليلة فحمام الدراجي (Bulla Régia) وهي على بعد 7 كيلمترات في الشمال الغربي من جندوبة تمتدّ معالمها على نجد يحتفظ إلى الآن بآثار حمّامات هذه المدينة ومساكنها . وكان في شمتو (Simithu) مقاطع المرمر . وكان

يوجد بالقرب من تخوم نوميديا قالمة (Calama) والخميسة (Thubursicu Numidarum) وقد أصبحت بلديّة في عهد تراجانوس ولا تزال أطلال هامّة من كنيستها وحمّاماتها ومسرحها قائمة إلى اليوم . وتوجد طاوورة وفيها بقايا حمّامات وسوق اهراس (thagaste) . وقد لعبت مدينتان ألحقتا بافريقية في تاريخ غير مضبوط دورا استراتيجيا عظيما وهما : مداوروش (Madauros) التي تحتفظ بحمّامات فسيحة وبحيّ كامل لمعاصر الزيت . وخاصّة تبسّة الكائنة في منتهى الطرقات التونسية وفيها قوس النصر المعروف بقوس قراقالا ومعبد شيّد في عهد أسرة سواريوس وفيها خاصّة معالم مسيحية بنيت في العصور الموالية .

3 — مدن نوميديا

كان يوجد في نوميديا شمالا مدينة عظيمة وهي سيرته (قسنطينة) وكانت عاصمة المستعمرات الأربع . وقد عفتْ آثار ميناء سكيكده (Rusicade) وهي منفذ سيرته وميناء القالة (Chullu) التي اشتهرت فيها مصابغ الارجوان . أمّا في الجنوب فقد كانت المدن تشرف على الطرقات المتوغّلة داخل البلاد وهي خنشلة (Mascula) المشيّدة على منحدرات شمال شرقي جبال الاوراس ولمباز وتيمقاد (Thamugadi) التي مكّنت آثارها العلماء من تشخيص مدينة قدماء الجند بساحتها العمومية وكنيستها والكابتول وقوس النصر المعروف بقوس تراجانوس وإن رجع تاريخ بنائه إلى القرن الثالث وحمّاماتها ومراحيضها ومسرحها ومكتبتها الفريدة في نوعها .

ولكنّ أبلغ مدن نوميديا دلالة على الماضي هي مدينة جميلة (Cuicul) الواقعة في بلاد وعْرة جرداء كانت تغطّيها في الماضي الغابات وسنابل القمح. وقد تأسّست في أواخر القرن الأوّل وبلغت أوْجها في عهد أسرة الانطونان . وتصوّر الآثار مدينة أحياؤها حسنة التنسيق وشوارعها محفوفة بالأرتجة وتوجد فيها ساحتان عموميتان أولاهما مُحاطة بالكابيتول وقاعة اجتماع المجلس البلدي والكنيسة والمعبد، وحول الثانية المعبد المشيّد تكريما لأسرة سواريوس وقوس نصر قراقالا والحمّامات التي لم يؤثّر فيها الزمان كثيرا والسوق. والمنازل المترفّهة الأنيقة .

ويجب أن نضيف إلى ما سبق معلم تيديس (Castellun Tidditanorum) الذي وقع التنقيب عنه حديثا والكائن على بعد عشرين كيلومتر تقريبا من شمال قسنطينة فهو يكشف لنا عن جوانب غريبة من مدينة صغيرة معلّقة بسفح الجبل،أمّا أهميّته فهي مستمدّة إلى حدّ ما من تواضع مبانيه وهي الساحة العمومية والكنيسة وفي أغلب الظنّ معبد ميترا .

4 ــ مدن موريطانيا القيصرية

وكان يوجد في موريطانيا القيصرية سلسلة من المواني الصغيرة وهي : جيجلي (Igilgili) وبجاية (Saldae) وتيغزرت (Iomnium) ودلس (Rusuccuru) وماتيفو (Rusguniae) وعاصمة الجزائر (Icosium) وتبازة (Tipaza) التي تحتفظ إلى اليوم في مشهد رائع ببقايا ساحة عمومية وقاعة العدالة ومسرح ومبانٍ مسيحية ، وقبّة سيدي ابراهيم (Gunugu) وتبعد أربعة كيلومترٍ عن غراية وتنس (Cartennae) وسانت لو (Portus magnus) ونومير (Ad Fratres). وأهمّ مدينة ساحلية هي طبعا شرشال حيث تزدحم الآثار وإن غطّت أغلبها المدينة الحالية باستثناء المسرح الذي تحوّل إلى ملعب والحمامات .

وقد شيّدت على النجد النوميدي مدينة سطيف وكانت مستعمرة خاصّة بقدماء الجند بناها نيرْفا (Nerva) في أواخر القرن الأوّل ثم أتيح لها أن تصبح فيما بعد عظيمة الشأن.وكانت توجد في الجنوب الغربي مدينة فلاحية كبرى هي مدينة عين رواء (Horrae) وكذلك مدينة توكفيل (Thamallula) التي كانت تحرس المدخل الجنوبي لسهل ممتدّ الأطراف وكانت مدينة خربة الغدرة في الجهة القريبة تمتدّ مبانيها في مساحة قدرها 55 هكتارا وكانت سور الغزلان (Auzia) مركزا عسكريا هامّا شيّدت مبانيه على سفح نجد مرتفع يوجد بين نهرين ومنه كان من اليسير الالتحاق بالغرب أو الجنوب على السواء،وكانت هذه المدينة بلدية في أوّل أمرها ثم جعل منها سبتيموس سواريوس مستعمرة وأقيمت مدينة سورجواب (Rapidum) على منحدر كائن في سهل بني سليمان الممتدّ الأطراف وكانت تناراموزا

(Thanaramusa) تحتلّ الموقع الذي بني فيه اليوم سجن البرواغية الفلاحي كما كانت لمبدية (Lambdia) تحتلّ مكان المدية .

وفي وادي شلف انتصبت فوق نجد مدينة سوفسار (Dollfusville) وكانت مركزا إداريا لدائرة رومانية . وكانت أفرفيل (Malliana) تحتل الأراضي الخصبة المرتوية من مياه واد بوطان وارتقت أوبيدوم نوفوم (Oppidum Novum) مستعمرة كلوديوس (على بعد 1500 متر من الشمال الشرقي من دي بيري) أعلى ربوة لا تبعد كثيرا عن مخنق الوادي . وكانت المليانة (Zucchabar) تشرف على الوادي من أعلى نجد وعر مطلّ من منحدرات زكار .

وعلاوة على المدن الواقعة على الساحل فقد توغّل الاستعمار الروماني حسب خطّين عسكريين يحاذي الأول البحر ولا شكّ أنّه رسم منذ الاحتلال وهو يمرّ من عين تيمو نشانت (Albulae) وحمام بوحجار (Dracones) وأربال (Régiae) وسان دونيسي (Tasaccora) وكسترانوفا (قرب بيريقو) والحليل (Ballene) وميننا (قرب ريلزيان) و Gadaum أو Cadaum Castra (ولاشك سانت ايمي) ويمرّ الثاني الذي رسم جنوبا في عهد سبتيموس سواريوس من للة مغنية (Numerus Syrorum) وتلمسان (Pomaria) ولاموريسيار (Altava) وشانزي (Caputtasaccora) وتمزوين (Lucu) وبنيان (Ala Miliaria) وتعزامرات (Cohors Breucorum) وقد أحدثت مراكز وراء هذين الخطّين في تيارت وفالديك روسو (Columnata) . وقد وزّعت على قدماء الجند حول هذه المراكز الأراضي فنشأت المداشر أو المدن .

5 ـ مدن موريطانيا الطنجية

كانت الحياة في موريطانيا الطنجية مركّزة في المواني . وقد أصبحت طنجة منذ عهد كلوديوس (42) وكانت إحدى العواصم وتشميش (Lixus) مستعمرتين وكانت طريق تربط طنجة بسلاووليلي (قصر فرعون على بعد 30 كلم من مكناس) وكانت وليلي المشرفة على السهول التي كان يحتلّها الرومان مدينة مزدهرة منذ القرن الأول حيث جعل كلوديوس منها بلدية . وقد أتاحت حفريات حديثة الكشف عن قوس قراقالا وعن شوارع ومنازل

ومعاصر كما أبرزت الساحة العمومية بما فيها قاعة الاجتماعات وكذلك بعض التحف الفنيّة الرائعة : منها كلب من البرنز وهي صورة حيّة عن النحت الروماني، وغلام من البرنز وهو نسخة جيدة من أصل يوناني يرجع تاريخه إلى القرن الخامس قبل المسيح، ورأس من المرمر رأى فيه بعضهم ملامح شاب بربري، وتمثالان نصفيان على قدر عظيم من الروعة يمثل أحدهما بروتوس، والثاني أميرا يحمل إكليلا ذهب بيكار إلى أنّه يمثّل هيرون الثاني .

ولا تزال الحفريات متواصلة في تمودة (على بعد بضع كيلومترات من تطوان) وتاموزيدة (سيدي علي بن أحمد) وخاصّة بنازة الكائنة في أسفل وادي سبو حيث أزيح التراب عن ساحة عموميّة وما حولها من معالم أخرى.

6 ـ الساحة العمومية

كانت المدن سواء منها الأهلية والفلاحية كدقّة في البلاد التونسية وعنونة في الجزائر ووليلي في المغرب، أو العسكرية كتيمقاد ولمباز، أو البحرية كصبراتة ولبدة وقرطاج وأوتيكة وعنّابة وشرشال وطنجة توفّر جميعها المقوّمات الضروريّة للحياة في المدينة .

وكان لعامّة هذه المدن طريقان يلتقيان في الساحة العمومية وفي حالة ما إذا أنشئت المدينة من العدم كما هو الشأن بالنسبة لتيمقاد فإنّه يبدأ بتخطيط الساحة العموميّة حسب النموذج المألوف . وفي الحالات الأخرى فإنّ القوم كانوا يجهدون أنفسهم لإقحام الساحة العموميّة في الرسم الأوّلي بإدخال بعض التنقيحات وكانت الساحة العمومية في الغالب بطحاء مستطيلة الشكل تحيط بها أرْتِجَة تُفْضي إلى المعابد والمحلاّت الإدارية (قاعة اجتماع المجلس البلدي ، قاعات الاقتراع ، منابر للخطباء) والمباني الخاصّة بأصحاب الشكايات ورجال الأعمال . فكانت الساحة العموميّة رمز الحياة العامّة ومحورها، فيها يدلي الحكّام بتصريحاتهم ويُشرفون على مواسم الفداء ويُجرون المناقصات ويَقْضُون بين الناس وفي رحابها كان يصوّت المواطنون ويدفعون الأداء ويتاجرون ويقضون أوقات

فراغهم في التنزّه بين الأعمدة وقد تمّ الكشف في بلاد البربر عن ساحات عموميّة هامّة في صبراتة ولبدة بطرابلس والمداينة وبوغرارة وسبيطلة وهنشير قصبات ودقّة في البلاد التونسيّة وجميلة وخميسة وتيمقاد في البلاد الجزائريّة ووليلى وبنازة في المغرب الأقصى .

7 ـ قاعة اجتماع المجلس البلدي وقاعات الاجتماعات

كان يوجد في مدينة تيمقاد قاعة لاجتماع الهيئة البلديّة مستطيلة الشكل ذات ثلاث فتحات وفي أقصاها منصّة مقاعدها متحرّكة مزدانة بتمثالين وكان القوم يصعدون إليها من أحد الأرْتِجَة فَيَرْقَون مدْرَجا ويمرّون من بَهْو . وفي نفس الواجهة للساحة العموميّة كان يوجد المنبر الخاص بالخطباء وهو امتداد للقسم الأمامي من معبد صغير على غرار المنصّة الحجرية Rostra Julia المقامة في رومة أمام معبد قيصر .

وكانت قاعات الاجتماعات العامة تحتوي على رِواق فسيح مستطيل الشكل محفوف بأرتجة ذات طابقين فكان القوم يدرسون مسائلهم في الطابق السُّفلي ويتجوّلون في الطابق العُلوي . وقد يحتوي المبنَى على أروقة كثيرة . وكان لهذه القاعات المقامة على الأعمدة حسب رسم يوناني ناووسٌ مستطيل ذو واجهة ضيّقة وثلاثة أروقة .

وإلى هذا النموذج قد يجوز أن ننسب قاعة اجتماعات لبدة التي يبلغ طولها 92 مترا وعرضها 38 مترا تحيط بها أرتجة لها طابقان،وقد بنى مُعْظَمَها سبتيموس سواريوس وأكملها قراقالا،أمّا الدواوين في سيغوس وهي على بعد 40 كلم من الجنوب الشرقي من قسنطينة فقد عفَتْ مَعَالِمُهَا بعد أن كانت ماثلة للعيان سنة 1850 وكذلك الشأن في تبازة وعنونة وبوغرارة ووليلى . أمّا قاعة الاجتماعات بمدينة تيمقاد فلم يكن لها أطورة وكانت مقتبسة من النموذج الشرقي والنموذج اليوناني معا إذ كان مدخلها يفتح على الجانب الأكثر عَرضا وكانت منَصّةُ الحكّام مُقامة وسط أحد الجوانب الصغيرة كما هو الشأن في قاعات الاجتماع ذات الأرْوقة العديدة.

وقد أقيمت مراحيض عموميّة كبيرة في الزاوية الواقعة بالشمال الشرقي من فوروم تيمقاد وفيها سلسلة من المقاعد المتتابعة تفصل بينها متكآت في هيئة دلافين وتُوجد تحتها بلاّعة .

8 — المعابد

كان لكلّ مدينة معبد يحتوي بالخصوص على قاعة مستطيلة غالبا ومتّجِهة من الشرق إلى الغرب ومقامة على مِصْطَبَة، وفي بعض الأحيان يوجد بهو يفضي إلى الناووس . وإذا أقيمت المعابد تكريما للثالوث الإلهي : جوبيتر وجونون ومنيرفا على غرار كابيتول روما فإنّه يخصّص غرفة لكلّ إلاه . وكان كابيتول تيمقاد يحتوي على ستّة أعمدة أمامية وصفّين من الأعمدة على الجانبين، وعلى قاعة كبرى (17 م × 11،20 م) في آخرها ثلاث غرف تشتمل على تماثيل عظيمة . وكان كابيتول سبيطلة بالرغم عن أنّه مكوّن من مجموعة واحدة يحتوي على ثلاث قاعات مسبوقة كلّ واحدة منها ببهو وتفضي الوسطى منها إلى مِصْطَبَة مباشرة بينما تفضي الأولى والثانية إلى هذه المِصْطَبَة بواسطة مَدَارِج وكان معبد جميلة المشيّد تكريما لأسرة الامبراطور سبتيموس سواريوس مُقاما في بطحاء معبّدة طولها 65،33 م وعرضها 50،39 م وارتفاعها 90،4 م ويتوصّل إليها بواسطة مَدْرَج عظيم . ووجود فسيفساء رائعة في نفس هذه المدينة تصوّر مشاهد تَتَعَلَّقُ بإلاهِ الخَمْرِ يبعث على الاعتقاد بأنّه أقيم فيها مَبْنًى خاص .

وكانت للمعابد المقامة تكريما لآلهة شرقية هندسة خاصّة، فكان في معبد بعل ساترنس بدقّة بهو ضيّق وطويل ينتهي أعلى الجانب الجنوبي من المبنى . وكان له صحن من بلاط يعتبر ملكا للإله يحوط به من ثلاثة جوانب رِتاج كما توجد به ثلاث قاعات متلاصقة لا شكّ أنّ القوم كانوا يُودعُون فيها الكنز والنذور . وكانت لمعبد كليتيس ساحة مستديرة الشكل تحوط بها أرْتِجَة . أمّا الصحن فكان يوجد أمام المعبد وتَليهِ منظرة يشرف منها المتجوّلون على البطحاء (parvis) .

9 ـ المسارح والملاعب والملاهي

كان عدد المسارح في افريقية يفوق عدد الملاعب وكان مسرحا تيمقاد ودقّة منحوتين في ربوة كما هو الشأن في اليونان، أمّا مسرح تيبازة فقد كان بالعكس مبنيا ومن الممكن أن يتبيّن المرء إلى اليوم في مسرح تيمقاد الثُّقَبَ المستطيلة الشكل التي كانت تمكّن من تحريك الستار . وكان مسرح دقّة المشيّد في عهد مرقس أوريليوس يحتوي على 21 مَدْرجا تنقسم إلى ثلاثة أقسام بواسطة دَرابَزين . وتوجدفي مؤخّر الرّكح خمس درجات كبرى توضع فوقها مقاعد متنقّلة . ويتركّب الجانب الأمامي من الرّكح من مَشَاكٍ عديدة لا تزال ماثلة إلى اليوم . وكان طول الركح 36،75 م وعرضه 5،50 م مفروشا بفسيفساء ، تحملها ترابة معتمدة على أقبية . وكانت توجد ثلاثة أبواب في الجدار الخلفي من الرّكح كما يوجد بابان على جانبي الرّكح يمكن منهما التوصّل مباشرة إلى مجموعة من الأعمدة قائمة أمام المسرح .

وكان للملاعب التي تجري فيها المباريات بين المتصارعين شكل اهليلجي متفاوت الكبر، وكان طول ملعب الكوليزيوم 187 مترا وعرضه 155 مترا . ولم تتوان مدن افريقية عن تشييد هذه الملاعب فقد تبرّع أحد أثرياء صبراتة بما يسمح بإقامة مقابلات بين متصارعين طيلة خمسة أيّام في ملعب هذه المدينة الذي بلغت أبعاده ثلثي أبعاد ملعب الكوليزيوم . وقد أمكن لعلماء الآثار أن يتعرّفوا في ملعبي قرطاج ولمباز إلى الأماكن المعدّة لكبار الشخصيات . ولا تقلّ أبعاد ملعب لجم (148 م على 122 م) الذي لا تزال آثاره الشامخة تشرف على هذه القرية وحدائقها إلاّ عن أبعاد الكوليزيوم وملعب بو زول (Pouzzoles) وكان ارتفاع ملعب لجم 36 مترا وكانت له ثلاث مجموعات من الحنايا المتراكبة تعدّ كلّ مجموعة ستين حنية مقامة كلّ واحدة منها على أنصاف أعمدة من طراز مركّب أو من الطراز الكورنثي يتوّجها جميعا جدار مزيّن . وكان يمكن لستّين ألف متفرّج مشاهدة الألعاب التي كانت تجري في الميدان الذي بلغ محوره الكبير 65 مترا وقد عثر في الدهليز على غرف خاصّة بالمتصارعين أو الحيوانات

كما يوجد أيضا مكان توضع فيه جثث المتصارعين قبل دفنها (le spoliaire) .

وإذا حُجّر تنظيم مسابقات بين المركبات في ايطاليا منذ عهد أغسطس فإنّه كان في إمكان المقاطعات أن تشيد الملاعب، والملاحظ أنّه لم ينج واحد منها من عمل الزمان وكانت في شكل مستطيلات ذات ضلعين متوازيين طويلين جدّا، أمّا، الضلعان الآخران فصغيران أحدهما في شكل نصف دائرة والآخر مقوّس قليلا، وقد اكتشفت آثار منها في لبدة وقرطاج ودقّة وشرشال التي تجاوزت أبعاد ملعبها 400 متر على تسعين . أمّا ملعب لبدة الذي يعادل ملعب شرشال والذي يشقّ ميدانه طولا جدار طويل متركّب من خمسة أحواض متتابعة فإنّه سيتيح لعلماء الآثار ولا شكّ مفاجآت سارّة.

10 — الحمّامات

من المعلوم أنّ الحمّامات كانت تلعب دورا كبيرا في حياة الرومان وبالتبعية الأهالي المتأثّرين بهم وكان الاستحمام الكامل يشتمل على سلسلة من العمليات : التعرّق في غرفة شديدة الحرارة ، الاغتسال بالماء السخن، المكوث في قاعة معتدلة الحرارة ، الانغماس في الماء البارد ، تمسيد ودلك بالزيت .

وكانت الحمامات مبنيّة على نحو يمكّن من القيام بهذه العمليات المختلفة، إذ كان يوجد فيها قاعة مرتفعة الحرارة بها حوض ، وغرفة معتدلة الحرارة، وغرفة باردة فيها حوض، ومكان خاصّ بالتمسيد . وكان القوم عند الدّخول يودعون ثيابهم في غرفة خاصة لذلك ويقومون بعد الاغتسال بحركات في ميادين الرياضة ثم يتبادلون الأحاديث في قاعات أعدّت لذلك.

وكانت المدن حتى المتواضعة منها حريصة على أن يكون لها حمّام عمومي أو أكثر، وكانت الحمّامات كثيرة في افريقية ، وقد تمّ الكشف في لبدة عن حمّامات ترجع إلى القرن الثاني وكان قد جمّلها سبتيموس سواريوس وكان يوجد في قاعتها الرئيسية ثمانية أعمدة ضخمة من مادّة

السيبولين ارتفاع الواحدة منها ثمانية أمتار يقوم عليها القَبو وفيها مشاك تحتوي على تماثيل منحوتة من المرمر اليوناني . وقد حافظت الرمال على جدّة بلاطات الغرف ، وصفائح المرمر التي تغطّي الجدران وعلى ما يقرب من ثلاثين تمثالا للآلهة من نمط رفيع في بعض الأحيان وكان يوجد في تيمقاد حمّامات كثيرة، ويمكن للباحث أن يشاهد إلى اليوم في الحمّامات الكبرى الموجودة في شمال هذه المدينة وجنوبها الغرف وكأنّ الزمان لم يؤثّر فيها ، والركائز التي كانت تحمل الصفائح وأجزاء من القنوات الفخّارية التي كان يمرّ منها الهواء السخن طول الجدران وجانبا من ليقة وأحواض الاستحمام وكان أمام المدخل الرئيسي للحمّامات الكبرى الموجودة في جنوب جميلة المتّجهة من الشرق إلى الغرب رتاج له اثنا عشر رواقا (Travées) وكانوا يدخلون من بهو يفضي إلى قاعة للرياضة على شكل قبوطولها 12،83 م وعرضها 20،31 م ويمرّون من إحدى قاعتي الملابس إلى قاعة التبرّد وهي فسيحة الأرجاء (voûtés en arêts) ثريّة بالفسيفساء وصفائح المرمر وفيها حوضان صغيران وحوض كبير طوله 12،66 م وعرضه 22،5 م تفصله عن الحوضين الآخرين مجموعة من أعمدة المرمر الوردية اللون . وتأتي بعد ذلك الغرفة السخنة وفي جانبيها منفذان يفضيان إلى الغرفة المعتدلة الحرارة وإلى حوض صغير ماؤه سخن وأخيرا إلى المحمّ (étuve). وتفضي الغرفة المعتدلة الحرارة إلى قاعة التمسيد . ونفس هذا النظام يوجد في الشمال والجنوب . وقد أضيفت إليها المراحيض كما هو الشأن في تيمقاد وكانت الحمّامات الافريقية تحتلّ مساحات كبيرة : 2 600 م مربّع في جميلة و 3 000 في لمباز وما يقرب من 4 000 في تيمقاد. أمّا حمامات لبدة — وهي أعظمها شأنا — فقد تحتلّ بالإضافة إلى توابعها ما يقرب من ثلاثة هكتارات .

11 — الأسواق والدكاكين

أصبح الفوروم بازدهار المدن عاجزا عن سدّ الحاجات المحلّية فوجب إنشاء أسواق وهي عبارة عن ساحات مكشوفة غالبا ما تكون مستطيلة الشكل يوجد في وسطها حنفية وتحوطُ بها أرتجة تنفتح عليها دكاكين . وكان لسوق سرتيوس في تيمقاد الموجودة أمام بطحاء فسيحة الأرجاء ساحة طولها 25 مترا وعرضها 15 م فيها بركة مربّعة الشكل وعندما يدخل المرء

يواجه مبنى في شكل نصف دائرة يشتمل على سبع غرف أقيمت أمام كلّ واحدة منها صفائح من الغرانيت الأزرق على ارتفاع قدره متر تعرض عليها البضائع وكانت دكاكين (Cosinius) كوزينيوس في جميلة شبيهة بدكاكين تيمقاد ولكنّها أكثر خزَفا كما كان لهذه السوق رِتاج خارجي مرفوع على ستّة أعمدة وساحة وبركة وغرفة للموازين وتماثيل للمؤسّس وأخيه والاله مركور (Mercure) .

وإلى جانب الأسواق كانت توجد دكاكين كثيرة، ففي تيمقاد كان عدد كبير منها يفتح على رِتاجين على حافة الشارع الرئيسي .

12 ـ المكتبات

لقد عثر لأوّل مرّة في تيمقاد على آثار إحدى تلك المكتبات العمومية التي كثيرا ما ورد ذكرها في النقوش والنصوص اللاّطينية ويرجع الفضل في تأسيسها إلى كرم مواطن ثَرِيّ . وكانت هذه المكتبة عبارة عن قاعة في شكل نصف دائرة تُواجِهُ الداخل إليها مشكاة كبيرة وضع فيها ولا شك تمثال الآلهة مينرفا . وكانت الخزائن الكثيرة المشدودة إلى جدرانها وقاعات المستودعات الإضافية الثلاثة مشحونة بالمخطوطات بحيث كان في الإمكان بهذه الطريقة وضع 300 2 مجلّد في مكان ضيّق نسبيا .

13 ـ أقواس النصر

كانت "السلم الرومانية" تعفي المدن البعيدة عن الحدود من إقامة الأسوار لحماية ترابها . وسرعان ما تجاوزت المستعمرات نفسها ، كما فعلت تيمقاد ، الأسوار التي أقيمت حولها حسب العادة عند تشييدها . ولقد بقيت هذه المدن محصورة في نطاق هذه الأسوار، إلاّ أنّ هذه الأسوار كانت تحيط أحيانا بالمدينة وأحوازها القريبة كما هو الشأن في شرشال حيث بلغ طولها سبعة كيلومترات تقريبا . ويرجع تاريخ تحصينات هذه المدينة إلى أواسط القرن الأول تقريبا غير أنّ أسوارا كثيرة تمّ تشييدها ابتداء

من القرن الثالث عندما تفاقم اختلال الأمن كما وقع ذلك بالنسبة لتحصينات سهول سطيف .

وكثيرا ما كان يوجد في مدخل المدن حتى التي لم يكن لها أسوار أبواب ضخمة وأقواس نصر، لها غالبا فتحة واحدة كما هو الشأن في دقّة وسبيطلة وحيدرة وجميلة، ولها أحيانا فتحتان كما نجد ذلك في عنونة، ولها في كثير من الأحيان ثلاث فتحات: فتحة كبرى في الوسط وفتحتان صغيرتان على جانبيها كما هو الأمر بالنسبة لقوس نصر تراجانوس في تيمقاد وسبتيموس سواريوس في لمباز، وقلّما يكون قوس النصر متركّبا من أربع فتحات كما كان ذلك بالنسبة لقوس قراقالا في تبسّة وقوس مرقس أورليوس في طرابلس حيث كان على المهندس أن يحلّ المشكل العويص المتمثّل في الانتقال من بناء ذي زوايا أربع غير مربّع الشكل إلى القبّة، وكان هذا القوس بمثابة رتاج حقيقي يتقدّم الباب الكائن في الجنوب الغربي .

وابتداء من القرن الثاني عدل القوم عن إقامة الأعمدة في الزوايا الخارجية على سبيل الزينة، أمّا الأعمدة التي كانت بمثابة الإطار بالنسبة لفتحة القوس الوسطى فإنّها رفعت من المبنى ووضعت على قواعد ناتئة ومرتفعة على نحو ما يوجد في قوس تيمقاد، وكانت الأقواس في غالب الأحيان كثيرة النقوش فكانت نقوش طرابلس تمثّل مرتين ما بلغه مرقس أورليوس من أوج الانتصار . أمّا نقوش قوس سبتيموس سواريوس في لبدة فقد كانت موجودة في الواجهات الأربعة، وكانت تروي حياة الامبراطور وانتصاراته ويرى فيها الناظر الامبراطور واقفا في عربة صحبة أبنائه، أو يراه وقد تقمّص ملامح جوبتر وسط جماعة فيها الإلهة رومة وعائلته والحكّام وهو يشاهد مصرع ثور قد ضحّى به شخصان .

وقد كشفت فأس علماء الآثار عن الكثير من أطلال المباني الكبيرة ولكنّها لم تكشف عن عدد كبير من أطلال المساكن التي لم تكن في الغالب فسيحة ولا فخمة، فقد كانت الارستقراطية المحلّية توجّه جهودها إلى تشييد المباني العمومية وتحسينها. ولم يكن صغار الملاّكين والتّجار حريصين على رفاهية منازلهم الخاصّة وإذ لم يبذل الأغنياء مالاً كثيرا لتوفير

الكماليات فيما كانوا يملكونه بالمدينة من منازل ليس بينها وبين المنازل المتواضعة فرق يذكر في غالب الأحيان فإنّهم فعلوا ذلك في دورهم الريفية حيث كانوا يستطيبون المقام — إلاّ أنّه توجد استثناءات لذلك . فما احتوت عليه بعض المنازل بقرطاج وجميلة من ثروة الفسيفساء وسعة في البناء، وما يوجد فيها من حمّامات يقيم الدّليل على أنّ ملاّكيها كانوا يحنّون إلى التمتّع ونعيم البيت . كما تدلّ المنازل المبنيّة في جوف الأرضية بحمّام الدراجي على تعلّق القوم بحياة الرخاء في منازلهم .

ولكنّ مستوى الفنّ في المدن والأرياف لم يكن راقيا جدّا . فهندسة البناء كانت منصرفة إلى تعداد المنازل المتشابهة، وفنّ النقش كان مقتصرا على تقليد نماذج لم تبلغ قيمتها المستوى المتوسّط وقيمة الفسيفساء تاريخية أكثر منها جمالية، وكانت القبور تقليدا لأمثلة ايطالية كثيرا ما تنقصها الدّقّة والمهارة، ولم يكن البربري الذي تغلغلت فيه الحضارة الرومانية(شأنه شأن الروماني)ذا ذوق مرهف ولكنّه كان يميل إلى الصلد والصالح والعملي. إلاّ أنّه من الممكن أن تكون الانطلاقة التي كان يوبا سببا فيها في شرشال قد استمرّ مفعولها بعده.

II — الثقافة الرومانية

لمّا ألف الحضر مهن الحياة في المدن ذات المباني الشامخة — وإن تجلّت الفخامة والعظمة في المؤسّسات العمومية خاصة — ولمّا اندمجوا في جماعات أتاحت لهم أن يشاركوا مشاركة إيجابية مستمرّة في الحياة العامة تأثّروا برومة . ولكنّ تأثّرهم كان سطحيّا إذ بقوا أفارقة أصيلين. فكان يكفي أن تضعف قوى الامبراطورية ليزوّرعنها هؤلاء البربر الذين تأثّروا في الظاهر بالرومان إلاّ الطبقة الارستقراطية فقد بقيت على وفائها لرومة تُعاضدُها في ذلك الكنيسة . وقد أمكن للملاّكين الأفارقة بفضل قُوَى الأمن أن يَستَبْقُوا في شبه عبودية طبقة البربر العاملين في أراضيهم، وأن يتمتّعوا بثرواتهم في مأمن من نهب الناهبين . وإنّ ما تعوّد به سُكّان المدن من حياة في كنف النظام والسلطة يبين إلى حدّ ما ولا شك لم استقبلوا بحماس بعد هزيمة البيزنطيين وثورة أهل الأرياف الفاتحين العرب الذين أقرّوا من جديد حكومة نظاميّة ومكّنوهم من دواليب الاقتصاد ضدّ العدوّ المشترك ألا وهو البدويّ البربري المناهض للنظام على دائم الأبد .

1 ـ اللغة اللاّطينية

لم تَعرف رومة الحقد العنصري ولا التعصّب الديني، ولكنّها لم ترضَ لأسباب سياسية بأن تعوّض اللغة اللاطينية لغة أخرى. قال القدّيس أغسطينوس : "إنّ الدولة الرومانية التي تعرف كيف تحكم الشعوب لم تفرض على المغلوبة منها سيطرتَها السياسية فحسب بل لغتَها أيضا."

وقد اضطرّت الحياة الحضريّة عددا كبيرا من البربر إلى تعلُّم اللغة اللاّطينية المفروضة في المحاكم والمجالس البلدية والكتائب، وبقي الكثير منهم يتخاطبون فيما بينهم باللغة اللِّيبية ولمدّة معيّنة اللغة البونيقية، ولكنّهم كانوا يستعملون اللاّطينية في علاقاتهم الرسمية أو لقضاء حاجاتهم. أمّا في الأرياف فليس من شك في أنّ القوم ظلُّوا دهرا طويلا يجهلون لغة المُغيرين.

2 ـ التعليم

لقد ساهم التعليم في نشر اللغة اللاّطينية ، فتسابقت البلديات والأثرياء ــ من دون تدخُّل الدّولة ــ في فتح المدارس حتى في القُرى. فكان على التلامذة الافريقيين أن يتعلّموا كالرومان واليونان أوّلا القراءة والكتابة والحساب تحت رعاية معلّم (littérator primus magioter) ثم إذا هم راموا مواصلة دراستهم ، كان عليهم أن يَتَلَقَّوْا الآداب عن نحويّ يُحَفِّظُهم عن ظهر قلب أمّهات الكتب ، ويشرح لهم قواعد النحو ، ويسهر على سلامة نُطقهم ويُدَرّسهم الآداب، خاصة القديم منها ، ويطالبهم بالإنشاء في اللغة اللاّطينية ، ويلقّنهم أيضا مبادىء الموسيقى والعَروض والفلسفة والرياضيات والفلك . إنّ هذا التعليم كان شديد الوطأة على نفوس الطلبة ؛ ولقد عبّر عن ذلك القديس أغسطينوس عند الحديث عن أيّام دراسته الأولى ، وما ناله من ضربات المعلّم أثناءها فقال : "من الذي لا يروعه أن تُعادَ لَهُ طفولتُه ولا يُؤْثِر الموتَ إذا هو أتيح له أن يحيا حياته من جديد ." وكان هذا القدّيس يتذكّر بمرارة ما كان يشعر به من ملل عند دراسة مغامرات انياس ، وديدوني ، . ويستحضر تَقزّز زملائه من أبياتٍ هوميروس ، و فيرجيليوس المحفوظــة قسراً .

وعندما يبلغ الطالب الذكيّ أو الثريّ السابعة عشرة من عمره ، يترك النحو جانبا ، ويقصدُ أساتذة المدن الكبيرة . وكانت البلديات تحرص شديد الحرص على جلب من ذاع صيته من المُدرّسين إلى مدارسهم التي نسميها تجوّزا جامعة . وفي هذا الصّدد لمع في نوميديا نجم سيرته وتبسّة . وقد واصل في مداوروش القديس اغسطينوس في أواخر القرن الرابع دراسته التي بدأها في سوق أهراس (Thagaste) . وكانت سوسة وطرابلس ولبدة تجلب طلبة افريقية وليبيا . ولكنّ قرطاج كانت العاصمة الفكرية بقدر ما كانت العاصمة السياسية . وكان من حسن الذوق أن يظهر المرء آخذا من الآداب بطرف. فقد توجّه ابليوس إلى القرطاجيين الذين كانوا يهتفون به في المسرح قائلا : "إنّي لا أرى في مدينتكم إلاّ رجالا كرَعوا من مناهل الثقافة ، وتبحّروا في جميع العلوم : أخذوا العلم صغارا ، وتحلّوا به شُبّانا ، ودرّسوه شيوخا . إنّ قرطاج لهي المدرسة المقدّسة في مقاطعتينا ، وهي عروس الشعر في افريقية ، وهي أخيرا ملهمة الطبقة التي تلبس الحُلّة" **(نقل فالات)** .

وكان القوم ينصرفون بالخصوص إلى مزاولة دروس البلاغة والشعر . لقد كان الخطيب في المقام الأرفع في افريقية "مغذّية المحامين" على حدّ تعبير جوفينال . لقد كانت تغلب على الأدب والتاريخ والفلسفة النزعة الخطابية، وإذا لم تجد الخطابة متنفّسا لها في الحياة العامّة فإنّها تتجلّى في التمارين المدرسيّة وفي النوادي الخاصّة .

وكان الطلبة ينحدرون بصفة عامّة من الطبقة الارستقراطية القاطنة في البلديات . وكان بعض الأغنياء يشمل أحيانا برعايته أحد الشبّان البربر النُّجباء ، فيمكّنه من تنمية ملكاته في قرطاج. ولم يكن هؤلاء الشبّان جميعهُم ، مثلا يُحتذى في المواظبة والفضيلة . فكانوا يرتادون المسارح والملاهي وينغمسون فيما سمّاه القديس أغسطينوس متندّما "مِرجلَ الأهواء التي يندّى لها الجبين" . وكان عدد منهم مثل أغسطينوس لا يقل ولوعُهُم بحبيباتهم عن ولوعهم بالدرس . وكان آخرون يؤلّفون عصابات من المشاغبين ، فيهجمون على قاعات الدرس ، ويشاكسون الأستاذ ، ويُشبعون الطلبة الوديعين لكما وضربا .

وكان التعليم الذى يقوم به النحاة يزوّد افريقية بالإداريين والمحامين البارعين وبعض الحكّام الأعلام، وأشهرهم سالفيوس جوليانوس (Salvius Sulianus) أصيل حضرموت (سوسة) وصاحب "القانون الايدى" (سنة 129) ويزوّدها أيضا برجال كانت ثقافتهم إلى السطحية أقربَ منها إلى العُمْق.

3 ـ الأدب الروماني

إنّ هذا التكوين تبدو آثاره في المؤلّفين الأفارقة، المسيحيين منهم، والمشركين. ففي قرطاج تعلّموا كيف يستسيغون الافلاطونية الحديثة، والتصوّف الفلسفي، وتأمّلات مدرسة الاسكندرية، وفيها تحمّسوا لسلسطيوس وفيها كذلك هذّبوا ميلهم الطبيعي إلى الخطابة العنيفة اللاّذعة المتحدّية. إنّهم لم يكونوا بارعين في الكتابة بقدر ما كانوا بارعين في الجدال المرتجَل. ولقد نشأ عن طبعهم الذى كان يحملهم إلى الاهتمام بمادّة فكريّة غير متنوّعة ضرب طريف من التفكير والتعبير يزخران حيوية.

لقد كان الشاعر منيليوس افريقيا ولا شك، فهو الذي عالج في عهد تيبيريوس وبأسلوب خطابي، ولكنّه متدفّق حماسا، موضوعا كان البربر المعروفون بالتطيُّر مشغوفين به: ألا وهو معرفة الغيب بالاستناد إلى الطالع. وكان كَرْنيتوس افريقيا ولا شك، وهو الخطيب والفيلسوف الرواقي الذي أصبح شيخ مدرسة بروما في عهد كلاوديوس ونيرون. ومن الأفارقة أيضاً سبتيموس سواريوس الخطيب، جدّ الامبراطور؛ وكان يتمتّع بسمعة ثقافية كبيرة حتى في أوساط مشاهير المؤلّفين، ومنهم فلوروس الذي كاد يُجنّ عندما لم يحرز على جائزة الشعر في مهرجانات الكابيتول، ثم أصبح من أشهر خطباء العاصمة في عهد هادريانوس وتحوّل فَجأة إلى مؤرّخ أو بالأحرى إلى مادح مُشيد بمزايا الامبراطورية. فقد طاب له أن يتفلسف في عظمة رومة عندما ألّف تاريخا مختصرا لكلّ الحروب منذ عهد الملوك. ومنهم فرونتيوس، أصيل سيرته وهو "خطيب وقنصل وأستاذ امبراطوري" كان له من ذيوع الصيت ما حمل أنطونان على تكليفه بتلقين الأميرين الشابّين مرقس أورليوس ول. فاروس البلاغة اللاّطينية

ولكنّ فصاحته التي لا ينضب لها مَعِين البارعة في كثير من الأحيان المصطبغة في بعض الحالات باللون الشعبي تناولت مادّة فقيرة تُعوزها الطرافة .

4 ــ أبليوس أصيل مداوروش

كان أبليوس (ل. أبليوس المولود حوالي سنة 125) من أشهر الكتّاب الأفارقة . لقد كان غريب الأطوار كثير المتناقضات، فهو جدّي وطائش ، متطيّر وشاكّ مُعجب بنفسه، طليق اللّسان ، لا يطيقه الناس ويُبهرهم في نفس الوقت، لقد انحدر من الطبقة الارستقراطية في مدينة مداوروش حيث أصبح أبوه أحد الحاكمين الاثنين في أوائل القرن الثاني، وواصل بطبيعة الحال دراساته العالية في قرطاج واستكمل ثقافته أثناء رحلات قام بها في ايطاليا واليونان وآسيا الصغرى . وفي أثينا أغرم بالافلاطونية المدرسية التي ظلّ يدرسها طيلة حياته . وانبرى بكلّيته يطلب العلوم . ولا شك أنّه ارتاد دروس مشاهير السفسطائية وتلقّن غالب الأسرار التي تضمن للمؤمنين حياة أبدية سعيدة .

وصادف أثناء إقامته في طرابلس أن وقع في مغامرة غريبة، ذلك أنّه ما إن تزوّج من أمّ أحد أصدقائه ، وكانت إلى ذلك الوقت ممتنعة امتناعا شديدا من التزوّج ثانية ، حتى اتّهم بأنّه سحرها . وقد أخذ أحد المحامين على نفسه أن يقيم الدّليل على أنّه كان يحترف السحر وأنّه بذلك يقع تحت طائلة القانون . وقد حفزته هذه التهمة على أن يدافع عن نفسه دفاعا رائعا إن لم يكن كلّه مُقنعا وأنحى على خصومه باللاّئمة لأنّهم خلطوا بين الفلسفة والسحر . وقد حرّر خطابه بعد ذلك في صيغة إيجابية فأصبح يعرف بالابولوجيا (Apologie) ولا شكّ أنّ تأثير هذه التهمة لم يكن كبيرا إذ تمكّن أبليوس بسهولة من الرجوع إلى قرطاج حيث كان نجاحه سريعا . ولم يَعُقْه في ذلك لا الجمال ولا الفكر ولا المال . وسرعان ما أصبح قبلة الأنظار في هذه المدينة، والمُحاضر المحبوب الذي يعالج جميع المواضيع وخاصّة الفلسفيّ منها . ولقد احتفظت لنا الأزاهير (Florides) بثلاث وعشرين قطعة من خطاباته تتفاوت طولا جمعها أحد المُعجَبين به "كباقة" جمعت، أجمل زهور بلاغته "وكان يتبجّح فيها بأنّه يتقن الفنون

على اختلافها وكان يتوجّـه لمساعد القنصل في شيء من الخيلاء البريئة قائـلا : "أعترف بأنّي أوثر من بين الآلات شقّ القصب البسيط أنظم به القصائد في جميع الأغراض الملائمـة لروح الملحمـة أو فيض الوجدان، لمرح الملهاة أو جلال المأساة . وكذلك لا أقصر لا في الهجاء ولا في الأحاجي ولا أعجز عن مختلف الروايات، والخطب يثني عليها البلغاء، والحِوارات يتذوّقها الفلاسفة ثم ماذا بعد هذا كلّـه ؟ إنّي أنشىء في كلّ شيء سواء باليونانية أم باللاّطينيّة بنفس الأمل ونفس الحماس ونفس الأسلوب" (نقل ب. فالات) .

نعم إنّـه كان يكتب القصص المتنوّعة ولا شكّ أنّ أحسنها المسوخ (les métamorphoses) التي كانت تسمّى منذ القدم بالحمار الذهبي، والتي ألّفها لا في تيه شبابه بل حوالي سنة 170 في قرطاج . والكتاب قصّـة كان رواها لوسيان في كتابه الحمار لتحول المدعو لوسيوس إلى حمار يعود إلى صورته الآدمية الأولى بعد مغامرات عديدة تتخلّلها أطوار جزئيـة مثل قصّـة بسيشي وكوبيدون الرائعة .

ولا تزال المناقشات متواصلة امعرفة ما إذا كان أبُليوس ألّف كتابه باليونانية أولا وهل كان لحمار لوسيان والمسوخ مصدر مشترك أم هل أنّ المرجع الأصلي هو قصّـة لوسيان المطوّلة يكون "الحمار" ملخّصا لها، ومهما يكن فإنّ رواية أبليوس المتنوّعة الطبيعية المحشوّة بدقائق العادات والتي تتتابع فيها أحاديث الفسق والتقوى هي من الكتب اللاّطينية القلائل التي لا تزال تقرأ من دون ملـل .

وإنّه يتعذّر أن نعرف بالضبط هل أنّ كتّاب افريقية ينحدرون من معمـرين رومان . وأغلب الظنّ أنّ أكثرهم كانوا من البربر المتأثّرين بالحضارة الرومانية الذين عبّـروا في لغة الفاتحين عمّا كانت اللغة الليبية وحتى البونيقية قاصرة دونـه .

III ـ الديانة الرومانية
عبادات الأهالي وأوائل المسيحية

1 ـ الديانة الرومانية

لم يقتصر الأفارقة على استعمال لغة أهل الغلبة بل تبنّى الكثير منهم معتقداتهم الدينية التي كانت جزءا لا يتجزّأ من الحضارة الرومانية. فقد كان من مصلحة الدّولة المتسامحة إزاء جميع الديانات ما عدا المسيحيّة أن تشجّع عبادة الامبراطور. فكانت الجمعيات في المقاطعات لا تحصل على الولاء فحسب بل تمكّن الامبراطور من مراقبة الوُلاة مراقبة أشدّ حزما. وكان لكلّ مقاطعة افريقية مجلسُها، وابتداء من عهد فسباسيان أي في فترة متأخّرة بالنسبة لبقيّة أجزاء الامبراطوريّة، وكان على مجلس مقاطعة البروقنصلية أن يجتمع في قرطاج وفيها أيضا كان مقرّ القسّ الذي تنتخبه أرستقراطية المقاطعة لمدّة سنة. وكانت هذه الوظيفة الشرفية مرغوبا فيها كثيرا. وقد اعتبر ابليوس تولّيه لهذه الوظيفة بلوغا لقمّة المجد فأقام على نفقته حفلات رائعة في العاصمة بهذه المناسبة.

وكانت الجماهير الغفيرة تحضر الحفلات المقامة عبادة للامبراطور من طواف وأضاحٍ ومآدبَ مقدّسة وصوّر لنا ترتوليانوس مشهدا رائعا ـ وإن لم يكن أمينا ـ للأفراح الشعبية التي كانت تواكب الحفلات الدينية في آخر القرن الثاني: "إنّه حقا لتكريم عظيم هذا الذي توضع بمناسبته المواقد وأسرّة الأكل في الساحة العموميّة وتقام أثناءه المآدب في كلّ حيّ من المدينة، وتنقلب فيه المدينة إلى ماخورة ويختلط الوحل بالخمر ويتسابق القوم جماعات إلى الاعتداءات وضروب الخلاعة والمجون" (نقل J. P. Waltzing) فهلاّ يخيّل إليك أنّك تستمع إلى ما يتصاعد اليوم من أفواه المترمّتين تشهيرا بأفراح عيد الفصح في بعض مدن الجزائر؟

2 ـ دوام العبادات الأهلية

لم يشارك الشعب في هذه العبادة الرسمية إلاّ ليترك العنان لشهواته وإذن فإنّ هذه الدّيانة لم تتغلغل في نفوس الجماهير الأهلية. ولم تحُلْ

السيطرة الرومانية دون انتشار العبادات اللّيبية والبونيقية بل يذهب بعضهم إلى القول بأنّها أعانتها على الانتشار . وتشهد آلاف النذور المرسومة على الخزف والنقوش والنقود المكتشفة بأنّ القوم بقُوا يعبدون تحت اسم سترنس أغسطس بعل حمُّون في صورة شيخ جالس على عرش يمسك بيده اليمنى مِنْجَلا كما تشهد بأنّ تانيت إلهة قرطاج وحاميتها لم تزل تعبد تحت اسم كيلتيس وربّما اتّخذت هيئة الهة أمّ ترضع ولدا .

وقد عرّفنا نقش ناتىء يرجع تاريخه إلى العهد الروماني وقع العثور عليه بأسماء بعض آلهة البربر وهي ماكورتا ، يونا ، ماكورڤوس ، ماتيلا فيهينا، بونشور، فارسيسيما : (Macurgus, Macurta, iuna, Matila, Varsissima, Vihina, Bonchor) ولكنّ شخصية هذه الآلهة لم تزل من سوء الحظّ يكتنفها الغموض . ومهما يكن فإنّ عبادة الآلهة المحلّيّة والجنّ والمغارات والأشجار والجبال والحيوان وحتى عبادة الأوادم المتمثّلة في تقديس ملوك البربر القدماء قد بقي لها أتباعها .

أمّا الطبقة الارستقراطية فقد استعاض عنها معظم أفرادها بالهة رومانية أي ثالوث الكابتول ومارس وهرمس حامي تجّار الزيت وسيريس وباخوس وأسكولاب المشرف على العيون المعدنية أو بالآلهة الشرقية ، ايزيس وأوزيريس ومترا . ولكنّ الشعب بقي متمسّكا بتقاليده القديمة . فغالب التسابيح الخاصّة بالآلهة البربريّة والباقية إلى اليوم صادرة عن مدن "أجنبية" . وكانت العبادة الحقيقية يقوم بها الفرد وحده والعائلة فإذا نظرنا في400.1من نقائش الإهداء المتقرّب بها إلى الآلهة لانجدإلاّ اسمموظّف رسمي واحد وبعض الضبّاط والجنود وعددا يكاد لا يذكر من أعوان إدارة مساعد الامبراطور وبعض الحكّام البلديين من دون أن يتجاوز جميعهم الستين. أمّا الباقون فهم بربر ليست لهم صفة رسمية ولا حقّ المواطنة وقد عبّر أكثرهم عن حماسه الديني بشدّة تقواه في عبادته للآلهة . وكان تأثير رومة على هؤلاء معدوما . وخلافا للبرجوازيّة المقيمة في البلديات صَمَدَتْ أغلبية البربر المتمسّكين أشدّ التمسّك بتقاليدهم في وجه الديانة الرومانية كشأنهم إزاء الحضارة الرومانية .

3 ــ انتشار المسيحية

وجدت المسيحية في بلاد البربر استعدادا طيبا إذ قد تهيأت الطبقة الارستقراطية إلى الوحدانية بفضل الفلسفة، وتهيأ الشعب بواسطة الديانة البونيقية التي كان أصحابها يدينون بإله واحد من دون أن يسلموا بأنه أوحد . ولذلك سجلت تقدما سريعا .

وقد حاول علماء وأتقياء اعتمدوا على تقواهم أكثر من اعتمادهم على روح الدقة الرجوع بالدعوة المسيحية في طرابلس والبروقنصلية إلى عهد المسيح ولكن الشهادات التي استظهروا بها حديثة ومشكوك في صحتها . وأغلب الظن أن المسيحية دخلت من الموانى وخاصة من قرطاج وأنها وجدت أنصارا لها في جوامع اليهود (Synagogues) ومن الموانى انتشرت داخل البلاد . قال ترتوليانوس سنة 197 "إنك تلاحظ بنفسك كثرة عددنا إن الناس يتضجرون من احتلال المدينة ومن أن المسيحيين في كل مكان حتى في الحقول والقرى المحصنة والجزر . وإن كل الأسماء مهما كان الجنس والسن والمرتبة أصبحت مسيحية ثم أنهم يتألمون كما لو أن خسارة لحقت بالدولة" ثم يتوجه بعد خمس عشرة سنة إلى بروقنصل افريقية قائلا : "إننا جموع غفيرة تكاد تكون أغلبية في كل مدينة" . إنها مبالغة محام ولا شك ومحام افريقي بالخصوص، ولكن ما كان يمكن أن تصدر منه لو لم تؤيدها بعض الظواهر، والأمر الذي لا شك فيه هو أن مجمع قرطاج وهو أول مجمع افريقي ذكره التاريخ كان يشتمل في أوائل القرن الثالث على سبعين أسقفا من البروقنصلية ونوميديا تحت رئاسة الأسقف اقريبينوس (Agrippinus) .

4 ــ الاضطهادات

إن أول ما يذكره التاريخ عن افريقية المسيحية هو حادث الشهيدة الواقع سنة 180 . ومنذئذ لم ينفك حماس البربر المتدفق يقدم الضحايا إلى المضطهدين . قال أغسطينوس في هذا المعنى : "إن أرض افريقية مملوءة بأجساد القديسين الشهداء" . ولذا ندرك كم سلط القمع في عنف

لا مثيل له على الأهالي المعروفين بالشغب وروح التمرّد . وكانت رومة متسامحة إزاء جميع المعتقدات ولا ترى مانعا من أن يمسك اليهود عن عبادة الامبراطور، ولكنّها كانت تقاوم بلا شفقة المنظّمات التي قد نسمّيها اليوم دولية ووجدت المسيحية الناشئة نفسها إزاء السلطة المركزية من حيث المذاهب والنظريات الجماعية في موقف شبيه بموقف الأحزاب الثّورية من حكوماتها التي تسمح لها بالنشاط في النطاق القومي، ولكنّها سرعان ما ترتاب من أمرها إذا تجاوز نشاطها الحدود . فكانت هيبة الدولة لا تتعارض مع وجود اليهوديّة داخل البلاد ولكنّها ترفض وجود نحلة يهودية وعالمية لا عسكرية وفوضويّة في آن واحد .

وكانت الحكومة ترمي إلى الإكثار من عدد المرتدّين لا الضحايا . ولم تعتقد في صحّة التهم الشنيعة الموجّهة إلى المسيحيين ولا في ما كان يلصق بالجمعيات السرّية من دعاو ، إذ كان يكفي أن يعلن المتّهم عن ارتداده حتى يطلق سراحه، وقد أمر تراجانوس بأنّه إذا ألقي القبض على أعضاء نحلة مناهضة للمجتمع وأصرّوا على الانتساب إليها وجب قتلهم، أمّا إذا وشى بهم واشٍ فإنّه من الواجب تتبّعهم في نطاق الضمانات القانونية التي تحمي الأشخاص من وشاية الواشين . ولم تأمر غالب الحكومات بالاضطهاد الجدّي إلاّ عندما كانت مدفوعة إلى ذلك بمظاهرات شعبية عنيفة، وقد أمكن لترتوليانوس أن يعلن عن إيمانه في كثير من التحدّي من دون أن تناله العدالة . وامتنع القدّيس قبريانوس من استغلال التسهيلات التي تمكّنه من الفرار من سجنه، ويروي ترتوليانوس أنّ الولاة كانوا يلقّنون المتّهمين الجواب أثناء محاكمتهم كي يُنقذوهم، ولا يكفّون عن ذلك إلاّ عندما تتعالى أصوات الجماهير .

ويظهر أنّ المسيحيين في افريقية لم يشعروا بالحاجة طيلة القرن الثاني تقريبا إلى التّستّر عند القيام بشعائرهم الدينية، وأنّهم نظّموا المدن من غير أن يعوقهم عائق دون ذلك . وأوّل اضطهاد كان سببه حادث محلّي ففي 17 جويلية 180 أمر البروقنصل بقطع رؤوس 12 مسيحيا في قرية شلي .

وإذا صدّقنا ما جاء في تاريخ أغسطس فإنّ سبتيموس سواريوس يكون منع الدعوة اليهوديّة والتبشير المسيحي . ولم يذكر لا هيرودوديانوس

ولا ديون كسيوس قانونا لم يقع تنفيذه . وفي الواقع فإنّ المؤرّخ لاحظ اضطهادا عامّا بل وجود تتبّعات عدلية في جهتين يبلغ فيهما حماس الطبقات الشعبية مبلغا كبيرا وهما الاسكندرية وقرطاج .

فقد تمّ إيقاف خمسة مسيحيين سنة 203 في بلدة قريبة من عاصمة البروقنصلية وهي طبربة (Thuburbo Minus) وكانت بينهم امرأة في عنفوان الشباب تنحدر من الطبقة الارستقراطية لم يتجاوز عمرها الثانية والعشرين تزوّجت وولدت طفلا مازال رضيعا واسمها القدّيسة بربوتيا(Vibia perpetua) وقد سجن معها شخصان فقيران لم يمرّ على دخولهما المسيحية زمن طويل وعبدان . وسرعان ما انضم إليهم سادس عن طواعية وقد حوكم هؤلاء المتّهمون في قرطاج ورمي بهم إلى الحيوانات الضارية . وقد وصل لنا خبرهم المؤثّر عن طريق قصّة مستوحاة من النحلة المنطانوسية وينسبها البعض إلى ترتوليانوس وهي مرجع ممتاز لمعرفة النفسية المسيحية ولمعرفة ما كان يحدث في العائلات من فتن بتأثير التبشير ومن وجد الشهداء ورؤاهم وفظائع الملاعب ولكنّها أيضا أثر تغلب عليه مسحة من السذاجة ويطغى عليه رغم ذلك جوّ المأساة ، فهو بسيط وبطوليّ في آن واحد تبرز فيه ملامح وجه بربوتيا التي أُفعم قلبها محبّة وخيرا وهي تتألّم بوصفها أُمّاً وبوصفها فتاة، ولكنّها أشدّ ما تكون رغبة في الاستشهاد الذي سوف يفرّق بينها وبين جميع من تكنّ لهم الودّ .

وبعيد موت سبتيموس سواريوس أبَى مسيحيّ من لمباز كان من جند الكتائب وقد استنتج من الإنجيل وجوب العدول عن المشاركة في الحروب، أن يحمل الإكليل في عيد من الأعياد وتخلّى عن سيفه "بعد أن اعتبره غير ضروري لحماية المولى " فاقتيد إلى رومة لصلبه .

5 — الأدب المسيحي

إنّ لدينا المعلومات الكافية عن الأزمات التي مرّت بها المسيحية ولكنّنا لا نعرف شيئا كثيرا عن الظروف التي أحاطت بالدعوة إلى هذا الدين ولا بنظام عباداته وكانت كنيسة قرطاج التي أتتها المسيحية من الشرق على غرار كنيسة رومة وليون في استعمالها اللغة اليونانية . وقد استعمل الخطباء

الرومان في القرن الثاني اللغة اللاطينية في تلاوتهم للطقوس ولكنّهم كانوا ولا شك يُلْقُون خطبهم باللاطينية، ولا غرو أن تكون وثائق الشهداء محرّرة باللغتين في نفس الوقت. وكانت بربوتيا تتوجّه إلى رجال الكنيسة باليونانية وتخاطب أقرباءها باللاّطينية، وقد شرع ترتوليانوس في الكتابة باليونانية، ولا ريب أنّه كان يستعمل في كنيسة قرطاج اللغتين في نفس الوقت. وفي القرن الثاني اختارت كنيسة قرطاج اللاّطينية بصورة نهائية.

وكانت قد وجدت منذ سنة 180 نسخ مترجمة من الإنجيل. وكان شهداء شلي (Scilli) —وهم قوم بسطاء يجهلون اليونانية ولا شك— يملكون "كتب الشريعة الالهية المقدّسة ورسائل بولس العادل". وفي أواخر القرن الثاني كتب بابا وأسقف وزنديق كتبا باللاّطينية. ولكنّ روائع الأدب اللاّطيني المسيحي الأولى ظهرت بفضل الكاتب ترتوليانوس.

6 — ترتوليانوس

كان ترتوليانوس (Septimius Florens Tertullianus) ابن رئيس سرية تابعة لفيلق البروقنصلية. ولد بقرطاج مابين 155 و160 وتعلّم فيها ما يحتاجه الخطيب المِصْقَع وما زال يدرس حتى اتّسعت معارفه وأتقن اللاّطينية إتقانَه لليونانية وأحاط بمبادىء الطبّ والعلوم الطبّية وتثقّف بالخصوص ثقافة قانونية متينة وكان يمكن أن يصبح مُحاميا لامعا ولكنّه سُرعان ما عاج عن طريقه واعتنق الدين المسيحي.

إنّنا نجهل الظروف التي تمّ فيها تنصّره. ولا بدّ أن يكون ذلك نتيجة حماسه المُفرط، شأنُه في كلّ الأعمال التي قام بها في حياته. فكلّما أدرك حقيقة اندفع وراءها بكلّ جوارحه من دون مجاملة ولا تورّط فقد كان متطرّفا لا يجمع حوله أغلبية الناس، وكان لا يميل إلى المذاهب المتنصّرة المتحالفة مع عصرها، وكان فكره ينصرف إلى المطلق ويحمله طبعه إلى الكفاح، وهو مع ذلك ناقد لاذع ممتاز ليس له مثيل في الجدل يندفع فيه بكلّيته. فهو بربري متنصّر ولكنّه لم يزل محتفظا — إلى جانب ما انطبع فيه من روح المسيحية — بأهواء البربري وصلابته ونفوره من النظام.

وكان لا يتصوّر الدين المسيحي إلاّ عملا متواصلا لا ينثني . فكان يدعو إخوانه إلى التخلّي عن كلّ شيء في سبيل العمل من أجل نصرة المسيحية وقد تقدّم بنفسه صفوف المعمعة يشجّع على الاستشهاد ويحتجّ له (Ad. Martyres) ويردّ على التّهم الموجّهة ضدّ المسيحيين (Apologeticum ad nationes, ad Scapcelam) ويحذّر المؤمنين من حضور الألعاب العمومية والخدمة العسكرية وكان يقول : إنّ المسيحي لا يمكن أن يكون جنديّا وإنّ واجب الجنديّ إذا تنصّر أن يلوذ بالفرار كما كان يحذّر من قبول الوظائف المورّطة مع أصحاب النفوذ .

وكان هذا الخطيب المتكوّن تكوينا فلسفيا لا يرى تضاربا قطّ بين العقل والدين، بل كان يعتبر الفلاسفة روّادا خانوا أنفسهم . وكان إذا تفقّه في الدّين يتناول أخطر المواضيع وأدقّها لوجود الله ، وحقيقة الروح واليوم الآخر. وكان لا ينفكّ ينصح باتّباع الأخلاق الفاضلة والحرص على ضبط النفس وينتقد في سخرية لاذعة تبرّج النساء في زينتهنّ أو في كيفية وضع الفتيات لحجابهنّ وكان يوصي بالعفّة . ولكنّ ميدانه المفضّل الذي يبرز فيه بروزا هو الهجوم على أحد خصومه أو مقاومة بعض الأوضاع وهو في هذا المقام يوجّه الضربات القاسية إلى اليهود الذين كانوا يثيرون السلط والشعب على النصارى. وإلى أهل البدعة الذين كان في إمكان الكنيسة صاحبة الكتب المقدّسة أن تردّ عليهم بالاستناد إلى النصّ وخاصّة إلى الرسّام هرموجين الذي كان على حدّ تعبيره "يخلط بين الفصاحة والهذيان وبين الوقاحة والحزم" في احتجاجه لبقاء المادّة . وكذلك إلى المارسيونيين الذين كانوا يجدون تقاربا بين المسيح وإله التوراة وأخيرا إلى براكسيا الذي كان يدّعي حفاظا على وحدانية الاله أنّ الابن ليس إلاّ مظهرا للأب نفسه.

ولكنّ أعظم ما ألّف في الدعوة كتابه "الدفاع عن المسيحية" (Apologitique) حيث تعمّق في أصل الخلاف بين المشركين والمسيحيين منكرا الاضطهادات التي كانت تنال المسيحيين وحدهم من أجل جرائم خيالية لم يقع التحرّي في أمرها ومن أجل ازدرائهم بالديانة القومية وإمساكهم عن عبادة الامبراطور . أمّا بالنسبة للمسألة الأولى فقد كان الأمر هيّنا عليه

قرطاج
القبائل
الريف
ورشنيس
أوراس
بني مدار
بوماريا
(تلمسان)
وليلي
الاطلس
لبتيس مغنى (لبدة)

- - - - - افريقية حوالي منتصف القرن الثالث.
.... افريقية في القرن الرابع.
-.-.-.- افريقية البيزنطية (مع طرح المراكز المتوغلة، والمدن الساحلية).
اهم الكتل الجبلية.

الشكل : 12 ـ مواقع انسحاب السلطان الروماني .

رسم للخندق الذي خطه شبيون الاصلي وهو الحد الفاصل للهيمنة الرومانية من 146 الى 46 قبل المسيح.

افريقية الرومانية عند وفاة قيصر (44 قبل الميلاد) بما فيها مملكة ستيوس.

افريقية الرومانية في اوائل القرن الاول بعد المسيح.

افريقية الرومانية حوالي منتصف القرن الثالث (مع طرح المراكز المتوغلة)

اهم الكتل الجبلية.

الشكل : 11 – التوسع الروماني .

ولكنّ مهمّته كانت أشقّ في المسألتين الأخريين . فهو عندما يشهر بإشراك المشركين ويُثبت ولاءَ المسيحيين لا ينكر موقف النصارى بل يبرزه . ويبدو أنّه لم يدرك أنّ الأمر بالنسبة للامبراطورية ليس مجرّد موازاة بين دينين بل دفاعا عن تصوّر للنظام الاجتماعي ضدّ مذهب كانت تعتبره الدّولة مدعاة للفوضى والقلاقل .

وكان لا مناص لهذا المنطقيّ الجبّار أن يتناول بالنقد الدين المسيحيّ نفسه. ذلك أنّه عندما اطّلع على المنطانوسية وهي بدعة "براغمتية" صرفة تتعالى عن الخوض في المناقشات النظريّة وتحرص كلّ الحرص على المثل العليا الأخلاقية وعلى العمل، وتقول بالغيب والنفاذ إلى قلوب البشر والرؤى والوجد (extases) انصرف نشاطه وتصوّفه إلى المذهب الجديد وانقلب على إخوانه بالأمس فوجّه إليهم الأسلحة التي كان يستعملها لنصرة قضيتهم وأصبح يشهرّ بالجُبَنَاء الذين كانوا يضعفون أمام الاضطهاد وينكر الزواج بثانية ويوصي بالصوم الكامل ويشنّ الهجومات العنيفة على البابا كاليست (Calliste) لأنّه سمح للمتسترين والزّناة بالدّخول إلى الكنيسة . وأغلب الظنّ أنّ المنية أدركته وهو شيخ هَرِم لم يتب إلى الله .

ولم تنجلّ طرافته فطّ في فقهه للدين إذ لا تنبىء أفكاره عن مجدّد بل عن رجعيّ أسير للتقاليد . فقد حمله فرط تفكيره في قرب زوال الدنيا إلى التنكّر لكلّ ما يربط الإنسان بمجتمعه. وكان بحكم موقفه العاطفي على هامش الكنيسة من أوّل عهده بالمسيحية ذكر أنّ الكنيسة مضطرّة إلى التلاؤم مع ضرورات العصر ولا يمكنها إذا رامت العمل الناجع أن تتجمّد في مواقف حكم عليها التطوّر . فهو عندما يعلن أنّ الكنيسة موجودة حيث يوجد ثلاثة مسيحيين ولو كانوا لائكيين وأنّ رسالتها ليست في جمع الأساقفة بل هي روحية قبل كلّ شيء فهو يطرد نفسه عن رويّة من حضيرة الكنيسة الرسمية .

وبالرغم عن كلّ ذلك فإنّ الكنيسة المتصلّبة أيّما تصلّب إزاء أهل البدعة أظهرت نحوه تسامحا لا يصدّه صادّ. ذلك أنّه استدلّ في هجومه على الوثنية بجميع الحجج التي لم يتجاوز كلّ من دافع عن الدين بعده

أن استعملها بدوره من دون أن تكون له براعة مماثلة . ولقد أمكن للكنيسة المتنصّرة أن تغضّ الطرف عن هفوات أصبحت لا تخشى حدّتها وبقيت متحفّظة خاصّة بما أظهره ترتوليانوس من صدق إيمان وذرابة لسان . أمّا طرافته الحقيقية فيجب البحث عنها في لغته فقد كان منطقيا ميّالا إلى السخرية مجادلا لاذع العبارات ، فقيها دقيق النظر جمع الصفات على اختلافها وتوخّى أسلوبا صريحا عنيفا ، كثير الاستعارات حيّا بحياة صاحبه مشخّصا لعارم تفكيره وفيّاض حيويته ؛

7 — مينوسيوس فيلكس

ويقابله مواطنه مينوسيوس فيلكس الذي ألّف كتابا موجّها إلى المثقّفين بعنوان (Octavius) وهو حوار يردّ فيه مسيحيّ على الاعتراضات المألوفة الموجّهة ضدّ المسيحية، ويوفّق في آخر الأمر إلى إقناع محدّثه. ويقتصر هذا الحوار الشيّق على المقابلة بين فلسفتين في أسلوب جميل ولا يمكن أن تكون أوجه الشبه التي لاحظها بعضهم بين كتاب الدفاع عن المسيحية والاكتافيوس (Octavius) من قبيل الصدفة لكن أيّ التأليفين أسبق . إنّه من المستحيل الخروج من هذه المناقشة الميؤوس من نتيجتها بحقيقة شافية . ورغم أنّ أسبقية (Octavius) تبدو محتملة فإنّه لا يمكن البتّ في الأمر بصورة نهائية .

وعندما أدرك الموت ترتوليانوس حوالي سنة 240 بدأت بوادر التصدّع في هيكل الامبراطورية الافريقية تظهر إلاّ أنّ انحطاط العظمة الرومانية لم يعرقل تقدّم النصرانية . بل أنّ هاتين الظاهرتين تطوّرتا بصورة حملت البعض على الاعتقاد بأنّ الظاهرة الأولى سبب الثانية، والواقع أنّ الظاهرتين قد خضعتا إلى نفس الأسباب فقد ساعد زوال الروح الرومانية على انتصار الكاثوليكية وعلى القلاقل الاجتماعية في نفس الوقت وفي افريقية سوف تضطرّ الارستقراطية والكنيسة الرسمية حامية النظام إلى الاتّحاد لمقاومة المسيحيين المعدمين المعتنقين للدوناتيسية .

طنجي (طنجة)
موريطانيا الطنجية
وليلي (قصر فرعون)
قيصارية (شرشال)
موريطانيا القيصرية
سرتة (قسنطينة)
نوميدية
إفريقية البروقنصلية
قرطاج

ملاحظة : وضعنا في اتجاه الجنوب الحد الاقصى لهذه المقاطعات.

الشكل : 13 ـ مقاطعات افريقية في اوائل الامبراطورية .

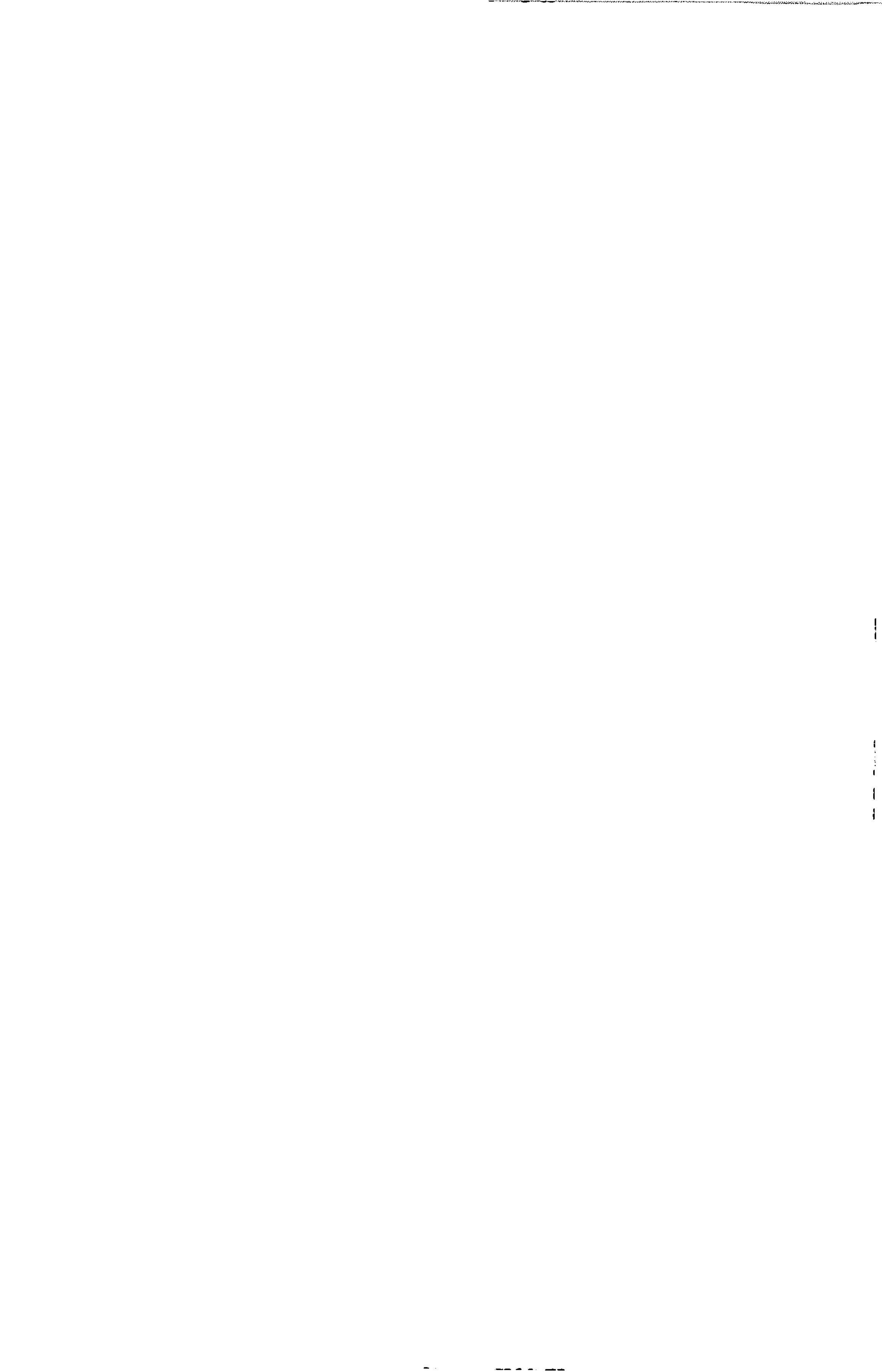
الشكـل : 14 ـ مقاطعات افريقية فى اواخر الامبراطورية .



الباب الثامن

انحلال السلطان الروماني

1- ثورات البربر 2- الكنيسة المضطهدة: القديس قبريانوس 3- الدوناتوسية والثورة الاجتماعية 4- انتصار الكنيسة، القديس اغسطينوس



I ـ ثـورات البـربـر

1 ـ مواقـع المقـاومة

إذا كان في الظاهر من المتيسّر للحضارة الرومانية الهيمنة على المدن الواقعة في أرض منبسطة فإنّها لم تقدر حتى على الاقتراب من المواقع الجبلية ببلاد المغرب . ذلك أنّ المراكز التي كانت تطوّق الجبال والطرق التي تخترقها لم تكن وسائل لنشر الثقافة بل أداة للقمع،ولقد حافظ البربر على عادتهم في جبال الاوراس وبلاد القبائل والبيبان والظهرة والورشنيس وتساله والريف . إنّهم لم يتخلّوْا لا عن لهجاتهم ولا آلاتهم ولا طقوسهم الجنائزية . ولا شك أنّ بعض سكّان الجبال تعاطوا الفلاحة وبَنَوْا منازل من حجر ولكنّ الأغلبية الساحقة منهم كانت تلتجيء إلى بيوت من مدر أو إلى الأكواخ وكانت تعتمد في عيشها بالخصوص على الحيوان .

وكان هؤلاء الرعاة الجائعون ينظرون بعين راغبة إلى أراضي السهول الخصبة . ولو لم تكن الحراسة شديدة على التخوم الجبلية لنزلوا من الأعالي واستباحوا خيرات الفلاّحين المستقرّين لكنّ الكتيبة الثالثة والفيالق الإضافية كانت تشدّد الحراسة . فكانت هجمات النهّابين حتى عهد الاسكندر سواريوس قليلة ولا شك . ثم جاء وقت تصدّع فيه الجهاز الروماني . وحينئذ ظهر للعيان أنّ التأثير الروماني لم يتجاوز المظاهر وأنّ انتشاره كان محدودا . فالبربر حتى المتأثّرون منهم بالرومان لم يبقوا أعوانا بل رعايا كلّ أملهم

أن يُزحزحوا عنهم وصاية السيد المستبدّ . فقد أشعل سكّان الجبال طبعا نار الحرب لكن تَبَلْوَرَت حولهم مقاومة مسلّحة كادت تعمّ في وقت من الأوقات افريقية كلّها ما عدا البروقنصلية حيث بلغ العمران درجة من التقدّم كاد يكون من المستحيل على الفلاّحين معه شقّ عصا الطاعة .

2 — إفلاس نظام

إنّ تولّي أسرة غرديانوس الحكم سنة 238 كان بدءا لعهد مَليء بالاضطرابات في العالم الروماني كلّه، لأنّه أقحم افريقية في المنافسات من أجل النفوذ . فبدا الصرح الفَخْم الذي بناه أغسطس واهيا أمام ضَرَبَات الزمان . ذلك أنّ النظام السياسي الذي لا يرتكز على دستور بل على عزيمة الجيش الذي يسانده، مصيرُه الحتمي أن يصبح لُعبة في يد الجيش . وكان سبتيموس سواريوس الافريقي هو الذي أجّل وقوع الكارثة عندما واجه الأمر بصراحة تامة وأوصى أبناءه باتّباع هذا المبدإ في الحكم : "اسْعَوا إلى إثراء الجند ولا تهتمّوا بالباقي" فكان تسلسل الانقلابات بعده قاعدة وأصبحت الامبراطورية مجرّد دكتاتورية عسكرية يخفّف من حدّتها الاغتيال السياسي .

وكان هذا النظام يحمل في طيّاته بَذْرَةَ هلاكه . إذ أنّ الكتائب وحدها كانت صاحبة الأمر والنهي . وكلّ جيش كان يرى في نفسه الصّلُوحية لتعيين الأباطرة لفضائلهم أحيانا ولثروتهم في كثير من الأحيان، كما كان يرى لنفسه الحقّ — كلّما عنّ له ذلك — أن يقتل الأباطرة الذين يبالغون في فرض طاعتهم أو الذين تنفَدُ ثرواتهم . فكان قائد الجيش المنتخب يرمي بجنده لمقاتلة الجيوش المنافسة، ولكنّ أخشى ما كان يخشاه المنتصر هو خَنْجَر القاتل أو ظهور منافسين جُدُد من يوم لآخر . ولقد تنافس في عهد غليانوس لاغتصاب الامبراطورية ثلاثون طاغية — وكانوا في الواقع ثمانية عشر — وذلك رغم تهديد الأقوام المتوحّشة .

3 — الأزمة الاقتصادية

ابتداء من أواخر القرن الثاني تفاقمت الأزمة الاقتصاديّة كتفاقم الأزمة

السياسية، ففي عهد سبتيموس سواريوس انجرّ عن قلّة الذّهب تناقص في ضرب السكّة وخلطها بمعادن أخرى بنسبة خمسين بالمائة . فكانت نسبة الذهب في الـ" Antoninianus " الذي أحدثه قارقالا خمسا بالمائة في عهد غليانوس . فلم تكن السكّة كما دوّن ذلك مومسن إلاّ "أوراقا مالية لا قيمة لها" وفي نفس الوقت تَدَهْوَرَ الاقتصاد الذي كان يعتمد على النقود متّجها نحو الاقتصاد الطبيعي فانجرّ عن اضطراب الأسعار وارتفاعها بالرغم عن محاولة ديوقليسيانوس بدون جدوى ضبط أقصى حدّ لها (سنة 301) تعويض الضريبة التي كانت تدفع نقدا بضريبة تدفع عينا . غير أنّ نظام (l'annone) "الحصّة السنوية" كان يفرض على المطالَبين بدفع الضرائب أسفارا طويلة ومصاريف ثقيلة كما كان يجرّ للدولة صعوبات إدارية ممّا يذهب بثلثي المحصول . وعندما تولّى الحكم فالنتينيان الأول لم يقدر الملاّكون على حمل المعمّرين على دفع ما عليهم نقدا . فكانت جرايات الموظّفين وحتى الجنود تدفع عينا وانتهى الأمر بالسلطة – لتتمكّن من ذلك – إلى حجز ثروات الأهالي ممّا أنهكهم إنهاكا . ولقد حاول أباطرة أشدّاء مثل أورليانوس (270 – 275) وديوقليسيانوس (284 – 305) وقسطنطين (305 – 307) تلافي هذا الانحطاط فقاموا بإصلاحات جريئة إدارية ومالية . غير أنّه لم يكن في الإمكان إنقاذ الامبراطورية . ذلك أنّه رغم الازدهار واستقرار الأمن الظاهرين فإنّ النظام الاقتصادي بقي مُشوّشا . وبقي الاقتصاد البدائي مُسيطرا رغم تعدّد المدن ولم توجد أبدا صناعة بأتمّ معنى الكلمة بين سكّان عددهم في الواقع قليل وحاجاتهم معدومة وطاقة شرائهم ضعيفة لشدّة فقرهم . ولم تكن التجارة مزدهرة أبدا رغم الظواهر بل كانت مقتصرة – كما هو الشأن بالنسبة للصناعة – على المواطنين الأثرياء المشغوفين بجمع التحف الثّمينة، وعلى ذلك فقد أتيح للشرق المعروف ببضاعته النادرة المحبّبة أن يمتصّ ذهب رومة والعالم الغربي .

4 – الأزمة الاجتماعية

كان الملاّكون الكبار يفضّلون تقسيم أراضيهم إلى قِطَع يُكَارونها المعمّرين إذ كانوا مضطرّين إلى استغلال ضَيعاتهم التي يعمل بها العبيد استغلالا واسع المدى كتحويلها مُرُوجا مثلا وذلك لانعدام الأسواق الكافية.

وكانت الفلاحة القديمة التي لا تعرف العمل المنظّم تقتضي سواعد عديدة ولا تنتج إلاّ قليلا . فحتى في الضيعات الكبيرة في غالب الأحيان كان نظام الفلاحة بدائيا .

ولم يكن للارستقراطية ما للرأسمالية العصرية من نشاط وبراعة . لقد كانت أنوفة للعمل متعاطية للربا متلفة للمال . فكان إسرافها المُشطّ وإتلافها للنقود مع قلّة الذهب في المناجم هو الذي أفسد حالة السكّة .

وعجّلت الاضطرابات السياسية المندلعة في القرن الثالث بانهيار عالم متداعي الاقتصاد حتى أنّ الازدهار الظاهري تلاشى في سنوات قليلة . فلم يغن الأباطرة وقوفُهم لمقاومة أمر لا مردّ له. فقد سنّوا قوانين ربطوا بها كلّ صاحب مهنة بمهنته لا يتعدّاها سواء كان رئيس فريق أو من الأنصار أو معمِّرا. ولكنّ ذلك لم يمكّنهم من استئصال الداء الذي كان يقود الامبراطورية إلى هلاكها . وحقّ لالبرت دي بروي أن يقول في ذلك : "جرّت عشرة قرون من الفساد وثلاثة من الحكم الاستبدادي هذا المجتمع القديم إلى حالة من البؤس المعنوي والمادّي وإلى منزلة اقتصادية إن صحّ استعمال هذه العبارة العصرية أصبحت معها جميع القوانين حبرا على ورق . وفي كلمة وجيزة فإنّ رومة كانت منذ أربعة قرون تخرّب نفسها بنفسها بلا انقطاع،وقد جرّ إفلاسها المالي إفلاس جميع مواردها السياسية . وإذا قدّر لمجتمع ما أن يصبح عاجزا عن سدّ حاجاته بنفسه فإنّه يعجز عن الدّفاع عن كيانه أمدا طويلا" .

وبقي للأمبراطورية الرومانية هذا الهيكل الرائع في الظاهر المتداعي الأركان في الواقع هيبة لم تنل منها القرون وذلك بفضل ثقافتها الكلاسيكية وسحر فتوحها .

غير أنّ التاريخ لم يعرف أنظمة سياسية كثيرة أفلست مثلها فادح الإفلاس . وقد انتهى الأمر بمدينة "التيبر"التي بسطت نفوذها على قارّات ثلاث من دون أن تغيِّر من نظمها الأساسية شيئا أن سلمت من دون مقاومة البلدان التي كانت تعهّدت بحمايتِها من زحف الأمم المتوحّشة .

5 — الثــورات

اندلعت الثورات البربرية من عهد الاسكندر سواريوس ولم تنفك نارها مشتعلة منذ ذلك التاريخ . ولا شكّ أنّنا لا نعرف خبر الكثير منها لقلّة الوثائق، غير أنّ ما اكتشف من النقائش يسمح لنا بمعرفة مدى الخطر الذي كان يهدّد الامبراطورية في بعض الفترات .

وامتدّت الثورة سنة 253 إلى نوميديا وموريطانيا القيصرية . ولا بد أنّ الأهالي كانوا على علم بالصراع القائم حينذاك بين فاليريانوس ومنافسه ايميليانوس أصيل افريقية حيث كان يوجد أنصار له . ولا شك أنّه أتاهم خبر هجومات الفرس والجرمان والقوط على تخوم الامبراطورية، وأقلّ ما يقال في هذا الصدد هو أنّ الأزمة المستفحلة ظهرت لهم في ضعف السلطة التي كانت تضطهدهم . فكان حلّ الكتيبة الثالثة خطأ فادحا استوجب فيما بعد تلافيه بإرجاعها إلى الوجود .

لقد اصطبغت الثورات التلقائية التي اندلعت حينذاك من دون رابط يربطها بصبغة الصراع الطبقي ولم تكن تعبيرا عن حقد جنسي . فلم يثُر الفلاّحون البربر في وجه الرومان بوصفهم رومانا بل ثاروا في وجه كلّ من اضطهدهم كائنا من كان وخاصّة البربر المتشبّهين بالرومان فنهبوا أراضيهم نهبا . بدأت الثورة سنة 253 على الأقل في الجهة الشرقية من موريطانيا القيصرية وقد شملت الباقار أو بعض قبائلهم على أغلب الظنّ وكانت في حوزتهم النجاد الممتدّة من أعلى نهر الملوية إلى الجنوب الشرقي من سطيف كما بيّن ذلك ر. توفينو كما شملت قبائل الحلف الخماسي (Quinque-gentiani) التي كانت تحتلّ كلّ بلاد القبائل الكبرى أو جزءا منها وكذلك جيوش القائد البربري فراكسن المجهول النسبة(Gentiles Fraxinens)

دخل الحلفاء الموريطانيون نوميديا، ونهبوا الأراضي وأسّروا وسبوا. ولقد اضطرّ القدّيس قبريانوس إلى إرسال مائة ألف سسترس (100 000sesterces) جمعها من كنيسة قرطاج لافتداء المسيحيين الأسارى وخاصّة العذارى وكان يخشى عليهن عنف المتوحّشين (Insultantium libidinis contagione) .

وإنّه من المتعذّر تصوّر الأحداث لكنّ بعض الكتابات تكشف لنا عن بعض الوقائع. منها أنّ جمعا من الثوار انهزم في أوت 254 في وادي الأكحل ، وأنّ فرسانا موريين آتين من موريطانيا القيصرية خاضوا معركة سنة 255 في جهة سور الغزلان (Auzia) ولقد حمد قائد جيوش أغسطس الثلاثة في نوميديا الإله جوبيترا على ما أسداه له من نصر، ومنها أنّ الجيوش المتنافسة التقت في مكان لا يبعد عن لاموريسيار (Lamoricière) وأنّ القائد هزم سنة 259 القبائل المتحالفة المتوغّلة في نوميديا فأوقع بها قرب الميلة ثم على حدود موريطانيا القيصرية، وقد تمكّن قائد من قواد الفرسان الموريين من الظفر بفراكسن وقتله، ولكنّه هلك هو أيضا بعد ذلك بسنة عندما التقى بالبافار قرب سور الغزلان .

وفي سنة 262 استتبّ الأمن في موريطانيا القيصرية . وصادف رجوع النفوذ الروماني تحسّن حالة الامبراطورية وقتيا بعد انتصارات غاليانوس على الالامان (les Alamans) وابتعاد خطر الفرس . وهكذا فإنّ الأزمة العامّة الشاملة ظهرت في افريقية في هذه الثورات المتتابعة التي كانت طيلة عشر سنوات تندلع من حين لآخر في جميع جهات موريطانيا القيصرية أي في مقاطعة قد وقع احتلالها كلّها وشدّدت عليها الحراسة الجيوش الإضافية .

وبقيت البلاد في مأمن من الأخطار الجدّية إلى سنة 289 والنصوص في هذا الصدد لاتذكر إلاّ أخبار قلاقل محلّية وعلى كلٍّ فإنّ هجومات الأقوام المتوحّشة كان لها تأثيرها الأوّل في افريقية . ففي عهد غاليانوس أثخنت القبائل الافرنكية (Francs) في سواحل موريطانيا وكانت اقتحمت قبل ذلك حدود غوليا وتوغّلت في اسبانيا ولا شك أنّ الرومان اضطرّوا أيضا إلى مقاومة قبائل الأوراس أو قبائل جنوب نوميديا التي ما انفكّت تهدّد الامبراطورية .

أمّا الأزمة الثانية التي دامت فيما يظهر ثماني سنوات على الأقل فإنّها كانت أشدّ خطورة من الأولى . فقد ظهرت بوادرها حوالي سنة 289 في وادي واد الساحل وانتشرت ببلاد القبائل ووصلت ولا شك إلى الجنوب حتى الحضنة ، والأخبار غامضة في هذا الصدد لكن يظهر أنّ الوالي أورليوس

لوتيا (Aurelius Litua) انتصر سنتي 289 و290 انتصارات باهرة وأنّه رمى بالبافار خاصّة بعيدا عن شط الحضنة . غير أنّه لم يتمكّن من فرض التهدئة بصورة كاملة فتواصلت الاضطرابات إلى السنوات الموالية . لذا قدم الامبراطور بنفسه إلى افريقية لقمع الثورة (290) وقد كان شغوفا بتسجيل الانتصارات . وكانت الوقعة الهامة التي خاضها انطلقت من تيكلات (Tubusuptu) ضدّ قبائل الحلف الخماسي . فانتصر فيها ودخل الامبراطور قرطاج ظافرا وشاطره زملاؤه شرف اعتراف افريقية له بتوطيد الحكم .

ويظهر أنّ الهدوء عاد في أوّل القرن الرابع إلى سالف استقراره ولكنّ "السلم الرومانية" بقيت مهدّدة ، وتلافيا لكلّ شغب كفّ الرومان عن الاعتماد على الجند الذين كثيرا ما كانوا يميلون إلى الثوار ويفرّون من ساحة الوغى والحرب على أشدّها . واضطرّ المعمّرون الموجودون على الحدود إلى عدم الاعتماد على القبائل الحليفة ونظّموا أنفسهم لصدّ الغارات على الأراضي الرومانية ، أمّا في داخل المقاطعات فإنّه تحتّم تحصين المدن والقرى وحتى الضيعات المنعزلة .

6 — إصلاحات ديوقليسيانوس — المقاطعات

سعيا لوضع حدّ لانحلال الامبراطورية فصل ديوقليسيانوس بين الخطّة العسكرية والخطّة المدنية بصورة نهائية ، وقسّم المقاطعات تقسيمات جديدة. وكان يأمل أن يكون العسكريون أكثر مقاومة للأمم المتوحّشة والفرس من المدنيّين الذين كانوا يقودون الكتائب حسب اختيار مجلس الشيوخ . ومن ذلك الوقت أصبح القواد ينتخبون من طبقة الفرسان وحتى من بين الممتهنين للجندية . وإن زاد في عدد المقاطعات فأصبح سبعا وثمانين فذلك لتحسين إدارتها وليتمكّن من مراقبة الوُلاة مراقبة ناجعة إذ هم أصبحوا بذلك يأتمرون بأمره مباشرة وعرضة لتجسّس أعوانه . أمّا المقاطعات فقد جمعت في اثنتي عشرة دائرة يحكمها وكيل مرتبته بين الوالي وبين الحكّام الذين أصبحوا بالفعل وزراء للداخلية .

وهكذا أصبح عدد المقاطعات في افريقية نتيجة لإصلاحات ديوقليسيانوس رومانية بعد أن كان أربعة . فقد قسمت البروقنصلية إلى ثلاث ولايات : ولاية طرابلس وولاية مزاق ـ وهي وسط البلاد التونسية وجنوبها ـ وعاصمتها سوسة، وولاية البروقنصلية بأتم معنى الكلمة أو ولاية زغوان (Zeugitane) وهي تمتد من شمال البلاد التونسية إلى الشمال الشرقي من البلاد الجزائرية وعاصمتها قرطاج . أمّا نوميديا فقد وقع تجزئتها إلى ولايتين : ولاية نوميديا وعاصمتها سيرتة شمالا، وولاية نوميديا العسكرية جنوبا وعاصمتها لمباز . ولا شك أنّه ابتداء من سنة 313 ضم قسطنطين الولايتين من جديد بعضهما إلى بعض فسميت عند ذلك سيرتة : قسنطينة تكريما له . وفي موريطانيا اقتطع ديوقليسيانوس الجهة الشرقية من موريطانيا القيصرية وأحدث ولاية جديدة سمّاها موريطانيا السطيفية وقاعدتها سطيف . أمّا موريطانيا الطنجية فلم يقع تقسيمها وإنّما فصلت عن الإدارة الافريقية وضمّت إلى دائرة اسبانيا .

يتّضح إذن من هذا الإصلاح أمران يجب التنبيه إليهما : الأمر الأوّل هو أنّ هذا الإصلاح لم يقع دفعة واحدة ولكن على مراحل. فكان تقسيم موريطانيا القيصرية قبل سنة 288 وتقسيم نوميديا والبروقنصلية بعد سنة 295 . ثمّ إنّ مقاطعة طرابلس لم تحدث في نفس الوقت الذي أحدثت فيه مقاطعة مزاق . والمؤسف هو أنّ تواريخ مراحل هذا الإصلاح لا يمكن ضبطها بدقّة لاننّا نجهل تاريخ قائمة فيرون (Vérone) (296 — 297 أو على سبيل التقريب 305 — 306) .

الأمر الثاني ولا يقلّ عن الأول أهمّية هو أنّ الإصلاح تبعه حدّ من التراب الروماني. فإن كان ديوقيلسيانوس حصّن تحوم الجهة الشرقية من بلاد البربر ـ كما يشهد بذلك المهرجان ـ فإنّ انفصال موريطانيا الطنجية عن موريطانيا القيصرية كان ـ إلى ذلك الوقت ـ أمرا مقضيا أو زاد حدّة كما أكّده ج. كركوبينو فإنّه وقع اقتطاع أراضٍ من الواجهة الغربية من موريطانيا القيصرية ـ ربّما بلغ حدود الشلف ـ وهكذا فإنّ هذه الأراضي التي تركت وشأنها لم تعُدْ تابعة للامبراطورية إلاّ بقدر رغبتها في ذلك ، ولقد حافظت على اللاّطينية والمسيحية بنفس الولاء كما تشهد بذلك النقائش

المكتشفة بتلمسان (Pomaria) ووليلى (قصر فرعون) التي تتابعت حتى سنة 655 وإذا اعتمدنا الوثائق التي لدينا إلى اليوم يظهر أنّ موريطانيا الطنجية لم يبق لها إلاّ الأراضي الواقعة شمال واد لخوس (Loukkos) . ولقد كان تعبير ه. تراس (H. Terrasse) موفّقا إذ قال : "إنّ هذه المقاطعة التي أنشأها كلوديوس لأسباب افريقية بحتة بقيت في حوزة الامبراطورية وخاصّة ابتداء من القرن الثالث لأسباب تقتضيها السياسة الاسبانية .

ويجدر التنبيه إلى أنّ البروقنصلية بقيت الوحيدة في الامبراطورية مع آسيا التي يحكمها بروقنصل يأتمر بأوامر الامبراطور مباشرة من دون أن يكون بينهما وكيل .

7 — الجيش

إنّ فيالق الاحتلال في افريقية لحقتها نفس التغييرات التي لحقت جيوش الامبراطورية بأجمعها . فقد وضعت جيوش على طول الحدود وظلّت تحرس باستمرار حصون الليمس (Limitaei, limes) وأخرى في نقط متعدّدة، داخل المقاطعات فكانت وحدات متحرّكة مهمّتها نجدة الأماكن المهدّدة، وقد سمّيت "الجيوش المواكبة" وقد عهد ديوقليسيانوس إلى قوّاد بقيادة الجيوش مكان الوُلاة .

ولم تكن كل حدود المناطق التي يحكمها العسكريون مطابقة حدود المقاطعات المدنية . فكان قائد طرابلس باسطا سلطانه إلى حدود مزاق أي حتى واد العكاريت . وكان قائد جيش افريقية الذي نال من ديوقليسيانوس لقب الكونت يسكن قرطاج . وكان يحتلّ من بين الضبّاط أعلى مرتبة في الامبراطورية، وكانت الجهة التي يحكمها تشتمل على مقاطعات مزاق وزغوان ونوميديا وموريطانيا السطيفية . أمّا قائد موريطانيا القيصرية فقد كانت مرتبته ثانوية حتى آل به الأمر إلى الخضوع لمراقبة كونت افريقية . أمّا قائد موريطانيا الطنجية الذي كان يمتدّ نفوذه إلى كامل اسبانيا فإنّه كان شخصا ذا مرتبة عالية في رتبة كونت .

ولقد عهد بالدفاع عن التخوم الجنوبية إلى جند الحدود أي إلى جند معمّرين يخضع حقّهم في الملكية إلى واجب الخدمة العسكرية (limitanei)

غير أنّهم كانوا يتمتّعون بالإعفاء من دفع الضرائب كما كلّف بالدّفاع عن هذه الحدود الشمالية بربر القبائل المجاورة التي لم تكن خاضعة لرومة ولكن حشر جنودها شيئا فشيئا في جيوش الامبراطور مقابل جراية وكانوا يخضعون لنفس القوّاد الذين خضع لهم جند الحدود (limitanei) . وابتداء من عهد ديوقليسيانوس أجبر أحفاد جند الحدود على أن يسيروا على ما سار عليه آباؤهم .

لقد فقد جيش افريقية كلّها كما كان الشأن بالنسبة لجيوش الامبراطورية في عهد ديوقليسيانوس مرونته وحزمه المعهودين فيه . فلم يبق للكتائب التي أصبحت تعدّ ألف رجل والفيالق الأخرى التي تضمّ 500 رجل ما كان لها من روح المقاومة الضروريّة لإقرار النّظام في بلاد ما انفكّت مسرحا للشّغب .

واضطرّ الرومان إلى جبر الملاّكين على تزويد الجيوش بالجند عندما لم يكف التطوّع بالحاجة فكانوا ينتخبون هؤلاء الجند من فلاّحيهم أو يشترونهم عن طريق المتاجرين إذا لم يخوّل لهم تعويض ما طلب منهم بقدر من المال مساو لذلك يسمّى ذهب المجنّدين (Aurum tironicum) . فكانت الجيوش المجنّدة على هذه الطريقة في حالة يرثى لها ولا يؤمن لهم جانب .

وانتهز وكيل افريقية دوميسيوس الإسكندر (L. Domitius Alexander) الأزمة التي تبعت تخلّي ديوقليسانيوس ومكسيميانوس (305) فحمل جنده على مبايعته امبراطورا . فاضطرّ ماكسنسيوس ابن مكسيميانوس (Maximien) المنتصر على قبائل الحلف الخماسي إلى تكليف قائده بالسير إلى افريقية . فلم يقاوم جند الاسكندر مقاومة تذكر وقبض على قائدهم وخنق، واستباح قرطاج وسيرتة جند لا يصدّهم شيء ولم يفد ماكسنسيوس الانتصار الذي أحرزه نائبه إذ أنّ افريقية لم تغفر له ما نالها منه من نهب وإحراق وتقتيل .

ولمّا وقع الخلاف بينه وبين قسطنطين جيّش ماكسنسيوس الجيوش المورية ولكنّه رغم ذلك هزم عند جسر ملفيوس (Milvius) قريبا من

رومة في الثامن والعشرين من اكتوبر سنة 312 . ولمّا انتشل قسطنطير ماكسنسيوس من نهر التيبر أرسل إلى قرطاج – تبشيرا بالحدث الميم الجديد – رأس الرجل الذي كان يكرهه الأفارقة كرها شديدا .

وكان العهد الجديد على ما يبدو فاتحة فترة يسودها السلم غير أنّ نحلة الدوناتونسية المنبثقة من بؤس القرويين البائسين كان صورة ذات صبغة دينية للاضطرابات الاجتماعية التي زادت الطين بلّة وعجّلت بانهيار افريقية.

II – الكنيسة المضطهدة – القديس قبريانوس

1 – القدّيس قبريانوس

لقد أمكن للمسيحية في افريقية بعد موت سبتيموس سواريوس أن تنمو باطّراد طيلة ثمان وثلاثين سنة . فاعتاد الأساقفة أثناء هذه الفترة أن يجتمعوا في المجامع، ولعلّه وجد ابتداء من القرن الثالث أكثر من مائة وخمسين أسقفا ، وذكر لنا القدّيس قبريانوس أنّ مجمعا ضمّ تسعين أسقفا اجتمع للحكم على بريفاتوس (Privatus) أسقف لمباز ورغم تدخل أسقف قرطاج والبابا فإنّ هذا المشرك بقي يحيك الدسائس إلى المؤمنين في مهارة فائقة .

وفي سنة 249 تقلّد القدّيس قبريانوس (Saint Cyprien) الملقّب تاسيوس (Thascius) مهامّ الكنيسة في قرطاج وأخذ ينظّمها تنظيما محكما . وقد ولد ولا شك في قرطاج في أوائل القرن من عائلة ارستقراطية . وأتمّ دراسته في الخطابة وأصبح محاميا وتأثّر بقسّ اسمه كاسيليانوس (Caecilianus) فوزّع جانبا عظيما من ماله على الفقراء واعتنق المسيحية فجأة حوالي سنة 245 . فغيّر التعميد من شأنه حتى أنّه قال في حوار شرح فيه تأثير العون الربّاني : ”إنّ نفحة نزلت من السماء فأحيته حياة ثانية وجعلت منه رجلا جديدا“ . ولقد كان لهذا الفتى تأثير كبير على المؤمنين حتى أنّ الكنيسة بعثت به إلى مجالس الأساقفة . واستغلّت مواهبه فدوّن لأحد أصدقائه بالاستناد إلى الكتب السماوية الحجج المؤيّدة للدين المسيحي للردّ على اليهود (Testimonia ad Quirinum) .

ولمّا توفّي أسقف قرطاج أجبره الشعب على أن يخلفه في منصبه حوالي سنة 248 . فحاول في أول الأمر فرض نظام حقيقي في الكنيسة كلّها فأسدى النصائح للأوصياء من رجال الكنيسة الذين لم يعيّنهم القانون المدني واهتمّ بتكوين ممثّلين شبّان بواسطة فنّان مسيحي كما اهتمّ بشماس متمرّد وبعض العذارى اللاّتي وهبن حياتهنّ للاله ولكنّهن انخذلن فيما بعد. ولعلّه نصح العذارى أن يخشين شراك التبرّج .

2 – اضطهاد دسيوس للمسيحيين

وما لبث القدّيس قبريانوس بعد ذلك بقليل أن امتحنه الله في عمل لا يقلّ عن ذلك صعوبة . فلم يمض عام على تسميته أسقفا حتى ظهرت قضية اضطهاد دسيوس للمسيحيين سنة (250) فلقد أجبر هذا الحيوان "الحقير" كما سمّاه لكتانسيون الافريقي جميع سكّان الامبراطورية على تقديم شواهد الولاء على مرأى ومسمع من جميع الناس . وكان في إمكان ذوي النفوس الأبية وحدهم أن يتصدّوا للموت برفضهم التفوّه بعبارات الكفر أمام اللجان المحلّية التي تسعى لذلك بجميع الوسائل وإذا صدّقنا أسقف قرطاج فإنّ قيمة المسيحيين كانت في كمّهم لا كيفهم — ولم تعقهم تأمّلاتهم في شؤون الآخرة عن نعيم الدنيا وقد تعلّقوا بها أيّما تعلّق وكان إغراء الشهوات وحبّ المال يدفع بهم إلى الأخذ بنصيبهم من كلتا الدارين . إنّهم بقوا على قسوتهم رغم نصائح المسيح وأنفوا الخضوع لأيّ نظام رغم وعظ أساقفتهم . وكانت النساء تبين قلّة تواضعهنّ بإكثارهن من التزيّن . أمّا فيما يخصّ حال الكنيسة فلم يكن من الممكن أن يوثق في معتقدات القساوسة ولا في استقامة الشمامسة ولا في إخلاص الأساقفة،وكانوا يميلون ميلا مفرطا إلى قبول مهامّ مالية تجرّ أرباحا كبيرة على حساب المؤمنين الذين يتولّون أمرهم تاركين بذلك الفقراء يموتون جوعا للبحث عن الأسواق وإتيانا للغشّ والربا .

وفي مثل هذه الظروف نكون مدفوعين إلى الاعتقاد بأنّه لم يقع تهافت على الاستشهاد لا من رجال الكنيسة ولا من المؤمنين ، لكنّ الأمر كان أدهى من ذلك . فلقد كان عدد المرتدّين (lapsi) عظيما واندفاعهم

الشكل : 15 ـ انتشار المسيحية في افريقية .

إلى الكفر بما آمنوا شديدا حتى أنّ الحسرة تركت في قلب القدّيس قبريانوس (St.Cyprien) آثارا لم تُمْحَ فقال : "وكان منهم من لم ينتظر الإيقاف ليصعد إلى الكابيتول ولا ينتظر الاستنطاق لينكر تنصّره. ومنهم-وهم كثيرون- من انهزم قبل أن يخوض المعركة ، وطرح أرضا قبل أن يبدأ الصراع فلم يكن له حتى فضلُ الظهور في مظهر المتنازل أمام القوة . فكنت تراهم يسرعون عن طواعية إلى الفوروم ويبادرون إلى إنكار ما تعلّقت به أرواحهم كأنّهم كانوا يتوقون إلى ذلك منذ دهر طويل،وكأنّهم كانوا ينتهزون فرصة طالما جرّوا وراءها . وكم كان عددهم كبيرا عند ارتدادهم حتى أنّ الحكّام اضطرّوا إلى تأجيل المحاكمة إلى الغد، وكم كان كبيرا عدد الذين طالبوا بتعجيل تصريحهم بالردّة "القاضية". (نقل الكاهن بايار).

ولم يوجد كُفّار متحمّسون قدّموا القرابين للآلهة أو أحرقوا البخور أمام تماثيل الأباطرة فقط، بل وجد من ذلّل العقبة بشرائه (Sacrificati) بطاقات الولاء، ويظهر أنّ السلطة لم تُبدِ عناية كبيرة للتحرّي في صحّتها (libellatici) ولقد رأى قبريانوس من واجبه كأسقف أن ينسحب أثناء الأزمة من قرطاج ليلتجيء إلى مكان خفيّ . وكان من السهل على البروقنصل أن يتعرّف إلى هذا الملجأ الذي كان يتقاطر عليه "الإخوة الذين كانوا يزورونه" والذي كانت تنطلق منه الرسائل العديدة الموجّهة إلى المؤمنين . ولكنّه اقتصر على مصادرة أمواله ونفيه . فغياب قبريانوس خمسة عشر شهرا في ساعة الخطر اعتمادا على نظرية تأمر المؤمنين بألاّ يُلقوا بأنفسهم إلى التهلكة ولكنّها توصيهم بألاّ يَفِرّوا من الاستشهاد إذا وجب ، كان مدعاة للإنتقاد اللاذع من الكنيسة لا في قرطاج فقط بل في رومة . غير أنّه لم يبق مكتوف الأيدي فقد سيّر أسقفيته من مخبئه ، فاعتنى بالأسرى والفقراء والمرشدين ضحايا الاضطهاد واعتنى خاصّة بمسألة المرتدّين الذين كانوا يرومون الدّخول في حضيرة المؤمنين .

3 ــ أهل الردّة

إذا اعتمدنا سنّة الكنيسة فإنّ الكفر يوجب على صاحبه أن يتوب ولكنّ المذنبين كانوا من الكثرة بحيث اضطرّ رجال الكنيسة إلى ال... في احترام المبادي . فكانت خطّة الأسقف ...

فترة التوبة حتى يبتّ في ذلك مجمع من المجامع بعد انتهاء الاضطهادات..

غير أنّ الأحداث طغت على سياسة الانتظار . فقد وجد المرتدّون قساوسة يُدخلونهم في حضيرة المؤمنين من دون تريّث،والتجأ آخرون إلى الذين أبْلَوا في دينهم البَلاء الحسن أو إلى المرتدّين فسلّموهم "وذويهم" بطاقات تشهد بدخولهم الدين المسيحي من جديد وفرضوا على الأساقفة أن يقبَلُوهم في حضيرة المؤمنين . وهكذا فإنّ هؤلاء المرشدين واجهوا الكنيسة خلافا للنظام والسنن فوضعوا قانونا جديدا من دون اعتبار للنظام الدّاخلي ولا مراعاة الإجراءات العادية في سبيل مُعْتَقَدهم يستمدّ قوته ممّا قدّمه هؤلاء من تضحيات، فأولئك الذين نالهم الأذى في أجسامهم من أجل المسيح اعتبروا من حقّهم أن يغفروا للمذنبين وكانوا أكثر شفقة نحوهم من الأسقف، وزاد تضامن المتطرّفين مع الانتهازيين المُشكل تعقيدا فاضطرّ القدّيس قبريانوس إلى التراجع وسمح بأن يغفر للمرتدّين الذين تعذّبوا من أجل العقيدة المسيحية بعد ردّتهم وإلى أصحاب بطاقات الولاء الذين عرفوا كيف يجتنبون التصريح بالكفر أمام النّاس جميعا بفضل حيلهم التقية وبقي متصلّبا إزاء الذين تقدّموا للآلهة بضحاياهم (Sacrificati) .

وأمكن له عند رجوعه إلى قرطاج في ربيع سنة 251 إنجاح وجهة نظره في المجامع ،ولكنّه واجه معارضة كبيرة . واضطرّ إلى طرد خمسة قساوسة وشمّاس من الكنيسة،وكان أشدّ القساوسة معارضة له "نوفاتوس" الذي أحدث كنيسة جديدة منافسة لكنيسة قرطاج وسافر إلى رومة لشَنّ معركة ضدّ قبريانوس حيث كانت تجري انتخابات لاختيار البَابا . غير أنّ حزب المرشدين لم يتوصّل إلى انتخاب نوفوسيانوس مرشّحه وهو قسّ عظيم المواهب وكان منافسه كرنوليوس انضمّ إلى صفّه أسقف قرطاج .

ولمّا لم يبق لأنصار نوفوسيانوس إلاّ الخروج عن الكنيسة اقتضتهم ضرورة المعارضة إلى الرجوع فيما كانوا عليه من تسامح . فلقد كانوا من المنادين بتطبيق القانون بدون هَوَادة عندما رضي مجمع قرطاج بقبول جميع المرتدّين التائبين على الأقل في آخر نفس من حياتهم، وقبول التوبة من رجال الكنيسة المرتدّين أيضا . غير أنّ الكنيسة المقتنعة بوجهة نظر

قبريانوس طاردت الخوارج حتى في افريقية حيث أبقوا جمعا قليلا من الأتباع وعلى رأسهم أسقف . وهكذا فإنّ موقف أسقف قرطاج فيما يخصّ المرتدّين ومقاومة أنصار نوفاتوس ونوفوسيانوس جرّ له بالطبع انتقادات كلّ من كان يحرجه الاعتدال .

وفي السنوات الخمس التي تبعت اضطهاد دسيوس للمسيحيين اعتنى قبريانوس بطقوس الكنيسة وأجاب عن استفتاءات نحل افريقية أخرى ونظمّ النجدات المرسلة إلى النوميديين الذين أسّرهم البافار ورفع من معنويات المسيحيين عند تفشّي الطاعون الذي لم يهلك خلقا كثيرا فقط بل كان سببا في تفاقم اللصوصية وحوادث الاغتيال .

وفي سنة 255 جرى نقاش خطير في خصوص التعميد الذي كان يقوم به أهل البدعة . ففي افريقية كان القوم يعتبرونه لاغيا فيقومون بتعميد جديد ، أمّا في رومة فكانوا يقبلونه وكانوا يقتصرون على وضع أيديهم فوق المعتنقين للمسيحيّة ليجلبوا لهم عناية الروح القدس . ولكنّ قبريانوس المعتمد على مجمع قرطاج دخل في نقاش حادّ جدّا مع البابا ايتيان الأوّل (Etienne 1er) الذي انتهى به الأمر ولا شك إلى طرد قبريانوس من المسيحية وكان من الممكن أن يؤول هذا الخلاف بين الكنيستين إلى القطيعة لو لم يسمح موت البابا باستئناف العلاقات ولم يتخلّ الأفارقة عن عاداتهم إلاّ في عهد قسطنطين عند اجتماع مجمع أرل (سنة 314) .

4 — استشهاد القدّيس قبريانوس

ولم يمض على موت ستيفانوس وقت طويل حتى بدأ اضطهاد فاليريانوس للمسيحيين فلقد أراد الامبراطور شلّ عمل الكنيستين بالضرب على أيدي الرؤساء ومصادرة أموال المسيحيّين الأثرياء، غير أنّه لم يتوخّ في عمله الصرامة ولا اتّبع الطرق الموصلة فاكتفى بأن أشار على قبريانوس بمغادرة قرطاج والنزول بقربة (Curubis) (على الساحل الشرقي من الوطن القبلي) . وهناك توالت عليه "زيارات الإخوة" في مكان اعترف من ترجم لقبريانوس أنّه غير قادر على وصف ما فيه "من أنواع النعيم الكثيرة" ولمّا رجع

بعد عام إلى قرطاج أبى أن يلبّي دعوة الارستقراطيين في اللجوء إليهم وقد صمّم حينذاك على الاستشهاد ، فانتهى الأمر بالبروقنصل إلى إيقافه . ولكنّ التّاريخ لم يعرف حمّا كما توانى في الاحتياط لمنع أسيره من الفرار مثلما فعل البروقنصل . ثم إنّه أرجأ الاستنطاق إلى الغد خلافا للعادة المتّبعة عندما مثل قبريانوس بين يديه . وأغرب من هذا الحراسة التي نظّمت حوله ليلا، فلقد سكن الأسقف في بيت ضابط، وتقول الأخبار (les actes) : إنّه بقي ضيفا عند الضابط في الشارع المدعو (Vicus saturni " وهناك اجتمع المؤمنون كلّهم . ولمّا علم القدّيس قبريانوس بذلك أمر بأن يسهر القوم على العذارى لأنّ جميع المؤمنين كانوا في الشارع أمام منزل الضابط وكان معه في البيت أخلص الناس إليه غير أنّ الأسقف الذي كان حكم حكما قاسيا على المرتدّين وأشاد بفضائل المرشدين أبى ان يلوذ بالفرار . وفي الصباح تقدّم من دون تردّد إلى الموت. وكان المسيحيون يصحبونه جموعا غفيرة "في هرج ومرج" ولمّا حضر الجلاّد "أسدل الإخوان أمام الشهيد ستارا من الكتان" وأخذ شمامسة حلّته وربطوا له يديه. وكان قائد السرية المكلّف بقتله يرتعش حتى أنّه عجز عن مسك سيفه (14 سبتمبر سنة 258) . وعندما أظلم الليل "حمل على ضوء الشموع والشماريخ ... في موكب رهيب بين التهاليل والتسابيح" حتى أودع قبره . وفي كلّ هذا لم تسيء السلط إلى نصارى قرطاج وهم يوفون بحقّ أعظم شهدائهم .

5 ـ تاليف القدّيس قبريانوس

لم يقتصر القدّيس قبريانوس على أن كان رجل عمل صاحب عزيمة جيّاشة أحيانا ولا منظّما فذا ذا دالة كبرى على غيره فقط ، بل كان كذلك كاتبا استبقى من تكوينه الأول، رغم احتقاره للآداب اللاّدينية ، العناية بفنّ الكلام ورشاقة العبارة ظهرت آثارها في مؤلّفاته من حيث لا يشعر .

ولقد عالج مواضيع عديدة على غرار ترتوليانوس وكان معجبا به شديد الإعجاب، منها الردّ في حماس وظرف على اتّهامات أحد المشركين وبيان موقف المؤمنين في فترات الاضطهاد طبقا لما ورد في الكتب السماوية (ad. fortunatum) ومنها مسألة الطاعة والأخلاق وذلك في مقام الحديث

عن الكفر والزيغ عن الدين (De lapsis,De catholicae Eccelesiae unitate) وحثّ همم النّصارى المهدّدين بالوبـــاء (De mortalitate) وذكر تعاليم الدين المتعلّقة بفضل العذارى اللاّئي يقدّمن بكارتهن قربانا إلى الله ووظيفة الصلاة الاجتماعية وواجب المؤمنين في أن يوقفوا حياتهم على الخير وأن يقدّموا الصدقات وما تحصل لهم بذلك من ثواب وقيمة الصبر في نظر الدين المسيحي ومساوي الحسد والغيرة .

وليس فضل أسقف قرطاج في هذه المؤلّفات الأخيرة المتأثّرة شديد التأثّر بترتوليانوس بل في رسائله . وهي أحسن المراجع لتاريخ الكنيسة في القرن الثالث لما تضمّنته من وثائق يبلغ عددها واحدا وثمانين ولما تشير إليه من أحداث،فهي تصوّر لنا في دقّة الأعمال المتنوّعة التي قام بها القدّيس قبريانوس وربّما تدلّ أكثرمن بقية مؤلّفاته على أنّ مؤلّفها كاتب كبير قد تكون لغته دون لغة ترتوليانوس غنى وحياة ولكنّها بلغت حدّا من الرشاقة جعلت منه كاتبا كلاسيكيا .

6 ـ اضطهاد ديوقليسيانوس للنصارى

طبعت الآداب المسيحية بطابعه وهو ما زال بقيد الحياة . ولقد حاول بعضهم أن ينسب إليه بعض الكتب التي ألّفها تلاميذه،غير أنّ كتابا واحدا منها لم تلُح فيه ومضة الأستاذ الكبير،ومرّت أربعون سنة دون أن تنجب افريقية كاتبا واحدا،ولا شك أنّ عملا دعائيا تنظيميا حيك في طيّ الخفاء أثناء هذه الفترة، ويربط المؤرّخ الصلة بتاريخ الوثائق المسيحية بواسطة أخبار الشهداء (Actes des martyrs) فقد قرّر ديوقليسيانوس بعد أن أعاد تنظيمه للإدارة الامبراطورية تنشيط الحياة المدنية بإحياء الديانات القومية والقضاء على الديانات غير المنسجمة مع عقليّة القوم كالمانوية والمسيحية .

ولقد تمكّن المسيحيّون طيلة الأربعين سنة التي توفّر فيها الوفاق بين الدولة والكنيسة أي من عهدغاليانوس إلى ديوقليسيانوس من إقامة شعائرهم في حرية وإنشاء الكنائس الكبرى ونشر معتقداتهم . ولقد أعفت الدولة الأشراف المسيحيّين من العبادة الامبراطورية واستغلّت كفاءاتهم،ولكنّ هذا

التسامح لم يدم طويلا، ذلك أنّ ديوقليسيانوس وضع حدّا لهذا الوفاق وفرض في الجيش عبادته لا على الضبّاط الكبار فقط بل على ضبّاط الصفّ والجند.

7 — مناهضة العسكرية

لمّا أصبحت الوثنية واجبة في صفوف الجيش ناهضت الكنيسة من جديد العسكرية وخاصّة في افريقية وتراجعت فيما تنازلت عنه من مبادئها لفائدةالسلطة الزمنية عندما أباحت القتل في صيغته العسكرية والوطنية. وكان من نتيجة ذلك أن تكاثر الفرار في صفوف الجيش في السنوات التي سبقت الاضطهاد الكبير . وحدث سنة 295 بينما كان البروقنصل يقوم بعملية التجنيد في تبسّة أن تقدّم أحد قدماء الجند بابنه مكسيميليانوس فامتنع هذا الشاب المجنّد وصاح قائلا : "لا يمكن أن أخدم الجندية ، لا يمكن أن آتي الشر إنّي مسيحيّ" وظلّ يكرّر العبارات الآتية وهم يفحصونه "لا يمكن أن أخدم الجندية إنّي مسيحيّ . لن أكون جنديا ، اقطعوا رأسي .. إنّي لست جنديّ الحكم القائم،إنّي من جيش الله .. لا يمكن أن أكون جنديا في دنياكم كما قلت لكم .. إنّني مسيحي" . فضاق الحاكم به ذرعا وأمر بقطع رأسه. وفي الخربة (على ضفّة واد شلف بين دي بري ومدينة الأصنام) رفض الجندي القديم تيباسيوس التطوّع من جديد بعد أن دخل دين المسيح وقال لقائد الجيوش : "إنّي مسيحيّ ولا يمكن أن أقاتل تحت قيادتك". فهلك تحت ضربات السيف . وبمناسبة الاحتفال بذكرى ولادة الامبراطور رمى قائد السرية مرسلوس (le centurion Marcellus) الذي كان قائما بمأموريته باسبانيا بمنطقته أمام راية كوكبته ثم أردف بعصا قيادته وسلاحه وصاح : "إنّما أنا أخدم المسيح الملك الأبدي، إنّي كففْتُ منذ اليوم عن خدمة أباطرتكم" (سنة 298) ثم توجّه لقائد الكتيبة مجيبا : "لقد قلت لك بعد إنّي مسيحيّ وإنّه لا يمكن لي العمل في الجيش" . وعندما أحيل على مساعد قائد الجيش في طنجة أعاد نفس الكلام مؤكّدا : "نعم إنّي ألقيت بسلاحي . وليس للمسيحي أن يعمل في صفوف جيشكم الحقير ، إنّه جندي السيد المسيح". وعلى هذا النحو كان سلوك حامل اللواءفابيوس في قيصارية .

لم يكن لهذه المواقف طابع فردي فقد أشادت بها الكنيسة وجعلت من مرسلوس ومكسيميليانوس قدّيسين تروى أخبارهما على المؤمنين. وحدث أكثر من ذلك، فلمّا أراد أحد الأتقياء ـ وكان منتحلا ـ أن يدوّن حياة قدّيس مجهول التاريخ وهو كسيانوس رأى أنّ خير طريق إلى ذلك هو أن يجعل كاتبَ كتيبة أعلن على الملاعن تضامنه مع موقف مرسلوس ورمى بقلمه ولوحته على الأرض. وقد قال آ. ش. بابوت (E. - Ch. Babut) في هذا المعنى : "لقد آل الأمر بالسلط الكاتوليكية في افريقية على الأقل إلى اعتناق وجهة نظر ترتوليانوس المنطانوسي القائلة: "إنّ المسيحيّ لا يدخل الجيش ولا يمكن أن يكون جنديا وإذا اعتنق جنديّ الدين المسيحيّ فإنّ خير ما يمكن أن يفعله هو الفرار" .

ومن سوء الحظّ فإنّه من المتعذّر أن نعرف هل أنّ الكنيسة كانت تستجيب كما يبدو إلى رغبات كافّة المؤمنين، ومهما يكن فإنّ عدد الذين كانوا يفرّون خفية ويلبّون صوت ضمائرهم فيمسكون عن حمل السلاح كان ولا شك من الكثرة بحيث احتار امبراطور في أمرهم ولم يكن متعصّبا واضطرّ إلى أن يعدل عن تسامحه السابق فأمر بتهديم الكنائس وتحريم عبادة المسيح . وكان من حقّ الدولة أن تخشى تفاقم تأثير رجال الدين أو انتشار أخبار الشهداء بحيث يذكر القوم حكم المسيح في من يحمل السيف . فقد رفض تيبازيوس الخدمةالعسكرية أثناء محاربة مكسيميانوس لقبائل الحلف الخماسي وكان أمن افريقية رهين نتيجة هذه الحرب . وقد بلغت مسألة مناهضة العسكرية حدّا من الأهمّية اضطرّت معه الامبراطورية إلى المطالبة بالضمانات الكافية عندما أبرمت السّلم مع الكنيسة . ولمّا انعقد أوّل مجمع للأساقفة في أرل بطلب من الامبراطور سنة 314 قرّر : "أن يطرد من المسيحية كلّ جنديّ يرمي بسلاحه في حالة السلم" وما كان هذا الطرد ضروريا لو لم يكن عدد الفارّين من الجندية كبيرا ولو لم يصادف عملهم هذا رضا رجال الكنيسة . وهكذا لم تتمكّن الكنيسة من مصالحة الدّولة إلاّ بعد أن نعتت عملا كان رجال الكنيسة والمؤمنون يعتبرونه في مرتبة الاستشهاد بأنّه ذنب تعاقب عليه الشريعة .

8 ـ أرنـوب

مهد الاضطهاد الذي قام به ديوقليسبانوس(سنة 303) وواصله خلفاؤه بمزيد الصرامة ــ ممّا لم تعرف المسيحيّة له مثيلا شدّة وإراقة دماء ــ إلى أدب مستوحى من حياة الشهداء وما استُهدفوا له من ألوان العذاب . أمّا مادّته فموجودة في محاضر الجلسات أو المذكّرات المتفاوتة القيمة . وأثناء هذه الفترة توفي تسع عشرة امرأة وثلاثون رجلا في سجن "أبيتينا" قرب قرطاج وكانوا متّهمين بعقد اجتماعات ممنُوعة .

إلاّ أنّ تفاني المضطَهدين في عملهم لم يبلغ أقصاه إذ أمكن لكاتبين افريقيين وهما أرنوب ولكتانسيوس أن يهاجما المشركين علانية من دون أن تنالهما يدُ العدالة .

لقد كان أرنوب خطيبا شهيرا ، محافظا ، ورعا، فاجأ مواطنيه في الكاف باعتناقه المسيحية (Sicca) . وقد عبَّر عن حماسه لدينه الجديد بصورة أثارت ارتياب الأسقف في شأنه . فأبى إلاّ أن يقيم الدّليل على إخلاصه وذلك بأن ألّف كتابا للدفاع عن الدين المسيحيّ شهَّر فيه في شدّة بالأمم المعادية وهو تأليف ضخم غريب إن دلّ على معرفة بالفقه لاترتكز على أساس صحيح إذ هو ينسب خلق الروح إلى آلهة ثانوية ويرفض العبادات ، وعلى جهل بمذهب الدين المسيحيّ والحياة المسيحيّة إلاّ أنّه شديد ولاذع في مجموعه على الإشراك ومستوحى من مبادىء أخلاقية سامية، أمّا الأسلوب فهو دقيق ، يزخر حياة ، لكن يغلب عليه الإطناب في كثير من الأحيان .

9 ـ لكتانسيوس

وكذلك لم يكن لكتانسيوس (L. Caecilius Frimanius Lactantius) وهو تلميذ أرنوب مفكّرا فذّا . وقد جاب البلادَ طولا وعرضا قبل أن يستقرّ بنكوميديا في بتينيا حيث أسند له ديوقليسيانوس تدريس الخطابة اللاّطينية. وقد اعتنق المسيحيّة حوالي سنة 300 . وكان رغم إلمامه بعلم الخَطابة لا يحسن الكلام أمام الجماهير راغبا عن الفلسفة والفقه زاهدا في العمل .

فلم يهتمّ إلاّ بعلم الأخلاق وحده . وقد ألّف كتابا يدافع فيه عن الدين المسيحيّ في أربعة أجزاء (من سنة 305 إلى سنة 311) تناول فيه بالبحث : المشيئة الإلهية (De opificio Dei) وعقاب الاله للمذنبين وبالخصوص المؤسّسات الالهية (Divinae institutiones) وقد حرّر مختصرا لهذا التأليف (épitome) ، كما بيّن في كتابه : الأموات المضطهَدون (De mortibus persecutorum) ما ينتظر مضطهدي النصارى من ويلات في الدنيا . كما عالج في الأجزاء السبعة من كتابه في المؤسّسات ، الزندقة ، وأصل الخطأ والحكمة الزائفة والحكمة والدين الأصيلين والعدالة والعبادة والحقّ وسعادة الحياة . كما حاول أن يدخل المشركين إلى المسيحية رادّا على القائلين بتعدّد الآلهة ومقيما الدليل على أنّه من الهيّن التوفيق بين العقل والعقيدة المسيحيّة . ولقد سخر فولتير من أناشيد لكتانسيوس الذي تبدو سذاجته وجهله واضحين للعيان،وكان يمكنه أن يضيف أنّ كتابه في الأخلاق يستمدّ قيمته من رقّة معانيه وأنّه كان له الفضل في تحليل الإمكانيات التي يُتيحها الدّين المسيحي للروح البشرية . وقد كان أسلوب هذا الكاتب المتأثّر بشيشرون متكلّفا باهتا .

أمّا الشعر فلم يكن له في الواقع وجود . وقد حاول بعض النُّقّاد أن ينسبوا كموديانوس إلى القرن الثالث أو الرابع ولكنّ الأغلب على الظنّ أنّه عاش في القرن الخامس . إلاّ أنّ عددا كبيرا من الأفارقة كانوا يرثُون موتاهم بأبيات تخضع لمقاييس مبنية على النبرة عوضا عن الأوزان المبنية على التفريق بين المقاطع القصيرة والطويلة .

وهذا الشغف بالشعر أو بالأحرى النظم يعبّر عن الرغبة الشعبية في تحطيم القوالب الكلاسيكية لإيجاد نظم مبسط سوف يشعر القدّيس اغسطينوس بضرورته .

10 – نظام الكنيسة

كانت الكنيسة في الوقت الذي أحدث اضطهاد ديوقليسيانوس، انشقاق الدوناتسيين الذين سوف يشتّتون شمل افريقية قاطبة قد انتشر نفوذها

وتمتّعت بهيبة عظيمة في كامل البلاد النصرانية وقد اكتمل نظامها بصورة نهائية في القرن الرابع فكان لها ستّ مقاطعات كنائسيّه تقابل المقاطعات المدنية الستّ الموجودة في عهد قسطنطين من دون أن تتوافق لذلك حدودها توافقا تاما .

ولم تصبح موريطانيا القيصرية مستقلّة عن نوميديا إلاّ سنة 393 وقد صحب انتشار المسيحيّة توغّل الرومان على طول السواحل والخطّين العسكريين المحصّنين، أمّا موريطانيا الطنجية فإنّها ظلّت راجعة بالنظر من الناحية الدينية إلى موريطانيا القيصرية بالرغم عن اتّصالها إداريا بأبرشية اسبانيا .

وإذا استثنينا قرطاج فإنّ الجاثليق كان أصيل المقاطعة ينتخبه الأساقفة بصفة عامّة باعتبار الأقدمية . أمّا أسقف قرطاج فقد كان باسطا نفوذه على كامل افريقية .

11 ـ الفنّ المعماري المسيحي

إنّ نشاط الكنيسة تجلّى في معالمها، وإذا استعمل النصارى معابد المشركين في بعض الأحيان كما وقع ذلك في مداوروش وتيبازة مثلا فإنّهم كانوا يؤثرون في غالب الأحيان إقامة المباني الجديدة، وما إن توطّدت السّلم حتى أخذوا يبنون ـ في كلّ مكان وفي سرعة تعذّر معها الاعتناء ـ عددا كبيرا من الكنائس والمصلّيات وقاعات العماد وأضرحة للشهداء يحفظون فيها مخلّفاتهم، وذلك إمّا في المدن أو خارج الأسوار وفي بعض الأحيان حتى في الضّيعات التي يوجد في بيوتها مصلّى .

وكان بين هذه المعالم وبين معالم سوريا ومصر وجوه شبه عجيبة إذ لا نجد في هذه ولا في تلك مباني ذات قباب أو مسطّحة (Plan central ou à coupole) وإنّما هي كنائس مستطيلة الشكل يعوزها في غالب الأحيان صحن تحوط به أرتجة ويتقدّم هذه الكنائس بهو منغلق أو مدخل بين برجين على طريقة أهل الشام كما نجد ذلك في مرسوط (Morsott) .

ويوجد داخل الكنيسة أعمدة وركائز مستطيلة الشكل ، يحوط بحافاتها أحيانا أعمدة كما هو الشأن في آسيا الصغرى بحيث

تفصل بين الردهات العديدة وكانت الدّعائم مرتبطة لا بالأفاريز بل بالحنايا . وغالبا ما كان السقف من خشب إلاّ أنّ بعض الكنائس كانت شبيهة بالأقبية وممّا يباعد بينها وبين مباني رومة ويقرّبها من مباني الشرق النواويس المستطيلة الشكل والمخادع الملاصقة للناووس ورسوم المصلّيات النفلية الشكل والمصمّمة على شكل أوراق الشجر نظِّمت أربعا أربعا وقد شيّدت هذه المصلّيات على أضرحة القدّيسين وكذلك الأساطين التي تقوم عليها حنايا المنابر بما فيها الأسطوانة الصغيرة المقامة على ما نتأ من المنابر في الواجهة الأمامية . وكان لعامّة الكنائس فروع هامة كالأرتجة والمصلّيات وقاعات العماد . وكان المبنى الرئيسي وفروعه يزخران بالنقوش المزخرفة لتيجان الأعمدة والركائز وأساكفة الطنوف والأبواب . ولكنّ أهمّ عنصر للزخرف هو الفسيفساء التي فرشت بها أرض المباني وغطّيت بها القبور .

وقد كثرت الكنائس طبعا في جهات قرطاج السبع، وكان في كلّ جهة منها كنيسة قائمة بذاتها، ونعرف إلى حدّ الآن 20 كنيسة قد تمّ اكتشافها والتنقيب عنها . وقد كانت كنيسة داموس الكريطة قرب هضبة باب الريح التي لم يبق منها سوى أسسها مبنى فسيح الأرجاء (65 م طولا و5 م عرضا) يشتمل على ناووسين يقابل في الجنوب الشرقي من أكبرهما تسع ردهات أمّا أصغرهما فهو متّجه إلى الجنوب الغربي، وشكل هذه الكنيسة مصلّب . وقد أقيم في مدخلها صحن على شكل نصف دائرة يحيط به رواق معمد يفضي إلى مصلى نفلي الشكل مخصّص للشهداء المجهولين . ويوجد في الجنوب الغربي قاعة كبيرة ذات ردهات كثيرة تقوم مقام قاعة للعماد حوضها سداسيّ الأضلاع . وأمكن كذلك سنة 1907 دراسة كنيسة ذات سبع ردهات شيِّدت في أعلى هضبة القدّيسة مونيك تكريما للقدّيس قبريانوس كما تمّت دراسة كنيسة بير الكنيسة ذات الردهات الثلاث قرب دوار الشط سنة 1922 وأخيرا تمّت دراسة كنيسة الدويس البيزنطية سنة 1899 الكائنة على مرتفع مصيدفة والمشتملة على خمس ردهات وربّما احتوت هذه الكنيسة على ضريحي فيليبستي وبربتوي (Perpetue) اللذين اكتشف وأثبت الأب دي لاتر النقوش المشيرة لمخلّفاتهما . وعثر في كنيسة داموس الكريطة وكنيسة القدّيس قبريانوس على بقايا نقوش كثيرة كما عثر في جميع الكنائس على معالم مسيحيّة عديدة كالتوابيت والنقوش الناتئة والآنية والمصابيح .

وإلى جانب كنائس قرطاج فقد اكتشفت في التراب التونسي كنائس أخرى عديدة ففي فريانة عثر على سبع كنائس ينبغي أن تضاف إليها مصلّيات عديدة كما عثر كذلك على مجموعات كنائسية هامّة في حيدرة وسبيطلة . أمّا في هنشير القصبات فقد جعل القوم من معبد بعل وتانيت كنيسة . وهكذا يسهل على المؤرّخ أن يعدّ قائمة طويلة في هذا الشأن . لكن لنكتف بذكر أحدث الاكتشافات بدقّة وتونقة ومكثر .

لقد أمكن بفضل نشاط علماء الآثار في الجزائر ضبط قائمة لآثار الكنائس الكثيرة، وأعظم هذه المعالم كتدرائية تبسّة التي كانت تشتمل على كنيسة ذات ثلاث ردهات يبلغ طولها ثمانين مترا يتقدّمها صحن، وعلى مصلّى نفليّ الشكل . وكانت هذه الكنيسة مقامة على مصطبة مرتفعة يصعد إليها بواسطة مدرج ضخم ذي أربع عشرة درجة، وكانت أرض الكنيسة مزدانة بالفسيفساء وجدرانها مغطّاة بقطع المرمر المزخرف وأقبيتها مزدانة بمكعّبات بلورية.وكان يفصل بينها وبين ساحة فسيحة الأرجاء ممشى مبلّط. كان يتّصل بهذه مجموعة بنايات مختلفة لم يتعرّف الباحثون إلى نوعها وقد أحاطت بكلّ ذلك أسوار محصّنة. وزيادة على ذلك فقد كشفت حفريات حديثة عن وجود سراديب تحت هذه الكنيسة أعدّت لإقامة الطقوس الجنائزية أو ربّما لإقامة الشعائر، ويصعب علينا ضبط تاريخ بناء هذه المجموعة غير أنّه أصبح من المتعذّر على ما يبدو التعرّف من خلال هذه الآثار — وهي أجمل آثار مسيحيّة في افريقيا الشمالية — إلى بقايا دير بيزنطي كما كان يظنّ .

ولقد عرّفنا القدّيس أغسطينوس أنّ البنايات المقدّسة كانت متراصّة في عنّابة، وذكر خاصّة كنيسة السلام وكنائس أخرى أقيمت تكريما للأسقف ليونتوس والقدّيس تيوجين (Théogène) والشهداء الثمانية والشهداء العشرين ، زد على ذلك الكنيسة الدنوناتسية المنافسة لهم . وقد كشفت الحفريات الجارية الآن عن إحدى هذه الكنائس ولم يتوصّل إلى اليوم إلى ضبط نسبتها . أمّا خارج الأسوار فقد كانت المصلّيات العمومية والخاصّة عديدة .

وقد اكتشفت في تيمقاد (Thamugadi) كنائس كثيرة وقاعتان للعماد وفي جميلة (Culcul) كنيستان ومصلّى وقاعة للعماد . أمّا في تيبازة فقد يم خارج الأسوار وفي ناحيتين متقابلتين من المدينة علاوة على الكنيسة

الكبيرة ذات الردهات التسع وقصر العدالة الذي تحوّل إلى كنيسة، سبدان يحيط بهما عدد كبير من التوابيت بني الأوّل تخليدا لذكر القدّيسة سالسة (Sainte Salsa) التي استشهدت في عهد قسطنطين حسب ما ورد في كتاب العذاب (Passio) والتي لم تكن إلاّ ثمرة للخيال الشعبي حسب ه. قريقوار . وبني الثاني الأسقف اسكندر تخليدا على ما يظهر لذكر أساقفة المدينة الأولين، وقد حافظ هو بنفسه على قبورهم على ما يبدو .

وإلى جانب هذه المجموعات الهامّة تجدر الإشارة إلى ما تكتسيه بعض البنايات المنفردة من أهميّة ككاتدرائية تغزيرت (Tigzirt) نظرا لقيمة هندستها المعمارية ونقوشها، وكدير عين تمدة (Aïn Tamda) ونظرا للأضواء التي يلقيها على أصل هندسة الديرة في افريقيا الشمالية . غير أنّ الحفريات لم تنفك تكشف عن كنائس عديدة والتنقيبات المجراة في نوميديا الوسطى خاصّة تشهد بكثافة المباني المسيحيّة . سواء في المدن أو القرى وحتى في تحصينات الليمس كما نجد ذلك في بوعرادة .

ويجب أن لا نزهد في ذكر الكنائس الدوناتيسية في سياق الحديث عن الاكتشافات الحديثة . وكنيسة بنيان (Ala Miliaria) كانت معروفة من قديم وانضمّت إليها فيما بعد كنيسة عين غراب في الجنوب الغربي من تبسّة وكنيسة قصر الكلب (Vegesala) شرقي خنشلة وخاصّة كنيسة تيمقاد المرتبط ذكرها باسم الأسقف أبتا (Optat) وكانت كاتدرائية .

ومن المؤسف أن يكون من الصعب ضبط تاريخ المعالم المسيحية في افريقية سواء كانت كاتوليكية أو دوناتوسية . ولا نستند في الغالب إلاّ إلى أسباب واهية عندما نجعل تاريخ بناء الكنائس في القرون الثلاثة التي تبدأ من عهد قسطنطين إلى الفتح العربي . وأقدم كنيسة مسيحية عثر على بقاياها التي امحت اليوم ما عدا الفسيفساء هي كنيسة مدينة الأصنام (Castellum Tingitanum) المشيّدة سنة 324 . ولقد تتابع بناء الكنائس حتى قبيل الفتح الإسلامي كما يشهد بذلك مصلّى الأسقف هو نوريوس (Honorius) المكتشف في ضواحي سبيطلة .

III ـ الدوناتوسية والثورة الاجتماعية

1 ـ المانويـة

إذا كانت افريقية المسيحية ابتداء من القرن الرابع من القوة بحيث انتشرت الكنائس على طول البلاد وعرضها فإنّها بقيت رغم ذلك تتمزّقها النّحل وقد رأينا أنّ الأساقفة اضطرّوا إلى مقاومة المنطانوسية، وكان ألمع مريديها ترتوليانوس، ومقاومة كنائس نوفاتوس ونوفاسيانوس المناهضة . وكانت ترهب غائلة النحل اللاهوتية والاختيارية كنحلة الفارسي ماني الذي صلب سنة 277 ، وكان يدعو إلى ثنائية مشوبة بالتنسّك ، فكانت هذه البدع توشك أن تغرى المؤمنين بالدخول في حضيرتها خاصّة وأنّها لم تحملهم على منابذة الطقوس المسيحية . ودخل أدب ماني في بلاد البربر منذ القرن الثالث عن طريق مصر ولا شك، ثم انتشر باللغة اللاّطينية في البروقنصلية ونوميديا . فتأسّست في قرطاج وعنّابة جماعات من "المصطفين" انبروا يشرحون الكتب المقدّسة التي ورد ذكرها في ردود القدّيس اغسطينوس . ولمّا انتصرت المسيحية استنجد النصارى بموظّفي الامبراطورية الرومانية للقضاء على أتباع هذه النّحلة .

2 ـ تورّط المسيحيّين

كانت الكنيسة عرضة لخطر آخر . ذلك أنّه بقدر ما كان عدد النصارى يتكاثر كان إيمانهم يضعف . وكانت عادات المشركين من الرسوخ بحيث بقي تأثيرها قويا حتى بعد اعتناقهم المسيحيّة، وكانت العلاقات الاجتماعية من المتانة بحيث تعذّر على النصارى الجُدُد تغييرها . وهكذا تواطأ النصارى شيئا فشيئا مع السلطة الزمنية فكان في افريقية كهنة لم تخلُ وظيفتهم من وجوه شبه مع طقوس وثنية رغم ما كان من تجرّدها عن محتواها الوثني القديم . ولم يحرم المؤمنون أنفسهم من حضور المآدب الرسمية التي كانت تقام في المعابد على إثر عمليات التضحية وأدخلوا شيئا من الطقوس القديمة في عبادتهم الجديدة وذلك بإهدائهم اللحوم والخمر إلى أرواح الشهداء . وأخيرا تفنّنوا في الاستكثار من مخلّفات القدّيسين المتبرّك بها وإن حامت الشكوك حول نسبتها إليهم .

ولم تكن بلاد المغرب قبل زحف الوندال مسرحا للنحلة الاريوسية التي مزّقت شمل بقيّة الامبراطورية لأنّ البربر كانوا مشغوفين بالنظام فلم يعبأوا بالمناقشات اللاّهوتية التي كانت تجرى بين أنصار أريوس (Arius) الذين كانوا يكذّبون أن تكون الطبيعة حقيقة إلهية وأن تكون الكلمة سرمديّة، وبين خصومهم، ولكنّ هذه البلاد كانت مسرحا لظهور نحلة تكاد تكون افريقية صرفة انقسمت من جرّائها الكنيسة إلى شقّين متقابلين وهي النحلة الدوناتوسية فلم يكسّر شوكتها الاضطهاد وتأجّجت بها روح الثورة بين جماهير المعدمين.

3 ـ الدوناتوسية خطوتها الأولى

وكان سبب الصراع المباشر قضية المرتدّين كما هو الشأن في عهد القدّيس قبريانوس. فقد حمل اضطهاد ديوقليسيانوس النصارى على التظاهر بالكفر أكثر ممّا فعلوا عندما اضطهدهم دسيوس . وعاب الشعب على منسوريوس (Mensurius) أسقف قرطاج اتّقاءه التعذيب باستعمال أساليب لا تشرّف المسؤول الأوّل عن الكنيسة بل إنّهم اتّهموه بتسليم الكتب المقدّسة . وكان رجال الكنيسة في نوميديا لا يضمرون محبّة كبيرة للكنيسة الرسمية برومة فتضامنوا مع شعب قرطاج. وقد قارن الناس بين خيانة الرؤساء وبين صمود شهداء أبتينا (Abitina) الذين قاموا مقام المسؤولين المتخلّين عن القيام بواجبهم فأطردوا بوحي من أنفسهم المرتدّين من حضيرة الدين ولم يكن لأهل أبتينا شأن كبير بحيث لم تقم الكنيسة وزنا لادّعاءاتهم اللاّهوتية ولكنّهم بمجرّد رفتهم جميع من "تجاوبوا مع الخونة" أثاروا الحماس حولهم وخاصّة في نوميديا وأصبح عملهم بمثابة الميثاق الاجتماعي والدّيني.

ولمّا مات منسوريوس انتخب كاسيليانوس (Caecilianus) كبير الشمامسة، وكان في مقدّمة المتشدّدين المحقود عليهم واتّهم بأنّه شتّت بالسوط شمل المتظاهرين أمام سجن شهداء ابتينا، وأنّه قطع المؤونة على المرشدين المسجونين، وسرعان ما سمّ كاسيليانوس من طرف ثلاثة قساوسة مجاورين لا يتمتّعون مثله بتقدير عامّة المؤمنين . فاحتج النوميديون وترأّس جاثليق نوميديا مجمعا في قرطاج تقرّر أثناءه إلغاء الانتخابات والسيامة .

ولمّا رفض كاسيليانوس التنازل عن منصبه التفّ خصومه في جبهة واحدة حول زعيم فذّ اسمه دوناتوس الأكبر ونشأت بذلك نحلة الدوناتوسيّين التي سرعان ما كثر المعتنقون لها .

ولمّا اعتنق قسطنطين الدين المسيحيّ واضطرّ بعد أمر ميلانو الذي وضع حدّا للاضطهادات سنة 313 إلى أن يقول قوله الفصل في شأن هذه الأزمة بادر بنصرة كاسيليانوس على المنشقّين . وكانت قرارات المجامع الدينية والبروقنصل متّفقة على طول الخطّ . فاعتبر انتخاب كاسيليانوس وسيامته شرعيين وأثبت براءة أحد الأساقفة الذين تولّوا سيامته وحكم الامبراطور نفسه على الدوناتيسيّين بأنّهم قوم خارجون عن القانون. وهكذا يتجلّى التضامن الذي لا مناص منه بين السلطة المدنية والكنيسة الرسمية . وما كان يمكن مقاومة هذه من دون مقاومة تلك . فلمّا قدم المندوبون الذين أرسلهم قسطنطين لإجراء البحث حدثت اضطرابات . وقد مكّن موقف الدولة الحركة الدوناتوسية من الانتشار الواسع .

ولم تلبث الكنيسة المنتصرة أن أصبحت تضطهد بدورها أعداءها فوحّد الكاتوليك والسلطة جهودهم وأطردوا الدوناتوسيين من الكنائس بالقوة العسكرية فهلك منهم عدد كبير . ومرّت خمس سنوات على هذه الحالة حتّى ملّ قسطنطين القيام بهذا الدور الذي أرغم عليه ودعا رجال الدين الكاتوليك إلى الاعتدال وأصدر أمره بالتسامح .

1 — "الدّوارون"

لقد أدّى هذا الاضطهاد إلى نشوب ثورة حقيقية في صفوف المُعدَمين ذلك أنّ حركة اجتماعية بحتة عظم أمرها مع انتشار الدوناتوسية من دون أن يكون بينهما في أوّل الأمر اتّصال رسمي هي حركة "الدوّارين" (Circum Cellas) أي (الذين يحومون حول مستودعات الحبوب لسرقتها) وكان السبب الأصلي لتلك الثورة شدّة بؤس الكادحين الفلاّحين الذين لم تؤثّر فيهم الحضارة الرومانية تأثيرا يذكر . ولقد جعلتهم الامبراطورية لقمة سائغة للطبقة الارستقراطية الرومانية أو المتأثّرة بالرومان التي لا همّ لها

إلاّ امتصاص دم الأهالي . ولم يكن بين الفلاّحين والملاّكين أيّ اتّصال بل كان كلّ شيء يباعد بينهم : الثقافة واللغة والدين .

وانتهز المعدمون من أهل الأرياف وخاصّة من نوميديا فرصة وجود صراع بين الكاتوليك والدوناتوسيين فانتظموا جماعات تروّع الملاّكين . ولقد وصفهم ب. مونصو (Monceaux) وصفا مجملا وكان رغم سعة اطّلاعه العجيبة لا يدرك المغزى الاجتماعي العميق لهذه الثورة فقال : إنّها عصابة من العراة جمعت الغاضبين والمغامرين وصعاليك البربر والمعمّرين المفلسين والفلاّحين المجرّدين من أملاكهم والعبيد الآبقين" ويظهر أنّه لم يفطن إلى ما يميّز بين اللصّ قاطع الطريق وبين الصّعلوك الذي هو ثمرة حتمية للبؤس الاقتصادي .

إلاّ أنّه يجدر ألاّ نعتبر "الدوّارين" معصومين إذ النصوص تشهد على ما ارتكبوه من شتى الأعمال الفظيعة التي تثبت إدانتهم. ويستبعد أن تكون هذه النصوص قد كشفت لنا عن الحقيقة والقول الفصل كشفا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ولقد بيّن شارل سوماني أنّ هؤلاء "الدوّارين" لم يكونوا ممّن يحومون حول المخازن فقط بل كانوا كذلك طبقة خاصّة من العمّال الفلاّحين وهم على كلّ حال لا يستحقّون هذا الاحتقار الذى يشملهم جميعا من دون ميز وكان "الدوّارون" يقفون موقف من يقوّم الاعوجاج فوصفهم أحد خصومهم "بأنّهم يكرهون الأسياد والأغنياء وإذا ما اعترضهم في طريقهم سيّد ممتطيا مركبته وحوله عبيده فإنّهم ينزلونه من فوق المركبة ويأمرون العبيد بالركوب ويفرضون على السيّد أن يسير راجلا" وهم يتبجّحون بأنّهم إنّما جاؤوا ليملأوا الارض عدلا وكانوا يهيبون بالعبيد أن "ينشدوا الحريّة" .

ورغم أنّ هذه الثورة صحبتها أزمات صوفية وأدّت إلى انتحارات عديدة فقد كانت كما بيّنه بحقّ أ. ف. قوتيه (E. F. Gautier) "ثورة اجتماعية" و"صراعا طبقيا" وفي آن واحد تجنيدا عاما للإطاحة بالامبراطورية ومناهضة النفوذ اللاّطيني اللّذين كان يجدهما المستضعفون متضامنين دائما مع مستغلّيهم .

ولهذا فقد وقف الأساقفة الدوناتوسيون والأساقفة الكاتوليك على السواء موقف العداء إزاء هذه الثورة واتّفق هؤلاء على مطالبة السلطة بإعادة النّظام إلى استقراره، فاستجاب قائد افريقية إلى رغبتهم وأباد جيشا كاملا من الدّوارين . ووصل الأمر بمجمع من مجامع الدوناتوسيين إلى منع إقامة قبور الضحايا في الكنائس .

غير أنّ موقف الشعب وموقف صغار القساوسة كانا على خلاف ذلك . فلقد وقع تكريم الثوار الذين هلكوا تحت ضربات الجنود على غرار تكريم الشهداء، فاقتبل القساوسة جُثَثَهم في بيت الله رغم تحجير الأساقفة. وأصبحت ساحة القتال كعبة يحجّ إليها الناس وروضة مقدّسة تضمّ أرضها شهداء الثورة . (حوالي سنة 340) ولا بدّ أن كان لضريح الشهيد مارقلوس (Marculus) الواقع بقصر الكلب (Vegesala) نفس الشهرة .

5 — قنسطانس والوحدة

لمّا استولى الامبراطور قنسطانس على دائرة افريقية أراد أن يضع حدّا للاضطرابات الاجتماعية والخلافات الدينية فكان على مبعوثيه إلى افريقية أن يقوموا بعملين : إحصاء الفقراء وتوزيع الصدقات عليهم ثم إرجاع الوحدة الدينية . فأغدقوا المال على مجموعات السكّان واشتروا القواد . فتدخّل دوناتوس لوضع حدّ لهذا الفساد ومنع على المؤمنين أن يقبلوا الصدقات وبذلك فشل مسعاهم .

وسعيا إلى القضاء على أسباب الفوضى والخلافات اضطرّ الامبراطور إلى اتّخاذ قرارات استثنائية فأصدر أمر "الاتّحاد" أو الوحدة القاضي بإدماج الكنيستين المتنافستين ومصادرة الكنائس الدوناتوسية التي أصبح في الإمكان إحالتها إلى الكاتوليك ووقع تنفيذ القرار بقساوة كبيرة . فقد أرسلت الجيوش لمقاومة "الدوّارين" ودخلت المدينة بعد معركة وقعت قرب باغاي وقتّلت السكّان تقتيلا . وانتهى الأمر بالدوناتوسيين أن أذعنوا إلى القوة . وكلّما دنت الجيوش من المدن أقفرت من أهلها وفي بعض الأحيان نشبت معارك طاحنة، وبهذه الطريقة لم يلبث أن اكتنف نوميديا المنشقّة النظام، غير أنّ القمع بلغ درجة من الحدّة تردّد معه الكاتوليك

في الدّفاع عن "بُناة الوحدة" "الذين تركوا في افريقية سمعة هي شبيهة بسمعة الجلاّد السيئة" كما شهد بذلك ب. مونصو (Monceaux) .

6 ـ تحالف الكنيسة مع الدولة

لقد أمكن لكنيسة افريقية أن تنعم طيلة خمس عشرة سنة (348 ـ 362) بانتصارها وقد تخلّصت من أعدائها بالتقتيل والطرد أو الضغط . فأخذت تتّحد مع الدولة شيئا فشيئا لأسباب استخلصها رينان (Renan) في حذق تامّ إذ قال : "إنّ السلطة تميل إلى السلطة إذ كان من الحتمي أن يحسّ رجال محافظون كالأساقفة برغبة ملحّة جبّارة تدفعهم إلى التراضي مع السلطة العمومية مقتنعين بأنّ عملها يهدف في أغلب الأحيان إلى الخير العميم ... فحقد المسيحيّة على الامبراطورية هو إذن حقدٌ من كتب لهم أن يتحابّوا يوْما ما".

ولم تكن الكنيسة وهي تنتظر "الملك" مستعدّة لخوض صعاب الحياة المدنية والسياسية، فكانت تشعر أنّها قد تكون عاجزة عن أن تنتصر على أهل البدعة والخوارج إذا هي لم تستعن بالسلطة الزمنية . زد على ذلك أنّها شاهدت حتى بين صفوفها زحف المعدمين الذين كانوا يهدّدون نظامها المقام على الرتب والنفوذ، وفيما مضى استعان آباء مجمع أنطاكية بالامبراطور أورليانوس عابد الشمس لينتقم من أسقف وقع إقصاؤه عن حضيرة الكنيسة فما بالك بالكاثوليك والدولة قد أصبحت مسيحية، إنّهم لن يتردّدوا ساعة في الاستنجاد بها . كذلك في بلاد المغرب فإنّهم لم يبخلوا على أنفسهم بذلك . وإذا استثنينا حكم يوليانوس (361 ـ 362) فقد ساندت قوات الأمن دائما السلطة العليا في الكنيسة في مقاومتها للدوناتوسية ابتداء من عهد قنسطنس (337 ـ 350) .

7 ـ تحالف "الدوّارين" مع الدوناتوسيين

غير أنّ تحالف الدّولة مع الكنيسة أحدث تقاربا بين "الدّوارين" والدوناتوسيّين . ولقد بقيت هاتان الحركتان حتى سنة 347 مستقلّتين وأحيانا متعاديتين . ولا شك أنّ ميول قساوسة الأرياف وخاصّة في نوميديا، منصرفة إلى "الدوّارين" غير أنّ نصرة هؤلاء القساوسة لم

تعادلها مناهضة الطبقة العليا من الكنيسة فلم يتجاوز التعاون بين "الدوّارين" والدوناتوسيين النطاق المحلّي وكان دائما وليد الصدفة، ولقد كان لابتا الميلي (optat de milev) الذي رأى عكس ذلك فيما يخصّ مسألة "باغاي" مصلحة كبيرة في بعث الالتباس الأمر الذي جعل كلامه مشبوها فيه كما بيّنه أ. فانيي (O. Vannier) .

ولقد مهّد نهب باغاي ومآتي "بُنَاة الوحدة" إلى تضامن ظهر أثره من ذلك الوقت ظهورا مطّردا ذلك أنّ المعدمين والخوارج اتّحدوا لمناهضة الامبراطورية والكنيسة الرسمية المتحالفتين . ولقد أجاب دوناتوس في أنفة أحد رسل قنسطنس قائلا : ما الذي يربط الامبراطور بالكنيسة . ثم لقد أدرك الدوناتوسيون أنّ تضامن الامبراطورية لا يتعدّى تضامن المعدمين بالأرياف بها ، وبدت على الخوارج علامات الانكسار وظنّ القوم أنّ الثوار تمّ القضاء عليهم، وفي الحقيقة كان هؤلاء وهؤلاء ينتظرون الفرصة السانحة للانطلاق من جديد .

8 ـ دوناتوس وبرمانيانوس

في سنة 355 مات دوناتوس مؤسّس الدوناتوسية . ولقد بقي هذا المقاوم الجبّار طيلة أربعين سنة لا تنام له عين، ولا شك أنّ الفضل الأكبر في انتشار الدوناتوسية يرجع إليه، ذلك أنّه تمتّع بخصال الزعيم. لقد كان مدبّرا للأمور باستقامة وصاحب مذهب وكان خطيبا وكاتبا شديد الشكيمة ، حشّادا للرجال ، شديدا على نفسه شدّته على غيره ، صعب المراس ذا بأس أنوفا . أمكن له أن يطالب أساقفته بما لا يدور بخلد ويفرضه عليهم كما اعترف له بذلك خصمه النوميدي أبتا الميلي لأنّهم كانوا يعبدونه "كما يعبدون الله" .

ولم يكن خليفته برمانيانوس افريقي المولد بل قرطاجي الموطن . وكان داهية ، وداعية نشيطا ومجادلا مَخُوفَ الجانب وخطيبا مصْقَعا . وكان إنصافه واستقامته يفرضان احترامه حتى على أعدائه . ولقد عرف كيف يستغلّ أمر الامبراطور يوليانوس الذي أعلن عن حريّة المعتقد لاحتقاره

للكاتوليك وأهل البدعة على السواء (ولم يتردّد في حشر المسيحيّين في القانون العام كما بيّنه ل. لاشي (L. Leschi) عند حديثه عن سجلّ بلدية تيمقاد) . وكان رجوع المنفيّين إيذانا بإشعال نار الفتنة من جديد . فنهب "الدوّارون" الكنائس بقيادة الأساقفة ، وأهانوا رجال الكنيسة وقتلوا المؤمنين . وانعقد مجمع من الخوارج وأعلن عن استنكاره لأعمال العنف ولكنّ ذلك لم يفد شيئا لأنّ العلاقة بين الفلاّحين الثائرين والقساوسة الدوناتوسيين أصبحت من المتانة بمكان .

وبعد ذلك بعشرين شهرا كان موت يوليانوس (363) سببا في انقلاب الوضع وفرض عقوبات جديدة . فلم يتقاتل القوم حول الكنائس فقط بل شنّوا حربا سلاحها الهجاء والقدح . وبهذه المناسبة كتب أبتا الميلي مؤلّفا ضخما يردّ فيه على رسائل برمانيانوس .

9 ـ ثورة فيرموس

اضطرّ الأباطرة أمام استمرار الاضطرابات التي كانت تقلقل افريقية إلى تدعيم الاحتلال العسكري غير أنّ تشتت الإطارات حالت دون القيام بأيّ عمل حازم، وقد تجلّى ذلك في طرابلس، ذلك أنّ قبائل هدّدت في سنة 364 المواني . فاستنجد أهل لبدة برومانوس (Romanus) قائد افريقية فاشترط أن تقدّم له مقابل ذلك أربعة آلاف من الإبل. ولمّا لم يتّصل بها أبى أن يتدخّل، وبعث الامبراطور بمن يُجْري بحثا فاشترى رومانوس ضمائرهم وفسح المجال بذلك للمهاجمين أن ينهبوا ويقتلوا بكلّ حريّة (365 ـ 366) وأصبح من المتعذّر على المدن البربريّة أن تعتمد للدفاع عن كيانها على النّظام الروماني الذي نخره الفساد نخرا .

وقد أدّى ما قام به قائد افريقية من تدخّلات مريبة في الصراع الذى جدّ حول الخلافة بين أبناء أمير من بلاد القبائل الغربية إلى فتنة خطيرة . ذلك أنّ فيرموس أحد هؤلاء الأبناء لمّا عجز عن إبلاغ احتجاجاته إلى الامبراطور "ثار ضدّه وضمّ إلى صفوفه على حدّ تعبير أميان مرسلان قطّاع الطرق وأهل البدعة" (Ammien Marcellin) أي "الدّوارين" والخوارج وأغلبهم كان فى موريطانيا والذي طبع هذه الثورة بالطابع القومى هو أنّ

قائدها كان أميرا بربريا . وسرعان ما استولى فيرموس على شرشال (Caesarea) وعاصمة الجزائر (Icosium) ولكنّه صُدّ عن تيبازة، وقد روى فيما بعد أنّ المدينة نجت بتدخّل القدّيسة سالسة وهي بنت اعتبرت شهيدة في عهد قسطنطين لأنّها رمت في البحر بتنّين من البربر كان يعبده المشركون وقد ابتهل إليها فيرموس فكان إذن مسيحيا ودوناتوسيا بدون شك يدعوها إلى نصرته بدون جدوى، وبينما كان خارجا من المعبد عثر عثرة كانت نذيرا بانتهاء أمره .

وبعد ذلك بقليل أرسى تيودوز قائد الفُرسان وأحسن قائد روماني (373) بميناء جيجلي (Igilgili) فطلب فيرموس عند ذلك الأمان . وأمّنه تيودوز ولكنّه شنّ عليه الحرب رغم ذلك فخاض المعارك العنيفة طيلة ثلاث سنوات ضدّ القبائل المتحالفة وانتصر عليها كالعادة بشراء ضمائر قوّادها . ولقد همّ أحدهم بتسليم فيرموس ولكنّ هذا الأخير سبقه وانتحر اختناقا . وحمل جمل إلى القائد الروماني جثّة عدوّه الألد فكان موته نهاية للثورة (375) .

وزاد قمع الدوناتوسيين شدّة . فأصبحوا لا يعاملون معاملة الخوارج فقط بل معاملة الثوار المتآمرين مع فيرموس وتتابعت القوانين محجّرة إجراء العماد مرّة ثانية وهو من عباداتهم الأساسية وصدرت الأوامر بمصادرة المنازل والضّيعات التي يظنّ أنّ اجتماعات محجّرة انعقدت فيها . وأراد الامبراطور تيودوز ابن قائد الفُرسان الإطاحة بأهل البدعة ، وقد أصبح القوم يعاملون الدوناتوسيين معاملة أهل البدعة فوظّف على رجال كنيستهم ضريبة مُشطّة قيمتها عشر ليرات ذهبية (سنة 392) ولكنّ هذه الإجراءات ضاعفت دعايتهم إلى درجة أحجم معها الكاتوليك عن ردّ الفعل وهكذا كانت بلاد البربر قبيل ظهور أغسطينوس على وشك أن تكون دوناتوسية النّحلة .

IV ـ انتصار الكنيسة ـ القديس أغسطينوس

1 ـ شبابه وتنصّره

ولد أغسطينوس في سوق اهراس (Thagaste) البلد النوميدي الذي كان انتصر فيه الخوارج سنة 364 من أب مشرك متسامح وأمّ مسيحيّة متحمّسة تدعى القدّيسة مونيك وكان لها عليه تأثير كبير . لقد أمضى سني دراسته في سوق اهراس ثم في مداوروش وأخيرا في قرطاج حيث وطّن نفسه طيلة خمس سنوات على حذق البلاغة وعاش عيشة تغلّب عليها التحرّر حتى أنّه اتّخذ لنفسه وهو في الثامنة عشرة خليلة ـ وهي التي يسمّيهافي اعترافاته "أم أديوداتوس" ـ أحبّها حبّا جنونيا فأنجب منها ولدا. غير أنّه وضع حدّا لهذه العلاقة بعد إلحاح أمّه التي كانت في هذا المجال برجوازية أكثر منها مسيحيّة فكانت ترغب في زواج يكون أليق بمنزلتهم . وتذكّر أغسطينوس فيما بعد في حسرة بالغة نزوات شبابه وظلّ يجد عناء كبيرا لكبح الرؤى الشّهوانيّة وقد يكون ذلك ممّا أعانه على أن يتبيّن مدى ضعف الإرادة البشرية والشعور القلق بالافتقار إلى العون الربّاني وذهب بعضهم إلى القول بأنّ ذلك هو مفتاح الاعترافات (confessions).

ولقد أتاحت له مواهبه أن يشغل خطّة نحوي نجح فيها نجاحا باهرا قاده إلى رومة ثم إلى ميلانو (383 ـ 384) . ولقد دفعته روحه الحائرة قبل ذلك بعشر سنوات إلى اعتناق المانويّة ولكنّه ملّها ولجأ إلى "الاحتمالية".

غير أنّ الشك لم يرض هذا الإفريقي الذي انهمك يدرس في حماس كبير الافلاطونية الحديثة التي قادته إلى المسيحية . وأثناء انفراده في كاسيسياكوم قرب ميلانو مرّت أزمة حادّة انتهى منها إلى الاعتراف بسلطة الكنيسة . ولا شك أنّ تأثير أمّه واقتداءه بأمبرواز (Ambroise) أسقف ميلانو قاداه إلى التنصّر . وربّما لم يكن لهذا التنصّر ما وصفه به هو نفسه عن حسن نية في اعترافاته من مأساة وجودية، ولا يجد الباحث في مؤلّفه "الحوار" الذي كتب بعد ثلاثة أشهر من أزمة حديقة كاسيسياكوم ما يدلّ على أيّ قلق، بل الذي يتجلّى من مطالعة هذا الكتاب هو مجهود للوصول إلى

الحقيقة عن طريق العقل الإنساني بالرغم عن شكّ الشكّاك . ولم يتّسم فقهه للدين بتصلّب كبير ويظهر أنّه عندما تلقّى العماد في 24 أفريل سنة 387 لم يكن إلاّ متمذهبا بمذهب الافلاطونية الحديثة ميّالا إلى المسيحية .

وما لبث أن عاد إلى افريقية بعد أن أمضى في سوق اهراس ثلاث سنوات في عزلة تامّة ولم يتعلّق بعد موت أمّه وابنه إلاّ بالذات الالهية وحوالي أواخر سنة 391 باغته شعب عنابة (Hippone) فأصبح مستشارا لاورليوس (Aurélius) أسقف قرطاج النشيط وصديقا له ثم انتخب باختياره أسقفا لعنّابة (395) .منذئذ وصار تاريخ افريقية المسيحية مرتبطا بتاريخه هو، على الأقل بالنسبة إلينا .

2 ـ اغسطينوس وبريميانوس

لقد اتّصف أغسطينوس بخصال نادرة : فكانت له روح متحمّسة لطيفة وإرادة قوية ومزاج الزعيم وقد سخّر هذه الخصال لخدمة الكنيسة وكانت له مرونة الديبلوماسي وحدّة نظر المنظّم ، أمّا مواهبه الفكرية المتنوّعة تنوّعا غريبا فلقد جعلت منه خطيبا وكاتبا من طراز عال فلم يتح للمسيحيّة أن رزقت زعيما في مرتبته قطّ وسرعان ما شعر بذلك الخوارج والمبتدعة .

ومن غرائب الصدف أنّ الدوناتوسية لم تجد لمواجهة أغسطينوس إلاّ زعيما باهت الشخصية لا قدرة له على العمل المنظّم يدعي بريميانوس (Primianus) خليفة برمانيانوس (Parmenianus) فلم يتمكّن من الإبقاء على وحدة النّحلة واستغلّ أغسطينوس ابتداء من انعقاد مجمع عنّابة (393) فرصة وجود خلافات أعدائه للدخول في المعركة بحزم وعزم . وكان الدوناتسيون و"الدّوارون" محافظين في ذلك الوقت على مواقعهم في نوميديا وموريطانيا وكانت المناوشات مستمرّة . ولقد وجد في خربة عويسة قرب تيارت نقش يمجّد شهيدا دوناتوسيا لا بدّ أن يكون هلك أثناء إحدى هذه الوقائع،ولم يتمكّن الكاثوليك من قمع أعدائهم بسبب الاضطرابات المتوالية التي كانت تجد السلط الرومانية صعوبة كبرى في قمعها . فلقد

سمحت ثورة أهلية للدوناتوسيين بأن يكشفوا من جديد عن حقدهم نحو سلطة الامبراطور .

3 – حرب جيلدون

سمّت رومة فيرموس قائدا لافريقية (حوالي سنة 386) اعترافا له بما قدّمه من مساعدة لتيودوز قائد الفرسان وجزاء لتعلّقه المتين برومة . غير أنّ قائد المقاطعة العسكري لم ينس أنّه أمير بربري . فبقي طيلة اثنتي عشرة سنة وفيّا لرومة ثم منع على الامبراطور تيودوز النجدة عندما دقّت ساعة الخطر وذلك عند مقاومته لمنافس له . ولمّا مات تيودوز وانقسمت الامبراطورية قسمين قطع كلّ صلة بهونوريوس (Honorius) امبراطور الغرب وأحال افريقية إلى سلطة أركاديوس امبراطور الشرق فأصبحت مراقبته لافريقية مستحيلة لبعد الشقّة (سنة 395) . وكان الذي شجّعه على الثورة أوتروب (Eutrope) خصي اركاديوس وكانت له مكانة عظيمة في بلاط القسطنطينية . أمّا جيلدون فإنّه كان مسيطرا على الوضع فكان في قدرته أن يتسبّب في مجاعة في رومة وايطاليا بامتناعه من إرسال "الحصّة السنوية" فثار في خريف سنة 396 وقطع الميرة . ولكن ستيليكون الوندالي (Stilicon) وهو صاحب السلطة الحقيقي في امبراطورية الغرب تلافى الخطر بمصادرته قموح غوليا واسبانيا ثم حمل مجلس الشيوخ على أن يُعلن أنّ جيلدون عدوّ الجميع . وتوخت رومة سياسة تعتمد على الخلافات بين قواد البربر . وكما أنّ جليدون أوحى إلى تيودوز بالخطّة لمقاومة فيرموس فإنّ مقزيل البربري قاد هو بنفسه الجيوش التي أرسلتها رومة ضدّ أخيه جيلدون. وانتصر مقزيل بسهولة بحيدرة (Ammaedara) . ولا بدّ أن يكون شيوخ القبائل الذين اشتريت ضمائرهم قد تخلّوْا عن القتال والحرب على أشدّها . فلم يتمكّن جيلدون من الهرب عن طريق البحر ولا نعرف هل قتل أم هو انتحر، فتمّ حجز أمواله ممّا درّ على الخزينة مرابيح فائقة أوجبت تعيين متصرّف خاصّ بها .

وكانت الجفاوة التي قوبل بها مقزيل عند رجوعه إلى ايطاليا قد أوغرت صدر ستيليكون عليه. فمات القائد المغربيّ بسبب حادثة ربّما لم تكن من قبيل الصدفة. وحرص القوم بعد ذلك على النيل من مجده وتولّى الشاعر كلوديانوس في ملحمة له أسماها وقعة جيلدون تقديم وجهة النظر الرسمية فلمّح إلى بوادر

المجاعة التي كانت تقضّ مضاجع رومة وإلى ظهور افريقية في أفق السماوات تؤكّد أنّها تخيّر أن تغمرها لجج نبتون على أن تخضع لجيلدون، كما ذكر رؤية الأباطرة لتيودوز وأبيه وقد تحوّلا إلهين وما توجّها به من لوم لاركاديوس وأسدياه من نصيحة لهونوريوس، وأخيرا تحدّث عن الاستعدادات الحربية . ولم يلمّح إلى مقزيل إلاّ مرة واحدة عندما أعلن ستيليكون أنّه من العار على هونوريوس أن يقود جيشا ضدّ متمرّد . ويظهر أنّ كلوديانوس اضطرّ إلى العدول عن كتابة الجزء الثاني من ملحمته حيث كان من الصعب عليه السكوت عن انتصارات مقزيل . ولم يكن لهزيمة جيلدون من تأثير إلاّ في افريقية، فلقد ساهمت في دفع ستيليكون على ضمّ اليركم (Illyricum) ليؤثّر تأثيراً مباشرا على امبراطورية الشرق .

4 — القمع

إنّ القمع القاسي الذي سلّط على أنصار جيلدون نال أيضا الدوناتوسيين فلقد مات أحدهم في الحبس وهو الأسقف أبتا أصيل تيمقاد (Optatus de Thamugadi) وكان مستشارا للقائد المغربي وروح المقاومة فمجّد كما يمجّد الشهداء وكذلك فقد ضغط نُبلاء القطائع (Landlords) على فلاّحيهم حتى يعودوا إلى النصرانية وقال ب. مونصو (Monceaux) في هذا المعنى : "كانت الدعوة إلى المسيحيّة في هذه البلاد التي تكثر فيها الضّيعات الكبيرة يعين على نشرها بنجاعة الملاّكين الكبار الذين كانوا يسعَوْن هم بأنفسهم إلى تنصير معمّريهم، وإلى توطيد الوحدة الدينيّة في أراضيهم بنوميديا" وهكذا فلا يمكن أن يعبر كاتب بألفاظ أكثر اعتدالا من هذه عمّا لاقاه الفلاّحون من ضغط ليخضعوا إلى سلطة الكنيسة . فكانت المسيحية بالنسبة للأسياد ضمانا لخضوع طبقة المعدمين الفلاّحين .

غير أنّ الكنيسة استأنفت نشر الدعوة في حزم كبير . فكان أغسطينوس يوحي بالتنازلات ، ولا يبخل بمواهبه في المناقشات ويُوعز بعقد المجامع التي يفرض عليها إرادته ولا ينفكّ يحرج السلطة بشكاواه ووشايته ضدّ الخوارج ويهيّء الجوّ لتدخّل السلطة الزمنية في الخلاف وأعلن الامبراطور بطلب من مجمع قرطاجني أنّ الدوناتوسية بدعة منافية لقوانين الدّولة . (12 فيفري 405) وعند ذلك أصبح القمع الرسمي الذي

غذّاه الانتقام الشخصي من الخوارج شديدا لا رحمة فيه ولا شفقة ولم يبخل الأساقفة الكاثوليك بوشاية بخصومهم إلى البوليس وكان الملاّكون في نوميديا لا يبلغون بذلك على غرار قستوس الذي مجّده أغسطنيوس «وعلى هذا النحو انتشر التنصّر وتخلّت مدن بأكملها عن اتّباع نحلة الخوارج » بل إنّ عددا كبيرا من "الدّوارين" رجعوا إلى الطّريق المستقيم وعلى غرار ذلك تحصّل لويس الرابع عشر على تنصّر عدد كبير من النّاس بقوة السلاح غير أنّ نحلة الخوارج في نوميديا صمدت في وجه القمع الذي وصل إلى حدّ من الخطورة اضطرّ معها اغسطينوس إلى لفت نظر البروقنصل ولم يُعر "الدوّارون" أيّ اهتمام لأوامر الأساقفة الدوناتوسيين الذين تبرّؤوا منهم فرجعوا إلى نهب الضيعات الكبيرة وهكذا فإنّ المبالغة في القمع كانت تزيد نار الثورة الاجتماعية اتّقادا .

5 ــ مجلس قرطاج

أعلن الأمبراطور فجأة عن حريّة المعتقد (410) من دون أن تعرف أسباب هذا التغيير . وتحصّلت الكنيسة بفضل احتجاجاتها على سحب قانون التسامح والحكم بالموت أو النفي على أهل البدعة ولم تسع الكنيسة إلى الحكم على خصومها فحسب بل كانت تروم توريطهم فنادت بعقد مجمع مشترك لإرجاع الوحدة .

ولم يكن المبتدعة واثقين من انتصار وجهات نظرهم كما كان الشأن بالنسبة للوتير (Luther) في مجمع ورمز (Worms) . ولكنّهم ذهبوا إلى مجلس قرطاج رغم ذلك (411) . فوجدوا أنفسهم لا في ندوة بل إزاء محكمة بأتمّ معنى الكلمة يرأسها البروقنصل مرسلينوس وهو مسيحيّ مشهور اتّهمه القوم بالارتشاء وقد حاولوا استعمال جميع الطرق فاستنجدوا بالشكليات وأنواع التعطيل لتأخير التصريح بالحكم ولكنّ مندوب الامبراطور ثم هونوريوس نفسه أصدرا حكمهما عليهم وكان دستور 30 جانفي 412 يأمر الخوارج بالدخول إلى الكنيسة وإلاّ صودرت أموالهم وعذّبوا في أبدانهم أو أجلُوا عن بلادهم .

وسرعان ما شمّر الوُلاةُ والمندوبون الخاصّون عن ساعد الجدّ لتطبيق أوامر الامبراطور تطبيقا صارما . فصودرت جميع الكنائس الدوناتوسية وسلّمت إلى الكاثوليك وبلغ العنف درجة اضطرّ معها عدد كبير من الخوارج إلى الانتحار . قال ب. مونصو في سخرية مرّة : ”كان من سلامة الذوق أن يحرق الخارجي نفسه برفقة غيره وكان الأساقفة يبدؤون بأنفسهم“ والذي يدلّ أكثر على سلامة الذوق هو من دون شك حمْلهم على اللّجوء إلى هذا المآل وكان ردّ الفعل إزاء هذا القمع أن ظهر الإرهاب فكثرت الاغتيالات وإحراق الكنائس وقتل الدّوارون عددا كبيرا من رجال الكنيسة وعمّ الشغب في طول البلاد وعرضها وردّت السلطة الفعل بإصدار قوانين أكثر صرامة . وهكذا فإنّ العنف ينجرّ عنه العنف ولا سبيل إلى إيقاف التيّار .

واغتنمت الكنيسة حركة القمع فضاعفت دعايتها ونشرت محاضر جلسات قرطاج ونصّ الحكم على الخوارج فتنصّر بذلك الكثير، ولكن ما قيمة إنكار المرء لما يعتقده بوسائل الإرهاب . ولقد اعترف ب. مونصو قائلا: ”ورغم مساندة السلط العمومية فإنّ الكنيسة الكاثوليكية لم تنجح في الانتصار على نحلة الخوارج في بعض جهات نوميديا وموريطانيا ففي سنة 422 مات ببنيان (Ala Miliaria) في جحود تام نماسانوس (Nemessanus) الأسقف الدوناتوسي مع أخته يوليا جيليولا (Julia Geliola) الراهبة . وبعد ذلك وإلى سنة 446 على الأقل أودع جثمان بعض كبار الخوارج في هذه الدهاليز وهو دليل على حيويّة جماعات من الخوارج تلك التي لم تنقرض إلاّ في أواخر القرن السادس . وخرج الكاثوليك بفضل أغسطينوس منتصرين من هذا الصراع . غير أنّ الكثير ممّن انضمّوا إلى صفوف الكاثوليك لم يتّحدوا في المظاهر فظلّ الحقد كامنا متزايدا على الامبراطورية والكنيسة الرسمية وطبقة الملاّكين الارستقراطيين الذين كانوا متضامنين مع حركة القمع . وسينفجر هذا الحقد من غير رحمة عندما تنهارُ هذه القوة أو هذا الثالوث الموحّد تحت ضربات الونـدال .

6 ــ الأدب الدوناتوسي

لقد حصل من هذا النقاش بين الدوناتوسيين والكاثوليك أدب جمّ كشف عنه ب. مونصو بفضل ما اتّصف به من واسع العلم ورشيق الترجمة.

والغريب أنّ الكاثوليك سكتوا طيلة نصف قرن (313 — 366) عن هجومات خصومهم ولا شكّ أنّهم كانوا يفكّرون في إخماد حركة الخوارج مستعينين بالدولة . ثم دخل المعمعة أبتا الميلي في عهد يوليانوس وأخيرا أضفى أغسطينوس على الجدل المسيحيّ هالة من الاحترام .

وأوّل كاتب كبير دوناتوسي هو دوناتوس مؤسّس هذه النحلة وموضوع مؤلّفه الذي لم يصلنا هو الحديث عن الروح القدس وهو كتاب يميل إلى الاريوسية حسب قول القدّيس جيروم ولكنّه رغم ذلك كان محفوفا بالاحترام كأنّه كتاب مقدّس . (Liber de Spiritu Sancto) ولا نعرف عن إنتاج برمانيانوس إلاّ ما جاء في ردود آبتا الميلي وأغسطينوس عليه . ولقد ألّف كتابا في الدّفاع عن الدوناتوسية في خمسة أجزاء ومجموعة من المزامير (Psaumes) غذاء لتقوى المؤمنين وردّا على تيكونيوس (Tyconius) الذي انفصل عن الدوناتوسية — وكان تيكونيوس يرعد ويزبد في وسط الدوناتوسيين المتصلّب وكان يريد أن يحتفظ بحريته وبصراحته فلم يتردّد في أن يعارض آراء النّحلة في مسائل متعدّدة (De bello intestino, Expositiones diversarum causarum). وخطر أمثال هؤلاء الرجال في حزب المعارضة عظيم إذ هم يثيرون ويشوّشون الأعمال، ولذا فنحن نفهم الآن تمجيد أغسطينوس له وانتقادات برمانيانوس وإقصاءه عن النحلة . لقد كان لائكيا ولكنّه فقيه عالم أريب نشر شرحا للجليان (Apocalypse) نال شهرة عظيمة وتفسيرا للكتاب المقدّس تصدّى فيه بطريقة جديدة إلى النصوص المتعلّقة وإلى أشتات من الكلام لم يعرف عنها الشرّاح شيئا قبله فوجد فيها مادّة لشروح جمّة الفوائد وأعجب القدّيس أغسطينوس بهذا التفسير للكتاب المقدّس واستغلّه

وكان قودانسيوس أصيل تيمقاد أحد المتكلّمين باسم النحلة في ندوة قرطاج . وكان شديد البأس حتى أنّه وفّق سنة 420 إلى منع القوم من الاستيلاء على الكنيسة وذلك بتهديدهم بحرقها وهو فيها . وبعد هذه الحادثة فتح نقاشا مع أغسطينوس عن طريق المراسلة . غير أنّ باتيليانوس أصيل سيرتة كان الشخصية المرموقة في هذه الندوة وهو خطيب مؤثّر وزعيم نحلة بلا مراء فكانت خطبه وانتقاداته ورسائله للقدّيس أغسطينوس عديدة وكتب أيضا رسالة في العماد .

الأدب الكاثوليكي . ابتا الميلي

لم تردّ الكنيسة على خصومها قبل أغسطينوس ردودا قليلة وكان المؤلّف الوحيد القيّم هو مؤلّف ابتا أسقف الميلة الذي ردّ على برمانيانوس وبيّن بطلان الدوناتوسية سنة 366 (Libri contra Parmenianum donatistum). وتخلّل هذا الردّ تاريخ نحلة الخوارج وهو مدعّم بوثائق ينبغي الاطّلاع عليها بكلّ تحفّظ ولكنّها المصدر الأساسي لمعلوماتنا حول أصل الصراع وينبيء ملفّ ندوة قرطاج عن أنّ الكاتوليكية مثّلها خطباء موهوبون لكنّهم لم يكن لهم وزن أمام القدّيس أغسطينوس .

8 ـ أغسطينوس المجادل

أكثر أغسطينوس الخطب والمقالات عندما شنّ حملته على الدوناتوسيين ولقد اضطرّ مدفوعا بمقتضيات الصراع إلى تدقيق كُنه الكنيسة ومقاومة وساوس عامّة الناس في قيمة تقديس الأرواح وانتهى به الأمر وهو يحاول تبسيط قواعده إلى نظمها في مقطوعات مرتّبة حسب الحروف الهجائية وكانت باكورةالشعر الروماني في عددمقاطعها القارّ وإيقاعها وقافيتهاورويّها : وكلّ مقطوعة ذات اثني عشربيتا تنتهي بلازمة : فبيت مثل (Omnes qui gaudetis pace modo verum iudicate) يقع في آذاننا موقع مصراعين كلّ مصراع له ثمانية مقاطع . وردّ على خصومه في رسائل حول العماد (De baptismo contra donatistas, De unico baptismo contra Petilianum) وتنصّرهم وموقفهم بعد الندوة (Contra partem Donati post gesta) ومسائل ثانوية أخرى .

واضطرّ القدّيس أغسطينوس وهو يخوض غمار هذه المناقشة الكبرى إلى وضع مبدإ خطير وهو ضرورة الالتجاء إلى "ارهاب مُجد" تقوم به السلط العامّة لحمل المبتدعة على الرجوع إلى السنّة ومنع ضعفاء الشخصية من التنكّب عنها . وبرّر دينيا ضغط الدولة على الأفراد بالاعتماد على قولة المسيح : ادفعوهم إلى دين الله دفعا . ومهما أظهر أنصاره من براعة في تبرير وجهة نظره أو تأييدها فإنّ الذي لا شكّ فيه هو أنّ القدّيس

أغسطينوس ساند بما أوتي من هيبة وبما أتاه هو نفسه من عمل عادة دلّت على أنّها تؤدّي حتميا إلى تقتيل المبتدعة للقضاء على البدعة . وكثيرا ما يكون هذا شأن بعض الأفكار يطبّقها بعضهم تطبيقا ينافي الغرض الذى قصده أصحابها .

9 — مشكل العون الربّاني — البيلاجية وشبه البيلاجية

ليست الدوناتوسية هي النحلة الوحيدةالتي كان على القدّيس أغسطينوس مقاومتها . ذلك أنّ راهبا من مقاطعة بريطانيا يدعى بيلاج ادّعى أنّه في إمكان الإنسان أن يحظى بالنجاة بالاعتماد على النفس من دون أن يحتاج إلى العون الربّاني . ولمّا قام أحد أتباعه بالدعوة إلى هذا المذهب أدانه مجمع قرطاج وردّ عليه أسقف عنّابة في مؤلّفات عديدة حول الغفران (De peccatorum meritis et remissione) ومفهوم النصوص ومنطوقها والطبيعة والعون الربّاني (De natura et gratia) والعدل الإنساني (Ad episcopos Eutropium et paulum, de perfectione iustitiae hominis) والعون الربّاني والاختيار (De gratia et libero arbitrio) ومصير القدّيسين (De praedestinatione Sanctorum liber ad prosperum et Hilarium) وملكة المثابرة (De dono perséverantiae) .

ولقد بيّن في أسلوب لاهوتي أثناء هذا الجدال ما نتج عن تجربته الذّاتية فيما يخصّ ضعف الطبيعة البشريّة . فالإنسان بدون العون الرّبّاني لا يتيسّر له الصمود في وجه مغريات الحياة المتواصلة واجتياز "الغابة المليئة عقبات ومخاطر" وهكذا نفهم كيف أنّ نظريات "بيلاج" لم تصدم تفكيره فقط بل عواطفه الدّفينة أيضاوإذا حكم البابا على"البلاجية"فقد برّأ ساحتها البابا الموالي . وحينئذ رفض الأساقفة الأفارقة الخضوع واستنجدوا من جديد بالدّولة . واضطرّ البابا إلى التراجع ولكنّه انتقم لنفسه فأيّد القساوسة الذين خطّأهم أسقف عنّابة أو أتباعه . وما زال القدّيس أغسطينوس يقاوم ظهور البدعة من جديد في مظهر محتشم حتى انتهى به الأمر في آخر حياته إلى الذهاب بمذهبه في العون الربّاني إلى أقصى حدّ فأكّد أنّ الله

اختار منذ الأزل عباده الذين كتبت لهم النجاة من مغبّة الذنوب ولا سبيل إلى الزيادة في عددهم أو التنقيص منه وأنّ العدد القليل من المصطفَين يلحقهم العون الربّاني الضروري لنجاتهم وأنّ غيرهم من النّاس كتب عليهم الشقاء الأبديّ إنّ لم يكن ذلك بسبب ما قدّمت أيديهم فبسبب الخطيئة الأصلية وأنّ الأطفال الذين لم يعمّروا ينالهم العذاب باعتبارهم ورثة الخطيئة.

10 – مجادلة أغسطينوس للمبتدعة

وفي نطاق هذا النسق المتصلّب كان أغسطينوس لا يوافق على أنّ الله يظلم عباده عندما يخصّ بعضهم دون بعض بعونه إذ لا يستحق أيّ إنسان هذه المنّة والله برفضه تعميم رحمته على عباده يؤكّد حقيقة هي أنّه لا يوجد إنسان واحد جدير بها . على أنّه يسلّم بأنّه توجد درجات في العقاب الأبديّ .

وقاوم أسقف عنّابة على حدّ السواء البدع التي لم تفلح في أرض افريقية والإشراك واليهودية وبه استنجد أحد تابعيه بول أوروز (Paul Orose) لمقاومة الاسباني برسيليان (Priscillien) الذي كان يقول بقدرة الإنسان أيّ إنسان على الالتجاء إلى الوحي الالهي ولتفسير الكتب المقدّسة خاصّة وللردّ على أنصار أوروز الذين كانوا يؤمنون بقدم الروح ويشاطرون في بعض المسائل رأي الاريوسيين (Ad orosium Presbyterum contra Priscillianistas et origenistas).

ولم يعتنق الآريوسية خلق كبير في بلاد البربر قبل أغسطينوس ولم تعرف من آثارهم سوى رد الشمّاس ماكروبيوس (Macrobius) المستند إلى النصوص المقدّسة ورسائل افريقي كان يعيش في رومة يدعى ماريوس فيكتورينوس (لقّب أفري (Afer) لأصله الافريقي . ولم يهتمّ أسقف عنّابة بالمسألة إلاّ سنة 418 عندما لفت نظره إلى خطبة صاحبها مجهول فبادر بالردّ عليها (Contra sermonem Arianorum) وقبل أن يلبّي داعي ربّه بسنتين خاض غمار جدال عمومي تقابل فيهمعه أحد أساقفة النحلة (Contra mascimirum) . ولقد بسط ابتداء من سنة 398 في كتاب ضخم

عكف على تأليفه سبع عشرة سنة المذاهب الصحيحة المتعلّقة بالثالوث . وقد انبهر أغسطينوس طويلا بالمانوية ، بحيث لم يقتصد في التشهير بخطرها (Manicheisme)

وكان يدير هذه النحلة في افريقية داعية ماهر يدعى الأسقف فوستوس الميلي (Faustus de Milev) وكـان على القدّيس اغسطينوس أن يلتقي يوما من الأيّام في دائرته ببعض منافسيه ولم يبلغوا شأنه فلم يكَدْيرجع إلى سوق أهراس (Thagaste) حتى انصرف إلى الردّ على المانويين في مناقشات عمومية سجّل فيها انتصارات باهرة وفي مؤلّفات صوّر فيها أخلاقهم وعالج مسألة الاختيار والدين الحقّ والروحين وأصل الخير .

11 ـ آثـار أغسطينـوس

ألّف أغسطينوس كتابه "مدينة الله" وهو أنفس كتبه وأثراها مادّة وذلك دفاعا عن المسيحيين الذين كان خصومهم يحمّلونهم مسؤولية أفول نجم الامبراطورية غَدَاةَ دخُول الاريي (Alarie) رومة عنوة ... وكان في بيانه يردّ على الهجومات ويُفَلْسِفُ في التاريخ ويحرص بالخصوص على التمييز بين زيف المجتمعات الدنيوية التي لا يهمّ زوالها وبين مدينة الإله الأبديّة . ولم يتوسّع في التحسّر على مآل رومة إذ تجاوزت الأحداث مصيرها . ورغم أنّه كان قاسيا في حكمه على الدولة فقد كان يعتبرها الدّرع الواقي من الفوضى ويوصي بطاعة رجالها مهما كانت مساويهم وكان يميل بطبيعة الحال إلى الدولة المسيحية التي تسخّر قوتها في سبيل الكنيسة وتقاوم البدع . وسوف يستشهد غريغوار السابع بالقدّيس أغسطينوس لتدعيم مطامحه في إقرار حكم إلاهي. وعلاوة على ذلك ردّ القدّيس أغسطينوس في إيجاز على هجومات اليهود وبقدر ما كان أسقف عنّابة مجادلا مُهَابا كان كذلك مفسّرا بارعا قد ضبط المنهج الذي يجب أن يتّبع في تفسير الكتب المقدّسة وقد شرحها وبيّن أنّه لا يوجد خلافات جوهرية بين الأناجيل .

وكان شأنه شأن ترتوليانوس والقدّيس قبريانوس يُسدي لمريديه النصائح سواء في الأخلاق أو في المسائل الفقهية . وهكذا أصبحت رسالته

في طرق تعليم المذهب المسيحي أهمّ مؤلّفات القدّيس أغسطينوس بعد أن كانت مجرّد رسالة لأحد شمامسة قرطاج . ذلك أنّه يجب ـ سعيا إلى تنصير الجهلة وهو ما يرمي إليه عنوان الكتاب ـ القيام بالمهمّة بكلّ حماس ، والتوفيق في اختيار الأمثلة البليغة المساعدة للسامع على إدراك أنّ "كلّ ما في الكتاب المقدّس من البدء إلى ظهور المسيح هو صور لما يُجسّم المسيح في الكنيسة". (P. de Labriolle) . ثم التخلّص من ذلك إلى الإشادة بالاستنقاذ الذي هو ثمرة المحبّة ، ثم إقامة الدّليل إلى المتنصّر الجديد على أنّ الله ينكشف له في تجربته ، وأخيرا تعريفه بما ينتظره من جزاء يوم القيامة كتتويج ممكن لحياة كلّ مسيحيّ .

وممّا يؤسف له أنّه لم يبق لنا من مئات عديدة من خطب القدّيس أغسطينوس إلاّ مائتان وست وسبعون رسالة لها أهمّية كبيرة بالنسبة للتّاريخ الديني ولفهم نفسية صاحبها . غير أنّنا نجد القدّيس أغسطينوس بكلّيته في كتابه "اعترافات" النابض صدقا وشعورا الطافح وجدانا وإن لم يخل في بعض الأحيان من أسلوب خطابي وقد كتب هذا الكتاب في السنوات الأخيرة من القرن الرابع ولا شك أن يكون كتب في أواخر سنة 397 أو أوائل سنة 398 وليس هو أوّل تأليف يترجم الكاتب فيه عن نفسه سواء في الأدب الروماني المطبوع بطابع الدين أو بطابع الدنيا لكنّه لم يسبق أن كتب كاتب صحائف في مثل تلك العاطفة المتأجّجة وبذاك الأسلوب الخالي من كلّ تصنّع . فجان جاك روسو وحده هو الذي مضى إلى أبعد من ذلك في الاعتراف بخطاياه . وإن كان روسو قد أراد الكشف إلى إخوانه البشر عن "رجل في أجلى مجالي الطبيعة" فإنّ القدّيس طمح إلى أسمى من ذلك فلقد اعترف بمساويه في خضوع متناه ليبيّن أنّ الإنسان إذا هو اعتمد على قواه الذّاتية وحدها وقع في الخطيئة لا محالة فكان تأليفه تمجيدا للذات الإلاهية يسوده حقّ من التوتّر لا يرحم تتحطّم معه الأعصاب غير أنّ نجاح هذا التأليف لم يُبْليه الدهر منذ خمسة عشر قرنا .

12 ــ انتصار الكنيسة

اكتسبت الكنيسة في افريقية خاصّة بفضل القدّيس أغسطينوس سمعة

وهيبة لا ينكرهما أحد . لقد أصبحت دولة في الدولة بأتم معنى الكلمة فكان في وسعها نظرا لمشمولات أساقفتها وتأثير قرارات مجامعها أن تتجاهل سلطة الامبراطور ـ البابا في ما يخصّ سنّ القوانين والنظام وإن اعترفت الكنيسة بأنّ سلطة الملوك مستمدّة من الله فإنّها أخذت تنال يوما بعد يوم من هذه السلطة حتى انتهى الأمر إلى الاستغناء عنها في الانتخابات البابوية وفي المجامع أصبحت المسؤوليات البلدية تفرض على رجال الكنيسة وصارت الكنائس مكانا يلتجأ إليه .

غير أنّ هذا الانتصار السريع سرعة فائقة على الإشراك ودخول النّاس أفواجا في هذا الدين ساهما في انخفاض مستوى أخلاق النخبة المسيحية . أما المبتدعة والخوارج الذين اضطرّوا بالقوة إلى اعتناق المذاهب القويمة فإنّهم لم يغزوا الكنيسة بقوى جديدة . وكثير من المسيحيّين من بين صفوة الخلّص ركنوا إلى العزلة بعيدا عن العالم المنحطّ وهكذا نشأ التنسّك ثم الرّهْبَنَة اللّذان أشاعهما في افريقية القدّيس أغسطينوس فكان لهما انتشار سريع .

وفيما يخصّ سياسة الكنيسة في المجتمع فقد كانت تعين الضعفاء بشرط أن يرضَوا بالتفاوت الاجتماعي وأن يخضعوا . وأعلنت أنّ الرقّ شرعي لأنّ الضرورات الاقتصادية ووجوب استخدام الطاقة البشرية للجرّ والجذب بالخصوص تجعل منعه مستحيلا . ولكنّها حاولت أن تخفّف من وطأته على كلّ حال فأحدثت مشاريع خيرية ووزّعت عليها قسما من الأموال التي كان يتبرّع بها المؤمنون على سبيل الصدقة وتعوّدت شيئا فشيئا أن تنوب في المدن البلديات المتقاعسة .

13 ـ انحلال الامبراطورية

إلاّ أنّ جسم العالم الروماني قد تأكّله السرطان حتى أنّ الكنيسة عجزت معه عن شفائه بل إنّها عجّلت بنهايته من حيث لا تشعر وذلك بما تولّد عنها من نحل الخوارج والبدع فكانت ارستقراطية الأرض هي القوة الوحيدة التي ظلّت قائمة إلى جانب الكنيسة في افريقية كما هو الشان في باقي الامبراطورية .

ففي الوقت الذي كان المجتمع يرتكز كلّيّة على الفلاحة أصبح الملاّك الكبير قائما في وجه الدولة وسيّدا مطلقا لا على العبيد والمعمّرين بل على الأحرار الذين كان يمّن عليهم بالعمل،وكانت ثروته تسمح له بأن يشتري ضمائر أعضاء العشائر وموظّفي الامبراطورية ، وكانت "زعامته" تجلب له الأحرار الحريصين على أمنهم وقوت يومهم .

وهكذا كانت الارستقراطية تجمع في أراضيها العناصر الحيّة للامبراطورية دون سواهم . غير أنّ هذا النّظام ما كان يمكن له أن يدوم إلاّ إذا شدّ الفلاّح إلى الأرض . فأصدر تيودوز أمرا بمنع المعمّرين من "النزوح عن الأرض التي رضوا في أوّل الأمر بإحيائها" .

ولم يكن من صالح الامبراطورية – وهي جامعة المدن – أن تترك الحياة البلدية تنطفىء شيئا فشيئا من دون أن تعرّض نفسها للهلاك بالرغم عن أنّ هذه الخطط صارت ثقيلة الوطأة . فاضطرّت إلى فرضها على أعضاء "العشائر" ومن ذلك الوقت أصبح هؤلاء الذين نالهم هذا الشرف (Honores) يجتمعون في جماعات متضامنة في المسؤولية لا في ما يخصّ تسيير البلدية فحسب بل كذلك في جمعها للضرائب . غير أنّ أعضاء العشائر كانوا يلجؤون إلى طبقة الشيوخ ويغادرون المقاطعات التي لم يبق لهم فيها خطّة يمارسونها. وهكذا فإنّ عدد أعضاء البلديات كان يقلّ شيئا فشيئا وأجبرت الدولة لضمان بقائها على أن تمنع قانونيا مثل هذا الفرار .

إلاّ أنّ افريقية كما لاحظه في حذق أ. البرتني (E. Albertini) لم ينخرها الدّاء مثل نخر مقاطعات الامبراطورية الأخرى . ففي عهد قسطنطين كان تدخّل الشعب في حدود انتخاب الحكّام البلديين،أمّا في عهد هونوريوس فإنّ (Munera) كان في الإمكان أن يتناوب عليها أعضاء "العشائر"،تلك دلائل ولا شك ولكن يجب ألاّ يستنتج منها أنّ كلّ شيء في افريقية كان على أحسن ما يرام . فكما هو الشان في غيرها من المقاطعات أصبحت المدينة المهجورة من الارستقراطية فقيرة باهتة بينما كانت في ذلك الوقت تتكوّن الأراضي الشاسعة وتنظّم وتسند في أواخر العهد الامبراطوري نفس المشمولات العدلية والجبائية.ولقد أمكن للكنيسة والمدن

والضّيعات الشاسعة أن تمدّد في أجل العالم الروماني ولكنها لم تحل دون انهياره .

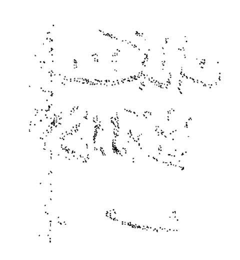
وأصبح هذا الجهاز الضّخْم غير متلائم مع المقاطعات المفلسة . فقد نخر الاستبداد المجتمع بتثبيط العزائم الصادقة وبتخضيد شوكة ذوي البأس فصار لا يردّ الفعل . قال ف . لوط (F. Lot) : "أتاحت الامبراطورية لعالم الحوض المتوسّط السِّلم . فمدّنت أهالي غوليا ، وبريطانيا، واليريا المتوحّشين وكذلك الموريين والنوميديين في الغرب . إلاّ أنّ ثمن هذه الخدمات الجليلة كان باهضا جدّا . فقد أحدث الاستبداد في نفوس السكّان خمولا واستسلاما بلغا حدّا من الخطورة يجوز معه للمرء أن يتساءل عمّا إذا لم تكن السِّلم بمثل هذا الثمن من أحقر الهدايا وأسوئها" وإذا كانت قيمة الشجرة بثمارها فإنّ ثمار السلطة المطلقة الرومانية بالغة المرارة . لقد كان مآل الاستعمار الروماني الإفلاس الشنيع الذي كان ضحيته سكّان المقاطعات . وما قاله س. جوليان (C. Jullian) عن بلاد غوليا ينطبق على افريقية . ولولا هذه الأطلال المتراكمة التي خلّفتها زحفة بني هلال والتي تأخذ بألباب المتأمّل فيها لكان إعجابنا بما قام به الرومان دون ما نشعر به الآن نحوهم .

وكانت بلاد البربر البعيدة في الظاهر عن الأخطار التي كانت تتهدّد أوروبا الخاضعة للامبراطورية من جرّاء زحف القوة الفتيّة المتوحّشة ، فريسة تتنمّر لها قوى الشرّ وتثير مطامع الطامعين . ففي سنة 410 جهّز الاريك في ريجيو أسطولا لينقل شعب القوط إلى الالدورادو المغربي . ولكنّ العاصفة شتّتتهم شرّ مشتّت في المَضيق وبعد ذلك بستّ سنوات أخفق "واليا" (Wallia) ملك القوط في اسبانيا لأسباب مماثلة قرب قادش . ثم كان الوندال فانهار السلطان الروماني في افريقية انهيارا .

الباب التاسع

زحف الوندال واحتلالهم لبلاد البربر

1 - جنسريق   2 - خلفاؤه



I ـ جنســريـق

1 ـ الوندال في اسبانيــا

إنّ سمعة الوندال سيّئة للغاية ، ومن دون أن نحاول الدّفاع عنهم الأمر الذي يكون مدعاة إلى الاستغراب فإنّه يجب العلم بأنّنا لا نعرف تاريخهم إلاّ عن طريق أعدائهم أو ضحاياهم، ومن خطإ الرأي أن نتوقّع منهم الإنصاف ولو في حدّ محدود . فما عسى أن يكون تاريخ لويس الرابع عشر لو اعتمد المؤرّخون في تدوين أخباره على المصادر البروتستنية بالخصوص . إنّ سطرا واحدا لم يكتب لتبربر هؤلاء الأقوام المتوحّشة ، والذي لا شكّ فيه هو أنّه لو أصغي إليهم لما عدموا الحجج الشافية التي يمكن للباحث أن يتبيّنها من خلال مجموعات أعدائه .

إنّ المصدرين الأدبيين الرئيسيين اللذين هما بين أيدينا اليوم مشكوك في قيمتهما، فبقدر ما يبعد الباحث في مؤلّفات بروكوب من معلومات نفيسة عن الزحف البيزنطي الذي كان شهيدا عليه فإنّه لا يمكن أن نثق ثقة كاملة فيما أورده من أخبار عن الحقب السابقة. أمّا الكتاب الذي ألّفه فيكتور أسقف فيتا (Vita) في مزاق في أرض الهجرة سنة 486 فلعلّه سجلٌ لمواقف الشهداء يصوّر أعمال الوندال الشّنيعة ويورد من الدّقائق والتّفاصيل ما يبعث على الحذر، فأمّا أن يكون كتاب تاريخ فلا .

وإذا كان من المفروغ منه أنّ الوندال ارتكبوا أفظع الأعمال فممّا لا شكّ فيه أيضا أنّ "الوندالية" التي ترمز إلى الأعمال الوحشية بصفة عامة مجرّد أسطورة ولكنّها تستمدّ صحّتها من استعمال الأسقف غريغوريوس لها حسب ما يروي في تقرير قدّمه إلى المجلس(Convention).

إنّ هذه القبائل الوندالية لم تنزل بسواحل افريقية إلاّ بعد قرون من المغامرات والاغتراب . فقد انطلقت من بحر البلطيق وبلغت سهول الأودر(Oder) والفستول الأعلى (Vistule supérieure) حوالي القرن الأوّل قبل المسيح . ثم تشتّتت في القرن الثاني بعد المسيح بسبب هجرة القوط واجتمعت في بطنين رئيسيين يعرفان باسمي سلينخ وهستنخ (Silings et Hasdings) وبعد تقلّبات خاصّة دامت قرنين التقيا في جهة نهر الرين الأوسط حيث سبقهما أو التحق بهما أقوام متوحّشة أخرى كقبائل الآلان والسوّاف منهم من سبقهم ومنهم من تعقّبهم وعلى كلّ فقدحطّموا جميعا خطّ الدّفاع المنتصب على ضفّة نهر الرين وذلك قرب مدينة ماييناس (Mayence) في 31 ديسمبر 406 واكتسحوا غوليا ونهبوها ثمّ دخلوا اسبانيا في خريف سنة 409 ولم تمض سنتان أو ثلاث حتى اقتسموا الجزيرة . فاستقرّ الهستنخ والسوّاف في الشمال الغربي بجليقية ، واحتلّ السيلينخ الجنوب في البيتيك، أمّا الالآن فقد انتصبوا بلوزيطانيا والمنطقة البونيقيّة في الجهات المتوسّطة .

لم يستقرّ الحال بهم طويلا . ففي سنة 416 رمى زعيمهم الامبراطورية وقائد فرقة قسطنطين بجنده قوط والية (Wallia)على اسبانيا فأبادوا قبائل السيلنخ ثمّ وجّه ضرباته القاسية نحو الآلان، وما زال بهم حتى ذابوا في شعب الهستنخ .

وقد اجتنب الوندال Vandales الكارثة لأنّهم نزحوا في سرعة كبيرةنحو جنوب الجزيرة حيث افتكّ ملكهم غندريق (Gunderic) قرطاجنة واشبيلية من أيدي الرومان (425) .

ومنذئذ انتصبوا على طول السواحل وبسطوا نفوذهم على البحر المتوسّط بفضل أسطول اسبانيا . وسرعان ما احتلّوا جزر البلجار وأخذت

سفنهم تنهب سواحل موريطانيا الطنجية ابتداء من سنة 425 بدون شك . ولمّا أصبح ملك الوندال سيّدا على معظم تراب اسبانيا كان من الطبيعي أن يتوجّه بأنظاره إلى افريقية ولم يجد غندريق (Gunderic)الوقت لتنظيم غارته على هذه البلاد . ولمّا قضى نحبه سنة 428 كان على أخيه جنسريق أن يقوم بهذه المهمّة ولعلّه كان أعظم قواد ورجال الدّولة الجرمان في القرن الخامس .

وكان ملك الهستنخ والآلان حسب ما رواه جوردنيس (Jordanes) قصير القامة أعرج بسبب كبوة من جواده وكان قليل الكلام حصيف الرأي ثابت العزيمة . وكان القوم معجبين بمهارة سياسته ودهائه .

وما كان لرجل على هذا القدر من البراعة أن يجهل ما كانت تتخبّط فيه افريقية من فوضى فلايستغلّها . فكانت الأزمة السياسة والأزمة الاقتصادية والأزمة الاجتماعية تتظافر كلّها لتؤدّي بالبلاد إلى الإفلاس .

2 ـ قلاقل افريقية

كان للقلاقل التي جدّت إثر موت امبراطور الغرب هونوريوس (423) تأثيرها في افريقية، ذلك أنّ هونوريوس لم يترك ولدا، أمّا ابن أخته غالة بلا سيديا (Galla placidia) وقنسطانس الذي سوف يعرف باسم فالتينيان الثالث فإنّه لم يتجاوز حينذاك الرابعة من عمره فلم يعترف به امبراطور الشرق تيودوز الثاني قيصرا . وكان يخشى أن تستغلّ القسطنطينية هذا الظّرف لتحقيق وحدة الامبراطورية من جديد . إلاّ أنّ بلاسيديا كانت تعتمد على الكونت بونيفاس وهو آخر القواد الرومانيين منذ موت قنسطنس وأشهرهم، وبينما وضع قائد فرقة كاستينيوس والقائد آييتوس (Aetius) نفسيهما تحت تصرّف مغتصب مجهول كان بونيفاس يبذل جهده لئلا تتمرّد افريقية على الامبراطور الشرعي. وانتهى الأمر بتولية فالنتنيان امبراطورا واتّحاده مع تيودوز الثاني (425) وكان من حقّ بونيفاس بعد كلّ هذا أن يطمع في لقب "سيّد السلاحين" أي قائد أعلى خاصّة وأنّ منافسه الوحيد كاستينيوس كان قد نُفي . إلاّ أنّه لم ينل ذلك اللّقب إذ فقد كلّ حظوة عند الوصية .

وممّا جعل بونيفاس محلّ ريبة لدى الكاثوليك وحتى لدى صديقه أغسطينيوس زواجه ثانية بآرية لا بوندالية كما أكده بعضهم مرّات كثيرة — وتعميد ابنته على طريقة المبتدعة بعد أن عاش أزمة تديّن حادّة على طريقة "السنّية" التي كادت أن تؤدّي به إلى الدّير. وخشيت بلاسيديا أن يحمله طموحه إلى تأسيس إمارة في افريقية عندما لاحظت ما أصبح عليه من اعتداد بالنفس بعد الذي سجّله من انتصارات عسكرية على البربر وما جلب له ذلك من ذيوع صيت . وأهاجت دسائس البلاط عقارب الشكّ والريبة . وقد اتّهمه بروكوب (Procope) بأنّه أغار صدر بلاسيديا على بونيفاس في الوقت الذي كان يحذّره من الأخطار المُحدقة به في رافين (Ravenne) ولكن آييتوس (Aetius) كان يحارب في بلاد غوليا في ذلك الوقت وليس أحد أحقّ بأن يتّهم بالمكيافيلية السياسية سوى القائد الأعلى فيليكس الذي كان حينئذ مستشار الوصية .

ومهما يكن الأمر فإنّ بونيفاس تلقّى سنة 427 إذنا بالعودة فلم يستجب له فاعتبر عدوّا عموميا . وقد هزم الجيوش الأولى التي أوفدها فيليكس لمقاومته ولكنّ الجيش الذي كان يقوده كونت افريقية سجسفولت (Sigisvult) وهو من القوط، استولى فيما يبدو على عنّابة وقرطاج في أوائل سنة 428 فأصبح بذلك وضع المتمرّد خطيرا .

وفي هذه الظروف يروى أنّ بونيفاس استنجد بالوندال والرواية مدعاة للشكّ إذ لم ترد إلاّ بعد قرن في ما كتبه بروكوب وجورد نيس فقط . ويعتبر هيداتيوس مؤرّخ اسبانيا الهجرة إلى افريقية نتيجة منطقيّة للهجومات التي استهدفت لها موريطانيا سنة 425. أمّا بروسبر أصيل اكيتانة وهو المعاصر الوحيد الذي خلّف لنا شهادة في هذا الصدد فقد أكّد أنّ الأقوام المتوحشة استنجد بهم الطرفان (a concertantibus) ومن المرجّح فعلا أن تكون عصاباتهم التي لم تتّضح نواياها تلقّت في غمرة الفوضى التي تبعت الزحفة نداءات من سجسفولت وبونيفاس معا .

ولكن لا تكفي إشارة قائد متمرّد لتبرير دخول الوندال في مسرح الأحداث بإفريقيا الشمالية . فلقد حاول قبلهم قواد من القوم المتوحّشين

كانوا مستقرّين في ايطاليا أو اسبانيا كالاريك (Alaric) أووالبا (Wallia) أن ينزلوا على تراب الأرض الموعودة لإشباع نهم عصاباتهم الجائعة والسيطرة على تزويد ايطاليا بالقمح .

وقد خلبّت افريقية لُبّ ملك الوندال كما خلبّت من قبله لُبّ ملوك القوط خاصّة وقد كان الظرف مناسبا جدّا، فعلاوة على تمرّد بونيفاس كانت الثورات البربرية المزمنة وكانت انتفاضات الأقوام التي أرهقتها ضرائب الامبراطور وإرهاب الدوناتوسيين الذين كانوا يغتنمون جميع الفرص ليعبّروا عن سُخطهم إزاء السلطة المركزية . وكانت افريقية بأجمعها تَتُوقُ على غرار حاكمها إلى الاستقلال السياسي . ومن الطبيعي أن يتوقّع من تحدّثُه نفسه بالإغارة على هذا البلد مقاومة ضعيفة ومساعدات ثمينة .

3 — فتح افريقية

ولم يترك جنسريق الفرصة تفوته . فبعد أن وطّد أركانه بانتصاره على السواف الذين أغاروا على لوزيتانيا (Lusitanie) انتقل بجيوشه إلى افريقية، وقد انطلق من طريفة (Julia Traducta) الواقعة على مضيق جبل طارق في ماي سنة 429 والتحق بالسواحل الافريقية في اتّجاه نومور (Ad Fratres) حسب ما أكّده بعضهم (أ. ف. ڤوتييه) والأصح على ما يظهر في جهة طنجة أو سبتة . وما تشهد به في لاموريسيار نقيشة يرجع تاريخها إلى أوت سنة 429 من قتل (المتوحّشين) لبربريّ أو بربريّة يرجّح أنّه يشير إليهم ويحمل على الاعتقاد بأنّ الوندال سلكوا طريقا بريّة وقد صحب جنسريق شعبه بأكمله من الوندال والآلان وحتى القوط القاطنين بإسبانيا أي ما يقرب من 80 ألف نسمة منهم خمسة عشر ألف جندي . وإذا صدّقنا ما رواه بوسيديوس (Possidius) أسقف كلاما (Calama) في كتابه حياة القدّيس أغسطينوس وما رواه فيكتور فيتا فإنّ زحفة المُغيرين تبعتها أعمال فظيعة من عبث بالأشجار والمزروعات وحرق للكنائس وإمعان في تعذيب القساوسةً ورجال الكنيسة وتقتيل للشيوخً والأطفالٍ . ولا يًمكن أن نعرف ما هو

قسط تشفّي الدوناتوسيين والمزارعين المستغلّين في هذه الأعمال الفظيعة التي لم تنته بانتصار الوندال . والراجح أنّ دورهم في ذلك كبير ويمكن الاعتماد على الحفريات الواقعة في بنيان (Ala Miliaria) في أواخر القرن الماضي لتصوّر المعارك الدّامية التي جدّت بين المبتدعة و"السنّيين" في موريطانيا الغربية حيث كانت الحركة الدوناتوسية قوية . فلقد كشفت هذه الحفريات عن سراديب فيها توابيت عدد كبير من أعيان هذه النّحلة خاصّة الرّاهبة ربّه (Robba) التي قتلت تحت ضربات (Les Traditeurs) سنة 434 فاستحقّت بذلك لقب الشهيدة وإقامة معبد تكريما لها .

والغالب على الظنّ أنّ المستضعفين في الأرياف الذين انفسح لهم المجال بانسحاب القوة المسلّحة أخذوا بثأرهم من كبار الملاّكين الذين استغلّوهم دهرا طويلا استغلالا فاحشا فقتلوهم أو انتزعوا أراضيهم .

ولم يكن في مقدور الامبراطورية أن تقف في وجه جنسريق إلى أن زحف على نوميديا وتوغّل فيها . عند ذلك أصبح الخطر عظيما إلى حدّ كفت معه منافسات خصومه . فقرّرت بلاسيديا العفو عن بونيفاس وأسندت إليه قيادة الجيش بأكمله بما فيه القوط المرتزقة،وبعد مفاوضات لم تؤدّ إلى نتيجة لجأ الرومان والوندال إلى القوة . وانهزم بونيفاس واعتصم بعنّابة (Hippone) فحاصره جنسريق . ونحن نعلم أنّ القدّيس أغسطينوس توفّي بعد ذلك بثلاثة أو أربعة أشهر (28 أوت 430) ولم تمض أربعة عشر شهرا حتى كفّ جنسريق عن حصار المدينة لقلّة خبرته بالاستيلاء على المدن،ولم يحاول كذلك دخول سيرتة (Cirta, Constantine) وقرطاج عنوة،وإذا استثنينا هاتين المدينتين المحصّنتين اللّتين بقيتا في حوزة الرومان فإنّ أيّ حافز لم يحل دون زحف الوندال على بقيّة البلاد .

وأعظم خطر كان يمكن أن يهدّد جنسريق هو انطلاق جيش من القسطنطينيّة للنجدة تحت قيادة أسبار (Aspar) ابن أحد المحاربين الآلان وهو الذي سيطر فيما بعد على امبراطورية الشرق . ونزل "أسبار" بقرطاج وانضمّ بجيشه لبونيفاس ولكنّهما انهزما معا سنة 431 . ولم يلبث أن رجع أسبار إلى القسطنطينية ولم تمض سنة حتى استقدمت بلاسيديا

بونيفاس وسمّته قائدا أعلى منافسا لآييتوس (Aetius) ولكنّه لم يلبث أن قضى نحبه بعد شهور قليلة .

وظلّت افريقية بلا حامٍ يحميها . فقد كان آييتوس (Aetius) الذي فرض نفسه على بلاسيديّا بالقوة كقائد للجيشين وشريف يركز جهوده في بلاد غوليا من دون أن يقيم وزنا لزحف جنسريق . وما إن أصبح سيّدا حتى رضي بالتفاوض معه . وقد خوّلت اتّفاقية عنّابة (Hippone) (11 فيفري 435) امتيازات للوندال شبيهة بالتي تحصّل عليها القوط في أكيتانة (Aquitaine) ذلك أنّ الوندال اعتبروا قوما "متّحدين" مع الامبراطورية مقابل أداء رمزي . وأصبح بذلك في إمكانهم الاستيطان في مقاطعات موريطانيا الثلاث وقسم من نوميديا بما فيها ڤالمة (Calama) ومن دون أن يتسلّموا الأراضي بصيغة قانونية . وأكّد جنسريق إخلاصه لهذا الحلف فالتزم بإرسال الرهائن كلّ سنة إلى رافين (Ravenne) وعيّن ابنه ضمن البعثة الأولى منها .

4 — انتصار الوندال

اعتبر ملك الوندال هذه المعاهدة مهلة تتيح له التّخلّص من هجوم مفاجىء يقوم به آييتوس قبل أن يوطّد قدمه فيما فتح من بلاد . وما زال يهدّىء من تخوّفات "رافين" حتى نجح في استرجاع ابنه إلى افريقية . ولمّا لم يبق له مبرّر للمهادنة طوى الأحداث طيّا فاستولى على قرطاج من دون مقاومة تذكر (19 أكتوبر 439) وقد وصف "سالفيان" Salvien قسّ مرسيليا مشهدا ممتازا قال : "بينما كانت أبواق الزاحفين تردّد أصداءها تحت أسوار سيرتة وقرطاج كان رجال الكنيسة في هذه المدينة تتبلّد حواسّهم في ملاهي الملاعب ويفقدون ماء الوجه في المسارح. وكان الجنود يتقاتلون خارج الأسوار. أمّا في المدينة فقد كان القوم يستهترون وكان النّاس بعضهم أسرى في أيدي الأعداء والبعض الآخر أسرى العار . ولا ندري من هو أحقّ منهم بالرّثاء" إلاّ أنّ غاية سالفيان هي إقامة الدليل على أنّ الله أرسل الوندال عقابا لافريقية "بؤرة كلّ ألوان الفساد" ولعلّه لم يتحرّ الدقّة فيما وصف . وليس من شك كذلك في أنّ الهلعَ كان

كبيرا جدّا لا في قرطاج فقط بل في الامبراطورية كلّها وخاصّة رومة التي لم تنس ما نالها من قبل ذلك بعشرين سنة من نهب وتخريب على أيدي القوط الذين كان يقودهم "ألاريك" .

والواقع أنّ خطر جنسريق تحقّق عندما جهز أسطولا عتيدا فنفخ في أبواق الإنذار في الامبراطورية من أقصاها إلى أقصاها فحصّن القوم مواقعهم وخاصّة في ايطاليا . ووعد تيودوز بالتدخّل ونظّم سيجسموات حماية السواحل ورجع آييتوس من بلاد غوليا بجيوشه . غير أنّه لم يكن يطمع بعد في الاستيلاء على رومة . بل إنّه هجم على صقلّية وحاول من دون جدوى احتلال بالرمو (Panorme) واقتصر في آخر الأمر على الفوز بمرسالة (Lilybée) ولم يبق لامبراطورية الغرب أسطول يقف في وجه جنسريق . أمّا الإغريق فإنّ ما جرى من ماهر المفاوضات حال طويلا دون انطلاقها وانتهى الأمر بالعدول عن إرسالها لمّا شاع خبر توقّع هجوم الفرس والهان (Huns) على المناطق الشرقية ولا شك أنّ ملك الوندال هو الذي أوعز بهذه الشائعات فأكّد بذلك مرة أخرى تفوّق ديبلوماسيته .

ولم يجد تيودوز بدّا من التوقيع على معاهدة جديدة أيدها فالنتينيان سنة 442 وكانت هذه المرّة لصالح الوندال خلافا لمعاهدة سنة 435 . وقنعت الامبراطورية بأشدّ الجهات فقرا وأقلّها استقرارا وهي موريطانيا القيصرية والسطيفية وجزء من نوميديا بما فيها سيرتة وبلاد طرابلس . أمّا جنسريق فقد بسط نفوذه كاملا ولا شك على بروقنصلية بما فيها قرطاج ومزاق وعلى جزء من نوميديا يشمل عنّابة (Hippone) ولم يرد ذكر موريطانيا الطنجية التي كانت تابعة لاسقفية اسبانيا في نصّ المعاهدة . وأغلب الظنّ أنّ الوندال اقتصروا على مراقبة المضيق .

وأصبح أمل رافين (Ravenne) الوحيد متمثّلا في مدى عطف ملك الوندال . ورغم أنّ وليّ العهد حنياريق (Huneric) كان تزوّج من إحدى بنات تيودوريك ملك القوط فقد عرض آييتوس عليه مصاهرة فالنتينيان . وسعى جنسريق إلى تيسير الأمر فطرد زوجة ابنه بدعوى محاولة التسميم ووجّهها إلى تولوز بعد أن قطع أنفها وأذنيها . ولا ندري لماذا

لم تتمّ الزيجة الجديدة وعلى كلّ فقد ظلّت العلاقات حسنة بين الرومان والوندال حتى سنة 455 .

أكّد جنسريق قوة شخصيته عندما جعل من احتلال قرطاج نقطة انطلاق لعهد جديد . لقد ظلّ الرومان يجمعون القموح في مقاطعات موريطانيا الثلاث إلاّ أنّهم كانوا تحت رحمة الوندال وقد أصيب أصحاب السفن في استيا بضربة قاسية من جرّائهم . ولم يضع جنسريق حدّاً لنشاط قراصنته ولدهائه وكيده الرامي إلى تأليب الأقوام على الامبراطورية .

5 ــ نظام الأراضي

وما زال جنسريق بالأفارقة حتى لانت قناتهم وسلِس قيادهم . وتملّك نهائيا أرياف زغوان حيث أقرّ الجانب الكبير من رعيته . ولا نكاد نعرف شيئا عن نظام الأراضي إذا استثنينا أنّ تحويل الأملاك تمّ عن طريق انتزاعات لم تخلُ من عُنف . فقد قال بروكوب: "اختار ملك الوندال من بين سكّان افريقية أكثرهم غنى وأعظمهم شأنا فانتزع أملاكهم وأثاثهم وسخّر الرقاب بعد أن كبّلها بسلاسل العبودية ثم جرّد الأفارقة من أخصب أراضيهم وأوسعها فوزّعها على الوندال . وقد سمّيت هذه الأملاك باسم قطع الوندال ولم تزل محتفظة بهذا الاسم إلى اليوم . ولم يلبث الملاّكون القُدامى أن تدحرجوا إلى أحطّ دركات البؤس ولكنّهم احتفظوا بحرّيتهم وأمكنهم أن يستقرّوا حيثما شاؤوا وأعفى جنسريق الوندال وابنيه من الضرائب على الأراضي التي تملّكوها وأبقى لأهل البلاد جميع الأراضي التي اعتبرها ضعيفة الإنتاج ولكنّه أثقل كاهلهم بالأداءات فكانت تبلغ محصولها".

يشير هذا النصّ في وضوح إلى حالة العبودية التي كان عليها الملاّكون الأغنياء إلاّ أنّ الحوار الذي نقله فيكتور دي فيتا يدلّ على أنّ كلّ نبيل روماني لم يهجر أراضيه كان يعتبر نفسه حرّاً .

ولا يمكن أن نستنتج من النصوص القليلة والمتضاربة أحيانا التي ترد في المؤلّفات القديمة إلاّ الفرضيات ويعتقد عامّة المؤرّخين أنّ الوندال

مكّنوا الأفارقة من الحِفاظ على أراضيهم أو البقاء فيها بصفتهم عبيدا أو بالأحرى معمّرين .

غير أنّ هذه الإجراءات لم تطبّق إلاّ في جهة زغوان . فلم يلحق الممتلكات إلاّ تغيير طفيف في نظامها فقد تحوّلت الضيعات إلى عائلات الوندال الذين كانوا يتسلّمون من المعمّرين الضرائب . وقلّ أن أشرف عليها مباشرة الملاّكون الجُدُد الذين كانوا منصرفين إلى شؤون البلاط أو الجيش بل كانوا يقتصرون على قبض المحاصيل التي كانت من الكثرة بحيث تمكّنوا من أن يحيَوْا حياةَ البذخ وكان المُشرفون بحقّ على المؤسّسات الفلاحية الموظّفين (Conductores) كما هو الشأن من قبل . أمّا الفلاّحون فلم يتأسّفوا على زوال النّظام الروماني بل إنّهم احتجّوا بشدّة عندما أقامت الحكومة البيزنطية هذا النّظام من جديد .

وإذا تجاوزنا جهة زغوان ألفينا أنّ الأراضي أصبحت من أملاك الدولة إلاّ أنّها بقيت في أيدي أصحابها . وتحوّلت أملاك الامبراطور القديمة إلى ملك الوندال الذي ظلّ يتصرّف فيها بواسطة نُوابه .

6 ـ لوحات الوندال

إنّ الخمس وأربعين لوحة التي اكتشفت في شهر سبتمبر 1928 بجنوب تبسّة وسلمت من التلف بفضل عناية أ. ترويو وهو كاتب بلدية مختلطة ، تساهم في إلقاء الأضواء على مشكل نظام الأراضي الشائك لأنّها أوّل عقود للبيع عثر عليها . ثلاثة عشر عقدا منها كاملة النصّ وثمانية عشر ناقصة . وتتعلّق جميعها ببيع العقارات ففيها نجد معلومات عن التاريخ (عهد غاتموند 493 ـ 496) وعن البائعين ووصفا للعقار المباع واسم المشتري ومبلغ البيع والتوصيل المسلّم من البائعين وحقوق الشاري وحمايته من الانتزاع وعن مكان كتابة العقد وتاريخه وهي مذيّلة أحيانا بإمضاء البائعين وفيها ما يذكّر بقانون مانسيانا (Lex Manciana) الذي بلغ إلينا عن طريق نقوش هامّة ترجع إلى القرن الثاني ولم يكن للفلاّحين الذين امتلكوا الأراضي الموات بإحيائها حقّ توريث أبنائهم فقط بل إمكان

بيعها . "فإمكان تحويل الأراضي واحتكارها يعدّ ظاهرة جديدة هامّة".
وإنّ عقد بيع عبد عمره ستّ سنوات يعرّفنا بما لنقود البرونز المفضّضة من قيمة ضئيلة (folles) إذا قارنّاها بفلس الذهب (solidus) .
ويظهر أخيرا من الأسعار المضبوطة بالعقود أنّ ثمن الأراضي قد انحطّ انحطاطا كبيرا .

وإنّ أهمّ ما يلفت النظر هو استمرار التقاليد القديمة . قال أ. البرتيني :
"لا نجد في هذا كلّه إلاّ دليلا واحدا على وجود الوندال بافريقية هو اسم الملك يكتب بأوجه متعدّدة . واستمرّت حياة البربر المتأثّرة بالرومان والذين كانوا يمثّلون معظم سكّان افريقية في عهد ملوك الوندال على ما كانت عليه في العهود السابقة إلى أن تغلّبت القبائل المناوئة للحضارة الرومانية واستولت على الجهات النائية عن الساحل فطمست معالم الحكم الامبراطوري .

7 — السياسة الدينية

لقد اشتدّ جنسريق في معاملته للنّاس وعلى الكاثوليك خاصّة فانتزع كنائس المدينة وصادر كنوزها . فأصبحت كنيسة رستيتوتيا (Restituta) والكنيستان المقامتان تكريما للقدّيس قبريانوس بالمكان الذي عذّب فيه فوق ضريحه في خدمة العبادة الآريوسية التي كان يقيم الكهنة شعائرها باللغة الونداليةولقد منعت الأناشيد الدينية عند تشييع الموتى اجتنابا للمظاهرات.

ولم يخفف الملك عداوته للكاثوليك . فقد أجاب حسب ما أورده فيكتور دي فيتا (Victor de Vita) وفدا من الأساقفة التمسوا أن يبقوا في مناصبهم حتى بدون كنائس وموارد قائلا : "إنّي آليت ألاّ أرحم ولو فردا واحدا من شعبكم ومن نحلتكم فإذا بكم تتجرّؤون على التقدّم بمثل هذا الطلب ؟ "يالَلْوَقَاحَة" .

ويظهر أنّ هذا الحديث مُنْتَحَل غير أنّه لا سبيل إلى إنكار ما سلّطه جنسريق من ألوان العقاب على خصومه . فما إن دخل قرطاج حتى ألقى رجال الكنيسة وأسقفهم كودفلدوس (Quodvultdeus) في مراكب

قديمة أقلتهم إلى ايطاليا على بركة الله وكذلك نفي القساوسة الذين كانوا يعرضون بطغيانه بطريقة غير مباشرة مستعينين بالقصص المستمدة من الإنجيل غير أنه لم يمس بأذى من كانوا في حماهم .

ولا شك أن هذه الإجراءات أملتها عليه الضرورات السياسية أكثر من تعصبه للآريوسية ويظهر أنه رأى في اجتماعات الكاثوليك مصدرا للمؤامرات وحق له ذلك . قال الأسقف دوشين في هذا الصدد (Duchesne) "إن الذي كان يهم ملك الوندال هو أن لا يثير رعاياه الرومان المشاكل في طريقه بدعوى الدين سواء كانت هذه المشاكل داخلية أو خارجية" ومن البين أنه كان يسعى لا إلى محو الكاثوليكية وهو أمر مستحيل وعديم الجدوى بل إلى إحباط مؤامرة كان القساوسة وسراة القوم يحيكون خيوطها باستمرار، لذا كان يسلك سبيل القمع والشدة حينا ويتوخى التسامح حينا آخر إما تأكيدا لمناهضته للامبراطورية كما كان الأمر غداة استيلائه على قرطاج، وإما استرضاء لها كما حدث سنة 454 عندما سمح برسامة أسقف جديد بقرطاج يدعى ديوقراسياس (Diogratias) وذلك لإظهار وده نحو آيتوس (Aetius) أو سنة 476 عندما أذن بفتح الكنائس من جديد ليتمكن من إبرام معاهدة مع زينون لصالحه .

لقد كان الأريوسي الذي لا تعرف الرحمة إلى قلبه سبيلا ، حريصا على نشر الأخلاق الفاضلة توطيدا للأمن العام . فحمل المدن والمكلفين بتسيير الألعاب مسؤولية ما قد يحدث من مشاجرات أثناء سباق المركبات وفي قرطاج حيث كان اللواط شائعا شيوعا فاحشا أمر بإيقاف عدد كبير من الخلعاء وتمكينهم من الاختيال في الصحاري . ورغم هذه المقررات لم تكن الأخلاق طبعا خيرا أو شرا مما كانت عليه من قبل .

8 — انتصار جنسريق

ظل جنسريق مهتما قبل كل شيء بتنظيم فتوحاته إلى سنة 455 حيث اغتال فالنتينيان بنفسه آيتوس ولم تمض ستة أشهر حتى خر بدوره صريعا تحت ضربات أتباع ضحيته . وكانت الطعنة التي أودت بحياة

الامبراطور قاضية على امبراطورية الغرب، فقد استغلّ جنسريق القلاقل التي أثارها مشكل الخلافة فانقضّ بأسطوله على ايطاليا وسطا بجيشه على رومة فدخلها بدون مقاومة تذكر يوم 2 جوان 455 . واستباح الوندال المدينة ونهبوها طيلة خمسة عشر يوما إلاّ أنّهم التزموا الوعد الذي قطعه ملكهم على نفسه إزاء البابا ليون الأوّل فلم يقتلوا الأرواح ولم يُشعلوا الحرائق . وحملت السفن إلى قرطاج الغنائم الثّمينة وكان فيها كنوز معبد سليمان التي أرجعها تيتوس وقد ظلّت في أيدي المبتدعة حتى انتصر بليزار كما حملت أيضا عددا كبيرا من الأسرى من بينهم أرملة فالنتينيان وابنتاها ونخصّ بالذكر منهما أودوسيا خطيبة حنياريق منذ عهد طويل ثم تزوّجها في آخر الأمر، ومن بين هؤلاء الأسرى أيضا ابن آيتوس . ولقد انتهى الأمر بديوقراسياس (Déogratias) أسقف قرطاج إلى أن باع الآنية المقدّسة ليفتدي الأسرى الذين كانوا في حوزة الوندال والبربر .

وبقي عرش "رافين" خاليا في أوّل الأمر وأصبح قانونيا زمام الامبراطورية كلّها في أيدي الجندي الورع مارسيان (Marcien) الذي خلف تيودوز الثاني سنة 450 . غير أنّ القسطنطينية لم يبق لها من القوة ما كان يمكنها به التدخّل في ايطاليا أو بالأحرى في افريقية . فلمّا دعا أفيتوس(Avitus) ، امبراطور الغرب الجديد والقائد الأعلى السابق لغوليا، اليونان في 9 جويلية سنة 455 إلى القيام بحملة مشتركة على الوندال الذين كانوا يُجيعون ايطاليا اكتفى مارسيان بتوجيه إنذار إلى جنسريق الذي لم يعبأ به طبعا .

ذلك أنّ جنسريق كان يعلم حقّ العلم أنّه تربّع كرسي الزعامة في العالم الغربي بفضل جيشه وأسطوله وديبلوماسيته . وأنّ سيطرته على البحر المتوسّط كانت تمكّنه من مناوشة الامبراطورية في الواجهات الأقلّ مناعة من غيرها . وقد استولى هكذا على كرسيكا وسردانيا والبلجار ثم صقلّيّة كما أمر شعب السواف (Suèves) بالهجوم على الرومان المستوطنين في طاركون (456) (Tarraconaise) ثم احتلّ موريطانيا الطنجية والقيصرية وأصبح في الظاهر على الأقل سيّد افريقية من أقصاها إلى أقصاها . ويؤكّد بروكوب أنّه استمال قلوب البربر بتشريكهم في غاراته الإيجابية بعد أن أذعن إلى سلطانه قادتهم وكان قد احتاط للأمر فأمر

بتقويض جميع التحصينات المُقامة حول المدن باستثناء قرطاج وبعض المدن الأخرى حتى لا يستغلّها المتمرّدون وجند الرومان .

ولم تتعلّق همّة جنسريق ــ إلى جانب ذلك ــ بإدارة المقاطعات القديمة مباشرة بل أبقى على ما وجده فيها من نظام وقوانين . ويصوّر نقش يرجع تاريخه إلى آخر عهده (474) واليا بربري الاسم يُدعى يوقمانا (Iugmena) وهو بصدد تشييد كنيسة في "دوار" بجوار الموقع الحالي للسجن الفلاحي ببرواغية (Thanaramusa) وإذا اعتمدنا الرزنامة البربرية التي يستعملها سكّان هذا "الدوار" وهم زابانس (Zabenses) يبدو لنا أنّ الوندال لم يكونوا محتلّين حينذاك لهذه الجهة من موريطانيا التي أصبحت مستقلّة ونستفيد من كلّ ذلك أنّ جنسريق ــ وهو في أوج سلطانه ــ لم يحكم حكما مباشرا موريطانيا وكذلك نوميديا من دون شك، وإن راقبها فلماما . وأغلب الظنّ أنّ السكّان لم يتألّموا من الوضع الجديد مثلما كانوا يتألّمون من النير الروماني قبيل الفتح الوندالي .

9 ــ خيبة ماجريانوس

نتج عن محاصرة جنسريق لايطاليا وقطع سبيل المؤونة عنها سقوط آييتوس ثم لم يمض وقت طويل حتى قضى مارسيان نَحْبَه وكان أخذ بمجامع القلوب . فأصبح العرشان بذلك شاغرين . أمّا سيّدا الموقف بحق فهما الشيخ أسبار في القسطنطينية وريسيمر في ايطاليا وهو قائد الجيش الروماني والجرماني الذي استمدّ شعبيته من انتصاراته على الوندال في صقلّية فأصبح يولي ويعزل الأباطرة حسب مشيئته .

وقد ولى أسبار على عرش الشرق ليون أصيل تراس امبراطورا وهو أحد ضبّاطه القُدامى وعيّن هو بدوره في أفريل سنة 457 قائدا جريئا يدعى ماجريانوس امبراطورا على عرش الغرب .

وقد رأى ماجريانوس أنّ من أوكد واجباته تكسير شوكة الوندال فشرع في تعطيل مجهودات جنسريق بتأليب القوط وشعب السواف بعد أن ركّز سلطته في بلاد غوليا ثم في اسبانيا حيث جهّز بالقرب من آلش

(Elche) في خليج أليكانت(Alicante) اسطولا يعدّ ثلاثمائة سفينة على أهبة التوجّه إلى افريقية . فجنح جنسريق إلى السلم ولكنّه لم يُفلح ويروى أنّه عاث عند ذلك في موريطانيا فسادا وسمّم الآبار . إلاّ أنّه بلغ مقصوده بفضل دهائه على عادته، وسواء أأغرى قواد العدوّ بالرشوة أم فاجأهم بأسطوله فإنّه على كلّ حال تمكّن من الاستيلاء على أغلب السفن الرومانية . وهكذا كانت نهاية الأعمال الجبّارة التي أنجزها ماجوريانوس في بلاد غوليا معاهدة صلح مع جنسريق في افريقية . فما كان من "ريسيمر" إلاّ أن أمر بإلقاء القبض عليه وإعدامه حال رجوعه إلى العاصمة وذلك سنة 461 ثم ولّى مكان هذا الامبراطور الممتاز من جميع الوجـوه شخصا عديم القيمة يدعى ليبيوس سرفيوس (Libus Servius) فلم تعترف به القسطنطينية رغم أنّه أصبح يحكم باسمها .

ووجد جنسريق فرصة أخرى للتدخّل في الخصومات التي كانت تثيرها الخلافة وذلك باسم ورثة فالنتيان بدعوى الدّفاع عن مصالحهم . ولم ينشط في المجال العسكري والديبلوماسي كما نشط في هذه الظروف فقد نهب ايطاليا وأبرم معاهدة مع أيجديوس قائد الجيش في شمال بلاد غوليا وتفاوض مع أوريك ملك القوط الجديد (سنة 466) ومع رمسموند زعيم السواف (Remismund) واستمال في أوّل الأمر القسطنطينية بتخلية سبيل أرملة فالنتيان وابنتها الصغيرة ثم بعد أن قطع علاقاته مع الامبراطور ليون الذي أبى أن يرشّح أمبراطورا لتبوؤ عرش الغرب هاجم سواحل البيلوبونيز (Péloponèse) مدفوعا بحبّ الانتقام فأسّر من بها وشلّ حركة التجارة في حوض البحر المتوسّط (461 — 467) .

10 — المعركة البحرية الكبرى لسنة 468

عزم الامبراطور ليون بالاتّفاق مع ريسيمر على وضع حدّ لهذه الهجومات التي كان خطرها مستفحلا فقرّر أن يضرب الوندال الضربة القاضية وسخّر لذلك جميع موارد الامبراطورية . فجهّز أسطولا عظيما . وتدلّ الأرقام التي ذكرها المعاصرون والتي تجاوزت المعقول أي 1113 سفينة وأكثر من مائة ألف جندي على مابلغه

القوم من حماس وما تملّكهم من اندفاع أمام فخامة الاستعدادات واستهدف الهجـوم ثلاثـة مواقـع . فقد توصّل الكونت مارسلينوس (Marcellin) الذي تكوّن على أسلوب آييتوس وربّما كان أعظم قوّاد الامبراطورية إلى احتلال سردانيا بفضل القوات الايطالية . ونزل جيش مصر في طرابلس بسلام . أمّا الأسطول المُقِلّ لمُعظم الجند تحت قيادة بازيلسكوس (Basiliscus) العـاجز فإنّه لم يتعدّ أن أرسى بسواحل الوطن القبلـي (Cap Bon) حيث مكث من دون أن يحاول الهجوم على قرطاج . وشعر جنسريق بسوء العاقبة أو تظاهر على الأقل باليأس ، وتحصّل من بازيلسكوس على مهادنتِـه خمسة أيام وربّما تمّ له ذلك بعد أن رشاه حسب الشائعات التي راجت في ذلك الوقت ثم باغت أسطول العدوّ تحت جُنح الظلام فلم يُفلت من ضرباتِـه إلاّ الشيء القليل (468) .

وكان اليأس الذي استولى على الامبراطورية كلّها على قدر الآمال المحطّمة . وقد عدل جيش مصر عن مهاجمة قرطاج وهلك مارسلينوس غيلة . وفتحت هذه النكبة عيون "الأقوام المتوحّشة" على ضعف الامبراطورية التي خرجت من هذه المغامرة ذليلة مهيضة النجاح . فسلّم الجميع بأنّ الوندال لا قاهر لهم ، وأبرم جنسريق معاهدة حسب مشيئته .

إلاّ أنّه لم يتمسّك بهذه المعاهدة طويلا إذ بادر منذ سنة 474 بالهجوم مرّات عديدة على السواحل اليونانية فاضطرّ امبراطور الشرق زينون الازوري إلى إبرام معاهدة ثانية تعلن عن سِلم أبدية بين الطرفين . فسهل جنسريق تحرير الأسرى الرومان أو افتداءهم ورضي برجوع الأساقفة وفتح الكنائس الكاثوليكية . وحصل مقابل ذلك اعتراف القوم رسميا بسلطته على افريقية وكرسيكا وسردانيا وصقلّية وجزر البلجار واشيا (خريف سنة 476).

وكانت امبراطورية الغرب في ذلك الوقت في حالة احتضار . فما كان من القائد أودواكرا (Odoacre) إلاّ أن وضع حدّا لمهزلة الخلافة المؤلمة فطوّح بعرش روميلوس أوقستيل وبعث بشارات السلطة إلى القسطنطينية في سبتمبر سنة 476 .

ولاشك أنّ جنسريق استحسن هذه الفعلة إذ تخلّى له مقابل غرامة عن صقلّية باستثناء قلعة مرسالة التي كان يعتبرها موقعا استراتيجيا ضروريا لسلامة افريقية .

ولقد أُتيح لملك الوندال أن يشاهد قبل وفاته في 24 جانفي 477 ما أصاب امبراطورية الشرق من إهانة، وما حلّ بامبراطورية الغرب من انهيار.

11 ــ دولة الوندال في افريقية

أقام جنسريق في افريقية دولة عظيمة حسب التقاليد الجرمانية التي لم يتردّد في إدخال تغييرات عليها كلّما اقتضت سلطته ذلك، وقد دامت هذه الدولة حتى سقوط جليمار من دون أن تطرأ عليها تغييرات تذكر.

لقد استقام لملك الوندال والآلان منذ سنة 442 سلطان مطلق لم ينازعه فيه أحد سوى الله . ذلك أنّه تخلّص من مراقبة النبلاء بإعدام من كان أكثر اعتدادا برأيه منهم ،كما تخلّص من مجلس الشعب بالإعراض عن دعوته للانعقاد .

كذلك غيّر تراتيب الخلافة إذ أصبح أكبر أحفاده من الذكور سنّا أحقّ بالخلافة من دون اعتبار السلالة القريبة اليه . وذلك اجتنابا لحكم الأوصياء البليغ الخطورة في دولة عسكرية . وهكذا لم يخلف هلدياريق ابن حنياريق والده مباشرة بل خلف أبناء عمه غاتموند وتراساموند . والملك هو الذي يسمّي جميع الأشراف والموظّفين الوندال أو الرومان وهوالذي يعيّن الوزير الأوّل، وهو على ما يظهر من أصل جرماني دائما ومدير الديوان الذي يحرّر القرارات ويضطلع بالمهامّ السياسية التي تقتضي ثقة الملك التامة وكبار الكهنة الاريوسيين الملحقين بالبلاط،كما يختار أُلاّف الأمير (Comes) ويسمّي أعضاء مجلس الشورى الذي يتركّب من الوُلاة والقساوسة الاريوسيين والأعيان و"الألفيّين" les millenarii الذين ترجع بالنظر إليهم الدّوائر التي تسكنها ألف عائلة على الأقل بأرض الوندال وهو الذي يولي الحاكم الجرماني على سردانيا وترجع جزر

كرسيكا والبلجار إليه بالنظر . وبقي محجرا على المفيّوظن الرومان دخول أراضي الوندال، بل كان يوجد بقرطاج في عهد حنياريق بروقنصل أصيل سوسة يمثل ولا شك الرومان المقيمين داخل البلاد . وكان الملك يضعه في المقام الأعلى من مراتب الأشراف . أمّا إدارة المدينة فقد ظلّت خاضعة لمجلس بلدى (Ordo decurionum)

ولم تكن ميزانية الدّولة منفصلة عن خزينة الملك الشخصية، وكانت تزوّدها مداخيل أملاك التاج والأداءات التي كان المغلوبون مطالبين بها وحدهم . وسوف يدفع النظام الجبائي البيزنطي السكّان إلى التحسّر على زوال النظام الوندالى .

وقد ضرب ملوك الوندال السكّة . ولا شكّ أنّ جنسريق استعان بخبرة ضارب السكّة في عهد الامبراطورية واستعمل المعامل القرطاجية ولو لم يكن ذلك لما وجدنا سرّ التّشابه بين النقود الوندالية والنقود الرومانية، ذلك أنّ ملوك الوندال كما تصوّرهم نقودهم يحملون الزّي الروماني وابتداء من عهدغاتموند إكليل الأباطرة وحلّة القيادة(Paludamentum)ودرعهم. وكانت النقائش تسمّي الملك مولانا(Dominus noster) وملك (Rex). وغالبا ما كانت تمثّل النقود امرأة تمسك بيدها سنابل القمح وترمز بذلك إلى قرطاج السعيدة (Felix Carthago) وهي صورة مستوحاة من نقود ديوقليسيانوس وخلفائه . إنّ الصور لا تخلو من تكلّف ولكنّ ضرب السكّة لم يكن أسوأ ممّا أنتجته المعامل الأخرى التي كانت موجودة في القرن الخامس وأوائل القرن السادس .

كان الوندال يعسكرون في افريقية باعتبارهم جيش الاحتلال المنتصر فكان الملك قبل كلّ شيء قائدا أعلى ولكنّنا لا نعلم شيئا كثيرا عن جيش الوندال وأسطولهم،ومهما يكن من أمر فإنّ نجم الجيش الوندالي أفل بسرعة بعد وفاة جنسريق،وقد يكون سبب ذلك المناخ وخاصّة حياة الترف التي عاشها هؤلاء المنتصرون .

وكانت السياسة الخارجية من مشمولات الملك بدون منازع . وظلّت موفّقة تشعّ إشعاعا طالما مسكت بزمامها شخصية فذّة كما كان الأمر

بالنسبة لجنسريق ولكنّها ضعفت وفقدت استقلالها لمّا تولى أمرها هلديريق الضعيف الشخصية .

وكان الوندال يحتكمون إلى محاكم خاصّة حسب تقاليدهم كما كان الرومان راجعين بالنظر —على عادتهم— إلى قضاة المدن أو وُلاة المقاطعات المكلّفين بتطبيق القانون الروماني ولكن باسم الملك . وكان يوجد في قرطاج موكّل عدلي حسب القانون الروماني في عهد إفريقية الوندال (Praepositus iudiciis Romanis in regno Africae Vandolorum) ترتبط به جميع المحاكم الرومانية، وكانت القضايا المختلطة من مشمولات المحاكم الوندالية . وفي هذا المجال كانت السلطة الملكية لا حدّ لها .

ولم تكن الكنيسة الاريوسية التي كان يشرف عليها (Patriarche) بطريق قرطاج مستقلّة عن نفوذ الملك فهو الذي كان يسمّي القساوسة ويرخّص في انعقاد المجامع وهو الذي يسلّم للكهنة الوندال الكنائس والممتلكات المحجوزة . ولمّا كان مصير الكنيسة الكاثوليكية مرتبطا بالتقلّبات السياسية فقد اضطهدت بالخصوص في البلاد التي احتلّها الوندال . رغم أنّ هذا الاضطهاد اتّخذ صبغة رسمية ولم يطّرد إلاّ في عهد حنياريق، وفي الجملة فإنّ مضايقة الكنيسة لم تدم باستمرار ولم تنل جدّيا من وضعها المادّي .

وكان الشعب الوندالي على غرار جميع الشعوب الجرمانية يتركّب من نُبَلاء لا يستمدّون ألقابهم بحكم الوراثة بل بفضل عطف الملك، ومن أحرار تضاءل نشاطهم السياسي داخل مجلس الشعب فأصبح لا يكاد يذكر بمشيئة جنسريق، وأخيرا من عبيد لا فرق بينهم وبين المتاع الذي يباع ويشترى.

ولمّا لم يكن للوندال لغة عملية اضطرّت الحكومة لاستعمال اللاّطينية في الشؤون الديبلوماسية والتشريع واللغة الشعبية في الميدان التجاري وفي العلاقات مع الرومان . وظلّت الشعائر الاريوسية وحدها تقام باللغة الوندالية . وسرعان ما اكتسحت العادات الرومانية عادات الجرمان الذين استساغوا الضيعات الفخْمة واللّباس الثمين وقصدوا الملاهي والمسارح ودروس النحاة. فنحن نعلم ممّا رواه دراكنسيوس(Dracontius) أنّ أستاذه كان

يجلب عددا كبيرا من المستمعين الوندال . وكانت نتيجة هذا التّطوّر الذي طوى المراحل طيّا بعد وفاة جنسريق أن تلاءمت تلاؤما تاما حياة الوندال في عهد جليمار مع حياة الارستقراطية الرومانية .

إلاّ أنّ الاندماج لم يتجاوز هذا الحدّ . فقد حرص جنسريق وخلفاؤه على أن تبقى الحدود قائمة بين الوندال والرومان. ولاشك أنّ عددا كبيرا من الرومان شغلوا مناصب عالية ، بل إنّهم اتّخذوا لباس الوندال ولبسوا حليّهم إلاّ أنّ الحكومة لم تبطل أبدا العمل بالقانون الذي يحجّر الزواج المختلط فحالت بذلك دون اندماج المغلوبين والغالبين بعضهم مع بعض . إنّ مناعة الامبراطورية الوندالية كانت على قدر سلطة الملك وحده . فلمّا أثقلت السنون كاهل جنسريق وأدركته المنية لم يوجد من بين خلفائه من كان في مستواه (24 جانفي 477) .

II ـ خلفاء جنسريق

1 ـ حنياريق واضطهاده للكاثوليك

كان حنياريق ابن جنسريق (477 ـ 484) طاغية قاسياو أريوسيا متعصّبا. فقد ركن إلى النفي أو القتل للتخلّص من عدد كبير من أبناء إخوته وأنصارهم وكانوا عقبة في طريق اعتلاء ابنه عرش الملك . وتخلّص من المانويين بنفيهم في الجزر أو إحراقهم وكانت هذه النحلة قد كسبت عددا كبيرا من الأنصار على حساب الاريوسية خاصّة .

إلاّ أنّ أقسى الاضطهادات استهدف إليها الكاثوليك . وكان الشعب في أوّل الأمر تلقّى بحماس خبر ترخيص الملك تحت ضغط القسطنطينية في انتخاب أسقف جديد بقرطاج حيث لم تزل الخطّة شاغرة منذ أربع وعشرين سنة . ولكنّه لم يتفطّن إلى المكيدة خلافا لرجال الكنيسة الذين كانوا أكثر إدراكا فلم يلبثوا أن أحبطوها . ذلك أنّ الأمر الملكيّ كان يفرض على زينون تسامحا إزاء أريوسي الشرق مماثلا لما يتمتّع به الكاثوليك من تسامح وهو مطلب لا يخلو من منطق ومهارة . كما لم يسمح لهم

بفتح مصلّيات وإقامة الصلوات وممارسة حرية العبادات إلاّ إذا تمتّع الاريوسيون بنفس هذه الإمكانيات وكان يصحب هذه الامتيازات تهديد مباشر لا شبهة فيه وهو أنّه فيما إذا رفض الامبراطور تمكين الاريوسيين في الشرق من هذه الحرية فإنّ الملك مُقرّ العزم على أن ينفي في بلاد الموريين لا أسقف قرطاج الذي كان على وشك أن ينتخب فحسب بل كلّ رجال الكنيسة الموجودين في افريقية بدون أيّ استثناء .

وكان الخلاف على غاية من التأزّم حتى أنّ الامبراطور لم يَبْدُ عليه أيّ استعداد لتغيير موقفه إزاء الاريوسيين . ولم يلبث أن اشتعلت نار الخصومة بين أوجين الأسقف الجديد وبين الحكم الوندالي الذي عرّض الكاثوليك إلى ألوان من القمع القاسي . وقد روى فكتور دي فيتا أخبار المحنة الطويلة والمشرفة أحيانا التي عاشها 4970 مسيحيا وقع نفيهم في بلاد الموريين وما تعرّضت له العذارى اللاّتي وقفن أعمارهن في سبيل الله من كشف عورة وتفنّن في التعذيب .

2 — مجمع سنة 484

كان تدخّل زينون افائدة الضحايا مدعاة إلى اشتداد المحنة . ورضي الملك بأن ينعقد في غرة فيفري 484 مجمع يلتقي فيه الأساقفة الارثوذكس مع الاريوسيين للتفاهم ..وكان يرجو من وراء ذلك أن يورّط تدخّل الامبراطور الكاثوليك الذين كانوا يواصلون إقامة الصلوات في أرض الوندال بالرغم عن منعهم من ذلك ويدّعون التمسّك بسنّة الدين المسيحي القويمة (فكتور دي فيتا) .

وشعُر الأسقف أوجين بالخطر وظنّ أنّه يمكن تلافيه بالمطالبة بدعوة أساقفة بلدان ما وراء البحار نظرا لما كان يتّصف به المشكل من شمول . وقد ذهب بعضهم إلى انتقاد حنياريق لأنّه لم يستجب لهذا الطلب ولم يكن في نيّة الملك طبعا إفساح المجال لمناقشات حرّة مستفيضة بل كان همّه حلّ مشكل داخلي بعد إجراء مناقشات بين ممثّلي كنائس بلاد

الوندال وحدهم. وما كان يمكنه فتح الباب في وجه أساقفة أجانب شأن الحكومات القوية التي تأنف اليوم من مناقشة مسائل قومية في مؤتمرات عالمية تنعقد بأرضها . ورغم ذلك كان عدد الأساقفة الذين أقبلوا من أقاصي البلاد الخاضعة للوندال كبيرا . فمن بين 406 أسقف وفد من موريطانيا القيصرية 120 أسقفا، ومن موريطانيا الطنجية أربعة وأربعون، ومن مقاطعة طرابلس خمسة، وحتى سردانيا وجزر البلجار فإنّها أوفدت ثمانية ممثّلين عنها . ولم يعوز الكاثوليك الأبطال الافذاذ كأوجين أسقف قرطاج وصاحب "رسالة في الإيمان" الموجّهة للملك وكفيجلوس أسقف رأس الديماس في المزاق وكان مشهورا بحماسه في مناوأة المبتدعة . لكنّ القوم لم يحضروا مجمعا بأتمّ معنى الكلمة بل مسرحية، ذلك أنّ حنياريق بادر قبل جلسة الافتتاح بتأكيد عزمه على نفي عدد كبير من زعماء المعارضة أو جلدهم . وأدرك الكاثوليك أنّهم أصبحوا في قبضته وأنّ "سيرلا" كبير الأساقفة كان يستعدّ للحكم عليهم . وفهموا أنّ ضغط السلطة المدنية على المداولات لم يعد لفائدتهم كما كان الشأن سنة 411 حيث كان الدوناتوسيون ضحية له وهكذا دارت عليهم الدوائر . وعبثا حاولوا أثناء الجلستين كما فعل خصومهم الإكثار من استعمال وسائل التعمية والركون إلى الإجراءات الشكلية وإثارة المظاهرات الاجتماعية في قرطاج وقد نعتها حنياريق بأنّها عصيان شعبي، كما حاولوا عبثا أن يجاهروا بعقيدتهم فلم يغيّر كلّ ذلك مآل المجمع النهائي شيئا . ثم وضع حنياريق حدّا للمهزلة وأصدر منذ يوم 25 فيفري أمرا نقل لنا فيكتور دي فيتا نصّه من حسن الحظّ .

3 ـ الأمر القاضي بقمع الكاثوليك

إنّه أمر غريب جدّا إذ يكشف لنا القناع عمّا تخيّره الملك الوندالي من أساليب العمل . فالإجراءات التي قرّر اتّخاذها لم تكتس أيّة صبغة استثنائية بل إنّه لم يتجاوز استعارة ما جاء في القانون البيزنطي من إجراءات امبراطورية ضدّ المبتدعة وتطبيقها على الكاثوليك ومنها منع الحفلات الدينية، وجمعيات النّساك والاجتماعات الدينية وكذلك إحراق الكتب المقدّسة، ومنع تسلّم الكنائس أو بنائها في المدن أو خارجها ، ومصادرة الأراضي ،

وتحويل أملاك الكنيسة إلى رجال الدين الاريوسيين ونفي العصاة، ومنها منع اللائكيين من توريث أو هبة أو تقبل العطايا أو الميراث، ومنها تطبيق وتسليط الغرامات على المجرمين حسب جدول يقضي بتناسب مقدار الغرامة مع المنزلة الاجتماعية، ومنها أخيرا عزل الموظفين الكاثوليك .

ووضعت هذه المجموعة من القوانين الزجرية الكاثوليك في موقف حرج طبعا إذ كان من المتعذر عليهم رفع أصواتهم احتجاجا على إجراءات اعتبروها عادلة عندما كانت تطبق على خصومهم . فاربما اعتبرت هذه القوانين معتدلة في آخر الأمر وإنما تجاوز التطبيق أحكام النصوص . وربما ذهب الأساقفة والقساوسة الاريوسيون الذين نسب إليهم فكتور دي فيتا جرائم كثيرة إلى أكثر مما قصد إليه الملك . واستعمل القوم التعذيب دائما وقد عمد القس الآريوسي الذي كان موكلا بحراسة الأسقف "أوجين" وقد أقعده الشلل عن النهوض — إلى تجريعه الخل . وجلد اثني عشر طفلا من أطفال كنيسة قرطاج مرتين ، وضرب بالسوط الخمسمائة قائم على كنيسة قرطاج قبل نفيهم . وفي تيبازة أخيرا قطعت ألسنة الكاثوليك الذين أبوا أو لم يتمكنوا من الفرار إلى اسبانيا ولكنهم لم يفقدوا القدرة على الكلام حسب زعم فيكتور دي فيتا الذي كان يدعو المتشككين في الأمر إلى الاستماع إلى مساعد شماس من قسطنطينية ذاق طعم حديد الجلاد . وإذا عدم البعض القدرة على الكلام من جديد فسبب ذلك حسب ما ذهب إليه بروكوب هو معاشرتهم للخليعات .

إلا أن التاريخ لم يسجل أسماء الشهداء الأمجاد فقط، وما كان يمكن لأي كان أن يشارك في الحياة العامة مشاركة عادية إذا هو لم يقم الدليل على أنه أجري عليه التعميد الآريوسي . فاضطر الكاثوليك الذين راموا التجارة أو احتاجوا إلى المعاملات إلى الخضوع لهذا الشرط . وقال سماحة دي شان (Mgr. Duchesne) رغم سكوت فيكتور دي فيتا في هذا الموضوع "أقبل عدد كبير من الكاثوليك على هذه العملية ورضي عدد من الشمامسة والقساوسة والأساقفة بالتعميد الآريوسي معترفين أنهم لم يكونوا مسيحيين قبل ذلك" . والمؤرخ يستفيد في هذا الصدد مما دار في المجمع الروماني لسنة 487 الذي لم يذكره فيكتور دي فيتا .

وإذا رغب الكاثوليك عن التعميد الجديد لا يتردّد الحكم القائم في حملهم على ذلك بالقوّة ولو باستعمال الحبال والسلاسل كما حدث للأسقف هابتديوس (Habetdeus) الذي كان منفيا صحبة أوجين أسقف قرطاج في تخوم طرابلس .

واعتبر ضحايا القمع المجاعة التي حلّت بافريقية في الصائفة الموالية "عقابا إلاهيا عادلا" وكانت آثار هذه المجاعة خطيرة جدّا في الميدان الاقتصادي فقد عدل القوم عن خدمة الأرض وتعطّلت التجارة وإنّ الأسطر التي خطّها فكتور دي فيتا تصوّر المنظر الذي كثيرا ما تجدّد منذ ذلك التاريخ فقال :« إنّك كنت ترى جماعات من الشباب والشيوخ والفتيان والفتيات والأطفال ذكورا وإناثا تسير على غير هدى وإلى غير نظام في الطرقات كأنّها جنائز . إنّ هؤلاء البؤساء كانوا يتقاوون في سيرهم حول المراكز المحصّنة والقرى والمدن ... ولمّا تشتّتوا في الحقول وغاصوا في أعماق الغابات أخذوا يتسابقون إلى يابس الأعشاب وميّت الأوراق ... وأصبحت الجبال والروابي والساحات والشوارع والطرقات العامّة جميعها مقابر غصّت بجثث ضحايا الجوع .»(نقل هـ. لوكلرك (A. Leclercq) .

وقد يكون الطاعون هو الذي أودى بحياة حنياريق يوم 12 ديسمبر 484 بينما كانت موجة الاضطهادات على أشدّها .

4 — غاتموند

لم يفد الملك ما لجأ إليه من اغتيالات عائلية، ذلك أنّ ابنه هلدياريق لم يخلفه مباشرة بل خلفه قريباه غاتموند (484 — 496) ثم تراسموند (496 — 523) وعرف الكاثوليك في عهد غاتموند اليسر بعد العسر فتمكّن أوجين من دخول قرطاج سنة 487 والتحق القساوسة الآخرون بمراكزهم سنة 494 . وفتحت الكنائس أبوابها من جديد ومارس الكاثوليك دينهم بكلّ حريّة . وربّما لم يكن طبع الملك هو السبب في هذه الإجراءات بل هي أسباب سياسية شبيهة بتلك التي أوحت لمن سبقه بما أوحت .

ففي تلك الظروف وعلى إثر مناقشات حادّة حول ذات المسيح حرم البابا فيليكس الثالث أسقفي قسطنطينية وأنطاكية وعزلهما وهما ضحايا

الاعتـــراف المعروف بـ Henotique الذي اعتبره الامبراطور زينون قانونا . (484) فأحدث هذا الإجراء قطيعة بين الشرق والغرب دامت خمسا وثلاثين سنة . الأمر الذي جعل غاتموند يطمئن منذ توليه العرش فيعتقد أنه لم يعد في إمكان رعاياه الكاثوليك التآمر عليه بالتحالف مع الامبراطور وأصبح بذلك في إمكانه أن يتسامح من دون أن يخشى خطرا .

وكان على الكنيسة مرة أخرى أن تبتّ في أمر المرتدّين . فتوخّت الصرامة في ذلك ولم تقبل توبة الأساقفة والشمامسة والقساوسة إلاّ على فراش الموت وفرضت على الرّهبان واللاّئكيين التكفير عن سيئاتهم طيلة عشر سنين وأقصت الأطفال عن جميع الوظائف الدينية .

5 — تراسموند

كان تراسموند بشهادة خصومه أنفسهم ملكا لم يتّصف بالجمال الرّائع فحسب، بل كان كذلك يحمل ثقافة نادرة ويتحلّى بنبل أخلاق لا مثيل له . وكان هو أيضا أريوسيا شديد التّمسّك بدينه، وقد روى بروكوب أنّه استمال الكاثوليك بتكريمهم والإحسان إليهم ومنحهم الألقاب الشرفية فإذا ارتكب أحدهم جريمة عن قصد أو غير قصد عرض عليه العفو مقابل ارتداده .

ورغم ذلك استبقى هذا الملك المتحرّر القانون القاضي بمنع تعويض الأساقفة المتوفين ولم يُقم الكاثوليك وزنا لأوامره فاضطرّ إلى عزل 120 أسقفا من بين أربعمائة من دون أن يقسو في معاملتهم، وكان فيهم أوجين أسقف قرطاج المتوفّى في بلاد غوليا بألبي سنة 505 وفولجانس أسقف روسباي (Ruspae) في المزاق وقد نفي في جزيرة سردانيا صحبة ما يزيد عن ستين أسقفا .

إلاّ أنّ تراسموند كان طُلَعة . وكثيرا ما كان يردّد أن لا شيء أحبّ إليه من الاقتناع بخطيئته إذا هو أخطأ بل ذهب به الأمر إلى أن استجلب إلى بلاطه قصد المناقشة ، فولجانس المشهور بجدله وفقهه إلى حدّ جعل الكاثوليك الأفارقة يعتبرونه رأسا لهم . واستغلّ أسقف روسباي (Ruspae)

إقامته في قرطاج أوّلا وبالذات لبعث الحماس في قلوب المؤمنين بالوعظ والإرشاد غير أنّ خطّته ورسائله لم يكن لها لدى الملك التأثير المؤمّل . ولكنّ أثر دعايته في البلاط بلغ حسب من ترجم له حدّا اضطرّت معه الكنيسة الوندالية إلى التأثير على الملك وحمله على إرجاعه إلى سردانيا وربّما آخذوه بما كان له من تأثير بعيد على كنيسة قرطاج، الأمر الذي تثبته المظاهرات الحماسية التي صحبت رجوعه النهائي في أوائل عهد هلدياريق .

وكان فولجانس قد شكر تراسموند على ما بذله من جهود لصقل الذوق الأدبي لدى رعاياه . والذي نعلمه هو أنّ الوندال لم يكن لهم أدب ولكنّ شغف الأمير بشؤون الفكر بعث في أوساط الرومان نشاطا شعريا لا تزال المختارات اللاّتينية تحتفظ لنا بآثاره في مقطوعات تتناول الأحداث اليومية ،ومدح لملوك الوندال أومستشاريهم،وتشطير لأبيات من شعر فرجيليوس وترصيف لأبيات من الشعر تغلب عليها الصناعة وغيرها من "التفاهات" المطبوعة بالإشراك أحيانا والغزل أحيانا أخرى ممّا كان يبرع فيه لوكسوريوس .

أمّا دركانسيوس (Drocontius) الذي ألّف في أوّل الأمر ملاحم أسطورية قصيرة من نوع المختارات فقد كان يفوق شعراء البلاط أو المدارس الذين سبقت الإشارة إليهم. ولمّا سجنه غاتموند بسبب مدحه الامبراطور البيزنطي أدّى به حظّه العاثر إلى أن تطوّرت شاعريته . لقد التمس عطف الملك واصفا ما قاساه من آلام بلهجة مؤثّرة وواعدا بتمجيد الملك ولكنّه رغم إغراقه في التملّق وانحداره إلى أسفل دركات التذلّل لم يفز بحريته . فلمّا يئس من رحمة العباد رجع إلى ربّه يحمده في ثلاثة كتب تحتوي على أكثر من ألفي بيت بلغ فيها من روعة الإلهام مبلغا عظيما . واحتفظت هذه المدائح الإلهية التي لا تخلو من مواطن الجمال بشهرتها في القرون الوسطى واستوحى منها ملتون أشعاره في الجنّة . ولم يكن تراسموند ميّالا للأدب فحسب بل كان يحبّ المباني الجميلة فأذن فيما أذن به في هذا الصدد بتجميل قرطاج .

وإذا آثر حسب ما رواه فولجانس امتلاك الأرواح على توسيع ملكه فإنّه لم يغفل قط عن حماية استقلال بلاده . وظلّ محافظا على علاقاته

الطيّبة مع أنستاز الامبراطور الشيخ (491 — 518) الذي لم يهتمّ كثيرا بشؤون افريقية لانصرافه إلى صيانة امبراطوريته من الاضطرابات الدينية وتعزيز وسائل الدفاع عنها، ولكنّ الحالة تغيّرت عندما خلفه يوسطينوس (518 — 527) إذ سرعان ما تصالح هذا الامبراطور الجديد التقي العتيد مع البابا، وطالب بحقّ الإشراف على أسقفية افريقية الأمر الذي أثار مخاوف الملك من جديد إزاء الكاثوليك بينما كان من شأن الانشقاق الديني أن يلطّف من حدّتها .

وصرف تراسموند وجهه إلى تيودوريك ملك الأستروقوط (Ostrogoths) وسيّد ايطاليا منذ سنة 493 احتياطا من مناورات الامبراطور الممكنة وكان غاتموند حاول عبثا استغلال ما حدث بين أودواكر وتيودوريك من مناوشة لاسترجاع صقلّية سنة 491 . أمّا خلفه فقد فضّل التحالف مع ملك القوط بالتزوّج من أخته التي كان مهرها المناطق الكائنة حول ليلبي بصقليّة . ثم نزل بقرطاج على رأس حرس يتركّب من ألف من نبلاء القوط ومعه خمسة آلاف من العبيد .

6 — الخطر البربري

إنّ الذي كان يحمل الملك على اجتناب كلّ نزاع خارجي هو بالخصوص ما كان يواجهه في مملكته من مصاعب ناتجة عن ثورات البربر فمنذ أن مات جنسريق أخذت تخفّ وطأة الغلظة الوندالية على القبائل وقد أحدث الفتح الوندالي انخراما في الاقتصاد النوميدي كما أكّد ذلك أ. ف. قوتي تأكيدا الأمر الذي نتج عنه اضطراب في النّظام الاجتماعي واستغلّ العمَلَة الفلاحيون القلاقل التي حدثت في القرن الخامس لشقّ عصا الطاعة وإعلان التمرّد بعد أن قاسوا ما قاسوا من استغلال الملاّكين الفاحش وتعسّف رجال السلطة الذين كانوا يُعملون السيف في الدوناتيسيين الخوارج والمتمرّدين على السواء وانقلبوا على أسيادهم يدمّرون مدنهم وينتزعون أراضيهم ويَحْتجزون آلات الإنتاج . ونزل سكّان جبال أوراس إلى السهول يستبيحون المدن الزاهرة. فأصبحت تبسّة (Theveste) وتيمقاد (Thamugadi) وقصر باغاي ولمباز بعد أن خلت من سكّانها وانكسرت شوكتها أثرا بعد عين ولم يقف سيل التخريب والتدمير إلاّ على حدود قسنطينة .

فما كانت إذن النتائج السياسية لهذه الحركات التمرّدية ؟ حدث ـ إثر ظروف مجهولة يتوقّع قوتييه أنّها كانت فترة فوضى آلت إلى دكتاتورية ـ أن انتظمت صفوف المعدمين البرابرة بنوميديا في قبائل مستقرّة أذعنت لأمراء أقوياء أصبحوا في القرن الموالي خصوما أشدّاء في وجه قواد بيزنطة وتجاوزت الثورة حدود نوميديا فقد ذكر بروكوب أنّ الموريين استولوا على موريطانيا حيث نهبوا وقتلوا الكاثوليك والوندال من دون ميز . وعثر على نقش قرب موزاي فيل (Mouzaïaville) (الموجودة على بعد 63 كلم في الجنوب الغربي من عاصمة الجزائر ينوّه بأسقف تحمّل بفضل إيمانه ألوان العذاب ولقي حتفه سنة 495 "في حرب الموريين" . ولم يشارك من موريطانيا القيصرية إلاّ أسقف واحد هو أسقف مينا بالقرب من ريليزان إذ تعذّر حضور الباقين "لضرورة الحرب" .

وتعدّدت في موريطانيا الدويلات المستقلّة الفسيحة أحيانا وكان يعيش فيها جنبا إلى جنب الرومان والبربر تحت سلطة نفس الأمراء . وعلى هذا النحو نتصوّر مملكة مازونة (Masuna) وهو معاصر تراسموند الملقّب بـ"ملك القبائل المورية والرومان" كما يشهد بذلك نقش التفا (Altava) المؤرّخ سنة 508 وكان يحكم إلى جانب التفا مدينتين أخريين (Safar و Castra Severiana) ونحن نعلم أنّه عهد بإدارة "سافار" إلى وال بربري يدعى مسجيفنيس (Masgivinis) ولم يتأخّر قائد بربري من الأوراس عن تلقيب نفسه بالامبراطور حوالي سنة 477 — 476 كما يشهد بذلك نقش آريس (Arris) الذي درسه كاركوبينو ويبدو أنّه احتفظ بهذا الاسم طيلة أربعين سنة من دون أن ينازعه أحد فيما أضفى على نفسه من زائف الألقاب .

7 — زحف الرحّل الجمالة

يظهر أنّ الحكومة الوندالية لم تكن صارمة إزاء تعدّد الإمارات المستقلّة . ولم يمض قرن على استيطان الوندال المنتصرين في افريقية حتى نال الحكم من طاقتهم الجريئة، ومن جهة أخرى أخذ يتوافد من الشرق خصوم جدد أشدّ بأسا وأبعد خطرا هم الجمّالة الرحّل المنحدرون

من طرابلس يقودهم أمير داهية يدعى كاباوون (Gabaon) فاصطدم تراسموند بخطتهم الحربية الجديدة أي خطة القبائل الجمّالة المعهودة التي وصفها أ. ف. قوتييه وصفا يزخر حياة وقوة والمتمثلة في الفرّ بعد الكرّ والالتجاء إلى الصحراء لاستجماع القوى أو للإفلات من تنكيل الأعداء وهذا هو الوصف الغريب الذي وصف به بروكوب الاستعدادات التي قام بها كاباوون قبل المعركة : "خطّ في السهل الذي كان ينوي الانسحاب إليه دائرة تسلّل وضع عليها جمالة حسب شكل مُنْحَنٍ فيكون بذلك شبه حافز حيّ متركّب من جهة العدوّ من اثني عشر جملا اصطفّ الواحد وراء الآخر. أمّا مركز الدائرة فقد احتلّه الأطفال والنّساء والشيوخ وأودعت فيه خزينة القبيلة وانتصب الرجال القادرون على حمل السلاح تحت بطون الجمال وقد لبسوا دروعهم (boucliers) .»

ولم يتمكّن الفرسان الوندال الذين تعوّدوا القتال بالرماح والسيوف من دفع خيولهم المروّعة برائحة الإبل حتى الأعداء . ولمّا لم يحذقوا رمي السهام أو الرماح فقد استهدفوا إلى قذف البرابرة الذين كادوا أن يبيدوا أو يؤسروا الجيش بأسره .

8 — هلدياريق

مات تراسموند من دون أن يتمكّن من الأخذ بثأره (سنة 523) وكان خلفه شيخا متخنّثا يُدعى هلدياريق وهو ابن حنياريق وأودوسيا . وقد سلك في السياسة مسالك جديدة رغم نصائح حاشيته فسمح برجوع القساوسة المنفيّين واستعادة قرطاج لمكانتها الدينية القديمة وانتخاب أساقفة جُدُد وفتح الكنائس وحرية المداولات في المجامع، وكلّ ذلك بالرغم ممّا كان قدّمه له تراسموند من نصائح (5 فيفري 524) والذي جعل الوندال يستغربون هذا التسامح هو ما كان اتّخذه الامبراطور يوسطينوس من قرار يقضي بتحجير النحلة الآريوسية في كامل تراب الامبراطورية وما قدّمه تيودوريك وهو أمير آريوسي آخر من صارم الاحتجاجات ضد هذا الإجراء .

لكنّ هلدياريق لم يقض أربعين سنة في بلاط القسطنطينية عفوا فلقد تكوّنت بينه وبين وليّ العهد يوسطينيانوس أي الامبراطور الحقيقي في الواقع علاقات وديّة متينة . فكان يظهر في مظهر ربيط الحكم البيزنطي فلم يكتف بعدم مساندة مواقف تيودوريك بل تحدّاه بسجن أخته أمالافريد زعيمة المعارضة ثم تنفيذ حكم الإعدام فيها . وحال موت ملك القوط دون شنّ هجوم على الوندال كان يمكن أن يكون قاضيا (524) ذلك أنّ الوصية أمالسونت (Amalasonthe) ابنة تيودوريك وأمّ خلفه آتالاريك (Athalaric) الذي كان في الثامنة من عمره كانت على قدر من الضعف إزاء القسطنطينية بحيث لم يكن في الإمكان أن تتجاسر على مهاجمة صديق الامبراطور . فلم تأذن بإقلاع الاسطول واقتصرت على توجيه لومها إلى هلدياريق الذي لم يُقم وزنا لذلك .

ولم ينته الخطر البربري بهذه الصورة المَرضية: فبعد أن بسط الموريون نفوذهم على موريطانيا الطنجية والقيصرية باستثناء عاصمتها وموريطانيا السطيفية ونوميديا الجنوبية هاجموا جنوب المزاق تحت إمرة أنتالاي الذي كان قائد القبائل المستقرّة في الأراضي الكائنة بين جهة الشطوط وأحواز قفصة (Capsa) وأسفرت المعركة عن انهزام الوندال الذين كان يقودهم ابن أخ الملك بنفسه فغذّت هذه الهزيمة المعارضة ضدّ الملك المتّهم بالاستعداد لتسليم افريقية للامبراطور .

9 ــ جليمــار

عزل الجيش هلدياريق في ماي 535 وسجنه مع ابنتي أخيه . واستولى على الحكم بمساندة الرأي العام جليمار حفيد جنسريق ووليّ العهد . ولم يتأخّر يوسطينيانوس ـ الذي كان خلف منذ ثلاث سنين عمّه يوسطينوس وكان يحلم بإرجاع الامبراطورية الرومانية إلى سالف عزّها ـ عن اغتنام الفرصة والتدخّل لفائدة صديقه . واستعمل لغة المجاملة واللطف معتمدا على قواعد الخلافة التي حدّدها جنسريق وزاغ عنها جليمار لأول مرة فدعاه إلى إبقاء الشيخ هلدياريق على عرش الملك مع مسك زمام الحكم في الواقع . فامتنع جليمار من الاستجابة إلى مساعي السفراء ثم ردّ الفعل إزاء طلبات

الامبراطور في خصوص إطلاق سراح الأسرى الذين سلّطت عليهم ألوان جديدة من العسف فأعلن أنّه يفضّل وضع حدّ للسلم المستمرّة على تحمّل الوصاية البيزنطية . فأبرم يوسطينيانوس معاهدة مع الفرس سنة 532 وقرّر أن يُشعل الحرب في افريقية نفسها .

الباب العاشر

غزو البيزنطيين لافريقية من جديد والنظام البيزنطي



1 ـ يوسطينيانوس ـ الفتح وتنظيم افريقية

1 ـ تشاؤم الخبراء

اصطدمت مشاريع يوسطينيانوس بمعارضة شديدة. فقد كانت الجيوش التي لم تزل تعاني أتعاب حرب الفرس تخشى أخطار البحر وترتعد فرائصها ممّا آلت إليه معركة 468 البحرية . وكان الوزراء الذين لم يخف عليهم احتراز الفنّيّين وما كانت تعانيه الخزينة من ضائقة، يذكّرون الامبراطور عن طريق القائد الأعلى للجيوش يوحنا دي‌كابدوس بما كان يتمتّع به الوندال من سيطرة على البحار وما توفّر لديهم من جيوش لم تذق طعم الهزيمة قطّ .

وكان تجّار قرطاج الشرقيون من جهة أخرى يستنجدون بيوسطينيانوس كما كان رجال الكنيسة يحضّونه على تخليص كاثوليك افريقية من النّير الآريوسي تؤيّدهم في ذلك مساعي الأفارقة المهاجرين إلى القسطنطينية . وبينما كان الامبراطور متردّدا إذا بقسّيس من الشرق يتقدّم لديه على نحو ماروى بروكوب ويبلغه أوامر الله المباشرة الضامنة للنجاح فيتغلّب بذلك على ما تبقّى من احترازات الامبراطور .

وقرّر يوسطينيانوس شنّ الحرب من دون أن يقيم وزنا لنصائح خبرائه على نحو مافعله الملك المسيحيّ الورِعَ شارل العاشر بعد ثلاثة عشر قرنا .

وكان كلّ شيء ينبىء بالخيبة وإن حالفه النصر فيما بعد رغم كلّ الاعتبارات المنطقية وقد كان ذلك بفضل ظروف ما كان ليتوقّعها ولم يكن لمواهبه فيها أيّ فضل .

إنّ أحدا ما كان ليتوقّع أفول نجم الوندال، فقد كان جليمار يتمتّع بشهرة عسكرية مرموقة وكان القوم يجهلون أنّه كان أضعف من أن يقوى على مواجهة الأخطار المفاجئة لحدّة مزاجه وسرعة تأثّره وحرج صدره وأنّه لم يكن لديه سوى ثلاثين ألف رجل تقريبا تنقصهم الدّربة وتُعوزهُم العُدّة . وقد زاد في الطين بلّة فأوفد من بينهم خمسة آلاف إلى سردانيا على متن مائة وعشرين من خيرة مراكبه لقمع ثورة حاكم هذه الجزيرة قوادس القوطي، بينما كان في نفس الوقت يتهاون في مجابهة تمرّد آخر أخطر وأعنف قام به البربر في طرابلس استعدادا لمساعدة الجيوش البيزنطية .

وما كان جيلمار ليعتمد على ولاء المسيحيّين وأنصار هلديريق ولا على نجدة الموريين، وأما قوط ايطاليا فلم يبق لهم إلاّ الانحياز إلى يوسطينيانوس بعد اغتيال "امالافريد" (Amalafride)

2 – جيش الاحتلال :

أسند الامبراطور قيادة الجيش لبليزار (Belisaire) الذي ظلّ رغم ما ألحق به الفرس من هزائم يتمتّع بسمعة عسكرية طيّبة . ويروى عنه أنّه كان شعبيا عند جنوده وكان يعرف كيف يُرْخِي لهم العِنان ويُحسن إليهم في الوقت المناسب وقد تجلّت قيمته الحقيقية في قدرته على فرض النظام في صفوف الجيش بافريقية وحماية السكّان من النهب . إنّه لم يظهر أيّة ميزة نادرة بل ترك للأحداث عليه سلطانا . ولم يتمالك بروكوب – وكان صديقا له معجبا به – عن الاعتراف بأنّ جيش الرومان لم يسلم إلاّ بسبب عجز جليمار وقد حشّد بليزار من الجند أقصى ما كان يقدر الأسطول البيزنطي على حمله أي عشرة آلاف من المُشاة وخمسة آلاف من الفُرسان بعضهم من جند المقاطعات والبعض الآخر من حرسه الخاص و 600 من قوم الهان (Huns) و 400 من فئة الهيرول (Herules) وكان مجموع

الجيش ستّة عشر ألف رجل وكان ضعيفا جدّا في الظاهر بالنظر إلى صعوبة افتكاك افريقية من أيدي أشدّ الأمم المتوحّشة بأسا . وأقلع الأسطول من القسطنطينية يوم 22 جوان سنة 533 بعد أن باركه كبير البطارقة وأجزل وكان هذا الأسطول متركّبا من خمسمائة سفينة نقل و 92 طرّادة .

ويبدو أنّ بليزار لم يشاطر الامبراطور حَمَاسه الدّينيّ بل إنّه توقّع حربا طويلة المَدَى عظيمة الأخطار، إنّه كان يعلم أنّ جنوده كانوا يَخْشَوْن هجوم اسطول الوندال وكانوا يجهلون وجوده في سردانيا . فكان يتقدّم بحَذَرٍ شديد وعلى مراحل متعدّدة .

وكان جَبَانا ضعيفا إزاء زوجته التي استصحبها في هذه الحملة فكان لا يخالف لها أمرا . كما استصحب رئيس أركان حربه سليمان الخصي الذي سيقوم بالدور الرئيسي سواء في محاربته للبربر أو في تنظيم افريقية . ورافقه كذلك كاتبه ومؤرّخه بروكوب الذي يرجع له الفضل في وصف المعركة وصفا نزيها .

3 ـ نزول البيزنطيين وزحفهم نحو قراس

ولم يشرف الأسطول على السواحل الافريقية إلاّ في أوائل سبتمبر وكان بليزار حَذُورا دائما فأبى السماح لقواده بدخول قرطاج عَنْوَةً وأذن جيوشه بالنزول في رأس كبودية (Ras Kaboudia) على بعد حَوالي مائة كيلومتر من جنوب سوسة التي توجّه إليها يتقدّم جيوشه فيلق من الخيّالة ويماشيه من اليسار جند قوم الهسان (Huns) ويواكبه من اليمين الأسطول، وظلّ يسلك الطريق الساحلية يقطع كلّ يوم مرحلة صغيرة خشية الكمائن .

ولمّا وصل بليزار إلى سلقطة (Sullectum) أذاع منشورا يهاجم فيه الغاصب جليمار ولكنّ هذا المنشور لم يوزّع إلاّ في طيّ الخفاء وبصعوبة بالغة بحيث لم يكد يكون له مفعول يذكر . ودخل الجيش سوسة بعد أن اجتاز بدون صعوبة راس ديماس ولمطة ومنها وصل إلى سيدي خليفة .

وقد تمكّن بليزار إلى هذا الحدّ من السيطرة على رجاله فبادر ـ منذ أن شرعوا في السطو على الأشجار المثمرة غداة نزولهم ـ بتحذيرهم من خطر

تمرّد الأهالي : وسرعان ما تآلف معهم السكّان وزوّدوهم بالمؤونة، وفي سيدي خليفة أطلق الجند العنان لشهواتهم فأصابوا من ثمار الحدائق الملكية ما أرادوا، وبعد ملاذّ ومتع قراس "شعر بليزار" منذ المناوشات الأولى أنّ النزهة العسكرية قد تمّت، ذلك أنّ جليمار الذي فوجيء — وهو يتفسّح داخل البلاد — بنزول الأعادي تهيّأ لردّ الفعل فأمر أخاه "امتاس" بتقتيل "هلدياريق" وأنصاره بقرطاج وبالإسراع في تجييش الجيوش .

وكانت خطّة الوندال مُحْكَمَة كادت أن تنجح فكان على امتاس أن يخرج من قرطاج في الوقت المناسب لوضع حدّ لزحف الرومان داخل مضيق سيدي فتح الله (Sidi Fathallah) الكائن على بعد حوالي خمسة عشر كيلومتر في الجنوب الغربي من العاصمة بينما ينقضّ "جيباموند" (Gibamund) ابن عم الملك على ميسرة الرومان بألفي رجل وجليمار على مؤخرتهم بمُعْظَم جيشه غير أنّ امتاس ارتكب هفوة أفسد معها الخطّة وجرّته إلى الخيبة .

4 — انتصار البيزنطيين بسيدي فتح الله

واصل بليزار السير ببطء من "قراس" ثم عسكر على أغلب الظنّ في اليوم الرابع بضربة السيف الكائنة بالقرب من حمام الأنف وأرسل يوحنّا الارميني (Jean d'Arménie) في كوكبة من الفرسان يستجلي الأمر ، وفي الوقت نفسه انطلق امتاس مستطلعا مصحوبا بعدد قليل من الفرسان واتّجه إلى سيدي فتح الله ووصلها قبل ظهور جحافل الوندال الأخرى بأربع ساعات . وعوض أن يتقهقر لينذر بقية جيشه الذي كان يتقدّم في فوضى ومن دون مبالاة، انقضّ على مقدّمة يوحنّا فلقي حتفه بعد قتال عنيف، وبوغت جيش الوندال بفرسان امتاس ينقضّون كالسّهام عليهم وقد تعقّبهم فرسان يوحنّا فتشتّتوا تحت تأثير الصدمة ، وأفنى الرومان منهم خلقا كبيرا وسقطت ضحاياهم حتى أسوار قرطاج .

وفي نفس الوقت كان الهان يقاتلون بقيادة بليزار جيباموند قرب سبخة السيجومي ورغم قلّة عددهم إذ كانوا 600 أمام 2 000 فإنّهم تمكّنوا من محق فيالق الوندال محقا تاما .

وكان بليزار لا يعلم شيئا عن هاتين المعركتين فأخذ يزحف بفرسان حرسه الخاص وأحلافه تاركا في المعسكر المُشاةَ، وكان أوّل من وصل إلى سيدي فتح الله الحلفاء فكانت دهشتهم كبيرة عندما شاهدوا الجُثَث وعلموا من السكّان قصّة المعركة . واحتاروا في أمرهم ولاذوا بِرَبْوَة مجاورة، وتصاعد غُبار فإذا هو جليمار قادم وقد حجبت عنه وعورة الأرض توغّلُ بليزار وهزيمة "جيباموند" وقبل أن يصل بليزار الذي خفّ لنجدة أصحابه هاجم الوندال الأحلاف وشتّتوهم وفي هزيمتهم جرّوا معهم ثمانمائة من الحرّاس وجدوهم في طريقهم .

وضاقت الحال بالرومان واشتدّ بهم الخطر حتى أنّ بروكوب كتب قائلا : "لم أفهم كيف أنّ جليمار أضاع من يديه نصرا لاريب فيه وقدّمه هدية للعدو" ذلك أنّ ملك الوندال عوض أن يطارد الجيش الروماني أو يفاجىء حشود يوحنّا وقف طويلا يبكي امتاس فترك لبليزار متّسعا من الوقت يجمع فيه ثلوله ويبادر بالهجوم هو بدوره على سيدي فتح الله، ولمّا فوجىء الوندال بهجومه الخاطف استماتوا في القتال إلى المساء حتى أجهز عليهم وجيوش يوحنّا .

(تريكاماروم (Tricamarum) : وفي اليوم الموالي دخل بليزار قرطاج بين هتافات الجماهير وهو الذي لم يستعدّ للأمر ولم يعلم شيئا من قبل، بل لم يتمكّن حتى من جلب مُشاته إلى ساحة القتال ، فجلس على العرش وحضر المأدبة التي أعدّت احتفاء بانتصار جليمار .

أمّا جيش الوندال فقد وصل في هزيمته إلى سهل حمام الدراجي الواقع بتخوم البروقنصلية ونوميديا . وأمر جليمار أخاه طازون (Tzzaon) بالرحيل عن سردانيا حيث كان أعدم قوداس (Godas) واقترب من قرطاج محاولا إخضاعها بقطع الماء عنها ومنع القوافل من دخولها .

وفي الخامس عشر من ديسمبر قرّر بليزار الهجوم عليه فهزمه من جديد في تريكاماروم(Tricamarum) وكانت المعركة بين الفُرسان أبلى فيها يوحنّا وأتباعه بلاء حسنا. وهنا أيضا لم يتمكّن بليزار من تنظيم جيشه للهجوم ولم يصل إلى ساحة القتال إلاّ ساعة النهب ولو كرّ الوندال

عندما كان الرومان يقتسمون الغنائم لكانت الكارثةولكنّ شيئا من ذلك لم يحدُث وأثّرت الهزيمة في جليمار كما أثّر فيه موت أخيه فنرّ فَجأة من غير أن يعلم جيشُه والتجأ إلى جبل بابوا (Pappua) وهو مكان لم نعرف موقعه حيث وجد أصدقاءه من البربر ولكنّ فاراس (Pharas) ضيّق عليه الخناق حتى استسلم ملك الوندال بعد ثلاثة أشهر قاسى فيها ما قاسى من الجوع والبرد وعدّت هزيمته انتصارا لبليزار وعاش في أملاك غلاتيا (Galatie) التي أقطعها له يوسطينيانوس وقد رفض لقب "شيخ" كارها أن يتنكّر لعقيدته الآريوسية وهكذا انتهت حرب الوندال باستسلام جليمار ولم يبق للرومان إلاّ أن ينظّموا افريقية ويُرْغِموا البربر على طاعتهم ولكنّهم سيَلْقَوْن عَنَتا أشدّ .

5 – إعادة تنظيم إفريقية

لم يمض وقت طويل على إقلاع الأسطول حتى أعدّ يوسطينيانوس مشروعا لإعادة تنظيم افريقية وقد ظنّ عندما بلغه خبر أسْرِ جليمار أنّه من اليسير تطبيق النِّظام الذي كان معمولا به قبل مجيء جنسريق فَحَرَصَ شديدَ الحرص على مَحْقِ كلّ أثر احتلال للوندال وأقصى كلّ وندالي عن الشُّؤون العامّة حتى وإن اعتنق الدين المسيحي، أمّا جنود جليمار فقد صاروا رقيقا وزوجاتهم جواري للمنتصرين .

واضمحلّ عمليا السكّان الوندال وامّحت الملكية الوندالية كذلك ورجعت الكنائس الآريوسية إلى الكاثوليك والأراضي إلى أحفاد ملاّكيها القُدامى ولم تخلُ هذه العمليات من العنف والسطو كما هو الشأن في عمليات إقرار الأمن .

6 – التقسيم الإداري :

أعلن الامبراطور في افريل 534 عن برنامج إعادة تنظيم البلاد، ولمّا تعذّر طبعا أن تبقى افريقية كما كانت في القرن الرابع تابعة لمقاطعة ايطاليا التي هيمن عليها الاستروقوط (Ostrogoths) فإنّها أصبحت لها شخصيتها الإدارية وأقام يوسطينيانوس الدّليل على مكانة افريقية عنده فجعل

على رأسها عوض بروقنصل قائد امبراطور (un préfet du prétoire) وهو شخص واسع السلطة يَسْهَرُ على تطبيق القوانين ويقضي بين النّاس بدون تعقيب ويجمع الضرائب ويوزّع المصاريف ويتصرّف في الأملاك الامبراطورية ويفصل الخلافات الدينية .

وكان القائد محفوفا بعدد عديد من الأعوان يرجعون بالنظر إليه وحده : فكان له مستشارون ومختصون في شؤون القضاء ولربّما تألّف منهم أعضاء لديوانه وكان له أيضا عشرة مكاتب تعدّ 118 موظّفا وتسع تشكيلات للقيام بالخدمات من الإضافيّين للأعمال الإدارية وخاصّة ما يتّصل بالمالية .

وكان تحت سلطته كذلك وُلاَة المقاطعات السبع وثلاثة قناصل مسؤولون عن جهة زغوان شمالي تونس (Zeugitane) والمزاق (جنوب البلاد التونسية) وطرابلس وكان يخضع له الحُكّام (les praesides) الأربعة في نوميديا (شرقي مقاطعة قسنطينة) وموريطانيا السطيفية وموريطانيا القيصرية (وسط البلاد الجزائرية) وسردانيا .

وهكذا كانت بافريقية تتمثّل في القرن الخامس ثلاث قنصليات وثلاث مقاطعات .

أمّا موريطانيا الطنجية (شمالي المغرب الأقصى) التي لم يكن في الإمكان أن تبقى تابعة لكنيسة اسبانيا المحتلّة حينذاك من طرف الفيزيقوط (Wisigoths) فقد ألحقت ولا شك بموريطانيا القيصرية .

ولقد أوصى الوُلاَة بالحدّ من جَشَعِهِم وكانوا في افريقية وفي غيرها من البلدان ينهبون أرزاق الأهالي من غير حياء، وكان الامبراطور يستأثر بجلب الأموال ولا يقبل في ذلك منافسا غير أنّ مراقبته الشكلية لم تمكّنه من حماية أهالي المقاطعات الذين أثقلت كاهلهم الضرائب واستغلّهم الوُلاةُ فكانُوا يستنزفون ثرواتهم حتى الإرهاق ولذا نفهم لماذا اعتبر بروكوب أنّ تعسّف الإدارة البيزنطية كان سببا من الأسباب التي أدّت إلى انهيار افريقية وانصرفت عناية **يوسطينيانوس** إلى الجيش الذي كان يقوم بعمل مزدوج

لاسترجاع ممتلكات رومة القديمة كاملة، وصيانتها من هجمات البربر فأصدر بنفسه التعليمات الكفيلة بتحسين العمل الذي بدأه بليزار .

7 -- التنظيم العسكري :

استقلّت افريقية عسكريا وعهد بالقيادة إلى حاكم عسكري (magister militum) وهو شخصية لها وزنها وفي أكثر الأحيان يكون شيخا من الشيوخ يقيم بقرطاج مع أركان حربه (Domesticus) وحاشيته العسكرية الكثيرة العدد، ويساعده في عمله (magister peditum) قائد المُشاة وقائد الفُرسان بلا شك . وإذا كان الحاكم العسكري قائدا امبراطوريا في الآن نفسه كما كان الشأن بالنسبة لسليمان (Solomon) بين السنوات 534 و 536 وبين 519 و 543 فإنّه يتصرّف في الأمور تصرّفا لا يخضع إلاّ إلى مراقبة الأمبراطور الصورية .

وقد وضعت الدّائرات العسكرية الأربع تحت سلطة أدواق يقيمون في لمطة بالنسبة لطرابلس، وفي قفصة أوتلابت بالنسبة للمزاق، وفي سيرتة بالنسبة لنوميديا، وفي قيصارية بالنسبة لموريطانيا. وكان يرجع إليهم بالنّظر الجيش المتنقّل المتكوّن من حرس بليزار وفيالق المُشاة وخاصّة الفُرسان وأحلاف الأقوام المتوحّشة والجنود البرابرة والمرابطة في مراكز داخل البلاد منها ينطلق لنجدة الأماكن المهدّدة وكذلك يرجع لهم بالنظر الجيش المستقرّ المتكوّن من الجنود المنتصبين بتخوم البلاد وخصوصا من وحدات الجنود المعمّرين والمعدّين لحماية الحدود .

8 -- الليمس والتحصينات :

كان الحاكم العسكري يعتمد على التحصينات أكثر من اعتماده على الجند، ولمّا هدّم الوندال أو أهملوا البناءات الرومانية وجب ترميمها وتشييد مبانٍ جديدة، وكان هذا العمل من نصيب سليمان الذي وطدّه وعمّم السياسة الدّفاعية التي كان يطبّقها يوسيطينيانوس في كامل الامبراطورية ويظهر

أنّ الليمس البيزنطي لم يخالف تمام المخالفة الليمس الروماني في طرابلس والمزاق ونوميديا .

ومن المفروغ منه اليوم اعتمادا على وثيقة (Ostrakon) اكتشفت بنقرين (Négrine) أنّ الليمس كان يمرّ بجنوب الاوراس لا بشماله كما كان يذهب بعضهم إلى ذلك . لكنّه كان يميل شيئا ما إلى الغرب . ثم إنّ الحدود تتّجه ابتداء من تودة (Thouda) إلى الشمال الغربي نحو شطّ الهدنة ومنه إلى الشمال . ووجود قلعتي (Zabi Justiniana) قرب المسيلة و (Thamallula) راس الواد يدعو إلى التفكير في أنّ الحدود كانت تحاذي تقريبا وادي نهر القصب . ومن المرجّح أنّها تصل إلى بجاية من دون أن تقوم حجّة على ذلك . وفي موريطانيا اقتصر على عدد من المواني المحصّنة كماتيفو (Rusguniae) وتيبازة (Tipasa) وقيصارية (Caesara) وكرتيني وهي مراكز تحصّن فيها الأهالي فكان النفاذ إليها غير ممكن إلاّ عن طريق البحر . وأخيرا جعل يوسطينيانوس من حصن سبتة (Septem) مركزا للمراقبة له أهمّيته .

ولم تكن التخوّم حيث تمّ ولا شكّ ترميم واستعمال مابناه الرومان من حصون هي المنطقة الوحيدة من البلاد التي كان من الواجب مراقبتها ، وكانت قلعة قصر بلازمه الخطيرة تراقب منافذ الهدنة بينما تراقب مشارف الأوراس منافذ قلاع لمباز (Lambèse) وخنشلة (Mascula) وتيمقاد (Thamugadi) التي تبلغ 120 مترا طولا و 80 مترا عرضا وقد بنيت على معالم قديمة من عهد السفيريين . وكانت التحصينات العسكرية منبثّة في قلب الرقعة البيزنطية مثل الحصون الموجودة في قصر لمسه (Ksar lemsa) البعيدة عن شمال شرقي مكثر بما يقارب الأربعين كيلومترا أو الموجودة في عين تونقة (Thignica) شمالي شرقي تبرسق أو حيدره (Ammaedara) وقد صمدت كلّها على ممرّ العصور بصورة تدعو إلى الإعجاب وكثيرا ما بنيت هذه التحصينات بسرعة على أنقاض المعالم القديمة كما هو الشأن في سبيطلة (Sufetula) ودقّة (Thugga) حيث استعملت ساحتاهما لهذا الغرض . وحتى المدن فإنّها كثيرا ما أحاطت نفسها بسور ضيّق مثل مدينتي سطيف (Sitifis) وتبسّه (Theveste) وبهذا تكوّنت

شبكة من الحصون يجد فيها السكّان المهدّدون بهجمات المعتدين المأمن والملجأ وتشعر المقاطعات الافريقية بفضلها بأمن نسبي .

9 ــ الفنّ المعماري الدفاعي :

تتركّب المراكز المحصّنة في أكثر الأحيان من ثلاثة خطوط دفاعية :

أوّلا : سور ذي طابقين معزّزين بأبراج ضخمة ذات شرف عديدة.

ثانيا : سور أمامي يحمي الأماكن المجاورة للساحة وأخيرا خندق عميق واسع يحفزه سياج ويخيم اللاّجئون في الفسحة الواقعة بين السورين .

أمّا الأسوار التي يبلغ علوّها بين الثمانية والعشرة أمتار فجوانبها المتكوّنة من الحجارة المقطوعة مشحونة بموادّ مختلفة، وهكذا يبلغ سمكها مترين ونصفا، وفيما يخصّ جودّة البناء فإنّها تتفاوت بحسب تفاوت مقدرة اليد العاملة .

وآثار تبسّة تجعلنا نتصوّر عظمة هذا الحصن الذي يعدّ من أهمّ الحصون وقد احتمى بسور علوّه يتراوح بين تسعة وعشرة أمتار وسمكه يبلغ المترين أمّا طوله فينوف على 320 م. وعرضه 280 م. وقد علا هذا الحصن بأبوابه الثلاثة أربعة عشر برجا مربّعة الشكل طولها بين أربعة عشر مترا وثمانية عشر . ويذهب الفنّيون إلى أنّ بناء هذا الحصن تطلّب ثمانمائة عامل واستغرق عامين كاملين .

أمّا في حيدره فآثار القلعة التي كانت تحمي المدينة مازالت قائمة إلى الآن . وهي مستطيلة الشكل فسيحة طولها مائتا متر وعرضها مائة وعشرة أمتار امتدّت على منحدرات جبل وضمّت عدّة مبان عسكريّة وكنيسة واحدة . أمّا الأبراج التسعة المربّعة والبرج الأسطواني الشكل فقد علت سورا فيه أبواب كثيرة يؤدّي أحدها إلى جسر طوله ثلاثون مترا مدّ على واد حيدره .

وليس من شك في أنّ هذه الآثار العمرانية تنبىء عن نشاط ملحوظ

قام به المهندسون البيزنطيون ولكنّه يدلّ أكثر من ذلك على زوال هيمنة البيزنطيين ومدى خطر البربر .

II ـ انتفاضات البربر والاضطرابات الدينية

1 ـ التحصين ضدّ البربر :

حاول "جليمار" وبليزار عند استرجاع البيزنطيين افريقية استمالة البربر. فلقد كسب ملك الوندال ودّ الكثير من المزارعين الأفارقة بعطاياه الوفيره وبما كان يدفعه لكلّ من يأتي له برأس جندي روماني . ولكنّه رغم ذلك لم يتمكّن من الاطمئنان الكامل إلى رؤسائهم، ذلك أنّهم سارعوا ـ كما قال "بروكوب" بإعلام "بليزار" بولائهم له فأرسلوا إليه الرهائن وعرضوا عليه التّحالف معه ، فأثبتهم بليزار على نفوذهم وبعث إليهم ـ كما كانت تقتضي العادة ـ بصَوْلَجان من فضّة مذهبة وإكليل من فضّة مزخرف وبُرْنُس أبيض أقفاله من ذهب ومِئْزَر أبيض مُزَرْكَش وأحذية مطرّزة بالذهب بالإضافة إلى مقادير وافرة من المال . لكنّ البربر اقتصروا على الوعود ولم يَنْحَازُوا لِشقّ دون آخر حتى نهاية الحرب .

ولمّا أقلع بليزار في مراكبه قاصدا القسطنطينية مطمئنا على الأقل إلى حياد البربر وعطفهم إذا بهم يتمرّدون عليه في المزاق (Byzacène) ونوميديا . وقد عزّا "بروكوب" ذلك من دون أن يتفطّن إلى الحقد الدّفين الذي كان يكنّه الأهالي نحو الغازين "إلى تحوّل طباعهم وتقلّبات مزاجهم" .

ومهما يكن فإنّ البيزنطيين واجهوا منذئذ حربا مزمنة ضدّ القبائل .

أمّا جيشهم الذي كانت تُعْوِزُهُ روح الانقياد ويشكو ضعف القيادة في كثير من الأحيان فإنّه كان عاجزا عن صدّ هجمات خيّالة البربر الذين لا تُرْهِبُهُمْ الحصون ولم ينج من الكارثة إلاّ بفضل حزازات أعدائه . ورغم ذلك فإنّ جيش البيزنطيين كان أكثر استعدادا لخوض حرب افريقية من الجيش الوندالي فقد كان معتمدا بالخصوص على رُماة ذوي دربة

وبراعة قادرين على النيل من العدو من مسافة بعيدة . ولقد بان فضل هذه الخطة الجديدة على حساب الفرس رغم قدح الفنيين التقليديين فيها ببيزنطة وظهرت نجاعتها ضد البربر . وإذا كتب لهذه الخطة الفشل فذلك يرجع إلى تغير المعطيات تغيرا جذريا ، الأمر الذي أثر تأثيرا بالغا في حرب "تراسموند" ضد "كابوون" (Gabaon) .

وعلاوة على قبائل نوميديا المستوطنة فإن قبائل الرحل الصحراوية والليبية أخذت تواصل هجماتها، وإذا أمكن لسليمان أن يستأصل القبائل المستوطنة فإن قواده فشلوا أمام القبائل الرحل وقضى نحبه وهو يقاتلهم ومن ذلك الوقت أصبحنا أمام فريقين من البربر سيكون لهما دور في تاريخ المغرب : المزارعون المستقرون والرعاة الجمالة الذين انتهوا إلى الجزء الشرقي والجنوبي من الأوراس واستعدوا لمواصلة سيرهم نحو الأنجاد والسهول والسباسب التي تؤدي إلى مضيق تازه .

وهكذا اضطر البيزنطيون إلى القتال في جبهتين ولم يتسلموا من الكارثة القصوى إلا بما قدموه من تضحيات مالية وبالحيلولة دون الاتحاد المستمر بين الحضر والمدر .

2 — سليمان :

كان تحت قيادة سليمان من غير شك ثمانية عشر ألف مقاتل بفضل ما خلفه له بليزار من جيوش، وبفضل المدد الذي بعث به إليه يوطينيانوس وبينما كان يبداس (Iabdas) ملك الأوراس وقبائله يعيثون في نوميديا فسادا كان على سليمان أن يواجه أعظم خطر ألا وهو هجوم القبائل الرحل في المزاق تحت قيادة كوتزيناس (Cutzinas) وثلاثة قواد آخرين .

ولما أباد البربر خيالة ايقان (Aigan) وروفين (Rufin) حذرهم سليمان من مغبة فعلتهم ولكنهم أجابوه بحقائق مرة كما أكد ذلك المؤرخ "بروكوب" قالوا : "إن الرومان يخطبون ودنا ويرومون أن نكون لهم حلفاء بينما هم لم يحسنوا إلينا وجلبوا لنا المجاعة فليس الذين

يطاردون اللصوص لاسترجاع أرزاقهم هم الذين ينالهم سُخْطُ الرّب بل أولئك الذين يبادرون بالحرب ويستحوذون على أرزاق غيرهم".

وكانت الحرب ضَرُوسا، ذلك أنّ الرومان اصطدموا بخطّة جديدة وأنّ البربر كانوا يقاتلون في استبسال وراء دائرة من الجمال احتمت وراءها جميع أفراد القبيلة ومعهم عائلاتهم وأرزاقهم، فقد اضطرّ الرومان في واقعة ممّا (Mamma) الكائنة بين سبيبه والقيروان إلى النزول عن خيولهم وعقر مائتي جمل بسيوفهم للوصول إلى قلب القبيلة ، وروى أنّه قتل في هذه الواقعة عشرة آلاف من البربر وسبيت نساؤهم غير أنّ هزيمتهم لم تمنعهم من أن يلمّوا شتاتهم في الصحراء ويعيدوا الكرّة ويعيثوا فيها فسادا وتمكّن سليمان في آخر الأمر من تطويقهم جنوب المزاق قرب حدود نوميديا على جبل برقوان سنة 535 (Burgaon) وكان انتصارا مبينا إذ بلغ عدد القتلى من البربر حسب بعض الرواة خمسين ألفا من دون أن يلقى روماني واحد حتفه .

وعند ذلك اتّجه الرومان إلى قتال يبداس وحاولوا النفاذ إلى الأوراس . وكان في صفوفهم جيوش من البربر يقودها أعداء يبداس وهم ماسوناس (Massonas) واورتاياس (Ortaïas) أمير الحضنة (Hodna) وجزء من الأوراس من غير شك ولكنّ سليمان اقتصر على حطّ رحال جيشه وراء مركز محصّن في السهول (سنة 535) لأنّه شك في ولاء هؤلاء البربر له رغم ما أغدق عليهم من أموال، ولأنّ صعوبات الهجوم والتموين كانت كبيرة جدا .

3 ــ تمرّد الجيش وستوزاس :

تمرّد الجيش قبل أن يستعدّ القوم لمغادرة قرطاج لقتال البربر؛ ذلك أنّ سليمان كان فظا غليظا يعامل جنوده معاملة العبيد، فكان يكرهه ضُبّاطه وجنده على حدّ السواء، وكان الجند يشهدون بأعينهم قوادهم الكبار وهم يستأثرون بالغنائم ويستحوذون على الأراضي باسم الامبراطور الذي كان لا يدفع لهم جرايتهم، وكانت نساء الوندال يُشعرن أزواجهنّ الجُدُد بأنّ

لهنّ حقوقا على ما كنّ يملكنه من أراض . وأمّا الآريوسيون المتحالفون الذين كان الكهنة الوندال يحضونهم على التمرد فقد كانوا يحتجون على طردهم من الكنائس ويستنكرون ما ينال إخوانهم من اضطهاد ، وآلت هذه المعاملات والفوضى إلى التآمر الجماعي وكاد ينجح (سنة 536) لولا أن لاذ القائد بالفرار إلى صقلية لطلب النجدة من بليزار . ووجد المتآمرون في أوّل الأمر ضالّتهم في شخص ستوزاس الحرس الذي قاسمهم آلامهم من قبل وكان قائدا مغوارا صلب الشكيمة . ولقد حاول "ستوزاس" أن يجمع كلمة ضحايا الاستعمار الروماني كلّهم سواء جنود "سليمان" أو الوندال الذين بقوا بافريقية أو بربر نوميديا . ولكنّ "بليزار" الذي أسرع في العودة أحبط بمجرّد حضوره هجوما موجّها ضدّ قرطاج ثم هزم ستوزاس في مجاز الباب (Membressa) الواقعة على نهر مجردة إلاّ أنّه اضطرّ إلى العودة إلى صقلية بعد أن أطاح بسليمان وسلّم قيادة قرطاج إلى ضابطين ساميين وظنّ والي نوميديا أنّه سيمحق بسهولة فرق جيش ستوزاس القليلة غير أنّ قائد المتمرّدين تقدّم بمفرده نحو جموع الجيش وألقى فيها خطابا مؤثّرا جدّا كما روى ذلك بروكوب . لقد كان خطابا ثوريا حماسيا قابل فيه بين بؤس الجندي وما كان يتعاطاه بعض القواد من سلب مشين وحضّ على تكسير نير المستبدّين .

وصاح في الجند الواجمين قائلا : "بينما يستأثر القوم في وقاحة بشرف النصر ويبدّدون ثماره تسيرون أنتم وراءهم في ذلّة وقد نزلتم إلى أحطّ درجات منزلة العبيد" وما من شك في أنّ هذه الكلمات نفذت إلى أعماق الجنود إذ هم انحازوا جميعهم إلى ستوزاس وأبادوا ضبّاطهم .

وهكذا تأزّم الموقف خاصّة وأنّ بليزار بادر بترحيل سليمان إلى القسطنطينية من دون أن يستشير أحدا، فاضطرّ يوسطينيانوس ـ للتمكّن من القضاء على الثورة ـ إلى إرسال ابن عمه جرمانوس مزوّدا بسلط استثنائية. وما كان من الحاكم العسكري الجديد إلاّ أن يسجل تلاشي ثلثي الجيش فأدرك أنّه من الضروري القيام ببعض التنازلات واستنكار قسوة سليمان ، فظهر بمظهر المدافع عن الجنود ووعد الثوار لا بالتسامح والعفو ، بل بدفع جراياتهم المتخلّفة حتى أثناء تمرّدهم ونجح في سياسته واستهوى بسرعة المتمرّدين

ولم يبق لستوزاس بعد تلاشي جيشه إلاّ الإسراع بالاستيلاء على قرطاج فحاول ذلك ولكن بدون جدوى واضطرّ إلى الفرار إلى نوميديا وسادت الفوضى المريعة لقاء جرمانوس مع جنوده الموالين، وفي هذه المرّة أيضا نجا من الهزيمة بفضل تردّد البربر، ذلك أنّ يبداس وأورناياس اللّذين لم يتعدّيا دور المتفرّج في المعركة رفضا مدّ يد المساعدة لستوزاس وآثرا المشاركة في نهب معسكر المتمرّدين . فلم يبق لستوزاس إلاّ الفرار هو ونفر من الوندال إلى موريطانيا حيث تزوج بنتا لأمير بربري .

وسرعان ما فطن الجنود إلى أنّ جرمانوس قد خدعهم فثاروا في قرطاج بإيعاز من ماكسمان (Maximin) أحد حرّاس الحاكم وطالبوا بجراياتهم المتخلّفة ولكنّ جرمانوس بادر بحسم هذه الانتفاضة فقضى عليها بسرعة وشنّق ماكسمان .

ولم يتورّع يوسطينيانوس بعد قمع الجيش من أن يعيّن "سليمان" رأس الفتنة (سنة 539) حاكما عسكريا على افريقية من جديد فبادر بالانتقام ممّن كانوا سببا في إزعاجه وطهّر الجيش ونفى نساء الوندال .

4 – حرب الأوراس :

ولم يبق مناوئا "لسليمان" إلاّ العدوّ الذي لا تنتهي عداوته وهو البربري فاتّجه مرّة أخرى إلى الأوراس وقصد حسب بروكوب بلا شك مجموعة الجبال الممتدّة جنوبي خنشلة وتيمقاد ولمباز حيث انهزم مساعده قنتاريس (Guntharis) وعسكر سليمان بجيوشه كاملة في سفح الجبل قرب واد بورغال (Oued Bou Roughal) ومنه انطلق فهزم يبداس فبابوزيس (Babosis) ونهب المحاصيل الزراعية حول تيمقاد ثم تعقّب ملك (l'Aurasion) ورجاله الذين يبلغ عددهم العشرين ألفا حتى حصّن زربوله (Zerbula) ولكنّه لم يتمكّن من دخوله إلاّ بعد فرارهم ثم نجح بعد عناء شديد في اقتحام تحصينات تومار (Toumar) العجيبة المقامة فوق قمّة جبل الأوراس وبعدها تحصينات صخرة جمنة المنيعة (Geminianus) وقد تكون في فجّ واد مسرور حيث أودع يبداس نساءه وكنوزه

تحت حراسة شيخ . وهكذا أسفرت حرب سليمان عن نجاح باهر دعّمه ببناء سلسلة من التحصينات المنيعة في قلب الأوراس ذاته وفي نوميديا وموريطانيا القيصرية ممّا جعله يحافظ على السلم طيلة أربع سنوات .

غير أنّ انتهاجه سياسة المحظوظية كان سببا في اضطرابات جديدة . ذلك أنّه تحصّل من الامبراطور على تسمية سرجيوس ابن أخيه (Sergius) دوقا على طرابلس . وكان فظّا غليظا بقدر ما كان عاجزا يظنّ أنّ تفوّقه على الأهالي يتجلّى في السيطرة المطلقة . من ذلك أنّه عندما جاءه ثمانون من أعيان قبيلة لواتة يشكون ما تعرّضوا له من نهب محصولهم لم ير من حلّ للمشكلة سوى أمر حرّاسه بتقتيلهم فبادرت قبيلة لواتة بشقّ عصا الطاعة فاضطرّ إلى الاستنجاد بعمّه . ولم ينته الأمر عند هذا الحدّ فقد انضمّ إلى لواتة انتلاس، ذلك أنّ سليمان بعد انتصاراته على يبداس رأى أنّه لا فائدة في مراعاة قائده انتلاس الذي خدمه دائما بإخلاص ، فقطع عنه المؤونة وأمر بقتل أخيه فكان ردّ فعل انتلاس التحالف مع لواتة .

5 ــ موت سليمان وحكم العجّز :

وفي هذه المرّة كان الذي واجهه سليمان أمرا عظيما، ففي تبسّة قابل البربر وعوده بالاستهزاء وأبى قسم من جنوده القتال ولم يظهر القسم الآخر حماسا كبيرا بعد أن رأوه يستحوذ دائما على الغنائم كلّها فمُني سليمان بالهزيمة وقتل .

إنّ السلطة العليا ترى من واجبها استبقاء الموظّفين الذين يتجاوزون حدودسلطتهم وتعتبر ذلك شرطا من شروط هيبتها.وهكذا فإنّ يوسطينيانوس الذي كان أرجع سليمان إلى افريقية تجاوز ذلك بتعيين سرجيوس خلفا له وهو نفسه الذي نقم عليه الجيش لقسوته وأنكره الأهالي لتعسّفه غير أنّه عين كذلك مُعينا له عاجزا مثله وهو الشيخ اريوبندوس (Areobindus).

ولمّا كان الموقف يدعو إلى تعيين مسؤول تتمثّل فيه العزيمة والصلابة والغلبة ونفاذ البصيرة والإرادة الفرد لإيقاف توغّل لواته وقبائل انتلاس (Intalas) المعزّزة بفيالق موريطانية بقيادة ستوزاس (Stozas)

اقتصر الامبراطور على تعيين شخصين ينتسبان إلى العائلات الكبرى ظل كلاهما يسعى إلى إحباط مجهود الآخر . وهكذا بقي سرجيوس مكتوف الأيدي عندما كان البربر يُبيدون جيش المزاق (Byzacène) في برج مسعودي (Thacia) بين تبرسق والكاف من دون أن ينجده (أواخر سنة 545). ولم يسع يوسطينيانوس إلاّ إلى إقالة سرجيوس وتعيين أريوبندوس مكانه في أوّل الأمر ولكن سرعان ما تآمر عليه القوم وأبعدوه فعيّن مكانه ارتاباناس (Artabanès) وهو ضابط ارمني كان تمكّن من قمع الثورة (ماي 546) وعمّت الفوضى البلاد وأفلت زمام الأمر من قواد الجيش بينما كان الموريون يواصلون تخريبَ المقاطعات من دون أيّ ردّ فعل فاضطرّ يوسطينيانوس آخر الأمر إلى دعوة يوحنّاتروقليتا(Jean Troglita) أحسن قواد الامبراطورية من الواجهة الشرقية وأسند له أمر افريقية (أواخر سنة 546) .

6 ـ يوحنّاتروقليتا :

نجد في ملحمة يوحنّا التي كتبها كوريبوس (Corippus) آخر شاعر افريقي تقليدي شهادة هامّة تحكي الوقائع التي دارت بين سنة 546 وسنة 548 وهو أستاذ في النحو نزح من بلدة غير معروفة وتفتّقت شاعريّته فتغنّى بانتصارات الحاكم العسكري على الموريين، ولا شك أنّ مواهبه الأدبية كانت محدودة . ولئن اعترف له القوم بأنّ شعره لا يخلو من الحركة والحياة فإنّ المتفصّحين عابُوا عليه إقحام الكلمات البربرية في شعره المتركّب من أبيات ذات مقاطع ستة ممّا أدّى بـ(E. F. Gauthier) الذي لم يتميّز بتقدير الغير من دون مزيد التحرّي، إلى وصْفه بالشعر الرديء ، غير أنّ فضله يتجلّى في مواطن أخرى . إنّه احتاج بحثا عن مادّة كافية لأغاني ملحمته السبع، إلى التوسّع في الحقبة التاريخية المقصودة بالذات وتكلّف التغنّي بأحداث تاريخية مرّت عليها خمس عشرة سنة . ثم إنّ هذا الآفاقي كان يحبّ افريقية وأهلها فأتحفنا بمعلومات عديدة عنها وعنهم . من ذلك ما وصل إليه قزال(S. Gsell)عند تحليله لملحمة يوحنّا من معطيات أمكن معها تصوّر حياة البربر وواقعهم .

ويمكن القول في آخر الأمر بأنّ كوريبوس (Corippus) أكثر فائدة عندنا من مؤرّخ . ولقد أدرك بطل الملحمة أنّه لن يتسنّى له الانتصار على الموريين وهم متّحدون ففرّق بينهم ودفع ثمنا باهضا لكسب عدد كبير من القبائل ثم هاجم انتلاس (Antalas) وهزمه ولكنّه انهزم بدوره على يد لواتة بطرابلس الذين واصلوا زحفهم حتى قرطاج ولم يتمكّن يوحنّا من دحر هؤلاء الرحّل إلاّ بفضل كوتزيناس (Cutzinas) في معركة دامية بحقول قاطون (caton) قتل فيها بيده الأمير كركزان (Carcasan) وهلك بها سبعة عشر قائدا بربريا (أوائل سنة 548) وكان نصرا مبينا عرفت افريقية بفضله هدوءا دام خمس عشرة سنة .

غير أنّ الحكومة كانت تظنّ أنّه من الهيّن صرف أو تقتيل عملائها من الأهالي متى لم تعدْ في حاجة إليهم . ففي سنة 563 أمر الحاكم يوحنّا روقاتينوس (J. Rogathinos) بقتل كوتزيناس (Cutzinas) فاستتبع ذلك تمرّد قسم من قبائل نوميديا ولم تخمد نارهم إلاّ بتدخّل مارسيان (Marcien) ابن أخ الامبراطور الذي جلب جيشا من القسطنطينية ولكنّ الموريين عاثُوا قبل ذلك فسادا في البلاد وقد خلت من كلّ حماية.

ولمّا مات يوسطينيانوس في سنة565 ترك الحكم البيزنطي متداعيا في افريقية .

7 — رجوع الكاثوليكية :

إذا كان هدف يوسطينيانوس يتمثل في إرجاع السلطة الرومانية إلى ما كانت عليه في بلدان افريقية فإنّه لم يتوَانَ كذلك في إرجاع نفوذ الكاثوليكية إلى سالف عهدها، والمقصود هنا طبعا الكاثوليكية الخاضعة لسلطة الامبراطور ، ولقد استقبل الكاثوليك في افريقية بحماس شديد البيزنطيين، بل إنّهم تغالَوا في استرجاع الكنائس وتعذيب الآريوسيين الأمر الذي قد نجد لهم بعض العذر فيه بما نالهم من عذاب في الماضي إلاّ أنّه جلب لهم اضطرابات خطيرة ومن جهة أخرى فإنّهم امتدّت أيديهم إلى المشركين والدوناتوسيين وحتى اليهود الذين اضطرّوا إلى الالتجاء إلى القبائل بعدما فصلوا عن جميع الوظائف العمومية سنة 535 .

واسترجعت الكنيسة نظامها القديم فصار الأسقف يتمتّع بنفس الحظوة التي يلقاها زملاؤه في كنائس رومة وانعقدت المجامع من جديد. غير أنّ أراضي الكنيسة وعدد رجالها نقص نقصا فادحا بعد "أسر المائة عام".

وتمّ ترميم المباني المشوّهة وشيدت الكنائس الجديدة وقد ظهر فيها من حيث الفنّ المعماريّ والزُخزف، التأثير الشرقي الذي انتشر مع انتشار الإيمان بالأولياء، فكنيسة (الموسط) قرب بلدة المحرص بالبلاد التونسية تكشف لنا عن مدى ما بلغه من إتقان عجيب في الزُخْرُف صُنّاع الفُسيفساء الأفارقة الذين اعتمدوا الفنّ الشرقي واستعملوا موادّ مبتذلة ولكنّها غنيّة الألوان.

أشعّت كنيسة افريقية أيّما إشعاع في عهد يوسطينيانوس بعد أن سطع نجمها حتى القرن الخامس وكان المسيحيّون في افريقية لا يميلون كثيرا إلى الجدال حول سيرة المسيح بل اهتمّوا خاصّة بمسألة خلاص الإنسان وكان موقف الامبراطور والبابا جرّهم إلى خلاف نشأ عن بِدَعٍ شتّى ظهرت في الشرق.

8 — الفصول الثلاثة:

لقد مرّ آنذاك ما يقارب القرن منذ أن حرص مجمع كالسيدوانة سنة 451 على وضع حدّ للجدل الذي كان سببا في فتنة عقائديّة بالمشرق فندّد ببدعة نسطوريوس أسقف القسطنطينية لقوله بثنائية الذات الإلاهية والذّات البشرية، وزعمه أنّ مريم ليست إلاّ أمّا للإنسان لا الإلاه، وكما ندّد ببدعة اوتيشاس (Eutychès) الذي كان يدعو إلى مجرّد وجود الذّات الالهية.

ولكنّ هذا الموقف لم يوفّق إلى بسط السلم، فقد كان مثلا القائلون بوحدة الذّات منشقّين على أنفسهم في عهد يوسطينيانوس وحاولت الامبراطورة تيودورا التي كانت تعطف عليهم توحيدهم فدفعت زوجها إلى التشهير بثلاثة نصوص كان يظنّ أنّها مستوحاة من النسطورية إلاّ أنّ المجمع لم

يحكم عليها سنة 544 ولم يجد البابا "فيجيل" الذي يدين للامبراطورة بمنصبه بدّا من الموافقة على التشهير بهذه النصوص الثلاثة التي عرفت خلطا بينها وبين النصّ الامبراطوري بالفصول الثلاثة .

واحتجّ المسيحيّون في الغرب احتجاجا صارما، ولكنّ معارضة هذا القرار لم تبلغ الحدّة التي بلغتها في افريقية . فلقد وجّه الأسقف (l'Evèque) بونتيانوس إلى الامبراطور انتقادا على قراره وسانده في ذلك عالم قرطاج فراندوس (Ferrandus) بفضل ما كان يتمتّع به من نفوذ ديني ولمّا علمت الجماهير في افريقية بنشر قرار البابا تظاهرت وانعقد مجمع وقرّر اعتبار البابا مرتدّا حتى يتراجع . وفي القسطنطينية كان أسقف هرميان (Hermiane) المسمّى فاكندوس (Facundus) يشنّ بالقلم واللسان حربا لا هوادة فيها على الامبراطور، ومالبث أن قدّمت قرطاج جماعة من القساوسة لتسانده وتؤيّد البابا في محاولاته الصمود أمام هذا الاستنكار ولم يتردّد جوستينيان في توخّي الشدّة فدعا إلى القسطنطينية رؤوس الأسقفية بافريقية وقضى على معارضتهم بالترغيب والترهيب، واستعاض عن الصامدين منهم بأشخاص موالين له وأجبر افريقية التي أدانت علنا البابا المفسد على الطاعة والامتثال، وقد كان للتعذيب والسجن والنفي مفعول في إرجاع الزائغين إلى سواء السبيل ونحن على اطّلاع بما نال الخوارج من أصناف العذاب بفضل ما رواه أسقف طاننزا (Tannensa) فيكتور (Victor) وكان خصما لدودا للامبراطور ورغم هجاء فاكندوس (Facundus) فإنّ الكلمة الأخيرة بقيت للقوة ورجعت الأمور إلى نصابها وفي سنة 560 أمكن للبابا "بيلاج" أن يفتخر بإجماع النّاس على إدانة الفصول الثلاثة ، وهكذا لن يمكن لكنيسة افريقية أن تلعب دورا هاما في عالم المسيحية بعد أن ألجمت وكسّرت شوكتها .

III ـ خلفاء يوسطينيانوس

حصيلة حكم يوسطينيانوس : كان يبدو أنّ يوسطينيانوس الذي غزا سواحل اسبانيا أعاد امبراطورية الغرب إلى ما كانت عليه فكان يعلن

"يا سكّان العالم سبّحوا بحمد ربّكم الذي ميّز عصرنا بمثل هذا الإنجاز . والحقيقة أنّ يوسطينيانوس أنهك قواه واستنزف مقاطعاته . فايطاليا التي عرفت الازدهار في ظلّ القوط تركتها الحرب كليمة خائرة القوى كما تركت روما خالية من أهلها ذليلة بعد عزّ، بحيث كان من المستحيل أن تقف أيّة قوة أمام غزو اللمبارديين .

وفي البلقان كان الصّقالبة (Slaves) والهان (Huns) والآفار (Avars) يعيثون فسادا ويهدّدون القسطنطينية . أمّا في آسيا فقد كان الامبراطور يدفع للفرس والآفار ثمنا باهضا للظفر بهدنة من حين لآخر .

وفي جميع أنحاء الامبراطورية فشلت الجهود الرامية إلى التخفيض من وطأة السطو على أموال الدولة وارتشاء الموظّفين، وكانت محكمة القسطنطينية تعطى فيهما المثل . نعم كان يمكن لسانت صوفيا (Sainte Sophie) وهالون يوسطينيانوس أن يبهر العيون ويسحر العقول إلاّ أنّ الامبراطورية التي كانت لا تعتمد إلاّ على فلول من الجيش مسترابة وإدارة استفحل فيها الفساد كانت رغم ذلك مستضعفة .

وإذا وضعنا في الميزان سياسة يوسطينيانوس الافريقية وجدنا من الناحية الإيجابية غزوة موفّقة في الظاهر ومحدودة النتائج غير مستقرّة في الواقع وكذلك حروبا ضدّ البربر مظفّرة في بعض الأحيان لكنّها غير حاسمة ولو مرّة واحدة ومباني دفاعية شيّدت ببراعة وسرعة فائقتين ولكنّها ما كانت لتغني عن جيوش قوية موثوق منها، ووجدنا أيضا سعيا إلى إقرار إدارة منسّقة منظّمة قوية، وظفرنا أخيرا ببعض الشخصيات اللاّمعة لاعتبارات مختلفة أمثال بليزار (Bélisaire) وسليمان (Solomon) وجرمانوس (Germanos) ويوحنّا تورقليتا (Jean Troglita) أمّا من النّاحية السلبية فهناك جولان يد بليزار في خزينة الدولة، ومحظوظية سليمان وقسوته، وعجز سرجيوس وار يوبندوس ، واغتصاب الضبّاط السامين والوُلاّة للأراضي ونهبهم للأهالي أو مطاردة النّاس باسم الدين أو النوضى في صفوف الجيش أو ازدهار الاستعمار الذي آل بالفلاّحين إلى شبه عبودية، وأخيرا

نظام الحكم الذي تجلّى خاصّة في سياسة جبائية قاسية واستغلال علمي للأهالي، الأمر الذي قضى إلى الأبد على أسباب النهضة بافريقية .

وأمام مثل هذه النتائج لا يمكن للمرء أن لا يوافق بروكوب فيما أصدره من حكم في يوم أطلق فيه العنان لحقده عندما سجّل هذه الكلمة في كتابه (التاريخ السري) : بعد انهزام الوندال لم يحرص يوسطينيانوس على توطيد حكمه في البلاد ولا أدرك أنّ خير ضمان هو تأليف قلوب الرّعايا بل بادر باستقدام بليزار الذي اتّهمه ظلما بالسعي إلى اغتصاب الملك وباشر إدارة افريقية من بعيد فأنهكها ونهبها حسب مشيئته، لقد أرسل أعوانه يقيمون الأراضي وفرض أداءات ثقيلة جدّا لم يكن للسكّان سابق عهد بها واقتطع لنفسه أحسن الأراضي وحجّر على الآريوسيين إقامة طقوسهم، وكان يتقاعس دائما في إرسال المدد ويقسو على الجند . فكان كلّ ذلك سببا في الاضطرابات التي آلت إلى مصائب عظيمة .

لكن ما حلّ من الكوارث بعد ذلك تجاوز تنبّؤات بروكوب المتشائمة ولم يكن خلفاء يوسطينيانوس في المستوى المطلوب لمجابهتها .

1 — يوسطينوس الثاني وتيبريوس الثاني :

كان أوّل خليفة ليوسطينيانوس يوسطينوس الثاني (565 — 578) الذي تغنّى بمآثره كوريبوس (Corippus) في مؤلّفه مدح يوسطينوس (in laudem Iustini) وكان ملكا حازما ولكنّه لاقى ما لاقى من أجل الدّفاع عن الامبراطورية ضدّ الفرس والآفار والهان (Perses-Avars-Huns) رغم أنّه صرف عناية كبرى بشؤون افريقية متأثّرا بأحد مواليدها وهو آنستاز (Anastase) صاحب خزينة القصر وأمّر عليها توما (Thomas) رئيس حرسه الذي يبدو أنّه أظهر ديبلوماسية فائقة في علاقاته مع القبائل .

وإذا ملنا إلى تصديق كوريبوس فإنّ البلاد وجدت بارقا من الأمل في الحياة بفضل إدارة حازمة يقظة . غير أنّ كوريبوس كان شاعرا وفوق ذلك شاعرا مبرّزا، لذا حقّ لنا أن نشكّ في هذا الازدهار الذي يحدّثنا عنه

الشاعر ولئن وجد فهو على كلّ حال لم يعمّر طويلا، والحق أنّ توما أعان على انتشار الدّعاية المسيحية حتى بلغت الفزان، ودعّم جهاز الدّفاع بإقامة حصون جديدة، ولكنّه فيما بعد لم يقدر على الحدّ من استفحال الانهيار الإداري وعلى استخلاص الأداءات ودفع أجرة الجنود . فإذا نحن تصفّحنا بعض ما كتبه المؤرّخ يوحنّا البكلارى (Jean de Biclar) استفدنا أنّه جدّت في هذه الفترة ثلاث ثورات قتل فيها وَال وَحاكمان عسكريان ، كما استفدنا أنّ الأمير غرمول الذى قمع هذه الثورات اغتنم الفرصة لتدعيم سلطانه وبلغت الحالة حدّا من الخطورة آثر معها كثير من السكّان الهجرة إلى اسبانيا .

وربح تيبريوس الثاني قسطنطين (578 — 582) شيئا من الوقت عندما عيّن توما واليا على افريقية من جديد، ويظهر أنّه اشترى ولاء أمراء البربر بالمال. ولمّا اطمأنّت القبائل فاجأها الحاكم العسكرى جناديوس (Gennadius) حوالي 578 وقتل بيده غرمول أحد قوادها البارزين ولكنّ انخرام الأمن استمرّ بحيث اضطرّ السكّان إلى تشييد الحصون بأنفسهم .

2 — إصلاحات موريس وولاية ايطاليا وافريقية :

لم تتميّز حينئذ افريقية التي حكمها يوسطينوس الثاني وتيبريوس عن افريقية على عهد يوسطينيانوس إلاّ بالتدهور الذي كان يتفاقم يوما فيوما، وقد أدخل الامبراطور موريس (582 — 602) تعديلات هامّة بافريقية أطْلَعَنا عليها جورج القبرصي (Georges de Chypre) في القائمة الجغرافية التي وضعها في أواخر القرن السادس . لقد ضمّت طرابلس إلى مصر واعترافا بالأمر الواقع ضمّت إلى مقاطعة سطيف الواقعة في موريطانية القيصرية بعض المراكز الساحلية التي بقيت تحت السلطة الرومانية فتألّفت موريطانيا الأولى . أمّا موريطانيا الثانية فلم يكن فيها إلاّ مركز افريقي واحد يتكوّن من سبته (Septem) وبعض المدن الاسبانية وجزائر البلجار ، بل إنّ القوم اضطرّوا في غالب الأحيان إلى التقهقر بسلسلة المراكز المحصّنة التي كان ضبط مواقعها يوسطينيانوس وانّ ما ظهر من تطوّر منذ عهد

يوسطينيانوس نحو هيمنة العسكريين على الموظّفين المدنيين انتهى فيما بين سنة 585 و 591 إلى تعيين شخصية قوية ما لبثت أن أمسكت بجميع مقاليد الحكم . وأصبح للدوق تحت سلطتها المرتبة الأولى في المقاطعات على حساب ما للحكّام (Praesides) من وظائف .

ولا شكّ في أنّ جنـــاديوس (Gennadius) قاهر غرمول هو أوّل من تقلّد لمدة ثماني سنوات هذا المنصب غداة قيام الثورات الخطيرة سنة 587 ورغم حزمه هذا فإنّه لم يمنع البربر من التسلّط على قرطاج إلاّ بالحيلة،وفي عهده تفاقم الاستغلال من دون رادع فقد غضّ الطرف عن اعتداءات الأثرياء وتنطّع المتصرّفين وبلغ المستوى الأخلاقي في كلّ مكان حدّه الأدنى ،ولئن كفّ الامبراطور عن اضطهاد اليهود في نوميديا وترك الدوناتوسيّة تهدّد الكاثوليكية من جديد فلم يرالولاة في هذه السياسة سوى فرصة انتهزوها لمساومة الزائغين قصد حمايتهم .

3 ـ الكنيسة والبابوية :

لقد كشفت الكنيسة عن فساد رجالها ومتاجرتهم بالقيم وتنطّعهم وحزازاتهم .

والحال أنّ هذه الكنيسة التي كان يؤمّل هيلاريوس (Hilarius) ممثّل البابا أنّه وفّق بعد عشر سنين من الكفاح إلى توطيد النظام فيها كانت تمثّل وحدها في غمار تلك الفوضى المتفاقمة القوة المنظّمة التي إليها يرجع المؤمنون، ولكنّها كانت من الضعف وشدّة التبعية إلى روما بحيث كان الرجوع إليها يعني في واقع الأمر الالتجاء إلى البابا ، ولم يكن هذا البابا سوى ڤريڤوريوس الأكبر (Grégoire le grand) الذي كان النّاس يشعرون بوطأة تدخّلاته في كامل أنحاء الامبراطورية .

وفي افريقية كانت سلطته تتزايد باستمرار ،ورسائله المؤرّخة بين سنة 591 ـ و596 تدلّ على مدى الحزم الذي واجه به الخطر الدوناتوسي. وقد كان تسامح الامبراطور الذي قد نجد له مبرّرا في التدخّلات السياسية التي كانت الكنيسة الارتدكسية تبادر بها مدعاة إلى فتح أبواب كنائس الزائغين

في كلّ مكان ، وإلى ظهور عدد كبير من الدّاخلين في الكاثوليكية المطالبين بتعميد جديد . وعاد للدوناتوسية من جديد تأثيرها على البؤساء وضحايا سياسة الاستعمار البيزنطي الاجتماعية، وإزاء هذا الوضع أنذر البابا الدولة بوجوب اتّخاذ عقوبات صارمة وانتهى به الأمر إلى توجيه رسالة إلى الامبراطور في هذا المعنى . ولمّا شكا إليه بولس اسقف نوميديا مضايقات الدوناتوسيين أقرّه في منصبه رغم أنف الوالي (l'exarque) وكان يراسل بانتظام أساقفة افريقية ويتقبّل شكاواهم ويزوّدهم بتعليماته وكان يعتبر كنيسة افريقية سليلة لكنيسة رومة مع مطالبتها بالخضوع التام . بل كان لا يقصر عمله على شؤون الدّين فكان يُسدي النّصائح إلى المتصرّفين ، وكان أكثر من ذلك يحلّ محلّهم في إصدار أوامره المباشرة المتعلّقة بالتّصرّف في المقاطعات وشؤون حمايتها ، وإذا كانت هذه المراقبة الدّائمة حافزاً للسلطة فإنّها كثيرا ما ضايقتها وكانت في الجملة عنصرا حاسما من عناصر انهيار افريقية .

هيراكليوس

كانت قرطاج مسرحا للمؤامرة التي دبّرت ضدّ فوكاس (Phocas) الذي جلبت له قسوته وهزائمه احتقار الناس، غير أنّ خليفة جناديوس (Gennadius) الوالي (l'exarque) هراكليوس (Heraclius) الذي كان قائدا للامبراطور موريس المقتول بيد فوكاس بلغ سنّا لم يستطع معها التدخّل بنفسه . فجنّد بفضل ما أغدقه من أموال طائلة فيالق بربرية ورمى مصر بحفيده نيساتاس (Nicetas) الذي استولى على الاسكندرية (608—609) بينما كان ابنه هيراكليوس يدعّم مراكزه بتسالونيك (Thessalonique) تمهيدا للهجوم على القسطنطينية . أمّا فوكاس فقد خانه وزراؤه ووقع في أيدي الجماهير فمثّلوا به وطافوا بأشلائه في المدينة . وفي اليوم نفسه في الخامس من اكتوبر سنة 610 توّج كبير الشيوخ سرجيوس (Héraclius) هيراكليوس امبراطورا .

وهكذا تجود افريقية مرة أخرى على الامبراطورية الحاكمة بأحد رجالاتها البارزين سنة610 وبها استنجدت سنة 619 عندما واجهت أيّامها الحالكة .

وكان الفرس عندئذ يُسيطرون على ارمينية ويحاصرون الاسكندرية مانعين بذلك على أعدائهم تجنيد الرّجال ومدّ القسطنطينية بالميرة، ولم يبق وجه لمعاودة الكرّة من دون اعتماد على افريقية كي تزوّد الخزينة المفلسة وتجيّش الجيوش وتمكّن من استعمال قاعدة بحرية منيعة. وبينما كان الامبراطور متهيّئا للإقلاع نحو قرطاج حدثت بلبلة في الرأي العام بالقسطنطينية اضطرّته إلى العدول عن رأيه .

4 – سلالة بني جدار

يظهر أنّ افريقية التي أوكل هذا الامبراطور أمرها إلى ابن عمّه عرفت في عهده فترة من الهدوء وأنّ المسيحية والسلطة الامبراطورية انسجمتا وسجّلتا بعض التقدّم في الجريد والأوراس والزاب وإن لم تُقم الحجّة على هذا التقدّم فهناك على الأقلّ دليل على تغلغل المسيحية في موريطانيا ببني جدار يتمثّل في ثلاثة عشر ضريحا ترجع إلى القرنين السادس والسابع هرمية الشكل علوّ أحدها 45 مترا تقع بجهة مينا العليا في الجنوب الغربي من تيارت . وقد وصف (La Blanchère) شكل أحد هذه الأضرحة الداخلي بقوله : "عندما يدخل الدّاخل من الدهليز يجد قُبالته ثلاث قاعات مفصول بعضها عن البعض بدهليز طوله بضعة أمتار ويتفرّع من أولى هذه القاعات عن اليمين وعن اليسار دهليزان متشابهان يُفضيان إلى هيكل ثانٍ متركّب بدوره من خمس قاعات تربط بينها دهاليز وتحيط بالهيكل الأوّل الذي يحيط به بدوره هيكل ثالث دهاليز تنطلق من مدخل الضّريح ويشتمل على ثماني قاعات كبيرة وأربع صغيرة كائنة بالأركان ويربط بينها دهاليز». فهذه القبور التي بناها عمَلة بيزنطيون ورومانيون تدلّ بما فيها من علامات على وجود روابط معنويّة على الأقل بين عائلة حاكمة بربرية قوية دينها المسيحية، وبين الامبراطورية .

ولقد افترض الباحثون اعتمادا على اعتبارات مقبولة أنّ ماسوناس (Massonas) الذي ذكره بروكوب ولمّح إلى علاقاته الطيّبة مع سليمان ينتمي إلى هذا البيت وهو نفسه ولا شك الأمير الموري الذي نجده في نقائش التافا (Altava) بتاريخ 508 تحت اسم ماسونا (Massuna)

ويرى ستيفـــان قزال (Stéphane gsell) أنّ هذا الملك الذي كان يسيطر على كامل مقاطعة وهران وحتى على الأوراس كما ذهب إلى ذلك قوتييي (E. F. Gautier) أقرّ عاصمته لا في خربة بنت السارح حيث يلتقي واد توسنينه بالمينا(Tousnina)وحيث بنيت مدينة بربرية عظيمة بل اتّخذ عاصمته في تيارت التي تقع بين التل والسّهول المرتفعة والتي كانت بفضل مواقعها الدّفاعية وحالتها الاقتصادية قلعة حصينة ومركزا تجاريا مرموقا . وكلّ شيء يبعث على الاعتقاد بأنّ جماعات الرومان والبربر "المترومين" الساكنين بالمدن التابعة للإمارات البربرية احتفظت بجانب كبير من الاستقلال .

5 ــ الاضطرابات الناتجة عن القول بالإرادة الواحدة (monothéites)

عرفت المسيحية في افريقية قبيل زحف المسلمين أزمتها الأخيرة بعد أن بالغت في التمسّك بالنصّ إذ استتبعت محنة الفصول الثلاثة بدعة جديدة، ذلك أنّ سرجيوس (Sergius) كبير الأساقفة بالقسطنطينية كان ينكر أن يكون للمسيح طاقة خاصة بكلّ حالة من حالاته الطّبيعية وكان لا يقول إلاّ بإرادة واحدة الاهية وبشرية معا . وقد وجد هذا القول بالإرادة الواحدة الذي رفضه فيما بعد المجمع المسكوني السادس المنعقد بالقسطنطينية (680 ــ 681) من يؤازره في شخص هيراكليوس (Heraclius) الذي صدع علنا بعقيدته رغبة في استمالة الذين يقولون بالحالة الواحدة فأثار لذلك معارضة شديدة في عالم المسيحية (638) .

وكان أشــدّ الخصوم لهذه البدعة مكسيموس (Maximus) كبير رَهَابِنَةِ كريزويوليس (Chrysopolis) وكان مُفَوّهًا شديد العارضة ثَوْرِيَ المِزَاج تزعّم المعارضة في افريقية وجادل في حفل حضره رأس الوُلاَةِ ڤريڤريوس (Grégoire) البطريق بيروس كبير البطارقة سالفا الذي أعلن عن اقتناعه برأي سرجيوس (جويلية 645) إلاّ أنّ اقتناعه كان سطحيا دفعه إليه رغبته في تأييد ڤريڤريوس فزال بزوال الوالي ،ورغم ذلك فقد ترك أبعد الأثر في المسيحيّين الأفارقة وأخذ تأثير مكسيموس يتزايد وانعقدت مجامع في قرطاج ووجّهت رسائل إلى البابا والامبراطور وكبير

الأساقفة تندّد تنديدا شديد اللّهجة بآراء سرجيوس وكانت أسقفية افريقية تكره أنصاف الحلول فلم تتردّد في الدّعوة إلى سقوط الامبراطور .

وتعكّر الحال بسبب نزوح الرهابنة الذين يقولون بالحالة الواحدة إلى افريقية بعد أن طردهم العرب من مصر، فلقد بهروا الناس بتحمّسهم الذي غذّته الاضطهادات وحبّ الاستشهاد خاصّة وأنّ قسطنطين الثالث ابن هيراكليوس ترك لهم كامل الحرية في القيام بشعائر نحلتهم . فدخل النّاس أفواجا في دينهم ممّا أثار نقمة "السنّيين" وأبعدهم شيئا فشيئا عن الأمبراطور، ولمّا اعتلى قسطانس الثاني (Constant) العرش سنة 645 وكان متّهما بالقول بالإرادة الواحدة لم يجد القس مكسيموس صعوبة في دفع أغلبية الأهالي والقبائل البربرية إلى الثورة ضدّ الامبراطور لفائدة ڤريڤريوس خاصّة وأنّها كانت على استعداد دائم لمناهضة السلطة المركزية .

وبينما كان الأفارقة يطلقون العنان لخلافاتهم وحقدهم الغريزي على الحاكم كان العرب يستعدّون للإغارة على "المغرب البعيد الكافر" .

الخـــلاصـــة

بقـايـا حضـارة رومـــة

لقد انتصر الإسلام انتصارا نهائيا باستيلائـه على قرطاج سنـــة 698 وعلى ما تبقّى من مُمتَلَكات بيزنطة في السنوات التي تَلَتهَا ، وبقيت بذلك بلاد البربر طيلة قرون مشدودة إلى المشرق بروابط تتفاوت متانة كما كان شأنُها في الفترة البونيقية .

ولئن لم يستغرق الفتح العربي أكثر من نصف قرن إذا نظرنا إليه من الوجهة السياسية ، فإنّ تراث رومة لم يتلاش بهذه السرعة مهما نالت منه صروف الدّهر قبل دخول المسلمين ، ومن الواجب أن لا نعتبر بلاد البربر مثل آلهة الهنود التي ما إن يطرأ عليها طارىء حتى تُمسخ مَسخا ، كما يجب كذلك أن لا نهمل خطورة التحوّل الحاسم .

وممّا لا شكّ فيه أنّ الوثائق في هذا الباب قاحلة إذ أنّ المنتصرين لم يذكروا إلاّ مدى ما كسبوه من انتصارات،وأنّ المهزومين لم يُفسحوا المجال للندم العقيم لو فرضنا أنّهم شعُروا به يوما ما . أمّا النّصوص سواء العربية منها أو اللاّطينية فإنّها لا تتضمّن في مُعْظَمِهَا إلاّ تلميحات عرضية لا يُضيء نُورها الباهر الظّلال الكثيفة إلاّ لَحَظَات قليلة . والوثائق الأثرية معدومة تماما . ومن البديهي أنّ البَنّائين البرابرة لم ينسَوْا بين عشية وضُحاها طرق البناء التي لقّنها إيّاهم الرومان والبيزنطيون وليست نسبة بعض المباني التي لم ينص أيّ خبر على تاريخها إلى الحكم البيزنطي أو الحكم الذي تلاه إلاّ من باب الاستناد إلى أدلّة مطعون فيها لكن من الذي يستطيع الجزم بأنّها بنيت بعد القرن السابع ؟ وفي آخر الأمر فإنّه لم يبق إلاّ بعض نقائش القبور للتعبير عن احتجاج الأموات الصامت رغم ما تتعرّض له من تهمة الإخلال بالأمانة .

ومهما يكن فإنّ هذه الحصيلة المتواضعة كافية للدلالة على أنّ تلاشي تأثير الرومان في افريقية تطلّب قرونا طويلة .

وكلمة رومي نفسها وجمعها نصارى تدل إلى اليوم على الأوروبي لكن معناها بقي لمدّة طويلة أكثر ضبطا ودقّة . ولقد كان اليعقوبي الرّحالة العربي الذي وصف لنا حالة بلاد البربر في النصف الثاني من القرن التاسع يميّز إلى جانب البرابرة بين الأهالي الرومان سلالة رعايا الامبراطورية البيزنطية السابقين، والأهالي الأفارقة سلالة أصيلي البلاد «المترومين»، أمّا البكري فإنّه لم يجد حاجة في أواخر القرن الحادي عشر إلى التمييز بين الأهالي نفس التمييز ممّا قد يذهب بنا إلى الاعتقاد بأنّ انصهار جميع عناصر السكّان قد تمّ إلى حدّ كبير على الأقل بعد ثلاثة أو أربعة قرون من الفتح .

وبطبيعة الحال يتساءل المرء عن الخصائص التي ضمنت لهذه العناصر المتباينة شخصيتها الذاتيّة، وفعلا ليس الاعتماد على أصل هذه العناصر هو الذي يحمل على التمييز بينها ، ولا كذلك الاعتبارات القانونية . وإذا احتفظ القوم ببعض تقاليد العصور الغابرة في معاشهم فإنّنا نجهلها ، وبعبارة أخرى فإنّنا لا نظفر ببقايا الحضارة الرومانية إلاّ من خلال مقوّمين رئيسيين ومتّحدين من دون شك وهما اللغة والدين .

فلقد بقي القوم حتى أواخر القرن الأول الهجري يضربون السكّة باللغة اللاّطينية . ونقائش نجيلة في طرابلس المؤرّخة من 945 إلى 1003 ونقائش القيروان أواسط القرن الحادي عشر تشهد أنّ القوم كانوا قادرين إلى ذلك الوقت ـ على الكتابة على القبور باللّغة اللاّطينية المسكينة كما أنّ الموتى المذكورين كانوا يحملون إلى ذلك التاريخ أسماء لاطينية .

وركون إدارة البابا في رومة إلى مراسلة رجال الدين بافريقية بحروف لاطينية طيلة القرن الحادي عشر إذ يرجع تاريخ آخر رسالة إلى سنة 1076 يدلّ ضمنيا كما أصاب في ملاحظة ذلك وليام مرسي ، على أنّ المرْسَل إليهم كانوا يحذقون تلك اللّغة . وكذلك روى لنا الإدريسي أنّ سكّان قفصة بقوا حتى أواسط القرن الثاني عشر يتكلّمون اللاّطينية . ولقد بقي إلى يومنا هذا عدد من الكلمات لاطينية الجذور مستعملة في اللغة العربية وفي اللّهجات البربرية .

وكذلك الأمر بالنسبة للمسيحية التي لم تنطفىء إلاّ بعد خمسة أو ستة قرون . وليس من شك في أنّ جلّ البرابرة أسلموا ابتداء من أواسط القرن الثامن بعد أن تردّدت بعض القبائل وارتدّت اثنتي عشرة مرة ، كما شهد بذلك ابن خلدون، وعبّرت بعد ذلك عن نزوعها المستمرّ إلى الخروج وفي تلك الفترة كانت بافريقية مئات عديدة من الأسقفيات بينما لم يبق في أوائل القرن الثامن إلاّ ما يقارب الأربعين غير أنّ وجود الجماعات المسيحية بقيت الأدلّة عليه حتى عهد الموحدين .

وإن كنّا لا نعرف تاريخ هذه الجماعات المسيحية معرفة كاملة فإنّه بالإمكان ضبط بعض خصائصها على الأقل ضبطا تاما وأوّلها تشتّت هذه الجماعات إذ نحن نجدها في جميع المدن الإسلامية الكبيرة كفاس وتلمسان وتاهرت وقلعة بني حمّاد وبجاية وتونس والقيروان والمهديّة . وثانيها انحلالها المستمرّ ممّا قد تشير إليه الإحصاءات وتُثبته الوثائق ، فنحن نجد جماعات بدون أسقف ولا نحصي في كامل افريقية سوى خمسة أساقفة في عهد ليون التاسع في أواسط القرن الحادي عشر واثنين فقط بعد ذلك بعشرين سنة في عهد البابا ڤريڤريوس السابع،ثم إنّ من بينها أسقفا حديث عهد بمنصبه هو سرفاندوس الذي سمّاه البابا في مركز بجاية بطلب الناصر أحد ملوك بني حمّاد (سنة 1076) .

ورغم ضآلة عدد هذه الجماعات فإنّها لم تتخلّص من خصوماتها الداخلية، ففي أواخر القرن التاسع مزّق شملها خلاف ديني مجهول المحتوى وفي سنة 1053 أي في عهد البابا ليون التاسع نازع أسقف ڤمي«المهدية» رئاسة زميله في قرطاج . وأخيرا قدح النصارى في نفوذ سيرياكوس أسقف قرطاج لدى الحاكم المحلّي سنة 1073 وقد جلد عندما حاول تبرير موقفه . وما من شك في أنّهم كانوا يرومون اضطرار سيرياكوس إلى تعيين أسقف بتونس رغم القواعد الشرعية الكنسية . وإذا كان في هذه الحوادث ما يشفي غليل المؤرّخ إذ لولاها لما علمنا شيئا عمّا تبقّى من جماعات مسيحية بافريقية فإنّها على كلّ حال مظهر مؤسف لِمَا انتهت إليه من انحطاط .

وفعلا فإنّ ساعتهـا الأخيرة لم تلبث أن دقّت ، ذلك أنّ الإسلام كان متسامحا بقدر ما كانت خزينته في حاجة إلى مثل هذه الحرية . وما كان تدخّل سكّان بيز (Pise) وملوك صقلّية في بلاد البربر إلاّ مدعاة لإثارة التعصّب الدفين وكذلك فتوحات الموحّدين فإنّها سارعت بتذكير المغاربة بمتطلّبات العقيدة ووجد النصارى الباقون في عهد عبد المؤمن بن علي أنفسهم أمام أمرين : الإسلام أو الموت .

وهكذا بقي تأثير الحضارة الرومانية عميقا في عالم البربر حتى أواسط القرن الثاني عشر . وما من شك في أنّ سرعة زوال هذه الحضارة كانت تزداد بمرور الزمن على نحو ما يصيب نقائش القبور بالكنائس عندما تطؤها أقدام الجماهير . إلاّ أنّ هذه الحضارة تركت حولها كذلك هالة ظلّت واضحة دهرا طويلا فلمّا انطفأ نورها تماما أبْقَت على شبح يوحي بالعظمة ويخلق الأساطير .

المراجع

ان البيبليوغرافيا العامة النقدية الموجودة فى النص الفرنسى غنية كاملة الى تاريخ صدور الطبعة الثانية التى اعتمدناها اى سنة 1951 ، وقد آثرنا فى هذه النسخة المعربة الاقتصار على عدد من المؤلفات الجامعة التى عمد المؤلف الى تزكيتها بصورة أو باخرى تاركين لمن يريد مزيدا من التفصيل الرجوع الى النسخة الفرنسية إذ يجد فيها علاوة على المصادر القديمة كآثار القديس اغسطينوس والقديس قبريانوس وابوليوس وغيرهم ، البحوث المختصة والمقالات العلمية والمفردات :

ــ ج. ديبوا ، افريقيا الشمالية ، 1949 .

ــ أ. ف. ڤوتيه ، ماضى افريقيا الشمالية ، 1937 .

ــ س. ڤزال ، التاريخ القديم لافريقيا الشمالية ، 1913 .

ــ ج. كركوبينو ، الجمهورية الرومانية ، المجلة التاريخية ، 1936 .

ــ ر. كانيا ، الجيش الرومانى الافريقى والاحتلال العسكرى لافريقية على عهد الاباطرة ، الطبعة الثانية ، 1912 .

ــ ر. كانيا ، قرطاج ، تيمقاد ، تبسة ، 1909 .

ــ ب. ج. مسناج ، التاثير الرومانى بافريقية ، 1913 .

ــ ب. مونصو ، الافارقة ، دراسة حول الادب اللاطينى بافريقية ، الوثنيون 1894 .

ــ ج. توتان ، الطقوس الوثنية فى الامبراطورية الرومانية ، 1905 ــ 1917 .

ــ ش. سوماني ، ازمة النفوذ بافريقية فى اوائل القرن الرابع ميلادى ، المجلة التونسية ، 1921 .

ــ ج. ڤاجى ، مظاهر جديدة لافريقية المسيحية ، 1937 .

ــ أ. ف. ڤوتيه ، جنسريق ملك الوندال ، 1935 .

ــ ش. ديال ، افريقية البيزنطية تاريخ الهيمنة البيزنطية ، بافريقية ، 1896 .

ــ ش. كرتوا ، من رومة الى الاسلام ، المجلة الافريقية ، 1942 .

فهرست
الاعلام والاماكن

لن يجد القارىء في هذا الفهرست ذكرا للاسماء التى تـرد فى كل صفحة من الكتاب مثل : افريقية ، البلاد التونسية ، الجزائر ، المغرب الاقصى ، رومة الخ ... ولا الاسماء التى ليس من ورائهـا فائـدة تاريخية . كذلك تسهيلا للبحث عن الكلمات آثرنا حذف اداة التعريف « الـ » .



فهـــرســت الكتـــاب

تم طبع هذا الكتاب
بمطبعة شركة فنون الرسم والنشر والصحافة
تونس ، فيفري 1983

سحب من هذا الكتاب 5.000 نسخة في طبعته الرابعة

محمد مزالي

- ولد محمد مزالي بالمنستير في 23 سبتمبر 1925
- زاول تعلمه الثانوي بالمدرسة الصادقية .
- تابع تعلمه العالي بكلية الاداب بباريس حيث تحصل على الاجازة في الفلسفة ودبلوم الدراسات العالية في الآداب .
- تحمل مسؤوليات في الحكومة والحزب الاشتراكي الدستوري منذ الاستقلال وهو حاليا وزير أول بالجمهورية التونسية .
- أسس مجلة **الفكر** سنة 1955
- رئيس اتحاد الشباب التونسي
- نائب رئيس اللجنة الاولمبية العالمية .
- انتخب سنة 1979 رئيسا لهيئة العاب البحر الابيض المتوسط .

صدر له :

- الديمقراطية 1955
- تاريخ افريقيا الشمالية جزان لشارل أندري جوليان ترجمه بمعية الاستاذ البشير بن سلامة . صدر الجزء الاول سنة 1968 و الجزء الثاني سنة 1978
- من وحي الفكر 1969
- المعمرون الفرنسيون وحركة الشباب التونسي لشارل أندري جوليان ترجمه بمعية الاستاذ البشير بن سلامة ـ1971 .
- مواقف :1973
- دراسات :1974
- وجهات نظر :1975 .

البشير بن سلامة

- ولد البشير بن سلامة في 14 اكتوبر 1931 بباردو
- زاول تعلمه بالمدرسة الصادقية ثم بدار المعلمين العليا
- استاذ في اللغة والاداب العربية .
- رئيس تحرير مجلة الفكر التونسية .
- وزير الشؤون الثقافية بالجمهورية التونسية .

صدر له :

- اللغة العربية ومشاكل الكتابة 1971
- الشخصية التونسية : مقوماتها وخصائصها 1974
- النظرية التاريخية في الكفاح التحريري التونسي 1977 .
- قضايا 1977 .
- تاريخ افريقيا الشمالية جزان لشارل أندري جوليان ترجم بمعية الاستاذ محمد مزالي ج 1 ـ1968 ج2 ـ1978
- المعمرون الفرنسيون وحركة الشباب التونسي لشارل أندري جوليان ترجمه بمعية الاستاذ محمد مزالي صدر سنة 1971
- « عائشة » رواية 1982 .

الثمن : 4.000 د . ت

تخفيض خاص للقراء بتونس 10 ٪ من سعر الغلاف .

شارل - أندري جوليان

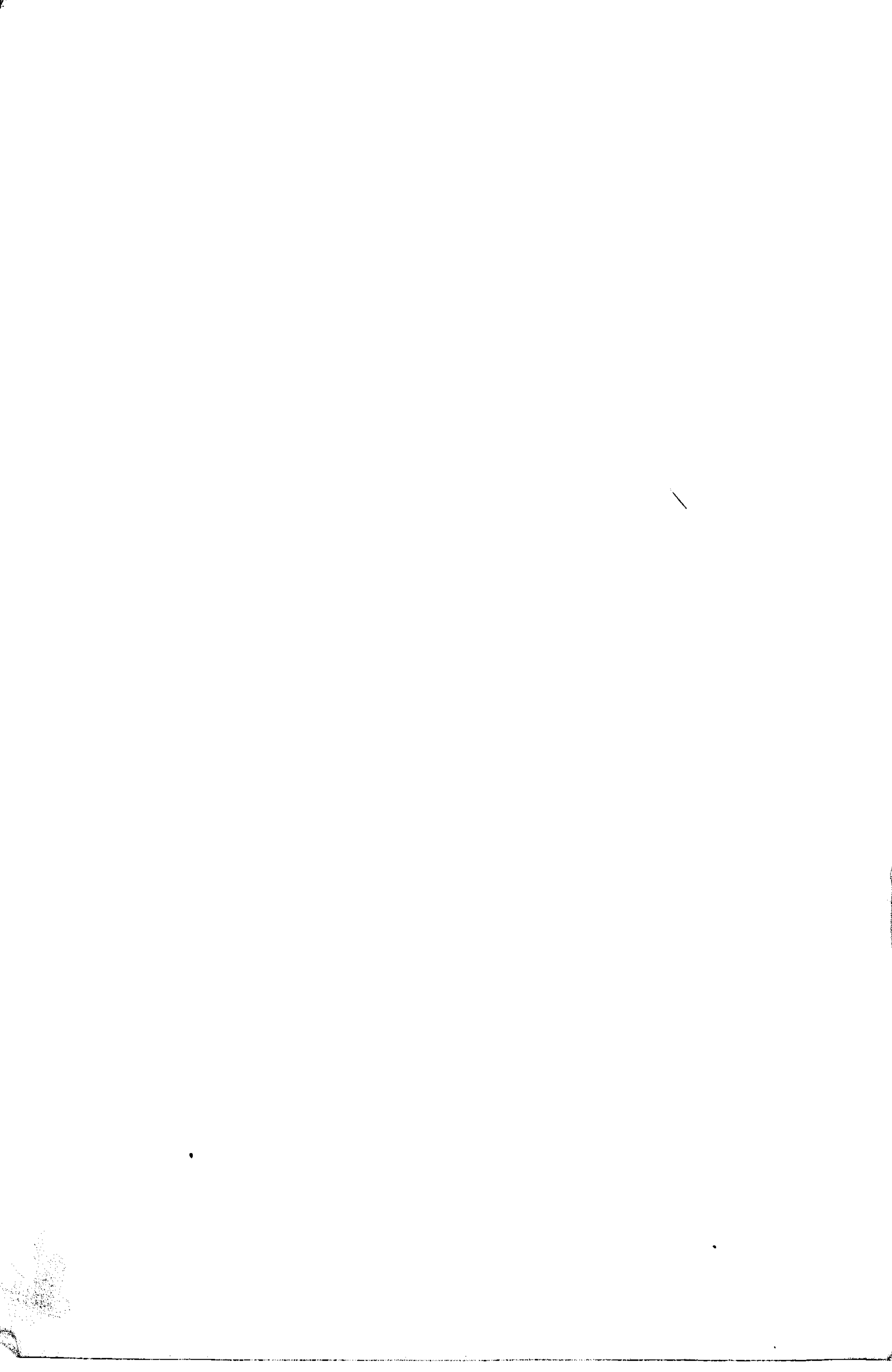
2

تاريخ افريقيا الشمالية

تونس - الجزائر - المغرب الأقصى
من الفتح الإسلامي إلى سنة 1830 م

تعريب:
محمد مزالي
البشير بن سلامة

الدار التونسية للنشر







تاريخ إفريقيا الشمالية

تونس - الجزائر - المغرب الأقصى
من الفتح الإسلامي إلى سنة 830 1م



شارل اندري جوليان



تونس - الجزائر - المغرب الأقصى
من الفتح الإسلامي إلى سنة 1830م

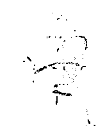


الجزء الثاني

النشرة الثانية

تعريب

محمد مزالي
البشير بن سلامة



الدار التونسية للنشر

تمّ تعريب هذا الكتاب عن الطبعة الثانية
التي نقّحها وزاد عليها «روجي لوتورنو»



مدخل

اندمجت إفريقيا الشمالية في الشرق باعتناقها الإسلام بعد أن تفانت في الدفاع عن ذاتيتها لا عن طريق الثورات فقط بل بالركون إلى الرّدة كلّما انهزم الفاتح والالتجاء إلى البدعة وانتحال النحل ذات المنحى القومي. ولم ترسخ العقيدة الاسلامية التي بدأت تنتشر منذ أواخر القرن السابع الاّ بعد انتصار الموحّدين في القرن الثاني عشر. ولم يتخذ الجهاد من أجلها الصبغة الشعبية في المغرب الأقصى إلاّ عند صدّه للغزوات المسيحية ومن ذلك الوقت أصبح من المستحيل التمييز بين الإسلام والمغرب. ولا يزال الأمر كذلك إلى اليوم بحيث يتعذر فهم المشاكل الاجتماعية والسياسية والقومية جميعها من دون اعتبار للبعد الاسلامي فيها.

ومن هُنا تبرز اهمية هذه الفترة الطويلة من تاريخ إفريقيا الشمالية التي بقيت معزولة بعيدة عن المؤثرات الأوربية فشهدت دولا تشاد ثمّ تنهار من دون أن تظفر بوحدة دائمة. وكان للابحاث التي قام بها منذ عشرين سنة خاصة الأستاذ (M.R. Brunschvig) و (A. Cateau) و (J. Ceillié) و (Emérit) و (Lévy Provençal) و (R. Le Tourneau) و (G. Marçais) و (Penz) و (R. Ricard) و (H.Terrasse) تأثير عميق في بعض الأحيان على معلوماتنا السابقة. فإذا لم يشمل الدراسات المتعلقة بالخوارج والفاطميين من التغيير الاّ القليل ولم تقتض الفصول المخصّصة للمرابطين والموحدين والسعديين والعلويين والأتراك إلاّ إصلاحا بسيطًا فإنّ كل ما يتّصل بالأدارسة والحفصيين والمرينيين وجبت مراجعته مراجعة عميقة أو كاملة. أمّا الخاتمة فقد أعيدت تماما. فكان لابدّ للقيام بمثل هذا

العمل على أحسن وجه من مؤرخ ملمّ بماضي بلاد البربر لا يمتاز بثقافته فحسب بل ببحوثه الشخصيّة .

ولقد تفضل المؤرخ المستعرب السيد لوترنو (M. Letourneau) الاستاذ بكلية الآداب فكرّس خصاله للقيام بمراجعة هذا الكتاب وهو عمل صعب لايبرز فضله للعيان (بسهولة) الأمر الذي يفرض علي أن أقدم اليه الشكر الجزيل .

وإن أطروحته حول فاس قبل الحماية التي تشهد بمعرفة مباشرة وعميقة للمجتمع الإسلامي ، تشمل تاريخ المغرب الأقصى الإسلامي كله . وكذلك كتابه الجديد : الإسلام الحديث (l'Islam contemporain) الذي ينبيء عن سعة معارفه وعن مدى اهتمامه بالحاضر والماضي . وسيتسنى للقراء ، بفضل البيبليوغرافيا الثرية النقدية الموجودة في آخر المؤلف ، أن يتعمقوا في درس المسائل أو أن يواصلوا بحوثهم الشخصية .

وفي هذه الفترة التي تفرض فيها نهضة القوميات الإسلامية معرفة ماضي المغرب فإن كتاب تاريخ إفريقيا الشمالية من الفتح العربي إلى سنة 1830 الذي راجعه السيد لوترنو بحذق سيتيح للقارىء أن يكون ملمّا بآخر ما وصل اليه علم التاريخ .

شارل أندري جوليان

مقدمة

افريقيا الشمالية ابان الفتح العربي (1)

عندما استرجع البيزنطيون في خريف سنة 533م . المقاطعات التي سبق أن كانت رومانية وأطردوا منها الوندال بدوا كأنهم سيعيدون التقاليد الأمبراطورية إلى سالف عهدها وهي التي أبطلها طيلة ما يقارب القرن جنسريق وخلفاؤه . وفي الحقيقة فإن إفريقية البيزنطيّة لم تكن تشبه في شيء إفريقية الرومانية — ولعل هذا يفسّر ضآلة ما قام به البيزنطيون عندما أقبل الغزاة المسلمون .

وكانت البلاد التي احتلّها البيزنطيون أقل مساحة بكثير ممّا كانت عليه من قبل : ذلك أن موريطانيا الطنجية انحصرت في سبتة وموريطانيا القيصريّة اقتصرت على شرشال (قيصاريّة) . أمّا موريطانيا السطيفية فقد اقتُطع منها الجزء الغربي ، كما أن طرابلس فقدت الجزء الجنوبي منها — ولم تبق على حالها إلاّ نوميديا والبروقنصليّة والمزاق ، ذلك أن البلدان التي تركت وشأنها ظلّت تزورّ شيئًا فشيئًا عن الحضارة الرومانية وترجع تدريجيا إلى سالف عاداتها البربرية — وإذا كان الأمر هيّنا بالنسبة للأرياف حيث لم يتوغّل الرومان ، فإن البربر « المتروْمنين » في المدن والقرى كانوا يتباعدون في أسف عن أسلوب في الحياة طالما

(1) راجع جوليان وكرتوا ، تاريخ افريقيا الشمالية من بدء التاريخ الى الفتح العربى .

أحبّته نفوسهم . وعلى كل فإن البربر سواء كانوا حضرا أو قرويين استرجعوا ما فطروا عليه من تعلق بالاستقلال السياسي . وكانت هذه الحاجة الى التحرّر السياسي ظاهرة بوضوح حتى في البلاد الخاضعة لبيزنطة : من ذلك أن مجموعات بربرية عظيمة كانت تظهر وكأنها مستقلة عن والي قرطاج . زد على ذلك أن البيزنطيين أنفسهم لم يأتوا الى إفريقية مدّعمين كما كان الشأن بالنسبة للرومان .

فلقد جاؤوا بخصوماتهم الدينية المتشعبة والعنيفة التي زادها فتح العرب لمصر حدّة . ذلك أنّه من بين من التجأ إلى إفريقية كان يوجد القائلون بمبدإ الطبيعة الواحدة (Les monophysistes) . كما جرّهم تسامحهم في الدين إلى إثارة الطوائف المسيحية وزرع بذور الفتنة بينها .

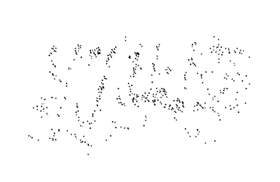
وأخيرًا فإن موظفي بيزنطة لم يظهروا دائمًا في مظهر الخادم المطيع للسلطة المركزية : إذ كانوا يناقشون الأوامر قبل تطبيقها وأحيانًا لاينفذونها – وممّا زاد في تفاقم هذه الحالة موت هرقل وتولّى الحكم قسطن II (Constant) (سنة 641) ولم يتخطّ سن المراهقة في ذلك الوقت – وفي سنّة 646 شق عصا الطاعة الشيخ « جرجير » والي بيزنطة بإفريقية ونصّب نفسه إمبراطورا .

تلك هي حالة إفريقية قبيل الفتح الإسلامي ، بلاد يعوزها التماسك ، تتباعد عن مدنية محتضرة ، وتستعيض تدريجيا عن المؤسسات الرومانية بالتقاليد العريقة ، وتتمرّد على رؤسائها البيزنطيين الذين كان ولاؤهم أيضًا لوطنهم الأم في فتور متزايد .

الباب الأول

الفتح العربي وممالك الخوارج

1 - الفتح العربي
2 - المقاومة البربرية
3 - ممالك الخوارج



I) الفتــح العــربى

تاريـخ خرافي : إن اتحاد الإسلام مع إفريقيا الشمالية بلـغ حدا من المتـانـة أصبحنا معه ننسى بسهولة مدى ما خاضه المشرق الإسلامي من معارك للتمـكن من بسط نفوذه على المغرب البربـري .

وبدهي أن الذي يبهـرنا هو ما أسفر عنه الفـتح العربي واعتناق الأهالي الدين الإسلامي من نتائـج بـارزة عظيمـة الخطـر . فـالذي حـدث كما أكد قوتيي (E. F. Gautier) « ثورة عـارمة إذ تخطت البلاد ذلك الحـاجز الفاصل بين الغرب والشرق والذي صعب اجتيازه في بلدان أخرى . إنّها قفـزة فـي المجهـول نجـد الثورتيـن الفـرنسية والروسية بالنسبـة إليهـا متـواضعتيـن جـدا »

ولـم يقـم المغرب بهـذه القفزة في المجهـول عن طيبـة خاطر بـل نحـن نعلـم أنّه قاوم مقاومة طويلـة جامحـة . وقد يـكون من المجازفـة أن نظفـر بأكـثر من هذا اليقين . فليس لدينـا وثائـق ولا رحلات كـتبهـا أجانب ولا أخبار أوروبية . وإذ قلـت النقائش وشحت النقود وانعدمت النصوص الثابتـة وجب علينـا اللجوء إلى إخباريين عرب عاشوا بعد الأحداث التي تعنينا بأمد طويل .

قال ويليام مرسي وهو أقدر النّاس على تقييم النصوص : « إن أقرب الأشياء إلى الواقع في ظني استنادا إلى مـا وصلت إليه معلوماتنا الحالية في هذا الصدد هو ان المعطيات القليلة المتعلقة بهـذه الفترة البطوليـة الأسطورية مستقـاة من روايات أربـع : روايـة مشرقيـة يتزعمهـا الواقدي الذي عاش بالمـدينـة وبغداد في نهـاية القرن الثامن ، ورواية إسبانيـة يمثلهـا أحد أحفاد الفاتـح

موسى بن نصير الذي عاش بالأندلس في أواخر القرن الثامن ، ورواية إفريقية منسوبة إلى أحد أحفاد فاتح آخر وهو أبو المهاجر وقد عاش بالقيروان في نفس الفترة ، وأخيرا رواية مصرية لابن عبد الحكم المتوفى بالقاهرة سنة 871 وهي الرواية الوحيدة الكاملة التي وصلتنا مباشرة .

لقد دون ابن عبد الحكم في أواسط القرن التاسع ما نقله في مصر من روايات ترجع إلى القرن الثامن . وكلمة رواية لا نلقيها هُنا على عواهنها لأن المصادر كانت تذكر على الطريقة التي كان ينقل بها الرواة أحاديث الرسول محمّد . فالمؤلف يذكر سلسلة الأخبار التي أمكن له جمعها ويسندها إلى أصحابها واحدا عن واحد إلى أن يصل الى آخر حلقة أي إلى الرجل الذي شهد أو كان في وسعه أن يشهد الأحداث المعنية بالأمر . ثمّ إن الرغبة في تدوين الفقه وضبطه كانت واضحة . ذلك أن التاريخ لا يهم في حد ذاته بقدر ما تهم الحجج التي يمكن أن يستنبطها المذهب الذي كان ينتسب إليه ابن عبد الحكم . فمن الواجب إذن معرفة هذه النظرة التي لا تخلو من تشويه للواقع لندرك مدى الحيطة التي يجب اتخاذها عند الاعتماد على آثار هذه الرواية . وإذا كان في الإمكان أن نستنبط منها معلومات ثمينة جدًّا فإنه لا يمكن اعتبارها تأليفا تاريخيا بأتم معنى الكلمة ولا حتى مجرد أخبار .

غير أن الإخباريين العديدين الذين عاشوا في القرن الحادي عشر إلى القرن الخامس عشر ، زودونا بجملة من التفاصيل أوفى من دون أن يذكروا مصادر هامة غير التي أوردناها من قبل . فكأنهم اعتمدوا في تأليفهم نزرا قليلا من الأخبار من الواجب استعمالها بنفس الحذر الذي أحطنا به أخبار ابن عبد الحكم . وابنُ خلدون هو الوحيد الذي لايكتفي بحرية كبيرة في الحكم ولايتقيد بالروح النقدية فحسب ... بل يتجاوز ذلك إلى ضرورة الفهم والتفسير . غير أن ما نقله عن الفتح جاء للأسف متأخرًا عن الأحداث بسبعة قرون ومن المستحيل لمّ شتات المصادر التي اعتمدها . والذي يبعث فينا الحيرة كذلك عندما نعتمد ابن خلدون والمؤرخين الذين عاشوا بين القرن الحادي عشر والقرن الخامس عشر مثل المالكي وابن الأثير وابن عذاري والنويري هو غزارة في التفاصيل

تتناقض مع الاقتضاب الذي يلاحظ في روايات الإخباريين الذين عاشوا بين القرن الثامن والقرن التاسع مثل ابن عبد الحكم والبلاذري.

ولقد قال وليام مرسي (William Marçais) منبهـا إلى هذه المتناقضات : « إن أبطـال المأساة عند الإخباريين الأوّل لهـم ملامح أكثر وضوحا ، وأدوار أشدّ تحديدا ، ووقفـة أغزر حيوية وأبعد إثارة . وهذه المزايـا يمكن أن نعزوها إلى تطور في البراعة الأدبية أكثر من أن نعزوها إلى استغلال موفق لوثائق ذات قيمة حديثة » . ومعنى هذا أننّا مضطرون في آخر الأمر الى استمداد معلوماتنا لدراسة الاحتلال العربي من حياة أشخاص هي إلى القصّة أقرب منهـا إلى التاريـخ .

فهـل يجب أن نتخلى مـن أجل ذلك عـن طلـب الدقـة العـلميـة ؟ قد يميـل الباحث إلى ذلك — أم من واجبنـا أن نحرص كما فعل قوتيـي (Gautier) على إدخـال شيء مـن النظـام في فوضى الحـروب والثورات وسقـوط الممـالك وذلك بالسعي إلى « تفسير » الأخبـار التي رواهـا العرب و « تنسيقهـا ».وهـذه الطريقـة وإن لـم تكن هي المثلى فهـي على الأقـل موئلنـا الوحيد الا أنها تحمل عنصرا ذاتيا أخطاره لا يمكن أن يخفيها النجاح البـاهـر الذي عرفـه كتاب « قرون المغرب المظـلمـة » . ذلك أننّا إذا نسجنا بيوت العنكبوت ولو بخيوط من الحرير لمّاعة ولم نحصل على نسيـج متين فإن الذنب ليس ذنب الناسج .

كذلك يمكن لنـا على غرار ما قام به جورج مرسي (Georges Marçais) أخيرًا ، أن ندرس بصبر النصوص ونستخرج منهـا ما يمكن لنا استخراجه من الحقائـق التي لا يستهان بها ومن نقط الاستفهام العديدة من دون أن يغيب عن أذهاننـا وجوب وضع كل هذا في سياقه التاريخـي ، أي في التاريـخ العام لحوض البحر المتوسط ذلك أن المغرب مهما كان منعزلا في ظرف كانت فيه المواصلات بطيئة غير مضمونة فهـو جزء لايتجزأ من حوض البحر المتوسط يساهـم إن قليـلا أو كثيرًا في حياة هذه المجموعة الممتدة من مضيـق جبل طارق إلى الشرق الأوسط وقد كانت إفريقيا الشمالية مشدودة إليه زمان قرطاج ، وسيزداد اتصالها به متانة بفضـل الفتح الاسلامي والغزوات العربيـة وحياة بعض الأبطـال المليئة بالمغامـرات أمثـال إدريس وابن رستم وابن تومرت وأخيرًا الزحفـة التركيـة في القـرن السادس عشر .

المغرب المفرق : لمّا أشرف العرب على إفريقية البيزنطية لم يجدوا منذ أن عبروا مضيق السويس (سنة 640) من يصدهم عن ذلك بصفة جدية . ولقد كان أقل من أربعة آلاف رجل كافيا في معركة واحدة للانتهاء من أمر مصر حيث استقبل الأقباط المضطهدون الزاحفين بحماس . وسقطت منذ خريف 642 برقة وهي أهم مدينة في خماسي المدن (Pentapole) ثمّ بلاد القريني (Cyrénaïque) كلها . ومن هنالك أخذوا يوالون الغارات تارة على جنوب البلاد حتى بلغوا الفزان (زويلة) وطورا على غربه حتى انتهوا إلى طرابلس التي أخذوها عنوة سنة 643 .

ولم يصطدم الفاتحون عند هذا الحد بالقبائل البربرية وكان تخاذل أكسرخس (Exarque) يشجعهم على مواصلة زحفهم الا أنهم اقتصروا على احتلال بلاد القريني نهائيا ولم يتجاوزوا جبال نفوسة . وقيل إن قائدهم عمرو وقد هزته نشوة انتصاراته رغب في القيام بحملة إلى إفريقية أي تونس الا أن الخليفة عمر عارضه في ذلك . والرسالة الشديدة اللهجة التي نسبها ابن عبد الحكم إلى الخليفة تدل على الأقل اذا كانت منتحلة على ما كان يشعر به العرب في القرن التاسع من احترازات ازاء الغزوات الإفريقية المليئة بالأخطار . قال عمر لعمرو عندما اقترح عليه الزحف على إفريقية « لا إنها ليست بإفريقيا ولكنّها المفرّقة غادرة مغدور بها لا يغزوها أحد ما بقيت » وزاد ابن عبد الحكم الراوية الثقة على ذلك بقوله : «لا أوجّه إليها أحدا ما مقلت عينيّ الماء» .

وهكذا فإن التحذيرين المنسوبين إلى الخليفة عمر لا يتركان مجالا للشّك في رأيه.

غزوة ابن سعد : وضع عثمان خليفة عمر حدا لهذا التردد سنة 644 وأمر أخاه من الرضاع عبد الله بن سعد والي مصر بالدخول في المغامرة . ولرّبما قام ابن سعد بمحاولة أولى سنة 645 أو سنة 646 غير أن النّجاح كان حليفه سنة 647 في غزوته الكبيرة التي زخرفها كُتّاب التاريخ العرب بأحداث عجيبة أو خرافية .

وكان الشيخ جرجير قد تحالف مع القبائل البربرية تفاديا لكل غزو واتخذ من سبيطلة المركز المحصن قاعدة استراتيجية له من دون أن يجعلها عاصمة . وكان ابن سعد قد حل أول الأمر بالموقع

الذي ستُبنى فيـه القيروان ثمّ تحـول إلى الجنـوب الغربـي وبعد أيـام قليلة قضـاها في الملاحظـة هجم على الجيش البيزنطي في سهـل سبيطلـة فمحقه . وهلك جرجير في المعركـة وقد يـكون ذلك بيد عبد الله بن الزبيـر نفسه الذي نسبت إليـه الأسطـورة . ومـن الخصال ما يدعو إلى الشك . كـذلك لا يُـعتد بما نسب إلى يمينـة ابنـة الشيـخ من مغامرات هي من قبيل الخرافـة .

وقد وصف المؤرخون العرب من دون فرط تحرّ هذه الفتاة الجميلة وهي ممتطيـة جوادا تقيهـا حرّ الشمس مظلـة من ريش الطـاووس أو بارزة للناس من أعلى بـرج وهي سافرة .

غير أن هذه المرأة التي كـان في الحسبان أن تـكون من نصيب المنتصر على ابن سعد فاز بهـا أحد الأنصار ولم تفلـت من الرّق الا عندما ارتمـت من فوق الجمـل فدق عنقهـا . وهذه القصّة المؤسفـة المنتحلـة تمـاما تعبـر تعبيرا مؤثرا كمـا لاحظ ذلك قوتيي عن مدى الفزع الذي عرفته ولا شك اليونانيات الارستقراطيات عندما وقعـن في أيدي البدو الغليظـة .

وكـان الطمـع في الغنيمـة هو الذي دفـع العرب إلى القيام بهـذه الغـزوة . وقـد كسبـوا بفـضل غـزوات جنـوب المـزاق غنـائم عظمى .

غير ان ابـن سعد كـان يخشى هجـوما معاكسا متوقعـا ينطلـق مـن مراكـز الشمال المحصنـة التي كـان عـاجزا عن حصارها . وعندما عرض عليـه البيزنطيون غرامة حربية باهضـة مقابل ارتحـاله عن المـزاق سرعان ما قبـل العرض والتحق بمصـر حاملا معـه كـنوزه . وبذلك لم تـدم الحملة أكـثر من عام (647 — 648) .

وكـانت هـذه الحملـة رغم قصـر مدتهـا ضربـة قاصمـة للهيمنـة البيزنطيـة . فقـد أفلتت من سلطـة قرطـاج القبائـل البربرية المـوجودة في جنـوب المزاق الذي نهـب وأقفـر من أهلـه وزاد هـلاك الشيـخ جرجيـر في الفوضى والحزازات المزمنـة .

واستفاد العرب بـالخصوص من هذه التجربة أن مقاومة اليونـان ليست شديدة وأن الغزوات تدر عليهم المنافع العجيبة وهكذا كان من المتوقع رجـوع الغازيـن بسرعة .

أزمة الخلافة : غير أن الاضطرابات التي عقبت مقتل الخليفة عثمان كانت سببا في كسب 17 سنة من الاطمئنان لإفريقيا ذلك أن اتساع رقعة الامبراطورية العربية أثارت مشاكل كان من المستحيل حلها من دون الوقوع في ازمات . فلقد ظن الخليفة الثاني عمر أنه كان من الممكن استتباب الأمن بتنظيم موارد الدولة بصفة يمكن معها توزيع الجرايات على الفاتحين حتى يبقوا تحت نفوذه .

لكن هذا النظام المعتمد على مشيئة الخليفة وعلى استغلال المغلوبين بدون هوادة ما كان يمكن أن يدوم من دون أن يثير غيرة البعض وتمرد الاخرين .

وحافظ عثمان على هذا النظام رغم نقائصه : فكان ضحية له كما كان الشأن بالنسبة لعمر . ووجد علي الخليفة الجديد رغم انّه كان صهر محمّد صعوبات أشدّ وطأة . إذ شق والي الشام معاوية عصا الطاعة في وجهه واستدرجه بمهارة إلى التحكيم في شأن مقتل عثمان ثمّ أعلن علي عن تنازله ولم يلبث ان قتل سنة 661 . وكان معاوية بادر قبل موت علي بتنصيب نفسه خليفة في جويلية 660 . وبخلافته قامت الدولة الأموية التي ستحاول تشييد ملك مركزي قومي عاصمته دمشق .

وكان لمصر التي منها انطلقت غزوات إفريقيا الشمالية علاقات مباشرة بتلك الاضطرابات . فلقد ثارت ضد ولاة عثمان وأجبرت ابن سعد على مغادرة البلاد وبعثت إلى المدينة بقتلة الخليفة . ثمّ دخلت في بيعة علي سنة 658 حيث احتلها أحد قواد معاوية وكان من الطبيعي أن تحتل مشاريع الزحف على المغرب المكانة الثانية بسبب الخلافات السياسية والدينية وتبنت الدولة الجديدة فكرة التوسع تجاه الغرب وأوكلت أمر مصر إلى الشيخ عمرو الذي لم يتخل عن مطامعه في غزو إفريقيا .

زحفة معاوية : لم تستثمر إفريقيا فترة الاطمئنان لتسترجع قواها كما ان القسطنطينية لم تغتنم فرصة موت جرجير لتدعم نفوذها من جديد بل إن الأمبراطور قسطن الثاني أصدر مرسوما جديداً اسمه « النّموذج » (Le Type) يقضي بإنزال صارم العقاب على كل من لا يتبع الرموز القديمة من دون إشارة إلى أصحاب المشيئة الواحدة

(المـونوثيليـة) (Monothelisme) أو المشيئـة المزدوجة (Duothélisme) . وأثار بذلك عليـه المسيحيين الارتودكس فـي إفريقيـا الذين يعادل امتثالهم للسلطـة البابوية مناوأتهـم للإرادة الأمبراطوريـة . وقـد يـكون دعيّ مـن الأدعياء اسمـه جناديوس استغـل المـوقف ليستأثر طيلـة سنـوات بإمارة مستقلـة . ولمّا خشي أحد منافسيـه لقي مساندة من الأمبراطور والتجأ إلى فتـح التفاوض مع المسلمـين للحصول على إعانتهـم .

ولمّا عـاد الأمبراطور إلى سالف نفـوذه لم يجد بين يديه الا أسمـالا مـن الأكسرخسيـة (Exarchat) واضطـر إلى التخـلي عن حصون المواقـع الأولى واكـتفى بحمايـة تخـوم تونس الوسطى .

وهـكذا فإن كـل ما كـتبه المؤرخون العرب عن هجماتهـم ضد البربر بين سنتـي 660 و 663 مدعاة إلى الاحتراز . وفـي سنة 665 كـان معاويـة بن حديـج الذي تزعم شق الأمويين بمصـر قد توغل في المـزاق بإذن من الخليفـة وهزم جيشًا بيزنطيـا بحضرموت (سوسة) واقتحـم حصن جلولى فـدكـه ثمّ قفل راجعًا إلى مصر محملا بالغنائـم .

الاحتـلال الدائم : عقبة . ولم يمض وقت طويل حتى قام عقبة بن نافـع الذي كـان شنّ غـارة موفقـة علـى الفزان بحملـة ثـالثـة تخالف الحملتين الأخريين من حيث إنّها انتهت بالعرب إلى الاستقرار الدائم . ذلك أن عقبة أسس سنة 670 في قلـب المـزاق ، وفي سهـل فسيـح يـكاد يـكون صحراويـا مدينـة القيروان بعد أن طهره من جميـع الحيوانـات المـفترسة والزواحف الساكنة به مرددا بلا انقطـاع طيلـة ثلاثـة أيـام ماروا النويري : « أرى لـكم يـا معشر العرب أن تتخذوا بهـا مدينـة تجعلونهـا عسـكرا وتكون عزّا للإسـلام إلى آخر الدهر » .

ولئن كـانت القيروان معسكرا يصد البيزنطيين الذين كان من الممـكن أن يجعلـوا من المـدن الساحليـة قاعدة للهجـوم فإنهـا كـانت بالخصوص معقلا في وجه البربر الذين أصبحوا هم وحدهم أعداء العرب المهابين . وبـذلك لم تحـم هذه المدينـة طريـق مصر فحسب وكـان من الواجب أن تبقى مفتوحة للمدد وصالحـة للانسحاب المحتمـل بل تصدت للأوراس الذي انقلـب محورا للمقاومة .

ورغم هذا الاستيلاء لم تتحول إفريقية إلى مقاطعة مستقلة بل بقيت تابعة لمصر حتى أن عقبة أقيل من مهامه في غير رفق وعوض بأبي المهاجر وهو من أنصار الوالي الجديد . ولعل القوم كانوا يعيبون على مؤسس القيروان منحاه العسكري البحت وموقفه الحاد تجاه قواد البربر وما كان يأذن به من مجازر في غير هوادة ويشنه من غارات بالغة الخطورة بقدر ما هي عديمة الجدوى .

ويظهر أن أبا المهاجر خلافا لسلفه فتح مع قواد البربر مفاوضات لكسب مساندتهم ضد البيزنطيين .

ويقال أيضًا إنّه توغل حتى وصل إلى « عيون تلمسان » حيث هزم أمير قبيلة أوروبة كسيلة الجبار الماهر وأسره . وعلى كل فإن سياسة أبي المهاجر وإن كانت دون سياسة عقبة إشعاعا فقد كانت أكثر جدوى .

مسيرة عقبة نحو الغرب : ولم تطل محنة عقبة إذ أسندت إليه سنة 681 القيادة العليا بإفريقيا فشن لوقته على المغرب غارة من الطراز العالي قد يكون من المجازفة الاطمئنان إلى وقوعها .

وجر عقبة وراءه أبا المهاجر وكسيلة مصفدين في الأغلال إشفاء لغليله من دون أن يقتصد حسب ما روي في كيل الإهانات للقائد البربري فكلفه ذلك فيما بعد ثمنا باهضًا . ولم يحاول عقبة حصار المراكز المحصنة شمال الأوراس بل انطلق من هناك صوب طنجة مباشرة بعد ان اصطدم بجيوش من الأهالي تعززها عناصر من الروم قرب باغاية (Baghaï) ولامباز (Lambaise) ثمّ تاهرت (Tiaret) .

وروى المؤرخون العرب ان النبيل يوليان (Julien) عوض ان يقاوم عقبة استقبله محمّلا بالهدايا الثمينة . فاستفسره عقبة عن أمر قوط (Wisigoths) أسبانيا والروم وبربر المغرب . واعتمد على هذه الإرشادات فاقتحم السوس وقتل أهله تقتيلا وسبا من الفتيات الجميلات عددا كثيرًا ثمّ أشهد الله أن بحر الأطلنطيق هو وحده الذي حال دون مواصلة زحفه لمحق الكفار .

وكل هذا من الغرابة بمكان حتى أن أ. ف. قوتيي (*E.* F. Gautier) بنى عليه نظرية مفادها أن سرعة احتلال موريطانيا الطنجية يمكن موازاتها

مع سرعة احتلال إفريقيـا ثمّ فيما بعد اسبانيا . ذلك أن بلدان إفريقيـا الشمـاليـة التي عرفت التأثير القرطـاجي انحازت بسهـولة إلى المسلمـين . غير أن جل العفاصيـل لم تبرز الا بفضـل المـؤرخين المتأخرين في الزمن . فإذا نظـرنا في بعض الروايات التي ذكرهـا ابن عبد الحكـم جميعهـا فنحن لانجد ذكرا الا للسوس وهي لفظـة غامضـة في كـتب الجغرافيـين العرب المتأخرين ، ومن الواجب تحديد معناها في القرن الثامن . كما لانجد الا عبارة عقبـة الشهيـرة عندما وقف على شاطيء البحر (وأي بحر ترى ؟) وأشهـد الله على أنـه غير قادر على مواصلـة زحفه . فلا إشارة إلى مدينـة طنجـة ولا تفاصيـل لهـذه المسيرة العجيبـة في بـلاد مجهـولة . وفي هذا ما يدعــو حقـا إلى إعمـال الرأي والشك : والذي لاجدال فيـه أن عقبـة أجهـد نفسه لتـوسيـع رقعـة الأمبراطورية الإسلاميـة نحـو الغرب ، وأنّه لذلك حـارب في الأوراس إلاّ أنّه يكـون من المجازفة ان يؤكـد الباحث أكـثر من ذلك وقد قال برنشفيق في هذا المعنى « اذا ملنا الى التصديـق بوقـوع جولـة عقبة فـإنّه من الحـكمـة ان نحصرها في الجزائـر الوسطى إلى أن يأتي ما يخالف ذلك . ولرّبمـا وصلـت هذه الجولة إلى جهـة وهران الحالية ووادى شلف » (ر. برنشفيق)

المقـاومـة البربـرية : كسيلـة : إذا نحن جـارينـا في بعض المسائـل ما ذهب إليـه كـتاب ما بعد القرن الحادي عشر وخاصـة ابن خلـدون الذي دون آثاره في نهـاية القرن الرابـع عشر انتهينا إلى القول بأن شخصيـة كسيلـة كـانت مهيمنة على تاريـخ إفريقيـا الشمالية إذ ذاك . ولقد ذهب أ. ف. قـوتيي حتى إلى الافتراض بأن كسيلـة كـان ملـكا لبني جدار وأنّه على الأقل قاد بني أوربة وهم من حضر قبيلة برانس المتأثرين بالحضارة اللاطينية والمسيحية والمائلين إلى الاتحاد مع اليونان ضد العرب المسلمين . وقال هذا المؤرخ في النهـاية : « إن الانتصار على سيدي عقبة كـان انتصارا بيزنطيـا في معظمـه أكـثر من أي انتصار حققه البربر فيما بعد » .

ونظـرا لندرة الوثائـق وقلـة دقتهـا فإنّه من الصعـوبة بمـكان معرفة مدى تأثير كسيلـة معرفـة مضبوطة الا أن الأخبـار التي رواها ابن عبد الحـكـم كـفيلـة بتأكيد الدور الخطير الذي قام به في هزيمـة عقبـة وشاهدة على أنّـه يعتمـد في خطتـه على الروم السـاكـنين بافريقيـا الشماليـة . ويظهـر أن

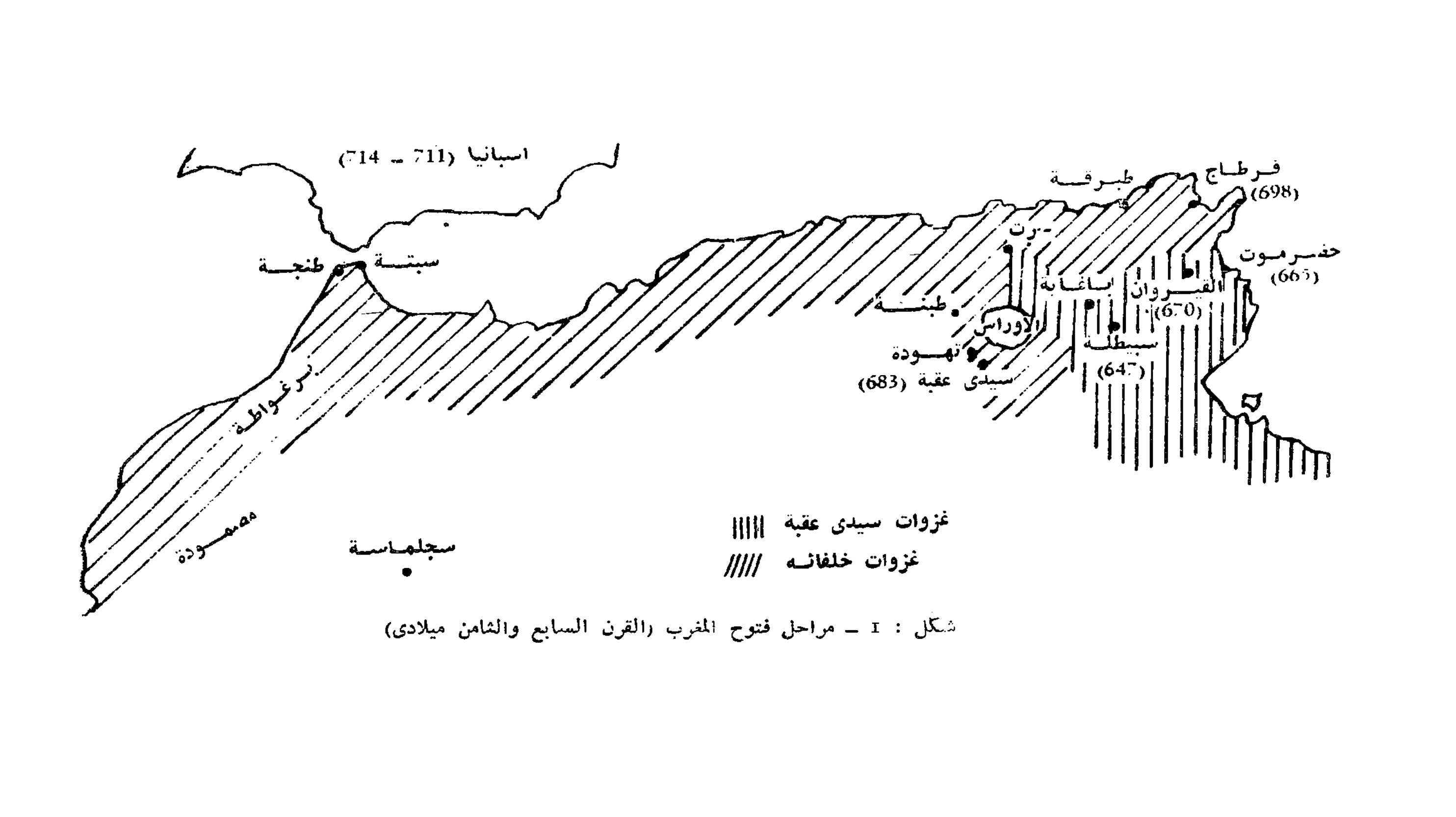
هؤلاء الذين لم تكن لهم قوة عسكرية كافية لصد المسلمين نجحوا في إثارة البربر المتمسكين بخصوصيتهم على المغيرين ولئن أعوزت البرطيين القوة العسكرية ، فقد احتفظوا بتأثير سياسي في شرق المغرب على الأقل ، فهل أسلم كسيلة ورجاله بعد كما يؤكد ذلك المؤرخون المتأخرون في الزمن أم أنهم بقوا على دين المسيح ؟ قد يكون من المجازفة الجزم برأي في هذا المجال .

ومهما يكن فإن عقبة بوغت في جهة بسكرة عند رجوعه من غارة قام بها في الغرب بحلف عتيد جمع البربر والبيزنطيين ولربما لم يكن عند ذلك مسيطرا على جيوشه المحملة بالغنائم وعلى كل فإنه قسم جيشه في طبنة (Thubunae) إلى ثلاثة فيالق واتجه على رأس كتيبة قليلة العدد نحو جنوب الأوراس ؛ لكن كسيلة الذي كان انسلخ عنه في مكان مجهول ووحد القبائل البربرية مع جيوش الروم حاصره في حدود الصحراء قرب تهودة (Thabudeos) على مصب الوادي الأبيض وقتله مع ثلاثمائة من فرسانه (سنة 683) . ومعلوم أن جثمان عقبة مدفون في مسجد الواحة التي تحمل اسمه «سيدي عقبة» على بعد خمسة كيلو مترات جنوب تهودة تحت قبة متواضعة البناء يحج إليها أحفاد الذين ساهموا في مقتله .

وكان الانتصار في الظاهر حاسما : ذلك أن سياسة عقبة أدت إلى الكارثة : إذ أن العرب اضطروا أمام تظافر جهود البربر والروم إلى التخلي عن ممتلكاتهم الواقعة ما وراء برقة .

وبعد ان دخل كسيلة القيروان بقي فيها ثلاث سنوات صاحب السلطة الحقيقية على افريقية والمغرب الشرقي . وما لبث البربر أن ارتدوا عن الإسلام كما كان شأنهم مرات عديدة حتى وصلوا في ظرف سبعين عاما إلى اثنتي عشرة ردة حسب ماذكره ابن خلدون في نص شهير له ، فكأن إفريقية كانت مصممة على أن تحيا مستقلة تحت إمرة قائد بربري في منطقة الأوراس حيث نبض قلب المقاومة البربرية .

غير أن العرب ما كانوا ليصبروا على مثل هذه الهزيمة . فلقد اضطر الخليفة عبد الملك إلى تأجيل الأخذ بالثأر ليتسنى له مقاومة الدعي



شكل : 1 ـ مراحل فتوح المغرب (القرن السابع والثامن ميلادى)

الخطير عبد الله بن الزبير الذي كان انتصر قبل ذلك على النبيل جرجير والذي أمكن له بفضل قرابته من عائشة أرملة الرسول أن يتزعم جزءا عظيماً من الأمبراطورية الإسلامية . واغتنم عبد الملك فترة هدوء ليعقد لزهير بن قيس على رأس جيش واجه به كسيلة في ممّس (Mems) قرب القيروان ، فانهزمت الجيوش البربرية والبيزنطية بعد قتال عنيف قتل فيه كسيلة (سنة 686) . وكانت الهزيمة نسبية إذ أن زهيراً تراجع بجيشه ولم يترك الا حامية صغيرة بالقيروان وبغت بنزول جيش للبيزنطيين من البحر في برقة حيث لقي حتفه .

الكاهنة : إذا اقتصرنا على ما أورده ابن خلدون في تاريخه وعلى التفسير المغري الذي قام به أ. ف. قوتيي انتهينا إلى القول بأن أفول نجم كسيلة أدى إلى نتائج خطيرة . ذلك ان البيزنطيين المسيطرين على الموانى الكبيرة من سوسة (Hadrumète) إلى عنابة (Hippo regius) وعلى الحصون العديدة داخل البلاد كان دورهم في الحرب الدفاعية دور الروادف بالنسبة للبربر . فاغتنموا فرصة رحيل العرب ومنافسة قواد البربر بعضهم لبعض لتدعيم سلطانهم في المزاق . وأفلت من أيدي أوربة زمام العمليات وصار في حوزة قبيلة جراوة بالأوراس الشرقي .

ولم يبق جراوة حسب أ. ف. قوتيي حضرا تقربهم حضارتهم ودينهم من الروم بل أصبحوا زناتيين أي « بدوا أقحاحا جمّالة دخلاء على المغرب » ليس لهم جذور تصلهم بماضي البلاد ولا مصلحة تشدهم إلى إفريقيا القديمة .

وهذا الافتراض خصب لأنّه يكشف لنا فيما إذا أمكن التدليل عليه عن الاتجاهات الجديدة التي طبعت بها الكاهنة ملكة الأوراس البربرية المقاومة البربرية .

إن هذا التحول تم في ظرف على قدر كبير من الخطورة . ذلك أن عبد الملك الذي تمكن في آخر الأمر من القضاء على ابن الزبير (سنة 698) وعلى الثوارت الدينية في المقاطعات الفارسية (697) أراد أن يقوم بعمل واسع النطاق في إفريقية . وفعلا بادر الوالي حسان بن النعمان الغساني بتوخي طرق جديدة فبدأ بإزالة الخطر البيزنطي عند استيلائه على

قرطاج (سنة 695) فكانت الصدمة عظيمة في القسطنطينية على غرار التأثير الذي حصل بعد انتصار جنسريق واضطر الأمبراطور ليونسيوس (Leontios) إلى تجهيز أسطول نجح من حسن حظه في استرجاع المدينة من جديد .

وفي الأثناء اتجه حسان إلى مقاومة بربر الأوراس . وقد بلغه حسبما يروى أن ملكة عظيمة الشأن تسمّى الكاهنة ، أي النبية ، تحكمهم . وهذه المرأة المجهولة الاسم (دميسة أو دهية ؟) كانت كما أكده ابن خلدون هي وقومها على دين اليهود . ولقد أراد بعضهم التدليل على ذلك بكنيتها التي هي في واقع الأمر عربية صرف .

وعلى كل فقليلون هم الأبطال الأفارقة الذين غذوا الأساطير بمثل ما غذتها به من سماها جورج مارسي (G. Marçais) في لغة جميلة « الدبورة البربرية » (Débora berbère) . ويحسن التنبيه — نهائيا — بأن النساء في بلاد البربر قمن في مناسبات عديدة بدور مرموق على الأقل إلى الفترة الموحدية . وحسبنا أن نذكّر بقوة زينب زوجة يوسف بن تاشفين التي كانت هي أيضًا تعرف السحر وبعدة أميرات من المرابطين وبأخت ابن تومرت نفسه التي عاضدته في ساعاته الأخيرة مع أخلص مريديه . غير أن واحدة منهن لم تبلغ شأو الكاهنة . والواقع أننا لا نعرف من أمرها الا اسمها وإشعاعها ومقاومتها الشديدة للغاصب وقد غذتها على ما يظهر وطنية بربرية وعقيدة عبرية .

والذي لا شك فيه هو أن الكاهنة جمعت كلمة البربر من جديد وهزمت الجيش العربي على ضفاف مسكيانة بين عين البيضاء وتبسة ودحرته إلى طرابلس .

انتصار حسان : غير أن حسانا اقتحم بعد ذلك بقليل المزاق من جديد وافتك مرّة أخرى قرطاج (سنة 698) فلم يجد في المدينة إلا عددا قليلاً من الروم بلغوا من المسكنة حدا جعلهم لايبالون بمن يسودهم . أما السكان الآخرون ، فقد لاذوا بجزر البحر المتوسط . لكن حسانا سرعان ما استعاض عن العاصمة المنهارة بمدينة جديدة في منتهى الخليج وهي تونس فكان دورها الأول أن أصبحت دار صناعة لا ينالها العدو من عرض البحر .

وكانت مراكب الخليفة قد شتتت الأسطول البيزنطي وهو آخر أسطول قادر على أن يجول قرب شواطي إفريقيا . وانتقلت بذلك السيطرة على البحر إلى العرب ولم يبق في حوزة الروم الا مركز سبتة (Septem) وأشلاء من موريطانيا الطنجية ومايورقا (Majorque) ومينورقا (Minorque) وعدد قليل من المدن في إسبانيا . ويظهر أنهم كونوا من هذا كله آكسرخسية (Exarchat) دامت عشر سنوات أخرى .

وبقي كسر شوكة البربر ، وفي هذه المرة يسرت خلافاتهم انتصار العرب ، ذلك أن الكاهنة قد تكون حكمت المغرب طيلة خمس سنوات حسب عرف البدو والرحل لذا فإن النتائج لم تتأخر عن أجلها .

فقد أجمع المؤرخون العرب على أن الفاتحين وجدوا في الروم وحضر البربر أعوانًا قيمتهم لا تقدر . وإذا صحّ ان الملكة ارادت قطع خط الرجعة على العرب فأمرت بتخريب البلاد بحيث لم يبق ماثلا لا الشجر ولا الأسوار فإننا نفهم لماذا ألبت عليها أهل المدن والمزارعين سواء كانوا روما أو بربرا .

وكان الحسن أذكى من أن يستغل مثل هذه الحالة ، ثمّ إن عبد الملك الذي كان انتصر (سنة 702) على آخر تمرد قام به أحد الأدعياء أرسل إليه بجيش عظيم أمكن له به أن يشن هجوماته من جديد .

وأمرت الكاهنة قبل المعركة الحاسمة بيوم أولادها بأن يسلموا أنفسهم إلى العدو . ولقد بين أ. ف. قوتيي في مقارنة موحية كيف أن هذا الصنيع طبيعي بالنسبة لقائد بربري يضع سلطان عائلته على القبيلة فوق كل اعتبار ، وخاضت الملكة وقد تقدمت بها السن معركة ميؤوسا منها في مكان ربمّا يكون قرب طبرقة ثمّ طوردت هي وخلصاؤها حتى الأوراس ، وقتلت قرب بئر تسمّى من ذلك الوقت بئر الكاهنة وحمل رأسها مشهرا إلى الخليفة . وبموتها انتهت فترة الدفاع البطولي .

الموازنة برانس + بتر = حضر + بدو رحل : وهكذا فإن الصراع الدائم بين الحضر والبدو يحتل المقام الأول في سياق الفتح العربي . وقد تلقي هذه المقابلة الأضواء الكاشفة على تاريخ بلاد البربر لو أمكن مقايستها بالترتيب الذي وضعه ابن خلدون وتبين الواقع الجغرافي والاقتصادي من خلال النظرة الخيالية للأنساب .

وهذا ما حاوله أ. ف. قوتيي في أحد افتراضاته الجريئة التي تحمل على إعادة النظر في التاريخ التقليدي . وقد يكون الجمالة الذين سمح لهم آل سواريوس بتكوين قبائل عظيمة سريعة الرحيل صعبة المنال هم البربر الذين يسميهم المؤرخون العرب البتر والمنحدرون من رجل خرافي اسمه مغديس الأبتر .

بينما الحضر قد يرجعون إلى البرانس نسبة إلى جدهم برنس وكل جماعة تتكون من سكان يتحدون في نمشط الحياة وليست بينهم قرابة . وعلى ضوء ما سبق يمكن فهم الصعوبات التي قامت في وجه العرب عند الفتح وعوامل الانقسام التي سهلت عليهم الانتصار ، ولم يتطلب خضوع أهل المدن الإفريقية العريقين أي مجهود يذكر ، فقد كان قيام حكومة نظامية ضروريا لحياتهم ، وقضاء شؤونهم أهم في نظرهم من الحرية . غير أن مأساة اجتماعية كانت تحاك خيوطها في نوميديا منذ العهد الوندالي . ذلك أن الفلاحين كانوا زمن الهيمنة الرومانية يفقدون منزلتهم شيئًا فشيئًا لفائدة الرحالين الصغار وخاصة كبار البدو الجمالة . ومن المحتمل أن تجسمت على التداول في جماعة البرانس المقاومة البربرية . فكانت أوربة الحضرية تحت إمرة كسيلة وجراوة البدو الرحل تحت إمرة الكاهنة . وقد تكون ثورة الحضر على أساليب البدو الرحل هي العنصر الحاسم في انتصار الفاتحين . وهي التي قد تكون أتاحت لهم الفرصة لمواصلة فتوحاتهم ونشر دينهم في اتجاه الغرب .

قال أ. ف. قوتيي في الختام : « لم يحاول الحضر والبدو في المغرب قط العيش جنبا إلى جنب من دون أن يضمر الحقد بعضهم لبعض . وكان في ذلك انتصار الزحف العربي والمنعرج الحاسم الذي تخطاه حسان بن النعمان » . وإذن فإن هذه الفرضية يمكن أن تستمد من الزحف العربي مثالا يبرز صحتها .

ولقد ناقش وليام مرسي كل ذلك بما يفرضه المقام من جد وكان يرى من المستحيل اعتبار البتر بدوا رحلا والبرانس حضرا . « ذلك أن جانبا عظيمًا من الزناتيين الممثلين التمثيل الحق لفرع البتر كانوا من دون شك جمالة » . غير انّه من الصعب تصور الكثيرين من البتربدوا رحلا على

الوجه الأكمل مثل القرويين الكومية والمتاغرة « المستقرين بالأكواخ » وفلاحي نفوسة المستوطنين بنجاد طرابلس وبني جراوة من الأوراس . ومن جهة أخرى نجد من بني البرانس صنهاجة سكان الصحراء وهم أكبر الرحل عظمة . ويشهد كذلك ابن خلدون بأن هوارة البرانس كانت تضم الرحل والحضر معا ، وبأن فرعا كاملاً من برانس كتامة وهم بنوسدويكش كانوا يعيشون تحت الخيام ويربون الإبل ، وغالبًا ما تعتبر كتامة من القبائل ؛ وهكذا فإن الواحد من بني سدويكش يمثل خليطًا غريبًا من القبائلي الراعي الساكن بالخيام .

وإذا كان المؤرخون العرب لم يلاحظوا تضاربًا في نمط من الحياة كان مألوفًا عندهم فمعناه أنّه لم يكن ليتماشى مع المغرب . ويقدم وليام مارسي بدوره بما له من مكانة في العلوم اللسانية وفي حذر رغم ذلك ، تفسيرًا شخصيًا لهذا التقسيم . قال : « ربمّا انبنى هذا التقسيم على الفروق التي لاحظها العرب في لباس أولى القبائل البربرية التي عرفوها من بربر يرتدون برانس (جمع برنس) ذات قلانس وبربر يرتدون ملابس قصيرة أو ليست لها قلانس (بتر جمع أبتر وهو الثوب المقطوع) . وهل نحن في حاجة إلى القول إننّا مازلنا إلى هذا الحد في مجال الافتراضات .

وفيما بعد تلاشى المعنى الأول لهذا الفارق عندما أصبح ينطبق شيئًا فشيئًا على الأهالي الذين أخذ الفاتحون يتصلون بهم تدريجيا » .

ومن المحتمل أن الفاتحين عند توغلهم نحو الغرب ، وجدوا في أماكن بعيدة جدًا أحيانًا بعضها عن الآخر ، قبائل تحمل نفس الأسماء مستمدة من ظروف حياتها « وربما كان الأفرن من سكان المغاور » أو منسوبة إلى طوطم يحميهم . « وبما أن تشابه الأسماء كان بالنسبة اليهم الدليل المرجح لثبوت النسب فإنهم وجدوا في قبائل تتحد في الاسم الأحفاد المنحدرين من جد واحد وقد شتّتتْهم صروف الحدثان ؛ ومنها ، ما كان يعيش في شرق المغرب ، ومنها ما كان يعيش في غربه ، وبعضها من البدو الخلص أو أشباه البدو والبعض الآخر من الحضر الفلاحين . ومن بينها من استوطن تخوم السودان والآخر استقر بجبال التل » .

ولـو حـاول مؤرخ عربـي اليوم اعتمـاد نفس المعيار لمعرفـة سكـان الجبـال لحشر في عائلـة واحدة « الجبالـة » المغاربـة سكان المنـازل ، و « جبالـة » قسنطينـة سكـان الأكـواخ و « الجبالية » التونسييـن المربيـن للإبـل والعائشيـن تحت الخيام فتـرة من السنة » . وينسبهـم إلى جد واحـد وهـو جبـل . وهـذا هو الذي جعـل بعضهـم ولا شك ينسب صنهـاجة إلى صنهـاج ومطماطة إلى مطماط .

ومن الواجب دحض افتراض أ. ف. قوتيي وإن كـان مغرضـا وذلك نظـرا لإفراطـه في التعميـم . الا أن هـذه النظريـة تـؤكـد الانعكاسات الاجتمـاعيـة للفتـح العربي وتستحـق من هـذه الناحيـة أن تـؤخذ بعيـن الاعتبـار ، وإن هنـاك ظاهـرة طالمـا تـكررت وهـي أن البدو يغتنمـون الأزمـات السياسيـة للخروج مـن عزلتهـم والهجـوم على الحضر قصـد الانتفـاع من الفوضـى . وهـكذا انقض المرابطـون على المغرب الأقصى المتداعي فـي القـرن الحادي عشر وظهـر بنـو مريـن فـي جهـات ملويـة السفلى حالمـا بدت على الدولـة الموحدية علائـم الوهن . كمـا انطلق حديثـا الهيبـة ورجـاله الزرق من الساقيـة الحمراء (Rio de Oro) على الدولـة العلوية عندما كـان نجمهـا في أفول . وليس من الغريب إذن أن يظهر البدو الرحـل على مسرح الأحداث بعـد الاضطرابات الـكـثيرة التي نتجت عـن الفـتح الاسلامـي على الأقـل في الجهـة الشرقيـة من إفريقيـا الشماليـة .

ومن جهـة اخرى فإن افتراض أ. ف. قـوتيـي يؤكد أهميـة أنمـاط الحيـاة التي تختلط اختلاطا وثيقـاً بوشائـج القربى والتـي يميل الإخباريـون العرب بسهـولة إلى إهمالها لشدّة تعلقهـم بـالنسب وكـثيرة هي أمثلـة القبائـل المنحدرة مبدئيـا من جد واحد والتي تـكونت في الواقع من عناصـر متبـاينة لايجمـع بينهـا إلا نمـط واحد من الحياة ولم تعطهـا طابـع وحدة الجنس الذي يتمسك به المغرب تمسكا شديدا الا أوهام التبنـي .

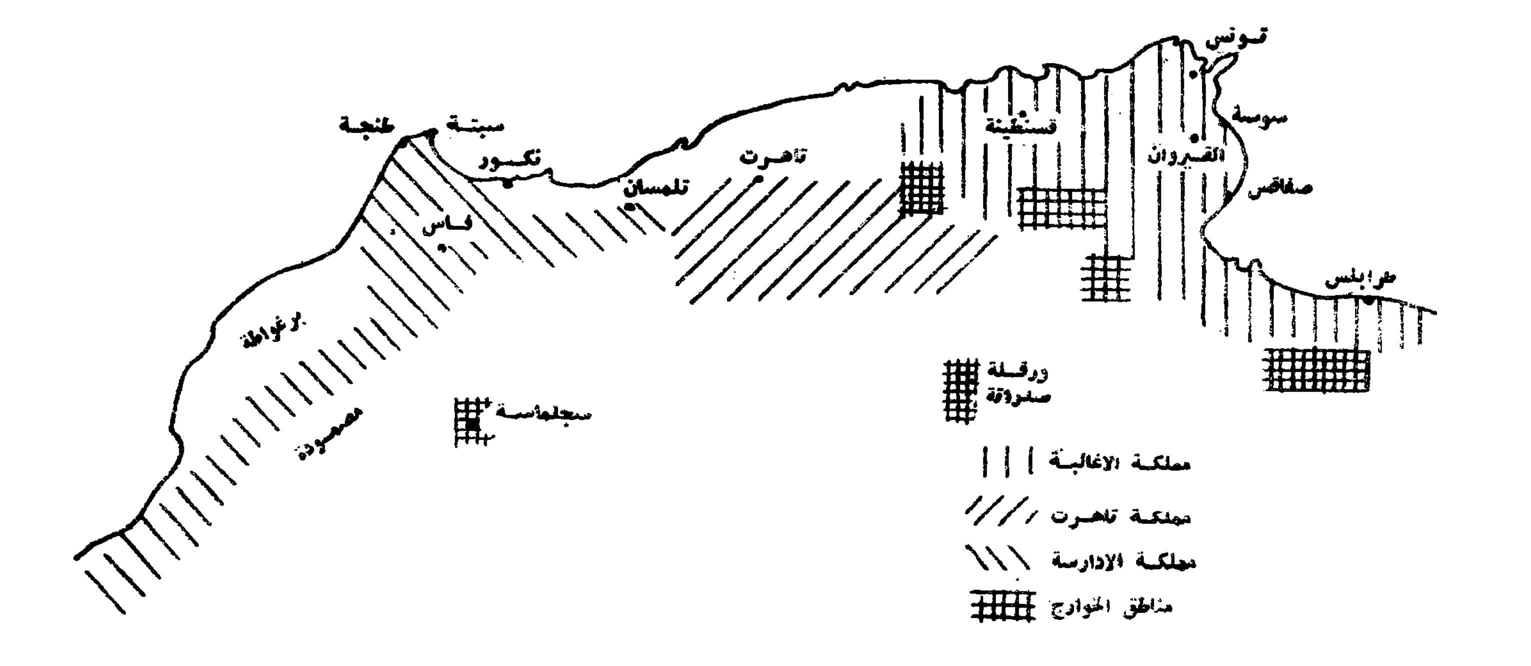
أمّا دور كسيلـة والـكاهنـة فإنّه يبدو من قبيـل المجازفـة ضبطـــه بالاستنـاد إلى ما بيـن أيدينـا من نصوص غير موثوق بهـا ومتضاربـة . فلقـد مـكـنـت القرون المتتاليـة شخصيـة كسيلـة أول بطـل لاستقلال بربري مـن أن تبرز بروزا . ذلك أن البلاذري لايعرفه البتة . أمّا البكـري فلقـد جعلـه

يفر من طبنة أمام موسى بن نصير وابن قتيبة أكد أنه قضى نحبه سنة 702 وهو يقاتل موسى هذا بعينه لافتكاك منفذ الملوية . كما أن ابن عبد الحكم لا يعرف بالضبط هل إن عقبة بن نافع قتل بيد كسيلة أو « ابن الكاهنة » وربما اعتبرهما في الواقع شخصا واحدا . وعلى كل فإن واحدا من الإخباريين القدامى لم ينعت كسيلة « بأنه رأس قبيلة أوربة » التي لا تسمح أية وثيقة بجعل موقع سكانها في الأوراس زمن الفتح العربي .

وهكذا فان كامل الرواية التقليدية التي تستجيب لنوازع النفوس التواقة إلى الملاحم لا تثبت أمام مكافحة النصوص . وقد يكون من المجازفة اعتبار شخصية كسيلة أوضح ملامح من شخصية رولان (Roland) كما تبدو من خلال ملحمته (Chanson de geste) .

بقيت النظرية المماثلة بوجود أوراسين التي اقتبسها أ. ف. قوتيي من مسكراي (Masqueray) وانها قد تقوم على أساس التفريق بين لهجتين . لهجة الشاوية سكان الأوراس الغربي أحفاد رعايا كسيلة ولهجة الشاوية سكان الأوراس الشرقي أحفاد رعايا الكاهنة . وهو تفريق مبني على عدة أخطاء ومردود اليوم من جميع الاختصاصيين في اللغة البربرية « فنظرية مسكراي القائمة على ثنائية بلاد الشاوية تظهر إذن واهية جدا ، والحيطة تفرض علينا اجتنابها انتظارا لما يخالف ذلك » .

وهكذا فإن الظروف التي اكتنفت المقاومة البربرية تند عن تطلعنا . فلم يبق لنا والحالة هذه سوى التذكير من جهة بالرواية القديمة المتعلقة بالفتح كما اعتاد القوم استخلاصها من المؤرخين العرب اعتمادا على اختيار لايخضع دائما إلى مقتضيات النقد الموضوعية . ومن جهة أخرى عرض الفرضيات التي أوحت بها هذه الرواية التقليدية إلى فذين من المؤرخين ثم مناقشتها ؟ فهل معنى ذلك أن ما حاوله أ. ف قوتيي كان لافائدة فيه ؟ إننا أبعد ما نكون عن هذا القصد ، ونحن لو تغاضينا عن براعة هذا المؤرخ وإمتاعه لوجب أن نؤكد أكثر ممن سبقه ، الفوارق الموجودة بين « أهل الوبر » و « أهل المدر » ونبين كل النتائج التي يمكن للمؤرخ والجغرافي معا استخلاصها . والواقع أن ما وجه من



شكل : 2 — المغرب فى مستهل القرن التاسع ميلادى

نقد في هذا الصدد كان ضحلا ما عدا بعض الاستثناءات ومنها نقد وليام مارسيه (W. Marcais) البارع .

ومن البدهي ، كما طاب لمنتقده الاعتراف بذلك ، « أن مؤرخي المغرب لن يتيسر لهم التفصي ولو من مسألة واحدة من بين المسائل التي وضعها » .

موسى بن نصير :

لما رجع حسان إلى القيروان وشرع في سن قوانين جبائية قارة أصبح في عيني الخليفة مشبوها في أمره فاستقدمه وأوكل لموسى بن نصير أمر إفريقية التي أصبحت مستقلة عن مصر منذئذ فلم يكن منه إلا أن وسع رقعة انتصارات سلفه . وإذا كان من الصعب جدا ضبط فترة هذا التعيين طالما أن التواريخ المذكورة متغايرة جاز ترجيح سنة 705 مع تقدير نسبة الخطأ بعشر سنوات تقريبا .

وأول ما قام به موسى بن نصير إخضاع المغرب الأقصى حتى المحيط الأطلنطي والتوغل إلى سجلماسة في تفيلالت . ولئن أخفق في فتح سبتة فإنه احتل نهائيا طنجة . وكانت البلاد آنذاك آهلة بقبائل البربر من سلالة صنهاجة . فكانت قبائل غمارة نازلة بساحل البحر المتوسط وقبائل برغواطة على طول المحيط الأطلنطي بين مضيق جبل طارق ومصب أم الربيع .

أما قبائل مكناسة فقد استوطنت وسط البلاد ، وقبائل مصمودة حطت بالسفح الغربي من الأطلس الكبير وبساحل أم الربيع في بلاد السوس ، وأقامت قبائل هسكورة بين السوس ودرعة وقبائل لمطة ولمتونة على الضفة اليسرى من درعة . ولقد فرض موسى الدين الإسلامي في حزم شديد على هذه القبائل المسيحية أو اليهودية المنصرفة غالبا إلى عبادة الطبيعة ، ، وكذلك على القبائل المرتدة في سائر بلاد البربر .

ولقد وجد المسلمون الجدد في إسبانيا ما يشفي الغليل إذ انتصر جيش من البربر بقيادة طارق بن زياد البربري على القوط فكانت معركة واحدة كافية للإطاحة بامبراطوريتهم وذلك سنة 711 . وكان البربر

هم الذين توغلـوا في الجزيرة واقتحموا غـاليا حتى بلغـوا مدينـة بواتيي سنـــة 732 (Poitiers) . ولـئـن انسحبـوا بعـد انتصار شـارل مـارتـل فـلـم يـكن ذلك تحـت ضغط الإفـرنـج (Les Francs) بـل كـان نتيجـة لمـا جـد في المغـرب الأقصى من ثورات اندلعـت بسبب استـئـثـار العـرب للأراضي الإسبانيـة عند اقتسامهـا ، وبسبب ما صدر عن ولاة طنجـة كـذلك من أعمـال اتصفـت بالتنـكيل أو العنف . وتمـكن الغزاة من كسب عطف برجوازية مدن إفريقيـة وموريطـانيا الطنجيـة ومن صرف حماس البربر بصفـة وقتيـة إلى الغزو والنهـب ، غير أن خضـوع جماهير البربر التي كـان العرب يحتقرونهـم ويستغلونهـم لم يـكن إلا وهميـا . فلقـد لاحظ حسان منذ ذلك الوقت « أن فتـح إفريقيـة أمر مستحيـل » وأدرك خلفـاؤه إزاء ما لاقـوه من عنت أن الاحتلال القار أعز منالا مـــن مجرد غزوات خاطفـة .

2) المقاومـة البربريـة

نحلة الخوارج :

لابد لكل انتفاضة من أصول مذهبية فالفلاحون المصريون الذين ثاروا في الألف الثانية قبل المسيح لإرغام الارستقراطية على كشف الرموز الضامنة للخلود ، والدوناتوسيون الذين قاوموا الانتهازية الكاثوليكية وناهضوا تحالف الولاة الرومان مع الأساقفة والملاكين العقاريين لم يتجاوزوا أن عبّروا تحت قناع الدين عمّا كانوا يضمرونه من حقد نحو الأغنياء ورجال السلطة . وكذلك كان الأمر بالنسبة للبربر الذين أسلموا على يد العرب فقد صبغوا معارضتهم بالصبغة الإسلامية فتمكّنوا بذلك من عرض مطالبهم الاجتماعية في صورة مثل أعلى ديني .

لقد أصبح الخروج بمثابة حلقة من الصراع الطبقي وظاهرة شعوبيّة كما كان الأمر بالنسبة للدوناتوسيّة . ولئن كان المغرب مسرحا ممتازا لهاتين البدعتين أو بعبارة أصحّ لهذين الانشقاقين المطبوعين بالطابع الثوري فذلك لأن مشاعر التقشف والمساواة التي لا يمكن فصلها عن كراهية المسود للسيد لم تبلغ درجة من الحدّة كما بلغته في هذه البلاد .

وممّا لا شك أن ظهور نحلة الخوارج راجع أولا وبالذات إلى التحكيم الذي اضطرّ الخليفة علي إلى قبوله تحت ضغط جيوشه . لكن جمعا من الجند الإضافيين آثروا الانسحاب فورا خشية أن يفهم من بقائهم الاعتراف بقرار يخضع كلمة الله لحكم البشر . وبعد إدانة علي غادر سرّا جمع غفير من أنصاره الكوفة الموجودة على الضفة الغربية من الفرات حيث كان يعسكر الجيش والتحقوا بالمنشقّين الأولين . وهذه الهجرة هي التي أعطت للمنشقين اسم الخوارج .

وإذا نحن تركنا جانبا النحل المتعاديّة التي تكاثرت بسرعة لاحظنا أن الخوارج أجمعوا فيما يخصّ الخلافة على إعلان معارضتهم للجماعة حسب تعبير ولهوسن (Wellhausen) الرّاشق . فقالوا بأن كل إمام يزيغ عن الطريق المستقيم يجب خلعه .. وبموجب هذا المعيار الأخلاقي والديني رضوا بخلافة أبي بكر ، وقدسوا عمر ولكنهم تنكروا لعثمان بعد عامه السادس من الحكم كما خرجوا على علي بعد رضاه بالتحكيم . وعلى هذا الأساس فإنّ كل مؤمن جدير بهذا الاسم يمكن للجماعة أن تبايعه ، من دون أي اعتبار لجنسه ، « ولو كان عبدا أسودا » . وفي الواقع فقد كانوا متطرفين في نظرتهم الأخلاقية . ذلك أن الإيمان عندهم لا يصح إذا لم تؤيّده الأعمال ، ومن اقترف ذنبا عظيما عدّ عاصيا وفي نظر بعضهم عدّ كافرا واستحق هو وذووه القتل . ولم يزل الخوارج يوّجهون ضد أنصار الأمويين الحملات الانتقامية ويغرقون أثناءها في بحور من الدماء الأمبراطورية الشرقية بجرائمهم الدينيّة حتى قضى عليهم الخلفاء العبّاسيون وبقوا مجرد نحلة . ولم يبدأ رسولهم في نشر مذهبهم ببلاد المغرب إلاّ في أواخر العهد الأموي فقبلت دعوتهم إلى المساواة وتزمتهم بحماس كبير . ومن بين الاتجاهات الأساسية الثلاثة التي تنازعت الخوارج من أزارقة يمثلون التطرف اليساري وإباضية يمثلون اليمين وصفريّة اليسار احتلت الإباضية والصفريّة مكانة عظيمة في تاريخ المغرب . وتلاءم مذهب الخوارج بطبيعة الحال مع ما فطر عليه البربر من نزوع إلى الثورة . فجعلوا من الصفريّة النحلة المناهضة مبدئيا للطرق الإرهابية مذهبا يقول بالعمل المباشر مثل نحلة الأزارقة في الشرق .

وسرعان ما تحوّلت معارضة الخوارج إلى تمرّد على مذهب السنّة المتمثل عمليا في استبداد العرب وبيرقراطيتهم .

وإذا مال قوتيي (Gautier) إلى نسبة هذه الثورة إلى زناتة دون سواهم فان ويليام مرسيه (W. Marcais) يتبين في القرن الثامن الهجري مصدرين للتمرّد كفيلين كلاهما بالقضاء المبرم على الوجود العربي ، أحدهما في المغرب الأقصى وكان يهدد بعزل إسبانيا عن بقية البلاد وامتداد الثورة اليها ، والثاني في الأقاصي الشرقية من بلاد البربر جهة جنوب قسنطينة والبلاد التونسية وطرابلس حيث كان في

الإمكان أن يؤول انتصاره إلى انهيار العاصمة الجديدة وقطع المواصلات مع القواعد الشرقيّة . وإذا قامت زناتة بدور لا ينكر في شرق البلاد فإن نشاط الخوارج شمل بالخصوص البرانس من دون أن يتوغّل أول الأمر في أواسط بلاد زناتة أي شرقي المغرب الأقصى ، وجهة وهران وسهل شلف .

طغيان العرب ورد فعل البربر

كان المغرب وإسبانيا يخضعان آنذاك إلى الولاة المقيمين في القيروان الذين كانوا ينتمون ، حسب التقلّبات السياسية ، مرّة إلى القيسيّة وأخرى إلى اليمنيّة إذ أن انتصار الإسلام لم يحدّ قط من وطأة الخلافات الجاهلية .

وعلاوة على ما لاحظناه من عدم استقرار فان إفريقية كانت تنوء مغلوبة على أمرها تحت وطأة الضرائب التي فرضها الخلفاء . وتلافيا لنضوب الخزينة من جرّاء انتشار الاسلام ، اهتدى الأمويون إلى جبر الذين دخلوا في الإسلام حديثا على دفع الجزية والخراج وهما من الضرائب المسلّطة عادة على الكفار دون سواهم . وكان العرب يعاملون بدون شفقة ولا رحمة المسلمين الذين لم يمض وقت طويل على إسلامهم وخاصة منهم البربر الأجلاف . ألم يتبجّح الوالي يزيد بتوخي نفس الطرق التي استعملها الحجّاج في العراق . وكان الحجّاج مثالا يحتذى بحق إذا تذكرنا على الأقل الوضوح الذي كانت تتسم به مبادئه في الحكم عندما تولى أمر الكوفة .

وهو الذي أعلن في هذه المناسبة السعيدة : « إنّي أرى رؤوسا قد أينعت وحان قطافها ، وأرى الدماء ترقرق بين العمائم واللحى ... والله لألحونّكم لحو العصا وأضربنّكم ضرب غرائب الإبل » فإذا سلّط على البربر هذا النظام أدركنا لماذا ثاروا وقتلوا اليزيد .

وبعد ذلك بأعوام قليلة وجد الخليفة هشام الذي أراد تعزيز النظام الجبائي الذي أقرّه عمر في ولايتي طنجة والسوس من الشطط في القيام بالواجب ما حمل الأهالي على الثورة (739 — 740) وكان الدور الأول في ذلك من نصيب الخوارج ، فكان ميسرة السقاء الصفري طبعا على رأس الثوار من غمارة ومكناسة وبرغواطة بعد أن بايعوه خليفة ولكن هذا

لم يمنعهم فيما بعد من خلعه وقتله عندما ظهر في أعينهم بمظهر الضعف وكانوا قد سيطروا بسرعة تحت إمرته على طنجة رغم تدخل والي إسبانيا . وان صدّقنا ابن خلدون يكون قائدهم الجديد ، خالد بن حميد قد هزم جيش العدو على ضفاف شلف « في وقعة النبلاء » حيث هلك القائد العربي « وجميع الابطال » الذين كانوا معه (740) . وإذا كان ذلك كذلك وجب التسليم بأن مركز الخوارج في الغرب امتدّ إلى أواسط بلاد زناتة ممّا يؤيد نظريّة أ ف. قوتيي غير أن المؤرخين العرب الآخرين حدّدوا على ما يظهر مكان الواقعة شمالي المغرب الأقصى . ولربّما كان الخلاف ناتجا عن خطإ في نسخ نص ابن خلدون يتمثل حسب وليام مرسي في تعويض كلمة سبو بشلف . إذ يكفي أن تطول أو تقصر تعريقة بقطّع النظر عن الإعجام الذي كان النّساخ يسهون عنه أو يثبتونه خطأ ، حتى تكون للاسمين نفس الكتابة تقريبا « وهكذا فإن ما في الوثائق التي بين أيدينا من غموض يدعونا مرّة أخرى إلى المزيد من التثبت وعند ذلك رأى هشام أنّه من الواجب ردّ الفعل فأرسل تحت إمرة كلثوم خيرة جيوش الشام فكان مآلهم نفس المآل في واقعة بقدورة على نهر سبو (742) . وكان متوقعا أن ينهار نهائيا سلطان دمشق لو لم ينهض في نفس السنّة حنظلة بن صفوان والي مصر الجديد ليوقف في الوقت المناسب زحف جيشين من الخوارج كانا تغلغلا في إفريقية وهددا القيروان وينتصر عليهما في وقعتي القرن والأصنام (افريل — ماي 742) .

اضطرابات إفريقية :

أتاحت هزيمة الخوارج والصعوبات التي وجدها في نفس الفترة الأمويّون من أجل البقاء في الحكم ظهور نوع من الرجعية العربية ذات الصبغة التمرديّة في إفريقية . ففي سنة 744 أي السنة التي اندلعت فيها بالمشرق الثورات التي أدت بعد ستّ سنوات إلى قيام الدولة العبّاسية أعلن عبد الرّحمان بن حبيب وهو سيّد من أسياد العرب وحفيد من أحفاد عقبة استقلاله في تونس . ويقال إن حنظلة آثر ، تحاشيا من وقوع حرب أهليّة بين العرب ، وبدافع التقوى والورع ، الرجوع إلى الشام من دون قتال

لاعنا إفريقية أرض الفتن (فيفري – مارس 745).. وكان آخر خلفاء الأمويين وأول العبّاسيين في شغل شاغل عن الوقوف في وجه المغتصب. ولمّا استحث الخليفة المنصور آخر الأمر عبد الرّحمان على الولاء والطاعة تمرّد من جديد ، وآوى من نجا بنفسه من الأمويين واستطاع واحد منهم بلوغ قرطبة حيث أسس إمارة تحوّلت فيما بعد إلى خلافة (756). غير أن آخر أيام عبد الرّحمان كانت مضطربة من جراء خصوماته مع حاشيته وقد هلك بطعنة خنجر سدّدها له أحد إخوته (755).

ووجد بنو ورفجومة ، وهي قبيلة صفرية من الجنوب التونسي ، في الصراع الذي عقب موت عبد الرّحمان مجالا لاحتلال القيروان فعاثوا فيها فسادا . واضطر القوم إلى الاستنجاد بالإباضيين من جبل نفوسة وهم نحلة أخرى من الخوارج كانوا قد خلعوا والي العبّاسيين في طرابلس تحت قيادة إمامهم أبو الخطاب .

وقيل إن أبا الخطاب استفظع ما اقترفه خوارج النحلة المعادية من جرائم فرمى بجيوشه القيروان وقتل بني ورفجومة تقتيلا رغم اعتدال مبادئه ، وبسط نفوذ سلطانه من طرابلس مقرّ إقامته إلى إفريقية التي ولّى عليها عبد الرّحمن بن رستم وأقرّه بالقيروان وهو شريف من أصل فارسي كان تربّى بها (جوان 758) .

وصار البربر مرّة أخرى مثلما كانوا في عهد كسيلة أسيادا على الجزء الشرقي من إفريقيا الشمالية بينما بقي الغرب مستقلا إلاّ في الفترة الواقعة بين فتوح موسى بن نصير وبين تمرّد ميسرة .. ورغم ذلك فإن الفاتحين بذروا في البلاد بذرة دينية ستثبت مع الأيام ، وبالرغم عن أن الإسلام نحا منحى البدع في بلاد البربر ولم يسيطر على كثير من القبائل المتحصنة في الجبال وحتّى السهول فإنّه كان حيّا متغلغلا في النفوس منتصرا على ما سبقه من المعتقدات. وبعث ابن الأشعث والي مصر الجديد جيشين لقتال أبي الخطاب مُنِيَ كلاهما بالهزيمة . واضطرّ في آخر الأمر إلى أن يعيد الكرة مرّة ثالثة فقاد الجيش بنفسه . وبعد أن دفع ثمنا باهضا للانتصار في وقعة تاورغة (في الجنوب الشرقي من زليطن بطرابلس) تمكن من دخول القيروان (أوت 760) .

خوارج المغرب الأوسط :

ولم يكن لابن الأشعث الذي استوثق سلطانه بإفريقية وعمل على استئصال الخوارج منها شأن كبير في سائر المغرب . بل إن انتصاره كان سببا غير مباشر في تكوين مملكة إباضية تمكّن فيها مذهب الخوارج من الازدهار في حرية تامة . فلقد توّصل ابن رستم إثر سقوط القيروان من أن يفلت من قبضة المنتصر ويؤسس على سفح جبل جزول مدينة تاهرت أو تيهرت (واسمها اليوم تغمت) وهي لا تبعد كثيرًا عن مركز روماني قديم اسمه اليوم تيارت وفيها ارتضاه أصحابه بعد سنوات قليلة إماما عليهم (776 أو 778) . وفي نفس الفترة أسس أبوقرة سيّد قبيلة ايفران المنيعة مملكة الصفريّة قريبا من تلمسان . ونحن لانعرف عن حياته الذاتية شيئا كبيرا غير أن شأنه في الميدان العسكري كان عظيما . ولاقى والي القيروان عمر بن حفص عناء كبيرا من خوارج هاتين الإمارتين الذين تحالفوا مع خوارج جبل نفوسة وجماعات أخرى من البربر . فقد حاصره أبو قرّة على رأس ثلاثة عشر فيلقا في طبنة بالزاب . ولم يسلم العرب إلاّ بفضل خيانة أمير الصفرية الذي أبعد عن ساحة الوغى أكبر جيوشه عددا وأشدها بأسا مقابل أربعين ألف درهم . ولم يفلت عمر من طبنة ويلتحق بالقيروان الاّ بمشقة بالغة . الاّ أن البربر حاصروه وقطعوا عنه المؤونة فكانت المجاعة وبذلك أصبح الخوارج يسيطرون لا على المغرب الأوسط فقط بل على كامل إفريقية (سنة 771) . إلاّ أن الخليفة أرسل من الشرق جيشا عتيدًا بقيادة يزيد بن حاتم الذي أحله محلّ عمر . ويقال إنّه لمّا بلغ عمر بن حفص هذا الخبر عرّض بنفسه للموت في واقعة فقتل . واتجهت الجيوش البربرية نحو جنود العبّاسيين بقيادة أحد ولاة طرابلس السابقين وهو خارجي كان قام بدور كبير في طبنة وأشرف على حصار القيروان ويدعى أبا حاتم وقد خلع عليه الإباضية لقب إمام فمني بهزيمة نكراء في طرابلس غربي جنبي (Jenby) (772) . ويذكر المؤرخون العرب أن هذه الواقعة هي خاتمة لثلاثمائة وخمس وسبعين معركة خاضها البربر ضد الجيش العربي منذ أن ثاروا على عمر بن حفص . وتوخّى يزيد الشدّة في معاملته لخوارج إفريقية طيلة ولايته التي دامت خمس عشرة سنة (772 — 787) . فقد كادت

قبيلة ورفجومة التي أنهكها أبو الخطاب أن تبيد عن آخرها تحت ضربات يزيد . وكذلك كان مصير نفزاوة بالجريد . يقول ابن خلدون : « وعليها كان ركود ريح الخوارج بافريقية وإذعار البربر » ومن السهل طبعا إدراك الأسباب . وانهزم إذن الخوارج بافريقية واستتب النظام العربي السني في الجهة الشرقية من البلاد فقط . ذلك أن جزءا كبيرا من المغرب الأوسط والمغرب الأقصى بأكمله لم يخضع لنفوذ بغداد وبقي متشبثا ببدع شتّى من مذهب خارجي هنا إلى ديانات بربرية جديدة هناك وخاصة في بلاد برغواطة التي سنرجع إلى الحديث عنها . وقد يكون من المجازفة إذن الادّعاء بأن بلاد البربر قد خضعت تماما لسلطان العرب أو حتى أن الإسلام عمّها بالرغم عن أنه قد انقضى قرن كامل منذ أن وطئت أقدام العرب المسلمين أرضها .

3) ممالك الخـــوارج

مملكـة تـاهـرت :

ولم يبلـغ يـزيد من القوة ما جعله يمنّ على مغرب الخوارج بحسنات الأمن الذي ران على فرسوفيا . ففي سنة 787 عرض ابن رستـم الصلـح فلـم يـكن بدّ من قبـول شروطه . ولم يقدر الأغالبـة الذيـن حكمـوا بـلاد البربر الشرقيـة منذ سنة 800 على مشاغبـة بنـي رستم بصورة فعّالة بحيـث تمـكـنت مملـكة تاهرت الإباضيـة من تدعيم نظامهـا طيلـة القـرن العـاشر وعاشت في ظل مبادئهـا الدينيـة بكامل الحرّية .

وفي هذا الباب يحتدّ الخلاف بين أ. ف. قوتيي وولـيام مرسي فأكّد الأول غرابة موقع هذه المملكـة قائلا : إذا اعتبرنـا لأول وهلـة المعطيات الجغرافيـة فقط وجدنا أن مملـكة تمتـد من جبال نفوسة إلى تيارت تبـدو مقتطعـة بصورة غير معقـولة . بينمـا حاذت حدودها جهـة من ألصق الجهات بالطبيعة نعني منطقة « السباسب » وهي جهـة مناخهـا جاف ، ومراعيهـا جدباء استوطن بهـا بتـر منحدرون من الجهـة الشرقية وخاصة من جنوب تونس وطرابلس موطنهـم الأصلي . وكـان عيش هؤلاء البدو ضنـكا بالضرورة إذ لم تـكن لهم موارد ذات بال لسدّ حاجاتهم . فكان ما يدعون إليه من تقشف وتقوى منسجما تمـام الانسجام مع ما فرض عليهم من شظف العيش . كمـا أن تصوفهـم كـان يجد فـي الصحراء الإطار الأنسب لبلـوغ أقصى درجات التطرف .

ومن المؤسف أن أ. ف. قوتيي لم يستغل نصّا معاصرا لتدعيم نظريته . فلنرجع إلى ارنست بيسكاري (Ernest Pichari) الذي أعـاد إلى الأذهـان مـا تبعث بـه الصحراء (هذه الأرض الروحانية) فـي نفـوس البشـر من

« ميل شديد إلى التأملات » . وانساق جبلة – وهو الذي استعمل هذه الكلمة – نحو « أصحاب التأملات وأحلام السباسب ونحو الذين أفنى الصيام أجسامهم واستأصل الإقبال على الحياة من نفوسهم . وهكذا فإن الضابط الشاب الذي يتجاذبه وازع الإيمان فيجذبه رغما عنه لما للصحراء من سحر ، يشعر بميل نحو البربري البدوي المتصوف ! ولسنا في حاجة إلى أن نغير كلمة واحدة مما قاله بسيكاري لتطبيقه على الإباضية . الا ّ أن وليام مرسي يضيف مؤكدا أن العناصر الفعالة للمذهب الخارجي الرسمي لم يكونوا أولئك الرحل من زناتة الساكنين بالمغرب الأوسط المفطورين على الشقاق والتمرّد غير المخلصين لقضية الخوارج الذين نغصوا على أمراء تيهرت ممارسة الحكم . « ومن حسن حظّ بني رستم أن اعتمدوا على أبناء الأوراس وهم رحل يتعاطون الفلاحة وعلى سكان قرى جبال طرابلس . وكانوا يجدون من بينهم الجند المخلصين والدعاة المتحمسين والممولين لخزائنهم بما يدفعونه من ضرائب . »

ولكن الجدير بالاهتمام ليس التوزيع الذي كانت عليه القبائل في صلب مملكة بني رستم بل هو حياة الخوارج الحاكمين بأمرهم وخاصة في كنف عاصمتهم حيث تأجج حماسهم الديني وهم في شبه عزلة . ولنا في خبرين ما يدّل على ذلك ، أحدهما منسوب إلى ابن الصغير وهو مسلم لا ينتمي إلى نحلتهم عاش في تيارت تحت حكم من تأخر من أيمتهم ، والثاني دوّن في أواخر القرن الحادي عشر رواه أبو زكريا وهو عالم خارجيّ من خوارج ورقلة . وقد نشر الرواية الأولى وترجمها موتيلنسكي (Motylinski) أما الرواية الثانية فقد ترجمها مسكراي (Masqueray) معتمدا على نسخة أصلية مزابية ظن القوم خطأ أنها فقدت . وكان عزم الأستاذ البولوني زموقورزفسكي (Zmogorzewski) نشرها ولكنه مات دون ذلك وهو الذي عكف على دراسة مذهب الخوارج ووجد مخطوطات عديدة في المزاب . واتخذت الإباضية تاهرت عاصمة لهم وهي على منحدر يشرف من علوّ قدره ألف متر على سبسب للمرعى . وفيه ينتجع الرحّل في فصل الصيف ويبدلون محصول ماشيتهم بحبوب التل . وكان رؤساؤهم يبادرون عند وصولهم بالاتصال بأعيان المدينة ثمّ يرجعون

إلى موضع خيامهم حتى الرحيل . ولقد ذاع صيت العاصمة الرستمية حتى أصبحت محطّ رحال الخوارج الذين كانوا يخفّون إليها من العراق حاملين معهم أموال المتحمسين ساعين إلى التشبع من روح المذهب الخارجي المنتصر وطامعين كذلك في القيام بمضاربات أقل تجرداً . وكثير هم الّذين كانوا يحجمون عن الرجوع . قال ابن الصّغير : « ليس أحد ينزل بهم من الغرباء إلاّ استوطن معهم وابتنى بين ظهرانيهم لما يرى من رخاء البلد وحسن سيرة إمامه وعدله في رعيته وأمانه على نفسه وماله حتّى لا ترى داراً إلاّ قيل هذه لفلان الكوفي وهذه لفلان البصري وهذه لفلان القروي وهذا مسجد القرويين ورحبتهم وهذا مسجد البصريين وهذا مسجد الكوفيين » .

واقتصر الباحثون زمنا طويلا عند تقييم فنّ بني رستم المعماري على آثار صدراتة (قرب ورقلة) وهي المدينة التي التجأ إليها أهل تاهرت عندما استولى الفاطميون على عاصمتهم سنة 911 . وتدلنا هذه الآثار على أن فنها المعماري متصل بفن إفريقية وأن زخرفها ينتسب إلى زخرف أديرة الأقباط وأن لها عناصر معمارية متأثرة بالمباني المصرية المعاصرة لها وربّما بقصور العراق . وكانت الدور ذات الزخرف الثمين المقامة هنالك تذكر بمنازل سكّان تاهرت المشارقة التي كان ابن الصّغير معجبا بها .

وفي سنة 1941 قام ج . مارسي ودوسي لامار (Dessus - Lamare) بزيارة استطلاعية لمعالم تاهرت وأجريا تنقيبا على آثارها . والذي زاد في صعوبة مهمتها هو أن الأمير عبد القادر نزل بين سنتي 1835 و 1841 بموقع عاصمة بني رستم العتيقة وترك فيها أطلالا بعد رحيله .

ورغم هذا فإنهما تمكّنا من أن يكشفا بصورة قطعيّة عن جزء من سور بني رستم وعن مخازن عظيمة للماء ، وبقايا من الفخار كما أنهما ضبطا موقع القصبة مقرّ أمراء بني رستم ، وانتهيا بعد البحث إلى أن تاهرت كانت قبل كل شيء قلعة حصينة مهيّأة للصمود عند الحصار الطويل وأن فنّ القصبة المعماري يذكّر بقصور الشام من القرن الثامن .

ومن جهة أخرى فإن ما وجداه من بقايا الفخار مكّنهما من الجزم بأن فنّ الخزف بتاهرت كان بدائيا بسيطا .

وإن هذه المعطيات الأثرية التي لاتزال إلى اليوم مجزأة لتبعث إلى حدّما على تصديق ما رواه ابن الصغير عن الإمام وهو يبني بنفسه سقف بيته بالملاط الذي كان يناوله إيّاه عبده . إن الأمور تطوّرت فيهما بعد طبعا لذلك فإن رسل الكوفة لمّا قدموا ثانية إلى تاهرت« نظروا إلى قصور قد بنيت ، وإلى بساتين قد غرست » . وهذه المفاتن ، إن وُجدت ، لابد أنها كانت متواضعة إذا اعتمدنا على آثار صدراتة . وعلى كل فإن التنقيبات الحاليّة لا تدل على أثر لذلك .

حكومة لاهوتية :

كان على رأس المملكة الإباضية إمام جماعة المؤمنين . وكان يحكم رعاياه على سنة الله ورسوله وكان له عليهم الطاعة المطلقة . وابن رستم قبل أن يستجيب لرغبة الأعيان طلب منهم أن يؤكدوا الأيمان بالامتثال لأوامره ما تماشت مع العدل ، فإذا حاد الإمام عن الإرادة الإلهية الهادية له فإن قراراته تصبح بموجب ذلك غير نافذة المفعول . ولاحظ ج . مرسي أن كل خلاف بين الإمام والفقهاء يتخذ بطبيعة الحال طابع الخروج وتكون له خطورته وفعلا كان تاريخ تاهرت في معظمه تاريخ نحل وقفت في وجه السلطة وأفسدتها » .

وكان على الإمام أن يحيا حياة الزهد . من ذلك أن ابن رستم لمّا قدم عليه من العراق رسل من الإباضيّة واصل ما كان منصرفا اليه من إصلاح شقاق في سطح بيته بالطّين ولم ينزل من السلم لإقتبالهم إلا بعد أن أتمّ شغله . وقدّم لهم خبزا وسمنا . « وليس في بيته شيء سوى وسادته الّتي ينام عليها وسيفه ورمحه وفرس مربوط في ناحية من داره » . وكان يحتقر المال إلى درجة أنّه أوصد بابه دون بعثة ثانية قدمت إليه محمّلة بالهدايا لأن الجماعة لم تعد على درجة من الفقر تسمح لها بقبولها . وكان الإمام يعقوب « بعيد الهمّة ، نزيه النّفس ما جس بيده دينارًا ولا درهما وكان إذا أتى وكيله بغلاّته أمره أن يجعلها تحت

بردعة له يجلس عليها وإذا أراد إخراج شيء منها دفعه بقضيب من يده» . ويواصل ابن الصّغير قائلا : «وكانت له بقرات يأمر بحلبها بين يديه في إناء جديد فاذا امتلأ شربه أجمع ثمّ يقوم عليْه ثلاثا لا يأكل طعاما ولا يشرب شرابا ولا يخرج لبراز» . فإذا سافر «ونزل بقوم لم يأكل لهم طعاما» .

وكان على الإمام تسيير شؤون الدولة وتأويل القوانين والقضاء بين الناس وإمامتهم في الصلوات وقبول الزكاة.

وكان رجال الدين والأعيان يراقبونه وكثيرا ما كانوا ينهونه نهيا شديدا وكانوا يبتلون نزاهته عند تعيينه للمسؤولين : فكانت مثلا نتيجة المفاوضات بين الرحل وكبار الإباضية طلب عزل القاضي والقائم على بيت المال وصاحب الشرطة . وكانت عملية تعيين القاضي المسؤول عن الحكم بين الناس عسيرة جدا . إذ كان في إمكانه أن يقف في وجه الأمير ويسلّط أحكامه على أصحاب الجاه . من ذلك أن قاضيا وبخ صديقه وحاميه عندما بدت منه نيّة النيل من استقلاله وأن قاضيا آخر رمى بخاتمه ودفاتره بين يدي الأمير احتجاجا على اختطاف ابنه لفتاة ، ومن أجل ذلك كلّه كانت الجماعة تحتاط احتياطا كبيرا حتى أنّها كانت تبحث في بعض الأحيان عن التأهل لخطة القضاء في أقاصي جبال نفوسة ؛

وكان جباة ابن رستم لايستخلصون الضرائب أثناء الحصاد على الحبوب فقط بل على الغنم والإبل أيضا . وعندما تتم الجباية توزع الحبوب بين الفقراء ثمّ تباع الأغنام والإبل . وإذا انتهى الإمام من إرسال الأموال إلى ولاته لسدّ حاجات الإدارة استعمل الباقي لشراء الأقمشة الصوفية والزيوت لتوزّع على كل عائلة توزيعا عادلا مع تقديم فقراء الإباضية . أما تكاليف الدولة فقد كانت متأتية من الجزية والخراج وريع الأراضي وغيرها من المداخيل . وما زاد على ذلك رجع إلى المشاريع العامة العائدة بالفائدة على المسلمين .

وكان الإمام بحكم مسؤوليته فقيها مقتدرا لأن القوم في تاهرت كانوا يعيشون دائما في جوّ ديني بالغ الحماس . فكانت العقول النيرة التي بهرها تطرف المذهب الخارجي لا تخشى الجدل . بل وصل بهم الأمر

إلى التسامح إزاء القوم الكافرين . ألم تذهب جماعة منهم في المشرق حتى إلى محو الفروق أو كادت بين المسلمين وبين اليهود والنصارى ؟ وكان في عاصمة بني رستم على حدّ قول ابن الصغير نصارى يجلسون مع الأعيان حول الأمير أبي حاتم . وكان أحدهم وهو فارس مشهور يعتبر من حماة المدينة . ولمّا داهم الخطر الأمير أبا بكر أسرع النصارى لنصرة بني رستم . وكان الخوارج يشجعون الجدل مع خصومهم على أمل أن يسلموا . وكانت الإباضية والمعتزلة يلتقون بوادي مينة للمناظرة . ولم يخف عدد من الفقهاء المشارقة نيّتهم « في وضع حدّ لتغلغل الإباضية وطمس مذهبهم » وكان أحدهم ذا منزلة مرموقة عند الشعب . وكانت هذه المجادلات تدور حول الفقه والكلام والوثائق والنحو واللغة . وليس أقرب إلى الطريقة المدرسيّة من الحوار الذي نشب بين بعض الخوارج وابن الصغير حول زواج البنات اللواتي لم يدركن البلوغ فكانت بذلك مكانة العلماء عظيمة ، حتى أن بعضهم كان يتقاضى مالا من المعجبين به في سجلماسة « لسعة علمه في الفقه ، والدين والمعاملات والنحو واللغة » . وكان الإباضية يكثرون من التأليف في الجدل ويجمعون المخطوطات كما أنهم يتعاطون إلى جانب رياضتهم على الخصومات الدينية الدراسات الدنيوية بنفس الحماس.

وكان لا بد لهذه المدينة التي كانت في بلاد المغرب بمثابة جنيف في أوروبا من نظام يصون الأخلاق العامة لكن إذا ما ضعفت الإطارات زمن الحرب الأهلية ضرب الفساد أطنابه وإذا استتب النظام فرضت الأخلاق من جديد فكسرت دنان الخمر ولاذ اللواطون بالفرار إلى أعالي الجبال أو أعماق الأوديّة . « وكان كل إباضي في عزمه إعلاء كلمة الله بكل الوسائل متمرّدا بالقوة . ولا يبقى الإمام على نفوذه غالبا إلاّ بتوخي سياسة التوازن . وكلما نشب خصام ظهرت حالا الكتل وشهر السلاح . من ذلك أنه لمّا أمر أبو بكر بقتل محظوظه الذي أثار قلقه بأبهته وشعبيته اندلعت حرب أهلية دامت سبع سنوات . فاستغل التجار الموقف لتمويل الثوار واقتنصت القبائل المشاغبة الفرصة للدّخول في المعمعة . قال ابن الصّغير : « والحرب لا تفتر ليلا ولا نهارا وحميت فيما بينهم حميّة الجاهليّة وجرت بينهم الحرب سمعة ورياء » .

وكانت المصادمات تنشأ في بعض الأحيان عن الحقد الكامن بين القبائل والحضر ، وفي أكثر الأحيان عن غضب الشعب الناتج عن التنكر للعادات . ولمّا قضى الإمام أفلح نحبه احتج بعضهم على الطريقة التي عيّن بها ابن الإمام . وصاح أحدهم قائلا : « الله سائلكم معاشر نفوسه إذا مات واحد جعلتم مكانه آخر ولم تجعلوا الأمر للمسلمين وتردوه إليهم فيختارون من هو أتقى وأرضى » . لذلك كان النّاس على إمامهم الأمير الجديد أبي بكر « علية » ، ولمّا « أحبّت عشيرته وإخوته وأعمامه وبنو أعمامه ومواليه أن يجعلوا له حجابا وهيبة أبت العوام من ذلك وأرادت الدنوّ إليه في كلّ الأوقات على ما كانت تعرف من قبل إمارته » .

ولعلّنا نلمس من خلال ما رواه ابن الصغير سعي الأعيان والفقهاء إلى تكوين ارستقراطية من شأنها أن تملي على الأمير إرادتها وقد حذّر الإمام أفلح كبار الإباضية من مغبة تعيين قاض من الجبل .

وكان القواد وخلصاء عبد الوهاب أقنعوه بنكث عهد أخذه على نفسه تجاه الرّحل محتجين بالخطر الذي ينشأ عن التراجع أمام الضغط وبمحاسن سياسة الحزم . وكانت النتيجة أن تمرّد العرب فأخمد ثورتهم ولكنه رغم توالي الاصطدامات فإنّه يبدو أن مجتمع تاهرت لم تغلب عليه النزعة الحربية ذلك أن المعارك لا تسيل فيها الدماء كثيرة فلا ملاحقة في الغالب للفارين ولا إجهاز على الجرحى . بل كان الخصوم يجنحون إلى التحكيم . وكان هذا ولاشك السبب في زوال مملكة بني رستم . ذلك أن الأيمة لم يوفقوا إلى تنظيم جيش عتيد ما كادت جيوش الشيعة أن تشنّ هجومها حتى استولت على العاصمة من دون عناء (911) .

ولم يؤل تخريب تاهرت الذي اضطر الإباضية إلى الاستغاضة عن المواجهة لا الى التقية وإلى إخماد جذوة الخوارج ولا إلى اضمحلال نشاطهم الفقهي . ولئن تشتّتوا في الصحراء الجزائرية والتونسية فإنهم مازالوا إلى يومنا هذا موجودين بجبال نفوسة وجزيرة جربة وورقلة والمزاب . وبقي

المزابية يبذلون مجهودات جبّارة وأموالا طائلة لتعهد واحات في أرض كؤود وللحفاظ على ما في غرداية ومليكة وبني إسغن المقدسة من مساجد عارية من الزخرف ويظهرون في تدينهم تطرفا يتنافى أحيانا مع الحياة التي يحياها في التلّ تجارهم ورجال أعمالهم الحاذقون .

مملكة سجلماسة وبرغواطة :

ومن المؤسف أنه لايوجد لدينا معلومات كافية حول مملكة أخرى للخوارج أسسها حسب الجغرافي البكري في سنة 757 بسجلماسة بربر مكناسة من الصفرية كانوا ثاروا على والي القيروان . إنها مملكة واحات الصحراء . وإذا صدّقنا ابن خلدون فإن أصحاب هذه النحلة كانوا يبالغون في ممارسة حقّهم في خلع إمامهم . روى صاحب المقدمة أنهم غضبوا من سيرة أميرهم الأوّل : « فشدّوه كتافا ووضعوه على قنة جبل إلى أن هلك » .

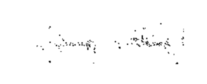
وكان من بينهم فقهاء مشهورون ذاع صيت أحدهم بفضل ما نهله من علوم في المدينة . ويظهر أن أعظم أمير دولة بني مدرار هو أبو منصور اليسع الذي تربّع على عرش الملك أربعا وثلاثين سنة ، أتمّ أثناءها بناء سجلماسة وسيطر على الواحات (790 — 823) .

وكان من المنطقي أن يتحالف مع مملكة تاهرت فزّوج ولده من ابنة ابن رستم .

وكانت هذه النحلة مرموقة إذ انتشرت في المغرب الأقصى ببلاد الشاويّة بين القبائل التي تكوّنت منها برغواطة . وكانت اعتنقت نحلة الخوارج وشاركت في حملات ميسرة السقاء ثمّ تبعت قائدها صالحا حوالي سنة 744 عندما عزم على الدعوة إلى دين جديد . وكان صالح ادعى النبوة في البربر وألفّ قرآنا بلغته وسنّ قانونا دينيا ضبط محظورات لاشك أنها ترجع إلى أصل بربري وأدخل بعض التغييرات على العبادات .

وسواء كانت هذه النحلة لصالح نفسه أو جدها حفيده يونس وربّما أسسها أو خلقها هو نفسه فإنها تعدّ على كل حال من أطرف المحاولات « لبربرة » دين ورد إلى المغرب عن طريق الغزاة .

وإن ما استعرضناه من ممالك الخوارج لم يحظ بعناية المؤرخين العرب رغم ما نراه فيها من أهمية كبيرة . إنهم شغفوا بدراسة الدولتين السّنيتين اللتين تأسستا في أوائل القرن التاسع في طرفي المغرب نعني دولة الأدارسة بفاس ودولة الأغالبة بإفريقية .



الباب الثاني

الدول العربية والبربرية

من القرن التاسع الى القرن الحادي عشر

1 - دولة الادارسة
2 - دولة الأغالبة
3 - حكم الفاطميين في المغرب
4 - دولة صنهاجة وزحفة بني هلال

إن الفترة الممتدة من أواسط القرن الثامن إلى أواسط القرن الحادي عشر بالنسبة لتاريخ المغرب يكتنفها الغموض ، إذ غمرت أثناءها البلاد موجتان من البدو الرحل ، انحدرت الأولى من الصحراء المغربية ونعني المرابطين ، وأتت الثانية من صحارى المشرق ونعني زحفة بني هلال .

لقد كانت فترة تحوّل ، قطع فيها البربر الروابط التي شدّتهم ردحا من الزمن إلى المشرق من دون أن يأنسوا في أنفسهم من القوة ما يجعلهم يتخلصون نهائيا من هذا المشرق الذي كانوا يرفضون سلطانه السياسي . وإذا هم ، باستثناء إفريقية ، لم يعترفوا بسلطة الخلفاء العباسيين فإنهم أسرعوا إلى احتضان اللاجئين المشارقة واتخذوهم رؤساء عليهم ، ونهلوا مباشرة من منهل الفقه الإسلامي والفن الشرقي وأجهدوا أنفسهم للعيش داخل مدنهم التي لم تتحضر بعد على منوال حضر دمشق أو بغداد العريقين في الحضارة .

وهكذا يبدو التناقض الغريب المتمثل في أن البربر ، في الوقت الذي تحرروا فيه سياسيا ، تأثروا عميق التأثر بالحضارة السامية ، وحاولوا لأول مرّة منذ بدء التاريخ على ما يظهر أن يتمشرقوا .

أما الوثائق المتعلقة بهذه الفترة فهي أغزر وأصحّ من وثائق الفترة التي سبقتها . وعلينا طبعا أن نقنع في كثير من الأحيان بما كتبه مؤرخون عاشوا في عهد متأخر عن الأحداث التي نحن بصددها ، ولا يمكن أن تنسينا عبقرية ابن خلدون أن الفترة التي تفصله عن الأدارسة والأغالبة تساوي ما يفصلنا نحن عن حرب المائة سنة . غير أن بين أيدينا مصادر أكثر قدما كَتَبَ بعضها شهود عيان مثل اليعقوبي وابن

حوقل ، ومن دون أن نظفر بكل الأضواء الكاشفة ، إذ لاتزال عبارة « القرون المظلمة » التي استعملها « أ. ف. قوتيي » تحتفظ بكل قيمتها ، فإنه في الإمكان إذن أن نخطو خطوات أكثر تثبتا ، ونسمح لأنفسنا بتأكيد بعض الحقائق الثابتة .

1) دولــة الادارســة

استقـرار إدريس في المغـرب الأقصى

وصل إدريـس بن عبد الله الى طنجة سنة 788 وهو من سلالة علي وفاطمة . جاء هاربا من الشرق . وكان تورط في إحدى ثورات العلويين على العبـاسيين و أسعفـه الحظ فـأفلت من المجـزرة التي عقبت انتصار العباسيين على الثوار في وقعة فخ قرب مـكة سنة 786 . وواصل طريـقه صحبـة مولاه الوفي راشد حتى بلـغ طنجـة من دون أن يقرّ لـه قرار لا في إفريقيـة التي بقيـت على وفائهـا للخـلافـة ولا في المغـرب الأوسط الذي كـان يحكمـه الخوارج . وكـانت طنجـة بعيـدة عن مـركز النفوذ فلـم يبـق بها طويـلا بل أصبـح ضيفا ثمّ زعيما بل إماما (حسب اصطلاح الشيعـة) علـى قبيلـة أوْرَبـة المستـوطنـة حـول فـوليبليـس (Volubilis) المدينـة الرومانيـة العتيقة التي تسمّت فيمـا بعـد وليلى . وهل نحـن في حـاجة إلى أن نعتقـد كمـا فعل « أ. ف. قوتيـي » أن إدريس تمـكن من رئـاسة هـذه القبيلة لأن أفـرادها مـا زالـوا من البربـر « المترَوْمنين » ولعلّ الأفضل أن نوافق تـراس (Terrasse) فـي أن البـربـر ، سواء ترومنـوا أم لا ، قـد أحسنوا وفـادة إدريس لأنـه شريف معارض للخلافـة التي كانوا يمقتونها وربما لأنه كان يتمتع كذلك بخصال شخصية مرموقة ، وسرعان مـا التحق بأوربـة عـدد من العرب المناهضين للعباسيين . وقـد يكون إدريس بيّت النية كـما فعـل الفاطميون فيما بعد لجعل المغرب نقطـة انطلاق لاسترجـاع إرث آبائـه . وعلى كـل فإنـه لما وجد وليلى دون مقـامه أسس مدينة جديدة سمّاها مدينة فاس في موقـع الحي الأندلسي اليوم وشرع في تشييد مملـكته بالاعتماد على قبائـل بربرية عـديدة من شمـال المغرب . ومضى يهاجم تامسنا في جهـة سلا وفازاز جهـة عزرو عين اللوح

ثم تلمسان التي استولى عليها . ولكن ما إن علم هارون الرشيد بهذا النجاح حتى أرسل إليه من دس له سمّا سنة 791 — 792 .

ادريس الثاني وتأسيس فاس

لم يترك إدريس ولدا يتولى بعده الإمارة ، ولكنه ترك إحدى جواريه وتدعى كنزة البربرية ، وكانت حاملا منه فولدت بعد شهرين من مماته ولدا سمي بدوره إدريسا ، فنشأ برعاية أمه وعناية راشد ، محفوفا بتقديس بربر أوربة الذين رأوا فيه وارث البركة ، هذه القدرة النافعة التي توارثها أبا عن جدّ أحفاد الرسول :

ولا بد أن الطفل حقق الآمال الساذجة التي وضعها فيه القوم إذ أنه ما أن بلغ الحادية عشرة من عمره حتى بويع في حفل مشهود خليفة لأبيه، إلاّ أنه الى جانب تأثير أوربة عليه كان يخضع لمؤثرات أخرى ، فلقد دخل في حاشيته بوليلي عرب من إفريقية والأندلس وأيقظوا فيه على أغلب الظن ميولا وراثيه لأنه أصبح يختار من بينهم أكبر أعضاده . بل وصل به الأمر سنة 808 إلى أن أذن بقتل أبي ليلى إسحاق رأس أوربة بإيعاز من صحابته الجدد ، ولا شك، غير أننا لا نعرف بالضبط الظروف التي حفّت بهذه الفعلة . وأحسّ إدريس ومن كان معه من العرب إثر مقتل أبي ليلى أنهم لم يعودوا مطمئنين على أنفسهم في وليلى ففكروا في مدينة فاس التي كان أسسها قبل ذلك بعشرين سنة إدريس الأول من دون أن يجد الوقت الكافي ليجعل منها عاصمة فظلت قرية بربرية متواضعة (سنة 809) .

وآثر الأمير الشاب عوض إدخال تغييرات على المدينة ، أن يستقرّ قبالتها على الضفة الشمالية من النهر . فبنى مسجدا وسوقا وقصرا متواضعا . ولا شك أنه أسكن فيه أصحابه العرب . وهكذا ولدت المدينة التي سيطلق عليها فيما بعد اسم القرويين والتي سميّت في أول الأمر العالية . تلك هي الرواية التي اقترحها ليفي بروفنصال (L. Provençal) في مقال هام جدا خصصه للبحث في تأسيس فاس ، وأن الحجج المتنوعة التي أوردها تحمل على الاقتناع بذلك حسب رأينا على الأقل .



شكل 3 ـ فس ـ هذا رسم بيانى كتل وضعه أ· ف· قوتيى · « يبرز الرسم البيانى الكتل الفارق البنيوى بين جهتين يفصل بينهما الخط المتسلل فى وادى سبو ووادى فاس · فعن اليمن (غربى الشمال الغربى) نجد بنية معقدة وتعاريج عنيفة · وعن اليسار تنحدر طبقات الاطلس الاوسط الكلسية لتنتهى مع الوادى فى انجناءة رفيقة · ويتحول ماؤها الى عيون غزيرة سيلها متواصل ثابت ومنها يتكون وادى فاس ويزيد فى انتظام السيل سهل عالية فاس بمستنقاته (سهل السوس) · وشيدت فاس فى النقطة التى فيها يخرج السهل من جراء الانجراف العنيف الذى يحدثه وادى سبو · وهكذا تم حل مشكل تزويد المدينة بالماء عن طريق الطبيعة (أ · ف · قوتيى ص 343) ·

(عن أ. ف. قوتيي ، عصور المغرب المظلمة ، دار بايو شكل 10 ، ص 284).

وعلى كل حال فإنه ليس في الإمكان بعد قراءة هذا المقال أن نجهل وجود روايتين حول تأسيس فاس وأن نغفل رواية بروفنصال التي ليست رغم افتقارها الى التفاصيل أقل قدما ولا أحوج برهانا من رواية روض

القرطاس والتي تعلل فوق كل ذلك تواجد مدينتين قديمتين تحمل كلتاهما اسم فاس وهو أمر بقي الى اليوم غامضا.

ولقد أصاب « أ. ف. قوتيي » حين أكد على غزارة المياه التي تسيل أو تنبع من موقع فاس ولا بد أن كان الماء هو العامل المرجّح لاختيار إدريس الأول والثاني لموقعها وزيادة على ذلك فإن مواد البناء متوفرة حول المدينة وهي أخيرا كائنة في الطريق الملائمة والرابطة بين السهول الأطلسية والمغرب الأوسط التي تشقه في هذا المكان بالذات طريق تصل الشمال بالجنوب من طنجة إلى تفيلالت.

ولم تلبث هاتان المدينتان التوأمان أن توافدت عليهما جماعات أخرى من السكان إذ اضطرت ظروف السياسة مئات من عائلات قرطبة والقيروان إلى الهجرة فأتت إلى فاس الفتية تحمل معها فنونا راقية (سنة 818 وسنة 825) وكفت المدينة مؤونة التدرب الطويل على الحياة الحضرية.

إن إدريس الثاني لم يشيّد مدينة فقط بل أسس أول دولة للمغرب الأقصى. وليس معنى ذلك كما لاحظه هـ. تراس (Terrasse) أنه وُفق إلى أن يجمع تحت لوائه كل ما يعرف اليوم بالمملكة الشريفية بل إن الوثائق التي بين أيدينا (البكري وابن خلدون خاصة) « تبيّن على ما يظهر، أن معظم السهول الأطلسية، والأطلس الأدنى باستثناء ساحله الشمالي والأطلس الأوسط كله والأطلس الأعلى وأغلب جهة الواحات وجزءا كبيرا من المغرب الأقصى الشرقي بقيت كلها خارجة عن امبراطورية الأدارسة »، غير أن إدريس تمكّن من جمع عدد عديد من القبائل البربرية تحت سلطة إسلامية واحدة وقد كانت قبل ذلك مستقلة الواحدة عن الأخرى.

انحطاط الدولة :

كانت هذه المملكة الجديدة عتيدة في الظاهر، لكنّها كانت غير قادرة على الصمود فهي لم تثبت عند موت مؤسسها الذي عاجلته المنية سنة 828. ولا ندري هل هو ذهب ضحية حادث أم قتل، ذلك أن

الروح البربرية القديمة المفطورة على التجزئة السياسية والنزاعة إلى الاستقلال المحلي لم تستأصَل تماما . وأن أبناء إدريس الثاني العشرة انتصحوا بما أشارت عليهم به جدتهم كنزة البربرية فاقتسموا إرث والدهم وخرّبوا بذلك الصرح السياسي الذي بناه من دون أن يقدروا على طمس عمله الحضاري وذلك بفضل إشعاع فاس المدينة الوحيدة الحرية بهذا الاسم بالمغرب الأقصى في تلك الفترة .

وبقيت إمارات الأدارسة تتقاوى على نفسها حتى قدوم الفاطميين سنة 921 ثمّ تشبث أعقاب الأدارسة بجبال طنجة المجاورة حتّى سقطت هذه الدولة سنة 974 على يد قواد قرطبة .

2) دولـــة الاغالبـــة

دولـة مستقلـة :

أسس إبـراهيـم بن الأغلب أحد ولاة العرب فـي الزاب فـي الطـرف الأخر من بلاد البربر أي في إفريقية دولة بقيت مستقلة استقلالا تاما من دون أن تقطـع علاقاتها مع الخلفاء العباسيين . وسميّت هذه الدولة باسم الأغلب ابن سالم الذي تقلّد الإمارة بفضـل ثقة الخليفـة ، ولـكـنّ مشاكـل الحكـم لم تزل تداهمه حتى هلك تحت سهام الجند (765 ـ 767) . أمّا ابنـه إبراهيـم فقد تولى حكم الـزاب بعد أن قضى بعيدا عن القيـروان السنوات التي كان فيهـا يزيد بـن حاتـم يمسك زمامهـا بيد من جـديـد ويقرّ فيهـا النظام . ثمّ استغل في مهارة ثورات إفريقية ليقـوم بدور الوسيط ولم يـزل بهـم حتى أَوْلَوْهُ أمرهم سنة 800 .

وبقي أحفاده يتداولون بعده على الحكم إلى أوائـل القرن العاشـر مـن دون أن تحدث بين القيروان وبغداد أزمة خطيرة . وكان الخلفاء الذين تدخلـوا خاصـة في العهد الأخير لهـذه الدولة أثناء خصومات الأمير مـع أهل مدينة تونس يكتفون غالبا بسلطة اسمية ، بـل كانـوا يحجمـون عـن كـتابة العهد إلى الأمراء الجدد .

أما الأغالبة الذين استمدّوا من ثقـة الخليفـة مزيدا من الهيبـة في نظـر الجند العرب والذين كان في إمكانهم بفضل ولائهم التمتع بمنح من العباسيين فإنهم لم يحاولوا أبدا قطـع علاقاتهم ولم يشعروا في الواقع بوطأتها أبدا .

امتداد سلطان الأغالبة :

سيطر هؤلاء الأمراء على إفريقية بلاد الحضر التي لا نقدر على ضبط حدودها ، إن كانت ، فحكموا في الجنوب الشرقي طرابلس ولكن بقيت ضواحيها القريبة بيد إباضية جبل نفوسة الذين لم يتأخروا عن مراقبة الطريق الساحلية الضيقة المؤدية إلى المدينة إلى أن تمكن الأمير أثناء معركة لم تكن متوقعة من محق خصومه الأشداء (896) . وكان جنوب الجريد الذي استنزفت المقاومة قواه ، منطقة أغلبها بيد الخوارج ولكن يعمها الأمن ، وفي الجنوب الغربي بالزاب والحضنة تمكّن عدد قليل من العرب الحازمين والموالين للأغالبة من إبقاء هذه المقاطعات البعيدة تحت نفوذ القيروان حتى سنة 865 ، وكان عدد الحاميات المستقلة بعضها عن بعض أو تكاد ، تراقب المسالك المؤدّية إلى الزاب وتضمن أمن المسافرين فيها .

أما الأوراس فقد كان بالطبع كتلة مناوئة يهيمن عليها مذهب الخوارج في صيغته الأشدّ تطرّفا ، نعني النكّارة الذين مهدوا السبيل لعقلانيّة المعتزلة ، ممّا حمل الأمير على الحذر والرضى بسلطة صوريّة . وأخيرا في الغرب كانت عنابة تابعة للأغالبة وكذلك بلاد كتامة الأشاوس الذين كانت قلعة بِلَزْمة تثنيهم عن التمرد. وكانت بلاد القبائل الصغرى وكامل الأوراس لاتخضع في الواقع لسلطان الأغالبة .

ولم يجد الأمير في إفريقية بالذات صعوبة لبسط نفوذه على الجهة الساحلية من قابس إلى سوسة وعلى قمودة في الجنوب الشرقي بين القيروان وقفصة وتبسة وكذلك على كامل المنطقة الكائنة بين القيروان وتونس. وسكانها جميعا حضر مستعربون سنيون ؛ إلاّ أنّه كان عليه أن يقرأ حسابا للقبائل البربرية القاطنة في الشمال الغربي والمجاورة لكتامة ولسكان الشمال الغربي الذين بلغوا شأوا في الحضارة إلاّ أنهم ظلوا مستقلين . كما أن سكان القيروان ومدينة تونس لم يكونوا ميالين إلى الطاعة .

كان البربر الذين أسلموا يمثلون أغلبية السكان طبعا غير أن أحفاد العرب الفاتحين عددهم كثير وربما بلغ مائة ألف . أمّا النصارى وهم البربر الذين مضى على اعتناقهم المسيحية وقت طويل أو أحفاد الرومان

المعروفون باسم الأفارقة فإنهم لم يبيدوا بل كانوا يحتلون رغم تناحرهم منزلة مرموقة بفضل ثقافتهم التقليدية . وكان يوجد كذلك حسب اليعقوبي عدد من الروم وهم بقايا الحاميات البيزنطية قديما يتدرجون نحو الاندماج التام . وكان اليهود يمثلون في المدن النخبة المثقفة ومن بينهم بالخصوص الأطباء . ويظهر أن النصارى واليهود لم يتضايقوا من معايشة المسلمين . أمّا العرب الأدنون منهم فقد كانوا يكرهون البربر المسلمين .

وقد وجد الفاتحون في مذهب الخوارج ما يكفي من الذرائع لتبرير حقدهم المتزايد على البربر لذلك أقام الزاهد بهلول وليمة يوم أن علم علم اليقين أنه عربي قحّ .

مجتمع تقاة :

في الإمكان أن نتصوّر المجتمع الإسلامي بإفريقية تصورا كاملا لا بواسطة الأخبار الباهتة بل بكتب الطبقات التي تضبط ظروف نقل الحديث ومرجع السنة . وإن كتاب طبقات علماء إفريقية وهو من أقدم هذه الكتب يزّودنا بعدد عديد من اللوحات الصغيرة التي تصوّر بصورة ملموسة حياة القيروان اليومية وكانت التقوى تطغى على مجتمع إفريقية شأنها في كامل بلاد الإسلام في القرن التاسع . غير أن الجماهير البربرية التي تأبى أنصاف الحلول أضفت على هذه التقوى صفة الوجوب وأتاحت لمن يمارسها القيام بدور اجتماعي مرموق ، ولقد فرض رجال الدين مهما اختلف الوسط الذي انحدروا منه الاحترام والإعجاب على هذا الشعب الذي عانى منذ أواخر القرن الثامن أزمة زهد ، فبلغ احتقار بهلول الولي للجسم البشري حدا جعله لا يبدل ثوبه قط ، ويتخذ من الميضاة مكانا للوعظ ، فذاع صيته حتى بلغ سمرقند لفرط زهده وتطرفه في التمسك بالسنة ، وقويت هذه الظاهرة في العهد الأغلبي الأول فتفاقم عدد المسلمين الذين شعروا بالحاجة إلى الخلوة ، وأحيانا إلى اعتزال الدنيا تماما أو الاعتكاف في أكثر الأحيان بالرباطات . وهي حصون تحمي التخوم لا يقل فيها داعي العبادة عن واجب الدفاع عن الأوطان .

غير أن إفريقية لم تكن أرض الإيمان الفطري فحسب بل كانت أيضا مركزا فقهيا زاخر النشاط ، سأل مسافر قادم من العراق : فيم يتحدث أهل القيروان ؟ أجابه شاب : « في أسماء الله وصفاته الحسنى » .

ويظهر أن الزهد في مظهره البسيط تطور ابتداء من سنة 830 تحت تأثيرات واردة من العراق ثمّ دخله الجدل وأخذ المشرق والأندلس يبعثان بعلمائهما إلى إفريقية حيث كثر مريدوهم . وكان العرب وخاصة أهل القيروان يسافرون إلى العراق أو المدينة للجلوس إلى حلقات العلماء المشهورين ثمّ يقفلون راجعين ونفوسهم تفيض حماسا بما نهلوه من علوم جديدة وهي توّاقة إلى نشرها في أوطانهم ، وهكذا نشأت طبقة من العلماء ورجال الدين والفقهاء أثاروا بمناظراتهم حماس النّاس ، ولم يكونوا كلهم متفرغين لهذه المهنة بل كان الكثير منهم يمارسون مهنهم فمنهم الخزاف أو الطيان ومنهم بائع الأفراء او القطنيات ومنهم التاجر المقسط الذي تميل نفسه إلى إيفاء الكيل والميزان ومنهم الملاك الخادم أرضه . وأحبهم الشعب جميعا لشعوره بأنهم أقرب النّاس إليه وألصقهم بحياته اليومية فلا غرابة أن أصبحوا الناطقين باسمه ممّا دعا الأمير إلى أن يقرأ لهم كل حساب خاصة وأن ماعرفوا به من استقلال وما اتصفوا به من عزوف عن الجاه والسلطان حرم الحكومة من وسيلة لتسليط الضغط عليهم .

مسألة خلق القرآن والمعتزلة :

إن المسائل التي تناظر فيها القوم حينذاك هي نفسها التي أثارت حماس النّاس في كافة البلاد الإسلامية وفي مقدمتها مسألة خلق القرآن الخطيرة . وكان أهل السنة الذين تبينوا من خلال مناقشاتهم مع النصارى معنى ازلية كلام الله وقدمه يؤكدون أن القرآن وحي الله المنزل القديم قدم الله . فكل نسخة من القرآن العربي موجودة منذ الأزل مثل اللوح المحفوظ ومطابقة لكلام الله ، « الموجود بين دفتي الكتاب » .

وأنكر المعتزلة بقوة هذه الأقوال التي من شأنها في نظرهم أن تمس بوحدانية الذات الإلهية ، وأكدوا أن القرآن مخلوق . واختلفوا في

مسائل أخرى جوهرية مع أهل السنة ، وقالوا بالاختيار ، وقابلوا النظريات التي تؤول إلى تشبيه الله بتفسير مجازي للقرآن ، ورفضوا باسم نظرية التوحيد الصفات الإلهية التي لايمكن تمييزها عن الذات الإلهية والتي يقضي تعدادها اللامتناهي إلى غير القول بأن الله موجود ، ورأوا أخيرا ان العقل هو المصدر الأساسي للمعرفة الدينية .

وتواصلت المعركة حتى أتى الأشعري المتوفى سنة 935 وهو الذي أسس علم الكلام السني بعد أن قطع صلته بالمعتزلة ، واستعمل طرقهم في الجدل للدلالة على أن القرآن في جوهره وحقيقته قديم قدم كلام الله الأزلي ، وبذلك ضمن لمذهب السنة الانتصار .

وظل المعتزلة في إفريقية ابتداء من أواخر القرن الثامن أقلية مستقلة شجاعة لايتنكرون لآرائهم أمام جماهير البربر المتعصبين الذين رأوا في الاعتزال إنكارا للربوبيّة ولا يضعفون أمام السنيين إلاّ أنهم وجدوا أنفسهم محاصرين بين هاتين النزعتين كأنهم بين شقّي رحى ، وقد قضت بلورة العقيدة الإسلامية في آخر القرن التاسع على محاولاتهم بالفشل . ولمّا انتصر الشيعة كانت الضربة القاضية

المذهب المالكي – الامام سخنون :

كانت المناظرات في أصول الدين متصلة اتصالا وثيقا بالفقه الاسلامي المقنن لحياة المسلم دينا ودنيا . ومن بين مذاهب السنة الأربعة التي يمكن اعتناقها كان الدور الأعظم في إفريقية للمذهب الحنفي نسبة للإمام أبي حنيفة المتوفى ، حوالي سنة 767 وهو مذهب فارسي النزعة ، أقل تشدّدا من المذهب المالكي ،نسبة إلى إمام المدينة الشهير مالك بن أنس المتوفى سنة 795 وهو مذهب متمسك أشدّ التمسك بالنصّ ، مناهض للتآويل المعتمدة على العقل .

ولمّا كان المذهب المالكي منسجما أتمّ الانسجام مع العقلية البربرية انتصر طبعا بافريقية ثمّ بكامل إفريقيا الشمالية حيث لا يزال سائدا ، إلاّ أن نجاحه لم يتحقق من أول وهلة . فأسد بن الفرات العظيم الذي كتب له أن يفتح صقلية على رأس الجيوش الأغلبية قد نشر المذهب المالكي في

إفريقية إلاّ أنّه لم يسلم من التواطؤ في بعض الأحيان مع المذهب المنافس فكان أحد تلامذته وهو الإمام سحنون صاحب المدوّنة الشهير، وهو فقيه بارع مقدام اشتهر بالتقشف واستقلال الرأي، وهو الذي قوّم أخطاء شيخه ودعا إلى مذهب مالكي صارم وضمن له بذلك الفوز.

وصمدت نخبة الحنفية القليلة صمود الأبطال بفضل ما وجدته لدى بعض الأمراء من إعانة فعالة إلاّ أنّها تورطت في آخر القرن التاسع بسبب اتصالاتها بالمعتزلة فضاعت في حشود البربر المالكية المعروفة بعنفها ومناوأتها لها. وبذلك سيطر على كامل إفريقية المذهب المالكي المتصف بالصرامة وفرط الحماس. قال بغدادي إلى قيرواني: إن الرسول قال: فقاطعه القيرواني قائلا: روي أن مالكا له رأي آخر. فصاح به البغدادي قائلا: سوّد الله وجوهكم يوم القيامة يا أهل المغرب تقابلون حديث الرسول بحديث مالك».

الأمـــراء :

لم يتمسك الأمراء دائما بالمذهب المالكي تمسكا كاملا، فقد كان عدد منهم يميل إلى الحنفية واعتنق أحدهم مذهب المعتزلة؛ إلاّ أنه كان من الضروري مراعاة الرأي العام حتى أنهم اضطروا بعد سحنون إلى تعيين قضاة القيروان من بين المالكية الذين كان لهم تأثير بالغ الأهمية.

وكانوا يؤثرون على المناظرات الدينية حياة الترف في قصور شيّدوها على غرار قصور بغداد محفوفين بالعازفات على الآلات والجواري والغلمان والخصيان الذين كانوا يرتقون أعلى المراتب بفضل حظوتهم لديهم ومصحوبين بعدد كبير من أمراء بيتهم وأسياد العرب الداخلين في طاعتهم والمُعتقين البيض وحرسهم الأسود الوفي. فيستمعون إلى الغناء والشعر ويضحكون من تهريج البهلوانيين ويتيهون في الحدائق ويتنزهون على المراكب في بركهم ويعزفون ويلعبون لعبة الصولجان أو يحضرون سباق الخيل. وكانوا في أكثر الأحيان أدباء ظرفاء يتمتعون برحابة الصدر وسعة الأفق، إلاّ أنهم اتصفوا في بعض الأحيان بالقسوة. وأَدْمَن أكثرهم على الخمر.

وكان مؤسس الدولة إبراهيم الأول (800 — 812) شخصية مرموقة ، عالما ، بارعا مقداما ، وكان محمد الله الأول (812 — 817) طاغية انصرف كامل وقته إلى استغلال رعاياه ، وجمع زيادة الله الاول (813 — 838) الذي أخمد ثورة الجند وشرع في فتح صقلية بين الذوق الأدبي والإدمان على الخمر . وظهرت من أبي عقال (838 — 841) بوادر طيّبة أثناء مدته القصيرة . وأخلد محمّد (841 — 856) إلى الجهل والمجون . وتفرغ أحمد (856 — 863) إلى حياة التقوى وولع بالبناء والتشييد . وبعد إمارة زيادة الله الثاني الوجيزة عكف محمّد الثاني (864 — 875) على الصيد ولذات الكأس . أما إبراهيم الثاني (878 — 902) أشهر أمراء الدولة الأغلبية فقد كان رجل دولة بحق رغم اختلال توازنه النفساني إذ أشبع نهمه بتقتيل ذويه ثمّ غلبت عليه التقوى فاعتزل الحكم وانقطع إلى محاربة نصارى صقلية . وكان عبد الله الثاني أميرا ممتازا جمع بين العلم والفقه وتمتع بشعبية واسعة رغم اعتناقه الاعتزال إلاّ أنه لم تكد تمر على ولايته سنة حتى خرّ صريعا تحت ضربات ابنه زيادة الله الثالث (903 — 909) الذي كان ضعيف المدارك وحشي السلوك ، فلم يقدر على الصمود في وجه الشيعة وفرّ إلى المشرق حيث تجرّع مرارة البؤس .

وتجلى ميلهم إلى الأبهة فيما أقاموه من مبان كثيرة اعتمدوا في تشييدها على قدماء العبيد النصارى الذين أصبحوا فيما بعد مواليّ لهم . فلقد بني إبراهيم الأول على بعد فرسخ من القيروان القصر القديم الذي تحوّل إلى قلب مدينة عظيمة محصنّة كما أن إبرهيم الثاني بنى على بعد تسعة كيلو مترات من العاصمة مدينة رقّادة التي كانت مركز الحكم وفي نفس الوقت موطن المجون الذي استفظعه تقاة القيروان . وكان يراوح الاقامة بينها وبين تونس .

الفن المعماري العسكري والديني :

حرص الأمراء الأغالبة على صيانة البلاد فأدخلوا تحسينات على الحصون البيزنطية وخاصة فى بلزمة وباغاية (باغاية العتيقة) . واستوحوا منها على الأخص نماذج لبناء الرباطات على طول السواحل مثل سوسة والمنستير أو لإقامة أسوار منيعة كما هو الحال بالنسبة لصفاقس .

غير أن المباني الدينيـة هي التي حظيت أكـثر من غيرها ، بطبيعـة الحال ، بفائـق عنايتهـم . ونخص بالذكر منهـا الجامع الكبير بالقيروان . وأول من بناه حسب الرواة عقبة بن نافع . وأغلب الظن أن محرابه الحالي هو الأصلـي . وأعاد زيادة الله سنة 836 بناء الجامع ، وتمّ توسيعـه مرتيـن أثناء القرن التاسع . وقد شيّد على النمـط الشرقي الذي لم تدخل عليـه تغييرات من عهـد الرسول . ويحتوي بالخصوص على قاعة مستطيلـة مقامة على سوار تفتـح على صحن تحيط به أروقة من ثلاث جهـات . وإن المرء يغمـره شعور غريب بروعة هذا الجامع لما اشتمـل عليـه من صحن فسيـح الأرجاء ، وصومعـة على النمط السوري ذات الأبراج الثلاثة المتراكبة ، وقبة ، ومحراب رخامي ، وخاصـة مصلاه بأقبيته السبعـة عشر المعتمدة على عدد كبير من السواري والمضاءة بمقدار .

وللأغالبـة شواهد أخرى على نشاطهم في ميدان البناء منهـا جامع الزيتونة الأعظـم في تـونس بزياداته الهامة . وجامع سوسة ، وهو أقل منه سعة ، وجامع الثلاثة أبواب بالقيروان بصفائحه الشبيهة بصفائح حصان التي تزخرف واجهتـه زخرفة على جانب كبير من الجمال . وأخيرا جامع صفاقس الذي أدخلـت عليـه تغييرات فيما بعد .

ولقد استعمل القوم في بناء هذه المعالم جميـع المواد من طوب وآجر مجفّف وحجر المقاطع كما أنّهم غرفوا ملء أيديهـم من الآثـار الرومانيـة . وتأثروا في زخرفتهـم بتقنية الفترة المسيحية فنقلوا الصور على شكل فروع وورود . أما الكَرْم الذي اتخذه الوثنيون والمسيحيون منذ القدم رمزًا لهـم فإنه شاع في زخرف المباني الإسلاميـة بإفريقية على شكل أوراق مبسوطة أو مطـوية .

الحكــومــة :

لم يتميز الأغالبـة بحبهـم للمتعـة وولعهـم بالبناء فقط ، ولا يصـح أن يقال إن الراحة أبطرتهـم عند اضطلاعهـم بالمسؤولية بل إنهـم حرصـوا حرصا شديدا على تنظيم الحكم تنظيما محكمـا على نحو ما وجـد في بغداد إنهـم لم يطمئنوا كـثيرا الى الارستقراطية العربية فانتخبـوا أعضادهم مـن

بين أمراء بيتهم الذين ظلّوا أوفياء دائما أو من بين عامة القوم من موال وخدم وخصيان وحتى من النصارى .



شكل 4 ـ المنستير ، منظر للرباط من جهة البحر • الرسم لجورج مرسى •

وعيّنوا وزراء كما فعل العباسيون من دون أن يعطوهم نفوذا حقيقيا ، وحجّابا يجمعون بين الحجابة وقيادة الجيش . وكان لهم صاحب البريد وهو في آن واحد صاحب الشرطة . وكان لهم كذلك عدد من الكتاب . وانتخبوا القواد لا حسب مكانتهم بل اعتمادا على قيمتهم الشخصية كما أوكلوا الأعمال الإدارية من ديوان رسائل وجباية ، وديوان الختم ، إلى بعض أصحاب الأقلام المتواضعين . أمّا فيما يخص القضاء فإن خطة قاضي القيروان ، زيادة على ما فيها من مشمولات إدارية لا تسند إلاّ إلى شخصيات مرموقة اشتهرت بيقظة ضميرها أكثر من سعة علمها . وتمتع ولاة المقاطعات بنفوذ كبير تحت رقابة الأمير . وفي الواقع فان مشمولات الموظفين لم تضبط ضبطا واضحا ممّا جعل السلط تتداخل تداخلا خطيرا ، غير أن الموظفين وهم جميعا من العرب ، فقد انتدبهم الأمير حسب مشيئته فأصبحوا مدينين له بكل شيء وظلوا على وفائهم له .

وانتهج الأغالبة سياسة اقتصادية في ميدان الماء على الأقل . ويشهد بذلك ما أقاموه من مخازن مياه وحنايا ويظهر أن إفريقية عاشت في القرن

التاسع فترة رخاء . غير أن سياستهم الجبائية كانت فاسدة ، إذ فرضوا على رعاياهم حتى المسلمين منهم الجزية واستخلصوا الخراج عينا لاعَرضا . وسنوا ضرائب لم ينص عليهـا القرآن وخـاصة على الأسواق ونقل المؤونة . فإذا أضفنا إلى ذلك تنكل الموظفين تصورنا الأسباب التي أدت إلى سقوط هذه الـدولـة .

الجنـد وفتـح صقليـة :

سعى الأمراء إلى إدماج العرب والبربر من دون أن يفلحوا في ذلك . ولئن لم يجدوا صعـوبات تذكر من البربر فإن الجيش العربـي وضع أحيانا دولة الأغالبـة على قاب قوسين أو أدنى من الانهيار فـكـان الجند المتـكوّن من قدماء الحرس المسرّحين بدون راتب ، المتضورين جوعا ، أو من الجيش النظـامي المسخر لخدمة الأمراء تتآكلـه الخصومات القبليـة ، ويفرق صفوفه تطاحن الحاميات ، ويثبّط عزائمه تضارب المطـامع فـأصبـح لذلك كلّه حشودا فوضوية على أهبة التمرّد دائما . واضطر الأغالبـة للتغلب عليهم إلى جمـع كـل قواهم وبعث حرس أسود يطمئنون إلى ولائـه ولـكـنهم مـا أن كسروا شوكـة الجند وقضوا على حـاميات الحدود وخاصـة حاميـة بلزمة حتى وجدوا أنفسهـم من دون جيش قادر على الوقوف في وجه الشيعـة .

وتوفق زيـادة الله الأول الى التخلص من شغب العسـاكر المتمردين بتوجيههم الى محـاربة النصـارى في صقلية . وكـان الأمراء يعيشون بإفريقية في أمن مع أجوارهم خـاصة وأن الجند عبروا بوضوح عن إرادتهم في مسـالمة البربر ، غيرأن هذه الجزيرة الـكبيرة التي قـام العرب فيهـا بغزوات عديدة منذ أمد طويل بدت فريسة سهلة المنـال . ولم تعد بيزنطة تهتمّ كثيرا بهذا الموضوع الذي أصبح بعيدا جدا عن مشـاغلهـا وانصرفت الى الدفـاع عن صقلية معتمدة على الجمهوريـات الإيطـالية الصغرى بينمـا أنشـأ الأمراء الأغـالبة أسطولا وجعلوا من إفريقية دولـة بحرية .

وفي سنة 827 أمر زيـادة الله استجـابة لنداء قـائد يونـاني متمرّد بفتح صقلية وأرسل جيشـا من الجند والبربر تحت إمرة القـاضي أسد بن الفرات الذي تفرغ للجهـاد . وبعد ذلك بأربع سنـوات استولى العرب

على بلرمو وجعلوا منها عاصمتهم . ثم إنهم أخذوا مسينا عنوة بعد أن مُنوا بخيبات كان منشؤها في الغالب خلافات بين جيوش إفريقية وإسبانيا وانتشار الأوبئة سنة 843 وأخيرا استولوا بعد مجهودات تواصلت ثلاثين سنة على « بلفيدير صقلية » مدينة يانا (كستروجيوفاني سنة 859) . وواصلت الجيوش الأغلبية زحفها في صقلية ثم توغلت في إيطاليا الجنوبية رغم جهود بيزنطة المتقطعة وتدخلات البندقية والجمهوريات الصغيرة وحتى الأمبراطور لويس الثاني الكارولنجي . فسقطت سرقوسة في يد الأغالبة سنة 878 ثم تاورمينة (Toornina) سنة 902 ومن ذلك الوقت استوسق الأمر للعرب في صقلية باستثناء بعض المراكز الخالية من الأهمية . واضطرّ الأمبراطور ليون السادس أمام انتصارات الأغالبة الى التخلّي عن ممتلكاته في إيطاليا والاكتفاء أثناء الفترة الثانية من ملكه بحصر طموحه السياسي في المشرق .

وحقّ لزيادة الله الثالث أن يعتبر في أوائل القرن العاشر صقلية في مأمن من أي خطر ذي بال . وبينما كان الأمراء يحققون في الخارج نجاحا مبينا استنزفوا قواهم في حرب بعيدة عن أرضهم أصبح من المتعذر أن يعتمدوا في إفريقية حيث قضوا على الجند وأضعفوا حاميات الحدود ، على قوى كفيلة بالصمود أمام حشود كتامة التي رمى بها الداعي أبو عبد الله الشيعي آخر الأمراء الأغالبة وأشدّهم غدرا .

3) سلطان الفاطميين على المغرب

الشيعة :

إن أصل الدولة الفاطمية نحلة تدعو الى شرعية الخلافة . وتدعى الشيعة ، ومؤسسها عبيد الله ، وهو لاجيء من المشرق . وسندها كتامة ، وهي قبيلة بربرية من بلاد القبائل .

إن مسألة الخلافة هي السبب في ظهور الشيعة وكذلك الشأن بالنسبة للخوارج الذين يختلفون معهم في تعلقهم المطلق بأحفاد علي الذين تتنافى وراثتهم الشرعية للخلافة مع أيّة صيغة من صيغ الانتخاب .

وبما أن عليّا كان أحق الناس بالمبايعة بعد وفاة الرسول نظرا الى أنه ابن عمه وصهره فإنهم اعتبروا الخلفاء الثلاثة الأولين مغتصبين . أما الأمويون الذين دعموا حكمهم بمقتل الحسين بن علي وأقربائه في كربلاء سنة 680 والعباسيون الذين خلفوهم فإن الشيعة لم يعترفوا بحكمهم قط وظلّوا متمسكين بالحقوق المقدسة لأحفاد علي وزوجته فاطمة .

وواجه الخلفاء محاولات الشيعة بالقمع الشديد ورغم ما مُنُوا به من هزائم وقاسوه من سجون وآلوا اليه من تشتت جعل منهم جماعات قليلة العدد قصيرة اليد تعمل في السر بواسطة دعاتها الذين كانوا يستهوون الأفراد ويلقنون أصول مذهبهم للأنصار فإنهم وفّقوا الى إقامة صرح مذهب الإمام المختفي فتعزوا به عن مصائبهم . وكان هذا الإمام الطاهر المهدي آخر أحفاد علي ينتظر ، من دون أن تراه عين ، الساعة المناسبة للظهور ولسياسة الدنيا بهدي من الله وإنقاذها ونشر السلم وملء الدنيا

عدلا كما ملئت جورا وإضفاء الخير العميم على كافة المسلمين . وانقسم الشيعة إلى فرق كثيرة تنتسب كلّ واحدة منها إلى أحد أحفاد عليّ وتقف حياتها على انتظار عودته .

ويرجع الفاطميون الى الإسماعيلية الذين اعتبروا إسماعيل الإمام السابع آخر من ظهر من الأيمّة . وقد عاش أحفاد إسماعيل مختفين يوجهون من مخابئهم دعاتهم ينشرون في الجماهير مذهبا مليئا بالرموز يستهوي النّاس بغرابة طرق تلقينه وتفاضل درجات المعارف الّتي يشفون بها غليل أتباعهم. وآلت هذه الدّعوة الواسعة النّطاق رغم كونها سرّية الى انفجار العقيدة الشيعية فساعد ذلك على ظهور المهدي المنتظر في شخص عبيد الله في أوائل القرن العاشر .

عبيد الله المهدي :

كان مقر قيادة المهدي في سَلَمْيَة وهي مدينة صغيرة بالشام تقع قرب حماه في شرقي نهر العاصي وقد أصبحت حوالي سنة 864 مركز الدعوة الإسماعيلية .

وليست لدينا معلومات مضبوطة عن نسب عبيد الله وربّما انحدر من ميمون القداح القرمطي الفارسي الشهير وأحد الشيعة المرموقين . وعلى كل حال فإنه كان يؤكد انتسابه للفاطميين واعترف له بذلك (ولم يشك خصومه في نسبه إلاّ بعد ذلك بزمن طويل ثم أصبح رأس الإسماعيلية وبثّ دعاته في العراق وفارس واليمن) .

غيرأن بذرة الشيعة أخصبت في أرض المغرب إخصابا غير مؤمّل ووجدت في كتامة سمادا لها .

كتامة :

استقرت قبيلة كتامة ببلاد القبائل الصغرى شرقي جبال بابور بين جيجلي وسطيف وقسنطينة وفي أقصى شرقي موريطانيا الرومانية وهي منطقة وسط بين وعورة الجبال وحضارة نوميديا التقليدية وهي الى ذلك أرض ممتازة لبعث الأمبراطوريات .

وكان الأمراء رسميا أسياد بلاد القبائل الصغرى غير أنهم قلما جازفوا بتأكيد حقوقهم الشرعية على البلاد . قال ابن خلدون : ولم تكن الدولة دولة الاغالبة تسومهم بهضيمة ولا ينالهم تعسف . ومعنى ذلك أن القيروان اعترفت بعجزها عن بسط نفوذها عليهم.

وكان بربر كتامة القاطنون على تخوم إفريقية يضمرون للفاتحين العرب عداوة تلقائية تبرز في احتضانهم للجند المتمردين فلما تمكّنوا من صبغ هذه العداوة بصبغة المعارضة الدينية المتقمّصة في شخص زعيم، تحوّلت الى صراع عنيف زالت معه دولة الأغالبة.

ويستبعد أن يكون مذهب الخوارج انتشر ببلادهم في القرن الثامن رغم زعم بعضهم أن فريقا من كتامة ساند الإمام ابن رستم الإباضي أو مال الى النكّارة و تولى نشر مذهب الشيعة بينهم منذ أوائل عهد ابراهيم الثاني داعيان إسماعيليان مسؤولان عن الدعوة في بلاد المغرب ولكن أبا عبد الله هو الذي قام بالعمل الحقيقي .

الداعي أبو عبد الله :

لم يكن لأبي عبد الله في أول الأمر شأن يذكر ثم أصبح محل ثقة المهدي من دون سابق معرفة له حسب ما يشاع ولا بدّ أنه تمتع بقدرة نادرة على التنظيم وفراسة نافذة وديبلوماسية نشيطة. ولقد كان له في مكّة اتصال مع حجاج من كتامة استصحبوه الى بلادهم سنة 893 تقريبا واستقر بإيكجان وهي حصن منيع ببلاد القبايل الصغرى في مأمن من مجموعات الأغالبة ولا يبعد كثيرا عن موقع شوفري (Chevreuil) الحالي .

وليس لدينا تفاصيل مضبوطة عن مراحل دعوته، ويظهر أنه لاقى معارضة من بعض قواد البربر فتخلص منهم بحدّ السيف غير أنه توصل في آخر الأمر الى جمع كلمة كتامة وجعل منهم جيشا عتيدا يستمد عصبيته من عقيدة دينية واحدة. وهجم به على إفريقية. فلما استولى على الميلة سنة 902 أدرك أن الثمرة قد أينعت وحان قطافها. عند ذلك أسرع عبد الله الثاني الذي

بايعه والده إبراهيم الثاني أميرا الى ملاقاة الداعي فهزمه، ولكنه مني بفشل ذريع عند ما سار بجيشه بين الجبال المغطاة بالثلج سعيا الى إيكجان. وسرعان ما أعاد أبو عبد الله الكرة إثر مقتل الأمير على يد زيادة الله الثالث واستولى على سطيف (سنة 904) واسترجع الميلة وهزم الجيش العربي قرب بَلَزْمة شر هزيمة (سنة 905) وأخذ عنوة حصن طبنة وبَلَزْمَة واحتل كل الأماكن الحساسة على طول الطرق المؤدية الى إفريقية (907—908) ثم إنه بعد أن شتت آخر جيش أغلبي قرب الأربس ولا شك، دخل في 27 مارس سنة 909 مدينة رقادة بينما فرّ منها الأمير في حالة يرثى لها. وكان أبو عبد الله يطمئن السكان حيثما حلّ ويعدهم بإسقاط الضرائب غير المنصوص عليها في القرآن متوقيا بالخصوص جانب الفقهاء ورجال الدين لما كان يخشاه من خطر تأثيرهم على الناس. بينما أمر بتقتيل السود عن آخرهم ونشر الأمن بتسليط شديد العقاب على قطاع الطرق وضرب السكة. ولما رأى أن نفوذه قد تدعّم، عيّن قاضيا شيعيا وطلب من المؤمنين أن يحتضنوا تعاليم المنتصرين ثم مضى يبحث عن سيّده المهدي الذي قام بالدعوة باسمه.

انتصار المهدي :

لما أدرك عبيد الله أن دعوته أصبحت تقض مضجع الخليفة غادر سَلَمْيةَ ليلتحق بداعيه الذي كان أبلغه مدى انتشار دعوته (902) وكاد أن يلقى عليه القبض وهو يجتاز مصر متنكرا في زي تاجر، ولا شك أن والي طرابلس تهاون في إيقافه طمعا وغفل عن سجنه وكذلك الأمر بالنسبة لمو ظفي قسطيلية (الجريد) الذين بلغهم الأمر باعتقاله بعد رحيله. وأقلع عن الالتحاق بأبي عبد الله واحتمى ببني مدرار في سجلماسة من دون أن نتبين سببا لذلك ولربّما أودع السجن وعلى كل فإن جيش كتامة خلصه من الأسر بعد أن أطاح وهو في طريقه بمملكة بني رستم في تاهرت (26 أوت 909).

ولقد كانت عودة مظفرة اذ دخل عبيد الله يوم 15 جانفي سنة 910 مدينة رقادة في موكب بهيج وتلقب رسميا بلقب المهدي وتسمّى باسم أمير المؤمنين. وكان انتصاب المهدي بعاصمة الأغالبة إيذانا بانتصار الشيعة وخاصة قبيلة كتامة. فمنها تكوّن جيش الداعي • بفضل أبنائها غزا الفاطميون المغرب ومصر. وإن لفي هذا الانتصار رموزا ومعاني بعيدة الأثر، كما أكد ذلك

« أ. ف . قوتيي » ، اذ وضع بذلك حدّا فاصلا للفتح العربي. وثأر المغرب لنفسه من الغزاة الأجانب.

ولم تعتمد الدولة التي أسسها الخليفة العربي عبيد الله على البدو الرحل بل على كواهل الفلاحين المستقرين ببلاد القبايل. على أن قبيلة كتامة التي أثخنت فيها معارك المغرب ومصر وصقلية ، واستنزفت قواها ملذات السلطان، دفعت بانقراضها ثمن مغامرتها العجيبة.

أوائل حكم المهدي :

كوّن الأمراء الأغالبة إطارات إدارية، سهّل على المهدي استغلالها لحكم إفريقية. قال ابن خلدون : « ودون الدواوين وجبى الأموال وبعث العمّال على البلاد ».

أما المعارضون وكان عددهم بطبيعة الحال قليلا فقد هلكوا بحدّ السيف.

وما أن تقلّد عبيد الله الحكم حتى ظهر في مظهر صاحب الحزم والعزم لا يرضى بوصية داعيته أبي عبد الله الذي كان يوسوس له أخوه أبو العباس مزينا له التمرّد على المهدي وكان يقول له مرارا وتكرارا : « أنت الذي أسّست أمبراطورية » وحاول أبو عبد الله بدون جدوى استدراج المهدي لاقتسام السلطة ثم مال الى الطعن في قرارات الدولة بل ذهب حتى إلى الشك في توفّر صفة المهدي في عبيد الله . وبلغ الأمر الى الأمير فبادر بقتل أحد قواد كتامة وخافه الآخرون، فتآمروا عليه، فلم يردّ عبيد الله الفعل في الحال لما لم يزل يحمله في نفسه ولا شك من عطف واعتراف بالجميل لمن وضعه على كرسي الحكم ولم يجد أخيرا بدا من الأمر بقتل أبي عبد الله وكذلك أخيه (31 جويلية 911).

وتمرّدت كتامة وهم الذين تعلقوا بالداعي أكثر من تعلقهم بالمهدي وقد ساءهم كذلك أن منعوا من نهب إفريقية الغنية واستنزاف أموال أهلها. وفتر حماسهم في أول الأمر لما واجههم به المهدي من حزم ثم التفّوا حول مهدي مزعوم وشقوا عصا الطاعة من جديد في ربيع 912. وجرّوا معهم قبائل الزاب (جنوب قسنطينة) ولاقى عبيد الله في محاربتهم عناء كبيرا. ولم

ينتصر عليهم الا عندما عقد لابنه أبي القاسم على الجيش فأبلى البلاء الحسن ولـمّا يبلغ العشرين من عمـره .

ولم تكن ثورة كتامة هي الوحيـدة من نوعها. ففي خريف سنة 911 تمـرّد سكان تاهرت على نفوذ الشيعة تعاضدهم في ذلك قبيلة زناتة من مغراوة وفي آخر سنة 912 جـاء دور سكان طرابلس الـذين ضاقـوا ذرعا بأعمال كتامة المعسكرين في تلك المدينة وأخيرا التف جـانب من أهل صقلية حول أحد أمراء بني الأغلب واعترفوا بخليفة بغـداد وظلّوا يذيقون جيش الشيعة الأمرين حتى سنة 915، إذا صدّقنا التواريخ التي لم تبلغ حدا من اليقين من شأنـه أن يقينا مغبة الـوقوع في الخطـأ.

الحمـــلات على مصـر :

ما أن أخمـد عـبيد الله تـلك الثـورات الخطيرة حتى وجّه جيشه نحو مصـر ذلك أن المغرب لم يكن في نظره الغاية القصوى بل اعتبره مجرّد نقطة انطـلاق بوصفه الوارث الشرعي لكافة الامبراطورية الاسلامية، فما أن استقام له الامر بافريقية حتّى حاول الاستيلاء على مصر التي اعتبرها بدورها مجـرّد مرحلة جديدة لافتـكاك الخـلافة.

ومنذ شتاء سنة 913—914 هيأ عبد الله حملة على مصر أوكل أمرهـا إلى أحد قوّاد الشيعة ثم إلى أبـي القاسم ولي عهده بالذات. فاحتل من دون كبير عنـاء الاسكندرية والفيوم وهدد الفسطاط، لكن الخليفة العباسي المقتـدر تصدّى للغزاة وأرسل أحد قواده الممتـازين، الخصي مؤنس الفتى.

واضطر أبو القاسم الذي كان منقطعا عن قواده إلى التقهقـر والرجوع إلى رقادة يوم 26 مـاي 915 بعد معـارك كبيرة وداميـة.

ولم تمض أربع سنوات حتى أعاد الجيش العبيدي الكرّة بقيادة أبي القـاسم كذلك..

واستسلمت الإسكندرية من جديد من دون أية مقاومة وأحدق الخطر ثانيـة بالفسطاط وأدركت جيوش الشيعة الجيزة. فواجههـا مؤنس من جديد ودمّر الأسطول العباسي أمام مرسى الرشيد سفنا أرسلها عبيد الله لنجدة أبي

القاسم الذي صمد صمود اليأس (11 ماي 920) ثم اضطر في آخر الأمر إلى التقهقر بعد أن تألبت عليه جيوش مؤنس وأثخنت فيه المجاعة والطاعون، ووصل المهدية في نوفمبر سنة 921.

تأسيس المهدية :

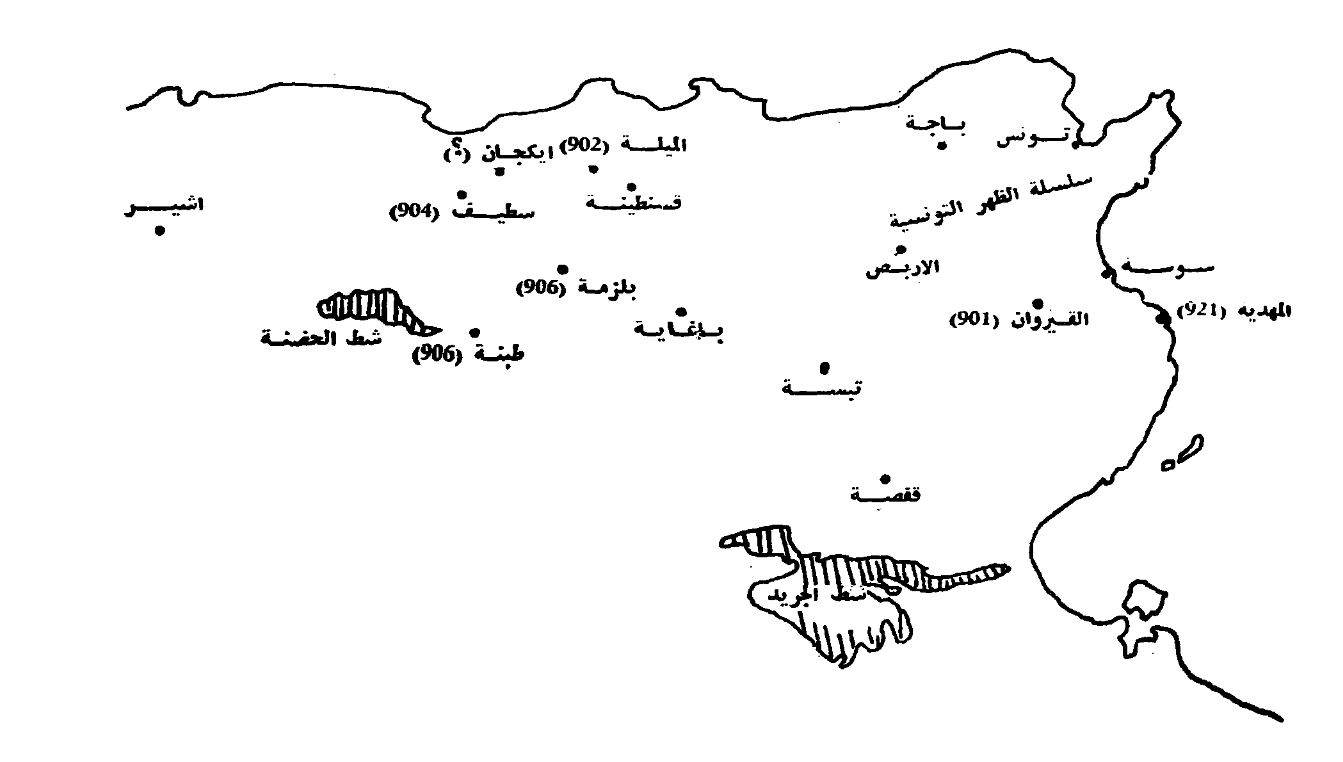
كان عبيد الله في تلك الأثناء قد أبدل القيروان بعاصمة أخرى ولقد جرت العادة منذ ذلك العهد أن تستبدل كل دولة اسلامية جديدة المدينة التي حكم فيها من سبقهم . ثم أن رقادة مدينة الأغالبة الواقعة وسط سهل ممتد الأطراف لم تحطها الطبيعة بما يقيها شر أعدائها. ودلت الأحداث التي جدت في أول عهد الفاطميين أن أعداءهم كثر. وأخيرا انشغل عبيد الله، كما رأينا، بمصر وشرقي البحر المتوسط أكثر من انشغاله بالمغرب، سعيا منه الى الانتصاب على السواحل حيث يمكنه الانطلاق منها لشن حملات بحرية.

وبعد البحث عن موقع ملائم في جهة قرطاج وتونس استقر رأيه على شبه جزيرة بين سوسة وصفاقس وُجد بها فيما قبل مرسى روماني وربّما فينيقي. وهنا أيضا تعوزنا التواريخ المضبوطة : فابن عذاري يرى أن تأسيس العاصمة الجديدة تمّ سنة 912 اثر الثورة المندلعة في أول عهده، أما ابن الأثير فإنه يحدد لنا هذا التاريخ في سنة 915 .ومهما يكن الأمر فان عبيد الله استقر بعاصمته الجديدة سنة 921 وأضفى عليها الاسم الذي بقيت تحمله الى اليوم وهي المهدية مدينة المهدي .

وإن المعطيات الأثرية التي انكب عليها ج. مرسي بالدرس تجعلنا نؤكد أن المهدية كانت قبل كل شيء حصنا منيعا ومرسى حربيا زيادة على كونها دار صناعة وبطبيعة الحال نجد فيها كذلك مسجدا وقصورا غير أنّه كان أعوزها البهرج ذلك أن عاصمة الفاطميين الجديدة كانت مدينة حربيّة أكثر منها مقرا للأمراء .

الحملات في بلاد المغرب :

كانت مشاغل عبيد الله الأوليّة كما رأينا متجهة نحو مصر والمشرق، غير أنه ربّما أدرك أن خيباته في المشرق مردّها بنسبة كبيرة الى عدم رسوخ قدمه في إفريقية .



شكل 5 – مراحل الغزو الفاطمي ٭

ومن الثابت أن أول حملة وجهها إلى غربي بلاد المغرب تمت بعد خيبته الأولى في مصر وأنه توغّل أكثر من ذي قبل بعد فشله الثاني وكأنه في كل مرة يستخلص العبرة من كبواته في المشرق .

وكانت الحملة الخاطفة التي قام بها أبو عبد الله لتخليص سيّده في سجلماسة قد فتحت في وجه الشيعة سهول المغرب العليا الآهلة بزناتة الخوارج ، حيث كانت سلطتهم مطعونا فيها أكثر من أي مكان آخر نظرا للخلافات القائمة بين الغالب والمغلوب وهي خلافات مأتاها المذهب والجنس ونمط الحياة ، فكان الخوارج ضد الشيعة وزناتة ضد صنهاجة ، والرعاة الرحل او الظاعنون ضد المزارعين المستوطنين . وإذا نحن أنعمنا النظر شاطرنا رأي هـ . تراس (Terrasse) في أن جميع الاحداث الواقعة حتى أواخر القرن العاشر في الشطر الغربي من المغرب لم يكن محورها انتصار الشيعة أو الخوارج بل تفوق زناتة أو صنهاجة ، وستنضاف الى ذلك العداوة بين الامبراطورية الفاطمية والامبراطورية الأموية في قرطبة .

ورغم ذلك فإن عبيد الله هاجم أول ما هاجم إمارة نكور (الحسيمة) التي كانت لها علاقات حسنة مع امارة قرطبة (917) ولئن قتل الشيخ المسن أمير نكور فإن عددا كبيرا من أفراد عائلته تمكنوا من الفرار إلى إسبانيا ولم تمر أشهر قليلة حتى عادوا واسترجعوا إرث أجدادهم بقوة السلاح ومعاضدة قرطبة السافرة .

ولكن لم يتجاوز كل ذلك مجرّد مناوشة ، إذ بدأ غزو المغرب الاقصى بصورة فعلية سنة 922 ، عندما تخلّى عبيد الله مؤقتا عن مطامعه تجاه المشرق وتحركت جيوش الشيعة نحو الغرب تحت إمرة مصالة ابن حبوس شيخ مكناسة ولم تجد صعوبة في تخضيد شوكة يحيى الرابع الادريسي وفرض سلطة العبيديين عليه والاستيلاء على سجلماسة . وبعد ذلك بقليل طرد يحيى لأنه كان في نظر أسياده الجدد غير منقاد تمام الانقياد وأبدل بموسى بن أبي العافية أحد أمراء مكناسة ، فدخل بذلك جزء من المغرب الاقصى ، أي جهتا فاس وسجلمامنة ، تحت حماية الفاطميين بواسطة مكناسة .

ولم يكن صاحب قرطبة المنصرف آنذاك إلى قمع الثورات التي ورثها عن جده ليشتغل رغم ذلك عما كان يجري بالمغرب الاقصى ولم يتدخل مباشرة ولكنّه أثار على مكناسة إخوانهم في الجنس بني مغراوة من زناتة .

وظلت مكناسة ومغراوة طيلة عشرين سنة يأكل بعضها بعضا من أجل الاستحواذ على شمال المغرب . وفي بعض الاحيان كان الأدارسة يتدخلون في خصومتهم من ذلك أن عبد الرحمان الثالث الذي نصّب نفسه خليفة بقرطبة سنة 929 وضع حاميات في مدينة مليلة سنة 927 وخاصة سبتة سنة 931 احتياطا لكل ما يمكن أن يحدث وما لبث أن توصل إلى كسب موسى بن أبي العافية . وقام الفاطميون سنتي 933 و 935 بعمليتين جريئتين هامتين من دون الوصول إلى نتيجة تذكر . وإذا جاز القول بأن الفاطميين ثبّتوا أقدامهم بالمغرب الأقصى قبيل ثورة أبي يزيد فإنّه لا يمكن الجزم بأن الأمر قد استتب لهم نهائيا .

طغيان الفاطميين :

كانت طرق عبيد الله في الحكم سببا في تعريض سلطان الفاطميين إلى خطر عظيم فقد كان المهدي على ما يظهر يدير شؤون دولته بلا شفقة ولا رحمة . ورغم وعود الداعي فإن ضرورة الحصول على ما تحتاجه الدولة من موارد أدت إلى إقامة نظام جبائي يعادل في جوره وشططه نظام الأغالبة ، قال ابن عذاري : « وفي سنة 307 ه (919 م) كان بإفريقية طاعون شديد وغلاء سعر مع الجور الشامل من الشيعة والتعلل على أموال النّاس في كل جهة » . وإذا أضفنا إلى ذلك ما للبربر المتمسكين أشد التمسك بالملكية من نفور إزاء نحلة سيد لم ير مانعا في التصرف فيها حسب هواه أدركنا كيف أثارت هذه الدولة الجديدة منذ عهد أول ملك لها حفيظة النّاس فتجاوزت عداوتهم لها ما كان يلقاه منهم الأغالبة .

ويمكن أن نؤكد ظهور مقاومة حقيقية بإفريقية كردّ فعل على المذهب الشيعي إذ ركنت إلى العمل السري ونظمت العصابات المسلحة

ولاقت ألوانا من التعذيب والاستشهاد وحظيت بتأييد يشوبه الحذر من برجوازية القيروان . وتزعم هذه المعارضة صنفان من التقاة : فقهاء المالكية بالقيروان والزهاد والصلحاء العاكفون بالرباطات وعددهم كبير جدا ، وكان لأولئك وهؤلاء من المكانة عند السكان ما اضطر الشيعة إلى توخّي الحذر الشديد قبل التصدي لهم .

وانتحلت الثورة ضدّ استغلال الفاطميين الصبغة الدينية والاجتماعية للمذهب الخارجي المتطرف فقامت مرة أخرى في بلاد المغرب التي قلقلها الفتح ، وأثخنت فيها النزاعات المسلحة واستنزفها النظام الجبائي .

أبو القاسم :

تأبى الأسطورة إلاّ أن تجعل المهدي يتنبأ بأنّ زوبعة الخوارج ستعصف بكامل المغرب قبل أن تتلاشى أمام أسوار المهدية . وبعد اضطرابات منذرة بالويل عصفت في عهد ابنه أبي القاسم (934 946) . ولقد ساهم الخليفة الجديد مساهمة مباشرة في سياسة والده التوسعيّة فاستولى على قسنطينة وطرابلس وقاد حملتين ضد مصر وما أن اعتلى العرش حتى بادر بمحاولة ثالثة مكّنته أول الأمر من الاستحواذ على الاسكندرية ولكنّها آلت إلى خيبة جديدة . ورمى بقراصنته شواطيء بروفانس (Provence) وتمكّن من احتلال جنوة ردحا من الزمن .

أمّا في المغرب فبعد أن تخلّص أبو القاسم بسهولة ممن ادّعى أنّه ابن المهدي نفض يديه من أمر موسى بن أبي العافية الذي مال إلى الأمويين وعهد بممتلكاته إلى الأدارسة كما عهد لهم بتاهرت الثائرة .

ويظهر أنّ أبا القاسم كان أميرا شجاعا غليظ القلب ميّالا دائما إلى خوض المعارك وكان شيعيا مغرقا في التشيع صاحب حزم وعزم . قال ابن حمّاد : إنّ الرسائل والسجلات كانت تبعث من حياة أبيه باسمه ، كما أن المطالب والوفود كانت تأتي إليه . وسعيا إلى فرض هيبته على

النّاس سن عادة لم تكن مألوفة قبله في بلاد البربر فأمر بأن يمسك فارس من الفرسان بمظلة فوق رأسه « وهي شبه درقة في رأس رمح محكمة الصنعة رائقة المنظر [فيها] ظرف من الصناعة في الصياغة ونظم الأحجار الغالية ما يروق مرآه ويدهش من رآه » .

وأغلب الظنّ أن الإدارة الفاطمية تمادت آنذاك وربّما بالغت في توخي القسوة المألوفة في عهد أبي القاسم عندما كان يشارك بصفة فعالة في شؤون الدولة بصفته وليّ العهد فكانت يقظة المقهورين جبارة .

ثورة أبي يزيد صاحب الحمار :

وتزعّم الثورة أبو يزيد الملقب بصاحب الحمار ، وهو زناتي من الجريد . ولد حوالي سنة 885 بالسودان ولا شك ، حيث كان أبوه يتعاطى التّجارة ، وكان هذا الأعرج الحقير ذا مزاج عجيب كأنّه فطر على الشغب فتمكن بفضل دعايته المحمومة من إثارة المغرب وجعل الدولة الفاطميّة على قاب قوسين أو أدنى من السقوط ولم يكن جاهلا ، قال ابن حماد : « فلمّا كبر وشب قرأ مذهب الإباضية ففقه فيه ومهر في الجدل عليه » . وبطبيعة الحال انتسب إلى النكارة وهم أشد خوارج المغرب تقشفا وتطرفا .

وجرت حرارة الدعوة لرسالته مجرى الدم في عروقه فعندما كان يعلّم الأطفال القرآن في توزر أثر فيهم وحملهم على مناهضة المهدي . وبلغت دعايته في الجريد من الخطورة حدّا شغل السلط الشيعية واضطر إلى الرحيل نحو تاهرت معقل الخوارج حيث تمادى في بث تعاليمه .

ولم تنتشر دعوته إلاّ بعد موت المهدي . فكان يجوب المغرب الأوسط ممتطيا حماره الأشهب مصحوبا بأبنائه الأربعة وزوجته وهي من مريديه ، لابسا كعامة الشعب جبّة بسيطة ، ضاربا المثل بأشد ألوان الزهد ، محرضا البربر على طرد الفاطميين وتعويضهم

بمجلس من الشيوخ أي من الفقهاء حسب الطريقة المعمول بها ولا شك في دول الخوارج .

وسرعان ما حظيت هذه الدعاية الثوريّة بنجاح سريع وباهر خاصة في الأوراس لأنّها أثارت آمال بروليتاريا بائسة وجعلتها ترنو إلى حكومة منبثقة منها تنادي بالكرامة وتنشر العدل ، وتدعوها إلى إقامتها بحدّ السّلاح . وكانت صرامة أبي يزيد لا تمنعه من أن يدرك دقيق الإدراك مقتضيات السياسة فلقد قام بمساومات مع الأمويين أصحاب قرطبة لمناصرته ولكن بدون جدوى. واعتمد على المالكية رغم حيطتهم المعهودة لكسب أهل القيروان بصفة وقتية . ووجدت المعارضة الدينية أخيرا الفرصة سانحة للانفجار في وضح النهار .

وسرعان ما غزا صاحب الحمار إفريقية لا تحدوه في ذلك هو وجماعاته شفقة ولا رحمة . روى أبو زكرياء من بين من روى ما اقترفه « عدو الله » من فظائع وأورد تفاصيل ضافية مشكوكا في صحتها نظرا لكونه إباضيا معتدلا مناوئا للمتطرفين .

ولم تستفظع الجماهير هذا العنف بل استهواها ودفعها إلى الانقضاض على الغنيمة معتقدة أنّها ستردّ الكيل كيلين إلى الفاطميين . وسلك هذا الموج العارم من البشر نفس الطريق التي سلكها قبل ذلك أبو عبد الله وجماعته من كتامة ، فعبروا وادي ملاّق ومنه انتشروا في شمال البلاد التّونسيّة حيث عبثا حاولت جيوش القائم الوقوف في وجههم وهزمها أبو يزيد قرب باجة ثمّ استولى على تونس بتواطؤ مع أهلها السنيين واجتاز سلسلة الظهر التونسية ودخل القيروان حيث نجحت مساعي فقهاء المالكيّة في وضع حدّ للنّهب ثم انتصر على جيش أرسل من المهدية تحت إمرة أحد خيرة قواد الشيعة ووصل إلى أسوار المهدية وحاصرها وهي الرقعة الوحيدة من الأمبراطورية الفاطمية الّتي بقيت في حوزة الخليفة (نوفمبر 944) وتخلل هذا الحصار هجومات عنيفة أوشك بها أبو يزيد أن يقتحم المدينة وهو المقدام الّذي لا يتردد في مواجهة الموت فكاد أن يلقى حتفه مرات

عديدة . وبينما كان أهل المهدية يعانون مرارة الحصار إذ أسعفتهم كتيبة فكت الحصار عنهم ومدّتهم بالمؤونة يقودها زيري بن مناد رئيس صنهاجة بمدينة أشير . ولعلّه بذلك أنقذ الدولة الشيعية .

وكانت مثل هذه المقاومة طويلة في نظر الجماعات التي أثار أبو يزيد حميتها فانطفأ حماسها بمثل السرعة التي التهبت بها ، وإذ لم يبق شيء يمكن نهبه فقد عاد عدد كثير منها إلى ديارهم واتّهم آخرون الشيخ الأعرج باستطابة مباهج الحياة . فاضطر إلى التخلّي عن حصار المهدية في سبتمبر سنة 945 . وحاول جمع شتات جيوشه حول القيروان ، ولم يلبث أن وجد نفسه أمام عدوّ جديد : فقد مات القائم في 16 ماي 946 وخلفه ابنه أبو العبّاس إسماعيل المنصور الذي بذل كلّ طاقته في ملاحقة الثائر : ذلك أنه بعد أيام قليلة من تقلّده السلطة دخل القيروان واستحكم فيها رغم الضربات الشديدة التي وجّهها إليه أبو يزيد . وأخيرا جرت معركة دامية تحت أسوار المدينة فكانت الفَيْصَلَ في أمر هذه الثورة (15 أوت 946) .

ودامت المطاردة القاسية عاما كاملا ولمّا قطع المنصور على أبي يزيد خط الرجعة عبر الصحراء التجأ إلى جبال الحضنة وبرهن للمرة الأخيرة عن طاقة عجيبة في الكفاح فصمد إلى الرمق الأخير محفوفا بمن بقي من أتباعه .

ولم تتح للمنصور فرصة التمتع بتعذيب خصمه إذ مات متأثرا بجروحه رغم ما لقيه من إسعاف (أوت 947) . قال ابن خلدون : « فأمر (المنصور) بسلخ جلده وحشوه تبنا واتخذ له قفصا فأدخل فيه مع قردين يلاعبانه بعثا له » .

وحمد الخليفة الله على نعمته عندما أبصر جثّة الثائر بين يديه وأراد أن يبرز فضله فخلع على نفسه لقب المنصور . وفي الواقع تجاوز نجاحه حدود الانتصارات العسكرية العادية إذ استأصل بهذا النصر نهائيا جذور المذهب الخارجي هذه القوة الثورية العظيمة في المغرب الإسلامي وفسح بذلك المجال لسكان بلاد القبائل المستوطنين الّذين

تفرغوا إلى ضمّ شتات بلاد البربر في دولة موحّدة بعد أن اقتطعوا نصرهم من لحم البدو الرحل .

آخر عهد الفاطميين ببلاد المغرب :

إن أعظم ما حققه المنصور في عهده (946 — 953) تمثل في قمع ثورة الخوارج وقد بلغ استتباب الأمن حدا أمكن له معه ترك معقل المهدية وتشييد مدينة جديدة في أحواز القيروان القريبة سمّاها صبرة أو المنصورية وجعل منها مركزا تجاريا نشيطا على حساب جارتها (947) . وفي المغرب كانت حملة واحدة كافية لإقرار النظام بعد تحرير مدينة تاهرت الّتي كان حاصرها ضابط قديم من جيوش الفاطميين أصبح فيما بعد واليا على المغرب من قبل خلفاء قرطبة .

غير أن الأندلسيين اغتنموا ثورة أبي يزيد للقضاء على تأثير الفاطميين السياسي في كامل المغرب الأقصى ، أما هم فقد بسطوا نفوذهم على طول السواحل حتى مدينة الجزائر حيث كانت تقام صلاة الجمعة باسم خليفة قرطبة .

وكذلك الأمر في صقلية فإن وضع الفاطميين كان صعبا إذ اندلعت فيها الثورة في ربيع سنة 947 عندما كان المنصور يطارد أبا يزيد في جبال الحضنة ، وهدأت ردحا من الزمن ثمّ عادت كأشد ما تكون لأنّ نصارى الجزيرة استنجدوا بالبيزنطيين فأنجدوهم وتوصل الوالي الفاطمي في آخر الأمر إلى السيطرة على الموقف وأمكن له ، بعد أن هزم أعداءه الهزيمة الفاصلة تشييد مسجد عظيم في ريجيودي كلابر . قال ابن الأثير : « وإن أخرجوا حجرا منه هدمت كنائسهم كلها بصقلية وإفريقيّة » .

وبلغت دولة الفاطميين في بلاد البربر أوجها ونهايتها في عهد الخليفة المعز (953 — 975) ، وبنى الخليفة في المنصورية قصورا قد

تدل أسماؤها الفارسيّة على بداية تأثير حضارة بلاد ما بين النهرين . وتمكن القائد جوهر مولى المنصور سابقا بإعانة جيوش صنهاجة التابعة لزيري من قهر ملك بني مدرار من سلجماسة كان رجع إلى السنة وتلقب بأمير المؤمنين وضرب السكة باسمه ثمّ استحوذ على فاس ، وأذعنت له كامل البلاد حتّى طنجة وسبتة (958) . ونجح نجاحا مماثلا عندما شنّ بعد ذلك بتسع سنوات حملة ثانية تمكن بفضلها من طمس تأثير الأمويين وإقرار سلم داخلية لم يعرفها المغرب منذ زمان بعيد .

وهكذا أمكن للمعزّ أن يحقق مطامح الفاطميين في مصر ، وكان على علم بحالتها السياسية المتدهورة لذلك دخل جوهر بسهولة عاصمة مصر سنة 969 على رأس جيش يعد مائة ألف رجل كما يقال . واختط حيا جديدا أصبح نواة لمدينة القاهرة الحالية . ولمّا انتصر على جيوش عديدة أتت للنجدة دعا مولاه الخليفة فالتحق به بعد أربع سنوات من انتصابه بالقاهرة القديمة (جوان 973) . وظلت مصر تحت نفوذ الفاطميين مدّة قرنين كاملين .

ولم يصحب الخليفة معه عند مغادرته إفريقيّة الّتي سكنها أحفاد الرسول على مضض « كنوز الأمبراطورية » وأثاث القصر فقط بل اصطحب جميع موظفي دولته ونقل توابيت أسلافه مؤكدا بذلك عزمه على الهجرة من إفريقيّة نهائيا . وأبقى بطبيعة الحال في مصر جيوش كتامة الّتي زحف بها عليها جوهر وجنت صنهاجة ثمار الانتصار الّذي حققه لفائدة كتامة . وفعلا عهد المعز لبُلكين ابن زيري بحكم المغرب باسمه .

4) دول صنهاجة وزحفة بني هلال

أشير زيري :

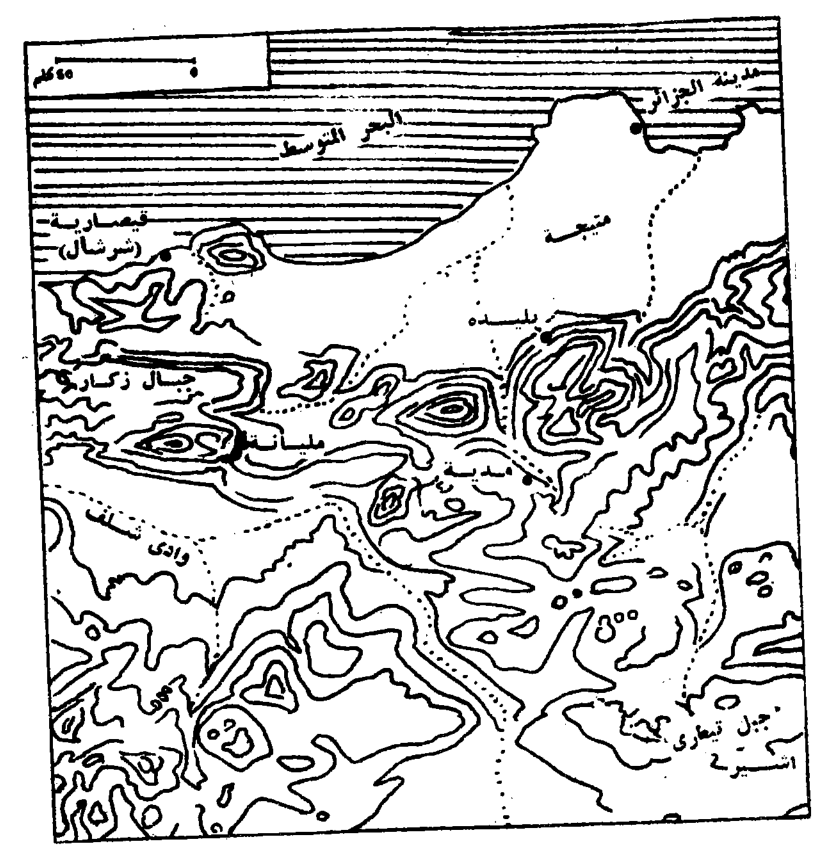
تنحدر دولة البربر التي ورثت سلطة الفاطميين في إفريقيّة من رجل منهم امتاز بالإخلاص والنشاط . وكان لتدخلاته الدور الحاسم سواء في صراعهم مع جند أبي يزيد أو في تصديهم لرحّل زناته . لذلك سمح له الخليفة القائم بتدعيم سلطانه الناشيء فبنى عاصمة سمّاها أشير وجعل منها حصنا منيعا ومستودعا للعدة والعتاد (شرقي بوقاري على سفح الجبل الأخضر) .

وقد بيّن ج . مرسي الذي نقّب على معالم بني زيري بنفسه دلالتها على ما سجله مؤسس هذه الدولة من تقدم . ولا بد أن زيري اقتصر في أول الأمر على مساحة قليلة في أعلى صخرة تحيط بها مهاو ثم اتّخذ قرية أكثر اتساعا أخرج منها سكّانها ونقل خيراتها عندما شيّد في آخر الأمر عاصمته على مساحة فسيحة الأرجاء تعد ولا شك 35 هكتارا .

وسرعان ما عظم شأن مدينة أشير في مرحلتها الثالثة . فلقد كانت بموقعها الجغرافي الممتاز على الحدّ الطبيعي الفاصل بين سهول التلّ الغربي وجبال القبايل الشرقية تتحكم في الطريق الرابطة بين السواحل والجبال وتراقب رحل السهول .

وعمل الخليفة على ازدهارها بل إنّه عجّل ببنائها فأرسل الفنيين ووفر العدّة ونقل زيري إليها سكان مدن أخرى . وربّما وجّه إليها كذلك غير المرغوب فيهم ممن لم يكونوا في مأمن

على أنفسهم ثمّ أحاطها بأسوار عريضة . روى البكري في أوائل القرن الحادي عشر : « أنه ليس في تلك الأقطار أحصن ولا أبعد متناولا ومراما ولا يوصل شيء منها بقتال إلاّ من موضع يحميه عشرة رجال » . لأن عشرة رجال كانوا كافين للدفاع عنها .



شكل 6 ـ موقع اشير بنى زيرى « ثلاث عواصم متتابعة جمعت فى مكان واحد . قيصارية ومدينة الجزائر على الساحل واشير داخل البلاد . ويمتد من داخل البلاد الى الساحل خط جبلى تبرزة مليانة ومدية » (أ . ف . قوتيى) .

وسعيا إلى السيطرة على المواصلات أمر زيري ابنه بتأسيس أو ربّما ترميم ثلاث مدن وهي الجزائر العاصمة ومليانة والمدية وأوكل إليه أمرها .

وكانت أشير عاصمة بحق فهي معقل منيع ومركز مبادلات نشيط بين التل والسباسب وقبلة الفقهاء والعلماء . واضطلع زيري بالسلطة على خير وجه يمسك بيد من حديد على أشدّ الجند تدويخا ويشرف على المغرب الأوسط من أعلى قلعته ويضرب السكة باسمه .

لقد كانت أشير قلب سلطان صنهاجة النابض حتّى أن بني زيري عندما جعل منهم نجاح الخليفة الخاطف أسيادا على إفريقيّة لم يفارقوا عاصمتهم إلاّ عن مضض ولئن لم يتأخر بلكين في الاستقرار بالمنصورية فإن الأمراء لم يجلبوا عائلاتهم إليها إلاّ شيئا فشيئا . ثمّ ضعفت الروابط الّتي تشدّهم إليها فعهدوا بها إلى أقربائهم حتى أفلتت من أيديهم .

ملوك بني زيري :

غير أن بلكين وإن أطلقت يداه في جميع أرض المغرب لم يتجاوز في الواقع منزلة والٍ تابع للفاطميين ، فقد كان يدفع الإتاوة ويبعث بالهدايا الثمينة إلى القاهرة محفوفا بأشخاص تركهم الفاطميون ليكونوا في نفس الوقت عيونا عليه وأعوانا له .

ولمّا تقلد بلكين الإمارة أعاد الكرة على زناتة بطردهم نهائيا من المغرب الأوسط وخرب تيارت واستولى على تلمسان ونقل أهلها إلى أشير . وفي سنة 978 عهد له العزيز الخليفة الفاطمي الجديد بولاية طرابلس الّتي كانت إلى ذلك الوقت ولاية مستقلة بذاتها .

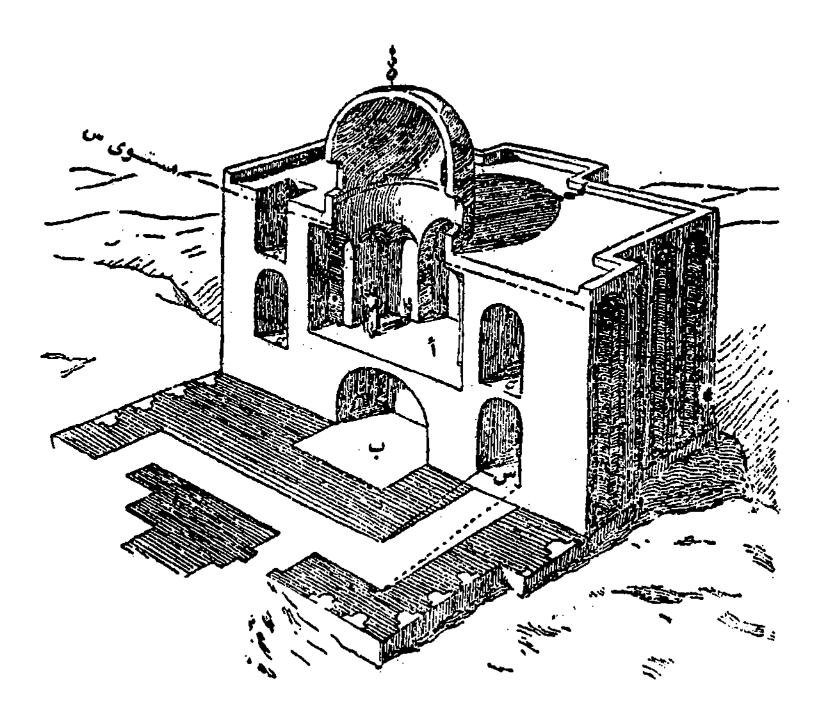
وفي سنة 979 عاد إلى مطاردة زناتة والأمويين الحامين لهم واستحوذ لا على فاس فقط بل على المغرب الأقصى بأكمله (980) غير أنّه لم يقو على الصمود أمام هجوم انطلق من سبتة حيث تحصن الوزير الأموي . ولم يكن لانتصاراته الأخيرة تأثير إذ ما أن توارت جيوشه حتّى أرجعت زناتة الخطبة باسم خليفة قرطبة من الملوية إلى طنجة .

وكان ابنه وخليفته المنصور (984 — 996) أول من حاول زحزحة نير الفاطميين فما أن تقلد الحكم حتّى صرخ أمام أعيان القيروان الّذين جاؤوا لتهنئته قائلا : « ما أنا في هذا الملك ممن يولى بكتاب ويعزل بكتاب لأنّي ورثته عن آبائي وأجدادي » (ابن عذاري) . ولم يطل ردّ فعل الفاطميين ، ووجهوا من القاهرة داعية رسميا إلى بلاد كتامة لإثارة رجالها الأشداء على المنصور (986) ، ودامت الثورة عامين ثم أخمدها زيري بمنتهى القساوة ومنيت الثورة الثانية الّتي اندلعت سنة 989 بنفس الفشل الذريع فانتهى بذلك أمر كتامة ، وبسطت صنهاجة أشير نفوذها على كامل الشطر الشرقي من بلاد المغرب .

غير أنّهم تركوا سائر البلاد لزناتة ذلك أنّ المنصور بعد أن حاول بدون جدوى السيطرة من جديد على فاس وسجلماسة (985) انصرف عن غرب البلاد كلّه وخلاه لأعدائه القدامى ولطاغية الأندلس المنصور بن أبي عامر بل إنّه ربط معهم علاقات عاديّة . وحصل بعد رحيل الفاطميين الّذين وجهوا طموحهم وجهة أخرى توازن نسبي بين زناتة وصنهاجة الّذين تقاتلوا طيلة ثلاثة أرباع القرن . وجنحوا جميعا في آخر الأمر إلى الاستمتاع شيئا ما بثمرات غزواتهم .

أمّا باديس (996 — 1016) فقد آثر الخضوع إلى سلطة الخليفة في القاهرة من دون أن يجني من ذلك فائدة تذكر . إذ هو لم يتلق عند انفصال عمّه حماد سنة (1014) أية معونة من مصر رغم أنّ المتمرّد أعلن عن تبعيته للعبّاسيين .

أمّا ابنه وخليفته المعزّ (1016 — 1062) الّذي اعتلى الحكم في الثامنة من عمره فانه لم يسلك نفس السلوك فهل كان ذلك مأتاه تأثير تكوينه الأول برعاية معلم سني أم هي الرغبة في ارضاء الرأي العام المناهض للشيعة أشد المناهضة في القيروان وفي سائر إفريقيّة ؟ وعلى كلّ تخلّص المعز شيئا فشيئا من نفوذ القاهرة وانتهى به الأمر سنة 1048 إلى اعلان ولائه لبغداد .



شكل 7 ــ قلعة بنى حماد • البرج الرئيسى ــ للمنارة • هذا الرسم المنظورى بما فيه المقطع والخطوط من وضع جورج مرسى ــ أ • قاعة على شكل صليب ــ ب • مفازة نحتية ــ ج • منحدر « الجزء البارز فوق المستوى س هو تصور افتراض » (ج • مرسى) •

(عن جورج مرسى ، كتاب الفن الاسلامى • ج I ص I22) •

الدولة في عهد بني زيري :

آل أمر إفريقيّة إذن إلى نفس الوضع السياسي الّذي كانت عليه سائر بلاد البربر فبعد أن خضعت للخلافة وأطاعت امراء شرقيين لا يربطهم رابط ببغداد وصل بها المطاف إلى الاستقلال على يد أمير بربري ذلك أنه يجب ألاّ ننخدع بولائها للعبّاسيين . إذ هو يؤكد القطيعة،مع القاهرة أكثر من دلالته على ارتباط جديد مع بغداد .

غير أنّ إفريقيّة أخذت تتميّز شيئا فشيئا على سائر بلاد البربر وحتّى عن أشير حيث نشأت الدولة الزيرية لأنّ التأثير الشرقي كان فيها أعمق مما هو عليه في بلاد المغرب الاخرى .

فلم يلبث الأمراء أن تلاءموا مع خطتهم كمعتمدين للخليفة وأصبغوا عليها أبهة الشرق فكان أحدهم يوزّع آلاف الدنانير كأنّه من النبلاء العريقين وكانوا شغوفين بالعلم والتّحف الفنيّة مولعين بالشعر ميالين إلى البذخ . وكانوا يستطيبون الحفلات فيتباهون فيها بفاخر المنسوجات وأصيل الجياد ونادر الحيوان ويقال إن مهر ابنة المعز « حمل في عشرة أحمال على البغال » وبلغت قيمته ألف دينار . وكان مرور الموكب وسباق الخيل مما « سارت به الركبان لمحاسن آثاره وامتلأت البلدان بعجائب أخباره » .

ولقد أمر الأمير عند موت أمّه بأن يصنع التابوت من العود الهندي ويرصّع بالجوهر وتكون مساميره من الذهب وأقام في المنصورية دارا فخمة محفوفة بالأشجار وبنى المعزّ قصورا عديدة .

ويرجع بذخ الأمراء إلى ما كانت تدرّه إفريقيّة من خيرات ويظهر أنّ البلاد تمتعت في عهدهم بازدهار حقيقي فعمت المزروعات أمكنة هي اليوم قاحلة وتراصت القرى في بقاع ليست اليوم إلاّ قفرا ، وكانت باجة تحتاج في كلّ يوم إلى ألف من الإبل لحمل الحبوب ، وتهافت على هذه الأرض المحظوظة لا فقط التجار وأصحاب الصنائع الذين جلبهم النشاط التجاري والصناعي بل الأدباء والفقهاء النازحون من آسيا وخاصة بلاد ما بين النهرين وعن طريقهم تأثير فن بغداد .

ولئن دفعت البلاد ثمن بذخ ملوك بني زيري باهضا فإنّها لم تستنزف كما استنزفتها حروب الفاطميين ومهما يكن فإنه ليس لدينا ما يشير إلى عسف بني زيري في الجباية اللّهم إلاّ في أول عهدهم عندما كانت طلبات القاهرة المالية ثقيلة الوطأة ، ونظرا للرخاء الذي شمل البلاد فإنه يمكن أن نفترض أن الضرائب كانت تستخلص بدون عناء كبير وأنها على ضآلة نسبها كافية لمواجهة مصاريف الدولة الحاكمة .

انفصام الوحدة الصنهاجية - قلعة بني حمّاد :

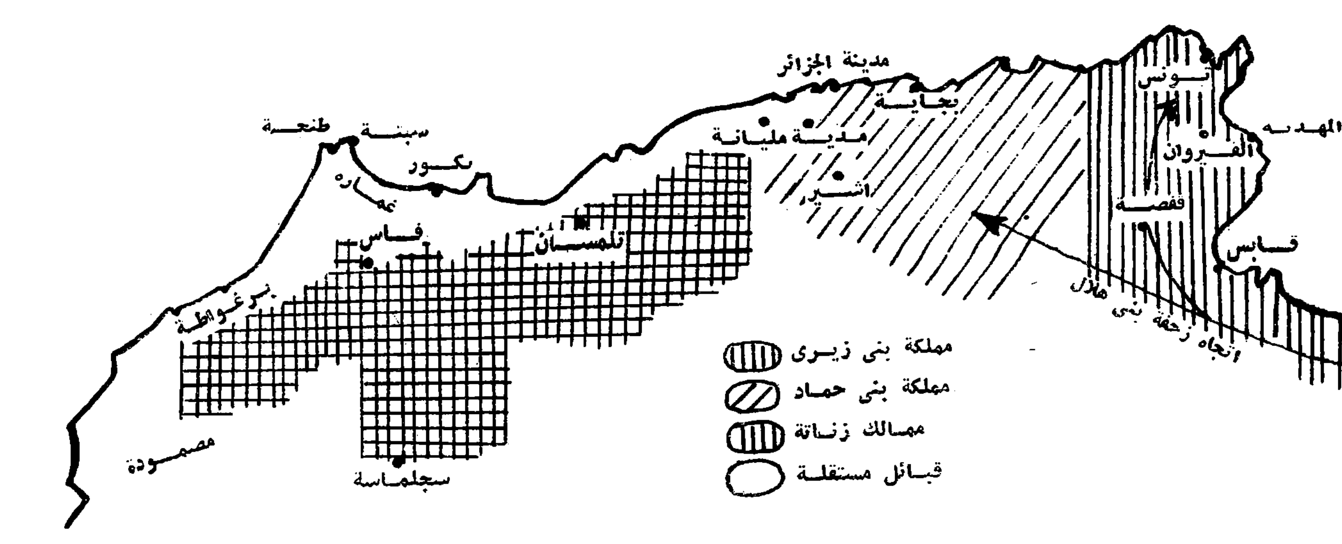
إن صنهاجة القاطنين بالغرب البعيدين عن ترف إفريقيّة بقوا على ما نشأوا عليه من شظف عيش وخشونة وأنفة . وتمادوا بنجاح في قيامهم بدور شرطة المغرب الأوسط . حتّى أنّ الأمير باديس اضطر إلى منح عمّه حمادا امتيازات هامة .

وبلغ زعيم هذه العصابات درجة من العظمة جعلته يأبى الخضوع للأمير فأكد عزمه على التخلص من وصاية المنصورية بتشييد عاصمة بدوره سمّيت قلعة بني حمّاد على منحدر جبل (كتامة) قريبا من المكان الذي دهمت فيه جيوش صنهاجة أبا يزيد (1008 — 1007) .

ولموقع هذه القلعة الجديدة مزايا استراتيجية تفوق ما اختصت به أشير . فلقد سارع حمّاد بتحصينها وعمرها بسكان المسيلة وحمزة عندما خرب مدنهم وازدهرت ازدهارا سريعا ، فجلبت بالخصوص الطلبة لكثرة مواردها وأصبحت بعد زحفة عرب بني هلال على إفريقيّة محط رحال سكان القيروان المفلسين والتجار المشارقة . وإلى هؤلاء جميعا يرجع فضل تطويرها غير المنتظر حوالي سنة 1065 .

وإن ما قام به بلانشي (P.Blanchet) ثم الجنرال دي بيلي (De Beylié) وج. مرسي (G.marçais) من تنقيب يعطينا اليوم صورة أقرب إلى الواقع عن معالم القلعة وأشير .

فلقد بقي من الجامع الأعظم صومعة علوها 25 مترا ومن قصر المنار لم يثبت إلاّ البرج بأسواره العالية المبثوثة فيه من أسفله إلى أعلاه كوى صغيرة (ج. مرسي) ، أمّا دار البحر فقد طمست معالمها ولكن أسسها تمكننا من تشخيص رسمها ، فهي عبارة عن مجموعة من البنايات والحدائق وقاعات للاستقبال وغرف خاصة وحمامات الأسياد أما اسمها فيرجع اختياره لوجود بركة فسيحة كانت مسرحا لألعاب بحرية .



شكل 8 – بلاد البربر في اواسط القرن الحادي عشر .

ولا يمكن تصور قصر إسلامي بني في القرن الحادي عشر بمثل هذه الدقة .

ولقد طغت سواء في القلعة أو المنصورية أصول فن القاهرة وخاصة بغداد : من فسيفساء الخزف والنحت على الجبس ومقرنصات من طين مموّه بالميناء وزينة نباتيّة منمنمة وزخرف هندسي إلاّ أنّها كانت تعوزها جميعا الرقة وكثيرا ما احتفظت بخصائص الآفاق . ولم يبق بنو زيري بطبيعة الحال مكتوفي الأيدي أمام استقلال بني حمّاد ، فحاصر باديس حمادا في القلعة ولكنه مات من غير أن يصل إلى مرغوبه ولم ينجح المعز كذلك بل اضطر إلى التسليم بالأمر الواقع (1017) . ومن ذلك الوقت قامت دولتان لصنهاجة مستقلتان الواحدة عن الاخرى على أهبة التناحر .

وبينما كانت صنهاجة شرقا كانت زناتة غربا في مأمن من خطر المنافس ، فلقد تلاشى كل تأثير سياسي لقرطبة على المغرب الأقصى من يوم أن انهارت الدكتاتورية العامرية في الأندلس ، أما زناتة وهم أتباع الأمويين منذ عهد طويل فقد أخذوا مكانهم بالطبع من دون أن يؤسسوا دولة متماسكة وانقسموا مثل مسلمي الأندلس إلى ملوك طوائف متعادية في الغالب .

وكان تأثيرهم لايشمل المغرب الأقصى باجمعه لانهم اصطدموا بمجموعات بربرية قويّة وهي مصمودة في أعلى الأطلس وغمارة بالريف والجبل وبرغواطة في تامسنا . وكانت غمارة وبرغواطة من الزائغين عن السنة ، الضالين ضلالا كبيرا .

وبينما كان شرق بلاد البربر يتمتع بنوع من التلاحم تحت بني زيري وبني حمّاد فإن الغرب رجع إلى ما كان عليه من تمزّق سياسي كان انقذه منه شيئا ما الأدارسة .

زحفة بني هلال :

حرص امراء القلعة على تأكيد انفصالهم عن بني زيري فضربوا صفحا عن تبعيتهم للفاطميين ، ولمّا عزم المعز بدوره على قطع صلته

بالشيعة والفاطميين بادر بنو حماد بإعلان ولائهم للقاهرة وانتصبوا ممثلين رسميين عنهم وهكذا غنموا وحدهم من الزجفة التي رمى بها الفاطميون المغرب .

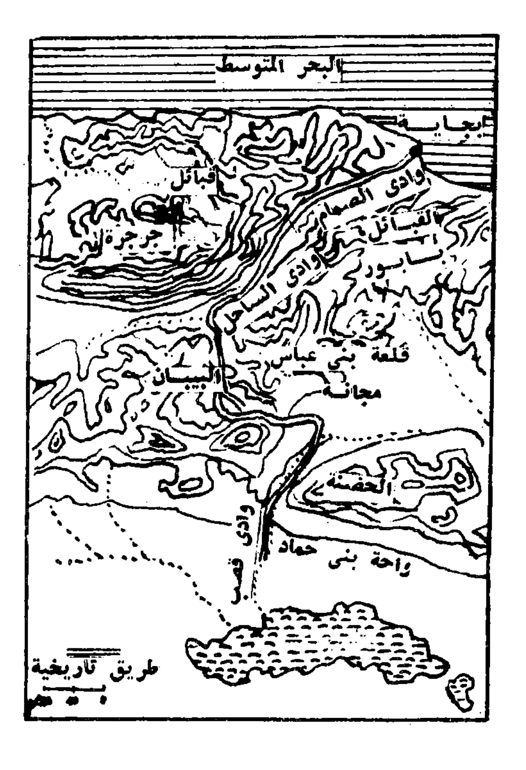
ولقد تلقى الخليفة بغضب شديد القطيعة التي أعلن عنها المعز فانتقم لذلك من افريقية بعرب بني هلال النهابين الذين كان اضطر إلى حشدهم في صعيد مصر عقابا لهم على نكاياتهم بالنّاس وبذلك قد كسب كسبين بضربة واحدة اذ هو تخلص من ضيوف شديدي الوطأة وسلط عقابه على من تمرد عليه .

وسرعان ما استغل بنوهلال هذه النزهة التي أتاحها لهم الخليفة وتبعهم بنو سليم بعد ذلك ولم يكونوا خيرا منهم فانقضوا على إفريقية وهزموا الأمير الذي طمع في مناصرتهم له على بني حماد وخربوا القيروان وعاثوا فسادا في البلاد فأصبحت أثرا بعد عين ، قال ابن خلدون ، متمثلا بآية قرآنية « كأنهم جراد منتشر » . (1050 — 1052) واضطر بنو زيري إلى الالتجاء إلى المهدية (1057) ومنها حاولوا بدون جدوى استرجاع مدنهم الضائعة . وهكذا عمت الفوضى إفريقية فظهرت على ارضها بصورة عفوية مدن وإمارات ودويلات عربية .

وتدفق الرّحل بدون انقطاع ومعهم نساؤهم وأولادهم صادين من سبقهم من العرب ، فتحالف معهم بنو حماد وأمكن للناصر بفضلهم أن يقوم ببعض الغزوات في إفريقية ولكنّه سرعان ما أصبح لعبة في أيديهم بعد أن كان سيدا عليهم .

وانتهى بهم الأمر من فرط مانهبوا أراضي بني حماد إلى الحصول على نصف المحاصيل من المنصور خليفة الناصر . وما لبث أن تخلّى عن القلعة المهددة مباشرة ليستقر ببجاية عاصمته الأخرى وقد أسست قبل ذلك بثمانية عشرة سنة في المكان الذي تنتهي فيه إلى البحر الطريق الكبيرة المشرفة على القلعة من الجهة الجنوبية (1090) ، وفي بجاية بقيت دولته محتفظة بهيبتها حتى غزوة الموحدين .

كـانت زحفـة بني هلال بلا منازع أهم حـدث عرفتـه بـلاد المغرب أثناء القرون الوسطى . فهـي التي أثرت أكثر من الفتح الاسلامي تـأثيرا طبـع المغرب بطـابـع لم تمحه القرون . ذلك أن هذه البلاد كانت ، قبل مجيء الهلاليين إذا استثنينا الاسلام ، بربرية اللغـة والعادات في أعمـاقهـا ، وكانت تسترجع شيئـاً فشيئـاً التقاليد السياسية البربرية كلما تخلصت من سلطان المشرق ؛



شكل 9 ـ الطرق الرابطة بين القلعة وبجايـة . « تصل بين القلعـة وبجايـة عاصمتي مملكة بنى حماد طريق بجارية وحربيشة هامة بين قبائل جرجرة وقبائل بابور .. وهى طريق واسعة فى العموم (المجانة ، وادى ساحل والصومام) . وتضيف فى نقطة تدعى ممر البيبان (ابواب الحديد) كانت تحميها قلعة بنى عباس (أ . ف . قوتيي) .

ورأينا الأن كيف انها حققت توازنا ربما لم يستقرّ نهائيا بين مجموعات الأجناس الكبرى القاطنة هناك منذ آماد بعيدة .

ولقد أتى البدو بلغتهم التي يمكن بسهولة تمييزها عن لهجات أهل المدينة الموروثة عن الفاتحين الأولين . ومن لغة البدو تفرعت أغلب اللهجات العربية الريفية المستعملة اليوم في إفريقيا الشمالية .

وجاء بنو هلال ايضا بعاداتهم الرعويّة ، ويظهر أن البربر المستقرين والرحل توصلوا قبل زحفة بني هلال بصعوبة إلى اقتسام الأراضي الضرورية لمعاشهم . وأفسد مجيء الهلاليين هذا الانسجام بين نمطين من الحياة يفرضها مناخ المغرب وتضاريسه . وبهم عمّت البداوة وتحولت الأراضي المعدة لزراعة الحبوب والخضر والأشجار المثمرة إلى غير ما جعلت له واختنقت قرى ومدن صغيرة وخربت ، ولم تسلم الاّ الاراضي الفلاحية الكائنة على طول السواحل حول المدن الباقية او داخل الجبال التي أحاط بها الزحف العربي دون أن يقتحمها ، والأمثلة عديدة في هذا الباب فلقد توارت الفلاحة بإفريقية نحو الساحل والوطن القبلي وبنزرت بينما أصبحت أراضي الزياتين في الوسط مرتعا للأغنام والإبل ، واضطرت مملكة بني حمّاد إلى النزوح إلى بجاية ، واستحالت القيروان الى مدينة صغيرة بعد أن كانت عاصمة طيلة قرون وانطوت بلاد القبائل على نفسها تحوطها جبالها وامتنعت عن كل تأثير صادر عن القادمين الجدد .

ولم تكن نتائج زحفة بني هلال في الميدان السياسي بأقل أهميّة ، فلقد دحر العرب شيئا فشيئا نحو الغرب بدو زناتة جميعهم اولئك الذين أسسوا قبل ذلك مملكة تاهرت . وفي إفريقية سرعان ما تفجرت مملكة بني زيري وتفرعت عنها إمارات صغيرة عديدة تساند كل واحدة منها قبيلة عربية قد حطت رحالها قريبا منها . وأخيرا فإن مملكة بني حماد التي ظن زعماؤها أنه في امكانهم استعمال العرب فقد انطوت على نفسها حول بجاية معتبرة بقاءها أخف الضررين ، ورأينا هذه الظاهرة الغريبة التي أشار اليها ج . مرسي ، وهي أن صنهاجة ، هؤلاء البرابرة الجبليين يحوّلون وجوههم شطر البحر ويؤسسون في المهدية وبجاية إمارتين

بحزيتيـن ، ولـكن فات الفوت : لأن النرمـان قد انتصبوا بعـد في جنـوب ايطـاليـا وصقليـة وسيتصدون لتحركات بني حمـاد وبنـي زيري البحريـة .

والمـلاحظ أن كـل هذه التغييرات كـانت بطيئة في الجملـة إذ لم تجـر الأحداث مجرى السيـل الجارف بـل كـانت بمثابة المد الذي يزحف من دون توقف ، فلـم يسجـل التاريـخ في تلك الحقبة معركـة تذكر ولاحدثا ذا شأن ، بل هو الدفع المنتظـم في غير عنف ولـكن من دون هوادة .

الباب الثالث

الامبراطورية البربرية

المرابطون والموحدون

1 - المرابطون
2 - ابن تومرت ، مهدي الموحدين
3 - الامبراطورية الموحدية
4 - الحضارة الموحدية

في نفس الوقت الذي كانت القبائل العربية تطأ أقدامها أرض المغرب من الجهة الجنوبية الشرقية كانت مجموعة أخرى بدوية ، لكنها بربرية في هذه المرة ، تلمّ شتاتها في الصحراء الغربية وتتهيأ هي أيضا للانتشار في إفريقيا الشمالية من الجهة الجنوبية الغربية ، إنهم صنهاجة الملثمون الذين يذكرهم التاريخ باسم المرابطين ، فلقد تمكّنوا في ظرف نصف قرن تقريبا من إقامة امبراطورية بربرية شاسعة الأطراف في الجزء الغربي من البلاد وفي إسبانيا .

وبعد ثلاثة أرباع القرن من ذلك تشاد حول قبيلة مصمودة وهم نواة من البربر المستقرين بالأطلس الأعلى امبراطورية أخرى أعظم اتساعا لأنها اشتملت على المغرب الإسلامي بأجمعه من طرابلس إلى كونكة (Cuenca) وأڤادير وهي امبراطورية الموحدين .

وهكذا توصل المغاربة بمحض قواهم طيلة قرنين تقريبا إلى اقامة صرح سياسي شامخ يبدو أن أهل المغرب لم يقدموا على تشييده من قبل .

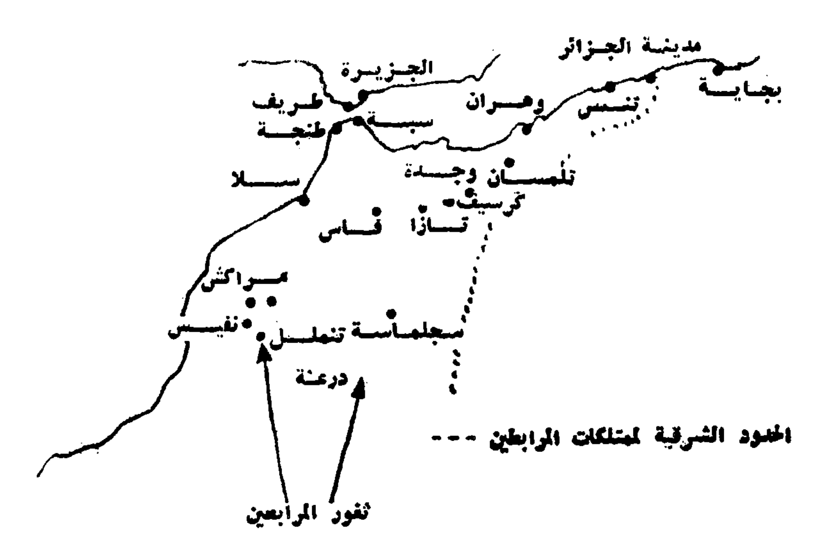
ولم تتوفر لدينا حتى سنة 1920 من المعلومات حول هذه الفترة الهامة من تاريخ المغرب إلا مايرجع إلى قرن أو قرنين بعد الأحداث المعنية . ولم يعاصر الأحداث المروّية إلاّ الجغرافيان البكري والإدريسي والإخباريان المراكشي وابن الأثير المشرقي .

ومن ذلك الوقت كشف المستعربون وعلماء الآثار ، خاصة في المغرب الأقصى مهد هاتين الأمبراطوريتين ، النقاب عن نصوص ومعالم تسمح بزيادة معرفة الرجال والأحداث وفهمهم فهما أحسن ، ولئن بقي الغموض يكتنف مسائل عدّة وافتقرنا ، ربما ، إلى اكتشافات أخرى فإنه يمكن ، ولو بصورة إجمالية ، تتبع تطور أمبراطورية الموحدين وأمبراطورية المرابطين والكشف عن بعض أسباب فشلهما النهائي .

I) المـرابطــون

كـانت الخليـة الأصليـة لامبراطورية المرابطيـن لمتونة القبيلة الصنهاجية العتيدة أصيلـة الصحراء التي كـان مهدها أدرار بموريطانيـا ، وكان لمتونة يجوبون خاصّة المناطق القاحلـة الممتدة من واحات جنـوب المغرب الأقصى إلى بلاد الزنـج ولعلهم كـانوا يضعـون اتقاء من العين لثاما يحجب أسفـل وجوههـم فسموا لذلك بالملثمين ، وكـانوا لايفارقونه أبدا ويحتقرون ذوي الوجوه المكشوفة ويعتبرونهـا مصيدة للذباب .

ولقـد أكـد البكري أنّهـم لم يكـونوا ليحذقوا لاحراثة الأرض ولا بذرها ، وانحصرت ثروتهـم في تربيـة الماشيـة مصدر عيشهم . قال « ينفد عمـر أحدهم وما رأى خبزا ولا أكلـه إلا أن يمـرّ بهـم التجار من بلاد الإسلام أو بلاد السودان فيطعمونهـم الخبز ويتحفونهـم بالدقيـق » .



شكل 10 ـ امبراطورية المرابطين بالمغرب .

وإلى جانب تربيـة الحيوان الضامنـة لقوتهـم ازدهرت تجارة القوافل في الصحراء الغربيـة ابتداء من أواخر القرن التاسع ولاحظ هـ . تراس قائلا : « كانت صنهاجة الملثمون سلاطين ملـوك الزنـج في السودان وأسياد الصحراء الأطلسيـة هم ولاشك أكبر المنتفعين من تجارة القوافل سواء نقلـوا البضاعة أو استخلصوا من القوافل إتاوات المرور والحماية » .

وقد دخل هؤلاء البدو الأجلاف في الدين الاسلامي أثناء القرن التاسع فصرفوا حماسهـم ، وهم حديثـو العهـد بالدين الذي ما زالوا يجهلون تعاليمه جهـلا تامّا ، فـي الجهـاد المقدس ضد الزنوج الكفار . وبعـد أن بقـوا يقاتلـون تحت إمرة قائد واحد أصابهـم داء الانقسام فمـازالوا به أكثر مـن قرن حتى تزعمهـم أمير حازم هو أبو عبد الله محمّد بن طفاوة .

ابــن ياسيــن :

وكـان سيد لمتونة وجيرانهـم جدالة حوالي أواسط القرن الحادي عشر خليفـة أبـي بكر عبد الله يحيـى بن إبراهيـم الجدالي الذي قام بفريضـة الحج صحبة الأعيـان فلاقى في القيروان وهـو راجع من المشرق شيخا مشهـورا من فقهـاء المالكية أصيل المغرب الأقصى يدعى أبا عمران الفاسي . ولمـّا أدرك مدى جهله طلـب منـه أن يشيـر عليـه بأحد مريديه لتعليم قبائـل صنهاجة الصحراوية القرآن ، غير أنه لم يرض ولو واحد من أبنـاء المدينـة الملتفين حول أستاذهم بتعليم مثـل هؤلاء الغلاظ الشداد فأشار أبو عمـران على يحيى بعالم مغربي من السوس الأقصى كـفيل بأن يجد من بيـن طلبتـه إماما يجمـع بين الكفاءة والإخلاص ؛ وفعلا تطـوّع أحدهم وهـــو عبد الله بن يس الإفريقي ورافق إلى الصحراء شيـخ لمتونة .

وكـان عبد الله بن يس حسبمـا يمـكن استشفافه من نص البكري الذي كـان معاصرا له تقريبـا شخصا غريب الأطوار : فهـو عالم في نظـر سكان الصحراء الجهلة من دون أن يتجاوز مستوى أديب متواضـع ، أي أن بضاعته كـانت محدودة وكـان شغفه بالنساء كبيرا . ولا شك أنه كـان إلى ذلك ماهرا له من العصبية ما أتاح له مع طول الـزمن السيطـرة على بدو صنهاجـة وفـرض نظـام شديد بالسيـاط . لقـد كـان رجل عمل محركـا للجماهيـر

أكثر منه رجل مذاهب . وفعلا فإنه لا وجود لمذهب عند المرابطين . وفي أول الأمر نفر منه البدو المفطورون على الحرية والحريصون على إرضاء ميولهم أكثر من التقيد بقواعد أخلاقية لذلك أقنع ابن يس عيْنين من لمتونة وسبعة أعيان من جدالة بتأسيس رباط تحت إشرافه في جزيرة من جزر نهر (النيجر او السينغال) أو أغلب الظن في جزر تيدرا (Tydra) على الساحل الموريطاني بين خليج ليفريي (Lévrier) ورأس تيمريس (Timiris) على أن يتمسك المقيمون فيه أي المرابطون بمبادىء المذهب المالكي في مفهومه الصحيح وتعاليمه المضبوطة .

وطعام المرابطين من الثمار ومما يصطادونه برا وبحرا ومن صفيف اللحم الجاف مطحونا يصب عليه الشحم المذاب أو السمن ، وشرابهم اللبن قد غنوا به عن الماء ، وكانوا يسعون الى نصرة الإسلام بقيادة زعيمهم الروحي الحازمة وفي كنف المساواة . ويذكر البكري أن المترشح لدخول هذه النحلة كان يمتحن امتحانا شديدا ليتطهر مما علق به من الأدران ؛ فكان حد شارب الخمر أو المفتري ثمانين جلدة وحد الزاني مائة جلدة . وكان ابن يس في بعض الأحيان يتشدد في العقاب أما الإخلال بالواجبات الدينية فجزاؤه مضبوط حسب تعريفة : خمس جلدات لمن تخلف عن الصلاة ، عشرون لمن فاتته ركعة أو سجدة ومن رفع صوته في المسجد فأمره موكول إلى مشيئة القاضي وعلى المريد أن يعيد أربع مرات صلاة الظهر قبل الصلاة الجامعة تداركا لما فاته .

الغزوات الأولى :

إن ما اشتهر به المرابطون من صلاح وما أضفوه على نظام حياتهم من فضيلة سرعان ما جلب إليهم حوالي ألف رجل تدربوا على الحياة العسكرية وصح منهم العزم على فرض احترام الدين بحدّ السلاح على المترددين وضعاف الإيمان ، وما لبث هؤلاء الرهبان المسلحون أن أخضعوا قبائل صنهاجة لنفوذهم فأتاح لهم نجاحهم جمع ثلاثين ألفا من الأنصار تقريبًا وهي قوة خارقة للعادة في مثل هذه البلاد الصحراوية . وكانوا حريصين على التفاني في نشر الإسلام وفي نفس الوقت إشفاء غليلهم من النهب ، ولئن ظل ابن ياسين زعيم المرابطين الروحي فإنه كان أدهى من أن يطمح إلى

الحكم الشخصي بجعل الجيوش تحت إمرة يحيى بن عمر وهو أحد أسياد لمتونة من الرعيل الأول ، فأفلح في الحروب التي شنها بوادي درعة شمالا والسودان جنوبا ثم سرعان مادعي للتدخل في سجلماسة وكان بنو مدرار قد أطردهم نهائيا من تافلالت (976 — 977) خزرون بن فلفل المغراوي وهو قائد زناتي من أتباع السلطان الأموي في قرطبة وأعلن أحفاده بعد ذلك استقلالهم . وكان استنجد بالمرابطين عدّة علماء لما لحقهم من صاحب سجلماسة من استهتار واضطهاد فأسرعوا لنجدتهم وتمكنوا بذلك من القيام بواجبهم الديني واشفاء غليلهم من زناتة ايضا ، وإطلاق العنان لغرائز النهب فيهم . واستولى ابن يس على المدينة واذن بتدمير أماكن اللهو وتكسير آلات الطرب ، وغنم كثيرا بعد أن أباد جميع من وقع في يده من مغراوة (1055 — — 1056) .

ومن ذلك الوقت لم تتمتع سجلماسة باستقلالها ولكنها لم تخضع لسلاطين المغرب خضوعا كاملا بل ظلت قبائل تافيلالت وسكان المدينة والولاة المحليون يثيرون الاضطرابات بلا انقطاع . وكان المرابطون قبل استيلائهم بقليل على سجلماسة قد دخلوا مملكة الزنج بغانة حيث استحوذوا على مدينة أودغسط (Aoudaghost) الهامة جنوب ثقانت(Tagant) الحالية (1054)

ولمّا توفي يحيى سنة 1056 أسند ابن ياسين قيادة الجيوش إلى أخيه أبي بكر بن عمر ووسّع تجاه الشمال رقعة غزواته . فاستهدف أول ما استهدف السوس حيث استولى على عاصمته تارودانت(1056) وأمر بإزالة إمارة شيعية كان أقرها الفاطميون من دون أن يتمكن المرابطون قبل ذلك من تثبيت أقدامهم فيها . ثمّ نفذ إلى جبال الأطلس من دون صعوبة على ما يظهر حتى وصل أغمات وفيها تزوج زينب أرملة الملك الجميلة صاحبة العزم الملقبة « بالساحرة » التي ستلعب فيما بعد دورا هامّا .

أمّا أهل البدع من برغواطة الذين هجم عليهم بعد ذلك المرابطون فإنهم لم يعتنقوا بسهولة مباديء السنة بل إن ابن ياسين هلك عند تقهقر جيشه (1059) ولم تخضّد شوكتهم إلا هجمة عنيفة شنها من جديد أبو بكر . وظهر في الشرق خطر آخر ، ذلك أن سلطانا من قلعة بني

حماد اسمه بُلُكّين بن محمّد بن حمّاد سار بجيش عظيم حتى وصل فاس فاستولى عليها . ولكنه قتل عند ما قفل راجعا : قال ابن خلدون : « وانكفأ راجعا إلى القلعة فانتهز منه الناصر ابن عمه الفرصة في الثأر بأخته ومالأ قومه من صنهاجة لما لحقهم من تكلف المشقة بإبعاد الغزو والتوغل في أرض العدو ... » ولم يكن في قدرة بني زيري أن يقدموا على غزوات في الغرب باهضة الثمن لا طائل من ورائها من دون أن يعرضوا وجودهم للزوال .

ولسنا نعرف هل أن المرابطين اصطدموا ببني زيري ، وقد تكون مشاغل أخرى صرفتهم عنهم حينذاك ، فكانت صنهاجة الصحراويون يأكل بعضهم بعضا ، واضطر أبو بكر إلى الذهاب على عين المكان ليضع حدّا لخلافاتهم وترك قيادة جيوش المغرب لابن عمه يوسف بن تاشفين وزيادة على ذلك سلّم له زوجته التي ما لبثت أن أصبح لها تأثير كبير على زوجها الجديد (1061) .

وهكذا بلغت الدولة المرابطية فترة التحول ، ذلك أن هؤلاء الصحراويين معرضون إلى الإبادة بين عشية وضحاها لأن بني حماد يهددونهم ولأن نزاعات داخلية خطيرة ، ولا شك ، كانت تتآكلهم ، وأخيرا لأنهم استقروا في بلاد مازالت لايؤمن جانبها ، وهذا هو رأي البكري عند ما قال : « وأمير المرابطين إلى اليوم وذلك سنة ستين وأربعمائة (1067 — 1068) أبو بكر بن عمر وأمرهم منتشر غير ملتئم ومقامهم الصحراء » الاّ أن أسباب النجاح لم تعوزهم في الواقع فبنو حماد كانوا مشغولين عنهم وقبائل المغرب كانت أعجز من أن تتحد على الغاصب ، وكان المرابطون يتمتعون بهيبة دينية عظيمة الأثر في بلاد مثل المغرب الأقصى لمّا يتغلغل فيها الاسلام . وكانت فيهم زينب أصيلة البلاد التي تبدو لنا من خلال روايات الإخباريين قوية جدا . وكانوا يعولون على جيش قد جرّب الحرب وعزز صفوفه بالمرْتزقة النصارى والسود وأخيرا كانوا يعتمدون على رجل كان مغمورا قبل ذلك (إذ لم يذكره البكري ولو مجرد ذكر) ولكنه سيفرض نفسه كغاز عظيم ، ماهر في استغلال جميع الفرص .

ابـــن تاشفيـــن :

كـان سنّ ابن تاشفين في ذلك الوقت خمسين سنـة وكـان صحراويـا بأتـمّ معنـى الكلمة ، وتلك كـانت صفتـه من خـلال وصف ابن أبـي زرع له في القرطاس « كان أسمـر اللون نـقيه ، معتدل القامة ، نحيف الجسم ، خفيف العارضين ، رقيـق الصوت ، أكحل العينين ، أقنى الأنف ، لـه وفرة تبلـغ شحمة أذنيـه ، مقرون الحاجبين ، أجعد الشعر . وكـان رحمـه الله بطلا نجدا ، شجاعا حازما ، مهابا ، ضابطا لملـكه ، متفقدا للموالي من رعيتـه و [مـا] ببـلاده مـن ثـغـور ، ومـواظبـا على الجهـاد ، مؤيـدا ، منصورا ، جوادا ، كريمـا شيخا زاهدا في زينـة الدنيـا ، لبـاسه الصوف ، لم يلبس قط غيره وأكلـه الشعير ، ولحـوم الإبل وألبانهـا مقتصرا على ذلك لم ينتقـل عنـه مـدى عمـره إلى أن تـوفي » . وتطـورت الأمبـراطوريـة المرابطيـة بفضلـه تطـورا سريعـا لابمـا له من صفات القيـادة فقط بل أكـثر من ذلك بتمسكـه الشديد بالدين ممّا ضمـن له أنصارا مقتدريـن من بيـــن تقاة المسلمين رعايا مغراوة بفاس . ولمّا علـم أبو بـكر بغزوات مساعده في المغرب الأقصى والمغرب الأوسط عاد فطـالب بتسلّم القيادة ولـكنـه لـم يظفـر إلاّ بهدايا ثمينـة أشارت زينب بتسليمهـا له واضطـر إلى الرجوع إلى الصحراء . وعندما قضى نحبـه أمـكن لابن تاشفيـن أن ينعـم بالسلطـة المطلقة من دون أن ينازعه منازع (1087 — 1088) .

وسرعان ما ركز سلطتـه وشيّد على السفـح الشمالي من الأطلس في أعلى مجرى واد تنسفت معسكرا لم يكـن يتوقع آنذاك أن عاصمـة كبرى اسمهـا مراكش ستنبثق منـه (1060) ، ولم يبخل علينـا المؤرخون العـــرب بتفاصيـل منتحلـة في أغلبهـا حـول تأسيس مديـنـة كـان لهـا فيمـا بعـد مستقبل زاهر جدّا وكـانت أرضهـا وهي على ملك عجـوز من مصمـودة معروفة بأنهـا مخبأ لقطـاع الطريـق . ولقـد دفع ابن تاشفيـن ثمنهـا من مـالـه الخاص وضرب فيهـا خيام المرابطين وشارك بنفسه في بناء المسجد . و ذكر في القرطاس : انه كان : « يحتزم ويعمـل في الطين بيده مع الخدمة تواضعا منـه وتورعا » .

ويظهر أن هذا الوصف منسجم مع طبع هذا الولي الصالح . وإلى اليوم لايزال موضع هذا البناء يدلّ إليه في الشمال الغربي من الكتبية . وعلى كل فإن مراكش ظهرت من يوم تأسيسها بمظهر المدينة الصحراوية بواحاتها الموجودة في مناخ لا يناسب زراعة النخيل ، غير أن سكان الصحراء لم يكونوا ليرضوا بالنخلة بديلا .

ومن هذه القاعدة حيث تقوم الشجاعة والإقدام مقام الأسوار كان ابن تاشفين يوجه الحملات نحو غرب المغرب وأوسطه . فاستولى على فاس (1069) ووضع حدا بذلك لسيطرة زناتة على شمال المغرب الأقصى ودخل الريف واجتاز وادى الملوية وأخضع بني سناسن ووجدة ولمّا أصبح سيد المغرب الأقصى ولّى وجهه شطر الشرق فاستحوذ على تلمسان ووهران وتنس والونشريس وضرب الحصار على مدينة الجزائر (1082) ولكنه لم يهاجم بلاد البربر الشرقية ولا حتى كتلة بلاد القبايل . وبعد ان وطّد سلطانه في البلاد المغزوة أوكل أمرها إلى ضباط مرابطين ، وقفل راجعا إلى مراكش وكأنه اعتبر نفسه قد أدّى واجبه كاملا ، ولكن سرعان ما أجبرته أحداث هامة على التدخل في اسبانيا .

ملوك الطوائف :

لم يكن الخليفة الأموي بقرطبة رغم هيبته ليصمد أمام الصراع القائم بين المسلمين في الجزيرة فكان عرب المشرق وبربر المغرب المرتدون الأندلسيون والعبيد النصارى المعتقون يتربصون بالسلطة الدوائر فيستغلون كل الفرص لحسم خلافاتهم بحدّ السلاح . ولم يقدر عليهم إلا الوزير ابن أبي عامر المنصور المشهور بطول باعه وقوة شكيمته وذلك بالاعتماد على جند البربر ، ولمّا مات ابنه المظفر (1008) لم تعد أية سلطة بقادرة على الحيلولة دون تداعي الخلافة فظهر طيلة ربع القرن الذي تبع طرد آخر خليفة أموي أكثر من عشرة أدعياء ثمّ اختفوا .

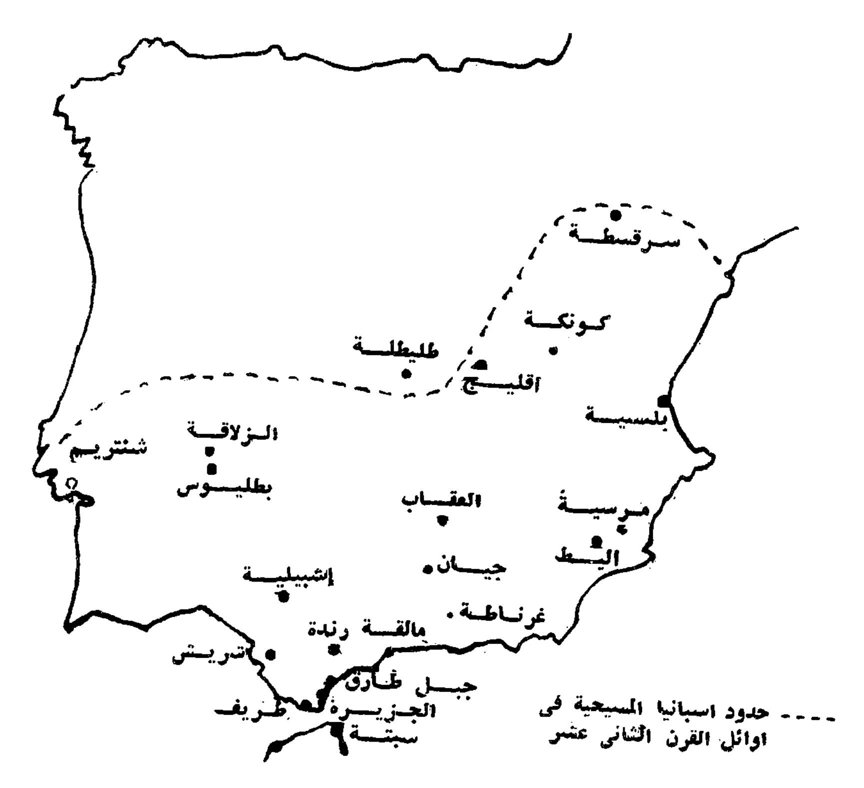
واستغل وُلاة المقاطعات وأعيانها هذه الفوضى فأسسوا شيئًا فشيئًا 23 امارة مستقلة تمسح أرضا شاسعة تمتد من الارغون [رغُون]عند العرب (Aragon) شمالا وبلنسية شرقا إلى الأندلس ومرسيّة جنوبا ولوزتانيا

سـابقا غربـا ، ولقد سموا مـلوك الطوائـف (Reyes de taïfas) بـالاسبـانيـة . وفـي بَـطَـلْـيَـوْس أسس ضابط بـربـري مـن مـكناسة كـان يـدعي أنـه عربي الأصـل دولة بني الأفطس (1027 — 1094) . وفي الجنوب فعـل بالمثـل ملـوك صغار برابرة وهم بنو حَمود بمالقة (1016 — 1057) وبنو زيري بغرناطة (1012 — 1090) وفي الجنوب الشرقي كان عبيد مُعْتَقون قائمين على مـا سمي بـالممـالك الصقلبيـة ببلنسيـة والمـريّة ، وفي الأرغـون (في التخوم العليـا) سيطر على سرقسطـة (Saragosse) بعـد انقـراض دولـة التُجيبيين المزدهرة (1019 — 1039) بنو هـود وهم أحلافهـم بـلاَرِدة مـن أصـل عـربـي مثلهـم (1039 — 1180) وأعظـم هـذه الممـالك مملـكـة إشبيلية (1023 — 1091) التي كـانت بيـد بني عبّاد وأصلهـم من الشام وقـد وسعوا رقعة نفوذهم في اتجاه البرتقال الحالي ومالقة وفاس وبطليوس بالجزء الجنوبـي الغربي من الخلافـة سابقا ، واستولوا في آخر الأمر على قرطبة ، وأصبحت بذلك أشبيلية أول مركز سياسي وفـكري وفني بالجزيـرة .

وانتهز النصارى فرصـة تشتت قوى المسلمين والخلافات المزمنـة بيـن أمرائهـم ليعملـوا على استرداد ارضهـم (Reconquista) وبعـد أن وجـد فرديناند الأول (فرذلند الطاغية عند أهل الأندلس) جليقية (Galice) وليـون (Léon) مع قشتـالة (Castille) أمسك عن ضـم نافـار (1054) (Navarre) إلى مـلكه وأقام بذلك الدليـل على صرف جهـوده في مقاومة المسلمين . ولم يزل يهاجمهـم وينتصر عليهـم حتى اضطر ملـوك اشبيلية وبطليوس (Badajoz) وطليطلة (Tolède) وسرقسطة (Saragosse) إلى دفـع الجـزية ووسـع حدود ملـكه فـي جميـع الجهـات ، وفـي سنة 1063 قـرر البابـا الأسكـندر الثانـي منـح مغفـرة خاصة لـكل من يشد الرحال لقتال المسلمين في اسبانيـا ، فهـب عدد كـبير من فـرسان فرنسا لمعاضدة إخوانهـم في ما وراء الجبال ، وفي نفس الفترة دخلت مملـكة الأرغون في صراع مع ملـكي سرقسطـه ووشقـة (Heusca) وكان من المـكن أن يـكون سعي بطلـي المسيحية حاسمـا الاّ أن ما نجـم عن خلافة فرديناند من اضطرابات (1065) حال دون نيـل الأرب .

وكـان ان جمع الملك الفنس السادس (الفنش وأذفنش عند أهل الأندلس) من جديد كـامل أراضي اسبانيـا الوسطى والغربيـة شمـال تاجو

(Tage) ليستأنف سياسة والده (1072) ، وأثناء هذه المعارك الغامضة التي واجه فيها النصارى أقوام الموريسك (Maures) وتناحر فيها ملوك الطوائف قام الفارس ردريق (ديازدي فيفار) (Diaz de Vivar) الملقب عند الاسبانيون بالبطل (Campiador) وعند جنده المسلمين بسيدي (بالاسبانية Miocid) بدور سياسي فاصل فكان يضع سيفه مرّة في خدمة ملك قشتالة ومرات في خدمة دولة بني هود بسرقسطة وكان في أكثر الأحيان يخدم مطامحه الشخصية . ومن المحتمل انه لولا الخلافات والضغائن الواقعة بين « ألفونس » و « السيد » لتحقيق النصر ، لاختصر المسيحيون الآجال طالما أن قوى ملوك الطوائف كانت محدودة .



شكل : II ـ اسبانيا المسلمة فى عهد المرابطين والموحدين

وفرض ملك قشتالة إتـاوة مضاعفـة على المعتمـد ملك اشبيلية الـذي كـان وقف موقفـا مناوئا له في صراعه من أجــل الملك . كمـا أجـبر ملك طليطلة على أن يكون تابعـا له وفي سنـة 1083 شـن حملـة واسعـة النطـاق على البلاد الاسلاميـة ثمّ استغل تمـرد أهل طليطلة ليستولى على مدينتهـم ويجعل منها قاعدة هامة لعملياته الحربيـة (1085) فـأمكنـه بذلك أن يتوسع في ممتلكاته من تاجو إلى توريه وأن يترك مرسية تحـت رحمتـه وأن يجبر ملـوك الطـوائف جميعهـم من الشـرق إلى الجنوب على دفـع الإتـاوة ، أمّا في الشمال فإن ملك سـرقسطـة كـان يلاقي عنـاء كـبيرا في الصمـود أمام ضربات ملك الارغون وكـونتات برشلونة .

وكـان على ملـوك الطوائف أن يختاروا بين الخضوع لألفونس السادس أو الهجرة ، ويروى أن المعتمد أكـد أنّه يؤثر أن يكون جمّالا في إفريقيا على أن يبقـى بوّابا في قشتالة ، إلا أن هناك حلا ثالثـا كـان كـفيلا بالخروج من المأزق وهو الاستنجاد بمسلمي العُدْوة لمـواجهـة النصـارى . وكـان للعاطفـة الدينيـة المتأججـة في نفـوس الطبقات الشعبيـة المسلمـة صداهـا البعيد في إسبانيـا ، واستحالت العلاقات الودية بين النصارى والمغاربـــة إلى عداء دينـي أكـثـر منـه سياسي ولـم يعـد في إمكـان الملـوك أن يتجاهلـوا ميول الجماهير الدفينة فالتجأوا دفاعا عن العقيدة إلى نفس المحاربين البربر الذين كـانوا وجهـوا ضدهم ضربات الثورة التي أدت فيمـا سبـق إلى سقوط الخلافـة وقرروا الاستغاثة بالمرابطين وآثروهم على بني هلال في آخر الأمر .

تدخـل المـرابطيـن :

كـان يوسف بن تاشفين منذ سنة 1074 كـثيرًا ما يتلقى الدعوات الملحة للتدخـل في اسبانيـا سواء لنجدة المسلمين الذين اشتدت عليهـم وطأة النصارى لنصرة أمير مسلـم على آخر (مذكّرات عبد الله) وكـان يأبـى جـبِلّة المجازفة فتريث في الأمر حتى استوثق من سيطـرتـه على مضيـق جبل طارق : فلـمّـا استولى على سبتة سنــة 1083 اشترطْ قبـل أن يستجيب لطلبات المعتمد الملحة أن يستبقي تحت سلطتـه الجزيرة الخضراء ، ويظهـر أنه لم تـكن لــه فعـلا مطامـع في احتلال اسبانيـا التي كـان يجهـل عنهـا كـل شيء ، إنمّا

كان همّه الجهاد في سبيل الله استجابة لإخوانه في الدين وتوفيرا للظروف الملائمة .

ونزل بالجزيرة الخضراء في جيش عظيم وجعل منها مركزا محصنا ثمّ اتصل بالمعتمد في إشبيلية وزحف نحو طليطلة بما وصله من مدد إشبيلية وغرناطة ومالقة والمريّة وبطليوس ، وتقابل الجيشان في فلاة قرب الزلاقة قريبا من بطليوس (Azagal ou Sacralias) ودعا ابن تاشفين الفونسو إلى الإسلام فاحتكم إلى السيف وجال المرابطون جولة باغتوا بها العدو من خلف وكان معها النصر العظيم وكاد ملك قشتالة ان يقع في الأسر فاضطر إلى الانسحاب من جهة إشبيلية والكفّ عن محاصرة سرقسطة (23 أكتوبر 1086) وكان لهذا الانتصار الصدى العظيم في العالم الإسلامي بأجمعه لا يماثله إلا أخذ طليطلة من الفونس السادس ، واعتبر ابن تاشفين من ذلك الوقت واحدا من عظماء أبطال المنافحين عن الإسلام الذي كان محفوفا بالمخاطر .

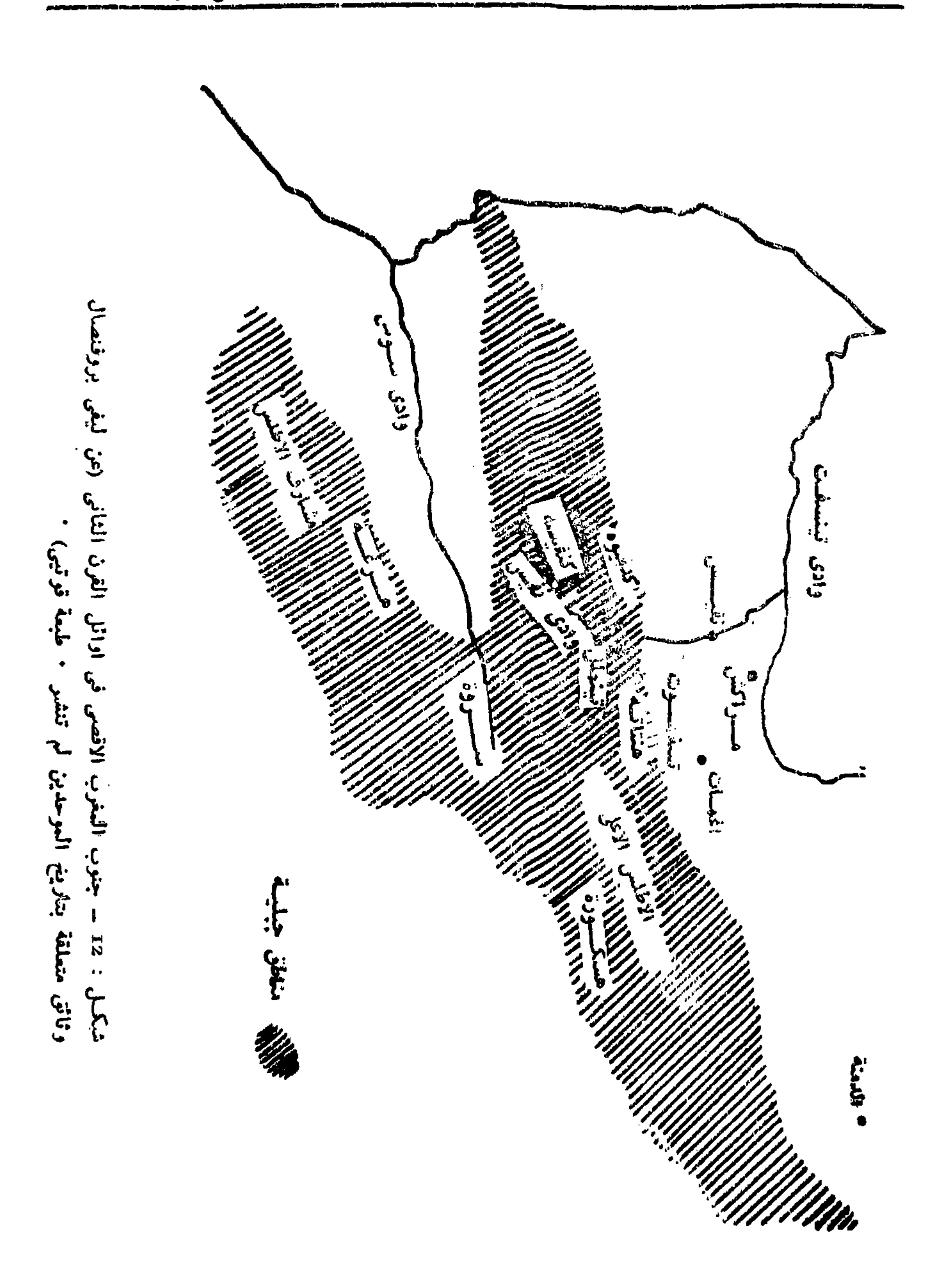
وتوقف توغل الجيوش الإسلامية عندما التحق ابن تاشفين بالمغرب بسبب وفاة ابنه ولم يترك للمعتمد إلا ثلاثة آلاف من البربر ، فأعاد النصارى الكرة نحو مرسيّة والمريّة فلم يجد المعتمد بدا من الذهاب بنفسه إلى ابن تاشفين يناشده أن يتدخل مرّة أخرى (1088 أو 1090) فخرب ابن تاشفين قاعدة أليط العسكرية المنيعة (في الجنوب الغربي من مرسية) التي عجز عنها ملوك الطوائف وأرجع الأمور إلى نصابها . وكان كل شيء ينبيء بأن الهجمة العظيمة لقوى المرابطين والمغاربة المتحالفة قد آن أوانها ، غير أن الممالك الإسلامية باسبانيا كانت أضعف من أن تقدّم لابن تاشفين إعانة فعالة وبلغت حدا من التفرقة أغرى القائد البربري بتعزيز سلطانه على حسابها . ولم يلبث أن سلك سلوك السيد لا الحليف ، وإذا كان ملوك الطوائف وهم الأدباء الخليعون يحتقرون هذا المغربي المتقشف ويعتبرونه من الأجلاف فإن عامة النّاس الذين كانوا عرضة لانتقام النصارى وكذلك الفقهاء كانوا يميلون عن أمراء الأندلس المتخاذلين في دينهم إلى هؤلاء البربر المتمسكين شديد التمسك بالمالكية وكانوا يعتبرونهم رسل الله .

وأمكن لابن تاشفين بهـذا التأييـد المزدوج أن ينصب نفسه حكما يفصل الخصومات وينفي الملوك ويفتك مملكاتهـم وكـان الفقهاء يفتون في هذه التعديات لإكسابهـا الصفـة الشرعيـة ، وهكذا نجح في توحيد المسلمين من جديد باسبانيا (1094) إلا أنه ترك مملكة سرقسطـة وشأنهـا واعتبرها دولـة فاصلـة بين النصارى والمرابطين ولم يستول على بلنسية التي كانت بيد السيد ثمّ خلفته عليهـا ارملتـه يمنـة ، (Chimène) إلا في سنة 1102 ولمّا توفي يوسف وقد ناهز المائـة حسب ما يقـال خلّف لابنـه علي الذي أنجبتـه جارية نصرانيـة والبالـغ من العمر آنذاك 23 سنة ، أمبراطورية شاسعـة كـانت تضـم إسبانيـا الاسلاميـة الممتدة حتـى افـراغـة (Fraga) (في الجنـوب الغربـي من لاردة) شمـالا وجـزر ميورقـة (Majorque) ومنورقة (Minorque) وإبيسة (Ibiça) (1106 — 1107) .

علـي والـدفاع عن المالـكية :

تقلّد الملك المرابطي الجديد الحكم بدون صعـوبة تذكر ، رغم شبابـه وهـو دليـل آخر على ما كـان يتمتـع به يوسف من هيبـة عظيمـة ، وكـان علي أشدّ تقـوى من والده فقـد بلـغ به الورع حدا أصبـح معـه آلة طيعـة في يد الفقهاء ، ثمّ إنه لم يعرف في شبابه صعـوبة الحياة في الصحراء بل انّه ترعرع في إسبانيـا وتربّى تربيـة أهل الحضر بعيدا عن خصائص الحياة القبليـة وعاداتهـا وأخيرا فقـد كـان ابن شيـخ مسن تعـوزه الحيويـة . قـال المراكشي : « وكـان حسن السيرة ، جيد الطوية نزيه النفس ، إلى أن يعـد في الزهاد والمتبتلين أقرب منـه إلى أن يعـد في الملوك والمتغلبين ... وقنع بـاسم إمرة المسلمين ، وبمـا يرفع إليـه من الخراج وعـكف على العـبادة والتبتّل فـكان يقـوم الليـل ويصوم النهـار ، مشتهـرا عنه ذلك ، وأهمـل أمور الرعيـة غاية الإهمـال » . فلا غرابـة إذن كمـا ذهب إلى ذلك المراكشي نفسه أن يتصرف في عهـده عظمـاء الأمبراطورية بمـا فيهـا النساء حسب مشيئتهـم من دون مراعاة للصالـح العام .

لهـذه الأسباب لم يدم سلطـان المرابطيـن إلاّ قليلا فقـد كـان الدين سببا في سقـوط دولتهـم كمـا كـان سببا في قيامهـا ، وكان علي على سنـة أبيـه مالـكيا متشددا وكـان هذا المذهب في اسبانيـا كشأنه في كـامل



شكل : 12 – جنوب المغرب الأقصى في اوائل القرن الثاني (عن ليفي بروفنصال وثائق متعلقة بتاريخ الموحدين لم تنشر ، طبعة قوتيي) .

المغرب يقتل المجهود الفكري ويطفئ العاطفة الدينية ويمنع تأويل الآيات القرآنية وكل بحث شخصي لمعنى القانون ولايقرّ القياس كأصل من أصول الدين ، فكان يعتبر مجرّد السؤال عن معنى أحاديث الرسول

بدعة ويعرض عن دراسة القرآن والحديث مما يؤول به إلى ضرب من التجسيد الفاحش والإغراق في الشك . وكـان يؤثر التفرغ مستندا إلى كتب أهل السنة المروية عن الطبقة الثانيـة حول فقـه المعاملات أي المتعلقة بالأحكام الوضعية في مختلف فروعهـا ولم يكن هذا الجدل الشكلي المستفرغ من كل محتوى دينـي سوى ذريعـة لمناقشات قانونيـة وفقهيـة لانهاية لها . فكان كـل واحد يأنس في نفسه الكـفاءة لإصدار فتوى في أي موضوع كـان ولقد أنـكر هذا الاتجاه الغزالي في شكـه وهو أعظـم أيمـة الإسلام وأكـثرهم طرافة (1058 — 1112) فيبيّن في كـتابه « إحياء علـوم الديـن » أن الفقه كمـا يراه المالكية المتشدقون إنّمـا هو شغل دنيـوي لا صلة لـه بالدين ، وشهـر بتدخل الفقهاء في السياسة لغاية في أنفسهـم وفضـح تعلقهم بالشهـرة وعاب عليهـم زعمهـم النجاة بالنفس بمجرد رياضـة فقهيـــة غير مجدية بينمـا الدين هو قبـل كـل شيء إيمـان بالقلب فلا غرابة أن أثارت تآليفـه حفيظـة المالكية لا لأسباب عقائدية بل لما احتوت عليـه من صارم الأحكام على الفقهاء لذلك حملـوا عليـا عدوّ علم اللاهوت ، على احراق التـآليف وتهديد كـل من ملك جزءا منهـا باستصفاء أمواله وقتلـه ، وكـان في هذا الاعتداء على الفـكر القضاء المبرم على المرابطين كمـا دل على ذلك نجاح الحركـة الموحديّة .

المعالم المرابطية في المغرب :

رغـم ما كـان عليـه المرابطـون من تقـوى فانهـم لم يحكمـوا إسبانيـا بالاعتمـاد على البربر السنيين وحدهم ، فلقد وجدوا أنفسهـم في وسط اشتدت فيـه وطأة التقاليـد ورقت الحضارة بحيث لم يعـد ممكـنا فسخ الماضي فسخا وبمـا أنّهم لم يبسطـوا سلطـانهـم على سكان الصحراء فقـط بل على جميع مسلمـي المغرب كمـا يدل على ذلك لقبهـم وهو أمير المسلمين فإنهـم استعانوا برجالات البلاد المرموقين فلم يستغنوا لا عن الأدباء ولا عن رجال الفن بل قصدهم على حدّ قول مؤرخ عربي عدد عديد من ألمع الكـتاب ورجال الأدب ما لم يره أي عهـد قبـل ذلك . ظل ابن باجة (1138) وهـو الفيلسوف والموسيقار الشهير معـا ، طيلـة عشريـن سنـة ، وزيرا لوالي غرناطه وسرقسطـه صهـر علي المرابطـي . وأخلـد هؤلاء الرجال الشداد الملثمـون

إلى البيئة الإسبانية شيئا فشيئاً فحدّ ذلك من تقشفهم وكشف لهم عن لذات أخرى غير التي تتيحها مقارعة السلاح . وبواسطتهم انتشرت في المغرب الحضارة الأندلسية التي كانت دخلت قبل ذلك مدرستي سبتة وفاس ولئن تقبلت إسبانيا من إفريقيا جند الإيمان فإنها زودتها مقابل ذلك بعدد من المعماريين وأرباب الصنائع وأضفت عليها حضارة وصلت إلى عدة مدن على الأقل .

ولقد تطوّر الفن الإسلامي بالجزيرة في حرية تامة بعد انفصال الأمويين عن الخلافة العباسية ، فتأثر المرابطون بالفن المعماري الموجود بقرطبة وغرناطة نظرا إلى أنهم لم يجدوا حولهم نماذج قديمة وكانوا لا تربطهم بالمشرق روابط مباشرة . لهذا فإنهم استعملوا في المعالم التي أقاموها بغربي بلاد البربر دعائم سميكة عوضا عن الاسطوانات من جهة ومن جهة أخرى أقواسا نصف دائرية حدوية كانت نقلتها إسبانيا عن إفريقية حيث جرى القوم على استعمالها منذ قرنين وأقواسا ذات قويسات عوضا عن الأقواس المكسورة الحدوية الموجودة بالقيروان .

وللأسف لم يبق شيء من جامع مراكش ولا من مصليات فاس التي أقامها ابن تاشفين إلا أننا نجد في عهد الأتراك الجزء الهام من الجامع الكبير بالجزائر بمصلاه الذي يحتوي على إحدى عشرة بلاطة وخمسة صفوف ممّا يذكر بجامع تلمسان رغم الزيادات المحدثة في القرن الرابع عشر ، وكان علي هو الذي زاد في جامع القرويين بفاس الذي أسس في أواسط القرن التاسع وأصبح بعد ذلك أضيق من أن يسع جماهير المؤمنين وهو الذي أسس أيضا الجامع الكبير بتلمسان وهو أعظم أثر مرابطي .

وهو مبنى يتراوح طوله بين خمسين وستين مترا في مدخله صحن مربّع ضلعه عشرون مترا تحيط به شرقا وغربا وفقا لخصائص الفن المرابطي بلاطات تتصل ببلاطات المصلّى . ولهذه القاعة ثلاث عشرة بلاطة ذات ستة صفوف كما هو الشأن في الجزائر وفاس وهي محفوفة بدعائم مبنية تحمل اقواسا نصف دائرية حدوية أو مكسورة أو ذات قويسات . وفي الوسط شيّدت قبة ذات تعاريق . وأقيمت تجاه المحراب قبة أخرى

مخرمة الزوايا فكأنهـا نوع من « التخريـم الفاخر الفضائـي الذي بُسط من فوق فقرة العمود » . وإن وضـع الثريا البارزة من البناء بأحجامهـا المتراكبة الواحدة فوق الأخرى يمكـننا من أن نتبين أول أنمـوذج مغربـي للقبة المقرنسة مضبوط التاريـخ .

امّا فيمـا يخص الزخرف فان رسم الزهور هو الغالب بشكله النهـائـي المتمثل في سعفات النخيل المفردة أو المزدوجة المعرقّة في رقّة والمختلطة بالأقنثا (Acanthe) أشدّ الاختلاط . ويمتاز المحراب بزخرفة أنيقة تذكّرنا بمحراب قـرطبـــة .

أمـا القصور المشيدة فـي مـراكش وتـاغـرارت (Tagrat) ، فقـــد انطمست آثارها وكان علي هو الذي بنى الأسوار الأولى في مراكش (1120) فبقيت ماثلـة إلى اليوم آثار حصني بلاد ورغة وأعالي مراكش وهمـا أمرغو (Amergo) وتاسغيموت (Tasghimout) ومنها كان يسكن مراقبة أهل الريف والمصامدة . ويستبعد أن يـكون المرابطـون قـد أكـثروا من الأشغـال ذات المصلحة العامّة غير أن القوم ينسبون إلى علي حفر القناة التي كـانت تمـكّن من ريّ حـدائق فاس وبناء جسر تنسفت بالاعتمـاد على الفنيين الاسبان . قال ج . مرسـي في هذا الصدد « كـان المرابطـون أداة وصل بين اسبانيـا وإفريقيـا فلجؤوا في كـل ما أسسوه إلى مهندسي الري الصحراويين والمعماريين الأندلسيين معا » (ج. مرسـي) .

انحطاط دولة المرابطين وسقـوطهـا :

بلغت دولة المرابطين باسبانيـا أوجها في عهـد ابن تاشفين ، ولقـــد تمـادى ابنـه علي في محاربة نصارى قشتالة الا ّ أنه رغم انتصاره في أقليـج (Uclés) (قرب طرنيـان في جهـة كونـكة) فـإنّه لم يتوّصل إلى الاستيلاء على أي جزء من أرض العدو (1108) ، وبلغت قواه من الضعف ما لم يمكنه معـه استغـلال الاضطرابـات التي انجرّت عن مـوت الفونسو السـادس (1109) بقشتـالـة وليون ، وقصارى ما وصـل اليه احتلال سرقسطـة طيلـة سنوات معدودة (1110 ــ 1118) ورغم تخلي قشتالة عن المعركة بسبب ما دهاها مؤقتا من الفوضى فإن الارغـون وبرشلـونة واصلا الغزو مـن جديـد

فاستولى الفونسو المقاتل ملك الأرغون على سرقسطة (1118) ووسّع حدوده إلى ما وراء نهر الايبرو وزحف على جهات بلنسيّة ومرسية والأندلس الشرقية ثمّ أدرك لأول مرّة البحر في شلوبانية (Salobrena) (جنوب غرناطة) قبالة بلاد البربر (1126) وبعد أن نجح نجاحا باهرا بـآرنسول (Arnisol) قرب اللّسانة ، على بعد ستين كيلومترا تقريبا من الجنوب الشرقي من قرطبة وطّن 14.000 من النصارى المعاهدين (Mozarabes) (نصارى الأندلس الناطقين بالعربية) في الاراضي التي انتزعت من جنوب الأيبرو ، ثمّ واصل زحفه شمالا ولكنه انهزم أمام إفراغة ولاردة . وفي تلك الأثناء كان كونت برشلونة يتوسع على حساب لاردة وطرطوشة ويفرض على والي الجزائر الشرقية (Iles baléares) دفع الإتاوة . أمّا الملك الفونسو السابع فقد تمكن من التغلب على الصعوبات التي نجمت عن موت الفونسو السادس فوالى غزواته الكبرى في الأندلس وعاث في البلاد فسادا حتى حدود المريّة (1144 — 1147) .

وعندما مات علي (1143) كان النصارى يدحرون في كل مكان أمراء قرطبة وإشبيلية بينما كان الموحدون يحتلون غالب ارض المغرب الأقصى وعند ذلك بدأ المسلمون في اسبانيا يتمردون على ابنه تاشفين ، وربما كانوا يتألمون ممّا أصبح عليه أمراؤهم من فساد تحت تأثير الوسط الأندلسي ويتذمرون من الحماية التي كان يتمتع بها حرس فاس النصارى بقيادة الرّبُرتير (Réverter) النصراني ويشكون من غير شك العجرفة التي كان يعاملهم بها الأمراء المرابطون .

ومهما يكن من أمر فانهم استغلوا ما كان بين تاشفين بن علي والموحدين في المغرب من صراع للثورة في غرب الأندلس (Algarve) بقيادة أحد مريدي الغزالي ثمّ في بلنسية ومرسيّة وقرطبة والمريّة ، فعرفت اسبانيا المسلمة من جديد نظاما شبيها بنظام ملوك الطوائف بعد سقوط الخلافة ، وكان أن طلب أحد القواد المتمردين ، اثناء الصراع بين المرابطين ومسلمي الأندلس تدخل الموحدين فكان ذلك سببا في انهيار السلطان المرابطي في إسبانيا وفي بلاد البربر أيضا .

الـخـلاصـة :

إن أهم ما يبـقى في الأذهان بعـد استعراض طور قصّة المرابطين هو أنها كـانت عبارة عن نار تبن وهاجة تبدّد رمادها بسرعة ولم يبق منه شيء .

فكانت الخيبة الكاملة من الناحيـة السياسيـة ، ذلك ان الأمبراطوريـة المرابطيـة تمزّقت بنفس السرعـة التي التأمت بهـا بينمـا كـان الأهـالي في لامبالاة مطلقـة وكـأنهـم لم تصدر عنهـم مقاومة جدّية ضد الموحدين ، أمّا اسبانيـا فإنهـا أصبحت في سنة 1145 في نفس الوضع الذي كـانت عليـه عند تدخل يوسف بن تاشفين أي ممزقة لاحول لهـا ولاقوة لرد هجـوم النصارى . وأخيرا فإن المؤرخ لايسعـه الا أن يلاحظ أن سلـوك المرابطيـن ومستشاريهـم لم يتوصلـوا الى إرساء جهاز حكومة حقيقي ، وكـل ما في الأمر هو أنه تمخض عن المؤسسات الصحراوية الاصليـة والتقاليـد الاندلسية على ما يظهـر مزيج غريب خال من كـل متانـة وفاقد لصفـة الدوام ، غير ان اسياد الصحراء عودوا قبائـل المغرب الأقصى بالانقيـاد إلى نفـوذ سياسي واحد فيسروا بذلك لخلفائهـم مهمـة الحكم .

أما من الناحيـة الدينيـة فإن علامات الخيبـة أقل وضوحـا رغم الظواهر ولئن أعوز التفكير المرابطـي الغزارة ولم يبرز الفقهاء الا في الجدل الصوري فـإن الذي لايمـكن نـكرانه هو أن المرابطيـن اقتلعـوا جذور البـدع العديدة التي ازدهرت ابتداء من القرن الثامن في ربوع المغرب الأقصى وحققوا لهـذه البلاد وحدة دينيـة لم تتصدع اركـانهـا فيمـا بعـد .

وحوصلـة الأمر هو أن الحركـة المرابطيـة تركت أبقى آثارها على الدهر في دنيـا الحضارة – وهو أمر غريب اذا نحـن رجعنـا إلى أصـــل هؤلاء الملثميـن المنحدرين من الصحراء وتذكرنا كساد بضاعتهـم في حقـل الخيـال الخلاق . والواقع فـإن المرابطين لم يبعثوا حضارة طريفة ولـكـنهم كـانوا في غرب بلاد المغرب بأكملهـا رسلا ينشرون الحضارة الأندلسيـة ، ولعـل مدينـة فاس التي اقترن اسمهـا بالمرينيين تدين ليوسف ابن تاشفين وإلى ابنـه أكـثر ممّا هي مدينـة إلى ملـوك القرنين الثالث عشر والرابـع عشر وكـذلك الأمر بالنسبة لتلمسان والجزائر ومراكش . والمرجح

ان الرأي السائد هو أن هذه الحضارة المعمارية الناشئة مقتبسة في معظم جوانبها من اسبانيا المجاورة وليس معنى هذا أن أي اتصال لم يحدث من قبل بين الاسبان والمسلمين والمغاربة غير أن التأثير المتبادل الذي تم بينهم في عهد المرابطين لم يحدث من قبل البتة ، وهنا أيضا تعوزنا الوثائق .

وإذا نحن عرفنا كيف كانت تعيش إشبيلية في أوائل القرن الثاني عشر (ليفي بروفنصال ، إشبيلية المسلمة في القرن الثاني عشر) فاننا لانملك شيئًا مضبوطا عن الحياة اليومية في فاس أو مراكش فليس لنا إذن الاّ أن نسجل التأثير الأندلسي من دون أن نقدر على دراسة اطواره .

وفي الجملة فمهما سطع نجم المرابطين فإن عهدهم لم يكن الا تمهيدا للموحدين الذين سيجنون ثمرة ما بذله أسلافهم من جهود هامّة وإن كانت عديمة الفعالية .

2) ابن تومرت ، مهدى الموحديـن

ابـن تـومـرت :

بينمـا كـان ما يسلطـه علي من اضطهـاد يرجح في الظاهر كـفـّة المـالـكية المتطـرفة ، كـانـت طائفـة الموحدين تنظـم صفـوفها على أسـاس مقاومة المدرسة الفقهية العتيقـة ممّا سيؤول إلى تقويض سلطـان المرابطين ، ولم يـكن انتصار هذه الطائفـة انتصارا لنحلة علي أخرى فقط بل كان فوز القبائـل الجبليـين على الرحل الصحراوييـن وانتقاما متأخرا حققته زناتــة المستوطنـون بالمغرب الأوسط على صنهاجة .

ذلك أن ابن تومرت مهدي الموحدين نشأ بين جبال جنـوب المغرب وبأطراف الأطلس على أغلـب الظن وذلك في أواخر القرن الحادي عشر ، فقد كـانت قريـة ايقليز الصغيرة التي ربمـا أصبح أبوه سيّدا عليهـا مبنية في تراب قبيلـة هـَرْغة المنتشرة في المنحدرات الشماليـة لجبال تلك الجهـــة في اتجاه وادي السوس ، وكـانت عائلتـه المنتسبة إلى ارستقراطيـة القريـة معروفة بالتقوى والورع ، لذا أظهـر القوم فيمـا بعـد براعة فائقـة للرجوع بـه إلى نسب الرسول عن طريق الأدارسة خاصة .

ولفت ابن تومرت الأنظـار منذ نعـومة أظفاره بتأجـج عاطفتـه الدينية ، وكـان ملازما للمسجد وأحاط بالعلـوم في سن مبكرة ممّا قد يكـون أضفى عليـه لقـب الصفو ، ولا بد أن ذلك أكسبه نفوذا أدبيـا لدى أقرانه . وطبعـا كـان سفر هذا العالم الشاب إلى المشرق حيث كـان يروم مواصلـة دراساته (بين 1105 و 1110) حدثا عظيمـا فـي القريـة وحتى في القبيلـة نفسهـا ويظهر أن مراكش لم تستوقفه طويلا وليس لدينـا مـا يثبت أنـّه أقـام بـإسبانيـا

فترة قيل إنه اطلع أثناءها على كتابات الفقيه القرطبي ابن حزم (المتوفى سنة 1064) ، وعلى كل فإنه يوجد بين الفقيه الظاهري ومهدي الموحدين وجوه شبه ليست ولا شك عفوية ، فكلاهما كان كارها للاجتهاد الشخصي الناتج عن الرأي وكلاهما كان لايستند إلاّ إلى الكتاب والسنة والإجماع .

وفجأة نجد ابن تومرت في الشرق من دون أن تكون لدينا نصوص تسمح بمعرفة مراحل سفره . ولا نعرف لماذا لم يؤد فريضة الحج ، إلاّ أنّنا متأكدون من أنّه أتم ثقافته ببغداد وربّما في دمشق ، وهناك وطن نفسه على دراسة علم أصول الفقه الذي كان المالكية المغاربة لا يبالون به إذ كان همهم التفرّغ إلى فروع الفقه .

وإذا كان ابن تومرت قد طالع كتب الغزالي فإنه ليس من الثابت أنه التقى بالامام كما أكدت ذلك الأسطورة فيما بعد ، غير أنه أكبّ بالخصوص على دراسة فقه الأشعري (873 — 935) مؤسس علم الكلام السنّي وقد وفق بفضل طريقة التأويل إلى تجاوز التناقض المقلق بين الإيمان بروحانية الله وتنزيهه وبين التجسيم الذي قد توحي به بعض الآيات القرآنية لذلك اعتنق ابن تومرت مذهب أبي الحسن الأشعري اعتناقا كليا وانتصر له في المغرب .

وبعد عشرة أعوام من رحيله عن ايقليز أخذ طريق العودة إلى المغرب الأقصى وتوقف بالأسكندرية التي كانت آنذاك مركزا نشيطا للدراسة الاشعرية ولرّبما وصل إلى تونس عن طريق البحر ونزل بالمهدية . وستروي الأساطير أنه كسّر دنان الخمر التي وجدها في المركب ووعظ البحارة فأقنع أشدهم تنطعا وذلك بعد أن هدأت عاصفة هوجاء استجابة لدعائه . ولا يستبعد أنه لم يجمع بين آراء ابن تومرت حينذاك نسق فكري متكامل وانه لم يعتبر نفسه إلى ذلك الوقت الامام المعصوم وإنما كان يحصر واجبه في النهي عن المنكر ولاشك أن ثقته في فصاحته بلغت درجة أصبح معها مدفوعا إلى الوعظ والإرشاد طوال مسيرته ولقد روى مريده البيذق انه أنحى باللائمة على فقهاء تونس وعلّم فقهاء قسنطينة أنه لايمكن تسليط

عقابيـن مختلفين جزاء ذنب واحد ، ووبـخ أعنف توبيـخ أهل بجاية الميالين شديد الميل إلى تقليد مسلمـي اسبانيـا في فرط ترفهـم وانحلال أخلاقهـم .

وقد أثارت تدخلاتـه العنيفة من ردود الفعل ما حملـه على الرحيل عن عاصمـة بني حمّاد إلى ضاحيـة صغيرة تدعى ملالة ، وكـانت خلـوتـه مثمرة من ناحيتين ، ذلك أنهـا مكـنتـه أولا من ضبط مذهبـه عند اتصالـه بطلبتـه وتوضيحه إياهم الغاية من رسالتـه ولأنهـا أتاحت له ثانيـا فرصـة الاتصال بالرجل الذي أرسلـه القدر لتحقيق مقاصده وهو عبد المؤمن .

عـبـد المـؤمـن :

إن الرجل الذي سيصبح خليفـة المهدي أنجبه خزاف بسيط من ندرومة وتوجد قرية تاقرا مسقط رأسه في تراب قبيلة كوميـة الـزناتيـة البربرية ، وتنسب الأساطيـر إلى هذا الطفل كرامات عجيبة منها أن خشارم من النحل وقع عليـه من دون أن يلسعـه وأن فقيهـا من تلمسان تنبأ له بأنه سيغزو بلاد الله جميعـا .

وتعلّم القرآن في مدرسة القريـة ثمّ بجامع تلمسان . وكـان حسب البيدق شديد الذكـاء يفهـم عشرة مسائـل في نفس الوقت الذي يقضيه الناس عادة لفهـم مسألة واحدة وتعلقت همّة هذا الطالب الشاب باستكمـال معارفـه لدى مشاهير الشيـوخ فيمـم شطـر الشرق مرفوقا بعمـه الاّ أنّه لم يتجاوز بجاية ، واذا نحـن نظـرنا إلى اللقـاء الذي تمّ بيـن ابن تومرت وعبد المؤمن من خلال تعاقب القرون وجدناه بمثابة المعجزة فكان عبد المؤمن تغشاه أحلام احتـار في تفسيرها أما ابن تومرت فقـد كـان يحس بقرب ظهـور المختار لقـد تنبأ بالنصر واستشهد بقـوله تعالى : « وما النصر الا من عند الله العزيـز الحكيم » وأشار إلى القوم أنه سيجيئهم غـدا رجل طالبـا للعلـم فمن صدقه نـال السعـادة والويـل لمن كذبه . وما أن دخل عبدالمـؤمن حتى نطـق الإمام المعصوم باسم أبيـه واسم قريتـه ودعـاه إلى العدول عن السفـر إلى المشرق طلبـا لمعارف بإمـكانه أن يجدها في بلاده .

وإن قصـة اعتناق عبد المؤمن لمذهب ابن تومرت كمـا يرويهـا صاحبه رائعـة مؤثرة رغم بساطتهـا قال : « فلما جن الليل أخذ الإمام المعصوم

بيد الخليفة وسارا فلمّا كان نصف اللّيل ناداني المعصوم يا أبا بكر ادفع لي الكتاب الذي فيه الوعاء الأحمر فدفعته له وقال لي : أسرج لنا سراجا فكان يقراه على الخليفة من بعده وأنا يومئذ ماسك السراج أسمعه يقول لايقوم الأمر الذي فيه حياة الدين الا بعبد المؤمن بن علي سراج الموحدين فبكى الخليفة عند سماع هذا القول وقال : يا فقيه ما كنت في شيء من هذا إنما أنا راجل أريد ما يطهرني من ذنوبي فقال له المعصوم : إنما تطهيرك من ذنوبك صلاح الدنيا على يديك ثمّ دفع الكتاب وقال طوبى لأقوام كنت أنت مقدمهم وويل لقوم خالفوك أولهم وآخرهم » .

مذهب المهدي :

ولاشك أن هذه القصّة جمعت محادثات جاءت مقتضبة بسبب ما كان لابن تومرت من نفوذ على مريديه ، ومهما يكن فان عبد المؤمن عدل عن مواصلة سفره وبقي طيلة أشهر عديدة يتلقى العلم ليل نهار من المهدي الذي كان قد أكمل مذهبه آنذاك .

وفعلا فإنه يمكن ان نتبيّن من ذلك العهد نظرية أخلاقية وعقيدة دينية تبلورت بعدها بقليل آراء سياسية وتتميز النظرية الاخلاقية التي بدأ بها ابن تومرت حركته الإصلاحية بشدتها البالغة وحرصها الأكبر على الرجوع إلى المنابع الأصلية دون سواها ، أي القرآن وأحاديث النبي المدنية ، من ذلك انّه يأمر باجتناب الاختلاط بين الرجل والمرأة ، والكف عن شرب المسكرات والابتعاد عن مختلف ضروب اللهو (الموسيقى واحد منها) ومقاومة تبرّج المرأة الخ ... وإن شيئا من ذلك لا يعد جديدا من الناحية المذهبية ، غير أنّه إذا صدقنا ما رواه البيذق ممّا ذكره الاخباريون المتأخرون فإن سيرة أهل المغرب من تونس إلى مراكش كانت مغايرة لذلك ، ومعنى هذا أن ابن تومرت كان يدعو إلى اصلاح أخلاقي جذري يمكن تبين آثاره إلى اليوم في سكان إفريقيا الشمالية .

وترتكز عقيدته الدينية أساسا على التوحيد ولذلك سمي معتنقو هذا المذهب بالموحدين أي الذين يقولون بوحدانية الله وبما ان الله روح وجب تأويل ما ورد في القرآن من نسبة السمع والبصر إلى الخالق ، وكان من

الحتمي الحكم على المجسمين الذين يفسرون النصوص القرآنية بظاهرها وعلى المشركين الذين يضفون على الصفات الالهية (الرحمة والكرم والحلم) من الأهميّة ما يجعل الله الواحد الصمد يبدو كأنه مجزأ إلى قوى عديدة مستقلة الواحدة عن الأخرى ، وأخيرا فإن وحدانية الله توجب الإيمان بقدرته المطلقة المفضية بدورها إلى القول بالقضاء والقدر فكل ما خلق إنّما هو بعلم منه وقضاء وقدر ... وكلّ مخلوق ناله ما كتب له .

وليس في هذا كلّه مايمكن ان نعتبره طريفا . وفي الواقع فإن ابن تومرت يجتنب الطرافة ويحتاط من الرأي ولا يعتمد الا أصول الدين المعروفة أي القرآن والسنة واجماع العلماء وفي ذلك ترديد لصدى الاتجاهات الفكرية الاسلامية السائدة في المشرق وخاصة منها مذهب الاشعري الذي قدّم أفكارا تقليدية في ثوب جديد ، وفعلا فإنه يمكن أن نجد في كتاب ابن تومرت سلسلة من الاستدلالات المنطقية والمجرّدة القريبة من أسلوب الأشعري ، الا أن الذي يتميز به ابن تومرت عن الفقهاء المشارقة ويجعله من المجددين حقا هونشر مذهبه ، ذلك أن الفقهاء المشارقة ومن بينهم الغزالي نفسه كانوا مفكرين يعيشون في برجهم العاجي ولا يدور بخلدهم أن الجماهير في إمكانها أن تنتفع من تأملاتهم ، أمّا أبن تومرت فقد كان يرمي إلى نشر مذهبه على نطاق واسع فكان كثيرا ما يستعمل لهذا الغرض اللغة البربرية لأن العربية كانت قليلة الانتشار في المغرب الأقصى آنذاك ، ومن جهة أخرى كان يؤلف باللغة البربرية دائما رسائل صغيرة أو تآليف وصلتنا منها عينات ماسي (Massé) : شهادة المهدي وأيمته الروحانيون . لوسياني : كتاب ابن تومرت (Luciani) .

وأخيرا فقد كان ابن تومرت يستعمل وسائل آلية للحفظ قد تبدو لنا اليوم ساذجة ولكنها في الواقع ، تقرأ حسابا للمادة البشرية التي كانت تروم صنعها من ذلك أنّه كان يسند إلى كل فرد من مجموعة ما كلمة من جملة تكون بمثابة الاسم له ويطالب بحفظها ، وفي كل يوم تقع مناداة جميع الأفراد فيفوه كل واحد منهم باسمه في ترتيب لا يتغير حسب نظام الكلمات في تلك الجملة ولاتمضي أيام قلائل حتى تكون الجملة محفوظة عن ظهر قلب ، اما آراؤه السياسية المركزة على

فكرة المهدي الشيعية والامام المعصوم فإنها لم تظهر الا فيما بعد عندما رجع ابن تومرت إلى المغرب الأقصى واصطدم بساطة المرابطين . ويظهر أنه حاول في أول الأمر جلبهم إلى الطريق المستقيم ثمّ إنه عندما تبيّن له إمعانهم في الخطأ لم يكتف بالتشهير بهم بل أورد حكم الرسول فيهم بالاستناد إلى أحاديث يكتنفها الغموض (كتاب ابن تومرت) ثمّ جاهر بالمهدوية .

تلك هي الدعائم الرئيسية لتفكير ابن تومرت كما تبدو من خلال النصوص الموجودة بين أيدينا اليوم ، وما لبث ابن تومرت ان جعل الدولة في مقام الأخلاق والتوحيد أو أكثر : فأصبح بذلك بطلا لقضية سياسية ودينية في آن واحد . أما في عهد خلفه عبد المؤمن فإن السياسة ستكون لها الأولوية .

تأسيس الطائفة الموحدية :

لم يكن في الإمكان أن تتواصل الاقامة بملالة إلى ما لا نهاية له ولا بد أن ابن تومرت مثل جميع سكان الجبال كان يصغى لنداء المعالي ، واتفق أن مرّ من ذلك المكان حاجان من الاطلس في طريقهما إلى المشرق . فسألهما بلغتهما لأنهما كانا يجهلان اللّغة العربية ، ولاشك أنه تبين من أجوبتهما ما كان في نفوس بربر الأطلس من غضب دفين على المرابطين في البسائط ، روى البيذق قائلا : « ولمّا جنّ الليل قال لنا عولوا على السير غدا إن شاء الله » وبذلك كان بدء السلطان الموحدي . وسارت القافلة الصغيرة التي لم يتجاوز عدد أفرادها أصابع اليدين في اتجاه الغرب مرورا بالونشريس وتلمسان ووجدة واجرسيف وفاس . وحيثما حلّ ابن تومرت أخذ ينهى عن المنكر من دون ان يظهر في مظهر المهدي . وكثيرًا ما كان يفرض نفسه ويوفق إلى نصرة تعاليمه إلا أنه كان يلقى أحيانا معارضة سافرة مثلما حدث له في قرية بجهة تازا حيث هدده القوم بالضرب إذا هو لم يبارح المكان حالا . وفي مثل هذه الحال فإن ابن تومرت كان لايتعنت بل يواصل سيره . أمّا في المدن حيث لا تشوب التقوى شائبة التعصب فإنه كان يجد مساندة من ذوي النفوذ المبهورين بعلمه وفصاحته ولا شك أن حماية أحد أعيان فاس جنّبته ما استهدف له

من عقاب عندما خرب دكاكين تجار آلات الطرب . وسرعان ما نزل المعصوم بمراكش مارا من مكناس وسلا .

واتفق أغلب الاخباريين على ان سنة 514 للهجرة (1120 — 1121) هي السنة التي وصل فيها ابن تومرت إلى مراكش والى حدّ هذه السنة فإنه يصعب ضبط أي تاريخ في حياته : فلنا خمسة أو ستة تواريخ ولادة تتراوح بين سنة 1075 و 1097 وليس لنا ما يدلنا دلالة قاطعة على سنة رحيله إلى الشرق ولا على مدّة إقامته فيه وتاريخ عودته منه ولا على أهمية الفترة التي قضاها متنقلا عبر بلاد المغرب من المهدية إلى مراكش ، وأن البيذق الصاحب المخلص الذي زوّدنا بمعلومات هامة عنه كان يجتنب في مهارة الدّقة في ذكر التواريخ . وهكذا نتبين إلى أي حدّ يتعذر التمييز بين الأسطورة المشحونة تقوى وبين التاريخ الموضوعي . وفي مراكش تجلت في ابهى صورة خصال ابن تومرت كمصلح أخلاقي . فلقد روي أنّه لعن أخت الأمير نفسها لسفورها وانتقد الأمير لأنه كان يحمل حجابا . ويؤكد كل المؤرخين أنه دخل مع فقهاء المالكية في جدال كاد أن يؤول به إلى السجن .

ويبدو من الثابت أن ابن تومرت التقى بعلي بن يوسف الملك المرابطي وأنه أحرج هذا الرجل الورع أيما إحراج فقد كان علي يرى بوضوح تام في ابن تومرت المشوش الذي يمكن أن يصبح خطرا عليه والذي عرف كيف يجعل لنفسه عيونا حتى في البلاط المرابطي ولكنه من جهة أخرى كان لايتمالك عن الانبهار بتبحّره في علوم الدين وأصالة فضائله ، ثمّ إنه كان يشعر بتأثير شخصية هذا المتشرد العجيب وجاذبيتها فلم يتخذ قراره الحاسم في شأنه إلا بدافع من بعض مستشاريه . إلا أن ابن تومرت أخبر بذلك في الوقت المناسب .

ومرّة أخرى وجب استئناف الرحلة الطويلة . وتوغّلت القافلة في الجبال يتعقبها أتباع الأمير . واضطر المهدي ايضا إلى مغادرة أغمات بعد إقامة قصيرة بها ولكنه أمكنه في آخر الأمر أن يحط الرحال في مسقط رأسه ويشرع في بث دعوته بين القبائل (1121 — 1122) ؟ ومضى يصلّي ويدعو إلى مذهبه طيلة ثلاث سنوات غير أنه كان زعيما سياسيا بقدر ما كان

رجل دين . وما لبث نواب قبائل عديدة أن نادوا به إماما وأقسموا ألا يخذلوه ابدا في حربه المقدسة ضد المرابطين. ولمّا تقبل أيمانهم أعلن أنه المهدي الإمام الظاهر المعصوم الذي بعثه الله ليقاوم الزيغ وينصر الإيمان الحق . وأضفى على مريديه المتصلين به مباشرة لقب الطلبة لأنهم كانوا يتلقون من لدنه العلم الصحيح ، أمّا الذين رضوه قائدا روحيا فقد تسمّوا بالموحدين . وفكر ابن تومرت في طريقة لإحكام دعوته بين سكان الجبال وتهيئة هجومه على المرابطين فاستقر بتنملّل (1125) وهي بلدة واقعة بمدخل سهل كالواحة في خصوبته في أعلى وادي نفيس و كانت تمتاز أوّلا بكونها في قلب قبائل مصمودة وثانيا بأنها موقع استراتيجي ممتاز (1125) .

نظام الطائفة :

وفي تنملّل سار ابن تومرت في حياته وتنظيم طائفته سيرة الرسول والصحابة بالمدينة ، فكان مثل الرسول ، الزعيم الروحي والقاضي والقائد للجيش ، إلاّ أنه سلك أيضا مسلك الزعيم البربري الذي يعرف أفراد عشيرته أحسن معرفة وينفذ إلى عقلياتهم ويفهم عاداتهم الاجتماعية والسياسة .

وفعلا فإنه وجب على ابن تومرت خلافا لما درج عليه يوسف بن تاشفين من اعتماد على مجموعة قائمة الذات من القبائل المرابطية أن يمارس خليطا من القبائل الغيورة على استقلالها المرهفة الحساسية ، الشديدة البنية في هيكلها الاجتماعي وميولها السياسية على نحو ما وصفه ر. مونتانيو في كتابه « البربر والمخزن في جنوب المغرب الأقصى » .
(R. Montagne - Les Berbères et le Makhzen dans le Sud du Maroc)

فكيف السبيل إلى جعل هذه العناصر المتناثرة تحيا حياة سياسة مشتركة وتكوّن قوة لها من التماسك ما ييسر لها زعزعة السلطان المرابطي؟

واستنبط ابن تومرت لحل هذه المشكلة نظاما اجتماعيا ليس لنا فيما يخصه الا معلومات قليلة وربما يظهر لنا لهذا السبب معقدا الى درجة قصوى ويمكن أن نتبيّن فيه العناصر الآتية :

شكل 13 ـ مراحل الغزو الموحدى

1) أهل الدار وعددهم عشرون شخصا تقريبًا (منهم إخوة ابن تومرت الثلاثة) وهم عبارة عن أركان حربه ولا يرجعون بالنظر الا اليه .

2) مجلسان مجلس العشرة ومجلس الخمسين ونظامهما مقتبس بطبيعة الحال من مجالس الأعيان التي تقوم بدور كبير في « الجمهوريات البربرية » فمجلس العشرة يتكوّن من أصحاب ابن تومرت العشرة الذين كانوا أول من بايعوه مهديا . ولئن لاحظنا بعض الاختلاف فيما وصلنا من قائمات الأسماء فإننا نجد فيها دائما اسماء عبد المؤمن وأبو حفص عمر الهنتاتي وهو من أول أعيان سكان الجبال الذين انضموا إليه بعد الهروب من مراكش وكذلك عبد الله بن البشير الونشريسي وهو من أول المريدين وقد انتخب من المغرب الأوسط . ويتكون من هذه الشخصيات العشرة شبه مجلس خاص كان المهدي يستشيره في كل المسائل الهامة .

أمّا مجلس الخمسين فيتكوّن من نواب يمثلون أهم قبائل الجبال ويتفاوت عددهم بحسبها . وكان نشاط هذا المجلس دون نشاط مجلس العشرة بكثير فهو بمثابة مجلس استشاري .

3) كانت القبائل تتفاضل حسب نظام ترتيبي مضبوط على الأقل بمناسبة الاستعراضات العسكرية وربما كذلك في مكانها من ساحة الوغى . وكانت قبيلة هرغة التي ينتسب اليها المهدي تأتي في المرتبة الأولى ، وقد انضم اليها عن طريق الولاء فيما يظهر بعض الشخصيات منها عبد المؤمن ، ويليها أهل تنملّل ثمّ سائر قبائل الجبال الأخرى وأخيرا العبيد وهم في أغلب الظن من السود .

4) وكان يوجد في صلب هذه المجموعات نظام ترتيبي آخر مرتكز لا على الانتساب إلى القبيلة بل على الوظائف التي يضطلع بها كل فرد . فكان المحتسب يأتي في المرتبة الأولى ولئن بقي دوره مجهولا لدينا فإننا نعلم علم اليقين أنه كان يعتبر رأس الجماعة . ونجد في المرتبة الثانية مزوار بالنسبة للرعيل الأول من الموحدين ومزوار بالنسبة للتابعين ثمّ يأتي في المرتبة الثالثة السكاكون المكلفون بضرب السكة وربما بالجباية أيضا ، ويليهم الجند والمؤذنون والمحاربون (جيوش الرديف في أغلب الظن) والحفظة وأهل الحزب (المتربصون) وأخيرا الرماة وهم من المعتقين أو العبيد .

وكان هذا المجتمع المنظم على أساس تفاضل أصنافه خاضعا لقواعد مضبوطة وقد سيطر عليه المهدي سيطرة مطلقة . فكانت المواظبة على الرياضة الروحية إجبارية وكان كل من يزيغ عن التعاليم الدينية يستهدف إلى الضرب بالسياط وحتى الموت . وحقا فإن خطب المعصوم كانت هدفها أن ترسخ في عقول البربر التشريع الإسلامي المناقض في بعض الأحيان لقانونهم إذ كان ، في دعوته ، رجل دولة بقدر ما هو رجل دين . وكان كل من لا يخلص كامل الإخلاص للقضية يعامل معاملة الكافر وعلى هذا الأساس قام المهدي في « يوم التمييز » بتطهير جذري في صفوف العناصر المشبوه فيها وأمر بإعدامهم جميعا وقضى بنفس الطريقة على قبيلة لايؤمن جانبها . فكسب بهذه الأعمال الحازمة نفوذا على سكان الجبال .

وليس من المستبعد أن يكون ابن تومرت قد توخى سبلا أخرى للهيمنة على أتباعه ولقد بيّن لنا ابن أبي زرع في كتابه روض القرطاس وابن الأثير وكلاهما مناهض للموحدين كيف أن ابن تومرت وعبد المؤمن كانا يستغلان سذاجة العامة بضروب من الشعوذة الصبيانية . وأغلب الظن أن هذه الأخبار وقع تحريفها والمبالغة فيها لغاية في النفس . ولكنها ليست كاذبة بالضرورة لأننا نعرف من جهة أخرى أن ابن تومرت كالعديد من بربر الجنوب كانت قدمه راسخه في فنون الكهانة وأن لعمليات السحر مكانة كبيرة كما هو الشأن في وقتنا الحاضر في حياة الشلوح اليومية .

ومهما يكن فإن ابن تومرت توصل إلى إقامة دولة منظمة في جبال الأطلس بفضل موارد حاصلة من الضرائب وجيوش متعصبة ومستعدة لمحاربة المرابطين من دون هوادة فقد كان نصيب اول محاولة قام الصحراويون بها ضد الموحدين الفشل الذريع (1122) لذلك حصّنوا مراكش وأغمات خوفا من هجمة سكان الجبال وحسنا فعلوا إذ أنهم دُحروا إلى عاصمتهم عندما قاموا بحملة ضد تنملل وضرب عليهم الحصار طيلة اربعين يوما وانتهى الأمر لصالحهم عندما خرجوا لمطاردة جيش الموحدين فهزموه وتقبل المهدي نبأ هذه الواقعة بجلد

كبير وعندما علم بنجاة عبد المؤمن أمر البيذق قائلا : « ارجع اليه وقل له : الأمر باق ولا تجزعوا » (1128) .

ولمّا احسّ ابن تومرت بعد ذلك بأربعة أشهر بتداعي صحته تعلّل بحاجته إلى عزلة طويلة واعتكف بمنزله ولم تمض عليه أربعة اشهر (1127 — 1128 أو ديسمبر 1129) حتى قضى نحبه وأخفى القوم موت المهدي أكثر من عامين حسب تأكيد ابن خلدون خوفا من أن يقصي الموحدون ، غداة الهزيمة ، عبد المؤمن الذي كان يعتبر رغم كل شيء غريبا عنهم ، ونفذ اتباع ابن تومرت وصيته بكل أمانة وحتى أبو حفص عمر وهو سيد بطن من أعظم بطون مصمودة ومن ساهم انضمامه منذ الساعات الأولى مساهمة كبيرة في نجاح الطائفة فإنه لم يعترض سبيل الخلف المعيّن بل إنه قام بعد موافقة مجلس العشرة ثمّ مجلس الخمسين بحملة دعائية بين الموحدين فرضوا أن يقدموا يمين الولاء بين يديه (1129 — 1130) .

3) امبراطورية الموحدين

غزو المغرب الأقصى :

تلقب عبد المؤمن بخليفة ابن تومرت على غرار أبي بكر خليفة محمّد . ويظهر انه ما ان تقلّد الحكم حتى أضفى على نفسه لقب أمير المؤمنين أولقبه بذلك أصحابه . واستبقى التنظيم الذي سنه المهدي وسار على استشارة المجالس ولكنه لم يتمتع بما كان يتمتع به المعصوم من نفوذ أدبي على قبيلة مصمودة بل إنه اضطر إلى إحباط المؤامرات والى إحاطة نفسه فيما بعد بحرس منتخب من انصاره .

وبادر عبد المؤمن بتطبيق خطة الجبليين المعهودة التي كان أوصى بها المهدي لمساعديه بقوله « لاتنزلوا إلى السهل واتركوا العدو يصعد إليكم بنفسه » ثمّ قام بغزوات خاطفة مكّنته من الكشف على نقط ضعف الخصم . وقرر في آخر الأمر الهجوم على اعدائه فاحتل أولا المقاطعات الجنوبية في المغرب الأقصى وتحوّل شيئًا فشيئًا إلى الشمال من دون أن يغادر الجهات الجبلية لأن جيش المرابطين لم يزل على خطورته ثمّ توغّل حتى بلغ وادي ورغة والريف واحتلهما من دون مقاومة وترك سبتة جانبا ثمّ استغل الصراع القائم بين القبائل فتابع سيره نحو الشمال الشرقي . وحاول العاهل الجديد تاشفين بن علي التصدّي له بالاعتماد على الكتائب المرابطية والحرس النصراني الذي كان يقوده الرّبُرْتير وبعض حلفائه من زناتةبالمدد الموّجه من بني حمّاد . غير أن الربرتير هلك في إحدى الوقائع ويقال إن سرور الموحدين كان عظيما عندما صلبوا جثة الكافر (1144 — 1145) . وبموت هذا القائد فقدت جيوش المرابطين انسجامها إذ أعوزتها القيادة بحيث إنها قصرت عن الصمود في وجه

الكتائب الموحدية التي جمعت بين الحماس والانضباط والوقوف عند ارادة عبد المؤمن المتبصرة ، ولما انحدر تاشفين إلى سهل وهران بعد انهزامه قرب تلمسان لم يتمكن من الهروب عن طريق البحر . وبينما كان يسير ليلا تردى به فرسه من بعض الحافات فقطع الموحدون رأس جثته وحنطوه وبعثوا به إلى تنملل وانتهت بنهاية آخر ملك مرابطي جدير بهذا الاسم هيمنة الصحراويين القصيرة وذلك تحت ضربات قبائل الأطلس . ومرة أخرى ينتهي الصراع الدائم بين البدو والحضر بانهيار أمبراطورية والتمهيد إلى قيام أخرى (22 فيفري 1145 ؟) .

ولم تنته الحرب بموت تاشفين حتى في غرب بلاد البربر ذلك أن القوم نصبوا ابنه في مراكش وهو لايكاد يبلغ سن المراهقة وترك الخليفة لأحد أعضاده مهمة فتح تلمسان فهجم على فاس واستولى عليها بعد حصار دام تسعة أشهر ثم تحول إلى مراكش فدخلها عنوة وحكم فيها السيف (1146) .

ولما انتصر الموحدون ناشد العاهل المرابطي الشاب عبد المؤمن أن يرحمه وكاد أن يعطف عليه لولا أن صاح أحد رفقائه في وجهه قائلا : « أيها الموحدون هذا عبد المؤمن يقف ضدنا . إنه يريد تربية اولاد الأسود » . وفي الأثناء كان أحد الأمراء المرابطين يبصق في وجه الأمير الشاب ويوبخه قائلا : هل إنك تناشد أباك أو من هو أدعى إلى الرحمة بك ؟ كن شجاعا مثل الرجال » . وكان هذا الموقف آخر مظهر تجلت فيه شهامة المرابطين قبل انقراض دولتهم .

إلا أن استيلاء عبد المؤمن على مراكش لم يكن حاسما في كسب النصر : ذلك أن ثورات خطيرة ما لبثت أن اندلعت في السوس أولا ثم على طول سواحل الاطلنطيق حيث حملت فلول برغواطة السلاح وأشعلت نار التمرد بين جيرانها بني دكالة . ومن حسن حظ الموحدين أن هذه الثورات لم تكن منسقة ولا حدثت في وقت واحد ، وما أن شارفت سنة 1148 على النهاية حتى أصبح المغرب الأقصى بأكمله تحت نفوذ الدولة الجديدة .

دخـول المـوحـديـن إلى إسبـانـيـا :

دعي الموحدون إلى اسبانيـا قبـل استيلائهـم على مراكـش من طرف من ثاروا على المرابطين . ولم يجدوا كبير عناء للانتصاب في الجزء الغربي من الأندلس ولم تكن لهم خطـة مسبقة لأنه حتى لوسلّمنا كمـا هـو محتمل جدا بان عبد المؤمن كـان راغبـا في طرد المرابطين من اسبانيـا كمـا فعـل في المغرب فـإنه كـان أكـثر حذرا من أن يطلـب هذه الغايات في نفس الوقت . واقتصر على ارسال بعض الجيوش بامرة أخوين لابن تومرت فسلكا في إسبانيـا سلـوك الغـزاة بحيث أثـار الموحدون عليهـم حفيظـة جميـع أهل الأندلس واضطـروا إلى التخلي عن جـزء من مواقعهـم ولـم يدعوا من جديد لنجدة الأراضي الإسلاميـة الاّ عندما شنّ عليهـا الفنسو الثامن القشتالي حملتـه الشعواء وكـانت نجدة الموحدين في الوقت المناسب إذ كـان الملك النصراني محاصرا لقرطبـة . واقتبـل عبد المؤمن وفدا من أعيان غـرب الأندلس جاؤوا لمبايعتـه ملـكا عليهـم (1150) ، غيـر أن الأمر لـم يتجاوز أن كـان نـوعا من الحماية الغامضـة المحدودة .

الاطـاحـة بمملـكـة بـنـي حـمـاد :

توغل الموحدون في تلمسان ووهران في أول حملـة قاموا بهـا فيمـا وراء نهـر الملـوية . وبعـد ذلك بسبـع سنـوات توّجت حملـة ثانيـة بالاطاحة بمملـكة بني حمـاد وكـانت بجاية العاصمـة الجديدة التي أسسهـا الناصر (1062 — 1063) قد أصبحت منذ أن استعاض بهـا خلفـه المنصـور عــن القلعـة (1090) من بين أعظم مدن بلاد البربر . قال الإدريسي إبان صولـة الموحدين : « ومدينـة بجاية في وقتنا هذا مدينـة الغرب الأوسط وعين بلاد بني حماد والسفن إليهـا مقلعة وبهـا القوافـل منحطـة والأمتعـة إليهـا بـرا وبحرا مجلوبة والبضائـع بهـا نافقـة واهلهـا مياسير تجار وبهـا من الصناعات والصناع مـا ليس بـكـثير من البلاد . وأهلهـا يجـالسون تجار المغرب الأقصى وتجار الصحراء وتجار المشرق وبهـا تحـل الشذوذ وتبـاع البضائع بالأموال المقنطـرة ولهـا بواد ومزارع والحنـطـة والشعير بهـا موجـودان كـثيران والتين وسائر الفواكـه بهـا منهـا ما يكـفي لـكـثير من البـلاد وبهـا

دار صناعة لإنشاء الأساطيل والمراكب والسفن والحرابي وبها معادن الحديد الطيب » .

وكانت بجاية كذلك في مستوى عاصمة ثقافية فقد أحصى مؤرخ من مواليدها تراجم مائة وأربعة من مشاهيرها في الفقه والطبّ والشعر وعلوم الدين .

ومعلوم أن الذي صدم ابن تومرت في أهل بجاية خلاعتهم ، اذ كانوا يرتدون أزياء خاصة ويتبرجون مثل النساء ويحبون الموسيقى ويشربون الخمر . وكانوا نساء ورجالا يختمون شهر رمضان بالاختلاط في ساحة المدينة ولم تكف هيبة المهدي ولا سياطه لتقويم أخلاقهم .
وكانت مملكة بني حماد قد ازدهرت بالرغم من توغّل الهلاليين ازدهارا كبيرا في عهد المنصور . فقد عزّز السلطان كتائبه الصنهاجية والزناتية بالمرتزقة العرب لمقاومة المرابطين واستحوذ على تلمسان فوضع حدا لزحفهم نحو الشرق كما استطاع أن يفتك عنابة وقسنطينة من زيري ويقمع ثورات البربر .

وأخذ نجم بني حمّاد في الأفول بعد موت المنصور ولئن تمكن العزيز (1104 — 1121) من احتلال جربة ودحر العرب من جبال الحضنة فان ابنه يحيى (1122 — 1152) الذي كان يقضي حياته بين القنص والنساء لم يقدر على صدّ هجوم شنه جند من جنوة على بجاية (1136) .
وكان طبعا أعجز من أن يوقف زحف الموحدين .

أمّا عبد المؤمن الذي تعزّزت جيوشه فقد قرّر بعد أن أمسك بزمام الأمر في إسبانيا مؤقتا أن يضرب ضربته الحاسمة في المغرب الأوسط فاتجه بسرعة وفي كنف السرية نحو بجاية ودخلت طلائع جيشه بدون عناء مدينة الجزائر وبجاية وكان يحيى قد فرّ منها ثمّ استولى ابنه على القلعة وخرّبها (1151) .

صمود الهلاليين :

أدرك العرب الخطر . فلقد وجدوا أمامهم « القبائلية » منظمين أحكم تنظيم ، قادرين على أن ينتزعوا منهم ماكسبوه من منافع بسبب

ضعف الحكومات القائمة . وتجاوز مشايخ إفريقية خصوماتهم إلى حين ووحدوا صفوفهم لدحر العدو إلى وطنه الأصلي بمحض قواهم فتجمعوا قرب باجة واتجهوا في غير نظام نحو بجاية . وكان عبد المؤمن قافلا إلى المغرب الأقصى فانقلب على عقبيه في متيجة واستدرج العدوّ حتى استشرف سطيف . وكان الهلاليون شاعرين بان الصدام سيكون مصيريا فأخذوا معهم نساءهم وأولادهم ليكونوا رهان المعركة وقيدوا ابلهم حتى لاتحدثهم انفسهم بالرجوع القهقرى ودامت المجزرة أربعة أيام تمكن بعدها الموحدون بفضل انضباطهم من الانتصار ولاذ العرب بالفرار يتعقبهم اعداؤهم إلى أن بلغوا تبسة (1152) ولم يجنح عبد المؤمن إلى أعمال انتقامية ووزع الغنائم على أصحابه ولكنّه ردّ إلى المهزومين عائلاتهم وعامل مشايخهم عند استقبالهم بمراكش بما يفرضه مقامهم .

من الموحدين إلى بني عبد المؤمن :

وإذا جاز لنا الاعتماد على التواريخ التي لا يزال يكتنفها الغموض فإن عبد المؤمن اختار ذلك الظرف بالذات للاستئثار بالحركة الموحدية لفائدة عائلته . فهل صدرت المبادرة منه أو من بعض الشخصيات الموحديّة أم هل أوحى له بذلك قواد من العرب أصبحوا يخضعون لسلطانه ؟ وعلى كل فإن عبد المؤمن قبل بدون تردد تعيين ابنه أبي عبد الله محمّد خلفا له عوضا عن الشيخ أبي حفص عمر الذي سبق تعيينه من قبل . وبعد ذلك بقليل أي في سنة 1156 (راجع رسائل رسميّة عدد 13 و 14) وزّع عبد المؤمن على بقية أبنائه أهمّ ولايات الأمبراطورية . وكان كل واحد منهم محفوفا طبعا بشيخ من الموحدين مكلّف بتكوينه . ومن ذلك التاريخ تم التمييز رسميا بين الأسياد أي سلالة عبد المؤمن والمشائخ أي سلالة سائر كبريات العائلات الموحدية .

والغالب على الظن أن المؤسسات التي استنبطها المهدي بقيت من دون أن يطرأ عليها تغيير في الظاهر الا أنها أصبحت في الواقع بدون محتوى . فقد حلّ نظام ملكي موقوف على عائلة واحدة لايستسيغه البربر محل ما استنبطه ابن تومرت من نظام طريف يتمثل في جمهورية

فيديرالية ارستقراطية يظهر أنّها نالت استحسان هؤلاء البربر . وتقتصر معلوماتنا حول ما أدخله عبد المؤمن من تغييرات في نظام المهدي على كتاب «الحلل الموشية» المجهول المؤلف والمتعلق بصنف الحفظة الذين لم يبقوا في عهد عبد المؤمن مجرّد حفظة للقرآن بل وصفهم لنا المؤلف وهم يتعلمون ركوب الخيل ويتمرنون على السباحة والرماية ويتلقون تكوينا عاما شاملا ، ممّا يوحي الينا بوجود مدرسة إطارات . ولقد أدرك معاصرو عبد المؤمن تمام الإدراك مغزى الاجراءات التي اتخذها . ولئن تقبل أبو حفص عمر وأغلب مشايخ الموحدين الأمر الواقع بين الرضى والسخط فإن عددا منهم لم يخفوا تمردهم وخاصة أخوي المهدي عبد العزيز وعيسى اللذين فرّا من فاس حيث كانا في الإقامة الجبرية وحاولا الاستيلاء على مراكش (راجع البيدق ورسالة رسمية عدد 1) ولكن عبد المؤمن كان رجل الحزم فلم يلبث أن توصل إلى فرض النظام الجديد .

حالة بلاد البربر الشرقية والوسطى – النّصارى والهلاليون :

لم تكن هزيمة سطيف النكراء لتضع حدا لزحف الهلاليين . فلقد اكتفى الخليفة بتسمية وال على بجاية ثمّ قفل راجعا إلى المغرب الأقصى . ولئن لم يصب كتلة زناتة بالمغرب الأوسط أذى كبير فقد دها طرابلس وإفريقية من المصائب ما يصعب تلافيه . ففي طرابلس تمكن الغزاة من تعريب قسم من البربر ولكنهم ظلوا عرضة لهجمات قبائل الجمالة التي كان من العسير ملاحقتها . وأوشكت الفلاحة حول المدن ان تنقرض وكسدت سوق التجارة خاصة وتناقص نشاط الموانئ بسرعة وخلت برقة من أهلها أو كادت . ولم تسلم إلاّ المدن المحصنّة مثل لبدة او المدن التي ربطت نفسها بمواثيق مع البدو مثل اوجلة (جنوب برقة) التي أبقى عليها العرب للاستفادة من نشاطها البحري وأصبحت البلاد من طرابلس الى الجريد أثرا بعد عين. غير أن الموانئ الموجودة في الساحل الشرقي من افريقية عرفت كيف تدافع عن نفسها وهضمت قابس اسيادها الجدد من بني جامع الهلاليين (1099) الذين ساروا حتى غزوة النرمان سيرة رؤساء الحضر همهم ضمان الازدهار الاقتصادي لممتلكاتهم ، وغايتهم تحسينها . وظلت زراعة النخيل على عنفوانها واستبقت التجارة المحلية حيويتها وبقيت

المدن الساحلية المحصنة في مأمن من الخطر العربي إلى أن وقعت في أيدي النصارى . وكان روجر الثاني الكونت النرماني صاحب صقلية المتولي آنذاك على مسينا حاول أن يتمركز بسواحل افريقية للسيطرة على التجارة بالبحر المتوسط ولكنه لم يفلح (1118 – 1127) ولقد ذهب به الأمر إلى محاولة تنظيم حملة صليبية إفريقية بتعاون مع كونت برشلونة ومدينة سافونة ، ولكن رغبته في الاستيلاء على الدول النرمانية الأخرى بجنوب إيطاليا وخصومته مع البابا صرفتاه مؤقتا عن ذلك . فلمّا منحه البابا لقب ملك (1130) صحّ منه العزم على تنفيذ مشروعه الذي لم يزل منشغلا به . وعهد من حسن حظه بقيادة حملاته إلى أمير البحر جورج الانطاكي الذي كان انصرف هو وأخوه عن خدمة الأمير الزيري بالمهدية ووضع تحت تصرّف روجر معرفته الواسعة للغة العربيّة وخبرته بالسواحل الافريقية واستغل روجر ما كانت عليه إفريقية من اضطراب لفرض حكمه على المهدية والاستيلاء على جربة (1134) . ومن هذه الجزيرة سدد أسطوله ضرباته على جيجلي (1143) (Djidjelli) وعلى الموانى الصغيرة الموجودة بين شرشال وتنس وكذلك على جزر قرقنة وطرابلس (1196) . ولقد دفعه تمكّنه من طرابلس إلى ارساء احتلاله على قواعد دائمة فركز حامية في كل ميناء . واستولى اثناء السنتين التاليتين على قابس والمهدية وصفاقس وسوسة فوضع بذلك حدا لسلطة بني زيري . وامتد سلطانه من طرابلس إلى تونس . وظلت صفاقس تعيش بصيد الأسماك وبما تبقى لها من زياتين أما سوسة فكان موردها التجارة والمنسوجات . وحصر ملك « الصقليين » همه في بسط نفوذه للاستحواذ على إفريقية تاركا للاهالي في الجهات المحتلة أمر إدارتهم محترما لعاداتهم من دون أن يتدخل في خصوماتهم الدينية .

ولئن احتفظت المدن الساحلية بشيء من أبهتها القديمة فإن القيروان كانت فيحالة احتضار . فكان الحضر الذين ارهقتهم ضرائب البدو يفارقون مدنهم . وأصبحت المنصورية ورقادة أثرا بعد عين . وخرب العرب سهول الوسط وغربي إفريقية واستولوا على قرطاج وسهول باجة الخصبة . أما تونس فإنها استطاعت رغم خلافاتها الداخلية وعدم استقرار حكوماتها أن تنظم مع القبائل القوية المجاورة لها مبادلات تجارية

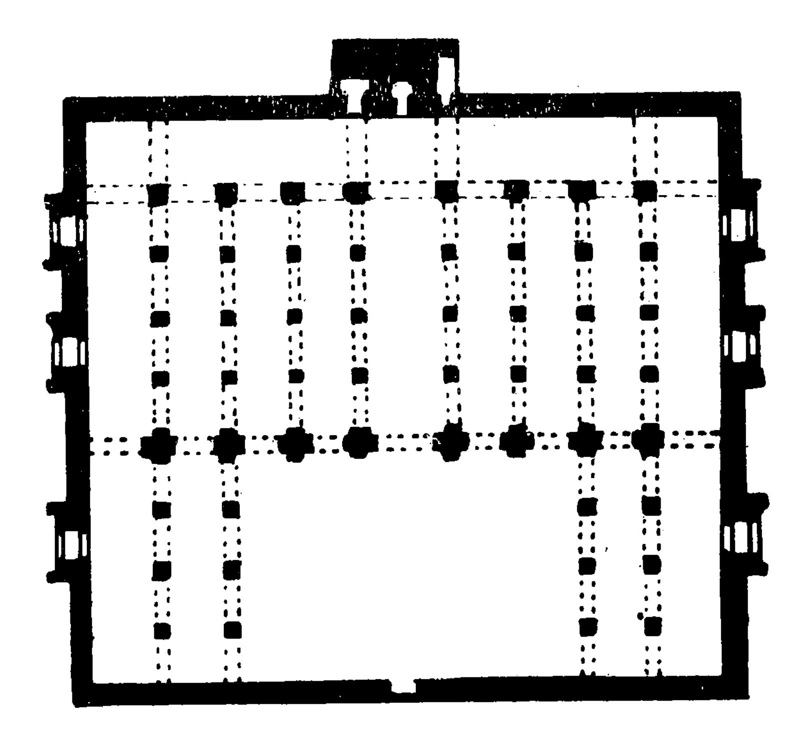
وتنمي بذلك ثروتها . وكان تزويد الجريد بالقمح رهن مشيئة البدو الذين فرضوا هيمنتهم على باغاية واستحوذوا على أراضي الزاب بعد أن اطردوا منها ملاكيها البربر . وكان النّاس لايخرجون من المدن من دون أن يعرضوا بأنفسهم إلى الخطر غير أن هذه الزحفة لم تتجاوز الحضنة والبابور ورأس بوقرعون .

وكانت مدن نوميديا أقل تعرضا للخطر من مدن إفريقية بل إن قسنطينة أبرمت اتفاقا مثمرا مع البدو غير أن انخرام الأمن تفاقم في البلاد كلها .

ولم يقم من طرابلس إلى الحضنة نظام موحّد فكانت العلاقات بين البربر والعرب تتغير بحسب القوى المتقابلة . فإن سيطر البدو على سهل باجة سيطرة كاملة وجعلوا من الملاكين القدامى عبيدا فإنهم فرضوا على أهل باديس (على سفح الاوراس) وباغاية حماية باهظة الثمن وقتية إلا أنها تيسر للتجارة والفلاحة بعض النشاط . وفي المدن المنيعة الواقعة شمالي القلعة فإن المصالحة التي تفرض دفع الدية لأهل القتيل لاتنفذ إذا كان القاتل من العرب . ولم تقدم على التعاون التجاري والفلاحي مع البدو من دون محاربة جديّة سوى تونس وقسنطينة لما كانتا تتمتعان به من وضع ممتاز .

احتلال إفريقيّة :

كان الهلاليون مسؤولين بصفة غير مباشرة عن هجوم النصارى . لذلك لم يبقوا مكتوفي الأيدي . ولئن بدا شعورهم الديني فاترا إذا هو قورن بتدين المرابطين والموحدين فإنه على كل حال تأجج عند احتكاكهم بالكفار حتى أنهم رفضوا الاستعانة بروجر الثاني على الموحدين سنة 1151 . ثمّ إنهم حاولوا مساندة الاضطرابات التي أثارها الضباط في أرض النصارى عندما أمروا بالتمرد على الموحدين غير أن حماسهم لم يصل بهم إلى درجة الاستغناء عن المنح التي كان يغدقها عليهم النرمان وسواء أيدوا مرامي الموحدين أم خشوا كارثة جديدة كالتي نكبوا بها في سطيف فإنهم على كل حال لم يقفوا في وجه الحملة



شكل : 14 رسم مسجد تنملل يبهر الناظر من اول وهلة تناسق المبنى ونظامه .

التي قام بها عبد المؤمن لغزو إفريقية بل إن أهم قوادهم انضموا إلى الموكب حسب ما رواه مؤرخ عربي .

واذا صدّقنا ابن الأثير فإن غزو إفريقية قد تمّ إعداده منذ وقت طويل وبالفعل فإن دخول النرمان إلى المهدية كان سنة 1156 . وسرعان ما أرسل سكان عاصمة بني زيري القديمة المسلمون ، بعد أن لجؤوا إلى زويلة المجاورة لهم ، وفدا إلى عبد المؤمن يلتمس منه إعانتهم على الرجوع إلى مدينتهم . وحظي مطلبهم لديه بكل عناية لكن انقضت أكثر من سنتين لإعداد العدّة قبل أن يشن عبد المؤمن هجومه الذي صمم على ان يكلله بالنصر وغادر مراكش على رأس جيش عظيم بينما كان أسطوله يمخر البحار صوب الشرق (1159) . وكان قد وضع على طول الطريق أكواما من الحبوب لتموين جيشه . وبهر السكان بانضباط جيوش الموحدين. ووضع وصولها إلى إفريقية حدّا للفوضى وأخضع عبد المؤمن الإمارات التي ظهرت على أنقاض امبراطورية بني زيري بين تونس وسوسة ثمّ ضرب الحصار على المهدية . ومرت شهور طويلة ولم تجنح المدينة إلى استسلام مشرف (22 جانفي 1160) إلاّ بعد حصار شديد وبعد انهزام أسطول جاء من صقلية لنجدتها . وبسقوطها انتهى الوجود النرماني بإفريقية ولم يحاول ملك صقلية ردّ الفعل البتة وكان القوم في بلرم يرون من الحكمة عدم المجازفة بالدخول في حرب مع السلطان الموحدي في وقت كانت فيه المملكة أحرص ما تكون على الاحتفاظ بكامل قواها لمجابهة الأمبراطور بربروسا الذي كان يهدّد وجودها بالخطر .

وكان فتح عبد المؤمن لافريقية حدثا بالغ الأهمية في تاريخ المغرب : ذلك أن هذه هي المرة الأولى التي تعرف فيها هذه البلاد منذ أحقاب وأحقاب وربما منذ فجر التاريخ الوحدة السياسية تحت سلطة زعماء أنبتتهم تربتها وأن هذا التوحيد الذي كان شرع فيه الفاطميون بفضل قبائل كتامة صنعه سكان الجبال الحضر ، غير أن عبد المؤمن اتخذ في نفس الوقت الذي أنجز فيه هذا العمل العظيم قرارا سيُساهم في خسرانه . لقد كان شاعرا بقوة العرب البدو في إفريقية فأراد أن يكسر شوكتهم ويحشد الحشود في الوقت ذاته لفتح اسبانيا ولربما كان

يرغب في الاعتماد على رجال مخلصين له يحتاجهم عند الحاجة لتدعيم دولته الفتية . لذلك حوّل بالقوة إلى المغرب الأقصى عددا من القبائل العربية ووطّنها في السهول الاطلنطيّة التي خلت من أهلها بعد إبادة قبائل برغواطة ودكالة التي كانت تمردت قبل ذلك باثنتي عشرة سنة .

وهكذا فإن عبد المؤمن في الوقت الذي حقق فيه انتصار البربر الحضر مكّن العرب البدو من غربي البلاد فنشروا في تلك الربوع نمط حياتهم وأشاعوا فيها عاداتهم الفوضوية .

القلاقل باسبانيا ، ابن مردنيش :

وضعت الاخبار الواردة من اسبانيا حدا لإقامة الجيش الموحدّي بإفريقية .

ولاشك أن الحماية الموحدية على غرب الأندلس كانت تدعمت ، غير أن سائر البلاد وخاصة شرق الأندلس (Levante) كانت خارجة عن سلطة عبد المؤمن وكانت تكوّن دولة مستقلة يحكمها منذ زمن يصعب ضبطه إسباني من أصل نصراني يدعى ابن مردنيش (? Martinez) وكل ما يمكن تأكيده بدقة هو أن عبد المؤمن كان دعاه منذ سنة 1153 إلى الاستسلام (رسالة رسمية عدد 10) . وعوض أن يدخل ابن مردنيش في طاعة الموحدين ناصبهم العداء فعقد المعاهدات مع جيرانه ملوك النصارى واستغل انصراف الخليفة إلى فتح إفريقية للتوسع في ممتلكاته نحو الغرب وتهديد قرطبة . وما كان عبد المؤمن وهو في أوج عظمته ليسمح بمثل هذا الموقف فعبر بنفسه لأول مرّة المضيق ومكث شهرين في جبل طارق لإصْدار تعليماته على عين المكان (1161) .

وتمكن الموحدون بعناء من دحر ابن مردنيش نحو الشرق وافتكاك غرناطة التي كان استحوذ عليها على حين غرّة من دون أن يستطيعوا القضاء عليه (1162) . وأبى عبد المؤمن أن يرضى بهذا النجاح المنقوص : فاستعان بابنه أبي يعقوب يوسف بعد أن أمر القوم بمبايعته عوضا عن محمد الذي اعتبره غير جدير بالحكم وتمركز في أول سنة 1163 بحصن رباط الفتح الذي كان أمر ببنائه منذ سنة 1150 وحشد فيه جيوشا جرارة

وجمع اسطولا عظيما (راجع روض القرطاس) استعدادا للانقضاض على اسبانيا ، ولكن موته حال دون ذلك اذ ختمت أنفاسه برباط الفتح في شهر ماي 1163 .

حكم الخليفة :

لم يقصر عبد المؤمن طموحه على الفتوحات بل أراد دائما أن ينظم البلاد التي يتم استيلاؤه عليها . وجاء في القرطاس أنه قام سنة 1159 « بتكسير (Arpentage) بلاد المغرب وافريقية من برقة إلى بلاد نول من السوس الأقصى بالفراسخ والأميال طولا وعرضا » واستثنى من هذه المساحة الثلث المتكوّن من الجبال والأنهار والسبخات والمسالك والقفار ، أمّا الثلثان الآخران فقد وظف عليهما الخراج وضبط لكل قبيلة ما يجب عليها دفعه من الحبوب والأموال . وكانت هذه بدعة في بلاد البربر .

وإن هذا المسح لبلاد المغرب الذي يعد استنباطا وفق اليه رئيس دولة حريص على ضمان مداخيل الجباية كان يستمد شرعيته من تصوّر الخليفة للدين ، فقد كان عبد المؤمن يعتبر الطائفة الموحدية دون سواها مسلمة بحق ويكفّر ما عداها من المسلمين ، وحتى الموحدين المتهمين بفتور عقيدتهم فكانت الطائفة تعتبر نفسها محقة في انتزاع أملاكهم وجعلها أحباسا وجبر المقيمين فيها على دفع الخراج . وكانت الدولة تستأثر بجزء كبير من هذا الخراج الذي كان كافيا مع بقية الضرائب الشرعية لسد حاجات الخزينة .

غير أن كل القبائل لم تكن مطالبة بالخراج . ولم يكتف عبد المؤمن وخلفاؤه بحشر البدو في الجيوش المقاتلة بإسبانيا بل استعملهم شرطة في بلاد البربر . وهكذا انتصب قسم من بني هلال على أراضي الطائفة بالمغرب الأقصى وأسند لبني عبد الواد من زناتة جزءا من البلاد الواقعة بين مينا والملوية ، ونزلت قبيلة أخرى في جهة بجاية ولم تكن هذه القبائل « المخزنية » معفاة من الخراج فقط بل كانت هي التي تستخلصه من بعض القبائل الحضر وكانت تملك عبيدا يخدمون اراضيها وتتصرف في

المراعي بـكل حريّة . إلاّ أنها كانت مقابل ذلك مطالبـة بالخدمة العسكرية ، ومنهـا تـكوّن جيش الموحدين .

أبـو يعقـوب يـوسف :

ومهمـا كـان نفـوذ عبد المؤمن فإنه كـان يقـرأ حسابا لحساسيـة المشايخ وتأثيرهم للاطمئنان على خلافتـه . واضطر إلى التراجع في القرار الـذي اتخذه لفائدة أحد أبنائـه ولتعيين ابنه أبـي يعقـوب يوسف خلفا له . وتـرك لنا الاخباريون روايات كـثيرة متضاربة حول تولي أبـي يعقوب الخلافة . وقد أورد ابن خلدون نفسه روايتين مختلفتين لهذا الحدث : فمنهـم من يقول إن العاهل الجديد بويـع من دون صعوبـة تذكـر ، ومنهـم من يؤكـد أنه اصطـدم بمعارضة كـادت تـكون سافرة من أبـي حفص عمر وعدد عديد من مشايـخ الموحدين وأنه لم يتلقب بلقب خليفـة الاّ بعد خمسة أعوام من وفاة والده إثر انتصاره على بني غمارة المتمردين . وتؤيد الروايـة الثانيـة تـأييدا كبيرا الرسائـل الرسميـة الموحدية التي نشرهـا ليفي بروفنسال (Levy Provencal) (انظر الرسالة عدد 24) .

لقـد كـان عبد المؤمن ملـكا عظيمـا فاتحا نشيطا ذا آراء طريفـة وصارمة في الشؤون الإدارية وكان صائبا في أحكامه . وترك لابنـه أمبراطورية ممتدة الأطراف تشمـل كـافة بلاد المغرب وجزءا كبيرا من إسبانيا المسلمة .

وآبـى أبو يعقـوب (1163 — 1184) أن يترك هذا السلطان يتدهـور بـل انتصح بنصيحـة أبيـه واستمدّ جيوشه من القبائـل العربيـة التي كـانت تمثل طاقة لم تفل منهـا صروف الحرب وبفضلها أعاد الـكرة على مردنيش الذي رجـع إلى مناوشة الموحدين بالاعتمـاد على ملـوك أرغون وقشتالة وبرشلونة النصارى (1170) . وذهب ابن مردنيش ضحية خيانات عائلته ولقي حتفه أثناء حصار مرسيّة ومهد ذلك إلى انتصار أبـي يعقـوب . ودخل أولاد المتمرد في خدمة الخليفـة وانضوت إسبانيـا الإسلاميـة بأجمعهـا تحت سلطـة الموحدين (1172) .

اندلاع الثورة في بلاد المغرب :

لم يظهر أبو يعقوب حزمه في إسبانيا فقط بل أتيحت له الفرصة كذلك في بلاد المغرب . وفعلا فإنه ما أن مات عبد المؤمن حتى تمرّدت غمارة في شمال المغرب الأقصى وجرّوا وراءهم جارتهم صنهاجة . ولم يتمكن أبو حفص عمر من اخماد نار الثورة التي انتشرت من سواحل البحر المتوسط إلى ورغة . واضطر أبو يعقوب في آخر الأمر إلى الاشراف بنفسه على سير العمليات فتم قمع سكان الجبال سنة 1167 (رسالة رسمية عدد 24).

وما كاد الأمر أن يستتب له في هذه الجهة حتى اضطر إلى صرف اهتمامه إلى الطرف المقابل من المغرب : ذلك أن سكان قفصة الذين استنزفهم اسيادهم الموحدون شقوا عصا الطاعة وأمروا عليهم رجلا من سلالة الدولة التي كانت تحكمهم قبل الفتح الموحدي . وفي هذه المرّة أيضا كانت المواجهة ضعيفة جدا في أول الأمر : ثمّ إن المتمردين كانوا يجدون تشجيعا من مغامر أرمني الأصل يدعى قراقوش استقر بطرابلس ابتداء من سنة 1172 وكان ينوي ولا شك الاستيلاء على إفريقية. ولم تخمد نار الثورة الاّ بعد أن حاصر أبو يعقوب قفصة واستحوذ عليها (1180) . ورغم أن الخليفة نقل إلى المغرب الأقصى عددا من العائلات العربية من قبيلة رياح المتمردة فإنه ترك بلاد البربر الشرقية وهي تعاني مرارة المجاعة وتشكو انخرام الأمن بسبب قطاع الطريق وتستعد دائما لاحتضان القواد الذين كانوا يدعون إلى التمرد .

الجهاد في إسبانيا :

وما كاد أبو يعقوب ينتصر على ابن مردنيش حتى اتفق مع النصارى على هدنة تدوم سبع سنوات . وتم في الجملة احترام هذه الهدنة طيلة بضعة أعوام ثمّ خرقها النصارى الذين أصبح يتزعمهم ألفنسو التاسع صاحب ليون . وكان أبو يعقوب منشغلا بشؤون إفريقية فلم يرد الفعل في أول الأمر ، وفي سنة 1184 قام بهجوم على مدينة شنترين حيث استشهد وهو في السادسة والاربعين من عمره وقد خلفه ابنه أبو يوسف يعقوب من دون صعوبة ولم يتجاوز سنه الخامسة والعشرين تقريبا وقد لقب فيما بعد بالمنصور .

ثـورة بـنـي غـانـيـة :

كـان شرقي بلاد المغرب وأوسطهـا يعانيـان ويلات البدو الذين مـا انفـكوا يوالون هجوماتهم . وكـان زمام الأمر يفلت فيهمـا شيئًا فشيئًـا من أيدي الموحدين فـكانت المغامرة العجيبة التي قـام بهـا فارسان من ميورقـة عاملا جديدا من عوامل الانحلال . ولم يكـتف بنوغـانيـة المرابطـون بإنشاء إمارة في الجزائر الشرقيـة (Les îles Baléares) لفرض غرامـات على النشاط التجاري بالبحر المتوسط . ولـم يكـونوا ليجهلـوا ما كـانت تستهدف لـه إفريقيـة من ثورات ولا ما كان يساور سكان عاصمـة بني حماد القديمـة من غضب أو ما كانت تشكوه الحاميات الموحدية من ضعف . وفجـأة نزل علي بن غانيـة على رأس أربعـة آلاف من الملثمين قرب بجاية واحتل البلدة بدون عناء (13 نوفمبـر 1184) ولم يجد صعـوبة في كسب تأييـد أمراء بني حمّاد المخلوعيـن وخاصـة قبائـل بني هلال . ومـا لبث أن دخل عنـوة الجزائر العاصمـة ومليانة وقلعـة بني حماد بمعونة العرب ثمّ ضرب الحصار على قسنطينة . وكـان على الخليفـة الجديد أن يبذل مجهـودا جبارا في المغرب الأوسط بعـد أن عاد الأمر إلى نصابه في إسبانيـا لاسترجاع هـذه المدن وفك الحصار على قسنطينة واضطرار علي وأخيـه يحيى الى اللواذ بالجريد . وشاءت الأقدار أن تدفـع ببنـي غانيـة إلى جهـة كـانت متهيئة أكـثر من غيرها لتحقيق مطـامحهـم . ذلك أنهـم وجدوا قبـائـل مناوئـة للوجود الموحدي واستطاعوا ان يربطـوا الصلـة مع جنـد قراقوش التركماني الذين سيطروا بعـد على فزان وطرابلس بالاعتمـاد على بني سليم وهـي قبيلـة كبرى من البدو لم تدخل من قبل بلاد المغرب .

وقد احتل علي وقراقوش إفريقية باستثناء تونس والمهديـة وذلك بمقتضى سلطـات استثنائيـة عهـد لهمـا بهـا الخليفـة العباسي . وتـمكّن المنصور على رأس جـيش صغيـر منضبـط مـن الحـاق الهـزيمـة بهمـا قـرب فـاس والاستيلاء على قفصـة التـي سلط عايهـا شديد العقاب لتورطهـا مـع المـرابطين ثمّ نقـل إلى المغرب الأقصى عـائلات القبائـل العربية الثلاث جملة ولم يدمْ هذا الانتصار طويلا . فقـد كـانت وضعية إفريقيـة الشاذة تحـول دون اعتمـاد أسياد المغرب الأقصى على ولائهـا . وظهـر بالجـريد يحيـى

الذي خلف أخاه عليا واستعان ببني سليم للتخلص من جند قراقوش التركماني وكان التحالف معهم شديد الوطأة عليه ثمّ دخل المهدية وكان يحكمها أمير موحدي استقل عن الخليفة وحصّن قابس التي جعل منها عاصمة له ، واحتل باجة وبسكرة والقيروان وعنابة وافتك في آخر الأمر مدينة تونس (1203) . وهكذا استقام له ، بالاعتماد على جيش معظمه من كتائب بني سليم وبني هلال العربية ، أن يؤسس في بلاد البربر الشرقية أمبراطورية مرابطية تمتد من عنابة إلى جبال نفوسة وتتوغّل جنوبا حتى بسكرة.

الأرك (Alarcos) .

واكتفى المنصور بأن قام بحملة محدودة في الزمن بإفريقيا . والواقع أن المغرب الأقصى وخاصة إسبانيا كانا شغله الشاغل . ولقد وجد عند اعتلائه العرش الوضع باسبانيا صعبا إذ أن الفونس الثامن ملك قشتالة نجح بمعيّة ملك أراغون في اغتصاب كونكة من الموحدين بعد حصار طويل (1177) بينما كان ملك ليون بصدد التوغل في إسترمادورا (Estramadure) وكانت هذه الانتصارات مدعاة إلى شن هجوم شامل على المسلمين . واكتسح أسقف طليطلة (Tolède) القائد الحربي والشخصية الكنسية معا مقاطعتي قرطبة وجيّان (Jean) على رأس فرسان القنطرة الذين تأسست جمعيتهم منذ قليل وقد أذنت كارثة شنترين (Santerem) بانتهاء عهد أبي يعقوب . واقتصر الخليفة المنصور على تدارك الموقف بسرعة . ثمّ لمّا انتهى من إفريقية أعدّ العدة للأخذ بالثأر . فحاول الفنسو درء الخطر وطلب من المجالس الاعتمادات لمواجهة المعركة القادمة واستنجد بليون ونافار غير أنه لم يتصل بالإعانات التي كان يعوّل عليها بل إنه لم يستطع استغلال إمكانيات قشتالة العسكرية كلّها . ورغم ذلك فإنه لم يتردد في الرمي بجيشه الذي كان يعوزه التنظيم والانضباط في وجهالجيوش الموحدية التي ألحقت به هزيمة نكراء بالأرك غربي موقع سيوداد (Ciudad réal) الحالي فتيسر للمنصور حينذاك أن يواجه حملاته ضد طليطلة ومجريط (مدريد) والقلعة وكونكة .

الامبـراطـوريـة المـوحـديـة في عهـد المنصـور :

يعتبر غالب الاخباريين العرب عهد يعقوب المنصور أزهى عهد الامبراطورية الموحدية. ومنذ سنوات قليلة أي في سنة 1941 خصه محمد الرشيد مولين وهومؤرخ مغربي بدراسة باللغة العربية عنوانها «عهد المنصور الموحدي». وإذا استثنينا تمرد بني غانية الذي سرعان ما تم إخماده بصورة مؤقتة على الأقل فإن عهد المنصور امتاز في الواقع بالهدوء، فلم تشر القبائل حتى في الوقت الذي كان فيه المرابطون يحاولون استعادة سلطانهم ولم يكد ينشب خلاف بين أفراد العائلة الحاكمة ولم يصدر من مشايخ الموحدين أي ردّ فعل وكأنهم اعتبروا تفوق بني عبد المؤمن أمرا واقعا، وانتشرت ألوية السلام «وكانت فترة تستطيع فيها امرأة أن تسافر من برقة إلى وادي نون من غير أن يضايقها أو يكلمها أحد».

وكانت كذلك فترة ازدهرت فيها حركة تشييد المعالم الموحدية التي بدأت في عهد عبد المؤمن وكانت مساجد كبيرة تشيّد وأخرى تدشن. وقامت مدينة جديدة عملاقة حول حصن رباط الفتح. وأنجزت بمراكش أشغال ذات مصلحة عامة: من قنوات لجلب المياه وبناء مستشفى وتعبيد طرقات. وكان الأمير واسع الثقافة مولعا بشؤون الفكر فعج بلاطه بالشعراء والعلماء والفلاسفة وسطع فيه نجم ابن رشد قبل أن يتنكر له الدهر إلى حين. وبينما كانت الأمبراطورية الموحدية في ازدهار اعترتها تغييرات جذرية عجلت بزوالها، وليس لنا عن ذلك سوى معلومات ناقصة وغير دقيقة في بعض الأحيان ممّا يضطرنا إلى الاكتفاء بالفرضية دون اليقين. غير أنه من الثابت أن يعقوب المنصور انشغل أيّما انشغال بالمذهب الموحدي الذي كان فقد من حيويته عندما صار في عهد أبيه وجدّه «المذهب الرسمي» وأرجع له عنفوانه. فأمر اليهود بحمل زي خاص واضطهد المالكية وأحرق كتبهم (أورد المراكشي قائمة المؤلفات المالكية التي رآها بنفسه تتآكلها النيران بمدرسة فاس) وضايق الفلاسفة. ولم يقف الخليفة عند هذا الحدّ بل نادى بوجوب الرجوع إلى أصلي الدين: القرآن والسنة دون سواهما بما في ذلك المهدي نفسه كما لاحظه المراكشي. بل أكد الخليفة المأمون الموحدي فيما بعد

ضمن رسالة وردت في كتاب « الحلل الموشية » المجهولة الكاتب أن المنصور كان ينفي في سرّه نظرية ابن تومرت وأنه لو لم يعاجله الموت لصدع برأيه . ولئن أعوزتنا الحجج لتأكيد ذلك أو نفيه جاز لنا على كل حال الاعتقاد بأن شيئًا من التململ ساد مراكش في السنوات الأخيرة من عهد المنصور وأن مقومات المذهب الموحدّي لم تسلم من الطعن .

الخليفة النّاصر :

ولم يكن خليفة المنصور في مستوى يؤهله لمعالجة مثل هذه الأزمة الخطيرة . ويمتاز وصف المراكشي لمحمد الناصر (1199 — 1214) بما درج عليه الاخباريون المغاربة من وصف دقيق موح للملوكهم : فانظر كيف تحدث عن هذا الملك الشاب وهو في الثامنة عشرة من عمره : « كثير الإطراق شديد الصمت ، بعيد الغور . كان أكبر أسباب صمته لثغا كان بلسانه ، حليما شجاعا ، عفيفا عن الدماء ، قليل الخوض فيما لا يعنيه جدا » . ويمكن أن نضيف إلى ذلك ما جاء بالقرطاس لابن أبي زرع : « لاتكاد تصله الأمور الا بعد الجهد [معجب] برأيه مستبد في أموره وتدبير مملكته بنفسه » . وهكذا فإن امبراطورية ممتدة الأطراف ، أشد ضعفا وأقل انسجاما مما تدل عليه الظواهر ، ورثها شاب خجول ميّال إلى العزلة

خضوع إفريقيّة — وحكم أبو محمّد بن حفص :

لقد نال انتصار الموحدين في الأرك مؤقتا من طاقة النصارى على الصمود . فاغتنم الخليفة الناصر الفرصة لتركيز جهوده على مقاومة المرابطين ببلاد البربر الشرقية التي ضاق سكّانها ذرعا بطغيانهم . واسترجع أسطوله مدينة تونس ودخل جيشه قفصة ثمّ المهدية . ولاذ يحيى بالصحراء بعد أن انهزم في واقعة حامية الوطيس .

ورأى الناصر أنه لايمكن لإفريقية أن تصمد في وجه المرابطين من جديد الاّ إذا أسندت مقاليدها إلى أيد من حديد . فلم يختر من بين أفراد عائلته الوالي الذي كان يريد أن يضعه في مقام نائب الملك بل

عيّن الشيـخ أبا محمّد الذي علا شأنه أيمـا علـو بعد انتصاره على الفونسو القشتالي وعلى يحيى . واكتسى هـذا الاختيار أهميـة بالغـة نظرا إلى أن أبـا محمّد هوابن لأبـي حفص الذي لولا ولاؤه لمـا تيّسر لعبد المؤمن أن يصبـح خليفـة . ويؤكـد مؤلف عربـي أن الناصـر لم يظفـر بمـوافقـة الشيخ الاّ عندما صرح له أنّه يعتبره ندا له وأنه لا يتأخر عند الاقتضاء في التخلي عن الحكم بمراكش لفائدته . ومعنى هذا أن الحفصيين كـانوا يتمتعـون بمنزلة ممتازة جدا ضمـن الطائفـة مما حفز الخليفة على خصّهم بمكانة مرموقة في الامبراطورية . ولم تـكن المسؤوليـة التي اضطلع بها أبو محمّد هينة . فقد وجب التصدي إلى الهجومات المتوالية التي كان يوعز بها يحيى المتدفق نشاطا وحيوية ، وكذلك مـواجهة عرب جيـش الموحـدين بعـرب من قبائل معادية وعندما خفق انتصاره بشبرو (قرب تبسة) بإعانة بني سليم التجأ يحيـى إلى المغرب الأوسط فعاث عرب جيشه وزناتة معا في البلاد فسادا بعد أن تخلصوا من وطأة الصنهاجيين . ولـم تقـم لتلك الجهة قائمـة بعـد ذلك . ولا حظ ابن خلدون بعـد مرور قرنيـن بقـولـه : « فلـم تبصر بها نـار ولا لفحت اهـا بنـافـخ ضرمـة ، ولاصرخت لهـا آخر الدهر ديـكـة » . ولم يلعـب يحيـى ورقته الاخيرة ببلاد البربر بل في طرابلس حيث طـارده أبو محمـد . وقد انضم اليه مشائـخ القبائـل العربيـة التي كـانت تخشى أن يحول الحكم الحازم بإفريقيـة دون الانتجاع والنهب . وكانت واقعة جبـل نفوسة يوما من أخطر أيام العرب ببـلاد البربر . ووضـع بدو جيش المرابطين عائلاتهـم وأموالهم رهانا للمعـركـة : فخسروا كـل شيء ولم يجدوا بـدا من أن يلـوذوا بالفرار نحو الجنوب (1209) غير أن يحيى لم ينتـه أمره . فلما أطرد من إفريقية وطرابلس تمكن من صلب حليفه السابق قراقوش والاستيلاء على ودان (في واحـة جـفرة) والواحـات المجـاورة (1212) في انتظـار الفرصة المؤاتيـة للظهـور من جديد ببلاد المغرب التي كان أبو محمد حينذاك حـائلا دونهـا .

وهـكذا أصبحت إفريقيـة في مأمن من خطر المرابطين الاّ أن الثمن كـان يتمثل في استقلال الوالي استقلالا يكاد يـكون كاملا . واتضح أكـثر من ذي قبـل أن هذه المقاطعـة كـانت بعيـدة جدا عن مراكش وأنّ مراسها من نوع خاص بحيث كـان يتعذر أن يكـون للخليفـة عليهـا سلطـة حقيقية .

ومن جهة أخرى أكد تعيين حفصي على رأس تونس أن نفوذ مشايخ الموحدين ظل قويا وأنه كان يتعزّز ولاشك بضعف شخصية الخليفة .

العقاب Las navas de tolosa

كان الخليفة يعتمد كل الاعتماد في مقاومته للمرابطين على الشيخ الحفصي خاصة وأنه كان منشغلا كليا بشؤون إسبانيا . وكان الفونسو يعد العدة للأخذ بالثأر بعد هزيمته بالأرك . فاستنجد بكل ملوك اسبانيا وبملك البرتغال وحتى بالبابا الذي دعا إلى حرب صليبية ضد الموحدين .

ولبى الدعوة فرسان ومغامرون أتوا من كل صوب وحدب . وأدرك الناصر خطورة الموقف فغادر مراكش وترأس بنفسه اركان الجيش (فيفري 1211) . ودامت الحرب مدّة طويلة وكانت الكارثة في النهاية ذلك أن جيش النصارى الجرار الذي ساهمت فيه اسبانيا كلها ما عدا ليون ، عبر جبال قرطبة (Sièrra morena) وألحق بالموحدين في العقاب هزيمة حاسمة (16 جويلية 1212) ولم يتوقف النصارى عن زحفهم الكاسح نحو الجنوب الا ّ بسبب انتشار وباء الطاعون . وحاول اللواء أبو سعيد تدارك الموقف فحالفه التوفيق أول الأمر ولكنه مني بهزيمة جديدة (1213) وبعد عام مات ألفونسو بينما أخذت دولة الاسلام في اسبانيا في التصدع .

تصدع الأمبراطورية :

لم يكن الخليفة في مستوى يمكنه من السيطرة على الموقف . فرجع إلى المغرب وتنازل على العرش لفائدة ابنه يوسف المستنصر ولقي حتفه في ظروف لاتزال إلى اليوم غامضة طالما ان روايات الاخباريين تختلف الواحدة عن الأخرى (ديسمبر 1213 أو جانفي 1214) . وكان المستنصر (1214 — 1224) في السادسة عشرة من عمره غارقا في ملذّاته فناءت كتفاه بثقل المسؤولية ولئن خفت عنه وطأة إفريقية بإسنادها إلى أبي محمد فقد افلت زمام المغرب الأوسط من يديه عندما أصبح مرتعا لزناتة ، بل إن بني مرين الخاضعين حتى ذلك العهد إلى سلطة الموحدين تطاولوا

في المغرب الأقصى ذاته فوجهوا عصابات لنهب البلاد بلغت التل . وزاد موت أبي محمد (1222) الطين بلّة ، وعين مجلس الحكومة ابنه خلفا له ولكن الخليفة كان يتوّجس خيفة من استقلال الحفصيين فاستقدمه وأحل محله واليا عاجزا . واستغل يحيى الظرف فظهر من جديد في ربوع المغرب الأوسط وظلّ يناوش السلطة طيلة عشر سنوات واقتصر نشاطه في آخر الأمر على مجرد أعمال ارهابية (1226 — 1237) .

وحدثت حزازات بين المشايخ في أواخر العهد الموحدي (1224 — 1226) فتمسكوا بالتقاليد واشترطوا في الخليفة بيعة الخاصة وبيعة سلالة عبد المؤمن معا ، ويجدر أن نذكر أن المتهافتين على السلطان كانوا يكسبون ودّ القبائل العربية المستقرة بالمغرب الأقصى مما جعلها بالرغم عنها تقوم بدور متزايد الأهمية في الحياة السياسية التي كان يكتنفها الغموض حينذاك وهكذا تيسر شيئًا فشيئًا لهؤلاء العرب الذين لم يكد يمر على وجودهم بالبلاد ثلاثة أرباع القرن أن يصبحوا قوة سياسية لها تأثير حاسم أحيانا على الأحداث وستبقى كذلك حتى مطلع القرن العشرين .

وقضى أبو محمد عبد الواحد خنقا (1221) ومات خلفه العادل غرقا في بركة بالقصر (1227) وطالب بالخلافة في الأندلس المأمون أخو العادل وفي مراكش يحيى بن الناصر مرشحّ المشايخ . وأتاحت الحرب الأهلية للنصارى التدخل في شؤون المغرب . فزود الملك فريديناد الثالث (Ferdinand III) المأمون باثني عشر الف فارس لفتح مراكش (1130) وكان انتصار المأمون إيذانا بشن حملة شعواء ضد الموحدين . إذ أمر بتقتيل المشايخ وعائلاتهم واتخذ قرارات سياسية مناقضة لما سنه أسلافه وتبرأ من أعلى منبر القصبة من مذهب المهدي ولم يتردد في لعنه وأعلن عن اعتناقه مذهب السنة .

ودفع المأمون ما كان بذمته من دين نحو ملك قشتالة فسمح بتأسيس كنيسة نوتردام حيث تمكن النصارى من إقامة شعائرهم على مرأى ومسمع من المسلمين . ولئن هدمت هذه الكنيسة منذ سنة 1232 فان الأسقفية بمراكش بقيت على نشاطها حتى القرن الرابع عشر ما وجدت قوات مسيحية متمتعة بحق أداء واجبها الديني على الأقل بصورة خاصة . بل إنه تعهد بالحيلولة دون ردّة النصارى المنضوين تحت لوائه بينما كان لا يمانع

في اعتناق رعاياه للمسيحية عند الاقتضاء . وهل من دليل أقوى على ما دها الدولة الموحدية من تهافت منذ سنة 1228 من قبول عاهلها لمثل هذه الشروط؟

وغنم فرديناد الثالث غنما ثانيا من هذه الأزمة اذ أنه لما أصبح ملكا على قشتالة وليون معا ، لم يواجه دولة موحدّية متكتلة بل إمارات إسلامية صغيرة ببلنسية ومرسيي وأرجونة (في الشمال الغربي من جيان قرب أندوجر) . فأعلن صاحب مرسية عن تبعيته (1241) مع العلم أنه أعظم ملوك هذه المدن الثلاث والحاكم على كامل جهة الجنوب الشرقي (من لقنت (Alicante) إلى الحامة (El Hamma) والتمس ملك أرجونة (Arjona) التحالف معه وكان اتخذ غرناطة عاصمة له (1246) . ولم تمض سنتان حتى سقطت إشبيلية وأصبح فرديناد سيدا على أسبانيا المسلمة كلها باستثناء مملكة غرناطة ، حيث أمكن لدولة بني نصر أن تدوم قرنين ونصفا وأن تسطع فيها الحضارة الأندلسية بآخر أنوارها ومات فرديناند في الوقت الذي كان يتهيأ فيه للنزول بالمغرب الأقصى (1252) وبه انتهت الفترة البطولية من « استرداد » (La reconquista) الممالك الاسلامية بإسبانيا

واستهدف السلطان الموحدي في بلاد البربر إلى ضربات لا تقل قساوة عما دهاه بالأندلس فقد اغتنم يحيى غياب الخليفة الذي كان مشغولا بحصار سبتة كما استغل ما أثارته آراؤه تجاه المذهب الموحدي من معارضة فاستولى على مراكش . ولقي المأمون حتفه وهو في طريق العودة إلى عاصمته (1232) واضطر ابنه الشاب الرشيد (1232 — 1242) إلى مواصلة الحرب ضد يحيى ولم يسترجع عاصمته إلاّ بعد اغتيال منافسه .

ونتيجة للثورة التي أحدثها النزاع على الحكم تصدعت وحدة الامبراطورية التي كانت أخذت الهزائم باسبانيا منها مأخذا . فقد أعلن أمير تلمسان يغمراسن بن زيان عن استقلاله وأسس مملكة بني عبد الواد الزناتية (1235 — 1236) في إفريقية فقد قطع الوالي الحفصي أبو زكريا صلته بالخليفة (1228) ثمّ تلقب بلقب أمير واتخذ مدينة تونس عاصمة له (1236 — 1237) .

وفي سنـة 1238 اعتـرفت إشـبيـليـة بالرشيـد خليفـة وبعـد أشهـر أبرم ابن الأحمـر من بني نصـر صاحب غرناطة اتفاقا مع عاهل مراكش . ويتبيّن من كـل هذا مدى الغمـوض الذي كـان يسود أشلاء الامبراطورية الموحدية . وتفاقم الأمر في عهـد السيد (1242 — 1248) إذ والى الحفصيون هجوماتهم حتى بلغوا تلمسـان بينمـا تسرب بنو مرين حتى مكنـاس وجمعوا الضرائب حيثما استقـام لهم الامـر وحينئذ بذل السيـد أكبـر مجهـود وآخره للرجوع بالامبراطورية الموحدية إلى ما كانت عليـه من شأن عـلى الأقل في بلاد المغرب . وقرر أن يواصل السير الى تونس وأجبر بني مرين على مصالحتـه وحتى على تزويده بـكـتيبة رمزية ، وكـان في الحسبان أن يسحق بنـي عبد الواد سحقـا ولـكنه وقـع في كمين وقتـل . وولى الجيش على أعقابـه نحـو المغرب الأقصى وكـان بنـو مرين في انتظـاره عند مروره من الملوية إلى أجرسيف : فقضوا عليه القضاء المبرم وما لبثوا أن استولـوا على فاس ولم يبـق من الحكم الموحدي الاّ شبحـه .

واضطر عمـر المرتضى (1248 — 1266) الذي كـانت ممتلكاتـه يحـدهـا من جهـة الشمال أم الربيـع إلى دفـع إتاوة لانقاذ مراكش (1262) وبينمـا كـان الموحدون يتخبطـون في خضم كـل هذه المخاطـر زادت خلافاتهـم العائليـة الطين بلـة . فلقـد انضم أبو دبوس ابن عم المرتضى إلى العـدو وخلـع الخليفة وحلّ محلـه (1266) فتعلل المرينـي بخيانـة حليفـه وبادر باحتلال مراكش وبذلك دالت الدولة الموحدية (سبتمبر 1269) .

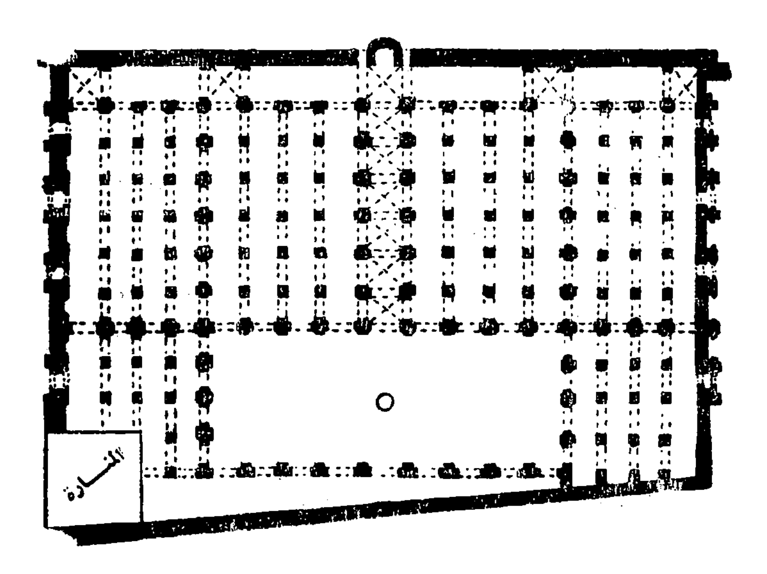
4) الحضارة الموحدية

الخلفــاء :

بـدا سلطـان المـوحديـن خطـرا عـلى الحضـارة ذلك أن المهـدي كـان لايتسامح في مجال العقيـدة الدينيـة وينـكر الاستهتار في اللبـاس ويـأمر بتحطيـم آلات الطرب . وقد جاء في « القرطاس » أن أول ما قـام بـه عبد المؤمن عند دخوله فاس تجْصيص الزخارف المنحوتة والتذهيبـات الموجودة في الجامع الكبير . ومن الممكن أن يكون الموحـدون في أول عهـدهم قد جرموا زخرفة المعالم لأنّهـا لاتتماشى مع نزوعهـم إلى التقشف على أنه لو فرضنـا أن ذلك كـذلك فإن مثـل هذه المشاعر سرعان ما تضاءلت أمام مقتضيات السلطـة وخاصـة عند الاحتـكاك بالوسط الأندلسي .

فلقـد أذن عبد المؤمن ببناء عدّة مساجد كـثيرة الزخرف ومنهـا بناؤه مرتين للكتبيين إذ هدمت الأولى بـامر منـه نظـرا لوقوع خطـإ في وجهتهـا وكذلك مسجـد تنمْلل. ولم يحظ الشعـراء بدعـوة عبد المؤمـن الا في أواخر أيامه بينمـا كـان مقيمـا في اسبانيـا .

وابتداء من عهـد « أبو يعقـوب » أصبـح من المتعذر فصـل إسبانـيا عـن المغـرب أو بـالأحرى المغـرب عـن إسبـانيـا التـي أصبحت مقـرهـم المفضـل فقـد نـزع ابـن عبد المـؤمن عنـه ثـوب التعصـب الدينــي. وأصبـح يـؤثـر اشبيليـة عـاصمـة الملـذات علـى قـرطبـة كعبـة رجـال الفـكر . وكـان رغم ذلك ولوعا بالثقافة حتى أنه أثار بتبحره في الفلسفـة تعجب ابن رشد عند اجتمـاعه به أول مرّة وكـان يأنس بمجلس ابن طفيـل إلى حدّ أنـه كـان يبقى بالقصر في مجلس السلطان أياما ولياليَ من دون أن



شكل 15 ـ رسم جامع الكتبية بمراكش .

يظهر للناس حسب ما رواه أحد مريدي هذا الفيلسوف . وأمر ببناء الجامع الكبير بإشبيلية ووضع أسس منارته جيرلدا الشهيرة وخط بمراكش موضع القصبة وأقام أسوارها وشيّد فيها قصرا وقد عفا أثرهما اليوم .

وكان المنصور مثل والده متشبعا بالثقافة الأندلسية ، ولم يكن قائد جيوش فقط بل كان بناء يرجع اليه الفضل في تشييد مسجدالقصبة بمراكش ومجموعة الأسوار والأبواب العظيمة الموجودة بالرباط ومسجد الحسن الممتد الأطراف بالرباط أيضا الذي لم يقع إتمامه . وانتشر الفن الأسباني الموريسكي في بلاد البربر بفضل الخلفاء الموحدين . أمّا البربر والعرب الذين تكوّنت منهم جيوش الاحتلال بمدن إسبانيا فإن التأثيرات الأندلسية وجدت اليهم سبيلا هم أيضا .

النّشاط الاقتصادي :

لمعت الحضارة الأندلسية حينذاك لمعانا زاد تألقا باستتباب الأمن الذي حققه الموحدون عند ممارستهم للحكم . فقد وضع الخلفاء حدا للفوضى

المالية التي سادت في عهد ملوك الطوائف وشجعوا الزراعة في « بلاد البركة » كما وصفها كاتب عربي من القرن الثاني عشر . وظلت الصناعات مزدهرة ونفقت تجارة دود الحرير في جيان . وعمرت لقنت بعدد من دور الصناعة ، وبلغ عدد مناسج الحرير ثمانيمائة بالمرّية التي كانت تنتج كذلك آلات من النحاس والحديد .

وكان لهذا النشاط الصناعي أثره في المغرب فكانت سبتة مثل شاطبة (Jativa) مشهورة بصناعة الورق المعروف بالسبتي وعلى غرارها كانت فاس عامرة بالطواحين لنفس الإنتاج .

وكانت التجارة نشيطة جدا واشتهرت لقنت والمرّية وقرطبة بأسواقها ولم تقتصر اسبانيا على تزويد المغرب الأقصى بما تنتجه غاباتها من خشب بل كانت تصدر اليها كذلك الحبوب والمصنوعات والكتان والمنتوجات الشرقية وأدخل الموحدون تغييرات على نظام السكة الذي سنه المرابطون ورسموا « في دائرة الدينار شكل مربع في وسطه وملىء من أحد الجانبين تهليلا وتحميدا ومن الجانب الآخر كتبا في السطور باسم المهدي واسم الخلفاء من بعده » ، واختاروا وحدة سكتهم ضعف ما كانت عليه لتماثل في وزنها الدينار القديم .

ولم تتاجر بلاد المغرب مع اسبانيا فقط بل إن تونس وبجاية وقسنطينة ووهران وتلمسان وسبتة (حيث كان يوجد فندق مرسيلي سنة 1236) كانت تتبادل البضائع مع بيز (Pise) وجنوة (Génes) والبندقية (Venise) ومرسيليا . وكشفت لنا النصوص التي شرحها أ. أ. سايوس (E - A - Sayous) عن الطرق التي كان يتوخاها تجار افريقية في المضاربات التي كانوا يعقدونها مع النصارى .

كان المسلمون أول من نظموا أساليب تجارتهم حسب مقتضيات السوق العالمية فلمّا جاء عهد الموحدين حسنّوا طرقهم فاقتبسها منهم النصارى . ولم تنفك الروابط والمبادلات بين النصارى والمسلمين في اطراد رغم فوارق الدين بل رغم تكاثر القرصنة التي أفلت زمامها من الملوك الأفارقة ولم يقتصر التجار النصارى في القرن الثاني عشر وأوائل القرن الثالث

عشر على المجيء إلى تونس والمتاجرة بها بل استقروا فيها . وكانوا يشترون من بلاد المغرب خاصة جلود الضأن والمعز والشمع ويبيعون بها الأقمشة والمنتوجات الشرقية وحتى الخمر .

وكان تجار بيز أكثرهم نشاطا إذ تمكنوا من إبرام اتفاق لتأمين أشخاصهم وبضاعتهم بعقد اتفاق بسيط (1157) . وخصص لهم فندق لإيداع منتوجاتهم وعوملوا معاملة حسنة .

وفي مطلع القرن الثالث عشر كتب تجار من مدينة تونس رسائل وديّة وحارّة لتاجر من بيز كان غادر المدينة إثر عقلة وأعطوه كل التطمينات . كتب له في إحداها ترجمان قائلا : « لا تتردد في الرجوع وستجد حيث حللت الترحاب أنت ومن معك . فسوق البضائع نافقة وفي وسعك أنْ تقوم بكل الشراءات التي ترومها » وأردف دبّاغ مسلم في رسالة أخرى قائلا : « إن الحالة والتجارة على ما يرام أحسن ممّا كانتا عليه عند رحيلك ستنزل مكرما مبجّلا مثلما كان ذلك في السابق » وهذه الرسائل تدل على ما كان بين تجار بيز وتونس من العلاقات الشخصية الطيّبة . وهكذا كان لأهل بيز في إفريقية تجارة نافقة . وكانوا يُبادلون بالخصوص الحبوب بالصوف والجلود والشب والشمع . وكانت ثقة المسلمين بهم كافية حتى أنهم يمهلونهم أحيانا في الدفع .

وكان أهل جنوة ومرسيليا يستعملون الطرق المعروفة في الأسواق الأوروبيّة . ومنها القرض المتداول الذي ليس فيه ربا مبدئيا والقرض البحري الباهض التكاليف إذ يتحمل صاحب المال وحده ما قد ينجر عن أخطار البحر ومنها العقد الذي يساهم الدائن بمقتضاه في أرباح التاجر ، ومنها الشركة التي تقضي بتوزيع المرابيح بين العمل وأسهم المشتركين . وكان تجار جنوة هم أول من استعمل عقود المبادلة مع تونس ، كما أن تجار مرسيليا رصدوا أموالا كثيرة في حقل التجارة والنقل . وتدل العقود العشرون التي أمضاها أصحاب رؤوس الأموال التجار المسمّون مندووال (Manduel) (بين 1212 إلى 1246) على أنهم باعوا ببجاية وسبتة ووهران وتلمسان بواسطة بعض اليهود نقودا عربيّة (قيمة نصف درهم) كانوا يضربونها في مونبيليه (Montpellier) قصد التصدير .

أما أهل البندقية فإنهم لم يحتلوا مكانة مرموقة في مدينة تونس الا في حكم الحفصيين .

الجيش والأسطول :

أنشأ الموحدون جيشا محكم التنظيم سعيا لبسط نفوذهم على بلاد البربر وإسبانيا بالخصوص فانتدبوا الجنود من بين القبائل البربرية في أول الأمر ثم من بين العرب الرحل ولم يتأخروا في تجنيد أسرى الترك الذين وقعوا بين أيديهم أثناء حربهم مع قراقوش واستعملوا قوات من النصارى أيضا . وبقدر ما كان عدد هؤلاء الأجانب يزداد ويتناقص جند المصادمة كان الجيش الموحدي يفقد حماسه الأول — وقد يصحّ أن نقول روحه الوطنية ليصبح جيشا محترفا وكان لحرس الخليفة شأن كبير إذ وجب على الاوفياء منهم الذين اختيروا لحراسة سرادق الخليفة ان يموتوا دونه حتى لايدخله أحد . وكانت الجيوش تهاجم على كرّات متوالية حاملة الرماح والسيوف والنبال والمقالع . وتستعمل أحيانا لتخطي الاسوار أبراج الحصار التي تبلغ ستة طوابق في بعض الأحيان .

ولمّا احتل الموحدون فاس امكنهم الاعتماد على أسطول بني ميمون الخطير . فجعل يوسف البربري من قوة الخليفة البحرية أول عمارة في البحر المتوسط بعد أن اشتغل في بحرية ملك صقلية روجر الثاني وعينه أبو يعقوب أميرا للبحر . لذلك استنجد صلاح الدين الأيوبي سنة 1190 بالخليفة لصدّ الملوك النصارى عن طريق الشام . ولاشك أنّه لم يستجب لندائه إذ لم ينس « أبو يعقوب » تواطؤه مع قراقوش .

وكان لسلطان الامبراطورية الموحدية وزن كبير بفضل ثرواته الواسعة وسمعة جيشه وأسطوله . ويؤكد كاتب عربي أن من بين المسلمين في القاهرة والاسكندرية من كان يتمنى دخول « أبو يعقوب » مصر . وأن سعي صلاح الدين يقيم وحده الدليل على أنه كان يعتبر أن عاهل بلاد المغرب أقدر رؤساء المسلمين على درء ما كان يهدد الاسلام من مخاطر .

فلسفة ابن طفيل وابن رشد :

إن الثقافة الإسبانية المغربية عززت ما كان يتمتع به الموحدون من هيبة في كامل البلاد الاسلامية وكان ابن طفيل وابن رشد وهما أكبر فلاسفة العرب في القرن الثاني (1110 — 1185) من المقربين عند الخلفاء. فابن طفيل كان كاتبا لأحد أبناء عبد المؤمن في سبتة وطنجة ثمّ أصبح الطبيب الأول لأبي يعقوب الذي كثيرا ما انتصح بنصائحه. وحلّ ابن رشد (1126 — 1198) محلّه لدى الخليفة ولم يتغير عليه الا المنصور لمدة محدودة. وكلاهما طبع بطابعه فلسفة القرون الوسطى ممّا كانت له آثاره في العالم المسيحي نفسه. وكان ليبنتز (Leibnitz) لا ينفك يثني على قصة ابن طفيل الفلسفية حي بن يقظان حسب اقتباسها إلى اللاطينية من طرف (Pococke) وقد وصف فيها المؤلف طفلا وحيدا في جزيرة قفراء وهو يتسامى عن المدْكرات الحسّية التي استطاع بفضلها أن يصنع بكل دقة ما هو ضروري لسدّ حاجاته إلى الصور المجردة للاجسام ثمّ إلى تصوّر العلل الكبرى : أي السماء التي يراها على شكل كرة والعالم حيوانا كبيرا وأخيرا الله المريد الحكيم العليم الرحيم الذي تتجلى صفاته من خلال دراسة الكائنات الطبيعية. وقد حاول حي بن يقظان الدعوة إلى فلسفته في بلاد مجاورة لكنه لم يجد آذانا صاغية فقفل راجعا إلى جزيرته صحبة مريد له تقي كان اعتنق مذهبه قبل ذلك وانقطع إلى التأمل المجرّد تاركا الشعب يعيش في صوره ورموزه. وبذلك ضبط ابن طفيل فصل المقال فيما يوجد بين التصوّف والدّين من مفارقات.

استجاب ابن رشد لنصيحة ابن طفيل وأقدم على كتب الفلسفة اليونانية التي كانت ترجمتها تبدو للخليفة غامضة ولم تصلنا كل كتبه بالعربية ووصلنا بعضها مترجما إلى العبرية او اللاطينية بينما فقد البعض الآخر. وكان ابن رشد محللا مفسرا أكثر منه فيلسوفا مبدعا. وكان لشروحه الثلاثة لأرسطو المتلائمة مع درجات التعليم الثلاث تأثير كبير. ولم يخالف ابن رشد من الناحية الفلسفية ابن سينا وابن باجة الاّ في مسائل ثانوية وكان مجددا في نقطتين : أولاهما نظريته الخاصة بخلق الصوّر الجوهرية المخالفة لابن سينا. والثانية في نظرية العقل التي ردّ بها على

الاسكندر الا فروديزي . وصرف اهتمامه بالخصوص إلى ما بين الحكمة والشريعة من واجب الاتصال بو صفهما مرحلتين من مراحل العقل . وكان يرى أنه يجب على العامة الاكتفاء بالظاهر بينما يحق للفيلسوف التأويل حتى يمكنه الكشف عن الحقيقة بل إن في تعرفه عليها ضربا من العبادة .

وليس من الغريب إذن أن تكون هذه الفلسفة التوفيقية التي ترى أن حقيقة واحدة قد تظهر في صور مختلفة أثارت قلق الفقهاء الرسميين وألصقت بصاحبها تهمة الكفر

الموسيقى :

لم يهتم الوسط الأندلسي والمغربي الذي فيه عاش ابن طفيل وابن رشد بالفلسفة فقط بل ولع كذلك بالموسيقى والفن . فعن طريقة المغرب انتقلت نظرية الموسيقى والفواصل والمقامات من المشرق ، حيث تكونت ، إلى اسبانيا وكادت تبقى هناك على حالها . وكان أهل إشبيليّة ولوعين ولعا كبيرا بالموسيقى على حدّ قول ابن رشد وتجادل الفلاسفة في جمالية الموسيقى ، وفي وقع الأصوات في النفس البشريّة وقوتها التّعبيرية — وكان ابن رشد يُنْكر الألحان الباكية ، المزعجة ، ويرفض التقليد الأعمى لكلّ ما يتنافى مع المعقول ولا يليق بالإنسان مثل صراخ الحيوان وأصوات الطبيعة لوقعها السيء على السامع وكان يحرّم كل موسيقى صادرة عن آلات مختلفة وحتّى المقامات الموسيقيّة جميعها . وكانت الغاية من الموسيقى بالنسبة إليه أخلاقيّة : من واجبها حمل البشر على القوّة والاعتدال . لهذا كان يحتقر الألحان العربيّة الذائعة في مدن المغرب والأندلس على السواء . ولا يزال عدد هواة « موسيقى غرناطة » في بلاد البربر كبيرا ويعتبرونها أرقى وأروع موسيقى وبينما اختص أهل المدن بهذه الموسيقى فإن البربر احتفظوا في الأرياف بغنائهم ذي الألحان الجادة والنبرات الخشنة البسيطة الّذي يعتمد من حيث الآلات المزمار البدائي أو المزود وهو آلة ذات اسطوانة لها عروة من خشب متحرّكة .

الفـن المعمـاري :

كـانت النـزعـة الفنّيـة في إقـامـة المبـانـي متّصلـة بحيـاة المدن . وكمـا كـان الشأن بـالنسبـة للفنّ المعمـاري المـرابطي فـإن الفـن المعمـاري المـوحّدي ازدهـر عندمـا انفـردت عـائلـة واحـدة بـالـحكم . فبلـغ أوجـه حـالمـا بسط عبد المؤمـن نفـوذه على المغـرب الأقصى . فكـانت أزهـى فتـرات الفنّ في الجنـاح الغـربـي من العـالـم الإسـلامـي .

وأقـام عبد المؤمن حمـدا لله مساجـد بتـازه ومراكش حيث أمكن ضبط الرسم الأول لجـامـع الكتبيين الّذي تهـدّم وكشف اليـوم عن أسسه وكذلك بتنملـل تخليـدا لذكـرى المهـدي . واجتمعت في هذه المساجد التّقـاليد الاسبـانيّة المغربيّة والعنـاصر الشرقيّة والتـأثيـرات المحليّة . وشيـد كذلك حصن قلعـة ربـاط الفتـح الّتي كانت تحتـل المـوقع الحـالي لقصبـة الودايـة في الربـاط . وأذن ابنـه أبـو يعقـوب ببنـاء الجـامع الأعظم بـاشبيليـة وقصبـة مراكش . وأشرف أبـو يعقـوب المنصور حسب تقـاليـدهم على الأشغـال الأولى لبنـاء جـامـع حسّان في الربـاط وعلى تشييد جـامـع قصبـة مراكش وكذلك على نهـايـة أشغـال جيـرالـدا بـإشبيليّة ومنـارة جـامـع الـكتبيـيـن . وكـان جـامع حسّان جليـل المظهـر ، إذ كان يحتـل مساحـة كبرى طولهـا 183 م ، 10 وعرضهـا 139 م ، 40 ولـه 16 بـابـا . ولم تبـق منـه إلاّ المنـارة المبنيّة بحجـارة ورديّة اللّون والمـاثلـة في وسط واجهـة المسجـد .

ومن بين المنـارات المـوحـديـة المـربعـة الشكـل والّتي يعلـوهـا في الوسط بـرج صغيـر لـم تثبت كـاملـة أمـام طوارق الحدثـان إلاّ منـارة جـامـع الـكتبيـيـن . وهي تتكـوّن من ستّة طوابـق يحتـوي كلّ واحد منهـا على قـاعـات متـراكبـة تفنّن المعمـاريـون في تنـويـع أشكـال أقبـائهـا . وكـان بشـابـة بـروج صغيـرة وهو مغطى بقبّة مضلعـة وفي آخـره منـارة تنتهـي بثـلاث كـرات من النّحـاس المذهب وكـان طول هـذا المبنـى يتجـاوز 67 متـرا .

وعفت القصور الموحدّية كلهـا واندثر المارستان الكبير الذي أقامـه بمـراكش الخليفـة المنصور أشهـر بناة دولة الموحدين وأضفى عليـه مـن

الفخامة ما لم يكن معهودا . وشيّد هذا الخليفة اسوارا كثيرة وبنى بالخصوص مدينة الرباّط وقلعتها . وكان السور العظيم المبني بالتراب المدكوك (الطائبة) والذي تتخلّله أبواب كثيرة أحسنها وأبقاها إلى اليوم باب الرواح يمتد على طول خمسة كيلومترات ونصف . وكان على مجموع المباني العسكرية التي يتألف منها رباط الفتح والتي أصبحت قصبة الوداية ، أن تحرس مصبّ واد بورقراق وان تكون مركز تجمّع للجيوش المعدة لغزوات الأندلس . وكان مدخل القلعة العجيب المبني من حجارة تميل في حمرتها إلى المغرة على شكل قوس حدوي منكسر ويحتوي على ثلاث قاعات مربّعة

وفي مراكش حيث شيّد الموحدون أسوارا من « الطائبة » تتخللها أبراج مربعة الشكل يشبه باب أقناو في فخامته مدخل الوداية . وكان الخلفاء الموحدون هم الذين أقاموا أسوار فاس البالي التي لا تزال موجودة إلى اليوم وخاصة في الجهة الشمالية من خارج المدينة السفلي .

ويمتاز عهد الموحدين على عهد المرابطين بما توفّر فيه من حرص على التوازن وتوخي الرقة في تزويق المباني . وتطور الزخرف النباتي تطورا جديدا فاستمد من سعف النخيل شكله النهائي . قال تراس وهينو (Terrasse) و (Hainaut) : « كانت كل سعفة يعنى بها على حدة ويعتنى بتصوير حافاتها . وتعظم الأشكال وتتداخل الحافات الممتلئة اليانعة القوية كالعضلات وتنحني في حركات عنيفة وقد استوحى القوم من الفن الشرقي بإفريقية صورة جديدة للسعفة : فكأن سعفات النخيل تنبثق من كؤوس متوالية . وفي الجصّ المنحوت تقطع الحافات لتحدث ظلالا وافية . أمّا في الزخرف المتشابك فإن السعفة الملساء تظهر في الموضع الذي لايُصرف فيه النظر إلى غير المطاوي المتشنجة للقوسات » .

ولا يقل التزويق الهندسي أناقة ولا قوة من دون أن يؤول إلى تعقد في الخطوط . قال ترّاس وهينو : أمّا الأقواس ذات الحنيات التي كثيرا ما يتكوّن ظاهرها من مشبكات افقية متشعبة إلى فروع عديدة فإنها تعدّ بمنحنياتها العتيدة وأطرافها الطويلة مزيجا فريدا في بابه من الأناقة

والقوة وإن الميل إلى استعمال المشبكات في الأطر يصل إلى حدوده القصوى وتغطي واجهات المنارات المشبكات المعمارية .

وكان همّ الفنانين في القرن الثاني عشر التلوين فتحلت المنارات بالزليج المختلف الألوان وهكذا توّج الزليج الأزرق الفيروزي منارة جامع الكتبيين بإكليل من الحجارة الكريمة الوهاجة كلما ألقت الشمس عليها أشعتها .

وكان الفن الموحدّي الذي انكبت على دراسته في المغرب الأقصى مدرسة قادها وتزعمها المأسوف عليه هنري باسية (H. Basset) وهنري تراس تتويجا لجهود دامت قرونا . فقد مزج هذا الفن بين ما استمده من التقاليد الأندلسية وما استلهمه من المشرق . وكوّن من هذه العناصر كلها جمالية فريدة من نوعها ، جليلة ، قويّة مثل ملوك الموحدين . ونجد هذه العظمة في المساجد الكبيرة بقبابها العديدة ومناراتها الشامخة . كما نجدها أيضا في مواد البناء القويّة وحتى في « الطائبّة » التي تبنى بها الأسوار ، وكذلك في الزخرف المنسجم أشد الانسجام مع الفن المعماري والمتميز برحابته وتساميه واختصاره وحرصه على الترتيب والوضوح . وهذا ما دعا البعض إلى القول بأن هذا الفن هو « منتهى الضبط المتكامل المتوافق » (فزال) ولقد عرف الفن الموحدي أوجه في عهد الخلفاء الأولين . وبدأ الانحطاط منذ القرن الثالث عشر فلم يكتب لمنارة جامع حسان أن يتم بناؤها . وانهارت الامبراطورية العظيمة ولم تبلغ قط الدول التي تقاسمت أشلاء ها ما بلغته من عظمة سياسية وفنية .

الخاتمة :

لئن كان عمل الموحدين يماثل في تألّقه عمل المرابطين على الأقل ، فإنه خلف آثارا أبقى على الدهر .

وكانت الخيبة واضحة من الناحية السياسية : ذلك أن بلاد المغرب انقسمت كما هو الشأن في أوائل القرن التاسع ، إلى ثلاثة أجزاء لم يكتب لها إلى اليوم الالتئام : فكان للحفصيين إفريقية ولبني عبد الواد

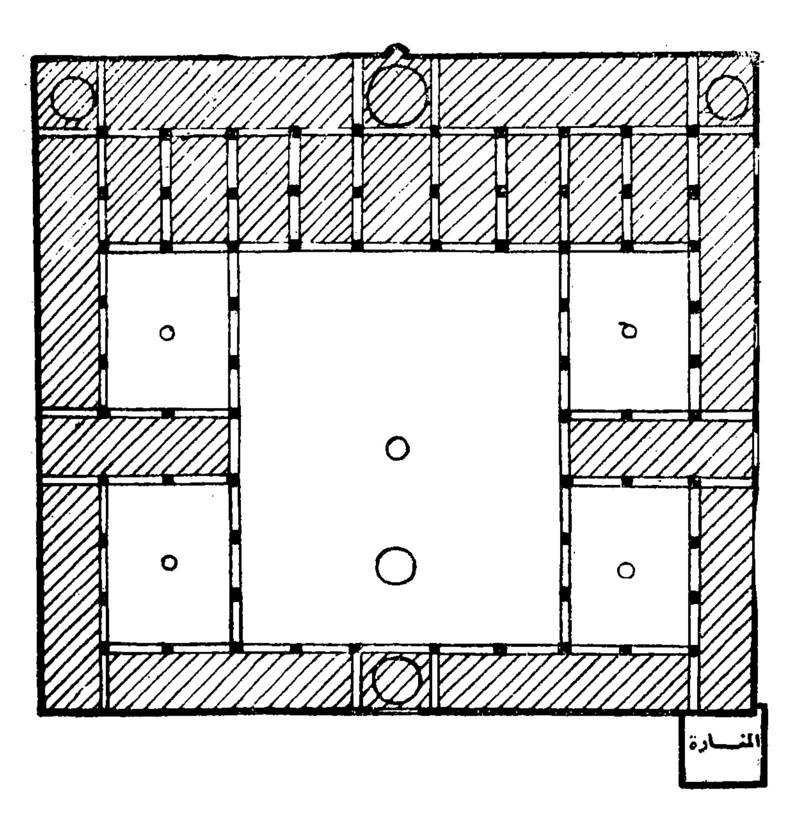
المغرب الأوسط ولبني مرين المغرب الأقصى . ولم يتوفق المصامدة وبنو عبد المؤمن إلى انشاء وحدة بربرية دائمة وهذا الفشل ناتج عن أسباب عديدة حللها هنري تراس بتعمق كبير في كتابه تاريخ المغرب الأقصى.

وأول ما نلاحظه هو أن محاولة الوحدة جاءت متأخرة عن أوانها . ذلك أنّه لمّا أخذ الموحدون السلطة كانت الدودة قدحلت بالثمرة منذ زمان بعيد ونخرتها إلى أبعد حد .

ففي أواسط القرن الثاني عشر كان عرب بني هلال قد بسطوا نفوذهم الكامل على إفريقية وتوغلوا كثيرا في المغرب الأوسط . ومن جهة أخرى كان عرب بني معقل وهم آخر من دخل بلاد المغرب بصدد التسرب إلى المغرب الأقصى عن طريق مشارف الصحراء . وكان هؤلاء وأولئك قد تحالفوا بعد مع البربر الزناتيين وأصبحوا بذلك جموعا بدوية قوّية جدا قادرة على الحيلولة دون كل محاولة يقوم بها الحضر لفرض هيمنتهم . ونحن نعلم أن العرب سرعان ما يوالون السلطة المركزية عندما تكون في عنفوانها ولكنهم ينتقضون عليها كلّما سنحت الفرصة . وكانوا عنصر تخريب للامبراطورية الموحدية . وخاصة أثناء مغامرة بني غانية الطويلة ثمّ ابتداء من سنة 1224 عندما أخذت الدولة في الانهيار . غير أن نتائج اعمالهم قد تكون من الناحية الاقتصادية أبعد أثرا ، ذلك أن هؤلاء الرعاة الذين لايرضون أبدا بنمط حياتهم بديلا حوّلوا جهات فلاحية كثيرة إلى مواضع للانتجاع شاسعة تعاطوا فيها تربية الماشية على نطاق واسع ، وجعلوا المزارعين في غيرها من الأماكن عبيدا أجرهم منقوص وأملهم مفقود . وعطّلوا أخيرا وهم النهابون جبلّة المبادلات التجارية التي كانت مزدهرة جدا في أول عهد الموحدين .

وأدرك خلفاء مراكش تمام الإدراك مشكلة هؤلاء العرب الرحل وظنوا أن الحل ينحصر في جلبهم إلى المغرب الأقصى ولكنهم لم يتوفقوا إلى احلال السلم في إفريقية فكان أن انتشر الداء في المغرب الأقصى الذي بقي إلى ذلك الوقت سالما منه..

ثمّ إن هؤلاء البربر سكان الجبال لم يعرفوا كيف يقدّون نظرياتهم السياسية على قدّ امبراطوريتهم التي توصلوا إلى إقامتها . فلقد أبى المصامدة وهم الرعيل الأول من الموحدين أن يشركوا في أعمالهم ، أي في حكمهم ، سكان الأمبراطورية الآخرين : وساروا سواء في إسبانيا أو إفريقية أو المغرب الأوسط سيرة الغزاة : ممّا أدّى إلى قيام الثورات بدون انقطاع والتصدع النهائي حالما ضعفت شخصية الخليفة .



شكل 16 ـ رسم جامع القصبة بمراكش ·

وإذا نظرنا إلى الفئة الحاكمة نفسها وجدنا أن بني عبد المؤمن قد خصّوا أنفسهم بنصيب الأسد على حساب العائلات الموحدّية الأخرى . وأثارت سياسة احتكار السلطة حفيظة هذه العائلات التي اغتنمت أول فرصة لاسترجاع ما كانت تعتبره حقها المشروع . وإنها لسياسة قصيرة

النظر كان مآلها الانهيار التام باستثناء إفريقية التي أمسك أمرها بنو حفص . وهكذا فإنه لم تمض على الامبراطورية البربرية بضعة عقود حتى تقطعت أوصالها بدون رجعة .

أما إذا نحن اعتبرنا الناحية الدينية فإن حصيلة ما قامت به دولة الموحدين مخالفة جدا لمّا سبق . ولئن لم يبق مذهبهم فإنهم أتموا ما بدأه المرابطون من عمل توحيدي ونجحوا في ذلك إذ اعانوا على نمو الحركة التصوفيّة الاسلامية التي كانت كامنة في بلاد المغرب من دون أن يتيّسر لها قط الازدهار من قبل . كتب تراس قائلا : « إن الجدير بالملاحظة هو أن أعظم أيمة المتصوفين ببلاد المغرب الذين سيتفردون من بين أولياء هذه البلاد بأكبر شعبية عاشوا جلهم في عهد الموحدين وماتوا في أواخر القرن الثاني عشر : مثل سيدي حرازم (ابن حرزهم) (1173) ومولاي بوشايب (1174) ومولاي بوعزّة (1176) وسيدي بومدين . ومولاي عبد السلام بن مشيش وسيدي بلعباس السبتي (1188) ». ومن ذلك الوقت هدأت الخلافات الدينية وساد المسلمين الوئام تحت راية المذهب المالكي . ولا ننس من جهة أخرى أن تشدّد المغاربة في دينهم كعزل النساء عن الرجال والتمسك الشديد بالصوم واجتناب المأكولات المحرمة اجتنابا كليا يستمد أصوله من تعاليم ابن تومرت الأخلاقية .

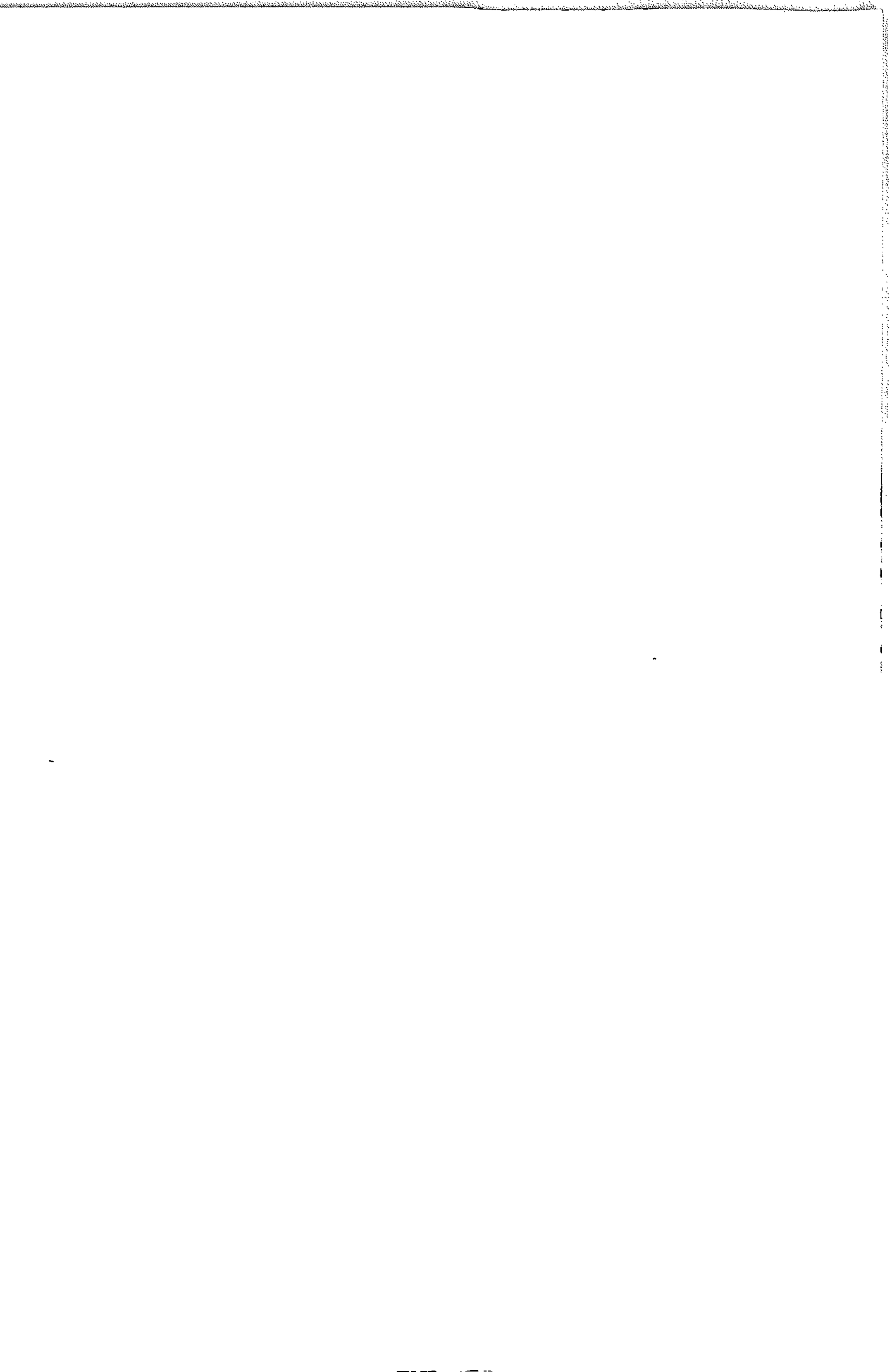
وأخيرا فإنه لامجال إلى إنكار ما خلفه الموحدون من حضارة حق إذ أنهم لم يكتفوا مثل من سبقهم بنقل الحضارة الأندلسية وإشاعتها . وإنها لحضارة لم تخل من طابع التزمت وصفة القوة إذ طغت فيها الحصون والمساجد على القصور والحدائق وتغلبت الفلسفة على الشعر الا أنه لا سبيل إلى نكران ما توفر لها من طرافة وعظة .

لذا فإنه يمكن اعتبار نصف القرن الواقع بين 1160 و 1240 الفترة التي جاد فيها المغرب البربري بأنفس ما عنده .

الباب الرابع

عودة إلى الممالك البربرية

1 - مملكة بني حفص بتونس
2 - مملكة بني عبد الواد بتلمسان
3 - مملكة بني مرين بفاس
4 - دولة بني وطاس ويقظة الإسلام



ما أن ظهرت على الأمبراطورية الموحدّية أولى علائم الوهن الخطير حتى سارت بلاد البربر نحو الانقسام إلى ثلاثة أجزاء مثلما وقع زمن الاحتلال الروماني ثمّ في القرنين الثامن والتاسع وبعد ذلك في القرن الحادي عشر عندما انفصلت صنهاجة أشير عن زناتة إفريقية .

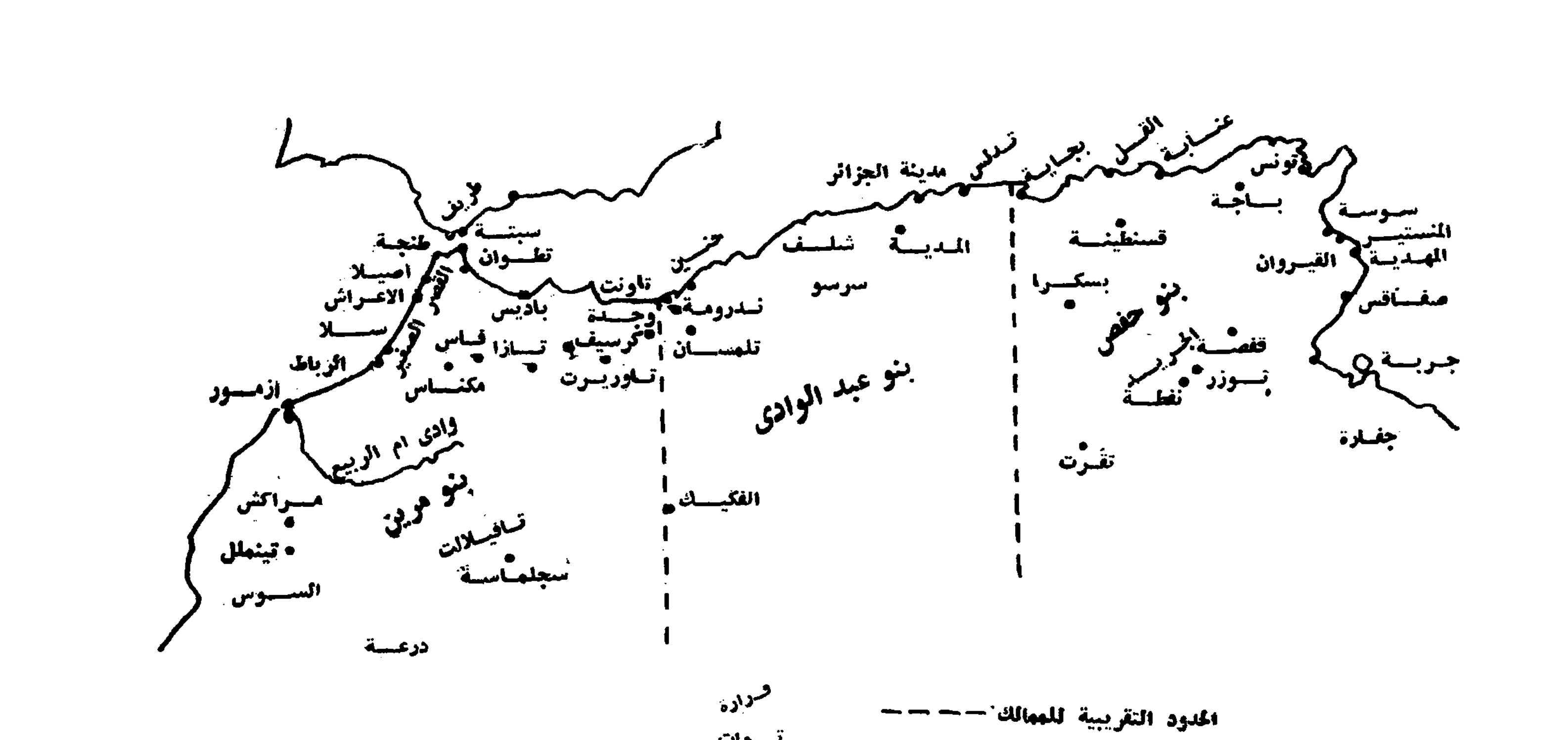
لقد أعلن والي إفريقية عن استقلاله سنة 1236 م بعد أن قطع الصلة بمراكش ابتداء من سنة 1229 . وكان بذلك تأسيس الدولة الحفصية . وأقامت قبيلة بني عبد الواد سنة 1235 بقيادة يغمراسن بن زيان حكما مستقلا بتلمسان وبالجهة المجاورة التي طالما وضعها الموحدون تحت رعايته .

وأخيرا استحوذت سنة 1248 قبيلة بربرية أخرى نعني بني مرين على مدينة فاس ، وأقامت فيها دولة سرعان ما توطدت أركانها .

وزيادة على ذلك فإن إسبانيا المسلمة كانت هي أيضا قد انفصلت عن الأمبراطورية الموحديّة. وتولى بنو نصر أمراء غرناطة حكم البقية الباقية منها.

وهكذا فإن الأمبراطورية التي أسسها عبد المؤمن انقسمت إلى ثلاثة أجزاء حكمت كل جزء منها عائلة أو قبيلة بربرية ، ودام هذا الأمر عشرين سنة قبل انهيارها الكلي ، ومرّت على كل جزء من هذه الأجزاء أطوار مختلفة وعرفت الامبراطورية فترات من المجد والازدهار النسبي. غير أنه لايمكن أن ننظر إلى هذه الممالك الاّ بوصفها تابعة إذ لم يتوفر فيها ما يذكّر بحيوية رجال المهدي وقوة شكيمتهم . وكانت جميعها تعيش في كنف الموحدين لاغاية لها سوى ضمّ شتات امبراطورية السلف وجعلها تحت سيطرتها . وأوشك بعض ملوكها بلوغ هذه الغاية إلاّ أن ذلك لم يتجاوز شهورا معدودات .

وان تاريخ المغرب ، إلى زوال الدول الثلاث الحفصية والوادية والمرينية ، أي إلى أواسط القرن السادس عشر كان في آخر الأمر سعيا ضائعا إلى إحياء الماضي وركودا طويلا ثمّ انحطاطا بطيئا .



شكل 17 ـ المغرب فى نهاية القرن الثالث عشر .

ومن حسن الصدف أن هذا الانحلال لاحظه ووصفه مؤرخ عبقري هو ابن خلدون 1332 — 1406 م. ولولا تأليفه لما أمكن لـ. ج. مرسي (Georges Marçais) ضبط مراحل زحفة بني هلال ولتعذر على أ. ف. قوتيي (E. F. Gautier) أن يسلط الأضواء على القرون المظلمة التي عاشتها بلاد المغرب حينذاك.

ولقد دخل ابن خلدون أثناء حياته السياسية في خدمة بني حفص وبني مرين وبني نصر وبني عبد الواد. ثمّ تنكر لهم مدفوعا بما كانت توعز به اليه مصلحته الخاصة لا بما يمليه عليه ضميره، ثمّ عاش بين العرب لتجييش الجيوش. وحيثما حلّ هذ الرجل الفذّ تقلّد مناصب مرموقة تمكّن بفضلها من تتبع الأحداث وتقييم الرجال. وكان يمكن أن يستمدّ ابن خلدون معلوماته من تراكم الأخبار الفجة كما هو الشأن بالنسبة إلى القرطاس، ولكن الرجل كان يتمتع بروح نقدية وتطلّع علمي بلغا حدا من القوة جعل أ. ف. قوتيي لايتردد في اعتباره في مستوى حنبعل والقديس أغسطينوس.

وفي تونس تتلمذ ابن خلدون لأبيه وأشهر الشيوخ بها فأخذ عنهم النحو وفقه اللغة، والفقه، والشعر ثم قصد علماء المغرب الذين ظهروا في عهد المرينيين فحذق بفضلهم الفلسفة وعلوم الدين. ولكن ابن خلدون كان في الواقع مجددا استمد مبادئه وطريقته من ذات نفسه ووضع لمؤلفه في التاريخ الذي سمّاه كتاب العبر، المقدمة التي احتوت على تأملات حول مواضيع متباينة يمكن رغم ذلك أن تُستمد منها فلسفة التاريخ في معناها الكامل.

وكان ابن خلدون خلافا للإخباريين (chroniqueurs) المسلمين حريصا على التحري في قيمة المصادر لا بالاعتماد على المعايير الدينية بل بالاستناد إلى أحكام العقل. ولم يكتف بسرد الأحداث بل كان يحاول دائما فهمها وبيان عللها ما أمكن ذلك. وإن له حول القيمة المحتملة للوثائق أو أهمية الشغل بوصفه عاملا من عوامل الثروة اعتبارات أصبحت مألوفة عندنا اليوم بفضل المؤرخين وعلماء الاقتصاد في القرن التاسع عشر الاّ أنها مدعاة إلى الاستغراب عندما يخطّها رجل عاش في القرن الرابع عشر. وإنه ليذكرنا بمعاصره فرواسار (Froissart) بل بمكيافيل (Machiavel) وفيكو (Vico)

وأكثر من ذلك فإن لابن خلدون تصوّراً للتطور التاريخي استمده من ملاحظة الأحداث المعاصرة له . لقد أثار انتباهه تواجد مناطق صحراوية يتجمع بين كثبانها البدو وجهات خصبة يسكنها الحضر فاستنتج أن حياة الحضر تتبع حياة البدو وتتولّد عنها . فالبدو الرحل العائشون على الفطرة والطهارة والمنقطعون إلى مصالح العائلة والقبيلة يسجلون بفضل خصالهم الحربية فتوحات يستمدون منها ثرواتهم ولكنّها تحمل بذور فسادهم ، ثمّ هم سرعان ما يتغلب عليهم شعب آخر شيمته الغلظة والشجاعة . فالبدو هم المحتفظون أكثر من غيرهم بروح التضامن والتفاني في سبيل المصلحة الجماعية وهو ما يسمّيه ابن خلدون بالعصبية التي هي قوة الدول الأساسية . وإنهم لعلى خلق عظيم خلافا للحضر الذين أخذ منهم الفساد والانحلال مأخذا عظيما .

ويدلّنا التاريخ على أن الممالك تنشأ وتتطور ثمّ تفنى مرورا بخمس مراحل وعلى أيدي ثلاثة أجيال أي في ظرف 120 سنة . وأكد أ. ف. قوتيي على ما كان يضمره ابن خلدون من احتقار للأرض والفلاح والمواطن كما نبّه إلى النظريات البيولوجيّة والوراثية التي كان يحمل لواءها هذا المؤرخ العبقري والذي بقي مفهوم الأرضية الجغرافية للتاريخ غريبا عنه تماما .

وإن بلاد المغرب هي التي أوحت إليه قبل الجزيرة العربية بهذه الفلسفة التشاؤمية حول العلاقات القائمة بين البدو والحضر ، لذا فإن الجزء الذي اقتطعه دي سلان (De Slane) من كتاب العبر ونقله إلى الفرنسية تحت عنوان وضعه هو نفسه نعني « تاريخ البربر » يبقى المصدر الأساسي خاصة بالنسبة إلى القرن الرابع عشر حيث تكوّنت الممالك الوارثة للسلطان الموّحدي . والى جانب ما أظهره ابن خلدون من ذكاء جدير بالإعجاب وما اتصفت به نظرياته من طرافة نافذة فإننا نظفر لديه بوثائق كتبها شاهد عيان إذ كان مؤرخا وفي نفس الوقت العضد المسموع الكلمة لعدد كبير من الملوك الذين روى تاريخهم .

I ـ مملكة بنى حفص بتونس

أبو زكرياء 1229 — 1249 م .

من بين الدول الثلاث التي تقاسمت بلاد البربر وتصارعت من أجل الانفراد بها كانت دولة بني حفص هي التي فرضت نفسها بوصفها الوارثة الأولى لسلطة الخلافة الموحدية المنهارة والحافظة لتقاليدها . ولقد تمتعت هذه المملكة الجديدة خلال القرن الثالث عشر خاصة بهيبة حقيقية ولكنّها لم تقدر على حماية إفريقية من الانحطاط . وقد كانت خصومات القبائل العربيّة وثوراتها تغذّي الاضطرابات وتزيد في تفاقم الخراب . ولقد درس تاريخ هذه المملكة ر. برنشفيك (R. Brunschvig) دراسة مرموقة ومستفيضة في مؤلّف ذي جزأين سمّاه «بلاد البربر الشرقية على عهد بني حفص ، من البدء إلى أواخر القرن الخامس عشر » .

ومعلوم أن الخليفة الموحدّي الناصر لمّا هزم الثائر يحيى ابن غانية في الجنوب التونسي عهد سنة 1207م . بحماية إفريقية إلى أحد أبناء الشيخ أبي حفص عِمر الهنتاتي ، فمارس هذا الوالي السلطة وهو في طاعة الموحدين حتى توفى سنة 1221 م . ثمّ حلّ مكانه بعض الولاة من عائلة بني عبد المؤمن . وفي سنة 1226 عيّن الخليفة الناصر من جديد على إفريقية واحدا من بني حفص : ولمّا رفض هذا الوالي مبايعة المأمون الخليفة الجديد عُزل وقدم أخوه أبو زكرياء يحيى الذي كان آنذاك واليا بقابس .

وكان هذا الشاب الذي لم يبلغ السادسة والعشرين من سنه ابن أول الولاة الحفصيين على إفريقية وحفيد الشيخ أبي حفص المعروف . وقد جمع بين صيت عائلته وهيبة أبيه عندما حمى إفريقية من عمليات

ابن غانية الحربية ، ولقد زاد على هذه المزايا الموروثة ثقافة مرضية وضبطا للنفس بالغا وإقداما لايخلو من تقدير للعواقب .

ولم تمض بضعة أشهر على تعيينه بتونس حتى وجد نفسه تحت إمرة الخليفة المأمون الذي أنكر علانية مذهب الموحدين إزاء يحيى بن الناصر المنازع للمأمون في الخلافة والعاجز عن تدعيم سلطته . وبعد أن انحاز إلى يحيى بن الناصر فترة لم تتجاوز أسابيع قليلة قرر أن تقع خطبة الجمعة باسم « المهدي والخلفاء الراشدين » وأطلق على نفسه لقب الأمير وكان ذلك بمثابة إعلان محتشم عن استقلال أكمله بعد ذلك بسنوات قليلة (1236م. أو 1237م) عندما أمر بأن تكون الخطبة باسمه. وفي أثناء ذلك كان يوسّع من رقعة ملكه : ففي سنة 1230 م على الأرجح وقعت قسنطينة وبجاية في حوزته وطرد بصفة نهائية يحيى بن غانية من ممتلكاته ، وفي سنة 1235م. ألحق بملكه مدينة الجزائر وتمكّن من إخضاع أعظم قبائل وادي شلف عنوة أو عن طيب خاطر . وبذلك تكوّنت من جديد مملكة بني زيري القديمة كما كانت في أواخر القرن العاشر . ولم تخطىء كبرى دول النصارى الحساب: فعقدت البندقية سنة 1231م. وبيز سنة 1234م وجنوة سنة 1236م معاهدات حسن جوار واتفاقات تجارية مع العاهل الجديد، بينما أرسل إليه فريدريك الثاني صاحب صقلية قنصلا سنة 1239 وربط معه ملك الارغون علاقات ديبلوماسية . ومن جهة أخرى كان أبو زكرياء يظهر في غمرة فوضى الموحدين الدعامة الحقيقية للقوة الاسلامية في نظر مسلمي المغرب المهددين بحركة الاسبان الرامية إلى استرداد اراضيهم كما كان يظهر الممثل الوحيد الأصيل للسنة الموحدية : فكان القوم ببلنسية وإشبيلية وشريش وطريف وغرناطة يخطبون خطبة الجمعة باسم أبي زكرياء ابتداء من سنة 1238م. ، وكذلك في طنجة وسبتة والقصر الكبير ، وحوالي سنة 1245 م اعترف بنو مرين بدورهم بسلطة الحفصي الذي أرجع إلى الصواب الامير يغمراسن صاحب تلمسان المتعنّت في مساندته للخليفة الموحدي الرشيد وذلك سنة 1242م. . وأخيرا توّصل أبو زكرياء بسياسته الحكيمة مع القبائل العربية إلى الحدّ من تأثيرهم وجعل بعضها أعوانا له صالحين .

ولمّا توفيّ إثر مرضه سنة 1249 كان قد قام بعمل جليل به كوّن مملكة متينة الأركان محفوفة بدول تابعة أو صديقة وعوّد أهل إفريقية بالخضوع إلى دولة حاكمة جديدة .

المستنصر :

غير أن الوضع الذي تركه لابنه أبي عبد الله (1249 — 1277م.) لم يكن خاليا من الأخطار . فلقد وجد الأمير الشاب في صلب عائلته مناوئين مستعدين دائما لشق عصا الطاعة على رأس القبائل العربية . فاضطر إلى قمع أربع ثورات وتعقّب الدواودة الرّحل — وهم أشد القبائل بأسا — حتى تخوم الصحراء ، والرمي بفلولهم نحو الغرب ، وتقتيل رؤسائهم .

ولم يمنعه هذا من تسمية نفسه بأمير المؤمنين سنة 1253م. والتلقب بلقب — المستنصر بالله الّذي عرف به — وقد توخّى سياسة العظمة فأحسن تهيئة القصبة بتونس العاصمة وأوجد « حدائق رائعة » تتوسطها « برك في جهة تونس » وجلب إلى بلاطه الأدباء والشّعراء .

ودخلت مملكتا تلمسان وفاس في طاعته وكان يتلقى السفارات لا من المدن الإيطالية وأغلبية دول البحر المتوسط الغربي فقط بل كذلك من جهات نائية كالنّرويج (1262) وكانم وبرنو (1257) الّتي كان ملوكها يرسلون إليه الهدايا الثّمينة . وحتّى شريف مكّة فقد بايعه خليفة سنة 1259م وتبعه في ذلك مماليك مصر (1260م.) . وفي الواقع فان هذه المبايعة لم تدم طويلا إذ عمد بيبرس سلطان مصر الجديد إلى إحياء الدولة العبّاسيّة سنة 1261 . وكانت الدولة الحفصيّة إذن قويّة جدّا عندما ظهر سنة 1275 أمام قرطاج أسطول القدّيس لويس .

وكان بنو حفص يدفعون بصورة تكاد تكون منتظمة حتّى اعتلاء شارل صاحب أنجو (Anjou) عرش صقلية (1266) إتاوة صغيرة إلى النّرمان ثمّ إلى هوهنستوفن (Hohenstaufen) تلافيا لقرصنة الصقلّيين وحرصا على بيع حبوبهم بموانىء الجزيرة في حرّية تامّة . ورفض المستنصر الاعتراف بحقوق شارل صاحب أنجو

واقتبل خصومه وكفّ عن دفع الإتاوة . وكان ذلك حسب ما يراه بعضهم سببا حاسما في قيام الحرب الصليبيّة الثامنة الّتي يظهر أن القديس لويس انساق إليها انسياقا من جراء مناورات أخيه .

ولا سبيل إلى الشك في مدى تأثير المشاكل الاقتصادية على العلاقات بين الدول أثناء القرن الثّالث عشر . ولم يكن ابن خلدون مخطئا طبعا عندما أكد على ما كان يقوم به تجار بروفانس من مساع لاستخلاص ديونهم الّتي وقع التراجع فيها بمجرد إعدام وزير سابق بتونس . ذلك أن الرّوح الصليبيّة التي كانت الدّافع لحملات جوستنيان والقديس لويس وشارل العاشر عرفت كيف تتلاءم في حاشية الملوك مع الروح التجارية . لكنّنا لا نفهم ما الّذي حمل شارل صاحب أنجو على التخلي عن مشاريعه ضد القسطنطينية في الوقت الّذي ترك له شغور البابوية المجال فسيحا . بل إننا نعلم أنّه أعرض عن ذلك بأمر من أخيه والتحق بتونس على رأس جنده منضما إلى جيش الصليبيين الّذين أبحروا من مكان قريب من إيق مورت (Aigues-Mortes) في الرابع من جويلية 1270م . ولم تكن هذه الحرب الصليبيّة انتصارا لديبلوماسيته بل إخفاقا لسياسته .

اما تصميم القديس لويس المستوحى من الرّاهب ريمون مارتان (Raymond Martin) أستاذ العبرية والعربية بدير الدومينيكان بتونس وصديق الخليفة فاننا نجد ما يبرره فقد بلغ إلى علم ملك فرنسا أو خيّل إليه أن المستنصر عازم على التنصّر .

وعزا المؤرخون من دون أن يكون لهم في ذلك أية حجّة سذاجة القديس لويس النبيلة إلى نفاق المسلمين . فقد تحمّس الملك عندما تصوّر أنه في الإمكان أن تصبح إفريقيّة قاعدة منيعة للمسيحية أو على الأقل منطلقا للهجوم على بيبرس سلطان مصر الّذي أصبح نشاطه ينذر بالخطر .

ومهما يكن فان الاستعدادات العظيمة الّتي كانت مهيّأة لتخليص الأماكن المقدسة وجهت لاكتساح بلاد البربر وذلك بعد تردد كبير . وأرسى الأسطول بكاقلياري (Cagliari) ثمّ أشرف على

قرطاج بعد ستّة أيّام (18 جويلية) وكان الخليفة قد حصّن مدينة تونس واستنفر القبائل الحليفة ، واكتست المقاومة صبغة الجهاد المقدّس الّذي نادى به «الأتقياء الصالحون والفقهاء والأولياء» ، وضمّ الجيش الموحدين والجند والمتطوعين ولم يكن القديس لويس ليتصور إلى أي حدّ شارف النّصر .

وبينما كان المستنصر يفكّر في نقل عاصمته إلى القيروان تفشت الحمّى والاسهال في معسكر الفرنسيين وأوديا بالملك (25 أوت 1270) .

وعندما أرسى أسطول شارل صاحب أنجو ولم تمر على وفاة أخيه إلاّ ساعات معدودات أصبح رأس الصليبيين ولم يعتبر منذئذ سوى مصالحه الخاصة . وسرعان ما أبرم مع الخليفة معاهدة فيها غنم كبير لمملكة صقلّية . وإنّما أقدم المستنصر على ذلك لأنّ انتجاع العرب لأراضيهم في الجنوب كان يهدّد بتعذر صمود الجيش الإسلامي . لذا رضي بدفع ضعف الإتاوة الّتي كان يسلّمها إلى هوهنستوفن (Hohenstaufen) زيادة على ما تخلّد بذمّته وغرامة حربية كما رضي بتسليم الهاربين الصقليين وضمان امتيازات تجارية لرعايا ملوك فرنسا وصقلية ونفار (5 نوفمبر) ولم يظفر المستنصر مقابل ذلك إلاّ بتهديم أطلال قرطاج الّتي كان يحتمي بها النّصارى

ولئن لم يكن هذا الحلّ مشرّفا فإنّه كان في صالح إفريقيّه . ويظهر أن السكّان كانوا واعين لذلك إذا استثنينا بعض المعارضين المتعنتين إذ أن المستنصر لم يجد صعوبة في جمع الأموال الّتي تعهّد بدفعها . وأمكن له بدون عناء إرجاع العلاقات التجارية الّتي كان ربطها مع الأرغون (1271) وبيز ، والبندقية (1271) وجنوة (1272) كما تمكّن من تمتين الرّوابط بينه وبين شارل صاحب أنجو جاره بصقلية . ولم تتميّز أواخر أيامه إلاّ بالاستيلاء من جديد سنة 1275 على عاصمة الجزائر الّتي كانت أعلنت عن استقلالها قبل ذلك . وتوفي إثر مرض في 17 ماي 1277 والبلاد تعيش في كنف السلم وعزّة السلطان .

انفصام الوحدة الحفصية :

كانت الامبراطورية التي تركها المستنصر تظهر متينة الأركان . غير أنها ما لبثت أن تدهور أمرها على أيدي خلفائه . فقد انقاد ابنه الواثق الذي تولى الخلافة بعده لأحد مقربيه وهو من أصل أندلسي فألّب على الحكومة شق الموحدين بأكمله . ونافسه في الحكم عمّه أبو إسحاق الذي كان متمردا على المستنصر منذ سنة 1253 . وعلاوة على اجتماع كل الغاضبين بإفريقية حوله فقد مدّه بالعون العسكري بيار الثالث ملك الارغون الجديد (1276 — 1285م) . وكان لهذا الملك مطامح في حوض البحر المتوسط وخاصّة صقلية التي كان يحكمها شارل صاحب انجو . وكان يرى أن وجود عاهل موال له في إفريقية من شأنه أن يعينه على تحقيق غاياته . وبعد أن استولى أبو إسحاق على بجاية في أفريل 1279 دخل تونس في شهر اغسطس وتولى حكمها .

ولم يكن حظّ العاهل الجديد الذي اقتصر على لقب أمير أحسن من حظ سلفه المنكود . فسرعان ما خيّب ظن حاميه النصراني الذي أرسى بالقالة (Collo) في جوان 1282 لنصرة أحد المتمردين ثمّ أقلع نحو صقلية حيث نال تقتيل الفرنسيين (Vêpres Siciliennes) من سلطان شارل صاحب انجو (30 مارس 1282) . وما أن زال هذا الخطر حتى دعّم أبو إسحاق موقفه بتزويج إحدى بناته لولي عهد تلمسان . لكن سياسته الداخلية « المتأرجحة بين الضعف والقوة » أغضبت بعد قسما كبيرا من السكان ، وخاصة عرب الجنوب ، الذين وجد لديهم ابن أبي عمارة وهو مغامر مقدام آذانا صاغية فأوهمهم أنه ابن الواثق وبسط نفوذه باعانة البدو على كافة الجنوب التونسي منذ خريف 1282 . ثمّ دخل تونس في جانفي 1283 ودحر في شهر جوان جيوش الحفصيين الذين لاذوا ببجاية وحاولوا استرجاع عاصمتهم .

ولم يتمتع ابن أبي عمارة بثمرة نجاحه طويلا فقد أغضب بدوره العرب الذين سرعان ما التفوا حول أبي حفص عمر ، وهو أخ للمستنصر ، كان ينشد الحكم . وزحفوا على تونس ودخلوها وبايعوا الخليفة الجديد ولقبوه بالمستنصر بالله (جويلية 1274) .

وكان أبوحفص (1284 — 1295) مدينا في نجاحه لبني سليم — فأغدق عليهم من نعمه الشيء الكثير فبينما امتنع أبو زكرياء والمستنصر من إقطاعهم مدنا واقتصرا على منحهم جراية ، مكنّهم أبو حفص من ثلاث أو أربع أماكن بجهتي صفاقس والجريد كهبة بما في ذلك محصول الأراضي واستخلاص الضرائب (1284) .

وعجلت التنازلات التي أقدم عليها بنو حفص بانحطاط المملكة . من ذلك ما لاحظه الرّحالة العبدري سنة 1289م. من أن جميع المدن باستثناء تونس التي بقيت مركزا نشيطا للتجارة والعلم أخذت تتدهور تحت ضربات النصارى والبدو . فقد استسلمت جزيرة جربة بعدما توالى عليها ما توالى من هجمات أسطول صقلية والأرغون بقيادة روجاردي لوريا (Roger di Loria) (1284م.) وكذلك جزر قرقنة سنة 1287 . وتداعت قسنطينة من جراء تطاحن الكتل . وعمّ الخراب مدينة باجة . وبلغ خوف سكانها من هجومات العرب حدا جعلهم يدفنون موتاهم وهم في سلاحهم .

وكانت الفوضى التي تغذّيها القبائل العربية سببا في ظهور أدعياء متهافتين على الحكم يجدون دائما شقا من البدو يساندهم في تحقيق طموحهم وانفصمت وحدة السلطان الحفصي أثناء إحدى هذه الأزمات فقد أسس أبو زكرياء الثاني في بجاية مملكة منافسة لتونس شملت جزءا كبيرا من مقاطعة قسنطينة (1284) . ودام الصراع بين هذين الأميرين 23 سنة تساند كليهما قبائل عربية — ولولا نفوذ شيوخ الموحدين لما أمكن لأبي عصيدة (1295 — 1309) خليفة تونس وأبي البقاء سلطان بجاية أن يتفقا على جمع حكم المملكتين فيمن يطول عمره منهما .

والتأمت الوحدة الحفصية لمدة قليلة تحت إمرة أبي البقاء (1309 — 1311) . وسرعان ما تمكّن ابن اللحياني (1311 — 1318) ، وهو دعي لم ينل كبر سنه من دهائه ، من تجاوز نفوذ الخليفة وأعطى البدو زمام الامور بينما استولى على بجاية أبويحيى أبو بكر حفيد أبي زكريا (1318 — 1346) وتوحّد النفوذ الحفصي مرة أخرى على يد أبي بكر من سنة 1315 إلى سنة 1318 واستقام له الأمر رغم الصعوبات . ولم يقتصر

العرب على تحريض الأدعياء بل عملوا على تدخل بني عبد الواد أصحاب تلمسان الذين لم يبقوا مكتوفي الأيدي إزاء الخلافات التي كانت تمزّق شمل شرقي المغرب وكانوا يطمعون في الاستحواذ على بجاية . ولم ينج الخليفة من تضافر جهود بني سليم والدواودة وبني عبد الواد الا بحمل بني مرين على القيام بهجوم معاكس على تلمسان . وأطرد من عاصمته أثناء المعارك أربع مرات . وتمكّن بفضل حماية بني مرين وانضمام الشيخ حمزة أكبر شيوخ بني سليم من استرجاع مملكته مقاطعة بعد مقاطعة والانتقام من البربر المتمردين . وحمل الولاة والمشايخ المستقلين على الدخول في طاعته واستخلاص الزكاة من البدو . بل إن الحظ أسعفه فتمكّن من طرد النصارى من جزيرة جربة (1335) ؟ .

غزو بني مرين لافريقية :

ما أن توفي أبوبكر (1346) حتى تأزمت الأمور من جديد . فقد قتل ولي العهد الشرعي بايعاز من أخيه كما قتل ثلاثة من أبناء الشيخ حمزة . واضطر البدو ، وقد رجعت لهم صولتهم ، إلى مبايعة السلطان المريني أبي الحسن الذي انساق رغم نصح مستشاريه إلى غزو شرقي المغرب استجابة لدعوة الحاجب ابن تافراكين .

ولم يجد صعوبة في الاستيلاء على قسنطينة وبجاية ودخل تونس في موكب بهيج (15 سبتمبر 1347) . فلاذ الخليفة بالفرار ولكن ألقي عليه القبض قرب قابس وقطع رأسه . ومنذئذ بسط أبو الحسن نفوذه على كامل بلاد المغرب كما كان الأمر في عهد بني عبد المؤمن واعتبر نفسه خليفة لهم .

ولكن كان عليه أن يقرأ حسابا للبدو إذ منفعتهم بالنسبة الى من يدعي الملك تساوي خطرهم على صاحب السلطان لذلك حاول أن يجعل من الإقطاعيين موظفين اتّقاء لشرهم . وأمام هذا الخطر تألّبت عليه القبائل وهزمته قرب القيروان (10 افريل 1348) . ولم يتمكّن أبو الحسن من استرجاع نفوذه رغم الخلافات التي ظهرت في صفوف أعدائه بعد انتصارهم وأسلمت قسنطينة وبجاية أمرهما إلى أحد أولاد بني حفص

وتلاشت الامبراطورية جزءا بعد جزء . وانتهى به الأمر إلى أن لاذ بمدينة الجزائر ومنها التحق بالمغرب الأقصى — (ديسمبر 1349 — جانفي 1350) .

ولم يقدر أحد أبنائه على حكم تونس طويلا رغم حماية إحدى القبائل العربيّة التي تزوج منها .

وما لبثت خلافات إفريقية المزمنة أن مكنت بني مرين من الهجوم على مملكة بني حفص من جديد . وأكمل السلطان أبو عنان احتلاله لاراضي بني عبد الواد بالحاق بجاية حيث أستمال البدو بإغداق الهبات عليهم (1353) ثمّ استحوذ رغم خيبة مرّة على قسنطينة وعنابة وتونس (1357) . وواجه مثل أبي الحسن من قبله مشكل نفوذ السلطة المركزية على العرب . ومنيت محاولاته لقمعهم بنفس الخيبة . وبذلك انفض من حوله حلفاؤه واضطر إلى الالتحاق بالمغرب على جناح السرعة . وكانت له حملة أخرى وأخيرة اقتصرت على مسيرة عسكرية بين عنابة والأوراس (1358) .

عودة سلطة بني حفص :

وكان الحفصي أبو العبّاس الذّي تقلّد أمر قسنطينة لصداقة بينه وبين السلطان المريني هو أحد الأمراء الثلاثة الحاكمين لتونس وبجاية وقسنطينة بعد رحيل بني مرين وتمكّن من أخذ بجاية وتدلس وعنابة بإعانة الدّواودة (1366) ثمّ تونس (9 نوفمبر 1370) وبقي بها إلى سنة 1394 .

وفي الواقع كان الرجل الذي جمع بين يديه مرّة أخرى كامل المملكة الشرقية جديرا بهذا النجاح الذي حالفه فهو قائد بحق ذو عزم وحزم وقوة ومع ذلك نوّه المؤرخون بعدله . وما كان ليرضى أن يحصر البدو نفوذه في تونس وأحوازها . لذلك تراجع في الإقطاعات الخليفيّة وحال دون تطاول القبائل وأخمد الثورات وأخضع لسلطته مشايخ الجريد وقفصة وقابس . إلا أنه كان يدرك مساوي الصرامة فيجنح إلى الديبلوماسية ويعرف متى يجب الإحسان وينفع العفو . وأمكنه بفضل هذه المهارة السياسية البقاء في الحكم . فلم يستطع العرب المنقسمون على أنفسهم أن يلحقوا بالخليفة الحفصي ما ألحقوه بأبي الحسن وأبي عنان المرينيين .

وفي عهده انتظمت حركة القرصنة واستهدفت مراكبَ النصارى وكانت بجاية المنطلق الرئيسي لها — وردّت الدول النصرانية الفعل وشنت بالخصوص هجوما على المهدية (1390) قامت به قوى من فرنسا وجنوة ولكن من دون جدوى .

القرن الخامس عشر الحفصي : أبو فارس وأبو عمرو عثمان

بينما كانت الدولتان المغربيتان الأخريان بتلمسان وفاس في انحطاط متواصل طيلة القرن الخامس عشر استرجعت المملكة الحفصية في نفس الفترة شيئاً من سلطانها ومجدها بفضل عاهلين لم يعدما القيمة الذاتية وعمّرا طويلا وهما : أبو فارس (1394 — 1434) وأبو عمرو عثمان (1435 — 1488) .

أما أبو فارس فقد اعتلى العرش من دون صعوبة عندما مات أبوه أبوالعباس ولم يكد يتجاوز الثلاثين من عمره وسبق أن فرض نفسه قائدا عسكريا أثناء هجوم النصارى على المهدية واشتهر بالتقوى وعرف كيف يستميل إليه إخوته ، فلم يجد كبير عناء للقضاء على بعض من حدثتهم أنفسهم بالتمرّد . ووفق إلى تأليف قلوب الموحدين والأندلسيين والعرب لفائدته وهم أهمّ الكتل بالمملكة .

واستقام له بفضل ما وفرّه لحكومته من قوة أن يُخضع لسلطانه الواحدة بعد الأخرى الإمارات الكائنة بجنوب البلاد التي كادت أن تكون مستقلة بعد أن اضطر أبوه إلى غض الطرف عنها وهي طرابلس (1398) وتوزر وقفصة (1400) وبسكرة (1402) ونجح حتى في الاستيلاء على مدينة الجزائر (1410 أو 1411) ، وكسب أبو فارس من استرجاع الدولة الحفصية لسابق عزّها نفوذا أدبيا كبيرا زاده إشعاعا تعلّقه بالدين إذ أنه قرّب إليه العلماء والأشراف وأقام المواكب البهيجة بمناسبة الأعياد الإسلامية ، ويسّر أداء الفرائض وتمسك قدر المستطاع بأحكام القرآن الكريم ، وتجاوزت سمعة أبي فارس حدود مملكته كما تشهد بذلك السفارات وما كانت ترسله إليه غرناطة وفاس ومصر وحتى البقاع المقدسة من هدايا وما تقدمه من آيات التبجيل وتسابقت الدول النصرانية

من جهتها إلى عقد المعاهدات مع عاهل في مثل هذه القوة يمسك بزمام مملكة مزدهرة ، غير أن أعمال القراصنة كانت تعكّر أحيانا صفو مثل هذه العلاقات الطيّبة : من ذلك أنه على إثر استباحة تربلانكا (1397) (Torreblanca) هاجمت أساطيل بلنسية وميورقة معا تدلس (1398) ثمّ عنابة (1399) ، كما خرّب أسطول ألفونس الخامس صاحب أرغون جزر قرقنة وتصدّى لجربة دون جدوى سنة 1432 .

وإن أسطع برهان على النهضة الحفصية ما أظهره أبو فارس من اهتمام بشؤون الغرب بينما تحمل الحفصيون طيلة قرن كامل ضربات فاس أو تلمسان من دون ردّ فعل أو هم اكتفوا بالاستنجاد بإحدى المدينتين على الأخرى ، وتحرك أبو فارس كرّتين على تلمسان (1424 — 1431) حيث كان عدد من بني عبد الواد يتنازعون على الحكم وفي كل مرّة وضع على العرش ملكا مواليا له . وذهب به الأمر إلى توجيه جيوشه إلى مدينة فاس (سنة 1424) إلاّ أن السلطان المريني الشاب ووصيّه من بني وطاس هادناه فقفل راجعا ولم يتدخل ببلاد المغرب الأقصى إلاّ لحمايته بأسطوله من غارات المراكب البرتغالية . واهتم كذلك اهتماما كبيرا بما كان يمزق مملكة غرناطة من صراع على الحكم وذلك من سنة 1427 إلى سنة 1430 ، ولمّا توفي كانت الدولة الحفصية قد بلغت أو كادت ما كان لها من شأن في عهد المستنصر .

وخلفه في الحكم حفيده المنتصر الذي هدّه المرض فمات بعد أربعة عشر شهرا (16 سبتمبر 1435م.) من توليه الملك . واعتلى العرش بعده أخوه أبو عمرو عثمان الذي كان فرض نفسه رغم أنه لم يتجاوز حينذاك من سنه ست عشرة سنة ونصفا .

ولم تخل أيام ملكه الأولى من اضطرابات خطيرة ذلك أن أحد أعمامه أبا الحسن أقض مضجعه في جهتي قسنطينة وبجاية . فما زال به طيلة أحد عشر عاما حتى ضربه ضربة قاصمة بهذه المدينة (1446)

ولم يقض عليه القضاء المبرم إلاّ سنة 1452 . على أنه يجدر التنبيه إلى أن هذه الاضطرابات لم تتجاوز حدودا معينة فلم تحل دون قيام

الخليفة بحملات هامّة ضد نفطة (1441) وتوقرت (1449) ، ولم يختل الأمن في كامل المملكة الحفصية كما يشهد بذلك نصّ رسمي مصدره فلورانس بتاريخ 1446 ذكره برنشفيك . واضطر أبو عثمان بعد ذلك إلى قمع بعض القبائل العربية التي تمرّدت لأسباب مالية (1463) . وهو أمر طبيعي في البدو ولم يكتس خطورة كبيرة ولانال من سلطان الحفصيين . ولدينا فيما يخص إفريقية في ذلك العهد وثيقة نشرها ر. برنشفيك فيها يروي شاهد عيان وهو أدورن أصيل الفلاندر (le Flamand Adorne) ما رآه أثناء إقامته بتونس وسوسة من 27 ماي إلى 25 جوان 1470م. ويبدو أبو عثمان من خلالها عاهلا يجمع بين القوة وطيبة النفس ، يحبّه ويهابه رعاياه وقد أمسك بزمام مملكته في حزم كامل .

ويؤيد ماسبق طبيعة علاقاته مع الدول المجاورة : ذلك أن عددا كبيرا من كبريات البلدان النصرانية أبرمت أو جدّدت معه معاهدات تجارية من بينها بروفنسا وفرنسا في عهد لويس الحادي عشر اللتين لم يكن لهما إلى حد ذلك التاريخ دور يذكر . فقد لاحظ برنشفيك : « أغلب الظن أن جمهوريات إيطاليا البحرية وجهت حركتها التجارية نحو إفريقيا الشمالية بعد أن صدتها الجيوش التركيّة الزاحفة عن جهات كثيرة من شرقي البحر المتوسط » . وكانت الدولة الحفصية في بلاد المغرب تظهر في عهد عثمان وأبي فارس في مظهر الدولة الكبرى الاولى . ففي سنة 1468 و 1466 قام الخليفة بحملتين على تلمسان لتدعيم النفوذ الحفصي بعد أن نالت منه خلافات العائلة الحاكمة . ونحن نعلم أن محمّد الشيخ صاحب فاس ومؤسس دولة بني وطّاس أعلن سنة 1472 عن ولائه للخليفة عثمان . وكانت العلاقات مع مصر وغرناطة ودّية ونكاد نجزم بان تونس عينت سفيرا لها لدى السلطان التركي في اوائل سنة 1454 .

نهاية بني حفص:

لقد عيّن عثمان خلفا له أحد أحفاده هو أبو زكريا يحيى وما أن اعتلى العرش حتى تصدّى إلى مقاومة عدد كبير من أعمامه وإخوته كانوا ينازعونه الحكم ، وكان قاسيا ، لم يتورّع من استعمال العنف مع انصاره وأعدائه على السّواء . وسرعان ما تخلّى عنه ذووه فما زال يقاتل حتى

قُتل (1489) ولم يكن ابن عمّه المنتصر عليه باسعد حظّا منه ، إذ خلفه أحد أبناء ضحيته أبي يحيى زكرياء (1490) وبينما كانت الدلائل تبشر بمستقبل زاهر لهذا الشّاب الذي لم يتجاوز الثامنة عشرة من عمره اذ بالطاعون يختطفه في ربيع 1494 . فخلفه احد ابناء عمومته أبو عبد الله محمّد وهو وطيء الجانب متهالك على اللذات غير قادر على علاج ما داهم الدولة الحفصية من انحطاط ولا على مواجهة ما سينجرّ في إفريقية من نتائج الصدام بين الاتراك والاسبان .

الدولة الحفصية : :

ومهما واجهت الدولة الحفصية من صروف الدهر فانها استطاعت أن تصمدُ في الشطر الشرقي من المغرب طيلة ثلاثة قرون ونصف وان تترك في البلاد أثرا عميقا . الأمر الذي يبرر عمل ر. برنشفيك الذي خصّ أكثر من نصف تأليفه القيّم لدراسة البلاد ومؤسساتها .

وإن أول سؤال يتبادر إلى الذهن هو التعرف إلى الحال الديموغرافية ، فقد توافد على إفريقية – أكثر من غيرها من اجزاء المغرب الأخرى من القرن الحادي عشر إلى القرن الثالث عشر – عدد كبير من العرب الرحل . فكيف تمكّن هؤلاء القادمون الجدد الذين نجهل عددهم من الاستيطان ببلاد لاريب انها كانت عامرة بالبربر ؛ انهم استقروا بصفة عامة ومن دون أن يكون ذلك قاعدة مطردة في المنبسط من الارض المتلائم مع عاداتهم الرعوية بينما نزح البربر نحو السواحل أو اتجهوا إلى المناطق الجبلية . على أنّه من العسير ان نميّز ابتداء من العهد الحفصي بين الجهات البربرية والجهات العربية لأن الحدود اللغوية لم تعد متطابقة مع الحدود العرقية ، نتيجة لتغلغل اللّغة العربيّة تغلغلا عميقا حتى في المناطق التي يسكنها البربر . ولا نستثني من ذلك الا الجماعات التي كانت في مأمن بفضل عزلتها النسبية مثل القبائل وسكان اوراس وجربة وجبال الجنوب التونسي وطرابلس الذين بقوا على لغتهم البربّرية . ويجب أن نضيف إلى أن العقيدة الدينية ساهمت في بعض المناطق في استبقاء اللهجة البربرية ذلك أن سكان جبال نفوسه وجربة وجزء من جفارة تمسكوا بالمذهب الخارجي واللغة البربرية معا . وكان لتضافر هذين العاملين أن حالا دون تسرب

المؤثرات الخارجية ، أما سائر البلاد التونسية الحالية فانها تعرّبت تماما منذ العهد الحفصي .

ومن جهة أخرى فان توزع المدن في البلاد دخل عليه ولاشك شيء من التغيير تحت تأثير هجومات البدو فمعظم المدن الجديرة بهذا الاسم استقرت في السواحل التي لم يعرها البدو اهتماما كبيرا بينما كانت تفسح المجال أمام السكان الجدد لاقامة علاقات اقتصادية نشيطة مع الدول النّصرانيّة . وإذا استثنينا الموانى فاننا لانكاد نجد الا الواحات والمراكز الصحراوية واخيرا القيروان وقسنطينة وهما المدينتان الوحيدتان داخل البلاد اللتان احتفظتا بمركزيهما — ولو بصورة منقوصة — نظرا إلى اتساعهما وإلى موقع احداهما الاستراتيجي ومنزلة الثانية الدينية : وإن علم الأثار يشهد بذلك على الأقل بالنسبة للقيروان — وهكذا فإن توازن البلاد تغيّر تغيّرا جذريا منذ عهد بني زيري . ويظهر أن بني حفص ساهموا بفضل مرونتهم السياسية في إقرار التوازن البشري الجديد بافريقية .

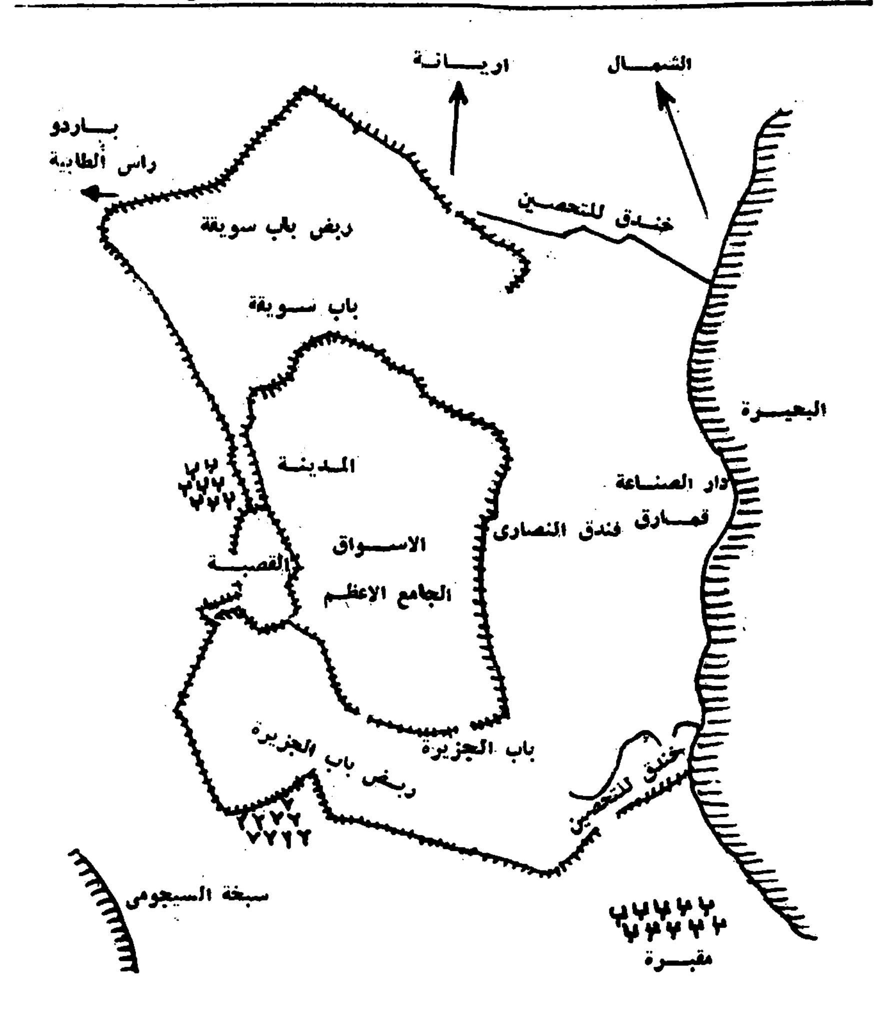
وكان يعيش إلى جانب المسلمين نصارى ويهود . ولئن ضايق الموحدون الاسرائليين فقد تمكنوا من العيش والتحق بهم عدد من يهود اسبانيا على اثر ما نالهم من اضطهاد سنة 1391م. نتيجة قرار الطرد الذي سلط عليهم بعد استيلاء النصارى على غرناطة . ولم يقم يهود إفريقية بالدور السياسي الذي كان من نصيب اخوانهم في الدين بالمغرب الأقصى في عهد المرينيين ولكنهم ساهموا مساهمة فعالة في الحركة الاقتصادية بالبلاد وشملهم ملوك بني حفص بالرعاية والعناية . فهل كانوا يعيشون في حارات خاصة كما كان الشأن في المغرب الأقصى ابتداء من القرن الخامس عشر ؟ ان ما لدينا الآن من الوثائق لايسمح بالتيقن من ذلك .

اما النصارى فانهم كانوا جميعا من أصل أوروبي إذ أن آخر ماتبقى من آثار المسيحية الافريقية قد اندثر منذ القرن الثاني عشر تحت تأثير الحركة الموحدية . وكان منهم التجار الذين يعيشون غالبا في الموانى مجتمعين « بحسب قومياتهم » في فندق حيث يسكنون ويتاجرون تحت اشراف قنصل معتمد لدى العاهل الحفصي — ولئن كانوا عرضة للتقلبات السياسية فان وضعهم كان في الغالب مرضيّا . وكان إلى ذلك يوجد

بالبلاط الحفصي – حرس نصراني متركب من بضع مئات من الرجال كادوا جميعهم في بعض الأوقات ان يكونوا من القطلانيين (Catalans) يقومون بحراسة شخص الأمير ويعيشون في حي خاص بهم وبقوا في الجملة على نصرانيتهم .

وكان يوجد إلى جانب هؤلاء من تنكر لدينه وأكثرهم كانوا من العبيد رجالا ونساء اختطفهم القراصنة ، وأخيرا كان يوجد عدد من رجال الدين في خدمة كنائس المجموعات النصرانية منهم المكلف بدفع دية الأسرى ومنهم المبشر سواء انتسب إلى نحلة الدومينكان أو الفرنسيسكان يسعون جميعا إلى شراء الأنفس في سبيل الإله .

واستبقى الحفصيون بافريقية في حكمهم لهذه المجموعة من السكان المختلفة الأجناس النظام الذي وضعه الموحدون بل ان اسم المهدي ابن تومرت ظل إلى أوائل القرن الرابع عشر يدعى له في الخطب الجمعية الأمر الذي يدل دلالة قطعية على أن الخلفاء الحفصيين كانوا حريصين على الظهور بمظهر الوارثين للموحدين والمواصلين لرسالتهم ، وان المعلومات التي اوردها العمري في كتابه « المسالك » والتي استنفد «قودو فروا دي مونبين »لبابها كاملا لتشهد بأن هذا النظام بقي ماثلا حتى اوائل القرن الرابع عشر ولكنّه كان يتطور بمفعول مؤثرات عربيّة وأجنبية .



شكل 18 : ـ تونس فى عهد بنى حفص ·

وكان الملك يستأثر بجميع السلطات حسب تصور النّاس لمفهوم الملكية في ذلك العهد وكان محل التبجيل والاحترام حسب مراسم مضبوطة في شيء من الدقة ، غير أن هذا الحكم المطلق لايعني ان الملك الحفصي كان يحيا على غرار خلفاء بني العباس بعيدا عن رعاياه بل كثيرا ما يظهر اليهم مثل سلطان المغرب اليوم ويستقبلهم من دون صعوبة تذكر .

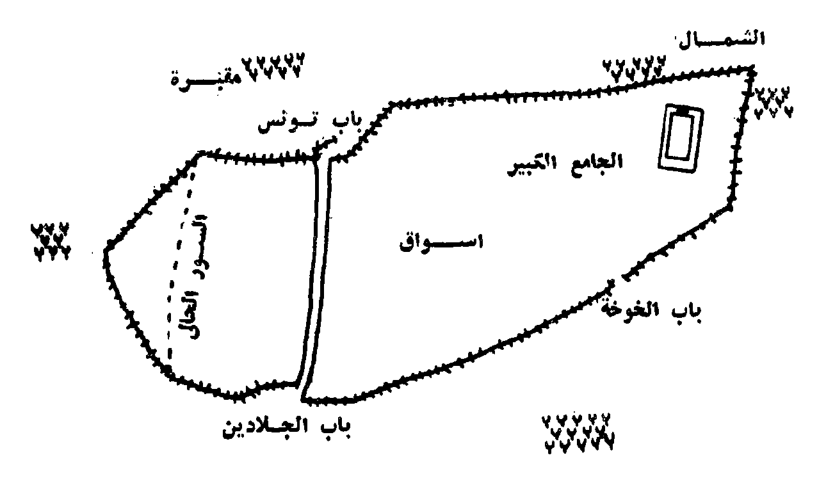
وهو إلى ذلك يحكم باعانة عشرة مشايخ من الموحدين فشيخ الموحدين وهو رأس الارستقراطية بحق كان يمارس أسمى المهام . ولقد بقي المجتمع الموحّدي كعهده في زمان ابن تومرت منظما تنظيما عموديا اذ نجد في أعلى السلّم كبار مشايخ أهل العشرة ثمّ صغار المشايخ أهل الخمسين وأخيرا المشايخ العاديين . وقد رتب هؤلاء المشايخ حسب أصناف يراقبهم مزوار كان في أول الأمر محتسبا لاغير ثمّ تطورت وظيفته فاصبح حاجبا للأمير ومنفذا لاحكامه .

وتناقص تأثير المشايخ بصورة ملحوظة منذ النصف الأول من القرن الخامس عشر . وكان المرموقون منهم اعضاء ولاشك في مجلس الشورى الذي كان يستشيره الملك وأغلب الظن انه كان يضم كبار الموظفين الساهرين على حظوظ الادارة . وكان لأبي زكرياء ثلاثة وزراء ولقد اشار « ليون الإفريقي » إلى وجود « عشرة ضباط كبار ببلاط ملك تونس في أول القرن السادس عشر » . أمّا الوزراء الثلاثة فهم صاحب الجند وهو الوحيد من المشايخ وهو قائد الجيش والمكلف بالعطايا ، ووزير المال الماسك للحسابات ، صاحب الجباية ، والملاحق للمحتالين وصاحب ديوان الرسائل والشرطة ، وعندما تلقب المستنصر بلقب خليفة أنشأ حجابة كبرى وحجابة صغرى لكلتيهما نظامها الخاص وترجعان بالنظر إلى صاحب ديوان الرسائل . وأكد ابن خلدون على أهمية وظيفة الحاجب الذي كان في أول الأمر كبير الخدم ثمّ أصبح همزة الوصل بين السلطان وموظفيه وأخيرا رئيس الحكومة الحقيقي . ويذكر مؤلف كتاب المسالك خططا أخرى لحسبان المال والنظر في حوائج المتظلمين ويذكر صاحب الشرطة والمحتسب بتونس والولاة الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر على غرار المحتسب .

وكان ملوك بني حفص يبرزون سلطانهم بما وضعوه من مراسم أثناء استقبالاتهم العمومية وخاصة مواكبهم إذ كانوا يمتطون متن جواد ويمرون في أبّهة محفوفين بالمشايخ والحرس الذي أصبح فيما بعد من الأجانب وسط نقر الدفوف وقرع الطبول وحفيف البنود الحريرية المطرزة المتعددة الألوان يعلوها علمهم الأبيض في جو من الاحتفالات

الشعبية . وإننا نجد فيما دوّنه آدورن (Adorne) وصفا ، حيّا للغاية ، لأحد هذه المواكب .

وكان الجند يتكوّن في معظمه من الموحدين ولا يقتصر على البربر المرتّبين طبقات بل كان يوجد فيه الأتراك والأندلسيون والعرب وحتى مسلمة النصارى والزنوج ويتكوّن منهم ومن المرتزقة المسيحيين حرس الخليفة الوفي . وكان للجند امتيازات و يتمتع المشايخ حسب مراتبهم باقطاعات وحتى بحق استخلاص الجباية لفائدتهم . وكان لكل موحّدي جراية يتسلّمها عينا اربع مرات في السنة علاوة على الهبات التي يبادر بها السلطان . وقد لاحظنا أن المقتضيات العسكرية اضطرت الحفصيين إلى أن يُقطِعوا العرب إقطاعات . ولم يعدم هذا الجيش القيمة بل يمكن اعتباره في نفس المستوى الذي بلغته الجيوش الأوروبيّة حينذاك رغم افتقاره إلى السلاح الثقيل . ولم يكن الأمر كذلك بالنسبة للقوات البحرية التي كانت منذ أواخر القرون الوسطى دون مستوى الأساطيل الأروبيّة بالبحر المتوسط ، ولم تبز المراكب الحربية التابعة لجنوة أو غيرها مراكب الحفصيين فحسب بل ان التجارة الخارجية لبلاد البربر كانت تعتمد في معظمها على المراكب النصرانية لقلة وحدات أسطولهم التجاري ، واحتل القراصنة وحدهم مرتبة مرموقة في غربي البحر المتوسط نظرا لسرعة حركتهم وقدرتهم الفائقة على مباغتة العدو .



شكل 19 : ـ القيروان في عهد بني حفص .

وكان للادارة الجهوية ثلاثة اشكال متميّزة سواء تعلّق الأمر بقبائل « مدن الجنوب » او المدن والجهات الراجعة بالنظر إلى سلطة الملك المباشرة وكانت القبائل العربية في معظمها تخضع للمشايخ المعيّنين منهم من دون قاعدة مضبوطة ، فاذا كانت علاقاتها طيّبة مع السلطة المركزية قام مشايخها بدور مزدوج من جهة كأعوان للحكومة ولدى منظوريهم ومن جهة أخرى كممثلين لهؤلاء لدى الحكومة — واضطر الضعفاء من ملوكهم في مدن الجنوب إلى غض النظر عن ضغط بعض الجماعات او البيوتات المحلية . أمّا اشداؤهم فانهم لاقوا صعوبات في القضاء على هذه الحركات الاستقلالية الشديدة الشبه بما طرأ فيما بين سنة 1050 وسنة 1060 عند زحفة بني هلال . وأخيرا كان يمثل السلطان وال في الجهات التي يمارس فيها الخليفة سلطته مباشرة وكان هذا الوالي في غالب الأحيان أحد اقربائه وكثيرا ما كان من أبنائه يعضده موظف مجرّب يتمتع مثل الخليفة بمشمولات واسعة جدا .

تونس والتجارة في حوض البحر المتوسط :

أصبحت تونس في عهد الحفصيين عاصمة بلا منازع . واشتملت على المدينة القديمة يلاصقها شمالا ربض باب سويقة وجنوبا ربض باب الجزيرة يحوط بهما سور شيّد في أول القرن الرابع عشر بشرقي القصبة وهو من عمل الموحدين ادخل الحفصيون عليه بعض التغييرات وأكملوه ، وأخيرا كان يوجد بشرقي العاصمة فنادق للمسيحيين ودار الصناعة على حافة البحيرة . وان ما لانزال نجده بها إلى اليوم من مختلف التجهيزات يعود الفضل فيه إلى الحفصيين من ذلك مدرستان ماثلتان إلى اليوم يرجع عهدهما إلى أبي زكرياء . أمّا المدرسة الثالثة التي عفت رسومها فقد أقيمت بالأسواق في آخر القرن الثالث عشر . كما ينوه كتاب المسالك بأهمية حماماتها وأسواقها . وفعلا فقد بني سوق العطارين والقماش في القرن الثالث أو الرابع عشر بسككها الثلاث المبنية طاقاتها بالآجر وبدكاكينها المغطاة أيضا بطاقات عمودية بالنسبة للأخرى .

وكان لا بد من بناء اسواق جديدة نظرا إلى أن حركة التجارة التونسية في نشاط مستمر ، وكانت تونس تصدّر الحبوب عند توفّر المحاصيل والتّمور ، وزيت الزيتون ، والشمع ، والحوت ، والملح ، والأقمشة ،

والزرابي، والمرجان، وبعض الأسلحة وخاصة الصوف والجلود ولربما كانت تصدر كذلك العبيد السود . وكانت تورّد الحبوب عند الاضطرار والخمور وبعض طيور القنص والبلور والخشب المصنوع والمعادن ، والاسلحة والتوابل والحشائش الطبيّة ، والعطور والخشخاش ، والكتان والحرير ، والقطن ، وأقمشة متنوعة ، والحلي ، وكانت البضاعة الموردةتخضع إلى ضريبة قدرها 10 في المائة من قيمتها وكانت تونس تضرب سكة من ذهب (دينار والدوبلون) ومن فضة (درهم) هي أكثر اعتبارا من سكة البلدان النصرانية .

وكانت المدينة تتاجر مع المشرق برا بواسطة القوافل وبحرا ، وكان التجار النصارى يتوافدون على مينائها . فعلاوة على المنحدرين من جنوة وبيز فإن الآتين من البندقية وفلورانس والأرغون كانوا يقومون فيها بدورهام في القرن الرابع عشر ، فكان لآل أكسياولي (Acciaiuoli) وبروجي (Perruzzi) من فلورانس الذين فتحوا في تونس وكالات قارة وأقدموا على تقديم تسبقات للخليفة ، تأثير سياسي بعيد الأثر ، وكذلك سمح تقدم التقنيّة التجارية وتطوّر التأمين على المراكب بتنمية النشاط الإقتصادي . وأبرمت معاهدات خاصة لحماية الأجانب في اشخاصهم وممتلكاتهم ، وتعتبر المعاهدات التي تمت مع البندقية سنة 1231 وبيز سنة 1234 أو جنوة سنة 1236 مثالا يحتذى . « فهي تقضي بضمان الملاحة للأطراف المتعاقدة ... وتضبط قواعد التجارة وشروط استيطان النصارى الأجانب في دار الاسلام » . وتجددت هذه المعاهدات في فترات كادت أن تكون منتظمة وزيد فيها أحيانا . من ذلك أن بيز تحصلت سنة 1353 على ضمانات جديدة لأمن رعاياها وحرية متاجرتهم واعتبار مسؤولية التاجر المعني بالأمر في حالة نشوب خلاف عوضا عن ادانة مواطني هذه المدينة بصورة جماعية ، وكان لكل أمّة قنصل يرعى مصالح جاليتها وفندق تودع فيه البضائع ويلاذ به عند حدوث الاضطرابات ووجدت كذلك فنادق نصرانية بعنابة وبجاية وصفاقس وقابس وجربة ، ولم تكن التجارة في أمن دائم إذ كان النصارى ينافسون المسلمين في سوء النية — وكثيرا ما كان الدفع بالتقاضي (à crédit) وترد البضائع إمّا عن طريق القمارك

بضمان أدبي من السلط وتباع غالبا بالمزايدة وعن طريق ترجمان أو تأتي مباشرة بما في ذلك من مخاطرة بالنسبة الى التجار .

واستفحل امر القرصنة وتجاوزت سلطة الخليفة فاضطرت المراكب إلى أن تبحر متجمعة وتكررت الأزمات من ذلك احتلال «روجار دي لوريا» لجربة وتركيز هذا الاحتلال من قبل مغامر قطلاني يدعى رامون مونتنير (Ramon Montaner) (1311 — 1314) ثم استرجاع المسلمين لها سنة 1335 وهجومات أهل جنوة والصقليين غير الموفقة وكانت النتيجة ان توترت العلاقات وانتهى التنافس بين البحارة النصارى وقراصنة المهدية إلى قدوم أسطول من البندقية وجنوة سنة 1390 تعززه مراكب فرنسية للاستيلاء على هذه « المدينة الافريقية القوية » بحماتها الأشداء (عن المؤرخ فرواسار) وفشل الهجوم ولكن قد تكون المهدية اضطرت إلى دفع اتاوة . ولاشك أن نمو قرصنة المسلمين كان من العوامل التي حملت الإسبان على مهاجمة جربة وتونس في القرن السادس عشر .

الحضارة الحفصية :

وكما كانت الدولة الحفصية نشيطة في الميدانين السياسي والاقتصادي فانها احتلت كذلك مرتبة ممتازة في دنيا الفكر بحيث يمكن الجزم بوجود حضارة حفصية . وامتازت هذه الحضارة من الناحية الدينية باحياء المذهب المالكي بعد أفول نجمه في عهد الموحدين وذلك بفضل مدارس الفقه التي ازدهرت بتونس وبجاية والقيروان وبالخصوص بفضل العالم الشهير ابن عرفة (1316 — 1401) وفي نفس الوقت تقريبا انطلقت الحركة الصوفية ببلاد المغرب نتيجة لدروس أبي مدين المتصوف الكبير ببجاية ، (سيدي بومدين المتوفى قرب تلمسان سنة 1197 أو 1198) وانتشر التصوف بافريقية انتشارا كبيرا منذ النصف الثاني من القرن الثالث عشر على أيدي رواد ظهروا في القرن الثالث عشر أمثال أبي سعيد الباجي (سيدي بو سعيد) وأبي الحسن الشاذلي (سيدي بلحسن) وعائشة المنوبية (للاّ المنوبية) . وكان سيدي بن عروس اشهر مشايخ الصوفية « مولى البلاد » إلى جانب عدد قليل من امثاله وقد قدسه الناس في حياته وسار أهل تونس قاطبة في جنازته سنة 1463م. ، وطرأ على العلوم

الوضعية في إفريقية ما طرأ عليها من انحطاط في سائر العالم الاسلامي ، فلم يوجد بها في العهد الحفصي أي عالم في الرياضيات او الفيزيا ، ولا أي طبيب ممتاز ، بينما كثر الإنتاج الأدبي وتعددت التراجم الهادفة ، فالى جانب ابن خلدون العبقري يمكن ان نذكر مؤلفات تاريخية ذات قيمة مثل رحلة التجاني (القرن 14) والفارسية لأبن قنفذ والادلة للهنتاتي وتاريخ الدولتين المنسوب للزركشي وهي آثار ظهرت كلها في القرن الخامس عشر ، فاذا أضفنا إلى ذلك النثر الفني الذي تنمّق به الرسائل الرسمية والشعر الذي توحي به المناسبات في غالب الأحيان تصورنا تقريبا ما كانت عليه الحياة الفكرية في المملكة الحفصية : لقد كانت حياة فكرية فاترة تتجاذبها مؤثرات اندلسية لم تخل من اعراض الانحطاط ومؤثرات شرقية باهتة ، انها فترة انتظار وركود نسبي لها الفضل على كل حال في الحفاظ على تراث ثقافي عريق وممتاز .

وكان سلاطين بني حفص ايضًا بناة وجدوا في المدن معالم كثيرة تذكر بالفن المعماري الأغلبي والصنهاجي ولكنّهم لم يتأثروا بالتقاليد العتيقة ولا انساقوا مع المؤثرات المعماريّة الشرقية بل تتلمذوا للفنانين الاندلسيين الذين توافدوا على بلاط تونس ، فقد كتب ابن سعيد في رسالة إلى احد الأعيان المهاجرين من اسبانيا ما فحواه : إن السلطان الحالي (أبوزكرياء) شيد المعالم وبنى القصور واغترس الرياض والكروم على نمط أهل الأندلس ، أما المهندسون والبناؤون والخشابون وصانعو الآجر والدهانون والبستانيون فهم من أهل هذه البلاد والأندلسيون هم الذين وضعوا أمثلة هذه المباني أو نقلوها عن المعالم الموجودة في بلادهم (ترجمة ڤاينڤوس ذكره جورج مرسي) كما كان لاشعاع الثقافة المرينية على نحو ما عبر عنها العلماء الذين عاشروا أبا الحسن أثره كذلك في الفن بافريقية .

وبادر أبو زكرياء بتشييد جامع القصبة في تونس طبقا لتقاليد إفريقية قديمة إذ تذكّر صومعته المربّعة الشكل والمبنية بالحجارة بصومعة قصبة مراكش مع الفارق في الحجم . ولاشك ان المستنصر شيّد مسجدا بالمنستير كما أذن الخليفة أبو حفص بالقيام بأشغال هامة في الجامع الكبير بالقيروان (1294) . ولئن عفت آثار قصور المستنصر وحدائقه

التي كانت تثير اعجاب ابن خلدون فاننا لانزال نحتفظ ببابين بالمنستير يرجع تاريخ أحدهما إلى عهده لهما مشارف مستوحاة من الشرق . وكانت في إحدى حدائق هذا السلطان بركة عظيمة يتمتع نساؤه بالتفسح في مياهها على متن قوارب واضطر لتزويدها بالماء إلى ترميم حنايا أدريانوس القديمة وإقامة توابع لها وبنى الحفصيون كذلك في تونس صهاريج « وسبّالات » لاتزال حنيفياتها باقية إلى اليوم ، واحتفظ المعماريون في إفريقية بالميل إلى استعمال المواد المتعددة الألوان ، وأخيرا فان احواز تونس التي تضفي على هذه المدينة طابعها المميز هي من إنشاء بني حفص . من ذلك أولا قصر رأس الطابية المشيّد سنة 1225 في الجهة الشمالية الغربية من المدينة ، وقد أكمله المستنصر ثمّ الحديقة التي خطّها هذا الملك قرب بلدة اريانة الحالية وقصر باردو الذي بناه أبو فارس ويرجع تاريخه إلى السنوات الأولى من القرن الخامس عشر على أغلب الظن ، وأخيرا دار للنزهة أقامها أبو عبد الله محمّد بالمرسى حوالي سنة 1500 .

وهكذا فإن بني حفص لم يكونوا من عظام البناة أي انهم لم يخلفوا مباني جديرة بالاعجاب كما فعل الموحدون من قبلهم بحيث قد لايجوز أن نتحدث عن فن معماري حفصي ولكنهم رسموا لمدينة مثل تونس طابعها الذي احتفظت به قرونا ونجحوا في الابقاء على مجموعات عمرانية استطاعت ان تصمد أمام زحفات البدو مثل القيروان .

وصفوة القول أن فضل بني حفص يتمثل في حفاظهم على حضارة كانت مساهمتهم الطريفة فيها متواضعة واذا تذكرنا انهم كانوا مضطرين دائما إلى كبح جماح القبائل المشاغبة ، والتيقظ إلى خطر النصارى المتزايد من دون أي أمل في عون خارجي سلّمنا بان عملهم على تواضعه جدير على الأقل بالاحترام .

2 ـ مملكة بني عبد الواد بتلمسان

نهوض زناتة . بنو عبد الواد :

لئن وفق شرقي بلاد البربر ، حيث بقيت التقاليد الحضرية والادارة حيّة ، إلى المحافظة على السلطنة رغم اعتداءات العرب فان المغرب الأوسط أصبح من جديد أرض انتجاع فخربت مدنه واضمحلت مزارعه. واستغلت زناتة انهيار سلطان صنهاجة الشديد فاستعادت قواها شيئا فشيئا قبل قدوم البدو المنشغلين بنهب إفريقية وتدخلهم الحاسم مرة أخرى في الصراع من أجل الحكم وطبع قبائل البربر الرحل بطابعهم .

ونتج عن استرجاع زناتة لسالف قوتها ظهور دولتين في المغرب الأوسط وغربيه يفصل بينهما مضيق تازة وهما من أرومة واحدة ولكنهما متنافستان مثلما كان الشان في السابق بالنسبة لمغراوة وبني ايفرن وهاتان الدولتان هما بنوعبد الواد بتلمسان وبنو مرين بفاس .

وأضفى مؤسس دولة بني عبد الواد أو بني زيان يغمراسن بن زيان على هذه العائلة البدوية هيبة كبيرة وان كان ماضيها متواضعا جدا وإن ادعى العرب عكس ذلك واكتفى بنو عبد الواد عندما دحروا إلى حدود المغرب الأقصى فيأواسط القرن الحادي عشر من جراء زحفة بني هلال بأن عاشوا طيلة قرن كامل في فلك عائلات زناتة القوية . وجازاهم عبد المؤمن على انضمامهم اليه فأقرهم في الجزء الغربي من جهة وهران حيث بقوا أتباعا في غالب الأحيان للموحدين .

ولم يكن لانحطاط بني عبد المؤمن انعكاس سيء على بني عبد الواد بل إن الحظ جاد عليهم بزعيم حازم استطاع أن يستغل الفرصة السانحة لبعث دولة مستقلة صمدت أكثر من ثلاثة قرون (1235 — 1554)

تلمسان :

أصبحت تلمسان عاصمة للمملكة المغربية الجديدة . وان لهذه المدينة من دون شك ماضيا كبيرا . فقد شيّد الرومان في النجد المجاور لها حيث توجد اليوم أكادير معسكر بوماريا الذي تحوّل فيما بعد إلى مدينة تحمل نفس الاسم ولربما فتحها أحد قواد عقبة ، الاّ أن الذي لاشك فيه هو أنها صارت فيما بعد مركزا لجماعة صغيرة من الخوارج بامامة أبي قرة ثمّ فتحها إدريس الأول (790) وظلت تابعة لفاس. ولمّا سقطت دولة الادارسة استولى على أكادير أمراء مغراوة وهم بنو خزر ثمّ بنو يعلى الموالون للأمويين بقرطبة . وأشار البكري في القرن الحادي عشر إلى ما توفر لها من ازدهار .

وإن الأمير المرابطي يوسف بنتاشفين هو الذي شيّد في أوائل القرن الثاني عشر تاكرارت التي سميت بتلمسان الحالية . وذلك في النجد الذي عسكر بهشرقي أكادير . وسرعان ما نمت هذه المدينة الجديدة على حساب سابقتها وضمتها إليها في آخر الأمر . وحصّن الموحدون المدينتين وكانت احداهما مقرا لرجال الدولة والأخرى لكافة الناس . وكان يغمراسن هو الذي جعل منها كما قال ابن خلدون : « قاعدة المغرب الأوسط وأمّ هؤلاء الأحياء من زناتة المغرب ».

وبيّن « أ. ف. قوتيي » أن الجغرافيا قضت ، على ما يظهر ، بتأسيس عاصمة غربيّة لبلاد الجزائر في جهة تافنا ذلك انه اذا تأملنا في الفجوة الكبيرة الواصلة بين توات على طول الممر الذي يشق التلّ وجدنا تشابها بين الخط الذي يصل تلمسان بمصبّ تافنا حيث شيدت سيقا عاصمة « سيفاكس » وبين خط أشير — مدية — مليانة — مدينة الجزائر ، ومهما يكن فان موقع مدينة بني عبد الواد يجعل المقام بها مستطابا ويساعد على نشاطها التجاري . فقد بنيت في منتصف منحدر (806متر) بين الحدائق التي

استمدّت منها اسمها اللاطيني وبلغ جمالها حدا جعل احد الكتاب العرب يشبّهها « بفتاة مخطوبة على فراش العرس » . وكانت تسيطر على ملتقى طرق كبرى كثيرة وخاصة منها تلك التي تربط بين ميناء حنين الذي يبعد 36 كلم عن شرق نومور(Nemours) وميناء وهران وبين تافلالت.

ولم ينقطع عنها التجار حتى في الاوقات العصيبة اذ كانوا يتزودون فيها بمنتوجات بلاد السودان أي العاج والذهب والعبيد الذين تأتي بهم القوافل مرورا بمسالك حفرت على طولها آبار . وكانت تلمسان تصدّر مقابل ذلك الصوف والاسلحة والكتب، وهي الى ذلك ممرّ للبضائع الإفريقية والأوروبيّة يتاجر فيها بحيّ قيصارية القديم وقد نوّه ليون الإفريقي في أول القرن السادس عشر بما اشتهر به تجار تلمسان من ثقة .

وعلى عكس ذلك كان موقع تلمسان رديئا من الناحية السياسية فكأنها بين شقي رحى تحاصرها مملكتا بني حفص وبني مرين فاستهدفت خاصة الى ضربات جيرانها بفاس الذين اعتبروها تابعة لهم والى هجمات بني هلال البدو المستعدين دائما لمساندة الغزاة . فلم يستقر لها حال منذ حكم يغمراسن ولم يستقم لها أن تحكم امبراطورية عظيمة

يغمراسن بن زيان :

ومن حسن حظّ هذه الدولة أن طال حكم مؤسسها يغمراسن (1235 — 1283) فبعد أن ظل الحكم مستقرّا فيها طيلة خمسين عاما داهمتها احداث خطيرة اضطرتها إلى محاربة اعدائها فقد هاجمها الحفصيون وانتصروا عليها سنة 1242 وجعلوها مؤقتا تحت حمايتهم. وتسلط عليهم الموحدون ولكنهم ردّوا على اعقابهم (1248) وحسدت زناتة، بني عبد الواد على نعمتهم فتحالفت عليهم مع اعدائهم وتطاول عليها بنومرين وتابعوا هجماتهم لاخضاع مملكة زناتة المنافسة لهم إلى سلطة فاس وأخيرا أغارت عليها القبائل العربيّة وخاصة المعقل من ذوي عبيد الله النازلة بغربي أرض بني زيان ممّا اضطر يغمراسن إلى القيام باثنتين وسبعين حملة على مايقال لكسر شوكتهم .

وعندما سعى يغمراسن الى استقرار بني عبد الواد لم يتخل عن ارتباطه بالبدو ولا استغنى عن مساندتهم . وواجه صف العرب وزناتة

المتكون من بني عبيد الله وبني مرين بصفّ آخر يعتمد عرب بني سويد من قبيلة زغبة . وصار بنو سويد مخزنا له ولم يكتف بإعطائهم العطايا بل أقطعهم الإقطاعات فاستقر أكثرهم بها . وذهب به الأمر إلى استقدام بطون أخرى من بني زغبة أي بني عامر وبني حميّان رغم بعد دارهم لمزيد القدرة على الاحتماء من بني عبيد الله الذين كانوا يسلّطون ضغطا على جهة من حدود مملكته ، وتمكّن يغمراسن بفضل وحداته المتكوّنة من بني زغبة من قهر دوي عبيد الله وحاول حتى الهجوم على بني مرين . ولكن سرعان ما ضاق ببني زغبة ذرعا فتركهم يرحلون عن تلمسان وكذلك الأمر بالنسبة لبني سويد أنفسهم . فقد أصبح هذا الأمير الحضري يأنس في نفسه القوة على قهر المخزن المتكوّن من البدو بعد أن اعتمد عليه في وقت الشدة .

ولم يكن بنو عبد الواد وبنو مرين على اتفاق رغم انحدارهم من أصل واحد . وقد يكون لهذا العداء المتبادل علاقة بالخصومات حول المراعي أو الصف . إلاّ أن الذي لا شك فيه هو أن الموحدين نفخوا في ناره ذلك أنه بينما تحالف بنو عبد الواد مع المنتصرين حوالي 1145 وغنموا من ذلك غنما لبى بنو مرين طاعة رجال الجبال الظافرين وانسحبوا إلى تخوم الصحراء حيث عاشوا عيشة غير مستقرة . فلمّا هوى ملك الموحدين استشرى أمر الخصومات القديمة بظهور منافسات سياسية . فقد حاول الخليفة السعيد في أول الأمر أن يمحق بني مرين بإعانة بني عبد الواد (1245) فلمّا لم يستقم له ذلك رضي بمساعدة بني مرين على تلمسان (1248) فكان الصراع المستمر بين الجارين إلى أن مات يغمراسن . فلما شجع الموحدون هذا الملك لأنهم وجدوا فيه حليفا غير منتظر ، حاول مرات كثيرة مساندة السلطان المريني المتعاظم إذ أدرك عاقبة تقارب بني حفص مع بني مرين على قومه . ولم يفلح في ذلك فأوصى أبناءه وهو على فراش الموت بالتخلي عن المغرب الأقصى والتوجه شطر البلاد الحفصية المجاورة . وكانت الفرصة سانحة إذ أضعف موت المستنصر المملكة الشرقية ضعفا كبيرا . فما انفك بنو زيان طيلة قرن كامل يحاولون دون جدوى إخضاع بطون زناتة المستقرين بوادي شلف والاستحواذ على بجاية . وتدارك بنو حفص الخطر بصرف بني مرين إلى محاربتهم .

غزوات بني مرين :

قضى أبو سعيد عثمان الزياني ملكه (1283 — 1304) في المعارك. واندحر على ظاهر مدينة بجاية بعد أن عاث فسادا في ضواحيها (1287) واستهدف لاربعة هجومات قام بها السلطان أبو يعقوب المريني. وحالت اسوار تلمسان ثلاث مرات دون نجاحه فعزم سلطان فاس حينئذ على اهلاك المدينة جوعا (1299). فضرب عليها سياجا من الاسوار وفتح فيه أبوابا مداخل لحربها قال ابن خلدون « حتى لايكاد الطيف يخلص منهم ولا إليهم ». ودام الحصار ثمانية أعوام. واقام أبو يعقوب تجاهها قصرا ومسجدا ومباني لادارته وجنده وحمامات وفنادق واسواقا أحاطها بالأسوار وهكذا أبت همة بني مرين الا تأسيس مدينة منافسة لعاصمة بني زيان هي المحلة المنصورة أو تلمسان الجديدة. واستبحرت في العمران وغصت أسواقها بالبضائع وامتلأت فنادقها « بتجار رحلوا إليها من الآفاق » أما أهل تلمسان فقد نالهم الجوع واضطروا إلى أكل الكلاب والثعابين ولم تفتر عزيمتهم بموت ملكهم المفاجيء (1304). ويقال انه بينما كان ابنه أبو زيان يستعد للخروج بهم للاستماتة هلك أبو يعقوب على يد أحد خصيانه (1307). وسرعان ما أبرمت السلم وقفلت جيوش بني مرين راجعة في سرعة إلى فاس. ولم يدم احترام أهل تلمسان للمدينة المنافسة لهم فهدموا مبانيها وأطاحوا باسوارها حالما رجع الخلاف مع بني مرين.

واغتنم العرب عجز بني زيان لا ليتحدوا مع أبي يعقوب الذي لم يقم وزنا لعروضهم بل لتوسيع رقعة نشاطهم على الأقل وخاصة في سرسو. فلما تخلص أبو زيان (1304 — 1308) إلى حين من خطر بني مرين حرص على تنظيم الأمور في مملكته وغزا القبائل البربرية بشرقي البلاد وهي التي عاضدت المرينيين وأطرد العرب من السرسو. الا ان أي عمل ناجع لايعتمد البدو يكون من باب المستحيل. وقد أدرك السلطان هذه الحقيقة واعتمد على بني يعقوب فارجع المخزن إلى سالف عهده بعد أن تسرع يغمراسن بازالته.

ولما هلك أبو زيان لم تزل جل آثار هجوم أبي يعقوب ماثلة للعيان فاجتهد أخوه أبو حمو موسى الأول (1308 — 1318) في سد ثلم الأسوار

وحفر الخنادق وتكديس المؤونة في المخازن وملء خزائن الدولة . وكانت ترمي هذه الاجراءات جميعها إلى وضع المدينة في مأمن من حصار جديد ووفق حتى إلى منع بني مرين من تجاوز وجدة وتوسع مرة أخرى في وادي شلف وبلغ قسنطينة وبجاية . ثمّ اغتيل بايعاز من ابنه (1318) .

ولم يتجاوز أبو تاشفين (1318 — 1337) حينئذ الخامسة والعشرين من عمره . وكان بشهادة الاخباريين الذين لايشك في حسن نيتهم رجلا منصرفا إلى اللذات كلفا بالأبهة ، أديبا قليل الورع ، واستجاب لنداء قبائل العرب المتمردة على الخليفة الحفصي أبي بكر فحاصر بجاية وقسنطينة ثمّ بنى في وادي صومام حصن تامزيزدكت على مسيرة يوم من بجاية بنيّة قطع الطريق عنها — وبينما كان ينوي ضمّ الجزء الغربي من مملكة بني حفص إليه تمكن أبو بكر من حمل بني مرين على مهاجمته . فاضطر أبو تاشفين إلى الوقوف موقف الدفاع عندما داهمته الجيوش شرقا وغربا في آن واحد ، ومما زاد في تدهور أمره تخلي بني سويد وبني يعقوب بن عامر عن نصرة بني عبد الواد . وضرب الحصار من جديد على تلمسان ودام مايقرب من سنتين ثمّ اقتحمها عنوة أبو الحسن سلطان فاس . وسقط في ساحة القتال الملك وثلاثة من ولده والقائد الأعلى لجيشه (1337) .

احتلال بني مرين لتلمسان وضمها إلى مملكتهم :

كان من نتائج انتصار سلطان فاس ضمّ مملكة تلمسان إليه . ورفع بنو مرين من شأن المنصورة وحسنوا معالمها وشيدوا أجمل المباني بسيدي بومدين الذي صار قبلتهم دون غيره . ولاشك انّه تمّ في هذه الفترة إقامة الجامع وبناء قصر النصر . وحكموا البلاد مباشرة ما يقرب من ربع قرن (1337 — 1359) وحتى عندما افلتت مملكة تلمسان من أيديهم فانهم ابقوا امراء بني عبد الواد في قبضتهم وأثاروا عليهم الاعداء كلما حاولوا التخلص من ربقتهم .

ولما انهزم أبو الحسن سلطان فاس شر هزيمة في سهول القيروان ذهب ملكه اشلاء . وتخلت عنه قبائل العرب بالمغرب الأوسط

وانضممت إلى أميرين من بني زيان هما أبو ثابت وأبو سعيد فدخلا تلمسان بدون مشقة ولكن نجاحهما لم يدم طويلا . فقد دحر جيش مريني عتيد كتائب أبي الحسن العربية الزناتية في وادي شلف (1352) ووقع أبو سعيد في الاسر فأعدم مع أبي ثابت الذي سلّمه والي بجاية إلى أعدائه . وكان السرسو من نصيب بني سويد الذين آزروا المرينيين، أما بنو عامر بن حميد وشيخهم صغير الذين قاتلوا إلى جانب أبي ثابت فقد اضطروا إلى اللياذ بالصحراء . وهكذا وقع حضر التل وبدوه مرّة أخرى في قبضة سلاطين فاس ودام ذلك ستة أعوام .

ويرجع الفضل في رجوع دولة بني زيان إلى تدخل العرب فقد نصّب الدواودة الثائرون على السلطان المريني أبي عنان في تلمسان، بإعانة قوم صغير بن عامر عمّ أبي حمو موسى الثاني وهو ابن أخ للسلطانين الأخيرين وكان حينئذ لاجئا بتونس (1359 — 1399) .

أبو حمّو الثاني :

اضطر هذا الأديب المؤثر للدبلوماسية على الحروب إلى قضاء ملكه في قمع الثورات ومقاومة الأدعياء يؤازرهم العرب وبنو مرين وفي إحباط مناورات ابنه ومؤامراته . وبلغت سيطرة بني مرين على بعض قبائل بني هلال حدا مكّن أبا حمو من تأليف كتلة من العرب لمناصرته . واعتمد خاصة على بني عامربن حميد بزعامة شيخهم صغير الذي بقي دائماً على إخلاصه لبني عبد الواد كما اعتمد على معظم قبائل المعقل التي انحازت اليه بفضل دهاء وزيره ابن مسلم . ولكنه اضطر إلى اخلاء عاصمته مرتين بعد أن خذله بعض اتباعه وقضى صغير نحبه .

وتقرر مصير الملكية بالمغرب الأوسط . فقد منيت إحدى هجمات سلطان بني زيان على بجاية بهزيمة نكراء كانت لها ابعد العواقب (1366) فلم يجد العرب صعوبة في الانتشار بالسهول الخصبة التي كانوا ممنوعين عنها . وهكذا استوطن بنو حسين في تيطري حيث أخذوا في استخلاص الضرائب لفائدتهم وحاول السلطان المهزوم ردّ الفعل بالاعتماد على الدواودة ولكنه اصطدم بوحدة الصفّ بين العرب وبني

مرين التي أحكمها بنو سويد واضطر إلى مغادرة عاصمته واللجوء إلى الزّاب (1370) .

وطورد حتى توغّل في الصحراء ولم ينج من الهلاك الا ّ بموت سلطان فاس فتمكن من دخول تلمسان (1372) وعقد هدنة مع دولة بني مرين بعد مفاوضات قام بها في مهارة ، مستشار هذه الدولة وصديقها ونزمار فعاضده بنو سويد واسترجع بعض سلطته . وازدهرت مملكة بني عبد الواد طيلة عشرين شهرا ازدهارا لن يتوفر لها فيما بعد . الا ّ أن الاخطار لم تزل محدقة بها ممّا حمل أبا حمو على التفكير في نقل عاصمته إلى مدينة الجزائر (1378) . ولمّا أساء التقدير فتطاول على مملكة فاس فسدت علاقاته بونزمار وبني مرين وانفتح من جديد باب الحروب . ووقف في وجه أمير تلمسان عدو لدود وهوابنه بالذات أبو تاشفين الذي تغلب عليه في آخر الأمر باعانة سويد وبني مرين وطارده في الجبال فلم يزل يقاتل حتى هلك (1389) وبموته عاشت مملكة تلمسان في ظل فاس أو تونس حياة طويلة بلا مجد . وتعاقب عليها الملوك وقصرت عهودهم وكثرت عليهم الاضطرابات وظلت دولة بني زيّان تواجه ضربات المرينيين والحفصيين ثمّ خضعت إلى الهيمنة الاسبانية وطال احتضارها قبل أن تسقط تحت ضربات الأتراك (1554) .

تعريب زناتة :

اغتنمت قبائل بني هلال الاضطرابات المزمنة التي كانت تنتاب المغرب الأوسط فانتشرت في ارجاء التلّ واستقلت بأمرها . وكان الأدعياء يعتمدون على نصرتها ويجازونها بالاقطاعات وحق الجباية . وان الحالة التي وصفها ابن خلدون لم تزدها الأيام الا ّ تفاقما فقد كتب سنة 1380 م. ما فحواه : بسط العرب نفوذهم على البسائط ومعظم المدن، وأصبح سلطان بني عبد الواد لا يصل الى الأماكن القاصية عن مركز الدولة ولا يتعدّى حدود الأراضي الواقعة على البحر والتي ملكوها في أوّل أمرهم. فلقد ضعف نفوذهم أمام سطوة العرب ؛ وكانوا ساهموا في تقوية هذا العنصر البدوي بمنحه الأموال الطائلة وإقطاعه الجهات الواسعة وتسليمه موارد عدد كبير من المدن.

غير ان البلاد التي كان العرب يتوسعون في ربوعها مثل ما يمتد الظل الذي تعكسه الجبال عند انحسار النهار حسب عبارة ابن خلدون لم تكن خالية من أهلها وذلك أن قبائل زناتة بقي لها من القوة رغم الحروب وما استتبع ذلك من خراب ما مكنها من مشاغبة سلاطين زناتة والحد من سرعة توسع البدو . الاّ أن زناتة سرعان ما تواروا عن مسرح التاريخ . فهل طردهم العرب ؟ وكيف قدروا على ذلك بينما لم يتجاوز عددهم حوالي مائتي الف ضائعين في ملايين من البربر وكيف نفّسر ان تكون القبائل العربية الموجودة اليوم انحدرت جميعها من الغزاة الهلاليين أليس من الارجح ان يكون قد حصل الانصهار اثناء القرن الخامس عشر بين بدو زناتة والعرب الرحل بفضل تشابه عاداتهم ؟ بحيث يمكن القول بأن عرب المغرب ليسوا في الغالب سوى قبائل زناتة قد تعرّبت ونتيجة لذلك حلّ محل العداوة القديمة بين البربر الحضر والبدو الذين كانت اللّغة مع ذلك عامل وحدة بينهم ، حقد أشد ضراوة يباعد بين شعبين متنافرين كأعمق ما يكون التنافر أي بين العرب او زناتة المستعربين الذين ذهب بهم الظن انهم عرب وبين البربر الصامدين في وجه التعريب . وبذلك ظهر في بلاد البربر سبب آخر من أسباب الاضطرابات زاد الطين بلة . وتلك هي على كل الفرضيّة التي قدمها «أ. ف. قوتيي» وهي من أخصب ما قدم من الافتراضات لتبديد ما خيّم على القرون الوسطى المغربية من سجف الظلام .

حضارة بني عبد الواد وفنهم :

حرص عدد من امراء بني عبد الواد على مجالسة العلماء والفنّانين . واشتهرت تلمسان بأنها مدينة ثقافية وأكد ابن خلدون الذي عاش فيها طويلا أنها « نفقت بها اسواق العلم والصنائع فنشأ بها العلماء واشتهر فيها الأعلام وضاهت أمصار الدول الاسلامية والقواعد الخلافية » ومال شعراؤها إلى مدح الملوك مدحا تقليديا وبرعوا في ذلك وتصنعوا . وكان المجتمع فيها « رقيقا ، متدينا ، مثقفا » حسب عبارة ج. مرسى .

وكانت تلمسان مركزا للدراسات الاسلامية اشتهرت مدارسها الخمس شهرة كبيرة وهي مشبعة في اعماقها بذلك التصوف الشرقي الذي سيكتب له النصر كرد فعل تجاه الغزو الأجنبي . وكان القوم يقدسون سيدي

وهاب صاحب الرسول الذي قدم بعد عقبة ودفن في هذه المدينة حسب اعتقادهم ، وسيدي الداودي الولي الصالح الكبير الذي عاش في القرن العاشر (توفي في 1011) وخاصة سيدي بومدين المتصوّف الأندلسي الشهير (آخر القرن العاشر) ، صاحب البلاد الذي كان يجلب قبره الزائرين من كافة بلاد المغرب مما ساعد على نمو قرية العباد الفوقي .

ولاتزال بعض منشآت بني عبد الواد باقية إلى اليوم . فقد أعاد يغمراسن بناء صومعة مسجد أكادير وصومعة مسجد تلمسان أما صومعة أكادير المشرفة على مسجد الادارسة فهي بمثابة برج من الأجر مربع ضلعه يساوي أربعين مترا، وشكله تقليدي أنيق ، وهي مقامة على أسس أُخذت حجارتها من أطلال رومانية، تزّين واجهاتها الأربع أعمدة صغيرة وأطر مزخرفة بازهار من فخار مطلي . وأما صومعة المسجد الكبير فطولها 34 م. وهي على نفس الشكل . وقد تكون شيدت في عهد يغمراسن وأكبر الظن في فترة سابقة ، القبة الجميلة المبنية من الآجر على رسم ذي ثمانية أضلاع والمقامة على اقواس مكونة من أقواس صغيرة عديدة منفتحة خشبها من سيدي عقبة .

وما كان يمكن لمؤسس هذه الدولة ان يكتفي بقصر تاكرارت الموحدي القديم المجاور للمسجد الكبير فقد أمر بوضع أسس قصر أراده في نفس الوقت قلعة وهو المشوار الذي لم يبق له اليوم أثر يذكر . واتخذ امراء بني زيان المشوار مقرا رسميا لاقامتهم ففيه مساكنهم ومسجدهم ومستودعاتهم ، وفي بيوته يقيم الحشم وينزل الامراء الاجانب وبين أرجائه تنظم حفلات الاستقبال الكبرى . وكان أبو حمو الثاني يحتفل بالمولد النبوي جالسا على عرشه في قاعة المشوار الكبرى يحف به كبار القوم بحضور عامة النّاس .

وكانت الشمعدانات العظيمة وثياب الحرير ، وإنشاد الشعر ومأدبة العشاء ثمّ صلاة الصبح تضفي جميعها البهجة على المهرجان . ولم تبق الاّ ثلاثة مساجد ترجع إلى بني عبد الواد فزاوية سيدي بلحسن التي بناها أبو سعيد عثمان في آخر القرن الثالث عشر صغيرة ولكنها رائعة . ان أقواسها الحدوية المقامة على ثمانية إسطوانات من الجزع (Onyx) التي

اندثر منها عمودان فقط تجعل لها ثلاث بلاطات كل واحدة منها ذات ثلاثة صفوف . وتغطي فجوة المحراب ذات الزوايا المسطحة قبة مقرنسة مقامة على اسطوانات صغيرة ، زخرفت حافاتها بأطر من الجص المنقوش كان قد دهن من قبل أمّا التوريق الموجود فيها فهو يدل على مهارة وأناقة لامثيل لهما . واستطاع الفنيون الحفاظ على اجزاء فقط من السقف المصنوع من الارز والمزخرف بشتى الألوان . أمّا مسجد اولاد الامام بصفّيه وبلاطاته الثلاث فهو أصغر منه . وقد ضاعت كل زخارفه الجصية واندثرت جميع المعالم التي بناها أبو تاشفين . وازيلت منذ أقل من نصف قرن آثار مدرسته . ولم يبق من حركة أبي حمو الثاني المعمارية الا المسجد وقبر سيدي ابراهيم اللذان أعدا لاحتضان رفات والد السلطان واعمامه وهما يشهدان بالانحطاط السريع الذي طرأ على الفن التلمساني .

ولئن عدت تلمسان المركز الوحيد للفن المعماري الاسلامي بالجزائر فالفضل يرجع إلى بني مرين الذين حملهم تقديسهم للأولياء الصالحين الموجودين فيها على تشييد معالم بالمنصورة وسيدي بومدين يعتبر بعضها من أجمل ما بني في بلاد المغرب .

خاتمة :

اذا تمثل تاريخ مملكة بني حفص في الابقاء على تراث حضارى تألق نجمه في بعض الفترات فان تاريخ مملكة تلمسان يعد بلا منازع تسجيلا لخيبة كادت تشمل جميع الميادين . والحال انها انبعثت في ظروف مناسبة لأن بني عبد الواد لم يضطروا إلى خوض غمار الحرب للاستقرار في عاصمتهم كما كان الشأن بالنسبة لبني مرين ولأن الحظ اسعفهم كذلك فأتاح لهم قائدا مسك بزمام أمرهم طيلة خمسين سنة نعني يغمراسن ؛ وأخيرا لأن جيرانهم انشغلوا عنهم فترة طويلة لبعد الدار بينهم وبين الحفصيين وانصراف بني مرين إلى اقامة ملكهم ورغم كل هذه الظروف المساعدة فان تلمسان لم تصبح عاصمة لدولة كبيرة ، ذلك أن العرب الذين امتدت جذورهم في ربوع المغرب الأوسط أكثر منها في المغرب الأقصى يتحمّلون القسط الاوفر من مسؤولية هذه الخيبة

وكذلك بنو مرين الذين صمدوا أولا في وجه يغمراسن ثمّ عرفوا كيف يبعدون من حلبة السباق عائلة عبد الواد طيلة سنوات عديدة : الاّ انه قد يحسن بنا ان نقرأ حسابا للمقتضيات الجغرافية القاهرة ، فقد لوحظ أن جهة وهران وشرقي المغرب الأقصى تمتازان من بين جهات إفريقيا الشمالية الاخرى بنجادها العليا المساعدة على الحياة الرعوية القريبة من السواحل ، وهناك تكونت من التلّ والمناطق الزراعية حاشية قليلة العرض ظلت لقمة سائغة لمختلف الغزاة . بحيث لم يكن لمملكة بني عبد الواد قاعدة تعتمد على كتلة قوية من المزارعين كما كان الشأن بالنسبة لجيرانها شرقا وغربا ، ولعلنا نجد فيما سبق أحد الاسباب الرئيسية التي حالت دون استقرار هذه الدولة ونجاحها ، فانها لم تظفر بتوازنها قط ، فلم يُتَح لها أن توزع مجموعاتها البشرية المتنافسة في أغلب الأحيان من أجل المراعي ولا أن تنوّع اقتصادها .

3 ـ مملكة بنى مرين بفاس

أصل بني مرين :

ينحدر بنو مرين من زناتة مثل بني عبد الواد ، وكانت مجالات ظعنهم بالزاب وهي جهة بسكرة الحالية ، حتى دحرتهم قبائل بني هلال نحو الغرب في القرن الحادي عشر . ولما أقام عبد المؤمن ملكه في أواسط القرن الثاني عشر كانوا يجوبون سهول جهة وهران العليا وتكتلوا مع زناتة في حربهم ضد الموحدين . وعندما انهزموا أبوا الخضوع خلافا لبني عبد الواد بني عمومتهم ولاذوا بتخوم الصحراء بعيدا عن ولاة الموحدين وجباتهم ، ولم يعرفوا في حياتهم الاستقرار ولكنهم عاشوا احرارا ، ولم يخرجوا من عزلتهم الا سنة 1195 للمشاركة في الجهاد المقدس الذي توّج بالانتصار المبين في الارك (Alarcos) وجرح قائدهم محيو ، حينذاك، جروحا بليغة في ساحة الوغى وسرعان ما لفظ النفس الأخير فخلفه ابنه عبد الحق الذي لم يكن أول مؤسسي الدولة المرينية فحسب بل كان أيضا شخصية فذة في تقواها ، أشارت المصادر الكثيرة إلى ما كان يتمتع به من بركة .

وكان بنو مرين في ذلك الوقت أي أوائل القرن الثالث عشر يعيشون فيما نسميه اليوم شرقي المغرب الأقصى بين الفكيك ووادي صا والملوية ، وفي فصل الصيف يتوجهون نحو الشمال ويبلغون وطاط الحاج وحتى أجرسيف لينتجعوا بماشيتهم ويتزودوا بما فيه قوامهم في فصل الشتاء وهناك يأنسون بقبائل زناتة القاطنين في مناطق الريف والجهة السفلى من الملوية ، ولاشيء في هؤلاء الظواعن المتواضعين رعاة الغنم ، كان ينبيء حينذاك بأنهم سيصبحون أسياد المغرب الأقصى .

ولمّا مات الخليفة الناصر أتيحت لهم غزوة . فقد كان الخليفة الجديد المستنصر غلاما « قد شغلته احوال الصبا وجنونه » وقد أحدثت هزيمة العقاب (Las Navas de Tolosa) ثلمة عميقة في سلطان الموحدين ، وشعر بنو مرين ان الفرصة سانحة فانقضوا على مناطق التل الزراعية التي لم يتجاسروا من قبل على مهاجمتها ، ويظهر ان عبد الحق وذويه لم تخامر أذهانهم حينذاك أية فكرة سياسية البتة (1215 أو 1216) .

وأرسل الموحدون جيشا يعدّ عشرة آلاف مقاتل لمحاربة هؤلاء النهبة ، والتقى الجمعان اولا بالجهة الساحلية بوادي نكور جنوب خليج الخزامى وكانت وقعة غير حاسمة ثمّ بضواحي تازى حيث هزم بنو مرين جيوش الموحدين شر هزيمة (1216) فلمّا كانت السنة الموالية غيرّ الموحدون خطتهم وواجهوا المرينيين الذين لم يرجعوا بعد إلى قفرهم ببطن من بطون بني مرين خارج عنهم وبقبيلة بني رياح العربيّة ، وكان في ظنهم ولا شك ان هذه المجموعات من الظواعن أقدر من الجند النظاميين على صد امثالهم . ودارت أهم واقعة بينهم قرب وادي سبو ومدينة فاس (26 سبتمبر 1217) ، وهلك فيها عبد الحق لكن قومه انتصروا بقيادة ابنه عثمان وفرضوا الإتاوة على بني رياح ، وكان هذا الانتصار انطلاقا لاضطرابات خطيرة حسب ما ذكره ابن خلدون : فتعرّضت الضاحية إلى الفوضى بينما اعتصم الولاة والحاميات بالمدن الاّ أن بني مرين أوجبوا شيئا فشيئا على قبائل غربي المغرب الأقصى دفع المغارم حسبما يمكن ان تسمح به من تدقيق النصوص الغامضة التي لدينا وفرضوا حتى على أمصار المغرب ضريبة معلومة على أن يصلحوا سابلتهم . وما أن نجحت الغزوات حتى تحول أمرها إلى مغامرة سياسية ، غير أن قواد بني مرين لم يكن في نيتهم بعد غزو المغرب الأقصى اذ هم لم يستغلوا البتّة ، ابتداء من سنة 1224 ، انتفاضات الامبراطورية الموحدّية ، ليقدموا على أي شيء ضدّها ، وعلى عكس ذلك بادر الخليفة الموحّدي الملقب بالسعيد بالهجوم سنة 1244 وهزمهم شر هزيمة قرب فاس وهلك في الجولة محمّد بن عبد الحق المريني الذي خلف أخاه عثمان سنة 1239 . ولحقت فلول جيوشه أول الأمر بجبال غياثة من نواحي تازى ثمّ خرجوا إلى تخوم الصحراء ، وقد يتبادر إلى الذهن أن مغامرة عبد الحق وخلفائه قد انتهى أمرها .

أبـو يحيى :

أبو يحيى أبو بكر (1244 — 1258) قائد بني مرين الجديد ابن عبد الحقهو أيضا غيّر مجرى الأمور ، فلمّا ولي الأمر كان سنه سبعا وثلاثين سنة وكانت قسمته من المحاسن متساوية ، قيادةً رجال ، ومهارةً سياسية .

وما أن لم شعث قومه قرب الصحراء حتى قسم بلاد المغرب الأقصى إلى اقطاعات « تسوغها سائر الايام طُعْمَةً » أكبر عشائر بني مرين وهي عملية لاتخلو من جسارة ومجازفة ، ولكنها أيقظت العزائم وجعلت لها غرضا مقصودا . وسرعان ما توّجه أبو يحيى وقومه إلى طريق الشمال وحطّوا في جهة مكناس وهي مدينة ثانوية ولكنها حسنة الموقع ، وعند ذلك نجح الخليفة السعيد في اغراء يغمراسن وبني عبد الواد (اواخر سنة 1244) ، ولن يغفر لهم بنو مرين هذا الموقف . وتمكن أبو يحيى الّذي تعقّبه القوم في أول الأمر حتى انتهوا الى جهة ورغة من الفت في عضد الحلف الذي نسجه ضده السعيد. وبينما كان الخليفة يخمد نار الثورة في جهة أزمور أمكن له أن يستحوذ على مدينة مكناس وهي أول مدينة تسقط في أيدي المرينيين . وقرئت الخطبة باسم أبي زكرياء الحفصي : وهكذا ينقلب قائد عصابة إلى منافس سياسي للدولة الموحدية (1245) ولم يعترف السعيد من جهته بالهزيمة فجهز جيشا جرارا لاسترداد ملك أجداده. ويقال إن أبا يحيى وصل إلى معسكر الموحدين بوادي بهت متواريا ، فأدرك أن لاطاقة له بهم فأسرع بالرجوع إلى مكناس وجمع حامياته المنتشرة وتراجع نحو شرقي المغرب الأقصى ، وبينما كان هناك في مأمن من أية غائلة حربية دخل في مفاوضات مع الخليفة سائلا إياه أن يستكفي بنفسه في أمر يغمراسن ، وقبل السعيد أن يمده بنو مرين باعانة رمزية بخمسمائة مقاتل وهم في الواقع رهائن قبل أن يكونوا محاربين ، ومعلوم أن السعيد لقي حتفه في كمين قرب تلمسان وأن جيشه انفض متسابقا نحو الغرب ، وأرصد أبو يحيى له بأجرسيف على نهر الملوية وأباده ، وانتقلت الكتائب الموحدية المتكوّنة من المرتزقة الترك والنصارى إلى صف المرينيين . وقويت شوكة أبي يحيى وأصبح أقوى من ذي قبل على مواجهة يغمراسن وبسط نفوذه على شرقي المغرب الأقصى فدخل

فـاس في العشرين من أوت 1248 واستحوذ بسرعة كبيرة على تـازى ومكناس وسلا والرباط والبسائط إلى أم الربيع ، ويمكن أن نجعل نهاية سنة 1248 بدءا لانبعاث مملكة بني مرين التي يعتبر أبو يحيى هو الصانع الاول لهـا بدون منازع .

ولم تنته مصاعبه بمجرد انتصابه بفاس فقد اضطر طلبا لأمن عاصمته إلى اخضاع الأطلس الأوسط فوجّه حملة نحوه وسرعان ما تآمر عليه بعض اعيان فاس بإعانة قائد كتيبة النصارى وعدد من الموحدين كان أبو يحيى أسعفهم بالحياة . ونجحت المؤامرة ودخلت فاس مرة أخرى في حكم الموحدين (جانفي — فيفري 1250) وما أن علم أبو يحيى بذلك حتى زحف على فاس ، وبينما هو في طريقه اليها أجبر على أن يواجه هجوم يغمراسن ، وهزم خصمه القديم على ضفاف واد ايسلي وأمكن له في آخر الأمر وبعد متاعب جمّة استرجاع عاصمته . وكان القمع شديدا وضربت الرهبة على قلوب أهل فاس عهدا بعيدا .

وكان على أبي يحيى كذلك ان يصمد لبعض محاولات الخليفة الموحّدي المرتضى ، واضطر إلى التخلي مؤقتا عن سلا سنة 1252 أو 1253 (650 هـ) ولكنه استرجع قواه في السنة الموالية وهزم الجيش الموحدي هزيمة نكراء في جهة فاس واغتنم فرصة هذا الانتصار لغزو تادلاّ ثمّ سجلماسة عاصمة تافلالت ونخيل منعطف واد درعة (أقد ، زقورة ، تقونيت ، الخ ....) (1255) ومنع يغمراسن من أن يحل محله في هذه الجهات المتاخمة للصحراء ، ولمّا مات أبو يحيى حتف انفه في جويلية 1258 كان بنو مرين إذن قد بسطوا نفوذهم على كامل شرقي المغرب الأقصى وشماله والسهول الغربية إلى أمّ الربيع وتادلا والأطلس الأوسط وأخيرا واحات تخوم الصحراء ، ولم يبق للموحدين الاّ الأطلس الأعلى ، والسوس وجهة مرادش والجهات الساحلية الكائنة جنوب أم الربيع ، وان تعداد هذه الاسماء ليسمح بمعرفة مدى المجهود الذي قام به بنو مرين وأهمية نجاحهم بقيادة أبي يحيى .

أبـو يوسف :

يظهر أن نزاعا من أجل الخلافة استتبع لأول مرّة ولكنها لن تكون الأخيرة ، موت أبي يحيى . وقد استولى أحد ابنائه على الحكم في فاس لكن نافسه فيه عمّه أبو يوسف يعقوب (1258 — 1286) والي تازى وتمكن ، بعد صعوبات من فرض سلطته والحصول على البيعة بكامل البلاد المحتلة من بني مرين (اكتوبر 1258) . وكان رابع أولاد عبد الحق هو الذي تسلّم امرة القبيلة . وتقلّد الملك وهو في السادسة والاربعين أو الثامنة والاربعين من سنه ولم يصفه لنا الاخباريون محاربا ، مقاتلا حياته كلّها في بلاد المغرب واسبانيا فحسب بل كذلك ملكا ورعا قائما بالليل معتبرا بحياة الصالحين مواظبا على الصيام حاميا مقام الأولياء .

وواجه في أول عهده نزاعات جديدة من أجل الملك فاستولى أحد ابناء اخوته على سلا التي تمكّن الموحدون من دخولها مرّة أخرى (اوائل 1260) فاستغل هذه الخلافات النصارى الاسبان من قشتالة على أغلب الظن وأخذوا سلا غرة في شهر سبتمبر 1260 ولم يقدر أبو يوسف على طردهم منها الاّ بعد حصار دام أربعة عشر يوما ، وإلى هذا العهد لم يجد بنو مرين الفرصة للمساهمة في الجهاد المقدس باسبانيا . وقد عقد أبو يوسف العزم على ذلك حوالي سنة 1245 في الوقت الذي احتل فيه أخوه أبو يحيى مكناس ، إلاّ أن حكمة أخيه السياسية حالت دون تحقيق ما انطوت عليه نفسه من أمان كريمة ، فلمّا هوجمت سلا وكانت غزوة أكثر منها محاولة حقيقية للاستقرار بأرض إفريقيا ، صحّ عزم العاهل الجديد ولا شك ، على مقاومة النصارى . الاّ أنه كان من الواجب عليه قبل كل شيء ان يتم فتح المغرب الأقصى . لذلك اكتفى بارسال بطن من بطون بني مرين كان تمرّد عليه في جهة شفشاون ، فوفق بذلك بين غاياته الدينية وبين مقتضيات أمن سلطانه (1262) وتفرغ عند ذلك في اطمئنان تام إلى فتح ما تبقى من مملكة الموحدين وباءت محاولة أولى في منازلته مراكش بالفشل سنة 1262 بعد معارك طاحنة امام أسوار المدينة نفسها .

فغيّر أبو يوسف الخطة : وقبل عروض أبي دبّوس الموحدي وأمده بالجيوش والمال على أن يشركه في نصف الغنيمة ونصف ما يفتحه

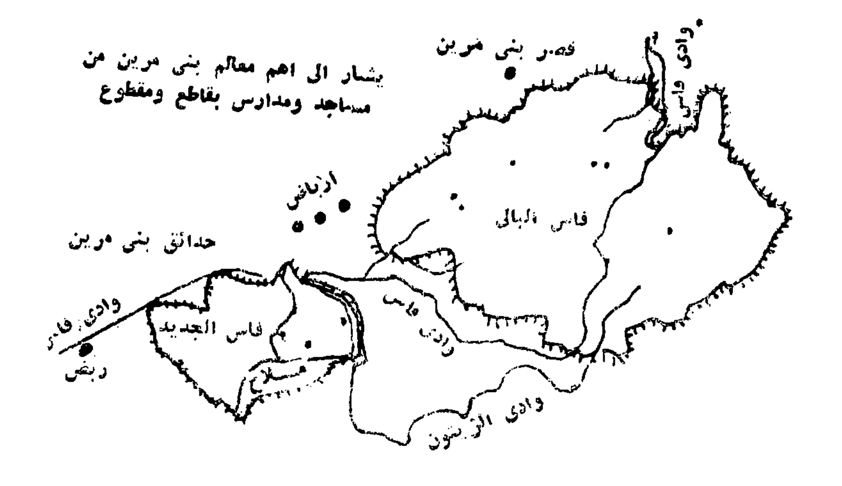
من البلاد — وفتح أبو دبوس مراكش في خريف سنة 1266 ولكنه سرعان ما نقض العهد الذي يربطه بالمريني . ولمّا ضرب المريني الحصار على مرا كش كان يغمراسن الذي استهواه أبو دبوس قد دخل ارض بني مرين . فانقلب أبو يوسف ضد هذا العدو الجديد وهزمه قرب الملوية شر هزيمة في أوائل سنة 1268 ولمّا نفض يده من هذا الأمر نازل مرّة أخرى مراكش وهزم جيوش أبي دبوس ودخل المدينة في الثامن من سبمتبر سنة 1269 . وهكذا تم على أحسن وجه ما كان شرع فيه أبو يحيى بفضل خلَفه . وبذلك ورث بنو مرين ملك الموحدين في المغرب الأقصى . وسرعان ما تلقب أبو يوسف بلقب أمير المسلمين على غرار المرابطين . ومعلوم أن لقب أمير المؤمنين كان منذ حوالي عشر سنوات من هذا التاريخ من خصائص العاهل الحفصي المستنصر . ولم يكن في نيّة أبي يوسف أن ينافسه فيه بل إنه قبل حتى أن تقرأ الخطبة باسم خليفة تونس .

وبينما كان اثنان من ابنائه يقومان بحملة في بلاد السوس وجبال غمارة (في مدخل الأطلس) لاخذ البيعة للمرينيّين كان أبو يوسف مقيما بمراكش حيث كانت تتقاطر عليه الوفود من كامل جنوب المغرب الأقصى تبايعه أمام الملإ وارثا للموحدين وتقدم له التهاني والهدايا . ولم تشذ عن ذلك سوى القبائل العربية من المعقل المستقرة بجهة وادي درعة وخرج أبو يوسف بنفسه للانتقام منها في ربيع 1271 وبذلك اصبحت بلاد المغرب الأقصى بأكملها خاضعة لسلطة بني مرين باستثناء العدوة الإفريقية بمضيق جبل طارق التي أذعنت سنة 1273 وسجلماسة التي دخلت في طاعة يغمراسن سنة 1265 تحت تأثير عرب المعقل ثمّ اضطرت إلى الخضوع إلى المرينيين سنة 1274 بعد حصار دام أشهرا طويلة قد يكون أبو يوسف يعقوب استعمل اثناءه المدفعية لأول مرة .

الحملة الأولى على اسبانيا وتأسيس فاس الجديدة :

كان مسلمو اسبانيا طلبوا من أبي يوسف أن يمدّهم سريعا النجدة سنة 1272 بينما كان في طريقة إلى الانتقام من يغمراسن بساندته أبا دبوس . و تفيد المصادر التي لدينا ان العاهل المريني جنح إلى السلم مع خصمه الذي لج في ذلك واستكبر فاضطر أبو يوسف إلى

منازلته مرجئا أمر اسبانيا إلى ما بعد — فهزم مرّة أخرى بني عبد الواد قرب واد ايسلي (16 فيفري 1272) وحاصر تلمسان بدون جدوى وقد شيّد قلعة مواجهة لها في تاونت قرب نومور (Nemours) الحالية بالذات وبذلك كسرت شوكة يغمراسن إلى حين — إلاّ أن أبا يوسف حرص قبل الزّج بنفسه في اسبانيا على احتلال طنجة وسبتة (1273) ثمّ استرد سجلماسة (1274) . وما أن فرغ من أمرها حتى وفدت عليه بعثة من غرناطة تناشده الغوث . ولا شيء كان يمنعه هذه المرة من الاعلان عن الجهاد المقدس والسير على سنة الموحدين وهو الذي كان يعتبر نفسه وارثا لهم . وكانت الظروف سانحة . إذ لم يواصل ابن فرديناند الثالث عملية الاسترداد (Reconquista) بنفس القوة بعد أن كادت تتم في عهد أبيه . وكان للملك الفونسو العاشر الحكيم (1262 — 1284) مناقب ممتازة ولكنّها كانت أدبية وعلمية أكثر منها سياسية . ولئن تملكه الأسى لتغيبه يوم أن بعث الكون ليجعله على أحسن تقويم فان الحزم اعوزه في تنظيم شؤون دولته على خير الوجوه . فقد عمل بوصيّة أبيه وجهز الأساطيل وجيش الجيوش لطرد بني نصر ومحاربة المسلمين في المغرب الأقصى باعانة البابا الاّ أنّه غيّر رأيه قبل الشروع في تنفيذ خطّته . وقد أحدثت الاجراءات الجبائية التي اتخذها غضبا كبيرا بين طبقات الشعب ونالت سياسته الخارجية من هيبته .



شكل 20 : ـ مدينة فاس في عهد بني مرين .

وكان المسلمون أعجز من أن يستغلوا مثل هذه الظروف اذ كان الأمراء يقاتل بعضهم بعضا بلا انقطاع في الرقعة الضيقة المحاطة بجبل شلير (Sierra Névada) وجبل رندة (Sierra de Ronda) فكان بنو نصر لا تنام لهم عين في غرناطة . واضطر الأمير ابن الأحمر إلى الدخول في طاعة ملك قشتالة . الاّ انه كان يدرك ان عليه الاختيار عاجلا او آجلا بين الخضوع للنصارى او الاستنجاد بالمغاربة واظهر احتلال القشتاليين لقادس (1262) وكذلك حملة جام (Jayme d'Aragon) صاحب الأرغون بمرسية ان خطر النصارى أعظم ، غير أن ما كان يضمره ابن الأحمر من عداوة لابي يوسف جرّه إلى الملك ألفونسو جرّا . وغير ابنه وخلفه محمّد الفقيه رأيه بإيعاز من بعض اللاجئين القشتاليين واغتنم فرصة غياب الملك ألفونسو ليلتمس تدخل بني مرين .

وتمكنت طلائع المرينيين بفضل سفن سبتة من اجتياز المضيق من دون أية صعوبة في افريل 1275 وسجلت بعض الانتصارات في جهة شريش واستولت على الجزيرة الخضراء (Algésiras) التي سلّمها صاحب غرناطة إلى الأفارقة بينما كان أبو يوسف في مفاوضة مع يغمراسن توجت بصلح مرضي . بحيث تمكّن بدوره من دخول اسبانيا على رأس أهم جيوش بني مرين (16 أوت 1275) .

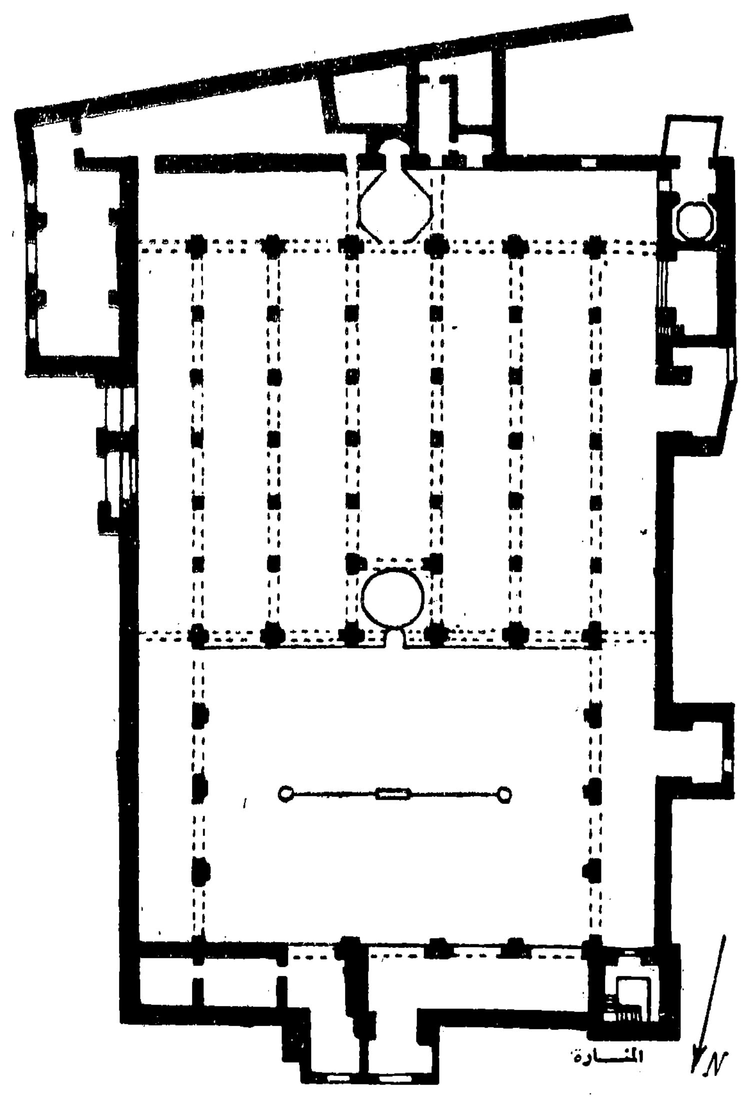
وشرع في خوض المعارك ، وغزا جهات وادي الكبير السفلي وقرطبة ثمّ اصطدم بجيش قشتالي عظيم اتى للنجدة بامرة القائد القشتالي الشهير دنّنة (دون نيونيوكونز ليس دي لارا Don Nuno gonzales de Lara) وكان نصراً للمرينيين مبينا احتفلوا به كثأر لعام العقاب (8 سبتمبر 1275) .

وبينما كان أبو يوسف يحارب باسبانيا كان والي مراكش المريني ينازل تينملل حيث التجأت صبابة الموحدين وفلّهم . ولم يجد عناء في تطهيرها منهم وابادة البقية الباقية من بني عبد المؤمن . وهكذا جادت سنة 1275 على بني مرين بسلسلة من الانتصارات الباهرة . وعقد أبو يوسف العزم على الاحتفاء بازدهار دولته فأذن ببناء عاصمة جديدة كما فعل قبله سيدي عقبة بالقيروان ومولاي ادريس بفاس وعبيد الله بالمهدية والمنصور بالمنصورية وحماد بقلعة بني حماد ويوسف بن تاشفين بمراكش ويعقوب المنصور

بالرباط . فاختار موقعا لمدينته الجديدة على مرتفع ينحدر بلطف ويشرف على غربي مدينة فاس ويمر منه وادي فاس قبل أن ينصب على منحدرات المدينة القديمة . وكان هذا المكان يساعد على تطور مدينة كبرى مثل فاس ويتيح كذلك مراقبة سكان هذه المدينة المشاغبين الذين تركت ثورتهم سنة 1250 ذكرى مريرة في نفس ملوك بني مرين . وبدأ اختطاط المدينة على حسب السنة المعهودة في 21 مارس 1276 واستنجزت الأشغال : وسرعان ما أقيمت الأسوار وبني المسجد الكبير والقصر والسوق والحمام ومنازل اعيان الدولة وذلك على حسب مثال ضبط من قبل وفتح المسجد للعبادة في جانفي 1279 وسميّت المدينة في أول الأمر المدينة البيضاء ثمّ جرى على الالسن اسم فاس الجديد تمييزا بينها وبين فاس البالي .

ويمكن التساؤل من أول وهلة هل ان الشأن كان يتعلق باحداث مدينة بأتم معنى الكلمة ام لا ؟ اذ أن المدينة الجديدة المبنية لصق القديمة ورثت عن الاولى بطبيعة الحال سمعتها واستفادت من نشاطها التجاري وكل المرافق التي تواجدت في عهد المرابطين وخاصة الموحدين حسبما يبدو . والواقع فان الذي بناه أبو يوسف بلد طريف من حيث السكان على الأقل ذلك اننا بازاء مدينة مرينية ادارية وحربيّة بقيت حتى في العصر الحديث ورغم التغييرات التي أدخلت عليها متميزة جدا عن فاس البالي .

وفي نفس الوقت أوعز أبو يوسف ببناء قصبة مدينة مكناس بقصرها ومسجدها الكبير وامر بتشييد مدرسة في فاس البالي كائنة جنوب جامع القرويين وصالحة لسكنى الطلبة الوافدين من الضاحية . وظهر العاهل المنتصر في مظهر المشيّد العظيم وفقا للسنن المغربيّة السمحاء .



شكل 21 : رسم الجامع الكبير بفاس الجديد .

حملات جديدة باسبانيا :

واجتاز أبو يوسف المضيق ثانية سنة 1277 ، وكان غرضه في هذه المرة جهة اشبيلية التي نسفها نسفا : فقد قيل انه كان يقطع في بعض الاحيان بنفسه الاشجار المثمرة ليقتدي به غيره . كما أنه استعرض قواته

أمام اشبيلية ليلة المولد النبوي (11 أوت 1277) على ضوء الحرائق المشتعلة بالضاحية . ولم تمر بضع أسابيع حتى نال جهات شريش وقرطبة ما نال غيرها . الاّ أن الرياح لم تجر بما كان يشتهيه المسلمون رغم نجاحهم الباهر ، ذلك أن مدينة مالقة كانت بيد عائلة منافسة لبني نصر اصحاب غرناطة فجنحت إلى المرينيين منذ حملة أبي يوسف الأولى بل خطت خطوة سنة 1278 فوهبت اليهم مدينة مالقة ، وقبل أبو يوسف عرضهم ممّا أغضب محمّد الفقيه ملك غرناطة غضبا شديداً ، وكان من الضّعف بحيث لم يَقْوَ على مواجهة المرينيين بقوّة السلاح فركن إلى المفاوضة : ولم يجد عناء في جعل الملك الفونسو العاشر صاحب قشتالة في صفه ووفق من جهة أخرى إلى الاتصال بوالي مالقة المريني الذي نزل له عن البلد (فيفري 1279) وأخيرا أبرم اتفاقا مع يغمراسن الذي التزم بأن يأخذ بأذيال أبي يوسف في إفريقية حتى يمنعه من النهوض إلى الحرب باسبانيا . غير أن أبا يوسف كان ماضيا في تحقيق ذلك على جناح السرعة لو لم تحل دون تحركات جيوشه أمطار غزيرة ولم تشدّه إلى المغرب الأقصى ثورة خطيرة قام بها عرب سفيان في جهة مراكش . وفي الاثناء ضرب الفونسو العاشر الحصار على الجزيرة الخضراء برا وبحرا ، وبذلك طفح الكيل اذ أصبح هذا الملك خطرا على محمّد الفقيه فالتفت إلى أبي يوسف من جديد ومده بالسفن وبفضلها تمكّن الأسطول المريني من فكّ الحصار . وحشر أبو يوسف من جهته كل المراكب الموجودة في المغرب الأقصى وأوكل قيادتها إلى ابنه أبي يعقوب . ودارت معركة بحرية بخليج الجزيرة الخضراء في 21 جويلية سنة 1279 وانتهت بانتصار المسلمين : وتوارى بذلك خطر الفونسو العاشر . ولم يبق في وجه المريني سوى يغمراسن : فانهزم بنو عبد الواد مرّة أخرى في البسائط وحوصرت تلمسان مرّة أخرى فصمدت أمام جميع الهجومات (1281) .

وقام أبو يوسف بحملة جديدة باسبانيا سنة 1282 بإلحاح من الفونسو العاشر : ذلك أن ملك قشتالة استنجد بالعاهل المريني على ابنه شانجة (دون سانش Don Sanche) الذي خرج على طاعته لخلاف معه في شأن وراثة الملك واجتاز أبو يوسف المضيق بدون تردد : فلم يجن على ما يظهر من حركته سوى الغنائم وتاج قشتالة الذي تسلمه رهنا لديه (1283) .

وتوفي يغمراسن في ربيع سنة 1283 بعد أن نصح خلفه بالاقلاع عن الصراع العقيم الذي نهض به هو نفسه ضد بني مرين ، كما مات الفونسو العاشر في ربيع سنة 1284 واعتلى العرش ابنه المتمرد شانجة . فلمّا أصبح أبو يوسف في مأمن من خطر تلمسان عزم على اغتنام فرصة هذا التغيير في عرش اسبانيا للهجوم عليها . ولم يتمكن من ذلك الاّ سنة 1285 اذ اضطر إلى القيام بحملة في السوس ودرعة السفلى لتأديب عرب المعقل الذين عاثوا فيها فسادا ونهبا .

وهكذا فان أبا يوسف لم يجتز المضيق للمرة الرابعة الاّ في السابع من افريل 1285 . ولم تكن العمليات العربية ذات بال باستثناء المعارك التّي خاضها الأسطول القشتالي لمحاولة السيطرة على المضيق ولكن بدون جدوى . ولمّا اعيى شانجة الأمر ، جنح إلى السلم فاغتنم أبو يوسف الفرصة لوضع حد لحملة لاطائل تحتها ، وقبلت شروط المريني القاضية بأن يعامل تجار المسلمين في أرض النصارى معاملة أحسن وأن يمسك شانجة عن التدخل في الشؤون الخاصة للممالك الاسلامية بالجزيرة وأن يرجع إلى المسلمين المخطوطات العربية التي وقعت في أيدي النصارى إثر حرب الاسترداد وكانت من الكثرة والأهمية بحيث بلغت 13 حملا من البغال ورضي المريني مقابل ذلك بدفع غرامات عما ألحقه جيشه من ضرر بأرض النصارى . واحتفل بنو مرين بهذا الصلح واعتبروه انتصارا (21 أكتوبر 1285) . واستلهم الشعراء هذا الحدث واحتفظ القرطاس بما جادت به قرائحهم في هذه المناسبة ، ولم يمض على ذلك وقت طويل حتى اعتل أبو يوسف وقضى نحبه بالجزيرة الخضراء يوم 20 مارس 1286 . ونقل جثمانه إلى الضريح الذي كان أذن باقامته في شالة .

واذا اعتبرنا أبا يحيى مؤسسا لدولة بني مرين فان أبا يوسف كان صانع عظمتهم . فعلى يديه تمت وحدة المغرب الأقصى في ظل الدولة المرينية وبفضله شيدت المباني الجديدة واستؤنفت سنّة الغزوات المغربية في اسبانيا . وقد أصبح أبو يوسف أعظم ملك بحق في بلاد المغرب إثر موت المستنصر الحفصي وما تبعه من اضطرابات من أجل الخلافة وبعد هلاك يغمراسن وما طرأ على سياسة تلمسان من تغيير . غير أن سلطانه

كان معرّضا للاخطار : ذلك ان عددا كبيرا من أمراء بني مرين لم يرضوا بسلطة العائلة الحاكمة وكان العرب سواء منهم من وطّنهم الخلفاء الموحدون بالمغرب الأقصى أو من المعقل الذين لم يمر على قدومهم إلى الجنوب وقت طويل ، على أهبة دائمة لشق عصا الطاعة في وجه الحكومة . وكان أحفاد الموحدين وصنهاجة الأطلس الأعلى يضيقون ذرعا بحكم المنتصرين عليهم ، ويحقّ لنا أن نتساءل مع «هـ . تراس» هل أن الجيوش المرينية كانت كافية للاضطلاع بالمهمات التي كلّفهم بها ملوكهم ، ولا سبيل إلى نكران ما كان لهؤلاء الفرسان من قيمة حربية غير انه من الدلالة بمكان أن نلاحظ ان أبا يوسف كان عاجزا عن مواجهة الجبهتين بنجاعة ، ثمّ إن سياسة بني مرين على نحو ماضبطها أبو يوسف كانت متجهة قبل كل شيء إلى الماضي اذ كان يرمي إلى بعث الأمبراطورية الموحدية من جديد بعد أن أزالها رغم افتقاره إلى ما استقام للموحدين من وفرة الجند وعلو المنزلة الدينية .

أبو يعقوب يوسف :

كان ابنه أبو يعقوب يوسف (1286 — 1307) وليا للعهد منذ زمن طويل ولم يجد مشقّة في مبايعته من قبل الأوساط الرسمية غير أنّه سرعان ما اضطر إلى مواجهة ثورات خطيرة كشفت عمّا كانت تشكوه الدولة المرينية من مرض الايام . فلقد تمرد عليه أحد أفراد عائلته قرب وادي درعة وعين أبو يعقوب أحد إخوته على رأس جيش صغير لكنه عوض ان يؤدب المتمرد تحالف معه عليه . وتقبض أبو يعقوب على الثوار حينما كانوا يحاولون اللياذ بتلمسان وقتلهم بتازى (1286) . وتمردت في نفس الوقت احدى القبائل بالجهة الجبلية من جنوب فاس فكسر شوكتها بسرعة . ولم يمض وقت طويل حتى استنهض عليه أحد أقربائه قبيلةً من المعقل بدرعة ففتك به في جويلية 1287 وانتقم من المعقل في أكتوبر الموالي . ثمّ جاء دور ابنه بعد مرور عام أي نوفمبر 1288 فحمل السلاح في وجه أبيه بمراكش . وأخمدت الثورة بسرعة هذه المرة ايضا . وتمكن الأمير الثائر أبو عمرو وشريكه الأول في هذه الفعلة من الفرار والالتجاء إلى تلمسان . وعمّ الهدوء البلاد طيلة أربعة أعوام أعلن اثرها بنو وطاس العصيان وهم بطن من بطون

بني مرين استقروا بالريف وأسسوا في القرن الخامس عشر دولة بالمغرب . وقضى أبو يعقوب ما يناهز ستة أشهر في حربهم قبل اخماد ثورتهم . (ربيع 1293) وأخيرا ثار ابنه المتمرد أبو عمرو من جديد بعد أن عفا عنه وظلّ يقاوم في جهة غمارة من سنة 1295 إلى سنة 1298 بينما كان أبوه ينازل تلمسان .

وكانت شؤون اسبانيا في المقام الأدنى من مشاغل أبي يعقوب . وفعلا يظهر أن هذا الأمير المعتز بآرائه والمتحلل من التقاليد أدرك أن النضال في جبهتين قد يكون وخيم العواقب على الدولة المرينية فانحصر سعيه في إيجاد حل مشرف لدرء الخطر الاسباني . وما أن مات أبوه حتى أرجع إلى محمّد الفقيه معظم المعاقل التي سلمها هذا الأمير إلى المرينيين وجدد الصلح المبرم مع شانجة سنة 1285 . كما أقدم على تنازلات لبني نصر بمناسبة زفافه من أميرة مرينية من غرناطة .

غير أن شانجة اضطره إلى الحرب اضطرارا عندما كفّ سنة 1291 عن احترام بنود معاهدة 1285 في ظروف غامضة . فنادى أبو يعقوب بالجهاد المقدس واجتاز المضيق بعد عناء كبير اذ كان أسطول قشتالة له بالمرصاد وخاض معركة سريعة لم يكسب منها مجدا وتحالف اثرها محمّد الفقيه مرّة أخرى مع القشتالي ضد المريني . وتعهد شانجة بالرجال ومحمّد الفقيه بالأموال . وضرب الحصار على حصن طريف فاستسلم أهله بعد أربعة أشهر (سبتمبر 1291) واحتفظ به شانجة رغم ما جاء في الاتفاق الذي أبرمه مع الفقيه الذي رجع إلى ما اعتاده من تارجح بين القوتين المتقاتلتين وتخلص من حليفه النصراني خوفا من طموحه المفرط وسعى من جديد إلى التحالف مع المرينيين . واضطر إلى دفع الثمن لأن أبا يعقوب اعياه تذبذب صاحبه وكان زاهدا في الزج بنفسه في اسبانيا . وتنازل له عن بعض الجهات واهداه احدى النسخ الاربعة من المصحف العثماني الذي احتفظ به بنو أمية في قرطبة وتحصل عليه بنو نصر وأمر أبو يعقوب بضرب الحصار على طريف لكن جيوشه منيت بالفشل فلم يثابر اذ كان منشغلا بكليته بحرب تلمسان (1293) .

وعمل عثمان الزياني في أول الأمر بوصية المرحوم والده فوجّه عنايته لغزو ممالك بني حفص . غير انه استدرج سنة 1289 إلى إيواء الأمير

الهارب أبي عامر ومستشاره . ولئن تصالح أبويعقوب مع الأول فقد طالب بتسليم الثاني . فأبي عثمان واندلعت الحرب بينهما وحاصر الجيش المريني تلمسان من ماي إلى أكتوبر 1290 من دون نتيجة تذكر . فترك أبو يعقوب سبيلها في السنوات الموالية . إذ كان منشغلا عنها بأمر اسبانيا وثورة بني وطاس ولكنه لم يهملها وزاده حقدا عليها تفاوض ملك بني عبد الواد مع شانجة ومحمد الفقيه ضده سنة 1292 ، ولم يتفرغ لمحاربتها الا سنة 1295 فكانت حربا عوانا دامت 12 سنة . وأحكم الخطة فاحتل على التوالي تاوريرت الواقعة على وادي صا (1295) ووجدة (1296) وتاونت وندرومة (1298) . وناوش مرات عديدة تلمسان ولكنه لم يهاجمها الهجمة الحاسمة الا عندما وثق من النصر . وكان ذلك يوم 6 ماي 1299 فعسكر أمام عاصمة اعدائه وعزم الا ينصرف عنها قبل ان تسقط في حوزته ، ولم يقل حماة المدينة عنه عزما ، اذ كانوا مصممين على الاستماتة . وتقابلت هاتان العزيمتان طيلة ثمانية أعوام كما سبق أن ذكرنا ، وظل أبو يعقوب طوال هذه الفترة يبسط نفوذه على كامل المغرب الأوسط حتى مدينة الجزائر بالقوة تارة وبالتفاوض اخرى . وقد بلغ من السلطان أوجه فكان يستقبل في قصره بالمنصورة السفارات من افريقية ومصر ومكة ، ودخلت طاعته زناتة المغرب بلا استثناء وعم هدوء كامل مملكته منذ أن مات أبو عامر . ثم إن قوى تلمسان أنهكت رغم صمودها البطولي العجيب وكانت على قاب قوسين أو أدنى من الاستسلام وبلغ يقين ابي يعقوب بقرب النصر حدا جعله لايعبأ كثيرا بخروج سبتة من حوزته اذ نزل بها سنة 1306 أحد بني مرين قادما من اسبانيا يعاضده من طرف خفي صاحب غرناطة وفرض نفسه ملكا عليها ، وتفاقم أمره في المنطقة الجبلية من شمالي المغرب الأقصى غير أن أبا يعقوب لم يأبه به . وبينما كانت أيام تلمسان معدودة اذا بالسلطان يخر قتيلا في 13 ماي 1307 تحت ضربات خصي له نتيجة ملابسات غامضة كان الحريم مسرحا لها .

أفول نجم بني مرين لأول مرة :

خلف أبا يعقوب أحد أحفاده يدعى أبا ثابت وكان في الثالثة والعشرين من عمره . ونافسه في الحكم ثلاثة أدعياء وسرعان ما ظهر رابع وقضى أبو ثابت على ثلاثة منهم بسرعة بعد أن تصالح مع أهل تلمسان

واستقدم جنده إلى المغرب الأقصى . وكان رابعهم عثمان بن ادريس المريني الذي كان نادى بنفسه ملكا على سبتة سنة 1306 وأخضع إلى نفوذه آصيلا (Arzila) والأعراش وكامل بلاد غمارة . ونازله أبو ثابت وأسس مدينة تطوان لتكون قاعدة ينطلق منها إلى سبتة . وبينما كان يتفاوض مع أهلها في شأن استسلامهم اذ أودى به المرض في 28 جويلية 1308 .

وخلفه في الملك أخوه أبو الربيع من دون صعوبة تذكر وهو في التاسعة عشرة من عمره وأمكنه استرجاع سبتة في 20 جويلية 1309 اذ كان بنو نصر يسعون إلى كسب ودّ بني مرين من جديد بعد أن ضيق عليهم القشتاليون اثر استحواذهم على مضيق جبل طارق ، فيسّروا الأمر له ولكنه اعتلّ ومات بدوره في 23 نوفمبر 1310 وهو بصدد قمع ثورة بتازى .

واعتلى أبوسعيد عثمان (1310 — 1331) العرش بعده وبويع من دون عناء رغم وجود منافس له — وكان هذا الأمير البالغ من العمر حوالي خمس وثلاثين سنة ابنا لأبي يوسف وُلد له في أواخر أيامه وكان وديعا تقيّا لم تَصْبُ نفسه إلى تحقيق مشاريع كبرى . بل ولع مثل أبيه باقامة المباني الرائعة . فهو الذي بنى ثلاث مدارس بفاس ، وهي مدرسة فاس الجديد (1320) ومدرسة الصهريج (1321) ومدرسة العطّارين (1323) .

لكن عهده لم يشمله الهدوء كما كان يؤمل ، إذ ثار عليه ابنه الأصغر أبو علي سنة 1315 وخلعه والحال أنه كان يؤثره بمحبته فعيّنه وليا للعهد ورضي أبوه بالأمر الواقع وقنع بولاية تازى الاّ ان أبا علي أدركه المرض فتشجع أبو سعيد وحاصر المتمرد في فاس الجديد إلى أن استسلم فأخّرَه عن ولاية العهد وعيّن مكانه ابنه الأكبر أبا الحسن ولكنّه سمّى أبا علي واليا على سجلماسة ، حيث أقام دولة منظمة بأتم معنى الكلمة لها ميزانيتها وجيشها النظامي وعسكرها الاحتياطي المجند من بين عرب المعقل واخضع واحات توات وتيكورارين وكذلك وادي السوس . ثمّ شهر السلاح مرّة أخرى في وجه أبيه سنة 1320 فاستولى على واحات درعة فمراكش سنة 1322 . وأوشكت مملكة بني مرين بذلك ان

تنقسم إلى مملكة بالشمال ومملكة بالجنوب . فأدرك أبو سعيد الخطر وتحرّك نحو ابنه وهزم جيوشه في أم الربيع غير أنه عفا عنه مرّة أخرى وتركه على رأس سجلماسة .

وقد همّ في أول عهده بالتدخل باسبانيا غير أنّه لم يحقق هذه الأمنية رغم أن الظروف كانت مؤاتية فقد مات فرديناند الرابع ملك قشتالة سنة 1312 بينما لم يزل وارثه في المهد . ولو كان أبو يوسف مكانه لاستغل ولا شك هذا الوضع . وفي سنة 1316 أعلن والي سبتة يحيى بن العزفي استقلاله وبقي على هذه الحال في الواقع مايقرب من عشرة أعوام . وأخيرا استغاثت غرناطة سنة 1319 من جديد بالمرينيين أمام خطر القشتاليين وكان أبو سعيد جنوحا إلى السلم فوضع شروطا مجحفة وانتهى الأمر عند هذا الحد . أمّا فيما يتعلق بتلمسان فاننا نسجل له حملة واحدة لم يحالفه فيها النجاح سنة 1314 .

غير أن سياسة بني مرين دخلت منعرجا جديدا في آخر عهدهم — فقد اضطر العاهل أبو بكر الحفصي تحت ضغط أبي تاشفين صاحب تلمسان إلى طلب عونهم (1329) فبعث أبو سعيد بقوى ضئيلة لصرف تلمسان عن بني حفص وفي نيته بالخصوص الاستفادة من هذا الوضع الجديد . ذلك أنه كان رغب سنة 1321 تزويج ابنه وولي عهده أبي الحسن من أميرة حفصيّة فرُدّ طلبه وجدد مسعاه سنة 1331 فكان له ما أراد ، ونزلت الأميرة فاطمة بساحل المغرب الأقصى في شهر اوت فتوجه حموها لاستقبالها وداهمه المرض في ضواحي تازى فلفظ النفس الاخير يوم 25 أوت .

أبو الحسن :

بلغ سلطان بني مرين أوجه في عهد أبي الحسن (1331 — 1351) الذي يعتبر أعظم ملك في القرن الرابع عشر بما حققه من استرجاع للامبراطورية المغربية الممتدة من الأطلس إلى فاس وبما تحلى به من هيبة وورع ، وما بلغه بلاطه من صيت ، وما شيّده من مبان في أيامه .

وكان عند اعتلائه العرش في الرابعة والثلاثين أو الخامسة والاربعين من عمره إذ تختلف المصادر حول تاريخ ولادته بنحو أحد عشر عاما . وكان مهيب الطلعة بالغ السمرة اذ ولد من أمّ حبشية فلقب بالسلطان

الأسود . وكان وافر النشاط حتى انّ الأتعاب كانت بالنسبة إليه من اللذائذ حسب قول ابن خلدون .

وذكر لنا ابن مرزوق كيف كان يقضي يومه بفاس فكان يصرف القسم الأكبر منه في تلاوة القرآن الذي يحفظ نصفه عن ظهر قلب وفي قراءة خطب الوعظ والارشاد وكتب الدين صحبة الفقهاء وكذلك لزيارة أضرحة الأولياء ، وكان الاتقياء في بلاطه يرعون حياته الدينية ، لاتنام لهم عين ، ولا تأخذهم فيه لومة لائم وكان يمارس الحكم بكل أمانة وينظر بمعيّة كاتبه ومستشاره الخاص ووزرائه المسائل والشكاوى المعروضة عليه وعند ذلك يدخل عليه مشايخ القبائل المرينية والعربية وكذلك الوفود وأعيان القبائل ولاشك انه كان يقرأ لمشايخ القبائل حسابا ويتقي شرهم فكان يسألهم عرض مطالبهم في أيام معينة وحسب نظام مضبوط.

ونحن نأسف لسكوت ابن مرزوق عن فحوى هذه المجالس الدورية وهو الذي عايش السلطان من قرب ، وأغلب الظن ان أبا الحسن كان يتخلص إلى حد ما من وطأة هذه المراسم عندما يكون في معسكره . الا أنه من اليقيني انه كان مضطرا إلى التمسك بهذا النظام طيلة احتفاظه بنفوذه . غير أن ما توحي به هذه السلطة من عظمة كان زائلا اذ فشلت سياسة الفتوحات سواء في اسبانيا او إفريقية وآل به الأمر في آخر المطاف إلى العدول عن استرجاع المغرب الأقصى من قبضة إبنه المتمرد عليه .

ان سياسة أبي يوسف وأبي يعقوب الحازمة هي التي ضمنت بدون منازع بسط السلطان المريني على المغرب الأقصى . غير أن وجود أبي علي بسجلماسة كان يهدّد بالفشل مجهودات السلطان الجديد الموّجهة ضد بني زيان أو النصارى في الجزيرة .

لذا رأى أبو الحسن من الحذر ترك أخيه يستأثر بتافيلالت اجتنابا للقطيعة لكنه أجبر على التخلي عن منازلة تلمسان بعد أن اتفق مع بني حفص ليضرب على سجلماسة حصارا دام سنة كاملة وكان لسقوط المدينة في أيدي الاعداء ولموت أبي علي تأثير سيء على مملكة تافيلالت فلم تقم لها قائمة طيلة ثلاثين سنة . وقضى أبو الحسن كذلك على إمارة

السوس المستقلة بفضل العرب الذين جازاهم بالاقطاعات واجبر ظواعن درعة على دفع الجباية . وبذلك ظهر له أن سلطانه على المغرب بلغ حدا من القوّة يخوّل له التدخل الفعلي في الخارج .

وظلت الحالة في اسبانيا بعد موت الفونسو العاشر يكتنفها الغموض وكانت المناورات والمطامح الشخصية وتغيّر الاحلاف من حال الى حال وفتور الحماس الديني تحول جميعها دون قيام أي طرف من الاطراف بهجوم حاسم غير أن ملك قشتالة تمكّن من الإستيلاء غرة على جبل طارق. ولئن اضطر الى رفع الحصار عن الجزيرة الخضراء فقد سلم إليه بنو نصر مقابل ذلك مدينتين وكاد صغر سنّ الفونسو الحادي عشر (1312 ـ 1350) ينال من مكاسب النصارى. ولكن الملك استأنف حرب الاسترداد حالما تخلص من أوصيائه (1327) ولم ينج أمير غرناطة الا بفضل بنى مرين الذين استنجد بهم مرة أخرى ثم سرعان ما أطردهم عندما أصبح في مأمن من أعدائه. فلما استغاث ثانية بهم كان أبو الحسن أدهى من أن تنطلى عليه الحيلة وسرعان ما استرجع سلطان فاس الجزيرة الخضراء (1333) ثم شرع بعد تأهب دام ست سنوات فى افتكاك إسبانيا من النصارى بالتعاون مع بني نصر. فوحد الخطر بين قشتالة والارغون ولم يقووا رغم ذلك على مغالبة الاسطول المريني المعزز بسفن بني حفص فسجل انتصارا بحريا باهرا (5 افريل 1340) وسيطر لحين على مضيق جبل طارق . ثمّ ضرب أبو الحسن الحصار على طريف تعاضده جيوش غرناطة . وتمكنت المدينة بفضل مناعة اسوارها ونجدة شواني جنوه من الصمود حتي خفّ إلى نصرتها النصارى وقد جيشوا جيشا بلغ ولاشك خمسة وثلاثين ألف رجل وحصل الصدام شمالي طريف على ضفاف ريو دي سلادو (30 أكتوبر 1340) وتمكّن المحاصرون من خرجة سجلوا بها نصرا يعتبر من أهم ما حققه النصارى منذ يوم العقاب. وقفل المرينيون راجعين إلى المغرب الأقصى في عناء كبير . ولم تمض أربعة أعوام حتى سقطت الجزيرة الخضراء في أيدي ملك قشتالة بعد حصار دام أكثر من عشرين شهرا شاركت فيه نخبة من فرسان انقلترا وفرنسا وايطاليا (26 مارس 1344) .

ويؤكّد ابن خلدون ان ابا الحسن كان « موقنا بظهور أمر الله وإنجاز وعده برجع الكرة وعلو الدين »

غير أن الله يريد من الانسان أن يسعى على غرار هرقل الخرافي واكتفى السلطان بالاماني السلبية، بينما انتهى أمر الفتح الاسلامي بلا رجعة. وفي الوقت الذي كان أبو الحسن منطويا على نفسه في تونس بعد كارثة القيروان كان ألفونسو الحادي عشر ضاربا الحصار على جبل طارق (أوت 1349) وكان على وشك اقتحامه لو لم يفتك به الوباء وهو في ريعان الشباب (مارس 1350). لقد أبعد نهائيا خطر بني مرين عن أرض اسبانيا ولم يبق لورثته إلا أن يحاربوا مملكة غرناطة بمفردها.

وكان أبو الحسن أسعد حظا في مواجهة تلمسان فقد استجاب لرغبة والد زوجته أبي بكر الحفصي وطالب أبا تاشفين أن يكف عن مناوشة بني حفص. فلج أبو تاشفين واستكبر وكانت القطيعة (1334) وتحركت جيوش بني مرين بقيادة السلطان في أول سنة 1335 وسرعان ما طوقت تلمسان ثم انطلقت إلى غزو المغرب الأوسط بينما كانت المنصورة في عز نهضتها (ترجع آثار المباني العظيمة الماثلة حتى اليوم إلى ذلك التاريخ) وتلمسان رازحة تحت حصار بالغ القسوة. ولقد استماتت في الدفاع وصمد أبو تاشفين حتى النهاية بل ذهب به الأمر إلى الذود بسلاحه عن قصره أثناء الهجمة الحاسمة (غرة ماي 1337) فخرج وظفر به القوم وأجهز عليه في الحين وهكذا نجح بنو مرين لأول مرة في أخذ البلد عنوة بعد أن ذاقوا من أجل ذلك الأمرين. وأبلغ أبو الحسن الخبر إلى كبار ملوك المسلمين في عصره فجاءته التهاني من مصر والسودان وطبعا من غرناطة وتونس.

غير أن طموح أبي الحسن لم يقف عند هذا الحد: فقد ظلت ذكرى الأمبراطورية الموحدية عالقة بذهنه مثل اسلافه ولم يزل يتوق إلى بسط هيمنته على بلاد المغرب بأكملها. خاصة وأن الدولة الحفصية تبدو وكأنها تدور في فلك فاس. ثم إن أبا الحسن طلب من والد زوجته سنة 1341 و 1342 ان يسلمه عددا من اللاجئين المرينيين المطرودين من اسبانيا فكان له ذلك. وفي سنة 1346 الح على أبي بكر ان يزوجه من ابنته الثانية اذ هلكت الأولى في حوادث طريف المؤسفة (1340)، وكان في كل مرة يعتمد في تنفيذ أغراضه على ابن تافركين حاجب بني حفص والمتزعم للنزعة الموالية للمرينيين في البلاد التونسية. غير أن أبا الحسن لم يقدم على أي عمل في حياة أبي بكر. فلما مات هذا الملك واستشرى

التنافس بعده وجد من غير شك الفرصة سانحة بعد طول انتظار . وفي ربيع سنة 1347 قصد تونس على رأس جيوشه ودخلها في 18 سبتمبر من نفس السنة واستقرّ بها كمَا لو كانت بلاداً مغلوبة على أمرها .

ومعلوم أنه أغضب العرب عندما نال من امتيازاتهم وانهم هزموه قرب القيروان في 10 افريل 1348 وحاصروه في مدينة سيدي عقبة . غير أنه تمكّن بمداخلة بعض بطون العرب من الخلاص والتحق بتونس وارجع الأمور إلى نصابها . ولكن المملكة المرينية لم تخرج سالمة من هذه الأزمة. فقد استقل بالحكم أبو عنان ابن السلطان ونائبه في المملكة اثناء غياب والده وتخلّى عن تلمسان . فعاد اليها بنو عبد الواد وركزوا فيها نفوذ بني زيان من جديد ، وتمرّد عدد من امراء بني حفص على الحكم المريني في بجاية وقسنطينة وعنّابة . وحاول أبو الحسن طيلة سنة أن يمسك من جديد بزمام الأمر ثمّ قرر في الآخر أن يعود إلى المغرب الأقصى بعد أن فشلت مساعيه في تونس فشلا ذريعا (آخر ديسمبر 1349) .

وسافر عن طريق البحر اذ كان السفر برا متعذرا تماما . وقامت عاصفة فتشتّت أسطوله وقذفته الأمواج في جزيرة صغيرة قريبة من بجاية حيث كاد أن يقع في قبضة القبائلية . وانتهى به المطاف إلى مدينة الجزائر في حالة يرثى لها وهناك التفتّ حوله عرب بني سويد . وقصد تلمسان معتداً بقوتهم غير انه انهزم في سهل شلف . — واستجمع قواه وانقض على تافيلالت صحبة انصاره وحطّ بسجلماسة ثمّ اضطر إلى التخلي عنها عندما اقتربت منه جيوش أبي عنان وتخلى عنه عرب بني سويد فرمى بنفسه حينئذ على مراكش حيث مكنه بعضهم من الاستقرار بها وإقامة شبه دولة . لكن ابا عنان حمل السلاح من جديد والتقى الجيشان على ضفاف أمّ الربيع في ماي 1350 . فانهزم أبو الحسن وكاد أن يقتل فلاذ إذ ذاك بجبال الأطلس الأعلى حيث آوته قبيلة هنتاتة الموحدّية. ولاحقه أبو عنان وشدّد عليه الحصار طيلة الشتاء واضطر أباه إلى التفاهم وقد أخذ الكلل من أبي الحسن مأخذه وعمّه اليأس وأعوزه المال . فرضي بالتنازل لفائدة الغاصب مقابل شيء من « المال والكسى » . وبينما هو كذلك اذ داهمه المرض « فافتصد لإخراج الدم » فتعفن الجرح فلقي حتفه وهو على أتعس حال في جبال هنتاتة يوم 24 ماي 1351 . ويروى أنّ ابا عنان ذرف الدمع

على جثمان أبيه وأذن بدفنه في « مقبرة سلفه » بشالة حيث لايزال قبره ماثلا إلى اليوم .

ولم يكن هذا السلطان العظيم المنكود الحظ فاتحا محروما من ثمرة مطامحه فحسب بل إنّه إلى ذلك ترك على غرار أبيه وأجداده معالم معمارية بالغة الاهمية : منها مسجد الشرّابليّين و أبي الحسن بفاس ومسجد المنصورة وهو أفخم البناءات المرينية وسيدي بومدين بتلمسان ومدرستا الواد والمصباحيّة بفاس ومدارس تازى وسلا ومراكش ومكناس وقد أتمهما أبو عنان ومدرسة سيدي بومدين وأخيراً أعاد بناء مارستان فاس .

أبو عنان :

ولد ابنه وخلفه أبو عنان فارس (1348 — 1358) في جانفي 1329 — فقد كان عند اعتلائه العرش في سن الشباب فيه ما في الشباب من الجموح والطموح وشدّة المراس . وكان طويل القامة جميل الطلعة كثير الإقدام مثقّفا ، توفرت فيه مناقب عظماء الملوك ، غير انه كان مستبدا برأيه يأنف الاستشارة ، وقد بلغ طموحه حدا جعله يتجاسر على التسمي بأمير المؤمنين .

ويظهر أن الظن ذهب به أول الأمر — عندما استأثر بالسلطان — إلى أن أباه اهلكه الطاعون في تونس . ثم ان أحد ابناء أخيه انفرد بالحكم في فاس الجديد قبل أن يُقدم هو نفسه على مثل هذا العمل والخلاصة انّه يمكن تبرير موقفه إلى حدّ ما الا أنه عندما بلغه أنّ أباه على قيد الحياة لم يغيّر موقفه ، ولم يجد عناء في طرد منافسه من فاس الجديد ولا في وضع المغرب الأقصى تحت رايته . والجدير بالملاحظة أن تلمسان والمغرب الأوسط كانا في نفس الوقت يجاهدان من أجل التحرر من الهيمنة المرينية .

وانحصرت عناية أبي عنان طيلة السنوات الأولى من ملكه في القضاء على أبي الحسن . وأخذ ابتداء من سنة 1352 يسعى إلى انجاز ما كان أنجزه بوه من قبل . وتصدى بطبيعة الحال أول ما تصدى إلى تلمسان ، وما هي الاّ معركة ببسيط أنكاد حتى استسلمت له المدينة بعد ان حقق النصر بفضل خصاله الشخصية (14 جوان 1352) ومن ثمّ واصل انطلاقته من دون

توقف فاستولى على كامل المغرب الأوسط حتى بلغ بجاية (خريف 1352) ومنذ ذلك الحين بدأت المتاعب فتمرّدت بجاية سنة 1353 واضطر إلى غزوها من جديد وظهر دعيّان سنة 1354 أوعز الحفصيون إلى أولهما بذلك في جهة قسنطينة وأرست بالثاني مراكب قشتالة على سواحل السوس فقضى أبو عنان على كليهما . وفي سنة 1335 أعلن والي جبل طارق عن استقلاله فاضطر الأسطول المريني إلى محاصرة البلد لحمله على الاستسلام .

ولمّا استتب الأمر لأبي عنان شرع في تحقيق مشروعه الأكبر ذاك الذي فكر فيه أبوه كما فكر فيه الموحدون من قبله أي وضع كامل المغرب تحت سلطة بني مرين . وبدأت الأمور على أحسن ما يرام ، فقد فُتحت قسنطينة في أول صائفة 1357 كما فُتحت تونس في سبتمبر من نفس السنة ونحن نعلم أن عرب إفريقية سرعان ما تمردوا كما تمردوا من قبل على أبي الحسن تحدوهم نفس الأسباب . وأنهك أبوعنان قواه في مطاردتهم حتى جهة بسكرة حيث أخذ الكلل من الجيوش مأخذه وبدأت تتشتت فما كان منه الا أن تراجع القهقرى وعاد إلى فاس في نوفمبر 1357 . ولم يعتبر هذه الخيبة قاضية فوجه في السنة الموالية جيشا بقيادة أحد وزرائه لاخضاع الأوراس ، فكان له ذلك ، ولم يلبث ان مرض مرضا شديدا فانقسم وزراؤه إلى كتائين تؤيد كل واحدة منهما احد ابناء السلطان المحتضر .

وتمكن الفودودي وهو من أشدّ الوزراء جسارة من فرض مرشحه وهو طفل لم يتجاوز الخامسة من عمره — ثمّ خنق أبا عنان الذي طال احتضاره (5 ديسمبر 1358) .

وقد يبدو عهد أبي عنان إعادة أمينة ولكنها مختصرة لعهد أبي الحسن ، وفعلا فان اطوارهما متماثلة الاّ أن النتائج متغايرة ، ذلك أن أبا عنان لم تهزمه عرب إفريقية بل خذلته جيوشه التي أبت مواصلة القتال ، فقد حمّل ملوك بني مرين رعاياهم فوق مايطيقون وبلغ جهدهم أقصاه . ومن جهة أخرى تفاقم انحلال الدولة المرينية. وأصبح حالها أكثر تداعيا ممّا كان عليه قبل عشر سنوات وصار الوزراء هم الذين يولون الملوك ويعزلونهم . وستتواصل الأزمة التي ظهرت بموت أبي عنان إلى نهاية

دولة بني مرين بالذّات . وسيطول أمدها وتتولد عنها نتائج بالغة الخطورة بحيث سوف يعجز بنو وطاس عند توليهم مقاليد الحكم عن تدارك الأمر .

انحطاط الدولة المرينية :

ما أن هلك أبوعنان حتى عمّت الفوضى في مملكة بني مرين كما يستشري الداء الفتاك في الجسم العليل فتنازع على الحكم الوزراء والادعياء المرينيون والعرب وكتائب النصارى وتهالكوا في ذلك . وكان الحكم لايدوم أكثر من بضعة أيام أو أشهر وتعددت المؤامرات والاغتيالات . وأصبحت هذه الدولة التي تألق نجمها فيما مضى وأوحت بقوة السلطان شبيهة بآلة انخرم سيرها .

وخلا الجو في أول الأمر للوزير الفودودي على أنه كان يخشى منافسة أمير هنتاتة المهيمن على جهة مرّاكش ولم تمض ثمانية عشر شهرا على موت أبي عنان حتى رشح وزير آخر يدعى ابن ماساي دعيّا وسعى إلى مسك زمام الحكم في ظله : (ماي 1359) وفي نفس الوقت ظهر دعي آخر يدعى أبا سليم وهو ابن ابي الحسن ... يعاضده بطرس القاسي (Pierre Le Cruel) ملك قشتالة ، ودفع الحدس الوزيرين إلى التخلي عن مرشحيهما والتقرب من أبي سليم الذي بويع في جويلية 1359 . ونفي الفودودي إلى مراكش فأعلن العصيان والقي عليه القبض ومثل به (ربيع 1360) . وبينما كان ابن ماساي وأبو سليم يتوهمان انهما يمسكان بزمام الحكم اذا بوزير جديد هو عمر بن عبد الله يفسد عليهما الخطة ويتحالف مع قائد الكتيبة النصرانية الاسباني لمبايعة ابن من أبناء أبي الحسن يدعى تاشفين كان يغلب عليه البَلَه في 19 سبتمبر 1361 ، ولم تمض أشهر قليلة حتى اعتبر الوزير صاحب السلطة الحقيقية أن الملك دون المستوى فاستقدم آخر سنة 1361 أحد أحفاد أبي الحسن من بلاط قشتالة حيث كان لاجئا ويدعى أبا زيان ، وفي هذه الاثناء كان شمل بني مرين يتمزق ، فكان بنو عبد الواد ينتهزون كل الفرص للانتصاب بتلمسان فيُطردون منها في كل مرّة ، وكان جنوب المغرب خاضعا في واقع الأمر إلى الأمير الهنتاتي ، وأخير استقر أمير مريني بسجلماسة باعانة عرب المعقل وظهر في مظهر الملك ،

وأراد أبو زيان بعد مرور سنوات التخلص من سيطرة وزيره واعتزم قتله ، فعلم بذلك عمر بن عبد الله بواسطة الحريم حيث كانت له عيون ، وأوعز بخنق سيده وأحل محله ابنه أبا الحسن عبد العزيز الذي كان الى حد ذلك الوقت مسجونا في قصر فاس (خريف 1366).

وكان السجين الذي أصبح سلطانا ، شابا ضعيف البنية ولكنه يختزن طاقة عظيمة في جسمه المنهوك تشد أزره أمه وهي امرأة سديدة الرأي حازمة ولما فطن الوزير عمر أن سلطانه لم يحقق ما وضعه فيه من آمال ، فكر في القضاء عليه ولكن أمره انكشف فأمر عبد العزيز بأن تتناوله السيوف هبرا أمامه ثم تصدى إلى تنظيم أمور دولته (جويلية 1367) ولم يكن الذي جرى ليروق للهنتاتي صاحب الجنوب فشق عصا الطاعة . فخرج عبد العزيز إلى منازلته وتعقبه في الجبال والشتاء على أشده ثم تقبض عليه (ربيع سنة 1370) وتفرغ بعد ذلك إلى تلمسان حيث استقر مرة أخرى أبو حمو أمير بني عبد الواد ونازلها فسقطت في يده من دون مقاومة (7 أوت 1370) ثم واصل عبد العزيز حركته في المغرب الاوسط وبسط نفوذه عليه بعد أن تغلب على مقاومة العرب : وهكذا التأمت سنة 1372 مملكة بني مرين على النسق الذي كانت عليه في أيام عزها عهد أبي يعقوب ، ولكن لم يدم ذلك طويلا اذ تداعت صحة السلطان رغم طاقته الجبارة : وتوفي في 23 أكتوبر 1372 وترك الحكم لطفل صغير يدعى السعيد .

واحتكر الوزراء الحكم مرة أخرى : فكان الأمر أولا لأبي بكر بن غازي الذي حكم باسم الطفل السعيد ، ثم لم يصمد أمام ضربات منافس له يدعى محمد بن عثمان وقد ربط مصيره بالدعي ابي العباس الذي ناصره ملك غرناطة وانتصر سنة 1374 ولم تعد لأبي العباس بعد مرور عشر سنوات حظوة لدى حاميه من بني نصر : واضطر إلى الهجرة بينما قتل وزيره ، فظهر عند ذلك الوزير ابن ماساي مرة ثانية والسلطان آنذاك ولد لأبي عنان يدعى موسى وهو مصاب بعاهة وعاجز عن الحكم (1384 — 1386) ثم خلفه الواثق احد احفاد أبي الحسن (1386 — 1387) ، وان كان ابن ماساي يحاول زحزحة بني محمد الخامس ملك غرناطة على شمال المغرب الأقصى فان هذا الاخير ارسل صاحب غرناطة المذكور إلى المغرب الأقصى أبا العباس فاستولى على الحكم وأمر بقتل ابن ماساي وعذبه عذابا

اليما واستهوت شؤون الدولة المعقل الذين كانوا سببا في هذه العودة ، فمنهم من أصبحوا اسيادا على مملكة تافيلالت ومنهم من فتحوا لأنفسهم طريق السهول الساحلية . ونعم المغرب الأقصى في عهد أبي العباس بست سنوات من الهدوء النسبي بل أمكن للسلطان أن يرسل ابنه لفتح تلمسان ومدينة الجزائر ومليانة وتدلس ، غير ان الاضطرابات التي عقبت موته المفاجئ بتازى (نوفمبر 1393) بلغت حدا تمكن معه النصارى من جعل أرض المغرب الأقصى ساحة لحروبهم .

حكومة السلاطين :

اعتمد بنو مرين في تصريفهم لشؤون الدولة على العمل الدائب دون أن يبدعوا ابداعا فاقتصروا ، مهما كان طموحهم ، على التسمي بامير المسلمين من غير أن يتجرؤوا قبل ملك أبي عنان على التسمي بالخليفة كما كان الموحدون يتلقبون به دون أن ينازعهم فيه أحد ، على أنهم عرفوا كيف يرفعون سمعتهم لدى الأجانب والحضر أصحاب الحل والعقد في المغرب الأقصى وذلك بأبهة بلاطهم وروعة مواكبهم وعظمة مبانيهم وجلال نقوشهم ومديح مؤرخيهم وشعرائهم . ونجحوا في فرض كل هذا لاعلى معاصريهم فحسب بل على من بعدهم حتى بقوا إلى اليوم في أذهان الشعب ، آخر من مثل عظمة الاسلام . « وكثيرا ما يردد الناس في المغرب الأقصى قائلين : انتهى كل شيء بزوال بني مرين وبني وطاس » .

وكان بنو مرين يختارون بصفة عامة وزراءهم وحجابهم وكتابهم وقضاتهم من عائلات معينة ، من ذلك ان أغلب الوزراء لم ينحدروا من سلالة الملك رأسا اذ كان يخشى كثيرًا طموحهم ولكن من جماعات ذات قرابة بعيدة أو موالية . ومما لاشك فيه انه لكل كبار الدولة من قوّاد واداريين مشمولات مضبوطة بل إنهم كانوا من أصحاب السيف قبل أن يكونوا من رجال القلم ولئن اضطلعوا بأعلى الوظائف وأخطرها فانهم لم يتحلوا دائما بالثقة والوفاء الخالصين .

وكان السلاطين يعيّنون حجابهم كما عنّ لهم فسواء كانوا عبيدا أو معتقين أو يهودا أو خصيانا فهم أهل ثقتهم والواقفون دون رعاياهم والمنظمون لمجالسهم والساهرون على تنفيذ العقوبات

والمحتفظون بالمعتقلين في سجونهم ، بل لربّما كانوا يتولون إلى ذلك الحسبة وكانوا يعهدون بإدارة المملكة إلى كتاب ينتسبون غالبا إلى أوساط الأدباء الأندلسيين ولكنهم ينحدرون في بعض الأحيان من عائلات مغربيّة كانت في خدمة الموحدين سابقا، وكثيراً ما ينتمون إلى بلاطات ملوك المسلمين حيث حصلت لهم خبرة في تصريف شؤون الدولة، فعندما دخل ابن خلدون في خدمة بني مرين كان قد تكوّن بعدُ ضمن اطار الوزارة الحفصية ، ويوجد حسب المسند صنفان من كتاب البلاط ، صنف مكلف بالرسائل الصادرة والواردة وصنف مسؤول عن المسائل الحربية والعقارات والمصالح المالية وخاصة توزيع الجباية واستخلاصها .

وكان ينتدب القضاة في أغلب الاحيان من بين الاطارات المحلية ممّا يدل على وجود نخبة مغربيّة حذقت المسائل الفقهية .

وكان الجند المريني من زناتة ومن القبائل العربيّة . واشتهر العساكر بشجاعتهم وكذلك بصلفهم، وكان المجاهدون في سبيل الله يمثلون النخبة من الجيش . وهم الذين يتحدّون اقطاب النصارى قبل المعركة . وكانت زناتة والعرب فرسانا غالبا والاندلسيون نشابة والمرتزقة الاسيويون رماة . ويضاف إلى ذلك كتيبة نصرانيّة قاطنة بحي فاس الجديد يدعى ربض النصارى . وكان السلطان محفوفا دائما بحرسه الخاص ويسمون أهل الدائرة تحوط خيامهم بخيمته وعندما يتحرك الجيش لخوض غمار الحرب يسلّم السلطان القائد الأعلى راية صغيرة من الكتان الأبيض وهي صورة مصغرّة من العلم الملوكي ترمز إلى سلطته . وتحمل مقدمة الجيش هذا العلم ويرفع في أعلى الحصون المفتوحة .

وكان الجيش يفضل الغزوات على المعارك المنظمة وعند المنازلة تحتل كل كتيبة مكانا معيّنا وبعد التحدّيات والمبارزة يسلط الرماة والنشابة وابلا من النبال على الاعداء ثمّ ينقض الفرسان عليهم ، وكان المنتصرون في مقاومتهم للكفار لايقيلون عثارهم ويقتسمون الغنائم بالانصاف ويأتون على كل ما يتعذر عليهم حمله .

وما كان يمكن للدوّلة المرينية أن تبقى دون الاعتماد على الأسر العربية فانتخبت في أول الأمر المحزن من الخُلْط الذين كان لهم دور ثانوي

قبل ذلك لكنهم اضمروا عداء شديدا للموحدين الذين عاملوهم معاملة قاسيّة بعد أن نفوهم إلى المغرب الأقصى . وقد توطدت الوحدة ابتداء من سنة 1260 بفضل مصاهرة بينهما . ودامت حظوة الخلط أكثر من قرن من دون أن تكون لهم نفس الامتيازات التي منحها الحفصيون وبنو عبد الواد للظواعن الذين فيخدمتهم . ولربما فقدوا منزلتهم بسبب وفائهم لسلطان مراكش في الأزمة التي جدّت بينه وبين عبد العزيز سلطان فاس . ومنذ سنة 1310 أصبح بنو سويد ولمدة تقارب ثلاثين سنة أشدّ القبائل موالاة لبني مرين ضد منافسهم في المغرب الأوسط وأغدق السلطان عليهم من النعم الشيء الكثير خاصّة وأن ابتعادهم عنه حدّ من خطرهم .

الفن المريني :

لقد عبّر الفن المعماري المريني عن نشاط ملوك المغرب الأقصى السّياسي منه والعسكري والديني فقد جمّلوا عاصمتهم فاس الجديد بوصفهم رؤساء دولة وشيدوا اسوار المنصورة باعتبارهم فاتحين ، واقاموا المدارس بصفتم مسلمين أتقياء من باب التقوىكما اكثروا من المشاريع حول قبر سيدي بومدين بالعبّاد وحموا تربتهم بشالة في ظل رباط بناه الموحدون تجاه سلا .

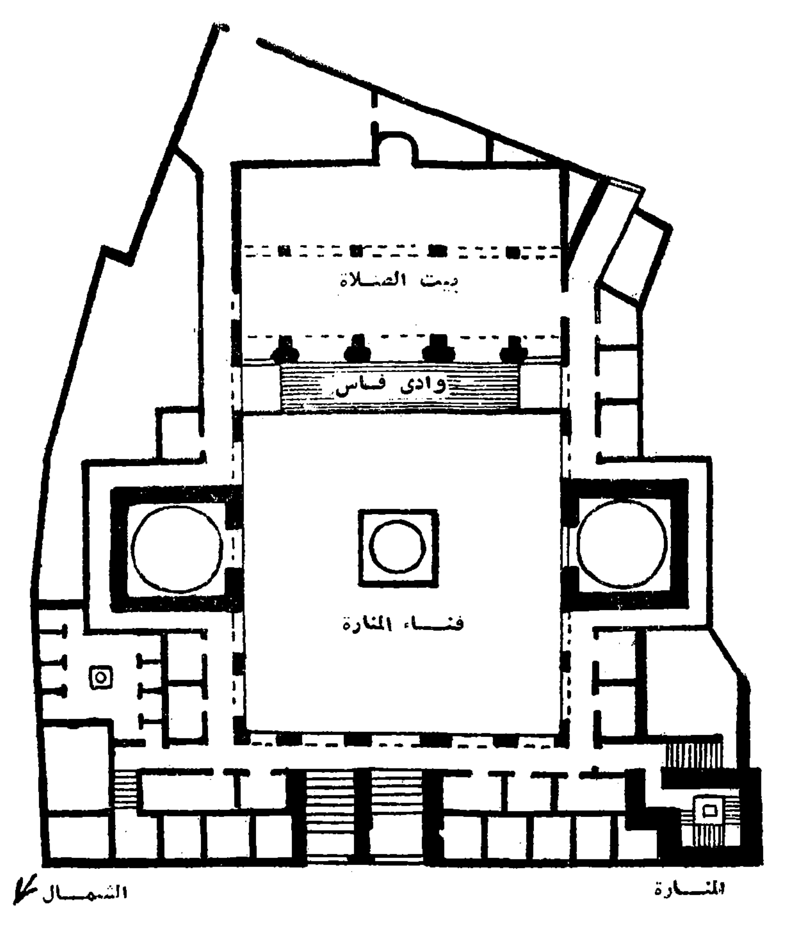
ولم يسمح انحطاط بني عبد المؤمن ولاتأسيس الدولة المرينية بوجود نشاط يذكر في ميدان البناء والتشييد طيلة قرن . ووجب انتظار آخر القرن الثالث عشر ليتبنى أبو يعقوب مسجدي تازى ووجدة المطبوعين بطابع الموحدين . ولم يتمكن أبو الحسن وهو الذي عدد له المسند ما بناه من مساجد بالمغرب الأقصى من اكمال المسجد الذي بدأه أبو يعقوب بالمنصورة والذي استوحى هندسته من مسجد حسان بالرباط باستثناء الصحن المربع الشكل الذي يرجع توسيعه إلى المرينيين ولاشك . وكانت الصومعة الضخمة التي بلغ طولها أربعين مترا والتي يعلوها جامور تلفت الانظار بهندستها ومتانة بنائها خلافا لغيرها من المباني . وكان أبو الحسن هو الذي أقام ايضا قرب قبر سيدي بومدين مسجد العباد الذي يدخله الناس من كُنّة (Porche) وهو مزيّن بفسيفساء من خزف (1339) . أما المصلّى ذو الخمس بلاطات والثلاثة صفوف والجناح الواحد فإن جدرانه وسقوفه ذات التربيعات مزخرفة بطلاء من جصّ منقوش ومحرابه المكّون من فجوة

ذات زوايا منظمة والمحمول قوسها على أسطوانتين من جزع بتاجيهما الأنيقين فإنه مسبوق بفُرْجة مغطاة بقبة مقرْنصَة . وقد حفّ بالصحن رواق ذو دعائم موشوريّة الشكل أمّا الصومعة فهي مزينة بالآجر المشبك والخزف .

وبعد ذلك بأربع عشرة سنة أهدى أبو عنان إلى زاهد آخر يدعى سيدي الحلوي كان تولى القضاء باشبيلية ثمّ احترف بيع الحلوى في تلمسان مسجدا مماثلا وان كان أصغر من مسجد سيدي بومدين ويحتوي المصلى على ثمانية اعمدة من الجزع وتوجد على الواجهات الاربع لصومعته اشكال من الفخار المموّه بالمينا . وعوضا عن المساجد المغربية يمكننا التعرف إلى المباني المقامة في تربة شالة على أبواب الرباط وقدوسدَ في هذه الأرض التي اضفى عليها الرباط قداسته ؛ السلاطين واقرباؤهم من أبي يوسف (1286) إلى أبي الحسن (1339) وكان أبو الحسن آخر بطل مريني من أبطال الاسلام هو الذي أعطى للرباط مظهر العظمة فاحاطه بسور ، وزخرف المقام وبنى مسجدا آخر ، أمّا السور المخمس وطوله 300م وعرضه 80 م فإنه مبني من الملاط الغليظ المغطى بطلاء أبيض وعلى طوله شيد عشرون برجا . أمّا بابه الرئيسي المحفوف من جانبيه بتحصينين شكلهما نصف مثمن في زاويتهما نتوءان فقد روعيت روعة الزخرف في الحجارة المنحوتة من المرمر المتعدد الألوان قبل مقتضيات الدفاع . وكان المسجد يحتوي على مصلّى أبي يوسف وهو اليوم في حالة خراب يحوط بمحرابه دهليز نصف دائري تعلوه صومعة طولها 14م 35 فوقها جامور وتزينها صور مأطّرة من الخزف المتعدد الألوان كما يحتوي على مصلىّ أبي الحسن . وفي الحديقة المجاورة أقام السلطان ضريحه الفخم المبني بحجر المقاطع المحكم القطع والمتصل بعضه ببعض بواسطة قطع من الرصاص جوانبها مزخرفة أحسن زخرف على الحجر المزدان بالرخام .

وقد انجر عن انتصار المرينيين على الموحّدين وهو في الواقع تفوّق السنة على البدعة الشيعية الاكثار من المدارس حيث كان الطلبة يقيمون على نفقة السلطان ويدرسون الفقه المالكي . وكان ابن مرزوق يثني على أبي الحسن لتفانيه في الذود عن مذاهب السنة . وان مدرسة الصفارين التي أذن ببنائها أبو يوسف هي الوحيدة التي ترجع إلى آخر القرن الثالث عشر .

ويحتوي صحنها في الوسط على بركة مستطيلة الشكل اصطفّت على جوانبها غرف الطلبة أما المصلّى الصغير المربّع الشكل ففيه محراب قد يكون اتجاهه أحسن من غيره من مساجد فاس ، وبنيت المدارس الأخرى في النصف الأول من القرن الرابع عشر ، ويرجع عهد مدرسة فاس الجديد إلى أبي سعيد عثمان ومدرسة الصهريج وهي بلا صومعة يعزى اسمها الشعبي إلى وجود بركة كبرى مستطيلة في صحنها ، أشكالها بسيطة ولكنها متآلفة ، واحتضنت مدرسة السبعيين الصغيرة وهي فرع من الأولى بتعليم القراءات السبع ، وأروع مدرسة هي مدرسة العطارين ولعلّها أقرب إلى الكمال من حيث التوفيق في توزيع المساحات المزخرفة بالصّحن وزينة المصلّى ، وتحتوي المصباحية التي بناها أبو الحسن و سمّيت باسم أول من درّس بها على 117 غرفة ، وتحتفظ بظلة جميلة من الخشب المنقوش كما صُنع سقف دهليزها أحسن صنعة وامتاز مدخل المصلي بأناقة عزّ نظيرها . وتصدّر واجهة مدرسة سلا ، وهي من نفس الفترة رتاج نحته مُدرّج وتحفّ به نقوش، وكانت مدرسة العبّاد تعبيرا عما كان يكنّه أبو الحسن من تعظيم نحو سيدي بومدين (1347) وآخر مدارس وأعظمها مدرسة البوعنانية ويرجع فضل بنائها إلى أبي عنان (1350 — 1357) . ويفضي بابها بمصراعيه الخشبيين المصفحين بالبرنز المتقن الصّنْع إلى مدخل ذي درجات حافاتها من الجزع والخزف و بجوانبه دكّات من الخزف المتعدد الألوان . أمّا صحنها الفسيح المغطى بالرخام الأبيض أو الوردي وبالجزع : فقد كسيت جوانبه بالفسيفساء ، وفُتحت نوافذ غرفه وسط زخرف من الجَص . قال ب. ريكار في هذا الصدد : « وفي أعلى ذلك تحتضن الدعامات مداميك العقود الكبيرة المستعارة الخشبية التي تحمل الافريز الأعلى المزخرف بالآيات القرآنية والمحميّ بظلة لم يأت مثلها في الروعة » وتضيء كوى بلورية المصلى المكوّن من بلاطتين عرضانيتين بأطرافهما الهندسية المتداخلة على أكمل وجه . والى جانب ذلك انتصبت ساعة لها 13 ناقوسا من البرنز تستعمل ولاشك للتنبيه (1357) كما وجدت ميضاة مسقوفة على أروع صورة .



شكل 22 : ـ رسم للمدرسة العنانية بفاس (الطابق السفلي)

وأكثر بنو مرين كذلك من المباني العسكرية ، فجهّز أبو يوسف رباط بورقراق بالمسالح وبنى الاسوار وأقام الأبواب بفاس الجديد . وشيّد أبو الحسن سور شالة كما سبق أن ذكرنا غير أنه كان دون سور المنصورة أهمية دفاعية .

ان الفن الاسباني المغربي المريني لايستمد قيمته من تقنية المعماريين ذلك أن مادة البناء الاولية المستعملة رديئة ولكنها مستورة بكثرة الزخرف زد على ذلك أن الخطوط الكبرى البسيطة يتبعها افراط كبير في الاعتناء بالجزئيات غير أن المظهر العام يبقى واضحا كما تبقى النسب متوازنة

والزخرف متناسبا تمام التناسب مع المسافات التي يغطيها وعلاوة على كل ذلك فان تأثير الالوان المختلفة بلغ من الاحكام والذوق الكمال بعينه .

وعندما بلغ الفن المريني أوج نضجه حمل في طياته عوامل انحطاطه لمبالغته في استعمال الأشكال وافراطه في الجزئيات . ورغم ذلك فقد كان تأثيره وجلاله لامثيل لهما لا في بلاد البربر بأكملها فقط بل حتى في المشرق . ولكنه استنفد منذ اواخر القرن الرابع عشر طاقاته فحالت الاضطرابات التي جدّت في القرن الموالي دون إبداع المعالم الفخمة

خاتمة :

استمرت الدولة المرينية بصفة رسميّة حتى سنة 1465 ، وفي الواقع فانه يمكن اعتبارها منتهية سنة 1420 عندما اغتال أبا سعيد عثمان الثالث حاجبه ؟ وأصبح الحكم يمارسه في الواقع أحد افراد عائلة بني وطاس رغم ان الخليفة الشرعي كان ابن القتيل عبد الحق وهو طفل لم يتجاوز سنه عاما . فاذا أردنا أن نقوم بكشف عن آثار بني مرين وجب حينئذ أن نقف حسب رأينا عند سنة 1420 .

وما أن أطاح بنو مرين بسلطان الموحدين بالقوة حتى وضعوا نصب أعينهم هدفا واحدا هو بناء ما هدموا وبعث امبراطورية موحدّية تحمل اسما مرينيا ، غير أن الوسائل والظروف لم تكن واحدة . فلم تكن لهم القوى التي توفرت لسابقيهم : لقد كانوا فرسانا ظواعن فلم يكوّنوا منهم جيشا من المشاة أبدا بل كان هؤلاء اندلسيين او قشتاليين وحتى مشارقة بينما تكوّن الجيش الموحدي أولا وبالذات من الجبليين المغاربة أجداد القومية اليوم – لذا فان أداتهم العسكرية مهما بهرت الناس ، ظلت منقوصة ولم يكن لها كذلك وزن كبير ، فقد لاحظ هـ . تراس أن الأرقام القليلة التي لدينا ، وكذلك مانعرفه عن سياسة بني مرين العسكرية يدّل جميعها على أن عدد جندهم كان ضعيفا نسبيا . لذلك نجدهم دائما يستنجدون بالقبائل البربرية في المغرب الأقصى التي لم تبادر دائما بحمل السلاح لنصرتهم كما يستنجدون بالقبائل العربيّة أو على الأقل بالبعض منها وهي شبيهة بما سمّي فيما بعد بقبائل المخزن ، ومعنى هذا أن جيش بني مرين لم تكن نسبة المجندين فيه من الشق المنتصر تعادل ما توفّر لجيش الموحدين

ففتر الحماس في صفوفه وكثر عدد اللامبالين بل وجدت كتائب معادية سرّا .

فكان هذا الجيش أداة قاصرة عن الاضطلاع بالرسالة التي حمّله اياها أكثر ملوك بني مرين اقداما .

ومن جهة أخرى فان اعداءهم كانوا أشدّ بأسا من أعداء الموحدين ففي اسبانيا تدعمّت مملكة قشتالة بصورة ملحوظة ، واستفاد جيشها وأسطولها مدّا حققته اوروبا الغربيّة من تقدّم في الفن العسكري ؛ وبينما واجه الموحدون في بلاد المغرب قبائل تآكلتها الفوضى أو ممالك أنهكها الزحف العربي اصطدم بنو مرين بدولتين تكوّنتا قبل دولتهم وبلغتا درجة مرموقة من التماسك بفضل ملوك من طراز يغمراسن أو أبو زكريا أو المستنصر .

ثمّ إن العرب كانوا انتشروا في كامل بلاد المغرب وعمّ معهم الصرّاع الهدّام بين الفلاحين المتوطنين والرعاة الظاعنين ، وزيادة على ذلك فان الدولة المرينية لم تتنعم بما حظيت به الدولة المؤمنية من انسجام فما أن هلك أبو يحيى وهو أول ملك مريني بحق حتى أصبح الحكم فريسة يتهافت عليها المتهافتون ، فتّقلّ ان تعاقب الملوك على الحكم من دون عراقيل . ولو حقق بنو مرين حلمهم في مثل هذه الظروف لكانت المعجزة ، فقد كان عليهم أن يضعوا نصب اعينهم غاية أقرب منالا عوض الإصرار على إحياء امبراطورية موحّدية تَشْمَل بلاد المغرب واسبانيا الاسلامية فحاولوا تكوين دولة زناتية منحصرة في المغرب الأقصى والمغرب الأوسط تتاخمها شرقا بلاد القبائل والأوراس أي ان يحدوا من طموحهم . فلقد باؤوا بالفشل الذريع سواء كان ذلك في اسبانيا او بلاد المغرب : وانتهت مغامرتهم بالاندلس سنة 1340 قبل أن يتراءى لأبي الحسن طيف امبراطورية مغربيّة . ومما زاد في فداحة خيبتهم أنهم استنزفوا قواهم ، وإذ انحطاطا لانهضة بعده تبع آخر مجهود بذله أبو عنان .

وهكذا كان نصيب الدولة المرينية من الناحية السياسية الفشل الكامل غير أن الأمر على خلاف ذلك فيما يتعلق بالدين والحضارة ، بالرغم من أنّ المرينيين لم يكونوا مصلحين دينيين ولا أحفادًا للرسول تُغْدَق عليهم

البركات فان تأثيرهم على الحياة الدينية في المغرب الأقصى لاينازع فيه احد. فلقد ازالوا شيئا فشيئا من دون صدام ولا صراع مذهب الموحّدين واحلوا محله المذهب المالكي كما كان في سالف عهده ، واعانوا على تطوير العلوم الدينية بتأسيس المدارس في غالب الجهات ، واذا كان من المبالغة اعتبارهم مؤسسين « لمدرسة فاس » فقد ساهموا مساهمة كبيرة في نموها واشعاعها . ويمكن القول بأن كل مايمت إلى المظهر السني من الاسلام في المغرب الأقصى يحمل طابع المرينيين ابتداء من المدارس وقائمة كتب التعليم إلى التقاليد المرعيّة في الاحتفال بالأعياد الدينية الكبيرة خاصة المولد النبّوي . ولئن بقيت نزعة الشدّة والتقشف الموروثة عن المذهب الموحدي فان جانبا عظيما من المؤسسات الدينية مريني المنشأ ، ويرجع ازدهار حركة التصوّف المغربي إلى نفس الفترة كما سيأتي بيانه وان لم يكن للملوك ضلع في ذلك كما سبق فان من زار فاس او تلمسان لايمكن ان يشك في وجود حضارة مرينية أكثر طرافة ولاريب من الحضارة الحفصية. وليست المباني هي وحدها الشاهد على ذلك ويكفي تصفح ما كتبه ليون الإفريقي عن فاس لندرك أن بني مرين أضفوا على المغرب الأقصى وشماليّه على الأقل طابعا حياتيا لم يمح تماما إلى اليوم . وقد أكد هـ . تراس وهو محق في ذلك على ما كان للتأثير الأندلسي في هذه الحضارة من حظ وافر : وهو تأثير وجد بعد من عهد الموحدين ولكنه لم يكن بمثل هذه القوة ولا هذه السيطرة . ذلك أن الاسلام في اسبانيا تقهقر شيئا فشيئا إلى المغرب الأقصى المجاور تحت ضغط حرب الاسترداد ، وانساقت زناتة إلى التأثر بهذا الرافد الغني غناء كبيرا ، وهم الذين لم ترسخ لهم قدم في ثقافة ولا تعلقوا بتقاليد : من ذلك المباني التي حللنا بعضها باختصار في الصفحات السابقة والنهضة الأدبية التي يعتبر ابن الخطيب الشاعر والمؤرخ الأندلسي محورا لها وكذلك تطوّر مدن الشمال في المغرب الأقصى ، واذا كان فاس الجديد وتطوان من تأسيس بني مرين فانه يمكن اعتبار مكناس مرينية كذلك وهي التي لم تكن قبل أبي يوسف سوى قصبة قائمة قرب بعض القرى البربرية القديمة وكذلك وجدة التي جعل منها أبو يعقوب مدينة عظيمة لوقوعها على التخوم وأبى هؤلاء الأمراء البناؤون من أبي يوسف إلى أبي عنان إلا ادخال تحسينات كبيرة على مدينة فاس العتيقة وتازى وسلا وسبتة . ومن العدل أن نلاحظ أن هذه الحضارة اقتصرت على المدن ولم تشمل

الارياف ولا حتى المجموعات السكنية الثانوية . وفي هذا الباب فان بني مرين قاموا بعمل خالد بقدرما اجتنبوا تقليد الموحدين تقليدا أعمى .

4 ـ دولة بنى وطاس ويقظة الاسلام

هجوم النصارى على المغرب الأقصى :

لم تقطع أبدا العلاقات بين المسلمين في المغرب الأقصى والنصارى رغم المعارك الواقعة بالارض الاسبانية واعمال القرصنة المتبادلة . فكانت مراكب البندقية وجنوة ومرسيليا وقطلونية (Catalan) والارغون تتردد اثناء القرن الرابع عشر على مواني أصيلا وطنجة وباديس (وكانت تجاهها الجزيرة المسماة حجر باديس (Pènon de Velez) وسبتة، وأركودية أو الكدية (الخزامى) ؟ (Alhucemas) ومليلة ولكنها لاتصل الا قليلا إلى سلا وأزمور وآسفي وموقادور حيث كانت مراكب المسلمين تجوب وحدها السواحل ، ولم يكن التجار ليغامروا بأنفسهم في المدن الواقعة داخل البلاد الا بصفة إستثنائية رغم انه كان يوجد بمراكش حي للإفرنج .

وكانت المبادلات تقع في المواني التي توجد فيها القمارك العربية وفنادق النصارى . وكان أسطول البندقية يرسي كل سنتين بباديس وهو ميناء فاس ، وكان المغرب الأقصى يستورد خاصة طيور القنص والمعادن والماعون ولوازم الثياب ، والأقمشة ، وقطع النسيج والتوابل والخمر . ويصدّر العبيد ، والجلد والفراء ، والزرابي والصوف والمرجان والحبوب والسكر ، ولم تنقطع هذه الحركة التجارية النشيطة في القرن الخامس عشر رغم هجوم النصارى . بل ان مبادلات تمت بين الاهالي والحصون (Fronteiras) فسهلت التوغل البرتغالي نحو مراكش ، وتعتبر مدينة فاس أهم مركز في أوائل القرن الحادي عشر وهي عاصمة بني وطاس وتربطها اربعة مسالك بمواني غساسة (سلوان ؟ من يوم ان احتل الاسبان مليلة

سنة 1497) وباديس وسبتة وطنجة وكان المسلك الذي على ابواب تازى غير آمن ولكنه يضمن الاتصال بتلمسان ، كما كانت توجد طريق تؤدي إلى سجلماسة وتمرّ منها قوافل التمور وثلاث مسالك تفضي إلى الحوز . وكانت البضائع خاضعة لقمارك المدن والأداءات المستخلصة من القادة المحليين .

ونتج عن العداوة القائمة بين القشتاليين وبني مرين أن ربط هؤلاء علاقات وديّة جدا مع الارغون الذين اعانوهم على قمع ثورة بسبتة (1274) وطرد ملك غرناطة من هذا الميناء (1309) وحصل التقارب بصورة تلقائية (1345) بعد ثلاثين سنة من الازمات الناشئة عن تدخل السلاطين في اسبانيا وآل الأمر بعد اثنتي عشرة سنة إلى ابرام معاهدة سياسية وتجاريّة موجهة ضد قشتالة واستمر أبو عنان وخلفاؤه في هذه السياسة المؤاتية لبلاد الارغون التي كانت منصرفة إلى شواغل أخرى بحيث لم تغيّر من سياستها تجاه المغرب الأقصى شيئا .

وكان البرتغاليون والقشتاليون خلافا لذلك يترقبون الفرصة للانقضاض على المغرب الأقصى . فقد أحكم البرتغال استقلاله القومي بمقاومة الغازين المغاربة وتباقت دولة أفيز (Avis) المؤسسة سنة 1385 إلى عجم عود قواها الجديدة بمواجهة الكفار اعتمادا على برجوازية التجار ، وكان القشتاليون وضعوا حدا بانتصارهم في واقعة طريف (واقعة نهر سالادو) لتطاول بني مرين المتواصل على التراب الاسباني فأصبح الصراع بين قشتالة وغرناطة خصومة بين ملك وأمير تابع له لا قتالا بين نصارى ومسلمين على أن المغاربة بقوا أعداء للنصارى حقيقيين . لذلك كان القشتاليون بالمرصاد لأول فرصة تمكنهم من تحقيق حلم فرديناند الثالث وللنزول بافريقية ووضع حد لخطر الغزو المحتمل والقضاء في نفس الوقت على القرصنة المتفاقم امرها واتاحت لهم الحالة التي أصبح عليها المغرب الأقصى في آخر القرن الرابع عشر أن يتدخلوا .

ولمّا مات أبو العباس مكّن الصراع من أجل الحكم أمير غرناطة يعضده ملك قشتالة من تغذية نار الفوضى في المغرب الأقصى وتهيئة الجو لتحقيق أطماعه بالايعاز إلى الادعياء او مساندتهم . وكان ردّ فعل السلطان

المريني ان رمى المراكب الأندلسية والنصرانية بالقراصنة المغاربة فأصبح للقرصنة من الجدوى والغنم ما جعلها تستقل بأمرها وتفلت من سلطة الحكومة فتثير ردود فعل القشتاليين .

وبينما كان الجيش المريني يحاصر تلمسان استحوذ هانري الثالث صاحب قشتالة ، الذي كانت تراوده نزعة صليبية ، على تطوان فخربها وقتل نصف أهلها وجعل من البقية عبيدا (1399) . فلم يشحذ هذا العمل الوحشي همة القراصنة بل أثار الحماس الوطني والديني فكانت هزيمة النصارى .

واغتنم كذلك البرتغاليون ما كان عليه المغاربة من فوضى . فان الثورة التي مكنت « الذائد عن المملكة » يوحنا (Jean) صاحب أعلى درجة في وسام أفيز (Avis) من النفوذ ، حققت انتصار برجوازية برتو (Porto) ولشبونة (Lisbonne) يؤيدها سكان السواحل على النبلاء من مالكي الأرض الذين غلب عليهم تمسكهم بالشرعية ، فبقوا موالين لملك قشتالة (1385) واثبت انتصار البرتغاليين على القشتاليين تفوّق الخطة الثورية التي توختها فرقة المشاة البرجوازية على المناورات التقليدية للخيالة الارستقراطية ، كما أوجب هذا الانتصار تغييرا في السياسة اذ احتلت مصالح المنتصرين الاقتصادية المقام الأول .

وسعت البرجوازية يساندها اخوَا الملك الأصغران هنريكو وفرناندو اللذان كانا يرغبان في الحيلولة دون تدخل قشتالة في المغرب الأقصى إلى وضع حد للقرصنة المعرقلة لقوافل القموح . كما أرادت أن تشفي غليلها من الروح الصليبية التي كانت تنتشر بالجزيرة كلما تفاقم أمر حرب الاسترداد وحرصت أخيرا على توجيه الشغب الشعبي وجهة أخرى فحملت الملك لذلك كله على محاولة النزول بسبتة فاستحوذ بسهولة على الحصن حيث ابقى حامية تتركب من 2500 رجل (21 أوت 1415) ولم يتعرض هذا الحصن الا إلى هجمة واحدة ذات بال قام بها المغاربة وجيش غرناطة معا وكان نصيبها الفشل بسبب خلافات بني مرين (1419) .

قيام دولة بني وطاس :

ولم تمض على ذلك سنة واحدة حتى هلك السلطان المريني أبو سعيد عثمان بسبب تمرد في بلاطه . وتفاقمت بمقتله الحرب الأهلية ، فاغتنمت قبائل بني هلال الفرصة لتحسين موقعها ونهب رؤوس الحضر كما باع القواد العرب انفسهم وجيوشهم لأكثر الادعياء عطاء وتحصن البرتغاليون في سبتة ورفض بنو عبد الواد الولاء لفاس وأخيرا دعم رجال الدين نفوذهم . وهكذا فان القوى المتقابلة في هذه الفترة من احتضار الدولة كانت تنبيء بالخلافات التي ستكيّف تاريخ المغرب الأقصى طية قرن كامل .

وفرض بنو وطاس وهم أحد بطون المرينيين سلطتهم بفضل هذه الازمة ، وكان انتهى بهم المطاف إلى الاستقرار في شرق المغرب الأقصى بعد أن ظعنوا طويلا عبر تخوم النجاد العليا والصحراء . ولذا غنموا من انتصار المرينيين أبناء عمومتهم على الموحدين اقطاعا عظيما في بلاد الريف . وتعاظم نفوذهم في البلاط في الفترة الأخيرة من حكمهم . ولم ينجح من تقتيل عائلة أبي سعيد الا طفل في الواحدة من عمره يدعى عبد الحق وجدت له غرناطة وتلمسان من ينافسه فتبنّى أبو زكرياء يحيى الوطّاسي وكان إذ ذاك واليا على سلا ، قضية هذا اليتيم ونجح في مساعيه بعد عناء — ولم يكن تدخل أبي زكرياء يعني فقط توطيد النفوذ المريني بل معناه في الواقع استحواذ بني وطاس على الحكم اذ مارس رئيسهم السلطة الفعلية عند اضطلاعه بمهام الوصاية ، ولمّا بلغ عبد الحق سن الرشد آثر المجون على التخلص من الوصاية فلم يتضايق كذلك من وصاية علي بن يوسف ابن أخي أبي زكريا. ثم ان الموكّلين بقصر فاس ظلوا طيلة ثلاثين سنة في مستوى مهمّتهم (1428 — 1458) فواجهوا بحزم الخطر النصراني وماانتج عنه من يقظة التعصب القومي والديني .

ولم يعرف البرتغاليون في ظل حصنهم بسبتة الا النزال الفردي الذي كان يقوم به الاسياد ضد « المجاهدين » المتحدّين لهم فلم يصدر منهم طيلة عهد يوحنا الأول مايدّل على رغبتهم في التوّسع في غزواتهم ، غير انه لما اعتلى أخوه دوارت (Duarte) العرش تردد رجال البلاط

بين مطامع هانريك (Henrique) وفرناندو (Fernando) في المغرب الأقصى وبين سياسة الإنتاج القومي التي كان يدعمها مجلس العرش ويحبذها بيدرو (D. Pedro) الذي كان يرفض تعويض دينار بدرهم وتغلبت الكتلة الاستعمارية المعززة بموافقة البابا على احترازات الملك ونظمت حملة ضد طنجة فخرج جيش قليل العدد ضعيف العدة. اقلة المتطوعين فيه وحاصرته امام اسوار المدينة كتائب أبي زكرياء العتيدة الواردة من كامل المغرب الأقصى فاضطر إلى الاستسلام (16 أكتوبر 1437) . وما كان على المهزومين الا التخلي عن سبتة وتسليم أخي الملك فرناندو رهينة في انتظار البر بوعدهم . غير أن دوارت آثر التضحية بأخيه على التفريط في هذا المركز التجاري . ومات أخوه الشجاع بفاس (5 جوان 1443) بعد أسر شديد دام ست سنوات تجمّله في صبر يبعث على الإعجاب . وأدرجت الكنيسة اسمه في قائمة الشهداء وبازكته وهي التي حالت بما لها من تأثير وهيبة دون العدول عن الحملة (1470) .

يقظة الإسلام

استجاب أبو زكرياء باعماله الحازمة إلى رغبة رجال الدين الذين اعتبروا فترة وصايته « عهدا ذهبيا » ولما خرّب الاسبان مدينة تطوان اصطبغت القومية البربرية تحت تأثير مشايخ الزوايا بصبغة الحماس الديني المتأجج ، فقام المشايخ مقام السلاطين الذين كانت اسباب سياسية تحول دون تدخلهم الشخصي وأصبحوا بفضل نشاطهم وتدفق شعورهم الديني خير من يمثل توق الشعب إلى الجهاد المقدس خلافا لما كان عليه المخزن بقراراته الانتهازية ورفضه نعت الأراضي المحتلة من الكفار بأنها دار جهاد رغم وجود مسلمين بها يمارسون ولو جزئيا فرائضهم الدينية .

وشاع التصوّف بالمغرب الأقصى في عهد المرابطين والموحدين بعد أن ظهر في المشرق تحت تأثير الرهبنة النصرانية والافلاطونية الحديثة وهو مذهب المسلمين الذين زهدوا في الدنيا كرد فعل ضد من تعلقوا بها أيما تعلق . فتكاثر عدد الصالحين في كل مكان تفوح منهم البركة وتزايد الأولياء المرابطون وكانوا يعتزلون الناس أحيانا وتنشط حولهم

أحيانا أخرى في أماكن خالية زوايا متزايدة الاشعاع يدرس فيما إلى جانب التصوف الكيمياء والسحر . لذلك منع سلاطين مراكش حركة التصوف من الانتشار خارج اطار هذه الزوايا .

ولم تزل هذه الطرق تستعمل نفوذها لمناوأة الدولة المؤمنية طيلة الصراع القائم بين الموحدين والمرينيين . وسرعان ما ضاق بنو مرين ذرعا بسعي هذه الطرق إلى الانتشار رغم تأييدها السالف لهم . فأيدوا على حساب شيوخ التصوف جماعة العلماء الرسميين الذين كانوا يدرّسون مذاهب السنة وانما يرجع الفضل الأكبر في تعدد المدارس إلى مقاومة انتشار الصوفيّة .

ووسّعت الزوايا رقعة نشاطها في الوقت الذي ضعفت فيه سلطة ملوك فاس وبأن عجز المخزن في مقاومة الكفار مقاومة فعّالة . فظهرت حينئذ في مظهر المؤسسات القائمة الذات المتينة الاركان فكانت في نفس الوقت اماكن للعبادة ومدارس وفنادق عليها يقوم المشايخ ومنها يشع على كامل البلاد المقدمون يبلغون التعليمات إلى جمهرة الاخوان المتحمسين . وكانت تفرض على مُريديها طقوسا مضبوطة ولكنها مبرّأة من شوائب العقائديّة بعيدة عن تعذيب الجسد وتبعث فيهم الوجد الرّباني فيفنى المتصوّف في حقيقة الذات الالهية التي لاحقيقة سواها .

وكانت زاويتان منها مركزين نشيطين لنشر العقيدة الاسلامية تنتسب الأولى إلى عبد القادر الجيلاني « القطب الأعظم » المتوفى في بغداد سنة 1066 ويديرها الشرفة القادرية بفاس وترجع الثانية بواسطة الجزولي المتوفّى في أواسط القرن الخامس عشر إلى عبد السلام بن مشيش ولي جبالة العظيم غير أن هاتين الزاويتين اللتين بالغ البعض في دورهما السياسي كادتا ان تقصر نشاطهما في عهد بني وطاس على الدعوة الدينية . ولم يصبح تأثيرهما على الجماهير لاستنهاضها ضد السلاطين مطّردا فعّالا إلا بعد انتصار السعديين الذي تم من دون ان يكون لهما دخل فيه .

وحاول بنو وطاس استغلال هذه الحركة القومية والدينية لفائدتهم فتزعموا الكفاح ضد البرتغاليين وسعوا إلى جعل عاصمتهم زاوية تفوق في هيبتها سائر الزوايا ، وصادف ان اكتشف قبر مولاي ادريس بفاس في

نفس السنة التي أسر فيها أبو زكرياء ، أمام أسوار طنجة ، جيش أخوي ملك البرتغال . وكان الناس يعتقدون ان مؤسس هذه المدينة دفن بوليلي إلى جانب والده وسجل الوصي ورئيس العائلة الادريسية والفقهاء أن الجثمان بقي على حاله لم يأكله التراب . وتقرر ابقاؤه في نفس المكان الذي اكتشف فيه واقامة ضريح له . ولم يكن الرجوع إلى تقديس الأدارسة بعد طول نسيان من باب الصدفة فكان بمثابة التتويج ليقظة النزعة الشريفية . إذ نبع من كل مكان الاولياء الشرفة وهم من سلالة محمد حقا او باطلا ورثوا عنه البركة وزاد في نفوذهم الروحاني ان المسلمين كانوا يطالبون بمعجزة ضد الكفار . ولاشك ان أبا زكرياء أراد ان ينتفع بنو وطاس بهذه للعودة إلى تقديس الاشراف الا ان اكتشاف جثمان أدريس أفاد اولا وبالذات العائلة الادريسية ورفع من شأنها واحتل نقيبها منزلة مساوية لمنزلة الوصي في معاينة اكتشاف الجثمان .

نهاية بني مرين :

كان لتفاقم زحف النصارى وانهيار وكلاء القصر من بني وطاس أثره في تدهور نفوذ المخزن . وكان الفونسو الخامس أعد أسطولا وجيشا استجابة لنداء البابا الذي أعلن عن قيام الحرب الصليبية ضد الأتراك غداة سقوط القسطنطينية (1453) ، غيرانه لم يكن ميالا إلى الحملات البعيدة على غرار امراء النصارى فآثر توجيه قواته نحو ميناء صغير يقع بين سبتة وطنجة يدعى القصر الصغير واراد أن يجعل منه قاعدة حربية . وسقط الحصن من دون مقاومة في 18 اكتوبر 1458 وحاول الملك الاستيلاء على طنجة ثلاث مرات ولكنه اخفق في جميعها وكانت هزيمته في الثالثة أشد وانكى (12 جانفي 1464) وتمكن في آخر الأمر من تحقيق اغراضه بسبب ما مزق شمل البلاط بفاس من انقلابات . .

وكان السلطان عبد الحق رضي من دون أية مقاومة بوصاية يحيى بن ابي زكرياء ثالث بني وطاس الذي كان دون سابقيه قيمة وأدرك ذلك رجال البلاط فنفض الملك عنه خموله وأمر بقتل الوزير وعائلته ولم تمر على وصايته سوى شهرين (1458) ونجا من التقتيل اخوان ليحيى امكن لاحدهما وهو محمد الشيخ التحصن بآصيلا وجمع الغاضبين حوله :

وفشل عبد الحق في القيام بمهام الملك على الوجه المرضي وعمت الفوضى كامل البلاد . فعلاوة على مملكة مراكش المتمتعة عمليا باستقلالها منذ عشرين سنة والتي قد تكون وقعت بعد في أيدي أمراء هنتاتة ثارت القبائل وقام الامام الجزولي شريف السوس وهو من أقطاب التصوف المغربي ، بجولات في جهات شمالي الأطلس وجمع حوله حسبما يروى ما يقرب من 13.000 مريد ونشر الزوايا في البلاد. ولم يسترب اخوان فاس وحدهم في أمر عبد الحق بعد مقتل الجزولي باعتباره مشاركا في الجريمة بل كان سكان المدينة قاطبة يعيبون عليه تسمية وزير يهودي وتمرد عليه الرعايا وذبحوه مثلما تذبح الشاة . وبانتهائه انتهت دولة بني مرين (ماي 1465) .

وكشفت هذه الفعلة عن مدى نفوذ الادارسة فتلقب نقيب الاشراف الذي كان اشرف على اكتشاف جثمان إدريس بالإمام مثل جده مؤسس فاس ، ولكنه لم يقو على ردّ هجومات محمّد الشيخ الذي تمكن من فتح العاصمة بعد ست سنوات من الصراع واستحوذ على الحكم . فأصبح بنو وطاس ملوكا اسما ورسما بعد ان كانوا وكلاء على القصر .

انتصارات الاشراف :

ان عملا شاقا كان ينتظر مؤسس هذه الدولة فقد استغل البرتغاليون الاضطرابات وتمكنوا من أخذ آصيلا عنوة (24 أوت 1471) معززين بـ 477 مركبا و 30.000 رجل واضطر محمّد الشيخ إلى ابرام اتفاق يقضي بهدنة مدتها عشرون سنة لا بالنسبة للمراكز المحصنة بل للبسائط أيضا . واستند ملك البرتغال إلى بند مقيّد للطرف المقابل فأمر باحتلال طنجة من دون ان يلقى أية مقاومة (29 أوت 1471) وتلقب منذ ذلك الوقت بلقب (Rei de Portugal e dos Algarves daqueuse dalem mar en Africa).

ولم يتمكّن السلطان الوطاسي رغم حزمه من بسط نفوذه الاّ على جهة فاس . اذ خرج عن طاعته البربر في الجبال والاولياء الصالحون في الجنوب. واصطدم بعداوة رجال الدين العنيدة الذين أعانوا الادعياء عليه

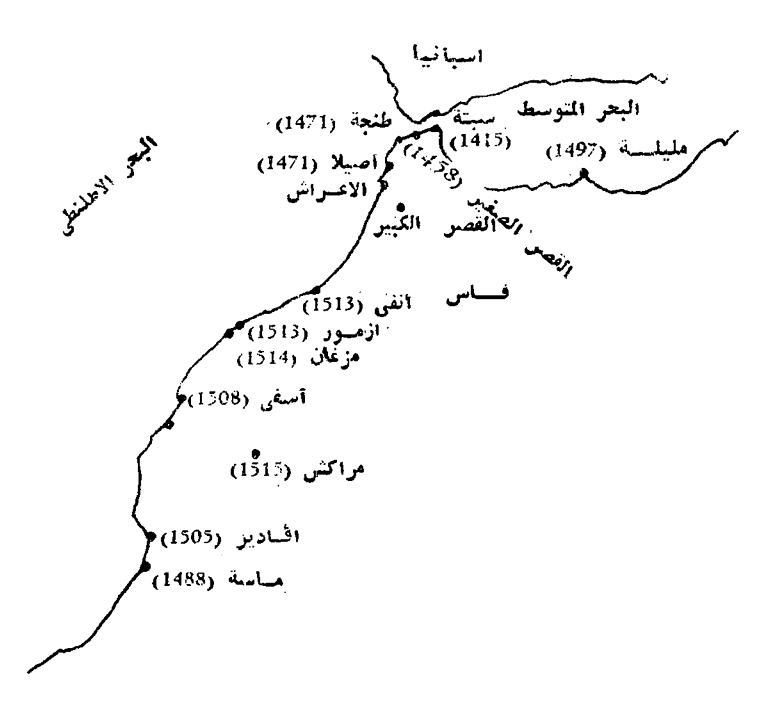
ولم ينفك البرتغاليون يواصلون زحفهم بلا انقطاع رغم ما اظهرته الزوايا من حماس في مقاومة الكفار واعترف لهم القشتاليون بمقتضى اتفاقية أبرمت سنة 1479 بحقهم المطلق على ساحل افريقيا المواجه للجزر الخضراء (Iles Canaries) بما فيه مملكة فاس كما مكنوهم من احتكار التجارة . ورغم فشلهم الذريع في محاولة الاستيلاء على جزيرة لكوس (Iles Loukkos) حيث أزمعوا على تأسيس قلعة قراسيوزا (Graciosa) (1489) فانهم تمكنوا من تحصين مراكزهم الأربعة بسبتة والقصر الصغير وطنجة وآصيلا .

وكان الاسبان رغم تعهداتهم السابقة يطمعون إلى احتلال بعض المراكز في أرض المغرب الأقصى منذ ان تتوجت حرب الاسترداد باستيلائهم على غرناطة (1492) .

وكان الملوك الكاثوليك يبعثون بالمسافرين الموالين لهم لدراسة سواحل المغرب ، واستهوتهم مليلة فاقنعوا البرتغاليين الذين خصتهم المعاهدات بكامل مملكة فاس بالتخلي عنها لفائدتهم (1494) ولم تمر على ذلك ثلاث سنوات حتى احتلها دوق مدينة شذونة (Sidonia) من غير عناد مستعينا بالاسطول المخصص لسفرة كريستوف كولومب الثانية (1497) ومنها تتبع الاسبان في قلق تفاقم الصراع بين بني وطاس والأشراف.

وزاد الوضع تأزما في عهد خليفتي محمّد الشيخ وهما محمّد البرتقالي (1455 ـ 1524) وأبو العباس أحمد (1524 ـ 1549) على أن دون مانوال سيد فاسكودي قاما (Vasco de gama) وأبو كركه (Alburquerque) المنشغل خاصة بالمنافذ الاسيوية تدخل في المغرب الأقصى ضد مملكة مراكش فأقام بها وكالات ثمّ احتل آسفي (1508) وأزمّور (1513) ولمّا هلك كان البرتغاليون قد تمكنوا من ساحل المغرب الأقصى الأطلنطي إلى مضيق جبل طارق (1520) وكان لهذا الساحل أهمية اقتصادية بالنسبة اليهم اذ منه يستطيعون شراء القموح اللازمة لوطنهم الأم وابتياع الجياد وملاحف الصوف يبادلونها في إفريقيا السوداء بالذهب والعبيد . لذا فانهم لم يقنعوا بحصونهم على السواحل بل كان لهم في عدد من المدن داخل البلاد وخاصة فاس وكلاء يتعهدونهم ويقومون في الآن نفسه مقام القناصل

والأعوان التجاريين وقد احتفظ جزء من مراسلة أحد هؤلاء الوكلاء بفاس : وفيها يتجلى فرط انشغاله بشراء الحبوب (Sources inédites de l'Histoire du Maroc. Portugal Tome 3) (مصادر لم تنشر من تاريخ المغرب الأقصى ، البرتغال ج 3) .



شكل 23 : ـ البرتغاليون فى المغرب الاقصى .

وهكذا فان المغرب الأقصى لم يكن من وجهة النظر البرتغالية غاية في حد ذاته بل جزءا من الامبراطورية الاقتصادية الممتدة الاطراف التي كان البرتغال يتكالب على تكوينها بسواحل البحر الاطلنطي والمحيط الهندي الأمر الذي يعلل زهد البرتغاليين في احتلال المغرب الأقصى وتفضيلهم نظاما شبيها بنظام الحماية العصري ، فكان الجند يعسكرون في الحصون تحميهم الأسوار والخنادق دون أن تنام لهم عين . وكانت الابراج العالية أو الناتئة تسمح بمراقبة الارياف وكانت طلقات المدافع تنبه البستانيين والصيّادين برا وبحرا إلى خطر المغاربة ، كما كانت تنبّه جيش الاحتلال بطنجة إلى وجوب نجدة حامية آصيلا فإذا لم تكن الريح

مؤاتيـة يتولى قارب نقـل الأخبار من ميناء إلى آخر . وكـانوا يسألون الأسرى عن نوايا العدو . وكـان ضابط الحاميّة هو الذي يقـود الغزوات ويستخلص خمس الغنـائم ويقتسم البقية بين جنده . وقل ان توغّلت الحملات المنطلقة من آصيلا أو طنجـة او سبتـة إلى أبعـد من ثـلاثيـن كيلوميتر داخل الأرياف أما ضباط مراكز الجنوب فمجالهـم أوسع . لقد أخضعـوا معظم الحـوز خاصـة في مقاطعـة دكـالة واعتمـدوا على الأهـالي المعاهديـن لتموينهـم بالحبوب واعـداد الهجـوم على مراكش — واشتهر ابن تفوفت بـأنه أحسن معاون مغربـي لقائـد حامية آسفي . ففـي سنـة 1515 بلغت كـتيبة برتغاليـة مغربيـة أبواب مراكش على بعـد 150 كلم من آسفي . وكـانت بين المعركـة والأخرى فترات من الهدنة سرعان ما يقطعهـا أحـد الطرفيـن المتقاتلـين .

وانشغـل بنـو وطاس عن مقاومة النصارى بخطـر أشد وطأة عليهـم وهو ظهـور دولة أشراف الجنـوب المنافسة . ففي الوقت الذي كـان ولاة آسفي منصرفين فيـه إلى احتلال مراكش برز في السوس بنو سعـد او السعديون . فمنـذ اوائل القرن السادس عشر قاد شيـخ زاويتهـم الجهـاد المقدس ضد البرتغـالين الذين استقروا سنـة 1505 بـأكادير (Santa-Gruz du cap d'Aguer) ونـادى بـنفسـه سيـدا على السـوس (1511) فجعـل أولاده مـن تـارودنـت قـاعـدة محصّنـة ضد الـكـفـار . وتحـالفـوا في أول الأمر مع سلطـان الجنـوب ثمّ تخلصوا منـه اغتيالا حسب الطريقـة المعهودة واتخذوا مراكش عاصمة لهم(1525) ومنذئذ بدأ الصراع بلا هوادة بين بني وطّاس وبنـي سعد . ولم يزل امراء السعدييـن يتفاقم أمرهم على حساب اعدائهـم . وتعذر على أحمـد الوّطاسي الظفر بالسلـم حتى مقابـل الاعتراف لهم بالسيادة على جهة مراكش فتحرك لهم وانهزم ثم اضطر إلى قبول قسمـة جديدة (1537) وتدعم نفـوذ السعديين بانتصاراتهـم العديـدة على الـكـفّار من ذلك استيلاؤهم على أكـادير (1541) وما تبعـه مـن جلاء البرتغاليين عن آسفي وأزمور . ورغم مقاومة أحد إخوة البرتقـالي ويدعى بوحسون ، تمكّن الشريف محمّد المهدي من أخذ فاس وطرد الدولـة الوطّاسية منهـا (1549) . وعبثا حاول أبوحسون الاستعانة بأوروبا . فقـد ردّه شارلـكان خائبـا ومنيـت محاولـة برتغالية بالفشل وانفرد الاتراك باعانته

اعانة جديّة ونصبوه سلطانا على فاس (1553) ولم يمض على دخولهم إفريقية واستيلائهم على تلمسان سوى وقت قصير وحملهم على ذلك خشيتهم من هجمات السعديين غير أن عودة بني وطّاس إلى الحكم لم تدم طويلا فكان هلاك بوحسّون المقتول غدرا في نزال مع محمّد المهدي ايذانا بانهيارهم النهائي وبسط نفوذ السعديين على كامل المغرب الأقصى (13 سبتمبر 1554) .

الخاتمة :

لم يكن للدولة الوطاسيّة في حد ذاتها قيمة كبرى اذ اقتصر ملوكها على اتباع سياسة بني مرين من دون ان يغيّروا فيها شيئا . لقد حاولوا خاصة في أول عهدهم مقاومة الغزاة البرتغاليين ولكنّهم سالموهم في بعض الأحيان لأنهم لم يجدوا بديلا عن ذلك والحقيقة انهم تولوا أمر بلاد في حالة تداع تام انحصرت حدودها في الجزء الشمالي من المغرب الأقصى من أمّ الربيع إلى طنجة وبلغ اطراد الفوضى حدّا جعلها تأنف الخضوع إلى سيّد لايأتيها بالجديد .

غير أن هذه الدولة لم تَشْغَل وحدها في النصف الثاني من القرن الخامس عشر والنصف الأول من القرن السادس عشر مسرح الاحداث بل برزت في المغرب الأقصى قوى أخرى إلى جانبها مالبثت ان انقلبت عليها . ولئن ظهر عجز الحكومة عن مقاومة الهيمنة البرتغالية مقاومة ناجعة فان الجماهير المغربية ما كانت لترضى بسيطرة الكفار فقد كانت تحركها مشاعر معقدة تتنازعها في آن واحد العاطفة الدينية المكلومة وكراهية الأجنبي فتحملها على الوقوف في وجه الدخيل حيثما ظهر : وكان ذلك اولا في الشمال قرب سبتة وطنجة ثم في سهل السوس وحتى واحات درعة عندما أسس البرتغاليون أكادير .

واصطبغ رد الفعل الغريزي للشعب المغربي بصبغة دينية وفقا لطبيعة الاشياء . فالتف حول الطرق والأولياء والاشراف مريدون غايتهم تعلّم الدين والدفاع عنه وانتشرت هذه القوى الخفيّة قرابة القرن بخطوات جزئية غير منتظمة . وتمكّن الشرفة السعديون في آخر الأمر من جمع

كلمة المغرب الأقصى حولهم إلى حين. وإن هذا المخاض السياسي والديني وما انجر عنه من نتائج آثارها باقية إلى اليوم يعتبر الحدث البارز في عهد بني وطاس وهو الذي يكسبه أهمية كبرى .

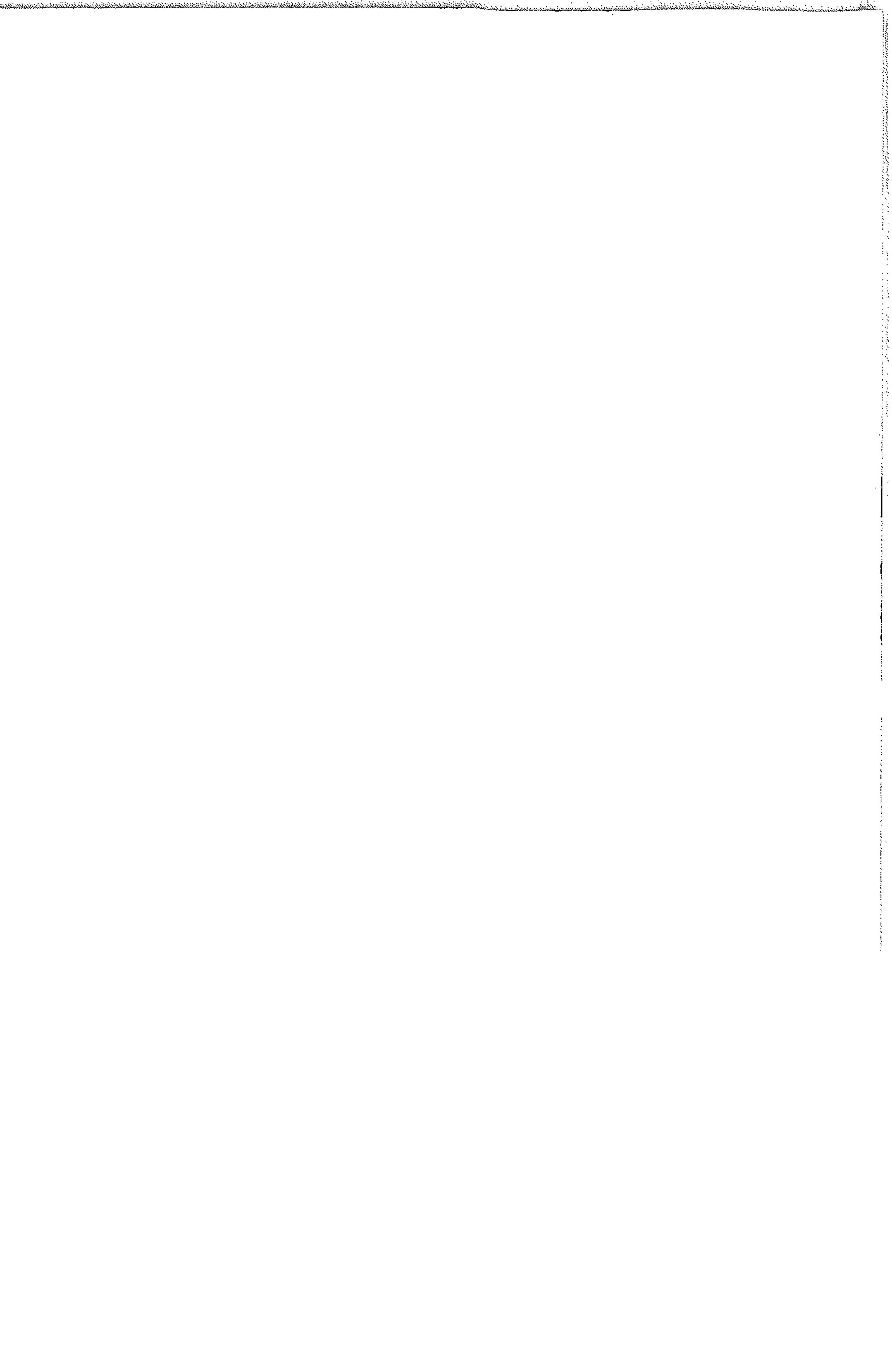
الباب الخامس

المملكة الشريفية

(1553 ـ 1830)

1 ـ الدولة السعدية

2 ـ الدولة العلوية



I ـ الدولة السعدية

تاريخ الدولة الشّريفيّة :

إن الوثائق المغربيّة الضرورية لدراسة تاريخ الدولتين السعدية والعلوية تكاد تكون مفقودة . لذا وجب الالتجاء إلى وثائق النصارى وكتب التاريخ العربية ، وان ما اجراه المقدم هـ . د . ي . كاستر (H. De Castries) من تنقيب في المكتبات وخزائن الوثائق الاوروبيّة مكّن من اعداد تأليف عظيم سمّاه المصادر غير المنشورة لتاريخ المغرب الأقصى (Les sources inédites de l'histoire du Maroc) وهو عبارة عن عشرين جزءاً ضخما مشحونة بالوثائق تمدّ المؤرخين بالنصوص الاساسية من المعاهدات السرية ومراسلات السفراء او التجار ، والمذكّرات ، وعقود الاستئجار ، وشركات المتاجرة ، وأخبار الرحالة التي سبق نشرها ولكنّها أصبحت نادرة أو مفقودة ، وأضاف دي كاستر إلى كل هذا مقدمات نقدية وتعاليق ثمينة . وإن هذا العمل العظيم الذي واصله ب. سنيفال (P. de Cenival) وعهد به بعد وفاته إلى ر. ريكار (R. Ricard) يجدد معلوماتنا حول المغرب الأقصى في العهد الشريفي .

وإن الذي يزيد في قيمة المصادر الأوروبيّة ما يُحيط بكتب التاريخ المغربية من ريبة ذلك ان المغرب الأقصى لم يعرف حتى القرن الخامس عشر الاّ نحاة مغرقين في التفاصيل او فُقَهاء متحمسّين . وانجر عن التفاف المغرب الأقصى حول نفسه للصمود امام الاعتداء الأجنبي بعث تاريخ قومي . وقد بيّن ليفي بروفانصال (Levy Provencal) في كتابه المعتبر « مؤرخو الشرفة » كيف يجب ان نقدر هذا العمل التاريخي حق

قدره . وإن منهجه ينحصر في رواية أخبار متقطعة من دون أولوية بينها ولا أفكار عامة تندرج ضمنها بل هي مجرّد مديح أوهجاء لايخلو من شبهة ثمّ انها لم تبرأ في مستوى أرفع من شائبة الانتحال . اذ كان المؤرخون يعتنون بالاشخاص قبل الاحداث ويقصرون عنايتهم على التراجم الرسمية ولايتجاوز اهتمامهم الملك وبلاطه وعاصمته . فلا شيء في تآليفهم يترجم عن روح تاريخ المغرب الأقصى منذ القرن السادس عشر وخاصة الصراع القائم بين السلطة المركزية ورجال الدين .

واشتهر في الدولة السعدية مؤرخان كبيران (1549 – 1621) هما الفشتالي والافراني . فالأول كان كاتب دولة صاحب ديوان الرسائل ، وشاعرا مجازا ومؤرخا للمنصور وقد ضاعت تآليفه ، أما الثاني المتوفى حوالي أواسط القرن الثامن عشر فقد مجدّ الدولة المنهارة نكالة في السلطان مولاي اسماعيل ويعتبر كتابه في تاريخ الدولة السعدية بالمغرب الأقصى (نزهة الهادي) أحسن مصدر مغربي إلى اليوم ، ويمتاز من بين المؤرخين العلويين الزياني (1734 – 1833) وهو بربري أصيل ورجل سياسة مرموق حفلت حياته بنعم العز ومرارة النكبات ومتعدد السفارات والمهام واستطاع كتابة عدّة تآليف منها تاريخ عام من بدء الخليقة وتاريخ الدولة العلوية انتحل منه من بعده الشيء الكثير ونحن مدينون له فيما يخص الدولة السعدية بفصل بالغ الأهمية نشر منه ليفي برو فنصال جزءا فقط باللغة العربيّة في كتابه منتخبات من المؤرخين العرب بالمغرب الأقصى وجمع النّاصري في القرن التاسع عشر وهو موظف من المخزن تاريخا عاما لا طرافةَ فيه (كتاب الاستقصاء) غير أنه لايخلو من الفائدة بالنسبة للفترة المعاصرة كما أعدّ بالاعتماد على منشورات سابقة كنشا لأولياء فاس (سلوة الأنفاس) .

وإلى جانب هذه المؤلفات التاريخية البحتة زخر الأدب المغربي في القرن السادس عشر بتراجم مشاهير الرّجال من مستويات متعددة من بين مختلف طبقات رجالات الدين واحتوى على الرحلات الممزوجة بتراجم محلّية . وتسمح هذه أو تلك من استقاء بعض المعطيات على قلّتها حول بحر الحياة الطُرُقية الطامي .

أصل السّعديين :

يبدو من المفيد التّوسع في الحديث عن نشأة الدولة السعدية إذ اكتفينا بالخطوط العامة عند الإشارة إلى انحطاط بني وطاس ويظهر انهم من أصل عربي بلا منازع ولكنّ شكوكا حامت حول سلالتهم الشريفية على الأقل في فترة انحطاطهم ، حيث شاع الخبر بأنهم لاينحدرون من الرسول بل من مرضعته فقط المنحدرة من قبيلة بني سعد ومنه اسم السعديين الذي أسند اليهم منذ أوائل القرن السابع عشر وهو لايخلو من الميز اذ يؤكد عدم انتسابهم إلى الأشراف ، ومهما يكن فانهم اعتبروا بالتأكيد من سلالة الرسول عندما تألق نجمُهُم وهذا هو المهم ، وكانوا أتوا من الجزيرة العربية حوالي القرن الثاني عشر قبيل مجيء بني أعمامهم الشرفة العلويين على ما يظهر وانتهى بهم المطاف بعد تقلبات وظروف الله أعلم بها إلى واحات درعة الوسطى على مقربة من بلدة زاقورة الحالية . فعاشوا طيلة قرون حياة متواضعة مغمورة كالتي يحياها صغار الأدباء الذين أكسبهم نسبهم بعض الاعتبار ، واستوطنوا في فترة غير مضبوطة قد تكون في النصف الثاني من القرن الخامس عشر على أغلب الظن تيدسي بوادي السوس في الجنوب الغربي من تارودانتْ وغير بعيد منها حيث أسّسوا زاوية . وكانت فترة انتشرت فيها الفوضى رغم جهود بني وطّاس لتوطيد حكمهم ، فقد كاد جنوب المغرب الأقصى أن يفلت من قبضتهم ! ولم يعد أمراء هِنْتاتة الحاكمون بمراكش قادرين على فرض طاعتهم فيما وراء الأطلس ، بحيث أصبح سهل السوس والجهة المواجهة للأطلس وواحات درعة تتمتع في الواقع باستقلالها ، غير أنّ تفاقم امر البرتغاليين أقضّ مضاجع السكّان فدفعتهم تقواهم إلى حمل السلاح في وجه الكفّار وكانوا يبحثون من حيث لايشعرون عن زعماء دينيين يقودونهم في جهادهم المقدس ، فتحمل السعديون هذه الأمانة وأول من عيّن قائدا عسكريا عليهم سنة 1511 للقيام بالكفاح ضد قلعة فنتي البرتُغالية بأكادير المؤسسة سنة 1505 هو محمّد ابن عبد الرّحمان المنتمي إلى والي الجهة عبد الله بن مبارك أصيل البني (BANI) ومريد الجزولي، ولئن لم يبلغ قصده هذه المرّة فقد بسط نفوذه على السّفح الشمالي من الأطلس وتوفى بأفوغال (AFOUGHAL) قرب

شيشاوى حيث دفن إلى جانب المتصوف الجزولي ، وترك بعده ابنيه أحمد الاعرج ومحمّد الاصغر الملقب بالامغر (قائد حربي) .

غزو جنوب المغرب الأقصى :

كان أحمد الأعرج هو الذي أوصى به أبوه خليفة له فتقلد السلطة ولكنه اسند لأخيه محمّد مشمولات كبيرة . وكان يقف سدًّا في وجهيهما يحيى أوتفوفت صنيعة البرتغاليين الذي اغتيل سنة 1518 فوسعا رقعة نفوذهما شيئا فشيئا حتى بلغا مراكش حيث لم يستقرا الا سنة 1525 بعد ان أمنا جانب الوطّاسي حاكم فاس بالاعلان عن ولائهما له .

وكان لابد من الصراع بين مملكتي فاس ومراكش رغم هذا الموقف الذي جمع بين الاعتدال والحذر وكان أحمد الوطاسي هو البادي سنة 1528 فأوشك أن يستولي على مراكش ولكنه لم يتمكّن من مواصلة جهوده بسبب قيام ثورة في أعقابه فاضطر إلى التفاوض بعد معركة غير حاسمة بتادلا وكانت مجرد هدنة ، وذلك ان أحمد الأعرج القوي بعلاقاته مع الاولياء والصالحين كسب عطف عدد عديد من مشايخ الطرق والزوايا . فكان بذلك يضيّق الخناق على الملك الوطاسي شيئا فشيئا ، غير أنه لم يتسرع في الأمر ربّما بحكم ما جبل عليه من جد وكذلك خاصة لئلا يظهر في مظهر المعتدي الظالم . واعتقد سنة 1537 ان الفرصة سانحة فتحرك نحو فاس ولكن عددا من الاولياء توسّطوا بين الطّرفين فاضطر إلى التفاوض من جديد .

وإن الذي يبرر وجود السعديين هو الجهاد المقدس فهاجموا قلعة أقادير البرتغالية واستحوذوا عليها سنة 1541 ، وأجبروا البرتغاليين على التخلي كذلك عن آسفي وأزمّور ولم يتمكنّوا في الحين من استغلال هذا النجاح الباهر الذي زاد في هيبتهم في نظر المغاربة إذ دبّ الخلاف بينهم فما كادوا يستولون على أقادير حتى تصادم انصار الاعرج وأنصار محمّد الذي استعاض عن لقبه البربري الامغر بلقب عربي هو الشّيخ وانهزم أنصار أحمد الأعرج فانسحب إلى تافيلالتْ وانفرد محمّد الشيخ بالحكم .

الانتصار بفاس :

وما ان أنس السعدي من نفسه القوة حتى بادر بالهجوم : فأسر سنة 1545 على ضفاف وادي العبيد السلطان أحمد . وكان بوحسون تقلد في ذلك الوقت زمام الأمور بفاس محاولا استمالة أولياء الجهة وكان بالخصوص ينوه بسليمان القانوني (Soliman le Magnifique) الذي سرعان ما أرسل اليه سفيرا بمراكش يدعوه إلى قراءة خطبة الجمعة باسم خليفة القسطنطينية فرفض محمّد الشّيخ وبذلك ساءت العلاقات بين الاتراك والسعديين لمدّة طويلة . وتحرك بنو سعد مرّة أخرى سنة 1548 ، وكانت فاس المحاصرة مسرحا لتنافس طريقتين : الطريقة الشاذلية الموالية للسعديين والطّريقة القادرية الموالية لبني وطّاس وجماعتهم الاتراك . وبقي طلبة فاس المتكتلين حول التقي الدائع الصيت الفقيه عبد الواحد الوانشريسي على ولائهم للحكم القائم . وأمر محمّد الشيخ باغتيال الوانشريسي وتمكّن من أخذ فاس سنة 1549 ، وما لبث ان توجه بجيشه نحو تلمسان التي لم تقع بعد في أيدي الاتراك ولم يعد العدة لذلك فأخفق في مسعاه ثم تصدى إلى الحامية التركية بمستغانم خاصة وان المغرب الأقصى لم يخضع إليه باكمله في ذلك الوقت . ونجح بوحسّون في إشراك صالح الرائس باشا الجزائر والاسبان بوهران في خطته فتمكن على رأس جيش صغير متكوّن من المغاربة والاتراك من استرجاع فاس في الايام الاولى من سنة 1554 بعد ان هزم محمّد الشيخ قرب تازة ثمّ على أبواب فاس ، غير ان الاتراك ساروا سيرة الغازين حتى أن بوحسون اضطر إلى طردهم ووجد نفسه بدون عدّة ولا عدد أمام السّعدي الذي لم تفت النّكبات في ساعده ولئن استدرج أحمد الأعرج إلى تبنّي قضية بني وطاس فحمل السلاح ضد أخيه فإن محمد الشيخ آستأنف الهجوم ودخل فاس ثانية ووطد حكمه بها في سبتمبر 1554 وأصبح سيد المغرب الأقصى غير أنه كان معرضا لتهديد اتراك الجزائر وتحت رحمة البرتغال والاسبان رغم تقهقر البرتغاليين سنة 1541 .

ولم يستقر الشريف المتلقب بلقب الخلافة منذ أول استيلائه على فاس بهذه المدينة اذ لم ترتح نفسه إليها ولم ينس الاستقبال الحار الذي خصّت به بوحسّون سنة 1554 ، انها كانت بالنّسبة لصحراوي مثله

خشن الطباع مغرقة في التمدن فقد روى الافراني كيف كان ابناء فاس الجدد يتلقون من خدم الملك السّابق دروسا في السّلوك ولربما كانوا اعتبروها عرضة لضربات الأتراك . غير أن رجل الجنوب هذا كان يؤثر بالخصوص مراكش ونخيلها ، فأصبحت هذه المدينة مرّة أخرى بعد ثلاثة قرون من تواريها عاصمة الدولة الجديدة .

ولم يحل كل ذلك دون عزم محمّد الشيخ على الاطاحة بالاتراك الذين كان يُضمر نحوهم حسبما يظهر حقدا شخصيا . ولم يتردد للوصول إلى غايته في التفاوض مع الكفار أعني الاسبان المستولين على وهران . وأُشعر الاتراك بالخطر المهدد فبادروا بمحاصرة وهران وحالوا دون كل تحرك ذي بال ، بل ان باشا الجزائر اوفد إلى السعدي عددا من الأتراك أوهموه بالفرار فائتمنهم وتمكنوا من اغتياله اثناء حملة قام بها في الاطلس كما تمكن نفر منهم من الرجوع إلى الجزائر بعد مغامرات عجيبة وحملوا إلى القسطنطينة رأس محمّد الشيخ (1557) .

وكان الرجل الذي أطرد بني وطاس وصمد في وجه الاتراك من طراز الملوك . فقد جمع بين الدهاء والحزم واعتبر نفسه سيّد المغرب الأقصى لاينازعه فيه منازع . وواجه المشكل العويص المتمثل في اعداد ميزانية نظامية للقيام بشؤون بلاطه وجيوشه . ولم تمكنه المبادلات التجارية مع الانقليز ولا احتكار الصناعة من توفير موارد كافية . فاضطر إلى توظيف الخراج على سكان الجبال على غرار أهل البسائط ، فأثارت هذه السياسة الجبائية في وجهه الاولياء وتسببت له في الثورات ، فأخمد نارها بحزم وآقتحم الزوايا وأطرد الأولياء والمريدين وقتل المعاندين تقتيلا وهكذا لم يتردد هذا القائد الذي نشأ في كنف الحركة الطرقية ورفع إلى الحكم ليقوم بالجهاد المقدس في كبح جماح الاولياء عندما اصطدم بالاتراك بل إنه تحالف مع الاسبان عليهم .

المملكة السّعدية إلى تاريخ معركة الملوك الثلاثة (1557 ـــ 1578) :

إن الذي يسّر مبايعة ابن محمّد الشيخ مولاي عبد الله الغالب بالله (1557 ـــ 1579) التجاء ثلاثة من اخوته إلى الترك عند موت ابيهم ، بل إنّ اثنين منهم عبد الملك وأحمد بلغ بهما الترحال إلى القسطنطينية حيث دخلا في خدمة سليمان وخلافائه .

وسار الملك الجديد على سنة والده ، فواصل السعي إلى الاستعانة بالاسبان ضد الترك وذهب به الأمر إلى التخلّي عن ميناء باديس لفائدتهم (Vélez) سنة 1564 ، غير ان الكارثة التي حلّت بالكونت ألكوديت (Alcoudete) بمستغانم (1558) ثمّ ثورة الموركسوس (الاندّلسيون) باسبانيا (1668) حالتا دون القيام بأي عمل ذي بال وقد ساعد مولاي عبد الله في الميدان الاقتصادي الانقليز على تنمية تجارتهم في سواحل المغرب الأقصى . بينما حاول سنة 1562 طرد البرتغاليين من مزغان (البريجة ثمّ الجديدة) ولكن بدون جدوى .

وقاوم مثل والده الأولياء والطرق الذين كانوا يتحملون عن مضض سلطانه ويتضايقون ممّا كان يُظْهره منْ مرونة ازاء النّصارى .

ولئن أمكن له القضاء على القادرية والشراقة وهم من أصل جزائري فانه اضطر إلى أن يقرأ حسابا لعدد من عائلات الاولياء الموجودة بالمغرب الأقصى الاوسط والجنوبي ، وأخيرا اغتنم فرصة الهدوء النسبي الذي كان سائدا حينذاك فاقدم على تجميل عاصمته التي لم يجد محمّد الشّيخ مُتّسَعا من الوقت ليهتمّ بها . ومات حتف انفه سنة 1574 .

وصادف أنْ كانت هذه السنة هي التي ساهم فيها أخواهُ المنفيان بالقسطنطينية في استْيلاء الاتراك على حلق الوادي وكانا اول من زف الخبر السعيد إلى السلطان مراد الثالث ، وبفضل ماوجدا من تأييد لدى القبطان باشا علج علي امكن لهما الحصول على الأموال والجند لغزو المغرب الأقصى بينما انتقلت الخلافة إلى ابن أخيهما محمّد المتوكل من دون صعوبة تذكر .

ووقعت الحملة في أوائل سنة 1576 ، ولمّا تخلى عن المتوكّل قسم من جيوشه انسحب إلى جنوب المغرب الأقصى حيث صَمّدَ بل وفق في الاستحواذ على مراكش ردحا من الزمن ثمّ انتهى به الأمر إلى اللواذ باسبانيا .

وكانت طرافة عبد الملك وهو سلطان المغرب الأقصى تتمثّل في أنه بقي طويلاً في خدمة الأجنبي وقد استفاد بالخصوص من رحلاته بالخارج فكان يتكلم الاسبانية والايطالية وكان صديقا شخصيا لأسبانيا .

ولكنّ إقامته بالامبراطورية العثمانية هي التي تركت فيه أبعد الأثر فقلد الاتراك في سلوكهم ولباسهم وكان يؤثر التكلم باللّغة التركيّة (هـ . تراس) . وما ان تقلّد زمام الأمور حتى اقام الدليل على براعته في التنظيم وحذقه للدبلوماسية فأسس جيشا منظما ودخل في مفاوضات مع اسبانيا وفرنسا وانقلترا وبهذا أمكن له أن يوعز لفيليب الثاني بالتخلي عن المتوكل .

واقعة الملوك الثلاثة (4 أوت 1578) :

إنّ ما اتسمت به السياسة البرتغالية من تأرجح في المواقف حمل حينذاك حكومة لشبونة إلى الاهتمام بالمغرب الأقصى . وبينما صَرَف يوحنا الثالث (1521 ــ 1557) كل جهوده إلى استغلال البرازيل والتخلي عن سبْتَة وطنجة والقصر فان حفيده سبستيان (1557 ــ 1578) (Sebastien) الذي نشأ في بلاط ساده جوّ مفعم بالتّصوف وتأثر بمعلميه اليسوعيين جعلت منه الاقدار الفارس المغوار المندفع في سبيل العقيدة الكاتوليكيّة في صراعه مع البروتستانيين والمسلمين ، ولاشك كذلك ان رد الفعل ضد سياسة يوحنا الثالث الافريقية المنجرة عن تجربته المفلسة في بلاد الهند والبرازيل كان مشجعا لمساعي المتوكل .

وعزم سبَسْتيان على غزو المغرب الأقصى رغم معارضة قواده ونصائح عَمّه فيلِبْ الثاني ملك اسبانيا وكذلك رغم احتراز الشّاعر الكبير كموِينس (Camoëns) الذي عرف مصاعب الحرب في إفريقيا وشارك فيها كجندي بسيط ورجع منها أعور ، وكان تحت امرته جيش يُنَاهز العشرين ألف رجل ، لم يتمرّن البَتّة على الحرب في إفريقيا ، ومتكوّن من وحدات مختلفة الاجناس برتغالية في أغلبها وفيها كذلك الاسبان والألمان والإيطاليون زيادة على وحدة صغيرة من المغاربة يقودهم المتوكل كما كانت خيالة هذا الجيش ضعيفة ومثقلة في نفس الوقت بست وثلاثين قطعة مدفعية وقافلة هامة من العربات غير متعودة على السير في المسالك المغربية ، ونزل القوم في طنجة من دون مقاومة تذكر وخاصة آصيلا وساروا الهوينا في اتجاه القصر الكبير فاعطوا بذلك مهلة إلى عبد الملك وأخيه فجمعا جيشا عظيما يقارب الخمسين الف رجل يعتمد أساسا على خيالته وتحدوه روح الجهاد المقدّس .

واستُدرج دون سيبستْيَان إلى طريـق مسدودة بيـن نهـر لوخـوس (Loukkos) ووادي المـخـازن أحـد روافـده مـن دون ان يـنـتـبـه وهو الذي عرف بركوب رأسه إلى أن علـو المـاء في هذا المكان يختلف كثيرًا باختلاف المدّ والجزْر وبادر بالهجوم فانتصر في أول الأمـر انتصارا لم يَقْو على استغلاله لافْتقاره إلى الخيالة . وعند ذلك مسك الجيش المغربي المتفوق عددا وموقعـا بزمام الأمر وتوغل في صفـوف جيش النصارى الذي حاول اجتياز وادي المخازن هربـا نحو العرائش غير ان النهر كـان طاميـا بمفعول المدّ فهلك أغلـب النصارى غرقـا أو أخذوا أسرى . وغرق دون سيبستيان والمتوكـل . أما عبد الملك فقـد انهـكه المرض منـذ بدء المعركـة ولـكنه وجد في نفسه طاقةً عجيبة مكـنته من دفع جيوشه إلى القـتال ولم يلبث أن مات ظهـرا قبـل ان يتقور مصير المعركـة . وأحيـط نَبَأ موته بالـكتمان الشديد حتى نهـاية القتال وسُميتْ هذه المعـركـة بواقعـة الملـوك الثلاثة الذين لقـوا فيهـا حتفهم الاّ أن المؤرخين العـرب يَدْعُونهـا واقعـة وادي المخازن لاّ غير .

أحـمـد المنصور (1578 — 1603) :

وكـان من نتائـج هذه المعركـة ان استهدف البرتغـال الذي اصيب في ملـكه إلى مطامع الاسبان بينمـا شاع الحماس في المغرب الأقصى بدرجة مضاهيـة للتخوفـات التي أثارتهـا تلك الحرب الصليبية ولئن أوْدى الداء بحياة عبد الملك فقد أجمـع الناس على أخيـه أحمـد وبويـع سلطانـا بساحة الوغى ولقـب بالمنصور ولم يفز فقـط بشرف الانتصار في معركة ما كـان أحد يحلـم بنتيجتها الايجابيـة بل جمـع كـذلك غنـائـم وافرة جلبت لـه ولاء الجيش واسْتولى على مئات من الاسرى درّت عليـه فديتهم سيلا من ذهب البرتغال . وهاب امراء النصارى هـذا الملك الذي استطـاع ان يسدد مثـل هذه الضربات واعتبروا منذئذ المملـكة الشريفيـة دولة عظمى يقـرأ لهـا ألف حساب وارسلـوا الى موانيهـا مراكبهم وعينـوا سفـراء لهـم بمراكش وحاولوا الاقتراب من هذا العاهل الغني الذي بلغت ثروتـه حدا أصبح معـه يلقـب بالذهبي .

إن المنصور تَبَوّأ منزلة مُمتازة في مـدارج الملك إذا نحن قارناه بالسلاطين السعديـن الاحد عشرَ السابقين الذين واجهـوا ثورات، متواصلة

واغتيل منهم ثمانية – ولئن اضطر هذا الملك منذ اعتلائه العرش إلى قمع تمرد جنده أكثر من مرّة ، واحباط مؤامرات الزوايا وكبح جماح القبائل البربرية فانه لم يكن جنديا فقط ، بل رجل دولة مثقفا ثقافة ممتازة لم تثنه شؤون الحكم ابدا عن الدرس ، وأكد معلمه المنجور أنه كان يتعلم من مخالطة تلميذه الملك هذا « العالم بين الخلفاء والخليفة بين العلماء » .

وقلّ أن عرف المغرب الأقصى ما عرفه في عهده من هدوء ورخاء فلقد اهتمّ السلطان الشريفي بالتجارة التي كانت نشيطة في عهده ونمى الأنشطة الصناعية الراجعة للدولة وأكرَى لليهود والنصارى طواحين السكر وأشرف على حركة تجديد المعدات الحربية وملأ خزائنه بمداخيل القرصنة وزاد في الجباية التي كان يستخلصها بحزم . ولم تُعرّض الثورات التي واجهها سلطانه للخطر وكانت اشدّها ثورة البرانس بقيادة الناصر الدعي فكان نصيبها الفشل بسبب تخاذل الأسبان (1595 – 1596) .

وكان السلطان الشريفي في أول الأمر يُسير دواليب الحكم بنفسه في وضوح وثبات . واختار له أعضاء من بين كتابه نخص بالذكر منهم مؤرخه الفشتالي ويهوديّا بل ان تأثير مسلمة النصارى واليهود أثار حفيظة مشايخ الزوايا ، وزاد في نفوذ الطرق وأوغر الصدور نحو الأجنبي . غير انه لم يبد عداوة مكشوفة تجاه المخزن وأصحاب الطرق الذين تمكنوا من الاستعداد إلى أيام أكثر يسرا . أما الأعيان الذين كانوا في أول العهد تحت نفوذ السلطان فقد تخلصوا في آخر الأمر من أنواع الرقابة . فلم يكتفوا بالإثراء من تجارة العبيد بل استطاعوا استغلال ابناء ملتهم .

وكان للمنصور فلسفته السياسية ، منها اقتبس طريقته في حكم القبائل فكان يقول حسب ماذكره الافراني : « ان أهل المغرب بهم جنون لايمكن مداواته الاّ بشدهم إلى السلاسل والاغلال » وتطبيقا لمبادئه نظم حكم المغرب الأقصى أي المخزن حسب قواعد ظلت قائمة ، رغم التغييرات الطارئة ، إلى انتصاب الحماية الفرنسيّة .

وكانت الامبراطورية الشريفية متكونّة من قبائل يديرها بل يستغلها هيكل مركزي يسمّى المخزن بقبائله الحربيّة (قبائل الجيش) المعفاة

من الضرائب والمتمتعة بالاقطاعات وبوزرائه وضبّاطه وولاّته وأصحاب الصنائع التابعين للقصر . ومن ذلك التاريخ أصبح المغرب الأقصى منقسما إلى قسمين المغرب الأقصى الرسمي (بلاد المخزن) ويحتوي على أراضي جماعة المسلمين الخاضعة للاداء العقاري والتي تسكنها القبائل العربيّة ويسيّر أمرها المخزن مباشرة من جهة ومن جهة أخرى المغرب الأقصى المستقل (بلاد السّيبة) الذي لم يتخلص فقط من نفوذ السلطان الفعلي بل كان دائما على أهبة للانقضاض على بلاد المخزن . غير انه نتيجة لحذر المنصور وهيبته وقوّة جيشه فان هذه المنافسة بين جزأي المغرب الأقصى كانت في أغلب الأحيان كامنة في عهده كمون النار ولم ينكشف أمرها ابدا كما وقع ذلك فيما بعد .

وحذا السلطان حذو أخيه غالب ، فجمل مراكش التي تألق نجمها كعهدها في دولة الموحدين ، وجلب العملة لاقامة المباني من كل البلدان وحتى من أوروبا كما اعتمد على ذوي الخبرة من الصّناع واشترى من إيطاليا الرّخام بنفس ثقله من السّكر . وبدأ غداة انتصاره في وادي المخازن ببناء قصر البديع الذي تطلب تشييده خمس عشرة سنة . وانتصب هذا القصر الذي هدّمه فيما بعد بأكمله مولاي إسماعيل وسط قصبة بني سعد ، وحُفرت فيه لتجميله بِركٌ عديدة مبلّطة بتغشية خزفية ويشرف عليها أحواض وتحوط بها بسط من الازهار ودور على غاية من الزّينة . ولقد سمحت أبحاث تمت اخيرا باعطاء صورة كاملة لهذا القصر وللنّسب الموجودة بين كافة اجزائه . وكان قصرا رائعا من دون شك ونحن على يقين من ان المنصور هو الذي بنى على أديم الارض المقدسة التي تأوي رفاتَ اجداده قرب مقام الولي الجزولي القبة الشرقية من ضريح بني سعد حيث دفن أمه .

وكان للسلطان بلاطٌ عظيم الشأن يستقبل فيه الاجانب في أبهة كبيرة وكان يلتقي فيه مسلمة النصارى ذوو النفوذ وأصحاب المال من اليهود والتجار النصارى والسفراء الاجانب ورجاله محل ثقته من دعاة سياسيين وأصحاب أعمال وقوّاد أحيانا . وكانت الأعياد الدينية تتألق بمشرق الأنوار وهي في مراسمها تشبه تماما ما يمكن ان نشاهده اليوم في المغرب الأقصى . وكان الحفل الذي ينتظم لقبول سفراء أوروبا وكرم المنصور

يأخذان بالألباب . ففي سنة 1579 دخل خوان دي مدينا (Juan de Medina) القصر في موكب بهيج وقد أدى له التحية مائة من الطبارين والمخازنية بطاقياتهم المزينة بالريش وكذلك مسلمة النصارى اللابسون لباس الأتراك وكان السلطان جالسا على حشايا من حرير في قاعة مفروشة بالدمقس والزرابي يقف دونه ثمانية « قياد » وبوابان زنجيان فاقتبله بأدب ونبل وقد بدا للعيان تمسكه بالمراسم .

فتح السودان :

اقتبس المنصور من الشرق مراسم الاقتبالات وأخذ عن الترك نظامهم العسكري بل أوكل اليهم تعليم جنده وهم مزيج من مسلمة النصارى والأندلسيين والعبيد والقبائلية واللاجئين من بلاد العثمانيين ؛ وكان الجيش الذي عهد اليه بغزو السودان يتركب من مسلمة النصارى والنصارى فحسب.

وتوطدت العلاقات بين المغرب الأقصى وبلاد السودان منذ أن أزاح المرابطون أمراء غانة الوثنيين عن عروشهم وأدخلوا إلى الاسلام الطبقات الحاكمة بالسودان العربي (القرن الحادي عشر) ، وربط الملوك الماندين بالنيجر الأعلى مع سلاطين المغرب علاقات دبلوماسية قارة وتبادلوا معهم الهدايا ، ولما حل محلهم سنغاي النيجر الشرقي (اواخر القرن الخامس عشر) عمد المغرب الأقصى طيلة ما يقارب القرن إلى بسط هيمنته الفكرية والدينية على السودان وذلك بارسال العلماء ورجال الدين الصلحاء الدعاة . وتغلغلت الحضارة المغربية بمدن ولاته (Oualata) وتمبكتو ودينّي (Djenné) وكوكو » (Gao) ، ثم في عهد أسرة أسكيا أصحاب كوكو (1493 — 1591) .

ووضعت غزوة المنصور العنيفة للسودان حدا للتعامل السلمي معه وأقفرت بلاد الزنج واستبدت بالقوم عقلية الجري وراء المكاسب فطمع السلطان في مناجم الملح في تغازة (Teghazza) على بعد مائة وخمسين كلم شمال ملاحات تاودونه (Taadeni) الحالية التي منها كان تحصل امبراطور كوكو على الجانب الاوفر من ميزانيته — وبادر ابتداء من سنة 1581 بالاستحواذ على واحات قرارة وتوات (Garrara-Touat) ولعله ظفر سنة 1583 من سلطان برنو (Bornou) بأن يخطب في الجوامع باسمه ، وبعد

ذلك بسنوات قليلة حوالي عام 1586 طلب من اسحاق أسكيا ملك السودان ان يسلّمه مثقال ذهب على كل حمل من الملح المستخرج من تغازة حتى يوفر لجيوش الاسلام ما كانت تحتاجه من امواله . وكان ذلك مجرّد تعلّة اذ كان المغرب الأقصى في ذلك الوقت في سلم مع أجواره ، وفي الواقع كان المنصور في حاجة إلى المال ولربما كان يرمي إلى تكوين خلافة مغربية في امكانها ان تنافس الخلافة العثمانية لو وضعت تحت سلطان أحد أحفاد النبي ، فرفض ملك السودان وعند ذلك قرر المنصور تخضيد شوكته فجمع مجلسه وعرض عليه الأمر ، فاصطدم بمعارضة شديدة خلافا لما كان يتوقع لأن حاشيته كانت تعتبر هذه الحملة جائرة ومليئة بالمخاطر ، غير أنه ألجم المعارضة وتمت الامور كما كان يتمنى .

فهل تمت حملة اولى ؟ ان نصّا غريبا وغامضا من أخبار الدولة السعدية المجهولة المؤلف يجعلنا نفترض ذلك ، فقد يكون المنصور حسب هذه الوثيقة أرسل إلى السودان كتيبة من الجند المتمرّد وأوعز إلى الدليل بالتواري عنهم في قلب الصحراء ولم ينج بأعجوبة الا رجل واحد ، فهل تكون تلك هي الرواية الرسميّة أو شبه الرسميّة لهزيمة نكراء نتيجة حملة مرتجلة ؟

ومهما يكن فقد عهد إلى أحد مسلمة النصارى جودر الاسباني سنة 1590 بقيادة كتيبة تعد ما يقارب الثلاثة آلاف رجل ، أغلبهم من مسلمة النصارى وتتمثل مهمتهم في الهجوم على السودان من الناحية الصحراوية .

وخرج جودر بجيشه في أواخر أكتوبر ووصل إلى النيجر بعد مسيرة 135 يوما ، هلك فيها نصف جيشه على الأقل وسرعان ما تغلبت بنادق الفتيلة وهلع الماشية التي تحصن وراءها جيش السونغو (Songoï) على العشرين ألف من الزنوج المسلحين بالرماح والسيوف والهراوات (12 مارس 1591) .

ولمّا لم يرق لجودر المقام في كوكو استقر بتنبكتو التي أصبحت من ذلك الوقت عاصمة الباشوات ، وكان بوده الرجوع إلى مراكش

بمائة الف من النقود الذهبية والف عبد كان الاسكيا عرضها على السلطان لولا أن المنصور اعتبر هذه العروض سبّة فعوّض الباشا بواحد آخر من مسلمة النصارى يدعى محمود زرقون الذي رأى من الحكمة ابقاء جودر عضدا له ومستشارا أولا .

وحاول زّرقون بناء دولة السنغو من جديد ولكنه شارك بنفسه في النهب والتقتيل اللذين كانا من أساليب الحكم الوحيدة التي يحذقها هؤلاء اما خلفاؤه فقد نهكوا البلاد بسطوهم وأبادوا النخبة الفكرّية والدينية التي كانوا يرهبون تأثيرها .

وترك المغرب الأقصى ابتداء من سنة 1612 السودان تحت رحمة جيش الاحتلال فتحوّل الجند إلى لُصُوص وأصبح الباشا المنتخب قائد عصابة فتداول على السلطة من سنة 1612 إلى سنة 1660 واحد وعشرون باشا ومن سنة 1660 إلى سنة 1750 مائة وثمانية وعشرون باشا . ومنهم من لم تدم مدتهم أكثر من بضع ساعات اذ قتلهم منافسوهم . وتزوج الاسبان السودانيات واختلطوا شيئا فشيئا بالسكان ، غير أن أحفادهم الرماة كونوا ارستقراطية تظاهرت بالتفوّق إزاء الزنوج الصّرحاء . وهم لا يزالون إلى اليوم يتميزون بذكائهم ونزوعهم إلى الحكم وميلهم إلى الكفاح ويعرفون بثرواتهم ونظافة منازلهم — ومن بينهم النبلاء أحفاد روم الشرق والبرجوازيون المنحدرون من فاس والدهماء والرعاع من اللقطاء . وليس لهم من حرفة الا صناعة الاحذية . وهم بصدد الانصهار شيئاً فشيئاً في السكان السود .

وكانت الأرباح التي يدرها السودان على المنصور عظيمة جدا حسب أقوال من عاصره وأكد الافراني ان المنصور تلقى كمية من قراضة الذهب بلغت حدا « أصبح معه لايدفع جراية الموظفين الا بالذهب الابريز والدنانير الثقيلة الوزن » وقد يكون توفر للسلطان 1400 مطرقة لضرب السكة يوميا . وشهد لورانس مادوك الانقليزي وهو عون لشركة تجارية في مراكش ، قدوم ثلاثين بغلا محملة بالذهب وكانت الدوكات (Ducat) المراكشية مطلوبة من قبل التجار الانقليز الذين كانوا يحاولون تهريبها نظرا إلى عيارها المرتفع ، ورغم هذا فإنه ما كان

من صالح المنصور مغالطـة المغاربة والاجانب حول أهميـة موارده ، ذلك ان الغزاة لم يقدروا ابدا على استغلال مناجم الذهب السودانيـة مبـاشرة لبعدها بعدا كبيرا عن كوكو فـكـان الذهب الذي تلقاه السلطـان في اول الأمر متأتيـا من حاصل مصادرات أعيان تومبكـتو ثمّ فيما بعد من عائدات المبادلات التي قام بها « اعوان الملك » المـكلفون باستغلال سباخ تاودنة ومن المحتمل ألاّ تـكون ثروات السودان التي أصبحت مضْربَ الامثال بلغت يوما ما بلغتْه الفديـة البرتغـاليـة التي صار المنصور يلقب مـن اجلهـا بـالذهبـي . وعلى كـل فـان النتيجـة الحاصلـة مـن غـزو السنغـو وتـونبكـتو هي اضمحلال تجارة السودان وانحطاط تونبكتو فكريا وتقلص ظل الاسلام في النيجـر الأوسـط الّذي لم ينته أمره إلاّ فـي القرن الثامـن عشـر تحت تأثير التوكولور (Toucouleur) .

وتلقـى السلطان إلى جانب حمولات الذهب قوا فل من العبيد ذُكورًا وَإناثا . ومن المحتمـل ان يكـون قد جند الزنوج وان سجلـه أوحى إلى مولاي اسماعيـل بفـكرة تـكوين حرس أسوَد .

سيـاسة المنصور الخـارجيـة :

ولئـن اشتهـر المغرب الأقصى بـأنّه بلـد له ثروات طائلـة وأصبـح لعاهلـه صيت بعيـد فذلك يرجـع أيضا إلى غـزو السودان . فقـد أقضّت عظمـة السلطان الشريفـي مضاجع سلاطيـن القسطنطينية الذين كـانوا يرومون بَسْطَ نفـوذهم الدينـي عليـه . كمـا تضايـق منـه بـايات الجزائـر الذيـن يحلمـون بهيمنـة قراصنتهـم على مـواني المحيط الاطلنطي ، واستنجد المنصور بأوروبـا لمواجهة اعدائـه في الشرق ، غير انه لم يتخلص من تـدخل الباي علج علي الاّ في آخر لحظـة عندما أغدق على الباب العالي الهدايـا (1581) ولم يتخلص من شبـح هذا الخطر الدائـم الاّ بمـوت علـج علي (1587) وانقـراض البايات (1588) بل إنّـه كـان بامكانـه أن يبـادر بالهجـوم بدوره لو لم ينشغـل عن ذلك بخلافات ابنائـه .

ولم ترفض الدول المسيحية عروضـه بل تنافس الانقليز والاسبان في كسب ودّه . ورغم ان الانقليـز لم يهتموا بالمغرب الأقصى للمرة الاولى الاّ سنـة 1551 فانهـم اغتنمـوا هزيمـة البرتغـال لتنميـة مبادلـة أقمشتهـم

بما يوجد في المغرب الأقصى من ذهب وسكر وجلد وبارود لتنظيم حركة تهريب البضائع .

غير ان المنافسة بين التجار الخواص وبين موكلي تجار المدينة من جهة وتأثير كبار الشخصيات اللندنية الذين لم يراعوا سوى مصلحتهم من جهة أخرى أحبطت المساعي المبذولة لتوحيد المصالح والمجهودات ضمن مؤسسة واحدة وهي الشركة البربرية (Barbary compagny) (1585) . ومنذئذ توقفت التجارة البربرية عن التوسع . الا ان العلاقات التجارية ساهمت في جلب انتباه الملكة اليزابيت إلى المغرب الأقصى لا من الوجهة الاقتصادية فحسب بل كذلك من الوجهة السياسية . فحاولت ان تتحالف مع سلاطين القسطنطينية ومراكش لمواجهة فيليب الثاني الذي أصبح سيد البرتغال . أمّا المنصور فقد كان يعتبر الاتراك من أشد أعدائه . ورغم ما يضمره المغرب الأقصى من حقد متوارث ازاء اسبانيا ممّا تجلى في الفرحة الشعبية العارمة التي عقبت ابادة الاسطول الاسباني (سنة 1588) فان المنصور لم يكن ليجهل ان بلاط فيليب يأوي أخا للمتوكل المتأهب دوما لتزعم أي تمرد يطيح بعرشه وكان ملك اسبانيا من جهته يخشى ان يستولى قراصنة المغرب الأقصى على قوافله الآتية من الهند ويتمكنوا من الاستحواذ على موارده المتواضعة المهددة دائما بالحجز فحاول ان يضمن حياد السلطان بالتخلي لفائدته عن آصيلا (1589) .

واستغل المنصور في علاقاته مع الاسبان والانقليز بمهارة فائقة ما كانوا يخشون من عواقب تدخله . فساوم اعانته من دون ان يوفي بشيء من وعوده وأخيرا رجحت الكفة لفائدة الانقليز عندما وضع فيليب الثاني خطة لاحتلال جزيرة أرقوين (Arguin) وسواحل الصحراء للاستحواذ على ذهب السودان ، بل ان السلطان فكر في غزو اسبانيا واقتسامها مع الانقليز لو لم تفضل الملكة اليزابيت صرف عنايتها إلى الهند . وذهبت هذه المشاريع السياسية الكبرى ادراج الرياح بموت الملكة العجوز وهلاك السلطان بسبب الطاعون (1603) .

أما فرنسا التي كانت تمزق شملها الحروب الدينية فان المنصور لم يتعامل معها الا في نطاق تجاري ضيّق واقتصر على اقتبال بعض

قناصلها . واخيرا فان هولاندا لم تخط حينذاك الا خطوات محتشمة في علاقاتها التجارية مع المغرب الأقصى .

انحطاط السّعديين :

ما ان قضى العاهل الشيخ نحبه حتى أخذ ابناؤه الثلاثة يتنازعون من أجل الحكم ، وهم مولاي زيدان الذي بويع بفاس وأبو فارس الذي نودي به سلطانا في مراكش ومحمّد الشيخ المأمون الذي كان أبوه أودعه السجن قبل وفاته وكان ميالا إلى العنف غير قادر على كبح جماح غرائزه وما كاد أبوه يسميه وليا للعهد سنة 1815 حتى عيل صَبْره لفرط ماتورط فيه من فضائح وما بادر به من تمرد ، فالقى عليه القبض سنة 1602 وهو يقاتل وزُجّ بِهِ في السجن بِمَكْنَاس . وظلوا طيلة سبع سنوات يتقاتلون اثنين ضد واحد يتحالف احدهم مع هذا او ذاك ، بالتداول ، هذا يستنجد بالاسبان والأخر بالاتراك ، واغتيل أبُو فَارِس (1610) بخنجر عبد الله ابن أخيه المأمون ، وهو في عنفه شديد الشبه بأبيه .

وتمكّن المأمون من الاستيلاء على فاس بفضل معونة الاسبان الذين تسلموا مدينة الاعراش جزاء خدماتهم . واستبقى مولاي زيدان مراكش واقليمها بعناء كبير . وأصبح المغرب الأقصى منقسما إلى مملكتين كما كان في القرن الخامس عشر ، مملكة فاس ومملكة مراكش .

ولم يكن هذا التقسيم من شأنه ان يضمن السلم اذ ان الصراع بين ابناء المنصور أثار نَارَ الفِتنِ التي لم يستطع اخمادها رغم ما كان له من نفوذ فقد قام في كل مكان زعماء ينتسبون إلى رجال الدين وأخذوا يتناحرون وينشرون حولهم الموت والخراب . وشاركت القبائل العربية في الاضطرابات اما القبائل البربرية الصامدة في الجبال فقد نالها رجع من هذا التهريج فدخلت بدورها في حلبة الصراع وبلغت هذه الفترة قمة الفوضى في تاريخ المغرب الأقصى حتى إن مُدُنًا قويّةَ الاركان معروفة بِوَدَاعتها مثل فاس أصبحت بدورها نهبَ الفِتنِ وكفّ القوم بضعة أيام عن المناداة إلى الصلاة من أعلى صوْمعة الجامع الأكبر وعمّ الخراب احياء بأكملها فتحولت إلى حدائق .

وفي خضم هذه الاحداث لم يعد لسلاطين فاس ومراكش وزن يذكر، فكان مولاي زيدان (1603 ـ 1628) وهو ليس بأسوئهم حالا يجد عناء كبيرًا في الاحتفاظ بالحكم اذ أزيح عنه ثلاث مرات ثمّ استرجعه ولم يفلح ولو مرّة واحدة في استعادة مملكة فاس التي ظلت مستقلة عنه غير انّه وجد مهلة كافية لبناء القبة الغربيّة ، التي تعلو ضريح السعديين بمراكش وهي التي تثير اعجاب السواح بزينة تواريقها الفخمة ومقرنصات عقدها وتنميق قبورها . وهي رغم ذلك شاهدة على الانحطاط ، ذلك انّه يوجد كما لاحظ ذلك ج. مرسي بين عظمة مساجد الموحدين وجمال مدارس بني مرين في تناسقها وانتظامها وبين الافراط في التزويق الذي نشاهده في روضة الأمراء السعديين ما يوجد من فروق بين كنيسة برو (Brou) والباب الشمالي لكنيسة شارتر (Chartres) .

ومنذ سنة 1626 اصبحت فاس تخضع لقواد العصابات او يحكمها ردحا من الزمن احدى الفئات التي كانت تتسابق للانفراد بالحكم المطلق. اما في مراكش فقد صمد السعديون مدّة اطول حتى اغتيل العباس سنة 1659 وهو آخرهم .

الساعون إلى الحكم :

بينما كانت دولة السعديين في احتضار عمدت اسبانيا إلى احتلال بعض المواني المغربيّة وكان همّها وضع حد لهجمات القراصنة . وقد سبق ان لاحظنا انها تسلمت مدينة العرائش سنة 1610 فشيدت قلعة في مصَبّ وادي سبو سنة 1614 لتشديد مراقبتها على مدينتي الرباط وَسلا الواقعتين على ضفتي بو رقراق حيث كانت القرصنة نشيطة . وتعرف هذه القلعة اليوم بالمهدية وهي التي كان يسميها الاسبان (San Miguel de Vitramar) ويدعوها المغاربة بالمعمورة وعلى نحو ما وقع في القرن الماضي لمّا احتل البرتغال الاراضي المغربيّة ثارت ثائرة الشعب لاستحواذ النصارى على جزء من دار الاسلام وكانت تعلة اعتمدها بعض الزعماء من رجال الدين لخدمة مطامحهم .

وتجلى الخطر المسيحي بالخصوص في شمال المغرب وفيه كذلك ظهرت اعنف ردود الفعل الدينية التي زادها خطورة ضعف السعديين

وقصـورهم . غيـر أنه ظهـرت في جنـوب البلاد كـذلك تحركات طرقيـة لم تبلغ من الحدّة مـا بلغتـه في شمـال المغرب :

وأول هذه التحركـات ما كـان على يد أبـي محلي وهو عالم بسيط من تافيلالت تخرج مـن مدرسـة الصوفيـة واستقر في وادي سوراء (Saoura) حوالي سنة 1593 اشتهـر بورعه وأوهم الناس بانه المهدي المنتظر . وتحرك لما تنازل السلطان عن الاعراش لفائدة الاسبان فزحف على سجلماسة واستولى عليهـا وهزم جيشا ارسلـه مولاي زيدان لنجدتهـا ثم اجتـاز الأطلس واخذ مراكش غرة ، وعجز مولاي زيدان عن استرجاع عاصمتـه بنفسه فـألب عليـه وليا آخر أصيـل الأطلس اسمـه يَحْيَي بن عبدالله الحاحي الـذي ما أن هجـم على مراكش حتى قتـل أبا المحلي وعلــق رأسه على سور مراكش حيث بقـي حسب ما يروى طيلـة اثنتـي عشرة سنة (1613) وزاد هذا النصر في قوة يحيـى بن عبد الله واعتبر نفسه سيدا ومسك بزمـام الارياف بيـد من حديد حتى سنة 1627 . وعندئـذ ظهـر شخص ثـالث هو أبو الحسن السمـلالي المعروف بـأبـي حسّون اصيـل مـاسة (Massat) وكـان دوره قبـل ذلك ثانويا فأسس في السوس والجهة المقابلـة للاطلس امـارة مستقلـــة لم تزل الاّ بعـد انتصاب العلويين ــ كما يجب اخيراً ان نلمح على سبيل التذكير إلى الاشراف العلويين في تافيلالت وسيأتي الحديث عنهم فيما بعد :

واضطر الامراء السعديون في فاس إلى مواجهـة ثلاثة اعداء : جمهورية المورسكوس بالرباط وسلا والولي العيّاشي وأولياء الديلاء :

جمهـوريـة بـورقـراق :

لقـد طرد المورسكوس من مقاطعـة غرناطة فقط ــ لا من اسبانيــا أثر تمـردهم سنـة 1568 اذ لـم يفقـد فيليب الثاني ومستشاروه الأمل في ادماجهم. ولـكن فيليب الثالث اعتبر ذلك مستحيلا بعد محاولات دامت اربعيـن سنـة فأصدر ضدهم مجمـوعة من قرارات الطرد توالت من سنة 1609 إلى سنة 1614، وهـكذا اضطـر كـل الذين لم يرضوا بالتنكر لعقيدتهـم إلى الهجـرة فانتشروا على كـامل ساحل افريقيـا الشماليـة من تونس إلى الربـاط وخاصة في شمال البلاد التونسية وشمـال المغرب الأقصى حيث انقسمـوا إلى مجمـوعتيـن رئيسيتين استوطنتـا الأولى تَطْوَانَ وانتصبت الثانية على ضفتي

مصب وادي بورقراق وفي سنة 1609 اقام أهل هرناشو (نسبة إلى مدينة صغيرة تقع بجهة إسترامادورا) في رباط الفتح وهي القلعة القديمة المشرفة على غربي هذا النهر . وفي سنة 1610 أقبل عدد من المهاجرين من جنوب الأندلس وحطوا رحالهم بالمدينة الصغيرة التي كانت تتقاوى على نفسها في ظل القلعة فعظم بذلك عمرانها . وكانت علاقاتهم في أول الأمر حسنة مع مولاي زيدان الذي كان باسطا نفوذه في تلك الجهة حتى ذلك التاريخ وكان يؤمل انه في الامكان ان يجند منهم الجند وأن يغنم ممّا أخذت تَدُرُّبه عليهم القرصنة . ذلك ان اهل هرناشو جهزوا حال وصولهم ، مراكب عديدة بفضل أموالهم الطائلة واختاروا لها عددا من مسلمة النصارى والمغامرين من كل الاجناس .

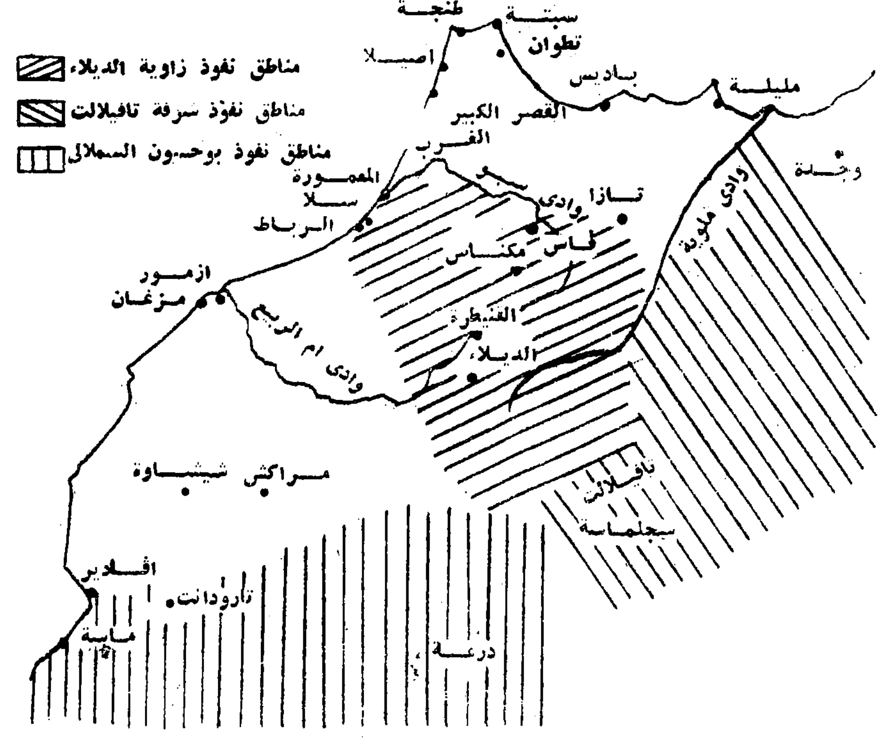
وسرعان ما أدرك المورسكوس ان السلطان يستغلهم فاعتبروا أنفسهم مستقلين ابتداء من سنة 1627 وشجعهم على ذلك الولي العياشي . لقد أسسوا جمهورية تحكمها الخاصة (Oligarchie) اتحدت مرّة مع سلاَ واقتصرت مرّة أخرى على التعامل مع المجموعتين اللتين تتكون منهما الرباط وكانت طورا متماسكة الصفوف وطورا آخر تتآكلها الفتن الداخلية العنيفة لأن الاندلسيين وأهل هرناشو لم يحالفهم الوئام دائما ، وآل الأمر إلى أن ضاق العياشي ذرعا باستقلالهم فأخذ يناوئهم من سنة 1637 إلى أن مات سنة 1641 وعندئذ بسط اولياء الديلاء نفوذهم على مصب بورقراق .

ولم يكن مهاجرو بورقراق ليطمحوا في الاستيلاء على المغرب الأقصى بل كانت تعتمل في نفوسهم مشاعر متضاربة للغاية . فقد كانوا من جهة يكرهون اسبانيا المسيحية التي أطردتهم من أرضهم ولكنهم كانوا من جهة أخرى غير مرتاحين إلى العيش في نظام اقتصادي وسياسي غريب عنهم فلم يقدروا على التلاؤم معه ، فكانوا يشعرون بالغربة ازاء هذا الصراع السياسي الذي كان يجري حولهم .

ولم يكن الأمر كذلك بالنسبة للأولياء الذين لم يقرّ لهم قرار في تلك المنطقة .

أولـيـاء الشمـال :

أول من ظهـر منهـم هو محمّد بن أحمـد الزيّاني الملقب بالعيـاشي ، وكـان عالما من اتباع أحد متصوفـة سلا ، تزعم الجهـاد في سبيل الله فـي عهـد مولاي زيدان وهجـم على مزغان ، فجازاه السلطان على سعيـه وعينـه « قايد » أزّمور ولـكـنه سرعان ما فقدَ منزلتـه لدى سيّده ولاذَ بـالفـرار واتجـه إلى سهـول الغرب وأعانَ مدن بورڤراڤ على فرض استقلالها وحمل لـواء الجهاد المقدس في سبيـل استرجاع المعمـورة والعـرائش فالتف حولـه عدد كبير من أولياء الجهـة وحتى اولياء المغرب الاقصى ، وفي سنـة 1637 تخاصـم مع المورسكوس واتهمهم بان لهـم علاقات مريبـة مع الانڤليـز والاسبان وآل أمره إلى أن استولى على الرباط وسلا سنة 1641 فـكان ذلك إيذانا بهلاكه اذ تمكن المورسكوس الذين لاذوا باولياء الـدلاء من اقناعهم بمقاتلتـه ، فانهـزم وقتـل سنة 1641 وكان اولياء الـدلاء وهم بربر صنهاجة



شكل 24 ـ : المغرب الاقصى في اواسط القرن السابع عشر .

أسسوا في اواخر القرن السادس عشر زاوية تقع قرب قرية القنيطرة الحالية . ولقد عرفوا بكرمهم وعدلهم فاحتكمت اليهم القبائل الظاعنة بالاطلس الاوسط والملوية وعظم بذلك نفوذهم شيئاً فشيئاً لدى هذه الاقوام المشهورة بشدة بأسها في الحرب وسرعان ما أصبح لها بذلك جيش عتيد استعملوه للانتصار على محمد الشيخ الاشقر السعدي سنة 1640 عندما حاول الاطاحة بهم قبل ان تقوى شوكتهم كما هزموا الولي العياشي سنة 1641 . ففرضوا بذلك سيادتهم على كامل الجهة الشمالية للمغرب الأقصى ولكنهم اضطروا إلى التنافس مع الاشراف العلويين بتافيلالت الذين كانت لهم ايضا بعض النوايا التوسعية . وهكذا فان مصير الحكم بعد السعديين سيقرره في آخر الأمر الصراع بين بربر الجبال بقيادة الاولياء وبين سكان الواحات بزعامة الأشراف :

أوروبا والمغرب الأقصى :

ان هذه الاضطرابات لم يكن لها التأثير السلبي المتوقع على العلاقات القائمة منذ زمن طويل بين المغرب الأقصى وبعض الدول العظمى الاوروبية ، ذلك ان كل ما يخسره النصارى بسبب كره الطرف المقابل وتعصبه الديني يعوضه لهم ما كانوا يكسبونه من جراء تناحر أعدائهم وتنافسهم . فهذا الولي الصالح العياشي الذي تقلد زمام الحكم بحافز الجهاد المقدس يرتاح شديد الارتياح في بعض الظروف إلى التفاوض مع الانقليز أو الهولنديين وإلى شراء الاسلحة منهم لمزيد النكاية بخصومه المغاربة ، وهكذا فان العلاقات بين المغرب الأقصى الممزق شمله حينذاك وبين الاوروبيين مرت بحالات مختلفة حسب الظروف ومشيئة المعنيين بالامر طبعـــا .

وكانت اسبانيا حليفة السعديين عندما كان الاتراك خطرا عليهم ولما لم تعد الجزائر المحكومة من الباشوات مشغولة بالقرصنة منهوكة بالحزازات الداخلية مهددة من المغاربة ، استغنوا عن العون الاسباني – بل ان اسبانيا زادت في الطين بلة وأخذت تطرد المورسكوس وتناوىء الاسلام واحتلت الاعراش والمعمورة . ورغم ذلك فان المأمون اتجه إلى اسبانيا عندما حاول الاستحواذ على مملكة فاس سنة 1610 كما فكر مولاي زيدان في اللجوء اليها عندما اضطر إلى التخلي عن مراكش إلى أبي المحلي

والحقيقة أنّ اسبانيا المنهمكة في سياستها الاوروبيّة لم تفكر قط في غزو المغرب الأقصى ولا حتى في إيجاد مناطق نفوذ اقتصادي او سياسي بها . وقصارى ما كانت تحرص عليه هو حماية اسطولها بالبحر الاطلنطي من غارات قراصنة المغرب الأقصى . وابتداء من سنة 1664 لم تعد وحدها في مسرح الاحداث اذ استقل البرتغال وأعاد سلطته على قلعتي طنجة ومزغان بينما احتفظت اسبانيا بسبتة والعرائش والمعمورة وفي سنة 1661 أصبحت طنجة تابعة لانقلترا اذ كانت ضمن مهر كاترين البرتغالية عندما تزوجت بشارل الثاني الانقليزي .

ورغم ان فرنسا كانت دولة عظمى كاثوليكية وان وضعها ازاء المغرب الأقصىٰ كان يختلف عن اسبانيا فإن دورها في حقيقة الأمر بقي باهتا جدا اذ هي لم تتعاط التجارة بل اكتفت بفدية الاسرى بنجاح متفاوت . وكان يمثلها دائما قناصل من مرسيليا وأطباء كثيرا ما كان يحتاج إلى خدماتهم الامراء السعديون وكذلك مغامرون مثل انتوان دي سان مدريي (Antoine de Saint Madrier) المحكوم عليه في فرنسا ولكن الممثل لها في المغرب الأقصى وباني الموانى فيها او فليب كستلان الذي كلفه مولاي زيدان بنقل البضائع عبر النيجر فأبي الاّ أن يتقاضى أجره مباشرة بالاستحواذ على مكتبة الشريف وامتعته . الاّ ان مركبه حجز من سوء حظه بأحد موانى اسبانيا وعجز كما عجزت فرنسا معه على ارجاع ما استولى عليه من ارزاق الأمير — وكان لهذا الحادث المؤسف تأثيره السيء على العلاقات بين فرنسا والمغرب الأقصى الجنوبي وذلك طيلة سنوات عديدة . غير ان اسحاق دي رزيني تمكّن في آخر الأمر من ابرام الصلح مع الشريف سنة 1631 ثمّ مع المورسكوس سنة 1635 وخلافا لما كان عليه الأمر بالنسبة لفرنسا واسبانيا فان انقلترا نشّطت الحركة التجارية مع المغرب الأقصى بصورة رسميّة بواسطة الشركة البربرية (Barbary compagny) وربما بصفة غير رسميّة خاصة بواسطة تجار لاعهد لهم ولا ميثاق يدعون (Interlopers) الذين كانوا يبيعون العتاد الحربي لكل من يدفع الثمن المناسب سواء كان الشاري من الثوار مثل السملالي او الملك الشرعي ، ولم يكن الانقليز ليتحرّجوا من الاعتبارات الشرعية طالما كان همهم الأول الجدوى التجارية لذلك كانوا يتفاوضون مع

جمهورية بورقراق في نفس الوقت الذي كانوا يرسلون فيه سفراءهم إلى مراكش وكانوا على علم تام بما يجري في المغرب الأقصى ، ولا تزال إلى اليوم أخبار رحالتهم وتقارير أعوانهم من خير الوثائق التي تعتمد لمعرفة هذه الفترة وكان الانقليز مثل الاسبان يتضايقون كثيرا من القرصنة فيردون الفعل بالمراوحة بين ضرب الحصار البري والتفاوض .

غير أن انقلترا لم تفز بقصب السبق في الميدان التجاري بل بزتها المقاطعات المتحدة – والسبب الرئيسي في ذلك ما عرف به التجار الهلنديون من حيوية ومهارة تجارية ، وكذلك أيضًا ما كان يشترك فيه الهلنديون مع المغاربة من إضمار الحقد لاسبانيا – لذلك لم تتردد حكومة المقاطعات المتحدة في تزويد المغرب الأقصى رسميا بالمراكب وتجهيزاتها والمدافع والبارود على أمل ان يستعمل كل ذلك ضدّ اسبانيا . وكانت عائلة بلاش اليهودية هي الواسطة في عقد كل هذه الصفقات . وكان الهولانديون على غرار الإنقليز لايتورعون في اختبار الاطراف المقابلة . فكانوا ينسجمون في نفس الوقت مع مولاي زيدان والمورسكوس وأولياء الدلاء ، ونالهم ما نال الانقليز من ويلات القرصنة فحاصروا مصب بورقراق سنة 1651 وكلفوا ترومب (Tromp) وريتر (Ruyter) بالقيام بتظاهرات بحرية سنة 1654 .

2 ــ الدولة العلويــة

الأشراف الفيلاليون :

وصل (الشُّرَفاء) العلويون وهم أحفاد الحسن بن علي بن أبي طالب والسيدة فاطمة واصيلو ينبوع وهي القرية العربيّة الواقعة على ساحل البحر الأحمر إلى تافيلالت بعد ان مرت سنوات قليلة على انتصاب السعديين في وادي درعة . وقد حفت الأساطير بظروف مجيئهم الا ّ أنّه يحق لنا أن نتساءل مع « هـ. تراس » هل أنهم صاحبوا بعض البطون من عرب المعقل أم لا ؟ . ومهما يكن فانهم انتصبوا في واحة تافيلالت في اوائل القرن الثالث عشر وعاشوا طيلة قرون حياة عادية يتبرك بهم الناس لكن من دون ان يقوموا بدور سياسي .

وبينما كانت الفوضى تتآكل نفوذ السعديين وبعيد موت مولاي زيدان طمع في الاستحواذ على تافيلالت وليّان قويت شوكتهما وهما السملالي ومحمّد الحاج مقدم زاوية الدّلاء ، فحاول الفيلاليون الحفاظ على استقلالهم بأن جعلوا على رأسهم محمّد الشريف نقيب العلويين الشرفاء (1631) فتوفق بعد عناء إلى التخلص من خطر الوليين المتنافسين . ولكنه لم يتمكن من الحيلولة دون انتصاب محمّد الحاج قرب الجبل بوادي غريس وفي قصر السوق بوادي زيز ولا من اقحام حامية في قلب تافيلالت بالذات . ولمّا تملك اليأس محمّد الشريف حسبما يبدو عهد سكان الواحة بأمرهم إلى أحد ابنائه مولاي محمّد (1636) .

وكان مولاي محمّد قوي الشكيمة فبادر بطرد حامية الدلاء المنتصبة في تافيلالت (1638) ثمّ حاول ان يتوسع ، كما وجد مضايقة من أولاد الدلاء شمالا والسّملالي غربا . وكانت الصحراء سدا في وجهه

جنوبا فجرّب حظّه في اتجاه الشمال الشرقي وتحالف مع قبائل قير الأعلى المعروفة بشدّة بأسها واستحوذ على وجدة وجهة تلمسان ووصل به المطاف إلى الاغواط . فجنح الاتراك إلى التفاهم والتزم لهم مولاي محمّد بأن لايتجاوز جهة تفنة . وقد أصبحت له منطقة نفوذ شاسعة وأخذ يظهر في مظهر العظماء . واستنجد به سنة 1649 أهل فاس على اولاد الدلاء بعد ان ضاقوا بهم ذرعا . فخف لنجدتهم ولكنه لم يقدر على الصمود في المدينة لمواجهة رجوع محتمل لاولياء الدلاء وقفل راجعا إلى تافيلالت ولم يعاود الكرة .

مولاي الرشيد :

عندما هلك آخر السعديين كانت مملكة مراكش لم تعد حدودها تتجاوز المساحة الكائنة بين الأطلس الأعلى وأمّ الربيع وكان يحكمها قائد الشبانات . وكان أبو حسون السملالي ينفرد بالنفوذ من غير منازع في السوس والجهة المواجهة للأطلس واحتفظ اولياء الدلاء بالسلطة المطلقة على مملكة فاس رغم محاولات طنجة والغرب والريف وحتى فاس الجديد للتخلص من قبضة سلطانهم . وكان الفيلاليون يظهرون في مظهر البيدق البسيط على رقعة المغرب الأقصى خاصة وان ملكهم لم يستطع ان يعوّل على أخيه مولاي الرشيد بل كان يعتبره منافسا له .

وأسرع مولاي الرشيد في الخروج من تافيلالت سنة 1659 والتجأ إلى خصوم الفيلاليين التقليديين . لكن أبى اولاد الدلاء وحاكم فاس ان يحتفظوا بين ظهرانيهم بهذا الصنف الذي من شأنه ان يفسد عليهم خطتهم . واضطر إلى قضاء مآربه في الجهة الشرقية المضطربة من المغرب الأقصى فحلّ اولا ببني كبدانة (بين المليلة ومصب لولبة) ثمّ ببني اسناسن حيث وجد سندا في خطواته الأولى من لدن الشيخ اللواتي والطريقة التي كان هذا الشيخ ولاشك أحد رجالها المرموقين . وعند ذلك تمكّن من القيام بعملية حازمة لاتزال ترددها الاسطورة وتقام ذكراها المشوهة بمناسبة الاحتفال السنوي بعيد سلطان الطلبة السنوي في فاس وتتمثل هذه العملية في اغتيال يهودي غني من قرية دار ابن مشعل (بجبل بني اسناسن) الذي ربّما يكون قد قام بدور هام في البلاد — وتمكن بفضل ما سطا عليه من ثروات اليهودي من بعث حزب وتهديد جيرانه — وتنسب الاسطورة إليه اغتيالات وغنائم

أخرى لاشك انهـا صدى للمغامرة الاولى . على انه من الثابت ان مولاي الرشيد ألحق في سهل أنكاد (Angad) بعد ان انضمّ اليه سكانه، الهزيمة بأخيه فهلك هذا في ساحة الوغي سنة 1621 وبذلك أصبح المغامر يُعلل نفسه بالحكم . وشعرت فاس بالخطر غير ان مولاي الرشيد آثر قبل كل شيء ان يضمن لنفسه قاعدة مأمونة الخطر وملجأ في تافيلالت يلوذ به عند الاقتضاء .

ومن ثمّ قاد اول معركة له ضد الشيخ الاعرس صاحب الريف الذي كان أبى الاعتراف به والذي كان يخشى ان يفسد عليه خطته الهادفة إلى غزو فاس لما عرفه فيه من عداوة له . وبعد ان فشل هذا الشيخ في معركته ضد القبائل المناوئة له وجه جهوده نحو التجارة وخص تجارا من الانقليز بمكان في خليج الخزامى . وسرعان ما استعد الفرنسيون للمشاركة في التبادل التجاري مع الريف . وقد لاحظوا بارتياح ان انقلترا غنمت ميناء طنجة بفضل زواج شارل الثاني بكاترين البرتغالية ، بينما كانت اسبانيا طامعة في هذا الميناء (1661) ولم يعره ما زاران أية قيمة قبل ذلك بثمانية عشر عاما . ولكنهم سرعان ما أخذوا يتوجسون خيفة من مرامي انقلترا تجاه الاماكن الاستراتيجية المنتشرة على ساحل الريف . وربما كانت الجولات الاستطلاعية التي قام بها بوفور (Beaufort) ونيشار (Nuecher) في جزر الخزامى وزفارين ، ومصبّ الملوية مقدمة في نيّة كولبير لوجُود دائم عرض السواحل المغربيّة وفي فترة لاحقة السواحل الجزائرية بجيجل .

وتحققت المشاريع التي أخفق فيها الوزير الفرنسي بفضل جماعة من التجار . فقد أنشأت ثلةٌ من أصحاب رؤوس الأموال شركة الخزامى يتزعمهم ميشال ورولان فريجوس (Michel et Roland Fréjus) وهما من رجال أعمال مرسيليا ثمّ مكنهم الملك من امتياز تجاري ومن حق التفاوض مع السلط المحلية (1661) لكن عندما نزل رولان فريجوس بسواحل الخزامى كانت شوكة شيخ الاعرس قد كُسّرَتْ أثر هجمة حاسمة قام بها مولاي الرشيد (مارس 1666) وأحسن الشريف وفادة رولان فريجوس بتازة لأنّه كان يتعذر عليه التزود بالأسلحة والبضائع من الموانى الغربية .

وإن ما رواه هذا الرجل في شيء كثير من الحماس والمبالغة عن مهمته كشف بالخصوص عن قوة الرشيد. فبادرت الديبلوماسية الفرنسية بمناوراتها

ضد الحضور الانقليزي بطنجة ، وعلى العكس من ذلك فقد خاب أمل القوم فيما كانوا ينتظرونه من النشاط التجاري ذلك ان رولان فريجوس تصرّف بغير لباقة باسم شركة المشرق المؤسسة في سنة 1670 والتي كانت الشكوك تحوم حولها بوصفها خلية للجوسسة فتضايق الشريف من سلوكه فشيد لفائدته برجا بالخزامى سرعان ما استولى عليه الاسبان وجعلوا منه حصنا من حصونهم (1673) وأهمل مولاي الرشيد العروض الفرنسية لأنّه كان بسط نفوذه في الاثناء على الموانى الغربية للمغرب الأقصى . ونذر نفسه لمقاومة الاحتلال الأجنبي . ولم يمض على هزيمة الشيخ الأعرابي وقت طويل حتى دخل فاس وبويع بها سلطانا (6 جوان 1666) وقد انتصر مؤسس الدولة الفيلالية لا بالاعتماد على الطرق بل بفضل تفوق جيوشه وإنّه واجه تأثير الأولياء باشعاع أشراف الادارسة الذين أصبحوا انصارا له . وزودوه بما كان يحتاج إليه المخزن من أعوان .

ولم يمتد نفوذه حينذاك الاّ إلى بلاد أنكاد وجهات تازة وتافيلالت والريف وفاس وتمكن بعد حملات مضنية من تخليص جهة الغرب وجهة طنجة من أحد أشداء القراصنة يدعى غيلان الذي كان يستمد العون من الاتراك وأحيانا من الانقليز فاضطر إلى اللجوء إلى مدينة الجزائر (1669) كما تمكن مولاي الرشيد من قهر جيش اولياء الدلاء وتدمير زاويتهم (1668) ثمّ استولى على مراكش حيث قتّل الشبانّات تقتيلا (1669) وافتك أخيرا قلعة إيليغ (1670) فقضى بذلك لمدة تتجاوز القرن على سلطان اولياء السوس .

ووجد السلطان في سلا تنظيما محكما للقرصنة فلم يفكر في إزالته بل عمد إلى استغلاله لفائدته . ولم تثنه الهجومات البحرية التي قام بها جون ديستري (Jean DESTREES) وشاتورونو (Château Renaud) عن بلوغ غايته ولا كذلك حصار سلاّ وقذفها بالمدافع ولا أسر بعض القراصنة كما لم تضطره المفاوضات إلى اطلاق سراح العبيد النصارى .

ورغم قصر مدته المشحونة بالمعارك فقد امكن له ان يشيد بعض المعالم ... وحملته اعتبارات استراتيجية على بناء جسر من الطابية فوق نهر سبو على بعد اربعة كيلو مترات من فاس أقيم على ثماني حنايا متفاوتة الارتفاع ويبلغ طوله 150 مترا كما حصن السلطان اسوار فاس

البالي وشيّد قصبة خميس (وتدعى اليوم قصبة شراردة) لحماية الشراقة في المغرب الأقصى وجعل منها قبائل الجيش وفي فاس ايضا التي يبدو أنّها كانت مقامه المفضّل بَنَى مدرسة الشراطين على أنقاض مدرسة قديمة بدعوى ان الطلبة دنسوها بمجونهم . ويلاحظ ان الفن المعماري والزينة اللذين اختصت بهما هذه المدرسة ابتعدا بها رغم جمالهما عن صفاء الفن المريني .

ولم يقم السلطان بمراكش الا لماما وذلك لقمع تمرد أحد أبناء أخيه عندما نزا به جواده في بساتين اقدال فألقى به على غُصن شجرة برتقال فتهشم رأسه ولم يتجاوز الثانية والاربعين من عمره (1672) .

مولاي إسماعيل :

قلّ أنْ حظي السلاطين بما حظيَ به مولاي اسماعيل لدى النصارى بعد ان خلف أخاه مولاي الرشيد ، وكان شديد المراس فمسك بمقاليد الحكم في المغرب الأقصى بيد من حديد وطالت ايام ملكه (1672 — 1727) على ان الفضل في عُلو المنزلة التي نالها لا يرجع إلى مرهف شعوره بما يقتضيه مقام الملك بل ان خبره ذاع ومجده علا بسبب بنائه قصر فرساي مغربي ومغامراته النسائية وكثرة ما أنجب هذا الفحل من اولاد من دون كلال وخاصة بسبب محاولاته التزوج من أميرة فرنسية وأصبح بكل ذلك شخصية اسطورية لاتزال طرافتها تفعل مفعولها في المؤرخين إلى اليوم .

ويمكن رسم ملامحه بسهولة لا بالاستناد إلى ما كتبه عنه مؤرخوه بل كذلك بالرجوع إلى شهادة عدد من الاوروبيين الذين اقاموا بمكناس مثل المسمى مووات (Mouette) الذي بقي في الاسر طيلة أحد عشر عاما (1670 — 1681) أو الذين زاروها إمّا لفدية الأسرى مثل الاب بوسنو (Busnot) سنة 1703 او للقيام بمهمة ديبلوماسية مثل الفرنسي بيدو دي سانت اولون (Pidou de Saint Olong) سنة 1793 . فقد بدا لـ « مووت » وهو في الخامسة والثلاثين من عمره « غير مفرط الطول لكن مع تمطّط في قامته » رغم مظهره البدين بسبب ثيابه وكان أكلف الوجه إلى بياض ، مَديدَه ، « جميل الملامح » طويل اللحية مُلسّنها وديع

النظرة . ولاحظ كذلك الأب « بوسنو » بعد ذلك بثلاث وعشرين سنة نحولة وجهه، وبياض لحيته المـُلسنّنَة ، وسواد بشرته مع وجود بياض قرب انفه كما لاحظ اتقادا في عينيه وقوة في صوته . وكان مولاي اسماعيل في شبابه يركض جواده ماسكا أحد ابنائه بيده اليمنى ومُشْرِعًا رمحا بيده اليسرى . وكان عندما بلغ الستين يعلومتن جواده في قفزة واحدة .

وقد تحدث كل معاصريه عن عنفه وقوته وجشعه فيكفي ان يمنى بخيبة او أن يصطدم بمجرد معاكسة حتى يمتقع وجهه فيبدو كالوحش وكان مشهورا بغضباته الرهيبة فكان خدمه يقتربون منه بحذر كبير ، وقد وجده « بيدو دي سان أولان » يقطر دما بعد أن ذبح أحد ضحاياه وأكد السفير سانت أمان (St. Amand) انه لولا حضوره لقطع الشريف رأس العبد الذي لم يمكنّه من امتطاء جواده كما أكد الأب « بوسنو » انّه كان يجد في مثل هذا التقتيل ترفيها له وكان شغوفًا بجمع المال يغتصب اليهود ويبتزّ أرزاق رعاياه حتى الافلاس ولايتورع من اقتراف الجرائم لمصادرة ثروات النّاس . وكان من جهة أخرى لايعرف للتبذير بابا فكان « يعتني بنفسه بمحدوّات الخيل ومساميرها والعقاقير والزيوت والعسل وغيرها من التوافه وبالتوابل الموجودة في مخازنه »، ممّا حمل المسمّى « مووات » وهو أحد رعايا ملك لا وزن له ، على أن يقول : ان مثل هذا العمل « اولى بتاجر صغير منه بملك عظيم مثله » .

لقد كان لهذا السبع العظيم مزاج من نار ويمكن ان نقول في شأنه ما قالته العجوز لكانديد (candide) في سياق حديثها عن كل المغاربة : « ان الذي يجري في شرايينه ليس دما بل هو الزّاج » (Vitriol) وكان شديد الولع بالنساء . فعاشر عددا لايحصى منهن وكان له بدار المخزن خمسمائة جارية من كل لون وجهة وكلهن يغرقن في التجمل والفراغ في انتظار إرضاء شهوات سيدهن . فاذا تجاوزن الثلاثين من عمرهن أقصين الى الحريم القديم بفاس اوتافيلالت . وكانت زوجة السلطان زيدانة عظيمة البنية يميل لونها إلى السواد وذات حظوة كبيرة لدى السلطان الذي كان كذلك يميل ميلا شديدا إلى انقليزية شابة أسلمت . ولو كان في وسعه ان يضيف إلى هذه القائمة فرنسية لفعل . وكان مولاي إسماعيل فخورا بما ينجبه من اولاد حريصا على تقديم حصيلة

كل سنة من اطفاله المزدحمين في ابهاء القصر وقد نسب إليه ستمائة من الذكور وعدد من الاناث لايحصى . وكان هذا « المتوج » يُربّى بسجلماسة .

وكان مزاجه العنيف يحبب إليه خوض غمار الحروب حيث يبدي شجاعة جديرة بالاعجاب. ولم يقتصر على ذلك بل تجاوزه إلى ما هو أعلى وأعظم فكان حاد الذكاء حاضر الجواب دقيقه متأجج العاطفة الدينية إلى حد التبشير ، جموح الطاقة عزوفا عن الترف زاهدا في الموائد الفاخرة مرهف الشعور بمسؤوليته نحو استقلال بلاده وازدهارها الاقتصادي . تلك هي الملامح الكبرى للملك أين منه شخصية شارل الثاني ملك الاسبان أو جاك الثاني ملك الأنقليز اللذين عاصراه .

خضوع المغرب الأقصى :

اضطر السلطان الشريفي طبعا إلى توسيع ملكه بحد السيف وقضى في ذلك خمسة أعوام . فالى جانب الخصومات العائلية التي جعلت أخاه مولاي الحرّان يثور عليه في تافيلالت وحفيده أحمد بن محرز يناوئه في مراكش والسوس واجه السلطان هجمات غيلان وهو من القراصنة المقدامين ومناورات الاتراك الرامية إلى دعم خصومه .

ولمّا بويع ملكا لم يتجاوز نفوذه مدينة فاس التي كان اميرا عليها وكذلك الغرب والريف وجهة تازة فاضطر إلى افتكاك مراكش (4 جوان 1672) وإلى قمع تمرد بفاس والانتصار قرب القصر على غيلان الذي هلك في ظروف غامضة ثمّ التوجه بجيوشه إلى بلاد الجنوب والأطلس التي استجابت لنداء ابن محرز فشقت عصا الطاعة في وجهه . ودخل مراكش عنوة بعد حصار دام سنتين فخربها تخريبا (جوان 1677) فلم تفلت من قبضة السلطان منذ ذاك التاريخ وفقدت بذلك مكانتها كعاصمة . واستعمل ما بقي من معالمها لبناء قصور مكناس .

وليس معنى هذا ان الأمن قد استتبّ . فقد واصل محرز والحران طيلة اثنيْ عشر عاما بث الفوضى في السوس ولم يستقر الأمر للسلطان الشريفي (مارس 1687) الا بعد موتهما وسقوط تارودانت وقتل جميع سكانها . وكان عليه كذلك ان يثخن في البربر الذين تمردوا في تادلا

ومقاطعات الغرب بايعاز واحد من سلالة اولياء الدلاء يدعمه الاتراك . كما اضطر إلى التوغل في تافيلالت ونقل قبائل الشبانات العربيّة إلى جهة وجدة وتأديبها وغزو بني اسناسن الذين لم يرْتَاحُوا إلى مثل هذا الجوار والقضاء أخيراً على قبائل ملوية العليا بواسطة ثلاث كتائب وجهها الواحدة تلو الأخرى .

وهكذا دامت الحرب قرابة ربع قرن قبل ان يذعن المغرب الأقصى ويسْلُس قياده إلى السلطان .

جيش العبيد الأسود وجيش المجاهدين :

نظّم الشريف جيشا لايشك في ولائه وهو مكوّن من جند مُنتخب من بين زنوج السودان وذلك سعيا إلى مسك زمام الأمر في البلاد والتصدي إلى النصارى والاتراك وكان المنصور اتخذ جندا له من بين العبيد السود في جيشه النظامي الذي كان يضم خاصة اسرى من النصارى المعتقين ومسلمتهم من الأندلس أمّا الرشيد فقد اختلف مع ملك بنبرا (Bambara) صاحب سڨو (Segou) لأنه احتضن علي بن حيدر أحد مناوئيه في السوس (أبو حسون ؟) ولم يفكر في جلب الجند من تنبكتو . بينما تمكن ابن حيدر من جمع آلاف من الزنوج في السودان للهجوم على ممالك السلطان . ولمّا بلغه نعي الرشيد سرحهم في السوس . فكوّن مولاي اسماعيل من بين جموعهم نواة حرسه الأسود . ولعله بحث فيما بعد عن احفاد جند المنصور السود الذين كشفت له عن وجودهم الوثائق الرسميّة .

ولم يبادر بإرسال هؤلاء المرسمين إلى القتال بل وجههم إلى مشرع الرمل (قرب السبوبين مكناس وسلا) ممّا أدى إلى تزايد نسلهم اذ كانت مهمتهم الاساسية الانجاب فكان صغار الزنج يرَاضون على الجندية منذ نعومة أظافرهم . واذا بلغوا سنّ العاشرة أي سن البلوغ يساقون إلى السلطان . ولقد دام عرضهم عليه بصورة منتظمة ابتداء من سنة 1688 — 1689 — وكان أول ما يتلقونه تعلم مهنة ثمّ بعد سنتين يتحوّلون إلى بغّالة ثمّ بنائين . ويبدأ تلقينهم فنّ الحرب بعد أربع سنوات وذلك بالتمرن على الفروسية ثمّ يتوّج كل ذلك في السنة الاخيرة بالرماية

والتدرب على بندقيـة الفتيلـة (Mousquet) وفي هذه الاثنـاء توجه الزنجيات الشابات إلى اتقان الفنون المنزلية وتدريب الجميلات منهن على الموسيقى. وعندما يبلـغ أبناء الجند الخـامسة عشرة من عمرهم ينضمّون إلى الجيش ويتزوجون وتكون الجندية مــآل الذكور من اولادهم أمّا الاناث فيعددن إلى التزوج بالجند الاسود او إلى خدمة الامراء .

وفي انتظار ان يزود مشرع الرمل سنويا مولاي اسماعيـل بالجيوش فانـه ضاعف جيشه بجلـب الجند النظامي من تنبكـتو بالقيام بغزوات لسبـي العبيد والحرّاثين من القبائـل الصحراوية .

وكـان القـوم يدعون هـؤلاء الجنـود السـود نظـرا إلى أن اصلهم من العبيد. ويلقبونهم ايضا عبيد البخاري لأنهم كانوا يقسمون على صحيح البخاري الا ّ اذا نتـج هذا التفسير الذي قدمـه هوداس عن خطأ في الـكـتابـة .

وهـكذا اعتمـد الجيش النظامي على الزنوج الصحراويـيـن ونتاج مشرع الرمـل دون سواهم لاتربطهـم بالبلاد رابطـة وليس لهـم الا ان يطيعــوا سيدهم طاعة عمياء وبلـغ عدد هذا الجيش 150 ألف رجل منهـم سبعـون ألفا في مشرع الرمل ، و25 ألفا في مكـناس وهم الحرس الخاص بالشريف اما البقيـة فموزعون على القصبات ، وشارك في كـل الغزوات الكبيرة فنال رضًا السلطان فاسنـد للعبيد وللحراثين حق ّ التملّك (1697 ـــ 1698) .

ولـم يلبث هذا الجيش المحترف ان فطن إلى أنه القوة الوحيدة المنظمة في المغرب الأقصى فأهمـل حرس هذا الطاغية مصالح الامبراطورية وارادوا تسيير الشؤون السياسيـة غير ان التنقيص في عددهـم جعلهـم لايـكونـون في اواخر القرن الثامـن عشر الا ّ الحرس الخاص بالسلاطين وعلاوة على الحرس الأسود فان مولاي اسماعيـل نظـم من الوجهـة العسكـريـة قرصـان الساحل الاطلنطي ووضعهـم تحت قيادة العبيـد وكـان هؤلاء تحت قنـاع محاربة النصارى ينهبـون ضواحي المواني ويكـونون كـلما سنحت الفرصة عصابات يقودها رجال مقدامون مثل العياشي وغيلان، قادرة على الوقوف في وجه السلاطين . ويظهـر ان السلطـان الشريفـي استجاب إلى مطامح غـلاة المسلمين عندما سوى وضعيـة هؤلاء المجاهدين ، وكـان في الواقـع

يروم الاستعانة بهم لتحرير المواني المغربية من احتلال النصارى وتأثير الاتراك .

وكان جيش مولاي اسماعيل يضم أيضا نسبة لايمكن ضبطها من مسلمة النصارى ليس لدينا معلومات مستوفاة في شأنهم اللهم ما رواه عنهم واحد منهم وهو الانقليزي طوماس بلو (Thomas Pellow) فقد كانوا يكوّنون كتائب مستقلة قلما تقيم بمكناس ؛ وليس لنا علم بأن واحدا منهم تقلد مهام عالية في المخزن كما كان الشأن في عهد بني سعد .

وكان معظم هذا الجيش النظامي القومي ينتصب خارج المدن في القصبات المنعزلة . ولقد التجأ مولاي اسماعيل ليقبض بيد من حديد على هذا البلد المضطرب إلى الاعتماد على طريقة المراكز المحصنة التي تحرسها حاميات قارة ، واستعمل القصبات الموجودة قبله وبنى على حد قول الزياني ستّا وسبعين أخرى . وتنقسم هذه القصبات حسب « تراس » (H Terrasse) إلى ثلاثة أصناف : فصنف يراقب ويتحكم في المناطق التمردة (خاصة الأطلس الأوسط) وصنف مهمته حراسة طرق المواصلات (الطريق التي تصل تازة بوجده وفاس بتافيلالت وفاس بمراكش (الخ) وصنف ثالث يقوم للعبيد مقام الثكنات وذلك على مقربة من بعض المدن الكبرى .

الجهاد ومقاومة الأتراك :

رجع مولاي اسماعيل إلى سياسة الغزو كأعنف ما تكون بعد ان توقفت اثر موت العياشي (1641) فافتك المعمورة من الاسبان وغنم فيها مائة مدفع (1681) وكاد ان يدخل طنجة وكان الانقليز حاولوا بعد سنوات من التردد والتوسع خارج اسوار المدينة حيث ضاقوا بها ذرعا، غير ان لندرة كرهت توخي سياسة القوّة الباهظة الثمن المشكوك في نتائجها . فقد كانت مغامرات « كتيبة طنجة » تتسبب في ثغرات لاتسد الا بمستجدين من الجند يرثى لمستواهم وكان الولاة يضاربون بوظائفهم والضباط يتحولون إلى تجار غششة والجند يفرون او يتمردون لانّهم كانوا يموتون جوعا ولا يتقاضون أجورهم وان أهم ما ترتب عن الميثاق البلدي المؤرخ

في سنـة 1668 الذي اعتبر طنجـة مدينـة مثل سائر المدن الانقليزيـة هـو تمكين المستشارين البلديين من امتيازات تجارية ، وكـان في امكـان الميناء الذي كـان يحميـه الضباط البحارة بواسطـة مكسر للأمواج منيـع ان يـكون قـاعدة بحرية آمنة للأسطـول الانقليزي ، كما انّه كـان من المفروض ان تزدهر التجارة سريعـا بدفـع من اللاجئين الفرنسيين المطرودين من قادس وبفضـل الغنائـم الهولندية ، غيرَ ان المـال العين شح وباء مشروع احداث شركـة مغربيـة كبيرة بالفشل نتيجـة لمعارضـة تجار طنجـة وجشع الولاة الذين كـانوا يخشون منافسة موانٍ مغربيـة أخـرى . وزاد الطيـن بلـة حصـار مولاي اسماعيـل للمدينـة سنة 1679 فعطـل التجارة ومنـع الانقليـز مـن اقامة التحصينات خارج الاسوار (افريل 1681) وكـان في لندرة مجلس العمـوم يخشى ان تزّود حاميـة طنجـة منبـع « الجنود الموالين للبابا » الملك شارل الثاني بالقوى الكافيـة للقيام بانقلاب ضد البرلـمان فرفض الاستجابة إلى النجدة التي تقـدم بها العرش « مشترطا ان يقتنـع بوجود خطر واضـح متـأت من الحركـة البابوية » وحرص الملك الذي آل به الأمر بعـد حـلّ البرلـمان إلى العيش بمـا يمنحـه إياه لويس الرابـع عشر من اعانات على الا يبذر مـوارده في سبيـل طنجـة، فأمر باخلاء المدينـة بعـد تخريب كـل مـا فيهـا بمـا فيَ ذلك مكسر الأمواج المنيـع (5 فيفري 1684) ، ولاقى الرأي العام الانقليزي هذا الاجراء بعيـن الرضـا نظـرا إلى انه لم يسلـم الميـنـاء إلى منافسيهـم الاوروبييـن بل إلى السلطان الشريفـي وذهب الظن بجيـوش مولاي اسماعيـل إلى أن سبـب رحيـل الانقليز انّمـا هو الحصار الذي ضربوه على المدينـة سنـة 1679 وهجوماتهـم المتـكررة عليهـا . ووَطّن الشريف بهـذه المدينـة الخربة سكان منطقـة الريف وافتـك المجاهدون بعد ذلك العرائش سنة 1689 وأصيـلا سنـة 1691 وهـكذا تخلص الساحـل الاطلنطي من دنـس المسيحيين الاّ المنطقـة البرتغاليـة في مزغان، وبقيـت في أيدي النصارى على ساحل البحر المتوسط حصون مليلة وسبتة وحجـر خزامى وحُجْر باديس . ولمـّا اضطرت الحاميات الاسبانيـة إلى الاعتماد على نفسهـا مثـل حاميـة طنجـة وهي التي لم تدفـع لهـا جراياتهـا على الوجـه المرضي ولم تأتها الميرة بصـورة منتظمـة وقاست من استقلال الولاة لم تقدر على فك الحصار الشديد الذي ضربتـه عليهـا القوات الشّريفيـة ولكـنّهـا لم تنخذل امام هجماتهـا المتـكررة . ولم يُجْد مولاي اسماعيـل نَفْعـا

ما قام به أمام سبتة من بناء رباط فيه قصر للقائد ومسجد لتأكيد عزمه الراسخ على فتح هذا الحصن اذ صرفته عن ذلك أمور خطيرة ونجت المدينة من قبضته بسبب الفوضى التي عقبت موته .

ان مقاومة السلطان لاتراك مدينة الجزائر استأثرت بسياسته أكثر من حربه للنصارى فقد استحال بفضل المجاهدين ان يتسرب إلى المغرب الأقصى عن طريق موانى الغرب ولو قائد واحد من قواد العصابات التركية .

غير ان الشريف اضطر بالنسبة إلى حدوده الشرقية للاكتفاء بانتصارات منقوصة ذلك ان مستوى جيش السودان كان دون مستوى الجند الجزائري ، ولم يغب عن السلطان أن الترك كانوا يشجعون الثورات في المغرب الأقصى . فزحف حتى جبل عمور لاحباط عزائمهم لكن المدفعية التركية اجبرت جموع الجيش الاضافي العربي على الفرار واضطر مولاي اسماعيل مثل أخيه الرشيد إلى الاعتراف بأن تفنا هي الحد الفاصل بين الترابين (1679) .

وعاود الكرة بالاتفاق مع باي تونس بعد خضوع السوس نهائيا ولكن الحليفين لم يهتديا إلى التنسيق بين تحركات جيوشهما فانهزما الواحد بعد الآخر (1692) . ولمّا توصل ابنه زيدان حاكم مقاطعة تازة إلى افتكاك تلمسان أثر هجمات قليلة لم يستغل نجاحه . فأنكر عليه الشريف موقفه وتولى بنفسه قيادة جيش توغل إلى وادي شريف حيث مُني بهزيمة نكراء وجرح مولاي اسماعيل واوشك ان يقع في ايدي الأتراك الذين رجعوا إلى الجزائر يحملون ثلاثة آلاف من رؤوس الجند (28 افريل 1701) ورغم هذا فلم يثنه ذلك عن المضي قدما ، في تحقيق مشاريعه بل ان أمله في اضرام نار الحرب في قلب الايالة من جهة الجنوب لم ينقطع بعد ان اطمأن من أخطار زحف يأتيه من جهة الحصون الحارسة لحدوده الشرقيّة . خاصة وقد أمكن لاحد ابنائه احتلال جهة عين المهدي غربي الاغواط كما تمكن أحد احفاده من تركيز حامية ببو سمغون بين عين صفراء وجيري فيل (Géryville) (1710 — 1713).

وكان التمرد المتكرر لوجق الجزائر وثورات القبائل تسهل هذا الغزو غير ان الشريف انشغل في المغرب الأقصى بما نشب بين ابنائه من خلافات فضيّعَ الفرصة .

التجارة والعلاقات الخارجية :

بقدر ما كان مولاي اسماعيل حريصا على المحافظة على سلامة المغرب الأقصى من تدخل النصارى والأتراك كان معتنيا بتنشيط الحياة الاقتصادية . فقد كتب عنه أحد الفرنسيين المقيمين بالمغرب الأقصى مقارنا بينه وبين سلفه قائلا : « كان يتمنى لرعاياه الازدهار ولثرواتهم النمو وذلك بواسطة التجارة التي كان يؤثرها على القرصنة التي كانوا يمارسونها ويتعلقون بها بشغف أخذ يتناقص مع الايام » والواقع ان قراصنة سلا وتطوان لم يعودوا لقلة عددهم وضعف عُدّتهم خطرا حقيقيا الا بالنسبة للمراكب الصغيرة. ويؤكد القنصل ج. ب استيل (J. B. Eestelle) قائلا سنة 1699 « ان خواص سلا يملكون بين العشرة والاثنى عشر مركبا لم يعودوا يملكونها لأنهم تعودوا عندما يأتون بالغنائم ان يتعلّل عليهم ملك المغرب الأقصى ويستحوذ عليها » .

وكان للتجارة مكانة في الاقتصاد المغربي ارفع ممّا كان عليه الأمر في مدينة الجزائر وحتى مدينة تونس ذلك ان الشريف كان مهتما بها خاصة وانه يتقاضى عشرة في المائة اداء على جميع البضائع الواردة أو الصادرة وحتى 25 في المائة ضريبة على تجارة الشمع العسلي .

ونحن نجد فيما دونه « بيدو دي سانت أولون » من مهمته بالمغرب الأقصى معلومات دقيقة حول التجارة سنة 1693 وقد كان اليهود والنصارى في الواقع يحتكرون النشاط التجاري وكانت سلا وتطوان « مركزي النقل ومنهما كانت البضائع تسوّق بسهولة أكبر » امّا نشاط آسفي وأكادير فقد كان أقل من ذلك ويعتمد على البضائع الآتية من تافيلالت والسوس . « وكانت مدينة فاس بمثابة المغازة العامة لكافة بلاد البربر » وهي مركز للتوزيع يُنشّطه خمسة آلاف يهودي » « وقد اشتهرت المدن الساحلية بصناعة الجلود الحمراء وهي أجمل ما كانت تصنعه البلاد .

وكان يجلب من اسبانيا القرمز (Cochenille) والزنجفر (Vermillon) ومن انقلترا الاجواخ وودع غينيا وهو نوع من المحار له قيمة النقود في هذه البلاد كما كان يجلب من هولاندا الاجواخ والكتان والتوابل بانواعها والاسلاك الحديدية والصّفْر (Laiton) والفولاذ والجاوي والأصْطُرك أو اللُّبْن والزنجفر والمرايا الصغيرة والانسجة الموصلية المستعملة للعمائم ومن حين إلى آخر الاسلحة وغيرها من العتاد الحربي وكانت ايطاليا تصدر الشب وقوالب الكبريت (Souffre en canon) والدمى المصنوعة من الفخار في البندقية . وأمّا الشرق فقد كان يزودها بالحرير والقطن والزرنيخ الأصفر والزئبق والزرنيخ الأحمر والافيون .

وكان الانقليز والهولنديون يودعون بضائعهم في قادس ومنها تأخذها المراكب البرتغالية .

ويمكن إكمال المعلومات المتعلقة بالربع الأول من القرن الثاني عشر بالرجوع إلى القاموس التجاري العام لصاحبه سفاري دي بروسلون وكان المغاربة واليهود يتزوّدون من المستودعات النصرانية الموجودة على السواحل بالبضائع الاوروبوية ثمّ يوزعونها على الفروع الثانية بفاس ومكناس ومراكش وتارودانت وإيليغ (Iligh) وظلت مكناس في الصدارة بالنسبة لسوق الحبوب والجلود والشموع . أمّا مازاد عن حاجة هذه المدن الخمس فيوجه إلى تافيلالت « حيث يستبدله العرب بالتّبر والنيلة وريش النعام والتمر وفي بعض الأحيان انياب الفيل التي تدعى أيضا العاج . وبقيت تجارة القوافل نشيطة مع السودان .

وغالبا ما كان القناصل والتجار النصارى والمغامرون الذين يستغلون أخوانهم في الدين وأهل البلاد على السواء وقد اتهمهم « مووات » (Mouette) وهو الذي خَبَرهم ، بانهم يشترون من القراصنة الغنائم التي يزهد فيها المغرب الأقصى قصد بيعها في أوروبا باربعة امثال تمنها . بل ان الأدهى من ذلك هو أنهم كانوا يتاجرون بالأموال التي يأخذونها لفدية الأسرى ويتركونهم في الاصفاد موهمين عائلاتهم بانهم بصدد التفاوض مع السلطان .

وكانت تجارة فرنسا مع المغرب الأقصى تحتل في اواخر القرن السابع عشر المكانة الأولى وتلقى من الشريف كل تشجيع غير ان كبرياء لويس الرابع عشر وعنجهيته افسدتا وضعا كان من الممكن ان يكون في صالحه لو توخى شيئاً من الحذق واللباقة . ذلك ان مولاي اسماعيل أكد لممثل الملك منذ اعتلائه العرش انه سيعمل على سلامة المراكب الفرنسية من القرصنة وسيسمح بتصدير كافة أنواع البضائع التي تنتجها بلاده وخاصة النحاس والحديد المصبوب الأخضر (آهن) بعد ان منع كل ذلك المرحوم أخوه « ويساعده على فدية الأسرى . وتبادل الملك، وهو النصراني الغيور ، السفراء مع السلطان الشريفي طيلة العشرين سنة الاخيرة من القرن السابع عشر ولكن لويس الرابع عشر أفسد كل ذلك بتوخيه سياسة العظمة .

ففي سنة 1682 قدم محمّد تميم من البلاط الفرنسي بمشروع معاهدة سلم صالحة لستّ سنوات وتضمن فيما تضمن للفرنسيين حريّة الملاحة والتجارة . وكان الشريف مستعدا للتوقيع عليها لو لم يفد عليه السفير الفرنسي « سانت أمان » باسلوب يمس بالكرامة فقد كان مكلفا بالسعي إلى إدخال تحويرات من شأنها ان تغيّر المقصد الأول من المعاهدة وفيما يتعلق بفدية الأسرى المغاربة الذين كان مولاي اسماعيل اقترح تعويض كل واحد منهم بأسير نصراني وثلاثمائة ليرة .أوصى « كلبير » (Colbert) مبعوثه باستعمال « كل ما اوتي من اللّباقة لاجتناب الجواب عن هذا الموضوع » اذ كان يفكر قبل كل شيء في التكثير من عدد المجدفين ووقّع السلطان على معاهدة السلم في 14 ديسمبر 1682 بعد ان رفض الملحقات التي اقترحها سانت امان ــ وهكذا لم يوجد حل لمسالة الأسرى .

واصطدم محمّد تميم في بعثة ثانية بعراقيل في ميناء طولون لاسباب شكلية تافهة وعبثاً حاولت سلط فرساي ترهيب المغرب الأقصى بتنظيم مناورات بحرية . واعتصم الملك وهو النصراني الغيور والسلطان الشريفي بكبريائهما ــ فهذا لا يأبى التفاوض الا مع السفراء لا التجار وذاك يسعى إلى حمل الأمير البربري على الاعتراف بتفوقه وقبل لويس الرابع عشر في آخر الأمر ارسال « بيدودي سانت اولون » وهو

أحدُ نبلاء بلاطه العاديين إلى مكناس في اوائل 1693 – ولكن المفاوضات لم تكلل بالنجاح فكان لذلك انعكاس سلبي على تجارة فرنسا ووجودها .

وقد مكنت انتصارات لويس الرابع عشر على اعدائه في اوروبا من استئناف المحادثات . فمال أمير البحر ابن عائشة إلى فرنسا بعد ان كان مواليا للانقليز وقدم إلى البلاط حيث أصبح شخصية مرموقة (1698) فكانت إحدى السيدات النبيلات أقل صدودا عنه ممّا لاقى السلطان الشريفي من الملك . ورجع المغربي بخفي حنين لمّا لم يرض بالتنازلات التي عرضت عليه مقابل تعويض الأسرى . واغتاظ مولاي اسماعيل لذلك وأظهر غضبه بدون مواربة . فعاب على الملك نقضه لما تعهّد له به المتكلم باسمه مساعد أمير البحر « دستر » وكتب له قائلا : « كان على ابن عائشة الرجوع لأننّا لسنا في حاجة لاي شيء منكم فسواء عندنا حربكم اوسلمكم » . غير انّه لم يقطع العلاقات بل انه رأى من المستحسن تمهيدا إلى ابرام حلف بينه وبين لويس الرابع عشر طلب التزوج من لقيطة من العائلة المالكة الأميرة دي كونتي الحسناء التي أطنب ابن عائشة في ذكر محاسنها وقد ضمن لها حرية المعتقد . وضحك القوم في بلاط فرساي ضحكا كثيرًا لهذا العرْض الذي لم يدرك مولاي اسماعيل إلى أي حدّ كان به مدعاة إلى السخريّة . وكان الجواب الوقح انه عليه ان يعتنق المسيحية .

واستفاد الانقليز في أوائل القرن الثامن عشر من هزائم البحرية الفرنسية وتدهورها فاحتلوا جبل طارق . وكانت سياسة ملك الاسبان تعمل على المباعدة بينه وبين السلطان الشريفي الذي كان يحلم باسترجاع سبتة . ورغم ذلك حاول آباء الرحمة والثالوث (La merci et la trinité) مواصلة مفاوضات مستعصية في مكناس لفدية الأسرى ولكنهم تصادموا مع قنصل فرنسا بسلا . وفي نهاية الأمر أمكن تعويض عشرين من الأسرى فقط سنة 1712 . واستفحل الامر بعد سفر الآباء – وبسط البروتستان اللاجئون من جهة اللانقدوك (Languedoc) ايديهم على التجارة فاتهمهم بنو جلدتهم بمساعدة الأنقليز والهولندين على حساب « الأمة الفرنسية ». وقد أسلم أحدهم وأصبح واليا على سلا ولمّا فقد القنصلان الفرنسيان مكانتهما لدى السلطان بسبب تأثير اخوانهم في الدين

عليه اضطرا إلى مغادرة سلا (1710) وتطوان (1712) وظلت فرنسا طيلة اربعين عاما بدون ممثل لها في المغرب الأقصى ممّا اتاح للانقليز ان يتبؤوا المرتبة الأولى في حركة التجارة المغربيّة .

وكتب في هذا الصدد ج . هردي : « لقد أعوزت لويس الرابع عشر اللباقة وروح التفهم للناس وللاشياء في المغرب الأقصى ولم يظهر في معاملته كياسة ولا احتسابا ولو بسيطا » وهو أمر يتضارب مع « اخلاص » السلطان . فكانت ضريبة المجد الذي طلبه الملك لنفسه افلاس التجارة الفرنسية .

مكناس :

كان مولاي اسماعيل شديد الولع بالبناء على غرار لويس الرابع عشر الذي يقال انه حاكاه بينما بدأت الأشغال في مكناس مدّة غير قصيرة قبل ان يبلغه خبر مفاتن فرساي . فالملوك يقيمون الدليل على عظمتهم لرعاياهم وللتاريخ بما يشيدونه من المعالم . فقد تعلقت همّة السلطان الشريفي باقامة مدينة لائقة بمقامه وهو الذي يكره فاس ومراكش بسبب تمرّدهما عليه . فاختار موقع مكناس الرائع . وهو سهل ممتد بين نجاد خصبة يشقه نهر يكسبه الأخضرار واعتدال المناخ وهو إلى ذلك يتحكّم في مسالك الأطلس المتوسط وزرهون ولم يخلق المدينة من عدم فمكْناسة الزيتون التي تستمد اسمها من قبيلة مكناسة الزناتية لم يكن لها ماض يذكر .

وقد يكون المرابطون حصّنوها ثمّ أساءَ الموحدون معاملتها اذ انّها استمدت ثروتها من التجارة في القرن الثالث عشر. واقام بها بنو مرين قصبة ومسجدا (1276) وزاوية وفنادق ومدوا فيها قنوات المياه واقاموا جسورا ثمّ بنوا في أواسط القرن الرابع عشر المدرسة البوعنانية الجميلة ببابها ذي المصراعين المغلّفَيْن بالبرنز المنقوشين المخرمين وبقبتها المضلعة المشرفة على المدخل . وقد نوه ليون الافريقي في أول القرن السادس عشر ببساتينها ومروجها وتدفق مياهها ومناعة موقعها واهمية اسواقها غير ان الفضل في بعثها يرجع إلى مولاي اسماعيل .

وسخر الشريف لبنائها 2.000 من النصارى ، لا 25.000 كما قيل ، وحوالي ثلاثين ألفا من مساجين الحق العام والذين وقع اسرهم في صفوف المتمردين ومن العملة الذين كانت القبائل تسخرهم له ، ولاشك انه استعمل الشبان السود في السنّة الثالثة من تكونهم .

وكانت معاملة الأسرى قاسية . فكانوا يقتادون كل يوم عند الفجر من دهاليزهم ويوزعون على فرق يقود كل واحدة منها زنجي لايبخل عليهم بضرب السياط . فمنهم من يهدّم الجدران العتيقة بواسطة « معول ثقيل جدا » ومنهم من يجمع ويدقّ بشدّة بواسطة خشبتين « طينا مخلوطا بالحصى والكلس تتماسك كلها لفرط تحريكها ورشها بالماء » . ثم يرفعون هذا الملاط لاستعماله في البناء وكان نقل هذه المواد يرهق أبدانهم والسلاليم تحز في اقدامهم وحبال الجرّارات تدمي اكفهم — وكان بعض الأسرى المكلفين بأفران الكلس يموتون حرقا .

وكان الشريف لايعرف شفقة ولا رحمة. فقد روى « مووات » انه صرع برصاصة رجلا من مقاطعة بريطانيا « توقف عن العمل ليسترجع النفس » ولنفس الغرض شك بضربتين من رمحه عبدا آخر . وكان لايرفق حتى بخدمه الخاص » فقد زار سنة 1696 احدى حضائره فخيّل إليه ان الأشغال تسير ببطء ، فأمر بجلب المكلف بقصر الملك حالا فصبّ عليه جام غضبه رغم انه من المقربين في بلاطه ومن المتمتعين بكامل ثقته والقائمين على شؤون قصوره ثمّ أمر بجلده خمسمائة سوط بعد ان اشبعه ضربا بنفسه » واعتبر في مرّة أخرى ان عددا من الآجر ارهف ممّا يجب فكسّره على رأس المشرف على الحضيرة . وكان فضلا عن ذلك لايتردد في أخذ المعول بين يديه لاعطاء المثال .

وكان بناء مكناس عمل عدد عديد من النّاس خاضعين لمشيئة سيدهم . فكانت في النهاية أقرب إلى هيكل ضخم منه إلى عمل فنّي .

ولم يغيّر تغييرا بارزا في نظام مدينة مكناس القديمة . غير انه أمر ببناء عدّة مساجد مثل مسجد باب بردين الكائن شمال المدينة وأمر كذلك بهدم الحي الجنوبي الذي كان يضايقه فيما كان يزمع بناءه

(حافظت ساحة الهديم على ذكرى هذا التهديم) وأذن ببناء حي لليهـود (ملاح) وأصبـح ربضا يقـع غربـي المدينـة الاسلاميـة .

وكـانت المدينـة السلطانيـة بنيت جنوب المدينـة القديمـة وهي مدينـة بـأتم معنى الـكلمـة دارت بهـا اسوار بعـد اتمامهـا طولهـا 25 كيلو مترا . وقد أمر مولاي اسماعيـل ببناء قصـر كبير سمّاه الدار الـكبيرة على انقاض القصبـة المرينية والحي الذي هدمه . وكانت ثلاثة اسوار تحـوط به في الشمال الشرقي . فالاول وهو اقلهـا علـوا يحتـوي على ابراج مربعـة والثاني وهو متوسط الطـول جعل مطافا للحرس امّا الثالث وهو يفـوقهـا علوا بكـثير فهـو يحمـي الحريم . ولم تـكن الجوانب الأخرى محوطة الا بجدار واحد. فـكانت مدينـة أكـثر منهـا قصرا لم يبق منهـا الا آثار غير واضحـة المعالم وان هي لم تخـل من العظمـة احيانا . وكـانت البنايـة الرئيسية تتركب على حد قول الزياني من عشرين جناحا « ابراجها المربعة الجميلة المغطاة بالقراميد الخضراء » تشرف على البـراري. وعلى بعـد قليـل منهـا قـامت متناظرة اربعة اجنحة كبيرة » وشـيّـد مسجدان عظيمان هما مسجد الزهور ومسجد للاعودة .

ثمّ أمر مولاي اسماعيـل بتخطيط حدائق عديدة في الجنوب الغربـي من هذه المجمـوعة واحاطهـا بجدران وبنايات وفي جنـوب هذه الحدائق شيّدت بعـد ذلك مجمـوعة أخرى من القصور منهـا ما رُمّم في القرن التاسع عشر وأصبـح يكـوّن اليوم دار المخزن وأخيرا أقيمتْ غربـي الـدار الـكبيرة مدينـة الرياض المخصصـة لـكبار موظفـي المخزن ، ولم يبـق منهـا الاّ باب الخميس الرائـع الذي تحيط بفتحته الشبيهـة بحدوة الفرس ركـنيات سوداء وإطار من الفسيفساء الخضراء ويعلـوه إفريز من الـكتابات الدارجة السوداء ، وتأتي هذه الزخارف على أرضيّة من الآجر ويستند إلى هذا الباب بريجان بارزان أحدهمـا في حالة خراب » .

وأضيف إلى هذه المجمـوعات الاربـع فروع عديدة : فهـذه قصبات تضـم سرايـا من الجيش الأسـود وهـذه مروج متراميـة الاطراف صالحـة للاستعراضات العسكرية أو هي مراع لمواشي السلطـان ، وهذه بركـة فسيحة تذكر بالمرايا المائيـة في مراكش » وتلك مخازن واصطبلات عديدة . وبقيت اليوم من هذا البناء الضخم العرصات والطاقات وأغلـب الظن انـه

كان يضم الاصطبلات الكبيرة ومخزنا للحبوب وكانت الاصطبلات تبدو لـ ب . بوسنو (P. Busnot) أجمل ما في القصر بصفين من الطاقات طولها ثلاثة ارباع فرسخ وبالقناة التي تزودهما . وكانت الجياد المقيدة من أرجلها الاربع في حلقتين بواسطة حبال من شعر يقوم عليها سواس مسلمون وغلمان نصارى . وعلاوة على هذه الاصطبلات كان للسلطان حظيرة للوحوش تنتظم فيها بأمر مصارعات هذه الأسود والذئاب (؟) مع الكلاب .

وكان الشريف لا يأنف من تشريف زواره المرموقين بجولة معه في املاكه فقد أعجب الانقليزي « جون وندوس » فيما رواه من خبر عن مهمّة القائد البحري « ستيوارت » سنة 1720 بكثرة الفسيفساء ومنظر البنايات » التي جمعت بين الجمال والروعة والبساطة » ومستودعات الأسلحة والقباب ومقر محظيتيه او قبة الحضرة والسطح المشرف على الحدائق على طول يبلغ نصف ميل ومعامل السروج والاسلحة وخاصة البناية المقامة على دعائم رومانية جلبت من آثار وليلى . وقدم للزائرين اثناء هذه الجولة لمجة من الغلال والحلويات .

وآخر ما بناه الشريف كان باب منصور العلج النصراني الذي اسلم وأتمّه ابنه . وهو اضخم باب في مكناس . وكانت الفسحة العظيمة التي هي على شكل حدوة فرس منكسرة تستند إلى بريجين بارزين مقامين على طاقات . وعلى كل جانب اقيمت اسطوانة عالية تحمل « ما بين فرجتين (trumeaux) موشوريتين (prismatiques) ان الشكل الغالب يظهر في شكل مشبكات ملتوية تبرز في نتوء على أرضية مسطحة خضراء مذهبة مغطاة بالفسيفساء المبرنقة . وتمتد على طول الافريز الأعلى كتابة عريضة جميلة بحروف دارجة سوداء يعلوها خط من اكتاف الشرفات . أمّا النسب فثقيلة، والمساحات مستعرضة (méplates) غير ان المجموع لايخلو من جلال (ب. ريكار) .

حكم الشريف :

ان هذه الارادة الفولاذية التي أظهرها مولاي اسماعيل في تحريره للبلاد وتشييده لمكناس تجلت ايضا فيما توخاه من اساليب الحكم فقد

كـان يقـرر كـل شيء بنفسه ، ولايسمـح بأية معارضـة وليس له من التـزام الا ما تمليـه عليـه مشيئتـه . وقارب في عهـده ان يندمـج المغرب الأقصى وبـلاد المخزن لأن قبائـل الأطلس الأعلى اعترفت في بعض الأحيان بـان لهـا سيدا .

قـال مولاي اسماعيـل ردا على ملاحظـة سفير لويس الرابـع عشر « ان ملـككم لويس يحكـم بشرا امّا انا فانـي احكـم أجلافـا لذلك استعمـل الارهاب للمحافظـة على الأمن» فـكانت اساليبـه المحببة إليـه لأشعار النّاس بسلطتـه هي اغتصاب السلاح والجياد وتخريب مناطق كـاملـة بواسطـة جنده وجعلهـا اثرا بعـد عين و كـذلك التقتيل الجماعي ، وبالتالي فقـد كـان دائما على أهبـة التفاوض مع خصمـه الذي غزاه وأخذه عند الحاجة في خدمتـه مثلما فعـل مع الدلائيين وبقدر ما كـان قاسيـا عند القمـع كـان يعـرف كيف يجتـنـب الثورات باحكام مراقبـة يقظـة في المناطق المضطربـة وذلك بواسطـة قصبات تقيم فيهـا حاميات تـكوّن من 400 إلى 3.000 رجل تمونهم القبائـل .

و كـانت هذه القصبات عبارة عن مؤسسات مستقلـة مقامة في اراض حرّة لهـا مخزنهـا ومسجدها وهي في بعض الأحيان محاطـة بسوريـن أصغـرهمـا يضـم إلى البنايات والآخر يستعمـل ملجأ لأهالي المنطقـــة عند الحاجة ــ امّا مسؤوليـة هدوء المنطقـة فراجعـة إلى رئيس المركـز وهـكذا ساد الأمن البلاد بصـورة منقطعـة النظيـر ولقـد أكـد الزيانـي انه « بامـكان يهودي او امرأة قطـع المسافة الواقعـة بين وجدة ووادي النون من دون أن يتجرّأ أحد ويسألهمـا من اين أتيـا او الى أين يذهبان » .

و كـان مولاي اسماعيل يستعين بالشرفة لمغالبـة مناوأة الأولياء المؤيدين من الاتراك و كـان مثل الرشيد يختار من بينهـم مستشاريه . و كـان الولي الوحيد الذي حظي بثقة السلطان هو ولي وزان الذي سمّاه واليا عليهـا وهو إلى ذلك من الشرفة .

خلفـاء مولاي اسماعيل :

كـان المخزن هيكلا رهيبا يستمد سلطته من مولاي اسماعيل وحده . فما كـاد ان ينتهـي عهده حتى أذ نـتْ ثورات ابنائه ببداية انهياره . و كانت

الامبراطورية تئن تحت وطأة هذا النظام القاسي فلمّا مات الشريف (1727) لم تلبث الاطارات التي ركزها بمشقة ان تلاشت. ذلك ان الاولياء والاتراك عادت لهم صولتهم من جديد ومضت القبائل تتزود من السلاح والجياد شاقة عصا الطاعة . ورمى العبيد أرضًا بالآجر الذي كانوا يشقَوْنَ بحمله فيما تبقى من حظائر البناء .

وانتصب العبيد خاصة أسيادا فعينوا أحد ابناء الشريف مولاي أحمد الذهبي لسخائه فسمح لهم بتقتيل الولاة الممارسين لمهامهم . ولكنهم ما لبثوا ان عوضوه بأخيه عبد الملك الذي سرعان ما خلعوه أيضا حالما لاحَ لهم بُخْله الكبير ولأنه كان يبحث عمن يتحالف معه من عرب وبربر الأطلس الأوسط لمقاومتهم والتجأوا مرّة أخرى إلى الذهبي ولكنه مات مريضا بعد بضعة أشهر (1729) .

عند ذلك كلفوا من يأتي من سجلماسة بولد آخر لمولاي اسماعيل هو مولاي عبد الله ليتبوأ الحكم ، غير أنّه ما لبث ان اختلف مع أهل فاس ثمّ مع أوداية وأخيرا مع العبيد الذين مكنوه من تسليط قسوته على أوداية وفاس فلمّا خذلوه اضطر إلى ترك الحكم والفرار إلى جهة وادي نون (1735) وعوضه أخوه مولاي علي الأعرج ، وكان رجلا لطيفا ضعيف الشخصية عاجزا على حفظ النظام في بلد متداع ، فكان من السهل على مولاي عبد الله انّ يرجع إلى الحكم ويستأثر من جديد بثقة الجند (1736) غير ان هذه الفترة الثانية من حكمه لم تدم طويلا اذ ان مظاهر جديدة من القسوة ألبّت عليه حاشيته ، فلاذ بالفرار واعتصم ببلاد البربر ، ومنها قاد عدّة هجمات ضد أخيه وخليفته سيدي محمّد بن عربيّة الذي لم يكن له أي نفوذ على أوداية ولا على العبيد الذين يدين لهم بعرشه ، وكانت الفوضى تتزايد والمجاعة تعم البلاد وثار العبيد مرّة أخرى وجربوا سلطانا آخر وهو مولاي المستضيء أحد ابناء مولاي اسماعيل . وكانت التجربة فاشلة هذه المرة أيضا ، ولمّا أعياهم الأمر نادوا بمولاي عبد الله (1740) فأظهر في أول الأمر شيئا من المرونة ولكن ما بالطبع لايتخلف ، فخلع للمرّة الثالثة والتجأ من جديد إلى البربر (1745) بينما تمكن أحمد الريفي باشا طنجة من حمل النّاس على مبايعة مولاي زين العابدين سلطانا بمكناس ، وعجز السلطان الجديد عن دخول فاس التي أبت الاعتراف به ،

وسرعان ما تخلى عنه العبيد فـأصبح مولاي عبد الله الّذي كان دائما بالمرصاد سلطانا للمرّة الرابعـة (1745) فظهـر السلطان المستضيء على مسرح الأحـداث من جديد يؤيده أحمد الريفـي ولـكن مولاي عبد الله تمـكن بعـد عناء شديد مـن الانتصار عليهمـا الواحد بعـد الآخر ثـمّ استـولى على مراكش حيث نصب ابنـه محمـّدا نائبا للملك (1750) وعرف جنوب المغرب في عهد هذا الحاكـم الحكيم المعتدل فترة من السلـم النسبية بينمـا كـان الشمال مسرحـا للصراع بيـن العبيد وأوداية والبربر الذين كـان مولاي عبد الله يقف منهـم جميعـا موقف التلاعب والتظاهر بالحياد . غير ان العبيد أرادوا سنة 1752 مبايعـة ابن السلطـان ملكـا عوضا عن أبيه ولـكن سيدي مُحَمّد رفض ذلك في إبَاءٍ واستطـاع مولاي عبد الله ان يمـارس حُـكْمًا مهلهلا إلى أن مـات سنـة 1757 .

ورغم الفوضى المزمنة فان النصارى لم ينقطعـوا عن التجارة وواصلوا محادثاتهم فيمـا يخص فدية الأسرى . وأقصى الهولانديون وخاصـة الانقليز شيئـا فشيئـا الفرنسيين عن الاسواق وكـاد الانقليز ان يحتكـر المبادلات في تطوان واقتسمـوا مع الهولانديين تجارة الاجواخ والـكتان والتوابل المستحضرة من سلا وآسفي وكذلك تسويق الشمـع العسلي وجلـود المعز والنحاس في أكـادير ، وكـانت الاصواف المغربية يصدرها الانقليز صوب مرسيليا عن طريـق ڤرنة . وهـكذا ما انفكت التجارة الفرنسية في تدهور ، غير انهـا ظلـت في اواسط القرن الثامن عشر حسب ما ورد في أخبار ذلك العصر أهم ممّا كانت عليه في الأسْكِلَةِ الثلاث الاخرى لبلاد البربر ولئن تعذر على نحـو ما فَعَلَ الإنقليز ابرام معاهدة تجاريـة جديدة كـان يعتزم ج. أ. ري وهو تاجر من مرسيليا يعمـل في سلا فالسبب يرجع إلى لامبالاة حكومة لويس الخامس عشر . أمّا فـديـة الأسرى فقـد كـان الأمر أيسر ذلك ان مولاي عبد الله دفعه احتياجه للمال إلى بيـع عـدد كبير من العبيد الاسبان والهولانديين والانقليز والفرنسيين

سيـدي محمـّد بن عـبـد الله (1757 — 1790) :

لقـد أظهـر العاهل الجديد مقدرته عندما كـان نائبـا عن أبيـه في مراكش فـكان تقيا ميالا إلى السلم والعدل اللذين كـان المغرب الأقصى في أشد الحاجة اليهمـا بعـدما قاساه من اضطرابات طيلـة ثلاثين سنة . فـأقدم

على بذل مجهودات جبارة لارجاع شيء من التوازن إلى هذه البلاد التي اضطربت إبرة بوصلتها . ولم يكن الأمر هينا اذ تضاءل مدخول الاداءات حتى في بلاد المخزن ، وعمت الفوضى صفوف الجيش بعد الثورات المتوالية وما استتبعتها من قمع ، ونزحت القبائل البربرية من الأطلس الأوسط نحو السهول فهددت بتجزئة البلاد إلى جزئين انطلاقا من الرباط .

وشرع سيدي محمد في العمل بصبر وأناة ، فوظف أداءات جديدة على الأسواق والمضاربات بعد ان أفتى فيها علماء فاس وفي نفس الوقت ضرب سكة جديدة ذات قيمة ، كما لمّ شتات الجيش فأضاف إلى سلك العبيد الذين تناقص عددهم بسبب الثورات السالفة جموعا من الحراثين الآتين من الواحات ومن القبائل العربية المنتشرة في السهول بل انه تمكن في بعض الاحيان من الاستعانة بالكتائب البربرية ، ومن جهة أخرى فقد أذن بتحصين أهم المراكز الساحلية واقامة مصاطب صالحة للمدفعية وتزويدها بالمدافع وحاول أخيرا من دون كبير جدوى على ما يظهر تكوين أسطول حربي ، غير ان قواته ظلت متواضعة وغير كافية . لذلك التجأ إلى الديبلوماسية مستغلا تارة ما يتمتع به من سمعة شريفية بقيت ذات وزن على كل حال ، وتارة أخرى ما ينخر القبائل البربرية من خلافات داخلية ، فاتخذ لخدمته في هذا الغرض من البربر الموالين لدولته من أمكن لهم الوصول إلى نتائج لايستهان بها نظرا إلى درايتهم الكبيرة بالوسط مثل المكاتب الزياني .

وبقيت الرقعة المتمردة متسعة جدا رغم كل تلك الجهود فقضى السلطان جزءا كبيرا من حكمه في إخماد الثّورات والتصدي إلى توغل صنهاجة الزاحفة من الأطلس الأوسط نحو الغرب والشمال الغربي مثلما تنزلق الارض في حركة بطيئة ولكنها ثابتة . وتوصل إلى وضع السهول الشمالية تحت سلطته (المغرب الأقصى الشرقي وجهات فاس ومكناس والغرب) وكذلك سهول الجنوب (حوض أم الربيع وتنسفت) غير انه يئس من السيطرة على الطريق الرابطة بين فاس ومراكش مباشرة عن طريق تادلا ومن ذلك الوقت إلى سنة 1912 اضطرت المحلات الشريفية إلى المرور من الرباط والدار البيضاء للذهاب من فاس ومكناس إلى مراكش ، اما الطريق الواصلة بين فاس وتافيلالت فكان استعمالها متعذرا أحيانا .

وكـان سيدي محمـد وهو التقي الورع على علـم بواسطـة الحجيـج بانتشار الحركـة الوهابيـة في الجزيرة العربيـة وتـأييد عائلـة آل سعود البدوية لهـا . وقد أعجب بصرامتهـا وكـان يؤثر عنه قوله : « اني مالـكي المذهب، وهابـي العقيدة » ومضت به حماسته الدينيـة إلى الإذن بإتـلاف الـكتب المتساهلـة في الدين حسب رأيه والمحلاّة لمذهب الاشعريـة وتهديم بعض الزوايا مثـل زاوية بوجـاد .

وكـان أيضا ملـكا شغوفا بالبناء والتشييد ، فهـو الذي أمر ببناء مدينـة موقدور على أساس مثال هيأه المهندس المعماري الفرنسي « كورنو» أصيل افينيون، وفي مراكش وهي مقامه المفضل أذن ببناء قصر سمّاه الدار البيضاء (وهو اليوم مستشفى) كما أذن بالقيام بترميمات عديدة ، وشيد أيضا قصرا آخر بمكـناس أعطاه نفس الاسم (هو اليوم المدرسة الحربية للضباط المغاربة) يوجد جنوب ماتبقى من آثار وقصور مولاي اسماعيـل . وأخيرا بنى في فاس مدرسة باب قيزة .

ورام أيضا مواصلـة الفتوحات فأجبر البرتغاليين على إجلاء مزغـان آخر معقل لهـم (1769) ولـكـنه فشل أمام مليلة رغم ما بذله من جهود .

وحاول على غرار ما قام به مولاي اسماعيـل سلوك سياسة التقارب مع تركيا وفرنسا في آن واحد فأجرى معهمـا مفاوضات من دون قطـع علاقاته مع الجزائر وتونس ، ولعلّه كـان يأمل ان ينشأ خلاف بين الباب العالي والجزائريين فيتمـكن بذلك من التدخل في الإيالة .

وقام ج. أ. ري (J. E. Rey) أصيل مرسيليا بدور مرموق في العلاقات بين المغرب وفرنسا فقد باع هذا التاجر المحنك والذي لاعهد له ولا ميثاق خدماته إلى الدنمـارك في أول الأمر ومكـنه من احتكـار السوق في آسفي وأكـادير (1751) ثمّ حمل السلطان الشريفـي على منحه شهادة تؤهلـه للتفاوض مع الدول العظمى ظانا انه يستطيـع المضاربة لدى الحكومة الفرنسية غير ان البلاط أساء استقباله. فقفل راجعا إلى المغرب حيث كـان مـآله الإفلاس التام .

ولم تذهب هذه المبادرة سدى رغم انهـا لم تـكن شريفـة المقصد ذلك ان شوازول (Choiseul) كلف تاجرا آخر من مرسيليا يـدعى

« سَلْفَا » باستئناف التفاوض على نفس الأساس وتوج هذا العمل بالمعاهدة التي ابرمها دي برنيون (De Brugnon) (سنة 1767) ، وعادت التجارة بذلك إلى سالف أمنها وتمتع الفرنسيون بامتيازات فيما يتعلق بنظام القمارق. ورجع القناصل إلى مناصبهم ولم يتمتعوا فقط بحقهم في التبجيل والتكريم بل أصبح في امكانهم ان يكون في خدمتهم نفر من الأهالي لايخضعون إلى الاداءات ولا إلى المحاكم المحليّة . وكان الفضل الوحيد لهذه المعاهدة التي خدمت التجارة خدمات كبرى انها أعادت لفرنسا سالف هيبتها . ولاشك ان الفرنسيين توافدوا بكثرة على قصر سيدي محمّد ولكن هذا الأمير الذكي المحب للعلماء والمتفتح على مستحدثات اوروبا كان أشدّ غيرة على مصالحه من أن يسمح للتجار الاجانب بالاثراء حسب اهوائهم . فشجع على التوالي آسفي ثمّ أكادير على حساب سلا ثمّ أسس موقدور وجعل منها السوق الكبرى للمغرب الأقصى والمتصدية لحركة التهريب على السواحل الجنوبية . وبذلك شرع في توخي سياسة اقتصادية هدفها جلب الأجانب نحو الموانى وتنشيط المبادلات ممّا يضمن وحده تزويد الخزينة المتدهورة بامكانيات جديدة غير ان التجار النصارى زهدوا في موقدور بسبب ما كان يسلطه عليهم أمناء القمارق من شديد المراقبة فلم تدخل الأموال المرتقبة . غير ان الميناء الجديد احتكر التجارة مع أقصى الجنوب لأنه أصبح منتهى القوافل وموطن جالية يهودية نشيطة في علاقاتها مع أهالي الجهة المواجهة للأطلس والسوس الذي قلت موارده بعد ان حرم من حركة موانيه القديمة فلم يعد منطلقا للتمرد المهدد لسلطة المخزن .

واحتفظت فرنسا وحدها إلى سنة 1795 بقنصلها في سلا بل في الرباط بينما اتخذت الدول الأخرى طنجة مقرا لقناصلها . وفشلت في تحقيق التوسع الذي كانت ترتجي الغرفة التجارية بمرسيليا تحقيقه في المغرب الأقصى غداة معاهدة 1767 وقنعت بنتائج أقل من المتواضعة .

مولاي اليزيد (1790 — 1792) :

خلف سيدي محمّد ابنه مولاي اليزيد الذي لفت الانظار قبل ان يضطلع بالحكم . فهو الابن المحظوظ والفارس المغوار والكريم الشجاع والمجاهد في سبيل الله لذلك علا صيته وتنبأ له النّاس بمستقبل زاهر ولكنه لم يعرف كيف يمتلك نفسه .

فلمّا عيّن قايدا على قبيلة قروان البربرية (جنوبي مكناس) سنة 1769 غرّته شهرته وقبل أن يُبَايع سلطانا. وعلم سيدي محمّد بالأمر فلجأ اليزيد إلى مكان منيع إلى أن عفيَ عنه، وأعاد فعلته مرتين في ظروف تكاد تكون متشابهة الأولى سنة 1771 والثانية سنة 1775 فأقصاه أبوه عن شؤون الدولة ولمّا عزم سنة 1784 على الخروج إلى تافيلالت اوفده إلى الحج للتخلص منه، لكنه عاد قبل الأوان فأرسله سيدي محمّد ثانية إلى البقاع المقدسة فحاول في القاهرة نهب بعثة الحجيج الرسميّة فلمّا علم سيدي محمّد بذلك أذن القافلة بتغيير طريقها غير ان اليزيد تعلل بأداء الحج مرّة ثالثة فالتحق بالجزيرة العربيّة وتمكّن من الاستيلاء على الهدايا المرسلة من السلطان إلى الشرْفة في اليمن. ثمّ عاد إلى القاهرة على رأس عصابة مسلحة والتحق بمدينة الجزائر عبر طرابلس وسعى إلى نيل عفو أبيه في الوقت الذي كان يقوم فيه باعمال غريبة. فلم يظفر بغير المال فحجّ رابعة وكان في طريق العودة مرغوبا عنه حيثما مرّ، وبذل مجهودا للالتحاق بالمغرب الأقصى لكنه فشل في خاتمة المطاف واعتصم بزواية سيدي عبد السلام بن مشيش المنيعة الجوار حيث ظل ينتظر ساعة الحكم التي دقت بعد بضعة أشهر عندما توفي أبوه.

ومهما بَدَا الأمرُ غريبا فان اعتلاءه الحكم لم يستتبع صعوبات تذكر. غير انه سرعان ما استفظعه النّاس لاعماله التعسفية ونزواته الدموية التي كان اليهود والنصارى أول من ذاق ويلاتها من دون ان يبقى المسلمون في مأمن منها. بل إنّه دخل في نزاع مع الاسبان بسبب ايقافه اعتباطا قنصلي اسبانيا بموقدور والعرائش وكذلك راهبين بطنجة فضرب حصارا على سبتة ولكنه عدل عن ذلك لأن علائم التمرد لاحت في الجنوب، فقد نودي بأحد إخوته مولاي هشام سلطانا على مراكش واستولى أخ له آخر يدعى عبد الرّحمن على تافيلالت. فتصدى مولاي اليزيد للأول واسترجع مراكش ولكنه صرع في ساحة القتال بينما كان متصديا لهجوم جديد قام به مولاي هشام (1792).

مولاي سليمان (1792 — 1822):

ان نار الفتنة في المغرب اشتعلت من جديد في عهد مولاي اليزيد على قِصره. فما كان مولاي سليمان ليُبايع سلطانا على فاس وهو ابن

سيدي محمد المفضل بعد اليزيد حتى وجد امامه ثلاثة منافسين من إخوته وهم مولاي مسلمة في جهة الشمال الجبلية ومولاي هشام المؤيد من قبائل آسفي ومزغان المجاورة ثم بعد ذلك بقليل مولاي الحسين الذي استولى على مراكش وهاجم مولاي هشام .

وعالج مولاي سليمان الأمر بحكمة فاتجه اولا إلى مولاي مسلمة وهو أقرب مناوئيه مكانا من دون ان يكترث بالآخرين . فأدبه بعد جهد جهيد واستتب الأمن في شمال البلاد وعند ذلك جعل وجهته الجنوب الذي استنزفته الحروب القائمة بين الاخوين الدعيين . واستحوذ في آخر الأمر على مراكش سنة 1796 ومسك بفضل كل ذلك زمام الحكم في بلاد المخزن التي كان أبوه جمع شتاتها . بل إنه وسع رقعتها شيئا ما بضمه درعة والفكيك وجزء من تادلا اليها . ووطد الامن بها بتنظيم دوريات متتابعة للشرطة وتمكن من استخلاص الضرائب بصورة تكاد تكون منتظمة .

ولكن الامور تغيرت ابتداء من سنة 1811 اذ اشتعلت نار الفتنة في الاطلس الاوسط بعد ان التفت أغلب القبائل البربرية حول أحد رجالها وهو أبو بكر مهاوش ونازلت تحت قيادته جيوش السلطان المرسلة لقمع الثورة وهزمتها .

ولم ينفك مولاي سليمان طيلة سنوات عديدة يوالي سعيه لحفظ الامن ولكن بدون جدوى ثم انهزم شر هزيمة ، في تادلا حتى انه لم ينجح الا بجهد جهيد وذلك بفضل بربري بقي يكن للسلطان بعض الاحترام (1818) .

وتفاقمت الامور في أواخر سنوات حكمه فترك لخلفه مولاي عبد الرحمن ابن أخيه بلادا منحدرة من جديد إلى الفوضى .

وأذن مولاي سليمان ، الصارم في تقواه مثل أبيه اثناء فترة حكمه الهادئة نسبيا ببناء عدة مساجد مثل مسجد حي الرصيف في فاس كما أمر بترميم مبان جميلة قديمة من بينهما مسجد الشرابليين والمدرسة البوعنانية بفاس ، وقد بنيا في العهد المريني ومن جهة أخرى فقد حافظ على علاقات طيبة مع اتراك الجزائر والدول الأوروبية حتى انه التزم سنة 1817 بإبطال القرصنة في المناطق التابعة له .

الخلاصة :

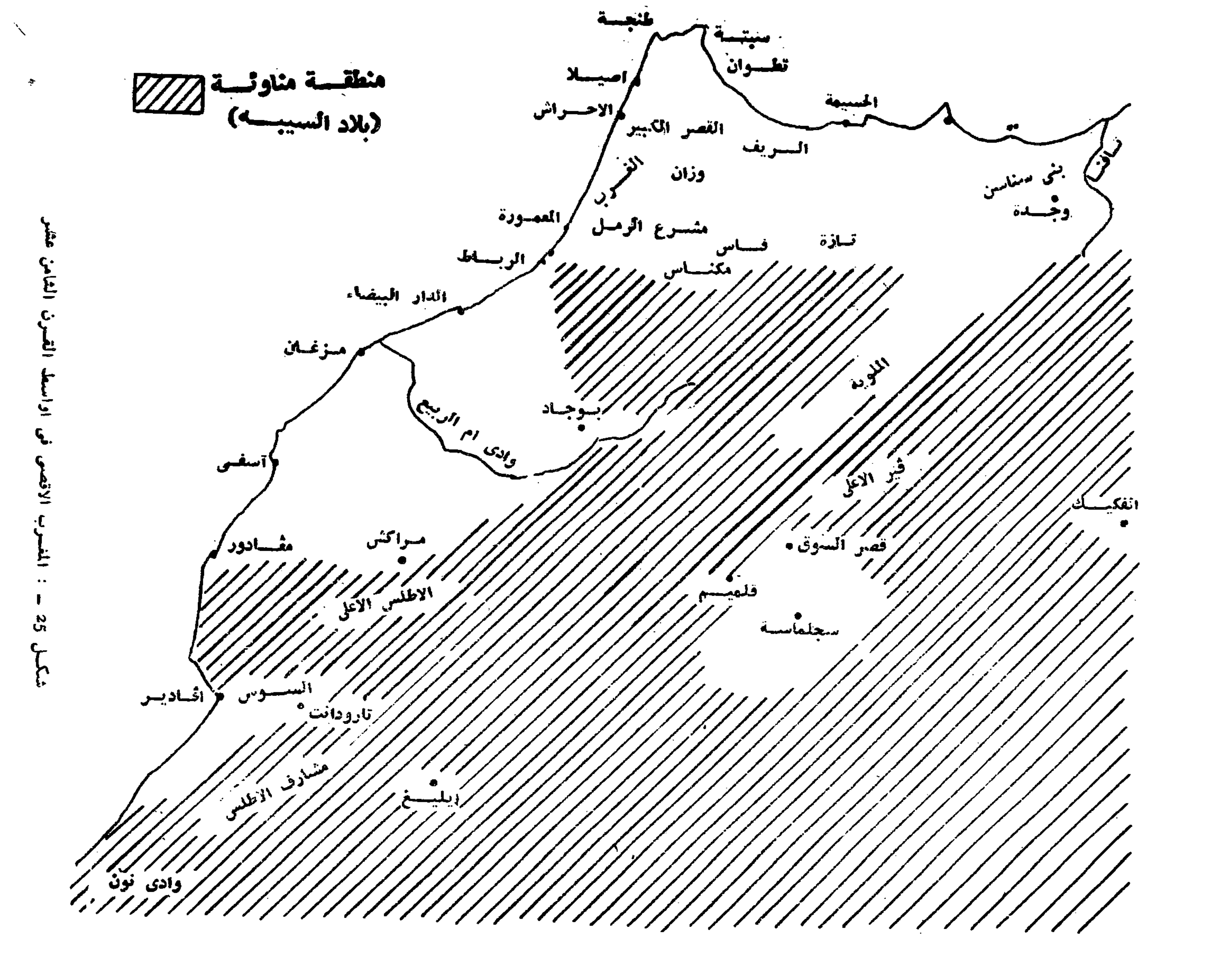
إلى هذا الحد تنتهي دراستنا للمغرب الأقصى الشريفي الذي سيجابه ابتداء من عهد مولاي عبد الرّحمن (1822 – 1859) مشاكل جديدة .

ان تاريخ الدول الشريفية يتمثل في انكماش ذاتي ازداد وضوحا على مرّ الأيام فقد أوشك المغرب الأقصى في القرن السادس عشر ان يُزجّ به في مغامرات أخرى بسبب البرتغاليين والاسبان الذين أظهروا جرأة كبيرة وكذلك بسبب الاتراك الذين حاولوا التمركُزَ في البلاد . ولكنه قويَ على درْءِ هذه الاخطار وضرب على أيدي الاتراك وكسر شوكة البرتغاليين في هجمتهم الاخيرة أثناء معركة الثلاثة ملوك وصفّى المستوطنات الاوروبيّة شيئاً فشيئاً ماعدا سبتة ومليلة اللتين بقيتا إلى اليوم في أيدي الاسبان . ولم يكتف بالتصدي إلى محاولة الهيمنة السياسية بل مضى إلى الحد من مبادلاته التجارية مع الخارج بصورة فعالة . ويمكن القول ان المغرب الأقصى أصبح عند موت مولاي سليمان لايشارك في اقتصاد عالم تطورت مبادلاته التجارية تطورا سريعا .

وكان في الإمكان ان تقترن هذه الرغبة الملحة في العزلة بايجاد توازن داخلي مرضي . وفعلا ظهر السعديون حتى اوائل القرن السابع في مظهر الموحدين للبلاد وكانت البلاد قاطبة أو تكاد وراء المنصور في اعقاب وقعة الملوك الثلاثة واستقام له طيلة حكمه ابقاء البلاد متمتعة بنظام يكاد يكون مرضيا غير ان الاحداث أظهرت بعد ذلك ان قوى الانفصال والتفكك الكامنة انّما كانت خامدة ولم يتمّ تذليلها . فلمّا مات المنصور تطاحن القوم من جديد جندا وقبائل بربرية ورجال دين وأهل حضر . ومن حقنا ان نتساءل هل أن فترتي الهدوء النسبي اللتين عرفتهما البلاد في عهد مولاي اسماعيل وسيدي محمّد ليستا سوى مظهر للحال التي أصابت القومَ . ومن ذلك الوقت وحتى سنة 1912 ظلت البلاد منقسمة إلى قسمين : بلاد المخزن الخاضعة إلى السلطان ما أخذ بناصية الأمور وبلاد السيبة المنقسمة على نفسها أيضا من جراء الحزازات القبلية والمتمردة دوما على السلطان الذي لم يستوسق له الأمر في الرقعة الخاضعة له الا بتجواله المطّرِد من مكان إلى مكان محفوفا بجيشه ومستخلصا للضرائب بقوة البنادق والمدافع . ولم يقو أي سلطان بل ربما لم يدر بخلد

أي واحد منهم ان يوفق بين هذه القوى المتنافرة إلى حد ذلك الوقت ولا ان يسعى إلى تجديد البلاد . وهكذا بقي المغرب الأقصى في عالم يتطوّر بسرعة وتتقارب أطرافه بفضل تحسن وسائل النقل وتزايد حجم المبادلات مجرد شتات من القبائل تضاءلت عندها الرابطة الدينية التي كانت الوحيدة الجامعة بينها . وبقي كذلك بلادا متشبثة بنظام اقتصادي مرّ عليه قرن بل عشرات القرون أي رقعة تزداد ابتعادا عن العصر كلما مرت السنون وموقعا جغرافيا على غاية من الاهمية لأنه ملتقى إفريقيا وأوروبا على طول طريقين بحريين أساسيين وهما طريق الساحل الغربي من القارة الافريقية وطريق البحر المتوسط . ولأنه يتصل من الجهة الشمالية بمضيق جبل طارق أحد ممرات الكرة الارضية الرئيسية ولأنه يتمتع كذلك بثروات طبيعية عظيمة .

وكان لامفر من أن تثير الامبراطورية الشريفية اطماعا كثيرة وهي الضعيفة المتحجرة والكائنة في موقع جغرافي مغر . وأصبح الوجود الفرنسي في الجزائر من المعطيات الجديدة لهذا المشكل الذي يتطلب حلاً إن عاجلا او آجلا .



شكل 25 ـ : المغرب الاقصى فى اواسط القرن الثامن عشر



الباب السادس

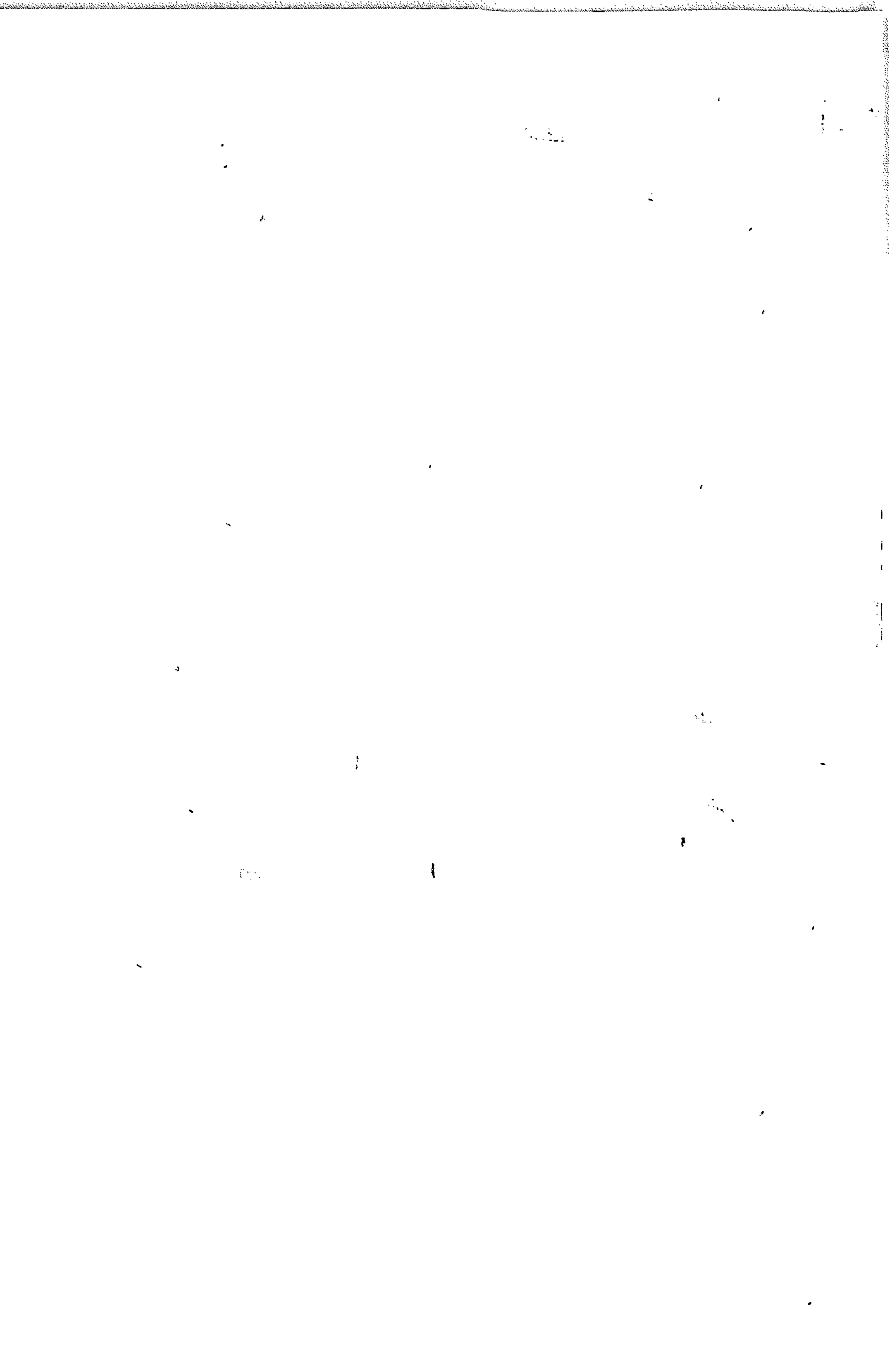
1) ـ الحرب الصليبية الاسبانية والاخوة عروج وتأسيس الايالة الجزائرية .

2) ـ الدولة الجزائرية .

3) ـ الباى لاربايات ونهاية الدولة الزيانية والدولة الحفصية .

4) ـ العصر الذهبى للقرصنة الجزائرية والتونسية .

5) ـ بلاد الجزائر فى عهد الدايات والبلاد التونسية فى عهد الحسينيين .



I ـ الحرب الصليبية الاسبانية والاخوة عروج وتأسيس الايالة الجزائرية

المغرب الأوسط في أواخر القرن الخامس عشر :

ساعد انحلال المغرب في أواخر القرن الخامس عشر على غزوه من طرف الاجانب فلقد تمركز البرتغاليون في ثغور المحيط الاطلنطي وانتصب الاسبان في حصون السّاحل الجزائري والتونسي غير ان محاولاتهم باءت بالفشل أمام مبادرات الاتراك المنافسة لهم .

وأصبح شرقي المغرب وأوسطه بسبب هذه الفوضى المتفاقمة ضَرْباً من الفسيفساء السياسية التي يستشف الملاحظ تنوعها العجيب من دون ان يقدر على التدقيق في شأنها .

ففي إفريقية تعزّى خلفاء أبي فارس العظيم عن عجزهم برعاية الأدباء والاهتمام بالفنون واليهم يرجع الفضل ولاشك في توسيع جامع الزيتونة بتونس وتغيير مدخله وزيادة رواقه الخارجي المرتفع ، غير أن البلاد أصبحت فريسة للقبائل العربيّة التي تدفّقت سيولها العارمة حتى غمرت مرات كثيرة اسوار مدينة تونس ، ولئن افلتت جزيرة جربة من مراقبة البدو الرّحل فان مدن الجريد والمواني لم تقدر على المحافظة على استقلالها الاّ بدفع الاتاوة ، واضطر السلطان الحفصي السجين في عاصمته تحت حماية جنده النصارى إلى الاحجام عن الخروج حتى جبل الرصاص (على بعد 28 كلم في الجنوب الشرقي وراء سهل المرناق) .

أما من تأخر من ملوك بني عبد الواد فانهم فرّطوا في النفوذ بالمغرب الأوسط واستبقوا سلطتهم في تلمسان وغربي البلاد الجزائرية بعناء كبير وباتت تحت رحمة هجمات الاجانب بعد ان انهكتها خلافات البلاط واستنزفتها مطامع الادعياء وجشع كبار الموظفين .

وفي مهب الاحداث المحلية انقسمت البلاد بَيْن مملكتي بني حفص وبني عبد الواد إلى عدد لايحصى من امارات وقبائل أو مجموعات

مستقلة ومناطق تحت نفوذ الاولياء وليست لها جميعا حدود واضحة . وان الذي ساعد على هذا التشتت هو التوغل العربي في الشرق من دون شك وربما الطرقية في الغرب ايضا . فقد اتحدت واحات الفكيك فكوّنت دولة مستقلة وساست قبائل الوانشريس أمرها كما عنّ لها وخضعت بلاد القبائل إلى ملك كوكو (وهي قرية آيت يحيى على بعد 8 كلم من غربي ميشلي ؟) وسيطر الشيخ الحفصي صاحب قسنطينة على الجهة الواقعة بين عنابة والقل في مأمن من تدخلات السلطان وأصبح الزاب والحضنة من نصيب العرب الدواودة . وفي توقرت تأسست دولة جديدة بسطت نفوذها على واحات وادي ريغ.

وأقامت المراسي من جربة إلى المغرب الأقصى انواعا من الجمهوريات أعدت العدّة لممارسة القرصنة . فسلحت تونس وبنزرت وبجاية ومدينة الجزائر ووهران وحنين كل لحسابها سفنا شراعية تجوب البحر المتوسط . ولم يكن قراصنة القرن الرابع عشر والقرن الخامس عشر نهابين فقط على نحو ما أصبح عليه الاتراك فيما بعد بل مجاهدين في سبيل الله يقاومون النصارى لايفكرون في التجارة بالرقيق بقدرما يهتمون بأسر الكفار ، ممّا جعل بجاية ترفع من مبلغ الفدية إلى حدّ أصبح معه من المتعذر أو يكاد الاقدام عليها .

ولم تخل القرصنة ولو كانت لدواع دينية من انعكاس سيء على تجارة النصارى وأمنهم خاصة في أواخر القرن الخامس عشر حيث نشطت على يد المغاربة المطرودين من اسبانيا بصورة مهولة بينما تضاءل أمر القرصنة النصرانية رغم ضراوتها واندفاعها في البحث عن الجدافين على حساب العدو . فكانت الحاجة إلى إزالة مخابىء القرا صنة أقوى من الروح الصليبية وحافزا لتدخل الاسبان في المغرب .

أوائل الحرب الصليبيّة الافريقية :

لاشك ان بعضهم بالغوا في اعتبار الدوافع الدينية ذات أهميّة كبرى في بدء الحرب الصليبية الافريقية وخاصّة دراسات « برودل » (Braudel) التي أبرزت خصائصها بوضوح من دون ان ننكر طبعا ما كان يتحلى به فريدناند الكاتوليكي من حماس ديني على الأقل ، في مراسلته الرسمية وما كان

لرجال الكنيسة من مسؤولية عظمى في تنظيم الحملات الأولى فالواقع ان المصالح الماديّة هي التي سرعان ما لعبت الدور الأول فلقد جعل ملك اسبانيا انتصار العقيدة مشروطا باعتبارات سياسية داخلية وخاصة خارجية ليست لها علاقة البتة بالدين ، وسلك الجند النصاري مسلك المرتزقة الذين لايبحثون عن نجاتهم من النار بقدر ما تهمهم اللّذة الرخيصة بالنهب والتقتيل .

وشجع الانحلال في بلاد المغرب المطامح الاسبانية فلاحظ أحد كتاب ملوك الكاثوليك المطلع على حقائق الأمور قائلا سنة 1594 « ان الحالة النفسية في كامل البلاد بلغت حدا من الانهيار يحمل على الاعتقاد ان الله ارادها في متناول « أصحاب الجلالة » والذي جعل المغرب الأوسط فريسة مغرية هو ما ابرم من اتفاقات مع البرتغال تمنع على اسبانيا التمركز في المغرب الأقصى عدا مليلة التي اكتفت فعلا باحتلالها (1497) بعد الانتهاء من استرداد الاندلس (1492) وكان يمكن ان يتواصل هذا الموقف السلبي لو لم تبلور ثورة المغاربة سكان الجبال في مملكة غرناطة خطر الاسلام من جديد (1501) كما بين ذلك « بروديل » . وأصر المتعصبون على الاعتقاد بان يدا مغربية خفيّة تحيك الدسائس في حين ان الأمر لايعدوان يكون مجرد انتفاضة شعب تحدّته مواقف « كسمناس دي سيسنيروس » (Ximénés de Cisnéros) المتطرفة ، اذ عرف الكردنال بحدة الطبع وتأجج العاطفة الدينية والمطامح الدنيوية فاستغل حماس الكاثوليك الديني وحملهم بجهد جهيد على نقل الحرب إلى الارض الافريقية حيث كان المورسكوس اللاجئون يوغرون الصدور على الاسبان وكان القوم يخشون اجتماع كلمة ملوك المغرب وملك السودان المصري . وحالفهُ النصر في أول الأمر ، ثمّ دخل الاسبان المعمعة بعد ان هاجم قرصان المرسى الكبير لَقَنْت (Alicante) وبلش (Elche) ومالقة في ربيع 1505 وأسلم المرسى الكبير أمره إلى أسطول اسباني بعد حصار دام شهرا ونصفا وهو أحسن مرفأ على الساحل الجزائري (9 سبتمبر — 23 أكتوبر 1505) فاستولى « بيدرو نافارو » (Pédro Navarro) الذي حذق القرصنة بعد فترة قضاها في مهاجمة السفن البربرية والنصرانية من دون ميز على حجر باديس (Pénon de Velez) الموجود في

منطقة المغرب الأقصى الخاضعة للتأثير الاسباني. (1508) وافتك وهران التي ربّما سقطت بسبب خيانة خائن والتي اشرف فيهما الكردنال على تقتيل 4.000 من الاعداء وأسر 8.000 من الرجال وتحويل مسجدين إلى كنيستين (ماي 1509) ثمّ استحوذ على بجاية بعد مقاومة رمزية (جانفي 1510) وأضاف في قائمة انتصاراته المغربيّة أخذه مدينة طرابلس عنوة (جويلية 1510) .

ولم تضعف هزيمة جربة (1511) من شأن الانتصارات الاسبانية اذ بقيت المراسي التي لم تعرف بعد الاحتلال خائفة من أن ينالها ما نال المرسى الكبير ووهران وبجاية . وعرضت على التوالي تنس (قبيل سقوط وهران) ودلس وشرشال ومستغانم (ماي 1511) دفع الاتاوة وسلمت الجزائر إلى بيدرو نفارو أحد الجزر الصغيرة الحامية لمرساها فأقام فيها حصنا وأصبحت لذلك الجزائر تبعد 300 متر فقط عن رمية مدافعه ، وسيطرت اسبانيا بعد بضع سنوات على أهم المراكز الساحلية التي منها يمكن الانطلاق لغزو المغرب الاوسط غير انها لم تحاول ذلك قط وليس من اليقين ان يكون كسيمناس نفسه قد فكر في الأمر .

الحصون والاحتلال المحدود :

لئن عدلت اسبانيا عن التوسع في الغزو رغم تفوق عدتها فلأن مسألة إفريقيا كانت تحتل المرتبة الثانية في قائمة مشاغلها ، ذلك ان فرديناند الكاثوليكي ملك الارغون ولّى وجهته حيال البيرينيي وإيطاليا قبل كل شيء . ويرجع تدخله الحازم في فترة قصيرة (1509 — 1510) إلى مارآن على الشؤون الايطالية من كساد وكان عليه دائما ان يقرأ حسابا لوضعية الخزينة التي ما كانت لتسمح بتدخلات لاغنم منها في العاجل . وهكذا لم تكن السياسة الافريقية مستقلة بذاتها منذ أول القرن السادس عشر ولايمكن فهمها من دون ربطها بسياسة اسبانيا العامة كما فعل برودل .

واكتفى الاسبان منذ حكم فرديناند الكاثوليكي بنظام الاحتلال المحدود . فحولوا المراسي المحتلة إلى مراكز محصنة ذات جدران عظيمة تقيم فيها الحاميات وتركوا ما عداها إلى الاهالي بما فيها الضواحي ،

ووقعوا بالنسبة لافريقيا في نفس الاخطـاء التي ارتـكبوها في حرب غرناطة واقتصروا على مسك المواقع الاستراتيجيـة التي كـانوا ينطلقـون منهـا عندما تتيـح الفرصـة للقيام بغزواتهـم في الارياف المجاورة .

وعاشت الحصون في حالـة حصار طوال فترة الاحتلال الاسبانـي وكـانت حياة الجند شاقة جدا لأنهـم كـانوا لايجدون دائمـا ما يسد الرمـق ولايتقاضون جراياتهـم بانتظـام . وكـانوا في وهران المحظوظـة يتموّنون بفضـل مغاربة موالين لهـم يخبرونهـم بمواقـع حيوانات القبائـل الرحـل في الاراضي المجاورة فينهبـونهـا على ان وهران نفسهـا لم تـكن في مأمن من خطر المجاعة ، وفيمـا عداها حيث كـان التمويـن يـأتي بالخصوص من البحر كـان لعقدة الحصار نتائجهـا الرهيبـة ، فقـد كشف بحث رسمي أجري سنة 1540 بعنايـة ان الجنود « بلـغ بهـم اليأس مبلغـا جعلهـم يريدون ان يتحولوا إلى مغاربة » .

القـرصـان عـروج في الجـزائـر :

ان تدخل الاتراك غير المنتظـر لم يزد وضـع الحصون تعفنـا فحسب بل تسبب في فشل سياسة اسبانيـا الافريقيـة ، إن الجزائر هي الّتي قامت ببادرة غيرت مجرى التاريـخ الافريقـي . ولا شيء كـان يشيـر حينذاك بان مرسى القراصنـة البربر والمـورسك الصغير سَيكـون له شأن كبير ، وان ماضيـه كـان متواضعـا فعلى انقاض ميناء ايكوز يوم الروماني الصغير الذي استوطنتـه قبيلة بني مزغنّا البربرية أسس الأمير الزيري بُلُـكّين في النصف الثانـي من القرن العاشر المدينـة التي استعارت اسمهـا من جزرها الصخرية الاربع ، ثمّ اصبحت فريسةٍ لـكل من فتحوا المغرب الأوسط فاحتلتهـا في القرن الرابـع عشر قبيلـة الثعالبة العربيـة التي أظهـر زعماؤهـا مهارة في مـداراتهم بني عبد الواد والحفصيين وبني مرين ، وكـادت ان تصبـح في القرن الخامس عشر عاصمـة بني زيان ولـكـنّها تخلصت من وصايتهـم و « أقامت شبـه جمهورية صغيرة مثـل البلديـة يسيّرها جمع من الخاصـة برعاية الثّعالبـة ووفـق مصالحهـم » (ج. ايفار) .

ولاحظ الرحالة العرب تزايد نشاط تجارة مدينـة الجزائـر من القرن العاشر إلى القرن الثاني عشر الا أنّه أخذ في الضعف من دونَ شك بسبب

ماحدث من اضطرابات في القرون الموالية – وعلى كل فان الميناء كانت تتردد عليه من حين إلى آخر المراكب الاوربية في القرنين الرابع عشر والخامس عشر وبفضله تضاعفت القرصنة وزاد توافد الموريسك المطرودين من اسبانيا بعد سقوط غرناطة (1492) على هذه المدينة في عدد سكانها الذي لم يتجاوز في منتصف القرن الخامس عشر العشرين الفا فأصبحت هذه الآلاف العديدة من اللاجئين سببا في تفاقم القرصنة بسبب ما كان يعتمل في نفوسهم من حقد شديد. وإنما وضع « بيد رونفارو » « المدينة تحت رحمة مدافع الحصن للتصدي للهجمات المستنزفة لجهود الاسبان خاصة ، غير ان السكان تألموا من الشوكة الساكنة بقلوبهم » إلى حد جعلهم يستنجدون بعروج القرصان التركي صاحب جيجلي منذ سنة 1514 .

ويظهر ان عروج واخوته (ويطلقون عليهم اسم بربروسة وهو في الواقع لقب خير الدين فقط) أبطال نحتهم التاريخ ليكونوا مادة لروايات ملحمية وكانوا اربعة أبناء لخزاف بمدلّي (ليسبوس القديمة) يدعون عروج وخير الدين والياس واسحاق وأظهروا منذ حداثة سنهم استعدادات عجيبة لممارسة القرصنة . ومات الياس اثناء القيام بهجمة واضطر عروج إلى أن يجدف في مراكب فرسان القديس يوحنا ، ولانعرف كيف تخلص من الاسر ولا لأي سبب غادر الارخبيل مع اخويه واختار البحر المتوسط العربي ميدانا لنشاطه وذاع صيته بين المسلمين من سنة 1504 إلى سنة 1510 لما اشتهر به من سطو علي مراكب النصارى وخاصة الاسبانية منها وبفضل ما حققه من انقاذ لالآف الموريسك ونقلهم إلى بلاد البربر ، ومنذئذ تقاطر عليه المغامرون الراغبون في الغنيمة بالمئات للانضمام إليه والخضوع لإمرته . فاستغل الأمير الحفصي ذلك بمهارة رغبة في الربح وذهب به الأمر إلى منحه رخصة للتموّن في مراسيه واسناده حكم جزيرة جربة التي أصبحت قاعدة لعشرة أواثنى عشر من مراكب عمارته .

وسرعان ما استصرخ المسلمون هؤلاء الابطال الاشداء وقد شعروا بما كان يتهددهم من اخطار ، ففي سنة 1512 حاول عروج الاستحواذ على بجاية استجابة لنداء الوالي الحفصي المطرود ولكنّه لم يستطع مواصلة

الحصار لأن قذيفـة مدفعيـة قطعـت له يده ، وعاود الـكـرة عاميـن بعـد ذلك فأخفـق من جديد وعند ذلك انثنى نحو جيجلي (1514) الـكائنـة في موقـع مناسب لتتـبع أطوار الصراع القائـم بين بنـي عباس « سلاطيـن » القبائـل و « سلاطين » كـوكو ، ومكّنه تدخلـه في الوقت المناسب لنصرة بنـي عباس من المدد والنصائـح الغاليـة (1516) .

وأثار نعـي فرديناند الـكاثوليكي ضجـة في الموانى المغربيـة المحتلـة من الأسبان فاعتبـر أهل مدينـة الجزائـر انفسهـم في حل من عهـودهـم تجـاه الملك الراحـل ولـكـنهم كـانوا أضعف من أن يتحرروا من ربقـة الاسبان بأنفسهـم فألحَوا إلى شيخهم سليـم التـومي لاستصراخ عرّوج وسرعان ما أدرك عرّوج الغنم من هذه المغامرة فاحتـل اولا شرشال التـي كـان يسيطر عليهـا مغامر تركـي آخـر ثمّ دخل مدينـة الجزائر دخول الفـاتحيـن .

وحسب أهل مدينـة الجزائـر انهـم سيتخلصون من وطأة الحصن بسرعة غير أن مدافع الاتراك لم تَنَل من القلعة فتهامس الناس وحيكـت مؤامرة بيـن الثعالبـة والاسبان وأهل مدينـة الجزائر للتخلص من القراصنـة ، فقتلها عـرّوج في المهد عندما أمر بخنـق الشيـخ سليـم المزمع ارجاعه إلى الحكـم ، ودفع بجنده إلى مبايعتـه سلطانا ، ورجـع الأمـن إلى نصابـه بعد قتـل البعض من المتمردين وسجن البعض الآخر وقطـع الوعـود للاعيان ، ولئن لم تظفـر المدينـة بمنقذ فقد مسك سيّد بزمامها (1516) .

لم يعر الاسبان احداث المغرب منذ خمس سنوات عنايةً تذكر بـل ركـزوا جهودهم في ايطاليا ضد لويس الثاني عشر لذلك لم يتمـكن « بيدرو نفارو » من مواصلـة مـآثره ، فـكان عليهـم طيلـة نصف قرن القيـام بحملات موجهـة نحو افريقيـا للتخفيف من حدّة الخطر التركـي الذي تضرر منـه الساحل الافريقـي وانخرمت بسببه تجارتهـم في البحر المتوسط غير أنهـم لم يجنوا من جرائـه سوى مرارة الخيبـة من ذلك ان محاولـة أولى قادها « ديافودي فيرا » للسيطرة على مدينـة الجزائـر باءت بالفشل الذريـع (30 سبتمبر 1516) وتعلـل عروج بموقف سلطان تنس الملتبس ليستحوذ على مليانة والمدية وأخيرا تنس ، وعند ذلك استنجد به أهل تلمسان على ملـكهـم الذي كـان رضي سنة 1511 بالهيمنـة الاسبانيـة ، وسرعان

ماطرده عروج وانتصب حاكما بأمره في المشوار مكان من وعده بارجاعه إلى سالف سلطته ، وروي ان سبعين زيانيا هلكوا غرقا باذن منه ، وبنى الملك الجديد الحصون واخضع بني اسناسن وفتح مفاوضات مع سلطان بني وطاس صاحب فاس غير ان انتصاره لم يدم طويلا ، اذ أن جيشا اسبانيا انضم إليه عدد من أهل البلاد قطع عليه اتصاله بمدينة الجزائر وقبضت على أخيه اسحاق الذي قتله العرب رغم التعهدات السابقة (جانفي 1518) وحاصره طيلة ستة أشهر جيش انطلق من وهران في المدينة أولا ثم في المشوار ، واضطر البطل الابتر إلى أن يقاتل صحبة قلة من الاتراك وتمكّن من الفرار تحت جناح الليل غير ان القوم ادركوه قرب ريبو دي سلادو وقتلوه هو وجماعته شر قتلة بعد مقاومة عنيفة (1518) .

ورغم ان مغامرة عروج العظيمة الشأن توقفت في الرابعة والاربعين من عمره فانه استطاع أن « يبوّئ مدينة الجزائر وبلاد البربر مكانة الدولة العظمى » كما لاحظ ذلك عن جدارة الراهب البندكتي الذي كان أسيرا في هذه المدينة من سنة 1577 إلى سنة 1581 ، فقد أدرك عرّوج بفضل نظرته الثاقبة المعروفة عنه كيف كان يمكن ان تستفيد أقلية فعالة من الخلافات الموجودة بين الامارات المغربيّة وكيف كان يمكن بناء دولة اسلاميّة عتيدة على انقاضها وفي مأمن من هجمات النصارى ، وهكذا احتل المتيجة ووادي شلف ، وتيتري والظهرة والوانشريس وتلمسان وضعضع النفوذ الزياني بدون رجعة ، ولو لم يواصل أخوه خيرالدين عمله ويتمه في معظمه لكتب له الفشل الذريع .

خير الدين مؤسس الايالة الجزائرية :

ان للرجل الذي عهد إليه عروج بحكم الجزائر وعينه الاتراك خليفة له ، خصلتين اثنتين ، عزم حديد ودهاء سياسي صميم ، فهو الذي أطلق عليه معاصروه لقب بربروسة وهو المؤسس الحقيقي للايالة الجزائرية قبل ان ينظم الأسطول العثماني ويصبح أميرا للبحر وقائدا له .

انه وجد نفسه في وضع لايحسد عليه بعد الكارثة التي أصابت أخاه، وكان أهل تنس وشرشال والجزائر والقبائل في كوكو الذي بقي على ولائه لصاحب تلمسان المخلوع يسعون جميعهم للافلات من قبضة القراصنة ، فألهمت خير الدين عبقريته بربط مصيره بمصير الامبراطورية

العثمانيـة ، ولو اعتمـد على نفسه فقط لخرّ تحت ضربات اعدائـه الـكـثيرين أما اذا دعم نفسه بالباب العالي فانـه يحظى بمـكانة مرموقـة ويتمتـع بسنـد عسكري ومالي من شأنه ان يعينـه على تحقيق مطامحـه الـكبرى . لذلك لـم يتوان في التعبير عن ولائه للسلطان سليـم الذي منحـه لقب باشا وعينـه أمير الأمراء (باي لرباي) بل إنّ القسطنطينية مدّته بألفي رجل مجهزين بالمدافع ثمّ أوفدت إليـه اربعة آلاف من المتطوعين يتمتعون بامتيازات الإنـكشارية .

وبلغـه هذا المدد في الوقت المناسب لمواجهة أخطار كبيرة ، من ذلك مؤامرة دبرها سكان مدينـة الجزائر وعدد من القبائـل اغرقهـا في الدمـــاء ، وهجمـة اسبانية جديدة بقيادة هيڤو دي مونـكدا كـان مـآلهـا الخسران الفـادح (1519) غير ان خيانـة جند كـوكوفي ساحة الوغى مكـنـت الجيش الحفصي من الانتصار عليه في بلاد القبائل بل اضطرته إلى التخلي عن الجزائر والاعتصام بجيجلي حيث استأنف من جديد حياة القرصنة (1520 — 1525) .

ولم يتخل رغـم كـل ذلك عن السعي لبلوغ غاياته فمـا أن أسعفـه الحظ بتجييش الجيوش من جديد وملء خزينتـه بالاموال حتى استولى على القلّ (1521) وعنابة (1522) وقسنطينة واستعان بعـد ذلك بسلطان بني عباس لطـرد قبائـل الـكوكو من الجزائر وقد ساءت سمعتهم بين الناس واحتـل المتيجـة (1525) وتبيّن للاهالي من خلال قمـع بعض الثورات في بلاد القبايـل والحضنـة وشرشال وتنس وقسنطينة ان سيّدهم الجديد لاتعرف الرحمـة إلى قلبـه سبيلا

ولمّا بقي الحصن سيفا مسلولا على مدينـة الجزائـر عزم خير الديـــن على مهاجمته بـكل حزم ، فظـل يقذفه بالمدافـع طيلـة ثلاثة أسابيـع بدون هوادة ممّا اضطر قائده « مارتين دي فرڤاس » إلى الاستسلام بعد ان يئس من النجدة ولم يبـق له سوى خمسة وعشرين رجلا من بين مائـة وخمسيـن وجُلِـد حتى مات يوم 27 ماي 1529 ، وأسرع خير الدين في تقويض أسوار الحصـــن .

وكـانت الجزائـر حينذاك مرسى متواضعـا تتناثـر فيـه الصخور وتعصف به الرياح ممّا كـان يضطـر القراصنـة إلى ارساء مراكبهم في شاطيء باب الواد الواقـع على بعد ميـل غربـي المدينـة . فأذن خير الديـن

ببناء مكسر الأمواج طوله 200 متر وعرضه 25 مترا وعلوه اربعة امتار وربط به المدينة بالجزر بواسطة ممشى واستخدم لذلك الأسرى النصارى واستعمل بقايا الحصن وآثار ماتيفو (روسقوني) (Rusgunioë) وهكذا أنشىء ميناء الجزائر ، ورغم انه وقعت حمايته بعد ذلك من الناحية الجنوبية الشرقية بمكسر للأمواج جديد (المكسر الأكبر) فقد بقي ملجأ لايفي بالحاجة تماما ، مُعرّضاً إلى الزّوابع التي تثيرها الرياح الشرقية والشمالية الغربيّة غير ان موضعه بين قنال صقلية والمدخل الغربي للبحر المتوسط يخوّل له « مراقبة الطرق المفضية مباشرة إلى جبل طارق نحو شرقي البحر المتوسط وإلى جنوبي اسبانيا في اتجاه جنوب إيطاليا أو صقلية وكذلك التصدي لمن تُحدّثه نفسه باستعمالها » (لاسبس) ممّا جعل الاتراك يتخذون من هذا الميناء الحربي الذي يمتاز بموقعه أكثر مما يمتاز بمرساه قاعدة محصّنة وملجأ لأسطولهم ، ولمّا احتل الاسبان بجاية ووهران منعوا فيها القرصنة وفسح المجال لجزائر خيرالدين ان تحتكر القرصنة في المغرب الاوسط .

غزو تونس :

لمّا أصبح خيرالدين سيّد الجزائر أراد ان يضمن لنفسه حريّة التحرك في الساحل الشرقي ، فاستغل ما كان يشكوه البلاط الحفصي من حزازات وما أظهره السكان من غضب تجاه السلطان مولاي الحسن فسعى إلى الهجوم على تونس بتأييد من الباب العالي فدخل الاتراك بنزرت وقوبلوا بالترحاب ثمّ حلق الوادي حيث أوْهموا السكان بأنهم انما جاؤوا لنصرة منافس الحسن الحفصي ثمّ دخلوا تونس العاصمة بعد معركة قصيرة (18 أوت 1534) ، وأعلن خيرالدين بعد نهب المدينة عن زوال ملك الحفصيين ونادى في الناس بالامان ثمّ ركز حامية بالقيروان وجلب إلى حوزته المدن الساحلية من دون كبير عناء ، بل انه توصل إلى كسب مساندة بعض القبائل العتيدة بجنوبي قسنطينة .

وكان نشاط القرصنة الذي تزعمه الاتراك بتونس يهدد مباشرة البابا والامراء الايطاليين ، وصادف ان حدث ذلك في فترة قويت فيها الروح الصليبية باوروبا ولاحت بوادر تهديد الفرس ممّا وجّه عناية القسطنطينية نحو الشرق ، ووعد فرانسوا الاول ملك فرنسا الذي تخلّى عنه خلفاؤه ،

بالحياد فيما اذا هجم شارل الخامس على البرابرة وكان الامبراطور مترددا لايعرف هل يوجه جهوده تجاه تونس ام الجزائر ، ولعل نداءات السلطان المخلوع مولاي الحسن وخاصة الرغبة في عزل الجزائر عن القسطنطينية هما اللذان دفعاه إلى الهجوم على عاصمة الحفصيين فأرسى اسطوله المتكون من 400 مركب شراعيي والحامل لـ 30.000 رجل بقرطاج دون عناء يذكر ، ثمّ افتك الاسبان خلق الوادي (14 جويلية 1535) وبعد ستة ايام دخلوا تونس حيث كسر الأسرى النصارى الذين أبى خيرالدين تقتيلهم أصفادهم واستولوا على القصبة .

غير ان هذا النصر الذي أثار حميّة النصارى لم يحلّ أي مشكل. ذلك ان شارل الخامس كان عازما أكثر من فرديناند الكاثوليكي على الا يغامر فيحتل بلاد البربر فاقتصر على اقامة قلعة في حلق الوادي وارجاع مولاي الحسن إلى عرشه من دون ان تكون له أية ثقة في المستقبل وكان أول المعترفين بان السلطان الحفصي « كان مبغوضا من رعاياه » وقد أصبح بعد المذبحة العظيمة التي صاحبت رجوعه « عرضة أكثر من ذي قبل للاحتقار وبات نفوذه معدوما تماما » ، وما كان لحماية تمثل قرارها الاول في فرض ملك على بلاد بالرغم عنها ان يكتب لها الدوام بدون اعتماد على جيوش كثيرة ، بينما اقتصر الامبراطور على تركيز بعض الفصائل في حلق الوادي تاركا لمولاي الحسن زمام الامور للنجاة بنفسه .

ولم يرض خير الدين بفشله بعد ان اضطر إلى اللواذ بعنابة حيث أرسى اسطوله ، فانقض فجأة على ماهون (Mahon) وافتك ستة آلاف من الاسرى وغنم غنائم كبرى ، وكانت آخر عملية بطولية قام بها بوصفه قائدا للقراصنة الجزائريين ذلك ان السلطان سليمان الذي سمّاه سنة 1533 قبطان باشا (اميرا على البحر) استقدمه إلى القسطنطينية ليقود العمليات ضد شارل الخامس وحلفائه ، وكان خيرالدين محل ثقة السلطان وصديق السفراء الفرنسيين الذين كان يؤيد سياستهم وكان يتمتع بصيت كبير بفضل ما حققه من انتصارات باهرة واحتفظ بحظوة كبيرة في القسطنطينية إلى أن وافاه الأجل في 4 جويلية 1546 .

2 ـ الدولـة الجزائـريـة

الـوجـق :

مكّن خيرالدين دولة « الجزائريين » كمـا كـان من المتعارف ان يدعى بـه أتراك الجزائر ، من تنظيم عسكري في أساسه لم يطرأ عليـه تغيير كبير حتى الغزو الفرنسي . وكـان الجند الانكشاري (الوجق) مثلما هو الشأن بالقسطنطينية محظوظا كثير التهويش واسع التأثير في سير الشؤون العامـة . وكـان المجنـدون من بيـن رعـاع الاناضول فمـا ان تقـذف بهـم مراكـب الباب العـالي في المرفـأ حتى يتخلصـوا في مدينـة الجزائـر مـن ثيابهـم الرثة ويصبحوا « اسيادا لامعين عظمـاء » . وبعـد ان عينت هـذه الارستقـراطيـة قـوادهـا بـواسطـة الانتخـاب نظمـت صفـوفهـا حسـب مقاييس قـارة أسـاسهـا المسـاواة وعـنـد ذلك أصبـح الإنـكشـاري البسيـط يرتقي في سلـم الدرجات العسكريـة بفضـل الاقدميـة إلى أن يصـل إلى رتبة آغا ثم يتخلى عنهـا بعـد شهريـن ليصبـح آغـا شرفيـا (منصولاغة) وكـان هذا الحرس ينقسم إلى عدة سرايا (أورتة) متفاوتة العدد تسكن ثكـنات حسنة الترتيب وتتجمـع في غرف تـأوي بيـن اثنى عشر وعشريـن رجلا ، وكانت السريّة تحافظ محافظـة تامة على قـدرها الـكبيرة البرنزيـة وتجتمـع حولهـا للأكـل او المناقشة ، واذا ما ثار الإنـكشاريّة فانهـم يقلبـون القـدر وتتعالى اصواتهـم بنداءات الحرب (استميز) .

وكان لباسهم العسكري يحتوي على طرطورة من القماش الصو في الملون ذات طرفين تطوى وتنزل على الرقبة ويرجع اصلها إلى أحد الدراويش الاتراك ويعلـو هذه الطرطورة اما غلاف من الخشب او قرن مذهب أورياش ــ كمـا تحتوي على ياقة مفتوحة ذات أكمام وسراويل من كـتان تشدها شملـة .

واستعمل الوجق اثناء فترة الباي لرباي الطبنجات والسهام إلى جانب الاسلحة النارية والسيوف المستوية ذات المقبض الواحد أو المقبضين والسيوف العريضة (صفائح) والخناجر . وكان الانكشارية يتمتعون بحظوة خاصة فيعطون الخبز واللّحم والزيت وجانبا من غنائم القرصنة ويتقاضون كذلك مرتبا . وكانوا يعفون من الضرائب . فقد كانت الحكومة توظف على المواد الغذائية بعد درس دقيق لتكاليف انتاجها ضريبتين احداهما رمزية لفائدة الإنكشارية وذويهم والثانية تشمل غيرهم من الشّارين ويدخل فيها ربح البائع — وكانت تقاليد الوجق تنظّم كل مظاهر حياتهم بما في ذلك العقوبات اذ كان الإنكشارية لايخضعون إلى السلط القضائية العادية بل يرجعون بالنظر إلى ضباطهم الذين من حقهم ان يحكموا عليهم بالسجن او الجلد او الاعدام الذي ينفذ في نطاق السريّة .

وكان الإنكشارية يمثلون المشاة فحسب اذ ينتدب الخيالة (الصبايحية) من بين قدماء الآغوات أو الاهالي وكانوا مشهورين بشجاعتهم يؤلّفون بينهم عصبية قوية غير انها اتصفت بالعنجهية وعدم الانضباط وسرعان ما خلط ديوانها المكلف بالدفاع عنها بين مصالح افرادها الخاصة ومصالح الدولة فلم يعد يكتفي بايجاد ثلة من اعضائه يمثلونه لدى ديوان الباشا حيث ينظر في شؤون الدولة ويحكم بين النّاس بل حاول أكثر من مرة الاستيلاء على الحكم ، ولم يوجه ضرباته ضد الباي لارباي بل تآمر كذلك على طائفة الرؤساء المناهضة لهم والمؤيدة له .

طائفة الرؤساء :

كان خيرالدين واخوته قد كونوا مجموعات من البحارة ودربوهم على القرصنة وجعلوا من مدينة الجزائر أخطر الموانىي في مجال القرصنة ، وأسندت اليهم القسطنطينية في نطاق محاربة الكفار أمر منطقة غربي البحر المتوسط ، فكانوا يوجهون ضرباتهم بالخصوص ضد اسبانيا عدوة الاسلام في بلاد المغرب منذ القدم وكانت سياط القائم على الجدّافين الأسرى تلهب حماسهم فيدفعون بالغَلْيُونات (galiote) إلى الامام تجديفا حتى لاتكشف اشرعتها عن وجودها ، وبذلك يتمكن مسلمة النصارى والمغاربة من النزول فجأة بسواحل إسبانيا الشرقية فينهبون

القرى ويأسرون سكانها ، ولم تستطع ابراج المراقبة التي شيّدت ولا لجان الرعاية التي بعثت ان تحبط حيل القراصنة ، أمّا الامبراطور الذي اثقلت كاهله الشكاوى وتهاطلت عليه اللوائح فانه أغدق على رعاياه كلمات المواساة والتشجيع من دون ان ينجدهم بالفعل ، ممّا حمل سكان السواحل على مغادرة هذه المناطق البحرية غير الآمنة ..

وكان القراصنة الذين لم يرفقوا بذلك بسواحل سردانية وصقلية ونابولي يهددون المواصلات البحرية بين الممتلكات الامبراطورية الاسبانية والايطالية فيصعدون إلى المراكب ويختطفون البحارة ويستولون على البضائع ، وكان الفرنسيون والجزائريون يعملون باتفاق على ضمان سيطرتهم على غربي البحر المتوسط لافساد خطة الامبراطورية الاسبانية — ولو لم يسعف شارل الخامس باعانة غير منتظرة تمثلت في انضمام اسطول « اندري دور يا الجنوي » لكان يمكن ان ينجح التحالف بين الملك المغرق في تعلقه بالنصرانية وبين القراصنة المسلمين — وعلى كل فان نشاط القرصنة ألحق بعض الضرر بتجارة موانى اسبانيا الشرقية وأثرى مدينة الجزائر بما ضمنه لها من غنائم . وبذلك تحول الجهاد العقائدي إلى حرب غايتها التكالب على الغنائم .

ولم يقدر النصارى على تنظيم صفوفهم لمواجهة هذه الحرب فقد قال هَيِيدو : « كان القراصنة في الشتاء والربيع يشقون عباب البحر من المشرق إلى المغرب ساخرين من سفننا الشراعية التي كان بحارتها يقضون اوقاتهم في اللهو والقصف بالموانى — وكانوا على يقين من ان السفن الشراعية النصرانية البطيئة الحركة أيّما بطء والمثقلة متاعا أيّما ثقل عاجزة عند مواجهتها لغليوناتهم التي بلغت حدا كبيرا من اتقان التّوْديك وخفّة الحركة عن مطاردتها ومنعها من النهب والسلب كما طاب لها . بل انهم تعوّدوا الاستهزاء منها وتغيير وجهتهم فجأة حسب هواهم وحتى مواجهتهم بمؤخرة مراكبهم » . ويرجع تفوق الجزائريين لا الى ملاءمة سفنهم ومراكبهم الشراعية مع حرب القرصنة فحسب بل إلى تدرب الجدّافين وانضباطهم الصارم واعترف كذلك هذا الراهب البندكْتي نشيخ قائلا : « لقد بلغ تمسكهم بالنظام والنظافة وتهيئة مراكبهم حدا جعلهم لايفكرون في غير ذلك وكانوا حريصين خاصة على اتقان

عمليّة رصف البضائع لمزيد القدرة على الانسحاب والمراوغة . واخيرا ولنفس الغرض كان ممنوعا على أيهم وان كان ابن الباشا نفسه ان يغيّر مكانه او يتحرك من بقعته » .

وكان لايوجد في طائفة الرؤساء رفاق خيرالدين واخوته ودرغوث وسنان سوى أقلية من الاتراك او الاهالي . ذلك ان معظم اعضائها متكون من مسلمة النصارى المنحدرين من المقاطعات الفقيرة الكائنة على ضفاف البحر المتوسط والممارسين للقرصنة واللصوصية مثل اخوانهم في جهة كلابر وجزيرتي صقلية وكورسيكا ، وسرعان ما أدركوا بعد وقوعهم في الاسر من طرف الغليونات الجزائرية ان مجتمع القراصنة لايخلو من امتيازات محسوسة بالنسبة لما كانوا عليه في مسقط رأسهم اذا ما دفعوا بردتهم ثمنا لذلك ، فأصبحوا كما سماهم هييدو « اتراكا بحكم المهنة » وكانوا يمدون الطائفة بمعلومات مضبوطة حول « الاراضي والشواطىء النصرانية » التي كانوا يعرفونها حق المعرفة وكانوا بالجهاد المقدس أقل تعلقا منهم بجمع الغنائم . على ان رؤساءهم فرضوا عليهم في عهد الباي لرباي الامتثال لأوامر السلطان بفضل ما كان لهم من نفوذ فأبلوا البلاء الحسن في المعارك التي شنها الأسطول العثماني على الكفار ، وكان للرؤساء في عام 1558 خمس وثلاثون سفينة شراعية وخمسة وعشرون مركبا شراعيا او حراقة وعدد كبير من المراكب المعدة للقرصنة .

وكان القراصنة يتمتعون في مدينة الجزائر بسمعة كبرى ، كتب هييدو عنهم قائلا « تعم الفرحة مدينة الجزائر كلما عادوا اليها ذلك ان التّجار يشترون العبيد والبضائع التي جلبوها ويبيعونهم كل ما خزنوه في مغازاتهم من ملابس ومؤن وينهمك الجميع في الشرب والأكل والمتعة » .

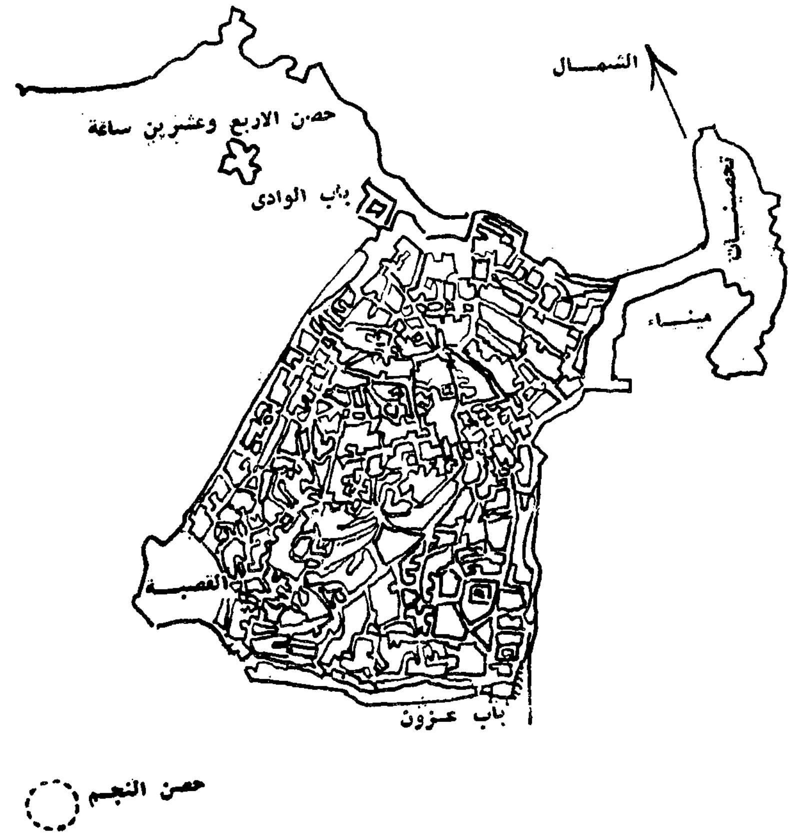
وكان الإنكشارية يحسدون القراصنة الذين كانوا بدورهم يحتقرونهم ويسمونهم ثيران الأناضول ويساندون الباي لرباي في امتناعهم من الاستجابة إلى طلباتهم ، غير ان الرؤساء اضطروا إلى التنازل لفائدة الوجق وقبول عدد منهم في بحارتهم (1568) ممّا ساهم في تقهقر القرصنة رغم ما بذله الرؤساء من مجهود للحد من عددهم .

جزائر القراصنة :

لمّا أصبحت الجزائر مدينة القراصنة اضطرت إلى التسلح للقيام بالهجومات والتحصن لمواجهة ردود فعل الاساطيل المعادية ، فكانت بذلك دار صناعة ومرسى يُلجأ إليه ، واعتبرت ابتداء من عهد الباي لرباي قاعدة حربيّة تحوط بها مراكز محصنة لدرء الهجمات البحرية وقد زيد في عددها زيادة ملحوظة بعد حملة شارل الخامس (1541) وقبل هجوم دون خوان النمساوي على تونس (1573) ، وتمت حماية الجهة المواجهة للبحر من الجزيرة باقامة مأمن كما بُنِي برجان في موقع الحصن القديم وفي طرف رصيف مكسر الامواج الكبير . وشيّد عروج في مكان يعلو بقليل القصبة البربرية القديمة قصبة جديدة لم يتم بناؤها الاّ سنة 1590 وأعاد خير الدّين وخلفاؤه بناء سور المدينةونحن نعلم بفضل هيدو الذي كان يشبه مدينة الجزائر بقاذوف تكون الجهة المواجهة للبحر بمثابة الحبل فيه ، انّ اسوارها التي بلغ ارتفاعها من 11 إلى 13 مترا وطولها حوالي 2.500 متر كانت مبنية من لبنات مشدودة بعضها إلى بعض بملاط قوي ومقامة على قاعدة من باطون (Béton) . غير ان البناء المواجه للبحر نفسه كان اضعف من ان يصمد امام كل الاخطار رغم سماكته وعلوه ، لذلك عمد القوم إلى حماية السور بواسطة خندق يتراوح عمقه بين ستة وثمانية امتار وعرضه من 11 مترا إلى 14 مترا ونصفا وعززوه بابراج مربعة الشكل وبريجات قليلة البروز . اما مكسر الامواج الذي بناه خير الدين ودار الصناعة بالمصيدة (La Pêcherie) فقد كان يحميها بناءان عظيمان ومن شرفات المأمن وكواه كانت تنطلق طلقات البنادق وقذائف المدافع .

وكان للمدينة خمسة أبواب رئيسية : الباب الجديد بالجنوب الغربي من المدينة ويوجد في أسفل القصبة وباب عزون جنوبا وهو أعظم الأبواب شأنا ومنه يدخل القادمون من الارياف ويربط بينه وبين باب الواد طريق تجارية طويلة وباب الجزيرة او باب الجهاد المفتوح على مكسر الامواج الكبير ومنه يمر الرؤساء وأخيرا باب السمك او المصيدة او الديوانة واليه يتجه القادمون من الميناء .

ويوجد خارج الأسوار عدد من الحصون المكملـة للتحصينات المواجهة للبحر فمنهـا برج علج علي الذي يعرف ببـرج اربـع وعشرون ساعـة ويحمي شاطيء باب الواد (1568 ـ 1569) وحصن النجمـة الذي بنـي بعيدا عن البحر في مكان أعلى من القصبة (1568) وبرج السلطان قلاصي المفتوح على الجنوب والمشيد في موقـع معسكر شارل الخامس وكـانت كـل هـذه الابراج بمثابة الدرع على أطراف المدينـة .



شكل 26 ـ مدينة الجزائر فى عهد الاتراك

وغصت المساحة الصغيرة الباقيـة داخل الأسوار بالدور البيضاء ذات السطوح المُدرّجة والتي برز جزء من بنائهـا بواسطـة عوارض من الخشب واشرف على الأنهـج الضيقـة حتى التقى في بعض الأحيـان بالبناء المواجـه

وأصبح بذلك سقفا من الأعواد او من عقود القباب ذات الحروف ، ولم يشيد الرؤساء منازلهم الفخمة في أسفل المدينة الا في أواخر القرن السادس عشر . فلم تغيّر هذه البناءات الجديدة المظهر الخارجي للمدينة التي بقيت مدينة مغربية رغم ان معظم اهلها لم يكونوا مغاربة وان شكل بعض الدور الفخمة من الداخل لم يكن مغربيا كذلك فقد كان يوجد حوالي سنة 1582 على حد قول هييدو مائة مسجد وكنيسة وزاوية لم يبق منها اليوم أي أثر « فكانت قاعات للصلاة متوازية البلاطات مغطاة بسطوح من القرميد ذات السفحين » (ج . مارسي) .

سكان الجزائر :

اننا اذا اعتمدنا حسب لاسبس (Lespés) التعداد الذي قام به هييدو قدرنا ان الـ 12.200 مسكن الموجودة في عهد الباي لرباي كانت تاوي أكثر من 60.000 ساكن من دون ان نضع في حسابنا الـ 25.000 من الأسرى النصارى الذين كان عدد كبير منهم مقيما بالضواحي وكان نصف المساكن تقريبا على ملك مسلمة النصارى الذين يمثلون مع العشرة آلاف مشرقي أغلبية السكان الساحقة . وقد حشر هييدو تحت عنوان المغاربة 6.000 من الموريسك الهاربين من الأندلس او غرناطة (المدجنون) أو بلنسية او الارغون أو قطلونية (أهل تاجرا) و 3.500 من القبائل وعددا غير مضبوط من العرب ربما بلغ 3000 أي في الجملة ما يقارب 25.000 ساكن على الأقل وكان حوالي 5.000 من اليهود تغص بهم حارتهم

وكان الكراغلة وهم المنحدرون من آباء اتراك ونساء من الاهالي يشاركون في الشؤون العامة . ومنهم ابن خيرالدين حسن باشا الذي عيّن باي لارباي اما المغاربة فقد حرموا من هذه الحظوة واعفوا من الخدمة العسكرية ، وانفردوا بالصناعات المحلية وتعاطوا أحيانا الفلاحة وساهم اثرياؤهم في تمويل السفن الشراعية وأخذوا قسطهم من ارباح القرصنة ، واستخدم « القبائلية » في الأعمال اليدوية اليومية ولم يتخلصوا من الوصاية الثقيلة المسلطة عليهم . واحتكر بنو مزاب الحمامات ودكاكين القصابة وطواحين المدينة ، كما اهتمّوا كذلك بنشاط القوافل وتجارة العبيد السود . وكان اصيلو بسكرة سقائين و « خنادقية » وأعوان شرطة

وخاصـة حماليـن يعيشـون في أكـواخ من التبن بضاحيـة باب عـزون او يلتحفون السماء . أمّا حارة اليهود المختلطـة فقـد سكـنها عدد قليـل من اليهود الافارقة الشبيهين بالبؤساء من الاهـالي وعدد كبير من المهاجرين الوافدين في أواخر القرن الثامن من الجزائـر الشرقيـة (Les îles Baléares) (شـكليين) ثمّ بعـد قرن وخاصـة بعـد سنة 1492 من اسبانيـا ، ويمثـل الـكبوسيون (1391) الخاضعـون خضوعا كليـا لسلطة أحبارهم الارستقراطية الفـكريـة والتجاريـة وهم فعـلا المؤسسون الحقيقيون للحركـة اليهوديـة بالجزائـر وأذن خيرالدين لليهود بالاستيطان في الايالـة مع تحديد عـدد دكـاكينهـم ، غير انهـم لئن تمتعوا سريعـا بمكـانـة مرموقـة في العمليات التجارية وخاصـة في تصريف الغنائـم التي لاتروج على عيـن المكان فقـد ظلـوا عرضـة لإهانات الاهـالي الآخريـن واضطروا إلى حمـل زي خـاص بهـم ودفـع الجزيـة . ومثـل الاوربيين بعض التجار وعدد كبير من الأسرى ولم تعـر مدينـة الجزائـر التجـارة كبير أهميـة بينمـا أسس بهـا عدد مـن تجار البحر المتوسط وخاصة من مرسيليا (قبـل 1550) محلات تجاريـة ، واستخدم ملك فرنسا الحريص على مراقبـة نشاط رعاياه نفـوذه لدى الباي لارباي لتعيين قنصل بالجزائـر ابتداء من سنـة 1564 غير ان البـاب العـالي استعمل كـل ما لديـه من سلطـة معنويـة لوضـع حد لمعارضـة الجزائـريين ولم يتـم ذلك الاّ في سنة 1580 وتمـكن الانقليز بعد مرور خمس سنوات من تعيين ممثـل لهـم لـكن من دون ان يتمتـع بامتيازات القنصل ، واحتوت الجزائـر كـذلك على خلـق كـثير من الأسرى بلـغ عددهم حوالي 25.000 في عهـد هييدو حيث كـان الرؤساء يجلبـونهـم بـالمـآت إلى سوق بادستان .

وبلـغ عدد اللغات المختلفـة نفس عدد الاجناس تقريبـا . وكـانـت التركيـة هي اللّغة الرسميـة لغـة الارستقراطيـة العسكريـة والبحريـة اذ يؤول الأمر بـكل من اعتنـق الاسلام إلى التكلـم بهـا . واحتفظت اللهجـة العربيـة الدارجة بمنزلـة مرموقـة اذ لم يقتصر استعمالهـا على البلديـن واللاجئيـن من اسبانيـا بل كـانت ايضا اللغـة الوحيـدة التي تفهمها القبائـل المجاورة . ولـم يذكـر هييدو شيئا عن اللغـة البربرية غير انه من حقنا ان نؤكـد ان لهجـات القبائليـة والمزابيـة كـانت مستعملـة على الأقل في عدد من الاحياء وداخل منازل كـثيرة نظـرا إلى مايذكـره هييدو نفسه من استيطان عدد كبير مـن

القبائلية صحبة عائلاتهم ، وأخيرا كان جانب من العبيد وبعض التجار الاوربيين ونفر ممن اعتنقوا الاسلام حديثا يتكلمون « اللغة الفرنقاوية » (Langue Franca) لغة المعاملات وهي خليط من العربية والاسبانية والتركية والايطالية ولغة البروفانس وكذلك بعض الكلمات البرتغالية بعد واقعة الملوك الثلاثة اذ وفد على الجزائر فجأة عدد كبير من العبيد البرتغاليين الذين باعهم المنصور .

ويظهر ان الحياة في مدينة الجزائر على عهد الباي لارباي كانت تتسم بالرخاء اذ كثرت المواد الغذائية وانخفضت اثمانها غير ان المجاعة والطاعون كانا يفتكان في بعض الاحيان بالناس فتكا . فقد أكد هيدو انه مات جوعا في شهر واحد وفي شوارع المدينة 5.656 مغربيا اوعربيا (17 جانفي — 17 فيفري 1580) وان وباء فتّاكا ذهب بثلث السكان في ظرف عامين (1572 — 1574) ، وكان من الحتمي فتح الأبواب امام تيار الوافدين الجارف المتواصل لتلافي هذا النقص .

حكومة الباي لارباي :

كان الباي لاربايات المعينون من طرف السلطان يحكمون الايالة مباشرة وبواسطة خلفائهم ، غير مقيدين بوجهة نظر الديوان ويمارسون نفوذهم على باشوات تونس وطرابلس ويتصرفون تصرف « ملوك الجزائر » حقا كما سمّاهم هيدو ، وظلوا على ولائهم التام للباب العالي ينفذون تعليمات أمير المؤمنين على مضض احيانا . من ذلك اعطاؤهم حوالي سنة 1650 ورغم معارضة الجزائريين « لطوماس لاش » وهو « كورسيكي » مقيم في مرسيليا لزمة صيد المرجان فيما بين رأس رو وبجاية ممّا يعدّ بادرة فيما يسمّي بلزمات افريقيا وكذلك حق تأسيس مركز غير محصن في برج فرنسا الكائن على بعد عشر كيلو مترات غربي القالة .

وكان الباي لاربايات يقيمون بالجزائر في الجنينة الكائنة وسط دار السلطان وهي مجموعة كبرى من البناءات « وتحتوي على ساحتين الثانية أصغر من الأولى وتتوسطها بركة مربعة الشكل وحنفية كبيرة تكسبانها روعة، ويوجد في إحدى الزوايا مدرج خشبي كبير يفضي إلى رواق طويل ارضه مفروشة بالجليز ومحاطة باعمدة من الرخام وتتدفق المياه عالية

وسط فسقيـة مثمنة الاضلاع ويجلس الباشا على اريكـته القليلة العلو في اقصى الرواق (ج. مرسي) .

ولم يكـتف الباشوات باثراء عاصمتهم بواسطة القرصنـة بل استغلوا خيرات بلاد الجزائر كلمـا توسعوا في غزوها . وساعدتهـم على ذلك الفوضى السائدة في البلاد حينذاك فقـط بل كـذلك وحدة المعتقد بينهـم وبيـن الأهالي ومن دون شك نشاط الزّوايا ايضا. ولم يقتصروا خاصة على احتلال السواحل بل أسسوا حاميـات في المدن التي تحتـل مواقـع استراتيجية واستهدف تنظيمهـم امتصاص خيرات الاهالي بتوظيف الاداءات عليهـم معتمديـن على قبائـل المخزن المحدثـة ابتداء من 1563 وتوجيـه « المحلات » لنهـب البلاد . اما الذهب الذي لايرسلـه الباشا إلى السلطان استبقاء لحظوتـه لديـه فإنـه يملأ به خزائنـه الخاصـة .

وسرعان ما أدرك الباي لاربايات ان الخطر الذي يهدد حكمهم لا يأتي من رعاياهم بل من الإنـكشاريّة . لذلك حاولوا انشاء جيش لايقـل عنهـم اقداما لـكـنه أشد اخلاصا إليهم منهـم واختاروا عناصره من بيـن مستجدي القبائـل وخاصـة قبيلة زواوة وربمـا فـكروا في انشاء امبراطورية بحريـة تقتضي تظافر جميع قوى الايالـة ، غير ان الباب العالي بايعاز من الإنـكشارية حال دون ذلك خوفـا من ان تساعد مثـل هذه القوة على بعث دولة مستقلـة ومنافسة له، على ان الاتراك الذين تعلقـوا بحكـم اتصالاتهـم مع الاوروبيين بنظريات سياسية مجهـولـة من الدول المغربيـة أثروا تأثيرا عميقـا في إرساء اركـان الدول البربريـة ، ذلك ان الاتـراك احلـوا فـكرة الحدود المضبوطـة محـل التخوم غير الدقيقـة التي قنـع بهـا القوم إلى ذلك العهد فـكـانوا المتسببين الرئيسيين في التمييز الذي تـم في القرن السادس عشر بيـن البلاد الجزائرية والبلاد التونسية اللتين يـرجـع تسميتهمـا إلى عهـد ملـوكيـة جويليـة فقط وبـلاد المغرب الأقصى ، وحارب الباي لا رباي في نفس الوقت الأشراف المغاربة لتخوفهم من قوّتهم والاسبان المتمركزيـن بالحصون والساعين إلى الاعتمـاد على دولتـي تلمسان وتونس المواليتين للجزائـر والمناهضتين للاتراك .

3 ـ الباى لاربايات و نهاية الدولة الزيانية والدولة الحفصية

صراع البـاي لا ربـاي ضدّ الاسبـان والأشراف (1536 ـ 1568) :

عندما عزم خيرالدين على السفر إلى القسطنطينية اناب عنه خليفته حسن آغا (1536 ـ 1543) الذي تميزت مدته بمحاولة شارل الخامس الاستيلاء على مدينة الجزائر (1541) ذلك ان الأمبراطور أراد تسديد الضربة الحاسمة للقضاء على مكمن الرؤساء بعد ان ضمن لنفسه من جديد حياد ملك فرنسا ، ودبّر الأمر حتى لايفاجئه الاسطول العثماني فانتظر الخريف للاقتراب من مصب الحراش بأسطوله المتكوّن من 516 مركب شراعي تحمل على متنها 12.330 بحار و 24.000 جندي (23 أكتوبر) واستطاع الجيش الوصول إلى الرُّبَى المشرفة على المدينة غير ان توالي الزوابع وتهاطل الأمطار الغزيرة ادخل عليه الاضطراب فسهل على العدو دحره وتمكن الهاربون من الجند بعد تقهقر مضن دام ثلاثة ايام تحت حماية فرسان مالطة من الالتحاق بالاسطول في رأس ماتيفو وقد أتلفت العاصفة 140 من مراكبه وعدل شارل الخامس باشارة من قائد اسطوله عن محاولة القيام بهجوم ثان وأذن لفلول جيشه باللواذ بالسفن (3 نوفمبر) وغنم الجزائريون غنائم كبرى واعتبروا أقوى من أن تُكسّر شوكتهم رغم أن العنَاصر الطبيعية هي السّبب الحقيقي في انتصارهم .

وكان من نتائج انتصار الاتراك ان انضمّ اليهم مولاي محمّد ملك تلمسان وسلمهم المشوار بعد خروجه عن الولاء للإسبان . فكانت الفرصة سانحة لاثارة حميّة النصارى ودفعهم إلى ردّ الفعل ، وسُرعان ما بوّأ والي وهران الكونت الكودات للحكم عبد الله وهواخ صغير للملك ودخل تلمسان على رأس فرقة من الجيش ونَصَّبَهُ مَلكًا عليها (6 فيفري 1543) ورجع بعناء إلى قاعدته بينما بايع أهل تلمسانَ ملكهم السابق . وهكذا

كان الفشل نصيب هذه الطريقة التي تعتمد القيام بالهجمات داخل البلاد من دون تمركز دائم .

وربّما عاب خيرالدين على حسن آغا ضعفه اثناء حصار الجزائر فنزع عنه بعض ثقته طيلة أشهر ثمّ عوّضه بابنه حسن باشا (1544 — 1552) الذي وجه جهوده خاصة نحو غربي الايالة — واضطر الإنكشارية إلى التخلي عن تلمسان التي دخل ملكها تحت حماية الاسبان (1547) وانجدوا قاعدة مستغانم المحاصرة من طرف الكونت الكوديت . فاغتنم محمّد المهدي الشريف المنتصر على بني وطّاس سلبية الأتراك لاحتلال عاصمة بني زيان التي كان له فيها عيون وانصار (1551) اما ابنه فقد تشجع بهذا الانتصار الأول فاستولى على مستغانم وواصل زحفه متخطّيا وادي شلف . ولم يحرك الاسبان ساكنا لان المشاكل الاوروبيّة الشائكة اقعدتهم عن ذلك بينما رد حسن باشا الفعل بقوّة بعد ان خلف أباه على الحكم (1546) فتوجه الجيش التركي بقيادة حسن كورسو الجديث العهد بالاسلام وبدعم من القبائل المقيمة غربي البلاد والمناهضة للسيطرة المغربية فاسترجع مستغانم واباد الجيش الشريفي وواصل زحفه حتى بلغ الملوية ثمّ دخل تلمسان وأبى حسن كورسو ارجاع الملك الزياني الموالي للاسبان إلى عرشه فاقر حامية تركية ونصب واليا تركيا . وأذنَ هذا الاحتلال المتواصل لعاصمة المغرب الكبرى بنهاية نشاط الاسبان في الاراضي الوهرانية . وتمكّن القائد المنتصر بفضل ماصادره من املاك سكان تلمسان الذين رفضوا المهادنة من تقديم هدية ممتازة لصلاح رايس الباي لارباي الجديد بمناسبة تقلده الحكم خلفا لحسن باشا وقد تم هذا التعيين بفضل اعانة سفير فرنسا بالقسطنطينية .

وقد ذاع صيت صالح رايس منذ كان يعمل إلى جانب خيرالدين وتحمل قيادة الأسطول العثماني وعرف بالشدّة والاقدام وتواصل نفسه في القتال وأجبر حاكمي تُوقُرْتُ وورقلة على دفع الاتاوة ، امّا في بلاد القبائل فانه لم يقدر على اخضاع بني عباس الذين تمردوا عليه بعدِ ان أعانوه على غزو الجنوب ولكنه استمال اعداءهم بالكوكو وجعل منهم خيالته في حربه بالمغرب الأقصى ، ولمّا رشح القوم أبا الحسن الوطاسي اتخذ من ذلك ذريعة للتدخل ضد الشريف واضطره في تازة (ديسمبر 1553)

إلى الهروب وحاول من دون جدوى استبقاء فاس تحت السلطة الاسمية للسلطان لان ثورة الأهالي أجبرته على التسليم بمبايعة بوحسون - وأمكن على كل حال الاستيلاء لفائدة الاتراك على قلعة حجر باديس (1554). ومنها كان يحيى رايس المقدام يعيث فسادا في سواحل الجزيرة بأسره لاربعة آلاف نفر (1558 - 1562) ثمّ استولى صالح رايس على قاعدة بجاية التي لم ينجدها نائب ملك نابولي في الوقت المناسب (1555) ولما تهدد فيليب الثاني الافلاس وعجز عن القيام بحملة هدأ من روع رعاياه واتخذ من والي بجاية المسكين كبش الفداء فأمر بقتله ، غير انه لم يفد وهران في شيء عندما استسلمت بدورها إلى الاتراك (1556) ولعل وفاة صالح رايس واستقدام السفن الشراعية الجزائرية للدفاع عن البوسفور وتراجع حسن كورسو بعد ذلك أنقذ جميعها الحصن الغربي الهام الذي لم يتصل بأية نجدة ..

وتسببت وفاة صالح رايس الفجئية في نشوب الصراع بين الوجق والطائفة ، لذا منع الإنكشارية الباي لارباي تاكرلي الذي عينته القسطنطينية من دخول مدينة الجزائر وطالبوا بتعيين حسن كورسو ، غير ان مؤامرة الرؤساء سمحت للتاكرلي باقتحام المدينة والظفر بحسن كورسو الذي طال احتضاره مدّة ثلاثة أيام مخوزقا (*) على باب عزّون ولكن الوجق قتل الباشا بعد ذلك بقليل .

وقرر السلطان في آخر الأمر نظرا إلى الفوضى المستفحلة في الايالة إلى الالتجاء إلى الحسن ابن خيرالدين (جوان 1555) وتعكر الوضع في الغرب حيث كان الجيش الشريفي المسيطر على تلمسان يحاصر الحامية الصغيرة المتمركزة بالمشوار وتمكن الباي لارباي من الهجوم على المغرب بعد اغتيال محمّد المهدي من طرف الجند الاتراك الفارين والفتن الناتجة عن تنازع الحكم الا انه اضطر إلى الالتجاء إلى البحر من دون ان يدخل فاس وذلك بسبب هجوم الاسبان من الخلف ، وقد يكون هذا الانسحاب السريع رفع من معنويات الكونت الكوديت الذي كانت تبخرت آماله في الحيلولة دون احتلال الاتراك للمرتفعات الوهرانيّة بعد سقوط مملكة تلمسان

* الخازوق : عمود طويل محدد الرأس يدخل في دبر المجرم فيموت عليه .

الموالية له وحسب ان احتلال مستغانم يقطع عنهم أهمّ قاعدة يرسي فيها اسطولهم . وكان قد فشل في ذلك مرّتين (1541 – 1547) وآلت الحملة الثالثة إلى كارثة ، إذ فوجئ غوغاء جنده المغرورين وطوقوا وهلك الوالي وقُتل أكثر من 10.000 من جيشه او سيقوا إلى الأسر (اوت 1558) ولم يسترجع الاسبان هيبتهم بعد هذه الواقعة فظلوا منذ ذلك الوقت تابعين لمدينة وهران وقاعدة مرسى الكبير .

وبينما كان حسن باشا يتهيأ لمقاومة الشريف اذ بالوجق يغضب لعمليات التجنيد التي كان يقوم بها حسن باشا في بلاد القبائل فيقبض عليه ويبعث به مقيّداً إلى القسطنطينية بتهمة السعي إلى الاستقلال (جوان 1561) ولم تَمْضِ على حُكْم الباشا الذي خلفه فترة وجيزة حتى أمر بقتل المتمردين الأكثر تورطا وارجع الباب العالي حسن باشا إلى منصبه كباي لارباي (1562) فلم يلبث ان استأنف تحقيق مشاريعه السابقة وضرب الحصار على وهران ومرسى الكبير ، غير أن المقاومة الاسبانية صمدت الوقت الكافي حتى انجدها اسطول دوريا واضطر الاتراك إلى الرجوع إلى الجزائر بعد ان تكبدوا خسائر فادحة (3 افريل – 7 جوان 1653) وبينما كان حسن باشا يعد العدّة للأخذ بثأره اذ بالسلطان يستقدمه من الجزائر ليساهم اولا في حصار مالطة (1665) وليقود بعد ذلك الأسطول العثماني بلقب قبطان باشا (اوائل 1567) فترك الإيالة للباشا محمّد بن صالح رايس الذي صرف همّه إلى مواجهة ما تركه الطاعون والمجاعة واللصوصية من آثار أثْخَنَتْ في الجزائر وهو الذي رخص للانكشارية بالانضمام إلى البحارة ليخفف من حدّة الخصومات الموجودة بين الوجق والرؤساء وما كاد ينتهي من فرض النفوذ التركي على قسنطينة حتى عين باشا في مكان آخر وعوض بالباي لارباي علج علي (مارس 1568) .

علج عليّ ونهاية دولة الحفصيين :

ربمّا كان الباي لارباي علج علي مع خيرالدين أعظم رجالات الحكم التركي فقد اختطف منذ حداثة سنه بسواحل كلابر واحتقره الجدّافون لِقَرَعٍ برأسه قيل إنه لم يرض بالدخول في الاسلام الا ليثأر لنفسه من تركي ضربه . وسرعان ما أصبح قائما على الجدافين (Comite) فمارس القرصنة لفائدته الخاصة وبرز بالخصوص اثناء حصار مالطة

تحت إمرة حسن ابن خيرالدين و درغوث ونسب النصارى كآبته إلى تحسره على الخروج من دينه أكثر من مرضه . وأكد سفير فرنسا الذي عاشره بالقسطنطينيّة أنّه كان يقوم بالطقوس النّصرانيّة سرّا وأنّ الانكشاريّة بالجزائر شكّوا في خلوص عقيدته الإسلاميّة وعلى كلّ فانّ العروض الّتي قدّمها له فيليب الثّاني بايعاز من الباب العالي لم تلق منه أذنا صاغية .

وكان الباي لارباي الجديد على معرفة تامة بالايالة اذ سبق أن وَلِيَ على تلمسان وقاد المقاومة ضد الاسبان وصرف همه اولا إلى تدعيم ثورات الموريسك بغرناطة ضد اضطهاد النصارى ولكنه لاقى صعوبات في مد الثوار بالرجال والذخيرة فهزموا هزيمة منكرة غير انه نجح في جهوده الرامية إلى تخليص تونس من الحماية الاسبانية وازالة الدولة الحفصية .

وما أن رحل شارل الخامس عن المملكة التونسية حتى رجعت اليها الفوضى . ذلك ان مولاي الحسن الذي آل به الأمر إلى محاربة شعبه الرافض لسلطته ومقاومة ابنه السّاعي إلى أخذ مكانه لم يبق في الملك الا بدعم من الاسبان – ولو لم يتدخل « دوريا » لمّا رجعت إلى حوزته قليبية وسوسة وصفاقس والمنستير (1540) غير ان الجنوب التونسي بقي خارجا عن نفوذه بل بلغ به الأمر إلى ان تخلت عنه جيوشه اثناء حملة ضدّ القيروان التي أصبحت حينذاك عاصمة للامارة الدينية للعرب الشّابية فلم يجد بدا من التماس المدد (1542) في اوروبا وهزمه رغم ذلك ابنه مولاي حميدة (أحمد سلطان) وأخذه اسيرا وسمل له عينيه . ثمّ افتك تونس من أحد الادعياء الحفصيين باعانة من النصارى وأخذ يناور بين الاسبان والاتراك ، ولاحظ « بروديل » في وثائق شانت مانكش (Cimancas) انه امضى معاهدات كثيرة مع والي حلق الوادي واشار « مونشيكور » إلى العروض التي قدمها الباب العالي سنة 1552 قصد الاحتفاظ لنفسه بحلق الوادي والمهدية و « مده بالجيوش الكفيلة باسترجاع اراضيه الخارجة على سلطته » كما كتب إليه في هذا المعنى سنان باشا .

وفي هذه الآونة جدد الرايس درغوث على سواحل بلاد البربر الشرقية مغامرات خيرالدين وقد ذكّرتْ حيلُه «مونشيكور» بحذق أُوليس وخُدَعه (الم يشرح فيكتور بيرار الاوديسة مستعينا بأخبار القراصنة ؟) . غير انه

بعد ان جعل من المهدية مركزا لقيادته العامة ومنها كان ينطلق ليعيث في الساحل الايطالي فسادا ، لم يمنع الاسبان من الاستيلاء على القاعدة (سبتمبر 1550) وخاب في محاولته الاستحواذ على قفصة . ولم ينج من سفن « دوريا » التي منعت عليه قنال جربة الا بخدعة جريئة (افريل 1551) ولما « خاب امل قائد القراصنة في بعث امارة له بسرتا الصغرى.... لم يبق له الا التخلي عن استقلال أصبح خطيرا عليه والرضا بحماية الباب العالي » (مونشيكور) .

وتمكن السلطان منذئذ من صرف نشاطه على السواحل الافريقية طيلة خمسة اعوام — (جوان 1551 — افريل 1556) واستطاع درغوث رغم اقصائه عن خطة قبطان باشا بسبب عداوة الوزير الأكبر رستم له ان يتحصل من السلطان سليمان على ولاية طرابلس . ولما عادت له صولته في الاراضي الافريقية قاوم إلى أن وافاه الاجل أمام مالطة (1565) المشايخ الخارجين عنه بجربة وضواحي طرابلس ودخل قفصة دخول الفاتحين (20 ديسمبر 1556) واطرد الشابية من وسط البلاد التونسية واحتل القيروان في 3 جانفي 1558 — ولم تمض سنتان حتى أصبح درغوث صاحب سيرتا و « قوة يقرأ لها الحساب » في البحر المتوسط .

ولما بلغت اسبانيا المرحلة الحاسمة من كفاحها ضد فرنسا عدلت عن الاهتمام بوضع حد لتوسع درغوث وكذلك الجزائريين غير ان معاهدة كانوكمبريزيس (Cateau Cambresis) التي تعد بحق منعرجا في تاريخ أوروبا ازاحت عنها عبء همومها العاجلة (1559) وطرأ تحول في سياستها الافريقية ، اذ بوأ الخطر التركي البلاد التونسية المكانة الأولى بوصفها تمثل كما لاحظ « بروديل » إلى جانب مالطة وصقلية ونابولي الحدود الاسبانية التي تفصل غربي البحر المتوسط الخاضع لسيطرة الملك الكاثوليكي عن شرقيه الواقع تحت نفوذ السلطان — أما المعارك التي دارت رحاها في مناطق أخرى من بلاد البربر سواء امام المرسى الكبير (1563) وحول حصن بلش (Velez) (1564) فقد كانت ظرفية محدودة في الزمن ، وظل فيلب الثاني مركزا اهتمامه دائما على حلق الوادي . غير ان اسبانيا منيت بهزيمة نكراء (1557) فتعذر عليها تحقيق حلمها في التوسع .

وربما سمح الملك الكاثوليكي لفرسان مالطة ونائب الملك بنابولي بالهجوم على جربة ومحاربة درغوث أخذا بخاطر البابا الذي اغدق عليه المنح ، وابحر اسطول الدوق « دي ميدينة دي كايلي » على غرار اسطول شارل الخامس في فصل الخريف حيث كانت السفن الشراعية التركية راسية في جليبولي (1559) واحتل امير البحر الجزيرة من دون كبير عناء ولكنه أضاع وقتا ثمينا في جعلها قاعدة للهجوم على طرابلس — فلمّا غادر مرساه داهمه أسطول بيالي باشا ودرغوث فأغرق له ثلاثين سفينة وأسَرّ خمسة آلاف من رجاله (15 مارس 1560) وأبيدت حامية جربة النصرانية عن آخرها بعد قتال عنيف ورصفت عظام القتلى في شكل هرم عُرف ببرج الروس الذي ظل ماثلا للعيان إلى سنة 1846 .

وتواصل الصراع بين الملك المسيحي والسلطان على الحدود الفاصلة بين جوضي البحر المتوسط ، ولعل حصار الاتراك لمالطة كان رد فعل على هجوم جربة ، ولاشك ان اثنين من رؤساء افريقيا درغوث وعلج علي كان لهما في ذلك ضلع كبير (1565) وأخيرا عاد باي لا رباي الجزائر إلى سُنّة خيرالدين فنقل الحرب إلى مدينة تونس . ولم يجد أية صعوبة وهو يزحف نحو الشرق لدحر فرق قليلة العدد من جند الحفصيين وطرد حميدة الذي لاذ بالاسبان (1569) ثمّ قفل راجعا إلى الجزائر بعد ان نصب القائد رمضان حاكما على تونس وتفرغ إلى اعادة تنظيم أسطول بلاد البربر — ثمّ استقدمه السلطان بينما كان يعد العدة لتوجيه حملة على حلق الوادي .

ذلك ان اخطارا جُلّى كانت تتهدد الأمبراطورية العثمانية — فقد تحالفت اسبانيا مع البابا والبندقية لمقاومة تركيا نتيجة ظهور موجة التعصب الكاثوليكي من جديد بعد حرب غرناطة الثانية (1569 — 1570) ومساعي بيّوس الخامس وفشل الملك الكاثوليكي في توجيه المعارك تجاه إفريقيا وانهك قواه في ما كان يقوم به من محاولات في المشرق . وكانت معركة « ليبانت » على الأقل فرصة لانتصار المتحالفين وهي المعركة التي ابلى فيها علج علي البلاء الحسن ونال فيها لقب قبطان باشا (9 أكتوبر 1571) وما ان استتبع تخلّي البندقية نهاية الحلف (1573) حتى عاودت اسبانيا الكرة على تونس فباغت « دون خوان » النمساوي

اخو فيليب الثاني المدينة واستولى عليها بدون مقاومة تذكر (1573) وعرض على القوم الحكم باسم الملك الكاثوليكي بتعاون مع الاهالي واعدا إيّاهم باحترام قوانينهم ولربما حلم فعلا بتطبيق هذه المبادىء بل الظفر بمجرد لقب ولكنه اضطر إلى ترك حامية في المدينة والرجوع إلى ايطاليا بعد ان نصب على العرش ملكا حفصيا جديدا .

وما كان للامبراطورية العثمانية ان تسكت بعد الضربتين المسدّدتين في ليبانت وتونس فلم يمض عام حتى انضمت جيوش الايالة وطرابلس والمشرق بعضها إلى بعض بقيادة سنان باشا وعلج علي وافتكت على التوالي حلق الوادي ومدينة تونس (1574) ومهد هذا الانتصار المزدوج لدخول تونس تحت نفوذ الاتراك فأصبحت باشية وكان ايذانا بزوال التأثير الاسباني . ولم يفكر فيليب الثاني في الاخذ بالثأر في إفريقيا ورضي بمهادنة السلطان (1581) بعد ان اقعده عن ذلك افلاس جديد (1775) وشلت قواه الثورات الناشبة بهولاندا والاضطرابات المطردة بايطاليا . واحتفظت اسبانيا بالحصون المتواضعة بمليلة ومرسى الكبير ووهران التي لم يغنها ماورثته عن البرتغال شيئا كبيرًا غير أن بلاد المغرب التي حافظت على ذاتيتها بفضل هذه النزاعات اتخذت لنفسها ملامحها العصرية بكتلها السياسية الثلاث المغرب الأقصى والبلاد الجزائرية والبلاد التونسية .

نهاية الباي لاربای :

عهد علج علي منذ ان تقلد إمارة الأسطول العثماني غداة معركة ليبانت بحكومة الجزائر إلى « خَلَفَوَات » وهم عرب أحمد الذي ساهم في افتكاك حلق الوادي وتونس والقايد رمضان (1574 — 1577) الذي توصل إلى تنصيب الدعي عبد الملك على مدينة فاس وإلى جلب مقابل ذلك 5.000 مثقال من ذهب وعشرة مدافع (مارس 1576) وأخيرا حسن فنزيانو (1577 —1580) وكان حسن كاتبا في سفينة شراعية من البندقية أسّره درغوث وباعه إلى علج علي فخرج عن دينه ودخل الاسلام وعرف بصلفه وعجرفته وقسوته وكذلك بحزمه وشجاعته اذا نحن صدقنا الوصف الذي وصفه به « سرفنتيس » وكان عبد الله قد توخى في حكمه الرعب وقهر الانكشارية والرؤساء على حد السواء غير ان المجاعة والطاعون تضافرتا مع أساليبه التعسفية في الحكم فكان تمرد الاهالي و كلف

جعفر الخصي الشيخ بارجاع الأمن إلى نصابه (1580 – 1582) وبينما كان جعفر مقيما بمدينة الجزائر وصلها علج علي لاعداد العدة لمحاربة المنصور وغزو المغرب ولكنه استقدم إلى الشرق هو وخليفته قبل ان يبدأ في تنفيذ مشروعه فنصب القايد رمضان باشا على الجزائر من جديد وأمر الباب العالي رمضان بارجاع سفينتين شراعيتين إلى فرنسا رغم معارضة الجزائريين فاغتنمت الطائفة هذا الغضب لتمكين رئيسها مامي ارناووط من السلطة . وتدعّم انتصار الرؤساء بعودة حسن البندقي فجأة وانتصابه بالقوة بالجنينة (1580 – 1588) وسخر كلّ شيء منذ ذلك الوقت في سبيل القرصنة التي عمّت سواحل اسبانيا وايطاليا وحتى الجزائر الخالدات من دون رادع يردعها .

ولمّا اثقلت السنون علج علي ومات سنة 1587 رأى السلطان الفرصة سانحة ليضع الغزوات الافريقية في اطار النظام العثماني العادي فحوّل طرابلس وتونس والجزائر إلى ثلاث إيالات يحكمها باشوات يقع تعويضهم بصورة دورية ، واقتضت هذه الاجراءات حذف باي لاربباي الجزائر فاستقدم الباب العالي حسن فينزيانو وأوكل إليه منصب قابودان باشا وعوضه بباشا يدوم حكمه ثلاث سنوات . وهكذا لم تعد مقاطعات بلاد البربر مجرد معقل من معاقل الامبراطورية العثمانية ضد الامبراطورية الاسبانية بل أصبحت مقاطعات مثل غيرها لايميز بينها سوى عامل البعد .

4 ـ العصر الذهبي للقرصنة الجزائرية والتونسية

ثورات بلاد الجزائر في القرن السابع عشر :

خرجت إيالة الجزائر وإيالة تونس عن نفوذ الاتراك في القرن السابع عشر اذ لم تطق المنظمتان العتيدتان للوجق والطائفة الخضوع إلى ادارة موظفين وقتيين لايعتمدون على أية قوة في المقاطعة التي كان من المفروض حكمها باسم السلطان . وانتهى الأمر بالباشوات إلى خروج الانكشارية والرؤساء عن مراقبتهم وانصرف همهم إلى الاثراء كلما سنحت لهم الفرصة فتنازعت هذه الشيع الشؤون العامة وقد ترك حبلها على الغارب وحركتها الاطماع أو الاحقاد . وبرزت من الازمات التي هزت الايالتين انواع أخرى من السلط ففي الجزائر ظهرت سلطة آغوات الوجق (1659) ثم الدايات (1671) وفي تونس وجدت سلطة الدايات (1590) ثم البايات (1705) وسهل استقلال الإيالات الباشية الافريقية تنمية القرصنة بكل حرية من دون مراعاة للاعتبارات السياسية التي كان يفرضها الباب العالي على الباي لازباي ونتج عن ذلك امران اولهما رد فعل الدول الاوروبية نتيجة تفاقم نشاط القرصنة وثانيهما نشوب حروب بين الايالتين بسبب الخلافات .

وليس ادعى إلى الملل من دراسة تاريخ هاتين الايالتين في القرن السابع عشر . فقد كان في الجزائر سلسلة متواصلة الحلقات من المؤامرات والانتفاضات والمذابح واكتفى الباشا فيها بمظاهر الحكم فكان يستقبل عند قدومه من القسطنطينية في موكب بهيج ويقيم في قصر فخم ويحاط بالتبجيل والتكريم غير انه كان عليه ان يوافق على قرارات ديوان الانكشارية ليدوم حكمه . وكان الديوان يجتمع اربع مرات في الأسبوع

منها واحدة في القصر للتداول في الشؤون الخارجية ويقرر في آخر الأمر بالاجماع السلم او الحرب .

وكان على الباشا ان يثبت في أول كل قرار رسمي هذه الجملة : « نحن ، الباشا وديوان وجق الجزائر المظفر » وانفرد خضر باشا بمحاولة زحزحة وصاية الانكشارية (Khéder Pacha) مستعينا بالكراغلة الذين اقصوا عن الشؤون العامة وبالقبائل المستعدين دائما للثورة (1596) .

وحان الوقت الذي لم يعد يتحمل فيه الوجق المتكون من 22.000 رجل حتى ترك النفوذ الوهمي للباشوات . وكانوا يلومونهم على تعمدهم نهب جرايات الجند والضرائب فقد أراد أحدهم وهو الباشا ابراهيم في يوم من الأيام أخذ العشر من المنح التي كان يرسلها الباب العالي للرؤساء لفائدة الأسطول الجزائري فنتج عن ذلك تمرد . فما كان من الديوان الا القضاء على ماتبقى للباشوات من صلاحيات دفع الجرايات وتعيين القوّاد والقضاء بين البلديّة ولم يترك لهم الا اللقب التشريفاتي . وأصبح الآغا يمارس السلطة التنفيذية معتمدا على الديوان (1659) وانتهت هذه الثورة التي اندلعت للدفاع عن حقوق الرؤساء في صالح الوجق . ونتج عن تغيير الآغوات كل شهرين اما اختلال في السلطة في حالة الامتثال او اندلاع الانتفاضات اذا تمسكوا بالحكم . والواقع ان النظام الجديد اقر الاغتيال طريقة عادية للخلافة اذ كان مآل الآغوات الاربعة الذين تقبّلوا قفطان الشرف من سنة 1659 إلى سنة 1671 الاغتيال من طرف الوجق .

وقلب الرؤساء الوضع لفائدتهم بعد مرور اثنتي عشرة سنة وأثاروا غضب اليولداش وأهل مدينة الجزائر على آغا علي فتمردوا عليه بتهمة الضعف ازاء المطالب الفرنسية المشطة . ولمّا قُتِل علي وعُذِّبتْ زوجته لم يتشجع أحد على الترشح للحكم فاغتنمت الطائفة هذا الانكماش لمحاكاة تونس واسناد الحكم إلى داي منتخب من طرفها في اول الأمر (1671) ثمّ في مرحلة ثانية من طرف ضباط (1689) وامتنع الداي العاشر علي شاوش من استقبال مبعوث الباب العالي واقنع السلطان باسناده لقب باشا (1711) .

ثـورات البـلاد التّونسيـّة :

آل انتصار سنان باشا في البلاد التونسية إلى إقامـة نظـام شبيـه بنظـام الجزائـر ، فـكان على رأسهـا باشا يعتمـد على حرس انتدب افراده مـن بيـن الاتراك اولا ثم في مرحلـة ثانيـة من بيـن مشارقة مسلمين وكراغلـة ويقود هذا الحرس آغا يـكاد يكـون مستقلا عن الباشا وكـانت بهـا طائفـة الرؤساء وقبائل المخزن المكلفة باستخلاص الضرائب . واستهدفت الايالة الى ما استهدفت له جارتهـا من اضطرابات . وكـان الوجق يتكون في آخر القرن السادس عشر من 40 فصيلـة تعـد كـل واحدة منهـا مائـة رجل على رأسهـا ضابط صغير اسمـه الداي (اي الخال) وقاست البلاد التونسية كمـا قـاسى سـكانهـا من وقـاحـة واستبداد الملازميـن (ادوباشـي) ونقبائهـا (بلوكبـاشي) الذين يتكوّن منهـم الديوان وقد احلـوا سلطتهم محل سلطة الباشا ، وآل الأمـر بالبلاد إلى كسر شوكتهم بفضـل ثورة عسكريـة ذات نزعة ديمقـراطيـة (1590) وانتخب الاربعون دايا بعـد مقتل البلوكباشية أحدهم لقيادة الحرس بالاتفاق مع الآغا ، غير ان هذا الداي لم يفتأ يتجاوز صلاحياتـه على حساب سلطـة الباشا حتى أصبـح الحاكـم الحقيقي ، ودعم الداي الثالث عثمـان نفوذه بجعـل الديوان مجرد هيئـة للمصادقة اولا وحصر نفوذ الباشا في تقبـل القفطان ثانيـا وذلك بالاعتمـاد على شخصين مخلصيـن لـه وهمـا القابودان (أمير البحر) وقائـد الامحال المكلف باستخلاص الضرائب وادارة شؤون القبائـل (الباي) .

تميّـز تاريـخ البلاد التونسية في القرن السابـع عشر بتوسع نفـوذ البايات على حساب الدايات . فقـد أخضـع عثمـان داي (1590 — 1610) القبائل الثائرة في البلاد التونسية وتصدى صهـره يوسف (1610 — 1637) حامي القرصنـة والمشهور بكـثرة البنايات التي شيّدهـا لانتفاضات القبائـل العربيـة والغزو الجزائري ، وإذن فلـم يكونـا من ضعفـاء الحكـام غير ان نفوذ البايات تعاظم إلى جانب سلطتهـم المعتمدة على حرس أقل شأنا مـن حرس الجزائـر لأنهـم كـانوا ماسكين مقاليـد الحكم الحقيقية بادارتهـم لشؤون القبائـل وتصرفهـم في الموارد الجبائيـة . وتوصـل الباي الثاني مراد (1612 — 1631) بعد ان نال لقـب باشا إلى التحصيل على حق توريث خطتـه لابنـه حمّـودة — ولم ينفك تأثير حكم المراديين الوراثي يتعزز وعظـم شأن

حمودة باي (1631 ــ 1659) عندما وضَعَ حدّا لانفصال القبائل العربية وضمّ جربة إلى البلاد التونسية الباشية ــ وأمسك بيديه مقاليد الامور في عهد الدايين الموالين فاصلح ما أفسده تدخل فرسان مالطة ضد أسطول حلق الوادي (1640) ووضع خطة لمقاومة المجاعة . ولم يراع مراد بـاي من بعده أية ذمة للدايات (1659 ــ 1675) اذ رمى بواحد منهم في البحر (1671) وانتصب في قصر باردو ملكا وأقام الدليل على اريحيته بتشييده المباني غير أن وفاته فتحت على البلاد عشرين سنة من الحرب الأهلية . وتنازع ابناه واخ له لقب الباي بحد السلاح وكانوا ينصّبون الدايات ويقتلونهم فمهدوا بهذه الفوضى إلى هجمات جزائرية مظفرة والى محاولة تدخل الباب العالي في شؤون البلاد التونسية وانتهى عهد المراديين إثر مؤامرة عسكرّية اذ عمد إبراهيم آغا الصبايحيّة إلى اغتيال كافة ذرية حمودة ونصب نفسه بايا (1702) ولم يلبث ان حمل الحرس على اسناده لقب داي (1704) واقنع الباب العالي بتعيينه باشا وبذلك تجمعت كل السلط لاول مرّة في يد واحدة ــ ولم يتوقف هذا التطور نحو الملكية بعد انهزام ابراهيم وأسره إثر مواجهته لجيوش الجزائر وطرابلس (1705) ذلك ان حسين بن علي آغا الصبايحية لمّ شتات الفارين وتحصّن بتونس وبايعه اهلها بايا ثمّ تصدى إلى الجزائريين فردهم على اعقابهم ولم يكتف إذ ذاك بالجمع بين الالقاب بل حذف لقب داي (1705) وآل الأمر بتوسع نفوذ البايات المتواصل إلى تأسيس دولة وراثية (1710) .

ومهما بلغت الاضطرابات التي عاشتها البلاد التونسية في القرن السابع عشر من قوة فانها لم تبلغ الحد الذي بلغته الفوضى في البلاد المجاورة . ذلك ان لها ماضيا وتقاليد لم تزل بزوال الدولة الحفصية . فان سكان المدن الحريصين منذ عهود الحكم القرطاجي على ايجاد حكومة تحفظ النظام اضطروا السلطة التركية على الانصهار في القالب الذي فرضته افريقية على أسيادها منذ قرون وزودوا المخزن بالموظفين الذين لامناص منهم لضمان استمرار الادارة وانّ مابذله الحسينيون في القرن الثامن عشر من مجهودات لتحويل دولة القراصنة إلى دولة منظمة انما هو امتداد لسياسة الحفصيين والموحدين والصنهاجيين .

دولـتـا القـراصـنـة :

كـان القرن السابـع عشر العهـد الذهبـي بالنسبـة إلى قراصنـة بـلاد البربر ، فلقد سمـح لهـم بالقيام بكل اعمـالهـم الجريئـة استقلال الايالتين عن الباب العالي وضعف الاساطيل الاوروبيـة والصراع بين الأمم النصرانية .

وغنيت الجزائـر خاصـة بموارد القرصنـة ، اذ تجاوز عدد سكانهـا في اواسط القرن السابـع عشر مـائة الف ساكـن علاوة على عـدد الأسرى المتراوح بيـن خمسة وعشريـن الف وخمسة وثلاثيـن الف اسير . وتعزّز الأسطول بسفـن شراعيـة كبيرة و « مراكب مدورة الشكل » او عاليـة الجنبات مـكّنت القراصنـة من ان يـتمـخروا عباب شرقي البحر المتوسط وان يبعثوا الرعب حتى في اسلندا بالذات (1616) وتجاوزت قيمـة الغنائـم اثناء السّنتين المؤاتيتين بصفـة خاصّـة (1615 — 1616) مليونين وحتى ثلاثة ملايـيـن من الليرات وأثرى كـل السكان بفضـل المعاملات الناتجـة عـن هذه الغنائـم وتجارة العبيد ، وتعددت في هذه الفترة سواءٌ في المدن أو في الارياف تلك المنازل الـمتكوّنة من سقيفة ووسط دار في كـل واجهـة منـه قاعة مستطيلـة قليلة العرض تفتـح على مجلس وبهـا مقصورتان سقفهمـا في بعض الأحيان على شكل قبـة على نحو ما نجـد اليوم في الأبرشية (archeveché) وكـانت حيـاة الرؤسـاء فـي اليـابسـة على غـرار مـن اثـروا سريعـا ، آنهماكـا في اللذات وإقبالا على الترف في غير حياء ، وكـان خزف (Delft) دلفت والرخام المنحوت من إيطاليا وحرير ومخمل ليون وجنوة ومرايا البندقيـة ومصنوعات زجاجية مجلوبة من بوهيميا وساعات انقلترا تُـكوّن كلهاحولهم اطاراً اصطناعيا هو اشبه شيء باستعراض الصياد لصيده — ولـكن هؤلاء الاتراك الاصيلين منهـم او الهجناء كـانوا يحبون ايضا اواني النحاس والاسلحـة وزرابـي سطيف وفرفور بلاد (القبائـل الصغرى) وقلعـة بني راشد (بين بسكرة ورليزان) الشرقيـة الشكل وخاصـة قطـع النسيـج المطرّزة بالحرير على الشاش أو الـكـتان وهو فن تلقّـن « المعلّمات سرّه إلى بـنات الأغنيـــــاء » .

وشيّد بالجزائر بفضـل موارد القرصنـة عدد كبير من المساجد والزوايا والمدارس حيث برز هنـا ايضا تأثير آسيا الصغرى المتمثل في القباب الـكبرى المثمنـة الاضلاع التي تغطي المصليات وتحيط بهـا على الجهات الاربـع

اروقة سقوفها على شكل قباب صغيرة او عقود قبابها ذات زوايا بارزة
وعلى هذا النحو كان المسجد الذي بناه بعد سنة 1622 بقليل العلج بتشينو
المدعو علي بتشنين والذي تغير شكله بعد أن أصبح كنيسة نوتردام دي
فكتوار (Notre Dame-des-Victoires) وحرص الوجق
بعد ذلك بنصف قرن (1660) على أن يكون له مسجد حنفي عظيم فبني
أعظم جامع شيده الاتراك الا وهو الجامع الجديد بقبته العالية البيضوية
الشكل المنزلة على مثلثات كرّوية والمقامة على اربعة دعامات نصف
اسطوانية وكلها مستوحاة من النمط المعماري بالقسطنطينية وبنى في
اواخر القرن (1696) ضريح حامي مدينة الجزائر الوليّ عبد الرحمن
الثعالبي (المتوفى سنة 1648) في تربة جميلة بجوار مقبرة اشجارها
من السرو .

وكانت تونس أيضا مدينة أهلها خليط من السكان ، فقد أوت
– أكثر من الجزائر – المورسك المطرودين من اسبانيا سنة 1609 والتجأ اليها
ثمانون ألفا منهم حسبما يقال وقد عرفت منذ القدم باحتضانها للاندلسيين
– وتقبل الاتراك هذه الهجرة بصدر رحب وهي التي كان لها الاثر
السيء على ازدهار اسبانيا وثقافتها ، وأكد ابن ابي دينار « ان عثمان
داي آواهم في المدينة ووزع افقرهم على أهل تونس » واستقر اخيارهم
من التجار وارباب الصناعة والمثقفين باحياء معينة اما زارعو البقول
وصانعو الشواشي والأقمشة الحريرية والاواني الخزفية المطلية فقد
واصلوا نشاطهم في الضواحي القريبة . وأحيى عدد كبير من الفلاحين
الذين يرجع اليهم الفضل في خصوبة سهول الأندلس معظم اراضي وادي
مجردة . ولم ينصهر في إفريقية هذه الارض العريقة في الحضارة
المهاجرون فقط بل كذلك المشارقة الذين أنسوا إلى الحياة في ظل النظام
التركي وسرعان ماتبنوا العادات والتقاليد التونسية . وقدموا مقابل ذلك
فنيّات رفيعة في ميدان القرصنة مكّنت عائداتها من تجميل المدينة ففي
هذه الفترة شيد جامع يوسف على النمط المحلي المتقادم باستثناء الصومعة
الشرقية الشكل وجامع حمودة باشا المرادي المعروف بمسجد
سيدي بن عروس (1654) وجامع سيدي محرز التركي النمط والأكثر
طرافة بمنبريه اللذين يعلو احدهما الاخر (حوالي 1675) واقيمت مدرسة

حنفية وزيد على زاوية سيدي الصاحب الرائعة او حلاق « القيروان » وانشئت اسواق كثيرة واحدثت البركة وهي سوق للعبيد تتمثل في ساحة صغيرة بممراتها الثلاثة المسقفة — ومدّ جسران على وادي مجردة قرب طبربة ومجاز الباب ورممت حنايا قرطاج وبنيت « سبالات » (حنفيات للورود) وميضوات (جمع ميضاة)

ومهما بلغ تأثير القرصنة في إنعاش الاقتصاد التونسي فانها لم تبلغ ما بلغته في الايالة الجزائرية حيث كانت المورد الوحيد — بل ان مقتضيات التجارة والعلاقات الدولية اضطرت الحكومة في آخر الأمر إلى الحدّ منها .

الرق في بلاد البربر :

كانت تجارة العبيد تدر على أهل بلاد البربر ارباحا أوفر ممّا يحصلون عليها من الغنائم . ولم يعد النصراني ذلك الكافر الذي يختطف من بلده بل أصبح بضاعة يسعى القوم إلى التخلص منها في أسرع وقت وبأغلى الاثمان — فتركيز مسرحية موليار الذي قبل تسليم عبده على الفور مقابل فدية ليس وليد خيال « سكابان » المحتال ، وقد شوهد درغوث في عرض سواحل كستلامّار (castellamard) وهو يرفع حالما تمت عملية الاختطاف « راية الفدية» .

وكان القراصنة ينزلون على السواحل ويحتجزون بالخصوص سفن النصارى وذلك سعيا إلى ملء مخازنهم بالبضائع — وكانوا يوقفون البحارة والركاب عراة على ظهر السفينة ولايتورعون في اجراء أدق التفتيشات عليهم بحثا عن الحلي ويتأملون في ملابسهم وايديهم للتكهن بمكانتهم الاجتماعية . ثمّ تساق قطعان البشر إلى السوق حال عودتهم إلى الجزائر أو تونس — ويقلّب النخاسون (chaland) الاسرى كما تقلب الحيوانات المعروضة في السوق . ويدققون النظر في أسنانهم وعيونهم وايديهم ويجسون لحومهم ويضربونهم بالعصا لحملهم على « المشي والقفز والتشقلب» وتتفاوت قيمتهم بحسب ما ينتظره الشاري من خدماتهم او ما يأمله من ربح عند بيعهم . ونجد في المقدمة الفتيات والفتيان الذين لايخفى مآلهم وكذلك كل من يظن انه من علية القوم بحيث يؤمل

الحصول على فدية بواسطته واخيرا العملة المختصين في الملاحة واشغال الموانى والمدفعية . وللسيد على عبده مطلق السلطة وله ان يضارب على فديته كما شاء .

إن حال العبيد كان أدعى إلى الرثاء من غيرهم نظرا إلى سوء تغذيتهم وضربهم بالسياط عند التحام مراكبهم بمراكب العدو ثم ابتعادهم عنها ولكنهم على كل حال كانوا أحسن حظا من البربر المجدفين في خدمة ملك فرنسا اذ هم لايوسمون في ابدانهم وبقوا احرارا في دينهم – وكان الرؤساء يستخدمونهم على اليابسة كحمالين او يعرضونهم للكراء كعمال يوميين .

أما الخدم وهم أقل عددا فانهم يصبحون في بعض الآحيان محل ثقة اسيادهم . و « تستخدم النساء في الاعمال المنزلية » . ويرسل عدد آخر من العبيد إلى الحضائر او يكلفون بالاشغال المضنية في الضيعات ويمكن للمحظوظين منهم القادرين على دفع منحة شهرية إلى أسيادهم ان يجوبوا المدينة أحرارا . أما أكبرهم حيلة فانهم يصبحون اصحاب أو صاحبات حانات وفيها يقبل النصارى والمسلمون على تعاطي الخمر والاخلاد إلى الخلاعة . ويمكن للقساوسة بفضل ما يدفعه الاسرى في الغالب ان يقوموا بطقوسهم الدينية .

وكان أغلب العبيد يودعون ليلا بسجون الدولة . ووجدت ستة سجون في الجزائر منها سجن للملك ويتسع لالفي أسير ، وكان يوجد تسعة سجون بتونس أيام زيارة الأب دان (Dan) لها ، وكان الاسياد يودعونها خدمهم مقابل مبلغ يدفعونه ووضعت الحراسة تحت مسؤولية باش حارس وهو شخصية تتعاطى التهريب بمساعدته على بيع مايسرقه العبيد . وكانت الاسرة في السجن يوجد بعضها فوق بعض من دون لحاف ، وكان رجال الدين على حد قول « هييدو » يكترون من الباش حارس غرفا صغيرة ويتصرفون بكل حرية في مصلى منه « يؤدي القوم القداس كامل السنة وفي بعض الاحيان يؤدونه « بالايقاع » .

ولم يكن حظ الاسرى حالكا بالنحو الذي صورته جمعية الافتدائيين التي كان عليها ان تحرك الهمم للتحصيل على الهبات المتناقصة باطراد ولم

يقدر القساوسة الطيبون على السكوت امام جنوح الكثير إلى اعتناق الاسلام فاضطروا إلى استعمال العنف . واعتبر اغلب الاسياد الخروج عن الدين عملية خاسرة ماعدا النساء اللواتي كن يدفعن عشاقهن إلى الاسلام للتزوج بهم والرؤساء الذين كانوا يختنون صغار نوتيتهم ليبقوا في صحبتهم .

وكان العلج على بتشنين يتبجح « باستعمال العصا لاستبقاء المسيحي على دينه » .

والعبد بضاعة ليس من المصلحة افسادها ولئن وجد اسياد « غلاظ » شراس ، قساة « فان دارفيو (Darvieux) اعترف بكل نزاهة : « انه يوجد في اوروبا اسياد لايقلون عنهم فظاظة بل ربما تجاوزوا أسياد تونس وحشية لو ملكوا عبيدا مثلهم » اما انواع التعذيب الثلاثة والعشرون التي وصفها وصوّرها الاب « دان » فقد حدثت بصورة استثنائية . ونسى اولئك الذين شهروا محقين بقساوة البربر ان ملك فرنسا لم يكن أكثر رفقا بالبروتستان الموجودين في سفنه الشراعية وان جماهير باريس لاتتردد في مشاهدة عقوبة الفسخ (écartèlement) او بعذاب العجلة كما لو حضرت إحدى الحفلات .

واعتبرت الكنيسة دائما ان افتداء الأسرى واجب مقدس تفرغت لأدائه جمعيات (ordre) كهنوتية مثل جماعة الثالوثيين التي أسسها القديس يوحنا دي متى (1198) وجماعة نوتردام دي لامرسي التي أسسها القديس فييرنولاسك (1218) ووجد في كل أمة افتدائيون وعمدت حكومات الدول البروتستانية إلى جمع التبرعات بل ان بعض اللائكيين التقاة سعوا في تخليص ابناء أوطانهم من الاصفاد غير ان الموارد قلّت وفتر حماس رجال الدّين . وكشف البحث الّذي أجري سنة 1638 قصد اصلاح جماعة الثالوثيين نتيجة معارضة الجنرال أن دار باريس (Maison de Paris) التي بلغت مواردها السنوية عشرة آلاف ليرة لم يوظف عليها إلاّ 18 ليرة للفدية .

وتتمثل طرافة القديس فانسان دي بولس في أنه عرض على اللعازريين أن يقفوا حياتهم على شيء يتجاوز اعتناق بعض النّاس المسيحيّة أو افتداء عدد من المسيحيين . وهي مهمّة لا تقدر على الاضطلاع بها في

نظره إلاّ الدولة ولا يهمنه ما إذا حملته نزوة الشباب وجموح الخيال كما أقام « فرانشون » الدليل القاطع على ذلك إلى تصوير أسره في تونس ، ثمّ أصرّ على الإمتناع عن ذكره فيما بعد . فهو الذي فكر في ارسال اخوانه لـ : « إعانة النّصارى المساكين أسرى البرابرة روحيّا وماديا المرضى منهم والأصحاء وذلك بالزيادرة ، والصدقة ، والتعليم والقيام بالطقوس المقدّسة » .

وظل إلى أن مات المحرك لهذا المشروع الرامي إلى رفع المعنويات ومقاومة الخروج عن الدين وكان « فنسان » شفوقا ولكنه حازم في دعوته ، عرف كيف يُبْقِي على علاقاته مع الجمعيات المتنافسة ويظفر في باريس بمؤيدين له مسموعي الكلمة ويوفق بين التواضع والقوّة وينجح في ادخال الفكرة الدينية في السياسة الفرنسية .

تجارة بلاد البربر والمراكز التجارية :

لم تقم الجزائر البتة بدور تجاري مماثل لما كانت تقوم به الأسكلة في المشرق ، ذلك ان حالة الحرب والقرصنة وضعف الماديات التجارية في الداخل ومنافسة وهران وعنابة (بونة) وبستيون فرنسا حالت دون نموّ التجارة مع الخارج — ورغم الاخطار المحدقة بالتجار الاوروبيّين في حالة نشوب الاضطرابات فانهم بقوا مقيمين بالجزائر مهما تبدلت الاحوال يتاجرون عادة بالاتفاق مع القناصل في البضاعة الحاصلة من الغنائم التي كان يبيعها لهم اليهود او يرسلونها إلى ڤرنة وحتى جزر الانتي (Antilles) وكانوا يصدرون خاصة الجلد والشمع العسلي والصوف — وتوصل الأنقليز والهولانديون حتى إلى تبادل الأسلحة مقابل المواد الغذائية . ولم يمثل حجم التجارة التصديرية بما في ذلك الزبيب والتين والتمر والأقمشة والتبغ الا شيئا زهيدا كانت ترغب الحكومة في تنميته ، وكانت الايالة تمنح رخص التصدير وتضاعف الاداءات على تسويق البضائع وتغض الطرف مقابل ما يغدق من « بقشيش» على كل الوسائط وبلغ تلاؤم اليهود مع هذه الشروط المتعامل بها في الشرق في ميدان التجارة حدا مكنهم من ان يصبحوا المقتصدين والمحوّلين للعملة وسماسرة البايات والمسيطرين على حياة البلاد

الاقتصادية . ولم ينافسهم سوى التجار الذين جاؤوا من مرسيليا والمقدوح في اخلاقهم فقد ثبتوا رغم المذابح الدورية وتصادموا في آخر القرن السابع عشر مع المتدينين (religionnaires) القادمين من لانقدوك الذين لجأوا ابتداء من سنة 1685 إلى الجزائر او تونس او المغرب الأقصى .

وكان النصارى بتونس أسعد حظا ، اذ رغم الهزات التي نشأت عن الازمات مع الأمم الاوروبية فانهم غالبا ما عاشوا في امان بقيادتهم حتى ان التجار الانقليز واصلوا ممارسة تجارتهم بكل حرية عندما سجن التونسيون قنصلهم كرد فعل على حملة بليك (Blake) (1654) وكان فندق فرنسا المبني سنة 1659 اوسع الفنادق مساحة وأجملها منظرا لأن قنصل فرنسا كان يضع تحت حمايته التجار من مختلف الجنسيات ماعدا الانقليز والهولنديين ونازعه قنصل انقلترا هذا الامتياز بكل الوسائل ، وعندما تعذر تسويق القموح من تونس صدرت الجلود الطريّة رغم منافسة جلود المشرق لها في اواخر القرن السابع عشر وكذلك الصوف والشمع العسلي والاسفنج والتمر وريش النعام وهو أقل شهرة من ريش السينغال وكانت تستورد مقابل ذلك انواع أخرى من الصوف أكثر طواعية في صنع الشاشية وهي صناعة رائجة في تونس وكذلك الخمر وأقمشة الكتان والأسلحة . وكان تنافس اليهود وشركة الرأس الأسود (Cap nègre) تقلل من مرابيح التجار الاوروبيين المقيمين الذين كانوا يفضلون اكتراء السفن من اليهود التونسيين . وحظيت سوسة بنصيب متواضع من هذه المبادلات التجارية ورغم ان التجارة الفرنسية في تونس بلغت ضعفي او ثلاثة اضعاف ما بلغته مع الجزائر فيما بين سنتي 1670 – 1690 فان حجمها ظل ضعيفا .

ولم يبلغ نشاط تجار فرنسا وجنوة أقصاه في الجزائر ولا في تونس بل في بستيون فرنسا والرأس الأسود وطبرقة وقد تضايق الجزائريون من شركة « لنش» (Lenche) التي انتصبت ببستيون فرنسا وسلكت سلوك الغازين فتعاطت تصدير القموح رامية بالاتفاقات عرض الحائط وانتهى بهم الأمر إلى افتكاك هذه القاعدة ولم تكن الصفقة خاسرة اذ تنافس القوم من أجل استرجاعها تنافسا كبيرا وغنم منها ابن أخ لنش

ثروات طائلة غير ان الأمر آل إلى تهديم البستيون من جديد « بسبب تحيل الفرنسيين على المغاربة وعدم دفع معاليم اللزمة طيلة ثلاث سنوات » (1604) .

وحالتْ الخصومات بين فرنسا ومدينة الجزائر دون حصول أي اتفاق إلى ان دخل الميدان سنسون نابلون (Sansan Napollon) وهو كورسيكي الأصل مرسيلي المنشأ فتوصل بعد سنتين من المفاوضات ودفع مقادير كبرى من البقشيش إلى ابرام اتفاقية باستيون الشهيرة (29 سبتمبر 1628) التي تخص الفرنسيين دون سواهم بحق التجارة وَصَيْد المرجان في كامل المناطق المعنية وحق ترميم القواعد واعادة بنائها كما كانت من قبل توقيا من خطر المغاربة ومراكب ميورقة ومنورقة الشّراعيّة » وذلك مقابل لزمة قدرت بست عشرة الف ليرة تستعمل خاصة لدفع جراية الانكشاريّة ولم يسمح هذا النص بادخال تغييرات كبيرة على البستيون بل بترميم هذه المراكز فقط حيث حجّرت اتفاقية 1560 « اقامة أية تحصينات كانت » ولم يمنع هذا سنسون من احداث قلعة باتم معنى الكلمة حوّلها إلى مركز للجوسسة « لمعرفة مايجري ببلاد البربر » وجعلها قاعدة تموين بالنسبة « لرجال الحرب » الذين كان يحث الملك على انزالهم في أراضي المسلمين وكان يقول : « انه من الضروري الاحتفاظ بالمراكز المذكورة تحت ستار التجارة وصيد المرجان حتى تنكشف نية الغزو المبيتة » وأخيرا فانه لم يجمع الأموال من صيد المرجان والتجارة المرخص فيها فقط بل انه أثرى بالخصوص من تصدير القمح وهي عمليّة التزم بان لايقوم بها وهكذا كان في مقدور المحتال « سنسون » ان يلقن البربر دروسا في فنّ المخادعة .

وكان هذا المغامر الخبيث يحلم ايضا بافتكاك طبرقة من تجار جنوة الذين تسلموها من خيرالدين مقابل فدية درغوث (1540) وأعطوا لزمتها لجماعة لومليني (Lomellini) قصد صيد المرجان والتجارة مع بلاد البربر وباغته أهل طبرقة في محاولته الثالثة وطاردوه في البحر وقتلوه « بطلقة بندقية » ورموا بجثته في الماء وسمروا رأسه على باب القلعة (ماي 1633) .

وكان موت « سنسون » ضربة قاضية لمراكز التجارة . ذلك ان خصومات الفرنسيين المقيمين بالجزائر مع « سنسون لي باج » القبطان الجديد ، والخشية من ان يتحول البستيون إلى قاعدة تموين للأسطول الفرنسي وخاصة حجز مركبين محملين بالحبوب المهربة كانت كلها مدعاة لقرار الديوان بتهديم هذه المراكز نهائيا و « قتل كل من تحدثه نفسه بذكرها » .

ونفذ علي بتشنين هذا القرار بحذافيره (13 ديسمبر 1637) وحمل تهديم المراكز زعيم الحنانشة الذي كان يتاجر شخصيا مع الشركة ويربح بواسطتها ارباحا طائلة على حفز قبيلته على التمرد واشتراط ارجاع البستيون على ما كان عليه مقابل دخوله الطاعة ونصت اتفاقية جديدة على التمييز بين مرسى عنابة ومرسى القل اللذين لايمكن ان يكون فيهما غير المغازات وبين البستيون والقالة ورأس روزا حيث يسمح « بالبناء » للتوقي من سفن الاعداء الشراعية ومن المغاربة (7 جويلية 1640) ولم تضع هذه المعاهدة حدا لتقلّبات الأمور بالنسبة لهذه المراكز رغم ان الجزائريّين كما شهد بذلك ب. ماسون » « أبدوا رغبة ملحة في التفاهم » وباءت كل المحاولات بالفشل بسبب المطامع الجشعة التي دعمها من لا خلاق لهم من كبار القوم وبسبب الخصومات القائمة بين تجارليون وتجار مرسيليا وتدخلات العمارات الفرنسية واتاحت السلم مع الجزائر الفرصة ابتداء من سنة 1689 إلى الملك لاقصاء مديري الشركات عن الشؤون الديبلوماسية وحصر مهمتهم من جديد في التجارة فحسب . وتمت مراجعة وضع هذه المؤسسات بصفة نهائية بواسطة آخر عقد امضي بين حدى الشركات والجزائريين بالرجوع خاصة إلى السنّة التي ابتدعها سانسون نابولون (غرة جانفي 1694) ومن ذلك التاريخ إلى سنة 1754 اقتصر القوم على تجديد العمل بالاتفاقية اربع عشرة مرّة من دون تغييرها .

وكان على الشركة التي أخذت لزمة صيد المرجان بالبلاد التونسية في مكان الرأس الأسود (قبانة طبرقة) وهو غير ملائم لهذا الغرض في نفس الوقت الذي تأسس فيه البستيون ، ان تصارع تجار جنوة وتدرأ حسد التجار المقيمين بتونس وآل الأمر بالمصرف الذي رسمه بعد أطوار

كثيرة تجار مرسيليا (1631) إلى استيلاء التونسيين (1637) وسرعان مارجعت التجارة إلى سالف نشاطها غير أن الاتفاقية أبرمت بعد مرور ثلاثين سنة (1666) وهي لم تنص على أي تنازل ترابي لفائدة الفرنسيين وتمنع على هذه المؤسسات ان تكتسي أي مظهر من مظاهر التحصينات « وكانت اللزمات تقدر بخمسة اضعاف لزمات البستيون من دون ان تتحمل الشركة تكاليف أخرى لم تتجاوز ذلك بل كانت تحظى ، علاوة على ذلك ، بحق المتاجرة في القمح والشعير ، واستغل الانقليز فرصة ما استتبع موت مراد من فوضى فحاولوا بدون جدوى اقصاء الفرنسيين . ودرّ تموين الشركة لجيوش الملك بكميات الحبوب ابتداء من سنة 1691 ارباحا طائلة سعت الشركة إلى الابقاء عليها بالتحصيل على لزمة دائمة (1700) واحدثت شركة جديدة بعد فشل سابقتها في البستيون والرأس الأسود اوائل القرن الثامن عشر ووحدت بين استغلال اللزمتين مع الابقاء على الاستقلال الاداري لكل من الشركتين وزالت منذ ذلك التاريخ شركة القل والرأس الأسود وانفردت بالوجود شركة واحدة الا وهي شركة افريقيا .

حروب الإيالتين :

اذا نحن ظننا ان سياسة الدول النصرانية تجاه الدول البربرية ناتجة عن مجرد ردود الفعل ازاء اعمال القراصنة نكون قد اكتفينا باعتبارات سطحية ولئن ثار ضمير الشعب على مايقاسيه الأسرى في دينهم فان الحكومات كانت تعتمد في سياستها اولا وبالذات المصالح التجارية ، وتحرّكها المنافسات الاوروبية .

وكانت سياسة الايالتين خاضعة بالخصوص إلى اعتبارات اقتصادية . فاذا تضاءلت الغنائم عجزت موارد البلاد عن تمويل الخزينة وجدّت الاضطرابات ويَستَتْبِعُ ابرام الصّلح مع النصارى نقصا في الارباح الواردة عادة من مراكب الأمة المحميّة وكذلك من المراكب التي ترفع اعلاما غير اعلامها وإذن فانّ حالة الحرب افضل بما فيها من أخطار وكذلك من منافع وكانت الجزائر لاتتصالح الاّ مع دولة واحدة عند الضرورة وتضاعف مضايقتها للدول الأخرى ، من ذلك ان ابرام الصلح مع رويتر (Ruyter)جرّتفاقم القرصنة ضد المراكب

الفرنسية (1663) وكانت مهادنة لويس الرابع عشر سببا في إحلال القطيعة مع الانقليز والهولنديين (1670) وانجر عن مسالمة انقلترا اعلان الحرب على فرنسا (1681)، وعلى كل فان هذه السياسة الواقعيّة كانت تقرّ التعايش بين القرصنة والتجارة لذلك أعلم الجزائريون (سنة 1681) تجار مرسيليا «بانهم يرحبون بكل الراغبين في القدوم إلى بلادهم رغم هذه القطيعة».

لم تقدر اسبانيا في القرن السابع عشر على ردّ الفعل ضد القرصنة البربرية خلافا لانقلترا بواسطة قوادها بليك (Blake) ومارلبرو (Marlborough) وآلن (Allen) وهولاندا بواسطة رويتر اللتين قامتا بهجمات بحريّة أُعدت اتم اعداد ونُفذت أحسن تنفيذ، وقد قذف الانقليز مدينة الجزائر ثلاث مرات (1622 – 1655 – 1672) غير ان النتائج كانت متواضعة جدا رغم تفوقهم التقني ولم يقتصروا في أغلب الأحيان على افتداء الاسرى بل ان الهولنديين اضطروا سنة 1680 كما اضطر مثلهم الانقليز سنة 1682 إلى الرضا بتزويد الجزائريين بالحبال والصواري والأسلحة مقابل حق تصدير الحبوب.

ان التدخلات الفرنسية التي أُعدت بكل تأن وشهّر بها يهود مرسيليا في الديوان لاقت مقاومة افقدتها كل جدوى وحتى عندما سمح اختراع الغليونات الكبيرة بتحدي نيران مدافع الجزائريين فان جل القنابل المحرقة تفرقعت قبل اصابة الهدف فكانت النتيجة دائما دون المجهود المبذول وصوّبت العمارات سنة 1661 – 1665 نيران مدافعها إلى مكسر الامواج بدون جدوى ورمى دوكان (Duquesne) المدينة مرتين متتاليتين. فلم يتوصل في المرة الاولى (20 اوت – 20 سبتمبر 1682) الاّ إلى تهديم خمسين دارا وقتل 500 ساكن، (جوان – جويلية 1683) وتسببت المحاولة الثانية في الحاق خسائر فادحة بالمباني وفي تقتيل الفرنسيين المقيمين ومن بينهم الأب المسن «جون لي فاشي» الذي شد إلى فوهة مدفع، وبعد ذلك بخمس سنوات القى دستري (Dèstrées) عشرة آلاف قنبلة أضرت بالحصون والمنازل ضررا كبيرا لكنه اضطر إلى الانسحاب من دون ان يكون نصيبه من النجاح اوفر من سابقيه (جوان – جويلية 1688).

وكانت نتائج محاولة احتلال جيجلي اسوأ بكثير ، فلم يقو الجنود الذين نزلوا من البحر بصعوبة (23 جويلية 1664) والذين نقصتهم المؤن والذخيرة وانهكتهم الحمى على التصدي إلى هجمات الاتراك « والقبائلية » واضطر القوم إلى ركوب البحر من جديد تاركين للعدو 1.400 جثة وحوالي مائة مدفع ، وغرق وهم في طريق العودة أحد مراكبهم قبالة بروفونس (Provence) وعلى متنه 1.200 جندي .

اختيار الملك :

لايمكن فهم موقف فرنسا من البرابرة اذا نحن لم نربطه بسياستها العامة كما فعل كبوت — ري (Capot - Rey) فالاصطدامات لم تكد تتوقف طيلة القرن السابع عشر ، وتعرض قنصلنا في سنة 1603 إلى الاعتداء والبستيون إلى النهب ثم بعد هدنة قصيرة (1605 — 1609) دامت القطيعة عشرين سنة بسبب هروب القرصان سيمون دانسا إلى فرنسا بمدفعين على ملك الباشا وبسبب تقتيل رسل جزائريين في مرسيليا ودامت حالة الحرب تسع سنوات بعد موت سنسون نابولون (1636 — 1643) ورغم هذا فان فرنسا لم ترد الفعل بقوة في أي وقت من الاوقات مثلما فعلت ذلك ابتداء من سنة 1661 ، ذلك ان عوامل جديدة ظهرت في الاثناء وفعلت فعلها .

لقد عظم شأن اللعزاريين بفضل القديس بول ، وتوصلوا على يد « جان لوفاشي » بصفتهم نوابا رسوليين ومنظمين لكنيسة افريقيا إلى اكتساب سلطة أسقفية شملت مراقبة الكبوشيين (Capucins) الايطاليين والثالوثين (Trinitaires) الاسبان . وأصبح من الصعب الاستغناء عن اعانتهم في المفاوضات الرامية دائما إلى فدية الأسرى بوصفهم المتزعمين لحركة الافتداء ومحل ثقة الاولياء الأسرى . وكانوا إلى ذلك بصفتهم قناصل ، الوسطاء الذين لاغنى عنهم بين الملك والبرابرة . وكثيرا ما تمكنوا بفضل هذه الصفات الثلاث من احلال وجهة نظرهم محل وجهة نظر الملك بل إلى فرضها . غير انهم كانوا هم أنفسهم آلة في أيدي غيرهم أكثر مما كانوا مصدر ايحاء .

ان سياسة فرنسا تجاه بلاد البربر في عهد مازاران اتخذها المترمتون غرضا من اغراض حملاتهم وهو امر غريب وغير معروف ، فقد كانت

الشركة وراء القديس بول الذي كثيرا ما يوافق على مضض وتقوم مقام الحكومة في الشؤون الافريقية وتدفع القوم في السبل التي تهيء نصرة الدين — ومن الثابت ان السيد فانسان لايرتاح إلى القنصليات وان دوقة « أقيون » (Aiguillon) هي التي اقنعته بمزايا هذه القنصليات واشترت على التوالي قنصلية الجزائر (1646) ثمّ قنصلية تونس (1648) وهي التي اقترحت كذلك سنة 1659 متجاوزة الوزراء استعمال اموال الصدقات لتمويل حملة خاصّة ضد الجزائر بقيادة الفارس « بول » وهو قائد العمارة الوحيدة الذي بقي صدْرهُ يتأجج حقدا قدسيا على المسلمين واخيرا فان نار الروح التبشيرية المستعرة التي كانت تحدو الشركة هي التي زودت الرأي العام الكاثوليكي المندفع بفرط موجة من الايمان المجدد بالقدرة على التعبير وفرض نفسه على الحكومة ، وكان على الملك وهو النصراني المغالي في نصرانيته أن يركّز جهوده استجابة إلى نداء البابا لمقاومة الاتراك في « كندي » (Candie) أو على الارض المجرية لكن التحالف بين فرنسا وتركيا ظل قائما رغم الاصطدامات ، وتمثلت مهارة لويس الرابع عشر الكبرى ، في محاربة المسلمين بأدنى التكاليف وذلك بالتزام وجهة نظر قوميّة ، فكانت الحملات الموجهة ضد البربر بدوافع تجارية بحتة تستجيب في الظاهر لرغبة النصارى المترعمين لحرب المسلمين .

وتخلصت السياسة الفرنسية عند موت السيد فانسان من قبضة الكاثوليك بفضل دي ليون (De Lionne) وكولبير (Colbert) ، ففي سنة 1672 أجاب «بومبون» (Pomponne) بشدة المركيز دي فوكيار (Marquis de feuquières) الذي ابلغه رسالة « ليبنيتز » البالغة الغرابة حول غزو مصر (Consilium Egyptiacum) قائلا : « لا أفاتحك في شيء عن أي مشروع لحرب مقدّسة غير انك تعلم ان الحروب المقدّسة موضة قد تجاوزتها الأحداث منذ القديس لويس وكان « لايبنتيز » عند ضبط تعليماته للديبلوماسيين الذين سيضطلعون بمهامهم في المستعمرات مستقبلا يؤكد على ضرورة : « اظهار السعي وراء شؤون الدّنيا والتعلق بالمصلحة في مظهر التفرغ إلى الدين والتّشبث بالاخلاق » وطبق « كولبار » هذه المبادىء التي أعدّها « لايبنتيز » لحكم مصر في علاقاته مع الدول البربرية ، فقد كانت الحملات الدينية

والمساعي من أجل افتداء الاسرى المساكين مجرد عملية انتفاعية سرعان ما استتبعت فيها مظاهر القوة المقترحات التجارية .

وكانت التجارة المرجع الاوحد لسياسة « كولبير » لذلك فقد سحب بجرة قلم من اللعزاريين نفوذهم على القنصليات التجارية استجابة لرغبة التجار ، نعم ان الآباء الطيبين جمعوا بين الوظائف فقادهم ذلك إلى الخلط بين ميزانية الأسرى وميزانية المقيمين بصورة غير شرعية وإلى توظيف اداءات جديدة على مراكب فرنسا . وربّما بالغ القوم في انتقادهم . أليس السبب الحقيقي فيما واجهوه من مناهضة يتمثل في وفائهم إلى القرار البابوي (Incoenam domini) الذي حرم بيع التجهيزات البحرية إلى المسلمين وفي معارضتهم عمليات تهريب الأسلحة التي كانت تثري المقيمين الفرنسيين ثراء كبيرا . ومهما يكن من أمر فان رجلا مثل « جون لي فاشي » الذي قدم إلى بلاد البربر في الثامنة والعشرين من عمره يكنّ له داي تونس اعجابا كبيرا وينصت إليه في احترام ديوان الجزائر وبلغ به الحماس الديني حدا جعله يصرخ قائلا : « لو فتح في وجهي من جهة طريق السماء وسمح لي بسلوكها وطريق الجزائر من جهة أخرى لفضّلت الطريق الثاني ، « ثمّ مات شهيد حبّه للسلم ، ان رجلا كهذا يمثل قيمة انسانية اين منها « دي مولان » ذلك الأضحوكة الجبان الذي أقام بتونس او الفارس « دارفيو » ذاك الدعي الزائف الذي عاش في الجزائر وقد دفعتهما خيباتهما المتوالية إلى الثار لنفسيهما بالحث على الحرب .

انساق كولبار إلى تنظيم الحملات ضد البرابرة بايعاز من التجار المقيمين ، انصار استعمال القوة دائما والناصحين تارة « بمسك العصا عالية » . فلم يهو بها في الوقت الذي أراد بل عندما منحه الوضع في أوروبا مهلة ، فما دام لم يحرك الامبراطور ساكنا تتدهور العلاقات مع الاتراك ويؤول الأمر مع البربر إلى الهجمات البحرية — وانتهت حرب هولاندا بالتصالح بين الفرنسيين والمسلمين (1672) ولكن الملك عاد في الفترة الواقعة بن صلح نيماڤ (1678) وحرب رابطة او ڤسبورغ (Augsbourg) إلى سياسة الوعيد المتمثلة في حملات دوكان (Duquesne) بالارخبيل

(1681 – 1684) ورمي الجزائر وطرابلس بالقنابل وحان موعد الامتحان سنة 1688 فاختارت فرنسا ربط العلاقات الطيبة مع المسلمين ؟

وكان في امكان « كولبار » التحصيل على أكثر من السلم أي أن يبرم حلفا رسميا ولكنه أبى ذلك ، لا من باب التحري بل خشية افساد عملية تجييش المجدّفين ، ولهذا السبب ايضا رفض امكانية التفاهم مع مولاي اسماعيل ، بل انه فوق ذلك رفض الجنوح إلى هذا التفاهم حرصا على عظمة الملك التي لاتتجلى الاّ في الحروب . وهذا ما يفسر الردود الوقحة التي وجهت إلى مولاي اسماعيل وانذارات دوكان ، وقنبلة سلا ومدينة الجزائر وطرابلس وهي جميعا مظاهر من احتقار لويس الرابع عشر للبرابرة واشعار للدول الاوروبية بان قوّة الهجمات البحرية الفرنسية تفوق الهجمات الانقليزية والهولندية . ورغم ان الملك لم يتمكن من اهانة البرابرة كما طاب له فانه رضي في آخر الأمر بالتقارب معهم والتمسك في نفس الوقت باحلامه واظهرت معاهدة المائة سنة الممضاة من قبل غليوم مارسال (Guillaume Marcel) مندوب الجيوش البحرية (1689) انه عدل عن الحرب المقدسة مقابل امتيازات سياسية وتجارية ، وهكذا اختار الملك المغالي في نصرانيته نهائيا واقعية « كولبار » التجارية على حساب النزعة الصليبية المتمثلة في القديس « فانسان دي بول » .

وتوسعت الايالة الجزائرية في أواخر القرن السادس عشر حتى بلغت إلى الحدود التي حافظت عليها إلى سنة 1837 ، وتواصلت النزاعات اثناء القرن السابع عشر بينها وبين الأشراف والمراديين ، وسجلت وفاة علج على نهاية مطامحها من دون ان تضع حدا للمناورات التركية في المغرب الأقصى . وتحركت الجزائر منذ ذلك الوقت عن طريق وسطاء من رجال الدين خاصة او باعانة الثوار ، من ذلك ان الأعيان الاتراك ساندوا الرايس غيلان واحتدت الازمة عندما قام مولاي اسماعيل بهجمتين صدّهما الداي شعبان (1691) والداي حاج مصطفى (1701).

واستدرج الشريف التونسيين في نزاعاته مع الجزائر غير ان الداي شعبان اوقف غزوهم لقسنطينة ونصب أحد اتباعه في تونس (1681) وتدخل مرة أخرى بعد ثلاث سنوات لفائدة عميله وهزم خصومه في

الكاف ودخل الجزائر محملا بالغنائم (1694) وحاول الباي مراد بمعية مولاي اسماعيل الاخذ بثأره ولكنه هزم بين سطيف وقسنطينة (1700) وأصبح استقلال تونس مهددا بل واعتزم الداي الحاج مصطفى غزوها وانتصر في أول الأمر على إبراهيم ثم رده على أعقابه حسين بن علي واضطره إلى التقهقر نحو مدينة الجزائر حيث أطاحت فتنة بعرشه وقطع رأسه (1705) وهكذا اكتست الحروب التي نشبت بين المغرب الأقصى والايالتين اثناء القرن السابع عشر صبغة ظرفية ، ولم ينتج عنها أي تغيير ملحوظ في بلاد المغرب وانما ساهمت في عدم استقرار الحكم في الجزائر وتونس بسبب ما أحدثته من انقلابات في مستوى المسؤولين .

5 ـ بلاد الجزائر في عهد الدايات والبلاد التونسية في عهد الحسينيين

تدهور مدينة الجزائر :

أضاعت مدينة الجزائر في القرن الثامن عشر ازدهارها ـ فقد تدهورت القرصنة بسبب ما تم من معاهدات بين الدول العظمى وما تعرضت إليه من هجمات بحريّة وما حدث من تناقص في عدد البحارة البارزين في فن القرصنة ، فلم تبلغ الغنائم طيلة تسع سنين اثناء ربع قرن (1765 ـ 1792) مائة الف فرنك ، ونزل عدد قطع الأسطول من اربع وعشرين قطعة (1724) إلى ثمانية مراكب وغليونتين (1788) في ظرف ستين سنة .

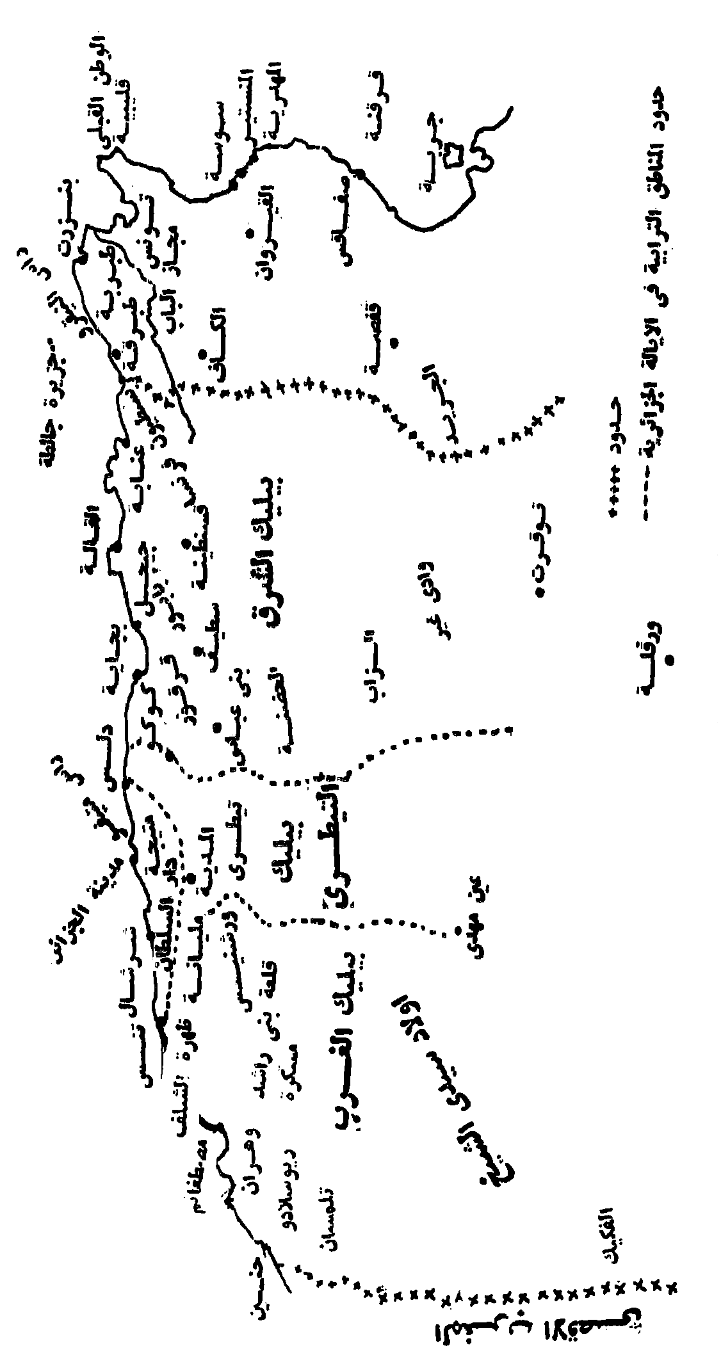
ورفع الرائس حميدو الذي جال البحار إلى سنة 1815 هذا العدد إلى 30 سفينة مستغلا الحروب التي دارت رحاها في أوروبا بعد الثورة الفرنسية ، وعجلت أوبئة الطاعون المتتالية والمجاعات المتعاقبة نتيجة انحباس المطر بتدهور الحالة في الجزائر ، فقد مات في سنة 1787 وحدها سبعة عشر الف ساكن وقضى خمسمائة شخص نحبهم كل يوم في صيف 1817 ، فاذا أضفنا إلى ذلك الفتن التي كانت تغذيها الفوضى السياسية ادركنا لماذا نزل عدد السكان في أوائل القرن التاسع عشر إلى حوالي ثلاثين ألفا ونقص عدد الوجق حتى انتهى إلى ستة آلاف وعندما احتل الفرنسيون مدينة الجزائر لم يكن عدد الأسرى أكثر من 122 بعد ان كان 800 سنة 1788 ثم ارتفع إلى 1642 سنة 1816 :

وكسدت التجارة من جراء ما دهَا مدينة الجزائر من فقر متزايد ولئن وفر ذلك للاوروبيين مزيدا من الأمن فقد حرمهم من فرص الاثراء التي عرفوها في الفترات الزاهرة وعندما احتكر الداي التجارة آل الأمر إلى خنقها فلم تبق في أواسط القرن الثامن عشر الا مؤسستان فرنسيتان او ثلاث حلت محلها فيما بعد دار واحدة من مرسيليا تدعى « دار فرنسا » احتكرت كل الصادرات وصمدت بصعوبة امام منافسة شركة إفريقيا الشهيرة .

وتحسّن الحال تدريجيا بالنسبة إلى مراكز افريقيا وهي التي انجزت ثلاث مؤسسات بالقالة وعنابة والقل وأصبحت ابتداء من سنة 1714 تصدّر القموح بحرّية ، ونجح الوزير « موروبا » (Maurepas) في صرف عناية الحجرة التجارية بمرسيليا إلى تطوير هذه المؤسسات وفي وضع الشركة تحت مراقبة الحكومة وقد أصبحت منذ ذلك العهد ملكيّة (1741) وبلغت هذه الشركة حدا من الازدهار حوالي سنة 1776 تمكنت معه من ضرب ميدالية تمثل افريقيا وهي ماسكة بيديها قرنا يرمز إلى الخصوبة وتبرز منه سنابل ، وكتبت في أسفل هذه الميدالية جملة تشير إلى ثراء مرسيليا بفضل التجارة الافريقية (Aucta libycis Opibus Massilia) .

ولم ينْم حجم الصادرات بالنسبة إلى الأمم الأخرى ، اذ خرج منذ زمان كما ذكر ذلك رينال (Rynal) سنة 1775 من حلبة السباق تجار السويد والدانمارك وهولاندا والبندقية ، وبقي في الميدان التجار الأنقليز تمثلهم شركة واحدة أقل شأنا من مثيلتها في مرسيليا لم تنفك أحوالها تسير من سيء إلى أسوأ ، غير ان الجزائر كانت تساهم في تموين جبل طارق .

ولئن احتلّت مرسيليا المرتبة الأولى بالنسبة إلى التصدير فان ڤرنة فاقتها في مجال التوريد من الجزائر وذلك بفضل اليهود ، وفاز الانقليز بالصدارة سنة 1822 بالنسبة إلى مجموع الايالة اذ كان نصيبهم حوالي نصف قيمة مجموع البضائع وفي الجملة فان رقم المعاملات التجارية في الجزائر بلغ حوالي سنة 1830 خمسة ملايين من الفرنكات تقريبا وهو رقم يعتبر ضعيفا جدا .



شكل 27 . — تونس الجزائر في عهد الأتراك .

وبقيت التجارة الداخلية مدعّمة في النصف الأول من القرن الثامن عشر اذ وُجدت في مدينة الجزائر صناعات محليّة نشيطة توزع انتاجها في كافة المقاطعات وظلت صامدة حتى سنة 1830 . ولكن تناقص عدد السكان وفقرهم المطرد قضيا على التجارة والصناعات بالانهيار .

دايات مدينة الجزائر طغاة بلا حريّة :

لما حرمت مدينة الجزائر من غنائم القرصنة اتجهت إلى استغلال البلاد ، فقد أخضع نظام الدايات الايالة إلى ملكيّة انتخابية ولكنّها تمارس الحكم المطلق وقد حلّ ضباط الحرس محل الرؤساء لتعيين الداي منذ سنة 1689 ولم يشترط في تقلد أعلى منصب في الدولة أي شرط مسبق وما دامت الطائفة ماسكة بزمام الأمور فانها تعيّن الرؤساء اما الجرس فقد خبط خبط عشواء ابتداء من الداي الخامس الاّ أن أكثر المنتخبين كانوا من بين خوجات الخيل الآغوات أو الخزناجية فعلي الملمولي (1754 — 1766) عمل حمّارا ثمّ أصبح آغا ، وكان الانتخاب مجرد مظهر إذ أن أربعة عشر دايا من بين الثلاثين الذين تعاقبوا على الحكم من سنة 1671 إلى سنة 1818 فُرضوا فرضا بعد اشعال نيران الفتنة واغتيال اسلافهم .

وكان الداي حاكما بأمره اذ كان نفوذه محددا صوريا من قبل ديوان يختار من بين اعضائه الوزراء الخمسة وهم الخزناجي وهو صاحب الخزينة وآغا المحلة أي القائد الأعلى لجيش البر ووكيل الخرج وهو وزير البحرية وخوجة الخيل وهو وكيل القصر والمكلف بالأوقاف (بيت الملجي) وقابض الضرائب ويعينهم جميعا أمين ماله الخاص خزندار وكتاب (خوجات) وحجاب (شواش) وكان الداي يجتنب جمعهم ويستقبلهم أقل مايمكن بل يؤثر الاتصال بهم عن طريق مترجم القصر .

وكانت مسؤوليته الأولى تتمثل في الحكم بين النّاس ، ولم يكن الاتراك والأهالي راجعين بالنظر إلى نفس المحاكم ولا خاضعين إلى شرطة واحدة فالاتراك وهم حنفية يتجهون إلى القاضي الحنفي اما المغاربة الباقون على المذهب المالكي فيقصدون القاضي المالكي — أما القضايا الجنائية فيحكم فيها الآغا بالنسبة إلى الأتراك وكاهيته بالنسبة إلى المغاربة ، وكان يوجد أخيرا شواش خاصون بالاتراك وشرطة نجدة مقصورة

على المغاربة ، وتنفذ الاحكام بالجلد والغرامات حالا وتُنفّذ أحكام الإعدام بقطع الرأس أمام قاعة المحكمة بالذات ويعدم المحكوم عليهم بالخنق أو بالخَنُوْزَقَة على المزاليج المعقفة بباب عزون ، أما اليهود والمرتدون فانهم يحرقون في المكان المخصص لذلك بمكسر الأمواج أو بباب الواد . وكان الداي يحيل القضايا المدنية إلى القضاة أو في بعض الأحوال إلى مفاتي المالكية أو الحنفية . ويخصص فترة ما بعد الظّهر لشؤون الدّولة فيستقبل كبار الموظفين ويوجّه المفاوضات الديبلوماسية وهو الذي يبت في آخر الأمر وعند الاقتضاء في أمر السلم أو الحرب .

وليس للدايات سوى ما يتقاضاه أعلى الإنكشارية مرتبة وذلك احتراما لفكرة المساواة النظرية ، غير أن ما يدفعه لهم الموظفون وخاصة البايات عند تسميتهم وهدايا القناصل او الملوك ونصيبهم من الغنائم وارباحهم من العمليات التجارية التي يمارسونها تدر عليهم مداخيل اضافية وفيرة ، فاذا اغتيل أحدهم رجعت ثروته وهي طائلة في أغلب الاحيان إلى الخزينة العامة .

وكان يُوقف جانب من ثرواتهم على المشاريع الدينية فقد شيّد محمّد بن عثمان (1766 — 1791) وهو من ألمع الدايات في القرن الثامن عشر جامع السيّدة الموجود قرب القصر والذي يؤمّه زعماء الايالة . وأسرع الفرنسيون إلى تهديمه من دون فائدة تذكر سنة 1830 وكاد جامع المصيدة (La Pêcherie) أن يلاقي نفس المصير وشيّد بابا حسن خلف محمّد بن عثمان جامع كتشاوة سنة 1794 وأصبح بسبب التغييرات المسلطة عليه، لجعله كتدرائية ، مبنى ممسوخا رغم ان بعض الملامح تشير إلى بقايا قبته المثمنة الاضلاع بعقود زواياها مزينة بالربعيات والتي تغطي مساحة مربّعة الشكل طول ضلعها أحد عشر مترا ونصفاً كما تذكر هذه البقايا بأروقة هذا الجامع الجانبية وأقواسه المنكسرة المعتمدة على اسطوانات تيجانها بصيلية الشكل . ويرجع إلى نفس الفترة بناء جامع سيدي محمد بن عبد الرحمان في مقبرة الحامة ويدعى بوقبرين وهو الرجل ذو القبرين لأن قرية في بلاد القبائل تدعي انه مدفون بها ؛ وأذن الداي حسين وهو آخر الدايات ببناء جامع القصبة واعادة تشييد جامع

السفير الذي ليس له الا ثلاثة اروقة لأن الجهة الخلفية الموازية للقبلة خالية من ذلك .

ان كل هذه الجوامع الجزائرية « التي تتميز اساسا بقاعة رئيسية تغطيها قبّة بزواياها الثمانية وتحيط بها اروقة » (ج. مارسي) مستوحاة من النمط الأناضولي .

ورغم السّلطة التي كان الداي ينفرد بها فانه لم يكن في مأمن من الاخطار بل كان في الواقع يحوم حوله الموت بدون انقطاع فما ان ينتخب حتى يصبح ملكا للدولة التي تفصله عن ذويه لان المراسم لاتسمح له بالتمتع بالحياة العائلية في داره الخاصة الا نصف نهار وليلة واحدة في الاسبوع وكان عدد كبير من الدايات رجالا ممتازين ولكن اغلبهم من القساة ، ذلك انهم يظنون مثل القس نامي (Némi) ان المنافسين يتربصون بهم الدوائر لاغتيالهم وأخذ مكانهم فتدفع هذه الخشية حتى الطيّبين منهم إلى استعمال ابشع مظاهر القسوة .

وترك علي خوجة سنة 1816 الجنينة خوفا من انتفاضات الحرس واحتمى بقلعة القصبة حيث أعدت له غرفة خاصة وأقام بها حريمه وهيئت قاعة الحكم تحت أحد أروقة الطابق السفلي — أما الشُرفة التي شهدت حسب الروايات ضربة المروحة فهي عبارة عن رواق من خشب أقيم في دخلة من الطابق الثاني . وقد أصاب المؤرخ الاسباني « خوان كنو » عندما وصف الداي بأنه « رجل ثري لايتصرف في كنوزه وأب بدون أولاد وزوج بلا زوجة وطاغية غير حر وملك لعبيد وعبد لرعاياه ».

حكومة الايالة :

إن الحكم بالنسبة للاتراك صناعة سعوا جاهدين إلى أن تدر عليهم أوفر الارباح .

وكانت مقاطعة مدينة الجزائر تعتبر ملكا خاصا للداي (دار السلطان) وراجعة اليه بالنظر يتصرف فيها بواسطة آغا الصبايحية الذي يقوم مقام الباي واربعة « قياد » من الاتراك*، وكان يؤثر مدينة الجزائر بنظام خاص تحت رقابة الخزناجي ويوجد على رأس كل فئة من السكان — ما عدا

فئة القبائل — وعلى رأس كل حرفة ، مسؤول يسمى الأمين وترجع إليه الشرطة والمحاكم بالنظر تحت رقابة شيخ البلد . وكانت الحنفيات والأسواق والأنهج والحمامات ودور الخناء تحت مسؤولية موظفين خاصين بها وكانت شرطة المدينة في مستوى مرضي للغاية .

أما باقي الايالة فقد قسمت إلى ثلاث مقاطعات (بيليك) بيليك الغرب وعاصمته على التوالي مزونة (جنوب شرقي رينو) ثمّ مسكرة (1710) وأخيرا وهران (1792) وبيليك الوسط أو تيطري وعاصمته مدية وبيليك الشرق أو قسنطينة ويوجد على رأس كل بيليك باي يعيّنه الداي عادة من بين أكثرهم استعدادا للمهاداة . وكان البايات يتصرفون في مقاطعاتهم تصرف الملوك مثل محمّد الكبير في وهران والحاج أحمد في قسنطينة الذي جلب خبراء مشهورين لتشييد قصر ليست اناقته في مستوى ما رُصد له من أموال تحوط به حديقتان وعدّة ساحات ، وكان الدايات لايطمئنون إلى ولاتهم فيعطون إلى مبعوثي البايات (خليفة) مرتين في السنة بمناسبة قدومهم لتسليم محاصيل الضرائب ، قفطانا شرفيا (خلعة سنية) هدية لاسيادهم ، وكان على البايات ان يَقْدموا بأنفسهم كل ثلاث سنوات إلى الجزائر لتسليم الاموال المتأتية من الضرائب ، وهي بالنسبة اليهم مغامرة يتركون فيها دائما جانبا من ثروتهم ويخسرون غالبا وظيفهم ويقضون احيانا نحبهم . غير ان الداي كان يقرأ لهم حسابا حتى في مدينة الجزائر كما تشهد بذلك رواية تخليص « تدنا » من الاسر كما نشرها « أمريت » ، وكان باي تيطري أشدّ البايات خطرا على الداي لقربه من العاصمة لذلك اقتطعت مدية من جهته واثيرت في طريقه الأشواك بسبب تدخلات المسؤول عن هذه السنطقة الذي عينه الآغا .

وينقسم كل بيليك إلى جملة من « الاوطان » يضم كل واحد منها في الغالب عددا من القبائل ويحكمها « قياد » يجمعون بين أيديهم السلط المدنية والعسكرية والقضائية — ويساعدهم في الحكم رؤساء القبائل والمشايخ الذين يعتمدون بدورهم على رؤساء « الدواوير » وتتمثل مسؤولية هؤلاء « القياد » بالخصوص في السهر على توزيع الأراضي واحيائها لضبط مقاييس توظيف الأداءات ثمّ يسهرون على استخلاصها

باعانة المشايخ ويعين الباي القياد باقتراح من الأغا أو غيره من كبار الموظفين الذين يرجعون اليهم بالنظر فيتسلمون طابعا وبرنسا أحمر وكانوا كلهم اتراكا بينما ينتسب المشايخ إلى أكبر قبائل « الوطن » شأنا ، ويتفق احيانا ان يتركب « الوطن » من قبيلة كبرى واحدة فيصبح شيخها قائدا عليها ، فقد تفككت المجموعات العمرانية الكبرى المعروفة في القرون الوسطى واندمجت عناصرها في فئات أخرى واندمج كذلك نهائيا العرب والبربر بعضهم ببعض اما الفئات الثانوية المستقرة في الاراضي الفقيرة البعيدة عن مناطق النفوذ التركي مثل اولاد نايل والصحراويين فقد صمدت أكثر من غيرها أمام هذه التحولات بل زاد عدد افرادها وامتدت جذورها وأخيرا ظهرت فئات أخرى تجمعها أواصر الدين مثل اولاد سيدي الشيخ في ولاية وهران .

وكان الباي يعتمد في حفظ الأمن بولايته واستخلاص الضرائب على قبائل مخزنية معفاة من الضرائب غير الدينية فيمتصون القبائل المغلوبة على امرها امتصاصا . وكان تواطؤهم على قدر اخلاصهم لرؤسائهم ثمّ ان الاتراك اقروا إلى جانب ذلك في النقط الاستراتيجية مجموعات عسكرية تسمّى الواحدة منها زمالة لحفظ الأمن بالجهة مقابل اعفائها من الاداءات .

وكان البايات لايكترثون بتقاليد رعاياهم وعاداتهم ماداموا يدفعون الضرائب ولايعترضون سبيل جيوشهم .

ثورات وحروب :

ان سلطة الدايات لم تتجاوز في واقع الأمر حسب « رين » سُدُس بلاد الجزائر الحالية . ذلك أن جمهوريات بلاد القبائل والقبائل الرحل في النجود والجنوب والامارات المحاربة او الطرقية مثل امارة توقرت أو عين مهدي عاشت كلها مستقلة استقلالا تاما ، وارتبطت بهم مجموعات أخرى مثل اولاد سيدي الشيخ بروابط ولاء واهية — بل انه كان على الحكومة ان تخشى تآلف القبائل المستقرة في المناطق الخاضعة لهم لذلك كانت تعتمد على اضرام نار الفتن بينها اتقاء لشرها وتراعي وتداري نفوذ الأشراف واصحاب الطرق .

ومهما اظهر الحكم مهارة فانه لم يسيطر أبدا على البلاد السيطرة التامة ولم تنفك بلاد القبائل في تمردها رغم المراكز العسكرية التي أقرها الأتراك في وادي سبو ورغم تدخلاتهم في الخصومات القائمة بين العروش بالاعتماد على الأشراف المحليين . وقضى الداي محمد بن عثمان المعروف بحزمه (1766 — 1791) سنوات عديدة للانتهاء من أمر هذه الثورات . وكانت الفتن التي اثارتها في اوائل القرن التاسع عشر طريقة الدرقاوة والتي اوعز بها من قريب او من بعيد مولاي سليمان سلطان فاس أشد خطرا . فالولي ابن شريف هو الذي اشعل نار الفتنة في وهران بينما نادى بالثورة ابن الاحرش أحد الأشراف الدرقاوية المتصل أغلب الظن بالانقليز في قبائل البابور واضطر الاتراك إلى التخلي في الغرب عن مسكرة وحوصروا في مشوار تلمسان في حين اقتيد باي قسنطينة أسيرا وقتل . ولم تلبث أن عمت الفتنة البلاد كلها من الشلف إلى حدود المغرب الأقصى . ثم أخذ الأتراك يسيطرون شيئا فشيئا على الوضع ولكنهم لم يمنعوا مواطن الفتنة من التكاثر . فهزمتهم ابتداء من سنة 1810 إلى 1815 قبايل البابوروبني فليسة وتيطري وشاركهم بعد ذلك التونسيون . وعزز عمل الدرقاوة اولياء تيجانية عين المهدي وخاصة عندما تحققوا من حماية مولاي عبد الرحمان الشريف الجديد بالمغرب الأقصى . ولما بدأ الصراع بين فرنسا والايالة لم يتمكن الداي بعد من ارجاع نفوذه إلى ما كان عليه .

وحاول الدايات المنهمكون غربا في التصدي إلى مناورات المغاربة ان يخضعوا في الجهة الشرقية البلاد التونسية بحد السلاح مستغلين خصومات الحسينيين فاحتلوا تونس ونهبوها واجبروا البايات على دفع اتاوة سنوية (1756) ولم يتوقف الصراع الناتج عن محاولات البايات طيلة خمس وستين سنة للظفر بالاستقلال الا بفضل وساطة الباب العالي (1821) .

واغتنمت الدول العظمى تدهور الأمور في مدينة الجزائر لجبرها على احترام مراكبها وذلك باغرائها بالاموال أو بالهدايا بدون اللجوء إلى الهجمات البحرية بل ان سبعة دول وهي الولايات المتحدة وهولاندا والبرتغال ومملكة نابولي والسويد والنرويج والدانمارك رضيت بدفع اتاوة سنوية . وحاولت إسبانيا بمفردها في القرن الثامن عشر الهجوم على

مدينة الجزائر . وكان ذلك بمثابة الانتفاضات الاخيرة في سياستها تجاه الجزائر . فقد تخلّت اثناء الاضطرابات التي تبعث الحرب من أجل العرش عن وهران ومرسى الكبير (1708) بل اضطرت إلى الانتظار طيلة ربع قرن لاسترجاعهما (1732) . وأصبح أكبر الحصون في وهران الذي بلغ عدد سكانه في آخر الأمر عشرة آلاف مدينة تحتضن حامية وتسعى إلى تقليد مدريد في مراسمها ممّا جعل القوم ينعتونها في لهجة لاتخلو من تبجح بالبلاط الصغير (Corte Chica) وظلت الجيوش توالي غزواتها في دائرة تقارب مائة كيلو متر وتفرض على القبائل الخاضعة لها ضريبة من الحبوب (رومية) وبقي التموين رغم هذا الاداء وشراءات المواد الغذائية من الاهالي مرتبطا بما تجود به الموانى الاسبانيّة وخاضعاً للازمات الاقتصادية الخطيرة من دون أن تبلغ الدرجة التي عرفتها في عهد « الكونت ألكوديت » . ولعل « اوريي » (O'Reilly) قصد اجتناب هذه الصعوبات فاضطر إلى الانسحاب من الغد بعد ان قرر انزال جيش يعد خمسة وعشرين الفا قرب الحراش بعد أن أبيد عشْر جنده (8 جويلية 1775) ولاشك أن هذه الصعوبات هي التي تسبّبت في رمي « دون انجيلو برسولو » البلاد بالقنابل على كرتين (اوت 1783 — جويلية 1784) ثمّ كان امضاء معاهدة كلفت اسبانيا ثمنا باهظا ودعّمت هذه الخيبات تشاؤم بعض الاوساط الاسبانية المحترزة في التدخل في الأراضي الافريقية — فكان زلزال اكتوبر سنة 1790، الذي هدم وهران بمثابة هديّة الاقدار التي مكّنت ولاشك من الضغط على الارادة الملكية . وعلى كل فان الاسبان سلموا الداي القاعدة بمقتضى معاهدة 12 سبتمبر 1791 وجلوا عنها في السنة الموالية .

وتوترت العلاقات بين الايالة وأوروبا ابتداء من سنة 1792 ولاشك أن وكالة إفريقيا واصلت التصرف لفائدة الدولة في الشركة القديمة التي أمرت بحلها هيئة الانقاذ العمومي (8 فيفري 1794) ولاشك كذلك أن الجمهورية قبلت بارتياح شحنات الحبوب والقروض بدون فائض التي اسندها اليها الداي . غير أن نابليون فكّر في الرجوع إلى سياسة لويس الرابع عشر . ولئن هو لم يقدر على تنفيذ فكرته فقد أذنَ الرائد « بوتان » (Boutin) قائد الهندسة العسكرية (جويلية 1818) بالقيام برسوم ودراسات

على العين كانت حصيلتها تقريرا شافيا استفادت منه الحملة العسكرية في سنة 1830 .

ورفضت فرنسا غداة انهيار الامبراطورية الموافقة على المشاريع التي ضبطتها ندوات لندن للقضاء على القراصنة (1816) فآثرت ابقاء القرصنة على دعم الهيمنة الانقليزية على البحار . ولم يتوفق مؤتمر ايكس لاشابيل (Aïx-La-Chapelle) الا إلى ايفاد قائدين للبحرية أحدهما فرنسي وثانيهما انقليزي باسم أروبا فقبلهما الداي ساخرا وانتهى الأمر بالدول العظمى إلى أن تعمل كل واحدة منها على حدة ، من ذلك ان الولايات المتحدة توصلت إلى ابرام معاهدة في صالحها بقوة المدافع (1815) وقامت عمارة انقليزية يقودها اللورد « أكموث » (Exmouth) وقائد البحرية الهولندية « ڤان كابلان » (Van Cappellen) بأجراء عملية عرفت في ذلك الوقت إذ اقتحمت المرسى في حماية راية التفاوض وامطرت الاسطول والمدينة بـ 34.000 قذيفة وسحقتهما ولكنها اصطدمت بمقاومة شديدة خسرت فيها 883 رجلا (27 اوت 1816) وقام أمير البحر « نيل » بعد تسع سنوات بمحاولة لم تأت بأية نتيجة (1825) ولم يؤثر كل ذلك في الطاقة الدفاعية لمدينة الجزائر .

وكان في امكان الايالة ان يطول صمودها لو لم يقع الداي ضحية المساومات المالية ومناورات القنصل « دوفال » المريبة التي مهدت إلى مشهد صفعة المروحة (30 افريل 1827) التي اقتضت ضرورات السياسة الداخلية الفرنسية تنظيم حملة بعد ثلاث سنوات وانتهت باحتلال مدينة الجزائر . (5 جويلية 1830) .

البلاد التونسيّة في العهد الحسيني :

أحدث القرن السابع عشر تغييرات كبيرة في البلاد التونسية . فلقد اقام البايات المراديون نوعا من الحكم الوراثي ، واستحكم امر عدة عائلات عربية وبربرية في وسط البلاد وجنوبها وتمكنت الايالة من صيانة استقلالها ورد الهجمات الجزائرية . وركز الحسينيون ابتداء من القرن الثامن عشر بصورة رسمية الملكية الوراثية ولكنهم اضطروا إلى مقاومة

الهيمنة الجزائرية وخاصة تسلّط الدول الأوروبيّة العظمى المتزايد مع الحرص على إبرام علاقات عادية معها .

ولم يقنع مؤسس الدولة الحسينية حسين باي وهو المعروف بحذره وحزمه وذكائه بتعيينه بايًا من قبل الآغوات (1705) بل ضمن لاحفاده شرعية وراثة العرش عن طريق مجلس خاص (1710) وعرفت تونس في عهده ازدهارا اقتصاديا حقيقيا . فلاحظ بيسونال (Peysonnel) سنة 1724 مدى أهمية المواد الأولية المستعملة في صناعة الشاشية وتصدير القموح والجلود والشمع العسلي والاسفنج والتمر وكذلك توافد القوافل الآتية من المغرب الأقصى وفزان . فكثر لذلك عدد الأجانب المقيمين ، الا أن العقبة الوحيدة التي كانت تعترض التجارة تتمثل في « شح الباي الذي احتكر النشاط التجاري لهذا الميدان وخص نفسه ببيع البضائع باثمان باهظة » بينما اتفقت كلمة الاجانب على التنويه باستقامة التجار التونسيين ، وابرم الباي معاهدة معفرنسا (1710 — 1728) وانقلترا (1716) واسبانيا (1720) وهولاندا (1728) والنمسا (1725) — وهكذا ركز علاقاته الدولية دون تدخل الباب العالي . غير أن تأثيره على القراصنة كان محدودا ممّا تسبّب مرتين متواليتين في ارسال عمارات فرنسية إلى حلق الوادي (1728 — 1731) وكان وضع البلاد في أول الأمر حسنا جداً . وكتب في ذلك محمّد الصغير بن يوسف قائلا : « — وامنت الطرقات وكثرت في أيامه الخيرات فعمّروا الرّباع والرّياض وبنوا القصور بأمنه المستفاض ما لم يكن في زمن غيره » . وأعلى حسين باي سور القيروان وأعطاه شكله الحالي وبنى عدة مدارس وحقّق مشاريع كثيرة ذات مصلحة عامة .

غير أن ثورات ابن أخيه علي باشا الذي اقصاه عن الحكم اولاد حسين باي الذين انجبتهم علجية من جنوة احدثت اضطرابات خطيرة (1729) واستعان ابن علي باشا بالجزائريين وحاصر الباي بالقيروان طيلة خمس سنوات وتمكن في آخر الامر من القاء القبض عليه وقطع رأسه (18 ماي 1740) .

واشتهر الباي الجديد (1740 — 1756) بتطرفه في نزعته الاستقلالية وعرف كيف يقنع القناصل بذلك عندما أكد لهم انه يريد أن يبقى سيدا

في بلاده وكان يعتقد وهو محق في ذلك أن الفرنسيين يشجعون قيام الثورات في بلاده فكان يكنّ للقنصل عداوة شخصية تجلت بالخصوص عندما تورّط هذا القنصل في قضية امرأة وانتهى به الأمر إلى قطع العلاقات مع فرنسا (1741) وزاده موقف شركة افريقيا غضبا على غضبه ، ذلك انه احتجز رسالة لمدير الرأس الأسود يدعى فوقاس (Fougasse) يكشف النقاب عن خطة لغزو طبرقة التي اعتزم جماعة لومليني (Lomellini) التخلي عنها « ذلك أن احتلال الجزيرة لاينشط التجارة الفرنسية تنشيطا كبيرا فقط بل إنّ هذا المركز الهام من شأنه ان يمكن فرنسا من فرض ارادتها على باي تونس وعلى كل الدول البربرية » (ب. ماسون) وهكذا تشابه برنامج فوقاس ومشروع سنسون نابولون وكشف كلاهما عن نفس الاغراض الامبريالية .

وسبق الباي الاحداث فاستولى على القاعدة ثمّ الرأس الأسود فحاول ضابط بحرية فرنسي الاستيلاء على الجزيرة في غفلة من أهلها وانكشف امره وعزل « فوقاس » رسميّا جبرا لخاطر الباي غير انه احتفظ في الواقع بادارة القالة ممّا أقام الدليل على أن الحكومة نظرت بعين الرضا إلى محاولة الغزو . واضطرت الحرب الأهلية علي باشا كما شجعه كرم تاجر فرنسي مدعم بحضور عدد من « الفرقاطات » على ابرام معاهدة سلم تقضي بارجاع المراكز التجارية إلى سالف عهدها ولكنها تفرض على قنصل فرنسا الخضوع إلى مراسم تقبيل اليد (9 نوفمبر 1742) .

واستجاب الباي إلى رغبات البلاد فبنى خاصة المدارس ومن أهمها المدرسة الباشية وهي مستوحاة كغيرها من حيث معمارها من نمط المدارس المصرية في احتوائها في نفس الوقت على فصول الدراسة وضريح المؤسس وحنفية عمومية ، وزاد الباي ايضا في القصر الحفصي القديم بباردو قاعات وزخرفها في بعض الاحيان على الشكل الاوروبي وفتحها على فنائين تحوط بكل منهما اروقة .

واضطربت الاحوال في آخر عهد علي باشا من جرّاء ثورة ابنه فاغتنم الجزائريون الفرصة لغزو تونس ودخلوا العاصمة من دون عناء وقضوا على الباي وقطعوا رأسه ونصبّوا محمّدا أحد ابناء حسين بن علي بايا واضطروه إلى دفع اتاوة لهم (1756)

ولم تدم فترة حكم محمّد الا ثلاث سنوات تمكن فيها من بسط الامن في البلاد — واشتهر باستقامته ، وطيبة قلبه في معاملاته مع التونسيين والاجانب لمهارته ولباقته ، واعتلى العرش من بعده أخوه علي باي (1759 — 1782) فعرف بذكائه الحاد ورغم تدخلات الانقليز المزهوين بانتصارهم في حرب السبع سنوات فانه لم يظهر عداوة للفرنسيين واعترف لهم باحتكار صيد المرجان في السواحل التونسية كما ميزهم بحق فتح مصرف في بنزرت (1768) وعندما الحقت فرنسا جزيرة كورسيكا بترابها احدثت قطيعة لم تدم طويلا نظرا إلى أن ذلك من شأنه ان ينال من المصالح التونسية — وكانت آخرَ قطيعة ، وأعطى الباي الشركة جزيرة جالطة (شمال شرقي طبرقة) عوضا عن رأس نيقرو الذي كان الاهالي يطردون منه التجار الفرنسيين المقيمين بطلقات البنادق عوضا عن بنزرت التي طالبت بها فرنسا (1770) ثمّ سمح الباي بتركيز اربعة مصارف على ساحلي الوطن القبلي (1781) وكانت فرنسا مدينة بهذا الوضع الممتاز اولا وبالذات إلى مصطفى خوجة صهر الباي ووزيره الاول الذي عرفت الادارة التونسية على يده ازدهارا مجددا .

أمّا حمودة باشا ابن علي (1782 — 1814) وهو أمير شاب معروف بنزعته الاستقلالية وحماسه المتقد ، فقد صمد أكثر من سابقيه في وجه الهيمنة الاوروبية . وقطع العلاقات مع البندقيه التي رمت سوسة بالقنابل (1784) وهدمت مدينة حلق الوادي أو كادت (1785) من دون أن تلين له قناة ورضي بابرام معاهدة مع اسبانيا عندما تمكن من فرض شروط ثقيلة الوطأة عليها (1790) وقطع كذلك روابط الولاء إزاء مدينة الجزائر التي شنت هجومين متتاليين عليه باء كلاهما بالفشل (1807 و 1813) وارسل ايضا جيشا إلى طرابلس لارجاع الباشا إلى منصبه واثناء ذلك اغتنم فرصة تمرد الانكشارية لحلّهم والتخلص منهم نهائيا مستعينا في ذلك بالسكان (1811) ولم تحدث بينه وبين فرنسا سوى ثلاث خصومات فقد صادف عهده ازدهار التجارة الفرنسية التي بزت تجارة كل الأمم الأجنبية بما فيها تجارة اليهود بفضل التجار المتجولين من مقاطعة بروفانس الذين لم تفتأ ملاحتهم الساحلية تتزايد في ذلك الوقت ،

غير أن الحروب التي تبعث الثورة الفرنسية وصاحبت امبراطورية نابليون أضرت بهذا الوضع الممتاز .

وشيد حمودة باشا في فترة حكمه الطويلة قصرا كبيرا سماه دار الباي غير بعيد عن القصبة – وبنى فيه قاعة للاستقبالات فسيحة الارجاء على شكل قريب من شكل الف ممدودة لها مقصورة كبيرة ولعل زخرفة هذه القاعة كانت من صنع مغاربة ، وأقام قصرا بمنوبة نقلت ظلة منه إلى حديقة البلفدير (قبة البلفيدير) ونحن مدينون إلى وزيره الخطير يوسف صاحب الطابع بجامع الحلفاوين المشهور بطاقاته نصف الاسطوانية التي تفصل بين أروقته التسعة المسقفة وبخصائص أخرى تشهد أكثر من غيرها من المعالم المعاصرة على التأثير الاوروبي .

واعتلى العرش محمود باي (1814 – 1824) ابن محمّد باي بعد ثلاثة أشهر من حكم عثمان باي أخي حمودة باشا واضطرته الدول الاوروبية العظمى إلى ابطال الرق رغم النتائج السيئة التي نتجت عن هذا الاجراء الفجئي على الاقتصاد (1819) وادرك ضرورة التقارب مع الوجق للقدرة على الصمود أمام ضغوط الدول العظمى غير أن الايالتين لم تبرما سلما دائمة الا ّ بعد عامين من ذلك التاريخ من دون حماس كبير (1821) .

ولم تتغير هذه السياسة عندما اعتلى ابنه حسين باي العرش (1824 – 1825) وانتهت جولة جديدة من التنافس القائم بين فرنسا وانقلترا بتسليم لزمة صيد المرجان بطبرقة والسواحل إلى انقلترا التي قدّمت عائدات أوفر . ولمّا حطمت السفن الفرنسية الأسطول التونسي في نهاران (Navarain) استشاط التونسيون غضبا على فرنسا (1827) غير أن الباي لم يغتنم فرصة انهيار العلاقات بين فرنسا والجزائر للتعبير عن هذه النقمة وبصورة عملية اكتفى باظهار شماتته لما حل بالايالة المجاورة شأنه في ذلك شأن الشريف المغربي الذي كان يراسله بواسطة الاولياء المتسولين . لذلك تظاهر بالحياد الكامل بل انه لم يتردد في مدّ باريس بمعلومات عن الوضع الداخلي بالجزائر وما كان أحد ليتنبأ في ذلك الوقت بان حملة فرنسا سنة 1830 ستؤول إلى احتلال مدينة الجزائر ثمّ كامل البلاد الجزائرية بصورة دائمة ولا من باب أولى وأحرى أن يتوقع احتلال البلاد التونسية وبلاد المغرب الأقصى .

الخـاتـمـة :

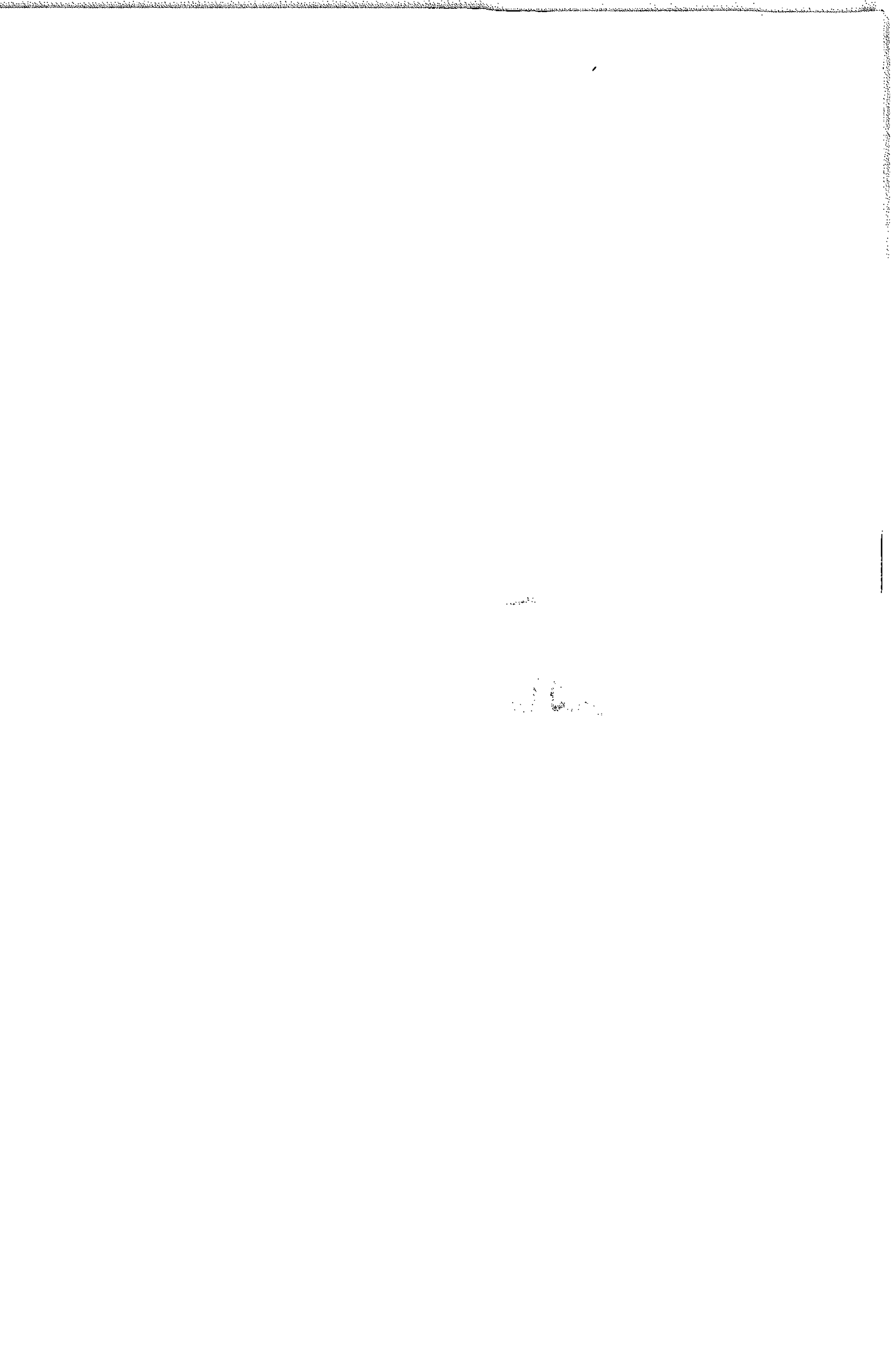
اتجهـت الايالتان اللتان اسسهمـا الاتراك في إفريقيـا الشماليـة واللتان لم يلبث منذ انبعاثهمـا أن تفرق جمعهما وجهتين مختلفتين اختلافا كبيرا . فقـد اندمج الاتراك شيئًا فشيئًا في تـونس وهي بلاد عريقة في حضارتهـا — ويمـكن الجزم بان ذلك تم في اوائـل القرن التاسـع عشر وان الدولـة الحسينية أصبحت دولة تونسية : ونحـن اذا استثنينا عددا من الألفـاظ المستعملـة في الادارة وبعض العادات التركية أمـكننا اعتبار البايات وضباطهـم مـن أهـل البلاد .

ولم يـكن الأمر كـذلك بالنسبـة لمدينـة الجزائـر حيث عاش الفاتحون على هامش البلاد إلى سنـة 1830 ، ولاشك ان أحد اسباب هذه الظاهرة هو انصراف الاتراك إلى شؤون البحر وعدم اكـتراثهـم بالبلاد نفسهـا ولـكن يجـب أن نعترف ايضا بأن فقـر البلاد الجزائريـة الحضاري بلـغ حدا حال دون « هضـم غازيهـا المتعـالي » وان البربر المتمسكين بشخصيتهـم تمسكا شديدا والموجودين في الجهات التي استقر فيهـا الاتراك بالذات لم تـكن لهـم مع المشارقة نفس الوشائـج التي كـانت لسكان البلاد التونسية المتعربين .

وخلاصـة القول فان البلادين رغم خضوعهمـا لسلطـة واحدة في أول الأمر سرعان ما اختلفتا في الاتجـاه . فظلـت احداهمـا بلدا مغزوا لايضمر العداوة لغالبـه لـكن من دون اتصال حقيقي معـه ، بينمـا هضمت الاخرى الوافدين عليهـا شيئًا فشيئًا وسعـت إلى أن تجعـل منهـم تونسيين أشبـه ما يكـونون بغيرهم من التونسيين .

الباب السابع

نَظْرَةٌ إِجْمَالِيَّةٌ



لمّا نزلت الجيوش الفرنسية بسيدي فرج سنة 1830 يكون قد مر على دخول الاسلام إلى إفريقيا الشمالية اثنا عشر قرنا ، ولئن واجه المسلمون في أيام الفتح الأولى مقاومة مستميتة من قبل البربر فانه يظهر أن المسيحية الافريقية لم تصمد في وجه الاسلام صمودا كبيرا ، بل ان الدين اليهودي ، إذا ما نحن سلمنا بان الكاهنة يهودية ، هو الذي واجه الدين الجديد مذهبيا ووفق في التصدي له والدليل على ذلك ان المجموعات اليهودية المحلية لا تزال موجودة إلى يومنا هذا بينما آل أمر المجموعات المسيحية بالبلاد الافريقية إلى الزوال في اواخر القرن الثاني عشر ، غير ان الاسلام أصبح بعد مرور ثلاثة قرون أو أربعة دين الأغلبية الساحقة للمغاربة ولعله طبعهم بطابع لن يمّحي واكسب كل المدن في هذه البلاد وكل المناطق التي يسهل الوصول اليها اسلوبا في الحياة خاصا بها اما في المناطق الجبلية التي منحتها الطبيعة مناعة أكبر فان الاسلام أثر في المعتقدات ولكنه لم يكد يغير شيئاً من العادات التي بقيت وفيّة للماضي .

غير أنّ الاسلام تكيف في صيغ خاصة عند التحامه بالبرابرة لذلك يجوز الحديث عن اسلام مغربي كما نتحدث عن كاثوليكية اسبانيا أو مقاطعة بريطانيا فلقد نجا الاسلام في المغرب أو كاد من الخصومات المذهبية ، ولم تبق آثار للشيعة الادارسة ولا للفاطميين . وتبخر المذهب الموحدي من دون أن نعرف السر في ذلك رغم شبابه وحيويته في أول أمره ، وظل المذهب الخارجي وحده يتحدى الزمن ممثلا في مجموعتين بربريتين بالمزاب وجزيرة جربة إلى اليوم وهما عبارة عن ربوتين بارزتين لا تكادان تغيّران شيئاً من الملامح البشرية لهذه البقعة من الأرض . وعلى كل فان هاتين المجموعتين الخارجتين عن الجماعة المستقرتين على هامش المغرب في أماكن قاصية لم تدخل ابدا في صراع مكشوف مع أهل السّنة المحيطين بها بل ان بلاد المغرب كلها اوتكاد تتبع تعاليم مذهب فقهي واحد الا وهو المذهب المالكي : ولم يتبنّ المذهب الحنفي سوى

أحفاد الاتراك المستقرين بالبلاد الجزائرية والتونسية ، وهم جماعات قليلة العدد تقيم في بعض المدن الكبرى في البلدين . ان الدين الاسلامي في بلاد المغرب لم يبق في مأمن من البدع رغم ابتعاده عن الخصومات الفقهيّة الكبرى ولا يمكن أن ننكر ان نزعة التجسيم قد رانت عليه ، فقد انتشر تقديس الأولياء انتشارا كبيرا كما تشهد بذلك الزيارات اليوميّة لقبور الصالحين واقامة المواسم حيث يحتفل بذكرى وفاة الولي وأصبح القوم يعددون مناقب الأولياء في كافة بلاد افريقيا الشمالية ابتداء من القرن الخامس عشر ، وتواجد عندهم في احيان كثيرة الأولياء مع الاشجار والعيون والاماكن الرفيعة بحيث لم يعد مجال للشك في أن تقديس الولي الصالح المسلم يغطي ضروبا عتيقة من التقديس بقي البربر اوفياء لها ، ثم ان الوثنية المنتشرة في العهود الغابرة تغذت بسهولة من الاعتقاد في الجنّ الذي يقره الدين الاسلامي .

وعلاوة على هذه البقايا من العبادات القديمة التي تختلف درجة وضوحها فان الاسلام تميّز في بلاد المغرب بازدهار نوع من الصوفيّة الشعبية ابتداء من القرن الخامس عشر بالخصوص . ولقد انبثق هذا الدين النابع من القلب في الارياف لا المدن وشع في أذهان أبسط النّاس عقيدة وأشدهم حميّة لا في عقول الاصوليين والفقهاء الثاقبة . وانتشر شيئا فشيئا في شكل فرق دينية يجمع بين افرادها نسق صوفي واحد أو كما يقال « طريقة » واحدة ، فمنها المتواضعة التي لايتجاوز عدد مريديها بضع عشرات استقروا في بقعة صغيرة ومنها التي انتشرت في جزء كبير من افريقيا الشمالية واحيانا عمت البلاد بأكملها ، ومنها المغرقة في الشعبية حتى آل امرها إلى البهلوانية كما كان الشأن بالنسبة إلى طريقة العيساوية الشهيرة . ومنها التي أصبحت مراكز اشعاع لعلم التصوّف واستقطبت أكثر العقول تهذيبا . ولا يمكن بالاستناد إلى ما وصلت اليه معلوماتنا اليوم أن نعرف بكل دقة الدور الذي لعبته الطرق في تاريخ بلاد البربر ، الا أنه كان دورا كبيرا ولاشك مثلما تشهد بذلك ثورة الدرقاوة على الاتراك بجهة وهران في أواخر القرن الثامن عشر .

ولايمكن أن نهمل المنزلة التي حظي بها كل من اشتهروا بأنهم آعطوا البركة ، وهي منّة إلاهيّة لها مفعولها في شؤون الدنيا والدين

وهؤلاء هم أولياء الله الذين يعيشون صحبة أقربائهـم ومريديهم فيعطون أحدهم البركـة ليكـون خليفتهم في اشاعة تعاليمهـم ومواصلـة كراماتهم ، وغالبـا ما تـكون منطقـة نفـوذهم محدودة غير أنهـم أشعـوا بعض الاشعاع أحيانا عند نشوب الاضطرابات وظهـور الفوضى . فقـد كـاد اولياء الدلاء ان يستحوذوا على الحكم في كـامل بلاد المغرب الأقصى في اواسط القرن السابع عشر ، وقد نافسهم في البركة الأشراف وهم المنحدرون من السلالة النبويـة الذين عظـم شأنهـم منذ إدريس الأول وعبيد الله في بلـدان المغرب بالنسبة إلى كل الطبقات الاجتماعية ، وآل أمرهم إلى مسك زمام الأمور في المغرب الأقصى حيث يصعب ان نتصوّر اليوم أن يـكون عاهلهـا مـن غير سلالة الأشراف — ولئن لم يـكن تأثيرهم كبيرا في الجزائر وتـونس فانه لايمـكن اهمـاله على كـل حـال .

وأخيرا فـان الاسلام في بـلاد المغرب يبدو كـأنـه تعـوزه الحركيـة ، ذلك أن العبادات والمعاملات بقيـت منذ الحركـة الموحدية أي ابتداء من أواسط القرن الثالث عشر هي هي لـم تتطور اللهـم الا بدعة واحـدة تتمثـل في الاحتفال بالمولد النبوي أدخلهـا رسميـا أبو يعقـوب المرينـي وتبناها عــن طواعية كل أهل المغرب حتى اصبحت في مستوى عيد الفطر وعيد الاضحى (العيد الصغير والعيد الـكبير) ، غير أن حركـة مذهبيـة في مثـل اهميـة الحركـة الوهابيـة لم تجد أي صدى في المغرب في القرن الثامن عشر رغم الجهـود التي بذلهـا سيدي محمـّد بن عبد الله سلطان المغرب الأقصى لفائدتها.

وانتصر الاسلام إذن في إفريقيـا الشماليـة ، فـكوّن العلماء وجلـب إلى حضيرتـه كـل الأهالي او كـاد حتى ان أجهـل النـّاس وابعدهم عن تعاليم السنة أصبح لا يتردد في بذل حياته للدفاع عن معتقداته البسيطة كما ان الإسلام أكسب هذه البلاد مـلامح شرقية ظلت طيلـة الفترة الرومـانية تحيـا على النمط الغربـي وارتـاحت إلى ذلك على مـا يظهر ، غير أنـه في الوقت الذي كـان فيـه الاسلام بالمغرب يتغلغل في النفوس كـان ينطوي على نفسه ويفقد روابطه مـع المدارس الشرقيـة ومجمـوعاتهـا وينقاد إلى التـأثر بالمعتقدات القديمـة والعادات البربرية العتيقة ويتحنـّط بسبب اغراق المذهب المالـكي في المناقشات الشكليـة والخلاصة ان الاسلام في المغرب بقي قويـا في جوهره ولـكنـه تحجر وانحرف نوعا ما نتيجة ممـارسة المغـاربة اياه منذ قرون .

ولم ينجرّ عن انتصار الاسلام انتصار العرب، اذ لـم تطل سيطرتهم على كـافة بلدان افريقيـا الشماليـة أكـثر من خمسين سنة وانتهـت نهـائيـا في أواسط القرن الثـامن بالنسبـة إلى القسم الغربـي منهـا . أمـا بالنسبـة إلى إفريقيـة فقـد تم ذلك بعـد قرن ونصف .

غير أن الغريـب في الأمر هو أنه رغم سرعـة زوال تأثير المشرق الاسلامـي في المغرب سياسيا فان البربر اصطفوا رؤساءهم من المشرق واستوحوا اعمـالهـم منـه طيلـة قرون كـاملـة .

واذا نحـن تركـنـا جانبـا النجاح المنقطـع النظير الذي حققه بنو أميّة في اسبانيـا الاسلاميـة وجب أن نتذكر ان ابـن رستم وإدريس بـن عبـد الله وعبيد الله وداعيته أبا عبد الله جاءوا جميعهـم من المشرق وتـمكـنوا كلهم بفضل نسبهـم الشرقي او شجرتهم النبوية بالنسبـة إلى إدريس وعبيد الله من قيادة قبيـلة أو مجمـوعة من القـ[illegible]ـل البربرية فأسسوا بهـا دولا ، فقـد اعتمـد ابن رستـم على زناتة وادريس على أوربة وعبيد الله على كـتامة ، ولمّـا عدل البربر فيما بعد عن الامتثال للاجانب واستقلوا بالدعوة لانفسهم استمدوا مـن المشرق المثل العليـا التي شـدت عزائمهـم في الـكـفـاح ، ونشأ سعي أول المرابطيـن إلى تجديـد الاسـلام اثنـاء رحلـة إلى الشرق كمـا تصور ابـن تومرت مذهبـه اثناء اقامتـه في بلاد المشرق ولم ينغلق البربر عن كـل المؤثرات الخارجيـة الا ابتداء من عهـد عبد المؤمن فلـم تنقض على ذلك فترة طويلـة حتى زالت الامبراطو ية البربرية الـكبـرى ورجعـت البـلاد شيئا فشيئا إلى سابـق تفـكـكهـا .

ويظهر اننّا بازاء أشد خاصيات تاريـخ المغرب عراقة وهي معارضتهم الشديدة للاوامر الصادرة لهـم من ذويهم ، وعزيمتهـم الفولاذية في تشديد المراقبـة على كـل من يتقلد الحكم منهـم وكـذلك عصبيتهـم الضيقة التي تحمـل القبيلة المنتصرة على غلق باب التفاهم مع المغلوبيـن والنفور مـن تشريـكهم في اعمالهـا وبايجاز عجزهـم عن التحول من الـروابط العرقيـة إلى مستوى الدولة . ولم يوفق قائـد بربري واحد إلى تجاوز العصبيـة القبلية . نعـم قد حاول ابن تومرت ذلك في تينملل بيـن قبائـل تربط افرادهـا بعضهـم إلى بعض روابط الدم واللغـة ونمط الحياة . لـكن ما ان نزل الموحدون ن جبالهم حتى امتنعوا عن التعاون مع الاقوام التي اخضعوهـا ، وسرعان ما

اصبحت عائلة عبد المؤمن ، وهو الرجل العظيم ، جماعة جديدة منغلقة على نفسها ضمن الجماعة الكبيرة المنتصرة ، ولم يشذ عن هذه القاعدة الا الحفصيون الذين لم يبلغ عددهم في إفريقية حدا يمكنهم من فرض سيطرتهم وحدهم على باقي السكان . غير انهم لم يقدروا على تأسيس دولة كاملة الانسجام لأن القبائل العربية حالت دون بلوغ هذه الغاية ، والحال انهم كانوا أوفر حظا لتحقيق مرامهم لأن افريقية كانت أقل بلاد المغرب تجزّؤاً بحكم طبيعتها ولأنها إلى ذلك منطقة منفتحة إلى المؤثمرات الخارجية منذ أبعد الدّهور يسكنها اناس جاؤوا من آفاق مختلفة وتعودوا الحياة بعضهم مع بعض ولانها ايضا زاخرة بالمدن عامرة بالحضارات الا أن وجود العرب البدو أفسد عليها إلى حد كبير هذه المؤهلات الكفيلة بالتطور والرقي إلى مستوى الدولة .

ولم يتخلف مؤرخ واحد منذ ابن خلدون عن ذكر أهمية الحدث العربي في إفريقيا الشمالية ، وانّ تغلغل بني هلال ومن جاؤوا بعدهم بصورة بطيئة وثابتة في نفس الوقت غيّر حسْبَ ما يقال التّوزان السياسي في بلاد المغرب ، والواقع أن التغيير شمل ايضا وبالخصوص التوازن الاقتصادي ، فالمناخ والتضاريس جعلت من إفريقيا الشمالية بلاداً فلاحية ورعوية في نفس الوقت الا أن التوفيق صعب بين هذين النمطين من الحياة لإختلاف مقتضياتهما ، ويظهر أن الرومان اقصوا الرعاة في اتجاه الجنوب ما أمكنهم ذلك وممّا يلفت النظر في هذا الصدد هو أن حدود الوجود الروماني توافق تقريبا ، بحسب ما توفر لدينا من قدرة على الضبط ، الخط الذي يمكن اعتباره فاصلا طبيعيا بين الرعاة والفلاحين أي الخط الذي يتوغل كثيرا في الجنوب بالبلاد التونسية ومقاطعة قسنطينة ويقترب من البحر بصورة جليّة كلما اتجهنا نحو الغرب حتى اذا بلغنا جهة تلمسان حيث تقترب الصحراء أو السباسب من البحر قربا كبيرا أصبح مجرد حاشية موازية للسواحل

ان التوازن الذي فرضته السيطرة الرومانية واقتضته في نفس الوقت احوال البلاد لم يختل بزوال الرومان ، ولم يمحه الفاتحون المسلمون الأولون لأنهم لم يكونوا رعاة بالجزيرة العربية بل حَضَرا من الشرق الأدنى ولم تؤثر كذلك تأثيرا كبيرا الخصومات السياسية التي عقبت

الفتح الاسلامـي وبقي المغرب كمـا وصفـه ابن حوقـل في أواسط القرن العاشر بلادا فلاحيـة تـكـثر فيها الغابات ويعمهـا الازدهار رغم ما قامت به قبائـل زناتة الرحل من محاولات لمنازعة قبـائل كتامة الحضرية في التّفوّق وبسط النفوذ ، ولـئن تـمكّـنـت زنـاتة من التسرب إلى أقصى بلاد المغرب فانهـم لم يفلحوا في اقتحام مناطق غمارة وبرغواطـة ومصمودة الفلاحية .

ولمّا زحف العرب الرحل تغيركـل شيء ، وقد شك المؤرخون في كـثرة عددهم ولعلهم محقون في ذلك ، غير أنه يكـفي ان يحـل بالصحراء بضعـة آلاف من البشر والحيوانات ليضيق المتسع الحيوي بأهلـه ، فـكلما توافد العرب اضطرّت القبائـل البربرية الرعويّة التي احتفظت بنشاطهـا التقليدي إلى التقهقر نحـو الغرب والشمال أي في آن واحد نحـو أراضي الفلاحين . وتم هذا المد بصورة بطيئة ولـكـنها ثابتـة ولـم يلبث الفلاحون ان وجدوا انفسهـم مطاردين من المعز والغنم التي ضيقت من الاراضي المزروعة وأفسدت الأشجار المثمرة ولابد ان نسلـم بأن هذه الثورة غيـر المشعور بهـا والعميقـة في آن واحد التي طرأت على توازن البلاد الداخلي ليست غريبـة عن التدهور السياسي الذي حل ببلاد المغرب بين القرنيـن الثالث عشر والخامس عشر .

وحدث في القرن الخامس عشر عامل جديد أثر في توازن القوى المتقابلـة الا وهو حضور النصارى في إفريقيـا . وأسهـم أهل المغرب الأقصى إلى حد ذلك التاريـخ في الدفاع عن الاسلام باسبانيـا وكـان حظهـم متفاوتا غير ان هزائـم أبـي الحسن سنة 1340 و 1343 وضعت حدا لتدخلاتهم وعبر البرتغاليون سنة 1415 مضيـق جبل طارق واستقروا للمرة الاولى منـذ الفتـح العربـي في أرض اسلاميـة .

ولئن ظل هذا النجاح فريدا في نوعه مدّة طويلـة فسرعان ما ترتبت عنـه نتائـج هامة ، ذلك أن وجود أقوام غيـر مسلمة في المغرب الأقصى ، ولو انحصر في شبـه جزيرة صغيرة في طرف البلاد احدث حركـة دينيـة تتقد حماسا وكـان لهـا مفعول أعمـق ممّا لوحظ في عهـد الموحدين خاصة انه لم تَنْبـع من ذهن رجل مذهبـي مثـل ابن تومرت بل انبثقـت من ضمير الشعب ، وبدأ عدد الاولياء رجالا ونساء يتـكاثر بجوار سبتـة في الهبط والجبل داعيـن المسلمين للدفاع عن عقيدتهـم المهددة ثمّ توسعت الحركـة

من هذا المنطلق بالقدر الذي كان يتغلغل فيه البرتغاليون في سواحل المغرب الأقصى حتى بلغ الأماكن القاصية في الدرعة والسوس حيث ظهر الأشراف السعديون ، ولم يلبث الحماس الديني ان تحول إلى كره للاجنبي إلى حد جعل السعديين لايترددون في التحالف مع الاسبان لمزيد القدرة على مقاومة الاتراك المتمركزين بمدينة الجزائر رغم انهم مسلمون ، اذ اعتبروهم اجانب يهددون بالتوغل في المغرب الأقصى بينما تواري خطر الاسبان .

وكفّ المغرب الأقصى من ذلك التاريخ عن المشاركة في حياة إفريقيا الشمالية وانطوى على نفسه شيئاً فشيئاً وأصبح لايسمح من الاتصالات الا بما هو ضروري لمواصلة تجارة هزيلة وانقطعت علاقاته مع المشرق الاسلامي والغرب النصراني على السواء، وانهمك في صراع لايكاد يني بين القبائل البربرية المتمردة على الحكم القائم وانغلق تماما عن كل تأثير خارجي – وينتج عن هذه الانتفاضات المنهكة ركود لامثيل له في الحياة الاجتماعية في وقت كانت فيه أوروبا المجاورة تتطور بسرعة متزايدة وأعرض المغرب الأقصى عن أوروبا بينما كانت تنمو في تسرع وتسعى إلى جر سائر العالم في تيارها .

وانجرّت عن التدخل الاسباني في جهات المغرب الأقصى نتائج مغايرة فلقد تحالف مغاربة بجاية مع القراصنة الاتراك لاسترجاع مدينتهم فاغتنم الأتراك الفرصة للتمركز بمدينة الجزائر ، ولما احسوا بالخطر بدورهم استنجدوا بالسلطان في القسطنطينية وبعث لهم بالجيوش وبسط سلطانه على المناطق التي احتلوها ، فأصبحت الجزائر لمدة نصف قرن القلعة الأمامية الذائدة عن الأمبراطورية العثمانية في غربي البحر المتوسط وإحدى النقط الحساسة في الصراع الهائل القائم بين شارل الخامس وسليمان القانوني – واستقر الاتراك في نهاية القرن ولمدة طويلة في الإيالتين الجزائرية والتونسية . غير انه بينما كان اتراك الجزائر يعيشون على هامش البلاد ويقتصرون على جوبها لاستخلاص الجباية حيثما قدروا انصهر اتراك تونس في بوتقة واحدة مع التونسيين لأنهم وجدوا انفسهم بازاء حضارة ثابتة الأركان وأسسوا دولة يمكن نعتها بالوطنية الا وهي دولة الحسينيين ومهما اختلف تطور الايالتين فان الأتراك لم يتوصلوا رغم ذلك إلى دفع المغرب العريق في القدم دفعا جديدا بل انتصر في كلا البلدين الجمود البربري

بحيث عاش المغرب من اقصاه إلى أقصاه في اوائل القرن التاسع عشر منطويا على نفسه تحدوه قيم انحنى عليها الدهر من دون ان يقدر على التطور ويصبح دولة عصرية

والخلاصة انه لايمكن ان ننكر أن الحضارة الاسلامية أمكن لها بعد فترة من التأقلم طويلة وصعبة أن تخمّر العجين البربري وان تبعث حضارة لامعة بلغت أوجها في العهد الموحدي ، ثمّ ان البرابرة خلدوا بأنفسهم بعد ذلك فانساقوا شيئاً فشيئاً إلى حضيض التناحر واستطابوا الوضع ان صحت هذه العبارة وعاشوا حياة تجاوزها العصر غير بعيد عن عالم يغلي غليانا . وان جوارا كهذا ما كان يمكن ألاّ يؤتي ثماره .

ببلوغـرافيا

1 ـ ملاحظات عامـــة

نلاحظ * بادىء ذى بدء ان الببلوغرافيا التى أعدها شارل أندرى جوليان فى طبعته الثانية للكتاب المنقحة والمزيدة والصادرة منذ ما يقرب من ثلاثين سنة لم تعد مستوفاة لأن كتبا جديدة صدرت أثنـاء هذه الفترة تحتوى على وثائق ومراجع ودراسات جد هامة . وهى رغم هذا لها قيمة علمية لا شـك فيها عـلاوة على كثافتها (تقـارب الاربعين صفحة من الكتاب الصادر باللغة الفرنسية) .

ونلاحظ أيضا ان هذه الببلوغرافيا تحيل الى مراجع أغلبها باللغة الفرنسية او باللاطينية او الانقليزية او الاسبانية او غيرها من اللغات الاخرى .

لهذه الاسباب ولاسباب أخرى تتعلق بسعر الكتاب آثرنا الا نترجم هذه الببلوغرافيا تاركين للقارىء الرجوع الى النص الفرنسى اذا رام زيـادة فى التفاصيل .

على اننا سنحاول ان نعطى لمحة عامة عن هذه الببلوغرافيا ثم نشير الى المصادر العربية التى اعتمدها شارل أندرى جـوليان المترجمة الى الفرنسية والتى اعانه على الاطلاع عليها المستشرق روجى لوترنو .

قسم شارل اندرى جوليان الببلوغرافيا الى قسمين : ببلوغرافيا عـامة وببلوغرافيا حسب الابواب فالببلوغرافيا العامة تحتوى على :

1) ببلوغرافيا تشير الى المراجع المتعلقة بالجزائر وتونس والمغرب الاقصى وطرابلس .

2) الوثائق والمكتبات .

3) المجلات الفرنسية الصادرة بالجزائر وتونس والمغرب الاقصى وفرنسا وبلدان أخرى .

4) وسائل العمل من تراجم اعلام كدائرة المعارف الاسلامية ومن مجموعة خرائط وبيانات وجداول ومتاحف .

5) المصادر وهى تضم :

---

*) المعربان .

أ ـ النصوص العربية التي سنذكر أهمها في آخر هذه البيبلوغرافيا والنصوص الصادرة بلغات أوروبية .

ب ـ الفن وعلم والآثار وأهم كتاب هو لجورج مرسي .

ج ـ علم المسكوكات .

د ـ علم النقائـــش .

6) الاسلام وهنا ذكر لاهم الكتب الدارسة لتاريخ الديانات والاسلام خاصة في بـلاد البربـر .

7) علم الاجتماع وعلم الاجناس ويذكر هنا المؤرخ مراجع عديدة وهامة تتعلق بحياة شعوب بلاد المغرب وجنسهم .

8) المسائل الاقتصادية .

9) تآليف عامة متعلقة بالتاريخ .

أ ـ التواريخ العامة .

ب ـ القرون الوسطى .

ج ـ اسبانيا والبرتغال .

د ـ افريقيا الشمالية ويذكر المؤرخ هنا التآليف الدارسة لعموميات هذه البلاد ثم المراجع المتعلقة بالفتح الاسلامي ثم المتفرقات ثم التآليف الدارسة لتاريخ الجزائر وتونس والمغرب الاقصى .

أما البيبلوغرافيا حسب الابواب فغالبا ما تحتوي على المصادر العربية بما فيها الوثائق والنصوص العربية او الاجنبية ثم التآليف والدراسات .

2 ـ المصادر العربية

ملاحظة : المصـــادر المذكـــورة منشورة وأغلبها مترجـــم في كتب او في نشريات ونحن نعطي قائمة فيها من دون الاشارة الى الناشر وتاريخ الصدور محيلين القارىء الى النسخة الفرنسية زيادة في التدقيق .

ـ اليعقوبي ، كتاب البلدان .

ـ ابن حوقل ، كتاب المسالك والممالك .

ـ البكري ، كتاب المسالك .

ـ الادريسي ، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق .

ـ ابن عبد الحكم ، كتاب فتوح مصر وافريقية .

ـ ابن الاثير ، الكامل في التاريخ .

- ابن خلدون ، كتاب العبر وديوان المبتدا والخبر فى ايام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الاكبر .
- ابن ابى دينار القيروانى ، المؤنس فى اخبار افريقية وتونس..
- الناصر السلاوى ، كتاب الاستقصاء فى أخبار دول المغرب الاقصى.
- ابن الصغير ، تاريخ الدولة الرستمية بتاهرت .
- أبو زكرياء ، كتاب السيرة واخبار الايمة .
- ابن ابى زرع ، روض القرطاس .
- ابن عذارى ، البيان المغرب فى اخبار المغرب .
- ابو العرب ، طبقات علماء افريقية .
- المالكى ، رياض النفوس .
- ابو الحسن على الجزنائى ، زهرة الآس .
- ابن حماد ، أخبار ملوك بنى عبيد .
- ابن خلكان ، وفيات الاعيان .
- المقرى ، نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب .
- المراكشى ، المعجب فى تلخيص اخبار المغرب .
- الزركشى ، تاريخ الدولتين .
- العمرى ، مسالك الابصار فى ممالك الامصار .
- ابن الاحمر ، روض النسرين .
- يحيى بن خلدون ، بغية الرواد .
- ابن قنفد ، الفارسية فى مبادىء الدولة الحفصية .
- أبو عبد الله محمد الشماع ، الأدلة البينة النوارنية على مفاخر الدولة الحفصية .
- ابن مرزوق ، المسند .
- التجانى ، رحلة .
- الزيانى ، الترجمان المعرب عن دول المشرق والمغرب .
- التمغروتى ، النفحات المسكية فى السفارات التركية .
- غزوات عروج وخير الدين .
- الصغير بن يوسف ، المشرع الملكى .
- العياشى ، رحلة .

فهـرس الاعـــلام

- غ -

الجماعات والقبائل والدول

---

*) اهملنا ذكرهم فى هذا الفهرس لكثرة ترددهم

- ن -

الامـاكن والبلـدان والمـدن
والسهول والجبال والوديان

*) أهملنا ذكر «افريقيا الشمالية»، وما فى معناها : «المغرب الكبير» «المغرب» لكثرة ترددهـا ولانها موضوع الكتاب بأكمله .

ـ ت ـ

*) انظر : تونس (البلاد) فى افريقية .

– ز –

— ش —

– ع –

— ك —

- ن -

ـ هـ ـ

ـ و ـ

الثورات والاحداث والوقعات

الـكـتـب

قائمة الخرائط

فهـرس الموضوعـات

البـاب الثاني

الدول العربية والبربرية من 9 الى 11

البـــاب الثـالث

الامبـراطورية البربريـة

الباب الرابع

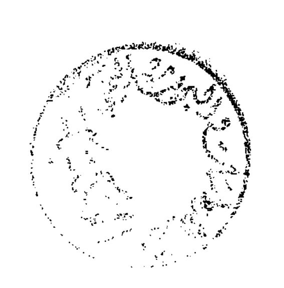
عودة الى الممالك البربرية

الباب الخامس

المملكة الشريفية

البـــاب الســادس

البـــاب الســابع



الفهـــارس





تم طبع هذا الكتاب
بمطبعة شركة فنون الرسم والنشر والصحافة
تونس ، فيفري 1983

سحب من هذا الكتاب 5.000 نسخة في طبعته الثانية .

محمد مزالي

- ولد محمد مزالي بالمنستير في 23 سبتمبر 1925
- زاول تعلمه الثانوي بالمدرسة الصادقية .
- تابع تعلمه العالي بكلية الاداب بباريس حيث تحصل على الاجازة في الفلسفة ودبلوم الدراسات العالية في الآداب .
- تحمل مسؤوليات في الحكومة والحزب الاشتراكي الدستوري منذ الاستقلال وهو حاليا وزير أول بالجمهورية التونسية .
- أسس مجلة **الفكر** سنة 1955
- رئيس اتحاد الشباب التونسي
- نائب رئيس اللجنة الاولمبية العالمية .
- انتخب سنة 1979 رئيسا لهيئة العاب البحر الابيض المتوسط .

صدر له :

- الديمقراطية 1955
- تاريخ افريقيا الشمالية جزان لشارل أندري جوليان ترجمه بمعية الاستاذ البشير بن سلامة . صدر الجزء الاول سنة 1968 و الجزء الثاني سنة 1978
- من وحي الفكر 1969
- المعمرون الفرنسيون وحركة الشباب التونسي لشارل أندري جوليان ترجمه بمعية الاستاذ البشير بن سلامة ـ1971 .
- مواقف :1973
- دراسات :1974
- وجهات نظر :1975 .

البشير بن سلامة

- ولد البشير بن سلامة في 14 اكتوبر 1931 بباردو .
- زاول تعلمه بالمدرسة الصادقية ثم بدار المعلمين العليا .
- استاذ في اللغة والاداب العربية .
- رئيس تحرير مجلة الفكر التونسية .
- وزيرالشؤون الثقافية بالجمهورية التونسية .

صدر له :

- اللغة العربية ومشاكل الكتابة 1971
- الشخصية التونسية : مقوماتها وخصائصها 1974
- النظرية التاريخية في الكفاح التحريري التونسي 1977 .
- قضايا 1977 .
- تاريخ افريقيا الشمالية جزان لشارل أندري جوليان ترجم بمعية الاستاذ محمد مزالي ج 1 ـ1968 ج2 ـ1978
- المعمرون الفرنسيون وحركة الشباب التونسي لشارل أندري جوليان ترجمه بمعية الاستاذ محمد مزالي صدر سنة 1971 .
- « عائشة » رواية 1982 .

تخفيض خاص للقراء بتونس 10 ٪ من سعر الغلاف

الثمن 4.600 د . ت